

مسيرة العقل الديني العربي

من الجاهلية الى العلمانية

بحث تاريخي فكري موسع وموثق

حسن اسماعيل



الباحث في سطور

باحث وكاتب ومحامي سوري
عمل في مجال الصحافة والاعلام
له مؤلفات وبحوث عديدة منها :
العقل البشري وفلسفة القرآن
أتي أمر الله
محمد رسول الله
العقل الباطني الشيعي
الحكم والصراع السلطوي في الاسلام
نفحات روحانية
الاسلام في قفص الاتهام
بنية العقل السوري
مسيرة العقل الديني العربي

مَسِيرَةُ الْعَقْلِ الدِّينِيِّ الْعَرَبِيِّ

مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى الْعِلْمَانِيَّةِ

مُقَدِّمَةٌ وَمَدْخَلٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

I

هَذَا الْبَحْثُ هُوَ ضَمِنَ الْبُحُوثِ وَالذَّرَاسَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي خَصَّصْنَاهَا لِذِرَاسَةِ الْعَقْلِ الدِّينِيِّ الْعَرَبِيِّ وَقَدْ تَضَمَّنَ كِتَابَنَا الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ وَفَلَسَفَةَ الْقُرْآنِ فُضُولًا عَدِيدَةً تَتَنَاوَلُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَكِنِّ بِإِجَازٍ وَتُلْخِيصٍ نَظْرًا لِأَنَّ كِتَابَنَا الْمَشَارِإِيهٖ قَدْ تَتَنَاوَلُ مُنَاقَشَةَ وَذِرَاسَةَ الْعَدِيدِ مِنَ الْمَحَاوِرِ وَالْمَوَاضِيَعِ وَلَكِنِّي نَلَمُّ بِهَا جَمِيعًا فَكَانَ لِأَبَدٍ مِنْ عَمَلِي الْإِخْتِصَارُ وَالْإِقْتِصَابُ .

لِإِعْدَادِ بَحْثٍ يَتَنَاوَلُ مِنَ التَّاحِيَّتَيْنِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ مَسِيرَةَ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ يَتَوَجَّبُ إِعْطَاءَهُ حَقَّهُ وَالْإِلْمَامَ بِكُلِّ مَوَاضِيَعَةٍ وَجَوَانِبِهِ بِشَكْلِ مُوسَّعٍ وَمَوْثِقٍ لِذَلِكَ عَقَدْنَا الْعَزْمَ عَلَى إِجْزَازِ كِتَابِنَا هَذَا لِيَكُونَ خَاصًّا بِالْعَقْلِ الدِّينِيِّ الْعَرَبِيِّ وَتَطَوُّرِهِ مُنْذُ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ وَحَتَّى عَصْرِنَا الْحَاضِرِ .

2

يَتَنَاوَلُ هَذَا الْكِتَابُ الْمَرَاكِلَ التَّطَوُّرِيَّةَ وَالزَّمْنِيَّةَ الَّتِي مَرَّ بِهَا الْعَقْلُ الدِّينِيُّ الْعَرَبِيُّ وَيُعَدُّ مِنْ الْأُبْحَاطِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْمَوْضُوعِيَّةِ وَالتَّاقِدِهِ وَسَلَكْنَا الْمَنْهَجَ الْعِلْمِيَّ الْحَدِيثَ فِي الْبَحْثِ وَذَلِكَ لِيُعْطِيَ ثَمَارَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَاتَتَهُ

3

العلمية فإنَّ بحثنا الفكري الديني والفلسفي يجب أن يخضع لعملية غزبله وثقبة علمية وموضوعية فهذا الكم الهائل من الأنتاج الفكري الديني والفلسفي يجب أن لا يُترك دون مراجعة وثقبة بهدف الوصول إلى معرفة بنية العقل ذاته وتكوينه وأن الوصول إلى هذه النتيجة سيكشف لنا الكثير من الحقائق وفي نفس الوقت سيكشف الكثير من المغالطات والأخطاء والأسرار والتناقضات والتزوير والمدسوس .

نقول بصراحة أن دراسة وبحث هذا الكم الهائل من الأنتاج الفكري الديني خلال هذه الفترات الزمنية الغابرة لا يستطيع فرداً أو مجموعة أن يُجزه بل يحتاج إلى تخصيص هيئة علمية أكاديمية بخصه تضم عشرات بل مئات الباحثين والمؤرخين والمختصين نحن إذن نعي وتعلم حجم المهمة وكبرها وثقلها لذلك لا ندعي أو نتفاخر أو نتباهي بأننا نستطيع فعل ذلك أو جزءاً يسيراً منه .

أن جل مهمتنا وعملنا في بحثنا هذا هو مجرد محاولة علمية موضوعية لفهم إله ومنهجية وفلسفة كل مرحلة من مراحل تطوّر التفكير الديني عند العرب ووضع سمات عامة لكل مرحلة من هذه المراحل منذ العصر الجاهلي وحتى يومنا هذا إيماناً منا بأن لكل مرحلة خصوصيتها ورؤوسها وفلسفتها وهذا أمراً يُعتبر طبيعياً في ظل اختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفقهية من حيث الزمان والمكان فمثلاً العقل الديني العربي الجاهلي مختلفاً تماماً عن العقل الديني وتطوره في العهد النبوي وذلك بفعل النبوة والرسالة .

3

سنعيد مرة أخرى في كتابنا هذا البحث في مسألة أصل العرب وتسميتهم وجدورهم وتاريخهم وهي مسألة خلاقية مُرمّنة فلا زلنا إلى يومنا هذا مختلفين في قضية توزيع النسب العربي في شعب ثلاث

كَبِيرَةٌ عَرَبٌ بِإِثْمِهِ وَعَارِبُهُ وَمُسْتَعْرَبَةٌ وَلَا زَالَ الصَّرَاعُ عَلَى تَيْلٍ مَرْتَبَةِ الْعُرُوبَةِ الْعَارِبَةِ جَارِيًا بَيْنَ الْفَحْطَانِينَ
وَالْعَدْنَانِيِّينَ وَلَا زَلْنَا مُخْتَلِفِينَ فِي الْإِحَاقِ الْكَثِيرِ مِنَ الْأُمَمِ وَالْمَمَالِكِ الْغَابِرَةِ بِالنَّسَبِ الْعَرَبِيِّ وَلَا زَلْنَا مُخْتَلِفِينَ
فِي سَبَبِ التَّسْمِيَةِ وَمَنْ أَتَى جَاءَتْ كَلِمَةُ عَرَبٍ وَتَسْمِيَتُهُمْ وَأَيْنَ كَانَتْ مَرَاكِزُ تَجْمَعُهُمُ السُّكَّانِيَّةُ الْأُولَى
وَكَيْفَ اتَّشَرُوا وَتَوَرَّعُوا ؟

أَنَّ قَضَايَا النَّسَبِ وَالْإِتْمَاءِ وَالتَّصْنِيفِ وَالْمَرْجِعِيَّةِ هِيَ مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي تَوَاكَبُ تَطَوُّرَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ
وَبِالرَّغْمِ مِنْ دُخُولِ هَذَا الْمُجْتَمَعِ فِي عَالَمِ التَّحَضُّرِ وَالتَّمَدُّنِ فَلَا يَزَالُ مُجْتَمَعًا قَبْلِيًّا عِشَائِرِيًّا بِأَمْتِيَّازٍ نَكَادٍ
لِالنَّبِيِّ لَهُ مِثْلًا بَيْنَ الْأُمَمِ فِي الْوَقْتِ الرَّاهِنِ .

فَلَا زَالَ الْعَرَبُ يَتَوَرَّعُونَ دِيمُوغْرَافِيًّا عَلَى أَسَاسِ قَبْلِيِّ عِشَائِرِيٍّ وَلَا زَالُوا يَعْتَزُّونَ بِإِتْمَاءِ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ
وَالْعِشَائِرِيَّةِ وَيَتَفَاخَرُونَ بِهَا وَلَا عَرَابَةَ فِي ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِتْمَاءَ وَالْمَرْجِعِيَّةَ وَالتَّسَبُّبَ هِيَ مُكَوِّنَاتُ رَيْسٍ مِنْ
مُكَوِّنَاتِ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ وَالشَّخْصِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ .

لِذَلِكَ فَالْقَبِيلِيَّةُ وَالْعِشَائِرِيَّةُ لَا زَالَتْ لِلْأَسَفِ تَلْعَبُ دَوْرًا رَيْسِيًّا مُهِمًّا فِي الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ لِلْعَرَبِ الْيَوْمَ
وَيُحْسَبُ حِسَابَهَا فِي السِّيَاسَةِ وَالْاِقْتِصَادِ وَكُلِّ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْأُخْرَى حُذْمًا أَوْ نَهْمًا فِي
دَوْلِ عِدَّةٍ مِنْ بِلَادِنَا الْعَرَبِيَّةِ كَالسُّعُودِيَّةِ وَالْعِرَاقِ وَسُورِيَا وَالْأُرْدُنَّ وَدُخُولِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ قَاطِبَةً بَيْنَمَا تَرَى
قَضِيَّةَ الْمَرْجِعِيَّةِ تُفْرَضُ وَجُودُهَا فِي مُجْتَمَعَاتِ دَوْلِ الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ فَحَرْبِ الْإِتْمَاءِ وَالْمَرْجِعِيَّةِ تُفْرَضُ
وَجُودُهَا بَيْنَ أَنْصَارِ الْعُرُوبَةِ وَالْإِمَارِيَّةِ وَالْقَبِيلِيَّةِ وَالْمِصْرِيَّةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ .

هُنَاكَ قَضِيَّةٌ خِلَافِيَّةٌ أُخْرَى لَأَزَالُ الْجِدَالَ غَيْرَ مُحْسَمٍ فِيهَا وَهِيَ الْعَصْرُ الْجَاهِلِيُّ فَلَا زِلْنَا مُخْتَلِفِينَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَّتِهِ بِالْجَاهِلِيِّ وَمُخْتَلِفِينَ فِي مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ السَّائِدَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَهَلْ حَقًّا أَنْ الْعَرَبَ كَانُوا أُمِّيُونَ وَلِمَاذَا نَعْتَهُمُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِالْأُمِّيِّينَ وَوَصَفَ عَهْدَهُمْ بِالْجَاهِلِيِّ

أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ وَالنِّسَابَاتِ وَالْجِدَالَ الْمُسْتَمِرَّ سَبَبُهُ فِي اعْتِقَادِي عَدَمُ وُجُودِ دِرَاسَاتٍ وَبَحْثٍ عِلْمِيَّةٍ مُوَضَّوعِيَّةٍ جَدِيدَةٍ تَوْصِلُ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهِ وَدِرَايَةِ وَتَصَوُّرٍ حَقِيقِيٍّ لِتِلْكَ الْمَرْحَلَةِ الْمُهْمَةِ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ وَحَيَاتِهِمْ وَتَفْكِيرِهِمْ وَأَقُولُ لِلْأَسَفِ الشَّدِيدِ أَنَّنَا لَأَزِلْنَا نَقْنَعُ بِالصُّورَةِ وَالْمَشْهَدِ الَّذِي قَدَّمْتُمْ لَنَا الْكُتُبَ التَّرَاتِيْبِيَّةَ وَالْمُؤَرِّخِيْنَ الْقُدَامِيَّ عَنِ تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ وَهَذَا بِسَبَبِ الْكَسَلِ الْمَعْرِفِيِّ الْمَصَابَةِ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ .

سَنَحَاوِلُ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْوُصُولَ إِلَى تَصَوُّرٍ قَرِيبٍ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ حَالُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مُسْتَبْدِينَ فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى إِلَى نُصُوصِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِاعْتِبَارِهَا تَمَثُّلًا نُصُوصًا قَاطِعَةً وَصَادِقَةً لَا مَجَالَ لِلشَّكِّ وَالطَّلْعُنُ فِي صِحَّتِهَا وَمُصَدِّقَاتِهَا كَمَا أَنَّ الْبُحْثَ فِي كُتُبِ الْمُؤَرِّخِيْنَ الْقُدَامِيَّ الْيُونَانِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ سَيُفِيدُنَا فِي ذَلِكَ وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ لَا نُهْمِلُ كُلَّ مَا جَاءَ فِي كُتُبِ الْمُؤَرِّخِيْنَ الْعَرَبِ الْقُدَامِيَّ وَسُتَرَكَزَ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ الْبَحْثِ الْعِلْمِيَّةِ وَالِدِّرَاسَاتِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي تَنَاوَلَتْ دِرَاسَةَ تِلْكَ الْحِقْبَةِ مِنْ تَارِيخِ الْعَرَبِ .

5

أَنَّ حِقْبَةَ الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ نَعُدُّ مِنْ أَهَمِّ وَأَثْمَرِ الْعُهُودِ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ وَتَطَوُّرِهِمْ وَرَقِيهِمْ فَالرَّسَالَةُ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَى الرَّسُولِ الْعَرَبِيِّ الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْدَثَتْ ثَوْرَهُ وَأَنْقَلَبَا مُسْتَمِرًّا فِي حَيَاةِ الْعَرَبِ بَلْ وَفِي الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ وَإِلَى يَوْمِنَا هَذَا .

6

وَالسُّؤَالُ الَّذِي يُطْرَحُ نَفْسَهُ هُوَ : أَيْنَ تِلْكَ الْبُحُوثِ وَالِدِّرَاسَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْمَوْضُوعِيَّةِ الَّتِي تَتَاوَلَتْ دِرَاسَةَ
تِلْكَ الْحِقْبَةِ عَلَى ضَوْءِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ وَالْمُكْتَشَفَاتِ الْحَدِيثَةِ ؟

لِلْأَسْفِ وَمَا أَكْثَرَ تَأْسَفَنَا هُنَا لَا يُوجَدُ فَلَا زَالَ الْمَصْدَرُ الْوَحِيدَ الَّذِي نَأْخُذُ مِنْهُ مَعْلُومَاتِنَا وَعَلُومُنَا عَنْ
تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ هُوَ الْمَصْدَرُ وَالْمَرْجِعُ التَّرَاثِي وَالَّذِي تَمَّ تَدْوِينُهُ فِي عَامِ مَسِّي هِجْرِيَّةً تَقْرِيْبًا .

فَأَيْنَ لَنَا وَكَيْفَ نَجِدُ الْمَصَادِرَ وَالْمَرَاجِعَ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ تِلْكَ الْحِقْبَةِ دُونَ أَنْ نَجِدَ فِي رَوَايَاتِهَا الْكَثِيرِ مِنْ
الْغَلَطِ وَالتَّنَاقُضِ بَلْ وَالتَّرْوِيرِ وَالتَّخْرِيفِ ؟

لَا يُوجَدُ إِمَامِنَا سِوَى نُصُوصِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِسَبْرِ أَعْوَارِ تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْحَيَاةِ الْقَائِمَةِ فِيهَا
وَصَحِيحِ أَنْ كِتَابَ اللَّهِ لَيْسَ كِتَابَ تَارِيخٍ لِكَنَّهُ يَحْتَوِي عَلَى حَقَائِقٍ وَمَعْلُومَاتٍ تَارِيخِيَّةٍ صَادِقَةٍ وَصَحِيحَةٍ
لَا مَجَالَ لِلطَّنِّ بِصِدْقِهَا بِأَيِّ شَكْلِ مِنَ الْأَشْكَالِ كُلِّ مَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنَّا أَنْ نَسْتَخْلِصَ مَعْلُومَةَ تَارِيخِيَّةٍ مِنْ
النَّصِّ الدِّينِيِّ فَالْتَّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ غَنِيَّةً بِالْوَقَائِعِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ حَيَاةِ الْعَرَبِ وَعَنْ أَحْوَالِهِمْ
وَتَفَكِيرِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ بَلْ وَعَنْ أَصُولِهِمْ وَمَنْشَأَتِهِمْ .

فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ أَصْدَقُ وَأَبْلُ وَأَصَحُّ وَثِيْقَةٌ تَارِيخِيَّةٌ قَائِمَةٌ وَصَامِدَةٌ بَيْنَ أَيْدِينَا لِكِنَّا لِسَبَبٍ أَوْ لِأَخْرٍ
وَبِقَصْدٍ أَوْ بِدُونِ قَصْدٍ وَبِعِلْمٍ أَوْ بِجَهْلِ أَهْمَلْنَاهَا مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ أَيْضًا كَمَا تَمَّ إِهْمَالُ مَا فِيهَا مِنْ بَيَانِ
لِلدِّينِ الْحَنِيفِ وَاسْتَبَدَلْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ بِمَا قَالَهُ فَلَانٌ بِنِ فَلَانٍ عَلَى لِسَانِ عَلَانٍ بِنِ عَلَانٍ فَصَارَ تَارِيخِنَا بِرُمَّتِهِ
رَوَايَاتٍ يُرَادُ عَلَيْهَا فِي مَرْحَلَةٍ وَيُنْقَضُ مِنْهَا فِي مَرْحَلَةٍ أُخْرَى وَلَآنَ هَذِهِ الرِّوَايَاتُ قَدْ دُونَتْ بِدَوَائِعِ
سِيَاسِيَّةٍ وَمَالِيَّةٍ وَتَبَلِّيَّةٍ وَمَذْهَبِيَّةٍ لِذَلِكَ فَكَثُرَتْهَا مَغْلُوطٌ وَمُدَسَّوسٌ فِيهَا تَرْوِيرٌ وَدَسٌّ لَا يَخْفَى عَلَى بَاحِثٍ
وَنَاقِدٍ .

أَنَّ أَكْثَرَ الْعُصُورِ حَسَاسِيَّةً وَلَغَطًا وَإِنْتِجَا كَانَ مَا يُسَمَّى عَصْرَ التَّدْوِينِ فَهُوَ فِي اعْتِقَادِي أَمُّ عُصُورِ التَّارِيخِ
الْمَعْرِفِيِّ الْعَرَبِيِّ وَذَلِكَ لِعِدَّةِ أَسْبَابٍ :

أَوَّلُهَا : أَنَّهُ الْعَصْرُ الَّذِي دُونَ فِيهِ التَّسَبُّ الْعَرَبِيُّ وَظَهَرَتْ فِيهِ كُتُبُ الْأَنْسَابِ وَالتَّصْنِيفَاتِ وَالإِنْتِمَاءَاتِ
الْقَبَلِيَّةِ وَالْعَشَائِرِيَّةِ وَالَّتِي لَازَلَتْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا الْمَرْجِعُ الْوَحِيدُ لِلْمُؤَرِّخِينَ فِي هَذَا الشَّانِ .

ثَانِيهَا : هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي ظَهَرَتْ فِيهِ كُتُبُ تَدْوِينِ الْأَحَادِيثِ وَالسُّنَنِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ وَتَلَاهَا كُتُبُ الْفِقْهِ
وَمَاتَجَ عَنْهَا مِنْ تَشْكِيلِ الْمَذَاهِبِ الْفِقْهِيَّةِ وَعُلُومِ أَصُولِ الدِّينِ .

ثَالِثُهَا : أَنَّهُ الْعَصْرُ الَّذِي ظَهَرَتْ فِيهِ تَرَاجِمُ لِلْفَلَسَافَةِ الْيُونَانِيِّينَ وَبَدَأَ بَعْدَ زَالِ بَظْهُورِ مَا يُسَمَّى بِالْفَلَسَافَةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْفَلَسَافَةِ الْمُسْلِمِينَ وَهَذَا أَحْدَثَ ثَوْرَةً فِي طَبِيعَةِ التَّفْكِيرِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي كَانَ بِرُمَّتِهِ يَقُومُ عَلَى
مَرْجِعِيَّةِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَحَدَهُ فَاثْتِقَالَ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ لِكُتُبِ الْفَلَسَافَةِ الْيُونَانِيَّةِ لَيْسْتَمِدَّ مِنْهَا مَعْلُومَاتٌ عَنْ
الْخَلْقِ وَالْكَوْنِ وَالْإِنْسَانِ قَدْ تَنَاقَضَ مَعَ تِلْكَ الَّتِي كَانَ يَتَلَقَّاهَا مِنْ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ أَحْدَثَتْ خَلًّا
وَشَكًّا فِي فِطْرِيَّةِ الْإِعْتِقَادِ الدِّينِيِّ عَنِ الْعَرَبِ وَأَدْخَلَهُمْ فِي شَكٍّ وَجِدَالٍ حَوْلَ أَسَاسِيَّاتِ الْكَوْنِ وَالْخَلْقِ
وَأَدْخَلَهُمْ فِي مَتَاهَاتِ عُلُومِ النَّفْسِ وَالْمَنْطِقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ أَنْوَاعِ الْجِدَالِ الْمَعْرِفِيِّ .

لَدَلِكْ فَلَقَدْ أَطْلَقْنَا مُصْطَلَحَ عَصْرِ الْإِنْفِتَاحِ الْكَبِيرِ عَلَى تِلْكَ الْحِقْبَةِ فَهُوَ انْفِتَاحُ شُعُوبِي حَضَارِيٍّ مِنْ جِهَةٍ
كَمَا أَنَّهُ انْفِتَاحٌ فِكْرِيٌّ مَعْرِفِيٌّ مِنْ جِهَةٍ ثَابِتَةٍ لِذَلِكَ نَسْتَطِيعُ الْقَوْلَ أَنَّهُ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ بِالذَّاتِ تَمَّ وَضَعُ
الْبِنَاتِ الْأَوَّلِيَّةِ لِمَفَاهِيمِنَا الدِّينِيَّةِ وَالْفِقْهِيَّةِ الَّتِي تَتَحَكَّمُ فِيهَا الْيَوْمَ بِمَا تَبَيَّنَتْ عَنْهَا مِنْ طَوَائِفِ وَمَذَاهِبٍ .
مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ وَالتَّوَاحِي كُلِّهَا تَأْتِي أَهْمِيَّةٌ دِرَاسَةٌ وَبَحْثٌ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْحَسَّاسَةَ وَالْمُهْمَّةَ وَسَتُحَاوَلُ
وَبُذِلَ جُهْدًا كَبِيرًا فِي كِتَابِنَا هَذَا لِوَضْعِ تَصَوُّرٍ فِكْرِيٍّ تَارِيخِيٍّ مَعْرِفِيٍّ عَنِ تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ بِحَسَنَاتِهَا
وَسَيِّئَاتِهَا وَتَوَائِحِهَا الَّتِي لَارْتْنَا تَعَانِي مِنْهَا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا .

7

كَمَا يَتَوَجَّبُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ فِي صَدَدِ بَحْثِنَا وَدِرَاسَتِنَا لِمَسِيرَةِ الْعَقْلِ الدِّينِيِّ الْعَرَبِيِّ فِي مَرَاكِحِهِ الْمُخْتَلِفَةِ أَنْ
نُفَرِّقَ مَا بَيْنَ النَّتَاجِ الْعَقْلِيِّ الْعَرَبِيِّ الْخَالِصِ وَالنَّتَاجِ الْفِكْرِيِّ الْإِسْلَامِيِّ فَكَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَالْفُقَهَاءِ
وَالفلاسفةِ وَالْمُؤَرِّخِينَ هُمْ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ فَمِنْهُمْ الْفَارِسِيُّ وَالْأَذْرَبِيْجَانِيُّ وَالتَّرْكَمَنَسَانِيُّ وَالْهِنْدِيُّ وَغَيْرِهِمْ
فَدِرَاسَتِنَا هَذِهِ تَقُومُ عَلَى أُسَاسِ (عِرْقِيٍّ جِنْسِيٍّ) وَنَيْسِ (لُغَوِيٍّ ثَقَافِيٍّ) فَتَحْنُ نُورِخُ لِنَّتَاجِ عَقْلِ
دِينِيٍّ عَرَبِيٍّ خَالِصٍ وَنَيْسِ لِنَّتَاجِ ثَقَافَةِ إِسْلَامِيَّةٍ فَالْمُفَسِّرِينَ وَالْمُؤَرِّخِينَ وَالفلاسفةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ
وَالَّذِي تَحْتَوِي الْمَكْتَبَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَالْإِسْلَامِيَّةُ عَلَى الْكَثِيرِ وَالْكَثِيرِ مِنْ كُتُبِهِمْ وَإِبْدَاعَاتِهِمْ وَفَلَسَفَتِهِمْ وَفَقَهَتِهِمْ هُمْ
مُتَقَفُونَ مُسْلِمُونَ كَتَبُوا بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ فِي مَسَائِلِ فِقْهِيَّةٍ وَدِينِيَّةٍ إِسْلَامِيَّةٍ لِذَلِكَ فَتَحْنُ قَدْ اسْتَبَعَدْنَا هُمْ مِنْ
مَحَاوِرِ بَحْثِنَا هَذَا فَالْحَدِيثُ لَيْسَ عَنِ الْعَقْلِ الدِّينِيِّ الْإِسْلَامِيِّ بَلِ الْعَرَبِيِّ وَلِأَنَّ الثَّقَافَتَيْنِ الْعَرَبِيَّةَ وَالْإِسْلَامِيَّةَ
وَجِهَانِ لِعَمَلِهِ وَاحِدَةٌ فَلَا يُمَكِّنُ فَضْلُ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنِ الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَكُلُّ نِتَاجِ الْعَقْلِ الدِّينِيِّ الْعَرَبِيِّ
هُوَ إِسْلَامِيٌّ الْمُحْتَوِيُّ وَلَهُ خُصُوصِيَّةٌ مُسْتَقَلَّةٌ خَاصَّةٌ عَنْوَاتُهَا الْإِنْتِمَاءُ وَاللِّسَانُ وَالثَّقَافَةُ وَالْمَكَانُ .

يَجِبُ أَنْ نُشِيرَ وَنُوضِحَ إِلَى نُقْطَةِ هَامَةٍ وَحَيَوِيَّةٍ قَدْ تُبِيرُ السَّأُولَ عِنْدَ الْبَعْضِ وَلَقَدْ بَيَّنَّا فِي كِتَابِنَا هَذَا
وَهِيَ ضَرُورَةٌ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الدِّينِ نَفْسِهِ وَبَيْنَ الْعَقْلِ الدِّينِيِّ الَّذِي يَجْعَلُهُ مَحَلًّا مَعْرِفِيًّا لَهُ .

فَالَّذِينَ كَمَا هُوَ مُعَلِّمٌ وَمَعْرُوفٌ هُوَ الْمَنْهَجُ وَالرَّسَالَةُ وَالشَّرْعَةُ أَوْ الشَّرِيعَةُ وَالَّذِي فَصَلَتْ أَحْكَامَهُ فِي الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ بَيِّنَاتٌ قَاطِعَةٌ الدَّلَالَةَ وَالْأَحْكَامَ وَهِيَ بِذَلِكَ مُقَدَّسَةٌ مَصُونَةٌ بِاعْتِبَارِهَا ذَاتِ مَصْدَرٍ إِلَهِيِّ
خَالِصٍ فَلَا يُمَكِّنُ لِكَائِنٍ مَنْ كَانَ الْحَقُّ فِي الطَّغْنِ أَوْ الْبَحْثِ فِي شَرْعِيَّةٍ مَصْدَرُهَا وَقُدْسِيَّةٍ مِنْ جِهَةٍ
وَالرَّائِيَّةِ أَحْكَامُهَا مِنْ جِهَةٍ ثَابِتَةٍ .

أَمَّا الْمَقْصُودُ مِنَ الْعَقْلِ الدِّينِيِّ فَهُوَ الْعَقْلُ الَّذِي يَنْسَرُ التُّصُوصَ وَالْآيَاتِ وَيُسْتَخْرَجُ مِنْهَا الْأَحْكَامَ وَيُجْعَلُ
مِنْهَا مَحَلًّا وَمَوْضِعًا لِاسْتِخْرَاجِ وَاسْتِثْبَاتِ الْمَفَاهِيمِ وَالْقِيَمِ كُلِّ هَذِهِ الْأَفْعَالِ تَتَعْتَقُ تَحْتِ مَفْهُومِ الْجَاهِدِ
فَالْمُجْتَهِدُ هُوَ الَّذِي يُحَاوِلُ اسْتِخْرَاجَ الْفُرُوعِ مِنَ الْأَصُولِ وَالْقَوَاعِدِ مِنَ الْأَسَاسِيَّاتِ وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَبَاجِهَ
لَا يَكْتَسِبُ صِفَةَ الْقُدْسِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ وَهُوَ قَابِلٌ لِلتَّنَاقُشِ فِيهِ وَالْأَخْذِ وَالرَّدِّ مِنْ جِهَةٍ ثَابِتَةٍ وَقَدْ يُصِيبُ
الْمُجْتَهِدَ وَيُحْطَأُ مِنْ جِهَةٍ ثَالِثَةٍ .

وَلِأَنَّ الْمُجْتَهِدَ مَحْكُومٌ بِتَوَابِتِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ اللَّذَانِ يُصْبِغَانِ عَلَى الْمُجْتَهِدِ أَوْضَاعًا مُبَدَّلَةً وَمُتَغَيِّرَةً
وَمُخْتَلِفَةً لِذَلِكَ تَرَى هَذَا التَّضَارُبَ وَالتَّنَاقُضَ فِيمَا يَصْدُرُ عَنِ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْ أَحْكَامٍ وَقَتَاوَى وَغَيْرِ ذَلِكَ
وَهَذَا كَانَ السَّبَبُ الرَّئِيسُ فِي نَشُوءِ الْفُرُقِ وَالْمِلَلِ وَالطَّوَائِفِ وَالْمَذَاهِبِ .

لِدَلِكِ نَرَى أَنَّهُ فِي مَسِيرِهِ التَّارِيخِ الدِّينِيِّ الْإِسْلَامِيِّ فَإِنَّ التُّصَوِّصَ الْمُقَدَّسَةَ لَمْ تَتَّعَيَّرْ أَوْ تَبَدَّلَ وَهِيَ قَابِلَةٌ
لِلتَّعَايُشِ مَعَ كُلِّ زَمَانٍ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ لَكِنَّ الَّذِي تَتَّعَيَّرُ وَتَبَدَّلُ وَهُوَ دَائِمًا يُحَافِظُ عَلَى هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْمُبَدَّلَةِ
الْمُتَّعَيَّرَةِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمُتَنَاقِضَةِ أَحْيَانًا هُوَ الْعَقْلُ الدِّينِيُّ .

9

جَاءَ فِي عِنْوَانِ هَذَا الْكِتَابِ مِنْ أَنَّ هَذَا الْبَحْثَ عَدَا عَنْ كَوْنِهِ مُوسَعًا فَهُوَ مُوثَقًا وَعَمِلَ التَّوْثِيقُ هُنَا
تَطْلُبُ مِنَّا تَبْوِيبَ وَفَهْرَسَةَ الْأَدِلَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي أوردْنَاهَا لِذَعْمِ مُصَدَّقِيَةِ الْبَحْثِ وَنَزَاهَتِهِ وَمَوْضُوعِيَتِهِ .
عَدَا عَنْ ذَلِكَ فَلَقَدْ عَمَلْنَا عَلَى إِخْرَاجِ هَذَا الْعَمَلِ وَتَوْضِيهِ بِطَرِيقِهِ حَرْفِيَّةً أَكَادِمِيَّةً لِكِنِّي نَعْمَ فَانْدَتُهُ
وَيَنْتَفِعُ مِنْهُ وَيُضِيحُ هُوَ ذَاتَهُ مُصَدَّرًا مِنْ الْمَصَادِرِ الْمُعْرِفِيَّةِ نَدْعُمُ بِهِ مَكْتَبَتُنَا الْعَرَبِيَّةَ وَالْإِسْلَامِيَّةَ الْغَنِيَّةَ بِمِثْلِ
هَذِهِ الْبَحْثِ وَالْمُؤَلَّفَاتِ .

أَنَّ غَايَتَنَا وَمُرَادُنَا مِنْ وَرَاءِ عَمَلِنَا هَذَا وَسَائِرِ أَعْمَالِنَا الْبَحْثِيَّةِ الْأُخْرَى هُوَ وَجْهُ اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ لَا نُرِيدُ
عَلَيْهِ أَجْرًا وَلَا شُكْرًا وَلَا حَمْدًا بَلْ نُرِيدُ التَّمَعُّنَ وَالتَّعَمُّقَ فِي دِرَاسَتِهِ لِلْكَشْفِ عَنْ أَفْكَارٍ قِيَمَةٍ وَحَقَائِقِ
مَوْضُوعِيَّةٍ جُنَّتْ بِهَا وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ الْكَشْفِ عَنِ الْأَخْطَاءِ وَالْمَلَابَسَاتِ الَّتِي وَقَعْنَا بِهَا مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ كُلَّ
أَعْمَالِنَا كَانَتْ مُسْتَعْجِلَةً وَكَانَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى تَدْقِيقِهَا نَحْوِيًّا وَلُغَوِيًّا وَتَعَرِّفَ بِأَنَّ لِسْنَا مُخْتَصِّينَ فِي نَحْوِ
وَقَوَاعِدِ وَإِمْلَاءِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

أَنَّ هَذِهِ الْمَتَطَلَّبَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَالتَّحْوِيلِيَّةِ ضَرُورِيَّةٌ جَدًّا وَخَاصَّةً إِذَا أُتِيحَ يَوْمًا مَا لِكِتَابِنَا وَبَحْثِنَا إِمْكَانِيَّةٌ
طَبَاعَتِهَا وَرُقِيًّا لِكِنَّا وَكَمَا ذَكَرْنَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ فَإِنَّ ظُرُوفَنَا الْمَالِيَّةِ لَا تَسْمَحُ لَنَا بِذَلِكَ فَعَمَدْنَا إِلَى إِخْرَاجِ

هَذِهِ الْكُتُبُ بِصِيْفِهِ الْكُتُبِ الْإِلِكْتِرَوِيَّةِ وَرَفَعْنَا هَا عَلَيِ الْعَدِيدِ مِنَ الْمَوَاقِعِ وَدُورِ التَّشْرِ الْإِلِكْتِرَوِيَّةِ لِتَحْمِيلِهَا
وَاقْتِنَاءِهَا مَجَّانًا .

تَرْجُو مِنْ اللّٰهِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ أَنْ تَكُونَ أَعْمَالِنَا نَافِعَةً تَعَزُّزِ اعْتِقَادِنَا وَعَقِيدَتِنَا فِي نَهْمَسِنَا وَتَسَاهِمُ فِي الرَّدِّ
عَلَى الْمَشْكِكِينَ فِي دِينِنَا أَوْ الطَّاعِينَ فِي شَرِيْعَتِنَا وَمُعْتَقِدُنَا .

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَي سَيِّدِنَا وَرَسُولِنَا وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَأَنْ أُخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

حَسَنُ إِسْمَاعِيلَ

أيار 2024

العَرَب

التَّسْمِيَّةُ وَالْإِنْتِمَاءُ وَاللُّفَّةُ وَالْمَكَانُ

العرب هم بنو إسماعيل الذين خصهم الله ببيته الحرام وأسكنهم فيه في ظروف لا يتحملها بشر أنبياء
الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أعادوا بناء الكعبة المشرفة ودعوا الناس للحج إليها من ذريتهما
خرج آخر الأنبياء والرسل وبلسان إسماعيل عليه السلام نزل القرآن الكريم كاملاً تاماً للناس جميعاً .
وهم لم يستعربوا كما تدعي كتب النسب الأولى فما كان قبلهم عرباً لسانهم العربي الفصح المبين تفق به
لسان أبيهم إسماعيل عليه السلام أما سبب تسميتهم عرباً ومتى عرفوا وأين سكنوا وكيف اتشروا
وما هي عقائدهم وأديانهم وكيف كان حالهم حين جاءتهم الرسالة السماوية وكيف تعاملوا معها علينا أن
نجيب على هذه الأسئلة وغيرها في هذا البحث .

البحث في تاريخ العرب تسميتهم ونسبهم وقبائلهم وجغرافيتهم هو بحث تاريخي لذلك فمن البديهي هنا
أن يكون مرجعنا المصادر والمراجع التاريخية وخاصة تلك التي تحدثت عن عصر ما قبل الإسلام
العصر الجاهلي وعليه فإننا سنعمد على طريقة كشف الأدلة وبيانها من مراجعها الأصلية دون أي
تدخل أو تعليق أثناء سردها ولقد اخترنا مرجعين رئيسين نستغني بهما عن مئات المصادر والمراجع
أولهما كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي وهو كتاب متخصص في دراسة
حالة العرب قبل الإسلام ويستند على مئات المراجع والمصادر العربية والأجنبية وثانيهما كتاب في
الشعر الجاهلي لطفه حسين المعروف بكونه عميدا للأدب العربي والضلع في اللغة العربية ومصادرهما
وأخيراً ماجاء في بعض المصادر والمراجع بمواضيع تتعلق بتاريخ العرب ونسبهم .

بعد ذلك لابد لنا أن نستخرج من القرآن الكريم الأدلة التي نراها تدعم النتائج التاريخية التي توصلنا إليها
في معرض حديثنا وبحثنا عن العرب وأصولهم وأحوالهم .

1 المَفْصَلِ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

الدكتور جَوَادُ عَلِيّ

يَقُولُ جَوَادُ عَلِيّ فِي كِتَابِهِ الْمَفْصَلِ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ

(وَإِذَا مَا سَأَلْتَنِي عَنْ مَعْنَى لَفْظِهِ (عَرَبٌ) عِنْدَ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَإِنِّي أَقُولُ لَكَ :

ان لِعُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ آرَاءٌ فِي الْمَعْنَى ، تَجِدُهَا مَسْطُورَةً فِي كُتُبِ اللُّغَةِ وَفِي الْمَعْجَمَاتِ وَلَكِنَّهَا كُلُّهَا مِنْ تَوْعِ
الْبَحْثِ الْمَالُوفَةِ الْمُبْنِيَّةِ عَلَى أَقْوَالٍ وَآرَاءٍ لَا تَعْتَمِدُ عَلَى نُصُوصِ جَاهِلِيَّةٍ وَلَا عَلَى دِرَاسَاتٍ عَمِيقَةٍ
مُقَارَنَةٍ ، وَضَعَتْ عَلَى الْحَدْسِ وَالتَّخْمِينِ ، وَبَعْدَ حَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ فِي إِيجَادِ تَغْلِيلٍ مَقْبُولٍ فَقَالُوا مَا قَالُوهُ مِمَّا
هُوَ مَذْكُورٌ فِي الْمَوَارِدِ اللُّغَوِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَفِي طَلِيعَتِهَا الْمَعْجَمَاتُ وَكُتُبُ الْأَدَبِ . وَكُلُّ آرَائِهِمْ فِي
تَفْسِيرِ .

اللَّفْظَةِ وَفِي مُحَاوَلَةِ إِيجَادِ أَضْلَاهَا وَمَعَانِيهَا ، هُوَ إِسْلَامِيّ ، دُونَ فِي الْإِسْلَامِ ؛ (عصر التدوين) . وَتَرَى
عُلَمَاءَ الْعَرَبِيَّةِ حَيَارَى فِي تَعْيِينِ أَوَّلِ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ ، فَبَيْنَمَا يَذْهَبُ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ يَعْزِبُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ
أَعْرَبَ فِي لِسَانِهِ وَتَكَلَّمَ بِهَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، وَلِذَلِكَ عُرِفَ هَذَا اللِّسَانُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، تَرَاهُمْ يَجْعَلُونَ
الْعَرَبِيَّةَ لِسَانَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَلِسَانَ آدَمَ ، أَيُّ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَهْدَهَا إِلَى مَبْدَأِ الْخَلِيقَةِ ، وَقَدْ كَانَتْ الْخَلِيقَةُ
قَبْلَ خَلْقِ (يَعْرَب) بِالطَّبَعِ بِزَمَانٍ طَوِيلٍ . ثُمَّ تَرَاهُمْ يَقُولُونَ : أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَنَسِيَ لِسَانَ أَبِيهِ

1I المَفْصَلِ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ لِلدكتور جَوَادِ عَلِيّ . الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ . 1993

2 نفس المصدر

إِسْمَاعِيلُ . أَلِهَمَّ إِسْمَاعِيلُ هَذَا اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ إِلهَامًا . وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَتَقَ لِسَانَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبَيَّنَّةِ ، وَهُوَ
ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً "وَإِسْمَاعِيلُ هُوَ جَدُّ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ .

وَالْفَحْطَانِيُّونَ الْقَائِلُونَ أَنَّ يُعْرَبَ هُوَ جَدُّ الْعَرَبِيَّةِ وَمُوجِدُهَا ، عَاجِزُونَ عَنِ التَّوْفِيقِ بَيْنَ رَأْيِهِمْ هَذَا وَرَأْيِهِمْ
فِي أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ قَدِيمَةٌ قَدِيمَ الْعَالَمِ ، وَأَنَّهَا لُغَةُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ ، ثُمَّ هُمْ عَاجِزُونَ أَيْضًا عَنِ بَيَانِ كَيْفَ كَانَ
لِسَانَ أَجْدَادِ (يُعْرَبُ) ، وَكَيْفَ اهْتَدَى (يُعْرَبُ) إِلَى اسْتِبْطَاطِهِ لِهَذِهِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَكَيْفَ تَمَكَّنَ مِنْ
إِبْجَادِهَا وَخَدَهُ مِنْ غَيْرِ مُؤَازِرٍ وَلَا مُعْتَنٍ ؟ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْئَلَةٍ لَمْ يَكُنْ يُفْطِنُ لَهَا أَهْلُ الْأَخْبَارِ فِي
ذَلِكَ الزَّمَنِ . وَلِلْأَخْبَارِيِّينَ بَعْدَ كَلَامٍ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ طَوِيلٌ ، الْأَشْهُرُ مِنْهُ الْقَوْلَانِ الْمَذْكُورَانِ ، وَوَقَفَ
الْبَعْضُ بَيْنَهُمَا بِأَنَّ قَالُوا : أَنَّ (يُعْرَبُ) أَوَّلَ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ الْخَالِصَةِ
الْحِجَازِيَّةِ الَّتِي أَنْزَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنَ .

أَمَّا الْمُسْتَشْرِقُونَ وَعُلَمَاءُ التَّوْرَةِ الْمُحَدِّثُونَ ، فَقَدْ تَبَعُوا تَارِيخَ الْكَلِمَةِ ، وَتَبَعُوا مَعْنَاهَا فِي اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ
، وَبَحَثُوا عَنْهَا فِي الْكِتَابَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي كِتَابَاتِ الْأَشُورِيِّينَ وَالْبَابِلِيِّينَ وَالْيُونَانِ وَالرُّومَانِ وَالْعِبْرَانِيِّينَ
وغيرِهِمْ ، فَوَجَدُوا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ نَصَّ وَرَدَّتْ فِيهِ لَفْظَةٌ (عَرَبٌ) هُوَ نَصُّ أَشُورِيِّ مِنْ أَيَّامِ الْمَلِكِ (شَلْمَنْصَرِ
الثَّالِثِ) (الثَّانِي ؟) مَلِكِ أَشُورٍ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ لَفْظَةَ (عَرَبٌ) لَمْ تَكُنْ تَعْنِي عِنْدَ الْأَشُورِيِّينَ مَا تَعْنِيهِ
عِنْدَنَا مِنْ مَعْنَى ، بَلْ كَانُوا يُقْصِدُونَ بِهَا بَدَاوَهُ وَإِمَارَةَ (مَشِيخَةَ) كَانَتْ تَحْكُمُ فِي الْبَادِيَةِ الْمَتَاخِمَةِ
لِلْحُدُودِ الْأَشُورِيَّةِ ، كَانَ حُكْمُهَا يُوسِّعُ وَيَتَقَلَّصُ فِي الْبَادِيَةِ تَبَعًا لِلظُّرُوفِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْقُوَّةِ شَخْصِيَّةِ
الْأَمِيرِ ، وَكَانَ يُحْكَمُهَا أَمِيرٌ يُلقَّبُ نَفْسَهُ بِلقبِ مَلِكٍ ، يُقَالُ لَهُ (جَنْدِيو) أَيْ (جُنْدُب) وَكَانَتْ صَلَاتُهُ
سِيَّئَةً بِالْأَشُورِيِّينَ . وَلَمَّا كَانَتْ الْكِتَابَةُ الْأَشُورِيَّةُ لَا تُحْرَكُ الْمُقَاتِعُ صَعُبَ عَلَى الْعُلَمَاءِ ضَبْطُ الْكَلِمَةِ ،

فَاخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَّةِ الْمُنْطِقِ بِهَا ، فَفُرِّتْ : (Aribi) و (Aruba) و (Aribu) و (Arab) و)
 (Arabi) و (Urbi) و (Arbi) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ قِرَاءَاتٍ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ صِيغَةَ (Urbi) كَانَتْ مِنْ
 الصِّيغِ الْقَلِيلَةِ الِاسْتِعْمَالِ ، وَيَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّهَا اسْتُعْمِلَتْ فِي زَمَنِ مُتَأَخَّرٍ ، وَأَنَّهَا كَانَتْ بِمَعْنَى (إِعْرَابِ
) عَلَى نَحْوِ مَا يُتَّصَدُّ مِنْ كَلِمِي (عَرَبِيٌّ) و (أَعْرَبِيٌّ) فِي لَهْجَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَهِيَ تَقَابُلُ كَلِمَةِ
 (عَرَبٌ) الَّتِي هِيَ مِنْ الْكَلِمَاتِ الْمَتَأَخَّرَةِ كَذَلِكَ عَلَى رَأْيِ بَعْضِ الْمُسْتَشْرِقِينَ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّ
 الْأَشُورِيِّينَ كَانُوا يُتَّصَدُّونَ بِكَلِمَةِ (عَرَبِيٌّ) عَلَى اخْتِلَافٍ أَشْكَالِهَا بَدْءُوهَ وَمَشِيخَةَ كَانَتْ تَحْكُمُ فِي
 أَيَّامِهِمُ الْبَادِيَةَ تَمَيِّزًا لَهَا عَنْ قَبَائِلِ أُخْرَى كَانَتْ مُسْتَقَرَّةً فِي تَحُومِ الْبَادِيَةِ وَوَرَدَتْ فِي الْكُتُبَاتِ الْبَابِلِيَّةِ
 جُمْلَةً (ماتوآربي) (Matu Arabai) وَمَعْنَى ماتوآمو (أَرْضُ) ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى (أَرْضُ عَرَبِيٌّ) ،
 أَي (أَرْضُ الْعَرَبِ) ، أَوْ (بِلَادِ الْعَرَبِ) ، أَوْ (الْعَرَبِيَّةُ) ، أَوْ (بِلَادِ الْإِعْرَابِ) بِتَعْبِيرٍ أَصْدَقٍ وَأَصَحِّ .
 إِذْ قَصْدُهَا الْبَادِيَةُ ، وَكَانَتْ تَحْمَلُ بِالْإِعْرَابِ . وَجَاءَتْ فِي كِتَابِهِ (بهستون) (بيستون)
 (Behistun) لَذَا الْكَبِيرِ (دَارِيوسُ أَرِبَايَةُ عَرَبَايَةُ) (Arabaya) ؛ وَذَلِكَ فِي النَّصِّ الْفَارِسِيِّ
 الْمَكْتُوبِ بِاللُّغَةِ (الْأَخْمِينِيَّةِ) ، وَلَفْظُهُ Arpaya فِي النَّصِّ الْمَكْتُوبِ بِلَهْجَةِ أَهْلِ السُّوسِ (Susiana)
 (Susian) وَهِيَ اللَّهْجَةُ الْعِيلَامِيَّةُ لُغَةُ عِيلَامِ . وَمُرَادُ الْبَابِلِيِّينَ أَوْ الْأَشُورِيِّينَ أَوْ الْفَرَسِ مِنْ (الْعَرَبِيَّةِ) أَوْ
 بِلَادِ الْعَرَبِ) ، الْبَادِيَةُ الَّتِي فِي غَرْبِ نَهْرِ الْفُرَاتِ الْمُمْتَدَّةِ إِلَى تَحُومِ بِلَادِ الشَّامِ .³
 وَقَدْ ذَكَرَتْ (الْعَرَبِيَّةُ) بَعْدَ أَشُورِ وَبَابِلِ وَقَبْلَ مِصْرَ فِي نَصِّ (دَارَا) الْمَذْكُورِ ، فَحَمَلَ ذَلِكَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ
 عَلَى إِدْخَالِ طُورِ سَيْنَاءَ فِي جُمْلَةِ هَذِهِ الْأَرْضِينَ . وَقَدْ عَاشَتْ قَبَائِلُ عَرَبِيَّةٍ عَدِيدَةٌ فِي مَنْطِقِهِ سَيْنَاءَ
 قَبْلَ الْمِيلَادِ وَبِهَذَا الْمَعْنَى أَيَّ مَعْنَى الْبَدَاوَةِ وَالْأَعْرَابِيَّةِ وَالْجَنَافِ وَالْقَفْرِ ، فِي الْعِبْرَانِيَّةِ وَفِي لُغَاتِ سَامِيَّةِ

³ - نفس المصدر

أُخْرَى . وَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ لَفْظَةَ (عرب) فِي تِلْكَ اللُّغَاتِ الْمُتَقَارِبَةِ هُوَ الْبَدَاوَةُ وَحَيَاةُ الْبَادِيَةِ ، أَيْ
بِمَعْنَى (إِعْرَابٍ) وَإِذَا رَاجَعْنَا الْمَوَاضِعَ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا كَلِمَةُ (عَرَبِيٌّ) وَ (عَرَبٌ) فِي التَّوْرَةِ الْمَعْنَى
تَمَامًا . فَفِي كُلِّ الْمَوَاضِعِ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا فِي سَفَرِ (أَشْعِيَاءَ) مِثْلًا نَرَى أَنَّهَا أُسْتُعْمِلَتْ بِمَعْنَى بَدْءِ
وَأَعْرَابِيَّةٍ ، كَالَّذِي جَاءَ فِيهِ : (وَلَا يَخِيمُ هُنَاكَ أَعْرَابِيٌّ) وَ (وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ بِلَادِ الْعَرَبِ ، فِي الْوَعْرِ فِي
بِلَادِ الْعَرَبِ تَبَيَّنَ يَا قَوَافِلَ الدَّدَانِيِّينَ) فَتَقْصِدُ بِلَفْظَةِ (عَرَبٌ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ الْبَادِيَةَ مَوْطِنَ الْعُرْلَةِ
وَالْوَحْشَةَ وَالْخَطَرَ ، وَلَمْ يَقْصِدْ بِهَا قَوْمِيَّةً وَعِلْمِيَّةً لِمَجْلِسٍ مُعَيَّنٍ بِالْمَعْنَى

وَبِهَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا وَرَدَتْ فِي (إِرْمِيَا) ، فِي الْآيَةِ (وَكُلُّ مَلُوكِ الْعَرَبِ) الْوَارِدَةِ فِي الْإِصْحَاحِ الْخَامِسِ
وَالْعِشْرِينَ ، تَعْنِي لَفْظُهُ وَالْعَرَبُ : « الْأَعْرَابِيُّ » ، أَيْ وَعَرَبٌ الْبَادِيَةُ . وَالْمُرَادُ مِنْ : وَكُلُّ مَلُوكِ
الْعَرَبِ ، وَكُلُّ رُؤَسَاءِ لَأ مَلُوكِ مَدَنٍ وَحُكُومَاتٍ . ، رُؤَسَاءِ قَبَائِلٍ وَمَشَائِخِ مَشَائِخِهِمْ . وَأَمَّا الْآيَةُ : فِي
الطَّرِيقَاتِ جَلَسَتْ لَهُمْ كَأَعْرَابِيٍّ فِي الْبَرِّيَّةِ ، فَإِنَّهَا وَاضِحَةٌ ، الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي (أِرْمِيَا) . وَالْمُرَادُ بِهَا
أَعْرَابِيٌّ مِنَ الْبَادِيَةِ ، لَا حَضْرِيٌّ أَهْلُ الْحَاضِرَةِ . فَالْمَفْهُومُ إِذْنًا لَفْظُهُ (عَرَبٌ) (فِي إِصْحَاحَاتِ (إِرْمِيَا)
إِنَّمَا هُوَ الْبَدَاوَةُ وَالْبَادِيَةُ وَالْأَعْرَابِيَّةُ لَيْسَ غَيْرُ وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هَذَا الرَّأْيَ وَرُودَ (هَا عَرَابَةُ Araba) (فِي
الْعِبْرَانِيَّةِ ، وَيُرَادُ بِهَا مَا يُقَالُ لَهُ : (وَادِي الْعَرَبَةِ) ، أَيْ الْوَادِي الْمُسْتَدَمُّ مِنَ الْبَحْرِ الْمَيِّتِ أَوْ مِنْ بَحْرِ الْجَلِيلِ
إِلَى خَلِيجِ الْعَقَبَةِ . وَتَعْنِي لَفْظُهُ (عَرَابَةُ) فِي الْعِبْرَانِيَّةِ الْجَفَافِ وَحَافَةَ الصَّخْرَاءِ وَأَرْضَ مَحْرُوقَةَ ، أَيْ⁴
مَعَانِي ذَاتِ صِلَةٍ بِالْبَدَاوَةِ وَالْبَادِيَةِ . وَقَدْ أَقَامَتْ فِي هَذَا الْوَادِي قَبَائِلٌ بَدْوِيَّةٌ شَمَلَتْهَا لَفْظُهُ (عَرَبٌ) .

وَفِي تَقَارِبِ لَفْظِهِ (عَرَبٌ) وَ (عَرَابَةُ) ، وَتَقَارِبِ مَعْنَاهُمَا ، دَلَالَةٌ عَلَى الْأَصْلِ الْمُشْتَرَكِ لِلْفِظَتَيْنِ . وَيُعَدُّ

⁴ نفس المصدر

وَادِي (الْعَرَبَةِ) وَكَذَلِكَ (طُورِ سَيْنَاءَ) فِي بِلَادِ الْعَرَبِ . وَقَصَدَ بـ (الْعَرَبِيَّةِ) بُرْنَهُ سُورِيَّةَ فِي (رِسَالَةِ الْقَدِيسِ بُولَسِ إِلَى أَهْلِ غَلَاطِيَّةِ) .

وَقَدْ عُرِفَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ هَذِهِ الصَّلَةَ بَيْنَ كَلِمَةِ (عَرَبٌ) وَ (عَرَابَةٌ) أَوْ (عَرَبَةٌ) ، فَقَالُوا : (أَنَّهُمْ سُمُّوا عَرَبًا بِاسْمِ بِلَدِهِمُ الْعَرَبَاتِ . وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ الْفَرِجِ : عَرَبَةٌ بَاحَةٌ الْعَرَبِ ، وَبَاحَةٌ دَارُ أَبِي الْفَصَّاحَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ . وَقَالُوا : (وَأَقَامَتْ قُرَيْشٌ بَعْرَةَ فَتَنَحَتْ بِهَا ، وَاتَّشَرَّ سَائِرُ الْعَرَبِ فِي جَزِيرَتِهَا ، فَنُسِبُوا كُلُّهُمْ إِلَى عَرَبَةٍ ، لِأَنَّ آبَاءَهُمْ إِسْمَاعِيلَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَوْلَادِهِ فِيهَا فَكَثُرُوا فَلَمَّا لَمْ يَحْتَمِلْهُمُ الْبِلَادُ ، اتَّشَرُّوا ، وَأَقَامَتْ قُرَيْشٌ بِهَا " .

وَيَرَى بَعْضُ عُلَمَاءِ التَّوْرَةِ أَنَّ كَلِمَةَ (عرب) إِنَّمَا شَاعَتْ وَاتَّشَرَّتْ عِنْدَ الْعِبْرَانِيِّينَ بَعْدَ ضَعْفِ الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ) وَتَدَهْوَرُهُمْ وَتَغْلِبُ الْإِعْرَابَ عَلَيْهِمْ صَارَتْ اللَّفْظَةَ مُرَادِفَةً عِنْدَهُمْ لِكَلِمَةِ (إسماعييليين) . ثُمَّ تَغْلِبَتْ عَلَيْهِمْ ، فَصَارَتْ تَشْمَلُهُمْ ، أَنَّ (الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ) كَانُوا أَعْرَابًا كَذَلِكَ ، أَيَّ قَبَائِلَ بَدْوِيَّةٍ تَتَنَقَّلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، طَلَبًا لِلْمَرْعَى وَاللَّمَاءِ . وَكَانَتْ تَسْكُنُ أَيْضًا فِي الْمَنَاطِقِ الَّتِي سَكَنَهَا الْإِعْرَابُ ، أَيُّ أَهْلِ الْبَادِيَةِ . وَيَرَى أَوْلِيَاءُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ كَلِمَةَ (عَرَبٌ) لَفْظُهُ مُتَأَخَّرَةٌ ، اقْتَبَسَهَا الْعِبْرَانِيُّونَ مِنَ الْآشُورِيِّينَ وَالْبَابِلِيِّينَ ، بِدَلِيلِ وُرُودِهَا فِي النُّصُوصِ الْآشُورِيَّةِ وَالْبَابِلِيَّةِ ، وَهِيَ نُّصُوصٌ يُعُودُ عَهْدُهَا إِلَى مَا قَبَلَ التَّوْرَةَ وَلِشَبُوحِهَا بَعْدَ لَفْظِهِ (إسماعييليين) ، وَوَأَدَائِهَا الْمَعْنَى ذَاتَهُ الْمُرَادُ مِنَ اللَّفْظَةِ ، رَبَطَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ لَفْظِهِ (إسماعييليين) ، وَصَارَتْ نَسْبًا قَصِيرًا جَدًّا هُوَ الْإِعْرَابُ (إسماعييل) وَعَدُّوا عَرَبِيمَ مِنْ أَوْثَانِ إِسْمَاعِيلِ .

هَذَا مَا يُخَصُّ التَّوْرَةَ ، أَمَا (التَّلْمُود) ، فَقَدْ قَصَدَتْ بِلَفْظِهِ (عَرَبٌ) و (Arbim) (عَرَبِيم)
Arbiim (الإِغْرَابِ كَذَلِكَ ، أَيْ الْمَعْنَى نَفْسِهِ الَّذِي وَرَدَ فِي الْأَسْفَارِ الْقَدِيمَةِ ، وَجُعِلَتْ لَفْظُهُ (عَرَبِيٌّ)
مُرَادِفَةٌ لِكَلِمَةِ (إِسْمَاعِيلِي) فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ " وَأَوَّلُ مَنْ ذَكَرَ الْعَرَبَ مِنَ الْيُونَانِ هُوَ (أَسْخِيلُوسُ ،
أَسْخِيلُوسُ) « أَشِيلِسُ » وَ أَخِيلُوسُ : - ٤٥٦ قَبْلَ الْمِيلَادِ) مِنْ أَهْلِ الْأَخْبَارِ مِنْهُمْ ، ذَكَرَهُمْ فِي كَلَامِهِ
عَلَى جَيْشِ (أَحْشَوِيرِش) (Xerxes) ، وَقَالَ : أَنَّهُ كَانَ فِي جَيْشِهِ ضَابِطٌ عَرَبِيٌّ مِنَ الرُّؤَسَاءِ
مَشْهُورٌ " . ثُمَّ تَلَّاهُ (هِيرُودُوتُسُ) شَيْخُ الْمُؤَرِّخِينَ (نَحْوَ ٤٨٤-٤٢٥ قَبْلَ الْمِيلَادِ) ، فَتَحَدَّثَ فِي
مَوَاضِعٍ مِنْ تَارِيخِهِ عَنِ الْعَرَبِ حَدِيثًا يُظْهِرُ مِنْهُ أَنَّهُ كَانَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ بِهِمْ . وَقَدْ أَطْلَقَ (Arabae
) عَلَى بِلَادِ الْعَرَبِ الْبَادِيَةِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَالْأَرْضِينَ الْوَاقِعَةَ إِلَى الشَّرْقِ مِنْ نَهْرِ النَّيْلِ " . فَأَدْخَلَ
(طُورِ سَيْنَاءَ) وَمَا بَعْدَهَا إِلَى ضِفافِ النَّيْلِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ فَلَفْظَةَ (الْعَرَبِيَّةِ) (Arabae) عِنْدَ
الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ ، هِيَ فِي مَعْنَى (بِلَادِ الْعَرَبِ) . وَقَدْ شَمِلَتْ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ وَبَادِيَةَ الشَّامِ . وَسَكَنَهَا
هُمُ عَرَبٌ عَلَى اخْتِلَافِ لُغَاتِهِمْ وَلِهَجَاتِهِمْ ، عَلَى سَبِيلِ التَّغْلِيْبِ ، لِإِعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْبَدَاوَةَ كَانَتْ عَلَى هَذِهِ
الْأَرْضِينَ ، فَأَطْلَقُوهَا مِنْ ثَمَّ عَلَى الْأَرْضِينَ الْمَذْكُورَةِ وَتَدَلَّ الْمَعْلُومَاتُ الْوَارِدَةُ فِي كُتُبِ الْيُونَانِ وَاللَّاتِينَ
الْمُؤَلَّفَةِ بَعْدَ (هِيرُودُوتُسِ) عَلَى تَحْسُنِ وَتَقَدُّمِ فِي مَعَارِفِهِمْ عَنِ بِلَادِ الْعَرَبِ ، وَعَلَى أَنَّ حُدُودَهَا قَدْ
تَوَسَّعَتْ فِي مَدَارِكِهِمْ فَشَمِلَتْ الْبَادِيَةَ وَجَزِيرَةَ الْعَرَبِ وَطُورِ سَيْنَاءَ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ ، فَصَارَتْ لَفْظُهُ (Arabae
) عِنْدَهُمْ عِلْمًا عَلَى الْأَرْضِينَ الْمَأْهُولَةِ بِالْعَرَبِ وَالَّتِي تَغْلِبُ عَلَيْهَا الطَّبِيعَةُ الصَّحْرَاوِيَّةُ ،
وَصَارَتْ كَلِمَةً (عَرَبِيَّةٌ) عِنْدَهُمْ عِلْمًا لِلشَّخْصِ الْمُقِيمِ فِي تِلْكَ الْأَرْضِينَ ، مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَرٍ ، إِلَّا أَنَّ

⁵ نفس المصدر

⁶ - نفس المصدر

فكرتهم عن حَضْرِ بِلَادِ الْعَرَبِ لَمْ تَكُنْ تَرْتَفِعُ عَنْ فِكْرَتِهِمْ عَنِ الْبَدْوِيِّ ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ الْعَرَبَ هُمْ إِعْرَابٌ وَوَرَدَتْ فِي جُغْرَافِيَّةٍ (سْتَرَابُون (كَلِمَةً) أَرْمِي (Erembi) ، وَمَعْنَاهَا اللَّغْوِيُّ الدُّخُولِ فِي الْأَرْضِ أَوْ السُّكْنَى فِي حَفْرِ الْأَرْضِ وَكُهوفِهَا ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى غُمُوضِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَمَا يُقْصَدُ بِهَا ، أَيَقْصَدُ بِهَا أَهْلُ (طَرِغْلُودِيَّة) (Troglodytea) أَي (سُكَّانِ الْكُهوفِ) أُمُّ الْعَرَبِ ؟ وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ هُنَاكَ كَانَ يُرِيدُ بِهَا الْعَرَبُ ، وَأَنَّهَا كَانَتْ تَعْنِي هَذَا الْمَعْنَى عِنْدَ بَعْضِهِمْ فِي الْأَيَّامِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَمِنْ الْجَائِزِ أَنْ تَكُونَ تَحْرِيفًا لِكَلِمَةِ (Arabi) فَأَصْبَحَتْ بِهَذَا الشَّكْلِ . أَمَّا الْإِرْمِيُّونَ ، فَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَنِ الْأَشُورِيِّينَ وَالْبَابِلِيِّينَ فِي مَفْهُومِ (بِلَادِ الْعَرَبِ) ،

أَيُّ مَا يُسَمَّى بـ (بَادِيَةِ الشَّامِ) وَبَادِيَةِ السَّمَاءِ . وَهِيَ الْبَادِيَةُ الْوَاسِعَةُ الْمُتَمَدِّدَةُ . نَهَرَ الْفُرَاتِ إِلَى تُخُومِ الشَّامِ . وَقَدْ أُطْلِقُوا عَلَى الْقِسْمِ الشَّرْقِيِّ مِنْ هَذِهِ الْبَادِيَةِ ، وَهُوَ الْقِسْمُ الْخَاضِعُ لِنُفُوذِ الْفَرَسِ اسْمُ (بَيْتِ عَرَبَايَةِ) (Beth Arbaya) وَبَا عَرَبَايَةِ (Ba Arabaya) ، وَمَعْنَاهَا (أَرْضِ الْعَرَبِ) . وَقَدْ اسْتَعْمَلَتْ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ فِي الْمَوْثِقَاتِ الْيُونَانِيَّةِ الْمَتَّخِرَةِ وَفِي هَذَا الْاسْتِعْمَالِ أَيْضًا مَعْنَى الْأَعْرَابِيَّةِ وَالسُّكْنَى فِي الْبَادِيَةِ وَوَرَدَتْ لَفْظُهُ (عَرَبٌ ، فِي عَدَدٍ مِنْ كِتَابَاتٍ وَالْحَضْرِ) . I

وَقَدْ عُرِفَ الْبَدْوُ ، أَيُّ سُكَّانِ الْبَادِيَةِ ، بِالْإِعْرَابِ فِي عَرَبِيَّةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَقَدْ ذَكَرُوا فِي مَوَاضِعٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، وَقَدْ نَعَتُوا فِيهِ بِنُعُوتِ سَيِّئَةٍ ، تَدُلُّ عَلَى أَثَرِ خَلْقِ الْبَادِيَةِ فِيهِمْ . وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْأَعْرَابَ بَادِيَةَ الْعَرَبِ ، وَأَنَّ سُكَّانَ الْبَادِيَةِ وَالنَّصَّ الْوَحِيدَ الْوَحِيدَ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ لَفْظَةُ (الْعَرَبِ) عُلَمَاءٌ عَلَى الْعَرَبِ جَمِيعًا مِنْ حَضْرٍ وَإِعْرَابٍ ، وَنَعَتْ فِيهِ لِسَانِهِمْ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ . وَقَدْ ذَهَبَ (د . ه . مَارَ) إِلَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ الَّذِي خَصَّصَ الْكَلِمَةَ وَجَعَلَهَا عِلْمًا لِقَوْمِيَّةٍ تَشْمَلُ كُلَّ

العرب . وَهُوَ يُشْكُ فِي صِحَّةِ وُرُودِ (عَرَبٌ) علماً لقومية في الشعر الجاهلي كَالَّذِي وَرَدَ فِي شِعْرِ
لامرئ القيس ، وفي الآيات دَلَالَةٌ وَاصِحَةٌ عَلَى أَنَّ الْقَوْمَ كَانَ لَهُمْ إِدْرَاكٌ لِهَذَا الْمَعْنَى قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، وَأَنَّ
كَانُوا يَنْعَتُونَ لِسَانَهُمْ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلألسنة الأخرى السُّنَّةَ أَعْجَمِيَّةً (لِسَانُ الَّذِي
يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) .

تابع ما جاء في كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي :

(الآنَ وَقَدْ انْتَهَيْتَ مِنْ تَحْدِيدِ مَعْنَى (عَرَبٌ) وَتَطَوَّرَهَا إِلَى قَبِيلِ الْإِسْلَامِ ، أَرَى لزاماً عَلَيَّ أَنْ أَتَحَدَّثَ
عَنْ الْفَاطِئِ الأخرى اسْتَعْمَلَتْ بِمَعْنَى (عَرَبٌ) فِي عَهْدِ مِنَ الْعُهُودِ ، وَعِنْدَ بَعْضِ الشُّعُوبِ . فَقَدْ اسْتُعْمِلَ
الْيُونَانُ كَلِمَةَ (Saraceni) و (Saracenes) ، وَاسْتَعْمَلَهَا اللاتين عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ)

(Saracenus) ، وَذَلِكَ فِي مَعْنَى الْعَرَبِ وَأَطْلَقَهَا عَلَى قَبَائِلَ عَرَبِيَّةٍ كَانَتْ تُقِيمُ فِي بَادِيَةِ الشَّامِ وَفِي
طُورِ سَيْنَاءَ ، وَفِي الصَّحْرَاءِ الْمُتَّصِلَةِ بِأَدُومِ . وَقَدْ تَوَسَّعَ مَدْلُولُهَا بَعْدَ الْمِيلَادِ ، وَلَا سَيِّمًا فِي الْقُرْنِ الرَّابِعِ
وَالْخَامِسِ وَالسَّادِسِ ، فَأُطْلِقَتْ عَلَى الْعَرَبِ أَنْ كَتَبَهُ الْكَنِيسَةُ وَمُؤرخي هَذَا الْعَصْرِ قَلَّمَا اسْتَعْمَلُوا كَلِمَةَ
(عرب) فِي كُتُبِهِمْ ، مُسْتَعِضِينَ عَنْهَا بِكَلِمَةِ (Saraceni) . وَأَقْدَمُ مَنْ ذَكَرَهَا هُوَ دِيوسقوريدس)

(Dioscurides of Anazarbos) الَّذِي عَاشَ فِي الْقُرْنِ الأَوَّلِ لِلْمِيلَادِ . وَشَاعَ اسْتِعْمَالُهَا فِي
الْقُرُونِ الوُسْطَى حَيْثُ أُطْلِقَتْ التَّصَارِي عَلَى جَمِيعِ الْعَرَبِ ، وَأحياناً عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ . وَنَجِدُ
النَّاسَ يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي الْانكليزية فِي مَوْضِعِ (عَرَبٌ) وَمُسْلِمِينَ حَتَّى الْيَوْمِ وَقَدْ أُطْلِقَ بَعْضُ الْمُؤرخِينَ مِنْ
أُمَّثَالِ يوسيبوس أوسيبوس (Eusebius) و (هيرونيوس) (Hieronymus) هَذِهِ اللَّفْظَةَ عَلَى

⁷ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي الطبعة الثانية 1993

(الإسماعيليين) الَّذِينَ كَانُوا يَعِيشُونَ فِي الْبَرَارِيِّ فِي قَادَش (فِي بَرِّيَّة) فَارَانَ ، أَوْ مَدِينٍ حَيْثُ جَبَل (حوريب) . وَقَدْ عَرُفَتْ أَيْضاً بِ (الهاجريين) (Hagerene) ثُمَّ دُعِيَتْ بِ (Saracenes) وَلَمْ يَحْدَثْ أَحَدٌ الْكُتُبَةَ الْيُونَانَ وَالرُّومَانَ وَالسَّرِيَانَ عَنْ أَصْلِ لَفْظَةِ مِنْ (Sarakenoi) . وَلَمْ يَلْتَفِتْ الْعُلَمَاءُ إِلَى الْبَحْثِ فِي أَصْلِ التَّسْمِيَةِ إِلَّا بَعْدَ التَّهْضَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْآخِرَةِ ، .
وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَتْ آرَاؤُهُمْ فِي التَّغْلِيلِ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ (سَارَةَ) زَوْجِ إِبْرَاهِيمَ ، وَلَفْظِ أَحْرَرْتَمَا هُوَ (قَيْن) ،

فَزَعَمَ فَيَكُونُ الْمَعْنَى عُبَيْدُ سَارَةَ . وَقَالَ آخَرُونَ : أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْ (سَرَقَ) ، فَيَكُونُ الْمَوَادَّ مِنْ كَلِمَةٍ (Saraceni) (سراكين) (السراقين) أَوْ (السارقين) إِشَارَةً إِلَى غَزْوِهِمْ وَكَثْرَةِ سَطْوِهِمْ " . أَوْ مِنْ (Saraka) بِمَعْنَى (Sherk) أَي (شَرَقَ ، وَيُرَادُ بِذَلِكَ الْأَرْضَ الَّتِي تَقَعُ إِلَى شَرْقِ النَّبْطِ .

وَالْقَائِلُونَ أَنَّ (سارقين) مِنْ أَصْلِ لَفْظَتَيْنِ (سَارَةَ) ، زَوْجِ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ

(قَيْن) بِمَعْنَى (عبد) وَأَنَّ الْمَعْنَى هُوَ (عُبَيْدُ سَارَةَ) ، ، مَتَأَثَرُونَ بِرِوَايَةِ التَّوْرَةِ عَنْ سَارَةَ وَبِالشَّرْحِ الْوَارِدَةِ عَنْهَا .

وَهُنَاكَ الْفَاطِمَةُ مِثْلُ (القدميين) ، (هقدميني) ، (هاقدموني) (Kadmonites)

فِي الْمَنَاطِقِ الشَّرْقِيَّةِ لِفَلَسْطِينَ ، أَي فِي بَادِيَةِ الشَّامِ . وَلَمَّا كَانَ (قيدا) (Kedemeh) هُوَ أَحَدُ أَبْنَاءِ إِسْمَاعِيلَ فِي اصْطِلَاحِ (التوراة) ، فَيَكُونُ أَبْنَاءُ (قيدا) مِنْ الْعَرَبِ الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ . وَقَدْ ذَكَرَ فِي مَوْضِعٍ مِنَ التَّوْرَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَنُونَ الْمَنَاطِقَ الشَّرْقِيَّةَ لِفَلَسْطِينَ قَرِيبَ (الْبَحْرِ الْمَيِّتِ) الْمَعْرُوفِ فِي

العِبْرَانِيَّةُ بـ (هَائِمٌ هَقْدُمُونِي) أَي الْبَحْرُ الْقَدْمُونِي (الْبَحْرُ الشَّرْقِي) وَقَدْ كَانَ (الْقَدْمُونِيُونَ) ، أَي بُنُو قَدِيمٍ أَعْرَابًا يَقْتُنُونَ فِي بَادِيَةِ الشَّامِ . وَأَشْبَاهُ إِعْرَابٍ ، أَي رُعَاةٍ وَأَشْبَاهُ حَضْرِيَّيْنِ ، وَاللَّفْظَةُ لَا تَعْنِي قَبِيلَةً وَاحِدَةً مُعَيَّنَةً ، أَي عِلْمِيَّةً ، وَلَا تَعْنِي قَبَائِلَ مُعَيَّنَةً ، وَإِنَّمَا هِيَ لَفْظَةٌ عَامَّةٌ أُطْلِقَتْ عَلَى السَّاكِنِينَ فِي الْأَمَاكِنِ الشَّرْقِيَّةِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْعِبْرَانِيِّينَ " .

طَبَقَاتُ الْعَرَبِ

اتَّفَقَ الزُّوَاهُ وَأَهْلُ الْأَخْبَارِ أَوْ كَادُوا يَتَّفِقُونَ عَلَى تَقْسِيمِ الْعَرَبِ مِنْ حَيْثُ الْقَدَمِ إِلَى طَبَقَاتٍ عَرَبٌ بَائِدَةٌ ، وَعَرَبٌ عَارِبَةٌ ، وَعَرَبٌ مُسْتَعْرِبَةٌ . أَوْ عَارِبَةٌ ، وَعَرَبٌ مُتَعْرِبَةٌ ، وَعَرَبٌ مُسْتَعْرِبَةٌ أَوْ عَرَبٌ عَارِبَةٌ وَعَرَبَاءُ وَهُمْ الْخُلَاصُ ، وَالْمُتَعْرِبَةُ . وَاتَّفَقُوا أَوْ كَادُوا يَتَّفِقُونَ عَلَى تَقْسِيمِ الْعَرَبِ مِنْ حَيْثُ النَّسَبِ إِلَى قِسْمَيْنِ : قَحْطَانِيَّةً ، مَنَازِلِهِمُ الْأُولَى فِي الْيَمَنِ وَعَدْنَانِيَّةً مَنَازِلِهِمُ الْأُولَى فِي الْحِجَازِ وَاتَّفَقُوا ، أَوْ كَادُوا يَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْقَحْطَانِيِّينَ هُمْ عَرَبٌ مُنْذُ خَلَقَهُمُ اللَّهُ ، وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي نَفَهْمَهَا وَيَفْقَهُهَا مَنْ يَسْمَعُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ . فَهُمْ ، وَالْعَدْنَانِيَّةُ الْفُرْعُ ، مِنْهُمْ أَخَذُوا الْعَرَبِيَّةَ ، وَبِلِسَانِهِمْ تَكَلَّمَ أَبْنَاءُ إِسْمَاعِيلَ هِجْرَتِهِمْ إِلَى الْحِجَازِ ، شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ جَدِّهِمْ إِسْمَاعِيلَ ، فَتَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِلُغَةِ أَبِيهِ الَّتِي كَانَتْ الْإِرْمِيَّةَ ، أَوْ الْكَلْدَانِيَّةَ ، أَوْ الْعِبْرَانِيَّةَ عَلَى بَعْضِ الْأَقْوَالِ وَتَجِدُ الْأَخْبَارِيَّيْنَ وَالْمُؤَرِّخِينَ يَتَقَسَّمُونَ الْعَرَبَ أحيانًا إِلَى طَبَقَتَيْنِ : عَرَبٌ عَارِبَةٌ ، وَعَرَبٌ مُسْتَعْرِبَةٌ . وَيَدْخُلُونَ فِي الْعَرَبِ الْعَارِبَةَ عَادًا وَعَبِيلَ ابْنِي (عَوْصِ بْنِ إِرْمِ) .

وَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى أَنْ نَعُودَ ، فَتَقُولُ : أَنَّ كُلَّ مَا رُوِيَ التَّقْسِيمِ وَمَا رَوَاهُ الرُّوَاةُ مِنْ أَخْبَارِ تِلْكَ الطَّبَقَاتِ ،
لَمْ يَرِدْ إِلَيْنَا مِنْ التَّنُصُوصِ الجَاهِلِيَّةِ ، وَأِنَّمَا وَرَدَ إِلَيْنَا متواتراً مِنَ الكُتُبِ المَدُونَةِ فِي الإسلامِ ، لِذَلِكَ لَا
نَسْتَطِيعُ أَنْ نَجْرؤُ فَتَقُولُ : أَنَّ هَذَا التَّقْسِيمِ وَضَعَهُ الجَاهِلِيُّونَ ، وَتَوَارَثُوهُ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى
صَدْرِ الإسلامِ ، ثُمَّ مِنْهُ وَصَلَ إِلَيْنَا : وَتَقْسِيمِ العَرَبِ إِلَى طَبَقَاتٍ وَذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةِ القَدَمِ وَالتَّقَدُّمِ فِي
العَرَبِيَّةِ تَقْسِيمِ لَا نَجِدُ لَهُ ذِكْرًا لَّا فِي التَّوْرَةِ أَوْ المَوَارِدِ اليَهُودِيَّةِ الأُخْرَى وَلَا فِي المَوَارِدِ اليُونَانِيَّةِ أَوْ اللاتينية
، أَوْ السُّرْيَانِيَّةِ . وَيُظْهِرُ أَنَّهُ تَقْسِيمٌ عَرَبِيٌّ خَالِصٌ ، نَشَأَ الجَمْعُ بَيْنَ العَرَبِ الَّذِينَ ذَكَرَ أَنَّهُمْ بَادُوا قَبْلَ الإسلامِ
، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرُ ذِكْرِيَّاتٍ .

العَرَبُ العَارِبَةُ

أَمَّا الطَّبَقَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ طَبَقَاتِ العَرَبِ بَعْدَ البَائِدَةِ ، فَهِيَ (العَرَبُ العَارِبَةُ) عَلَى أَقْوَالِ التَّسَابِينِ ، وَهُمْ مِنْ
أَبْنَاءِ قَحْطَانَ وَإِسْلَافِ القَحْطَانِيِّينَ المُنَافِسِينَ لِلعَرَبِ ، الَّذِينَ هُمُ العَرَبُ المُسْتَعْرَبَةُ فِي عُرْفِ التَّسَابِينِ
العَدْنَانِيِّينَ .

وَقَحْطَانَ الَّذِي يَرِدُ فِي الكُتُبِ العَرَبِيَّةِ ، هُوَ يَقْطَانُ الَّذِي يَرِدُ اسْمُهُ فِي سَفَرِ التَّكْوِينِ ، وَهُوَ (قَحْطَانُ بَنِ
عَابِرِ بْنِ شَالِحِ بْنِ أَرْفَحَشَدِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ) .

فِي رَأْيِ أَكْثَرِ التَّسَابِينِ . وَهُوَ يَقْطَانُ بَنِ عَابِرِ بْنِ شَالِحِ بْنِ أَرْفَكَشَادِ بْنِ سَامِ ابْنِ نُوحٍ (فِي التَّوْرَةِ
فَقَرَى مِنْ ذَلِكَ مُطَابِقَةً تَامَّةً بَيْنَ التَّسَبُّبِ الوَارِدِ فِي الكُتُبِ العَرَبِيَّةِ وَالتَّسَبُّبِ الوَارِدِ فِي التَّوْرَةِ مِمَّا يَدُلُّ دَلَالَةً
وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ الإخْبَارِيَّينَ أَخَذُوا عِلْمَهُمُ بِنَسَبِهِ مِنْ رِوَايَاتِ أَهْلِ الكِتَابِ ، وَهُمْ يُؤَيِّدُونَ ذَلِكَ وَلَا

يُنْكِرُونَهُ وَقَدْ سَرَدَ بَعْضُ الْأَخْبَارِيِّينَ نَسَبَ قَحْطَانَ فِي شَكْلِ آخَرَ : مِثْلَ (قَحْطَانُ بْنُ هُودٍ بْنُ شَالِحِ بْنِ أَرْفَحَشْدِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَى أَنْ هُودًا هُوَ عَابِرٌ ، أَوْ قَحْطَانُ بْنُ هُودٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخُلُودِ بْنِ عَادِ بْنِ عَوْصِ بْنِ إِرَمِ بْنِ سَامِ ابْنِ نُوحٍ ، أَوْ (قَحْطَانُ بْنُ يَمِينَ بْنِ قَدَارٍ) ، أَوْ (قَحْطَانُ بْنُ الْهَمَيْسَعِ بْنِ تَيْمَنَ بْنِ ثَبْتِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمِ) . فَتَرَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ شَجَرَاتِ النَّسَبِ أَدْخَلَتْ أَسْمَاءَ عَرَبِيَّةٍ بَيْنَ الْأَسْمَاءِ الْمَأْخُودَةِ مِنَ التَّوْرَةِ .

وَقَدْ أَلْحَ بَعْضُ نَسَابِيِ الْيَمَنِ عَلَى جَعْلِ هُودٍ (عَابِرًا ، وَعَلَى جَعَلِهِ وَالِدِ قَحْطَانَ ، وَأَصْرُوا عَلَى وُرُودِ ذَلِكَ فِي الشَّعْرِ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْعَسِيرِ عَلَيْهِمُ بِالطَّبَعِ إِجَادُ ذَلِكَ الشَّعْرَ وَوَضَعَهُ ، فَكَانُوا إِذَا نُوقِشُوا فِي ذَلِكَ ، اخْتَجَبُوا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ : وَأَبُو قَحْطَانَ هُوَ ذُو الْحُتْفِ .

وَالْقَائِلُونَ أَنَّ (قَحْطَانَ) هُوَ (قَحْطَانَ بْنِ الْهَمَيْسَعِ بْنِ تَيْمَنَ بْنِ ثَبْتِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ) نَسَابُو وَكَدِ (نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ) ، أَيْ النَّزَارِيَّةِ ، الَّذِينَ كَانُوا يُقَابِلُونَ (الْيَمَانِيَّةَ) .

فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَفِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ ، يُؤَيِّدُهُمْ فِي ذَلِكَ بَعْضُ الْيَمَانِيَّةِ مِثْلَ (هِشَامِ بْنِ الْكَلْبِيِّ) ، وَ (الشَّرْقِيِّ بْنِ الْقَطَامِيِّ) وَ (نَضْرِ بْنِ زُرُوعِ الْكَلْبِيِّ) وَ (الْهَيْثَمِ بْنِ عَدِيِّ) وَيُظْهِرُ أَنَّ غَايَتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَصَلَ نَسَبَ قَحْطَانَ بِشَجَرَةِ نُسَبِ أَوْلَادِ إِسْمَاعِيلِ . أَمَّا سَائِرُ الْيَمَانِيَّةِ ، فَتَأْتِي ذَلِكَ ، وَتَذْهَبُ إِلَى أَنَّهُ قَحْطَانُ بْنُ عَابِرِ بْنِ شَالِحِ بْنِ أَرْفَحَشْدِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ وَتَسْتَهْدَفُ هَذِهِ الرُّوَايَاتُ غَايَةَ عَاطِفِيَّةً بَعِيدَةً عَلَى مَا يَظْهَرُ ، كَانَتْ ذَاتَ أَهْمِيَّةٍ فِي نَظَرِ الْقَحْطَانِيِّينَ ، هِيَ وَصَلَ نَسَبُهُمُ بِالْأَنْبِيَاءِ . فَبَعْدَ أَنْ ذَكَرُوا مَا ذَكَرُوا مِنْ أَخْبَارِ مُلْكِهِمْ وَدَوْلِهِمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، وَجَدُوا أَنَّ الْعَدَنَانِيِّينَ يُفْخَرُونَ عَلَيْهِمْ مَعَ ذَلِكَ بِأَنَّ فِيهِمُ النَّبُوَّةَ وَالْأَنْبِيَاءَ ، مِنْهُمْ الرَّسُولُ ، وَفِيهِمُ إِسْمَاعِيلُ جَدَّهُمْ . فَأَرَادُوا أَنْ يُكَوِّنَ لَهُمْ أَجْدَادَ أَنْبِيَاءَ :

أَنْبِيَاءَ خَلَصَ قَحْطَانِيُونَ ، أَوْ أَنَّ يَكُونُ لَهُمْ نُسْبٌ يَتَّصِلُ بِنَسَبِ إِسْمَاعِيلَ عَلَى الْأَقْلِ ، أَوْ أَنَّ يَصِلَ نُسْبُ إِسْمَاعِيلَ بِأَسْبَابِ نَسْبِهِمْ ، فَقَالُوا : أَنَّهُمْ مِنْ نَسْلِ هُودٍ ، وَهُوَ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَقَالُوا : أَنَّ قَحْطَانَ مِنْ نَسْلِ إِسْمَاعِيلَ ، وَقَالُوا : أَنَّ هُودًا هُوَ عَابِرٌ ، وَعَابِرٌ مِنْ نَسْلِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَقَالُوا أَشْيَاءَ أُخْرَى هَذَا الْقَبِيلِ تَزِمِي إِلَى تَرْجِيحِ كَهْتُمْ عَلَى كَهِّهِ مَنَافِسِهِمُ الْعَدَنَانِيْنَ فِي الْفَخْرِ بِالْأَنْسَابِ عَلَى الْأَقْلِ وَلَمْ يُعْجَبِ الْيَمَانِيَّةُ الْمَعْنَى الْوَارِدُ فِي التَّوْرَةِ لِلْفِظَةِ (يَقْطَانُ) ، وَعَلَّهْمُ عَرَفُوا مَعْنَاهَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَعَكَسُوا الْمَعْنَى بِأَنَّ صِيْرُوهُ عَلَى الصَّدِّ تَمَامًا . جَعَلُوهُ (الْجَبَّارُ) ، وَقَالُوا : (وَاسْمُهُ فِي التَّوْرَةِ الْجَبَّارُ ، مُؤَكِّدِينَ جَارِمِينَ . أَمَّا فِي التَّوْرَةِ وَعِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَفِي الْعِبْرَانِيَّةِ ، فَهُوَ الْعَكْسُ ، فِ (يَقْطَانُ) فِي التَّوْرَةِ لَفْظُهُ تَعْنِي طَائِرٌ صَغِيرٌ فَهِيَ فِي مَعْنَى : (صَغِيرٌ) . وَبَيْنَ صَغِيرٍ وَجَبَّارٍ فَرْقٌ كَبِيرٌ . وَهَكَذَا صَارَ الصَّغِيرُ جَبَّارًا . وَبِهَذَا التَّفْسِيرِ أَعَادَ التَّسَابُونَ أَوْ أَحَدَ الْمُتَحَدِّثِينَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْهَيْبَةَ وَالْمَكَانَةَ إِلَى (قَحْطَانُ) .

وَلَمْ يَرِدْ اسْمُ (يَعْرَبُ) فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ . وَإِنَّمَا وَرَدَ اسْمُهُ فِي شَعْرِ يُنْسَبُ إِلَى حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَفِي شَعْرِ يُنْسَبُ إِلَى (مُضَاضِ بْنِ عَمْرِو الْجُرْهُمِيِّ) ، وَهُوَ مِنْ جُرْهُمٍ ، قِيلَ : أَنَّهُ قَالَ لَمَّا أَخْرَجْتُهُمُ الْأَرْضَ مِنْ مَكَّةَ . وَالشَّعْرَانِ مِنَ النَّوْعِ الْمُصْنُوعِ الْمُحْمُولِ عَلَى حَسَّانٍ وَعَلَى (مُضَاضِ) الَّذِي لَا أُدْرِي أَكَانَ يَتَكَلَّمُ .

وَالِي يَعْرَبُ يُنْسَبُ أَهْلُ الْأَخْبَارِ نُسْوَةَ الْعَرَبِيَّةِ ، فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَعْرَبَ فِي لِسَانِهِ ، وَلِهَذَا قِيلَ لِلِسَانِ (الْعَرَبِيَّةِ) . وَهَذِهِ رِوَايَةٌ قَحْطَانِيَّةٌ تَعَارَضَ الرِّوَايَاتِ الْعَدَنَانِيَّةِ بِالطَّبَعِ ، وَيُظْهِرُ مِنْ بَعْضِ رِوَايَاتِ أَهْلِ الْأَخْبَارِ أَنَّ (يَعْرَبُ) هُوَ الَّذِي جَاءَ بِوَلَدِهِ إِلَى الْيَمَنِ ، فَاسْتَكْنَهُمْ بِهَا ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ تُذَكَّرِ الْمَوْطِنَ الَّذِي

وَقَدْ عَثَرَ الْعُلَمَاءُ عَلَى نَصِّ وَسَمَوْهُ بِ (Rep . Epigr . 4304) ، هَذَا نَصُّهُ :

عَبْدِ شَمْسٍ ، سَبَأُ بْنُ يَشْجُبَ ، يُعْرَبُ بْنُ قَحْطَانَ (

وَهُوَ نَصُّ أَشْكَ فِي صِحَّتِهِ ، وَأَرَى أَنَّهُ وَضَعَ بَعْدَ الْجَاهِلِيَّةِ بَرْمَنَ ، قَدْ يَكُونُ غَيْرَ بَعِيدٍ صَنَعَهُ بَعْضُ مَنْ
تَعَلَّمَ حُرُوفَ الْمُسْنَدِ ، أَوْ مِمَّنْ يَتَقَنُونَ صِنَاعَةَ تَرْيِيفِ الْعَادِيَّاتِ الْيَمَانِيَّةِ ، لِأَنَّ أُسْلُوبَ الْمُسْنَدِ مَعْرُوفٌ ،
وَلَا نَجِدُ فِي نُصُوصِهِ نَصًّا وَاحِدًا دُونَ عَلَى هَذَا التَّسْقِ فِي تَدْوِينِ النَّسَبِ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا النَّسَبَ هُوَ
نَسَبٌ مُتَأَخَّرٌ وَضِعَ عَلَى أَثَرِ اخْتِدَامِ النَّزَاعِ بَيْنَ الْقَحْطَانِيِّينَ وَالْعَدْنَانِيِّينَ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ كَمَا سَنَرَى فِيمَا
بَعْدُ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ نَاقِشَ النَّصِّ ، وَهُوَ مِنَ الْيَمَنِ ، أَرَادَ إِثْبَاتَ وُرُودِ هَذَا النَّسَبِ عِنْدَ السَّبْيِيِّينَ وَإِقْتِنَاعِ
النَّاسِ بِأَنَّهُ كَانَ مَعْرُوفًا فَدُونَهُ ، عَلَى كُلِّ حَالٍ إِنَّ فِي اسْتِطَاعَةِ الْبَاحِثِينَ تَقْدِيرَ زَمَنِ تَدْوِينِ هَذَا النَّصِّ ،
وَدِرَاسَةَ طَبِيعَةِ اللَّوْحِ الَّذِي دُونَ عَلَيْهِ بِالطَّرْقِ الْفَنِّيَّةِ ، وَعِنْدَئِذٍ يُمْكِنُ إِثْبَاتُ صِحَّةِ تِلْكَ الْكِتَابَةِ أَوْ عَدَمِ
صِحَّتِهَا بِطَرِيقِهِ عِلْمِيَّةٍ وَيُظْهِرُ أَنَّ نَسَابِي أَهْلِ الْيَمَنِ كَانُوا يَعْتَمِدُونَ عَلَى عُلَمَائِهِمْ فِي النَّسَبِ ، وَعَلَى مَا
كَانَ مَدُونًا عِنْدَهُمْ مِنْهُ ، وَلِهَذَا تَجِدُهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَنْسَابِ أَهْلِ الْيَمَنِ عَنِ النَّسَابِيِّينَ الشَّمَالِيِّينَ
السَّكَاكِينِ فِي الْعِرَاقِ أَوْ فِي بِلَادِ الشَّامِ .

الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَبَةُ

وَالطَّبَقَةُ الثَّلَاثَةُ مِنْ طَبَقَاتِ الْعَرَبِ عَلَى رَأْيِ أَهْلِ الْأَخْبَارِ - هُمْ (الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَبَةُ) (الْمُتَعْرَبَةُ) ، وَيُقَالُ
لَهُمُ الْعَدْنَانِيُّونَ أَوْ النَّزَارِيُّونَ أَوْ الْمَعْدِيُّونَ . وَهُمْ مِنْ صُلْبِ (إِسْمَاعِيلِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ) وَأُمَّرَاتِهِ (رَعْلَةَ بِنْتُ

مُضَاضِ بْنِ عَمْرِو الْجُرْهُمِيِّ وَهُنَا خَالَفُوا التَّوْرَةَ الَّذِي تَقُولُ إِنَّهُ تَزَوَّجَ مِنْ امْرَأَةٍ مِصْرِيَّةٍ ، لِأَنَّهُمْ انضَمُّوا إِلَى الْعَرَبِ الْعَارِبَةِ ، وَأَخَذُوا الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ . وَمِنْهُمْ تَعَلَّمَ إِسْمَاعِيلُ الْجَدَّ الْأَكْبَرَ لِلْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ الْعَرَبِيَّةَ ، فَصَارَ نَسْلِهِمْ مِنْ تَمَّ مِنَ الْعَرَبِ وَانْدَجَوْا فِيهِمْ . وَمَوْطِنُهُمُ الْأَوَّلُ مَكَّةَ عَلَى مَا يُسْتَشْتَبُ مِنْ كَلَامِ الْأَخْبَارِيِّينَ ، فِيهَا تَعَلَّمَ (إِسْمَاعِيلُ) الْعَرَبِيَّةَ ، وَفِيهَا وُلِدَ أَوْلَادُهُ ، فَهِيَ إِذَنْ الْمَهْدُ الْأَوَّلُ لِلِإِسْمَاعِيلِيِّينَ وَيَذُكُرُ أَهْلُ الْأَخْبَارِ أَنَّ (إِسْمَاعِيلَ) وُلِدَ مِنْ زَوْجَةٍ (رَعْلَةَ) ، اثْنَيْ عَشَرَ ، وَ (قَيْدِرًا) وَ (أَذْبَلًا) : (ثَابِتًا) وَكَانَ أَكْبَرَهُمْ .

وَيَرْجِعُ بَعْضُ أَهْلِ الْأَخْبَارِ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي عَدَدِ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ فِيمَا بَيْنَ عَدْنَانَ وَإِسْمَاعِيلَ إِلَى أَيَّامِ النَّبِيِّ ، فَهُمْ يَذُكُرُونَ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا فِي خِلَافٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي عَدَدِهِمْ ، وَإِنَّ الرَّسُولَ رَأَى خِلَافَهُمْ هَذَا ، فَهَاهُمْ عَنْ تَجَاوَزِ نَسَبِ عَدْنَانَ ، وَأَمْرَهُمْ بِالتَّوَقُّفِ عِنْدَهُ . وَاتَّسَبَّ النَّبِيُّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِلَى عَدْنَانَ ، وَقَالَ : « كَذَبَ النَّسَابُونَ .

وَالْغَرِيبُ أَنَّ الرُّوَاةَ الَّذِينَ رَوَوْا هَذِهِ الْأَنْسَابَ وَشَجَرَاتِ النَّسَبِ الَّتِي يَتَّصِلُ سَنَدُ رِوَايَتِهَا بِهِمْ ، كَابْنِ الْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَأَمثَالِهَا ، هُمْ أَنْفُسُهُمْ يَرَوُونَ هَذَا النَّسَبَ بِأَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ وَمُتَضَارِبَةٍ ، وَطَالَمَا حَرَّفُوا الْأَسْمَاءَ الْعِبْرَانِيَّةَ ، وَرَوَوْهَا ، وَقَدْ يَحْشُونَ بَيْنَهَا أَسْمَاءَ عَرَبِيَّةَ . وَقَدْ رَوَى رِوَايَاتِهِمْ هَذِهِ أَنَاسٌ مُعَدَّدَةٌ بِصُورٍ مُتَعَدِّدُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُمْ سَمِعُوهَا مِنْهُمْ ، أَوْ نَقَلُوهَا مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِمْ .

وَيَلَاحِظُ أَنَّ حَظَّ مُصْطَلِحِ (عَدْنَانَ) وَ (عَدْنَانِيَّةِ) وَ (قَبَائِلِ عَدْنَانِيَّةِ) قَدْ بَرَزَ فِي الْإِسْلَامِ بَرُوزًا لَا نَلْحِظُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَلْ حَتَّى فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْمَلْصِقَةِ لِلْإِسْلَامِ وَلِهَذَا غَلَبَ عَلَى مُصْطَلِحِ (مَعَد) وَ

(مَعْدِيَّة) و (قَبَائِلُ مَعْدِيَّة) ، فَصَارَ (عَدْنَانُ) (فِي مُقَابِلِ) قَحْطَانِ (وَمِنْ هُنَا صَارَ الْعَرَبُ قَحْطَانِيْنَ)
أَوْ عَدْنَانِيْنَ ، وَاخْتَفَتْ بِالْتَدْرِيجِ الْمُصْطَلِحَاتِ الْاِتْسَابِيَّةِ الْاُخْرَى الَّتِي شَاعَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ اَوْ فِي
صَدْرِ الْاِسْلَامِ وَيُسْتَنْجَبُ مِنْ اَقْوَالِ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ اَنَّ لُفْظَةَ (مَعْد) (تَعْنِي الشَّظْفَ فِي الْعَيْشِ ، وَالْعَلَطَ فِي
الْمَعَاشِ وَالْتَشْفُفَ ، وَاَنَّهَا تَعْنِي حَيَاةَ بَدْوِيَّةَ شَاقَّةَ بَعِيدَةٍ عَنْ كُلِّ وَسَائِلِ الْحَضَرِ وَتَرْفِ اَهْلِ الْمَدْرِ ، وَهَذَا
بِالنَّظَرِ لِاَهْلِ الْمُدُنِ وَاَهْلِ الْمَدْرِ تَوْعُّجٌ مِنَ الْخُسُونَةِ لَا يَحْمَدُ الْاِنْسَانُ عَلَيْهِ . وَقَدْ وُصِفَتْ مَلَابِسُهُمْ
بِالْخُسُونَةِ كَذَلِكَ فَمَيَّزَتْ عَنْ غَيْرِهَا ، جَاءَ (عَلَيْكُمْ بِالْبُسَّةِ الْمَعْدِيَّةِ ، اَيُّ خُسُونَةِ الْبَاسِ ، وَرُوِيَ :
اُخْشَوْسُنُوا وَتَمَعَّدُوا " . وَبِهَذَا الْمَعْنَى وَرَدَ : وَتَسْمَعُ بِالْمَعْيِدِيِّ خَيْرٌ مِنْ اَنْ تَرَاهُ . فَالظَّاهِرُ اَنَّ كَلِمَةَ
مَعْدَ كَانَتْ تَعْنِي مَا تَعْنِيهِ (اَرِيي) (عَرَبِي) عِنْدَ الْاَشُورِيِّينَ ، اَيُّ الْبَدْوِ وَالْاَعْرَابِ . غَيْرَ اَنَّهَا خُصِّصَتْ
بَعْدَ ذَلِكَ بِقَبَائِلِ خَاصَّةِ الْقَبَائِلِ الَّتِي نُسِبَتْ نَفْسَهَا اِلَى عَدْنَانَ وَاِسْمَاعِيْلَ ، وَاَكْثَرُهَا مِنْ مَكَّةَ وَحَوْلِهَا ، ثُمَّ
تَغَلَّبَتْ عَلَيْهَا (الْعَدْنَانِيَّةُ) (فِي الْعَصْرِ الْاُمُوِيِّ فَمَا بَعْدَهُ وَالْمِثْلُ : (تَسْمُحُ بِالْمَعْيِدِيِّ خَيْرٌ مِنْ اَنْ تَرَاهُ) ،
مِنْ الْاَمَثَالِ الْمَشْهُورَةِ .

أثر التَّوْرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْاَنْسَابِ

لِهَذَا الْمَدْوَنِ فِي التَّوْرَةِ عَنِ الْاِسْمَاعِيْلِيِّينَ وَالْقَحْطَانِيْنَ ، وَعَنْ نُوحٍ وَاَوْلَادِهِ ، وَعَنْ الْاَنْسَابِ الْاُخْرَى ، اَثْرٌ
ظَاهِرٌ عَلَى عَمَلِ اَهْلِ الْاَخْبَارِ وَالْاَنْسَابِ الَّذِيْنَ اِسْتَعْلَوْا بِمَوْضُوعِ التَّسْبِ فِي الْاِسْلَامِ ، بَلْ يَظْهَرُ اَنَّ اَثْرَهُ
كَانَ فِعَالًا وَمَوْثِرًا حَتَّى فِي الْجَاهِلِيْنَ ، وَذَلِكَ لِاتِّصَالِهِمْ وَاخْتِلَاطِهِمْ بِاَهْلِ الْكِتَابِ .

وَكَانَ لَمَّا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَجْمَلًا مِنْ اَمْرِ اَدَمَ وَنُوحٍ وَالطُّوفَانَ وَاِبْرَاهِيْمَ وَاِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَاِسْمَاعِيْلَ
وَعَبْدَهُمْ ، وَمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ اَمْرِ عَادَ وَثَمُوْدَ وَقَوْمِ صَالِحٍ وَاَصْحَابِ الْاَيْكَةِ وَقَوْمِ تَبَعٍ ، اَثْرٌ كَبِيْرٌ اَيْضًا فِي

أَهْلِ الْأَخْبَارِ وَالتَّفْسِيرِ حَمَلَهُمْ عَلَى الْبَحْثِ عَنْهُمْ . وَالتَّقْيِيسِ عَنِ أَخْبَارِهِمْ مِنَ الْأَحْيَاءِ الْمُسْنِينِ الَّذِينَ كَانُوا يَقْضُونَ عَلَى جِيلِهِمْ قِصَصَ الْمَاضِينَ وَأَخْبَارَ الْعَرَبِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا لَهُمْ إِمَامٌ بِمَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ مِنَ الرُّسُلِ وَالنَّبِيِّاءِ وَالْأُمَّمِ الْقَدِيمَةِ وَالْأَنْسَابِ .

وَيُمْكِنُ حَضْرَ الرِّوَايَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الْأَنْسَابِ ، وَالْمَأْخُودَةَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَرَجْعَهَا إِلَى الطَّرِيقِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي وَرَدَتْ مِنْهَا وَإِلَى الْأَمَاكِنِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِيهَا ، وَسَتَجِدُ بَعْدَ الْبَحْثِ أَنَّ أَكْثَرَ رِوَاةٍ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْأَخْبَارِ كَانُوا قَدْ اسْتَقْوُوا مِنْ مُسْلِمَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مِثْلَ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ ، أَنَّ هَذَا الْخَطَأَ لَمْ يَبْعَثْ فِي ضَبْطِ الْأَسْمَاءِ فَقَطْ ، بَلْ وَقَعَ فِي أُمُورٍ جَوْهَرِيَّةٍ أُخْرَى تَرِينًا جَهْلَ بَعْضِ الرِّوَاةِ بِجَدُولِ الْأَنْسَابِ ، وَتَرِينًا الْخَلْطَ أحيانًا بَيْنَ الرِّوَايَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ وَالرِّوَايَاتِ الْإِيرَانِيَّةِ حَتَّى تَكُونَ مِنْ هَذَا الْمَجْمُوعِ الْمُدَوَّنِ فِي الْكُتُبِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَنِ الْأَنْسَابِ خَلِيطٌ مِنْ رِوَايَاتِ إِسْرَائِيلِيَّةٍ وَرِوَايَاتِ فَارِسِيَّةٍ وَقِصَصِ شَعْبِيٍّ عَرَبِيٍّ ، يَجُوزُ أَنْ نُضِيفَ إِلَيْهِ عِنصرًا آخَرَ هُوَ الْوَضْعُ ، فَقَدْ وَضَعَ الرِّوَاةُ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِمْ حِينَ عَجَزُوا عَنِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوَارِدِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ ، وَكَانَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ سَدِّ تِلْكَ الثَّغْرِ ، فَسَدُّوْهَا بِمَا جَادَتْ بِهِ قَرَائِحِهِمْ مِنْ شَعْرٍ وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ، مَا أَدْخَلُوهُ عَلَى التَّوْرَةِ أَيْضًا مِنْ أَنْسَابٍ جَدِيدَةٍ صَنَعُوْهَا بِأَنْفُسِهِمْ .

أوردوها فِي التَّوْرَةِ وَلَيْسَ لَهَا فِي الْوَقَاعِ وَجُودٌ فِيهَا خُذَ آدَمُ ، فَقَدْ صَيَّرَهُ الْأَخْبَارِيُّونَ كِيَوْمَرْتِ وَهُوَ مِنْ الْفُرْسِ ، وَخُذَ نُوْحًا تَرَانَهُ صَارَ أَفْرِيدُونَ عِنْدَ أَهْلِ الْأَخْبَارِ وَهُوَ مِنْ الْفُرْسِ أَيْضًا ، وَجَعَلُوا (لَاوَدَ) ابْنًا مِنْ أَبْنَاءِ أَرَمَ مِنْ سَامِ أَخِي عَوْصِ وَكَأْثَرَ ، مَعَ أَنَّهُ (لُودَ) فِي التَّوْرَةِ ، وَهُوَ شَقِيْقُ إِرَمَ بْنِ سَامِ وَوَالِدِ عَوْصِ وَجَائِرِ ، وَقَالُوا أَشْيَاءَ أُخْرَى لَا وَجُودَ لَهَا فِي التَّوْرَةِ أَمَا مَتَى دَخَلَتْ أَنْسَابُ التَّوْرَةِ إِلَى الْعَرَبِ ، وَمَتَى

ظَهَرَتْ وَشَاعَتْ بَيْنَهُمْ ، فَتَحْنُ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَحْدَدَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ مَضْبُوطٍ بِالنِّقَاسِ إِلَى أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ
وَلَكِنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ إِنَّهَا كَانَتْ قَدْ تَسَرَّبَتْ إِلَى الْجَاهِلِيِّينَ مِنَ الْيَهُودِ ، وَذَلِكَ بِوَجُودِهِمْ فِي الْجَزِيرَةِ
الْعَرَبِيَّةِ وَاتِّصَالِهِمْ بِالْعَرَبِ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ النَّصَارَى أَيْضًا ، وَقَدْ تَفَشَّتْ فِي أَمَاكِنَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَبَيْنَ
بَعْضِ الْقَبَائِلِ ، وَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَيْ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَشَاعُوا بَيْنَ الْجَاهِلِيِّينَ هَذِهِ الْأَنْسَابَ . وَقَدْ تَكُونُ
لِلْيَهُودِ يَدٌ فِي إِشَاعَةِ خَبَرِ رَابِطَةِ النَّسَبِ وَأَوَاصِرِ الْقُرْبَى الَّتِي تُرْبِطُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعَرَبِ ، وَذَلِكَ لِلتَّأثيرِ
عَلَيْهِمْ وَلِلتَّقَرُّبِ مِنْهُمْ ، وَلِلسَّكَنِ بَيْنَهُمْ بِهُدُوءٍ وَسَلَامٍ .

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ جازِمِينَ أَنَّ هَذَا الْقِصَصَ الْإِسْرَائِيلِيَّ ، وَهَذِهِ الْأَنْسَابَ الَّتِي يَرَوِيهَا أَهْلُ الْأَخْبَارِ ، لَمْ
تَكُنْ كَثِيرَةً الشُّيُوعَ بَيْنَ الْجَاهِلِيِّينَ ، وَإِنَّمَا تَرَى مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الْأَخْبَارِيِّينَ قَدْ رَبَطُوا نُسَبَ الْعَرَبِ الْبَائِدَةِ أَيْ
الْعَرَبِ الْأُولَى بِالْإِرْمِيِّينَ (الْأَرَامِيِّينَ) وَبِاللُّوْدِيِّينَ (الْأَلَوْدِيِّينَ) وَبِالْعَوْصِيِّينَ وَبِالْجَائِرِيِّينَ (الْغَائِرِيِّينَ) . وَلَا نَجِدُ
فِي كُتُبِهِمُ الْأَسْبَابَ الَّتِي حَمَلْتَهُمْ عَلَى رَجْعِ أَنْسَابِ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ إِلَى هَؤُلَاءِ الْأَبَاءِ . وَيُظْهِرُ أَنَّ فَكْرَهُ وَجُودَ
عَرَبٍ أَوْلَى عَاشَتْ قَبْلَ مُعَارِكَةِ النَّسَبِ بَيْنَ الْقَحْطَانِيِّينَ وَالْعَدْنَانِيِّينَ .

أَمَّا أَثَرُ التَّوْرَةِ عَلَى التَّسَابِينِ وَأَهْلِ الْأَخْبَارِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْعَرَبِ ، الطَّبَقَةِ الَّتِي دَعَاها
الْعَرَبُ الْعَارِبَةَ ، وَالْعَرَبُ الْقَحْطَانِيِّينَ ، فَقَدْ ذُكِرَتْ فِي الْفَصْلِ الْخَاصِّ بِهَؤُلَاءِ الْعَرَبِ أَنَّ (قَحْطَانَ) جَدَّ
الْقَحْطَانِيِّينَ ، هُوَ (يَقْطَان) فِي التَّوْرَةِ . وَقَدْ نَسَبَهُ أَكْثَرُ أَهْلِ الْأَخْبَارِ إِلَى (عَابِرِ بْنِ شَالِحِ بْنِ أَرْفَخْشَدِ بْنِ
سَامِ بْنِ نُوحِ) . وَصَيَّرَهُ بَعْضُهُمْ ابْنًا مِنْ أَبْنَاءِ سَامِ . وَقَدْ ذُكِرَتْ أَنَّ النَّسَبَ الثَّانِيَّ نُسَبَ مَغْلُوطِ ، وَإِنَّ
نَسَبَهُ الْمَذْكُورُ فِي التَّوْرَةِ يَجْعَلُهُ الْإِبْنِ الثَّانِيَّ الْأَصْغَرَ لـ (عَابِرِ) . أَمَّا الْوَلَدُ الْبِكْرُ فَهُوَ فَالِجُ ، فَيَكُونُ
الْعَبْرَانِيُّونَ وَالْيَقْطَانِيُّونَ أَبْنَاءَ عَمِّ وَفَقَّ هَذَا النَّسَبِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ فِي التَّوْرَةِ إِلَى أَنَّ (يَقْطَانَ)

(لا وُجُودَ لَهُ إِنَّمَا ابْتَدَعَ ابْتِدَاعاً لِإِبْجَادِ صِلَةِ بَيْنِ الْعَرَبِ وَالْعِبْرَانِيِّينَ وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ فِي التَّوْرَةِ إِلَى أَنْ عَابِراً ، جَدَّ قَبِيلَةٍ كَبِيرَةٍ اتَّقَسَمَتْ عَلَى نَفْسِهَا إِلَى قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ بَقِيَ فِيمَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ ، وَهُوَ الْقِسْمُ الَّذِي عُرِفَ بِذَرِيَةِ فَالِجِ ، وَمِنْ هَذِهِ الذُّرِّيَّةِ أَنْحَدَرَ الْعِبْرَانِيُّونَ ، وَقِسْمٌ تَرَكَ (مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ) وَارْتَحَلَ إِلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَهُوَ الْقِسْمُ الَّذِي عُرِفَ بِ (يَقْطَانِ) ، وَدَلِيلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى (فَالِجِ) هُوَ (الْإِنْشِقَاقُ) ، وَإِنَّ فِي أَيَّامِهِ (قُسِمَتِ الْأَرْضُ) عَلَى رِوَايَةِ التَّوْرَةِ . وَمَعْنَى (الْإِنْتِسَامِ) ذَلِكَ انْتِسَامُ ذُرِّيَّةِ (عَابِرِ) ، وَانْشِطَارُهُمْ إِلَى شَطْرَيْنِ وَقَدْ ذَكَرَ (الطَّبْرِيُّ) أَنَّ (بَنِي يَقْطَانَ) لَحِقَتْ بِالْيَمَنِ ، فَسُمِّيَتْ الْيَمَنُ حَيْثُ تَيَامَنُوا ، وَمَصْدَرُ خَبْرِهِ هَذَا (ابْنُ هِشَامٍ) .

وَلَمْ يَنْلُ هَؤُلَاءِ الْأَوْلَادُ الثَّلَاثَةَ عَشَرَ عِنَايَةَ الْأَخْبَارِيِّ (ابْنِ الْكَلْبِيِّ) ، وَلَا عِنَايَةَ (مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ) ، أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ أَهْلِ الْأَخْبَارِ الْمَعْرُوفِينَ بِأَخْذِهِمْ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، إِذْ لَمْ يَشِيرُوا إِلَيْهِمْ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِمْ عَلَى أَوْلَادِ (يَقْطَانَ) (يَقْطَانِ) ، وَلَمْ يَتَحَدَّثُوا عَنْهُمْ . بَلْ نَسَبُوا إِلَيْهِ أَوْلَاداً آخَرِينَ تَرَاوَحَ عَدَدُهُمْ مِنْ عَشْرَةِ ذُكُورٍ إِلَى وَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ ، أَسْمَاؤُهُمْ أَسْمَاءُ عَرَبِيَّةٍ ، لَا وُجُودَ لَهَا فِي التَّوْرَةِ ، مَا عَدَا اسْمًا أَوْ اسْمَيْنِ . وَهَذَا الْإِهْمَالُ يَثِيرُ فِي نَفُوسِنَا الدَّهْشَةَ وَالِاسْتِعْرَابَ : لَمْ أَهْمَلْ يَا تَرِي هَؤُلَاءِ الْأَخْبَارِيُّونَ أَنْبَاءَ قَحْطَانَ الْمَذْكُورِينَ فِي التَّوْرَةِ مَعَ أَنَّهُمْ أَخَذُوا (يَقْطَانَ) مِنَ التَّوْرَةِ ، وَجَعَلُوا نَسَبَهُ نَسَباً لِقَحْطَانَ ! وَلَمَّا تَكْرَمُوا عَلَيْهِ فَأَعْطَوْهُ عِدداً مِنَ الْأَوْلَادِ لَمْ يَأْتِ لَهُمْ ذِكْرٌ فِي التَّوْرَةِ ؟ وَلَمَّا لَمْ يَضُمَّ أَهْلُ الْأَخْبَارِ أَوْلَادَ (يَقْطَانَ) (الْمَذْكُورِينَ إِلَى أَوْلَادِ قَحْطَانَ) ؟ إِنْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى جَهْلِ أَهْلِ بَيْتِهِمْ وَعَدَمِ وَقُوفِهِمْ عَلَيْهِمْ أَمْ هُوَ عَمَلٌ مُتَقَوِّدٌ ؟ إِنْ كَانَ جَهْلُهُمْ بِهِمُ السَّبَبُ هُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْأَخْبَارِ لَمْ يَكُونُوا يَرْجِعُونَ إِلَى التَّوْرَةِ رَأْساً ، يُقْرَأُونَ أَسْفَارَهَا وَيَأْخُذُونَ مِنْهَا ، بَلْ كَانُوا - وَهَذَا هُوَ مَا أَذْهَبَ إِلَيْهِ - يَرِاجِعُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ

وَيَأْخُذُونَ مِنْهُمْ مَا يُرِيدُونَ وَلِهَذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى أَوْلَادِ (يَقْطَانِ) ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْهُمْ ، أَوْ لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ يَتَحَدَّثُوا إِلَيْهِمْ عَنْهُمْ . عَلَى أَنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقْبَلَ هَذَا الْعُذْرَ ، ذَلِكَ لِأَنَّ أَهْلَ الْأَخْبَارِ كَانُوا قَدْ ذَكَرُوا أَسْمَاءَ أَبْنَاءِ (إِسْمَاعِيلِ) ، نَقَلُوهَا مِنَ التَّوْرَةِ وَعَلَى حَسَبِ التَّرْتِيبِ الْوَارِدِ فِي (التَّكْوِينِ) . وَهَذَا مَا يَجْعَلُنَا تَسْأَلُ : تَمَّ ذِكْرُ أَهْلِ الْأَخْبَارِ أَبْنَاءِ (إِسْمَاعِيلِ) ، وَأَهْمَلُوا أَبْنَاءَ (يَقْطَانَ) هَلْ هُنَاكَ تَعَمُّدٌ وَعَرَضٌ ؟

أَنَّ الْجِابَةَ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ ، لَيْسَتْ سَهْلَةً فِي الْوَاقِعِ ، لِأَنَّ أَهْلَ الْأَخْبَارِ لَمْ يَكُونُوا يَسِيرُونَ عَلَى قَوَاعِدٍ ثَابِتَةٍ وَأَنْظِمَةٍ مُعَيَّنَةٍ فِي اخْتِزَانِ الْأَنْسَابِ ، وَلِهَذَا تَرَاهُمْ يَقَعُونَ فِي الْغَلَطِ ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عِلْمَهُمْ بِالْأُمُورِ الْوَارِدَةِ فِي التَّوْرَةِ لَمْ يَكُنْ عِلْمًا رَاسخًا ، وَإِنْ عِلْمَ مُحَدِّثِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمْ يَكُنْ رَاسخًا أَيْضًا وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَمَدًّا مِنَ التَّوْرَةِ رَاسخًا ، بَلْ مِنْ السَّمَاعِ وَالرَّوَايَةِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، وَإِلَّا لَمَا وَقَعُوا فِي إِغْلَاطٍ شَنِيعَةٍ ، وَمَا اِحْتَأَجُّوا إِلَى الْوَضْعِ وَالْكَذِبِ ، كَالَّذِي تَرَاهُ مِنْ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مَنبِيهِ وَأُمَّتَاهُمَا مُسَلِّمَةً مِنَ الْيَهُودِ .

الاسماعيليون

(إِسْمَاعِيلِ) هُوَ الْجَدُّ الْأَكْبَرُ لِلْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ ، أَيُّ الْعَرَبِ الْعَدْنَانِيِّينَ وَهُوَ (يَشْمِيلِ) (Ishmael) فِي التَّوْرَةِ وَمَعْنَى الْاسْمِ (إِلَهِي يَسْمَعُ) ، أَوْ (يَسْمَعُ إِلَهِي) . وَهُوَ ابْنُ (إِبْرَاهِيمَ) (مِنْ زَوْجَةٍ) هَاجِرٍ) . وَنَقُولُ التَّوْرَةَ أَنَّهُ (حَتْنُ) وَهُوَ فِي الثَّلَاثَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ ، وَرَحَلَ إِلَى بَرِيهِ (فَارَانَ) فَتَزَوَّجَ فِيهَا مِنْ امْرَأَةٍ مِصْرِيَّةٍ ، وَعَاشَ فِيهَا رَامِيًا بِالسَّهَامِ حَيْثُ أُشْتُهِرَ بِالرَّمَايَةِ . وَلَمْ تَذَكَرِ التَّوْرَةُ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا عَنْهُ ، إِلَّا مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّهُ حَضَرَ دَفْنَ أَبِيهِ (إِبْرَاهِيمَ) ، وَأَنَّهُ عَاشَ (١٣٧) سَنَةً .

وَيَعْتَرِفُ الْعِبْرَانِيُّ بِوُجُودِ صَلَاتِ قُرْبَى لَهُمْ بِالْإِسْمَاعِيلِيِّينَ . وَيُظْهِرُ أَنَّ الْقَبَائِلَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةَ عَاشَتْ زَمَانًا طَوِيلًا فِي طُورِ سَيْنَاءَ وَفِي جَنُوبِ فِلَسْطِينَ . عَاشَتْ عَيْشُهُ أَعْرَابِيَّةً . وَلِهَذَا كَانَ الْإِسْمَاعِيلِيُّونَ أَهْلَ وَبَرٍ بِالْقِيَاسِ إِلَى الْيَقْطَانِيِّينَ الْمَسْتَقْرِينَ . وَقَدْ نَظَرَ الْعِبْرَانِيُّونَ نَظْرَهُ عَدَاءً إِلَى الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّشُونَ بِهِمْ وَيُعَيِّرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَتَعَرَّضُونَ بِتِجَارَاتِهِمْ . وَقَدْ ذَكَرُوا فِي أَيَّامِ (دَاوُدَ) . وَقَدْ وَرَدَ فِي التَّوْرَةِ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى (هَاجِرِ) بِبَشْرِهَا بِأَنَّ نَسْلَ ابْنِهَا سَيَكْثُرُ وَيَنْمُو حَتَّى يَكُونَ أُمَّةً عَظِيمَةً ، وَهُوَ كِتَابَةٌ عَنِ كَثْرَةِ عَدَدِ أَوْلَادِ الْأَعْرَابِ فِي الْأَيَّامِ .

و (نباوت) هُوَ بَكْرُ إِسْمَاعِيلِ وَأَهَمُّ الْقَبَائِلِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ فِي التَّوْرَةِ ، وَقَدْ أُعْطِيَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ أَهْلُ الْأَخْبَارِ أَيْضًا لِأَخْذِهِمْ مِنْهَا . وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ الْأَسْبَابَ الَّتِي جَعَلَتِ التَّوْرَةَ تُعَدُّ أَحْسَنَ أَوْلَادِ (إِسْمَاعِيلِ) أَرَاعَتْ فِي ذَلِكَ بَعْدَ الْقَبِيلَةِ ، أَمْ رَاعَتْ قُرْبَاهَا مِنَ الْعِبْرَانِيِّينَ ، أَمْ ضَخَامَتَهَا وَكَثْرَةَ عَدَدِهَا بِالْقِيَاسِ إِلَى الْقَبَائِلِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْأُخْرَى ، أَمْ أَمْرًا أُخْرَى جَعَلَتِ الْعِبْرَانِيِّينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ أَقْدَمُ تِلْكَ الْقَبَائِلِ ؟ فَلَيْسَ فِي التَّوْرَةِ قَوَاعِدُ ثَابِتَةٌ تَمْشِي عَلَيْهَا كِتَابَةُ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ فِي تَدْوِينِ الْأَنْسَابِ وَيُعْرَفُ (نباوت) بـ (ثابت) و (فبت) عِنْدَ الْأَخْبَارِيِّينَ . وَمِنْهُ وَمَنْ قِيدَرُ ، نَشَرَ اللَّهُ الْعَرَبَ ، عَلَى رَأْيِ أَهْلِ الْأَخْبَارِ " . وَقَدْ جَعَلَ بَعْضُ الْأَخْبَارِيِّينَ نَابِتًا وَالِدًا لـ (يَشْجُب) ، مَعَ أَنَّ (يَشْجُب) هُوَ ابْنُ (يِعْرَب) عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ . وَقَدْ وَرَدَ اسْمُ نَبَايُوتَ (مَعَ اسْمِ (قِيدَارِ) فِي التَّنْصُوصِ الْأَشُورِيِّ وَيُظْهِرُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَقْوِيَاءَ كَثِيرِي الْعَدَدِ . وَيَدُلُّ وُرُودُ اسْمِهِمْ مَعَ (قِيدَارِ) فِي التَّوْرَةِ فِي التَّنْصُوصِ الْأَشُورِيِّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُتَجَاوِرِينَ . وَلَمْ تُعَيَّنِ التَّوْرَةُ مَوَاضِعَ سُكْنَاهُمْ ، وَلَكِنْ وُرُودُ اسْمِهِمْ فِي رَأْسِ قَائِمَةِ الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ وَأَقْرَابِهِ بِالْأَدُومِيِّينَ عَنِ طَرِيقِ الْمَصَاهِرَةِ وَوُقُوفِ الْعِبْرَانِيِّينَ عَلَى إِخْبَارِهِمْ يَدُلُّ كُلُّهُ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَقِيمُونَ فِي

الْمَنَاطِقِ الْوَاقِعَةِ فِي جَنُوبِ شَرْقِيِّ فِلَسْطِينَ وَفِي الْأَقْسَامِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ بَادِيَةِ الشَّامِ . وَقَدْ ذَهَبَ
(كلاسر) إِلَى أَنْ (نَبَايُوتَ) (مَشِيخَةَ) أَوْ مَمْلَكَةَ حَكَمَتْ فِي (الْقَصِيمِ) ، وَقَدْ كَانَتْ مَعَاصِرَهُ لِمَمْلَكَةِ
(عَرَبِي) ، وَكَانَتْ لَا تَزَالُ مُسْتَقَلَّةً فِي أَيَّامِ الْفُرْسِ .

وَقَدْ وَرَدَ اسْمُ (قِيدَارِ) فِي النُّصُوصِ الْأَشُورِيَّةِ ، وَرَدَ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ : (قدرو) (Kidru) و
(قدرو) (Kadra) ، كَمَا وَرَدَ فِي الْمُؤَلَّفَاتِ (الكلاسيكية) ، فَقَالَ لَهُمْ (بَلِينْيُوسُ) (Pliny)
(قدراي) (Cedrei) ، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ قَبِيلَةٌ عَرَبِيَّةٌ تُقِيمُ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ النَّبْطِ . وَقَدْ حَارَبَهُمْ (أَشُورُ
بِنَالِ) ، وَكَانَ مُلْكُ (قِيدَارِ) فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ ، مُلْكٌ عُرِفَ بِاسْمِ (أَوْ أَيْطَعِ) (U Aite) ابْنِ
(خَزَاعِيلِ) (Hazael) وَقَدْ ذَكَرَهُمْ (أَشُورُ بِنَالِ) مَعَ (عَرَبِي) (أَرِييِ) .

كَمَا ذَكَرَهُمْ (حَزَقِيَالِ) مَعَ الْعَرَبِ (الْعَرَبُ وَكُلُّ رُؤَسَاءِ قِيدَارِ) ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَوَاطِنَ (قِيدَارِ)
كَانَتْ تُجَاوِرُ الْعَرَبَ ، وَيُرَادُ بِالْعَرَبِ هُنَا ، الْإِعْرَابُ يَتَّفِقُ مَا جَاءَ فِي نَصِّ (أَشُورِ بِنَالِ) كُلِّ الْإِتِّفَاقِ مَعَ
وَذَكَرُوا بَعْدَ (نَبَايُوتِ) فِي التَّوْرَةِ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَنُونَ فِي جَوَارِهِمْ ، كَمَا ذَكَرُوا مَعَ مَمَالِكِ
حَاصِرِ الَّتِي ضَرَبَهَا (نَبُوخَذَنْصَرُ) (بَحْتَنْصَرُ) . وَقَدْ نَكَلَ (بَحْتَنْصَرُ) بِالْقِيدَارِيِّينَ كَذَلِكَ وَخَرَّبَ
بِلَادِهِمْ وَأَخَذَ غَنَائِمَ كَثِيرَةً مِنْهُمْ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى مَا وَقَعَ فِي أَيْدِي جَيْشِهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَخِيَامِهِمْ وَغَنَمِهِمْ
وَجَمَالِهِمْ وَقَدْ وَرَدَ وَصْفُ ذَلِكَ فِي سَفَرِ (إِزْمِيَاءِ) .

وَيُظْهِرُ مِنَ التَّوْرَةِ أَنَّ الْقِيدَارِيِّينَ كَانُوا أَعْرَابًا يَعِيشُونَ فِي الْخِيَامِ ، عَيْشَةَ أَهْلِ الْبَدَاوَةِ ، وَقَدْ وَصَفَتْ
خِيَامَهُمْ بِأَنَّهَا خِيَامُ سُودٍ (أَنَا سُودَاءُ وَجَمِيلَةٌ يَا بَنَاتِ) .

وَأَمَّا أُدْبَيْلُ (Adbeel) ، فَكِنَايَةٌ عَنِ قَبِيلَةِ عَرَبِيَّةٍ أُخْرَى مِنَ الْقَبَائِلِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ ، يُرَى بَعْضُ عُلَمَاءِ التَّوْرَةِ أَنَّهَا عَاشَتْ فِي جَنُوبِ غَرْبِيِّ الْبَحْرِ الْمَيِّتِ . وَيُظَنُّ أَنَّهَا قَبِيلَةٌ (أدب ائيلة Idibaila) (Dibiila) (ادبيله) (ادبعيله) (دبيله) (وبعيلة) الْمَذْكُورَةَ فِي كِتَابِهِ مِنْ كِتَابَاتِ الْمَلِكِ (تغلا تبلسر الثالث) . وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا الْمَلِكُ أَنَّهُ عَيْنٌ نَائِبًا عَنْهُ ، أَوْ مَنْدُوبًا سَامِيًّا (قيبو) (Kepu) عَلَى خَمْسَةِ عَشَرَ مَوْضِعًا ، وَكَانَ اسْمُ هَذَا الْمَنْدُوبِ (أدب ابل) (أدبيل) (Idibi ' il) ، وَهُوَ سَيِّدُ قَبِيلَةٍ عَرَفَتْ بِهَذَا الْاسْمِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ قَوَّضَ إِلَيْهِ أَمْرَ حِمَايَةِ الْحُدُودِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا مِنَ الْغَزْوِ . وَتَقَعُ أَرْضُ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنَ الْحُدُودِ الْمِصْرِيَّةِ وَفِي الْجَنُوبِ مِنْ غَزَّةَ " . وَكَانَتْ هَذِهِ الْقَبِيلَةُ لَا تَزَالُ مُوجُودَةً فِي أَيَّامِ الْمَوْرِخِ الْيَهُودِيِّ (يُوْسُفُ فِافْيُوسُ) وَيَلِي (أدبيل) (فِي تَسْلُسِلِ أَوْلَادِ إِسْمَاعِيلِ ، مِيسَامُ (Mibsam) ، وَقَدْ سُمِّيَ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ (مِيسَا) ، وَلَا تَعْرِفُ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ شَيْئًا وَالْغَالِبُ عَلَى أَتْنَاءِ إِسْمَاعِيلِ الْبِدَاوَةِ ، أَيُّ حَيَاةِ التَّنَقُّلِ وَالْغَزْوِ وَالرَّمَايَةِ ، لِذَلِكَ كَانَتْ مُلَاحِظَةُ التَّوْرَةِ عَنْ إِسْمَاعِيلِ مِنْ أَنَّهُ سَيِّئُشَا رَامِيًّا ، مُلَاحِظَةٌ حَسَنَةٌ ، تَدُلُّ عَلَى تَبَصُّرِ بَأُمُورِ الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ (الَّذِينَ كَانُوا يَقُومُونَ بِالْغَزْوِ وَيُرْمُونَ بِالسَّهَامِ . أَمَّا الْمَجْمُوعَةُ الثَّلَاثَةُ مِنْ مَجْمُوعَاتِ أَنْسَابِ الْعَرَبِ الْمَذْكُورَةِ فِي التَّوْرَةِ ، فَإِنَّهَا مَجْمُوعَةٌ قَبَائِلُ نُسِبَتْ إِلَى قَطُورَةَ زَوْجِ إِبْرَاهِيمَ وَفِي التَّوْرَةِ أَنَّ الْمَدْيَانِيِّينَ (كَانُوا بِرُفْقَةِ) الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ (لَمَّا مُوسَى نَزَلَ عِنْدَهُمْ وَتَزَوَّجَ فِيهِمْ: أَخَذُ ابْنَهُ يُثْرُونَ كَاهِنًا (مَدْيَانِ) مَدِينًا . وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ (يُثْرُونَ مِنْ بَنِي الْقَيْنِيِّ) (Kenite) وَيُظَنُّ أَنَّ (بَنِي الْقَيْنِيِّ) هُمْ فُرْعٌ مِنْ فُرُوعِ (مَدْيَانِ) Gideon (كَانَ الْمَدْيَانِيُّونَ قَدْ ضَاقُوا الْعَبْرَانِيِّينَ مُضَاقَةً شَدِيدَةً ، وَكَانُوا قَدْ الْعَمَلِقَةَ وَ (بَنِي الْمَشْرِقِ ، فَتَمَكَّنَ (جَدْعُونُ) مِنْ إِخْرَاجِهِمْ وَقَدْ وَرَدَ فِي سَفَرِ (الْقَضَاءِ) اسْمُ أَمِيرَيْنِ مِنْ أَمْرَاءِ الْمَدْيَانِيِّينَ ، هُمَا (غُرَابُ) (Oreb) ، وَ (ذَنْبُ) (Zeeb) (وَوَرَدَ فِي الْأَصْحَاحِ الثَّامِنِ

مِنْ الْقَضَاةِ اسْمٌ مَلَكَينِ أَوْ (شَيْخَيْنِ) مِنْ (مَدْيَانَ) (مَدِينِ) هُمَا : (زُبْحِ) (Zebah) و
 (صُلْمَنَاعِ) (Zalmuna) . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ لِلْمَدْيَانِيِّينَ شَأْنٌ مُنْذُ هَذَا الْعَهْدِ ، فَلَمْ يَرُدَّ عَنْهُمْ
 شَيْءٌ يُذَكِّرُ ، وَلَعَلَّهُمْ ذَابُوا فِي الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُخْرَى . وَيُنْفِهُهُمْ مِمَّا جَاءَ فِي (الْقَضَاةِ) أَنَّهُمْ كَانُوا فَرَعًا مِنْ
 (الْأَسْمَاعِيلِيِّينَ) . وَالَّذِي يُفْهَمُ مِنْ مَوَاضِعِ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ أَسْفَارِ التَّوْرَةِ أَنَّ مُوَاطِنَ (الْمَدْيَانِيِّينَ) كَانَتْ تَقَعُ
 شَرْقَ الْعَبْرَانِيِّينَ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ تَوَعَّلُوا فِي الْمَنَاطِقِ الْجَنُوبِيَّةِ لِفِلَسْطِينِ ، وَاتَّخَذُوا لَهَا هُنَاكَ مُوَاطِنَ
 جَدِيدَةً ، عَاشُوا فِيهَا أَبَدًا طَوِيلًا بَعْدَ هَذَا التَّارِيخِ حَيْثُ يَرُدُّ ذِكْرُهُمْ فِي الْأَخْبَارِ الْمُتَأَخَّرَةِ . " . وَقَدْ
 ذَكَرَ (بَطْلَمِيُوسُ) مَوْضِعًا يُقَالُ لَهُ (مُودِينَا) (Modiana) عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ ، يَرَى الْعُلَمَاءُ
 أَنَّهُ مَوْضِعٌ (مَدِينِ) ، وَهُوَ يَنْطَبِقُ عَلَى مَوْضِعِ أَرْضِ مَدْيَنَ الْمَعْرُوفَةِ فِي الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ . وَذَكَرَ فِي
 التَّوْرَةِ اسْمُ شَعْبٍ سَكَنَ فِي شَرْقِي الْأُرْدُنِّ وَفِي شَرْقِي أَرْضِ (جِلْعَادِ) ، عَرَفَ بِاسْمِ
 (الْهَاجِرِيِّينَ) . وَهُمْ مِنْ الْعَرَبِ أَوْ مِنْ (بَنِي إِرَمِ) فِي رَأْيِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ . غَيْرَ أَنَّ إِطْلَاقَ هَذِهِ اللَّفْظَةِ
 عَلَى الْأَسْمَاعِيلِيِّينَ ، يُدَلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ الْعَرَبَ ؛ لِأَنَّ (الْأَسْمَاعِيلِيِّينَ) هُمُ الْعَرَبُ ، وَأَنَّ (هَاجَرَ) كِنَايَةٌ
 عَنْ أُمِّ إِسْمَاعِيلِ (جَدُّ الْقَبَائِلِ الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَنْهَا عَلَى رَأْيِ التَّوْرَةِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ إِلَى الْإِ
 أَنَّ مُرَادَ التَّوْرَةِ مِنْ (الْهَاجِرِيِّينَ) (الْأَعْرَابِ) ، أَيُّ الْبَدْوِ وَهُمْ عَرَبٌ أَيْضًا . وَقَدْ ائْتَدَتْ مَنَازِلُ الْهَاجِرِيِّينَ
 مِنْ الْفُرَاتِ إِلَى (طُورِ سَيْنَاءِ) ، مِنْطَقَةٌ فِيهَا وَتَضُمُّ الْأَعْرَابَ وَاسِعَةً تَشْمَلُ الْبَادِيَةَ : بَادِيَةَ الشَّامِ عَدَدًا
 كَبِيرًا مِنْ مَنَازِلِ الْأَسْمَاعِيلِيِّينَ أَيْضًا ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي عَدَمِ تَمْيِيزِ التَّوْرَةِ أَحْيَانًا فِيمَا بَيْنَ
 الْهَاجِرِيِّينَ وَالْأَسْمَاعِيلِيِّينَ . وَقَدْ ذَكَرُوا مَعَ (بَطُورِ) (Jetur) و (Naphish) ، وَهُمَا مِنْ
 الْأَسْمَاعِيلِيِّينَ . وَأَشِيرُ إِلَى اسْمِ رَجُلٍ مِنَ الْهَاجِرِيِّينَ عَرَفَ بِ (يَازِيزِ) (Jaziz) ، ذَكَرَتْ التَّوْرَةُ أَنَّهُ
 كَانَ يَرْعَى بَعَنَمَ دَاوُودَ " فِي جُمْلَةِ أَشْخَاصٍ كَانَ (دَاوُودُ) قَدْ أَوْدَعَ إِلَيْهِمْ أَمْرًا إِدَارَةَ أَمْوَالِهِ . لَقَدْ وَرَدَتْ

أَكْثَرَ الْأَخْبَارِ تَقْلًا عَنْ (كَعْبِ الْأَخْبَارِ) و (وَهْبِ بْنِ مُنْبَهٍ) وَأَضْرَابَهُمَا . وَقَدْ يَنْتَهِي ب (ابْنِ عَبَّاسٍ) ،
عَنْ طَرِيقِ (ابْنِ الْكَلْبِيِّ) عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ ، وَلِلْعُلَمَاءِ كَلَامٌ فِي هَذَا السَّنَدِ و (ابْنِ الْكَلْبِيِّ)
مُورِدٍ مَشْهُورٍ مَعْرُوفٍ فِي هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ ، لَا يُقَابَلُهُ فِي ذَلِكَ إِلَّا ابْنُ إِسْحَاقَ (الَّذِي عُرِفَ ، كَمَا
ذَكَرْتُ فِي أَوَّلِ هَذَا الْفَصْلِ ، مِنْ مَنَاهِلِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَكَانَ يُسَمِّيهِمْ أَهْلَ الْعِلْمِ الْأَوَّلِ ، فَمَلَأَ كِتَابَهُ لِذَلِكَ
بَعَثَ كَثِيرًا ، لِاعْتِمَادِهِ عَلَى هَؤُلَاءِ وَتَوْثِيقِهِ لَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَأَكْثَرِهِمْ كَمَا يُظْهِرُ مِنْ تَقْدِيمِ مَا نُسِبَ إِلَيْهِمْ عِلْمٌ بِمَا
جَاءَ فِي التَّوْرَةِ . وَبُكِّبَ الْيَهُودَ الْأُخْرَى . وَقَدْ ظَهَرَ لِي مِنْ دِرَاسَاتِي لِهَذَا الْمَوْضُوعِ وَلِلْقَصَصِ
الْإِسْرَائِيلِيِّ عَامَّةً أَنَّ كَثِيرًا مِنْ هَذَا الَّذِي يَرْوِيهِ أَهْلُ الْأَخْبَارِ فِي التَّسْبِيبِ وَفِي الْقِصَصِ ، بَعِيدٌ عَمَّا يَرِدُ فِي
التَّوْرَةِ ، وَقَدْ اخْتَرَعَ اخْتِرَاعًا وَصَنَعَ بَغَاوَةً وَبِجْهَلٍ ، وَخَشِيَ بِالْفَاظِ عِبْرَانِيَّةً أَوْ قَرِيبَةً مِنْهَا ، بِطَرِيقَةٍ
مُضْحِكَةٍ أحيانًا ، تَدُلُّ عَلَى خُبْثٍ وَاضِعِ الْخَبْرِ أَوْ جَهْلِهِ ، وَعَلَى سَدَاجَةِ التَّنَاقُلِ عَنْهُ وَعَلَى عَدَمِ
اهْتِمَامِهِ إِلَّا بِإِظْهَارِ نَفْسِهِ بِمُظْهِرِ الْوَاقِفِ عَلَى عَدَمِ اهْتِمَامِهِ إِلَّا بِإِظْهَارِ نَفْسِهِ بِمُظْهِرِ الْوَاقِفِ عَلَى
الْأَخْبَارِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ لَا يَهْمُهُ الْأَخْبَارُ وَقَصَصُهَا لِلنَّاسِ ، وَقَدْ يَكُونُ هُوَ وَاضِعُ تِلْكَ الْأَخْبَارِ وَصَانِعُ و
(هِشَامُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ السَّائِبِ الْكَلْبِيِّ) ، هُوَ مِنَ الْأَخْذِينَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَذَلِكَ ، الْمُدْحَلِينَ
لِلْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَالنَّسَابِ التَّوْرَةِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ . وَهُنَاكَ نَفَرٌ آخَرُونَ ، يُخْرِجُنَا ذِكْرَ أَسْمَائِهِمْ هُنَا عَنْ صُلْبِ
الْمَوْضُوعِ . وَلِهَذَا أَكْتُفِيتُ بِذِكْرِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، لِمَا لَهَا مِنْ أَثَرٍ بَارِزٍ فِيمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ فِي مَوْضُوعِ
الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَالنَّسَابِ التَّوْرَةِ . وَأَمَّا مَا نُسِبَ إِلَيَّ (ابْنِ عَبَّاسٍ) مِنْ أَقْوَالِهَا صِلَةً بِالتَّوْرَةِ فَيَجِبُ
دِرَاسَتُهُ بِحَذَرٍ وَتَقْدِيرِهِ تَقْدِيرًا عَمِيقًا ، وَمُطَابَقَتُهُ بِمَا وَرَدَ فِي تِلْكَ الْأَسْفَارِ وَفِي كُتُبِ الْيَهُودِ الْأُخْرَى . وَقَدْ
سِلْسِلَةَ السَّنَدِ الَّتِي تَرْوِي تِلْكَ الْأَقْوَالَ وَنَسَبُهَا إِلَيْهِ . وَلَمْ يَقُمْ حَتَّى الْآنَ بِأَحْتِ لَفْتِ نَظَرِهِ هَذَا

المَوْضُوع . لِذَلِكَ أَرْجُو أَنْ يُتَّبَعَ إِلَيْهِ الْعُلَمَاءُ لِيُبَدُّوا رَأْيَهُمْ فِيهِ ، وَرَأْيُهُمْ فِي الْأَقْوَالِ الْمَثَلَةِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَى صَحَابَتَيْنِ آخَرَيْنِ وَتَابِعَيْنِ ، لِيَكُونَ حُكْمَنَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ حُكْمًا مُسْتَنَدًا إِلَى دَرَسِ وَعِلْمِ . وَمِمَّا نُسِبَ إِلَى (ابْنِ عَبَّاسٍ) شِعْرٌ مَشْهُورٌ مَعْرُوفٌ الْيَوْمَ بَيْنَ النَّاسِ قَالُوا إِنَّهُ نَسَبَهُ إِلَى آدَمَ ، وَأَنَّهُ قَالَ : إِنَّ آدَمَ نَظَّمَهُ بَعْدَ قَتْلِ ابْنِهِ ، وَهُوَ شِعْرٌ مَوْضُوعٌ بِالطَّبَعِ ، وَضَعُ عَلَى آدَمَ ، عَلَى لِسَانِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَلَمْ يَعْرِفْ عَنْ (كَتَبِ الْأَخْبَارِ) أَنَّهُ أَلْفٌ أَوْ دُونَ شَيْئًا ، إِنَّمَا عَرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَجْلِسُ مَجَالِسُهُ فِي الْمَسْجِدِ يَتَحَدَّثُ إِلَى النَّاسِ وَيَسْتَعِينُ بِالتَّوْرَةِ أحيانًا يَقْرَأُ مِنْهَا عَلَيْهِمْ ، وَيُفَسِّرُهَا لَهُمْ " وَلَكِنْ (الْهَمْدَانِيُّ يُذَكِّرُ أَنَّهُ كَانَ قَدْ كَتَبَ ، وَإِنْ أَهْلُ صَعْدَةَ) ، كَانُوا قَدْ تَوَارَثُوا كُتُبَهُ وَرَوَوْا مِنْهَا قَالَ : رَوَى الصَّعْدِيُّونَ مَرْفُوعًا إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْخَنْفَرِيِّ ، قَالَ : قَرَأْتُ كُتُبَ الْأَخْبَارِ ، وَكَانَ كَتَبُ رَجُلًا مِنْ حَمِيرٍ مِنْ ذِي رَعِينٍ ، وَكَانَ قَدْ قَرَأَ التَّوْرَةَ ، وَالْإِنْجِيلَ ، وَالزَّبُورَ ، وَالْفُرْقَانَ ، وَأَوْسَعُ فِي الْعِلْمِ " . وَقَالَ أَيْضًا : (وَالْوَجْهَ مَا ذَكَرْنَا فِي أَوَّلِ السَّيْرَةِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ، مَا رَوَاهُ أَهْلُ صَعْدَةَ كَتَبِ الْأَخْبَارِ فِي خَلْقِ آدَمَ ، وَمَنْ خَلَفَهُ إِلَى نُوحٍ ، وَخَبَرَ الطُّوفَانَ . وَلَمْ أَجِدْ فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ هَذِهِ الْقَحْطَائِيَّةَ وَالْعَدْنَائِيَّةَ الَّتِي يَرَاهَا أَهْلُ النَّسَبِ وَالْأَخْبَارِ ، وَأَقْصَى مَا وَجَدْتُهُ فِيهِ قَصِيدَةٌ لِلأَخْنَسِ بْنِ شَهَابِ بْنِ شَرِيْقِ التَّغْلِبِيِّ حُوتِ أَسْمَاءِ قَبَائِلَ وَأَسْمَاءِ مُوَاطِنِهَا وَمَوَاضِعِهَا ، هِيَ : (مُعَدٍ) و (لَكِيْزٍ) و (بَكْرٍ) و (تَمِيمٍ) و (كَلْبٍ) و (غَسَّانٍ) و (بُهْرَاءٍ) و (إِيَادٍ) و (نَظْمٍ) وَهِيَ قَبَائِلُ بَعْضِهَا عَدْنَائِيَّةٌ وَبَعْضُهَا قَحْطَائِيَّةٌ فِي إِصْطِلَاحِ أَهْلِ النَّسَبِ ، إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدْ فِيهَا أَسْمَاءَ آبَاءِ هَذِهِ الْقَبَائِلِ وَلَا أَجْدَادَهَا ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْهَمَ مِنْهَا أَنَّ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ ، هِيَ قَبِيلَةُ عَدْنَائِيَّةٌ ، وَأَنَّ تِلْكَ قَبِيلَةُ قَحْطَائِيَّةٌ ، فَقَدْ جَاءَتْ الْأَسْمَاءُ مُدَاخِلَةً وَكُلَّ مَا وَجَدْتُهُ فِيهَا مِمَّا يَخْصُ النَّسَبَ .

انتهت الصفحات التي نقلناها حرفيا من كتاب المفصل في تاريخ العرب للدكتور جواد علي .

المصدر الثاني كتاب طه حسين في الأدب الجاهلي

يقول طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي :

((أَنَّ الْعَرَبَ يَنْقَسِمُونَ إِلَى قَسْمَيْنِ قَحْطَائِيَّةٍ مَنَازِلُهُمُ الْأُولَى فِي الْيَمَنِ ، وَعَدْنَائِيَّةٍ مَنَازِلُهُمُ الْأُولَى فِي الْحِجَازِ وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْقَحْطَائِيَّةَ عَرَبٌ مُنْذُ خَلَقَهُمُ اللَّهُ فِطْرُوا عَلَى الْعَرَبِيَّةِ فَهِيَ الْعَرَبِيَّةُ ، وَعَلَى أَنَّ الْعَدْنَائِيَّةَ قَدْ اكْتَسَبُوا الْعَرَبِيَّةَ اكْتِسَابًا : كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ لُغَةً أُخْرَى هِيَ الْعِبْرَانِيَّةُ أَوْ الْكَلْدَانِيَّةُ ، ثُمَّ تَعَلَّمُوا لُغَةَ الْعَرَبِ الْعَرَبِيَّةَ ، فَمَحِيَتْ لُغَتُهُمُ الْأُولَى مِنْ صُدُورِهِمْ وَثَبَّتْ فِيهَا هَذِهِ اللَّغَةُ الثَّانِيَّةُ الْمُسْتَعَارَةُ . وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْعَدْنَائِيَّةُ الْمُسْتَعْرَبَةُ إِنَّمَا يَتَّصِلُ نَسَبُهَا بِإِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ . وَهُمْ يَرُودُونَ حَدِيثًا يَتَّخِذُونَهُ أَسَاسًا لِكُلِّ هَذِهِ التَّظَرِّيَّةِ ، خُلَاصَتُهُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَنَسَى لُغَةَ أَبِيهِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ .) عَلَى هَذَا كُلُّهُ يَتَّفِقُ الرُّوَاةُ ، وَلِكِنِّهِمْ يَتَّفِقُونَ عَلَى شَيْءٍ آخَرَ أَيضًا أَثْبَتَهُ الْبَحْثُ الْحَدِيثُ ، وَهُوَ أَنَّ هُنَاكَ خِلَافًا قَوِيًّا بَيْنَ لُغَةِ حَمِيرٍ (وَهِيَ الْعَرَبُ الْعَرَبِيَّةُ) وَلُغَةِ عَدْنَانَ (وَهِيَ الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَبَةُ) . وَقَدْ رَوَى عَنْ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : مَا لِسَانَ حَمِيرٍ بِلِسَانِنَا وَلَا لُغَتُهُمْ بِلُغَتِنَا . وَفِي الْحَقِّ أَنَّ الْبَحْثَ الْحَدِيثَ قَدْ أَثْبَتَ خِلَافًا جَوْهَرِيًّا بَيْنَ اللَّغَةِ الَّتِي كَانَ يَصْطَنِعُهَا النَّاسُ فِي جَنُوبِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَاللُّغَةِ الَّتِي كَانُوا يَصْطَنِعُونَهَا فِي شِمَالِ هَذِهِ الْبِلَادِ . . وَلَدَيْنَا الْآنَ نَقُوشٌ وَنُصُوصٌ تَمَكِّنُنَا مِنْ إِثْبَاتِ هَذَا الْخِلَافِ فِي اللَّفْظِ وَفِي قَوَاعِدِ النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ أَيْضًا . وَإِذْنِ فَلَا بَدَّ مِنْ حَلِّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ . إِذَا كَانَ أَبْنَاءُ إِسْمَاعِيلِ قَدْ تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ مِنْ أَوْلَادِكَ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَسَمِيهِمُ الْعَرَبِيَّةَ فَكَيْفَ بَعْدَ مَا بَيْنَ اللَّغَةِ الَّتِي كَانَ يَصْطَنِعُهَا الْعَرَبُ الْعَرَبِيَّةَ وَاللُّغَةَ الَّتِي كَانَ يَصْطَنِعُهَا الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَبَةُ ، حَتَّى اسْتَطَاعَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ

أَنْ يَقُولَ إِهْمَا لُغَتَانِ مُسَامِرَتَانِ ، وَاسْتَطَاعَ الْعُلَمَاءُ الْمُحَدِّثُونَ أَنْ يُثْبِتُوا هَذَا التَّمَايزَ بِالْأَدِلَّةِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ شَكًّا
وَلَا جِدَالَاً: الْحَقُّ أَنَّ الْقَدَمَاءَ وَالْمُحَدِّثِينَ جَمِيعًا مُضْطَرِبُونَ اضْطِرَابًا شَدِيدًا فِي تَحْدِيدِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَفْهَمَ
مِنْ لَفْظِ الْعَرَبِ وَفِي تَحْدِيدِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَفْهَمَ مِنْ لَفْظِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ . . وَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ فَوْقَ الْعُلَمَاءِ
الْمُحَدِّثُونَ إِلَى اسْتِكْشَافِ اللُّغَةِ الْقَحْطَابِيَّةِ أَوْ قَلَّ إِلَى اسْتِكْشَافِ اللُّغَاتِ الْقَحْطَابِيَّةِ مِنْ حِمَيْرِيَّةٍ وَسَبْيِيَّةٍ
وَمِعِينِيَّةٍ ؛ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُفَقَّ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ إِلَى قِرَاءَةِ هَذِهِ اللُّغَاتِ كَمَا قَرَأُوا اللُّغَةَ الْمِصْرِيَّةَ الْقَدِيمَةَ وَكَمَا
قَرَأُوا لُغَةَ الْبَابِلِيِّينَ وَالْأَشُورِيِّينَ وَكَمَا قَرَأُوا طَائِفَةً أُخْرَى مِنَ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ . وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَعْنِي هَؤُلَاءِ
الْعُلَمَاءُ الْمُحَدِّثُونَ بِهَذِهِ اللُّغَةِ الْحِمَيْرِيَّةِ عِنَايَةً لَمْ تُقَدِّرْ الْعُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي لِلْهِجْرَةِ ،
فَيَسْتَبْطِئُوا نَحْوَهَا وَصَرْفَهَا وَيُقَارِنُوا بَيْنَهَا وَيَبْنِيَنَّ غَيْرَهَا مِنَ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ الْقَرِيبَةِ مِنْهَا وَابْعِيدَةَ عَنْهَا .
وَكَانَتْ نَتِيجَةُ هَذَا الْبَحْثِ الطَّوِيلِ وَالْجِدِّ الْمَتَّصِلِ أَنَّ اللُّغَةَ الْحِمَيْرِيَّةَ شَيْءٌ وَاللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْفُصْحَى شَيْءٌ
أُخْرٍ ، وَأَنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ الْحِمَيْرِيَّةَ أَقْرَبُ إِلَى اللُّغَةِ الْحَبَشِيَّةِ الْقَدِيمَةِ مِنْهَا إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، مُتَأَثِّرَةٌ بِنَحْوِ هَذِهِ
اللُّغَةِ الْحَبَشِيَّةِ وَصَرْفَهَا أَكْثَرَ مِنْ تَأَثُّرِهَا بِنَحْوِ عَرَبِيَّتِنَا الْفُصْحَى وَصَرْفَهَا . وَلَيْسَ هُنَا مَوْضِعُ الْقَوْلِ الْمَفْصَلِ
فِي هَذَا كُلِّهِ . فَإِنَّ لُغَةَ الْحِمَيْرِيَّةِ عِلْمَهَا الْمُسْتَقِلَّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَرْجَعَ إِلَيْهِ مِنْ شَاءِ التَّحْقِيقِ فِي كُتُبِ
الْمُسْتَشْرِقِينَ الَّذِينَ دَرَسُوا هَذَا الْمَوْضِعَ وَأَتَقَنُوهُ . وَلَكِنْ قَوْمًا يَأْبُونَ إِلَّا أَنْ تَقَامَ لَهُمُ الْحُجَّةُ ، وَيَعْرِضُ
عَلَيْهِمْ تَفْصِيلُ الدَّلِيلِ . وَهُمْ يَظُنُّونَ فِي ذَلِكَ وَيَلْجُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَطْمَئِنُّوا إِلَى مَا أُطْمَأَنَّ إِلَيْهِ أَبُو
عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ مِنْ وُجُودِ الْخِلَافِ الْجَوْهَرِيِّ بَيْنَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْحِمَيْرِيَّةِ ، وَلَا يُرِيدُونَ أَنْ يُصَدِّقُوا حِينَ تَبَيَّنَ لَهُمْ
بِأَنَّ الْعِلْمَ الْحَدِيثَ قَدْ أَثْبَتَ مَا كَانَ يَقُولُهُ أَبُو عَمْرٍو ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ أَنْ يَقْرَأُوا نُصُوصًا حِمَيْرِيَّةً وَأَنْ يَبَيِّنُوا
بِأَنْفُسِهِمْ مَعَ مُمَاطِلَةٍ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ لَوْ سَلَمْنَاهُ لِنْتَهِي إِلَى نَظَرِيَّةٍ غَرِيبَةٍ تَعَكُّسُ نَظَرِيَّةَ الْقَدَمَاءِ عَكْسًا

تَأَمَّا ، وَهِيَ : إِنَّ الْعَرَبَ الْعَارِبَةَ هُمْ عَدَنَانُ ، وَإِنَّ الْعَرَبَ الْمُسْتَعْرَبَةَ هُمْ قَحْطَانُ ، وَإِنَّ الْقَحْطَانِيَّةَ تَعَلَّمَتْ
 الْعَرَبِيَّةَ مِنْ أُنْبَاءِ إِسْمَاعِيلَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ الْأَسْمَاعِيلِيَّةَ قَدْ تَعَلَّمَتْ الْعَرَبِيَّةَ مِنْ أُنْبَاءِ قَحْطَانُ ، وَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ
 تَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ وَنَسِيَ لُغَةَ أَبِيهِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ . وَنَحْنُ لَا نَشْكُ فِي أَنَّ الْعَرَبَ الْعَارِبَةَ إِنَّمَا هُمْ
 الْعَدَنَانِيُّونَ وَفِي أَنَّ الْعَرَبَ الْمُسْتَعْرَبَةَ إِنَّمَا الْقَحْطَانِيُّونَ ، وَلَكِنَّهُمْ اسْتَعْرَبُوا بَعْدَ الْإِسْلَامِ لَا قَبْلَهُ . وَإِذْنِ فَمِنْ
 الْحَقِّ عَلَى الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُحَدِّدُوا الْمَعْنَى الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْهَا لَفْظُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحَى أَنْ يُعْتَمِدُوا فِي
 هَذَا التَّحْدِيدِ عَلَى الْمَوْطِنِ الْجُغْرَافِيِّ لَا عَلَى الْأَنْسَابِ وَالْأَسَاطِيرِ . وَالْمَوْطِنُ الْجُغْرَافِيُّ لِلْعَدَنَانِيِّينَ هُوَ
 شَمَالُ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْحِجَازِ وَنَجْدٍ مِنْهُ خَاصَّةً . فَتَحْنُ إِذَا ذَكَرْنَا الْعَدَنَانِيَّةَ فَإِنَّمَا نُرِيدُ سُكَّانَ هَذَا
 الْأَقْلِيمِ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ هَذَا تَسْلِيمًا مِنَّا بِصِحَّةِ هَذِهِ الْأَنْسَابِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَى عَدَنَانَ .
 وَنَحْنُ إِذَا ذَكَرْنَا الْقَحْطَانِيَّةَ فَإِنَّمَا نُرِيدُ سُكَّانَ هَذِهِ الْأَقْلِيمِ مِنْ جَنُوبِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ هَذَا
 قَبُولًا مِنَّا لِهَذِهِ الْأَنْسَابِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَى قَحْطَانَ .

خُلَاصَةُ الْقَوْلِ فِيمَا ذَكَرَهُ الْمُؤَرِّخُ الدُّكْتُورُ جَوَادٌ عَلِيٌّ

وَالدُّكْتُورُ طَهَ حُسَيْنٌ

الدُّكْتُورُ جَوَادٌ عَلِيٌّ يُرَجِّحُ مَقُولَةَ أَنَّ الْعَرَبَ أَخَذُوا اسْمَهُمْ مِنْ اسْمِ الْمَكَانِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ النَّبِيُّ إِسْمَاعِيلُ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ وَادِي عَرَبَةَ أَوْ الْعَرِبَاتِ أَوْ أَنَّهُ اشْتَقَّ مِنْ فِعْلِ أُعْرِبَ أَيَّ أَفْصَحَ .

يُعْتَبِرُ جَوَادٌ عَلِيٌّ أَنَّ التَّسَابُونَ الْعَرَبَ قَدْ بَدَّءُوا فِي تَدْوِينِ الْأَنْسَابِ فِي عَصْرِ التَّدْوِينِ أَيَّ حَوَالِي 250
 هِجْرَةَ وَإِنْ تَقْسِيمُهُمُ الْعَرَبَ إِلَى بَائِدَةٍ وَعَارِبَةٍ وَمُسْتَعْرَبَةٍ لَا أَسَاسَ لَهُ مِنَ الصَّحِّحَةِ وَمَنْ تَمَّ يَشْكُ بِالنَّسَابُونَ
 وَالرُّوَاةَ لِأَنَّهُمْ أَخَذُوا مِنَ التُّورَةِ هَذَا النَّسَبَ الْقَحْطَانِيَّ وَحَدَفُوا مِنْهُ وَرَكَّبُوا فِيهِ تَرْكِيبَاتٍ غَرِيبَةً .

وَيُضِيفُ بِأَنَّ الْقَحْطَانِيُونَ الْقَائِلُونَ أَنَّ يُعْرَبَ هُوَ جَدُّ الْعَرَبِيَّةِ وَمَوْجِدُهَا ، عَاجِرُونَ عَنِ التَّوْفِيقِ بَيْنَ رَأْيِهِمْ
هَذَا وَرَأْيِهِمْ فِي أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ قَدِيمَةٌ قَدِيمُ الْعَالَمِ ، وَأَنَّهَا لُغَةُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ ، ثُمَّ هُمْ عَاجِرُونَ أَيْضًا عَنِ بَيَانِ
كَيْفَ كَانَ لِسَانُ أَجْدَادِ (يُعْرَبُ) ، وَكَيْفَ اهْتَدَى (يُعْرَبُ) إِلَى اسْتِبْطَاطِهِ لِهَذِهِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَكَيْفَ
تَمَكَّنَ مِنْ إِجَادِهِ وَحَدَهُ لَهَا مِنْ غَيْرِ مُوَازَرٍ وَلَا مُعَيَّنٍ

هُنَاكَ اخْتِلَافٌ كَبِيرٌ فِي اللُّغَاتِ وَالتَّرْكِيبِ الْجُسْمَانِيِّ بَيْنَ الْقَحْطَانِيِّينَ وَالْعَدْنَانِيِّينَ .

وَيَرَى بَعْضُ عُلَمَاءِ التَّوْرَةِ أَنَّ كَلِمَةَ (عرب) إِنَّمَا شَاعَتْ وَانْتَشَرَتْ عِنْدَ الْعِبْرَانِيِّينَ بَعْدَ ضَعْفِ
الاسماعيليين (الاسماعيليين) وَتَدَهْوَرِهِمْ وَتَغَلُّبِ الْأَعْرَابِ عَلَيْهِمْ صَارَتْ اللَّفْظَةُ مُرَادِفَةً عِنْدَهُمْ لِكَلِمَةِ (اشماعيليين) .

وَقَدْ عُرِفَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ هَذِهِ الصَّلَةَ بَيْنَ كَلِمَةِ (عرب) و (عَرَابَةٌ) أَوْ (عَرَبَةٌ) ، فَقَالُوا : (أَنَّهُمْ
سَمَوْا عَرَبًا بِاسْمِ بَلَدِهِمُ الْعَرَبَاتِ . وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ الْفَرَجِ : عَرَبَةٌ بَاحَةٌ الْعَرَبِ ، وَبَاحَةٌ دَارِ أَبِي
الْفَصَّاحَةِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ) . وَقَالُوا : (وَأَقَامَتْ قُرَيْشٌ بَعْرَةَ فَتَنَحَتْ بِهَا ، وَانْتَشَرَ
سَائِرُ الْعَرَبِ فِي جَزِيرَتِهَا ، فَنَسَبُوا كُلُّهُمْ إِلَى عَرَبَةٍ ، لِأَنَّ آبَاءَهُمْ إِسْمَاعِيلُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَوْلَادِهِ
فِيهَا فَكَثَرُوا فَلَمَّا لَمْ تَحْتَمِلْهُمُ الْبِلَادُ ، انْتَشَرُوا ، وَأَقَامَتْ قُرَيْشٌ بِهَا " .

. وَيَرَى أَوْلِيَاءُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ كَلِمَةَ (عرب) لَفْظُهُ مُتَأَخَّرَةٌ ، اقْتَبَسَهَا الْعِبْرَانِيُّونَ مِنَ الْأَشُورِيِّينَ وَالْبَابِلِيِّينَ ،
بِدَلِيلِ وُرُودِهَا فِي التَّنْصُوصِ الْأَشُورِيِّ وَالْبَابِلِيِّ ، وَهِيَ نَصُوصٌ يُعُودُ عَهْدُهَا إِلَى مَا قَبْلَ التَّوْرَةِ وَلِشَيْوَعِهَا
بَعْدَ لَفْظِهِ (اشماعيليين) ، وَلِأَنَّهَا الْمَعْنَى ذَاتَهُ الْمُرَادُ مِنَ اللَّفْظَةِ ، رَبَطَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ لَفْظِهِ (اشماعيليين)
، وَصَارَتْ نَسَبًا قَصِيرًا جَدُّ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ (اشماعيل) وَعَدُّوا عَرَبِيمَ مِنْ أُنْبَاءِ إِسْمَاعِيلِ .

والتصّ الوَحِيدُ الوَحِيدُ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ لَفْظَةٌ (الْعَرَبُ عَلِمًا عَلَى الْعَرَبِ جَمِيعًا مِنْ حَضَرَ وَإِعْرَابَ ،
وَوَعَتْ فِيهِ لِسَانِهِمْ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ . وَقَدْ ذَهَبَ د . ه . مَارَ إِلَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ
هُوَ الَّذِي خَصَّصَ الْكَلِمَةَ وَجَعَلَهَا عَلِمًا لِقَوْمِيَّةٍ تَشْمَلُ كُلَّ الْعَرَبِ .

كَمَا يُؤَكِّدُ عَلَى الْوُجُودِ الْإِسْمَاعِيلِيِّ الْكَثِيفِ فِي التَّارِيخِ الْعِبْرِيِّ وَالتَّوْرَاتِي وَالْيُونَانِي وَغَيْرِهِ وَهُنَاكَ انْتِشَارٌ
لِلْقَبَائِلِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ فِي الْمِنْطَقَةِ الْجُغْرَافِيَّةِ الَّتِي عُرِفَتْ لَهُمْ وَلَقَدْ تَعَدَّدَتْ وَتَوَزَعَتْ قِبَائِلُهُمْ وَمَنَاطِقُهُمْ
وَأَمَّا كُنُتُهُمْ وَيُؤَكِّدُ عَلَى عَمَلِيَّةِ تَوْزِيعِ دِيمُوغْرَافِي لَمْ تَتَوَقَّفْ تَارِيخِيًا .

أَمَّا الدُّكُورُ طَهَ حُسَيْنٌ فَهُوَ يَعْتَمِدُ فِي إِثْبَاتِ أَنَّ أَصْلَ الْعَرَبِ وَجَدَهُمْ هُوَ النَّبِيُّ إِسْمَاعِيلُ لُغَوِيًّا وَيُثَبِّتُ
بِالنُّصُوصِ الْمَكْشُفَةِ مِنْ أَنَّ اللُّغَةَ الْحِمَيْرِيَّةَ لُغَةً مَا يُسَمَّى بِالْقَحْطَانِيَّةِ هِيَ غَيْرُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفَصْحَى وَهِيَ
غَيْرُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ وَيُثَبِّتُ أَنَّهُ نَلِكُ فِرُوقَا كَثِيرَةً فِي الْكِتَابَةِ وَالْقَوَاعِدِ وَالصَّرْفِ وَيُنْبِي
بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ الْعَرَابِيَّةَ هُمْ بَنُو إِسْمَاعِيلَ وَالْمَسْتَعْرَبَةَ هُمُ الْقَحْطَانِيُّينَ أَيْ الْقَبَائِلَ الْجَنُوبِيَّةَ .

لَقَدْ وَضَحَ لَنَا د جَوَادٌ عَلَيَّ الصُّورَةَ وَالْمَشْهَدَ تَمَامًا وَفِي وَجْدَانِهِ كَلَامٌ كَثِيرٌ لَمْ يُرِيدِ الْإِفْصَاحَ عَنْهُ فَالْقَضِيَّةُ
وَالْحَرْبُ لِأَزَالَتِ قَائِمَةٌ بَيْنَ الْعَدْنَانِيِّينَ وَالْقَحْطَانِيِّينَ وَتَغْذِيهَا الْعَصَبِيَّاتُ الْقَبِيلِيَّةُ وَالِدَوَافِعُ الْمَذْهَبِيَّةُ

وَالسِّيَاسِيَّةُ

لَقَدْ بَاتَ مَعْرُوفًا عِنْدَ أَكْثَرِ الْبَاحِثِينَ وَالْمُهْتَمِينَ بِأُصُولِ الْعَرَبِ وَلُغَتِهِمْ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكَورًا قَبْلَ
النَّبِيِّ إِسْمَاعِيلَ وَالْحَدِيثِ عَنْ مَمَالِكِ عَرَبِيَّةٍ وَشُعُوبِ عَرَبِيَّةٍ وَعَنْ يَقْطَانَ وَقَحْطَانَ خِرَافَةَ كَشَفْتَهُ
الْمَسْتَكْشَفَاتِ الْأَثَرِيَّةِ الْحَدِيثَةِ وَعُلُومِ اللُّغَاتِ وَالتَّحَالِيلِ الْجِينِيَّةِ وَغَيْرِهَا .

لَقَدْ بَدَأَ الصَّرَاحُ عَلَى التَّسَبُّبِ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ عَصْرَ التَّدْوِينِ كَمَا بَدَأَ مَعَهُ صِرَاعًا فِقْهِيًّا آخَرَ وَقَدْ
لَعِبَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ الْجَاهِلُ وَالْمَغْرُضُ لَعِبَتَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فَقَامَ بِتَحْرِيفِ التَّسَبُّبِ وَالِاتِّمَاءِ وَهُوَ كَمَا هُوَ
مَعْرُوفٌ لِأَنَّهُمْ يَشْكُلَانِ أَيُّ التَّسَبُّبِ وَالِاتِّمَاءِ رُوحَ الْأُمَّةِ وَحَقِيقَةَ وَتَارِيخَ وَجُودِهَا لِذَوَاعِ انْتِفَاعِيَّةٍ تَتَعَلَّقُ
بِالْعَطَاءَاتِ وَتَوَزِيعِ الْمُكْتَسَبَاتِ الَّتِي وَضَعَ لَهَا الْخَلِيفَةُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَوَاعِدَ نِسْبِيَّةٍ لِتَوَزِيعِهَا وَكَذَلِكَ
لِذَوَاعِ سِيَاسِيَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِالْخِلَافَةِ وَأَوْلِيَائِهَا وَبِسَبَبِ هَذَا الْخِلَافِ السِّيَاسِيِّ انْقَسَمَ الدِّينُ وَظَهَرَتِ الْفُرُقُ
وَالشَّيْعَ وَسَيَّاتِي الْحَدِيثِ عَنْ ذَلِكَ بِالتَّفَاصِيلِ .

وَقَبْلَ أَنْ نَحْتَمِ الْبَحْثُ فِي أَصْلِ الْعَرَبِ وَتَسْمِيَّتِهِمْ وَاتِّمَاءِهِمْ لَا بُدَّ أَنْ تَطْرُقَ عَنِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَاللِّسَانِ
الْعَرَبِيِّ كَأَحَدِي مَقْوَمَاتِ الْإِتِمَاءِ الْعَرَبِيِّ وَنَحْتَمِ الْفَضْلَ بِالآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي سَتُوكَدُّ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْأَدِلَّةُ
التَّارِيخِيَّةُ الْحَدِيثَةُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ .

مُقْتَطَعَاتٌ مِنْ كِتَابِ كِتَابِ دِرَاسَاتٍ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ الْقَدِيمِ

مُحَمَّدُ بِيَوْمِي مِهْرَان

لَفِظَةُ الْعَرَبِ مَدْلُولُهَا وَتَطَوُّرُهَا التَّارِيخِي

لَعَلَّ مِنْ الْأَفْضَلِ هُنَا أَنْ نُحَدِّدَ مَعْنَى كَلِمَةِ "عَرَبِي" وَأَصُولَهَا، تِلْكَ الْكَلِمَةُ الَّتِي تُضَارِبُ فِيهَا آرَاءُ
الْمُفَسِّرِينَ، وَلَمْ يَنْفِقُوا عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ بِشَأْنِهَا، حَتَّى أَذْلَى بَعْضُهُمْ بِرَأْيٍ أَوْ بِآخَرَ، لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ مُجَرَّدُ
حَدْسٍ أَوْ تَحْمِينٍ، فَمَا هِيَ الْمَادَّةُ الَّتِي أُشْتُتْ مِنْهَا كَلِمَةُ عَرَبِي إِذَنْ؟، وَمَا هُوَ أَقْدَمُ ذِكْرٍ لَهَا؟ وَهَلْ
سَمِيَ سُكَّانُ بِلَادِ الْعَرَبِ أَنْفُسَهُمْ عَرَبًا؟ وَمَتَى كَانَ ذَلِكَ؟

أَنَّ عُلَمَاءَ الْعَرَبِيَّةِ أَنْفُسَهُمْ حَيَارَى فِي تَعْيِينِ أَوَّلِ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ، فَبَيَّنَمَا ذَهَبَ فَرِيقٌ إِلَى أَنَّ "يُعْرَبُ بْنُ قَحْطَانَ" كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَعْرَبَ فِي لِسَانِهِ، وَتَكَلَّمَ بِهَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، وَأَوَّلُ مَنْ أَعْدَلَ لِسَانَهُ عَنِ السُّرْيَانِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، لِأَنَّهُ "أَوَّلُ مَنْ سَجَّعَ فِي الْعَرَبِيَّةِ الْوَاسِعَةَ، وَنَطَقَ بِأَفْصَحِهَا وَأَبْلَغَهَا وَأَوْجَزُهَا، وَالْعَرَبِيَّةِ مُنْسُوبَةٌ إِلَيْهِ مُشْتَقَّةٌ مِنْ اسْمِهِ"، وَلَكِنَّهُمْ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ يَجْعَلُونَ الْعَرَبِيَّةَ لِسَانَ أَهْلِ الْجَنَّةِ،

كَمَا هِيَ لِسَانُ آدَمَ قَبْلَ أَنْ يَنْحَرِفَ إِلَى السُّرْيَانِيَّةِ، أَيْ أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ "يُعْرَبُ بْنُ قَحْطَانَ" هَذَا، إِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى مَبْدَأِ الْخَلِيقَةِ، وَمِنْ نَافِلَةِ الْقَوْلِ أَنَّ نَقُولَ: إِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ .

هَذَا فَضْلاً عَنْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنَادُونَ بِقَحْطَانِيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، إِنَّمَا يَجْهَدُونَ أَنْفُسَهُمْ لِإِتِّتَابِهَا بِالْغَثِّ وَالسَّمِينِ مِنَ الرِّوَايَاتِ لِإِبْتَاتِ صِحَّةِ مَا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ، مِنْ أَنَّ الْقَحْطَانِيِّينَ هُمْ أَصْلُ الْعَرَبِ، وَإِنَّ لِسَانَهُمْ هُوَ لِسَانُ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ، وَمِنْهُمْ تَعَلَّمَ الْعَدَنَانِيُّونَ الْعَرَبِيَّةَ، حَتَّى ذَهَبَ الْبَعْضُ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ يَكُونُ دَلِيلُهُ الْقَاطِعُ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبْيَانًا مِنْ شَعْرِ "حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ"، وَتَجَاهُلُ أَصْحَابُ هَذَا الْإِتِّجَاهِ أَنَّ شَعْرَ حَسَّانِ هَذَا جَدُّ مَتَّأخِرٍ، بِحَيْثُ لَا يُمَكِّنُ أَنَّ يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى أَوَّلِ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ، فَضْلاً عَنْ أَنَّ الصَّحَابِيَّيْنَ الْجَلِيلِ قَحْطَانِيَّيْنَ، وَمَنْ تَمَّ قَرِيبًا كَانَ مُعْصَبًا لِقَوْمِهِ فِي شَعْرِهِ. هَذَا، وَيَبْدُو أَنَّ فَرِيقًا مِنَ أَصْحَابِ هَذَا الْإِتِّجَاهِ قَدْ تَنَبَّهُوا إِلَى ذَلِكَ، وَمَنْ تَمَّ فَقَدْ نَسَبُوا إِلَى "يُعْرَبُ" نَفْسِهِ شِعْرًا عَرَبِيًّا فَصِيحًا، يَقُولُ فِيهِ:

أَنَا ابْنُ قَحْطَانَ الْهُمَامِ الْأَفْضَلِ . . . وَذُو الْبَيَانِ وَاللِّسَانِ الْأَسْهَلِ

نَفَرْتُ وَالْأُمَّةُ فِي تَبْلِيلِ . . . نَحْوِ يَمِينِ الشَّمْسِ فِي تَمْهَلِ وَكُنْتُ مِنْهُمْ ذَا الرِّعِيلِ الْأَوَّلِ

وَبَدَّهِيَ إِنْ هَذَا شَعْرٌ مِنْخُولٌ، مَا فِي ذَلِكَ مِنْ رَيْبٍ .

أَضْفُ إِلَى ذَلِكَ، أَنَّهُ -عَلَى مَا يَبْدُو- لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ بِبَالِ هَؤُلَاءِ الْمُنَادِينَ بِقِحْطَانِيهِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، أَنَّ سَكَانَ الْيَمَنِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ إِنَّمَا كَانُوا يَنْطِقُونَ بِاللَّهجاتِ تَخْتَلِفُ عَنِ لَهْجَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَأَنَّ مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ قَدْ يَكشِفُ سِرَّ " الْمُسْنَدِ " -الْحَطَّ الَّذِي كَانَ النَّاسُ يَكْتُبُونَ بِهِ فِي جَنُوبِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ- وَمَنْ تَمَّ يُمْكِنُ قِرَاءَةُ نُصُوصِهِ وَالتَّعَرُّفُ عَلَى لُغَتِهِ، وَإِنْ عَرَبِيَّتُهُ إِنَّمَا هِيَ عَرَبِيَّةٌ تَخْتَلِفُ عَنِ هَذِهِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي نُدُونُ بِهَا، حَتَّى ذَهَبَ الْأَمْرُ بِعُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ إِلَى إِخْرَاجِ الْحَمِيرِيَّةِ وَاللَّهجاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُخْرَى فِي جَنُوبِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَصَّرَ الْعَرَبِيَّةَ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَعَلَى مَا تَفَرَّعَ مِنْهَا مِنْ لَهجاتِ، وَمَنْ هُنَا يُرْوَى " الْجَمَحِيُّ " أَنَّ أَحَدَ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ سُئِلَ عَنِ لِسَانِ حَمِيرٍ، فَقَالَ: مَا لِسَانِ حَمِيرٍ وَأَقاصِي الْيَمَنِ بِلِسَانِنَا وَلَا عَرَبِيَّتِهِمْ بِعَرَبِيَّتِنَا، وَإِنْ كَانَ دُونَ شَكٍّ أَنَّ هَذَا هُوَ الرَّأْيُ الْعَدَنَائِيَّ فِي الْقِحْطَانِيِّينَ .

هَذَا فَضْلاً عَنِ أَنَّ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ "عَرَبُ بَنِي قِحْطَانَ" هُوَ جَدُّ الْعَرَبِيَّةِ وَمُوجِدُهَا عَاجِزُونَ عَنِ التَّوْفِيقِ بَيْنَ رَأْيِهِمْ هَذَا، وَبَيْنَ رَأْيِهِمْ فِي أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ قَدِيمَةٌ قَدِيمَةً قَدَمِ الْعَالَمِ، وَأَنَّهَا لُغَةُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ، ثُمَّ هُمْ عَاجِزُونَ أَيْضاً عَنِ بَيَانِ كَيْفَ كَانَ لِسَانُ أَجْدَادِ "عَرَبٍ"؟ وَكَيْفَ اهْتَدَى إِلَى اسْتِبْطَاطِهِ لِهَذِهِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؟، وَكَيْفَ تَمَكَّنَ وَحْدَهُ مِنْ إِيجَادِهَا مِنْ غَيْرِ مَوَازِرٍ وَلَا مُعَيَّنٍ؟ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْئَلَةٍ لَمْ يُفْطَنَ إِلَيْهَا أَهْلُ الْأَخْبَارِ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ .

عَلَى أَنَّ هُنَاكَ مِنْ حَاوِلٍ أَنْ يُقَدِّمَ تَفْسِيرًا أُسْطُورِيًّا ذَهَبَ فِيهِ إِلَى أَنَّ عَادًا قَدْ انْقَرَضَتْ مِنَ الْيَمَنِ بَعْدَ عَهْدِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَارْسَلَ التَّمْرُودُ ابْنُ عَمِّهِ قِحْطَانَ أَوْ وَوَلَدِهِ يُعْرَبُ لِيَسْكُنَهَا، وَحِينَ وَصَلَ الْأَخِيرَ إِلَى الْيَمَنِ لَمْ يَجِدْ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ آمَنَ بِهُودٍ، وَلَكِنَّهُمْ سُرِعَانَ مَا بَادُوا، وَمَنْ تَمَّ فَقَدْ خَلَصَتْ الْأَرْضُ

لِحَطَّانٍ، وَكَانَ "يُعْرَبُ" دُونَ إِخْوَتِهِ مِنْ امْرَأَةٍ مِنْ عَادٍ، فَتَكَلَّمَ بِلِسَانِهَا وَهُوَ الْعَرَبِيَّةُ، عَلَى أَنَّ رِوَايَةَ أُخْرَى تَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ إِنَّمَا كَانَتْ مِنَ الْعَمَالِيقِ، وَأَنَّ أَوْلَادَهَا جَمِيعًا قَدْ أَخَذُوا الْعَرَبِيَّةَ عَنْهَا، فَضَلًّا عَنْ أَنَّ "التُّمْرُودَ" هَذَا - فِي رَأْيِهِمْ - هُوَ صَاحِبُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَالَّذِي يَأْتِي بَعْدَ عَصْرِ "هُودٍ" بِقُرُونٍ، فِيمَا يَزْعُمُونَ .

وَهُنَاكَ فَرِيقٌ ثَانٍ إِنَّمَا يَزْعُمُ أَنَّ هُودًا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِنَّمَا كَانَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ، بَيْنَمَا يَزْعُمُ آخَرُونَ أَنَّ أَبَاهُ هُوَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِهَا، عَلَى أَنَّ فَرِيقًا ثَالِثًا يَرَى أَنَّ نُوحًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - هُوَ أَوَّلُ النَّاطِقِينَ بِالْعَرَبِيَّةِ ٣، وَيَتَّجِهَ فَرِيقٌ رَابِعٌ إِلَى أَنَّهُ "عَمَلِيقٌ"، وَهُوَ أَبُو الْعَمَالِقَةِ، وَذَلِكَ حِينَ ظَنَّ الْقَوْمُ مِنْ بَابِلَ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ كَانَ يُقَالُ لِلْعَمَالِيقِ - وَكَذَا لِجَدِّهِمْ - "الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ".

وَأَخِيرًا فَلَقَدْ ذَهَبَ فَرِيقٌ خَامِسٌ إِلَى أَنَّ إِسْمَاعِيلَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَلْهَمَ هَذَا اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ الْمُبِينِ، وَهُوَ مَا يَزَالُ بَعْدُ فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ، وَلَعَلَّ هَذَا الْإِتِّجَاهَ الْأَخِيرَ إِنَّمَا كَانَ السَّبَبُ فِي أَنَّ يَذْهَبَ الْبَعْضُ إِلَى أَنَّ قَحْطَانًا إِنَّمَا هُوَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ٦.

وَلَعَلَّ هَذِهِ الْأَرَاءِ الْمُتَضَارِبَةَ إِنَّمَا كَانَتْ السَّبَبُ فِي أَنَّ يُحَاوَلُ الْبَعْضُ التَّوْفِيقَ بَيْنَ الرَّأْيَيْنِ الْأَسَاسِيَيْنِ - الْأَوَّلُ وَالْخَامِسُ - وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ ذَهَبَ هَذَا التَّنْفَرُّ إِلَى أَنَّ "يُعْرَبُ" هُوَ أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِمَنْطِقِ الْعَرَبِيَّةِ، وَإِنَّ إِسْمَاعِيلَ هُوَ أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ الْحِجَارِيَّةِ الْخَالِصَةِ، الَّتِي أَنْزَلَ بِهَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ.

وَعَلَى أَيِّ حَالٍ، فَإِنَّ الْإِلَوْلَسِيَّ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ لَفْظَ الْعَرَبِ، إِنَّمَا يُطْلَقُ أَصْلًا لِقَوْمٍ جَمَعُوا عِدَّةَ صِفَاتٍ، مِنْهَا أَنَّ لِسَانَهُمْ كَانَ الْعَرَبِيَّةَ، وَمِنْهَا أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَوْلَادِ الْعَرَبِ، وَمِنْهَا أَنَّ مَسَاكِينَهُمْ كَانَتْ بِأَرْضِ الْعَرَبِ حَتَّى ظَهَرَ الْإِسْلَامُ، ثُمَّ تَفَرَّقُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْبِلَادِ الَّتِي دَانَتْ بِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَبِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ

وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- وَيَذْهَبُ آخَرُونَ إِلَى أَنْ كُلُّ مَنْ سَكَنَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ وَنَطَقَ بِلِسَانِ أَهْلِهَا، فَهُمْ الْعَرَبُ،
سُمُّوا عَرَبًا بِاسْمِ بَلَدِهِمُ الْعَرَبَاتِ.

هَذَا وَقَدْ اُخْتَلَفَتْ الْأَرَاءُ كَذَلِكَ فِي مَعْنَى كَلِمَةِ "عَرَبٍ" وَمَصْدَرِ اسْتِقَاقِهَا، فَبَيْنَمَا ذَهَبَ الْبَعْضُ إِلَى أَنَّ
أَصْلَ الْكَلِمَةِ مَا يَزَالُ غَامِضًا، ذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْفِعْلِ "يَعْرِبُ"، بِمَعْنَى يُفْصِحُ فِي
الْحَدِيثِ، وَمَنْ ثُمَّ فَقَدْ أَصْبَحَتْ تَدُلُّ عَلَى الْعَرَبِ لِفَصَاحَتِهِمْ، إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يُعَارِضُ هَذَا الْإِتِّجَاهَ وَيَرَى
أَنَّ الْعَكْسَ هُوَ الصَّحِيحُ، وَإِنَّ الْفِعْلَ "يَعْرِبُ" هُوَ الَّذِي أُشْتُقَ مِنْ كَلِمَةِ "عَرَبٍ"، ذَلِكَ أَنَّ الْمَرْءَ عِنْدَمَا يُعْبَرُ
عَنْ أَفْكَارِهِ بِاللِّسَانِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُعْبَرُ عَنْ رَأْيِهِ.

عَلَى أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ كَلِمَةَ "عَرَبٍ" إِنَّمَا هِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ أَصْلِ سَامِي قَدِيمٍ بِمَعْنَى "الْعَرَبُ"،
وَإِنَّ الْقَاطِنِينَ فِي بِلَادِ الرَّافِدَيْنِ هُمُ الَّذِينَ أَطْلَقُوا عَلَيْهِمْ هَذَا الْاسْمَ، لِأَنَّهُمْ يَقِيمُونَ فِي الْبَادِيَةِ الْوَادِعَةِ إِلَى
الْعَرَبِ مِنَ الْعِرَاقِ، وَالَّتِي كَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهَا "أَرْضَ عَرَبِيٍّ"، غَيْرَ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَرَى أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا
يَسْتَحْدِمُونَ هَذَا الْاسْمَ إِذَا مَا تَحَدَّثُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَمَنْ ثُمَّ فَلَيْسَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ يُسَمَّى قَوْمٌ أَنْفُسَهُمْ بِاسْمِ
يَدُلُّ عَلَى مَوْقِعِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الشُّعُوبِ الْمُجَاوِرَةِ.

وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ صَحِيحًا، فَالْأُمُورِيُّونَ، كَمَا نَعْرِفُ، كَانَ قَدْ أَطْلَقَ عَلَيْهِمْ جِيرَانِهِمُ السُّومَرِيُّونَ
فِي الشَّرْقِ اسْمَ "مَارْتُو"، كَمَا أَطْلَقَ عَلَيْهِمُ الْإَكَادِيِّونَ اسْمَ "أُمُورُو" وَيَعْنِي "الْعَرَبُ" وَهُوَ الْاسْمُ الَّذِي عَرَفُوا
بِهِ فِي التَّارِيخِ، بَلْ إِنَّ الْبَابِلِيِّينَ تَوَسَّعُوا فِي اسْتِعْمَالِ كَلِمَةِ "أُمُورُو" فَاطْلَقُوهَا عَلَى كُلِّ سُورِيَّةٍ الْقَدِيمَةِ، كَمَا
سَمَّوْا الْبَحْرَ الْأَبْيَضَ الْمُتَوَسِّطَ "بَحْرَ أُمُورُو الْعَظِيمِ"، وَأَمَّا عَاصِمَتُهُمْ فَقَدْ كَانَتْ "مَارِي" وَهِيَ كَلِمَةٌ
سُومَرِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ الْإِسْتِقَاقِ، شَبِيهَةٌ بِاسْمِ الْبِلَادِ "مَارْتُو" وَ"أُمُورُو" أَيُّ بِلَادِ الْعَرَبِ، نَاهِيكَ بِمَا نَسْتَعْمِلُهُ

الآن - سياسيًا وعلميًا - من اصطلاحات "الشرق الأدنى" و"الشرق الأوسط" و"الشرق الأقصى"،
وكُلها اصطلاحات أوربية، تدلُّ على موقع تلك المناطق من أوربا.

وهناك من يرى أن كلمة "عربي" ترتبط بكلمة "عبري" ارتباطًا لغويًا متينًا لانهما مشتقان من أصل واحد، ويدلُّان على معنى واحد، فهما مشتقان من الفعل الثلاثي "عبر" بمعنى قطع مرحلة من الطريق، أو عبر الوادي أو النهر من عبّرة إلى عبّرة، أو عبر السبيل شقها، ذلك لأن العرب والعبرين كانوا في الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان، بل ترحل من بقعة إلى أخرى بابلها وماشيتها بحثًا عن الماء والكلأ، ومن هنا فإن كلمة عربي وعبري مثل كلمة بدوي، أي ساكن الصحراء أو البادية^٢، وقريب من هذا ما يراه "تولدكه" من أن كلمة عربي معناها صحراء.

وإذا ما تتبعنا تاريخ لفظه "العرب" ومدلولها في اللغات السامية القديمة، لوجدنا أنه على الرغم من وجود علاقات قديمة بين سكان "ميروبوتاميا" والمناطق الشرقية في شبه الجزيرة العربية^٤، فإن أقدم نص وُجدت فيه هذه اللفظة - فيما نعلم - يرجع تاريخه إلى عهد الملك الآشوري "شلْمنصر الثالث" ٨٥٩-٨٢٤ ق. م^٥،

وبالتحديد إلى موقعه "قرقر" عام ٨٥٣ ق. م، والتي اشترك فيها أمير عربي يدعى "جندب"،
"جندبو"، إلى جانب حلف من الأمراء السوريين ضد العاهل الآشوري^١.

وهناك من عهد "تجلات بلاسر" الثالث ٧٤٥-٧٢٧ ق. م، حوثيات عشر عليها في "كالح" جاء في بعضها إشارات إلى جزئه من زبيبه" ملكه بلاد العرب"، هذا فضلًا عن نص آخر يقول فيه الملك الآشوري: "أما شمسي شمسي" ملكه بلاد العرب، التي حثت بيمين "شمس" فقد أصبحت

خَائِفَةً مِنْ قُوَّةِ جَيْشِي، وَأَرْسَلْتُ لِي جَمَالًا وَبَيَاقًا، ثُمَّ عُيِّنْتُ مُوظَّفًا مِنْ لَدُنِي هُنَاكَ" ٢، وَعَلَى أَيِّ حَالٍ،
 فَيَبْدُو أَنَّ "شَمْسِي" قَدْ تَقَضَّتْ عَهْدَ الْوَلَاءِ لِأَشُورَ، وَمَنْ ثُمَّ رَأَيْنَا "سَرْجُونِ الثَّانِي" "٧٢٢-٧٠٥ ق. م"
 يُحَدِّثُنَا أَنَّهُ قَدْ تَلَقَّى الْجَرِيَّةَ مِنْ بَرِّو صَاحِبِ مُؤَصَّرِي، وَمَنْ "شَمْسِي" مَلِكُهُ بِلَادِ الْعَرَبِ، وَمِنْ "أَنْعَمَارًا"
 "بَيْعَ أَمْرٍ" أَمِيرُ سَبَأَ، تَبْرًا وَخَيْلًا وَجَمَالًا".

هَذَا وَتَحَدَّثَتْ نَفُوسُ "سَنْحَرِيْب" "٧٠٥-٦٨١ ق. م" وَوَلَدَهُ "إِسْرَحْدُون" "٦٨٠-٦٦٩ ق. م" عَنْ
 سَيْطَرَةَ الْأَوَّلِ عَلَى بَادِيَةِ حَتَّى شَمَالِ بِلَادِ الْعَرَبِ، حَتَّى دَعَاهُ "هَيْرُودُوت" بِمَلِكِ الْعَرَبِ وَالْأَشُورِيِّينَ،
 فَضَلًّا عَنْ أَخْضَاعِهِ لِمَلِكِهِ الْعَرَبِ "تَعْلُوخُونو" صَاحِبُهُ دُومَةَ الْجَنْدَلِ، وَأَسْرَ الْمَلِكَةَ أَوْ الْأَمِيرَةَ الْعَرَبِيَّةَ
 "نَاوَبو" "نَبُوهُ".

طَبَقَاتِ الْعَرَبِ

اتَّفَقَ الزُّوَاةُ وَأَهْلُ الْأَخْبَارِ - أَوْ كَادُوا يَتَّفِقُونَ - عَلَى تَقْسِيمِ الْعَرَبِ مِنْ حَيْثُ الْقَدَمِ إِلَى طَبَقَاتٍ: عَرَبِ
 بَائِدِهِ، وَعَرَبِ عَارِبَةِ، وَعَرَبِ مُسْتَعْرِبَةِ، أَوْ عَرَبِ عَارِبَةِ، وَعَرَبِ مُعْرَبِهِ، وَعَرَبِ مُسْتَعْرِبَةِ ١، أَوْ عَرَبِ
 عَارِبَةِ وَمُسْتَعْرِبَةِ وَتَابَعَهُ وَمُسْتَعْجَمُهُ.

عَلَى أَنَّ هُنَاكَ مِنْ يَجْعَلُهُمْ طَبَقَتَيْنِ: بَائِدِهِ وَبَاقِيهِ، فَأَمَّا الْبَائِدَةُ فَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا عَرَبًا صَرَحَاءَ خَلْصَاءَ ذَوِي
 نَسَبٍ عَرَبِيٍّ خَالِصٍ - نَظَرِيًّا عَلَى الْأَقْلَ - وَيَتَكُونُونَ مِنْ قَبَائِلِ عَادٍ وَتَمُودَ وَطَسْمَ وَجَدِيسَ وَأَمِيمَ وَعَبِيلَ
 وَجُرْهُمَ وَالْعَمَالِيْقَ وَحُضُورًا وَمَدِينَ وَغَيْرِهِمْ، وَأَمَّا الْعَرَبُ الْبَاقِيَّةُ - وَيُسَمَّوْنَ أَيْضًا الْمُعْرَبَةَ وَالْمُسْتَعْرِبَةَ -
 فَهُمُ الَّذِينَ لَيْسُوا عَرَبًا خُلْصًا، وَيَتَكُونُونَ مِنْ بَنِي يَعْزَبَ بْنِ قَحْطَانَ، وَبَنِي مَعْدِ بْنِ عَدْنَانَ.

وَكَانَ يَعْرُبُ بْنُ قَحْطَانَ فِي قَوْلِ الرَّوَاةِ - كَمَا أَشْرْنَا مِنْ قَبْلِ - أَوْلُ مَنْ أَعْدَلَ لِسَانَهُ عَنِ السُّرْيَانِيَّةِ إِلَى
العَرَبِيَّةِ، أَوْ أَوْلُ مَنْ تَكَلَّمَ العَرَبِيَّةِ، وَلَسْنَا الْآنَ فِي حَاجَةٍ إِلَى دَحْضِ هَذِهِ الرُّوَايَاتِ، فَذَلِكَ أَمْرٌ سَبَقَ لَنَا
الْقِيَامُ بِهِ .

وَهُنَاكَ تَقْسِيمٌ ثَالِثٌ يَعْتَمِدُ فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى عَلَى النَّسَبِ، فَهُمُ فَحْطَائِيَّةٌ فِي الْيَمَنِ، وَعَدْنَائِيَّةٌ فِي
الْحِجَازِ، عَلَى أَنَّ "ابْنَ خَلْدُونَ" إِنَّمَا يَنْحَوْنَ نَحْوًا آخَرَ، يُقَسَّمُ بِهِ العَرَبُ - طَبَقًا لِلتَّسْلُسْلِ التَّارِيخِيِّ - إِلَى
طَبَقَاتٍ أَرْبَعَةٍ، فَهُمُ عَرَبٌ عَارِبَةٌ قَدْ بَادَتْ، ثُمَّ مُسْتَعْرَبَةٌ، وَهُمُ الفَحْطَائِيُونَ، ثُمَّ العَرَبُ التَّابِعَةُ لَهُمْ مِنْ
عَدْنَانَ وَالْأَوْسُ وَالْحَزْرَجُ، ثُمَّ الغَسَّاسِنَةُ وَالْمُنَادِرَةُ، وَأَخِيرًا العَرَبُ المُسْتَعْجِمَةُ وَهُمُ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي نَفُوذِ
الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

هَذِهِ هِيَ التَّقْسِيمَاتُ الَّتِي رَأَى الْأَخْبَارِيُّونَ تَقْسِيمَ العَرَبِ إِلَيْهَا - مِنْ نَاحِيَةِ الْقَدَمِ وَالتَّقَدُّمِ فِي العَرَبِيَّةِ -
وَهِيَ تَقْسِيمَاتٌ يَلَاحِظُ عَلَيْهَا "أَوْلًا" أَنَّهَا لَا تَرْجِعُ إِلَى أَيَّامِ العَرَبِ الْقَدَامَى أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا إِلَى العُصُورِ
الْإِسْلَامِيَّةِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ نَصٌّ وَاحِدٌ يَذْكُرُ هَذِهِ التَّقْسِيمَاتِ وَيَرْجِعُ فِي تَارِيخِهِ إِلَى مَا قَبَلَ الْإِسْلَامَ، حَتَّى
يُمْكِنَ الْقَوْلُ أَنَّهَا مِنْ وَضْعِ العَرَبِ الْقَدَامَى أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ هِيَ "ثَابِتًا" عَرَبِيَّةٌ صَرَفَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ المَصَادِرَ
الْيَهُودِيَّةَ، وَكَذَا المَصَادِرَ الْيُونَانِيَّةَ وَاللَّاتِينِيَّةَ وَالسُّرْيَانِيَّةَ، لَمْ تَتَّعَرَّضْ لِمِثْلِ هَذِهِ التَّقْسِيمَاتِ .

وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنَّ هَذِهِ التَّقْسِيمَاتِ غَيْرُ مُقْبُولَةٍ، وَمُتَعَسِّفَةٌ كَذَلِكَ، وَذَلِكَ لِأَسْبَابٍ مِنْهَا "أَوْلًا" أَنَّ الْقُرْآنَ
الْكَرِيمَ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ العَرَبِ الفَحْطَانِيَّةِ وَالْعَدْنَائِيَّةِ، وَإِنَّمَا رَفَعَ العَرَبَ جَمِيعًا إِلَى أَبِي وَاحِدٍ، هُوَ إِبْرَاهِيمُ
الْخَلِيلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) ، وَمِنْهَا "ثَابِتًا" مَا رُوِيَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "كُلُّ الْعَرَبِ مِنْ وَدِّ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ".

وَمِنْهَا "ثَالِثًا" أَنَّ هُنَاكَ مِنْ يُعْبَرُ "قَحْطَانَ" نَفْسِهِ مِنْ وَدِّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، اعْتِمَادًا عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِنَاسٍ مِنْ "أَسْلَمَ خُزَاعَةَ" - وَهُمْ مِنْ قَحْطَانَ - وَكَانُوا يَتَنَاضَلُونَ، فَقَالَ: "ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا"، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ "ابْنَ خَلْدُونَ" يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ جَمِيعَ الْعَرَبِ إِنَّمَا هُمْ مِنْ وَدِّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّ عَدْنَانَ وَقَحْطَانَ يَسْتَوْعِبَانِ الْعَرَبَ الْعَدْنَانِيَةَ وَالْقَحْطَانِيَةَ.

وَمِنْهَا "رَابِعًا" أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ، رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "اتَّسَبَ فَلَمَّا بَلَغَ عَدْنَانَ وَقَفَ، فَقَالَ كَذَبَ التَّسَابُونَ، كَمَا رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ - عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُوْمَانَ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "اسْتَقَامَتْ نِسْبَةُ النَّاسِ إِلَى عَدْنَانَ"، فَإِذَا صَحَّ هَذَانِ الْحَدِيثَانِ الشَّرِيفَانِ، فِيمَكُنَّا الْقَوْلُ أَنَّ عَدْنَانَ هُوَ الْقَوْمُ الْأَوَّلُ لِلْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ، عَدَا مَنْ سَمَاهُمُ الْكِتَابُ الْعَرَبِ بِالْقَبَائِلِ الْبَائِدَةِ.

وَمِنْهَا "خَامِسًا" إِنَّ الْأَخْبَارِيْنَ عِنْدَمَا حَاوَلُوا كِتَابَةَ أَنْسَابِ الْعَرَبِ، إِنَّمَا اعْتَمَدُوا إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ عَلَى سِلْسِلَةِ الْأَنْسَابِ فِي التَّوْرَةِ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ رَفَعُوا مِنْ نَسْلِ قَحْطَانَ، فَهَمُ الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ، وَزَلُّوا بِنَسَبِ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَهَمُ الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَبَةُ، أَحَدَثَ نَسَبًا مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْقَبَائِلِ الْبَائِدَةِ وَالْعَارِبَةِ فِي نَظَرِ كِتَابِ الْجَنُوبِ، وَبِالتَّالِي فَهَمُ أَقَلُّ شَأْنًا مِنْ قَبَائِلِ جَنُوبِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَهَكَذَا كَانَ الْكِتَابُ الْمُسْلِمُونَ مَرُوجِينَ لِنَظَرِيهِ التَّوْرَةِ فِي الْأَنْسَابِ، وَجَهَلُوا - أَوْ تَجَاهَلُوا - أَنَّ التَّوْرَةَ إِنَّمَا كُتِبَتْ ذَلِكَ لِتَرْفَعِ مِنْ شَأْنِ بَنِي إِسْحَاقَ عَلَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَلِتَجْعَلَ مِنْهُمْ دُونَ غَيْرِهِمُ الْأُمَّةَ الْمُخْتَارَةَ، وَسِلْسِلَةَ النَّسَبِ الْمُصْطَفَاهِ، عَلَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ بِالذَّاتِ، وَجَهَلُوا - أَوْ تَجَاهَلُوا - أَنَّ الْخَلِيلَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، إِنَّمَا كَانَ عَرَبِيًّا خَالِصًا، وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ بِالنَّسَبِ إِلَى ذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ.

وَمِنْهَا "سَادِسًا" أَنَّ الشَّعْرَ الْجَاهِلِيَّ لَمْ يُرَدِّ فِيهِ ذِكْرٌ لِتَقْسِيمِ الْعَرَبِ إِلَى قَحْطَائِيَّةٍ وَعَدْنَائِيَّةٍ، وَإِنْ وَرَدَتْ فِيهِ آيَاتٌ يَتَفَاخَرُ أَصْحَابُهَا بِعَدْنَانَ أَوْ قَحْطَانَ، تَرْجِعُ فِي أَغْلَبِ الظَّنِّ إِلَى الْحُبَّةِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْإِسْلَامِ، كَمَا أَنَّ هَذَا التَّفَاخُرَ - أَوْ حَتَّى الْهَجَاءَ - لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ أَسَاسًا لِوَضْعِ نَظَرِيَّةٍ فِي اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَمِنْهَا "سَابِعًا" أَنَّ مَا يَرَاهُ الْأَخْبَارِيُّونَ مِنْ أَنَّ الْعِدَاءَ كَأَنَّ مُسْتَحْكِمًا بَيْنَ الْعَدْنَائِيِّينَ وَالْقَحْطَائِيِّينَ مِنْ قَدِيمٍ ٢، حَتَّى رَوَوْا أَنَّ كُلَّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، إِنَّمَا اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ شِعَارًا فِي الْحَرْبِ يُخَالِفُ الْآخَرَ، فَاتَّخَذَ الْمُضْرِيُّونَ الْعِمَائِمَ وَالرَّايَاتِ الْحُمْرِ، وَاتَّخَذَ أَهْلُ الْيَمَنِ الْعِمَائِمَ الصُّفْرَ، فَإِنَّمَا أَصْلُ هَذَا الْعِدَاءِ مَا كَانَ بَيْنَ الْحَضَارَةِ وَالْبَدَاوَةِ مِنْ نِزَاعٍ طَبِيعِيٍّ، وَكَانَ تَوَالِي الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ يَزِيدُ فِي الْعِدَاءِ، وَيُقْوِي رُوحَ الشَّرِّ بَيْنَهُمْ، وَمَنْ أَوْضَحَ الْأُمْتَلَةَ عَلَى ذَلِكَ مَا كَانَ مِنَ الْعِدَاءِ الشَّدِيدِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ - مِنْ أَوْسٍ وَخَزْرَجٍ، وَهُمْ عَلَى مَا يُدْكَرُ التَّسَابُونَ قَحْطَائِيُونَ، وَأَهْلُ مَكَّةَ - وَهُمْ عَدْنَائِيُونَ - وَقَدْ اسْتَمَرَّ هَذَا التَّنَافُسُ بَيْنَهُمْ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ بَيْنَ الْقَوْمِ حَزَارَاتٍ وَمَفَاخِرَاتٍ، وَكُلُّ يَدْعِي أَنَّهُ أَشْرَفُ نَسَبًا، وَأَعَزُّ نَفَرًا.

وَمِنْهَا "ثَامِنًا" أَنَّ عُلَمَاءَ الْأَنْثْرُوبُولُوجِيَا لَمْ يَلْاحِظُوا فُرُوقًا وَاضِحَةً بَيْنَ الْعَدْنَائِيِّينَ وَالْقَحْطَائِيِّينَ، وَإِنْ كَانَ مِنْ الْعَجِيبِ أَنَّ الدَّرَاسَاتِ الْإَنْثْرُوبُولُوجِيَّةَ الَّتِي أُجْرِيَتْ عَلَى أَفْرَادٍ مِنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ، قَدْ أُثْبِتَتْ فُرُوقًا بَيْنَ أَفْرَادِ هَذِهِ الْقَبَائِلِ، هَذَا إِلَى أَنَّ الْجَمَاجِمُ الَّتِي عَثَرَ عَلَيْهَا مِنْ عُهُودٍ مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ تُشِيرُ إِلَى وُجُودِ أَغْرَاقٍ مُتَعَدِّدَةٍ بَيْنَهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا، فَزَيَّادًا كَانَ السَّبَبُ فِي هَذَا هُوَ الْإِخْتِلَاطُ الْجَنَسِيُّ عِنْدَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ، وَالَّذِي كَانَ تَبِيحَةً هَجَرَاتٍ مِنْ وَالِي جَنُوبِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَمِنْ هُنَا كَانَ التَّشَابُهَ بَيْنَ أَهْلِ عُومَانَ وَبَيْنَ سُكَّانِ السَّوَاخِلِ الْهِنْدِيَّةِ الْمُقَابِلَةِ لَهَا، ثُمَّ بَيْنَ أَهْلِ عَدْنٍ وَبَقِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ

الْجَنُوبِيَّةَ وَتَهَامَةَ، وَبَيْنَ سُكَّانِ أَفْرِيقِيَا الشَّرْقِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرَ احْتِمَالًا فِي الْحَالَةِ الْأَخِيرَةِ إِنَّ تِلْكَ الْقَبَائِلَ

فِي

إِفْرِيقِيَا الشَّرْقِيَّةِ، رُبَّمَا كَانَتْ تَبِيحَةُ هَجْرَاتِ عَرَبِيَّةٍ عَنْ طَرِيقِ بَابِ الْمُنْدَبِ إِلَى أَفْرِيقِيَا .

وَمِنْهَا "تَاسِعًا" أَنَّهُ لَمْ يَطْهَرُ أَيُّ انْقِسَامِ بَيْنَ الْعَرَبِ عَلَى أَيَّامِ الرَّسُولِ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- وَكَذَا عَلَى أَيَّامِ خَلِيفَتَيْ الصَّدِيقِ وَالْفَارُوقِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- كَمَا أَنَّ الرِّوَايَاتِ الْخَاصَّةَ بِتَنْظِيمِ الْفَارُوقِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِدِيَوَانَ الْمَظَالِمِ لَمْ يَرِدْ فِيهَا مَا يُشِيرُ إِلَى أَيِّ انْقِسَامٍ أَوْ تَمْيِيزٍ بَيْنَ الْقَحْطَانِيَّةِ وَالْعَدْنَانِيَّةِ كَجِنْسٍ، وَإِنَّمَا كَانَتْ الْقُرْبَى مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هِيَ الْأَسَاسُ، ثُمَّ يَنْفَاضِلُ النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مِقْدَارِ سَبَقَتِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ، وَعَلَى أَيِّ حَالٍ، فَلَقَدْ كَانَ بَنُو هَاشِمٍ -بَيْتِ النَّبُوَّةِ- قُطْبَ التَّرْتِيبِ، وَإِنْ هَذَا التَّسْجِيلُ قَدْ تَمَّ سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ عَلَى رَأْيِي، وَسَنَةَ عِشْرِينَ عَلَى رَأْيِ آخَرَ .

وَمِنْهَا "عَاشِرًا" أَنَّ الْحُرُوبَ الَّتِي قَامَتْ بَيْنَ الْإِمَامِ عَلَى -كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وَبَيْنَ خُصُومَتِهِ، لَمْ تَكُنْ حُرُوبًا بَيْنَ قَحْطَانِيَّيْنِ وَعَدْنَانِيَّيْنِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ بَيْنَ الْعَدْنَانِيَّيْنِ أَنْفُسِهِمْ، وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حُرُوبِ اشْتَعَلَ أَوَارَهَا بَيْنَ الْقَحْطَانِيَّيْنِ أَنْفُسِهِمْ .

وَلَعَلَّ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ بِمَكَانِ الْإِشَارَةِ هُنَا إِلَى أَنَّ الْحُرُوبَ الَّتِي دَارَتْ رَحَاهَا بَيْنَ الْعَدْنَانِيَّيْنِ وَالْقَحْطَانِيَّيْنِ، أَوْ بَيْنَ فَرِيقٍ وَفَرِيقٍ مِنْ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ أَوْ تِلْكَ، لَا تَكَادُ تَسْمَعُ فِيهِ انْتِسَابَ كُلِّ الْعَرَبِ إِلَى عَدْنَانَ أَوْ قَحْطَانَ، وَإِنَّمَا تَسْمَعُ فَخْرًا بِأَسْمَاءِ الْقَبَائِلِ أَوْ الْأَخْلَافِ الَّتِي انْضَمَّتْ إِلَى هَذَا أَوْ ذَاكَ، تَسْمَعُ أَسْمَاءَ مُعَدَّ أَوْ نِزَارٍ أَوْ مُضَرٍّ، وَلَعَلَّ هَذَا كُلُّهُ، يُجِيزُ لَنَا أَنْ نَقُولَ - مَعَ الدُّكُورِ جَوَادٍ عَلَى - كَيْفَ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَتَّصِرَ انْقِسَامِ

العرب إلى قحطانيين وعدنانيين انقسامًا حقيقيًا، وقد كانت القبائل تتحالف فيما بينها، وتُحارب بعضها مع بعض بإحلاف قد تكون مزيجًا بين عدنانيين وقحطانيين، فإذا كان الأمر كذلك، وإذا كان العرب قحطانيين

وعدنانيين بالأصل، فكيف تحالفت "جديلة" -وهي من طيء- مع "بني شيبان" -وهم من بني عدنان- لمحاربة "عبس" العدنانية، وكيف نفسر تحالف قبائل يمنية مع قبائل عدنانية، لمحاربة قبائل يمنية، أو لعقد محالفات دفاعية هجومية معها.

وهكذا يمكننا أن نفسر نظرية الطبقات هذه، بأن الظروف السياسية لعبت دورها في تكوينها، وإن شاء أصحابها الرجعة بها إلى الماضي البعيد، ووضع تاريخ قديم لها، ذلك أن بني أمية، حين وضعت الأقدار أمور المسلمين بأيديهم، إنما عملوا على إحياء العصية الأولى بين القبائل وضرب الواحدة منها بالأخرى رغبة منهم في السيطرة على القبائل جميعًا، وشغلها عما يقره الواحد منهم أو الآخر من أخطاء، وقد تسبب هذا الوضع -في أغلب الأحيان- في الإساءة إلى القبائل الجنوبية إلى حد كبير، وسرعان ما انتهزت هذه القبائل فرصة قيام دولة بني العباس -التي اعتمدت عليهم إلى حد كبير- فعملت على استعادته ما فقدته على أيام الأمويين، وبدأ الأخباريون -ومعظمهم من قبائل الجنوب- يكتبون عن الأنساب، وعن التاريخ العربي القديم، وكان موضع الخطر في هذا، أنهم بدءوا يكتبون وهم في البصرة والكوفة، ومن ثم فلم يجدوا من المصادر التي يعتمدون عليها، إلا ما كان قريبًا منهم، وكانت التوراة -وما يدور في فلكها من تصانيف- قد امتلأت بها مكبات العراق، ومن ثم فقد نقلوا عنها ما كتبه عن قحطان وإسماعيل وهاجر وسبأ وبعض قبائل الجنوب، زاد الطين بله، أن العصية لدى

الْيَمِينِينَ قَدْ لَعِبَتْ دُورًا خَطِيرًا فِي الْأَنْسَابِ، وَمَنْ تَمَّ فَقَدْ نَسَبُوا مُعْظَمَ الْقَبَائِلِ الْبَائِدَةَ إِلَى جَنُوبِ شِبْهِ
الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بِنَسَبِ أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا كَانُوا يُنْسَبُونَ غَيْرِهِمْ إِلَيْهِمْ كَذَلِكَ ٢، بَلْ إِنْ الْأَمْرَ
قَدْ وَصَلَ إِلَى أَنْ تَتَّخَذَ لَفْظُهُ "الْأَنْصَارَ" - وَالَّتِي أُطْلِقَتْ

عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ أَوْسٍ وَخَزْرَجٍ، بِسَبَبِ نُصْرَتِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَانَهَا قَدْ
أَصْبَحَتْ نَسَبًا، مِمَّا ضَاقَ بَعْضُ رِجَالِ قُرَيْشٍ، وَبَدَأَ شُعْرَاءُ الْمَدِينَةِ يَفْخَرُونَ بِأَصْلِهِمُ الْيَمَنِيَّ، وَبِأَنَّهُمْ
مِنْ أَقْرَبَاءِ الْغَسَّاسِنَةِ وَذَوِي رَحِمِهِمْ، كَمَا اسْتَعْمَلُوا لَفْظَهُ الْأَنْصَارِ فِي مُقَابِلِ قُرَيْشٍ وَمَعْدٍ وَنَزَارٍ.

وَمَنْ عَجِبَ أَنْ بَعْضَ النَّزَارِيَّةِ فِي هَذَا الْجَوْ الْمُحْمُومِ بِالْعَصَبِيَّةِ اقْتَحَرُوا بِالْفَرَسِ عَلَى الْيَمَنِيَّةِ، وَعَدُّوهُمْ
مِنْ وَلَدِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنْ تَمَّ فَقَدْ أَصْبَحَ إِبْرَاهِيمُ جَدَّ الْفَرَسِ وَالْعَرَبِ، وَلَمْ تَكُنْ النَّزَارِيَّةُ بِذَلِكَ،
بَلْ زَعَمَتْ أَنَّ هَذَا النَّسَبَ قَدِيمٌ، مُعْتَمِدِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى شَعْرِ نَسَبُوهُ إِلَى شَاعِرٍ جَاهِلِيٍّ، وَجَارَاهِمُ
الْفَرَسُ فِي هَذَا الرَّعْمِ، تَقَرُّبًا إِلَى الْحُكُومَةِ وَهِيَ عَدْنَانِيَّةٌ، فَضَلًّا عَنِ أَسْبَابِ سِيَاسِيَّةِ أُخْرَى، لَا شَكَّ أَنَّ
مِنْهَا آثَارَهُ الْعَصَبِيَّةِ الْبَغِيضَةَ بَيْنَ الْعَرَبِ أَنْفُسِهِمْ، وَيَبْدُو أَنَّ الْعَدْنَانِيَّةِينَ لَمْ يَكْتَفُوا بِرِبْطِ نَسَبِهِمْ بِالْفَرَسِ
وَالْإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَإِنَّمَا رَبَطُوهُ كَذَلِكَ بِالْإِكْرَادِ، حِينَ نَسَبُوهُمْ إِلَى "رَبِيعَةَ بْنِ نَزَارٍ بْنِ بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ . . ."، فَكَانَ
رَدُّ الْقَحْطَانِيِّينَ إِنْ جَعَلُوا الْيُونَانَ مِنْ ذَوِي قُرْبَاهُمْ، بَلْ إِنْ التَّرْكَ كَذَلِكَ أَصْبَحُوا مِنْ حِمِيرٍ.

وَعَلَى أَنَّ "الْوَيْسَ مُوسَلًا" إِنَّمَا يُرَى أَنَّ أُسْطُورَةَ الْأَنْسَابِ هَذِهِ، إِنَّمَا بَدَأَتْ فِيهَا قُبَيْلَ الْإِسْلَامِ، وَلَمَّا كَانَ
لِلْيَمَنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَقَامٌ عَظِيمٌ، فَقَدْ انْتَسَبَ الْكَثِيرُونَ إِلَى الْيَمَنِ، ثُمَّ جَاءَ عُلَمَاءُ الْأَنْسَابِ - مُتَأَثِّرِينَ
بِالْعَوَامِلِ الْإِنْفِئَةِ الذِّكْرِ - فَسَجَلُوهَا عَلَى أَنَّهَا حَقِيقَةٌ وَاقِعَةٌ.

انتهى

ملاحظات على ما جاء في كتاب البيومي

أولاً : أنه يعتمد على كتاب المدخل إلى تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي وكتاب في الشعر الجاهلي لطلح حسين كمرجعين رئيسيين لدراسته ونحن قد فعلنا ذلك أيضاً بحكم أن هذين المصدرين هما من أهم المصادر التاريخية العلمية والموضوعية في بحوث أحوال العرب قبل الإسلام .

ثانياً : أضاف في كتابه أدلة جديدة حول الاختلاف بين القحطانيين والعدنانيين وهي أدلة علمية تتعلق بعلم الأنثروبولوجيا وهو علم حديث مهمته البحث والتنقيب في الآثار واستخلاص معلومات تاريخية منها .

ثالثاً : يميل بشدة إلى الرأي الذي يقول إن أصل العرب كلهم يرجع للنبي إسماعيل عليه السلام .

رابعاً : يتقيد ويفند بشدة التقسيم الطبقي للنساب العرب الذي جاء به كتب النسب والمؤرخين العرب .

اللغة العربية و اللسان العربي

الأمة واللغة أمران متلازمان ، والذين يتكلمون اللغة الواحدة تربطهم قوانين الطبيعة بروابط عديدة ، تجعل منهم وحدة غير قابلة للانقسام ، تقوم أساساً على دعائم أساسية أهمها : وحده الفكر والعقيدة التي تصنعها وحده اللغة العربية ، بجانب وحده الضمير والوجدان التي تصنعها وحده التاريخ .

اعترف جميع العلماء منذ العصور الوسطى بأوجه التشابه بين اللغات العبرية والعربية والآرامية . كان علماء أوروبا الغربية على دراية باللغات كنتيجة للتواصل التاريخي مع دول الشرق الأدنى المجاورة والدراسات التوراتية ، نشر المستشرق الفرنسي غيوم بوستل تحليلاً مقارنة للعبرية والعربية والآرامية باللاتينية في عام 1538 . بعد ما يقرب من قرنين من الزمان ؛ وصف المستشرق هيوب لودولف أوجه التشابه بين هذه اللغات الثلاث واللغات السامية الإثيوبية ، ومع ذلك لم يطلق أي من الباحثين آنذاك على هذه المجموعة وصف (سامية) .

استخدم مصطلح (سامية) لأول مرة عام 1781 من قبل أعضاء مدرسة غوتنغن للتاريخ وتحديداً من قبل المؤرخ الألماني أوغست لودفيغ فون شلوزر ، وفي أواخر القرن الثامن عشر صاغ يوهان غوتفريد أيكهورن مصطلح (سامية) للإشارة إلى اللغات التي لها صلة وثيقة بالعربية والآرامية والعبرية . اشتقت كلمة (سامية) من (سام) وهو أحد أبناء نوح الثلاثة كما ذكر في روايات الأنساب في سفر التكوين التوراتي أو بشكل أكثر دقة من الترجمة اليونانية للاسم (Σημ) باليونانية وترجم إلى (Sēm) . يعود الفضل لايكهورن في تعميم المصطلح خصوصاً بعد أن نشر مقالاً عام 1795 بعنوان "Semitische Sprachen" (اللغات السامية) برّر فيه استخدام هذا المصطلح ضدّ النقد القائل آنذاك بأن العبرية والكنعانية هما نفس اللغة على الرغم من أن شعب كنعان (الحاميون) هم من نسل نوح .

عرفت هذه اللغات سابقاً في الأدب الأوروبي عمومًا باسم (اللغات الشرقية) . وفي القرن التاسع عشر أصبحت كلمة (سامية) هي الاسم التقليدي الشائع ، ومع ذلك اقترح العالم البريطاني جيمس كلوز بريشارد لاحقاً اسماً بديلاً لهذه اللغات وهو (اللغات السورية العربية) واستخدمه بعض الكتاب .

عَرَفَتِ الشُّعُوبُ قَدِيمًا التَّحَدُّثَ وَالْكِتَابَةَ بِاللُّغَاتِ السَّامِيَةِ فِي مُعْظَمِ أَنْحَاءِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ وَأَسِيَا
الصُّغْرَى خِلَالَ العَصْرِ البرونزي والعَصْرِ الحَدِيدِيِّ ، إِحْدَى أَقْدَمِ اللُّغَاتِ الموثقة هِيَ اللُّغَةُ السَّامِيَةُ الشَّرْقِيَّةُ
الَّتِي ظَهَرَتْ فِي بِلَادِ مَا بَيْنَ النَهْرَيْنِ (أَكْد ، أَشُور ، إِسْن ، لَارَسَا ، وَبَابِل) فِي الأَلْفِيَّةِ الثَّلَاثَةِ قَبْلَ المِيلَادِ
لَوْجِ مَنُقُوشِ بَكَنَاتِ أَكْدِيَّةٍ وَهُوَ رِسَالَةٌ دِبْلُومَاسِيَّةٌ يُعُودُ تَارِيحُهَا لِلقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ قَبْلَ المِيلَادِ وَجَدَتْ فِي
تَلِّ العِمَارَةِ بِمِصْرَ

لَا يَزَالُ أَصْلُ الشُّعُوبِ النَّاطِقَةِ بِالسَّامِيَةِ قَيَّدَ التَّفَاشَ ، اقْتَرَحَتْ عِدَّةُ أَمَاكِنَ كَمَوَاقِعِ مُحْتَمَلَةٍ لِأَصْلِ شُعُوبِ
مَا قَبْلَ التَّارِيخِ النَّاطِقِينَ بِالسَّامِيَةِ ، مِنْ بَيْنِ تِلْكَ الأَمَاكِنِ : بِلَادِ مَا بَيْنَ النَهْرَيْنِ وَالشَّامِ وَمِنْطَقَةَ شَرْقِ البَحْرِ
الأَبْيَضِ المُوسَطِ وَشَبَّهَ الجَزِيرَةَ العَرَبِيَّةَ وَشِمَالَ إِفْرِيقِيَا . يُقْتَرَحُ بَعْضُ البَاحِثِينَ أَنَّ اللُّغَاتِ السَّامِيَةَ نَشَأَتْ
فِي بِلَادِ الشَّامِ قَرَابَةَ سَنَةِ 3800 قَبْلَ المِيلَادِ ، وَاتَّسَرَتْ إِلَى القَرْنِ الإِفْرِيقِيِّ زُهَاءً 800 قَبْلَ المِيلَادِ مِنْ شِبْهِ
الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ الجَنُوبِيَّةِ وَإِلَى شِمَالِ إِفْرِيقِيَا عَبْرَ المُسْتَعْمَرِينَ الفِينِيقِيِّينَ فِي نَفْسِ الوَقْتِ قَرِيبًا ، بَيْنَمَا يُشِيرُ
آخَرُونَ إِلَى أَنَّ وُصُولَ المُتَحَدِّثِينَ السَّامِيِّينَ إِلَى القَرْنِ الإِفْرِيقِيِّ يُعُودُ إِلَى تَارِيخٍ أَقْدَمَ بِكَثِيرٍ ، وَيُفَضِّلُونَ
وَجْهَهُ التَّنْظَرَ القَائِلَةَ بِأَنَّ السُّكَّانَ النَّاطِقِينَ بِالسَّامِيَةِ فِي القَرْنِ الإِفْرِيقِيِّ يَنْحَدِرُونَ مِنْ غَرْبِ أُسِيَا ، بِدَعْوَى
أَنَّ الأَدِلَّةَ الأَثَرِيَّةَ وَالْكِتَابِيَّةَ واللُّغَوِيَّةَ تُدَحِّضُ هَذِهِ الفُرْضِيَّةَ . يُجَادِلُ البَعْضُ الآخَرَ بِأَنَّ اللُّغَةَ السَّامِيَةَ الأُمَّ
انْفَصَلَتْ عَنِ اللُّغَاتِ الإِفْرِيقِيَّةِ الآسِيَوِيَّةِ فِي القَرْنِ الإِفْرِيقِيِّ ، وَإِنْ أُثْبِتَ كَانَتْ نُقْطَةَ البِدَايَةِ لِهَجْرَةِ الشُّعُوبِ
السَّامِيَةِ إِلَى الشَّرْقِ الأَدْنَى . وَثَبَّتَ اللُّغَاتِ الكَنْعَانِيَّةَ (وَهِيَ فَرْعٌ مِنَ اللُّغَاتِ السَّامِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ العَرَبِيَّةِ وَمِنْ
صَمْنَهَا الأَمُورِيَّةِ) لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي القَرْنِ الحَادِي وَالْعِشْرِينَ قَبْلَ المِيلَادِ ، وَتَشْمَلُ اللُّغَةَ الإِدُومِيَّةَ ، وَالعِبْرِيَّةَ ،
وَالعَمُونِيَّةَ ، وَالْمَوَابِيَّةَ ، وَالْفِينِيقِيَّةَ (حَضَارَةُ البُونِيقِيِّينَ وَالْحَضَارَةَ القَرطاجِيَّةِ) ، وَالعِبْرِيَّةَ السَّامِرِيَّةَ ،

العقرونية ، العماليقية ، واللغة السيتانية . عاشت الشعوب الناطقة بهذه اللغات في المناطق المعروفة اليوم بسوريا ولبنان والأراضي الفلسطينية والأردن وشمال شبه جزيرة سيناء وبعض الأجزاء الشمالية والشرقية من شبه الجزيرة العربية وفي الأطراف الجنوبية الغربية لتركيا والمناطق الساحلية تونس (قرطاج) وليبيا والجزائر وأجزاء من المغرب وإسبانيا وربما في مالطا وجزر البحر الأبيض المتوسط الأخرى . أما الأوغاريتية (وهي لغة سامية شمالية غربية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمجموعه اللغات الكنعانية ولكنها متميزة عنها) فقد تحدثت بها شعوب مملكة أوغاريت في شمال غرب سوريا .

خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد ظهرت لغة هجينة كنعانية - أكادية في كنعان (فلسطين والأردن ولبنان) ، إذ جمعت بين مفردات من اللغة الأكادية الشرقية السامية في بلاد ما بين النهرين (الآشورية والبابلية) مع مفردات من اللغات الكنعانية الغربية السامية . أما الآرامية (وهي لغة سامية شمالية غربية قديمة لا زالت مستخدمه اليوم) فقد وثقت لأول مرة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد في شمال بلاد الشام ، وحلت تدريجياً مكان اللغات السامية الشرقية والكنعانية في معظم أنحاء الشرق الأدنى ، لا سيما بعد أن اعتمدت كلغة تواصل مشترك في الإمبراطورية الآشورية الحديثة (911-605 قبل الميلاد) من قبل تغلث فلاسر الثالث خلال القرن الثامن قبل الميلاد ، وحافظت عليها شعوب الإمبراطورية البابلية الحديثة والإمبراطورية الأخمينية اللاحقة .

كانت اللغة الكلدانية (وهي ليست اللغة الآرامية أو صيغتها التوراتية (الآرامية التوراتية) والتي يُشار إليها أحياناً باسم الكلدانية) لغة سامية شمالية غربية ، وربما ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالآرامية ولكن لا توجد أدلة كافية على ذلك ، إذ يبدو أن الكلدان قد بنوا بسرعة اللغتين الأكادية والآرامية (التي كانت يتحدث

بِهِمَا السُّكَّانُ الْأَصْلِيُّينِ فِي بِلَادِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ) بَعْدَ الْإِسْتِقْرَارِ فِي جَنْوبِ شَرْقِ بِلَادِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ خِلَالَ الْقُرْنِ التَّاسِعِ قَبْلَ الْمِيلَادِ قَادِمِينَ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ .

أَمَّا اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْجَنُوبِيَّةُ الْقَدِيمَةُ (المصنفة على أنها سامية جنوبيَّة وبالتالي تختلف عن اللُّغَةِ السَّامِيَّةِ الْمُرَكَّبَةِ لِلْعَرَبِيَّةِ وَالَّتِي تَطَوَّرَتْ بَعْدَ أَكْثَرِ مِنْ 1000عام) فَقَدْ تَحَدَّثَتْ بِهَا الشُّعُوبُ قَرَابَةَ الْقُرْنِ الثَّامِنِ قَبْلَ الْمِيلَادِ فِي مَمَالِكِ دِمُونِ وَمِيلُوْحَةِ وَسَبَأٍ وَأَرَمَ وَسَقَطْرَى وَمَاجَانِ ، وَهَذِهِ الْمَمَالِكُ هِيَ الْيَوْمَ جُزْءٌ مِنْ السَّاحِلِ الشَّرْقِيِّ لِلْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ وَالْبَحْرَيْنِ وَقَطْرَ وَعَمَانَ وَالْيَمَنِ . يُعْتَقَدُ أَنَّ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةَ انْتَشَرَتْ إِلَى الْقُرْنِ الْإِفْرِيْقِيِّ حَيْثُ ظَهَرَتْ اللُّغَةُ الْجَعَزِيَّةُ (على الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ اتِّجَاهَ التَّأْثِيرِ لَا يَزَالُ غَيْرَ مُوَكَّدٍ) .

أَثَرَتِ اللُّغَةُ الْأَكْدِيَّةُ بِاللُّغَةِ السُّرْيَانِيَّةِ ، وَهِيَ لُغَةٌ انْتَشَرَتْ فِي الْقُرْنِ الْخَامِسِ قَبْلَ الْمِيلَادِ فِي بِلَادِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ (الآشورين) وَتَنَحَدَرُ مِنَ اللُّغَةِ الْأَرَامِيَّةِ الْمُسْتَحْدَمَةِ فِي بِلَادِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ وَشَمَالِ شَرْقِ سُورِيَا وَجَنُوبِ شَرْقِ الْأَنْاضُولِ ، وَقَدْ بَرَزَتْ أَهْمِيَّتُهَا كَلُغَةً أَدْبِيَّةً لِلْمَسِيْحِيَّةِ الْمُبَكَّرَةِ فِي الْقُرْنِ الثَّلَاثِ إِلَى الْخَامِسِ بَعْدَ الْمِيلَادِ وَاسْتَمَرَّتْ حَتَّى أَوَائِلِ الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ .

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ نَشَأَتْ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، إِلَّا أَنَّهَا ظَهَرَتْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي شَكْلِ مَكْتُوبٍ فِي الْقُرْنَيْنِ الْأَوَّلِ وَالرَّابِعِ الْمِيلَادِيِّ فِي الْمَنَاطِقِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ . وَمَعَ بَدَايَةِ الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُبَكَّرَةِ فِي الْقُرْنَيْنِ السَّابِعِ وَالثَّامِنِ ، حَلَّتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْفُضْحَى فِي تَهَايَةِ الْمَطَافِ مَحَلَّ الْعَدِيدِ (وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ) مِنْ اللُّغَاتِ وَالثَّقَافَاتِ السَّامِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ فِي الشَّرْقِ الْأَدْنَى . شَهِدَ كُلُّ مِنَ الشَّرْقِ الْأَدْنَى وَشَمَالِ إِفْرِيْقِيَا هِجْرَةَ لِلْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، تَبَعُهُمْ فِي وَقْتٍ لَاحِقٍ شُعُوبٌ إِيرَانِيَّةٌ وَتُرْكِيَّةٌ

مَسْلَمَةٌ غَيْرَ سَامِيَّةٍ . بَدَأَتْ اللُّهْجَاتُ الأَرَامِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً فِي السَّابِقِ وَالَّتِي اِحْتَقَطَ بِهَا الأَشُورِيُّونَ
والبَابِلِيُّونَ وَالْفَرَسُ بِالتَّلَاشِي تَدْرِيجِيًّا ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ اللُّهْجَاتِ المُنْحَدِرَةَ مِنَ الأَرَامِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ (والمُتَأَثِّرَةِ
بِالأَكْدِيَّةِ بِمَا فِي ذَلِكَ اللَّهْجَةِ الأَرَامِيَّةِ الأَشُورِيَّةِ الحَدِيثَةِ ، وَالكَلْدَانِيَّةِ-الأَرَامِيَّةِ الجَدِيدَةِ وَالتُّورِيَّةِ
والمِنْدَائِيَّةِ) لَا زَالَتْ مُسْتَحْدَمَةً حَتَّى اليَوْمِ بَيْنَ الأَشُورِيِّينَ وَالمِنْدَائِيِّينَ المُقِيمِينَ فِي شِمَالِ وَجَنُوبِ العِرَاقِ
وَشِمَالِ عَرَبِ إِيرَانَ وَشِمَالِ شَرْقِ سُورِيَا وَجَنُوبِ شَرْقِ تُرْكِيَا ، وَيَتَحَدَّثُ بِهَا مَا يَصِلُ إِلَى مِليُونِ
شَخْصٍ . الأَرَامِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ هِيَ لُغَةٌ مُعْرَفَةٌ بِهَا فِي العِرَاقِ ، عِلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ كَانَتْ اللَّهْجَةُ العِرَاقِيَّةُ هِيَ
أَكْثَرُ اللُّهْجَاتِ العَرَبِيَّةِ تَأَثَّرًا بِالأَرَامِيَّةِ السُّرْيَانِيَّةِ ، بِسَبَبِ أَنَّ الأَرَامِيَّةَ السُّرْيَانِيَّةَ نَشَأَتْ أُسَاسًا فِي بِلَادِ مَا
بَيْنَ النَهْرَيْنِ . يَتَحَدَّثُ الأَرَامِيَّةَ العَرَبِيَّةَ اليَوْمَ بِضِعَةِ آلافٍ مِنَ الأَرَامِيِّينَ المُسِيحِيِّينَ السُّرْيَانِ فِي عَرَبِ سُورِيَا
 . نَشَرَ العَرَبُ لُغَتَهُمُ السَامِيَّةَ المُرَكَّبَةَ فِي شِمَالِ إِفْرِيْقِيَا (مِصْرَ وَليبيَا وَتُونِسَ وَالجَزَائِرَ وَالمَغْرِبَ وَشِمَالِ
السُّودَانَ وَمُورِيْتَانِيَا) وَالَّتِي حَلَّتْ تَدْرِيجِيًّا مَحَلَّ اللُّغَاتِ القِبْطِيَّةِ المُصْرِيَّةِ وَالعَدِيدِ مِنَ اللُّغَاتِ البَرْبَرِيَّةِ (عَلَى
الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ البَرْبَرِيَّةَ لَا تَزَالُ مُوجُودَةً إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ فِي العَدِيدِ مِنَ المِنَاطِقِ) وَبَعْضُ الوَقْتِ إِلَى شِبْهِ
الجَزِيرَةِ الأَيْبِيرِيَّةِ (إِسبَانِيَا وَالبَرْتِغَالَ وَجَبَلِ طَارِقِ) وَمَالِطَا .

أَنَّ مَا يُهْمُنَا عِنْدَ البَحْثِ فِي اللُّغَاتِ السَامِيَّةِ هِيَ اللُّغَاتُ الثَّلَاثُ الرَّئِيسِيَّةُ الَّتِي عَاشَتْ مَعَ بَعْضِهَا البَعْضُ
فِي مَنطِقَةِ الشَّرْقِ الأَوْسَطِ وَهِيَ اللُّغَاتُ الأَرَامِيَّةُ وَالعَبْرِيَّةُ وَالعَرَبِيَّةُ وَذَلِكَ لِوُجُودِ هَذَا التَّرَاوُجِ بَيْنَهَا وَلِأَنَّ
هَذِهِ اللُّغَاتِ نَزَلَتْ بِهَا الكُتُبُ المُقَدَّسَةُ عَلَى التَّوَالِي التَّورَةَ بِالعَبْرِيَّةِ وَالأِنْجِيلَ بِالأَرَامِيَّةِ وَالقُرْآنَ بِالعَرَبِيَّةِ

أَنَّ هَذَا التَّشَابُهَ والتَّرَابُطَ وتفردِها لَأَنَّ تَكُونَ لُغَةُ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ سَعِينًا كَثِيرًا فِي حِلِّ مَسْأَلَةِ التَّنَسُّبِ اليَقِينِيِّ لِلْعَرَبِ وسَاعَطِي مِثَالًا عَنِ التَّقَارُبِ بَيْنَ هَذِهِ اللُّغَاتِ فَكَلَّمَهُ سَلَامٌ بِالْعَرَبِيَّةِ يُقَابِلُهَا شَالُومٌ بِالْعِبْرِيَّةِ وشَالُومٌ بِالْأَرَامِيَّةِ وَهُنَاكَ الكَثِيرُ مِنَ الْأُمْتِلَةِ عَلَى ذَلِكَ .

أَوَّلُ الخِيَطِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إِبْرَاهِيمَ (بالعبرية : אַבְרָהָם) وتَلَفَّظَ أِبْرَاهَامَ وَمَعْنَاهَا الأبُّ الرَّفِيعُ أَوْ الأبُّ المَكْرَمُ ، هُوَ أبُّ نُسْبِ كَثِيرٍ وَاحِدِ آبَاءِ اليَهُودِيَّةِ الثَّلَاثَةِ ، وَشَخْصِيَّةٍ مَحْوَرِيَّةٍ فِي المَسِيحِيَّةِ وَالإِسْلَامِ وَادِيَانِ إِبْرَاهِيمِيَّةِ أُخْرَى . وَرَدَتْ سَيَرُهُ حَيَاتِهِ فِي سَفَرِ التَّكْوِينِ وَفِي القُرْآنِ أَيْضًا . وَيُعْتَقَدُ بِأَنَّهَا صَحِيحَةٌ ضَمِنَ هَذِهِ الأَدْيَانَ الكُبْرَى حَسَبِ مَا وَرَدَ فِي كُتُبِهِمُ المَقْدَسَةِ ، وَلَكِنْ يَعْتَبَرُهَا بَعْضُ المُؤَرِّخِينَ اللادِينِيِّينَ ضَمِنَ الأَسَاطِيرِ لَغِيَابِ مَصَادِرِ أُخْرَى تَارِيخِيَّةٍ مُحَايِدَةٍ عَنِ حَيَاتِهِ . تُسَمَّى العَقَائِدُ الإِسْلَامِيَّةُ وَالمَسِيحِيَّةُ وَاليَهُودِيَّةُ بِالدِّيَانَاتِ الإِبْرَاهِيمِيَّةِ لِأَنَّ اعْتِقَادَاتِهِمْ كَانَتْ مَتَأَثِّرَةً بِمَعْتَقِدِ إِبْرَاهِيمَ .

ذَكَرَ فِي التَّنَاخِ (الَّذِي يَتَضَمَّنُ كِتَابَ التَّوْرَةِ وَكُتُبَ الأنْبِيَاءِ عِنْدَ اليَهُودِ) ، وَالقُرْآنَ بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ مُبَارَكًا مِنْ اللّهِ . فِي التَّقْلِيدِ اليَهُودِيِّ يُسَمَّى إِبْرَاهِيمَ «أَبُونَا إِبْرَاهِيمَ» . وَعَدَّ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ وَعَظِيمَةٍ ، حَيْثُ وَعَدَهُ اللّهُ بِنَسْلِ عَظِيمٍ وَأَنَّ كُلَّ الأُمَّمِ سَوْفَ تَبَارِكُ بِهَذَا التَّنَسُّلِ .

يُؤْمِنُ اليَهُودُ وَالمَسِيحِيُّونَ بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ هُوَ أَبُو بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ ابْنِهِ إِسْحَاقَ ، الَّذِي قَدَّمَهُ إِبْرَاهِيمَ لِلّهِ كَذَبِيحَةٍ . بَيْنَمَا يُؤْمِنُ المُسْلِمُونَ بِتَقْدِيمِ إِبْرَاهِيمَ لِابْنِهِ الأَخْرِ إِسْمَاعِيلَ لِلذَّبْحِ ، وَيُؤْمِنُونَ أَنَّ الرَّسُولَ مُحَمَّدَ مِنْ نَسْلِهِ . يُعْتَقَدُ فِي المَسِيحِيَّةِ بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ هُوَ مِثَالٌ يُخَدِّى بِهِ فِي الإِيمَانِ ، وَيُطَلَّقُ عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ «

أَبُو الْأَنْبِيَاءِ « وَيَعَدُّ أَحَدُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الْخَمْسَةِ الَّذِينَ يُوصَفُونَ بِأُولِي الْعَزْمِ ، لَصَبْرِهِمْ كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) . هَذَا الْأِسْمُ مَعْنَى عِبْرَتِي حَسَبِ مَا وَرَدَ فِي التَّوْرَةِ وَالَّذِي يَعْنِي أَبُو الْجُمْهُورِ أَوْ أَبُو الْأُمَمِ ، وَلَهُ مَعْنَى آرَامِي أَيْ أَبَا رَاحِمَا أَيْ الْأَبُ الرَّحِيمِ أَوْ الْأَبُ الْحَنُونُ ، اسْمُ إِبْرَاهِيمَ مُشْتَقٌّ مِنْ اسْمِ إِبْرَاهِيمَ السَّابِقِ إِبْرَامَ وَالَّذِي يَعْنِي الْأَبَ الْعَالِي أَوْ الْأَبَ الرَّفِيعَ بِاللُّغَةِ الْكَلْدَانِيَّةِ ، لِهَذَا الْأِسْمِ عِدَّةُ نُسَخَةٍ فِي اللُّغَاتِ الْأُخْرَى مِثْلَ إِبْرَاهَامَ فِي لُغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ وَأَفْرَامِي بِاللُّغَةِ الرَّوسِيَّةِ وَأَوْرَاهَا بِاللُّغَةِ السُّرْيَانِيَّةِ ، وَلَهُ الْقَابُ مِثْلَ آيِبِ وَأَبِي .

يَجِبُ التَّنْوِيهِ هُنَا أَنَّ السَّرْيَانَ وَالسُّرْيَانِيَّةَ مِصْطَلِحَاتٌ حَدِيثُهُ الْعَهْدِ بِالنِّسْبَةِ لِمَوْلِدِ إِبْرَاهِيمَ 1900 قَبْلَ الْمِيلَادِ إِذْ سُمِّيُوا بِالسَّرْيَانَ بَعْدَ وُصُولِ بَشَارَةِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ وَأَشْتَقُّ اسْمُهُمْ مِنْ سَوْرِيَّةٍ فَسَمِيُوا بِذَلِكَ لِلتَّفْرِيقِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْوَثْنِيِّينَ وَهُمْ بِالْأَصْلِ كَلْدَانٌ وَلُغَتُهُمْ كَلْدَانِيَّةٌ أَوْ أَرَامِيَّةٌ .

فَلُغَةُ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ هِيَ أَرَامِيَّةٌ ثُمَّ عِبْرِيَّةٌ وَحِينَمَا وَصَلَ إِلَى حُرَّانَ وَمِنْهَا إِلَى أَرْضِ كَعَّانَ أَمَرَهُ اللَّهُ بِنَقْلِ زَوْجَتِهِ هَاجَرَ وَوَلَدَهُ النَّبِيَّ إِسْمَاعِيلَ إِلَى بَكَّةَ مَكَّةَ الْمُكْرَمَةَ وَقِصَّةُ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ مَعْرُوفَةٌ وَمَذْكُورَةٌ بِفَاصِلِهَا بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَا يَهْمُنَا هُنَا حَيَاةُ إِسْمَاعِيلَ هُنَاكَ وَكَيْفَ فَتَقَّ لِسَانَهُ وَتَكَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِهَا وَلَقَدْ تَحَدَّثْنَا عَنْ الرِّوَايَاتِ الَّتِي تَحَدَّثُ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِ الْعَرَبِ قَبْلَهُ وَإِنْ يُعْرَبُ هُوَ أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَهِيَ رِوَايَاتٌ لَا أَدَلَّةَ تَارِيخِيَّةٍ أَوْ نَصِيَّةَ عَلَيْهَا وَالْأَدَلَّةُ الْإِثْرِيَّةُ تُنَبِّئُ أَنَّ لُغَةَ الْفَحْطَانِيِّينَ الْحِمَيْرِيَّةِ هِيَ لَيْسَتْ عَرَبِيَّةً مُمَكِّنَ الرُّجُوعِ إِلَى رَأْيِي الدُّكُورِ طَهَ حُسَيْنٌ فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ وَنَضِيفَ إِلَيْهِمَا قَوْلَيْنِ مَأْثُورَيْنِ أَنَّ ابْنَ جَنَى قَالَ (. . . وَبَعْدَ فَلَسْنَا نَشْكُ فِي بَعْدِ لُغَةِ حَمِيرٍ وَنَحْوَهَا عَنْ لُغَةِ بَنِي نَزَارِ) .

وَأَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَلَاءِ قَالَ ((مَا لِسَانَ حَمِيرٍ بِلِسَانِنَا وَلَا لُغَتِهِمْ لُغَتُنَا))

هَذَا الْأَمْرُ مَحْسُومٌ لَكِنَّ السُّؤَالَ هُنَا كَيْفَ نَطَقَ وَتَعَلَّمَ النَّبِيُّ إِسْمَاعِيلُ أَبُو الْعَرَبِ الْعَرَبِيَّةَ هَذِهِ اللُّغَةَ هَلْ اشْتَقَتْهَا مِنْ لُغَةِ الْأَصْلِيَّةِ سِوَاءِ أَكَانَتْ الْأَرَامِيَّةَ أَمْ الْعِبْرِيَّةَ أَوْ لَقَنْتَ إِلَيْهِ تَلْقِينَا وَإِنْ عِبَارَةٌ فَتَقِ لِسَانَهُ تَوْحِي بِذَلِكَ .

أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ لِسَانَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبَيَّنَةِ

هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

"أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ لِسَانَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبَيَّنَةِ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً" . وَالْحَدِيثُ صَحَّحَهُ الْعَلَمَاءُ الْأَلْبَانِيُّ فِي "صَحِيحِ الْجَامِعِ" (4346) .

I . عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ

لِسَانَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبَيَّنَةِ إِسْمَاعِيلُ ، وَهُوَ ابْنُ الْأَرْبَعَةِ عَشْرَةَ عَامًا) يُقَالُ : صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ . 2 . عَنْ ابْنِ

عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (سَأَلَ الرَّسُولَ وَقِيلَ لَهُ : مِنْ أَوَّلِ مَنْ

تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ . قَالَ الرَّسُولُ : أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ لِسَانَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبَيَّنَةِ هُوَ إِسْمَاعِيلُ ، وَهُوَ ابْنُ الْأَرْبَعَةِ عَشْرَةَ

عَامًا . وَقِيلَ لِلرَّسُولِ : وَمَا كَلَامُ النَّاسِ قَبْلَ ذَلِكَ . قَالَ الرَّسُولُ : الْعِبْرَانِيَّةُ يُقَالُ : حَدِيثٌ صَحِيحٌ مِنْ

الْأَلْبَانِيِّ ، وَمُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . 3 . عَنْ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

(أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ ابْنُ الْأَرْبَعَةِ عَشْرَةَ عَامًا) يُقَالُ : صَحَّحَهُ الْبُخَارِيُّ . 4 . عَنْ عُمَرَ

بْنِ خَطَّابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَوْصِيكُمْ بِالْإِعْرَابِ خَيْرًا ؛

فَإِنَّهُمْ أَصْلُ الْعَرَبِ ، وَجُنْدُ الْإِسْلَامِ) يُقَالُ : صَحَّحَهُ الْبُخَارِيُّ . 5 . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَنَسِيَ لِسَانَ أَبِيهِ إِسْمَاعِيلُ ، وَهُوَ ابْنُ الْأَرْبَعَةِ عَشْرَةَ عَامًا ، بَعْدَ أَنْ أَهَمَّهُ اللَّهُ اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ الْمُبِينِ الْهَامِ) يُقَالُ : صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ .

وَقَالَ الْإِمَامُ الْمُنَاوِي فِي : " (أَلْهَمَ إِسْمَاعِيلَ) (هَذَا اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ الْهَامَا) مِنْ اللَّهِ

وَقَالَ الْإِمَامُ الْمُنَاوِي فِي ، ج3 ص120 : " (أَوَّلُ مَنْ قُتِقَ لِسَانَهُ) بِنَاءً قَتَقَ لِلْمَفْعُولِ وَلِلْفَاعِلِ أَيُّ اللَّهُ (بِالْعَرَبِيَّةِ) أَيُّ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَهِيَ كَمَا فِي الْمِضْبَاحِ كَعَبْرِهِ مَا نَطَقَ بِهِ الْعَرَبُ بِ (الْمُبِينَةِ) أَيُّ الْمَوْضِحَةِ الصَّرِيحَةِ الْخَالِصَةِ (إِسْمَاعِيلَ) ابْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ : وَيُسَمَّى أَبُو الْفَصَاحَةِ لُغَوِيًّا مَعْنَى قَتَقَ الْكَلَامَ : قَوْمُهُ ، وَسَعَهُ .

أَنَّ التَّيْجَةَ الْمُنْطَقِيَّةَ الَّتِي تَوْصَلُنَا إِلَيْهَا كُلُّ هَذِهِ الْحَقَائِقِ هِيَ أَنَّ النَّبِيَّ إِسْمَاعِيلَ هُوَ أَبُو الْعَرَبِ بِالنَّسَبِ وَبِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفُضْحَى الَّتِي أَهَمَّهُ اللَّهُ لَهُ الْهَامَا وَذَلِكَ لِتَحْقِيقِ إِرَادَةِ اللَّهِ فِي أَنْ يَكُونَ آخِرُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَخَاتَمَتِهَا بِهَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ وَقَدْ نَزَلَتْ التَّوْرَةُ بِالْعِبْرِيَّةِ عَلَى النَّبِيِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَزَلَ الْإِنْجِيلَ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَرَامِيَّةِ وَقَدْ تَحَدَّثْنَا عَنْ الْأَصْلِ الْوَاحِدِ لِهَذِهِ اللُّغَاتِ وَمَا يَجْمَعُهَا مِنْ تَشَابَهٍ .

لِذَلِكَ جَاءَ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعٍ صَرِيحًا فِي تَبْيَانِ فَصَاحَةِ هَذَا اللِّسَانِ وَأَفْضَلِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ الْإِعْجَازِيَّةِ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَعَالَى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : 2]

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

وَاقٍ ﴾ [الرعد : 37]

﴿ وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾

[النحل : 103]

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه : 113]

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء : 195]

﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : 28]

﴿ كِتَابٌ فَضَّلْتِ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : 3]

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُضِّلَتْ آيَاتُهُ الْأَعْجَمِيُّ وَعَرَبِيُّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً

وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : 44]

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي

الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى : 7]

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : 3]

﴿ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى

لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف : 12]

وَلَقَدْ اخْتَارَ الْكَثِيرُونَ مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَاتِ وَالتَّنْحُوِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ فِي قَدْرِهِ الْعَرَبِ عَلَى إِتْبَاحِ هَذِهِ
اللُّغَةِ بِهَذَا الْكُمِّ الْهَائِلِ مِنَ الْمَعَانِي وَكَاتَمَاتِهَا رَكِبَتْ تَرْكِيبًا وَهُنَاكَ قَوْلٌ لَطِفٌ حُسَيْنٌ يُفِيدُ هَذَا الْمَعْنَى وَسَنُعْطِي
بَعْضَ الْأَمْثَلَةِ لِمَا ذَكَرَهُ الْمُسْتَشْرِقُونَ فِي هَذَا الصَّدَدِ :

يَقُولُ آلْ كَارْلُونِلِينُو : « اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ تَفُوقُ سَائِرَ اللُّغَاتِ رَوْتِقًا وَعَمًى ، وَيَعْجِزُ اللِّسَانَ عَنْ وَصْفِ مَحَاسِنِهَا
قَالَ فَاِنْ دِيك (الأمريكي) : « الْعَرَبِيَّةُ أَكْثَرُ لُغَاتِ الْأَرْضِ امْتِيَازًا ، وَهَذَا الْامْتِيَازُ مِنْ وَجْهَيْنِ : الْأَوَّلُ : مِنْ
حَيْثُ ثَرْوَةٌ مَعْجَمَهَا . وَالثَّانِي : مِنْ حَيْثُ اسْتِيعَابُهَا آدَابَهَا .

قال المستشرق الفرنسي الشهير إرنست رينان في معرض حديثه عن اللغة العربية في "الموسوعة
المسيحية" : « فَهَذِهِ اللُّغَةُ الْمَجْهُولَةُ التَّارِيخِ تَبْدُو لَنَا فِجَاءَةً بِكُلِّ كَمَالِهَا وَمَرُوتَهَا وَثَرُوتَهَا الَّتِي لَا تَنْتَهِي ،
لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ اللُّغَةُ مِنْذُ بَدَايَتِهَا بِدَرَجَةٍ مِنَ الْكَمَالِ تَدْفَعُنَا لِلْقَوْلِ بِإِجْازٍ : أَنَّهُا مِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ حَتَّى
الْعَصْرِ الْحَاضِرِ لَمْ تَعْرَضْ لِأَيِّ تَعْدِيلٍ ذِي بَالٍ ، فَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لَا طُفُولَةَ لَهَا ، وَلَيْسَ لَهَا شَيْخُوخَةٌ أَيْضًا ،
مِنْذُ ظَهَرَتْ عَلَى الْمَلَأِ ، وَمِنْذُ اتَّصَارَاتِهَا الْمُعْجِرَةِ ، وَلَسْتُ أَذْرِي إِذَا كَانَ يُوجَدُ مِثْلُ آخِرِ اللُّغَةِ جَاءَتْ
إِلَى الدُّنْيَا مِثْلُ هَذِهِ اللُّغَةِ مِنْ غَيْرِ مَرْحَلَةٍ بَدَائِيَّةٍ ، وَلَا فتراتٍ انْتِقَالِيَّةٍ ، وَلَا تَجَارِبٍ تَلْمَسُ فِيهَا مَعَالِمَ
الطَّرِيقِ » .

فَيَسْمِيهَا رينان مَجْهُولَةَ التَّارِيخِ فَهِيَ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا النَّبِيُّ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَاءَتْ
كَمَا هِيَ قَالِبًا وَاحِدًا مِنْ غَيْرِ مَرْحَلَةٍ بَدَائِيَّةٍ أَيْ لَمْ تَتَطَوَّرْ عَلَى مَرَاوِحٍ وَلَا يُوجَدُ مِثْلُهَا .
بَقِي عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَا يَقُولُهُ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ وَالْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ فِي مَسْأَلَةِ النَّسَبِ الْإِسْمَاعِيلِيِّ .

أدلة قرآنية ونبوية

يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً

مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : 37]

وَالذَّرِّيَّةَ هُنَا هِيَ الْوَلَدِ وَوَلَدِ الْوَلَدِ وَلَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ فَأَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَأَسْكَنَهُمُ اللَّهُ وَرَزَقَهُمْ وَجَعَلَهُ آمَنًا .

وَهُنَاكَ نَصُّ قُرْآنِي يُؤَكِّدُ بِشَكْلِ قَاطِعٍ أَنَّ الْعَرَبَ هُمْ أَوْلَادُ إِسْمَاعِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ

هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا

الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج : 78]

فَهَذَا النَّصُّ يُوحِي لَنَا أَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ بِشَكْلِ صَرِيحٍ :

أُولَاهِمَا : بَأَنَّ النَّبِيَّ إِبْرَاهِيمَ هُوَ أَبَا الْعَرَبِ بِالتَّسْبِ فَهُمْ ذُرِّيَّةٌ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلُ فَكَلَّمَهُ أَبِيكُمْ تَدُلُّ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً

لَا رَمْزِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ : خَاطَبَ بِهِ الْعَرَبُ وَهُمْ كَانُوا مِنْ نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ .

ثَانِيَهُمَا : خَاطَبَ بِهِ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِبْرَاهِيمَ أَبَ لَهُمْ ، عَلَى مَعْنَى وُجُوبِ احْتِرَامِهِ وَحَفِظَ حَقَّهُ

وَاتَّبَعَ مِلَّةَ وَحْنَفِيَّتِهِ .

وَنَحْتُمُ أَدْلَتَنَا بِحَدِيثِ مَرْوِيِّ عَنِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَاءَ فِيهِ :

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نَفَرٍ يَنْتَضِلُونَ ، فَقَالَ : «
ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا» . [صحيح رواه البخاري

الشَّرْح :

يُخْبِرُ سَلَمَةَ بْنَ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَتَرَامُونَ
بِالسَّهَامِ ، أَيُّهُمْ يَفُوزُ عَلَى صَاحِبِهِ ، فَأَقْرَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ ، بَلْ وَحَشَّهْمُ بِقَوْلِهِ : "ارْمُوا بَنِي
إِسْمَاعِيلَ" أَيُّ دَاوُمُوا عَلَى الرَّمِيِّ وَحَافِظُوا عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ مِنْ تَعَمُّدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ يَا بَنِي إِسْمَاعِيلَ -
ويقصد : العرب- إِنَّ أَبَاكُمْ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ -عليهما السلام- كَانَ مَمَّنْ يُجِيدُ الرَّمِيَّ وَيُحَسِّنُهُ .
وَبِهَذَا نَحْتُمُ هَذَا الْفُضْلَ الَّذِي أَكْثَرْنَا فِيهِ مِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى حَقِيقَةِ مُرْجِعِيَةِ الْعَرَبِ وَلِسَانِهِمُ الْعَرَبِيِّ لِلنَّبِيِّ
إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُمْ الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ بِنَسَبِهِمْ وَبَلَّغْتُهُمْ .

وَهُنَاكَ حَدِيثٌ آخَرَ يُؤَكِّدُ ذَاتَ التَّبِيحَةِ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ ثُمَّ السُّلَمِيِّ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :
(إِذَا اقْتَحَمْتُمْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا ، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحْمًا ، فَقُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمِ الزُّهْرِيِّ : مَا
الرَّحِمُ الَّتِي ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ ؟ فَقَالَ : كَانَتْ هَاجِرًا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ) .

وَمِنْ هُنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ الْعَرَبَ أَصْلَهُمْ مِنْ سَيِّدِنَا إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

العقل الديني الجاهلي

الجاهلية

تعريف و معنى الجاهلية في معجم المعاني الجامع

الجاهلية مصطلحات فقهية

الفترة ما بين ذهاب عيسى عليه السلام ومبعث محمد صلى الله عليه وسلم.

ما كان عليه العرب قبل الإسلام من الجهالة والضلالة.

جاهلية : اسم

اسم مؤنث منسوب إلى جاهل

مُصَدَّرٌ صِنَاعِيٌّ مِنْ جَاهِلٍ: مَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ مِنَ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ وَتَحْكِيمِ الْعَصْبِيَّةِ
وَالْوَثْنِيَّةِ

جَاهِلِيَّةٌ جَهْلَاءٌ: مُمَعَّنَةٌ فِي الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالِ

جَهَلٌ: فَعَلٌ

جَهْلٌ / جَهَلٌ بِجَهْلٍ، جُهْلًا وَجَهَالَةً، فَهُوَ جَاهِلٌ، وَالْمَفْعُولُ مَجْهُولٌ - لِلْمَعْدِي

جُهَلٌ عَلَيْهِ: تَصَرَّفٌ مَعَهُ بِحُوقٍ

جُهَلْتُ هَذَا الْأَمْرَ: مَا عَلِمْتُهُ، كُنْتُ جَاهِلًا بِهِ

جَهْلٌ الْحَقِّ: إِضَاعَةٌ

الْجَهْلُ: فِي اصْطِلَاحِ أَهْلِ الْكَلَامِ: اِعْتِقَادُ الشَّيْءِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ

الْجَهْلُ الْبَسِيطُ: عَدَمُ الْمَعْرِفَةِ بِالشَّيْءِ

الْجَهْلُ الْمُرَكَّبُ: الْاِعْتِقَادُ الْجَازِمُ بِمَا لَا يَتَّفِقُ مَعَ الْحَقِيقَةِ، إِذْ يَعْتَقِدُ الرَّجُلُ عَارِفًا عِلْمًا وَهُوَ عَكْسُ ذَلِكَ

وَالْجَهْلُ الْبَسِيطُ: تَعْبِيرٌ أُطْلِقَ عَلَى مَنْ يُسَلِّمُ بِجَهْلِهِ

وَالْجَهْلُ الْمُرَكَّبُ: تَعْبِيرٌ أُطْلِقَ عَلَى مَنْ لَا يُسَلِّمُ بِجَهْلِهِ، وَيَدَّعِي مَا لَا يُعَلِّمُ

مِنْ خِلَالِ هَذِهِ التَّعَارِيفِ لِمَعْنَى جَهْلٍ وَجَاهِلٍ وَجَهْلٍ وَالْجَاهِلِيَّةِ إِنَّهَا تَعْنِي مَا يَلِي:

عَدَمَ الْمَعْرِفَةِ بِالشَّيْءِ وَالِاغْتِقَادِ بِخِلَافِهِ وَبِمَا لَا يَتَّفِقُ مَعَ الْحَقِيقَةِ .

فَمَا نَعْنِيهِ الْجَاهِلِيَّةَ هِيَ هَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا الَّتِي كَانَتْ قَدْ سَادَتْ فِي الْمَجْتَمَعِ الْجَاهِلِيِّ فُهُمْ مِنْ نَاحِيَةِ كَانُوا
يُجْهَلُونَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً وَيَعْتَقِدُونَ بِأَشْيَاءَ خِلَافَ مَا هِيَ عَلَيْهِ وَلَا تَتَّفِقُ مَعَ الْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِ لَكِنْ لِمَاذَا وَصَفَ
اللَّهُ تَعَالَى عَصْرَهُمْ قَبْلَ نُزُولِ الرِّسَالَةِ بِالْجَاهِلِيَّةِ وَلَقَدْ وَرَدَتْ كَلِمَةُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي أَرْبَعِ
مَوَاضِعَ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ الْآتِيَةِ :

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نِعَاسًا يُعَشِّى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ
غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 154]

﴿ أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوفُونَ ﴾ [المائدة : 50]

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : 33]

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ
وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح : 26]

وَقَدْ وَرَدَتْ بِصِفَةِ فَعَلِيهِ وَصِفِيَّةِ فِي التَّصَوُّصِ التَّالِيَةِ :

﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يُجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : III]

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا

لَهُمْ آلِهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف : 138]

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي

أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود : 29]

﴿ أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل : 55]

﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [الأحقاف : 23]

فَالْجَاهِلِيَّةُ أَتَتْ فِي عِدَّةٍ مَعَانِي وَصِفَاتٍ :

فِي حُكْمٍ : وَالْحُكْمُ هُنَا يَعْنِي التَّضَمُّ الْعَصَبِيَّةَ وَالاجْتِمَاعِيَّةَ وَالْفِكْرِيَّةَ وَالْعَادَاتِ وَالْتَقَالِيدِ وَالْأَنَانِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ تَحْكُمُ بِهِ وَتَعْتَبَرُ أَسَاسًا لِمَعِيشتِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ وَهَذَا الْحُكْمُ بِمَجْمَلِهِ كَانَ يُقَوْمُ عَلَى عَقِيدَةِ مِتْوَارِثَةِ مِتْحَلْفِهِ تِنَاقَلَتَهَا أَجْيَالُهُمْ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ وَتَرَسَخَتْ كِنِيَّةَ عَقْلِيَّةً أَوْ أَسَّ عَقْلِيَّةً فِي مِخْيَلَاتِهِمْ .

وَهِيَ حَمِيَّةٌ : أَنَّ الْحَمِيَّةَ الْمُتَقْصُودَةَ هِيَ مِنَ الْإِنْفَةِ وَالِاسْتِكْبَارِ الَّذِي يُصِيبُ النَّفْسَ فَتَرَفُضُ قَبُولِ الْحَقِّ ،

فَيُقَالُ أَخَذَتْ فُلَانٌ الْحَمِيَّةَ بِمَعْنَى أَنَّهُ رَفَضَ أَنْ يُقْبَلَ الْحَقُّ بِسَبَبِ الْإِسْتِكْبَارِ عَلَيْهِ ، وَأَشَارَ الْبُكْرِيُّ أَنَّ

الْحَمِيَّةَ هُنَا نُسِبَتْ لِلْجَاهِلِيَّةِ لِأَنَّهُمْ قَدْ أَنْفَوْا أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِبْرًا وَعِنَادًا تَمَسَّكَ

بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ أَيَّامَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَنَسَبَهُ الْحَمِيَّةُ إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ هِيَ نِسْبَةُ ذَمٍّ إِذْ مَنَعَهُمُ الْإِسْتِكْبَارُ وَالِاعْتِرَازُ

بِالْإِجْدَادِ مِنَ الْإِقْرَارِ بِالْحَقِّ ، فَالْحَمِيَّةُ هِيَ تَمَسُّكُهُمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَّهُ أَنْ يَنْقَادُوا لِلنَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِبْرًا وَعِنَادًا ، وَأَشَارَ الْبُكْرِيُّ إِلَى أَنَّ الْحَمِيَّةَ صِفَةٌ مِنَ الصِّفَاتِ الْقَبِيحَةِ الَّتِي

تَتَّصِفُ بِهَا بَعْضُ التُّفُوسِ وَلَا تَسْتَجِيبُ لِلْحَقِّ مَهْمَا جَاءَ بِالْأَدِلَّةِ ، وَهُوَ مَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ إِذْ جَاءَ بِكَافَّةِ الْأَدِلَّةِ
وَالْمُعْجَزَاتِ لِكَيْفِهِمْ رَفُضُوا أَنْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ .

وَهُنَاكَ نَصِّينَ قَرَأَيْنِ يَوْضِحُونَ لَنَا هَذَا الْمَعْنَى :

﴿ إِيَّاهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : 35]

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : 14]

ويروي الطبري في تفسيره للآية حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله"، وأنزل الله في كتابه، فذكر قوما استكبروا فقال: إِيَّاهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وقال الله: (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، استكبر عنها المشركون يوم الحديبية، يوم كاتبهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قضية المدة.

وَوَاضِحٌ مِنْ تَفْسِيرِ النَّصِّينِ الْكَرِيمَيْنِ كَيْفَ تَعَامَلَ هَذَا الْعَقْلُ الْجَاهِلُ مَعَ دَعْوَةِ الْحَقِّ بِاسْتِكْبَارٍ وَأَنفِهِ
وَبِالرَّغْمِ أَنْ نُفُوسِهِمْ وَعُقُولُهُمْ قَدْ تُبَيَّنَتْ وَاسْتَيْقَنَتْ مِنْ صِدْقِهَا إِلَّا أَنَّهُمْ أَبَوْا إِعْلَانَ ذَلِكَ وَكَثَمُوهُ وَصَرَخُوا
بِغَيْرِهِ ظُلْمًا وَاسْتِكْبَارًا وَعُلُوًّا .

وَمَنْ خِلَالِ تَعْرِيفِنَا لِلجَاهِلِيَّةِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ عَلَى بَنِيهِ الْعَقْلَ الْعَرَبِيَّ الْجَاهِلِيَّ أَيَّ الْأُسُسِ الَّتِي يَبْنِي عَلَيْهَا تَفْكِيرَهُ وَهِيَ :

تَمَسُّكِهِم بِالْأَحْكَامِ وَالْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ وَالْأَوْهَامِ الَّتِي آفَ أَبَاؤُهُمْ عَلَيْهَا .

وَهِيَ الْعَصَبِيَّةُ الْقَبِيلِيَّةُ وَمَا أُرُوثَهُ عِنْدَهُمْ مِنْ تَشَدُّدٍ وَتَصَلُّبٍ فِي التَّمَسُّكِ بِمَجْدُورِهِمُ الْقَبِيلِيَّةِ وَالِدَفَاعِ وَالْقِتَالِ فِي سَبِيلِهَا .

حُبُّهُمْ لِلْمَالِ حُبًّا جَمًّا فَهُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ لِتَحْقِيقِ مِلذَاتِهِمْ وَأَهْوَاءِهِمْ وَفِي سَبِيلِ هَذَا الْمَالِ أَشْرَكُوا وَجَعَلُوا بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامَ مُسْتَوْدَعًا لِأَصْنَامِهِمْ وَأَزْدَهْرَتْ عَنْهُمْ صِنَاعَةُ هَذِهِ الْأَوْثَانِ وَالْإِتِّجَارُ بِهَا .

الْحَمِيَّةُ وَالْأَنَانِيَّةُ وَعِزَّةُ النَّفْسِ وَالْكَبْرِيَاءُ وَالْفُرُورُ

هَذِهِ أَهَمُّ مَقَوِّمَاتِ بَنِيهِ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ وَالَّتِي حَكَمَتْ ذَلِكَ الْعَصْرَ الَّذِي سُمِّيَ بِالْجَاهِلِيِّ وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا جَاهِلِينَ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ بَلْ كَانُوا يَعِيشُونَ فِي ظُلَامٍ عَقْلِيٍّ مُغْلَقٍ قَائِمٍ عَلَى التَّكْبَرِ وَالْحَمُودِ وَالتَّشْبِثِ بِالْمَاضِي وَسِيرَةِ وَعَقِيدَةِ أَبَاؤِهِمْ حَتَّى لَوْ كَانُوا أَبَاؤُهُمْ مِثْلَهُمْ لَيَعْلَمُونَ وَهَذَا قِمَّةُ الْأَنْحِطَاطِ الْفِكْرِيِّ وَالْعَقْلِيِّ .

هَلِ الْعَرَبُ كَانَتْ أُمَّةً أُمِّيَّةً ؟

لَقَدْ رَأَيْنَا فِي الْمُبْحَثِ السَّابِقِ مَعْنَى الْجَاهِلِيَّةِ وَلِمَاذَا أَصْقَتْ بِالْعَرَبِ وَلِمَاذَا وَصَفِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ الْعَرَبِ فِي مَرَحَلَةٍ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِالْجَاهِلِيَّةِ وَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ مُصْطَلَحِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْأُمِّيَّةِ وَالَّتِي كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ تَعْنِي

عَدَمَ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ وَقَدْ وَصَفَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ رَسُولَهُ الْكَرِيمَ بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وَوَصَفَ الْعَرَبَ الَّذِينَ أُرْسِلَ
لَهُمْ بِالْأُمِّيِّينَ فَهَلِ الْعَرَبُ كَانَتْ أُمَّةً أُمِّيَّةً تَسْمَى بِالْجَهْلِ وَالْجَاهِلِيَّةِ ؟

لَقَدْ كَانَ وَمَا زَالَ وَصَفَ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ وَقَوْمَهُ بِالْأُمِّيِّينَ مَحَلَّ جَدَلٍ وَنِقَاشٍ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ وَعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ
إِلَى يَوْمِنَا هَذَا فَمَا حَقِيقَةُ ذَلِكَ ؟

لَقَدْ وَرَدَ وَصْفُ الْأُمِّيِّ وَالْأُمِّيِّينَ فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ التَّالِيَةِ :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة : 78]

﴿ فَإِنْ حَاجُوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا
فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : 20]

﴿ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ
عَلَيْهِ قَاتِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل
عمران : 75]

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ
عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف :

[157]

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف :

[I58

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : 2]

كما وردَ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ مَا يَلِي : عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " أَنَا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ الشَّهْرَ هَكَذَا وَهَكَذَا يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ " . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

وَلِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ شَرْحٌ يُوضِّحُ لَنَا مَعْنَى الْحَدِيثِ :

(فَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ السَّمِيَّزَ عَنِ الْأُمِّيِّينَ نَوْعَانِ ؛ فَالْأُمَّةُ الَّتِي بَعَثَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَاهُمْ الْعَرَبَ وَبَوَّاسْتَطَهُمْ حَصَلَتْ الدَّعْوَةُ لِسَائِرِ الْأُمَّمِ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا بُعِثَ بِلِسَانِهِمْ فَكَانُوا أُمِّيِّينَ عَامَّةً لَيْسَتْ فِيهِمْ مَرِيَّةٌ عِلْمٍ وَلَا كِتَابٍ وَلَا غَيْرِهِ مَعَ كَوْنِ فِطْرِهِمْ كَانَتْ مُسْتَعِدَّةً لِلْعِلْمِ أَكْمَلُ مِنْ اسْتِعْدَادِ سَائِرِ الْأُمَّمِ بِمَنْزِلَةِ أَرْضِ الْحَرْثِ الْقَابِلَةِ لِلزَّرْعِ ، لَكِنْ لَيْسَ لَهَا مِنْ يَتَقَوْمَ عَلَيْهَا فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ كِتَابٌ يَقْرَأُونَهُ مِنْزِلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كَمَا لِأَهْلِ الْكِتَابِ ، وَلَا عُلُومٌ قِيَاسِيَّةٌ مُسْتَنْبَطَةٌ كَمَا لِلصَّابِئَةِ وَنَحْوِهِمْ ، وَكَانَ الْخَطُّ فِيهِمْ قَلِيلًا جَدًّا ، وَكَانَ لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَنَالُ بِالْفِطْرَةِ الَّتِي لَا يُخْرَجُ بِهَا الْإِنْسَانُ عَنِ الْأُمُوهِ الْعَامَّةِ كَالْعِلْمِ بِالصَّانِعِ سُبْحَانَهُ ، وَتَعْظِيمِ

مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَعُلَمِ الْأَنْوَاءِ ، وَالنَّسَابِ ، وَالشَّعْرِ ، فَاسْتَحَقُوا اسْمَ الْأُمَّيَّةِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ كَمَا قَالَ فِيهِمْ
هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ وَقَالَ تَعَالَى قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ الْأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا
فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، فَجَعَلَ الْأُمِّيِّينَ مُقَابِلِينَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ ، فَالْكِتَابِيُّ غَيْرُ الْأُمِّيِّ .

كَمَا أَنَّ هُنَاكَ فُتُوِي حَدِيثِهِ صَادِرَةٌ عَنِ الْأَزْهَرِ تَبَيَّنَ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ :

بَيَانُ الْمُرَادِ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا أُمَّةٌ أُمَّيَّةٌ، لَا نَكُتُّ وَلَا نَحْسِبُ» .

الْمُفْتِي : فَضِيلَةُ الْأَسْتَاذِ الذُّكُورِ عَلَى جَمْعِهِ مُحَمَّدٍ

تَارِيخُ الْفُتُوِي : IO دَيْسَمْبَرِ 2011

(رَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «أَنَا أُمَّةٌ
أُمَّيَّةٌ، لَا نَكُتُّ وَلَا نَحْسِبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا» -يُعْنِي: مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ-؛ وَلَيْسَ فِي
الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ مَشْرُوعِيَّةِ تَعَلُّمِ الْعُلُومِ غَيْرِ الشَّرْعِيَّةِ كَاسْتِخْدَامِ الْحِسَابِ الْفُلْكَائِيِّ فِي إِثْبَاتِ
الْأَهْلِ وَغَيْرِهَا؛ فَالْحَدِيثُ لَيْسَ فِيهِ نَهْيٌ عَنِ الْكِتَابَةِ أَوْ الْحِسَابِ أَوْ غَيْرِهِمَا أَوْ ذَمِّهِمَا أَوْ تَنْقِصِهِمَا وَلَا
إِشَارَةٌ إِلَى إِبْطَالِ عِلْمِ الْفَلَكَ، أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ، إِنَّمَا هُوَ يَصِفُ مَنْ كَانُوا فِي زَمَانِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ حَيْثُ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ صِفَتُهُمُ الْغَالِبَةُ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّ صِفَةَ الْأُمَّيَّةِ صِفَةٌ مُعَلَّقَةٌ
بِالْأُمَّةِ فِي جَمِيعِ الْأَعْصَارِ وَالْأُمُصَارِ .

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ فِي "فَتْحِ الْبَارِي" (4 / 127، ط . دَارُ الْمَعْرِفَةِ): [قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا نَكُتُّ وَلَا نَحْسِبُ» وَالْمُرَادُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ بَحْضَرْتَهُ عِنْدَ تِلْكَ الْمَقَالَةِ، وَهُوَ

مَحْمُولٌ عَلَى أَكْثَرِهِمْ أَوْ الْمُرَادُ نَفْسَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، . . وَقَوْلُهُ: «لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ»
تَفْسِيرٌ لِكُونِهِمْ كَذَلِكَ، وَقِيلَ لِلْعَرَبِ أُمِّيُونَ لِأَنَّ الْكِتَابَةَ كَانَتْ فِيهِمْ عَزِيزَةً؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ
فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ﴾ الْجُمُعَةِ : 2 .

وَلَا يَرِدُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَكْتُبُ وَيُحْسِبُ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَةَ كَانَتْ فِيهِمْ قَلِيلَةً نَادِرَةً، وَالْمُرَادُ
بِالْحِسَابِ هُنَا: حِسَابِ التُّجُومِ وَتَسْيِيرِهَا، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا إِلَّا التَّنَزُّرَ الْيَسِيرَ، فَعَلَّقَ الْحُكْمَ
بِالصَّوْمِ وَغَيْرِهِ بِالرُّؤْيَةِ؛ لِرَفْعِ الْحَرَجِ عَنْهُمْ فِي مُعَانَاةِ حِسَابِ التَّسْيِيرِ، وَاسْتَمَرَ الْحُكْمَ فِي الصَّوْمِ وَلَوْ حَدَثَ
بَعْدَهُمْ مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ، بَلْ ظَاهِرُ السِّيَاقِ يُشْعِرُ بِنَفْيِ تَعْلِيلِ الْحُكْمِ بِالْحِسَابِ أَصْلًا] اهـ .

وَيَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَوْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَوْمُهُ الْعَرَبُ إِذْ ذَاكَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْكِتَابِ
وَالْحِسَابِ؛ بَحِثَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُصِدُوا الْأَجْرَامَ الْفَلَكَيَّةَ، وَيَضْبُطُوا بِالْكِتَابِ وَالْحِسَابِ دُورَاتِهَا
الْمُنْتَظِمَةَ الَّتِي نَظَّمَهَا قُدْرَةُ اللَّهِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ بِصُورَةٍ لَا تَحْتَلُّ وَلَا تَحْتَلِفُ -لَأَمَّا كَيْفَهُمْ اعْتِمَادُ الْحِسَابِ
الْفَلَكَيِّ، وَكَذَا كُلُّ مَنْ يَصِلُ لَدَيْهِمْ هَذَا الْعِلْمُ مِنَ الدَّقَّةِ وَالْإِنْبِطَاطِ إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي يُوثِقُ بِهَا وَيَطْمِئِنُّ إِلَى
صِحَّتِهَا؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِاعْتِمَادِ الرُّؤْيَةِ وَحَدَّهَا جَاءَ مُعَلَّلًا بِعِلَّةٍ مُنْصُوصَةٍ، وَهِيَ أَنَّ الْأُمَّةَ أُمِّيَّةً لَا تَكْتُبُ وَلَا
تُحْسِبُ، وَالْعِلَّةُ تَدُورُ مَعَ الْمَعْلُولِ وَجُودًا وَعَدَمًا"، فَإِذَا خَرَجَتْ الْأُمَّةُ عَنْ أُمَّيَّتِهَا وَصَارَتْ تُكْتَبُ
وَتُحْسَبُ يَعْنِي صَارَتْ فِي مَجْمُوعِهَا مَمَّنْ يَعْرِفُ هَذِهِ الْعُلُومَ وَأَمَكَنَ النَّاسَ خَاصَّتَهُمْ وَعَامَّتَهُمْ أَنْ يَصَلُّوا
إِلَى الْيَقِينِ وَالْقَطْعِ فِي حِسَابِ أَوَّلِ الشَّهْرِ، وَأَمَكَنَ أَنْ يَتَّقُوا بِهَذَا الْحِسَابِ تَقْتُّهُمْ بِالرُّؤْيَةِ أَوْ أَقْوَى -فَلَهُمْ
حِينَئِذٍ أَنْ يَأْخُذُوا فِي إِثْبَاتِ الْأَهْلِ بِالْحِسَابِ الْفَلَكَيِّ وَلَا حَرَجَ، وَالْحِسَابُ الْفَلَكَيُّ حِينَئِذٍ لَا شَكَّ أَنَّهُ

أَوْثَقَ وَأَضْبَطَ فِي إِبْطَاتِ الْهَلَالِ مِنَ الْاعْتِمَادِ عَلَى شَاهِدَيْنِ لَيْسَا مَعْصُومَيْنِ مِنَ الْوَهْمِ وَخِدَاعِ الْبَصْرِ، وَلَا مِنَ الْكُذْبِ لِغَرَضٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ شَخْصِيَّةٍ مَسْتُورَةٍ، مَهْمَا تَحْرِينَا لِلتَّحَقُّقِ مِنْ عَدَاتِهِمَا الظَّاهِرَةِ الَّتِي تُوحِي بِصِدْقِهِمَا .

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

انتهت فتوى الأزهر

وَجْهَةٌ نَظَرٍ

لَقَدْ تَنَاقَلَتِ الْإِخْبَارُ عَنِ الْعَرَبِ مَا قَبِلَ الْإِسْلَامَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا جَهْلَهُ لَا يَعْرِفُونَ الْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ وَأَنَّهُمْ كَانُوا بَعِيدِينَ عَنِ كُلِّ مَدَنِيَّةٍ أَوْ حَضَارَةٍ آنَ ذَلِكَ ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا عَلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ بِالْحَرْفِ وَالْكِتَابَةِ وَالْفُلْكِ وَالتَّارِيخِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا فِعْلًا فِي جَاهِلِيَّةٍ دِينِيَّةٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ كِتَابٌ سَمَاوِيٌّ ، وَكَانَتْ الْيَهُودُ وَالتَّصَارِيءُ - وَخَاصَّةً الْيَهُودُ - يَعْتَبِرُونَهُمْ مِنَ الْغُويِمِ أَيُّ الْأَمِينِينَ - الَّذِينَ لَا كِتَابَ سَمَاوِيٍّ عِنْدَهُمْ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَ الْحَرْفَ وَالْكِتَابَةَ وَالتَّدْوِينَ، الْأَثَارَ الَّتِي وَجِدَتْ وَمِنْهَا الشَّعْرُ الْمَكْتُوبُ عَلَى قَبْرِ مَلِكِ الشَّعْرِ امْرِئِ الْقَيْسِ ، وَأَسْوَاقِ الشَّعْرِ - عُكَازٍ وَذِي الْمَجْنَةِ وَغَيْرِهَا وَالمُعَلَّقَاتِ الَّتِي دُونَتْ وَكُتِبَتْ بِمَاءِ الذَّهَبِ ، الْأَخْلَافِ وَالْعُهُودِ الَّتِي كَانُوا يَعْقُدُوهَا وَيُبْرِمُوهَا وَمَا تَرَاهُمْ فِي الْغَزْوِ وَالسَّبْيِ وَالْقِتَالِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَقَدْ بَرَعَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، فَهَذَا أُمَّيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ وَوَرَقَةُ ابْنُ نَوْفَلٍ ، وَكَذَلِكَ كُتِبَ الْوَحْيُ بَعْدُ الْبُعْثَةِ وَطَلَبَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ أَسْرَى بَدْرِ تَعْلِيمَ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ . . . فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يُجِيدُ الْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ فَهُمْ لَوْ يَكُونُوا أَمِينِينَ بِالْكِتَابَةِ ، وَكَانُوا عَلَى مَعْرِفَةِ الْفُلْكِ وَالْحِسَابِ ، وَفَهُمْ لَوْ يُنْكِرُوا عَلَى الْقُرْآنِ عِنْدَمَا ذَكَرَ التَّجْوِيمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: " فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ

الْكُفْرِ " وَقَوْلُهُ تَعَالَى: " وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقِ * النُّجُومِ الثَّاقِبِ " فَهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَ
النُّجُومَ وَأَسْمَاءَهَا وَمَوَاقِعَهَا وَكَانُوا يَهْتَدُونَ بِهَا فِي تَرْحَالِهِمْ وَتِجَارَتِهِمْ وَكَانُوا يَعْرِفُونَ الْحِسَابَ
وَالسِّنِينَ وَالْأَيَّامَ وَالشُّهُورَ وَالْفُصُولَ ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: " إِيْلَانِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ " . وَأَمَّا
مَوْضُوعُ الْأُمِّيَّةِ وَمَعْنَاهَا فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّكَ التَّفْصِيلُ :

لَقَدْ وَرَدَتْ لَفْظَةُ أُمِّي فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي سِتَّةِ مَوَاقِعَ وَهِيَ:

1 " وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ " سُورَةُ الْبَقَرَةِ / 78 .

2 " الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ " سُورَةُ الْأَعْرَافِ /

I57

3 " فَاٰمَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " سُورَةُ الْأَعْرَافِ /

.I58

4 " فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ

أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ " سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ / 20 .

5 " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ " سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ /

.75

6 " هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا

مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ " سُورَةُ جُمُعَةٍ / 2 .

قَالَ الْأَصْفَهَانِيُّ : "وَالْأُمِّيُّ: هُوَ الَّذِي لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ مِنْ كِتَابٍ" وَقَالَ أَيْضًا: "الْأُمِّيَّةُ: الْغَفْلَةُ وَالْجَهَالَةُ، فَالْأُمِّيُّ مِنْهُ، وَذَلِكَ هُوَ قَوْلُهُ الْمَعْرِفَةُ". . قَالَ الْفَرَّاءُ: هُمُ الْعَرَبُ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ كِتَابٌ رَقِيلٌ: مُنْسُوبٌ إِلَى الْأُمَّةِ الَّذِينَ لَمْ يَكْتُبُوا، لِكَوْنِهِ عَلَى عَادَتِهِمْ كَقَوْلِكَ: عَامِيٌّ، لِكَوْنِهِ عَلَى عَادَةِ الْعَامَّةِ، وَقِيلَ: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ مِنْ كِتَابٍ، وَذَلِكَ فَضِيلَةٌ لَهُ لِاسْتِغْنَائِهِ بِحِفْظِهِ، وَاعْتِمَادُهُ عَلَى ضَمَانِ اللَّهِ مِنْهُ بِقَوْلِهِ: "سَنْقَرُوكَ فَلَا تَنْسَى" [الْأَعْلَى / 6].

مِنْ الْوَاجِبِ مَلَا حَظَّتِهِ أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تُذَكِّرُ النَّبِيَّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتَصِفُهُ بِأَنَّهُ أُمِّيٌّ فَإِنَّ مَعْنَاهُ هُنَا هُوَ الَّذِي لَا يُجِيدُ الْكِتَابَةَ وَلَا الْقِرَاءَةَ وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ أُمِّيًّا لَا يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ وَلَا الْقِرَاءَةَ بِشَهَادَةِ الْقُرْآنِ حَيْثُ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: "وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُوهُ بِمِمْبِنِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطُلُونَ" الْعَنْكَبُوتُ/48.

وَأَمَّا الْآيَاتُ الَّتِي تُذَكِّرُ الْعَرَبَ بِوَضْفِهِمْ أُمِّيِينَ . . . فَهَذَا يُحْمَلُ عَلَى مَعْنَى أَنَّ لَا كِتَابَ سَمَاوِيٍّ كَانَ لَهُمْ، وَلِأَنَّ الْآيَاتِ تَبَيَّنَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَهْلُ الْكِتَابِ.

فَمَثَلًا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: "وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ" فَالْمَقْصُودُ بِالْأُمِّيِينَ هُنَا هُمُ الْيَهُودُ، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: "وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ" لَا يُحْسِنُونَ الْكُتُبَ فَيَطَّلَعُوا التَّوْرَةَ وَيَتَحَقَّقُوا مَا فِيهَا . ❀ لَا يَعْلَمُونَ الْكُتُبَ ❀ التَّوْرَةَ ❀ إِلَّا أَمَانِيٌّ ❀ إِلَّا مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمَانِيَّتِهِمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يَغْفُو عَنْهُمْ وَيَرْحَمُهُمْ وَلَا يُؤَاخِذُهُمْ بِخَطَايَاهُمْ، وَأَنَّ آبَاءَهُمُ النَّبِيَاءُ يَشْفَعُونَ لَهُمْ وَمَا تَمَنِّيَهُمْ أَحْبَابُهُمْ مِنْ أَنَّ التَّارَ لَا تَمَسُّهُمْ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً". وَقَالَ الرَّازِيُّ: "اعْلَمْ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ❀ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ ❀ الْيَهُودَ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا وَصَفَهُمْ بِالْعِنَادِ وَأَزَالَ الطَّمَعِ عَنْ أَيْمَانِهِمْ بَيْنَ فِرْقَتِهِمْ، فَالْفِرْقَةُ الْأُولَى هِيَ الْفِرْقَةُ الضَّالَّةُ الْمُضِلَّةُ، وَهُمْ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ

عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَالْفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ: الْمُنَافِقُونَ، وَالْفِرْقَةُ الثَّلَاثَةُ: الَّذِينَ يُجَادِلُونَ الْمُنَافِقِينَ، وَالْفِرْقَةُ الرَّابِعَةُ: هُمْ الْمَذْكُورُونَ فِي هَذِهِ آيَةِ وَهُمْ الْعَامَّةُ الْأُمِّيُونَ الَّذِينَ لَا مَعْرِفَةَ عِنْدَهُمْ بِقِرَاءَةِ وَلَا كِتَابَةٍ وَطَرِيقَتَهُمُ التَّقْلِيدَ .

وَقِيُولُ مَا يُقَالُ لَهُمْ، فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الَّذِينَ يَمْتَنِعُونَ عَنْ قَبُولِ الْإِيمَانِ لَيْسَ سَبَبُ ذَلِكَ الْإِمْتِنَاعُ وَاحِدًا بَلْ لِكُلِّ قِسْمٍ مِنْهُمْ سَبَبٌ آخَرٌ وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ آيَةِ مِنْ شَرْحِ فَرَقِ الْيَهُودِ وَجِدَ ذَلِكَ بَعَيْنِهِ فِي فَرَقِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِنَّ فِيهِمْ مَنْ يُعَانِدُ الْحَقَّ وَيَسْعَى فِي إِضْلَالِ الْغَيْرِ وَفِيهِمْ مَنْ يَكُونُ مُتَوَسِّطًا، وَفِيهِمْ مَنْ يَكُونُ عَامِيًّا مَحْضًا مُتَقَلِّدًا "وَأَمَّا ابْنُ عَاشُورٍ فَقَدْ قَالَ: "وَالْمَعْنَى كَيْفَ تَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مَحْرِفِينَ وَفَرِيقٌ جَهْلَهُ وَإِذَا اتَّقَى إِيْمَانُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْهُمْ الْمُطْمَئِنُّونَ بِهِمْ تَطَلَّبَ الْحَقُّ الْمُنْجِي وَالْإِهْتِدَاءُ إِلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَاطِلِ فَكَانُوا يُحْرِفُونَ الَّذِينَ وَيُكَابِرُونَ فِيمَا يَسْمَعُونَ مِنْ مُعْجَزَةِ الْقُرْآنِ فِي الْأَخْبَارِ عَنْ أَسْرَارِ دِينِهِمْ فَكَيْفَ تَطْمَعُونَ أَيْضًا فِي أَيْمَانِ الْفَرِيقِ الْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ هُمْ أَبْعَدُ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْهَى عَنْ تَطَلُّبِهِ وَأَضَلَّ فِي التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَأَجْدَرَ بِالْإِقْتِدَاءِ بِأَيْمَتِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ فَالْفَرِيقُ الْأَوَّلُ هُمُ الْمَاضُونَ . وَعَلَى هَذَا فَجُمَلَةٌ ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ ﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمَلَةٍ ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾ إِلَخْ بِأَعْبَارِ كَوْنِهَا مُعَادِلًا لَهَا مِنْ جِهَةِ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ كَوْنِهَا حَالَةً فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهَذِهِ حَالَةُ فَرِيقٍ آخَرَ" .

وَجْهَهُ نَظَرُ أُخْرَى

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ

وَالْأَعْمَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الأعراف / 157 .

فِي هَذِهِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ وَصِفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصِفَةِ " الْأُمِّيَّة " ، وَقَدْ نَقَلَ الْوَاحِدِيُّ فِي " الْبَسِيطِ " (9/396) : اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ مَعْنَاهُ " الَّذِي لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ " .

قَالَ قَتَادَةُ فِي تَفْسِيرِ (النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ) : " وَهُوَ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ كَانَ أُمِّيًّا لَا يَكْتُبُ " ،
انتهى

رَوَاهُ " الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ " (49I / IO)

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أَصْلِ اشْتِقَاقِ (الْأُمِّيِّ) ، وَالْمَعْنَى الَّذِي قِيلَ لِلْأُمِّيِّ ، مِنْ أَجْلِهِ : " أُمِّي " :

I- فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا قِيلَ لَهُ أُمِّيًّا نِسْبَةً إِلَى أُمِّهِ دُونَ أَبِيهِ .

وَاخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فِي ذَلِكَ أَيْضًا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ " أُمِّي " ، لِأَنَّ الْكِتَابَةَ كَانَتْ فِي الرِّجَالِ أَكْثَرَ مِنْ النِّسَاءِ ، قَالَ الطَّبْرِيُّ : " وَارَى أَنَّهُ قِيلَ لِلْأُمِّيِّ : أُمِّي ، نِسْبَةً لَهُ بِأَنَّهُ لَا يَكْتُبُ ؛ إِلَى أُمِّهِ ، لِأَنَّ الْكِتَابَ كَانَ فِي الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ ، فَنُسِبَ مَنْ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَحْطُ مِنَ الرِّجَالِ إِلَى أُمِّهِ فِي جَهْلِهِ بِالْكِتَابَةِ دُونَ أَبِيهِ " ،
انتهى مِنْ " تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ " (2 / 153 .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ نَسَبَهُ لِحَالَةِ حِينَ خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ . انْظُرْ : " تَفْسِيرِ ابْنِ عَطِيَّة " : (2/462) .

2- وَذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى مَكَّةَ أُمِّ الْقُرَى . انْظُرْ : " تَفْسِيرِ الْمَاوَرِدِيِّ " (2/268)

3- وَقِيلَ هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى أُمَّتِهِ، أَصْلُهُ: أُمَّتِي، فَسَقَطَتْ التَّاءُ فِي التَّنْسِيبِ، كَمَا سَقَطَتْ فِي الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ. انْظُرْ: "تَفْسِيرَ الْبَغَوِيِّ" (3/288)

قَالَ "الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُورٍ" فِي "التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ" (9/133)
"وَالْأُمِّيُّ: الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ."

قِيلَ هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى (الْأُمَّ)، أَيُّ هُوَ أَشْبَهُ بِأُمَّةٍ، مِنْهُ بِأَبِيهِ، لِأَنَّ النِّسْبَةَ فِي الْعَرَبِ مَا كُنَّ يُعْرَفُنَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، وَمَا تَعَلَّمْنَهَا إِلَّا فِي الْإِسْلَامِ، فَصَارَ تَعَلَّمَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ مِنْ شِعَارِ الْحَرَائِرِ دُونَ الْإِمَاءِ. كَمَا قَالَ عُبَيْدُ الرَّاعِي، وَهُوَ إِسْلَامِيٌّ:

هُنَّ الْحَرَائِرُ لَا رَبَّاتٍ أَحْمِرَةٌ . . . سُودَ الْمَحَاجِرِ لَا يُقْرَأَنَّ بِالسُّورِ
أَمَّا الرِّجَالُ: فَفِيهِمْ مَنْ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ.

وَقِيلَ: مَنْسُوبٌ إِلَى الْأُمَّةِ أَيُّ الَّذِي حَالُهُ حَالُ مُعْظَمِ الْأُمَّةِ، أَيُّ الْأُمَّةِ الْمُعْهُودَةُ عِنْدَهُمْ، وَهِيَ الْعَرَبِيَّةُ، وَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَعْرِفُ مِنْهُمْ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ إِلَّا التَّادِرُ مِنْهُمْ، وَلِذَلِكَ يُصَفُّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ بِالْأُمِّيِّينَ .

وَالْأُمِّيَّةُ وَصَفَ خَصَّ اللَّهُ بِهِ مِنْ رُسُلِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِتِمَامًا لِلْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ الْعَقْلِيِّ الَّذِي أَيْدَهُ اللَّهُ بِهِ، فَجَعَلَ الْأُمِّيَّةَ وَصْفًا ذَاتِيًّا لَهُ، لِيَتِمَّ بِهَا وَصْفُهُ الذَّاتِيَّ وَهُوَ الرِّسَالَةُ، لِيُظْهَرَ أَنَّ كَمَالَهُ النَّفْسَانِيَّ: كَمَالُ لَدُنِّي، إِلَهِي؛ لَا وَاسِطَةَ فِيهِ لِلْأَسْبَابِ الْمُعَارَفَةِ لِلْكَمَالَاتِ، وَبِذَلِكَ كَانَتْ الْأُمِّيَّةُ وَصَفَ كَمَالٍ فِيهِ، مَعَ أَنَّهَا فِي غَيْرِهِ وَصَفَ نَقْصَانٍ، لِأَنَّهُ لَمَّا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ، وَسَدَادِ الْعَقْلِ: مَا لَا يَحْتَمِلُ

الْخَطَأَ فِي كُلِّ نَوَاحِي مَعْرِفَةِ الْكَمَالَاتِ الْحَقِّ، وَكَانَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ عِلْمِهِ، وَبَيَّنَّهُ مِنْ أَمْرِهِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِمَّا
حَصَلَ لِلْمُتَعَلِّمِينَ؛ صَارَتْ أُمَّيَّتَهُ آيَةً عَلَى كَوْنِ مَا حَصَلَ لَهُ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ فَيُوضَاتِ الْهَيْئَةِ "

ثَابِتًا : لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَمَّنْ يَرْجِعُ بِنَفْسِهِ لِكُتُبِ الْعِلْمِ ، وَدَوَائِبِهِ ، لِأَنَّهُ بِاعْتِرَافِ
الْخُصُومِ وَوَلَدِ أُمَّيَّا ، وَفِي الْقُرْآنِ نَفْسِهِ : (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِبِيَمِينِكَ إِذَا لَزَمْتَ
الْمُبْطُلُونَ) الْعُنُكُوتِ / 48 .

وَلَيْسَتْ الْقِرَاءَةُ وَالْكِتَابَةُ قِيَمَةً ذَاتِيَّةً ، وَإِنَّمَا قِيَمَةُ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ : قِيَمَةٌ غَايِيَّةٌ : تَهْدِفُ إِلَى تَحْصِيلِ
الْعِلْمِ ، وَهُوَ حَاصِلٌ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَنَا - بِالْوَحْيِ .

وَمَعَ دَلَالَةِ آيَةِ السَّابِقَةِ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، إِلَّا أَنْ مِمَّا يُؤَكِّدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةَ أُمُورٌ، مِنْهَا :

1 اتِّخَاذُهُ كِتَابًا لِلْوَحْيِ مِنْ خَاصَّةِ صُحْبَةٍ .

2 أَنَّهُ لَمْ يُعْرَفْ مَوْقِعَ اسْمِهِ الْمَكْتُوبِ فِي صَلَاحِ الْحَدِيثِيَّةِ .

3 الشُّهُرَةُ الْمُسْتَقْبِضَةُ بِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِ لِلْكِتَابَةِ .

وَعَلَى آيَةِ حَالٍ ، فَإِنَّ مِنَ الْمُتَقَقِّ عَلَيْهِ ؛ كَوْنُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يُمَارِسُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ قَبْلَ
بَعْثِهِ .

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ : " وَأَمَّا الْأُمُورُ الْمُتَمَيِّزَةُ ، الَّتِي هِيَ وَسَائِلُ وَأَسْبَابٌ إِلَى الْفَضَائِلِ ، مَعَ إِمْكَانِ الْإِسْتِغْنَاءِ
عَنْهَا بِغَيْرِهَا : فَهَذِهِ مِثْلُ الْكِتَابِ ، الَّذِي هُوَ الْخَطُّ ، وَالْحِسَابُ ؛ فَهَذَا إِذَا فَقَدَهَا مَعَ أَنَّ فَضِيلَتَهُ فِي
نَفْسِهِ لَا تَتِمُّ بِدُونِهَا وَقَدَّهَا نَقَصٌ إِذَا حَصَلَهَا وَاسْتَعَانَ بِهَا عَلَى كَمَالِهِ وَفَضْلِهِ كَالَّذِي يَتَعَلَّمُ الْخَطَّ فَيَقْرَأُ بِهِ

الْقُرْآنُ؛ وَكُتِبَ الْعِلْمُ النَّافِعَةُ أَوْ يَكْتُبُ لِلنَّاسِ مَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ: كَانَ هَذَا فَضْلًا فِي حَقِّهِ وَكَمَالًا . وَإِنْ اسْتَعَانَ
بِهِ عَلَى

تَحْصِيلِ مَا يَضُرُّهُ أَوْ يَضُرُّ النَّاسَ ، كَالَّذِي يَقْرَأُ بِهَا كِتَابَ الضَّلَالَةِ ، وَيَكْتُبُ بِهَا مَا يَضُرُّ النَّاسَ كَالَّذِي يُزَوِّرُ
خُطُوطَ الْأَمْرَاءِ وَالْقُضَاةِ وَالشُّهُودِ: كَانَ هَذَا ضَرَرًا فِي حَقِّهِ وَسَيِّئَةً وَمُنْتَقَصَةً .

وَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ يَسْتَعْنِيَ عَنْهَا بِالْكَلِمَةِ بَحَيْثُ يَنَالُ كَمَالَ الْعُلُومِ مِنْ غَيْرِهَا ، وَيَنَالُ كَمَالَ التَّعْلِيمِ بِدُونِهَا: كَانَ
هَذَا أَفْضَلَ لَهُ وَأَكْمَلَ .

وَهَذِهِ حَالُ نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) الْأَعْرَافُ/157 ، فَإِنَّ أُمَّتَهُ لَمْ تَكُنْ مِنْ جِهَةِ فَقْدِ الْعِلْمِ
وَالْقِرَاءَةِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ فَإِنَّهُ إِمَامُ الْأُمَّةِ فِي هَذَا . وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ مَكْتُوبًا . كَمَا
قَالَ اللَّهُ فِيهِ: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِإِمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطُلُونَ) الْعَنْكَبُوتُ/48

وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ كَتَبَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ بِخَطِّهِ مُعْجَزَةً لَهُ ؟ أَمْ لَمْ يَكْتُبْ ؟

وَكَانَ اتِّقَاءَ الْكِتَابَةِ عَنْهُ ، مَعَ حُصُولِ أَكْمَلِ مَقَاصِدِهَا . . مِنْ أَعْظَمِ فَضَائِلِهِ ، وَأَكْبَرَ مُعْجَزَاتِهِ .

فَإِنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْعِلْمَ بِلَا وَسِطَةٍ كِتَابٍ ، مُعْجَزَةً لَهُ ، وَلَمَّا كَانَ قَدْ دَخَلَ فِي الْكُتُبِ مِنَ التَّحْرِيفِ
وَالتَّبْدِيلِ ، وَعَلِمَ هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّةَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَى أَنْ يَكْتُبَ
بِيَدِهِ ، وَأَمَّا سَائِرُ أَكْبَرِ الصَّحَابَةِ كَالْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ ، فَالغالبُ عَلَى كِبَارِهِمُ الْكِتَابَةُ لِاحْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهَا
، إِذْ لَمْ يُؤْتِ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنَ الْوَحْيِ مَا أُوتِيَهُ ؛ صَارَتْ أُمَّتُهُ الْمُخْتَصَّةُ بِهِ كَمَالًا فِي حَقِّهِ ، مِنْ جِهَةِ الْغِنَى

بِمَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا وَأَكْمَلُ ، وَتَقْصًا فِي حَقِّ غَيْرِهِ ، مِنْ جِهَةِ فَقْدِهِ الْفَضَائِلَ الَّتِي لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْكِتَابَةِ " انْتَهَى
مِنْ "مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى " (25/172) ، بِتَصَرُّفٍ .

وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)
الْعُنْكُبُوتُ/48 .

" بَيْنَ سُبْحَانِهِ مِنْ حَالِهِ مَا يَعْلَمُهُ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ ، وَهُوَ مَعْلُومٌ لِجَمِيعِ قَوْمِهِ الَّذِينَ شَاهَدُوهُ ، مُوَاطِرَ عِنْدَ
مَنْ غَابَ عَنْهُ ، وَبَلَغَتْهُ أَخْبَارُهُ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ : أَنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأُ كِتَابًا ، وَلَا يُحْفَظُ كِتَابًا مِنَ الْكُتُبِ ،
لَا الْمُنْزَلَةَ وَلَا غَيْرَهَا ، وَلَا يَقْرَأُ شَيْئًا مَكْتُوبًا ، لَا كِتَابًا مُنْزَلًا وَلَا غَيْرِهِ ، وَلَا يَكْتُبُ بِيَمِينِهِ كِتَابًا ، وَلَا يُنْسَخُ
شَيْئًا مِنْ كُتُبِ النَّاسِ الْمُنْزَلَةِ وَلَا غَيْرِهَا .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ يَعْلَمُ مِنْ غَيْرِهِ ، أَمَا إِنْ يَأْخُذُ تَلْقِينًا وَحِفْظًا ، وَأَمَا إِنْ يَأْخُذُ مِنْ كِتَابِهِ ، وَهُوَ لَمْ يَكُنْ يَقْرَأُ
شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ مِنْ حِفْظِهِ ، وَلَا يَقْرَأُ مَكْتُوبًا .

وَالَّذِي يَأْخُذُ مِنْ كِتَابِ غَيْرِهِ : أَمَا إِنْ يَقْرَأَهُ ، وَأَمَا إِنْ يُنْسَخُهُ ، وَهُوَ لَمْ يَكُنْ يَقْرَأُ وَلَا يُنْسَخُ " ، انْتَهَى مِنْ "
الْجَوَابِ الصَّحِيحِ " (5/338)

وَالْحَاصِلُ مِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ :

إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كَانَ أُمِّيًّا ، لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، بِالْتَّصِ الْمَقْطُوعِ بِهِ ، وَاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ
عَلَى ذَلِكَ .

مُلَاحَظَاتٌ عَلَى مَا وَرَدَ أَعْلَاهُ

أَوَّلًا : اتَّخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَاتَمَ لَيْسَ لِأَنَّهُ أُمِّي لَا يَكْتُبُ ؛ وَلَكِنْ لِيُخْتَمَ كِتَابُهُ وَرَسَائِلُهُ الَّتِي
كَانَ يُرْسِلُ بِهَا إِلَى مُلُوكِ الْأَرْضِ ، وَقَدْ كَانَتْ عَادَتُهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِنْ لَا يَقْبَلُوا كِتَابًا إِلَّا مَخْتُومًا مِنْ
صَاحِبِهِ .

رَوَى الْبُخَارِيُّ (2938) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : " لَمَّا أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ
يَكْتُبَ إِلَى الرُّومِ ، قِيلَ لَهُ : أَنَّهُمْ لَا يَقْرَءُونَ كِتَابًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتُومًا ، فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ ، وَنَقَشَ فِيهِ
مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ " .

ثَابِتًا : كَانَ نَبِينَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا أُمِّيًّا ، لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ؛ كَمَا وَصَفَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ
بِقَوْلِهِ : (فَاْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) الْأَعْرَافِ /
. 158

وَقَالَ تَعَالَى : (وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطَوْنَ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) الْعَنْكَبُوتِ / 48
فَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ كِتَابًا أَوْ يَكْتُبُ شَيْئًا قَبْلَ نُزُولِ الْوَحْيِ .

وَقَدْ اِخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ : هَلْ تَعَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ بَعْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ أَمْ لَا ؟
فَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّهُ كَتَبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَغَيْرِهِ ؛ فَقَدْ رَوَى
الْبُخَارِيُّ (4251) فِي خَبَرِ الْحُدَيْبِيَّةِ : (. . .) فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكِتَابَ ، وَلَيْسَ
يُحْسِنُ يَكْتُبُ ، فَكَتَبَ : هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ . . .) .

وَكذلكَ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (3053) ، وَمُسْلِمٌ (I637) وَهُوَ الْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرَهُ السَّائِلُ فِي

سُؤَالِهِ .

وَأَكْثَرَ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَرَأَ وَلَا كُتِبَ شَيْئًا حَتَّى مَاتَ .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ :

" وَهَكَذَا كَانَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَلَا يُحِطُّ سَطْرًا وَلَا حَرْفًا بِيَدِهِ ، بَلْ كَانَ لَهُ كُتَابٌ يَكْتُبُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْوَحْيَ وَالرَّسَائِلَ إِلَى الْأَقَالِيمِ ، وَمَنْ زَعَمَ مِنْ مُتَأَخِّرِي الْفُقَهَاءِ ، كَالْقَاضِي أَبِي الْوَلِيدِ الْبَاجِيِّ وَمَنْ تَابَعَهُ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كَتَبَ يَوْمَ الْحَدِيثِ : " هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ " فَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ رِوَايَةٌ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: (تَمَّ أَخَذَ فَكُتِبَ): وَهَذِهِ مَحْمُولَةٌ عَلَى الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: (تَمَّ أَمَرَ فَكُتِبَ) ، وَلِهَذَا اشْتَدَّ التَّكْيِيرُ بَيْنَ فُقَهَاءِ الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ عَلَى مَنْ قَالَ بِقَوْلِ الْبَاجِيِّ، وَتَبَرَّوْا مِنْهُ ، وَأَشَدُّوا فِي ذَلِكَ أَقْوَالًا وَحَطُّبُوا بِهِ فِي مَحَافِلِهِمْ : وَإِنَّمَا أَرَادَ الرَّجُلُ -أَعْنِي الْبَاجِيَّ، فِيمَا يَظْهَرُ عَنْهُ- أَنَّهُ كَتَبَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْمُعْجَزَةِ ، لَا أَنَّهُ كَانَ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ ، وَمَا أَوْرَدَهُ بَعْضُهُمْ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّهُ لَمْ يُمْثُ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى تَعَلَّمَ الْكِتَابَةَ ، فَضَعِيفٌ لَا أَصْلَ لَهُ " .

انتهى من "تفسير ابن كثير" (6/ 285-286) .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

" وَقَدْ تَمَسَّكَ بِظَاهِرِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ - يَعْنِي رِوَايَةَ يَوْمِ الْحَدِيثِ - أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِيُّ فَادَّعَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَبَ بِيَدِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ يُحْسِنُ يَكْتُبُ ، فَشَتَّعَ عَلَيْهِ عُلَمَاءُ الْأَنْدَلُسِ فِي زَمَانِهِ وَأَنَّ الَّذِي قَالَهُ مُخَالَفُ الْقُرَّانِ . . . وَذَكَرَ ابْنُ دُحْيَةَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ وَافَّقُوا الْبَاجِيَّ فِي ذَلِكَ ، وَاجْتِج

بعضهم لذلك بأحاديث ، وأجاب الجمهورُ عنها بضعفها ، وعن قصةِ الحُدَيْبِيَّةِ بأنَّ القِصَّةَ وَاحِدَةٌ
وَالكَاتِبُ فِيهَا عَلِيٌّ ، وَقَدْ صَرَخَ فِي حَدِيثِ الْمِسُورِ بِأَنَّ عَلِيًّا هُوَ الَّذِي كَتَبَ ، فمعنى (كتب) أي :
(أمر بالكتابة) ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ " .

انتهى باختصار من "فتح الباري" (7/ 503-504) .

فَالرَّاجِحُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكْتُبْ وَلَمْ يُقْرَأْ حَتَّى مَاتَ ، وَمَا وَرَدَ مِنْ
كُوبِهِ كُتِبَ - كَمَا فِي حَدِيثِ الْحُدَيْبِيَّةِ - ، فَإِنَّمَا مَعْنَاهُ : أَمَرَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَكْتُبَ .

وَعَلَى ذَلِكَ فَقَوْلُهُ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ : (ائْتُونِي بِكِتَابِ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا) إِنَّمَا يُعْنِي
: أَمَرَ مَنْ يَكْتُبُ لَكُمْ ، لَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ سَيُكْتُبُ بِنَفْسِهِ ، وَخَاصَّةً أَنَّهُ فِي مَرَضِ
الْمَوْتِ ، وَقَدْ أَصَابَهُ مِنَ التَّعَبِ وَالضَّعْفِ مَا أَصَابَهُ ، فَالْمُنَاسِبُ - وَلَوْ كَانَ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ - إِنْ يَأْمُرُ
أَحَدًا مِمَّنْ بِحَضْرَتِهِ أَنْ يَكْتُبَ .

ثَالِثًا : وَكِتَابَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَقْدِ زَوَاجِهِ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا " غَيْرَ صَحِيحٍ ؛
فَلَمْ تَكُنْ الْعُقُودُ تُكْتُبُ وَتَوَثَّقُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَكِتَابَةُ عَقْدِ النِّكَاحِ وَتَوَثُّقِهِ إِنَّمَا يَقْصِدُ بِهِ ضَمَانُ الْحُقُوقِ ، وَلَيْسَتْ كِتَابَةُ الْعَقْدِ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ النِّكَاحِ أَوْ
شَرْطًا فِي صِحَّتِهِ .

نَحْنُ لَمْ نَعُدْ أُمَّةً أُمَّيَّةً

وَجِهَةٌ نَظَرٍ مُخْتَلِفَةً لِأَحَدِهِمْ

((فِي كُلِّ عَامٍ يَخْتَدِمُ الْجَدَلُ فِي مَسْأَلَةٍ هَلْ نَأْخُذُ فِي رُؤْيَةِ هِلَالِ شَهْرِ شَوَّالٍ بِالْعَيْنِ أَمْ بِالْحِسَابِ إِذَا تَعَارَضَتَا؟ فَجَاءَ جَوَابُ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ يَجِبُ الْأَخْذُ بِالْعَيْنِ الْمَجْرَدَةِ امْتِثَالًا لِحَدِيثِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ)، وَحَدِيثِ (إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَقْرَأُ وَلَا نَحْسُبُ). لَكِنْ هَلْ هَذَا التَّفْهِيمُ يَتَضَمَّنُ التَّنْهِي لِلْمُسْتَقْبَلِ؟

مِنَ الْمَلَا حِظِّ أَنَّهُ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ صِفَةَ الْأُمِّيَّةِ لَيْسَتْ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَفَاخِرُ بِهَا النَّاسُ، فَإِنَّ بَعْضًا مِمَّنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ يَفَاخِرُ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ مَا زَالُوا أُمَّةً أُمِّيَّةً، وَيَقُولُ بَأَنَّ الْعِلَّةَ فِي نَصِّ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَالْحِكْمَةِ مِنْهُ لَمْ، وَلَنْ تَنْتَفِي الْبَتَّةَ، وَسُنْبِقِي أُمَّةً أُمِّيَّةً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

أَنَّ تَفْسِيرَ الْجَاهِلِيَّةِ بِالْجَهْلِ، الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْعِلْمِ، تَفْسِيرٌ مُعْلَوِّطٌ. فَالْمُرَادُ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ السَّفَهَ، وَالْحُمُقَ، وَالغُلَاطَةَ، الَّتِي كَانَتْ مِنْ أُبْرَزِ صِفَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْجَاهِلِيِّ، إِيذًا. وَإِنَّ اتِّهَامَ الْعَرَبِ بِالْأُمِّيَّةِ زَمَنِ الْجَاهِلِيَّةِ خَطَأً تَارِيخِيًّا فَادِحٌ، فَالْعَرَبُ عَرَفُوا الْكِتَابَةَ قَبْلَ الْآفِ السِّنِينَ. يَقُولُ ابْنُ التَّنْدِيمِ فِي (الْفَهْرِسْت): "أَنَّ أَوَّلَ مَنْ وَضَعَ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، نَيْسَ، وَنَصْرَ، وَتَيْمًا، وَدَوْمَةَ، هَوْلَاءَ وَوَلَدِ إِسْمَاعِيلَ. وَأَنَّ نَفَرًا مِنْ إِيَادِ الْقَدِيمَةِ وَضَعُوا حُرُوفَ: أَلْفَ، بَ، تَ، ثَ، وَعَنْهُمْ أُخِذَتْ الْعَرَبِ. وَإِنَّ الَّذِي حَمَلَ الْكِتَابَةَ إِلَى قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ، أَبُو قَيْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا هَدِمَتْ قُرَيْشُ الْكَعْبَةَ وَجَدُوا فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهَا حَجْرًا مَكُوبًا فِيهِ، السَّلَفُ بْنُ عَبَّزٍ يَقْرَأُ عَلَى رَبِّهِ السَّلَامَ، مِنْ رَأْسِ ثَلَاثَةِ الْآفِ سَنَةً. وَكَانَ فِي خِرَانَةِ الْمَأْمُونِ كِتَابٌ بِحَطِّ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، فِي جِلْدِ آدَمَ، فِيهِ ذِكْرُ حَقِّ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، عَلَى فُلَانِ بْنِ فُلَانِ الْحِمْيَرِيِّ، مِنْ أَهْلِ وَزَلِّ صَنْعَاءَ."

وَعُرِفَ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كِتَابَهُ الرَّسَائِلَ وَالصُّحُفَ، الَّتِي مِنْ أَشْهَرِهَا (صَحِيفَةُ لَقِيَطِ الْإِيَادِي)، الَّذِي أَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ بِالْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ يُحَذِّرُهُمْ مِنَ الْغَزْوِ الْفَارِسِيِّ، فَيَقُولُ:

سَلَامٌ فِي الصَّحِيفَةِ مِنْ لَقِيَطٍ إِلَى مَنْ بِالْجَزِيرَةِ مِنْ إِيَادٍ

أَمَّا أَشْهُرُ الصُّحُفِ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، فَهِيَ الصَّحِيفَةُ الَّتِي تَعَاهَدَتْ فِيهَا بَطُونُ قُرَيْشٍ عَلَى مُقَاتَعَةِ رَهْطِ هَاشِمٍ وَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ. كَمَا ذَكَرَ فِي (السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ) أَنَّ سُؤَيْدَ بْنَ صَامِتِ الْيَثْرِبِيِّ قَدِمَ مَكَّةَ، فَتَصَدَّى لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ. فَقَالَ سُؤَيْدٌ: فَلَعَلَّ الَّذِي مَعَكَ مِثْلُ الَّذِي مَعِي، فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَمَا الَّذِي مَعَكَ؟ فَأَجَابَ سُؤَيْدٌ: مِجَلَّةٌ لِقَمَانٍ. وَوَرَدَ أَيْضًا فِي

المصادر :

التاريخية أسماء بعض الصحف، منها: (الصحيفة الصادقة) لعبد الله بن عمرو بن العاص، و(صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري).

أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا، آنذاك، أُمَّه بِلَاغَةٍ وَبَيَانٍ، وَلَيْسَ أَدْلُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ الْمُعْلَقَاتِ الْعُشْرَ الَّتِي كَتَبَهَا فَطَاحِلُ الشُّعْرَاءِ، وَجَمَعَهَا الْجَاهِلِيُّونَ لِاسْتِحْسَانِهِمْ إِيَّاهَا، فَقَدْ كَتَبَتْ فِي الْقَبَاطِيِّ بِمَاءِ الذَّهَبِ، وَعَلَقَتْ عَلَى أَسْتَارِ الْكَعْبَةِ. وَالذَّلِيلُ الْأَخْرُ سُوْقِ عُكَاطٍ، الَّذِي كَانَ يَبَارَى فِيهِ الْمُتَقَفُونَ وَالشُّعْرَاءُ بِإِتِّجَاهِهِمُ الْأَدَبِيِّ. وَكَانَ لَدَيْهِمْ مِنَ الْفَصَاحَةِ مَا يَعْجُزُ عَنْهُ، الْآنَ، أَغْلَبَ الشُّعْرَاءُ وَالْمُتَقَفِينَ. فَقَدْ وَرَدَ فِي (السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ) أَنَّ قُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيَّ كَانَ يَخْطُبُ قَوْمَهُ فِي سُوْقِ عُكَاطٍ، وَأَنَّ الرَّسُولَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اسْتَمَعَ لِأَحَدِ خُطْبَتِهِ.

أَنَّ الْكِتَابَةَ وَأَدْوَانَهَا وَمُشْتَقَاتَهَا كَانَتْ مَعْرُوفَةً لَدَى الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ، وَالذَّلِيلُ عَلَى هَذَا، أَنَّ مُفْرَدَاتِهَا وَرَدَتْ فِي مَوَاضِعَ مُخْتَلَفَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مِنْهَا: الْقِرَاءَةُ، وَالْقَلَمُ، وَالْمِدَادُ، وَالْخَطُّ، وَالصُّحُفُ، وَالرَّقْ، الَّذِي لِحْتَلَّ الْمُرْتَبَةَ الْأُولَى فِي كِتَابِهِ الْمَصَاحِفِ. وَجَاءَ ذِكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ). وَأُطْلِقَ ابْنُ سَيِّدِهِ عَلَى الرَّقِّ الْوَرِقَ، وَاحِدُهَا وَرَقَةٌ. وَالْقِرْطَاسُ، وَالسَّجَلُ، وَالْكُتُبُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِ فِي الْكُتُبِ)

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: "فَأَوَّلَ الْخُطُوطِ الْعَرَبِيَّةِ، الْخَطُّ الْمَكِّيُّ، وَبَعْدَهُ الْمَدَنِيُّ. . . فَأَمَّا الْمَكِّيُّ وَالْمَدَنِيُّ، فَبِئْسَ الْفَاتَهُ تَعْوِيجٌ إِلَى يَمْنَةِ الْيَدِ، وَأَعْلَى الْأَصَابِعِ، وَفِي شَكْلِهِ أَنْضَجَاعٌ يَسِيرٌ". وَالْخَطُّ الْمَكِّيُّ هُوَ الَّذِي كَتَبَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ. فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ أَوَائِلِ الْكِتَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ أُمَّهُ أُمَّيَّةٌ ؟

قَدَّرَ الْمُحَدِّثُونَ عَدَدَ الْقُرَّاءِ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ، زَمَنِ الرَّسُولِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَرْبَعِمِائَةٍ رَجُلًا. وَفِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) عَنْ أَنَسٍ قَالَ: "جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: إِنَّ ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ". يَسْتَدِلُّ مِنْ هَذَا أَنَّ إِعْدَادَ الْمُتَعَلِّمِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَطْ، نِسْبَةً إِلَى عَدَدِ سُكَّانِ الْمَدِينَةِ الْمُتَوَرَّةِ، أَنْذَكَ، لَمْ تَكُنْ قَلِيلَةً.

ثُمَّ لَوْ كَانَ هَذَا الْوَصْفُ - يَعْنِي الْجَهْلُ بِالْكِتَابَةِ - مُقْبُولًا، وَإِنْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ (أُمَّيًّا) بِهَذَا الْمَعْنَى، فَإِنَّ تِلْكَ حَالَةً خَاصَّةٌ تَدُلُّ عَلَى مُعْجَزَةِ الْهِيَةِ، وَليْسَتْ ظَاهِرَةً عَامَّةً تُشْمَلُ الْأُمَّةَ جَمِيعًا. وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ الصِّفَةُ خُصُوصِيَّةً، فَبِئْسَ تَكْرِيمٌ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا شَكَّ أَنَّ فِيهَا حَطًّا مِنْ شَأْنِ الْأُمَّةِ حِينَ تُوصَمُ كُلُّهَا بِهَذِهِ الصِّفَةِ.

أَنَّ الْإِسْتِئَادُ فِي مَفْهُومِ الْأُمِّيَّةِ، عِنْدَ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ، إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ)، قَوْلٌ يُجَابِئُهُ الصَّوَابُ. فَمَعْنَى (فِي الْأُمِّيِّينَ) لَيْسَ الْجَهْلُ بِالْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ، وَإِنَّمَا الْعَرَبُ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ كِتَابٌ مُنْزَلٌ مِنَ السَّمَاءِ. وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ الْكَثِيرِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، مِنْهُمْ الطَّبْرِيُّ فِي (تَفْسِيرِهِ): "إِنَّمَا سُمِّيَتْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْأُمِّيِّينَ، لِأَنَّهُ لَمْ يُنَزَلْ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ". فَالْأُمِّيُّونَ إِذْنًا هُمُ الْعَرَبُ، آنَ ذَاكَ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ كِتَابٌ. وَلَيْسَ لِلْفِطْهَةِ صِلَةٌ بِالْأُمِّيَّةِ الَّتِي تَعْنِي الْجَهْلَ بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ.

وَأَمَّا حَدِيثُ: "إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ"، فَبِعَارِضُهُ حَدِيثُ آخَرَ، عَنِ الرَّسُولِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَوْلُهُ: "قُرَيْشُ أَهْلُ اللَّهِ، وَهُمْ الْكُتْبَةُ الْحُسْبَةُ". وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ، أَنَّهُ حِينَ كَبَّتْ قُرَيْشُ صَحِيفَةً وَعَلَقَتْ عَلَى جِدَارِ الْكُتْبَةِ، قَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمِّيَّةٍ: وَاللَّهِ لَا أَقْعُدُ حَتَّى تَشَقَّ هَذِهِ الصَّحِيفَةُ.

إِنَّ مَفْهُومَ الْأُمِّيَّةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ رَبَّمَا يُنْطَبِقُ عَلَى حَالَاتٍ فَرْدِيَّةٍ لِأَعْرَابٍ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُنْطَبِقَ بِالنِّسْبَةِ لِلْحَضَرِ، لَا سِيَّمَا إِنْ أَهْلَ مَكَّةَ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ تِجَارَةٌ صَحْمَةٌ وَقَوَافِلٌ تَذْهَبُ إِلَى مُخْتَلَفِ الْأَنْحَاءِ، تَحْمِلُ تِجَارَةً تُقَدَّرُ أَثْمَانُهَا بِعَشْرَاتِ الْأُلُوفِ كَانُوا يَعْرِفُونَ الْكِتَابَةَ وَالْحِسَابَ.

أَنَّ مَطَالِعَ الْأَهْلِ لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِالْحِسَابَاتِ الْفَلَكِيَّةِ، وَأَخَذَتْ بِهَا بَعْضُ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ، مُسْتَنْدِينَ فِي ذَلِكَ إِلَى رَأْيِ شَرْعِيِّ قَالَ بِهِ جَمْعٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ، مِمَّنْ رَأَوْا الْأَخْذَ بِالْحِسَابِ الْفَلَكِيِّ لِإِثْبَاتِ الرُّوْيَةِ، وَكَانَ مِنْهُمْ تَابِعُونَ وَأَيْمَةٌ فِي الْفِقْهِ، وَالتَّشْرِيحُ، مِنْهُمْ الْقَدَمَاءُ وَكَذَلِكَ الْمُعَاصِرُونَ)).

وَفِي رَأْيِنَا فَإِنَّ أَفْضَلَ فَائِدَةً وَنَفْعَةً وَأَقْرَبُ إِلَى حَقِيقَةِ الْمُرَادِ هُوَ مَا وَجَدْنَاهُ فِي كِتَابِ الْمُفَصَّلِ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ لِلدُّكُورِ جَوَادٍ عَلَى فُلْتُنْظُرْ مَاذَا قَالَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ.

(الْمُفَصَّلُ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ) د. جَوَادُ عَلِي

الفصل العِشْرُونَ بَعْدَ المِئَةِ

أُمَّةُ الجَاهِلِيَّينَ

لِلدُّكُورِ المُوَرِّخِ العِراقِيِّ جِوَادِ عَلِيٍّ رَأْيًا مَوْضُوعِيًّا فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ نُورِدُهُ كَمَا جَاءَ فِي كِتَابِهِ المِفْضَلِ فِي تَارِيخِ العَرَبِ قَبْلَ الإِسْلامِ .

((الشَّاعِرُ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّ العَرَبَ قَبْلَ الإِسْلامِ كَانُوا فِي جَهَالَةٍ عَمِيَاءَ وَضَلَالَةٍ، لَا يُقْرَأُونَ، وَلَا يَكْتُبُونَ، وَأَنَّ الكِتَابَةَ كَانَتْ قَلِيلَةً بَيْنَهُمْ، وَاسْتَدَلُّوا عَلَيَّ رَأْيِهِمْ هَذَا بِإِطْلَاقِهِمْ لَفْظَهُ "الجَاهِلِيَّةُ" عَلَيَّ أَيَّامَهُمْ، وَبِمَا جَاءَ مِنْ أَهْلِهِمْ كَانُوا قَوْمًا "أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ" . وَاسْتَدَلُّوا عَلَيَّ ذَلِكَ بِحَدِيثِ ذِكْرِ أَنَّ الرَّسُولَ قَالَهُ، هُوَ "أَنَا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ" .

وَقَدْ تَحَدَّثْتُ فِي الجُزْءِ الأوَّلِ مِنْ هَذَا الكِتَابِ عَنِ مَعْنَى "الجَاهِلِيَّةِ"، وَعَنْ الأَرَاءِ الَّتِي قِيلَتْ فِيهَا، حَدِيثًا فِيهِ إِفَاضَةٌ وَإِحَاطَةٌ، وَقَدْ قُلْتُ فِيهَا قَلْبَهُ أَنَّ نَفْسِيرَ الجَاهِلِيَّةِ بِالْجَهْلِ، الَّذِي هُوَ ضِدُّ العِلْمِ، تَفْسِيرٌ مُغْلُوطٌ، وَإِنَّ المُرَادَ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ السَّفَهَ وَالحُمُقَ وَالعِظَمَةَ وَالعُرُورَ، وَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ أَبرزَ صِفَاتِ المُجْتَمَعِ الجَاهِلِيِّ إِبْنِدًا، وَتَحَدَّثْتُ فِي كِتَابِي: "تَارِيخُ العَرَبِ قَبْلَ الإِسْلامِ" عَنِ مَعْنَى الأُمَّيَّةِ وَذَلِكَ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِي عَلَيَّ أُمَّيَّةِ الرَّسُولِ وَارَاءَ العُلَمَاءِ فِيهَا مِنْ مُسْلِمِينَ وَمُسْتَشْرِقِينَ، وَقُلْتُ إِنَّ لِلأُمَّيَّةِ مَعْنَى أُخَرَ غَيْرَ المَعْنَى المُتداولِ المَعْرُوفِ، وَهُوَ الجَهْلُ بِالْكِتَابَةِ وَالفِرَاءَةِ. فَقَدْ ذَكَرَ "الفِرَاءُ" وَهُوَ مِنْ عُلَمَاءِ العَرَبِيَّةِ المَعْرُوفِينَ، أَنَّ الأُمِّيِّينَ هُمُ العَرَبُ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ كِتَابٌ. وَيُرَادُ بِالْكِتَابِ، التَّوْرَةَ وَالأِنْجِيلَ. وَلِذَلِكَ نَعَتَ اليَهُودَ وَالتَّصَارِي فِي الفُرْقَانِ بـ "أَهْلِ الكِتَابِ"، وَهَذَا المَعْنَى يُنَاسِبُ كُلَّ المُنَاسَبَةِ لَفْظَهُ "الأُمِّيِّينَ" الوَارِدَةَ فِي الفُرْقَانِ الكَرِيمِ، وَتَعْنِي الوَثْنِيَّينَ أَيَّ جِمَاعِ قُرَيْشٍ وَبَقِيَّةِ العَرَبِ، مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ يَهُودَ وَلَيْسَ لَهُ كِتَابٌ.

وَالْعُلَمَاءُ أَرَاءَ فِي الْأُمَّةِ، وَذَلِكَ لِمَا لَهَا مِنْ صِلَةٍ بِالرَّسُولِ، وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ قَدْ نَعَتْ قَوْمَ الرَّسُولِ بِالْأَمِينِ،
 وَجَعَلَ الرَّسُولَ أُمِّيًّا مِثْلَهُمْ، فَقَدْ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ أَمِينِينَ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَقْرَأُونَ وَلَا
 يَكْتُبُونَ إِلَّا مِنْ شَذِّ مِنْهُمْ وَنَدْرٍ، وَإِلَّا أَفْرَادًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، زَعَمُوا أَنَّهُمْ تَعَلَّمُوا الْكِتَابَةَ مِنْ عَهْدِ غَيْرِ بَعِيدٍ
 عَنِ الْإِسْلَامِ، وَلَوْ أَخَذْنَا أَقْوَالَهُمْ مَاخِذَ الْجَدِّ، وَجَبَ عَلَيْنَا الْقَوْلُ بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا تَعَلَّمُوهَا فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ أَيْ
 قَبْلَ الْوَحْيِ بِسِنِينَ لَيْسَتْ بِكَثْرَةٍ، وَإِنَّ مَكَّةَ كَانَتْ الْمَدِينَةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي عَرَفَتْ الْكِتَابَةَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ،
 وَهُوَ كَلَامٌ لَا يَقُومُ عَلَى عِلْمٍ. فَقَدْ كَانَ يَثْرَبُ كِتَابٌ يَكْتُبُونَ بِكِتَابِ مَكَّةَ، وَكَانَ فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى كِتَابٌ
 يَكْتُبُونَ بِكِتَابِهِمْ أَيْضًا، فَضَلَّ عَنْ اتِّشَارِ الْكِتَابَةِ بِالْمُسْنَدِ فِي الْعَرَبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى مِنْ
 جَزِيرَةِ الْعَرَبِ.

وَالرَّسُولُ أُمِّيٌّ، لَمْ يَقْرَأْ وَلَمْ يَكْتُبْ، فَإِذَا أَرَادَ كِتَابَةَ رِسَالَةٍ أَوْ عَهْدٍ أَوْ تَدْوِينَ لِلْوَحْيِ، أَمَرَ كِتَابَهُ بِالْتَدْوِينِ.
 عَلَى ذَلِكَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ. وَقَدْ وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ مِثْلُ: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ)، (وَإِن كُنْتَ تَتْلُو
 مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطُلُونَ). أَخَذَهَا الْبَعْضُ عَلَى أَنَّ فِيهَا دَلَالَةً عَلَى أَنَّ
 النَّبِيَّ كَانَ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ، وَاسْتَدَلَّ أَيْضًا بِبَعْضِ مَا وَرَدَ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ وَالسِّيَرِ، وَفِيهِ مَا يُفِيدُ أَنَّهُ كَانَ
 مُلِمًّا بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ، كَالَّذِي وَرَدَ فِي صَلْحِ "الْحُدَيْبِيَّةِ" أَنَّهُ "هُوَ الَّذِي كَتَبَ الْكِتَابَ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةَ. وَهُوَ
 مَا وَقَعَ فِي الْبُخَارِيِّ".

وَمَا جَاءَ فِي السِّيَرَةِ لِابْنِ هِشَامٍ: "فَبَيَّنَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَكْتُبُ الْكِتَابَ هُوَ وَسَهْلٌ".
 وَمَا جَاءَ فِي الْبُخَارِيِّ: "وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْكِتَابَ لِيَكْتُبَ، فَكَتَبَ هَذَا مَا
 قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ". وَقَالُوا إِنَّ فِي هَذَا الْمَذْكَورِ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ مِثْلِ مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ الرَّسُولَ "لَمَّا اشْتَدَّ

وَجَعَلَهُ، قَالَ: ائْتُونِي بِالذَّوَاةِ وَالْكُتُبِ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّونَ مَعَهُ بَعْدِي أَبَدًا"، وَمِثْلُ مَا وَرَدَ "فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ دَعَا فِي مَرَضِهِ بِسِوَاهِ وَمُزْبِرٍ فَكَتَبَ اسْمَ الْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ"، دَلَالَةٌ مُرَبِّحَةٌ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ. وَلِلْعُلَمَاءِ كَلَامٌ فِي الْأَدَلَّةِ الْمَذْكُورَةِ، وَلَهُمْ آرَاءٌ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الَّتِي تَعَرَّضْتُ لِمَوْضُوعِ الْأُمِّيَّةِ. وَالْأُمِّيَّةُ فِي تَفْسِيرِ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ مِنْ لَا يَكْتُبُ، أَوْ الْعَيْبِيِّ الْجِلْفِ الْجَافِيِّ الْقَلِيلِ الْكَلَامِ. قِيلَ لَهُ أُمِّي لِأَنَّهُ عَلَى مَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ عَلَيْهِ مِنْ قِلَّةِ الْكَلَامِ وَعُجْمَةِ اللِّسَانِ، أَوْ الْجَهْلِ التَّامِ بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ. "لِأَنَّ أُمَّهُ الْعَرَبَ لَمْ تَكُنْ تَكْتُبُ وَلَا تَقْرَأُ الْمَكْتُوبَ"، أَوْ لِأَنَّ الْكِتَابَةَ كَانَتْ فِيهِمْ عَزِيزَةً أَوْ عَدِيمَةً، أَوْ الْأُمِّيُّ الَّذِي عَلَى خَلْقِهِ الْأُمِّيَّةُ، لَمْ يَتَعَلَّمِ الْكِتَابَ، فَهُوَ عَلَى جِبَلْتِهِ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: "أَنَا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ"، أَوْ "أَنَا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ"، أَوْ "بَعَثْتُ إِلَى أُمَّهِ أُمِّيَّةً"، فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا عَلَى أَصْلِ وِلَادَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، لَمْ يَتَعَلَّمُوا الْكِتَابَةَ وَلَا الْحِسَابَ، فَهُمْ عَلَى جِبَلْتِهِمْ الْأُولَى. "وَكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ، فَإِنَّمَا هُوَ بِدِيَهَةِ وَارْتِجَالٍ... ثُمَّ لَا يَقِيدُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَدْرُسُهُ أَحَدًا مِنْ وَلَدِهِ. وَكَانُوا أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ".

وَقَدْ وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَفْظَةُ "الْأُمِّيُّ"، وَ"الْأُمِّيُّونَ"، وَ"الْأُمِّيِّينَ"، وَتَعَتِ الرَّسُولُ بِ"التَّبِيِّ الْأُمِّيِّ"، وَوَرَدَتْ فِي سُورَةِ مَكِّيَّةٍ وَفِي سُورَةِ مَدْيَنِيَّةٍ. وَوَرَدَتْ لَفْظَةُ "الْأُمِّيُّ" فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَهِيَ مِنْ السُّورَةِ الْمَكِّيَّةِ، وَوَرَدَتْ لَفْظَةُ "الْأُمِّيُّونَ" وَ"الْأُمِّيِّينَ" فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَسُورَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَسُورَةِ الْجُمُعَةِ، وَهِيَ مِنْ السُّورَةِ الْمَدْيَنِيَّةِ. وَيُلاحِظُ أَنَّ الْآيَاتِ الْمَكِّيَّةِ، خَاصَّتَانِ بِالرَّسُولِ، فَتَعَتِ فِيهِمَا بِ"التَّبِيِّ الْأُمِّيِّ"، أَمَّا الْآيَاتُ الْمَدْيَنِيَّةُ، فَقَدْ قَصَدَ بِهَا "الْأُمِّيِّينَ"، الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ بِمَعْنَى الْمُشْرِكِينَ.

وَقَدْ بَحَثَ "الرَّاعِبُ الْأَصْبَهَانِيُّ" فِي مَعْنَى "الْأُمِّيَّة" فَقَالَ: "وَالْأُمِّيُّ: هُوَ الَّذِي لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ مِنْ كِتَابٍ وَعَلَيْهِ حُمَلٌ: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ. قَالَ قُطْرُبٌ: الْأُمِّيَّةُ: الْغُفْلَةُ وَالْجَهَالَةُ. فَلَا أُمِّيَّ مِنْهُ، وَذَلِكَ هُوَ قَلَّةُ الْمَعْرِفَةِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا)، أَيُّ إِلَّا أَنْ يُتْلَى عَلَيْهِمْ. قَالَ الْفَرَّاءُ: هُمُ الْعَرَبُ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ كِتَابٌ. وَالتَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، قِيلَ مَنْسُوبٌ إِلَى الْأُمَّةِ الَّذِينَ لَمْ يَكْتُبُوا لِكُونِهِمْ عَلَى عَادَتِهِمْ. كَقَوْلِكَ عَامِيًّا لِكُونِهِ عَلَى عَادَةِ الْعَامَّةِ. وَقِيلَ: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ مِنْ كِتَابٍ، وَذَلِكَ فَضِيلَةٌ لَهُ لِاسْتِغْنَائِهِ بِحِفْظِهِ وَاعْتِمَادِهِ عَلَى ضَمَانِ اللَّهِ مِنْهُ بِقَوْلِهِ: سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى. قِيلَ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِتَسْبِيهِ إِلَى أُمِّ الْقُرَى".

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْأُمِّيِّينَ مَنْ لَا كِتَابَ لَهُمْ مِنَ النَّاسِ، مِثْلَ الْوَثْنِيِّينَ وَالْمَجُوسِ، قَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ: (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ اسْلَمْتُمْ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا): "يُعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ تَنَاهُؤُهُ، وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْأُمِّيِّينَ، الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ اسْلَمْتُمْ...". وَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ، أَيُّ الَّذِينَ لَيْسُوا يَهُودًا وَلَا نَصَارَى. وَوَرَدَ: "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُظْهَرَ الْأُمِّيُّونَ مِنَ الْمَجُوسِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الرُّومِ"، قَالَ الطَّبْرِيُّ: "وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَكْرَهُ أَنْ يُظْهَرَ الْأُمِّيُّونَ مِنَ الْمَجُوسِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الرُّومِ، فَفَرِحَ الْكُفَّارُ بِمَكَّةَ وَشَمَتُوا، فَلَقُوا أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وَالنَّصَارَى أَكَلِ كِتَابٍ، وَنَحْنُ أُمِّيُّونَ، وَقَدْ ظَهَرَ إِخْوَانُنَا مِنْ أَهْلِ فَارِسَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ". فَالْمُسْلِمُونَ أَهْلُ كِتَابٍ، وَالْمَجُوسُ أُمِّيُّونَ كَمُشْرِكِي مَكَّةَ وَبَقِيَّةِ الْعَرَبِ الْمُشْرِكِينَ، لَا لِكُونِهِمْ، لَا يَقْرَأُونَ وَلَا يَكْتُبُونَ، بَلْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ.

وَيَلْحَظُ أَنَّ الْآيَةَ: (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ)، وَالْآيَةَ: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ أِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)؛ وَالْآيَةَ: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ، وَكَذَلِكَ:) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ)، لَا تُؤَدِّي مَعْنَى الْأُمِّيَّةِ، بِمَعْنَى الْأُمَّةِ الْجَاهِلَةَ بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ، لِعَدَمِ انْسِجَامِ التَّفْسِيرِ مَعَ الْمَعْنَى، وَإِنَّمَا تُؤَدِّي مَعْنَى وَثْنِيَّةٍ، أَيَّ أُمَّةٍ لَمْ تُؤْمَنْ بِكِتَابٍ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، أَيَّ فِي الْمَعْنَى الْمُتَقَدِّمِ.

"وَالْأُمِّيُّ وَالْأَمَانُ -بِضْمِهِمَا- مَنْ لَا يَكْتُبُ أَوْ مِنْ هُوَ عَلَى خَلْقِهِ الْأُمَّةِ لَمْ يَتَعَلَّمِ الْكِتَابَ، وَهُوَ بَاقٍ عَلَى جِبَلْتِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ. أَرَادَ أَنَّهُ عَلَى أَصْلِ وِلَادَةِ أُمَّهَمْ، لَمْ يَتَعَلَّمُوا الْكِتَابَةَ وَالْحِسَابَ، فَهَمْ عَلَى جِبَلْتِهِمُ الْأُولَى.

وَقِيلَ لِسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْأُمِّيُّ لِأَنَّ أُمَّهُ الْعَرَبَ لَمْ تَكُنْ تَكْتُبُ وَلَا تَقْرَأُ الْمَكْتُوبَ، وَبَعَثَهُ اللَّهُ رَسُولًا، وَهُوَ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ مِنْ كِتَابٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْخَلَّةُ إِحْدَى آيَاتِهِ الْمُعْجَزَةِ، لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَلَّا عَلَيْهِمْ كِتَابَ اللَّهِ مَنْظُومًا تَارَةً بَعْدَ أُخْرَى، بِالنُّظْمِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يُعَيِّرْهُ وَلَمْ يُبَدِّلِ الْفَاطِحَةَ، فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَمَا كُنْتُمْ تَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ، إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطُلُونَ). وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الرَّافِعِيِّ أَنَّ مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْخَطُّ وَالشُّعْرُ، وَإِنَّمَا يَجُوزُ التَّحْرِيمُ أَنْ قُلْنَا إِنَّهُ كَانَ يُحْسِنُهُمَا، وَالْأَصْحَحُ أَنَّهُ كَانَ لَا يُحْسِنُهُمَا، وَلَكِنْ يُمَيِّزُ بَيْنَ جَيْدِ الشُّعْرِ وَرَدِيئِهِ. وَادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنَّهُ صَارَ يَعْلَمُ الْكِتَابَةَ بَعْدَ أَنْ كَانَ لَا يَعْلَمُهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ قَبْلِهِ فِي الْآيَةِ. فَإِنَّ عَدَمَ مَعْرِفَتِهِ بِسَبَبِ الْإِعْجَازِ. فَلَمَّا اشْتَهَرَ الْإِسْلَامُ وَأَمِنَ الْإِرْتِيَابَ عَرَفَ حِينَئِذٍ الْكِتَابَةَ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ وَغَيْرِهِ: مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى كَتَبَ

وَقَرَأَ، وَذَكَرَهُ مُجَالِدٌ لِلشَّعْبِيِّ . فَقَالَ لَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يُنَافِيهِ . قَالَ ابْنُ دُحْيَةَ: وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَبُو ذَرِّ الْفَتْحِ
التَّيْسَابُورِيُّ وَالْبَاجِي وَصَنَّفَ فِيهِ كِتَابًا، وَوَافَقَهُ عَلَيْهِ بَعْضُ عُلَمَاءِ أَفْرِقِيَّةَ وَصِقَلِيَّةَ . وَقَالُوا: إِنَّ مَعْرِفَةَ
الْكِتَابَةِ بَعْدَ أُمَّتِهِ لَا تُنَافِي الْمُعْجِزَةَ، بَلْ هِيَ مُعْجِزَةٌ أُخْرَى بَعْدَ مَعْرِفَةِ أُمَّتِهِ وَتَحَقُّقِ مُعْجِزَتِهِ، وَعَلَيْهِ تَنْزَلُ
الْآيَةُ السَّابِقَةُ وَالْحَدِيثُ فَإِنَّ مَعْرِفَتَهُ مِنْ غَيْرِ تَقْدَمُ تَعْلِيمِ مُعْجِزَةٍ . وَصَنَّفَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ مَفُوزٍ كِتَابًا رُدِّ فِيهِ
عَلَى الْبَاجِيِّ وَبَيَّنَ فِيهِ خَطَأَهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ أَنَّهُ كَتَبَ مَعَ عَدَمِ عِلْمِهِ بِالْكِتَابَةِ وَتَشْيِيرِ
الْحُرُوفِ، كَمَا يَكْتُبُ بَعْضُ الْمُلُوكِ عِلْمَهُمْ وَهُمْ أُمِّيُونَ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الْقَاضِي أَبُو جَعْفَرٍ السَّمْنَانِيُّ .

وَقَدْ تَعَرَّضَ "الْأَلُوسِيُّ" لِهَذَا الْمَوْضُوعِ فِي تَفْسِيرِهِ الْآيَةَ: (وَمَا كُنْتُ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ
بِيَمِينِكَ، إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطُلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا
الظَّالِمُونَ) . فَقَالَ: "وَاحْتَفَفَ فِي أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَكَانَ بَعْدَ التَّبَوُّةِ يُقْرَأُ وَيَكْتُبُ أَمْ لَا؟ فَقِيلَ إِنَّهُ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَكُنْ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، وَاحْتَارَهُ الْبُغْوِيُّ فِي التَّهْذِيبِ، وَقَالَ: إِنَّهُ الْأَصْحَحُ . وَادَّعَى
بَعْضُهُمْ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَارَ يَعْلَمُ الْكِتَابَةَ بَعْدَ أَنْ كَانَ لَا يَعْلَمُهَا، وَعَدَمَ مَعْرِفَتِهَا سَبَبَ الْمُعْجِزَةِ
لِهَذِهِ الْآيَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ وَاشْتَهَرَ الْإِسْلَامُ وَظَهَرَ أَمْرُ الْآرْتِيَابِ تُعْرَفُ الْكِتَابَةُ حِينَئِذٍ . وَرَوَى ابْنُ أَبِي
شَيْبَةَ وَغَيْرِهِ: مَا مَاتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى كَتَبَ وَقَرَأَ . وَنُقِلَ هَذَا لِلشَّعْبِيِّ فَصَدَّقَهُ، وَقَالَ:
سَمِعْتُ أَقْوَامًا يَقُولُونَ وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يُنَافِيهِ . وَرَوَى ابْنُ مَاجَهَ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ: رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي مَكْتُوبًا عَلَى الْجَنَّةِ: الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَالْقَرْضُ بِمِائَةِ عَشْرِ .

ثُمَّ قَالَ: وَيَشْهَدُ لِلْكِتَابَةِ أَحَادِيثُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ، كَمَا وَرَدَ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ: فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكِتَابَ وَلَيْسَ يُحْسِنُ يَكْتُبُ فَكَتَبَ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، الْحَدِيثُ.

وَمَمَّنْ ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ أَبُو ذَرٍّ عَبْدُ بْنُ أَحْمَدَ الْهَرَوِيُّ، وَأَبُو الْفَتْحِ التَّيْسَابُورِيُّ، وَأَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِيُّ مِنَ الْمَغَارِبَةِ، وَحَكَاهُ عَنِ السَّمْنَانِيِّ. وَصَنَّفَ فِيهِ كِتَابًا، وَسَبَقَهُ إِلَيْهِ ابْنُ مُنِيَّةَ. وَلَمَّا قَالَ أَبُو الْوَلِيدِ ذَلِكَ طَعَنَ فِيهِ وَرُمِيَ بِالزُّنْدَاقَةِ وَسَبَّ عَلَى الْمَنَابِرِ، ثُمَّ عَقَدَ لَهُ مَجْلِسٌ فَأَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى مَدْعَاهُ، وَكَتَبَ بِهِ إِلَى عُلَمَاءِ الْأَطْرَافِ، فَاجَابُوا بِمَا يُوَافِقُهُ، وَمَعْرِفَةَ الْكِتَابَةِ بَعْدَ أُمَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا تُنَافِي الْمُعْجِزَةَ، بَلْ هِيَ مُعْجِزَةٌ أُخْرَى لِكُونِهَا مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ.

وَقَدْ رَدَّ بَعْضُ الْأَجَلَةِ كِتَابَ الْبَاجِيِّ لَمَّا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ. وَقَالَ: كُلُّ مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ قَوْلِهِ: كَتَبَ، فَمَعْنَاهُ أَمَرَ بِالْكِتَابَةِ، كَمَا يُقَالُ: كَتَبَ السُّلْطَانُ بِكَذَا لِفُلَانٍ. وَتَقْدِيمُ قَوْلِهِ تَعَالَى: مِنْ قَبْلِهِ عَلَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ. وَلَا تَحْطُهُ كَالصَّرِيحِ فِي أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَكْتُبْ مُطْلَقًا. وَكَوْنُ الْقَيْدِ الْمَوْسُطِ رَاجِعًا لَمَّا بَعْدَهُ غَيْرُ مُطَرِّدٍ. وَظَنَّ بَعْضُ الْأَجَلَةِ رُجُوعَهُ إِلَى مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ، فَقَالَ: يُفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ قَادِرًا عَلَى التَّلَاوَةِ وَالْخَطِّ بَعْدَ انْزَالِ الْكِتَابِ، وَلَوْلَا هَذَا الْأَعْبَارُ، لَكَانَ الْكَلَامُ خَلْوًا مِنَ الْفَائِدَةِ. وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ سَلَّمَ مَا ذَكَرَهُ مِنَ الرُّجُوعِ، لَا يَتِمُّ أَمْرُ الْإِفَادَةِ إِلَّا إِذَا قِيلَ بِحُجِّيَّةِ الْمَفْهُومِ، وَالظَّانُّ مِمَّنْ لَا يَقُولُ بِحُجِّيَّتِهِ.

ثُمَّ قَالَ الْأَلُوسِيُّ فِي تَفْنِيدِ هَذِهِ الرَّدُودِ مَا نَصَّهُ:

وَلَا يَخْفَى أَنَّ قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَنَا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ، لَيْسَ نَصًّا فِي اسْتِمْرَارِ نَفِي
الْكِتَابَةِ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَلَعَلَّ ذَلِكَ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ بَعَثَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ بَعْثِ
إِلَيْهِمْ وَهُوَ بَيْنَ ظَهْرَانِهِمْ مِنْ الْعَرَبِ أُمِّيُونَ، لَا يَكْتُبُونَ وَلَا يُحْسِبُونَ، فَلَا يَضُرُّ عَدَمَ بَقَاءِ وَصْفِ الْأُمِّيَّةِ فِي
الْأَكْثَرِ بَعْدَ . وَأَمَّا مَا ذُكِرَ مِنْ تَأْوِيلِ كِتَابِ بِأَمْرِ بِالْمَكَاتِيهِ، فَخِلَافُ الظَّاهِرِ . وَفِي شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ
لِلنَّوَوِيِّ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ نَقْلًا عَنِ الْقَاضِي عِيَّاضٍ: أَنَّ قَوْلَهُ فِي الرَّوَايَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا: وَلَا يَحْسُنُ يَكْتُبُ
فَكَتَبَ، كَاتِنَصَ فِي أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَبَ بِنَفْسِهِ، فَالْعُدُولُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مَجَازٌ لَا ضَرُورَةَ إِلَيْهِ .
ثُمَّ قَالَ: وَقَدْ طَالَ كَلَامُ كُلِّ فِرْقَةٍ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَشَنَعَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ عَلَى الْأُخْرَى فِي هَذَا .

وَبَحَثَ "الْقُرْطُبِيُّ" فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ أَيْضًا، فَقَالَ: " وَمَا كُنْتُ تَتْلُو مِنْ قِبَلِهِ مِنْ كِتَابِ الضَّمِيرِ فِي قِبَلَةِ
عَائِدًا إِلَى الْكِتَابِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُنَزَّلُ عَلَى مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيُّ وَمَا كُنْتُ يَا مُحَمَّدُ تَقْرَأُ
قِبَلَهُ، وَلَا تَخْتَلِفُ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، بَلْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فِي غَايَةِ الْأَعْجَازِ وَالتَّضْمِينِ لِلْغُيُوبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَلَوْ
كُنْتُ مِمَّنْ يَقْرَأُ كِتَابًا، وَيَخْطُ حُرُوفًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ أَيُّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَكَانَ لَهُمْ فِي ارْتِبَائِهِمْ مُعَلَّقٌ،
وَقَالُوا الَّذِي نَجِدُهُ فِي كُتُبِنَا أَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ وَلَيْسَ بِهِ . قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَجِدُونَ
فِي كُتُبِهِمْ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا يَخْطُ وَلَا يَقْرَأُ، فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ؛ قَالَ التَّحَّاسُ: دَلِيلًا عَلَى
بُؤْتِهِ لِقُرَيْشٍ، لِأَنَّهُ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ وَلَا يَخَالِطُ أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ أَهْلَ الْكِتَابِ فَجَاءَهُمْ بِأَخْبَارِ
الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَّمِ، وَزَالَتْ الرِّيبَةُ وَالشَّكُّ .

الثَّابِتُ: ذَكَرَ التَّفَاشُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: مَا مَاتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى كَتَبَ. وَأَسْنَدٌ أَيْضًا حَدِيثُ أَبِي كَبْشَةَ السُّلُوِّيِّ؛ مُضْمَنَةً: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَرَأَ صَحِيفَةً لِعِيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ، وَأَخْبَرَ بِمَعْنَاهَا. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَهَذَا كُلُّهُ ضَعِيفٌ، وَقَوْلُ الْبَاجِي رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْهُ.

قُلْتُ: وَقَعَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ فِي صَلَاحِ الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لِعَلِيٍّ: أَكْتُبُ الشَّرْطَ بَيْنَنَا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ الْمُشْرِكُونَ: لَوْ تَعَلَّمَ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ تَابَعْنَاكَ - وَفِي رِوَايَةِ بَايَعْنَاكَ - وَلَكِنْ أَكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَأَمَرَ عَلِيًّا أَنْ يَمْحُوَهَا، فَقَالَ عَلِيٌّ: وَاللَّهِ لَا أَمْحَاهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرِنِي مَكَاتَهَا، فَأَرَاهُ فَمَحَاهَا وَكَتَبَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ. قَالَ عَلَمًاؤُنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: وَظَاهِرٌ هَذَا أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَحَا تِلْكَ الْكَلِمَةَ الَّتِي هِيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِيَدِهِ، وَكَتَبَ مَكَاتَهَا ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِأَظْهَرٍ مِنْ هَذَا. فَقَالَ: فَآخَذَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْكِتَابَ فَكَتَبَ. وَزَادَ فِي طَرِيقٍ أُخْرَى: وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُكْتُبَ. فَقَالَ جَمَاعَةٌ، بِجَوَازِ هَذَا الظَّاهِرِ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ كَتَبَ بِيَدِهِ، مِنْهُمْ السَّمَنَانِيُّ وَأَبُو ذَرٍّ وَالْبَاجِي، وَرَأَوْا أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ قَادِحٍ فِي كَوْنِهِ أُمِّيًّا، وَلَا مُعَارِضَ بِقَوْلِهِ: وَمَا كُنْتُ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ، وَلَا بِقَوْلِهِ: إِنَّ أُمَّهُ أُمِّيَّةٌ لَا نُكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ، بَلْ رَأَوْهُ زِيَادَةً فِي مُعْجَزَاتِهِ، وَاسْتَظْهَرًا عَلَى صِدْقِهِ وَصِحَّةِ رِسَالَتِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَتَبَ عَنْ غَيْرِ تَعَلُّمٍ لِكِتَابَةٍ، وَلَا تَعَاطٍ لِأَسْبَابِهَا، وَإِنَّمَا أُجْرِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِهِ وَقَلَمِهِ حَرَكَاتٌ كَانَتْ عَنْهَا خُطُوطٌ مَفْهُومَهَا ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ لَمَنْ قَرَأَهَا، فَكَانَ ذَلِكَ خَارِقًا لِلْعَادَةِ، كَمَا أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَّمَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ غَيْرِ تَعَلُّمٍ وَلَا أَكْسَابٍ، فَكَانَ ذَلِكَ أَنْبَغَ مُعْجَزَاتِهِ، وَأَعْظَمَ فَضَائِلِهِ. وَلَا يُزُولُ عَنْهُ اسْمُ الْأُمِّيِّ بِذَلِكَ، وَلِذَلِكَ قَالَ الرَّاوي

عَنْهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ: وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يَكْتُبَ . فَبَقِيَ عَلَيْهِ اسْمُ الْأُمِّيِّ مَعَ كَوْنِهِ قَالَ: كَتَبَ . قَالَ شَيْخُنَا أَبُو
 الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ: وَقَدْ أَنْكَرَ هَذَا كَثِيرٌ مِنْ مُتَقَهِّهِ الْأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهِمْ، وَشَدَّدُوا التَّكْيِيرَ فِيهِ، وَنَسَبُوا
 قَائِلَهُ إِلَى الْكُفْرِ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ الْعُلُومِ النَّظَرِيَّةِ، وَعَدَمِ التَّوَقُّفِ فِي تَكْفِيرِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَتَفَنَّنُوا،
 لِأَنَّ تَكْفِيرَ الْمُسْلِمِ كَقْتْلِهِ عَلَى مَا جَاءَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الصَّحِيحِ، لَا سَيِّمًا رَمَى مِنْ شَهِدٍ لَهُ أَهْلُ
 الْعَصْرِ بِالْعِلْمِ وَالْفُضْلِ وَالْإِمَامَةِ، عَلَى أَنَّ الْمَسْأَلَةَ لَيْسَتْ قَطْعِيَّةً، بَلْ مُسْتَنْدَها ظَوَاهِرُ أَخْبَارِ أَحَادٍ
 صَحِيحَةٍ، غَيْرُ أَنَّ الْعَقْلَ لَا يَجِيهَهَا، وَلَيْسَ فِي الشَّرِيعَةِ قَاطِعٌ يُحِيلُ وَقُوعَهَا .

قُلْتُ: وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ قَالِ هِيَ آيَةٌ خَارِقَةٌ، فَيَقَالُ لَهُ: كَانَتْ تَكُونُ آيَةً لَا تُشْكِرُ لَوْلَا أَنَّهَا مُنَاقِضَةٌ
 لِآيَةِ أُخْرَى وَهِيَ كَوْنُهُ أُمِّيًّا لَا يَكْتُبُ، وَبِكُونِهِ أُمِّيًّا فِي أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ قَامَتْ الْحُجَّةُ، وَأُفْجِمَ الْجَاحِدُونَ،
 وَأَنْحَسَمَتِ الشُّبُهَةُ، فَكَيْفَ يُطْلَقُ اللَّهُ تَعَالَى يَدَهُ فَيَكْتُبُ وَتَكُونُ آيَةٌ . وَإِنَّمَا الْآيَةُ إِلَّا يَكْتُبُ، وَالْمُعْجَزَاتُ
 يَسْتَحِيلُ أَنْ يَدْفَعَ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَإِنَّمَا مَعْنَى كَتَبَ وَأَخَذَ الْقَلَمَ، أَيُّ أَمْرٍ مَنْ يَكْتُبُ بِهِ مِنْ كِتَابِهِ، وَكَانَ مِنْ
 كِتَابِهِ الْوَحْيِ بَيْنَ يَدَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سِتَّةَ وَعِشْرُونَ كَاتِبًا .

الثَّالِثَةُ - ذَكَرَ الْقَاضِي عِيَاضٌ عَنْ مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ:
 أَلِقِ الدَّوَاةَ وَحَرَفِ الْقَلَمَ وَأَقِمِ الْبَاءَ وَفَرِّقِ السِّينَ، وَلَا تُعَوِّرِ الْمِيمَ، وَحَسِّنِ اللَّهُ، وَمُدِّ الرَّحْمَنَ، وَجَوِّدِ
 الرَّحِيمَ . قَالَ الْقَاضِي: وَهَذَا وَإِنْ لَمْ تَصِحَّ الرِّوَايَةُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَتَبَ، فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَرُزِقَ
 عُلْمَ هَذَا، وَيُمْنَعُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ .

قُلْتُ: هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي الْبَابِ أَنَّهُ مَا كَتَبَ وَلَا حَرْفًا وَاحِدًا، وَإِنَّمَا أَمْرٌ مَنْ يَكْتُبُ وَكَذَلِكَ مَا قَرَأَ وَلَا
 تَهَجَّى . فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ تَهَجَّى النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ ذَكَرَ الدَّجَالَ، فَقَالَ: مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ

ك ا ف ر، وَقُلْتُمْ إِنَّ الْمُعْجِزَةَ قَائِمَةٌ فِي كَوْنِهِ أُمِّيًّا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا كُنْتُ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابِ، الْآيَةَ. وَقَالَ: أَنَا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكُتُّ وَلَا نَحْسُبُ. فَكَيْفَ هَذَا؟ فَالْجَوَابُ مَا نَصَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي حَدِيثِ حُدَيْفَةَ، وَالْحَدِيثُ كَالْقُرْآنِ يُفَسَّرُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. فَفِي حَدِيثِ حُدَيْفَةَ: يَتْرَاهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ، فَقَدْ نَصَّ فِي ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ الْكِتَابِ مِمَّنْ يَكُونُ أُمِّيًّا. وَهَذَا مِنْ أَوْضَحِّ مَا يَكُونُ جَلِيًّا".

وَقَدْ ذَهَبَ "الطَّبْرَسِيُّ" فِي تَفْسِيرِهِ لِلآيَةِ الْمَذْكُورَةِ إِلَى أَنَّ الرَّسُولَ سَاوَى قَوْمِهِ فِي الْمَوْلِدِ وَالْمُنْشَأِ، لِكَيْهَ جَاءَ بِمَا عَجَزَ عَنْهُ الْآخِرُونَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَالتَّبْوَةِ، فَهُوَ أُمِّيٌّ مِثْلَهُمْ. ثُمَّ عَرَضَ رَأَى "الشَّرِيفُ الْمُرْتَضَى"، الْقَائِلُ: "هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا كَانَ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ قَبْلَ التَّبْوَةِ، فَأَمَّا بَعْدَ التَّبْوَةِ فَالَّذِي نَعْتَقْدُهُ فِي ذَلِكَ التَّجْوِيزَ، لِكَوْنِهِ عَالِمًا بِالْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ وَالتَّجْوِيزَ لِكَوْنِهِ غَيْرَ عَالِمٍ بِهِمَا مِنْ يَخْرُ قَطْعَ عَلَى أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ. وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنَّ التَّنْفِيَّ قَدْ تَعَلَّقَ بِمَا قَبْلَ التَّبْوَةِ دُونَ مَا بَعْدَهَا، وَإِلَّا نِ التَّعْلِيلِ فِي الْآيَةِ يَقْتَضِي اخْتِصَاصَ التَّنْفِيِّ بِمَا قَبْلَ التَّبْوَةِ، لِأَنَّ الْمُبْطِلِينَ إِنَّمَا يَرْتَابُونَ فِي بُبُوْتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَوْ كَانَ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ قَبْلَ التَّبْوَةِ. فَأَمَّا بَعْدَ التَّبْوَةِ، فَلَا تَعَلُّقَ لَهُ بِالرِّيْبَةِ وَالتُّهْمَةِ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ تَعَلَّمَهَا مِنْ جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَعْدَ التَّبْوَةِ".

وَتَعَرَّضَ "الْجَاحِظُ" لِهَذَا الْمَوْضُوعِ أَيْضًا، فَقَالَ نَقْلًا عَنْ كَلَامِ شَيْخٍ مِنَ الْبَصْرِيِّينَ، "أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا جُعِلَ نَبِيَّهُ أُمِّيًّا لَا يَكُتُّ وَلَا يُحْسِبُ وَلَا يُنْسَبُ، وَلَا يُفْرَضُ الشَّعْرُ، وَلَا يَتَكَلَّفُ الْخُطَابَةَ، وَلَا يُعَمِّدُ الْبَلَاغَةَ، لِيُتَفَرَّدَ اللَّهُ بِتَعْلِيمِهِ الْفَنِّ وَأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَيَقْصُرُهُ عَلَى مَعْرِفَةِ مَصَالِحِ الدِّينِ دُونَ مَا تَبَاهَى بِهِ الْعَرَبُ، مِنْ قِيَاةِ الْأَثَرِ وَالْبَشْرِ، وَمِنْ الْعِلْمِ بِالْأَنْوَاءِ وَبِالْخَيْلِ، وَبِالْإِنْسَابِ وَبِالْأَخْبَارِ، وَتَكَلَّفَ قَوْلَ الْأَشْعَارِ، لِيَكُونَ إِذَا جَاءَ بِالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، وَتَكَلَّمَ بِالْكَلَامِ الْعَجِيبِ، كَانَ ذَلِكَ أَدْلُ عَلَى أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ".

وَزَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَمْنَعَهُ مَعْرِفَةَ آدَابِهِمْ وَإِخْبَارِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ لِيَكُونَ أَنْقَصَ حَظًّا مِنَ الْحَاسِبِ
الْكَاتِبِ، وَمَنْ الْخَطِيبِ النَّاسِبِ، وَلَكِنْ لِيَجْعَلَهُ نَبِيًّا، وَلِيَتَوَلَّى مِنْ تَعْلِيمِهِ مَا هُوَ أَرْكَى وَأَتَمَّى. فَإِنَّمَا نَقَصَهُ
لِيَزِيدَهُ، وَمَنْعَهُ لِيُعْطِيَهُ، وَحَجَبَهُ عَنِ الْقَبَائِلِ لِيُخْلِي لَهُ الْكَثِيرَ".

وَقَدْ رَدَّ "الْبَاحِظُ" عَلَى كَلَامِهِ هَذَا، بِقَوْلِهِ: "وَقَدْ أَخْطَأَ هَذَا الشَّيْخُ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْخَيْرَ. وَقَالَ بِمَنْبَغِ عِلْمِهِ
وَمُنْتَهَى رَأْيِهِ. وَلَوْ زَعَمَ أَنَّ أَدَاةَ الْحِسَابِ وَالْكِتَابَةِ، وَأَدَاةَ قَرْضِ الشَّعْرِ وَرَوَايَةِ جَمِيعِ النَّسَبِ، قَدْ كَانَتْ
فِيهِ تَامَّةٌ وَافِرَةٌ، وَمُجْتَمِعَةٌ كَامِلَةٌ، وَلَكِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَرَفَ تِلْكَ الْقُوَى وَتِلْكَ الْإِسْطَاعَةَ إِلَى مَا
هُوَ أَرْكَى بِالنُّبُوَّةِ، وَأَشْبَهَ بِمَرْتَبَةِ الرِّسَالَةِ، وَكَانَ إِذَا احتَاجَ إِلَى الْبَلَاغَةِ كَانَ أَبْلَغَ الْبُلْغَاءِ، وَإِذَا احتَاجَ إِلَى
الْخُطَابَةِ كَانَ أَحْطَبَ الْخُطَبَاءِ، وَأَنْسَبُ مِنْ كُلِّ نَاسِبٍ، وَأَقْوَفُ مِنْ كُلِّ قَائِفٍ، وَلَوْ كَانَ فِي ظَاهِرِهِ،
وَالْمَعْرُوفُ مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ كَاتِبٌ حَاسِبٌ، وَشَاعِرٌ نَاسِبٌ، وَمَقْرَسٌ قَائِفٌ، ثُمَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ بُرْهَانَاتِ الرِّسَالَةِ
وَعَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ، مَا كَانَ ذَلِكَ بِمَنْعٍ مِنْ وُجُوبِ تَصَدِيقِهِ، وَلِزُومِ طَاعَتِهِ، وَالْإِتْقَانِ لِأَمْرِهِ عَلَى سَخَطِهِمْ
وَرِضَاهُمْ، وَمَكْرُوهُمْ وَمَحْبُوبِهِمْ. وَلَكِنَّهُ أَرَادَ إِلَّا يَكُونُ لِلشَّاعِبِ مُتَعَلِّقٌ عَمَّا دَعَا إِلَيْهِ حَتَّى لَا يَكُونَ دُونَ
الْمَعْرِفَةِ بِحَقِّهِ حِجَابٌ وَأَنْ رِقٌّ، وَلِيَكُونَ ذَلِكَ أَحْفَ فِي الْمُؤْنَةِ، وَأَسْهَلُ فِي الْمِحْنَةِ. فَلِذَلِكَ صُرِفَ
نَفْسُهُ عَنِ الْأُمُورِ الَّتِي كَانُوا يَتَكَلَّفُونَهَا وَيَتَنَافَسُونَ فِيهَا، فَلَمَّا طَالَ هِجْرَانُهُ لِقَرْضِ الشَّعْرِ وَرَوَايَتِهِ، صَارَ
لِسَانُهُ لَا يَنْطَلِقُ بِهِ، وَالْعَادَةُ تَوَامِ الطَّبِيعَةِ. فَأَمَّا فِي غَيْرِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ إِذَا شَاءَ كَانَ أَنْطِقَ مِنْ كُلِّ مَنْطِقٍ،
وَأَنْسَبُ مِنْ كُلِّ نَاسِبٍ، وَأَقْوَفُ مِنْ كُلِّ قَائِفٍ. وَكَانَتْ إِلَيْهِ أَوْفَرُ وَأَدَاتِهِ أَكْمَلُ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَتْ مَصْرُوفَةً إِلَى
مَا هُوَ أَرْدُ.

وَبَيَّنَ أَنْ نَضِيفَ إِلَيْهِ الْعَجْزُ، وَبَيَّنَ أَنْ نَضِيفَ إِلَيْهِ الْعَادَةَ الْحَسَنَةَ وَامْتِنَاعَ الشَّيْءِ عَلَيْهِ مِنْ طَوْلِ الْهَجْرَانِ لَهُ، فَزَقَ.

وَمِنْ الْعَجَبِ أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ لَمْ يَرَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَالِ مُعْجَزَةٍ قَطُّ، بَلْ لَمْ يَرَهُ إِلَّا وَهُوَ أَنْ أُطَالَ الْكَلَامَ قَصَرَ عَنْهُ كُلُّ مُطِيلٍ، وَإِنْ قَصَرَ الْقَوْلُ أَتَى عَلَى غَايَةِ كُلِّ خَطِيبٍ، وَمَا عَدِمَ مِنْهُ إِلَّا الْخَطَّ وَإِقَامَةَ الشَّعْرِ، فَكَيْفَ ذَهَبَ ذَلِكَ الْمَذْهَبُ، وَالظَّاهِرُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ خِلَافَ مَا تَوَهَّمُ!؟".
فَهَذَا هُوَ رَأْيُ الْجَاحِظِ فِي أُمَّيَّةِ الرَّسُولِ (ص) .

وَأَمَّا حَدِيثُ: "إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ"، فَيَعَارِضُهُ حَدِيثُ آخَرَ يُنْسَبُ إِلَى الرَّسُولِ هُوَ: "قُرَيْشٌ أَهْلُ اللَّهِ، وَهُمْ الْكُتْبَةُ الْحُسْبَةُ". "وَبِقَالَ قُرَيْشٍ أَهْلُ اللَّهِ، لِأَنَّهُمْ كَتَبَهُ حِسْبَةً". وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ نَفْسِهِ، يَفْتَدِ أَنْ قُرَيْشًا لَمْ يَكُونُوا يُحْسِنُونَ الْكِتَابَ أَوْ الْحِسَابَ، لِمَا فِيهِ مِنْ آيَاتٍ تَنَاقُضُ هَذَا الرَّأْيَ. وَفِي الْحَدِيثِ، أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ يَجِبُ عَدَمُ الْأَخْذِ بِهَا، لِأَنَّهَا ضَعِيفَةٌ، وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ الْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ وَاحِدٍ مِنْهَا. وَمِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ، حَدِيثُ: "حَقَّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ إِنْ يَعْلَمُهُ الْكِتَابَةَ وَالسَّبَاحَةَ، وَالرَّيْمَانَةَ، وَأَنْ لَا يَرْزُقَهُ إِلَّا طَيِّبًا"، وَحَدِيثُ: "حَقَّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ إِنْ يُحْسِنَ اسْمَهُ، وَيَرْزُقُهُ إِذَا أُذْرَكَ، وَيَعْلَمُهُ الْكِتَابَ". وَالْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يَرْجِعُ سَنَدُهَا إِلَى "أَبِي هُرَيْرَةَ" وَفِي الْأَحَادِيثِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ يَجِبُ عَدَمُ الْأَخْذِ بِهَا.

وَلَوْ أَخَذْنَا بِالْحَدِيثِ عَلَى عِلَاتِهِ، وَقَبَلْنَاهُ دُونَ نَقْدِهِ، كَمَا يُفْعَلُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَجَبَ عَلَيْنَا الْقَوْلُ أَنَّ الرَّسُولَ كَانَ يُقْرَأُ وَيَكْتُبُ. وَرَدَ: "وَذَكَرَ صَاحِبُ الشَّرْعَةِ أَيْضًا، أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لِمَعَاوِيَةَ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ يَكْتُبُ بَيْنَ يَدَيْهِ: أَلْتِ الدَّوَاةَ، وَحَرَفَ الْقَلَمَ، وَأَنْصَبَ الْبَاءَ، وَفَرَّقَ السَّيْنَ، وَلَا تُعْوِرِ
 الْمِيمَ، وَحَسَّنَ اللَّهُ، وَمَدَّ الرَّحْمَنَ، وَجَوَّدَ الرَّحِيمَ"، وَأَنَّهُ قَالَ "لِزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ" وَهُوَ أَحَدُ كِتَابِهِ: "إِذَا كُتِبَتْ
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَبِينَ السَّيْنِ فِيهِ"، فَهَلْ يَعْقِلُ صُدُورِ هَذَا الْوَصْفِ، وَهَذِهِ التَّسْمِيَةُ لِلْحُرُوفِ،
 وَهَذِهِ الْمُصْطَلَحَاتُ مِنْ رَجُلٍ أُمِّيٍّ، لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ. وَقَدْ رُوِيَ الرَّوَاةُ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ مَعَ تَعَارُضِهِمَا
 لِأَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ، وَرَوَوْا أَيْضًا أَنَّ "أَبَا ذَرٍّ" الْغِفَارِيَّ سَأَلَ الرَّسُولَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّ نَبِيِّ مُرْسَلٍ بِهِ
 يُرْسَلُ؟ قَالَ: بِكِتَابٍ مُنْزَلٍ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ كِتَابٍ أَنْزَلَ عَلَى آدَمَ؟ قَالَ: أَب ت ت ح إِلَى
 آخِرِهِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ حَرْفٍ؟ قَالَ: تِسْعٌ وَعِشْرُونَ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَدَدَتْ تَمَائِيَةَ
 وَعِشْرِينَ، فَيَغْضِبُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، وَالَّذِي
 بَعَثَنِي بِالْحَقِّ نَبِيًّا! مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى آدَمَ إِلَّا تِسْعَةً وَعِشْرِينَ حَرْفًا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِيهَا أَلِفٌ
 وَوَاوٌ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَأَمِ أَلِفٌ حَرْفٌ وَاحِدٌ، أَنْزَلَهُ عَلَى آدَمَ فِي صَحِيفَةٍ وَاحِدَةٍ، وَمَعَهُ سَبْعُونَ أَلِفًا
 مَلِكًا. مِنْ خَالَفَ لَامَ أَلِفٍ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى آدَمَ! وَمَنْ لَمْ يَعُدْ لَامَ أَلِفٍ فَهُوَ بَرِيءٌ مِنِّي وَأَنَا بَرِيءٌ
 مِنْهُ! وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْحُرُوفِ، وَهِيَ تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا لَا يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ أَبَدًا". وَبَعْدَ فَهَلْ نَقْبَلُ
 بِحَدِيثٍ مِنْ هَذَا التَّنَوُّعِ، وَكُلُّ مَا فِيهِ يُطْعَنُ فِي صِحَّتِهِ!

وَيُظْهِرُ صَرَاخَةَ مِنَ الْآيَةِ: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْفٍ ضَلَالٍ مُبِينٍ"، أَنَّ مُرَادَهَا مِنَ الْأُمِّيِّينَ، لَيْسَ الْجَهْلُ بِالْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ،
 وَإِنَّمَا الْعَرَبُ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ كِتَابٌ مُنْزَلٌ مِنَ السَّمَاءِ. وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا أوردَهُ "الطَّبْرِيُّ" فِي تَفْسِيرِهَا
 مِنْ أَقْوَالِ وَرَوَايَاتٍ. فَقَدْ قَالَ: "وَالْأُمِّيُّونَ هُمُ الْعَرَبُ"، قَالَ "قَتَادَةُ": "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا"

مِنْهُمْ . قَالَ : كَانَ هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْعَرَبِ أُمَّةً أُمِّيَّةً لَيْسَ فِيهَا كِتَابٌ يُقْرَأُ ، فَبَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، رَحْمَةً وَهُدًى يَهْدِيهِمْ بِهِ ، " وَقَالَ : " كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ أُمِّيَّةً لَا يُقْرَأُونَ كِتَابًا " ، وَقَالَ : " إِنَّمَا سُمِّيَتْ أُمَّةً مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأُمِّيِّينَ لِأَنَّهُ لَمْ يُنَزَلْ عَلَيْهِمْ كِتَابًا " ، وَقَوْلُهُ : " وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ . يَقُولُ وَيُعَلِّمُهُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَمَا فِيهِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ وَشَرَائِعِ دِينِهِ ، وَالْحِكْمَةَ يَعْنِي بِالْحِكْمَةِ السَّنَنِ " .

وَقَالَ : " وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ أَيْضًا ، كَمَا عَلَّمَ هَؤُلَاءِ . يُرَكِّبُهُم بِالْكِتَابِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ كَمَا صَنَعَ بِالْأَوَّلِينَ " ، وَقَالَ فِي تَفْسِيرِهِ " وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ ، وَقَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْأُمِّيُّونَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ فِي جَوْرِ عَنِ قَصْدِ السَّبِيلِ وَأَخَذَ عَلَى غَيْرِ هُدًى مُبِينٍ ، يَقُولُ يُبَيِّنُ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ إِنَّهُ ضَلَالٌ وَجَوْرٌ عَنِ الْحَقِّ وَطَرِيقِ الرُّشْدِ " . وَقَالَ " ابْنُ كَثِيرٍ " فِي تَفْسِيرِهَا : " وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا قَدِيمًا مَتَمَسِّكِينَ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْدَلُوهُ وَغَيَّرُوهُ وَقَلَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ ، وَاسْتَبَدَلُوا بِالتَّوْحِيدِ شِرْكًَا وَبِالْيَقِينِ شَكًّا . . . فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِشَرَعٍ عَظِيمٍ كَامِلٍ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ ، فِيهِ هِدَايَتُهُ وَالْبَيَانُ لِجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، مِنْ أَمْرِ مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ " . وَقَالَ " التُّرْطُبِيُّ " : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْأُمِّيُّونَ الْعَرَبَ كُلَّهُمْ ، مِنْ كُتِبَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُكْتُبْ ، لِأَنَّهُمَا لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ " .

فَالْأُمِّيُّونَ إِذْ هُمْ الْعَرَبُ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ شِرْكَ ، وَلَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ ، وَلَيْسَ لِلْفِطْهَةِ صَلَاةٌ بِالْأُمَّةِ الَّتِي تَعْنِي الْجَهْلُ بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ .

وَأَمَّا حَدِيثُ: " إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ . الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا : مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ " . وَقَدْ نَسَبَ سَنَدَهُ إِلَى "ابْنِ عُمَرَ" ، فَحُكْمُهُ حُكْمُ الْحَدِيثِ السَّابِقِ ، وَقَدْ فَسَّرَ الْحِسَابَ ، بِأَنَّهُ حِسَابُ النُّجُومِ وَتَسْيِيرِهَا ، لَا الْجَهْلُ بِالْحِسَابِ .

وَقَدْ ذَهَبَ "شِبْرَنْكِر" إِلَى أَنَّ الرَّسُولَ كَانَ يُقْرَأُ وَيَكْتُبُ ، وَأَنَّهُ قَرَأَ "أَسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ" ، وَ "شِبْرَنْكِر" مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ الْعَاطِفِينَ ، الَّذِينَ يَأْخُذُونَ بِالْخَبَرِ ، مَهْمَا كَانَ شَأْنُهُ فَيَبْنِي حُكْمًا عَلَيْهِ .

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ إِلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْأُمِّيَّةِ هُنَا الْوَثْنِيُّونَ . وَإِنَّ الْأُمِّيَّةَ هَذِهِ أُخِذَتْ مِنَ

الْيَهُودِ

وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ لَفْظَةَ "أُمِّي" وَ "أُمِّيَّةٌ" لَمْ تَكُنْ تَعْنِي عِنْدَ الْجَاهِلِيِّينَ مَعْنَى عَدَمِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالْجَهْلَ بِهِمَا ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَعْنِي عِنْدَهُمْ : مُشْرِكِينَ وَوَثْنِينَ ، وَهُوَ الْمَعْنَى الَّذِي وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . وَالَّذِي تَعَتْ الرَّسُولُ فِيهِ بِالْأُمِّيِّ ، لِأَنَّهُ مِنَ الْعَرَبِ ، وَمِنْ قَوْمٍ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ ، عُرِفُوا بِذَلِكَ مِنْ قَبْلِ أَهْلِ الْكِتَابِ الْيَهُودِ .

أَمَّا تَفْسِيرُهَا بِالْجَهْلِ بِالْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ ، فَقَدْ وَقَعَ فِي الْإِسْلَامِ ، أَخْذُوهُ مِنْ ظَاهِرِ مَعْنَى لَفْظِهِ "الْكِتَابُ" الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ ، فَظَنُّوا أَنَّهَا تَعْنِي "الْكِتَابَةَ" بَيْنَمَا الْمُرَادُ مِنْهَا الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ ، لِعَدَمِ انْسِجَامِ تَفْسِيرِهَا بِالْكِتَابَةِ مَعَ مَعْنَى الْآيَةِ ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا فَسَّرُوا "الْأُمِّيَّةَ" بِمَعْنَى عَدَمِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ حَارَوُا فِي إِجَادِ مَخْرَجٍ لِهَذَا التَّفْسِيرِ ، فَقَالُوا مَا قَالُوهُ فِي تَفْسِيرِهَا مِنْ أَنَّهَا سُمِّيَتْ بِالْأُمِّيَّةِ لِأَنَّهَا عَلَى خَلْقِهِ الْأُمَّةُ ، أَوْ لِأَنَّهَا عَلَى الْجِبَلَةِ وَالْفُطْرَةِ ، وَأَصْلُ وِلَادَةِ الْأُمَّهَاتِ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ مِنْ تَفَاسِيرٍ مُضْطَرِبَةٍ بَارِدَةٍ ، تُخْبِرُ أَنَّ عُلَمَاءَ اللُّغَةِ لَمْ يَجِدُوا لَهَا أَصْلًا وَوُجُودًا عِنْدَ الْجَاهِلِيِّينَ فَجَاوَأُوا إِلَى هَذِهِ التَّعْلِيلَاتِ . وَلَوْ كَانَتْ الْأُمِّيَّةُ مَعْرُوفَةً عِنْدَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ بِهَذَا الْمَعْنَى لَأَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهَا بِشَعْرِ مِنْ أَشْعَارِ الْجَاهِلِيِّينَ أَوْ الْمُخَضَّرِينَ ، وَلَمَّا

لَجَاوَا إِلَى هَذِهِ التَّفَاسِيرِ الْمُتَكَفِّهَةِ، لِأَنَّ مَنْ عَادَتْهُمْ الْإِسْتِشْهَادُ بِالشَّعْرِ فِي تَفْسِيرِ الْأَلْفَاظِ، وَلَا سِيَّامَا
الْأَلْفَاظِ الْغَرِيبَةِ، فَعَدِمَ اسْتِشْهَادِهِمْ بِشَاهِدٍ مِنْ شَعْرٍ أَوْ نَثْرٍ فِي تَفْسِيرِ الْأُمِّيَّةِ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّفْظَةَ بِهَذَا
التَّفْسِيرِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي وَلَدَتْ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ عَرَبِيَّةً خَالِصَةً، وَإِنَّمَا سَمِعُوهَا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ.

وَعِنْدِي أَنَّ يَهُودَ يَثْرَبَ هُمْ الَّذِينَ أَطْلَقُوا لَفْظَهُ "الْأُمِّيِّينَ" عَلَى الْعَرَبِ الْمُشْرِكِينَ، عَلَى عَادَتِهِمْ حَتَّى هَذَا
الْيَوْمِ فِي نَعْتِ الْغُرَبَاءِ عَنْهُمْ بِالْفَاظِ خَاصَّةً مِثْلَ "كُؤَيْمٍ"، لِتَمْيِيزِهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، بِإِعْتِبَارِهِمْ "شَعْبَ اللَّهِ
الْمُخْتَارِ" الْمُؤْمِنِ بِآلَةِ إِسْرَائِيلِ.

وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هَذَا الرَّأْيَ، أَنَّنَا نَطْلُقُ فِي عَرَبِيَّتِنَا لَفْظَةَ "الْأُمِّيِّ" عَلَى مَنْ لَا يُعْرِفُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ مَعًا، بَيْنَمَا
نَطْلُقُ عَلَى الشَّخْصِ الَّذِي يُحْسِنُ الْقِرَاءَةَ وَلَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ قَارِيءًا، أَوْ قَارِئَةً، وَذَلِكَ لِوُجُودِ جَمَاعَةٍ كَانُوا
يُحْسِنُونَ الْقِرَاءَةَ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَكْتُبُونَ.

وَنَجِدُ الْيَوْمَ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ يُحْسِنُ الْقِرَاءَةَ وَلَا يَكْتُبُنَ، وَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى الرَّسُولِ: بِأَقْرَأَ، قَالَ الرَّسُولُ: مَا
أَنَا بِقَارِيءٍ، أَوْ لَسْتُ بِقَارِيءٍ، وَلَمْ يَقُلْ: أَنَا أُمِّي، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأُمِّيَّةَ إِنَّمَا صَارَتْ تُعَبَّرُ عَنْ عَدَمِ
الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ فِيمَا بَعْدُ.

ثُمَّ إِنَّمَا لَا نَجِدُ فِي اللُّغَاتِ الْقَدِيمَةِ لَفْظَةً وَاحِدَةً فِي مَعْنَى "الْأُمِّيَّةِ" الَّتِي نَسْتَعْمِلُهَا فِي عَرَبِيَّتِنَا فِي الْوَقْتِ
الْحَاضِرِ، أَيِّ فِي مَعْنَى الْجَهْلِ بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ مَعًا، وَإِنَّمَا يُقَالُ لَا يَقْرَأُ أَوْ لَا يَكْتُبُ، أَوْ يُجْهَلُ الْقِرَاءَةَ
وَالْكِتَابَةَ، فَلَا يُعْقَلُ خُرُوجُ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ. وَاسْتَعْمَالُهَا الْأُمِّيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ مُصْطَلَحًا لِلتَّبَعِيرِ عَنْ

الْجَهْلُ بِالْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ مَعًا . وَلَمْ أَغْتَرِ فِي التَّنُصُوصِ الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى هَذِهِ اللَّفْظَةِ أَوْ عَلَى لَفْظِهِ أُخْرَى
تُؤَدِّي هَذَا الْمَعْنَى .

وَلَا يَعْغِلُ أَنَّ يَكُونَ الْيَهُودُ أَوْ غَيْرِهِمْ قَدْ أَطْلَقُوا الْأُمِّيَّةَ عَلَى الْعَرَبِ، بِسَبَبِ جَهْلِ الْعَرَبِ الْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ .
فَقَدْ كَانَ سَوَادُ يَهُودِ وَنَصَارَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ أُمِّيًّا أَيْضًا، لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، إِلَّا أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ أَخْرَجَهُمْ
مِنُ الْأُمِّيِّينَ، وَاسْتَنْتَاهُمْ، وَأَطْلَقَ عَلَيْهِمْ "أَهْلَ الْكِتَابِ"، وَذَلِكَ يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ
"الْأُمِّيِّينَ" الْعَرَبِ الَّذِينَ لَهُمْ كِتَابٌ، أَيُّ الْعَرَبِ الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا يَهُودًا وَلَا نَصَارَى لَا مِنْ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ
وَالْقِرَاءَةَ . وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ الَّذِي هَدَانَا إِلَى لَفْظَةِ "الْأُمِّيِّينَ" فَلَمْ تُرَدِّ اللَّفْظَةُ فِي نَصِّ مَنْ نُصُوصِ
الْجَاهِلِيَّةِ، وَبِفَضْلَةٍ أَيْضًا عَرَفْنَا مُصْطَلَحَ "أَهْلِ الْكِتَابِ" دَلَالَةً عَلَى أَهْلِ الدِّيَانَتَيْنِ .

وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَثْبِتَ هِنَا أَنَّ الْعَرَبَ قَاطِبَةً كَانَتْ أُمَّةً قَارِئَةً كَاتِبَةً، جَمَاعِيًّا يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ، وَأَنَّهَا كَانَتْ ذَاتَ
مَدَارِسٍ مُنْتَشِرَةً فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنْ جَزِيرَتِهِمْ،

تُعَلِّمُ النَّاسَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ وَالْعُلُومَ الشَّاعِرَةَ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ، فَقَوْلٌ مِثْلُ هَذَا هُوَ هَرَاءٌ، مَا فِي ذَلِكَ شَكٌّ،
وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَدَّعِيَهُ أَحَدٌ ثُمَّ إِنَّ شُبُوحَ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ بِالْمَعْنَى الْمَفْهُومِ عِنْدَنَا، لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا حَتَّى عِنْدَ
أَرْقَى الشُّعُوبِ إِذْ ذَاكَ مِثْلُ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ وَالسَّاسَانِيِّينَ فِي عَالَمِ ذَلِكَ الْعَهْدِ . فَسَوَادُ كُلِّ الْأُمَّةِ كَانَ
جَاهِلًا لَا يُحْسِنُ قِرَاءَةَ وَلَا كِتَابَةَ، وَإِنَّمَا كَانَتْ الْقِرَاءَةُ وَالْكِتَابَةُ فِي الْخَاصَّةِ وَفِي أَصْحَابِ الْمَوَاهِبِ،
وَالْقَابِلِيَّاتِ الَّذِينَ تَدْفَعُهُمْ مَوَاهِبُهُمْ وَنُفُوسُهُمْ عَلَى التَّعَلُّمِ وَالتَّحْقِيقِ وَتَرْغَمُ الْحَرَكَةَ الْفِكْرِيَّةَ بَيْنَ أَتْبَاءِ
جِسْمِهِمْ . وَمِنْ هُنَا كَانَتْ كُلُّ الْأُمَّةِ مِنْ حَيْثُ الْأَكْثَرِيَّةِ وَالْغَالِبِيَّةِ، إِنَّمَا اخْتَلَفَتْ فِي نَسَبِ الْمُتَعَلِّمِينَ
وَالْمُتَخَصِّصِينَ وَالْمُجْتَهِدِينَ وَدَرَجَتِهِمْ فِيهَا .

وَفِي هَذَا تَبَايُنٍ وَتَخْتَلَفُ أَيْضًا، فَقَدْ كَانَ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ وَالْعَالَمِ النَّصْرَانِيِّ فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى فِي الْعَهْدِ
الَّذِي قَارَبَ الْإِسْلَامَ، يَلِيهِمُ الْفَرَسُ وَالْيَهُودُ وَالنُّهُودُ. أَمَّا الْعَرَبُ، فَقَدْ كَانُوا يَبْتَائُونَ فِي ذَلِكَ أَيْضًا تَبَايُنًا
يُخْتَلَفُ بِاخْتِلَافِ أَمَاكِيهِمْ كَمَا سَابَقْنَا ذَلِكَ.

فَأَهْلُ الْبُؤَادِي، وَلَا سِيَّمَا الْبُؤَادِي النَّائِبَةُ عَنِ الْخَوَاصِرِ، هُمْ أُمَّيُونَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ شَكٍّ، لِأَنَّ طَبِيعَةَ الْبُؤَادِيَّةِ
فِي ظُرُوفِهَا الْمَعْلُومَةِ لَا تَسَاعِدُ عَلَى تَعَلُّمِ الْفِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ، وَلَا عَلَى ظُهُورِ الْعُلُومِ وَتَطْوِيرِهَا فِيهَا، غَيْرَ أَنَّنَا
لَا تَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا جَمِيعًا أُمَّيِينَ، لَا قَارِيءٍ بَيْنَهُمْ وَلَا كَاتِبٍ. فَقَدْ كَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ يَشْرَأُ وَيَكْتُبُ، بِدَلِيلِ هَذِهِ
النُّصُوصِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي عَشَرَ عَلَيْهَا مُبَعَّرَةٌ فِي مَوَاضِعٍ مُتَنَاطِرَةٍ مِنَ الْبُؤَادِي، وَفِي أَمَاكِنَ نَائِبَةٍ عَنِ
الْحَضَارَةِ. وَهِيَ كِتَابَاتُ إِعْرَابٍ وَرِعَاةِ إِبِلٍ وَبَقَرٍ وَأَعْنَامٍ، دُونِهَا تَسْجِيلًا لِخَاطِرٍ، أَوْ لِلذِّكْرِ، أَوْ رِسَالَةٍ
لَمَنْ قَدْ يَأْتِي بَيْنَهُمْ، فَيَقْفُ عَلَى أَمْرِهِمْ، وَمَنْ هُنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ إِعْرَابَ الْجَاهِلِيَّةِ، كَانُوا أَحْسَنَ حَالًا
مِنْ أَعْرَابِ هَذَا الْيَوْمِ، فَقَدْ كَانَ فِيهِمْ الْكَاتِبُ الْقَارِيءُ، الَّذِي يَهْتَمُّ بِتَسْجِيلِ خَوَاطِرِهِ، وَبِإِثْبَاتِ وُجُودِهِ
بِتَدْوِينِهِ هَذِهِ الْكِتَابَاتِ، وَإِنَّ الْأُمِّيَّةَ الْمَذْكُورَةَ لَمْ تَكُنْ أُمِّيَّةً عَامَّةً جَامِعَةً، بَلْ أُمِّيَّةٌ نَسَبِيَّةٌ، عَلَى نَحْوِ مَا
نُشَاهِدُهُ الْيَوْمَ فِي مُجْتَمَعَاتِنَا مِنْ غَلْبَةِ نَسَبَةِ الْأُمِّيَّةِ عَلَى نَسَبَةِ الْمُتَعَلِّمِينَ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْخَوَاصِرِ، فَقَدْ كَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ يَشْرَأُ وَيَكْتُبُ، كَمَا كَانَ بَيْنَهُمُ الْأُمِّيُّ أَيْ الْجَاهِلُ بِالْفِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ.
كَأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَشْرَأُ وَيَكْتُبُ بِالْقَلَمِ الْمُسْنَدِ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ مَنْ يَشْرَأُ وَيَكْتُبُ بِالْقَلَمِ الَّذِي دُونَ بِهِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمِ،
فَصَارَ الْقَلَمُ الرَّسْمِيُّ لِلْإِسْلَامِ، بِفَضْلِ تَدْوِينِ الْوَحْيِ بِهِ، كَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مَنْ يَكْتُبُ بِقَلَمِ التَّبْطِ وَيَقْلَمُ بَنِي
أَزْمَ. وَكَانَ بَيْنَهُمْ مَنْ يَكْتُبُ وَيَقْرَأُ بِقَلَمَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ.

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْأَخْنَفَ كَانُوا يَكْتُبُونَ وَيُقْرَأُونَ، وَرَأَيْنَا بَعْضًا مِنْهُمْ كَانُوا يَكْتُبُونَ بِأَقْدَامِ أُعْجَمِيَّةٍ،
وَكَانَ قَدْ وَقَفَ عَلَى كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَكَانُوا أَصْحَابَ رَأْيٍ وَمَقَالَةٍ فِي الدِّينِ وَفِي أَحْوَالِ قَوْمِهِمْ.
وَذَكَرْتُ أَنَّهُمْ قَالُوا عَنْ بَعْضِهِمْ، مِثْلُ "وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ"، أَنَّهُ كَانَ "يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ
مِنَ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ أَنْ يَكْتُبَ".

وَقَدْ ذَكَرَ "الْهُمْدَانِيُّ" أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تُسَمَّى كُلُّ مَنْ قَرَأَ الْكُتُبَ أَوْ كَتَبَ: صَابَأً، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُسَمَّى
النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيَّامَ كَانُوا يَدْعُو النَّاسَ بِمَكَّةَ وَيَتْلُو الْقُرْآنَ: صَابَأً. فَالصَّابَاءُ عَلَى تَفْسِيرِ
"الْهُمْدَانِيِّ"، هُمُ الْكُتُبَةُ وَكُلُّ مَنْ قَرَأَ الْكُتُبَ، وَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ الْحَنْفَاءُ فِي جُمْلَةِ الصَّابَاءِ.

وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ كَانَ لَدَى "الْأَكَّاسِرَةِ" دِيْوَانٌ خَاصٌّ يُدَوَّنُ فِيهِ كُلُّ مَا يُخَصُّ عَرَبَ الْحِيرَةِ وَسَائِرِ
الْعَرَبِ بِالْعَرَبِيِّ، وَيَتَوَلَّى أَيْضًا تَرْجُمَةَ كُلِّ مَا يَرُدُّ إِلَى الدَّوْلَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ إِلَى الْفَارِسِيَّةِ، وَيَتَرَجِّمُ مَا يَصْدُرُ
بِالْفَارِسِيَّةِ مِنَ الْحُكُومَةِ إِلَى الْعَرَبِ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَإِنْ فِي جُمْلَةٍ مِنْ اشْتِغَالٍ فِي هَذَا الدِّيْوَانِ وَقَامَ بِالتَّرْجُمَةِ فِيهِ
"زَيْدًا الْعَبَادِيَّ"، أبا الشَّاعِرِ الشَّهِيرِ "عَدِيَّ بْنِ زَيْدِ الْعَبَادِيِّ"، وَزَعَمَ "ابْنُ الْكَلْبِيِّ" أَنَّ مُلُوكَ الْحِيرَةِ كَانُوا
يَمْلِكُونَ دَوَائِينَ فِيهَا إِخْبَارَهُمْ وَمَقْدَارَ مَدَدِ حُكْمِهِمْ وَمَا قِيلَ فِي مَدْحِهِمْ مِنْ شَعْرِ، وَفِي خَبَرِ صَحِيفَةِ
الْمُتَمَسِّسِ وَقِرَاءَةِ أَحَدِ غُلَمَانَ الْحِيرَةِ لِلصَّحِيفَةِ الَّتِي كَانَ يَحْمِلُهَا مَا يُشِيرُ إِلَى مَعْرِفَةِ غُلَمَانَ أَهْلِ الْحِيرَةِ
الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ.

وَفِي كُلِّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ وَالْأَخْبَارِ تَفْتِيدٌ لِرُزْمٍ مِنْ ذَهَبٍ إِلَى أَنَّ الْعَرَبَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ كَانُوا جَمِيعًا فِي جَهَالَةٍ
وَأُمِّيَّةٍ.

بَلْ وَرَدَ فِي رِوَايَاتِ أَهْلِ الْأَخْبَارِ فِي تَرْجَمَةِ عَدِيِّ بْنِ زَيْدِ الْعَبَّادِيِّ الْمَذْكُورِ: أَنَّ كَانَ فِي الْحِيرَةِ مُعَلِّمُونَ،
يُعَلِّمُونَ الْأَطْفَالَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، يَذْهَبُونَ إِلَى بُيُوتِ الْأَطْفَالِ يُعَلِّمُونَهُمْ إِنْ شَاءَ أَهْلُهُمْ، أَوْ يُعَلِّمُونَهُمْ فِي
الْكَتَابِ. وَقَدْ وَرَدَ أَيْضًا: أَنَّ مِنْ الْكُتَاتِبِ مَا كَانَتْ تَعَلَّمُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَمِنْهَا مَا كَانَتْ تَعَلَّمُ بِالْفَارِسِيَّةِ.
فَكَانَ جَدُّ عَدِيِّ بْنِ زَيْدِ الْعَبَّادِيِّ مَثَلًا مِمَّنْ تَعَلَّمَ فِي دَارِ أَبِيهِ، وَخَرَجَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ فِي يَوْمِهِ "وَطَلَبَ
حَتَّى صَارَ كَاتِبَ مَلِكِ التُّعْمَانِ الْأَكْبَرِ. وَكَانَ أَبُوهُ زَيْدٌ مِمَّنْ حَذَقَ الْكِتَابَةَ وَالْعَرَبِيَّةَ، ثُمَّ عَلِمَ الْفَارِسِيَّةَ.
وَلَمَّا تَحَرَّكَ عَدِيُّ، وَأَنْفَع، طَرَحَهُ أَبُوهُ فِي الْكُتَابِ، حَتَّى إِذَا حَذَقَ أَرْسَلَهُ الْمَرْزُبَانَ مَعَ ابْنِهِ شَاهَانَ مَرَدًا
إِلَى كِتَابِ الْفَارِسِيَّةِ، فَكَانَ يَخْتَلِفُ مَعَ ابْنِهِ، وَيَتَعَلَّمُ الْكِتَابَةَ وَالْكَلَامَ بِالْفَارِسِيَّةِ، حَتَّى خَرَجَ مِنْ أَفْهَمِ النَّاسِ
بِهَا، وَأَفْصَحُهُمْ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَقَالَ الشَّعْرُ وَتَعَلَّمَ الرَّمِيَّ بِالنُّشَابِ، فَخَرَجَ مَعَ الْأَسَاوِرَةِ الرُّمَاءِ، وَتَعَلَّمَ لَعِبَ الْعَجَمِ
عَلَى الْخَيْلِ بِالصَّوَالِجَةِ وَغَيْرِهَا".

وَذَكَرَ أَهْلُ الْأَخْبَارِ أَنَّ "لَقِيَطَ بْنَ يَعْمَرَ الْإِبَادِيَّ" الشَّاعِرَ كَتَبَ صَحِيفَةً إِلَى قَوْمِهِ إِيَادَ، يُحَدِّثُهُمْ مِنْ
كِسْرَى. وَكَانَ كَاتِبًا وَمُتَرْجِمًا فِي قَصْرِ كِسْرَى، يَكْتُبُ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَمِنْ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى
الْفَارِسِيَّةِ، فَلَمَّا أَرَادَ كِسْرَى الْإِنْتِقَامَ مِنْ قَوْمِهِ، كَتَبَ إِلَيْهِمْ قَصِيدَةً فِي صَحِيفَةٍ، فِيهَا: سَلَامٌ فِي الصَّحِيفَةِ
مِنْ لَقِيَطٍ إِلَى مَنْ بِالْجَزِيرَةِ مِنْ إِيَادِ

وَذَكَرَ أَنَّ "سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ" أَرْسَلَ ابْنَهُ "الْمَرْقَشَ" الشَّاعِرَ الْمَعْرُوفَ وَأَخَاهُ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ،
فَعَلِمَهُمَا الْكِتَابَةَ، فَكَانَا يَكْتُبَانِ إِشْعَارَهُمَا، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ بِالْحَمِيرِيَّةِ، وَأَنَّهُ كَتَبَ أَبْيَاتًا بِهَا عَلَى
حَشَبِ رَحْلِ "الْعَفِيلِيِّ" الَّذِي تَرَكَهُ وَحْدَهُ لَمَّا مَرَضَ، فَلَمَّا قَرَأُوا الْكِتَابَةَ ضَرَبُوا "الْعَفِيلِيَّ" حَتَّى أَقْرَ.

وَكَانَ جُفَيْنَةَ الْعَيَّادِيَّ، وَهُوَ مِنْ نَصَارَى الْحِيرَةِ، وَظِيْرًا لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، كَاتِبًا، قَدِمَ الْمَدِينَةَ فِي عَهْدِ عُمَرَ، وَصَارَ يُعَلِّمُ الْكِتَابَةَ فِيهَا . وَقَدْ اتَّهَمَهُ "عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ" بِمَشَاغِبَةِ أَبِي لُؤْلُؤَةَ عَلَى قَتْلِ أَبِيهِ، فَقَتَلَهُ وَقَتَلَ ابْنَيْهِ .

وَلَمَّا نَزَلَ "خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ" الْأَنْبَارَ، رَأَاهُمْ يَكْتُبُونَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَيَعَلِّمُونَهَا، فَسَأَلَهُمْ: مَا أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ، نَزَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ قَبْلَنَا - فَكَانَتْ أَوْلَادُهُمْ نَزَلُوهَا أَيَّامَ بُخْتَنَصَرَ حِينَ أَنْبَحَ الْعَرَبِ، ثُمَّ لَمْ تَزَلْ عَنْهَا - فَقَالَ: مِمَّنْ تَعَلَّمْتُمُ الْكِتَابَ؟ فَقَالُوا: تَعَلَّمْنَا الْخَطَّ مِنْ إِيَادٍ، وَأَنْشَدُوهُ قَوْلَ الشَّاعِرِ: قَوْمِي إِيَادٌ لَوْ أَنْتُمْ أُمَّمٌ أَوْ لَوْ أَقَامُوا فَتَهَزَّلَ النَّعْمِ

قَوْمٌ لَهُمْ بَاحَةٌ الْعِرَاقِ إِذَا سَارُوا جَمِيعًا وَالْخَطَّ وَالْقَلَمِ

وَوَجَدَ "خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ" أَهْلَ "التَّقِيرَةِ" يَعْلَمُونَ أَوْلَادِهِمُ الْكِتَابَ فِي كَيْسِيَّتِهَا . وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى "عَيْنِ التَّمْرِ" . وَمِنْهَا كَانَ "حُمْرَانُ" مَوْلَى "عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ" . وَلَمَّا فَتَحَ "خَالِدُ" حِصْنَ عَيْنِ التَّمْرِ، وَعَنِمْ مَا فِيهِ، "وَجَدَ فِي بَيْعَتِهِمْ أَرْبَعِينَ غُلَامًا يَعْلَمُونَ الْإِنْجِيلَ، عَلَيْهِمْ بَابٌ مُغْلَقٌ، فَكَسَرَهُ عَنْهُمْ"، ثُمَّ أَخْرَجَهُمْ، فَتَسَمَّاهُمْ فِي أَهْلِ الْبَلَاءِ، فَكَانَ مِنْهُمْ نَصِيرٌ، أَبُو مُوسَى ابْنِ نَصِيرٍ، وَسِيرِينَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ سِيرِينَ، وَحُمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ وَغَيْرِهِمْ .

فَتَحَنُّنُ فِي الْعِرَاقِ إِمَامَ مَدَارِسِ تَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ فِي الْقُرَى وَفِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي تَكُونُ غَالِبِيَّةً سُكَّانِهَا مِنَ الْعَرَبِ، وَتَعَلَّمَهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ مِنْ نَظَرٍ فِي الْأَنْجِيلِ وَفِي الْكُتُبِ الدِّيْنِيَّةِ التَّصْرَائِيَّةِ وَالْعُلُومِ اللَّسَانِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عُلُومٍ وَمَعْرِفَةٍ وَتَقَافَةٍ .

وَوَرَدَ فِي رَوَايَاتِ أَهْلِ الْأَخْبَارِ أَنَّ عَدَدًا مِنَ الشُّعْرَاءِ الْجَاهِلِيِّينَ كَانُوا يَكْتُبُونَ وَيُقْرَأُونَ. وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا
نَظَّمَ شِعْرًا دُونَهُ ثُمَّ ظَلَّ يَعْمَلُ فِي إِصْلَاحِهِ وَنَثْقِيحِهِ وَتَحْكِيكِ مَا نَظَّمَهُ إِلَى أَنْ يَرْضَى عَنْهُ. فَيُنْشُدُهُ
النَّاسُ. وَمِمَّنْ كَانَ يَكْتُبُ وَيُقْرَأُ سُوَيْدُ بْنُ الصَّامِتِ الْأَوْسِيُّ، صَاحِبُ مِجَلَّةِ لُقْمَانَ، وَالزُّبَيْرِيُّ بْنُ بَدْرِ،
وَكَعْبُ ابْنِ زُهَيْرٍ، وَكَعْبُ بْنُ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ، وَالرَّبِيعُ بْنُ زِيَادِ الْعُبَيْسِيِّ، وَكَانَ هُوَ وَإِخْوَتُهُ مِنَ الْكُمَّلَةِ.
وَقَدْ كَتَبَ إِلَى "التُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ". شِعْرًا يَعْذِرُ إِلَيْهِ فِيهِ.

وَذَكَرَ أَنَّ أَهْلَ "دُومَةَ الْجَنْدَلِ" كَانُوا يَكْتُبُونَ وَيُقْرَأُونَ، وَإِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ إِنَّمَا تَعَلَّمُوا الْكِتَابَةَ مِنْ أَحَدِهِمْ.
وَوَرَدَ أَنَّ قَوْمًا مِنْ "طِيءٍ" تَعَلَّمُوا الْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ مِنْ كَاتِبِ الْوَحْيِ لِهَوْدٍ. وَذَكَرَ أَنَّ "بِشْرَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ"
السَّكُونِيَّ، أَخُو "أَكِيدِرِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ الْجِنِّ" السَّكُونِيِّ الْكِنْدِيِّ صَاحِبِ دُومَةَ الْجَنْدَلِ، وَكَانَ
نَضْرَابِيًّا، يَأْتِي الْحِيرَةَ فَيَقِيمُ بِهَا الْحِينَ، تَعَلَّمَ الْخَطَّ الْعَرَبِيَّ مِنَ أَهْلِ الْحِيرَةِ، ثُمَّ أَتَى مَكَّةَ فِي بَعْضِ شَأْنِهِ،
فَرَأَاهُ "سُفْيَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ" وَ"أَبُو قَيْسٍ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ" يَكْتُبُ فَسَأَلَاهُ أَنْ
يُعَلِّمَهُمَا، الْخَطَّ، فَعَلِمَهُمَا الْهَجَاءَ، ثُمَّ أَرَاهُمَا الْخَطَّ، فَكَبَّأ. ثُمَّ لَقِيَ بِشْرًا وَسُفْيَانَ وَأَبَا قَيْسٍ أَتَوْا الطَّائِفَ
فِي تِجَارَةِ فَصْحَبِهِمْ "عَيْلَانَ بْنَ سَلَمَةَ التَّقْفِيَّ"، فَتَعَلَّمَ الْخَطَّ مِنْهُمْ، وَفَارَقَهُمْ بِشْرٌ وَمَضَى إِلَى دِيَارِ مُضَرَ،
فَتَعَلَّمَ الْخَطَّ مِنْهُ "عَمْرُو بْنُ زُرَّارَةَ بْنِ عُدُسٍ" فَسَمِيَ عَمْرُو الْكَاتِبِ. ثُمَّ أَتَى بِشْرَ الشَّامَ، فَتَعَلَّمَ الْخَطَّ
مِنْهُ نَاسٌ هُنَاكَ.

وَتَعَلَّمَ الْخَطَّ مِنَ الثَّلَاثَةِ الطَّائِفِينَ: "مَرَامِرُ بْنُ مُرَّةٍ"، و"أَسْلَمُ بْنُ سِدْرَةَ"، و"عَامِرُ بْنُ جُدْرَةَ"، الَّذِينَ
وَضَعُوا الْخَطَّ وَقَاسُوا هِجَاءَ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى هِجَاءِ السُّرْيَانِيَّةِ، فَتَعَلَّمَهُ مِنْهُمْ أَهْلُ الْأَنْبَارِ - رَجُلٌ مِنْ طَابِخَةَ
كَلْبٍ، فَعَلَّمَهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ وَاْدِي الْقُرَى، فَاتَى الْوَادِي يَتَرَدَّدُ، فَأَقَامَ بِهَا، وَعَلَّمَ الْخَطَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِهَا .

وَقَدْ وَصَفَ الشَّاعِرُ "أَبُو ذُوَيْبٍ" الْهَذَلِيَّ كَاتِبًا مِنَ الْيَمَنِ وَهُوَ يَكْتُبُ كِتَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خِطُّ هَذَا الْكِتَابِ
بِالْقَلَمِ الْعَرَبِيِّ، قَلَمُ أَهْلِ مَكَّةَ، وَإِنَّمَا كَانَ بِقَلَمِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَهُوَ الْمُسْنَدُ . وَذَلِكَ كَمَا يَظْهَرُ مِنْ تَعَابِيرِ هَذَا
الشَّاعِرِ الْوَارِدَةِ فِي شِعْرِهِ، إِذْ يَقُولُ: عَرَفْتُ الدِّيَارَ كَرَقِمِ الدَّوَاةِ يَزْبُرُهُ الْكَاتِبُ الْحِمَيْرِيُّ

بِرَقْمٍ وَوَشَى كَمَا زَحْرَفَتْ بِمِشْمَهَا الْمَزْدَهَاءُ الْهَذَلِيَّ

أَدَانَ وَإِنْبَاءَ الْأَوْلَوْنَ أَنَّ الْمَدَانَ الْمَلِيَّ الْوَفِيَّ

فِي مَنَمٍ فِي صُحُفٍ كَالرِّيَّا ط فِيهِنَّ إِرْثُ كِتَابِ مُحِي

وَهِيَ قَصِيدَةٌ عَدَّتْهَا أَرْبَعَةٌ عَشَرَ بَيْتًا، ذَكَرَ فِي أَوَّلِهَا دُرُوسَ الدِّيَارِ وَطَمَوسَهَا إِلَى أَنْ رَثَى ابْنَ عَمِّهِ
"نُشَيْبَةَ" بِخَمْسَةِ أَبْيَاتٍ مِنْ آخِرِهَا .

وَيَظْهَرُ مِنْ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ أَنَّ ذَلِكَ الْكَاتِبَ الْحِمَيْرِيَّ كَانَ يَكْتُبُ بِالْحَبْرِ الْمَوْجُودِ فِي دَوَاةٍ عَلَى شَيْءٍ يَصْلُحُ
لِلْكِتَابَةِ عَلَيْهِ كَادِيمٌ أَوْ قِرْطَاسٍ، وَلَمْ يَكُنْ يُسْتَعْمَلُ الْمَزْبَرُ الْمَعْمُولُ مِنْ حَدِيدٍ لِنَقْشِ الْحُرُوفِ عَلَى الْحَجَرِ .
وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْعَرَبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ كَانُوا يَكْتُبُونَ عَلَى مَوَادِّ الْكِتَابَةِ الْأُخْرَى بِالْحَبْرِ وَالْقَلَمِ، فِعْلٌ
أَهْلِ مَكَّةَ وَأَهْلِ الْحِيْرَةِ وَدَوْمَةَ الْجَنْدَلِ .

وَذَكَرَ أَهْلُ الْأَخْبَارِ أَيْضًا، أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي تَهْدِ بْنِ زَيْدٍ "يُقَالُ لَهُمَا "حُزْنٌ" وَ "سَهْلٌ" كَانَا يَكْتَبَانِ وَيُتْرَأُ
 إِنَّ، وَكَانَا قَدْ زَارَا "الْحَارِثَ بْنَ مَارِيَةَ" الْغَسَّانِيَّ، وَكَانَ عِنْدَهُمَا حَدِيثٌ مِنْ أَحَادِيثِ الْعَرَبِ، وَهُمَا ظَرَافَةٌ
 وَأَدَبٌ وَصَحْبُهُ، فَزَلَا مَنْزِلًا طَيِّبًا مِنْ قَلْبِ الْحَارِثِ، فَحَسَدَهُمَا "زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ الْكَلْبِيُّ" وَكَانَ مِنْ
 نَدَمَاءِ الْمَلِكِ، فَأَرَادَ إِفْسَادَ مَكَتَهُمَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: "هُمَا يَكْتَبَانِ إِلَيْهِ بِعَوْرَتِكَ وَخَلَّلَ مَا يَرِيَانِ مِنْكَ".
 يُرِيدُ إِخْبَارَهُ أَنَّهُمَا كَانَا يَتَجَسَّسَانِ عَلَيْهِ فَيَكْتَبَانِ بِإِخْبَارِهِ إِلَى حَضَمِهِ "الْمُنْدَرِ" الْأَكْبَرِ، مَلِكِ الْحِيرَةِ، جَدِّ
 النُّعْمَانَ بْنِ الْمُنْدَرِ.

وَأَمَّا عَرَبُ بِلَادِ الشَّامِ، فَلَمْ يَذْكَرْ أَهْلُ الْأَخْبَارِ شَيْئًا عَنْ عِلْمِهِمْ بِالْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ، وَلَكِنْ ذَلِكَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ
 يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى جَهْلِهِمْ بِهَا. وَلَا سِيَمَا أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى اتِّصَالِ بَنِي إِرَمَ فِي بِلَادِ الشَّامِ وَبِعَرَبِ بِلَادِ الْعِرَاقِ،
 ثُمَّ إِنَّهُ يَجُوزُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْتُبُونَ بِقَلَمِ بَنِي إِرَمَ، عَلَى عَادَةِ مُعْظَمِ شُعُوبِ الشَّرْقِ الْأَدْنَى إِذْ ذَلِكَ، فِي الْكِتَابَةِ
 بِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ قَلَمَ الْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ وَالْأَدَبِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ. ثُمَّ إِنَّمَا سَمِعْنَا أَنَّ مُلُوكَهُمُ الْمُتَنَصِّرِينَ كَانُوا يُرَاسُونَ
 مَجَالِسَ الْمَنَاطِرَاتِ فِي أُمُورِ الدِّينِ، وَيَبْحَثُونَ مَعَ رِجَالِ الدِّينِ فِي مَوْضُوعَاتِ دِينِيَّةٍ، وَيَدَافِعُونَ عَنْ
 مَذْهَبِ الْيَعَاقِبَةِ فِي طَبِيعَةِ الْمَسِيحِ، وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ لَا يَعْقِلُ أَنْ يَكُونُوا جَهْلَهُ أُمَّيِّينَ لَا يَقْرَأُونَ وَلَا
 يَكْتُبُونَ.

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ تَحَدَّثْتُ عَنْ، الْكِتَابَاتِ الصَّفْوِيَّةِ وَعَنْ كِتَابَاتِ عَرَبِيَّةِ شِمَالِيَّةِ أُخْرَى، عَثَرْتُ عَلَيْهَا السُّيَاحِ
 وَالْمُسْتَشْرِقِينَ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ "الْصَّفَاةِ" وَفِي الْبُؤَادِي، كُتِبَتْ عَلَيَّ صُخُورٌ وَهَشِيمٌ صُخُورٌ مُنْثُورٌ،
 دَلَّ الْبَحْثُ فِيهَا عَلَى أَنَّهَا كِتَابَاتُ إِغْرَابٍ، كَانَ أَصْحَابُهَا يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ طَلَبًا لِلْمَرْعَى
 وَالصَّيْدِ.

وَتَدُلُّ تِلْكَ الْكِتَابَاتِ الصَّفَوِيَّةِ عَلَى أَنَّ إِعْرَابَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ حَيْثُ
عِلْمِهِمْ بِالْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ مِنْ أَعْرَابِ هَذَا الْيَوْمِ . فَالْكِتَابَاتِ الصَّفَوِيَّةِ الْكَثِيرَةُ الْمُبْعَثَرَةُ فِي الْبَوَادِي، هِيَ
كِتَابَاتِ إِعْرَابِ، مُتَّحُولَيْنِ، كَانُوا يَرْعَوْنَ الْإِبِلَ وَبَقِيَّةَ الْمَاشِيَةِ، فَكَانُوا يَسْلُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْكِتَابَةِ وَالْتَّصْوِيرِ عَلَى
الْحِجَارَةِ، بَيْنَمَا لَا نَكَادُ نَجِدُ بَيْنَ إِعْرَابِ هَذَا الْيَوْمِ مِنْ يَكَادُ يقرأ وَيَكُتِبُ .

كَمَا تَحَدَّثَتْ عَنْ كِتَابَاتِ ثَمُودِيَّةِ، وَثَمُودَ قَوْمٍ مِنْ لَبِّ الْعَرَبِ وَمَادَّةِ الْعَرَبِ الْبَائِدَةِ الْأُولَى فِي عُرْفِ التَّسَابِينِ،
وَتَحَدَّثَتْ أَيْضًا عَنْ الْقَلَمِ الْمُسْنَدِ بِلَهْجَاتِهِ وَلُغَاتِهِ، فَهَلْ يُصَدَّقُ بَعْدَ هَذَا قَوْلُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْعَرَبَ قَبْلَ
الْإِسْلَامِ كَانُوا فِي جَهَالَةٍ عَمِيَاءَ، لَا يقرأون وَلَا يَكُتِبُونَ .

وَلَا يَعْتَلُّ أَنَّ يَكُونَ الْمَذْكُورُونَ أَمِينِينَ كَتَبُوا لِلتَّسْلِيَةِ وَالتَّلْهِيمِ، وَإِنَّ الْأَوَامِرَ وَالْقَوَانِينَ الَّتِي دُونَهَا مَلُوكِ الْيَمَنِ قَبْلَ
الْإِسْلَامِ وَأَعْلَنُوهَا لِلنَّاسِ بِوَضْعِهَا فِي الْمَحَلَّاتِ الْعَامَّةِ وَفِي الْأَمَاكِنِ الْبَارِزَةِ كَانَتْ مُجَرَّدَ تَدْوِينٍ أَوْ تَرْوِيقٍ
وَتَرْبِيعٍ، لَا لِلْإِعْلَانِ وَالْفَهَامِ الْمُواطِنِينَ بِمُحْتَوَى تَهَا . إِنَّ تَدْوِينَ تِلْكَ الْكِتَابَاتِ وَوَضْعَ الْحِجَارَةِ الْفِخْمِ
الْمَكْتُوبَةِ لِلْإِعْلَانِ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ فِي النَّاسِ قَوْمًا يقرأون وَيَكُتِبُونَ وَيَفْهَمُونَ، وَإِنَّ الْحُكُومَاتِ إِنَّمَا أُمِرَتْ
بِتَدْوِينِهَا لِإِعْلَامِ النَّاسِ بِمُحْتَوَى تَهَا لِلْعَمَلِ بِهَا، كَمَا تَفْعَلُ الْحُكُومَاتِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ عِنْدَ إِصْدَارِهَا
أَمْرًا أَوْ قَانُونًا بِإِذَاعَتِهِ بِالرَّسَائِلِ الْمَعْرُوفَةِ عَلَى النَّاسِ لِلْوُقُوفِ عَلَيْهَا، وَإِنَّ مِنْ بَيْنِ الْحِجَارَةِ الصَّفَوِيَّةِ
وَاللَّحْيَائِيَّةِ وَالثَّمُودِيَّةِ الْمَكْتُوبَةِ، مَا هُوَ رَسَائِلُ وَكُتِبَ وَجُهِتْ إِلَى أَشْخَاصٍ مَعْرُوفِينَ، كَمَا تَفْعَلُ الْيَوْمَ فِي
تَوْجِيهِ الرِّسَائِلِ إِلَى الْأَقْرَبَاءِ وَالْأَصْدِقَاءِ .

وَوَجِدَ عِنْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ قَوْمٌ كَانُوا يَكُتِبُونَ وَيقرأون وَيَطَاعُونَ الْكُتُبَ بِمَكَّةَ وَلَهُمْ إِمَامٌ يَكُتِبُ أَعْجَمِيَّةً،
وَمِنْ هَؤُلَاءِ . "الْأَخْنَفُ" وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ كَانُوا يُجِيدُونَ بَعْضَ اللُّغَاتِ الْأَعْجَمِيَّةِ . وَآلَهُمْ وَقَفُوا

عَلَى كُتُبِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَعَلَى كُتُبِ أُخْرَى. وَفِي مَعْرَكَةِ "بَدْرٍ" اشْتَرَطَ الرَّسُولُ عَلَى مَنْ أَرَادَ فِدَاءَ
نَفْسِهِ وَلَمْ يَكُنْ مُوسِرًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، أَنْ يَعْلَمَ عَشْرَةَ نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، كَمَا كَانَ مِنْ عَادَةِ
أَهْلِ مَكَّةَ تَدْوِينِ مَا يَجْمَعُونَ عَلَيْهِ وَمَا يُلْزَمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِ فِي صُحُفٍ يَخْتُمُونَهَا بِخَوَاتِمِهِمْ وَبِأَسْمَائِهِمْ لِتَكُونَ
شَوَاهِدًا عَلَى عَزْمِهِمْ كَالَّذِي فَعَلُوهُ فِي الصَّحِيفَةِ. وَذَكَرَ أَنَّ أُمَّتَهُ بْنَ أَبِي الصَّلْتِ كَانَ فِيْمَنْ قَرَأَ الْكُتُبَ
وَوَقَفَ عَلَيْهَا، وَذَكَرُوا غَيْرَهُ أَيْضًا.

وَذَكَرَ أَهْلُ الْأَخْبَارِ أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، كَانُوا، يَكْتُبُونَ وَيَقْرَأُونَ عِنْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ،
ذَكَرُوا فِيهِمْ: سَعْدُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَالْمُنْدَرِ ابْنَ عَمْرٍو، وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ، وَرَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَكَانَ يَكْتُبُ بِالْكِتَابَيْنِ
الْعَرَبِيَّةِ وَالْعِبْرِيَّةِ أَوْ السَّرْيَانِيَّةِ، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكٍ وَأَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَمَعْنَى "مَعْنُ" بْنُ عَدِيِّ الْبَلَوِيِّ، وَأَبُو
عَبْسِ بْنِ كَثِيرٍ، وَأَوْسُ بْنُ حَوْلِيٍّ، وَبَشِيرُ بْنُ سَعِيدٍ، وَسَعْدُ بْنُ عَبَّادَةَ، وَالرَّبِيعُ بْنُ زِيَادِ الْعَبْسِيِّ، وَعَبْدُ
الرَّحْمَنِ بْنُ جَبْرِ، وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي، وَسَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ، وَقَدْ رَجَعُوا أَصْلَ عِلْمِهِمْ بِالْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ إِلَى قَوْمٍ
مِنْ يَهُودِ يَثْرِبَ، مَارَسُوا تَعْلِيمَ الصَّبِيَّانِ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، دَعَوْهُمْ "بَنِي مَاسِكَةَ"، وَيُظْهِرُ، أَنَّ صَحَّتْ هَذِهِ
الرِّوَايَةُ، أَنَّ يَهُودَ يَثْرِبَ كَانُوا يَكْتُبُونَ بِالْعَرَبِيَّةِ أَيْضًا، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَهَا لِلْعَرَبِ. وَتَعَرَّضَ الْبَلَاذِرِيُّ لِهَذَا
الْمَوْضُوعِ فَقَالَ: "كَانَ الْكِتَابُ فِي الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ قَلِيلًا، وَكَانَ بَعْضُ الْيَهُودِ قَدْ عُلِمَ كِتَابَ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَانَ
تَعَلَّمَهُ الصَّبِيَّانِ بِالْمَدِينَةِ فِي الرَّيِّمِ الْأَوَّلِ، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ وَفِي الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ عِدَّةٌ يَكْتُبُونَ". وَنَجِدُ هَذَا
الْخَبَرَ فِي مَوَارِدِ أُخْرَى، أَخَذَتْهُ دُونَ أَنْ تُشِيرَ إِلَى السَّنَدِ، فَظَهَرَ وَكَانَتْ حَقِيقَةً مَسْلَمَةً وَخَبَرَ مُوَاتِرٍ، حَتَّى
جَازَ عَلَى الْمُحَدِّثِينَ، فَبَنَوْا عَلَيْهِ حُكْمًا، هُوَ أَنَّ الْكِتَابَ كَانَ فِي يَثْرِبَ قَلِيلًا، حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ، فَاتَّشَرَ

بها، وأنه لو كانت الكتابة منسشرة عندهم، لما كلف الرسول القارين الكاتبين من أسرى بدر، بأن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة، فداءً لنفسه من الأسر.

ويظهر أن يهود يثرب، وربما بقية يهود، مثل يهود خيبر، وثيماء وفدك ووادي القرى، كانوا يكتبون بقلمهم، كما كانوا يكتبون بالعربية، ويظهر من استعمال "البلادري" جملة: "وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية، وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول"، أن يهود يثرب كانوا يكتبون بالعربية، كما كان يكتب بها صبيان المدينة، وكانوا يعلمون الكتابة لصبيان يثرب في مدارسهم. وفي هذا الخبر وأمثاله دلالة على أن الكتابة كانت معروفة بين أهل يثرب أيضا قبل الإسلام، وأنها كانت قديمة فيهم، ولهذا فلا معنى لزعم من قال إنها انتشرت بيثرب في الإسلام، وإن الكتابة كانت قليلة بها قبل هذا العهد.

وقصد أهل الأخبار بجملة "وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية، الكتابة بالخط العربي الشمالي، لا بالقلم المسند، لأن هذا هو مرادهم من "الكتاب العربي" و "كتاب العربية"، ويظهر أن اليهود قد تعلموا الخط العربي من عرب العراق وبلاد الشام، أو من التجار والمبشرين الذين كانوا يقدون إلى الحجاز، وأما القلم المسند، الذي هو قلم العرب الجنوبيين، فلم يكن مستعملا في يثرب، وإلا لأشير إليه، مع أنها من القواعد المتعصبة للقطانية، وحاملة الدعوة إلى اليمن قبل الإسلام وفي الإسلام. وهذا يدل على أن المسند كان قد طورد في جزيرة العرب قبل الإسلام، وإن سلطانه كان قد تقلص كثيرا، خارج العربية الجنوبية قبل نزول الوحي على الرسول، وربما كان القلم العربي الشمالي قد دخل العربية الجنوبية أيضا قبل الإسلام، فأخذ ينافس المسند فيها، ولا سيما في المناطق التي تركزت فيها النصرانية وتحكمت

فِي أَهْلِهَا، فَأَخَذَ التَّصَارِي يُقَاوِمُونَ ذَلِكَ الْقَلَمَ، لِأَنَّهُ قَلَمُ الْوَثَيْتِيَّةِ، وَيَعْلَمُونَ أَوْلَادِ التَّصَارِي الْقَلَمِ الْعَرَبِيِّ
السَّمَالِيِّ، لِأَنَّهُ قَلَمُهُمُ الَّذِي كَانُوا يَعْلَمُونَ بِهِ فِي كِنَائِسِ الْعَرَبِ فِي الْعِرَاقِ وَفِي دُومَةِ الْجَنْدَلِ وَبِلَادِ الشَّامِ.
وَقَدْ أَطْلَقَ الْعَرَبُ عَلَى الَّذِي يُكْتَبُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَيُحْسِنُ الْعُومَ وَالرَّمِيَّ، وَقِيلَ الْحِسَابُ أَيْضًا، وَالْجِلْدُ أَيُّ
الشَّجَاعَةِ، وَقَوْلِ الشَّعْرِ، وَأَصْحَابِ الشَّرَفِ وَالنَّسَبِ: الْكَمَلَةُ. وَجَمَعَ بَعْضُ أَهْلِ الْأَخْبَارِ إِلَى ذَلِكَ
اسْتِوَاءَ الْقَامَةِ وَكَمَالَ الْإِنْسَانِ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْكَمَلَةِ: "سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ بْنِ دَلَيْمٍ" سَيِّدُ الْخَرْجِ، وَهُوَ مِنْ
أُسْرَةٍ غَنِيَّةٍ تَطْعَمُ الْفُقَرَاءَ، وَلَهَا أَطْمُ يَاوِي إِلَيْهِ الْفُقَرَاءُ لِلْأَكْلِ. وَلَمَّا نَزَلَ النَّبِيُّ يَثْرِبَ، كَانَتْ جَفْنَةٌ "سَعْدُ"
تَدُورُ مَعَ النَّبِيِّ، وَكَانَ يُعْشَى كُلَّ لَيْلَةٍ أَهْلَ الصَّفَةِ.

وَمِنْ الْكَمَلَةِ: الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادِ الْعُبَيْسِيِّ. وَكَانَ هُوَ وَإِخْوَتُهُ مِنَ الْكَمَلَةِ. وَ"رَافِعُ بْنُ مَالِكٍ"، وَ"أَسِيدُ بْنُ
حُضَيْرٍ"، وَ"عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي"، وَ"أَوْسُ بْنُ حَوْلِيٍّ"، وَ"سُوَيْدُ بْنُ الصَّامِتِ"، وَ"حُضَيْرُ الْكِنَانِ".
وَيُظْهِرُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى قَائِمَةِ أَسْمَاءٍ مَنْ أَدْخَلَهُمْ أَهْلُ الْأَخْبَارِ فِي الْكَمَلَةِ، أَنَّ الْكِتَابَةَ وَالرَّمَايَةَ وَالْعُومَ، لَمْ تَكُنْ
الشُّرُوطُ الْأَسَاسِيَّةَ الْكَافِيَةَ، لَكِنِّي يُعَدُّ الْإِنْسَانُ كَامِلًا، فَقَدْ تَوَفَّرَتْ هَذِهِ الشُّرُوطُ فِي أَنَاسٍ آخَرِينَ، لَمْ
يَدْخُلُوا مَعَ ذَلِكَ فِي الْكَمَلَةِ، وَإِنَّمَا هُنَاكَ أَشْيَاءٌ أُخْرَى بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْأُمُورِ الْمَذْكُورَةِ، هِيَ الشَّرَفُ
وَكَمَالُ الْجِسْمِ وَالْعَقْلُ وَالْإِمْتِنَاعُ عَنِ الْهَجْرِ فِي الْكَلَامِ، وَالتَّحَلِّيُّ بِالْحِكْمَةِ وَبِالْفِطَانَةِ وَاللُّبِّ وَقَوْلِ الشَّعْرِ
الْمُحْكَمِ الْحَكِيمِ.

وَكَانَ "عَبْدُ الرَّحْمَانَ بْنِ جَبْرِ"، أَبُو عَبْسٍ الْأَنْصَارِيِّ، يُكْتَبُ بِالْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ. وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ
وَتَلَاثِينَ.

وَكَانَ "الْمُنْدَرُ"، مُنْدَرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حُنَيْسِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لُؤْدَانَ" الْحَزْرَجِيُّ مِنَ الْكُتَيْبَةِ. وَكَانَ أَحَدَ السَّبْعِينَ الَّذِينَ بَايَعُوا الرَّسُولَ، وَاحِدَ الثُّقَبَاءِ الْإِثْنَيْ عَشَرَ. "وَكَانَ يُكْتَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْعَرَبِيَّةِ". قُتِلَ يَوْمَ بَرْ مَعُونَةَ. وَكَانَ "أَبُو جُبَيْرَةَ بْنِ الضَّحَّاكِ" الْأَنْصَارِيُّ، مِمَّنْ يُكْتَبُ. وَقَدْ تَوَلَّى الْكِتَابَةَ لِلْخَلِيفَةِ "عُمَرَ".

وَكَانَ "قَيْسُ بْنُ نُشْبَةَ" عَمَّ الشَّاعِرِ "الْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسِ" السُّلَمِيُّ، أَوْ ابْنِ عَمِّهِ مِنَ الْكُتَيْبَةِ. ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ مِمَّنْ قَرَأَ الْكُتُبَ وَتَأَلَّهَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَالْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ نَفْسِهِ كَانَ كَاتِبًا، ذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ اشْتَرَى إِبِلًا لِقَيْسِ بْنِ نُشْبَةَ فَلَوَاهُ حَقَّهُ، وَإِنْ "قَيْسًا" قَامَ بِمَكَّةَ يَقُولُ: يَا آلَ فِهْرٍ كُتِّتَ فِي هَذَا الْحُرْمِ حُرْمَةُ الْبَيْتِ وَأَخْلَاقِ الْكُرْمِ أَظْلَمَ لَا يَمْنَعُ مِنِّي مِنْ ظُلْمِ بَلَّغَ ذَلِكَ "عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ" فَكَتَبَ إِلَيْهِ أُنْيَانًا مِنْهَا:

وَأَتِ الْبُيُوتَ وَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا مَدَدًا تَلْقَ ابْنَ حَرْبٍ وَتَلِقْ الْمَرْءَ عَبَّاسًا

فَقَامَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَخَذَ لَهُ بِحَقِّهِ، وَقَالَ: أَنَا لَكَ جَارٌ مَا دَخَلْتُ مَكَّةَ، فَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَنِي هَاشِمٍ مَوَدَّةً.

وَفِي جُمْلَةٍ مِنْ كَانَتْ يُكْتَبُ وَيُقْرَأُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ "حَرْبُ بْنُ أُمَيَّةَ". وَإِلَيْهِ يُنْسَبُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْأَخْبَارِ إِذْ خَالَ الْكِتَابَةَ بَيْنَ قُرَيْشٍ. وَهُوَ أَبُو "أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ"، فَهُوَ جَدُّ "مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ". وَوَرَدَ أَنَّ الَّذِي حَمَلَ الْكِتَابَةَ إِلَى قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ "أَبُو قَيْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ زُهْرَةَ". فَهُوَ نَاشِرُ الْكِتَابَةِ عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ. وَالْإِثْنَانِ عَلَى رَأْيِ أَهْلِ الْأَخْبَارِ مِنْ أَقْدَمِ كِتَابِ مَكَّةَ أَذِنَ، بَلْ هُمَا نَاشِرَا الْكِتَابَةَ بِهَا. وَقَدْ ذَهَبَ "ابْنُ قُتَيْبَةَ" أَنَّ "بِشْرَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ الْعَبَّادِيَّ" عَلَّمَ "أَبَا سُفْيَانَ بْنَ أُمَيَّةَ"، وَ"أَبَا قَيْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ زُهْرَةَ" الْكِتَابَ، فَعَلِمَا أَهْلَ "مَكَّةَ". وَقَدْ ذَكَرَ "السُّيُوطِيُّ" عَنْ "أَبِي طَاهِرٍ" السُّلَمِيِّ فِي

"الطُّيُورِيَّاتِ" بِسَنَدِهِ عَنِ "الشَّعْبِيِّ"، أَنَّهُ "قَالَ: أَوَّلُ الْعَرَبِ الَّذِي كَتَبَ بِالْعَرَبِيَّةِ حَرْبُ بِنِ أُمِّيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ". تَعَلَّمَ مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ، وَتَعَلَّمَ أَهْلَ الْحِيرَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَبَّارِ .

وَلَوْ أَخَذْنَا بِرَأْيِي مَنْ قَالَ إِنَّ "حَرْبُ بْنُ أُمِّيَّةَ" أَوْ "أَبُو سُفْيَانَ بْنِ أُمِّيَّةَ"، مَا أَوَّلُ مَنْ عَلِمَ أَهْلُ مَكَّةَ الْكِتَابَةَ، نَكُونُ قَدْ جَعَلْنَا "بَنِي أُمِّيَّةَ" أَوَّلَ مَنْ أَدْخَلَ الْقَلَمَ إِلَى مَكَّةَ، بِفَضْلِ تَعْلِيمِ "بِشْرٍ" لَهُمْ هَذَا الْقَلَمَ. وَمِنْهُمْ ائْتَشَرَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ فِي عَهْدِ غَيْرِ بَعِيدٍ عَنِ أَيَّامِ النَّبِيِّ .

وَذَكَرَ أَنَّ فِي جُمْلَةٍ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ. "عَمْرُو بْنُ عَمْرٍو بْنِ عُدْسٍ"، وَذَكَرَ "ابْنُ التَّدِيمِ" إِنَّ "السُّيْدُ بْنُ أَبِي الْعَيْصِ" كَانَ مِنْ كِتَابِ الْعَرَبِ. وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ فِي خِزَانَةِ "الْمَأْمُونِ" كِتَابٌ بِحَطِّ "عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ" فِي جِلْدِ آدَمَ، فِيهِ ذِكْرٌ حَقٌّ "عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ" مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَى فُلَانِ بْنِ فُلَانِ الْحَمِيرِيِّ، مِنْ أَهْلِ وَزَلَّ صُنْعًا عَلَيْهِ أَلْفُ دِرْهَمٍ فَضَّةً كَيْلًا بِالْحَدِيدَةِ وَمَتَى دَعَاهُ بِهَا إِجَابَةً. وَكَانَ الْخَطُّ شَبَهُ خَطِّ النِّسَاءِ .

وَكَانَ "حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ" مِمَّنْ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَالْفَرَاءَةَ بِمَكَّةَ. فَقَدْ وَرَدَ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّهُ كَتَبَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى وَالِدِهِ "أَبُو سُفْيَانَ"، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مَعَ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ جُرَّانَ، يُخْبِرُهُ خَبَرَ الرَّسُولِ. وَكَانَ وَالِدُهُ يُكْنَى بِهِ. وَقَدْ قَتَلَهُ "عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ" يَوْمَ "بَدْرٍ".

وَكَانَ "بَغِيضُ بْنُ عَامِرِ بْنِ هَاشِمٍ" مِنْ كِتَابِ قُرَيْشٍ قَبْلَ الْإِسْلَامِ. وَهُوَ الَّذِي كَتَبَ الصَّحِيفَةَ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ. وَوَرَدَ أَنَّ "أَبَا الرُّومِ بْنِ عَبْدِ شُرْحُبَيْلٍ" وَاسْمُهُ "مَنْصُورُ بْنُ عِكْرَمَةَ" هُوَ الَّذِي كَتَبَ الصَّحِيفَةَ.

وَكَانَ "الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ" وَهُوَ أَخُو "خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ" مِمَّنْ يُكْتَبُ وَيُقْرَأُ، وَكَانَ "خَالِدٌ" مِمَّنْ يُقْرَأُ وَيُكْتَبُ
كَذَلِكَ. وَكَانَ الْوَلِيدُ سَبَبَ إِسْلَامِ "خَالِدٍ". فَقَدْ كَانَ قَدْ قَرَأَ مِنْ مَكَّةَ وَلِحَقِّ بِالرَّسُولِ عُمَرَةَ الْقُضَيْيَةَ،
وَكَتَبَ إِلَى أَخِيهِ خَالِدٍ، أَنَّ الرَّسُولَ قَالَ لَهُ: "لَوْ أَنَا، لَأَكْرَمْتَاهُ، وَمَا مِثْلُهُ سَقَطَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ فِي عَقْلِهِ"،
فَوَقَعَ الْإِسْلَامُ فِي قَلْبِ خَالِدٍ. وَكَانَ سَبَبَ هِجْرَتِهِ.

وَكَانَ "نَافِعُ بْنُ ظُرَيْبِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ تَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيِّ" الْقُرَشِيُّ مِمَّنْ يُكْتَبُ. أَسْلَمَ يَوْمَ الْفَتْحِ.
وَهُوَ الَّذِي كَتَبَ الْمَصَاحِفَ لِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ، أَوْ الْمُضْحَفِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يُكْتَبُ الْمَصَاحِفَ، وَأَنَّهُ
كَتَبَ الْمَصَاحِفَ لِعُثْمَانَ، فَيَظْهَرُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ نُسَاخِ الْمَصَاحِفِ، يَنْسَخُهَا لِلنَّاسِ.

وَكَانَ "حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ" مِنَ الْكُتَّابِ. وَكَانَ حَلِيفًا لِبَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَى، وَيُقَالُ حَالِفَ الرَّبِيعِ،
وَقِيلَ مَوْلَى "عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ حُمَيْدِ بْنِ زُهَيْرِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أَسَدٍ". وَهُوَ الَّذِي كَتَبَ كِتَابًا إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ
يُخْبِرُهُمْ بِتَجْهِيزِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، فَنَزَلَتْ فِيهِ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ". وَقَدْ
شَهِدَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَى كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ لِسَلْمَةَ بْنِ مَالِكِ التَّمَلِيمِيِّ، الَّذِي كَتَبَ الرَّسُولُ بِهِ
إِقْطَاعَهُ مَا بَيْنَ ذَاتِ الْخُنَاطِي إِلَى ذَاتِ الْأَسَاوِدِ.

وَكَانَ الْحُكْمُ بْنُ أَبِي أَحْيَحَةَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي، وَهُوَ الَّذِي سَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ "عَبْدَ اللَّهِ" مِنْ أَوْلَادِ الَّذِينَ
أَمَرَهُمُ الرَّسُولُ أَنْ يَعْلَمَ الْكِتَابَ بِالْمَدِينَةِ. وَكَانَ كَاتِبًا قَتَلَ يَوْمَ "مُوتِهِ".

يُقَالُ أَهْلُ الْأَخْبَارِ: وَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ كَانَ "فِي قُرَيْشٍ سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا كُلُّهُمْ يُكْتَبُ: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،
وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، وَطَلْحَةُ، وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَبُو
حُدَيْفَةَ بْنُ عُثْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَحَاطِبُ بْنُ عَمْرٍو، أَخُو سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو الْعَامِرِيِّ مِنْ قُرَيْشٍ، وَأَبُو سَلْمَةَ بْنِ

عَبْدُ الْأَسَدِ الْمُخْزُومِيُّ، وَأَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَخَالِدُ بْنُ سَعِيدِ إِخْوَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ
 بْنِ أَبِي سَرْحِ الْعَامِرِيِّ، وَخُوَيْطُبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزَى الْعَامِرِيِّ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنِ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي
 سُفْيَانَ، وَجُهَيْمُ بْنُ الصَّلْتِ بْنِ مَحْرَمَةَ بْنِ الْمُطَلِّبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَمَنْ حُلَفَاءِ قُرَيْشٍ: الْعَلَاءُ
 الْحَضْرَمِيُّ".

وَلَكِنَّا لَوْ أَحْصَيْنَا أَسْمَاءَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، مِمَّنْ نَصَّ أَهْلُ الْأَخْبَارِ عَلَى أَسْمَائِهِمْ، وَمِمَّنْ لَمْ
 يُنْصُوا عَلَى اسْمِهِمْ، وَإِنَّمَا ذَكَرُوهُمْ عَرْضًا فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِمْ عَنْهُمْ فَذَكَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْتُبُونَ وَيُقْرَأُونَ،
 لَوَجَدْنَا أَنَّ عَدَدَهُمْ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنْ هَذَا الرَّقْمِ الْمَذْكُورِ، رَقْمَ سَبْعَةِ عَشَرَ كَاتِبًا، أَوْ بَضْعَةَ عَشَرَ نَفْرًا، وَهُوَ
 عَدْدُ وَرَدِّ إِلَيْهِمْ عَلَى مَا يَطْهَرُ مِنْ خَبَرِ أَحَادٍ، ائْتَشَرَ فِي الْكُتُبِ، فَصَارَ مُتَوَاتِرًا مُنْشَرًّا حَتَّى فِي كُتُبِ
 الْمُؤَلِّفِينَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، اتَّخَذُوهُ دَلِيلًا عَلَى أُمَيَّةِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ.

وَقَدْ اسْتَعَانَ الرَّسُولُ بِقَوْمٍ كَتَبُوا لَهُ، أَشَارَ الْعُلَمَاءُ إِلَى أَسْمَائِهِمْ. مِنْهُمْ مَنْ كَتَبَ لَهُ الْوَحْيَ، فَعَرَفُوا مِنْ تَمِّ
 ب "كِتَابِ الْوَحْيِ". وَمِنْهُمْ مَنْ كَتَبَ لَهُ بُرِيدَةَ وَرَسَائِلَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَوَلَّى لَهُ تَدْوِينَ الْمَغَانِمِ وَأُمُورِ الزَّكَاةِ
 وَالْخُرُصِ وَالصَّدَقَةِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ اقْتَضَاهَا تَطَوُّرُ الظُّرُوفِ وَالْأَحْوَالِ، وَمِنْهُمْ مِثْلُ "زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ"
 مِنْ كُتُبِ لَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْبَعْرَابِيَّةِ أَوْ السَّرْيَانِيَّةِ. وَذَكَرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ مِثْلَ زَيْدِ يَكْتُبُ بغيرِ الْعَرَبِيَّةِ أَيْضًا.
 وَكَانَ مِمَّنْ كَتَبَ لَهُ: "عَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ"، و"عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ"، و"مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ"، و"حَنْظَلَةُ
 الْأَسَيْدِيُّ"، و"خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ"، و"أَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ"، و"الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ"، و"عَبْدُ اللَّهِ
 بْنُ أَبِي سَرْحٍ".

وَرُوِيَ أَنَّ "أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ لَهُ أَبِي بْنُ كَعْبٍ، وَكَانَ إِذَا غَابَ أَبِي كَتَبَ لَهُ زَيْنُ بْنُ ثَابِتٍ"، وَكَانَ يَكْتُبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

وَجَاءَ فِي تَرْجَمَةِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ أُمَّهُ جَاءَتْ بِهِ يَوْمَ قَدِمَ الرَّسُولُ يَثْرِبَ وَقَالَتْ لَهُ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا ابْنِي وَهُوَ غُلَامٌ كَاتِبٌ". وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ غُلَمَانَ يَثْرِبَ كَانُوا يَقْرَأُونَ وَيَكْتُبُونَ.

قَدْ وَرَدَ فِي أَخْبَارِ "بَدْرِ" أَنَّهُ كَانَ فِي أُسْرَى قُرَيْشٍ قَوْمٌ يَقْرَأُونَ وَيَكْتُبُونَ، وَقَدْ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِفِكَ رِقَابِ هَؤُلَاءِ الْأَسْرَى عَلَى أَنْ يَكُونَ فِدَاؤُهُمْ تَعْلِيمَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَشْرَةَ مِنْ صَبِيانِ الْمُسْلِمِينَ الْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ. وَقَدْ عَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ صَبِيانَ يَثْرِبَ الْكِتَابَةَ فَاتَّشَرَّتْ الْكِتَابَةُ بَيْنَهُمْ.

وَذَكَرَ أَنَّ مِمَّنْ كَتَبَ لِرَسُولِ اللَّهِ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَالثُّرَيْبِيُّ بْنُ الْعَوَامِ، وَخَالِدُ وَابْنُ ابْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، وَحَنْظَلَةُ الْأَسِيدِي، وَالْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سَلُولٍ، وَالْمُعِيزَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَجُهَيْمُ بْنُ الصَّلْتِ، وَمُعَيْتِيبُ بْنُ أَبِي فَاطِمَةَ، وَشُرْحَبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْأَرْقَمِ الزُّهْرِيُّ. وَذَكَرَ أَنَّ عَدَدَ مَنْ كَتَبَ لِلرَّسُولِ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ كَاتِبًا.

وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ لِلنَّبِيِّ مِنْ قُرَيْشٍ "عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ"، وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ لَهُ مُقَدِّمَةُ الْمَدِينَةِ "أَبِي بْنُ كَعْبٍ"، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي آخِرِ الْكِتَابِ: وَكَتَبَ فَلَانُ بْنُ فَلَانَ. وَهُوَ مِنْ كِتَابِ الْوَحْيِ وَالرَّسَائِلِ. وَقَدْ كَانَ "عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْأَرْقَمِ الزُّهْرِيُّ" مِنْ كِتَابِ الرَّسَائِلِ لِلرَّسُولِ، وَأَمَّا الْكَاتِبُ لِعَهْدِهِ إِذَا عَهْدَ وَصَلْحِهِ إِذَا صَالِحٍ، فَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ. وَقَدْ وَرَدَتْ فِي آخِرِ بَعْضِ كُتُبِ الرَّسُولِ أَسْمَاءُ كِتَابِ تِلْكَ الْكُتُبِ.

وَفِي طَبَقَاتِ "ابْنِ سَعْدٍ" صُورَةُ كِتَابِ أَمْرِ بَدْوِيْنِهِ رَسُوْلُ اللهِ لِتَهْشَلُ بِنِ مَالِكِ الْوَالِيِّ مِنْ بَاهِلَةَ، كَتَبَهُ
"عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ".

وَكَانَ "عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ" مِنْ كِتَابِ الْوَحْيِ، وَالْكَاتِبُ لِعُهُودِ الرَّسُوْلِ إِذَا عَهْدَ، وَصَلَحُهُ إِذَا صَالَحَ. ذَكَرَ
أَنَّهُ تَعَلَّمَ الْكِتَابَةَ وَهُوَ صَغِيرٌ، ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً، تَعَلَّمَهَا فِي "الْكِتَابِ".

وَكَانَ مِنْ كِتَابِ رَسُوْلِ اللهِ الَّذِيْنَ كَتَبُوا لَهُ الرِّسَالِ إِلَى سَادَاتِ الْقَبَائِلِ يَدْعُوهُمْ فِيهَا إِلَى الْإِسْلَامِ: خَالِدِ بْنِ
سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، وَالْمَغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ، وَمُعَاوِيَةَ، وَعَبْدَ اللهِ بْنِ زَيْدٍ، وَأَبِي بْنِ كَعْبٍ، وَعَلِيٌّ. وَجُهَيْمِ بْنِ
الصَّلْتِ، وَالْأَرْقَمِ ابْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ الْمُخْزُومِيِّ، وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، وَالْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ، وَعَقِبَهُ، وَالْعَلَاءِ بْنِ
عُقْبَةَ، وَعُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ، وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيِّ، وَثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ.

وَعَبْدَ اللهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ، مِنْ كِتَابِ الرَّسُوْلِ، وَقَدْ كَانَ أَوَّلَ مُرْتَدٍّ فِي الْإِسْلَامِ. ارْتَدَّ وَكَانَ قَدْ
خَالَفَ فِي كِتَابِهِ إِمْنَاءَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ تَهِي فِيهِ عَنْ اتِّخَاذِهِ كَاتِبًا فَهَرَبَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ
"الْفَتْحِ" التَّجَا إِلَى "عُثْمَانَ" أَخُوهُ مِنَ الرِّضَاعَةِ فَاجَارَهُ، وَاسْتَجَارَ لَهُ "عُثْمَانُ" عِنْدَ النَّبِيِّ فَاجَارَهُ لَهُ.
وَقَدْ عَيَّنَّهُ "عُثْمَانُ" عَامِلًا عَلَى مِصْرَ، وَافْتَتَحَ إِفْرِيقِيَّةَ، وَمَاتَ سَنَةَ سِتِّ وَثَلَاثِينَ، أَوْ سَبْعِ وَخَمْسِينَ، أَوْ
تِسْعِ وَخَمْسِينَ. وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ لَهُ مِنْ قُرَيْشٍ.

وَهُنَاكَ رِوَايَةٌ يَرْجِعُ سَنَدُهَا إِلَى "أَنْسِ بْنِ مَالِكٍ"، تَذَكَّرَ أَنَّ "رَجُلًا كَانَ يَكْتُبُ لِرَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ، فَكَانَ إِذَا أَمْلَى عَلَيْهِ سَمِيعًا بَصِيرًا، كَتَبَ سَمِيعًا عَلِيمًا، وَإِذَا أَمْلَى عَلَيْهِ سَمِيعًا عَلِيمًا، كَتَبَ
سَمِيعًا بَصِيرًا. وَكَانَ قَدْ قَرَأَ الْبَقْرَةَ وَالْأَنْعَامَ، وَكَانَ مِنْ قُرَاهِمَا قَرَأَ قُرْآنًا كَثِيرًا، فَتَنَصَّرَ الرَّجُلُ، وَقَالَ
إِنَّمَا كُنْتُ أَكْتُبُ مَا شِئْتُ عِنْدَ مُحَمَّدٍ. . . قَالَ: فَمَاتَ". وَلَا تَعْرِفُ كَاتِبًا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ هَذَا الْوَصْفِ سِوَى

"عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ". فَهُوَ الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ. وَهِيَ قِصَّةٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ صَحِيحَةً، لِأَنَّ
ارْتِدَادَ "عَبْدِ اللَّهِ" إِنَّمَا كَانَ بِمَكَّةَ، فَدَلِيلُ النَّصِّ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَهِيَ سُورَةُ مَكِّيَّةٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ
قَدْ قَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَالْإِنشَاءِ، ثُمَّ تَنَصَّرَ، وَهُمَا سُورَتَانِ مَدْيَنِيَّتَانِ.

وَفِي "عَبْدِ اللَّهِ" نَزَلَتْ الْآيَةُ: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، أَوْ قَالَ: أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ
شَيْءٌ". وَمَنْ قَالَ: سَأَنْزِلُ مِثْلَ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ"، عَلَى رَأْيِ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ. "كَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ فِيمَا يُعْلِي عَزِيزٌ حَكِيمٌ، فَيَكْتُبُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، فَيَغَيِّرُهُ، ثُمَّ يَقْرَأُ عَلَيْهِ كَذَا وَكَذَا لَمَّا
حَوَّلَ، فَيَقُولُ نَعَمْ سَوَاءً. فَرَجَعَ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَلِحَقِّ بَقْرِيشٍ. وَقَالَ لَهُمْ: لَقَدْ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ عَزِيزٌ حَكِيمٌ،
فَاحْوَلَهُ ثُمَّ أَقُولُ لَمَّا أَكْتُبُ، فَيَقُولُ: نَعَمْ سَوَاءً. ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ قِتْحِ مَكَّةَ". وَوَرَدَ فِي رِوَايَةِ
أُخْرَى: "وَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ إِذَا أَمَلَى عَلَيْهِ سَمِيعًا عَلِيمًا، كَتَبَ هُوَ عَلِيمًا
حَكِيمًا: وَإِذَا قَالَ: عَلِيمًا حَكِيمًا، كَتَبَ سَمِيعًا عَلِيمًا، فَشَكَ وَكَفَرَ. وَقَالَ: إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ يُوحَى إِلَيْهِ،
فَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ وَإِنْ كَانَ اللَّهُ يُنْزِلُهُ، فَقَدْ أَنْزَلْتُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ. قَالَ مُحَمَّدٌ: سَمِيعًا عَلِيمًا. فَقُلْتُ أَنَا:
عَلِيمًا حَكِيمًا. فَالْحَقُّ بِالْمُشْرِكِينَ، وَوَشَى بَعْمَارَ وَجُبَيْرَ عِنْدَ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ، أَوْ لَبْنِي عَبْدِ الدَّارِ،
فَأَحْذَوْهُمْ فَعَدُّوا".

وَوَرَدَ فِي رِوَايَةِ أُخْرَى: "كَانَ قَدْ تَكَلَّمَ بِالْإِسْلَامِ فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَاتَ يَوْمٍ يَكْتُبُ
لَهُ شَيْئًا، فَلَمَّا نَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْمُؤْمِنِينَ: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ. أَمْلَاهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى
قَوْلِهِ: ثُمَّ أَنْشَأَ خَلْقًا آخَرَ، عَجَبَ عَبْدُ اللَّهِ فِي تَفْصِيلِ خَلْقِ الْإِنْسَانَ، فَقَالَ: تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَكَذَا أَنْزَلْتُ عَلَى، فَشَكَ عَبْدُ اللَّهِ حَيْثُ دُ، وَقَالَ لَنْ كَانَ مُحَمَّدٌ

صَادِقًا لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ كَمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وَلَئِنْ كَانَ كَاذِبًا، لَقَدْ قُلْتُ كَمَا قَالَ. وَذَلِكَ قَوْلُهُ: وَمَنْ قَالَ سَأَنْزِلُ
مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ. وَارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ."

وَوَرَدَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: كُنْتُ أَصْرِفُ مُحَمَّدًا حَيْثُ أُرِيدُ. كَانَ يُمْلِي عَلَيَّ. عَزِيزٌ حَكِيمٌ، فَأَقُولُ: أَوْ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ، فَيَقُولُ: نَعَمْ كُلُّ صَوَابٍ. فَهَدَّرَ النَّبِيُّ دَمَهُ. وَذَكَرَ أَنَّهُ "قَالَ لِقُرَيْشٍ: أَنَا آتِي بِمِثْلِ مَا يَأْتِي بِهِ
مُحَمَّدٌ. وَكَانَ يُمْلِي عَلَيْهِ الظَّالِمِينَ، فَيَكْتُبُ: الْكَافِرِينَ، يُمْلِي عَلَيْهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، فَيَكْتُبُ: غَفُورٌ رَحِيمٌ
وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ، وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ.
وَمَنْ قَالَ سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِقَتْلِهِ، فَكَلَّمَهُ فِيهِ عُثْمَانُ بْنُ
عَفَّانَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِتَرْكِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ "الْبُحَارِيُّ" أَنَّهُ "كَتَبَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَالَفَ فِي كِتَابِهِ إِيمَانَهُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ
فِيهِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ نَهَى فِيهِ عَنِ اتِّخَاذِهِ كَاتِبًا، فَهَرَبَ حَتَّى مَاتَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ كَافِرًا". وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ
هَرَبَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ أَمِنَ النَّبِيُّ النَّاسَ إِلَّا أَرْبَعَةً نَفَرٍ وَأَمْرًا ثَيْنٍ. عِكْرِمَةَ، وَابْنَ خَطَلٍ، وَمُقَيْسُ ابْنِ
صُبَابَةَ، وَابْنُ أَبِي سَرْحٍ، فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ فَاخْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ، فَجَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلَى النَّبِيِّ، وَهُوَ يُبَايِعُ
النَّاسَ، فَاسْتَجَارَ لَهُ عُثْمَانُ، فَاجَارَهُ. وَعَاشَ وَشَهِدَ فَتْحَ مِصْرَ مَعَ "عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ"، وَأَمْرَهُ "عُثْمَانُ"
عَلَى مِصْرَ. وَاخْتَلَفَ فِي وَفَاتِهِ، فَقِيلَ مَاتَ سَنَةَ "536" وَقِيلَ عَاشَ إِلَى سَنَةِ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ. وَكَانَ أَخَا
عُثْمَانَ فِي الرِّضَاعَةِ.

وَكَانَ "جَهَيْمُ بْنُ الصَّلْتِ بْنِ مَخْرَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ الْمُطَّلِبِيُّ"، مِمَّنْ تَعَلَّمَ الْخَطَّ فِي
الْجَاهِلِيَّةِ، فَجَاءَ الْإِسْلَامَ وَهُوَ يَكْتُبُ، وَقَدْ كَانَ كَتَبَ لِرَسُولِ اللَّهِ. ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ هُوَ وَ"الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ"

يُكْتَبَانِ أَمْوَالَ الصَّدَقَاتِ . وَهُوَ الَّذِي كَتَبَ كِتَابَ الرَّسُولِ إِلَى "يَحْتَنُ بْنُ رُوْبَةَ" بِبُوكِ، وَكِتَابَةَ لِيَزِيدَ بْنِ
الطُّفَيْلِ الْحَارِثِيِّ .

وَذَكَرَ اسْمَ "الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ الْمُخْزُومِيِّ" فِي جُمْلَةٍ مِنْ كِتَابِ الرَّسُولِ . فِيهِ طَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ ، أَنَّهُ
كَتَبَ لَهُ كِتَابَةً لِعَبْدِ يَغُوثَ بْنِ وَعْلَةَ الْحَارِثِيِّ ، وَكِتَابَةَ لِعَاصِمِ بْنِ الْحَارِثِ الْحَارِثِيِّ ، وَكِتَابَةَ لِلْجَابِجِ ، رَجُلٌ
مِنْ "بَنِي سُلَيْمٍ" وَكَانَ اسْمُهُ "عَبْدُ مَنَافٍ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مُخْزُومٍ" ، وَيُكْنَى "أَبَا عَبْدِ اللَّهِ" ،
كَانَ مِنْ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ ، قَبْلَ أَسْلَمَ بَعْدَ عَشْرَةِ ، وَقَبْلَ قَبْلِ ذَلِكَ . وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يُجْلِسُ فِي دَارِهِ الَّتِي
عَلَى "الصَّفَا" ، حَتَّى تَكْمُلُوا أَرْبَعِينَ رَجُلًا ، وَكَانَ آخِرُهُمْ إِسْلَامًا "عُمَرُ" فَلَمَّا تَكْمَلُوا أَرْبَعِينَ رَجُلًا
خَرَجُوا ، وَأَقَطَعَهُ النَّبِيُّ دَارًا بِالْمَدِينَةِ .

وَ "عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ" مِنْ كِتَابِ الرَّسُولِ كَذَلِكَ . كَانَ يُجِيبُ عَنْهُ الْمُلُوكَ ، وَبَلَغَ مِنْ أَمَاتِهِ
عِنْدَهُ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُهُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ فَيُكْتَبُ وَيُخْتَمُ وَلَا يَقْرَأُ لِأَمَاتِهِ عِنْدَهُ ، "قَالَ عُمَرُ: كَتَبَ
إِلَى النَّبِيِّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَابٌ . فَقَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَرْقَمِ الزُّهْرِيُّ: أَجِبْ هَؤُلَاءِ عَنِّي ، فَأَخَذَ
عَبْدُ اللَّهِ الْكِتَابَ فَأَجَابَهُمْ ، ثُمَّ جَاءَ بِهِ ، فَعَرَضَهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ: أَصَبْتَ ، قَالَ
عُمَرُ؟ فَقُلْتُ: رَضِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِمَا كَتَبْتُ ، فَمَا زَالَتْ فِي نَفْسِي يَعْنِي حَتَّى
جَعَلْتُهُ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ . وَكَتَبَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ ، وَكَانَ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ أَيَّامَ عُمَرَ ، وَكَانَ أَمِيرًا عِنْدَهُ .
وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا غَابَ عَنِ الرَّسُولِ ، وَغَابَ زَيْدٌ بْنُ ثَابِتٍ ، وَاحْتَجَّ الرَّسُولُ إِنْ يُكْتَبَ إِلَى أَحَدٍ أَمْرٌ مِنْ
حَضْرٍ أَنْ يُكْتَبَ . فَمَنْ هَؤُلَاءِ عُمَرُ وَعَلِيٌّ وَحَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ وَ الْمُغِيرَةُ .

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ مِنَ الْأَرْقَمِ بْنِ عَبْدِ يَعُوثَ الزُّهْرِيِّ، وَالْعَلَاءِ بْنِ عُقْبَةَ، يَكْتَبَانِ بَيْنَ النَّاسِ الْمَدَائِنَاتِ وَسَائِرِ الْعُقُودِ وَالْمَعَامَلَاتِ. وَذَكَرَ أَنَّ "عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْأَرْقَمِ" الزُّهْرِيَّ، كَانَ مِنَ الْمُوَظَّيْنِ عَلَى كِتَابِهِ الرَّسَائِلِ عَنِ النَّبِيِّ .

وَكَانَ "حَنْظَلَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ صَيْفِيٍّ" الْأَسِيدِيَّ، مِنْ كِتَابِ الرَّسُولِ، وَقَدْ نَعْتَهُ الطَّبْرِيَّ بِ"كَاتِبِ النَّبِيِّ". وَعَرَفَ بِ"الْكَاتِبِ". وَهُوَ مِنْ "بَنِي أُسَيْدٍ"، وَبَنُو أُسَيْدٍ مِنْ أَشْرَافِ تَمِيمٍ. وَهُوَ ابْنُ أَخِي "أَكْثَمِ بْنِ صَيْفِيٍّ" حَكِيمِ الْعَرَبِ. وَقَدْ عُرِفَ بِ"حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ". وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ "خَلِيفَةَ كُلِّ كَاتِبٍ مِنْ كِتَابِ النَّبِيِّ، إِذَا غَابَ عَنْ عَمَلِهِ، فَغَلَبَ عَلَيْهِ اسْمُ الْكَاتِبِ. وَكَانَ يَضَعُ عِنْدَهُ خَاتَمَهُ، وَقَالَ لَهُ: الرَّمْنِيُّ، وَأَذْكَرَنِي بِكُلِّ شَيْءٍ لِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ إِلَّا أَذْكَرَهُ، فَلَا يَبِيتُ رَسُولُ اللَّهِ وَعِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْهُ". وَمَاتَ بِمَدِينَةِ الرَّهَاءِ .

وَمِنْ كِتَابِ الرَّسُولِ: "شَرْحِبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ" الطَّابِخِيَّ. وَيُقَالُ الْكِنْدِيَّ، وَيُقَالُ التَّمِيمِيَّ. وَهُوَ مِمَّنْ سَيَرَهُ "أَبُو بَكْرٍ" فِي فُتُوحِ الشَّامِ. وَكَانَ أَمِيرًا عَلَى رُبْعٍ مِنْ أَرْبَاعِ الشَّامِ لِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ، وَقَدْ مَاتَ فِي طَاعُونِ "عَمْرٍوسَ".

وَكَانَ "خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ" "خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي" مِمَّنْ كَتَبَ لِلرَّسُولِ. كَتَبَ لَهُ كِتَابَةً إِلَى "بَنِي عَمْرٍو بْنِ حَمِيرٍ". وَهُوَ مِنْ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ. وَقَدْ اسْتَعْمَلَهُ الرَّسُولُ عَلَى صَدَقَاتِ مَذْحِجٍ وَعَلَى صَنْعَاءِ، فَلَمْ يَزَلْ عَلَيْهَا إِلَى أَنْ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ. وَكَانَ لَهُ إِخْوَةٌ هُمَا: أَبَانُ وَعَمْرُو بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، وَكَانَا مِمَّنْ عَمَلَا لِلرَّسُولِ. فَلَمَّا تُوْفِيَ الرَّسُولُ، رَجَعَا مَعَ خَالِدٍ عَنْ أَعْمَالِهِمْ، فَخَرَجُوا إِلَى الشَّامِ، وَفِي جُمْلَةِ مَا كَتَبَهُ خَالِدٌ، كِتَابَ الرَّسُولِ لِبَنِي أُسَيْدٍ، وَكِتَابَةَ لِلْعَدَاءِ بْنِ خَالِدِ بْنِ هُوْدَةَ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ عَامِرِ بْنِ

عِكْرَمَةَ، وَكِتَابَةَ لِرَأْسِدِ ابْنِ عَبْدِ السَّلْمِيِّ، وَكِتَابَةَ لِحَرَامِ بْنِ عَبْدِ عَوْفٍ مِنْ "بَنِي سُلَيْمٍ"، وَكِتَابَةَ لِبَنِي
غَادِيَا، وَهُمْ قَوْمٌ مِنْ يَهُودَ، وَكِتَابَةَ لِبَنِي عَرِيضٍ، قَوْمٌ مِنْ يَهُودَ، وَكِتَابَةَ لثَقِيفٍ، وَكِتَابَةَ لِسَعِيدِ بْنِ سُفْيَانَ
الرَّعْلِيِّ.

وَكَانَ "أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ" "الْعَاصِي"، وَهُوَ أَخُو خَالِدٍ، مِمَّنْ أَسْلَمَ بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ إِلَى يَثْرِبَ.
وَيُقَالُ أَيَّامَ خَبِيرٍ. وَكَانَ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى إِمْلَاءَ مُصْحَفِ عُثْمَانَ عَلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، يَوْمَ جُمُعَةٍ فِي خِلَافِهِ
عُثْمَانَ، أَمْرَهُمَا بِذَلِكَ عُثْمَانُ. وَذَلِكَ فِي رِوَايَةٍ مِنْ جَعَلَهُ حَيًّا إِلَى أَيَّامِ الْخَلِيفَةِ "عُثْمَانَ". وَزَعَمَ فِي
رِوَايَاتٍ أُخْرَى أَنَّهُ قَتَلَ يَوْمَ أَجْنَادَيْنِ سَنَةَ ثَلَاثِ عَشْرَةَ، أَوْ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ. وَقِيلَ قَتَلَ يَوْمَ مَرْجِ الصُّفْرِ. وَذَكَرَ
فِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ تُوفِّيَ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ فِي خِلَافِهِ عُثْمَانَ.

وَكَانَ "طَلْحَةَ" مِنَ الْكُتْبَةِ. وَهُوَ أَحَدُ الثَّمَانِيَةِ الَّذِينَ سَبَقُوا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَاحِدُ السَّنَةِ أَصْحَابِ الشُّورَى.
وَكَانَ تَاجِرًا، وَكَانَ عِنْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ فِي تِجَارَةِ فِي الشَّامِ. وَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ أَحَى النَّبِيُّ بَيْنَهُ وَالزُّبَيْرِ. وَذَكَرَ
أَنَّهُ أَحَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ "كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ" حِينَ أَحَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ. وَكَانَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ، كَانَتْ غَلَّتْهُ
الْفَا وَاقِيًا تَهْلَ يَوْمَ. وَالْوَاقِي وَزُنُّهُ وَزُنُّ الدِّيْنَارِ، وَعَلَى ذَلِكَ وَزُنُّ دَرَاهِمِ فَارِسِ الَّتِي تُعْرَفُ بِالْبَغْلِيَّةِ.

وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ فِي جُمْلَةٍ مِنْ كُتْبِ الرَّسُولِ. كَتَبَ لَهُ كِتَابَةٌ لِبَنِي مُعَاوِيَةَ بْنِ جَرُولِ الطَّائِبِينَ.
وَ"أَبُو عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ"، مِنْ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ الْكَاتِبَةِ الْقَارِئَةِ. وَهُوَ مِنَ الْأَوَائِلِ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ،
كَانَ إِسْلَامُهُ قَبْلَ دُخُولِ النَّبِيِّ دَارِ "الْأَرْقَمِ"، وَقَدْ أَحَى الرَّسُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ "سَعِيدِ بْنِ مُعَاذٍ".

و "العلاء بن الحضرمي"، وهو "عبدالله بن عماد"، وكان أبوه قد سكن مكة وحالف حرب بن أمية، وكان للعلاء عدة إخوة منهم: "عمرو بن الحضرمي"، وهو أول قتيل من المشركين، وماله أول مال خمس في المسلمين، وبسببه كانت وقعة بدر. وقد استعمل النبي "العلاء" على البحرين. وهو الذي كتب للرسول كتابه لبني معن الطائيين، وكتابة لأسلم من خراعة. وكان أخوه "ميمون بن الحضرمي" صاحب بئر "ميمون" التي بأطح مكة، احتقرها في الجاهلية. وذكر "المسعودي" أن العلاء ربما كتب بين يدي النبي مع "أبان ابن سعيد".

و "يزيد بن أبي سفيان" أخو "معاوية" من الكتاب كذلك توفي سنة "I8" أو "I9" للهجرة. وهو ممن أسلم يوم الفتح، وقد كان عمره قد استخلفه على "الشام" بعد وفاة "معاذ"، فلما مات استخلف أخاه "معاوية".

وكان "معاوية بن أبي سفيان" من كتبه الرسول. وذكر أنه كان من الكتبة الحسبة الفصحاء. ومعنى هذا أنه كان يتقن الكتابة والحساب. ولم يذكر من ذكر سيرته متى تعلم الكتابة. ولا استبعد أن يكون قد تعلمها بمكة قبل دخوله في الإسلام. وهو ممن ولد قبل الإسلام وأسلم عام الفتح. فتكون كتابته للرسول إذن بعد هذا العام. ومن كتبه التي كتبها للرسول كتابه لربيع بن ذر مَرَحَب الحضرمي، وكتابة لبني قرة بن عبد الله بن أبي نجيح التبهائين، وكتابة لعُبَبة بن فرقد، وكتابة لوائل بن حُجر لما أراد الشخوص إلى بلاده. وذكر "المسعودي" أن "معاوية" كتب للرسول قبل وفاته بأشهر.

و "المغرة بن شعبة" من ذهاة العرب وشياطينهم. أسلم قبل عمرة الحديبية. وكان يقال له "مغيرة الرأي". وكان رسول "سعد" إلى "رستم"، أصيبت عينه باليرموك، وروي أنه كان أول من وضع ديوان

البصرة، وأول من سلم عليه بالأمره. وهو الذي كتب كتاب رسول الله إلى أهل نجران. وكتابة يزيد بن المحجل الحارثي. وكتابة لبني قنن بن ثعلبة من بني الحارث، وكتابة لبني جوين الطائيين، وكتابة لعامر بن الأسود بن عامر بن جوين الطائي، وكتابة لبني الجرمز بن ربيعة، ومم من جهينة. وذكر أنه والحصين بن نمير كانا يكتبان ما بين الناس.

و "معيتيب" ابن أبي فاطمة، من "ذي أصبح" وقيل من "بني سدوس".

وكان حليفاً لبني عبد شمس. أسلم بمكة. وقد ولاه "عمر" بيت المال، ثم كان على خاتم "عثمان". وورد أنه كان حليفاً لبني أسد، وكان يكتب مغانم رسول الله.

وكان "عقبة بن عامر بن عيس" الجهني الصحابي المشهور من الكتاب وصف بأنه "كان قارئاً عالماً بالفرائض والفقه، فصيح اللسان، شاعراً كاتباً، وهو أحد من جمع القرآن". وعثر على مصحفه بمصر على غير تأليف مصحف "عثمان" وفي آخره: كُتِبَ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ بِيَدِهِ". ونجد في طبقات "ابن سعد" صورة كتاب أمر الرسول بكتابه لعوسجه بن حرملة الجهني في آخره: "وكتب عقبة وشهد".

وجاء في خبر ضعيف أنه كان للرسول كاتب يقال له "السجل"، وكاتباً يقال له: "ابن خطل"، بكعب قدام النبي، صلى الله عليه وسلم، فكان إذا نزل: غفور رحيم، كتب رحيم غفور، وإذا نزل: سميع علیم، كتب علیم سمیع. وفيه: فقال ابن خطل: ما كنت أكتب إلا ما أريد، ثم كفر ولحق بمكة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، من قتل ابن خطل، فهو في الجنة. فقتل يوم الفتح وهو متعلق بأستار الكعبة". وهذا وهم، وقد خلط صاحب هذا الخبر بين "عبد الله بن أبي سرح" وبين "ابن خطل" الذي لم يرد في الأخبار أنه كتب للرسول.

وَذَكَرَ "ابْنَ دِحْيَةَ" أَنَّ فِي "بَنِي التَّجَارِ" كَاتِبًا كَانَ يَكْتُبُ الْوَحْيَ لِلرَّسُولِ ثُمَّ تَنَصَّرَ . وَهُوَ خَبْرٌ لَا نَجْدُهُ فِي الْمَوَارِدِ الْأُخْرَى، وَلَمْ يُنصَّ عَلَى اسْمِ الْكَاتِبِ، وَالْأَغْلَبُ فِي نَظَرِي أَنَّهُ مِنَ الْأَخْبَارِ الْمَوْضُوعَةِ، وَضَعَّ عَلَى بَنِي التَّجَارِ لِلإِسَاءَةِ إِلَيْهِمْ، وَضَعَهُ مِنْ كَانَ يَتَحَامَلُ عَلَيْهِمْ .

وَيُظْهِرُ أَنَّ كِتَابَ الرَّسُولِ قَدْ وَرَعُوا الْأَعْمَالَ الْكِتَابِيَّةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، أَوْ إِنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي وَرَعَ تِلْكَ الْأَعْمَالَ عَلَيْهِمْ، حَيْثُ خَصَّصَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ . فَقَدْ رَوَى أَنَّ عَلِيًّا وَعُثْمَانَ كَانَا يَكْتُبَانِ الْوَحْيَ فَإِنَّ غَابَا كَتَبَ أَبِي بِنِ كَعْبٍ وَزُبْدُ بْنُ ثَابِتٍ . وَأَنَّ خَالِدَ بْنَ سَعِيدٍ بِنِ الْعَاصِ وَمُعَاوِيَةَ يَكْتُبَانِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي حَوَائِجِهِ، وَأَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ وَالْحُصَيْنُ بْنُ نُمَيْرٍ يَكْتُبَانِ مَا بَيْنَ النَّاسِ . وَإِنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ الْأَرْقَمِ وَالْعَلَاءُ بْنَ عُقْبَةَ يَكْتُبَانِ بَيْنَ الْقَوْمِ فِي قِبَاتِهِمْ وَمِيَاهُهُمْ وَفِي دُورِ الْأَنْصَارِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ . وَإِنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ يَكْتُبُ إِلَى الْمُلُوكِ مَعَ مَا كَانَ يَكْتُبُهُ مِنَ الْوَحْيِ . وَإِنَّ مُعَيْقِبَ بْنَ أَبِي فَاطِمَةَ الدَّوْسِيِّ يَكْتُبُ مَغَانِمَ رَسُولِ اللَّهِ . وَإِنَّ حَنْظَلَةَ بْنَ الرَّبِيعِ "رَبِيعَةَ" بْنِ الْمُدَقِّعِ بْنِ أَخِي أَكْثَمِ بْنِ صَيْفِي الْأَسَدِيِّ، "الْأَسِيدِي"، خَلِيفَةَ كُلِّ كَاتِبٍ مِنْ كِتَابِ النَّبِيِّ، إِذَا غَابَ عَنْ عَمَلِهِ فَغَلَبَ عَلَيْهِ اسْمُ الْكَاتِبِ . وَكَانَ يَضَعُ عِنْدَهُ خَاتَمَهُ . وَقَالَ لَهُ: الزَّمَنِي وَأَذْكَرَنِي بِكُلِّ شَيْءٍ لثَلَاثَةَ . فَكَانَ لَا يَأْتِي عَلَى مَالٍ وَلَا طَعَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا أَذْكَرَهُ، فَلَا يَبِيتُ رَسُولٌ أَقَّةَ وَعِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْهُ . فَهُوَ كَاتِبٌ عَامٌّ يَكْتُبُ لِلرَّسُولِ فِي كُلِّ أَمْرِهِ، وَهُوَ خَلِيفَةُ كُلِّ الْكُتَّابِ . وَهَذَا غَلَبَتْ عَلَيْهِ لَفْظُهُ "الْكَاتِبِ" . وَقَدْ كَانَتْ وَقَاتُهُ فِي خِلَافِهِ "عُمَرَ"، وَمَاتَ فِي "الرَّهَاءِ" مِنْ بِلَادِ مُضَرَ .

وَذَكَرَ أَنَّ "الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ" وَ"الْحُصَيْنُ بْنُ نُمَيْرٍ" يَكْتُبَانِ أَيْضًا فِيمَا يَعْزُضُ مِنْ حَوَائِجِهِ .

وَ"حَدِيفَةَ بْنِ الْإِيْمَانِ" "نُوفِي سَنَةَ 36 هـ" مِمَّنْ بَكْتُبُ خَرَصَ التُّخْلُ . وَخَصَّصَ "الْمَسْعُودِي" عَمَلَهُ بِخَرَصِ الْحِجَازِ .

وَذَكَرَ "عَبْدَ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ" الضَّمْرِيُّ فِي جُمْلَةِ كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْمُلُوكِ . وَنَجِدُ فِي طَبَقَاتِ "ابْنِ سَعْدٍ" صُورَةَ كِتَابِ أَرْسَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ "لِمَنْ أَسْلَمَ مِنْ حَدَسٍ مِنْ لَحْمٍ" ، كَتَبَهُ لَهُ "عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ" .

وَكَانَ "الْعَلَاءُ بْنُ عُقْبَةَ" فِيمَنْ كَتَبَ لِلنَّبِيِّ . وَذَكَرَ أَنَّ الرَّسُولَ كَانَ يَبْعَثُهُ وَالْأَرْقَمَ فِي دُورِ الْأَنْصَارِ . وَكَانَا يَكْتُبَانِ بَيْنَ النَّاسِ الْمَدَائِنَاتِ وَالْعُهُودِ وَالْمَعَامَلَاتِ . وَفِي جُمْلَةِ مَا كَتَبَهُ لِلرَّسُولِ كِتَابَهُ لِبَنِي شَنْخٍ مِنْ جُهَيْنَةَ ، وَكِتَابَةَ لِلْعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسِ السُّلَمِيِّ ، أَنَّهُ أَعْطَاهُ "مَدْفُوعًا" . وَذَكَرَ أَنَّهُمَا كَانَا يَكْتُبَانِ بَيْنَ النُّوَمِ فِي قِبَائِلِهِمْ وَمِيَاهُهُمْ ، وَفِي دُورِ الْأَنْصَارِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ .

وَ"أَبِي بْنُ كَعْبٍ بْنِ قَيْسٍ" مِنْ كِتَابِ الْوَحْيِيِّ ، وَهُوَ مِنْ يَثْرِبَ مِنْ "بَنِي النَّجَّارِ" مِنْ "الْحَزْرَجِ" . وَقَدْ عُرِفَ بـ "سَيِّدِ الْقُرَاءِ" ، وَكَانَ أَقْرَأَ النَّاسِ لِلْقُرْآنِ . وَكَانَ أَحَدَ فَتَهَاءِ الصَّحَابَةِ وَأَقْرَاهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ . وَكَانَ مِمَّنْ كَتَبَ لِلنَّبِيِّ قَبْلَ "زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ" وَمَعَهُ أَيْضًا . وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ لِلرَّسُولِ اللَّهُ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ ، وَأَوَّلَ مَنْ كَتَبَ فِي آخِرِ الْكِتَابِ : "وَكَتَبَ فُلَانٌ" وَكَانَ إِذَا لَمْ يَحْضُرْ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ "زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ" فَكَتَبَ . وَكَانَ وَزَيْدٌ يَكْتُبَانِ الْوَحْيِيَّ بَيْنَ يَدَيْ الرَّسُولِ ، وَيَكْتُبَانِ كِتَابَهُ إِلَى النَّاسِ وَمَا يَقْطَعُ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَنَجِدُ فِي طَبَقَاتِ ابْنِ سَعْدٍ ، صُورَةَ كُتِبَ دُونَهَا أَبِي لِلرَّسُولِ ، مِنْهَا كِتَابُهُ لِخَالِدِ بْنِ ضِمَادِ الْأَزْدِيِّ ، وَكِتَابَةُ لِعَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ ، وَهُوَ عَهْدٌ يَعْلَمُهُ فِيهِ شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ وَفَرَائِضُهُ وَحُدُودُهُ ، حَيْثُ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ ، وَمِنْهَا كِتَابُهُ لِجُنَادَةَ الْأَزْدِيِّ ، وَكِتَابَةُ لِلْمُنْدَرِ ابْنِ سَاوِي ، وَكِتَابُهُ إِلَى "الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ" ، بِشَأْنِ إِرْسَالِ مَا تَجَمَّعَ عِنْدَهُ مِنْ الصَّدَقَةِ وَالْعُشُورِ ، وَكِتَابَةُ لِجَمَاعٍ فِي جَبَلِ تَهَامَةَ كَانُوا قَدْ غَضَبُوا الْمَارَةَ مِنْ كِنَانَةَ وَالْحُكْمَ وَالْقَارَةَ وَمَنْ أَتْبَعَهُمْ مِنَ الْعَبِيدِ ، وَكِتَابَةُ لِبَارِقِ بْنِ الْأَزْدِ . وَقَدْ شَهِدَ عَلَى صِحْتِهِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَحُذَيْفَةَ بْنُ الْيَمَانِ .

وزيد بن ثابت من الأنصار، من "بني التجار". ولما قدم الرسول المدينة استكبه، فكذب له الوحي، كما تولى له أمر كتابه الرسائل. ذكر أنه تعلم الكتابة على أسرى "بدر" في جماعة من غلمان الأنصار. فقد كان فداء الأسرى من أهل بدر أربعين أوقية أربعين أوقية، فمن لم يكن عنده علم عشرة من المسلمين، فكان زيد بن ثابت ممن علم. وذكر أنه جاء إلى أبيه وهو يبكي، فقال ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي، قال: الخبيث يطلب بذخل بدر، والله لا تأتيه أبداً.

وروى أنه في السنة الرابعة من الهجرة أمر الرسول زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب يهود، وقال لا آمن أن يبدلوا كتابي. فتعلم كتابهم، وتولى أمر كتابه رسائل الرسول إليهم، والرد على رسائلهم. ونسب إليه إتقانه الكتابة بلغات أخرى. ذكر المسعودي منها: الفارسية والرومية والقبطية والحبشية. وأنه تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه اللسن، وكان يكتب إلى الملوك ويحجب بحضرة النبي ويترجم له وقيل إنه كان من أعلم الصحابة بالفرائض. وكان هو الذي تولى قسم غنائم اليرموك. وتولى جمع القرآن في أيام أبي بكر، بتكليف من الخليفة. وذكر أنه كان "رأساً بالمدينة في القضاء والفنوى والقراءة والفرائض". وقد عرض زيد القرآن على رسول الله، "وكان آخر عرض رسول الله، صلى الله عليه وسلم، القرآن على مصحفه، وهو أقرب المصاحف من مصحفنا".

وكان حين قدم رسول الله المدينة ابن إحدى عشرة سنة. وكان يوم "بعث" ابن ست سنين وفيه قتل أبوه. ويظهر أنه كان قد تعلم الكتابة وهو صغير. ذكر أنه أتى يزيد النبي مقدمه المدينة، فقيل هذا من بني التجار وقد قرأ سبع عشرة سورة، فقرأ عليه فأعجبه ذلك، فقال: تعلم كتاب يهود، فإني ما آمنهم على كتابي. فتعلمها، وتولى الكتابة بالعبرانية أو السريانية بين الرسول واليهود، فضلاً عن كتابة رسائله

وَمَا يُنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنَ الْوَحْيِ حِينَ يَكُونُ عِنْدَهُ لِذَلِكَ عُدَّةٌ مِنَ الْبَارِزِينَ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ . وَبَرَزَ فِي الْقَضَاءِ
وَالْفُتُوى وَالْفَرَائِضِ ، وَعُدَّةٌ مِنَ أَصْحَابِ الْفُتُوى ، وَهُمْ سِتَّةٌ : عُمَرُ وَعَلِيٌّ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَأَبِي وَأَبُو مُوسَى ،
وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ الْقُرْآنَ .

وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ الْقُرْآنَ فِي عَهْدِ "أَبِي بَكْرٍ" ، وَقَدْ اخْتَلَفَتْ فِي سَنَةِ وَفَاتِهِ ، فَقِيلَ مَاتَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ أَوْ
ثَلَاثٍ أَوْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ ، وَقِيلَ سَنَةَ إِحْدَى أَوْ اثْنَتَيْنِ ، أَوْ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ . وَفِي خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ قَوْلِ
الْأَكْثَرِ ، وَذَكَرَ أَنَّ حَسَانَ رَأَاهُ بِقَوْلِهِ : فَمَنْ لِلْقَوَافِي بَعْدَ حَسَانَ وَابْنَةَ وَمَنْ لِلْمَعَانِي بَعْدَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ
وَعَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى "زَيْدٍ" إِحْصَاءَ النَّاسِ وَالْغَنَائِمِ ، وَتَقْسِيمَهَا عَلَيْهِمْ حَسَبَ حِصَصِهِمْ .

وَكَانَ "ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شِمَاسِ" الْأَنْصَارِيِّ مِمَّنْ كَتَبَ لِلرَّسُولِ . كُتِبَ لَهُ كِتَابَةٌ لَوْفُدِ ثَمَالَةَ وَالْحَدَّانِ . وَقَدْ
شَهِدَ عَلَى الْكِتَابِ وَوَقَعَ عَلَيْهِ "سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ" ، وَ "مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ" . وَكَانَ خَطِيبَ الْأَنْصَارِ . وَقَدْ
قَتَلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ . وَهُوَ الَّذِي أَمَرَهُ الرَّسُولُ أَنْ يُحِيبَ عَلَى خَطَابِ خَطِيبِ . "تَمِيمٌ" وَلِسَانَهَا النَّاطِقِ
"عَطَّارِدُ ابْنُ حَاجِبٍ" . فَكَانَ خَطِيبَ الْمُسْلِمِينَ .

وَ "مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ" ، هُوَ مِنَ الْأَوْسِ . وَوُلِدَ قَبْلَ الْبُعْثَةِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَمَّى فِي الْجَاهِلِيَّةِ مُحَمَّدًا . أَسْلَمَ
قَدِيمًا عَلَى يَدَيْ "مُضْعَبِ بْنِ عَمِيرٍ" ، وَأَخِي الرَّسُولِ بَيْنَةَ وَبَيْنَ "أَبِي عُبَيْدَةَ" . وَاسْتَخْلَفَهُ الرَّسُولُ عَلَى
الْمَدِينَةِ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ . وَقَدْ كَتَبَ لِلرَّسُولِ كِتَابَهُ لِمَهْرِي بْنِ الْأَبْيَضِ . نُوفِيَ سَنَةَ "43" أَوْ "46" .

وَكَانَ "أَوْسُ بْنُ خَوْلِي" مِنْ كِتَابِ يَثْرِبَ ، وَلَمَّا كَانَ صُلْحَ "الْحُدَيْبِيَّةِ" وَأَرَادَ الرَّسُولُ تَدْوِينَ الصُّلْحِ "دَعَا

أَوْسُ بْنُ خَوْلِيٍّ يَكْتُبُ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: لَا يَكْتُبُ إِلَّا ابْنُ عَمِّكَ عَلِيُّ، أَوْ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَأَمَرَ عَلِيًّا
فَكَتَبَ". وَهُوَ مِنَ الْخَزْرَجِ. وَلَمَّا الرَّسُولُ بَيْنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ أَحَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ شُجَاعِ بْنِ وَهَبٍ.
وَكَانَ مِنْ "الْكَمَلَةِ"، وَلَمَّا قُبِضَ الرَّسُولُ وَأَرَادُوا غَسْلَهُ، حَضَرَتْ الْأَنْصَارُ، وَأَبَتْ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ
يَحْضُرَ مِنْهَا أَحَدٌ، فَقِيلَ لَهُمْ: اجْتَمِعُوا عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ، فَاجْتَمَعُوا عَلَى أَوْسِ بْنِ خَوْلِيٍّ، فَحَضَرَ غَسَلَ
رَسُولَ اللَّهِ وَدَفِنَهُ مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ. وَتُوفِيَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ.

وَكَانَ "عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ" الْخَزْرَجِيُّ مِنْ كِتَابِ الرَّسُولِ وَمِنَ الشُّعْرَاءِ الْمَعْرُوفِينَ بِبِشْرٍ وَمِنَ السَّابِقِينَ
الْأَوَّلِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ وَاحِدِ الثُّقَبَاءِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ. وَكَانَ الرَّسُولُ يَقُولُ لَهُ: "عَلَيْكَ بِالْمُشْرِكِينَ"، فَيَنْظُمُ الشُّعْرَ
فِيهِمْ. وَكَانَ يَنَاقِضُ "قَيْسَ بْنَ الْخَطِيمِ" فِي حُرُوبِهِمْ، وَلَمَّا دَخَلَ الرَّسُولُ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ كَانَ ابْنُ
رَوَاحَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: خَلَوْا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

وَمَدَحِ الرَّسُولِ، وَكَانَ مِنْ جَيْدِ مَدْحِهِ لَهُ قَوْلُهُ: لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تُبْشِكُ بِالْخَبْرِ
وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ: "وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ". قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: قَدْ عَلِمَ اللَّهُ
إِنِّي مِنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ". وَسُورَةُ الشُّعْرَاءِ الَّتِي فِيهَا آيَةٌ: (وَالشُّعْرَاءُ
يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) وَمَا بَعْدَهَا، مِنْ السُّورِ الَّتِي نَزَلَتْ بِمَكَّةَ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ وَمَا بَعْدَهَا، وَهِيَ أَرْبَعُ آيَاتٍ فِي
آخِرِهَا، نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ فِي شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ اسْتَنْتَى مِنْهُمْ شُعْرَاءَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ: حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ
وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَقَالَ تَعَالَى: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا،

وَاتَّصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ، فَصَارَ الْاسْتِثْنَاءُ نَاسِخًا لَهُ مِنْ قَوْلِهِ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ .

وَهُنَاكَ كَتَبَهُ آخَرُونَ كَتَبُوا الْكِتَابَ وَالْكِتَابِينَ وَالثَّلَاثَةَ لِلرَّسُولِ، ذَكَرَ "الْمُسْعُودِيُّ" أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ أَسْمَاءُهُمْ فِي جُمْلَةِ أَسْمَاءِ مَنْ كَتَبَ لِلرَّسُولِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُتُبْ مِنْ أَسْمَاءِ كِتَابِ الرَّسُولِ إِلَّا مَنْ ثَبَّتَ عَلَى كِتَابَتِهِ وَاتَّصَلَتْ أَيَّامُهُ فِيهَا وَطَالَتْ مُدَّتُهُ وَصَحَّتْ الرِّوَايَةُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ دُونَ مَنْ كَتَبَ الْكِتَابَ وَالْكِتَابِينَ وَالثَّلَاثَةَ إِذْ كَانَ لَا يَسْتَحِقُّ بِذَلِكَ أَنْ يُسَمَّى كَاتِبًا وَيُضَافُ إِلَى جُمْلَةِ كِتَابِهِ .

وَذَكَرَ أَنَّ كِتَابَ النَّبِيِّ كَانُوا يَكْتُبُونَ بِالْخَطِّ الْمُقَوَّرِ، وَهُوَ التَّسْحِي. أَمَّا الْخَطُّ "الْمُبْسُوطُ" وَيُسَمَّى بِالْيَاسِ، فَقَدْ اسْتُعْمِلَ فِي التَّنْقِشِ عَلَى الْأَحْجَارِ وَأَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ وَجُدْرَانِ الْمَبَانِي، وَفِي كِتَابَةِ الْمُصَاحِفِ الْكَبِيرَةِ، وَمَا يُقْصَدُ بِهِ الزِينَةُ وَالزُّخْرُفُ، وَعَلَبَ عُلبَةُ إِطْلَاقِ لَفْظِ "الْكُوفِيِّ" .

وَكَانَ بَشِيرُ بْنُ كَعْبٍ الْعَدَوِيُّ مِمَّنْ قَرَأَ الْكُتُبَ . وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ التَّابِعِينَ . وَكَانَ "عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ" مِمَّنْ قَرَأَ الْكُتُبَ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْحَدِيثَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ، وَيَقْرَأُ بِالسَّرِيانِيَّةِ .

وَذَكَرَ أَهْلُ الْأَخْبَارِ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ كَانَ يَقْرَأُ الْكُتُبَ، وَإِنَّ امْرَأَةً اسْمُهَا "فَاطِمَةُ بِنْتُ مَرْ"، كَانَتْ قَدْ قَرَأَتْ الْكُتُبَ كَذَلِكَ .

وَكَانَ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ يُحْسِنُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ . مِنْهُنَّ: "الشَّعَاءُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ" الْفُرَشِيَّةُ الْعَدَوِيَّةُ . مِنْ رَهْطِ "عُمَرَ" . أَسْلَمَتْ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، وَهِيَ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُولِ . وَكَانَتْ مِنْ عَقَلَاءِ النِّسَاءِ، وَكَانَ "عُمَرُ" يَقْدِمُهَا فِي الرَّأْيِ . وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يُزَوِّرُهَا وَيُقِيلُ عِنْدَهَا فِي بَيْتِهَا، وَكَانَتْ قَدْ اتَّخَذَتْ لَهُ

فَرَأَسًا وَإِزَارًا يَنَامُ فِيهِ، وَقَدْ أَمَرَهَا الرَّسُولُ إِذْ تَعَلَّمَ "حَفْصَةَ" الْكِتَابَةَ، فَعَلَّمَهَا، كَمَا عَلَّمَهَا "رُفَيْةً" تُسَمَّى "رُفَيْةَ التَّمَلَّةِ". وَقَدْ تَعَلَّمَتِ الْكِتَابَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

وَكَانَتْ "حَفْصَةُ" زَوْجَ النَّبِيِّ وَابْنُهُ "عُمَرُ" تُكْتَبُ. وَكَانَتْ "أُمُّ كَلْثُومٍ" بِنْتُ "عُبَيْةٍ" تُكْتَبُ. وَكَذَلِكَ كَانَتْ "عَائِشَةُ بِنْتُ سَعْدٍ"، وَ"كَرِيمَةُ بِنْتُ الْمُقَدَّادِ"، وَ"شَمَيْلَةُ".

وَوَرَدَ أَنَّ "عَائِشَةَ" زَوْجَ الرَّسُولِ، أَنَّهَا كَانَتْ تَقْرَأُ الْمُصْحَفَ وَلَا تُكْتَبُ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُمَا تَعَلَّمَتَا الْقِرَاءَةَ فِي الْإِسْلَامِ.

وَوَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تُسَمَّى كُلُّ مَنْ قَرَأَ الْكُتُبَ أَوْ كَتَبَ: صَابَأً. وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُسَمِّي النَّبِيَّ أَيَّامَ كَانِ يَدْعُو النَّاسَ بِمَكَّةَ وَيَتْلُو الْقُرْآنَ صَابَأً.

وَقَدْ أُشْهِرَ أَهْلُ الْيَمَنِ بِشُيُوعِ الْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِمْ، فَكَانَ غُلَمَانُهُمْ يَتَعَلَّمُونَهَا وَيُرَدِّدُونَ قِرَاءَةَ مَا يَكْتُبُونَ وَيُقْرَأُونَ وَقَدْ أُشِيرَ إِلَى ذَلِكَ فِي شِعْرِ "لَبِيدٍ" قَوْرَدٍ: فَتَعَا فِ صَارَهُ فَالْفَتَانِ كَانَتْهَا زَبْرٌ يُرْجَعُهَا وَوَلِيدِ يَمَانٍ مُتَعَوِّدٍ لِحَنْ يُعِيدُ بِكَفَّةٍ قَلَمًا عَلَى عَسْبٍ، ذَبْلَنَ وَبَانَ

وَالزَّبْرُ: الْكُتُبُ، فَقَالَ: كَانَ تِلْكَ الْمَنَازِلِ كَتَبَ يُرَدِّدُهَا وَوَلِيدِ يَمَانٍ، أَيُّ غُلَامِ يَمَانٍ، لِأَنَّ الْكِتَابَ فِيهِمْ، لِأَنَّهُمْ أَهْلُ رَيْفٍ. مُتَعَوِّدٍ لِذَلِكَ: فَهَمْ، وَلِحْنٍ: بِمَعْنَى فَهْمٍ، يُعِيدُ بِكَفَّةٍ قَلَمًا، يَكْتُبُ فِي الْعَسْبِ وَالْبَانَ. وَكَانُوا يَكْتُبُونَ فِي الْعَسْبِ وَالْبَانَ وَالْعَرَعَرِ. فَيُظْهِرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ، حَتَّى غُلَمَانَهُمْ، كَانُوا يَكْتُبُونَ، وَيُرَدِّدُونَ الْأَطْفَالَ الْكُتُبَ، لِحِفْظِهَا وَتَعَلُّمِهَا، عَلَى نَحْوِ مَا يُفْعَلُونَ فِي الْكُتَاتِيبِ هَذَا الْيَوْمِ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ تَقِيْفًا كَانَتْ قَدْ حُدِقَتْ الْكِتَابَةُ وَبَرَزَتْ بِهَا . فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ: "لَا يَمْلِكُنَّ فِي مَصَاحِفِنَا إِلَّا غِلْمَانُ قُرَيْشٍ وَتَقِيْفٍ" ، وَأَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ قَالَ: "اجْعَلُوا الْمَمْلِيَّ مِنْ هَذَيْنِ وَالْكَاتِبَ مِنْ تَقِيْفٍ" . وَذَكَرَ أَنَّ غَيْلَانَ بْنَ سَلَمَةَ بْنَ مُعْتَبٍ ، وَهُوَ مِمَّنْ أَسْلَمَ يَوْمَ الطَّائِفِ ، كَانَ كَاتِبًا كَمَا كَانَ مُعَلِّمًا .

وَوَرَدَ فِي الْأَخْبَارِ إِنَّ الْجَاهِلِيَّيْنَ كَانُوا يَضَعُونَ الْكُتُبَ الَّتِي تُرْسَلُ إِلَى الْمُلُوكِ مِنَ الْأَفَاقِ ، عَلَى لَوْحٍ ضُمَّتْ إِلَيْهِ الْوَاحِ مِنْ جَوَانِبِهِ ، فَلَا يَمْسَسُهَا إِلَّا يَدُ الْمَلِكِ ، يَأْخُذُ مَا يَشَاءُ وَيَتْرُكُ مَا يَشَاءُ وَيُجِيبُ عَلَى مَا فِيهَا . وَفِي هَذَا الْحَبْرِ دَلَالَةٌ عَلَى شُبُوحِ الْكِتَابَةِ وَالْمُرَاسَلَاتِ عِنْدَ الْجَاهِلِيَّيْنَ ، وَعَلَى وُجُودِ دِيْوَانٍ خَاصٍّ لَدَى الْمُلُوكِ ، يَتَوَلَّى ، النَّظَرَ فِي الْمُرَاسَلَاتِ . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى وَرَدَ فِي شَعْرِ لَبِيدٍ: أَوْ مَذْهَبٍ جَدَّدَ عَلَيَّ الْوَاحِ هُنَّ التَّنَاطِقُ الْمَبْرُورُ وَالْمَخْتُومُ

وَيُظْهِرُ أَنَّ قَوْمًا مِنَ الشُّعْرَاءِ كَانُوا يَكْتُبُونَ وَيَقْرَأُونَ . وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ عَلَى ثِقَافَةٍ وَعِلْمٍ . وَرَدَ فِي شَعْرِ لِلشَّاعِرِ "لَبِيدٍ" قَوْلُهُ: رَجُلًا السُّيُولَ عَنِ الطُّلُولِ كَاتِبًا زَبْرٌ تَجِدُ مُتَوْنَهَا أَقْلَامَتَا

وَلَا يُمَكِّنُ صُدُورِ هَذَا الْبَيْتِ ، إِلَّا مِنْ رَجُلٍ كَاتَبَ لَهُ ذِكَاؤُ حَادٍ ، وَرَبَّمَا كَانَ ذَلِكَ الشَّاعِرُ كَاتِبًا يُدَوِّنُ شَعْرَهُ وَيَحْفَظُهُ عِنْدَهُ ، فَوَصَفَهُ مِثْلَ هَذَا لِلطُّلُولِ ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ إِلَّا مِنْ رَجُلٍ لَهُ عِلْمٌ بِالْكِتَابَةِ ، وَحِذْقٌ وَدِرَايَةٌ .

وَفِي الْبَيْتِ الْآتِي: فَمَدَّافِعَ الرِّيَّانِ عَرِي رَسْمِهَا خُلِقًا كَمَا ضَمِنَ الْوَحْيِ سَلَامِهَا

أشار إلى الكتابة كذلك، فالوحي هو الكتابة، والسلام الحجاره، أي كأن ما بقي من رسمها بعد أن
عزبت، مثل ما يبقى من الكتابة في الأحجار. ويؤخذ من ذلك أن الحجاره كانت - كما ذكرت في
مواضع من هذا الكتاب - مادة من مواد الكتابة عند الجاهليين.

وفي شعر لبدي: فتعاف صاره فالقنان كأنها زبر يُرجعها وليد يمان

معود لحن يُعيد بكفة قلما على عسب، ذبلن وبان

دلالة واضحة على إلمامه بالكتابة والقراءة، وعلى وقوفه على خط أهل اليمن، وعلى دراسة غلمان
اليمن للزبر، وهي الكتب.

بل ورد: أن لبديا كان يدون شعره، ويهدبه بعد كتابته، وأنه كان يكتب. روي: "أن عمر بعث إلى
المغيرة بن شعبه، وهو على الكوفة، يطلب إليه أن يستشد من قبله من شعراء الكوفة ما قالوه في
الإسلام. فأجابته الأغلب، وردّ عليه لبدي قائلا: إن شئت ما عني عنه - يعني الجاهلية - فقال: لا،
أنشدني ما قلت في الإسلام. فانطلق، فكتب سورة البقرة في صحيفة، ثم أتى بها، وقال: أبدلني الله
هذه في الإسلام مكان الشعر. فكتب المغيرة بذلك إلى عمر، فنقص عطاء الأغلب خمس مئة، وجعلها
في عطاء لبدي".

وكان الشاعر "المرقش"، وهو من شعراء الحيرة، كاتبًا قارئًا، تعلم الكتابة والقراءة في "الحيرة" مع أخيه
"حرملة" عند رجل من أهل الحيرة. وكذلك كان الشاعر "لقيط بن يعمر الإيادي" كاتبًا قارئًا، وقد

عُرِفَ بَيْنَ أَهْلِ الْأَخْبَارِ بـ "صَحِيفَتَهُ" الَّتِي أَرْسَلَهَا إِلَى قَوْمِهِ "إِيَاد"، يُنذِرُهُمْ فِيهَا بِعَزْمِ "كِسْرَى" عَلَى غَزْوِهِمْ، وَهِيَ قَصِيدَةٌ افْتُتِحَتْ بِهَذَا الْبَيْتِ: سَلَامٍ فِي الصَّحِيفَةِ مِنْ لَقِيَطٍ إِلَى مَنْ بِالْجَزِيرَةِ مِنْ إِيَادٍ وَيَجِبُ أَلَّا تَنْسَى الشَّاعِرَ: "أُمِّيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ" الَّذِي لَمْ يَكُنْ كَاتِبًا قَارِئًا حَسْبُ، بَلْ كَانَ وَاقِفًا عَلَى كُتُبِ أَهْلِ الْكُتَابِ كَذَلِكَ، وَكَانَ يَقْرَأُهَا، وَيَقْتَسِبُ مِنْهَا، وَقَدْ اسْتَحْدَمَ فِي شِعْرِهِ الْفَاطَا ذَكَرَ أَنَّهُ أَخَذَهَا مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْكُتَابِ.

وَنَصِيفٍ إِلَى مَنْ تَقَدَّمَ: "الرُّبْرَقَانِ بْنِ بَدْرِ"، وَ"التَّابِغَةُ الدُّبْيَانِي" وَ"الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادِ الْعُبْسِيِّ"، وَ"لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ"، وَ"كَعْبُ ابْنُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سَلْمَى".

وَدَعَا أَنْ الْجَاهِلِيِّينَ كَانُوا أُمَمِينَ وَعَلَى الْفِطْرَةِ وَالْبَدِيهَةِ، لَا يُحْسِنُونَ كِتَابَةَ وَقِرَاءَةَ خَلَا نَفَرٌ بِمَكَّةَ وَإِشْخَاصٍ بِشَرِبَ، دَعَا بَارِدَةَ سَخِيفَةً، لَا يُمَكِّنُ لِمَنْ لَهُ الْإِمَامُ بِأَحْوَالِ الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يُصَدَّقَ بِهَا. فَأَهْلُ الْأَخْبَارِ الَّذِينَ يَرُورُونَ هَذِهِ الرِّوَايَةَ، يُعَوِّدُونَ فَيُحْطِطُونَ أَنْفُسِهِمْ، بِسَرْدِ أَسْمَاءِ رِجَالٍ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَمِنْ الْعِرَاقِ وَبِلَادِ الشَّامِ، ذَكَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْرَأُونَ وَيَكْتُبُونَ، بَلْ ذَكَرُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، ذَكَرُوا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَقْرَأُ الْعِبْرَانِيَّةَ أَوْ السَّرْيَانِيَّةَ، كَالْأَخْنَفِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ يَذْكُرُونَ إِخْبَارَ مَرَّاسَلَاتِ سَادَاتِ الْقَبَائِلِ فِي مُخْتَلَفِ مَوَاضِعِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ مَعَ الرَّسُولِ، وَمُكَاتَبَةِ مُسَيْلِمَةَ مَعَ النَّبِيِّ وَتَأْلِيفِهِ كِتَابًا زَعَمَ أَنَّهُ وَحْيٌ نَزَلَ عَلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مِثْلُ مَا نَزَلَ عَلَى الرَّسُولِ، فَهَلْ يَعْتَلُّ بَعْدَ ذَلِكَ، قَوْلُ قَائِلٍ إِنَّ الْعَرَبَ كَانُوا أُمَمِينَ، خَلَا نَفَرٌ. وَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّهُمْ تَرَكُوا الْآفَ الْكُتَابَاتِ بِاللَّهْجَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ وَبِالْتَّمُودِيَّةِ وَالْحَيَانِيَّةِ وَالصُّفُوبِيَّةِ، بَلْ قَدْ نَجَدُ الْكِتَابَةَ فِي بَعْضِ قَبَائِلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِثْلَ قَبَائِلِ الصَّفَاةِ، أَكْثَرَ اتِّسَاعًا وَاتِّشَارًا مِمَّا عَلَيْهِ الْحَالُ بَيْنَ قَبَائِلِ هَذَا الْيَوْمِ.

وَبَعْدَ، فَالْأُمِّيَّةُ الْجَمَاعِيَّةُ الَّتِي فَرَضَهَا أَهْلُ الْأَخْبَارِ عَلَى الْجَاهِلِيِّينَ، فَجَعَلُوهُمْ أُمَّيْنًا مِائَةً بِالْمِائَةِ، لَمْ تَكُنْ
 أُمَّيَّةً صَحِيحَةً، وَإِنَّمَا جَاءَتْ مِنْ وَهْمٍ فِي فَهْمِ الْمُرَادِ مِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي أَشْرَتْ إِلَيْهَا مِنَ الْقُرْآنِ، بِدَلِيلِ
 مُنَاقِضَةِ أَهْلِ الْأَخْبَارِ أَنْفُسِهِمْ، بِذِكْرِ أَسْمَاءٍ مِنْ ذَكَرْنَاهُمْ وَمَمَّنْ لَمْ نَذَكُرْهُمْ مَمَّنْ كَانَ يُقْرَأُ وَيَكْتَبُ بِهَذَا
 الْقَلَمِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي دُونَ بِهِ الْقُرْآنِ. وَبِدَلِيلِ مَا أوردتهُ مِنْ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ فِي الْأُمَّيَّةِ، مِنْ أَنَّهَا الْوَثِيئَةُ، لَا
 الْأُمَّيَّةَ بِمَعْنَى الْجَهْلِ بِالْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ حُصًّا، لِعَدَمِ انْسِجَامِ هَذَا الْمَعْنَى مَعَ تَفْسِيرِ آيَاتِ، ثُمَّ إِنَّ الْقُرْآنَ
 الْكَرِيمَ حِينَ تَعَرَّضَ لِلْأُمَّيَّةِ، بِمَعْنَى عَدَمِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ، قَالَ: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
 الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ هُوَآءٍ مِنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ. وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ
 كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَازَتَابَ الْمُبْطُلُونَ). فَعَبَّرَ بِذَلِكَ تَغْيِيرًا مُبَيِّنًا عَنِ مَعْنَى عَدَمِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ،
 بِأَفْصَحِ عِبَارَةٍ، فَقَالَ: "وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ، لَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ"، وَلَوْ كَانَتْ الْأُمَّيَّةُ بِهَذَا الْمَعْنَى
 لَمَا أَهْمَلْ ذَكَرَهَا فِي هَذَا الْمَكَانِ. وَمَنْ ذَلِكَ الْوَهْمُ جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ الضَّعِيفَةُ مِنْ أَنَّهُ كُنْ مِنْ أُمَّه أُمَّيَّةٌ لَا
 تُحْسَبُ وَلَا تُكْتَبُ، وَلِعَاطِفَةَ دِينِيَّةٍ، شَدَّدُوا فِي أُمَّيَّةِ الْعَرَبِ، فَجَعَلُوهَا جَمِيعًا أُمَّيْنًا، لِإِظْهَارِ مُعْجَزَةِ
 لِلرَّسُولِ - هُوَ فِي غَنَى عَنْهَا - فِي أَنَّهُ ظَهَرَ بِالنَّبُوءَةِ فِي أُمَّه أُمَّيَّةً، وَجَاءَ مِنَ اللَّهِ بِأَحْسَنِ بَيَانٍ، وَهِيَ حِجَّةٌ
 لَهُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ.

وَبَعْدُ، فَقَدْ فَهَمْنَا مِنْ رِوَايَاتِ أَهْلِ الْأَخْبَارِ، أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ إِنَّمَا تَعَلَّمُوا الْكِتَابَةَ فِي عَهْدِ غَيْرِ بَعِيدٍ عَنِ
 الْإِسْلَامِ. فَهَلْ يَعْنِي هَذَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُحْسِنُونَ الْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ قَبْلَ هَذَا الْعَهْدِ أَبَدًا؟ وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ ذَلِكَ
 شَيْءٌ غَيْرٌ مَعْقُولٍ، وَأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَانُوا يَكْتُبُونَ وَيُقْرَأُونَ، كَانُوا يَكْتُبُونَ بِالْمُسْنَدِ، الْقَلَمِ الَّذِي كَتَبَ بِهِ أَكْثَرُ

أهل جزيرة العرب قبل الإسلام، بدليل ما نُقِرَّاهُ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْأَخْبَارِ مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَانُوا
يَجِدُونَ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ كِتَابَاتٍ مُدَوَّنةً بِالْمُسْنَدِ فِي مَقْبَرَةِ مَكَّةَ الْقَدِيمَةِ وَفِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى مِنْهَا، وَفِي
عُثُورِ النَّاسِ عَلَى هَذِهِ الْكِتَابَاتِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ سُكَّانَ مَكَّةَ كَانُوا يَكْتُبُونَ بِالْمُسْنَدِ أَوْ بِأَقْلَامٍ مُشْتَقَّةٍ مِنْهُ،
وَلَا يَعْتَلِ عَدَمَ اسْتِعْمَالِ أَهْلِ الْحِجَازِ لِهَذَا الْقَلَمِ، وَقَدْ وَجَدْنَا أَنَّهُ وَالْأَقْلَامُ الْمُسْتَقَّةُ مِنْهُ، قَدْ كَوْنَتْ قَلَمَ أَهْلِ
هَذِهِ الْبِلَادِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ وَجَدُوا أَنَّ الْقَلَمَ الَّذِي كَانَ يَكْتُبُ بِهِ التَّبَطُّ وَبِقِيَّةِ الْعَرَبِ، مِثْلُ عَرَبِ
الْحِيرَةِ، كَانَ أَسْهَلَ اسْتِعْمَالًا وَمُرُونَهُ مِنَ الْقَلَمِ الْمُسْنَدِ الْبَطِيءِ الْحَرَكَةِ، وَأَنَّهُ لَا يَأْخُذُ حَجْمًا كَبِيرًا بِالْقِيَاسِ
إِلَى الْخَطِّ الْعَرَبِيِّ الْجَنُوبِيِّ، لِذَلِكَ فَضَلُّوه عَلَى هَذَا الْقَلَمِ، وَاسْتَعْمَلُوهُ عَوَضًا عَنْهُ، دُونَ أَنْ يُجْرُوا عَلَيْهِ
تَحْوِيرًا أَوْ تَغْيِيرًا، لِإِصْلَاحِ مَا فِيهِ مِنْ خَلَلٍ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، أُجْرِيَ عَلَيْهِ مَا أُجْرِيَ مِنْ تَحْوِيرٍ وَتَغْيِيرٍ
وَتَطْوِيرٍ .))

انتهى

الدِّينُ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

لَا يُمَكِّنُ إِثْبَاتُ وَقْتِ مُحَدَّدٍ لِبَدْءِ انْتِشَارِ الْحَنِيفِيَّةِ دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ عَرَبٍ مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ،
وَكَانُوا قَدْ عَبَدُوا الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ وَالْأَنْصَابَ وَأَجْيَادَ قَبَائِلِهِمُ الْكَوَاكِبَ، بِسَبَبِ كَوْنِهِمْ عَلَى اتِّصَالٍ دَائِمٍ
بِمَنْ حَوْلَهُمْ، مِنْ شُعُوبِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، وَكَانَ لِهَذَا الْإِتِّصَالِ سُبُلٌ عَدِيدَةٌ: التَّجَارَةُ، وَهَجْرَةُ الْقَبَائِلِ وَالنَّاتِبِ
هُوَ دُخُولُ الْوَثْنِيَّةِ قَبْلَ الْقُرْنِ الثَّامِنِ لِلْمِيلَادِ، بَعْضُ الْأَصْنَامِ كَانَتْ مُقَدَّسَةً عِنْدَ كُلِّ عَرَبٍ وَأُخْرَى كَانَتْ
تُخَصُّ بِقَوْمٍ دُونَ غَيْرِهِمْ.

كَانَ الشَّرْكَ، هُوَ الشَّكْلُ السَّائِدُ لِلتَّدِينِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، قَائِمًا عَلَى تَبَجُّيلِ الْأَلِهَةِ
وَالْأَرْوَاحِ. كَانَتْ الْعِبَادَةُ مُوجَّهَةً إِلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْأَلِهَةِ وَالْأَلْفَاتِ، بِمَا فِي ذَلِكَ هُبْلٍ وَاللَّاتِ وَالْعَزَى وَمَنَاةَ.
تَمَّ تَبَجُّيلُ الْأَلِهَةِ وَالْإِسْتِدْعَاءُ إِلَيْهَا مِنْ خِلَالِ مَجْمُوعَةٍ مُنْتَوَعَةٍ مِنَ الطُّقُوسِ، بِمَا فِي ذَلِكَ الْحُجِّ وَالْعِرَافَةِ،
وَكَذَلِكَ التَّضْحِيَّةِ. تَعَزَّى الْعَدِيدُ مِنَ الْأَوْصَافِ الْمَادِّيَّةِ لِلَّهِ مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ إِلَى الْأَصْنَامِ، خَاصَّةً بِالْقُرْبِ
مِنَ الْكَعْبَةِ الْمُشْرِفَةِ، وَالَّتِي يُقَالُ إِنَّهَا اخْتَوَتْ عَلَى مَا يَصِلُ إِلَى 360 مِنْهَا.

وَشَمِلَتْ الْأُدْيَانُ فِي شِبْهِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ -بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْحَنِيفِيَّةِ وَالشَّرْكَ- الدِّيَانَاتِ السَّامِيَّةَ
الْقَدِيمَةَ وَالْمَسِيحِيَّةَ وَالْيَهُودِيَّةَ وَالْمُنْدَائِيَّةَ وَالْإِيرَانِيَّةَ مِثْلَ الزَّرَادِشْتِيَّةِ وَالْمَانَوِيَّةِ. تَمَّ تَمَثُّيلُ الدِّيَانَاتِ
الْأُخْرَى بِدَرَجَاتٍ مُتَقَاوِنَةٍ أَقَلَّ تَبَجُّعًا عَنْ تَأْثِيرِ الْحَضَارَةِ الرُّومَانِيَّةِ مُجْتَمَعَاتٍ مَسِيحِيَّةٍ فِي الشَّمَالِ الْعَرَبِيِّ
وَالشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ وَالْجَنُوبِ مِنْ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ. كَانَ تَأْثِيرُ الْمَسِيحِيَّةِ أَقَلَّ فِي مَا تَبَقِيَ مِنْ شِبْهِ
الْجَزِيرَةِ. بِاسْتِنَاءِ التَّسْطُورِيَّةِ فِي الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ وَالْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ، كَانَ الشَّكْلُ الْمُهَيَّمُ لِلْمَسِيحِيَّةِ هُوَ
الْمِيافِيَّةُ. كَانَتْ شِبْهُ الْجَزِيرَةِ وَجْهًا لِلْهَجْرَةِ الْيَهُودِيَّةِ مُنْذُ الْعَصْرِ الرُّومَانِيِّ، مِمَّا أَدَّى إِلَى وُجُودِ مُجْتَمَعٍ

شَتَاتٌ مُكْمَلٌ بِالْمُعْتَنِقِينَ الْمُحَلِّينَ . بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ ، أَدَّى تَأْثِيرُ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ السَّاسَانِيَّةِ إِلَى وُجُودِ
الدِّيَانَاتِ الْإِيرَانِيَّةِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ . تَوَاجَدَتِ الزَّرَادِشْتِيَّةُ فِي الشَّرْقِ وَالْجَنُوبِ .

تَمَازِيلُ نَذْرِيَّةٍ مِنْ الْمَرْمَرِ مِنْ الْيَمَنِ ، مَوْجُودَةٌ الْآنَ بِالْمُتَحَفِ الْوَطَنِيِّ لِلْفُنُونِ الشَّرْقِيَّةِ ، رُومًا

حَتَّى الْقَرْنِ الرَّابِعِ تَقْرِيبًا ، كَانَ جَمِيعُ سُكَّانِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ يَمَارِسُونَ دِيَانَاتَ تَعَدُّدِ الْإِلَهَةِ . عَلَى الرَّغْمِ
مِنْ أَنَّ الْأَقْلِيَّاتِ الْيَهُودِيَّةَ وَالْمَسِيحِيَّةَ قَدْ تَطَوَّرَتْ ، إِلَّا أَنَّ الشَّرْكَ ظَلَّ النِّظَامَ الْعَقَائِدِيَّ السَّائِدَ فِي شِبْهِ
الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ .

كَانَتْ إِحْدَى الشَّهَادَاتِ الْخَارِجِيَّةِ الْمُبَكَّرَةِ لِلشَّرْكَ الْعَرَبِيِّ فِي حَوَالِيَاتِ إِسْرَحْدُونَ . أَوْضَحَتْ الْكِتَابَاتُ
الْأَشُورِيَّةُ إِنَّ الْعَرَبَ فِي زَمَانِهِمْ كَانُوا يَتَعَبَّدُونَ لِأَصْنَامٍ مِنْهَا «عَشْرَ سَمِينٍ» (عَشْرَ السَّمَاءِ) ، «دُئْبَاتٌ» ،
«عَشْرَ قَرْمِي» ، «نَهْيَا» ، «أَبْرِيْلُو» ، «نَهْيَا» .

ذَكَرَ هِيرُودُوتُ ، فِي كِتَابِهِ "التَّارِيخُ" ، أَنَّ الْعَرَبَ عَبَدُوا أَوْرُوتَالَتَ (الْمَعْرُوفُ بِاسْمِ دِيُونِسُوسِ) وَأَيْلَاتَ
(الْمَعْرُوفُ بِاسْمِ أَفْرُودَيْتِ) . ذَكَرَ سْتْرَابُونُ أَنَّ الْعَرَبَ عَبَدُوا دِيُونِسُوسَ وَرَيْوسَ . وَذَكَرَ أَوْرِيْجَانُوسُ أَنَّهُمْ
عَبَدُوا دِيُونِسُوسَ وَأَوْرَائِيَا .

يَقُولُ ابْنُ السَّنَائِبِ الْكَلْبِيِّ :

” لَمَّا تَكَاثَرَ أَوْلَادُ إِسْمَاعِيلَ وَمَلُّوا مَكَّةَ وَصَاقَتْ بِهِمْ أَرْضُهَا وَوَقَعَتْ بَيْنَهُمُ الْحُرُوبُ وَالْعِدَاوَاتُ ،
أَخْرَجَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَتَقَسَّخُوا فِي الْبِلَادِ التَّمَّاسِ الْمَعَّاشِ ، وَالسَّبَبُ الَّذِي سَاقَهُمْ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ
وَالْحِجَارَةِ ، أَنَّهُ كَلَّمَا ظَنَّ ظَاعِنٌ اخْتَمَلَ مَعَهُ حَجْرًا مِنْ حِجَارَةِ الْحَرَمِ ، تَعْظِيمًا " لِلْبَيْتِ " وَصَبَابَةً بِمَكَّةَ ،

وَحِينَمَا حُلُوا وَضَعُوهُ وَطَافُوا بِهِ تَيْمًا بِالْكَعْبَةِ . ثُمَّ تَبَاعَدَ بِهِمُ الزَّمَنُ فَعَبَدُوا مَا اسْتَحَبُّوا مِنَ الْأَوْثَانِ ،
وَنَسُوا مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ . “

أَمَاكِنِ الْعِبَادَةِ

تُخْتَلَفُ أَمَاكِنِ الْعِبَادَةِ بَيْنَ مَوْضِعٍ وَآخَرَ ، فَتَكُونُ عَلَى هَيْئَةِ مَبَانِي تُبْنَى بِالْأَحْجَارِ الْمُهَنْدَمَةِ أَوْ مِلْكَا لِدَوْلَةٍ
مِثْلَ مَمَالِكِ جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَكِنْدَةَ أَمَّا فِي شَرْقِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَكَانَتْ تُبْنَى بِالطُّوبِ وَاللَّبْنِ وَتَكُونُ
بِالْعَادَةِ عِبَارَةً عَنِ غَرْفَةٍ وَاحِدَةٍ بِهَا الصَّنَمُ ، أَمَّا اللَّحْيَايَيْنِ فَيَبْدُو أَنَّهُمْ كَانُوا يُلْحِقُونَ أَحْوَاضًا لِلتَّلْطِهِيرِ قَرَبَ
الْمَعَابِدِ ، أَمَّا مَعَابِدِ الْأَبْطَاطِ فَكَانَتْ تُبْنَى مِنْ قَبْلِ الدَّوْلَةِ أَوْ الْأَهَالِي وَتَكُونُ عَادَةً مُتَأَثِّرَةً بِالْفَنِّ الْهَيْلِينِيِّ فِي
بِنَائِهَا ، وَبِالنَّسْبَةِ لِلْأَعْرَابِ فَكَانَ يَضَعُبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّخِذُوا أَمْنَكِهِ ثَابِتَةً لِإِقَامَةِ عِبَادَاتِهِمْ وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ
الْفَرَائِضُ عِنْدَهُمْ بَسِيطَةً يُقِيمُونَهَا حَيْثُمَا حُلُوا أَمَّا بِتَوْجِيهِ نَظَرِهِمْ إِلَى الْأَجْرَامِ الْفَلَائِكِيَّةِ مَعَ ذِكْرِ الْهَيْمِ أَوْ
بَعْضِ أَعْمَالِ تَقْوِيهِ مِنْ سُجُودٍ وَدُعَاءٍ وَتَقَادِمٍ لَا سِيَّمَا فِي بَعْضِ أَطْوَارِ حَيَاتِهِمْ الْمُهِمَّةِ كَمَوْلِدِ بَنِيهِمْ
وَتَزْوِجِهِمْ وَدَفْنِ مَوْتَاهُمْ ، وَفِي بَعْضِ الْأَمْنَكَةِ الْعَالِيَةِ الَّتِي كَانُوا يَدْعُونَهَا «الْمُشَارِفِ» . وَكَانَ إِكْرَامِهِمْ
لِمَوْلِيدِ الطَّبِيعَةِ يُوَافِقُ أَيْضًا حَالَتَهُمُ الْبَدْوِيَّةَ فَيَجِدُونَ مِنْهَا أَيْتِمًا سَارُوا كَالْأَنْصَابِ ، وَبَعْضُ الْأَشْجَارِ ،
وَالطُّيُورِ الَّتِي يُعِيفُونَهَا وَيَزْجُرُونَهَا عَلَى مُقْتَضَى حَرَكَاتِهَا يَمِينًا أَوْ شِمَالًا . وَكَانَ الْأَبُّ فِي عَائِلَتِهِ وَالشَّيْخُ
فِي قَبِيلَتِهِ يَقُومَانِ مَقَامَ الْكُهْنَةِ وَيَتَوَلَّىانِ إِجْرَاءَ الْمَشَاعِرِ الدِّينِيَّةِ بِاسْمِ ذَوِيهِمْ . أَمَّا بِمُضَارِبِ يُرْتَبِئُهَا
بِأَصْنَافِ الْجُلُودِ وَالْأَقْمِشَةِ عَلَى شَكْلِ حَيْمَةِ الْعَهْدِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ .

مِنْ مَقَامَاتِهِمُ الدِّينِيَّةِ الْكُتَبَاتُ وَهِيَ بَيْوْتُ مَرْبَعَةٌ مَرْتَفَعَةٌ عَلَى شَكْلِ الْكَعْبِ ، كَانُوا يُفَرِّزُونَهَا لِذِيَاتِهِمْ ، مِنْهَا
ذُو الْكُتَبَاتِ فِي شِمَالِي الْجَزِيرَةِ لِبَنِي إِيَادَ ، وَمِنْهَا كَعْبَةُ نَجْرَانَ ، وَالْكَعْبَةُ الْيَمَانِيَّةُ حَيْثُ كَانَ بُنُو خَثَمِ

يَعْبُدُونَ صَنَمَهُمُ الْمُسَمَّى ذَا الْخَلْصَةِ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ . وَأَشْهُرُ مِنْهَا الْكَعْبَةُ الْحِجَازِيَّةُ فِي مَكَّةَ، رَغْمَ أَنَّهَا قَبْلَ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى مَرْكَزِ أَصْنَامٍ كَانَتْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ مِنْ أَجْلِ عِبَادَةِ اللَّهِ، إِذْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ: ﴿ أَنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ بَعْضُ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَكَّةَ مِنْ الْعَمَالِيقِ وَجُرْهُمَ، وَتُصَدِّعُ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ تَبِيحَةً لِكَثْرَةِ السُّيُولِ وَالْعَوَامِلِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي الْبِنَاءِ، وَكَانَ أَفْرَادُ تِلْكَ الْقَبِيلَتَيْنِ يَتَوَلَّوْنَ إِصْلَاحَهَا، وَرِعَايَتَهَا . وَأَوَّلَ ذَكَرَهَا فِي التَّارِيخِ دِيُونُورِسُ الصَّقَلِّيُّ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ قَبْلَ الْمَسِيحِ . وَكَثُرَ عَدَدُ هَذِهِ الْهَيَاكِلِ فِي بَعْضِ الْأَمْكِنَةِ حَتَّى إِنَّ بَلِي نَبِيوسَ الطَّبِيعِيَّ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي لِلْمَسِيحِ عَدَّ مِنْهَا 6 . فِي مَدِينَةِ سَبَأَ حَاضِرَةَ الْيَمَنِ وَ56 فِي تَمَنَّهُ مَدِينَةَ بَنِي غَطَفَانَ .

قَامَ الْعَرَبُ بِاتِّخَاذِ حَرَمًا لِأَصْنَامِهِمْ - أَيَّ يَجْعَلُونَ لَهَا دَائِرَةً تَحْفَظُ حُرْمَتَهَا وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْتَهَاكَهَا - مِثْلَ حَرَمِ مَكَّةَ وَالَّذِي كَانَ أَشْهُرَهَا . وَكَذَلِكَ كَانَ يَخْدُمُ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ رِجَالٌ يَدْعُوهُمْ كَهَنَةً، أَوْ كَهَانًا، وَيُرِيدُونَ بِهِمُ الْخَيْرِينَ بِالْأَحْوَالِ الْمَاضِيَةِ وَالْعِرَافِينَ، وَقَدْ دَعَوْهُمْ سَدَنَةَ أَيَّ خَدَمًا لِلْمَقْدِسِ، لِقِيَامِهِمْ بِحَاجَاتِهِ وَحَاجَاتِ زُورَاهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَسَمَّى بِاسْمِ هَذِهِ الْأَمَاكِنِ، كَعَبْدِ الْكَعْبَةِ، وَعَبْدِ الدَّارِ، وَكَانُوا يُزَيِّنُونَ تِلْكَ الْهَيَاكِلَ بِالنَّصَاوِيرِ الْمُنْقُوشَةِ عَلَى جُدْرَانِهَا أَوْ يُنْصَبُونَ فِيهَا التَّمَاثِيلُ لِلْأَصْنَامِ عَلَى هَيْئَاتِ شَتَّى . مِنْهَا حِجَارَةٌ مَنْحُوتَةٌ بِبَيْضَاءٍ أَوْ سَوْدَاءٍ وَمِنْهَا صُخُورٌ مِنَ الْعَقِيقِ كَهَيْئَةِ الْكَبَلِ، وَبَعْضُ الْحِجَارَةِ الْكَرِيمَةِ أَوْ الصُّخُورِ الْعَادِيَةِ كَسَعْدِ مَعْبُودِ بَنِي كِنَانَةَ الَّذِي فِيهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

أَتَيْنَا إِلَى سَعْدٍ لِيَجْمَعَ شَمَلَنَا

فَشَسْنَا سَعْدًا فَلَا نَحْنُ مِنْ سَعْدٍ

أَصْنَامِ الْعَرَبِ

اللَّاتُ صَنَمٌ إِخْصُوبُهُ عِنْدَ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَتَمَثَّلُ كَذَلِكَ الْأَرْضُ، وَأَخْوَاتُهَا هُنَّ الْعَزَى وَمَنَاثُ وَهَذِهِ الْأَصْنَامُ هُنَّ الْغُرَانِيقُ الْعُلَى وَمَمَّنْ عَبْدُ اللَّاتِ بَنِي ثَقِيفٍ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَهْلُ تَدْمُرٍ فِي بَادِيَةِ الشَّامِ؛ حَيْثُ بَنَى لَهُ التَّدْمُرِيُّونَ مَعْبَدًا خَاصًّا وَهُوَ مَعْبَدُ اللَّاتِ.

هُبَلٌ هُوَ أَحَدُ الْمَعْبُودَاتِ الْوَثْنِيَّةِ لَدَى الْعَرَبِ الْقَدَمَاءِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ صَنَمٌ عَلَى شَكْلِ إِنْسَانٍ وَلَهُ ذِرَاعٌ مَكْسُورَةٌ، قَامَتْ الْعَرَبُ بِالْحَاقِ ذِرَاعٍ مِنْ ذَهَبٍ بَدَلَ مِنْهَا. كَانَ مُوجُودًا دَاخِلَ الْكَعْبَةِ وَقَدْ كَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ لَقَبُ صَاحِبِ الْقِدَاحِ، وَيُقَالُ إِنَّ هُبَلَ أَيْضًا هُوَ آلَةُ الشَّمْسِ.

مَنَاةُ أَقْدَمُ أَصْنَامِ الْعَرَبِ، وَهِيَ إِلَهَةُ الْقَدْرِ أَوْ الْمَصِيرِ. نُصِبَتْ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ بِقُدَيْدٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ. وَكَانَتْ مَنَاةُ مُعْظَمُهُ عِنْدَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ، وَكُلٌّ مِنْ كَانِ مُوَالِيًا لِهَاتَيْنِ الْقَبِيلَتَيْنِ مِنَ الْقَبَائِلِ عُمُومًا.

الْعَزَى كَانَتْ تَمَثَّلُ كَوَكَبِ الصَّبَاحِ، وَقَدْ عُبِدَتْ مِنْ قَبْلِ قَبَائِلِ بَنِي سُلَيْمٍ وَعَظْمَانَ وَجُشَمِ، وَمِنْ الْمُعْتَقِدِ أَنَّهَا نَفْسُ الْإِلَهَةِ أَفْرُودَيْتِ عِنْدَ الرُّومَانِ وَنَفْسِهَا هِيَ أَيْرِيسُ إِلَهَةُ مِنْ مِصْرَ الْقَدِيمَةِ وَتَسْتَطِيعُ تَبْعَ آثَارِهَا فِي الْبُرَاءِ بِوُضُوحٍ تَامٍ. وَكَانَتْ الْعَزَى أَعْظَمَ الْأَصْنَامِ الَّتِي عُبِدَتْهَا قُرَيْشٌ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَكَانَتْ قَدْ حُمَّتْ لَهَا شُعْبٌ سِقَامٌ يُضَاهُونَ بِهِ حَرَمَ الْكَعْبَةِ.

طَاغُوتٌ وَهُوَ صَنَمٌ بِشَكْلِ أَسَدٍ مِنْ بَعْضِ آثَارِ الْعَرَبِ الْأَنْبَاطِ - فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ كَانِ الْقَدَمَاءُ يَنْشُرُونَ إِلَهُهُمْ بِنَقْلِهَا إِلَى مَدُنٍ أُخْرَى مَعَ تِجَارَتِهِمْ وَهَذَا الْإِلَهَةُ ذُو الْأَصْلِ التَّبَطِّيِّ وَقِيلَ إِنَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالطَاغُوتِ الْوَارِدِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

ذو الشرى

أحد أصنام العرب، وهو من معبودات العرب الأباط في الأزدن، كان معبودًا في المنطقة.

وَدَّ وَادٍ أَوْ وَدَّ صَنَمٍ بِشَكْلِ رَجُلٍ وَهُوَ صَنَمُ بَنِي كَلْبٍ بِدُومَةِ الْجَنْدَلِ قَالَ الْمَأُورِدِيُّ:

” فَهُوَ أَوَّلُ صَنَمٍ مَعْبُودٍ، سَمِيَ وُدًّا لَوَدَّهِمْ لَهُ “

عوض

عِوَضٌ كَانَ آلهَ الزَّمَنِ وَالْأَبَدِ وَهُوَ صَنَمُ بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ

سُوعِ صَنَمٍ عَلَى شَكْلِ امْرَأَةٍ وَهُوَ صَنَمُ بَنِي هُذَيْلٍ

يعوق

يَاعُوقُ أَوْ يُعُوقُ صَنَمٌ عَلَى شَكْلِ حِصَانٍ وَهُوَ صَنَمُ بَنِي هَمْدَانَ وَفِيهِ يَقُولُ مَالِكُ بْنُ تَمِطٍ الْهَمْدَانِيُّ:

نَسْرُ صَنَمٍ بِشَكْلِ نَسْرِ وَهُوَ صَنَمُ بَنِي حَمِيرٍ

ظَهَرَ التَّسْرَعِيُّ بَعْضَ الْقَطْعِ الْآثَرِيَّةِ اسْتَحْدَمَهَا شِعَارًا بَعْضُ الْمَمَالِكِ الْعَرَبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ (مُعَيَّنٌ وَسَبَأٌ

وَحَمِيرٌ وَحَضْرَمَوْتٌ) وَمَمْلَكَةُ الْأَبَابُاطِ فِي الشَّمَالِ.

يعوث

كَانَ مِنْ أَصْنَامِ قَبِيلَةِ مُرَادٍ ثُمَّ لَبِنَ عَطِيفٍ بِالْجُرُفِ عِنْدَ سَبَأٍ وَقَالَ فِيهِ أَبُو عُثْمَانَ التَّهْدِيُّ:

” وَكَانَ مِنْ رِصَاصٍ، وَكَانُوا يَحْمِلُونَهُ عَلَى جَمَلٍ أَحْرَدٍ، وَيَسِيرُونَ مَعَهُ وَلَا يَهَيِّجُونَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ
الَّذِي يَبْرُكُ، فَإِذَا بَرَكَ نَزَلُوا وَقَالُوا: قَدْ رَضِيَ لَكُمْ الْمَنْزِلُ؛ فَيَضْرِبُونَ عَلَيْهِ بِنَاءً يَنْزِلُونَ حَوْلَهُ “

إِسَافٌ وَنَائِلَةٌ

وَهُمَا صَنَمَيْنِ كَانَ مَكَاتُهُمَا عَلَى الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَقَصَّتُهُمَا مِنَ الْمَصَادِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنَّ إِسَافٍ وَنَائِلَةَ كَانُوا
عَشَاقًا (وَقِيلَ إِنَّهُمَا مِنْ قَبِيلَةِ جُرْهُمٍ) جَاءُوا حُجَّاجًا إِلَى الْكَعْبَةِ، وَلِكِلَيْهِمَا أَحْدَاثًا دَاخِلَهَا (أَيُّ الْكَعْبَةِ)
فَمَسَّحَا إِلَى صَنَمَيْنِ مِنْ حَجَرٍ لَارْتِكَابِيَّهِمَا «الْفَاحِشَةُ» وَ«الْفُجُورُ» وَوَضَعَ أَحَدُهُمَا عَلَى الصَّفَا، وَهُوَ
إِسَافٌ وَوَضَعَتْ نَائِلَةٌ عَلَى الْمَرْوَةِ، وَأُورِدَ ابْنُ قَيْمٍ الْجَوْزِيَّةُ أَنَّ أَحَدَهُمَا كَانَ مُلصَقًا بِالْكَعْبَةِ وَالْآخَرُ فِي
مَوْضِعٍ زَمَزَمَ، فَتَقَلَّتْ قُرَيْشُ الَّذِي كَانَ مُلصَقًا بِالْكَعْبَةِ لِلْآخِرِ وَأُورِدَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ صَاحِبَ سَيْرِ إِغْلَامِ
النَّبِيَاءِ أَنَّهُمَا كَانَا مِنْ نَحَاسٍ وَرَوِي أَنَّ خُزَاعَةَ وَقُرَيْشَ عَبْدَتَاهُمَا وَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ بَعْدَ مَنْ الْعَرَبِ وَكَانُوا
يُنْحَرُونَ وَيَذْبَحُونَ عِنْدَهُمَا .

ذُو الْخَلَصَةِ

صَنَمٌ كَانَتْ تَعْبُدُهُ قَبَائِلُ بَجِيلَةَ وَخَنَعَمَ وَأَزْدُ السَّرَاةِ وَبَنُو الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ وَجُرْمٌ وَزُبَيْدٌ وَالْعَوْثُ بْنُ مَرْبِنٍ
أَدُّ وَبَنُو هِمَالٍ .

عَائِمٌ

صَنَمٌ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ قَبَائِلُ أَزْدِ السَّرَاةِ .

الْفَلَسُ

صَنَمَ قَبِيلَةَ طَيِّءٍ هَدَمَهُ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ

جَلَسَد

صَنَمَ قَبِيلَةَ كِنْدَةَ فِي حَضْرَمَوْتِ

أَنْغَالِ

إِلَهَ الْبَدُوِّ وَرِعَاةَ الْجَمَالِ

إِلَاقَتِصْرٍ

هُوَ أَحَدُ الْأَصْنَامِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ مِنْ أَصْنَامِ قُضَاعَةَ وَلَحْمٍ وَجُدَامٍ وَعَامِلَةَ وَعَطْفَانَ

الْمُحْرَقِ

لِبُكْرِ بْنِ وَاثِلٍ وَسَائِرِ رِبِيعَةَ وَكَانُوا قَدْ جَعَلُوا فِي كُلِّ حَيٍّ مِنْ رِبِيعَةَ لَهُ وَلَدًا .

شَرَقَ الْجَزِيرَةَ الْعَرَبِيَّةَ

عُبِدَتْ حَضَارَةُ دِلْمُونَ، الَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً عَلَى طُولِ سَاحِلِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ وَالْبَحْرَيْنِ حَتَّى الْقَرْنِ
السَّادِسِ قَبْلَ الْمِيلَادِ، زَوْجًا مِنَ الْإِلَهَةِ، أَنْزَاكٍ وَمَيْسَكِيلاكِ . مِنْ غَيْرِ الْمَعْرُوفِ مَا إِذَا كَانَتْ هَذِهِ هِيَ
الْإِلَهَةُ الْوَحِيدَةُ فِي الْبَاتِيُونَ أَوْ مَا إِذَا كَانَ هُنَاكَ آخَرُونَ . يُشِيرُ اكْتِشَافُ الْآبَارِ فِي مَوَاقِعِ مَعْبَدٍ وَمُزَارِ
دِلْمُونَ إِلَى أَنَّ الْمِيَاهَ الْعَذْبَةَ لَعَبَتْ دَوْرًا مُهِمًّا فِي الْمُمَارَسَاتِ الدِّينِيَّةِ .

فِي الْفَتْرَةِ الْيُونَانِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ اللَّاحِقَةِ، هُنَاكَ أَدَلَّةٌ عَلَى أَنَّ عِبَادَةَ الْإِلَهَةِ غَيْرِ الْأَصْلِيَّةِ تَمَّ جَلِبَهَا إِلَى الْمِنْطَقَةِ مِنْ قِبَلِ التَّجَارِ وَالزُّوَارِ. وَشَمِلَتْ هَذِهِ الْإِلَهَةَ بَيْلَ، وَهُوَ الْإِلَهُ شَانُعٌ فِي مَدِينَةِ تَدْمُرِ السُّورِيَّةِ، وَالْإِلَهَةَ بِلَادِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ نَابُو وَشَمِشَ، وَالْإِلَهَةَ الْيُونَانِيَّةِ بوسيدون وأرتيميس، وَالْإِلَهَةَ الْعَرَبِيَّةِ الْغَرِيبَةَ كَأَهْلٍ وَمَنَاتٍ.

وَسَطَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَانَ الْإِلَهُ الرَّئِيسِيَّ لِقَبِيلَةِ كَدَّةَ هُوَ كَأَهْلٍ، الَّذِي سَمَّيَتْ عَاصِمَتُهُمْ قَرْيَةَ ذَاتُ كَأَهْلٍ (قَرْيَةُ الْفَاوِ الْحَدِيثَةِ) بِاسْمِهِ. يُظْهِرُ اسْمُهُ عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ التَّقُوشِ وَالتَّقُوشِ الصَّخْرِيَّةِ وَعَلَى مُنْحَدِرَاتِ جَبَلِ طَوِيقٍ وَعَلَى جُدْرَانِ سُوقِ الْقَرْيَةِ وَفِي الْبُيُوتِ السُّكْنِيَّةِ وَعَلَى الْمَبَاخِرِ. يَذْكُرُ نَقْشٌ فِي قَرْيَةِ كَأَهْلٍ الْإِلَهَةَ كَأَهْلٍ وَعُثْرَ الشَّرِيقِ مَعَ اللَّهِ.]

الْحِجَازُ

بِحَسَبِ الْمَصَادِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ، كَانَتْ مِنْطَقَةُ الْحِجَازِ مَوْطِنًا لثَلَاثَةِ أَصْنَامٍ مُهِمَّةٍ مُخَصَّصَةً لِكُلِّ مِنْ اللَّاتِ وَالْعَزَى وَمَنَاةَ. كَانَ صَنْمُ اللَّاتِ، وَفَقًّا لِكِتَابِ الْأَصْنَامِ، قَائِمًا فِي الطَّائِفِ، وَكَانَتْ تُعْبَدُ بِشَكْلِ أَسَاسِيٍّ مِنْ قِبَلِ قَبِيلَةِ بَنِي تَقِيفٍ. كَانَ صَنْمُ الْعَزَى فِي النَّحْلَةِ وَكَانَتْ الْإِلَهَةُ الرَّئِيسِيَّةُ لِقَبِيلَةِ قُرَيْشٍ. تَمَّ تَشْيِيدُ صَنْمِ مَنَاتِ، عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَمَكَّةِ الْمُكْرَمَةِ، وَعَبَدَتْ مِنْ قِبَلِ قَبَائِلِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ. كَانَ سُكَّانُ عِدَّةِ مَنَاطِقٍ يُعْبُدُونَ مَنَاةَ وَيَقْدُمُونَ الْقَرَابِينَ إِمَامَ صَنْمِهَا، وَلَمْ يُعْبَرْ حَجَّ الْبَعْضِ مَكْمَلًا حَتَّى يَزُورُوا مَنَاةَ وَيَخْلُقُوا رُؤُوسَهُمْ. تَمَّ عِبَادَةُ إِلَهَةٍ أُخْرَى فِي الْمِنْطَقَةِ مِنْ قِبَلِ قَبَائِلِ مُعَيْنَةَ، مِثْلُ سُوَاعٍ فِي قَبِيلَةِ بَنِي هُدَيْلٍ وَاللَّاتِ نَهُمَ فِي قَبِيلَةِ مُرَيْنَةَ.

شَمَالُ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ

غَالِبًا مَا كَانَ لِلْمُجْتَمَعَاتِ الْأَقْلَى تَعْقِيدًا خَارِجَ جُنُوبِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَهَةً أَصْغَرَ، مَعَ الْأَلَةِ الرَّاعِيِ الَّذِي كَانَ لَهُ مَكَانُهُ بَارِزَةً. تَشْمَلُ الْإِلَهَةَ الْمَشْهُودَةَ فِي نُقُوشِ شَمَالِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ رِضْوًا، نَهْيًا، دُثْنًا، وَكَأَهْلًا. كَانَتْ الْقَبَائِلُ الصَّفَايِيَّةُ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ تَعْبُدُ بِشَكْلِ بَارِزِ اللَّاتِ بِاعْتِبَارِهَا جَالِبَةً لِلْإِزْدِهَارِ. كَمَا عُبِدَتْ الْقَبَائِلُ الصَّفَايِيَّةُ الْأَلَةَ السُّورِيَّيَ بَعْلَ سَمِينٍ، وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي النُّقُوشِ الصَّفَايِيَّةِ.

تَرَكَّتْ الْعِبَادَةُ الدِّينِيَّةُ بَيْنَ الْقَدَائِرِيِّينَ، وَهُوَ اتِّحَادٌ قَبْلِيٌّ قَدِيمٌ، حَوْلَ نِظَامِ تَعَدُّدِ الْإِلَهَةِ بَرَزَتْ فِيهِ الْإِلَهَةُ الْأَنْثَوِيَّةُ. تَضَمَّنَتْ الصُّورَ الْإِلَهِيَّةَ الْمَعْبُودَةَ مِنْ قِبَلِ الْعَرَبِ الْقَدَائِرِيِّينَ، كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي النُّقُوشِ الْإِشُورِيَّةِ، أَصْنَامٌ عَشْرَ سَمِينٍ، وَنَهْيًا، وَرُودًا، وَدَائِيًا، وَابِيرِيلَلُو، وَآتَارِكُرُومًا.

كَانَتْ الْوَصِيَّةُ عَلَى هَذِهِ الْأَصْنَامِ، عَادَةُ الْمَلِكَةِ الْحَاكِمَةِ، بِمَثَابَةِ كَاهِنَةٍ تَتَوَاصَلُ مَعَ الْعَالَمِ الْآخِرِ. كَمَا تُوْجَدُ أَدَلَّةٌ عَلَى أَنَّ الْقَدَائِرِيِّينَ كَانَهُمْ يُعْبُدُونَ اللَّاتَ الَّذِي كُرِسَ لَهُ نَقْشٌ عَلَى وَعَاءٍ مِنْ الْفِضَّةِ مِنْ مَلِكِ قَدَائِرِ. يَذْكُرُ التَّلْمُودُ الْبَابِلِيُّ أَنَّ مُعْظَمَ الْقَدَائِرِيِّينَ كَانُوا يُعْبُدُونَ إِلَهَةً وَثَنِيَّةً.

جَنُوبَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ

الْمَصَادِرُ الرَّئِيسِيَّةُ لِلْمَعْلُومَاتِ الدِّينِيَّةِ فِي جَنُوبِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ هِيَ النُّقُوشُ، الَّتِي يُبْلَغُ عَدْدُهَا بِالْآلَافِ، وَكَذَلِكَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَكَذَلِكَ الْأَدَلَّةُ الْآثَرِيَّةُ.

تُعْتَبَرُ حَضَارَاتُ جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَكْثَرَ الْحَضَارَاتِ تَطَوَّرًا فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ. فِي جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ، كَانَ أَكْثَرَ الْإِلَهَةِ شَيْوعًا هُوَ عَشْرٌ. كَانَ الْأَلَةُ الرَّاعِيِ (شِيمِ) يُعْتَبَرُ ذَا أَهْمِيَّةٍ فَوْرِيَّةٍ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنْ عَشْرٍ. وَهَكَذَا، كَانَ لِمَمْلَكَةِ سَبَأِ الْمَقَّةِ، وَمَمْلَكَةِ مَعِينِ وَدِّ، وَمَمْلَكَةِ قَتَبَانَ عَمِّ، وَمَمْلَكَةِ حَضْرَمَوْتِ

سين. كَانَ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ شَعْبٍ اسْمُ «أَبْنَاءِ» إِلَهُهُمُ الرَّاعِي. لَعِبَتْ إِلَهَةُ الْمَمْلَكَةِ دُورًا حَيَوِيًّا مِنَ التَّاحِيَةِ
الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ.

تُشِيرُ الْأَدَلَّةُ مِنَ النُّقُوشِ الْبَاقِيَةِ إِلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ الْمَمَالِكِ الْجَنُوبِيَّةِ كَانَ لَهَا إِلَهَةٌ خَاصَّةٌ بِهَا مِنْ ثَلَاثَةِ إِلَى
خَمْسَةِ إِلَهَةٍ، وَكَانَ الْإِلَهَ الرَّئِيسِيَّ دَائِمًا إِلَهًا. عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، كَانَتْ إِلَهَةٌ سَبَأً تَتَأَلَّفُ مِنَ الْمِقَّةِ، الْإِلَهَةُ
الْأَكْبَرُ، مَعَ عَشْرٍ، هُؤَسَ، ذَاتِ حَمِيمٍ، وَذَاتِ بَادَانَ. كَانَ عَمَّ إِلَهَ قَمَرِيٍّ وَكَانَ مُرْتَبَطًا بِالطَّقْسِ، وَخَاصَّةً
الْبُرُقِ. وَكَانَ مِنْ أَكْثَرِ الْقَابِ الْإِلَهَةِ الْمِقَّةِ «رَبِّ الْعَوَامِ».

أَمَّا فِي مَمْلَكَةِ حَمِيرٍ، فَقَدْ كَانَ الْحَمِيرِيِّينَ وَتَبَنِينَ فِي بَدَايِهِمْ يَعْبُدُونَ عَشْرًا وَشَمْسًا، لَكِنْ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ
الْمِيلَادِيِّ تَحَوَّلُوا لِلتَّوْحِيدِ وَأَصْبَحُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَيُطْلِقُونَ عَلَيْهِ اسْمَ رَحْمَنٍ، وَتُشِيرُ إِلَيْهِ النُّصُوصُ بِأَنَّهُ
«رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» (الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

التَّأثيرُ عَلَى أُكْسُومِ

قَبْلَ اغْتِنَاقِ الْمَسِيحِيَّةِ، تَأَثَّرَتْ مَمْلَكَةُ أُكْسُومِ كَثِيرًا بِالْإِلَهَةِ وَالْعِبَادَاتِ مِنْ جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَاتَّبَعَتْ
دِينًا مُتَعَدَّدَ الْإِلَهَةِ كَانَ مُشَابِهًا لِذَيْنِ جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ. كَانَ اللَّهُ الْقَمَرِ الْعَرَبِيِّ الْجَنُوبِيِّ هُؤَسَ يَعْبُدُ فِي
أُكْسُومِ. عَبْدُ الْمِقَّةِ فِي حَوْلِي مَلَازُو (فِي ارْتَبْرِيَا الْيَوْمِ) وَضَمَّتْ إِلَهَةَ جَنُوبِ الْعَرَبِ فِي أُكْسُومِ ذَاتِ حَمِيمٍ
حَيْثُ يَذْكَرُ الْحِجْرَ الْمَعَادِ اسْتِخْدَامَهُ لَاحِقًا لِكَيْسَةِ انْدَا سِيرِكُوسِ فِي مِيلَازُو هَذِهِ الْإِلَهَةِ. كَمَا وَرَدَ ذِكْرُ
هُؤَسَ عَلَى مَذْبَحٍ فِي دَبْدَبِ. فِي حِينِ أَنَّ اسْمَ (نَرُو) الْمَذْكَورِ فِي نُقُوشِ أُكْسُومِ مُرْتَبَطٌ بِاسْمِ الْإِلَهَةِ الْعَرَبِيِّ
الْجَنُوبِيِّ نُورَاوِ، اللَّهُ التُّجُومِ. وَذَكَرَ كَذَلِكَ اسْمُ الْإِلَهَةِ عَشْرًا، اللَّهُ السَّمَاءِ.

ذِكْرُ الْأَصْنَامِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

آيات ورد فيها كلمة "الأصنام"

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ (إبراهيم)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ (الأنعام)

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى الْأَصْنَامِ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا آلِهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ (الأعراف)

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ (الأنبياء)

قَالُوا تَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ (الشعراء)

ورد ذكر ثمانية أصنام كانت تعبد في القدم في القرآن الكريم في سورة النجم وسورة نوح، وهما:

اللات والعزى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ) (النجم : 19)

مناة: (وَمَنَاةَ الثَّلَاثَةَ الْأُخْرَىٰ) (النجم : 20)

ود وسواع ويعوق ونسر: (قَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)

(نوح : 23)

الأديان في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

شَكَلَتِ الْمُنْطُومَةُ الْعَقَائِدَ الْمُنْتَوَعَةَ فَسَيَفْسَاءُ جَمِيلَةً فِي الْحَيَاةِ الدِّينِيَّةِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ
 الْإِسْلَامِ ، فَعَقَائِدُ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ وَالْحَنِيفِيَّةِ وَاللَّادِينِيَّوْنَ تَنَاعَمَتْ فِي مُحِيطِ اجْتِمَاعِيٍّ مُتَجَانِسٍ نُقِبَلُ
 فِيهِ الْجَمِيعُ هَذَا التَّنَوُّعُ بِنَوْعٍ مِنَ التَّعَائِشِ قَلَّ نَظِيرُهُ فِي بَقَاعِ الْأَرْضِ الْمُخْتَلَفَةِ . وَهَذِهِ الدِّرَاسَةُ أَرَادَتْ أَنْ
 تَجَسَّدَ هَذِهِ الْفِعَالِيَّةُ الدِّينِيَّةُ مِنْ خِلَالِ الْمُنْطُومَةِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي لَازَمَتْ سُكَّانَ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ ، فَاشْتَهَرُوا بِهَا
 وَلَيْسَ أَدَلُّ مِنْ ذَلِكَ تِلْكَ الْمُعْلَقَاتُ السَّبْعَةُ أَوْ الْعُشْرَةُ الَّتِي رُسِمَتْ مَلَامِحَ الْحَيَاةِ الْجَمَاعِيَّةِ وَالْقَبِيلِيَّةِ
 وَالْحَرَبِيَّةِ . وَاسْمُ الْبَحْثِ بِنَشْرِ قِصَائِدِ شِعْرِيَّةِ لَشُعْرَاءِ يَهُودَ وَنَصَارَى بِالْفَاظِ عَرَبِيَّةٍ فَصَّحِيٍّ ، وَلَيْسَ
 بِمُصْطَلَحَاتٍ دِينِيَّةٍ يَهُودِيَّةٍ أَوْ نَصْرَانِيَّةٍ وَهَذَا دَلِيلٌ عُمُقُ الرَّابِطِ الثَّقَافِيِّ الَّذِي عَاشَهُ أَصْحَابُ الدِّيَانَتَيْنِ مَعَ
 اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ السَّائِدَةِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ . فَالشَّعْرُ فِي مُجْمَلِهِ سَجَلٌ تَارِيخِيٌّ لِلْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ
 الْمُخْتَلَفَةِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي عَصْرِ مَا . وَالْبَحْثُ يَدْرُسُ هَذَا التَّنَاجُ مِنْ وَجْهِهِ نَظَرَ عَقَائِدِيَّةٍ أَدَبِيَّةٍ سَطَرَ فِيهَا
 شُعْرَاءُ الْعَقَائِدِ وَقَائِعِ الْأَحْدَاثِ بَلَّغَهُ شِعْرِيَّةٌ مُتَقَنَةٌ أَبَدَعُوا فِي صِيَاغَةِ مُفْرَدَاتِهَا ، وَهَذَا إِنْ دَلَّ عَلَى شَيْءٍ
 فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى عِشْقِ هَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ لِمُعْتَقِدَاتِهِمْ تَنَاقَلَهَا الْأَجْيَالُ الدِّينِيَّةُ ، فَسَطَرُوهَا شَعْرًا مِنْ بَعْدِهِمْ
 جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ .

موقف العقل الديني الجاهلي من الدعوة الجديدة

كان العرب يعرفون الحنيفة وهي دين ملة آباؤهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام
 حيث بنوا قواعد بيت الله ودعوا أن يهتدي ذريتهم إلى عباده رب هذا البيت ولقد من الله عليهم
 بنصوص قرآنية عديدة إن جعل لهم بلدًا آمنًا وحرماً يحج إليه الناس ورزقهم مما لا يعلمون .

ان بُنُو إِسْمَاعِيلَ الْعَرَبِ الَّذِينَ عَاشُوا كَثِيرًا مِنْهُمْ فِي الْبُؤَادِ عَيْشُهُ الْأَعْرَابِ بَعْدَ أَنْ تَكَاثَرُوا وَتَفَرَّقُوا فَلَقَدْ نَسُوا شَيْئًا فَشَيْئًا مِلَّتَهُمْ وَشَرِيعَتَهُمْ حَتَّى أَرْسَلَ اللَّهُ مِنْهُمْ نَبِيًّا رَسُولًا يُعِيدُهُمْ إِلَى جَادَةِ الصَّوَابِ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .

وَالسُّؤَالُ الَّذِي يَتَحَمَّ عَلَيْنَا الْإِجَابَةُ عَنْهُ هُوَ لِمَاذَا قُبِلَ هَذَا الْإِخْتِيَارُ الْإِلَهِيُّ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَكُونَ نَبِيًّا وَخَاتَمًا لِلنَّبِيِّينَ وَبَيْنَ يَدَيْهِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كِتَابَ اللَّهِ بِمُعَارَضَةِ عَنِيفَةٍ مِنْ قَبْلِ عَشِيرَتِهِ وَمِنْ قَبْلِ الْيَهُودِ وَالتَّصَارِي وَصَلَتْ إِلَى دَرَجَةِ شَنْ الْحَرْبِ وَالتَّامُرِ عَلَيْهِ وَإِيذَاءِ اتِّبَاعِهِ وَإِخْرَاجِهِ مِنْ مُوْطِنِهِ ؟ لَنْ نَبْحَثَ فِي كُتُبِ السِّيَرَةِ وَالْأَحَادِيثِ الْمَشْهُورَةِ عَنْ مَا فَعَلْتَهُ قُرَيْشٌ بِحَقِّ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ لَكِنْ عَلَيْنَا أَنْ نُسَبِّحَ مَوَاقِفَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ بِالنُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ لِأَنَّ اعْتِمَادَ النُّصُوصِ وَخُذَهَا كَأَدِلَّةٍ هُوَ مِنْهَجُنَا وَخَطُّنَا وَمِنْطَلَقُنَا فِي هَذَا الْبَحْثِ وَلَقَدْ تَنَوَّعَتْ رَدُودٌ وَأَفْعَالٌ الْعَشِيرَةِ فِي رَفْضِهِمْ لِلرَّسُولِ وَرِسَالَتِهِ وَوَصَلَتْ إِلَى حَدِّ الْعُنْفِ .

وَالْإِيذَاءُ وَالْحِصَارُ ثُمَّ التَّنْفِي وَالْقِتَالُ عَلَى الرَّغْمِ أَنَّهُ نَبِيٌّ اخْتَارَهُ مِنْهُمْ وَجَعَلَ رِسَالَتَهُ بِلِسَانِهِمْ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ذَلِكَ :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْفٍ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة : 2]

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمُ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 151]

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (I) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ

مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4) ﴾ [قریش : I - 4]

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : 214]

﴿ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ

رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : 57]

فِي التُّصَوِّصِ الْقُرْآنِيَّةِ نَقْرًا عِدَّةَ رَسَائِلَ مُوجَّهَةً لِقُرَيْشٍ عَشِيرَةَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ يُذَكِّرُهُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذَا

مَكَّنَ اللَّهُ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ثُمَّ يَمْنِي عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ جَعَلَ مِنْهُمْ رَسُولًا وَنَبِيًّا

يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ وَيُخَلِّصُهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَيَرْفَعُ شَأْنَهُمْ وَمَقَامَهُمْ لَكِنَّ هَذِهِ الْعُقُلِيَّةُ

الْجَاهِلِيَّةُ كَانَتْ تَسِيرُهَا الْعَصَبِيَّةُ الْعَشَائِرِيَّةُ الْمُقَيَّتَةُ وَالْمُنْفَعَةُ الْمَادِّيَّةُ وَالْأَنَانِيَّةُ وَحُبُّ الشَّهَوَاتِ لِذَلِكَ

فَالرَّسُولُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَكُنْ مَهَادِنًا مَعَهُمْ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ حَتَّىٰ إِتْمَمَ لَقَدْ طَلَبُوا مِنْهُ تَغْيِيرَ

كَلَامِ اللَّهِ وَخَطَابِهِ

"وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بَقْرَانِ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَلِهِ قَلَّ مَا يَكُونُ لِي أَنْ

أَبْدَلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي أَنْ اتَّبِعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ" (يونس :

I5) . وَهَذَا دَلِيلٌ قَوِيٌّ عَلَىٰ قُوَّةِ تَأْثِيرِ الْقُرْآنِ فِي نَفْسِهِمْ وَخَوْفِهِمْ مِنْ سُقُوطِ عُرُوشِهِمْ هُمْ يُرِيدُونَ كِتَابًا

عَلَىٰ مَزَاجِهِمْ وَهَوَاهِمَ لِذَلِكَ حَارِبُوه .

أَمَّا أَسْبَابُ هَذَا الرَّفْضِ وَالتَّجْبُرِ وَالْعِزَّةِ بِالنَّفْسِ فَهِيَ :

أَوَّلًا : لَقَدْ صَعِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْزَلَ الْوَحْيُ عَلَى رَجُلٍ فَقِيرٍ مِنْهُمْ لَا يَمْلِكُ جَنَاتٍ مِنْ نَعِيمٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ
 وَكَانَ رَجُلًا سَوِيًّا اشتهرَ بِبِنْتِهِم بِالصَّدَقِ وَالْأَمَانَةِ وَكَانَ قَدَرَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَكُونَ بَيِّمًا مُنْذُ صِغَرِ سِنِّهِ يَعِيشُ فِي
 كَفِّ جَدِّهِ وَمِنْ ثَمَّ عَمَهُ هَذِهِ الصِّفَاتِ وَالْحَسَنَاتِ فِي رَجُلٍ لَا تَسْتَهْوِيهِمْ فَاعْتَرَضُوا عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَقَالُوا
 لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] لِذَلِكَ عَانَدُوا وَتَكَبَّرُوا فَهَمُّ أَغْنِيَاءَ
 وَهُوَ لَيْسَ عِنْدَهُ مَا يَمْلِكُونَ وَقَالُوا ﴿ أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا
 تَفْجِيرًا ﴾ [الإسراء : 91] أَوْ ﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ ﴾ [الإسراء : 93] .

ثَانِيًا : حِينَمَا بَدَأَ يَتَوَضَّحُ وَيَبَيِّنُ لَهُمْ قُوَّةَ النَّصِ الْقُرْآنِيِّ وَبِلَاغَتِهِ تَغَيَّرَتْ لَهْجَةُ خِطَابِهِمُ الْعَدُوَانِي الرَّافِضِ
 فَاتَّهَمُوهُ بَعْدَهُ اتِّهَامَاتٍ مَرَّةً قَالُوا عَنْهُ سَاحِرٌ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ
 النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾ [يونس 2]
 وَأَضَافُوا عَلَى كَلِمَةِ سَاحِرٍ تَعْتُّ آخَرَ اتِّهَمُوهُ بِهِ وَهُوَ أَصْدَقُ رَجُلٍ فِي عَشِيرَتِهِمْ وَقَالُوا ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ
 جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص : 4] ثُمَّ اتَّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا
 الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6] ثُمَّ قَالُوا بَلْ ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ
 مَجْنُونٍ ﴾ [الصافات : 36] ثُمَّ ادَّعَوْا أَنْ هُنَاكَ مَنْ يُعَلِّمُهُ وَيُلْقِنُهُ ﴿ وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ
 لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل : 103] .

ثَالِثًا : ثُمَّ تَحَوَّلَ رَدُّهُمْ وَتَقَدَّمَ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَفْسَهُ وَكَلِمَاتِهِ وَإِيَاتِهِ لِأَنَّهَا أَصَابَتْ عَقِيدَتَهُمْ وَدِينَهُمْ فِي
 الْمُقْتَلِ فَهُوَ طَعَنَ فِي آلِهَتِهِمْ ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾ [ص : 5]

وَلَيْسَ ذَلِكَ فَحَسْبُ فَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَشَفَ شِرْكِهِمْ وَخِرَافَاتِهِمْ ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ

يُخْلِقُونَ ﴾ [الأعراف : 191]

رَابِعًا : لَمْ يَبْقَ إِمَامُهُمْ سِوَى أَنْ يَتَحَدَّثُوا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ وَيَطْلُبُوا مِنْهُ الْمُعْجَزَاتِ الْآيَةِ فَطَلَبُوا مِنْهُ
﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء : 90] ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء : 92] وَأَخِيرًا طَلَبُوا مِنْهُ مَطْلَبًا فِي
اغْتِقَادِهِمْ هُوَ تَعْجِيزِي ﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ
رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : 93] .

﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ [الصفات : 36]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَذَّبُوهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [المؤمنون : 70]

﴿ وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: 31]

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : 5]

لَمْ يَدَّعِ الْمُشْرِكُونَ صِفَةً أَوْ نَعْمًا إِلَّا وَنَعُوهُ بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَرِسَالَةَ رَبِّهِ وَلَانَّهُمْ يَعْلَمُونَ تَمَامَ الْعِلْمِ أَخْلَاقَهُ
وَسُلُوكَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَقْدَهُ لِذَلِكَ لَمْ يَتَشَجَعُوا وَيَتَسَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى طَعْنِهِ بِأَمَانَتِهِ وَخَلْقِهِ بَلْ صُبُّوا جَامِ
غَضَبِهِمْ وَجَنُونَهُمْ عَلَى النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ الَّذِي فَضَحَ عَقِيدَتَهُمْ وَأَشْرَاكَهُمْ وَأَظْهَرَ لَهُمُ الْحَقَّ الْمُبِينُ .

وَكَانَ النَّصُّ الْقُرْآنِيَّ قَوِيًّا وَفِعَالًا فِي الرَّدِّ عَلَى مَقُولَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَطَلِبَاتِهِمْ الْعَجِيزِيَّةَ بَلْ كَشَفَ غُيُوبَهُمْ
وَجَهْلَهُمْ وَاشْرَاكَهُمْ وَضَعَفَ دِينَهُمْ وَعَقَائِدَهُمْ وَبِالإِضَافَةِ لَذَلِكَ فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ رَاحَ يَحِثُّ الرِّسُولَ الْكَرِيمَ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ عَلَى الثَّبَاتِ وَالْمَقَاوِمَةِ وَمِنْ هَذِهِ الرَّدُودُ :

الاسْتِمْرَارِ فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ وَالذِّينِ وَعَدَمِ الْمُبَالَاةِ بِأَقْوَالِهِمْ يَقُولُ تَعَالَى : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ
جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ " [الشعراء : 214-216]
(فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) [الحجر : 94-97] .

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 106]

وَلَقَدْ طَلَبَ اللَّهُ مِنْ رَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ الصَّبْرَ عَلَى التَّكْذِيبِ وَالْعِنَادِ مَا دَامُوا ضُعَفَاءَ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ تَعَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ لِيُخْزِنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ)
(٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ
اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُبَدِّلَ نَفَقًا فِي
الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)
(٣٥) ﴿ [الأنعام/٣٣-٣٥] .

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمْ
نَصْرُنَا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ٣٤ ﴾

وطلب منه عدم الخوف إلا من الله :

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿ ١٧٣ ﴾ فَاتَّقَبُوا بِنِعْمَةِ مَنْ اللَّهُ وَفَضْلِ لَمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿ ١٧٤ ﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ١٧٥ ﴾

وَالنَّظَرُ فِي السَّنَنِ الرَّبَّائِيَّةِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ١٣٧ ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ ١٣٨ ﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ١٣٩ ﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَيَلْعَلُمَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿ ١٤٠ ﴾ آلِ عِمْرَانَ وَوَجوبُ التَّعَلُّقِ بِالْمَبْدَأِ وَلَيْسَ بِالأَشْخَاصِ :

لأنَّ المَبْدَأَ لَا يَضِلُّ وَلَكِنِ الأَشْخَاصُ قَدْ يَضِلُّونَ أَوْ يُحْبَسُونَ أَوْ يَشْرَدُونَ فِي الأَرْضِ أَوْ يُقْتَلُونَ .

وَهَذِهِ نَقْطَةٌ جَوْهَرِيَّةٌ فِي صَمِيمِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الخَالِدَةِ ، وَقَدْ تَرَكَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ الجِهَادَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ لَمَّا سَمِعُوا بِمَقْتَلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ اليَوْمِ إِذَا قَتَلَ الدَّاعِيَةَ أَوْ سَجَنَ أَوْ انْحَرَفَ تَخَلَّوْا عَنِ الدَّعْوَةِ وَيَسُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَهَذَا أَمْرٌ خَطِيرٌ يَتَعَلَّقُ بِعَقِيدَةِ المُسْلِمِ تُجَاهَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الخَاتِمَةِ .

قَالَ تَعَالَى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (آلِ عِمْرَانَ : ١٤٤)

وعدمُ الْاِكْرَاثِ بِالَّذِينَ لَا يُؤْفِقُونَ :

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّتْكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفِقُونَ ﴾ (٦٠) سُورَةِ الرُّومِ

تَحْمَلُ الْأَذَى الشَّدِيدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَدَمُ الْوَهْنِ فِي طَلَبِ الْكُفَّارِ

قَالَ تَعَالَى : (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا
يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (النساء : ١٠٤)

ووجوبُ التَّحَلِّيِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ :

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩)

الَّذِينَ يُؤْفِقُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا

وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ

آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ

عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴿ سُورَةِ الرَّعْدِ

وَأَنْ يَكُونُوا أَنْصَارًا لِلَّهِ :

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَاْمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتُ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ [الصف/١٤]

لَقَدْ اسْتَيْقَنَتْ قُرَيْشٌ بِصِدْقِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَرِسَالَتِهِ وَالْكَلِمَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ وَهَرَّتْ نَفْسُهُمْ وَأَدْخَلَتْ بِهَا الرُّعْبَ وَالْخَوْفَ لِكَنَّهُمْ بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ نَكْرُوهَا وَجَحَدُوا بِهَا تَعَنَّاتًا وَظُلْمًا يَقُولُ الْمُؤَلَّى الْقَدِيرُ فِي ذَلِكَ ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ النمل : ١٤]
 أَنَّهُمْ اخْتَجَبُوا عَلَى هَذَا الْفِكْرِ الْجَدِيدِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الدِّينُ الْجَدِيدُ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ سِوَى الَّذِي كَانَ يُؤْمِنُ بِهِ آبَاؤُهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَفَوْقَ ذَلِكَ يَالَيْتَ آبَاؤُهُمْ كَانُوا مُهْتَدِينَ وَقَدْ فَضَحَهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِقَوْلِهِ قَالَ تَعَالَى : " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ " (المائدة) .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقِضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ سُورَةُ الرَّعْدِ

أَسَالِيبُ الْعَقْلِ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيِّ فِي مُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ

لقد حارب العقل العربي الجاهلي الدعوة الجديدة لشعوره بأنها ستهدم عصبيتهم وجهلهم وستقضي على نفوذهم وتسلطهم وبغيهم وأتبع أصحاب هذا العقل طرقا وأبتكروا أساليباً في محاربة الدعوة منها

أُسْلُوبُ التَّرْهِيْبِ وَالتَّهْدِيْدِ

أُسْتُعْمِلَ الْمُشْرِكُونَ أُسْلُوبَ التَّرْهِيْبِ وَالتَّهْدِيْدِ لِشَيْءٍ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَنَشَرُ دَعْوَتِهِ ، وَكَانَ يَتَوَلَّى هَذَا الْأُسْلُوبَ كِبَرَاءَ قُرَيْشٍ ، وَطَوَاغِيْتَهُمْ كَأَبِي جَهْلٍ الَّذِي كَانَ إِذَا سَمِعَ بِإِسْلَامِ رَجُلٍ مِنْ أَشْرَافِ مَكَّةَ وَمَنْ لَهُ شَوْكَةٌ وَمَنْعَهُ أَنْبَهُ وَأَخْرَاهُ وَقَالَ لَهُ : «تَرَكْتَ دِيْنََ أَبِيكَ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ! لِنَسْفِهِنَ حِلْمَكَ ، وَلِنَضْعِنَ رَأْيَكَ ، وَلِنَضْعِنَ شَرْفَكَ» ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَمَتَاعٍ وَتِجَارَةٍ قَالَ لَهُ : «لِنَكْسِدَنَّ تِجَارَتَكَ ، وَلِنَهْلِكَنَّ مَالَكَ» ، وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا مُسْتَضْعَفًا ضَرَبَهُ ، وَأَغْرَى بِهِ سُفَهَاءَ مَكَّةَ .

أُسْلُوبُ الْأَذَى الْمَعْنَوِيِّ

أُسْتُعْمِلَ الْمُشْرِكُونَ كَذَلِكَ أُسْلُوبًا مِنْ أَشَدِّ الْأَسَالِيْبِ حَسَّةً وَدَنَاءَةً فِي مُوَاجَهَةِ الْمُسْلِمِينَ ، إِلَّا وَهُوَ أُسْلُوبُ الْأَذَى الْمَعْنَوِيِّ مِنْ خِلَالِ : السُّخْرِيَّةِ ، وَالِاسْتِهْزَاءِ ، وَالتَّشْهِيْرِ ، وَالْعُزْمِ وَاللَّمْزِ ، وَالِاتِّهَامِ بِالسَّحْرِ ، وَالْجُنُونِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَأْتِيهِ شَيْطَانٌ ، وَالسَّبِّ وَالتَّشْمِ... وغير ذلك .

أ - الاتِّهَامُ بِالْجُنُونِ وَأَنَّهُ يَأْتِيهِ شَيْطَانٌ :

حَيْثُ رَمَوْا النَّبِيَّ ﷺ بِالْجُنُونِ وَفِي ذَلِكَ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنْ أَنْتَ إِلَّا لَجُنُونٌ) ، وَقَالَ تَعَالَى أَيْضًا : (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَزَلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَجُنُونٌ) . وَكَانَ بَعْضُ الْكُفَّارِ يَقُولُ : أَنْ الَّذِي يَأْتِي مُحَمَّدًا شَيْطَانٌ لَا مَلِكَ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْبُخَارِيِّ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِلرَّسُولِ ﷺ سَاحِرَةٌ مُسْتَهْزِئَةٌ : «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ ، لَمْ أَرَهُ قُرْبِكَ مُنْذُ

لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا» . وَقَدْ كَذَبَ اللَّهُ تَعَالَى طَنَّهُمْ وَسَفَهَ مَنْطِقَهُمْ فَأَلَّ : (وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِيَّاهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ) [7] ، وَقَوْلُهُ : (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) .

ب- الاتِّهَامُ بِالسَّحْرِ وَالْكَهَانَةِ :

وَقَدْ نَزَلَ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) [9] ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) .

وَحِينَ سَمِعَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْقُرْآنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ فِيهِ قَوْلًا يُجْمَعُ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ : « إِنَّ أَقْرَبَ الْقَوْلِ أَنْ تَقُولُوا : سَاحِرٌ ، يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ أَبِيهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ أَخِيهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَعَشِيرَتِهِ ، فَتَفَرِّقُوا عَنْهُ ، فَجَعَلُوا يَجْلِسُونَ لِلنَّاسِ حِينَ قَدِمُوا الْمَوْسِمَ لَا يَمُرُّ بِهِمْ أَحَدٌ إِلَّا حَدَرُوهُ إِيَّاهُ ، وَذَكَرُوا لَهُ أَمْرَهُ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) .

ت - الاتِّهَامُ بِالْكَذِبِ وَأَنَّهُ يَأْتِي بِالْأَسَاطِيرِ :

وَفِي ذَلِكَ يُخْبِرُنَا الْمُؤَلَّى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَتْهَا فَيَنبَغِي عَلَيْهِمْ كُبْرَةٌ وَأَصِيلًا) .

ث - السُّخْرِيَّةُ وَإِلَّا سَتَهْزَأُ وَالشَّتْمُ :

وَكَاؤُوا يَسْتَهْزِئُونَ مِنْهُ ﷺ وَمِنْ أَصْحَابِهِ الْكِرَامِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ ذَلِكَ : (لِإِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ، وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ) [14] ، وَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا بِجَمَاعَةٍ مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ قَتَلُوهُ بِالْهَمْزِ ، وَاللَّمْزِ ، وَالِاسْتِهْزَاءِ فَغَاظَهُ ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

وَكَاؤُوا يَسْتَهْزِئُونَ النَّبِيَّ ﷺ ، وَيَسْتَهْزِئُونَ ، وَيَدْمُونَهُ ، وَقَعْنَ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَتْ : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) ، أَقْبَلَتْ الْعُورَاءُ أُمَّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبٍ وَلَهَا وَلَوَلَةٌ ، وَفِي يَدَيْهَا فَهْرٌ وَهِيَ تَقُولُ : مُذَمَّمَا أَبِينَا ، وَدِينَهُ قَلِينَا ، وَأَمْرَهُ عَصِينَا ، ... وَلَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ ﷺ يَغُرُّ لَدِمَهُمْ اهْتِمَامًا ، فَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يُصْرَفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَتِهِمْ ؟ ! يَسْتَهْزِئُونَ مَدْمَمَا ، وَيَلْعَنُونَ مَدْمَمَا ، وَأَنَا مُحَمَّدٌ » .

أُسْلُوبُ الْأَذَى الْجَسَدِيِّ :

لَمَّا لَمْ تَتَجَحَّ أَسَالِيبُ الْمُشْرِكِينَ السَّابِقَةِ فِي صَدِّ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ ، لَجَأَتْ إِلَىٰ أُسْلُوبِ الْإِعْتِدَاءِ ، وَالتَّصْفِيَةِ الْجَسَدِيَّةِ لِإِرْهَابِ الْمُسْلِمِينَ ، وَثَنِيهِمْ عَنِ دِينِهِمْ ، وَقَدْ نَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ النَّصِيبِ الْأَوْفَى ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُرْوَةَ بِنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو عَنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي ، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَدَفَعَهُ عَنْهُ ، وَقَالَ : (أَتَقْتَلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ .

وَقَامَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْلِي « لِيَطَأَ عَلَيَّ رَقَبَتِهِ - قَالَ : - فَمَا فَجَّهَمُ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ
يُنْكَصُ عَلَيَّ عَيْبِيهِ ، وَيَبْقِي بِيَدَيْهِ - قَالَ : - فَفِيلٌ لَهُ : مَا لَكَ ؟ فَقَالَ : أَنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لِحْدَقًا مِنْ نَارٍ ،
وَهُوَلًا ، وَأَجْنِحَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْطَقْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا » ، قَالَ : فَأَنْزَلَ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا نَذْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ شَيْءٍ بَلَغَهُ : (كَلَا أَنْ الْإِنْسَانَ لِيَطْغَى أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْنَى أَنْ
إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعَى أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِنْ
كَذَبَ وَتَوَلَّى) [21] - يَعْنِي : أبا جَهْلٍ - (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَه لِنَسْفَعًا بِالتَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ
كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تَطْعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ .

أُسْلُوبُ التَّرْغِيبِ وَالْمَسَاوِمَةِ :

بَعْدَ فَشَلِّ أَسَالِيبِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ وَالتَّنْكِيلِ ، وَتَزَايِدِ الدَّاخِلِينَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ، سَقَطَ فِي أَيْدِي
الْمُشْرِكِينَ وَجَلَّتْ صَنَادِيدُهُمْ إِلَى أُسْلُوبِ التَّرْغِيبِ وَالْمَسَاوِمَةِ ، فَحَاوَلَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تُجْعَلَ الْإِسْلَامُ يَلْتَقِي
مَعَ الْجَاهِلِيَّةِ .

فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَنْتَازِلَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ بَعْضِ مَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَيَتْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ بَعْضَ مَا هُوَ
عَلَيْهِ ، وَقَدْ عَبَّرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ نَفْسِيَّةِ قُرَيْشٍ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : (وَدُوا لَوْ تَدُهْنُ فَيَدُهْنُونَ) [26] ، وَقَدْ
عَرَضُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُعْبَدَ آلِهَتُهُمْ يَوْمًا ، وَيَعْبُدُونَ آلِهَةَ يَوْمًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذَلِكَ سُورَةَ
الْكَافِرُونَ : (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ وَلَا
أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [27] ، فَقَطَعَ الْقُرْآنُ رَجَاءَ الْمُشْرِكِينَ ، وَرَفَضَ رَفْضًا قَاطِعًا
النَّازِلُ عَنْ مَبَادِيهِ .

وَقَدْ أَرَادَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَسْأَمُوا النَّبِيَّ ﷺ مِنْ خِلَالِ عَمِهِ أَبِي طَالِبٍ ، فَاقْتَرَحُوا عَلَيْهِ أَنْ يُعْطُوهُ أَجْمَلَ شَبَابِ مَكَّةَ آنَ ذَاكَ وَهُوَ عُمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ بَدَلًا عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَأْخُذُوهُ وَيَقْتُلُوهُ .

وَلَمَّا فَشَلُوا فِي ذَلِكَ ، أَرَادُوا أَنْ يَسْأَمُوهُ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْمَلِكِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمَّا جَاءَ وَفَدُّهُمْ إِلَى أَبِي طَالِبٍ ، قَالَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ : « يَا بَنَ أَخِي ، هُوَ لَاءِ أَشْرَافِ قَوْمِكَ ، قَدْ اجْتَمَعُوا إِلَيْكَ لِيُعْطُوكَ ، وَيَأْخُذُوا مِنْكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : نَعَمْ : كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَعْطُونِيهَا يَمْلِكُونَ بِهَا الْعَرَبُ ، وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ » ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : نَعَمْ وَأَبِيكَ عَشْرَ كَلِمَاتٍ ، قَالَ : تَقُولُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَتَخْلَعُونَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ، فَصَفَقُوا بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ تُرِيدُ أَنْ تُجْعَلَ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ أَنْ أَمْرًا لِعَجَبٍ ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا هَذَا الرَّجُلُ بِمَعْطِيكُمْ شَيْئًا مِمَّا تُرِيدُونَ ، فَانْطَلَقُوا وَامْضُوا عَلَى دِينِ آبَائِكُمْ ، حَتَّى يُحْكَمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ ، قَالَ : ثُمَّ تَفَرَّقُوا فَانزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ أَوَّلَ سُورَةِ «ص» .

أَسْلُوبُ الْحِصَارِ وَالْمَقَاتِعَةِ الْعَامَّةِ :

لَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ عَدَدَ الدَّاخِلِينَ فِي الْإِسْلَامِ فِي إِزْدِيَادٍ ، وَإِنْ وَسَّأَلَتْهَا وَأَسَالِيْبَهَا السَّابِقَةَ فِي مُحَارَبَتِهِمْ وَقَمْعِهِمْ لَمْ تَجِدْ شَيْئًا ، خَاصَّةً بَعْدَ إِسْلَامِ حَمْزَةَ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَعَادَتِ النَّظَرَ فِي أُسَالِيْبِهَا السَّابِقَةَ ، وَهُوَ أُسْلُوبُ الْمَقَاتِعَةِ الْعَامَّةِ .

حَيْثُ أَجْمَعَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى قَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَبَّوْا كِتَابًا عَلَى بَنِي هَاشِمٍ إِلَّا يَنَاقِحُوهُمْ ، وَلَا يَبَايَعُوهُمْ ، وَلَا يُخَالِطُوهُمْ ، وَكَانَ الَّذِي كَتَبَ الصَّحِيفَةَ مَنْصُورِ بْنِ عِكْرِمَةَ الْعُبْدَرِيِّ فَشَلَّتْ يَدُهُ ، وَعَلَقُوا الصَّحِيفَةَ فِي جَوْفِ الْكُعْبَةِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ الْجُلَاسِ بِنْتُ مُخْرَبَةَ الْحَنْظَلِيَّةِ خَالَهَ أَبِي جَهْلٍ ، وَحَصَرُوا بَنِي هَاشِمٍ فِي شُعْبِ أَبِي طَالِبٍ لَيْلَةَ هِلَالِ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ سَبْعٍ مِنْ

حِينَ نُبِّئَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَأُنْحَازَ بَنُو الْمُطَلِّبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ إِلَى أَبِي طَالِبٍ فِي شُعْبَةٍ مَعَ بَنِي هَاشِمٍ ، وَخَرَجَ أَبُو لَهَبٍ إِلَى قُرَيْشٍ فظَاهَرَهُمْ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَلِّبِ ، وَقَطَعُوا عَنْهُمْ الْمِيرَةَ وَالْمَادَّةَ ، فَكَانُوا لَا يُخْرِجُونَ إِلَّا مِنْ مَوْسِمٍ إِلَى مَوْسِمٍ ، حَتَّى بَلَغَهُمُ الْجُهْدُ ، وَسَمِعَ أَصْوَاتَ صَبِيَّائِهِمْ مِنْ وَرَاءِ الشَّعْبِ ، فَمَنْ قُرَيْشٍ مِنْ سَرَّهْ ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَاءَهُ ، وَقَالَ : انظُرُوا مَا أَصَابَ مَنْصُورِ بْنِ عِكْرِمَةَ ، فَأَقَامُوا فِي الشَّعْبِ ثَلَاثَ سِنِينَ ، ثُمَّ أَطْلَعَ اللَّهُ رَسُولَهُ عَلَى أَمْرِ صَحِيفَتِهِمْ ، وَإِنَّ الْأَرْضَ قَدْ أَكَلَتْ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ جَوْرِ وَظَلَمٍ ، وَبَقِيَ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

صَحْوَةُ الْعَقْلِ الدِّينِيِّ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِ

اسْتَيْقِظَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ الْجَاهِلُ مَعَ أَوَّلِ نَصِّ قُرْآنِيٍّ سَمِعَ بِهِ هَذَا الْعَقْلُ فِي مَكَّةَ الْمُكْرَمَةِ مَرَكَزِ الرِّسَالَةِ فَالرَّسُولُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ مِنْ وَسَائِلِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرُدَّ بِهَا عَلَى ظُلْمِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ وَكَسْرَ بُؤْفَقَةِ عَصَبِيَّتِهِمْ وَأَنَانِيَّتِهِمْ الْوَسِيلَةَ الْوَحِيدَةَ وَالْفَعَالَةَ وَالْمَدْهَشَةَ كَانَ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ مُنْجِمًا لِيُعَالَجَ أَمْرَاضَهُمْ وَعِلَاتِهِمْ بِنَانِيٍّ وَصَبْرٍ وَحَلَمٍ لِذَلِكَ كَانَتْ مِهْمَةُ الرَّسُولِ الْأُولَى هِيَ إِيصَالُ تِلْكَ الْآيَاتِ إِلَى أَسْمَاعِهِمْ لِذَلِكَ اسْتَفَاقَتْ عُقُولُهُمْ لِهَوْلِ مَا سَمِعُوهُ مِنْ نَذِيرٍ وَالَّذِي جَاءَ بِأَسْلُوبٍ مَبْتَكَّرٍ مُعْجَزٍ هُوَ الْأَخْرَ فَرَاخُوا يَتَسَاءَلُونَ مَنْ أَيْنَ جَاءَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي لَمْ يَسْمَعُوا بِهَا مِنْ قَبْلِ وَفِيهَا كُلُّ هَذَا التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ .

وَلَقَدْ ذَكَرْنَا سَابِقًا كَيْفَ كَانَتْ رَدودُهُمْ وَرَدَّهُ فِعْلُهُمْ عَلَى مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ لَكِنْ تَحَدَّثَ هُنَا عَنِ الْأَثَرِ النَّفْسِيِّ وَالْعُقْلِيِّ الَّذِي تَرَكْنَاهُ عِنْدَهُمْ هَذِهِ التُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ .

أَنَّ أَوَّلَ مَا جَعَلَ عُقُولَهُمْ تَسْتَيْقِظُ وَتَتَبَّهُ هُوَ تَسْأُولُهُمْ أَنْ كَيْفَ الرَّسُولُ يَقُولُ إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

ويقضي بذلك على كل ما صنعوه وأعتقدوا به من ألهة وقالوا :

﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5]

أَنَّ عِبَادَ الْأَصْنَامِ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ بِاخْتِصَاصِ الْأَصْنَامِ بِقَدْرِهِ دُونَ قَدْرِهِ وَلَمَّا أَتَى النَّبِيَّ لِيَنْسِبَ هَذِهِ الْأَفْعَالِ لِأَلَةٍ وَاحِدٍ فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مَثَارَ تَعَجُّبٍ لَانَّهُمْ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَتَعَارَضُ مَعَ اعْتِقَادِهِمْ بِوُجُودِ اللَّهِ وَلَكِنْ بِوُجُودِ شُرَكَاءٍ مَعَهُ فِي الْقُدْرَةِ تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ عُلوًّا كَبِيرًا وَمَا تَقْرِبُهُمْ لِعِبَادِهِمْ مِنْ اللَّهِ زُلْفَى إِلَّا إِحْدَى الْأَسْسِ الْفِكْرِيَّةِ لِعِبَادِهِ الْأَصْنَامِ وَلَيْسَتْ كُلُّهَا .

أَخْرَجْنَا مِنْ سِيرَةِ الدَّعْوَةِ النَّبَوِيَّةِ مَشْهَدٌ مِنَ الْمَشَاهِدِ الَّتِي تُبَيِّنُ لَنَا كَيْفَ اسْتَقَاقَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ الْجَاهِلِيَّ الْمُشْرِكِ عَلَى هَوْلٍ مَا سَمِعَهُ مِنْ آيَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ

وَفِي مَشْهَدٍ مَهِيبٍ وَإِمَامٍ حَشِدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُصَلِّي رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ بِالْمُسْلِمِينَ وَيَقْرَأُ سُورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ فِيهَا تَحْدِي لِكُلِّ مُشْرِكٍ ، وَمَا إِنْ أَتَى مِنْهَا حَتَّى سَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةَ .

ماهي هذه السورة التي قرأها النبي ، وما الذي حصل بالتفصيل ؟

بَعْدَ حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ بَلَّغَتْ حَسَاسِيَّةُ الْوَضْعِ الْإِسْلَامِيِّ الذَّرْوَةَ فِي هَذِهِ الْفِتْرَةِ الْخَرَجَةِ مِنْ تَارِيخِ الدَّعْوَةِ ؛ فَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقِعًا تَحْتَ ضَعُوطٍ كَثِيرَةٍ مَتْرَامَنَةً ، وَفَوْقَ ذَلِكَ فَهُوَ تَحْتَ ضَعُوطِ سُخْرِيَةِ النَّاسِ وَعَدَمِ تَصْدِيقِهِمْ لِأَمْرِ الْإِسْرَاءِ الَّذِي كَانَ يَرَوْنَ أَنَّهَا حُجَّةٌ قَوِيَّةٌ لِتَكْذِيبِ النَّبِيِّ لَكِنْ اسْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَشَاطِهِ الدَّعْوِي ، بَلْ طَوَّرَ ذَلِكَ تَطْوِيرًا عَظِيمًا فَأَمَرَهُ اللَّهُ

أَنْ يُفْعَلَ أَمْرًا غَيْرَ مَسْبُوقٍ وَلَمْ يُفْعَلْهُ مِنْ قَبْلِ لِيَتَحَدَى بِذَلِكَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ الَّذِينَ يَكْذِبُوهُ فِي الْغَدْوِ وَالرَّوَاخِ
وَحِينَ يُضْبِحُونَ وَحِينَ يُنْسُونَ وَيَتَّهَمُونَ الْحَبِيبَ الْمُصْطَفَى بِكُلِّ أَمْرٍ شَنِيعٍ . .

فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ أَنْ يَأْخُذَ بِأَصْحَابِهِ وَيَتَوَجَّهَ بِهِمْ إِلَى جَوْفِ مَكَّةَ الْمُكْرَمَةِ وَإِمَامِ الْكَعْبَةِ الْمَشْرِفَةِ وَتَحْتِ
إِنْظَارِ مُشْرِكِينَ قُرَيْشٍ وَأَنْ يُصَلِّيَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى يَسْمَعَ الْقَاصِي وَالذَّانِي كَلَامَ اللَّهِ الَّذِي لَا يُنْطَقُ عَنْهُ
الْهَوَىٰ وَيَلْسَ بِقَوْلِ سَاحِرٍ أَوْ مَجْنُونٍ . .

يَضْطَفُ الصَّحَابَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُ اللَّهِ إِمَامُهُمْ فَيُكَبِّرُ حَبِيبَنَا الْمُصْطَفَى وَيُكَبِّرُ وَرَاءَهُ الصَّحَابَةَ
وَيَبْدَأُ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ وَالْمُشْرِكِينَ يَسْتَمِعُونَ لِهَذَا الْكَلَامِ بِإِنْصَاتٍ شَدِيدَةٍ وَدُونَ مَقَاطِعِهِ مِنْ أَحَدٍ
وَعَلَامَاتِ الْاسْتِغْرَابِ وَالدهشة تَمَلُّ قُلُوبَهُمْ وَعُقُوبَتُهُمْ بِسَبَبِ فَصَاحَةِ مَا يَسْمَعُونَ وَرُوعِهِ وَعُدُوبَةِ هَذَا
الْكَلَامِ . .

وَبَعْدَ أَنْ أَنْتَهَى مِنْ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ سُورَةَ النَّجْمِ الَّتِي اخْتَارَهَا بِعِنَايَةِ دُونَا عَنْ بَقِيَّةِ السُّورِ ،
وَسَتَعَلَّمَ بَعْدَ قَلِيلٍ لِمَاذَا اخْتَارَ رَسُولُ اللَّهِ سُورَةَ النَّجْمِ تَحْدِيدًا لِتَلَاوتِهَا فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْمُهَيْبِ وَتَحْتِ
إِنْظَارِ مُشْرِكِينَ قُرَيْشٍ . .

قَرَأَ الرَّسُولُ السُّورَةَ ، وَكَانَ يَقْرَأُ بَيَانًا تَحْذِيرِيًّا إِلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ؛ فَالسُّورَةُ فِيهَا مِنْ الْقَوَارِعِ مَا فِيهَا ، وَلَمْ
يُقَدِّرْ عَلَى مَقَاطِعِهِ أَحَدٌ ، وَيَالَيْتَنَا تَتَصَوَّرُ هَذَا الْمَوْقِفَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ
بِصَوْتِهِ الْعَذْبِ ، وَخُشُوعِهِ الْكَامِلِ ، وَفَهْمِهِ الْعَمِيقِ لِكُلِّ حَرْفٍ ، وَالْجَمِيعِ يُنْصِتُ ، وَكَانَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ
الطَّيْرُ !

قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ (I) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (عَوْمًا يُطِطُّ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4) عِلْمُهُ شَدِيدَ الْقُوَىٰ (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (9) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (IO) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (II) أَفْتَمَارُونَ عَلَيَّ مَا يَرَىٰ ﴿

وَقَدْ أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ بِرُوعَةِ آيَاتِ وَالْكَلِمَاتِ ، وَبُهِرُوا بِهَذَا الْكَلَامِ الْغَرِيبِ الْعَجِيبِ ، الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ بَشَرٌ ، فَلَمْ يَحْرِكُوا سَاكِنًا ، وَنَزَلَتْ آيَاتُ نُورًا يَفْتَحُ قُلُوبَهُمْ ، وَخَرَسَتْ الْأَلْسِنَةُ ، وَتَسَمَّرَتِ الْأَيْدِي ، وَتَعَلَّقَتِ الْعُيُونُ بِرَسُولِ اللَّهِ ،

ان هذه المشاهد الوجيزة تصور لنا موقف المشركين من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

أَنَّهُ صَاحِبُهُمُ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ ، وَيُعْرِفُونَ نَسَبَهُ وَشَرَفَهُ وَصِدْقَهُ ، وَهُوَ لَا يَتَكَلَّمُ مَعَهُمْ بِهَوَاهُ إِنَّمَا يَأْتِيهِ مَلَكُ الْوَحْيِ مِنَ السَّمَاءِ ؛ هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الْجَرْدَةُ الَّتِي أُخْبِرَتْ بِهَا السُّورَةُ أَهْلَ مَكَّةَ عَنْ طَبِيعَةِ الرَّسُولِ وَمَهْمَتِهِ ؛ وَمَنْ تَمَّ وَضَعَتِ الْقَوْمَ فِي حَرَجٍ شَدِيدٍ ؛ إِذْ لِمَاذَا يُكَذِّبُونَهُ وَهُوَ لَيْسَ إِلَّا رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ تَمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْمَلُ قِرَاءَتَهُ بِصَوْتٍ قَوِيٍّ يُحَذِّرُ مِنَ اتِّبَاعِ آلِهَةٍ مَزْعُومَةٍ لَا قِيَمَةَ لَهَا ، وَيُحَذِّرُ كَذَلِكَ مِنْ أَنْ يُنْسَبَ أَحَدٌ شَيْئًا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ .

وَمَعَ أَنَّ آيَاتِ تَهْنِئَةِ آلِهَةِ قُرَيْشٍ ، وَتَحْتَرُّ مِنْ شَأْنِهَا ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَنْبِشُوا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ بَلْ ظَلَمُوا يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ مَبْهُورِينَ انبهارًا كاملًا ، مَعَ مَلَا حَظَةَ الْخَطَابِ الْمُبَاشِرِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي أَكْثَرِ مِنْ آيَةٍ ؛ وَذَلِكَ

مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ ، و ﴿ الْكُفْرَ الذِّكْرَ ﴾ ، و ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ ﴾

فَهَذِهِ كُلُّهَا كَلِمَاتٌ خَطَابِيَّةٌ لَهُمْ ، وَأَسْئَلُهُ مَوْجِهَةً لِعُقُولِهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَحْثُوا عَنْ إِجَابَةِ عَنْهَا .

وَتَضْمِينِ الْآيَاتِ تَكْشِيفُ عَنْ حَبَايَا الْمُشْرِكِينَ ، وَتَفْضِيحُهُمْ إِمَامَ أَنْفُسِهِمْ ، وَتَوْضِيحُ جَرِيْمَتِهِمُ الشَّيْعَةَ يَوْمَ
أَشْرَكُوا بِاللَّهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ قَالَ تَعَالَى :

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ
مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ
سَعِيهَ سَوْفَ يَرَى *

ثُمَّ أَكْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِرَاءَتَهُ لِلسُّورَةِ وَهِيَ تُشْرِحُ صِفَةَ الْآلَةِ الْقَدِيرِ الَّذِي نَعْبُدُهُ ، كَمَا
تُوضِحُ عَاقِبَةَ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ كَذَبُوا قَبْلَ أَهْلِ مَكَّةَ : قَالَ تَعَالَى : (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ
وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّوحَيْنِ الذِّكْرَ وَالْأُنثَى *

مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُنْمَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَعْتَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى * وَأَنَّهُ
أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمِ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى *

ثُمَّ تَسَارَعَتْ وَتَبَرَّهَ الْآيَاتُ ، وَعَلَّتِ النَّبْرَةُ بِشَدَّةِ !

قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾ * أَرَفَتِ الْأَرْفَةَ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمَنْ
هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجِبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿

الآيات أظهرت عجزهم الفاضح إمام إله عظيم بيده كل شيء ، وقادر على إهلاك أمم عظيمة كانت أشد منهم قوة ، وأعظم بأسا كما أن الآيات تحثهم على الإسراع بكل طاقة ممكنة ؛ فليس هناك وقت أيها المشركون ! لقد أزفت الآزفة ، وقد لا يتوفر لكم وقت للتوبة أو الرجعة ، فادركوا أنفسكم ! أن جريمتكم هائلة ؛ فأنتم أهل اللغة والبلاغة والأدب ، وتعلمون أن هذا الحديث جد لا هزل فيه ، صدق لا كذب فيه ، حق لا باطل فيه ، فما لكم تضحكون منه ، وتسخرون من حامله لكم ؛ بينما الأجدر بكم أن تبكوا على حالكم ، وأنتم سامدون لاهون معرضون !

ماذا تفعل ؟ !

كان هذا هو السؤال الحائر الذي تردد في أذهان كل المشركين الحاضرين !

حينها وجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد ، ويسجد معه المؤمنون . .

فعلّموا أن المخرج الوحيد من نزول عقاب الله الباطش بهم أن يسجدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعل هذا يعصمهم من العذاب ، فسجدوا جميعا في سابقه ليس لها مثيل في التاريخ ! وهي أن يسجد الكفار مع المؤمنين في لحظة واحدة مع رسول واحد !

قال ابن عباس رضي الله عنه : (سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالتجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن)

فَسَجَدَ الْجَمِيعَ دُونَ اسْتِثْنَاءِ مَا عَدَا شَخْصٍ وَاحِدٍ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ وَهُوَ الطَّاعِيَةُ الْمُشْرِكِ أُمِّيَّةَ بْنِ خَلْفٍ ، يَقُولُ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (قَرَأَ النَّبِيُّ النَّجْمَ فَسَجَدَ فِيهَا وَسَجَدَ مَنْ مَعَهُ غَيْرُ شَيْخٍ أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصَى أَوْ تُرَابٍ وَوَضَعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ وَقَالَ يَكْفِينِي هَذَا)

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْجَمِيعَ سَجَدَ بِسُجُودِ النَّبِيِّ إِلَّا أُمِّيَّةَ بْنِ خَلْفٍ لِأَنَّ كِبَرَهُ مَنَعَهُ لَكِنَّهُ أَخَذَ تُرَابًا وَوَضَعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ وَهُوَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي سَمِعَهُ هُوَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ الضَّلَالَ الَّذِي بَدَاخِلَهُ كَانَ أَقْوَى مِنْهُ . .

لَكِنْ لِلْأَسَفِ لِحُطْطَةِ سُجُودِ الْمُشْرِكِينَ كَانَتْ لِحُطْطَةِ اسْتِيقَاطِ وَهَزَّةِ عَابِرَةٍ ، لَا أَثَرَ لَهَا فِي الْقَلْبِ وَلَا فِي الْجَوَارِحِ ، قَامَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ سُجُودِهِمْ أَشَدَّ كَفْرًا ؛ بَلْ قَامُوا كَذَّابِينَ أَفَّاكِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَقَدْ صَدَقَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : I4] .

وَلَقَدْ حَرَكَ نَفْسَهُمْ وَعَقُولَهُمُ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ وَهَزَا لَعَلَّهُمْ يَتَنَعُونَ وَيُؤْمِنُونَ وَفِي بَعْضِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ يُذَكِّرُهُمْ بِأَنَّ هَذَا النَّبِيَّ مِنْهُمْ وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ بِلِسَانِهِمْ وَهُوَ سَيُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلْمَاتِهِمْ وَسَيَجْعَلُهُمْ أُمَّةً دَاعِيَةً إِلَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَنَشْرِ الدِّينِ الْحَنِيفِ دِينِ آبَائِهِمْ إِبْرَاهِيمَ .

﴿ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : 51] .

هَذَا تَحْرِيزٌ نَفْسِيٌّ قَوِيٌّ يُسَاعِدُهُمْ إِنْ أَمِنُوا بِهِ فِي تَنْوِيرِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ قَوَاعَةِ الْجَهْلِ وَالْجَاهِلِيَّةِ .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه : 113]

﴿ كِتَابٌ فَصَلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : 3]

يُخَاطِبُهُمُ الْمُؤَلَّى الْقَدِيرُ وَيَقُولُ إِذَا اتَّخَذْتُمْ طَرِيقَةَ وَسَلَكْتُمُوهُ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ فَسَوْفَ يُحَدِّثُ لَكُمْ ذِكْرًا وَقُوَّةَ بَيْنَ النَّاسِ وَيُجْعَلُ لَكُمْ مَوْطِئًا قَدِيمًا وَهَذَا مَا حَدَّثَ .

كان العرب يعرفون الحنفية وهي دين ملة آباؤهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

حَيْثُ بَنُوا قَوَاعِدَ بَيْتِ اللَّهِ وَدَعَوْا أَنْ يَهْتَدِيَ ذُرِّيَّتُهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ وَلَقَدْ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِنُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ عَدِيدَةٍ إِنْ جَعَلَ لَهُمْ بَلَدًا آمِنًا وَحَرَمًا يُحْجِ إِلَيْهِ النَّاسُ وَرَزَقَهُمْ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ .

ان بنو إسماعيل العرب الذين عاشوا كثيرا منهم في البوادي عيشة الأعراب بعد ان تكاثروا وتفرقوا فلقد نسوا شيئا فشيئا ملتهم وشريعتهم حتى أرسل الله منهم نبيا رسولا يعيدهم الى جادة الصواب ويعلمهم الكتاب والحكمة .

وَالسُّؤَالُ الَّذِي يَتَحَمَّ عَلَيْنَا الْجَابَةُ عَنْهُ هُوَ لِمَاذَا قُبِلَ هَذَا الْإِخْتِيَارُ الْإِلَهِيُّ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَكُونَ نَبِيًّا وَخَاتَمًا لِلنَّبِيِّينَ وَبِئْسَ يَدِيهِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كِتَابَ اللَّهِ بِمُعَارَضَةِ عَنيفَةٍ مِنْ قَبْلِ عَشِيرَتِهِ وَمِنْ قَبْلِ الْيَهُودِ وَالتَّنَازَرِ وَصَلَتْ إِلَى دَرَجَةِ شَنْ الْحَرْبِ وَالتَّأْمُرِ عَلَيْهِ وَإِيذَاءِ اتِّبَاعِهِ وَإِخْرَاجِهِ مِنْ مَوْطِنِهِ ؟

لَنْ نَبْحَثَ فِي كُتُبِ السِّيَرَةِ وَالْأَحَادِيثِ الْمَشْهُورَةِ عَنْ مَا فَعَلَتْهُ قُرَيْشٌ بِحَقِّ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ لَكِنْ عَلَيْنَا أَنْ نُثَبِّتَ مَوَاقِفَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ بِالنُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ لِأَنَّ اعْتِمَادَ النُّصُوصِ وَحَدِّهَا كَادِلَةٌ هُوَ مِنْهُنَا وَخَطْنَا

ومنطلقنا في هذا البحث ولقد تنوعت ردود وأفعال العشيرة في رفضهم للرَسُول وَرِسَالَتِهِ وَوَصَلَتْ إِلَى حَدِّ الْعُنْفِ .

وَالْإِيذَاءَ وَالْحَصَارَ ثُمَّ التَّفْيِ وَالْقِتَالَ عَلَى الرَّغْمِ أَنَّهُ نَبِيٌّ اخْتَارَهُ مِنْهُمْ وَجَعَلَ رِسَالَتَهُ بِلِسَانِهِمْ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ذَلِكَ :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة : 2]

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 151]

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4) ﴾ [قریش : 1 - 4]

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : 214]

﴿ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تَمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : 57]

فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ قُرَأَ عِدَّةَ رَسَائِلَ مُوجَّهَةً لِقُرَيْشٍ عَشِيرَةُ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ يُذَكِّرُهُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذَا مَكَّنَ اللَّهُ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ثُمَّ يَمْنِي عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ جَعَلَ مِنْهُمْ رَسُولًا وَنَبِيًّا يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ وَيَخْلصُهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَيَرْفَعُ شَأْنَهُمْ وَمَقَامَهُمْ لَكِنَّ هَذِهِ الْعَقْلِيَّةُ

الْجَاهِلِيَّةَ كَانَتْ تَسِيرُهَا الْعَصَبِيَّةُ الْعِشَائِرِيَّةُ الْمُقَيَّةُ وَالْمُنْفَعَةُ الْمَادِيَّةُ وَالْأَنَانِيَّةُ وَحُبُّ الشَّهَوَاتِ لِذَلِكَ
فَالرُّسُولُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَكُنْ مَهَادِنًا مَعَهُمْ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ حَتَّى إِتَّهَمُوا لَقَدْ طَلَبُوا مِنْهُ تَغْيِيرَ
كَلَامِ اللَّهِ وَخِطَابِهِ

"وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أُبدَلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي أَنْ أَتَّبِعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ" (يونس :
15) . وَهَذَا دَلِيلٌ قَوِيٌّ عَلَى قُوَّةِ تَأْثِيرِ الْقُرْآنِ فِي نَفْسِهِمْ وَخَوْفِهِمْ مِنْ سُقُوطِ عُرُوشِهِمْ هُمْ يُرِيدُونَ كِتَابًا
عَلَىٰ مَزَاجِهِمْ وَهَوَاهِمَ لِذَلِكَ حَارِبُوهُ .

أَمَّا أَسْبَابُ هَذَا الرَّفْضِ وَالتَّجْبُرِ وَالْعِزَّةِ بِالنَّفْسِ فَهِيَ :

أَوَّلًا : لَقَدْ صُعِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْزَلَ الْوَحْيُ عَلَى رَجُلٍ فَقِيرٍ مِنْهُمْ لِأَيْمَلِكِ جَنَاتٍ مِنْ نَعِيمٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ
وَكَانَ رَجُلًا سَوِيًّا اشْتَهَرَ بَيْنَهُمْ بِالصَّدْقِ وَالْأَمَانَةِ وَكَانَ قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَكُونَ يَتِيمًا مُنْذُ صَغَرِ سِنِّهِ يَعِيشُ فِي
كُفِّ جَدِّهِ وَمِنْ ثَمَّ عَمَهُ هَذِهِ الصِّفَاتِ وَالْحَسَنَاتِ فِي رَجُلٍ لَا تَسْتَهْوِيهِمْ فَأَعْتَرَضُوا عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَقَالُوا
لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] لِذَلِكَ عَانَدُوا وَتَكَبَّرُوا فَهَمَّ أَغْنِيَاءُ
وَهُوَ لَيْسَ عِنْدَهُ مَا يَمْلِكُونَ وَقَالُوا ﴿ أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا
تُفَجِّرًا ﴾ [الإسراء : 91] أَوْ ﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ ﴾ [الإسراء : 93] .

ثَانِيًا : حِينَئِذٍ بَدَأَ يُوَضِّحُ وَيَبَيِّنُ لَهُمْ قُوَّةَ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَبَلَغَتْهُ تَغْيِيرَتُ لَهْجَةِ خِطَابِهِمُ الْعُدْوَانِي الرَّافِضِ
فَاتَّهَمُوهُ بَعْدَهُ اتِّهَامَاتٍ مَرَّةً قَالُوا عَنْهُ سَاحِرٌ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ
النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾ [يونس 2]

وأضافوا على كلمة ساحر نعت آخر اتهموه به وهو أصدق رجل في عشيرتهم وقالوا ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص : 4] ثم اتهموه بالجنون ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا

الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6] ثم قالوا بل ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتَنَا لَشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ [الصافات : 36] ثم ادعوا أن هناك من يعلمه ويلقنه ﴿ وَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل : 103] .

ثالثًا : ثم تحول ردّهم وقدمهم للقرآن الكريم نفسه وكلماته وآياته لأنها أصابت عقيدتهم ودينهم في المقتل فهو طعن في آلهتهم ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5]

وليس ذلك فحسب فالقرآن الكريم كشف شركهم وخرافاتهم ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف : 191]

رابعًا : لم يبق إمامهم سوى أن يتحدوا الرسول الكريم ويطلبوا منه المعجزات الآتية فطلبوا منه ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء : 90] ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِلِهِ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء : 92] وأخيرًا طلبوا منه مطلبًا في اعتقادهم هو تعجيزي ﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : 93] .

﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتَنَا لَشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ [الصافات : 36]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [المؤمنون : 70]

(وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) [الأنفال: 31]

(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَتْهَا فِيهِ تَمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) [الفرقان : 5]

لَمْ يَدْعِ الْمُشْرِكُونَ صِفَةً أَوْ نَعْتًا إِلَّا وَنَعْتَهُ بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَرِسَالَةَ رَبِّهِ وَلَا تَهْمُ يَعْلَمُونَ تَمَامِ الْعِلْمِ أَخْلَاقِهِ
وَسُلُوكِهِ وَأَمَانَتِهِ وَعَقْتِهِ لِذَلِكَ لَمْ يَتَشَجَعُوا وَيَتَسَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى طَعْنِهِ بِأَمَانَتِهِ وَخَلْقِهِ بَلِ صُبُّوا جَامِ
غَضَبِهِمْ وَجَنُونَهُمْ عَلَى النَّصِ الْقُرْآنِيِّ الَّذِي فَضَحَ عَقِيدَتِهِمْ وَأَشْرَاكِهِمْ وَأَظْهَرَ لَهُمُ الْحَقَّ الْمُبِينُ .

وَكَانَ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ قَوِيًّا وَفَعَالًا فِي الرَّدِّ عَلَى مَقُولَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَطَلِبَاتِهِمْ الْعَجِيزِيَّةِ بَلِ كَشَفَ غُيُوبِهِمْ
وَجَهْلُهُمْ وَأَشْرَاكِهِمْ وَضَعَفَ دِينَهُمْ وَعَقَائِدَهُمْ وَبِالإِضَافَةِ لِذَلِكَ فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ رَاحَ يَحِثُّ الرِّسُولَ الْكَرِيمَ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ عَلَى الثَّبَاتِ وَالْمَقَاوِمَةِ وَمِنْ هَذِهِ الرَّدُودُ :

الاسْتِمْرَارِ فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ وَالِدِّينِ وَعَدَمِ الْمُبَالَاةِ بِأَقْوَالِهِمْ يَقُولُ تَعَالَى : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ

وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنْ بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ " [الشعراء : 214]

[216]

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) [الحجر : 94- 97] .

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 106]

وَلَقَدْ طَلَبَ اللَّهُ مِنْ رَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ الصَّبْرَ عَلَى التَّكْذِيبِ وَالْعِنَادَ مَا دَامُوا ضَعْفَاءَ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ تَعَلَّمَ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

(٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ

اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفَقًا فِي
الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)
(٣٥) ﴿ [الأنعام/٣٣-٣٥] .

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمْ
نَصْرُنَا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ٣٤ ﴾
وطلب منه عدم الخوف إلا من الله :

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا
مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرًا عَظِيمًا ١٧٢ ﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا
وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿ ١٧٣ ﴾ فَاتَّقَلَّبُوا فِي نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا
رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿ ١٧٤ ﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ١٧٥ ﴾

والنظر في السنن الربانية

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ
١٣٧ ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ ١٣٨ ﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ١٣٩ ﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَيَعْلَمُ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿ ١٤٠ ﴾ آلِ عِمْرَانَ

ووجوبُ التعلُّقِ بالبداِ وَلَيْسَ بِالأشْخاصِ :

لأنَّ المبدأ لا يضلُّ ولكنَّ الأشْخاصَ قد يضلُّون أو يُحبَسون أو يشردون في الأَرْضِ أو يُقتلون .

وهذه نقطةٌ جوهريةٌ في صميمِ هذه الرِّسالةِ الخالدةِ ، وقد تركَ كثيرٌ من الصَّحابةِ الجهادَ في غزوةِ أُحدٍ لما سمِعوا بِمَقْتَلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وكثيرٌ من النَّاسِ اليَوْمَ إذا قتلَ الدَّاعيةَ أو سَجَنَ أو انْحَرَفَ تَخَلُّوا عَنِ الدَّعْوَةِ وَيَسُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَهَذَا أَمْرٌ خَطِيرٌ يَتَعَلَّقُ بِعَقِيدَةِ المُسْلِمِ تَجَاهَ هَذِهِ الرِّسالةِ الخاتمةِ .

قالَ تَعَالَى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإنِ ماتَ أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم وَمَنْ يَنْقلبِ على عَقبِيهِ فلنَ يضرَّ اللهُ شيئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ) (آلِ عِمْرانَ : ١٤٤)

وعدمُ الاكْتِراثِ بالذِينِ لا يوقِنونَ :

قالَ تَعَالَى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يُسَخِّفَنَّكَ الَّذِينَ لا يوقِنونَ ﴾ (سُورَةُ الرُّومِ

تَحْمِلُ الأذى الشَّدِيدِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى وَعَدَمُ الوَهْنِ فِي طَلَبِ الكُفَّارِ

قالَ تَعَالَى : (وَلا تَهَمُّوا فِي ابتِغاءِ القومِ إنَّ تكونوا تَأْمونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمونَ كما تَأْمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ ما لا يُرْجُونَ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً) (النساءَ : ١٠٤)

ووجوبُ التَّحَلِّيِ بِمَكَارِمِ الأَخلاقِ :

قالَ تَعَالَى : ﴿ أَفمَنْ يَعْلَمُ ما أنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألبابِ (١٩) الَّذِينَ يوفونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلا يَنْقُضونَ المِيثاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يوصَلَ وَيَخْشونَ رَبَّهُمْ

وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴿ سُورَةُ الرَّغْدِ

وَأَنْ يَكُونُوا أَنْصَارًا لِلَّهِ :

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَاثْمَنَّا طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿ [الصف/١٤]

لَقَدْ اسْتَيْقَنَتْ قُرَيْشٌ بِصِدْقِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَرِسَالَتِهِ وَالْكَلِمَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ وَهَرَّتْ نَفْسُهُمْ وَأَدْخَلَتْ بِهَا الرُّعْبَ وَالْخَوْفَ لِكِنَّهِمْ بِالرُّغْمِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ نَكَرُوهَا وَجَحَدُوا بِهَا تَعَنَّاتًا وَظُلْمًا يَقُولُ الْمُؤَلَّى الْقَدِيرُ فِي ذَلِكَ ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ النمل : I4]

أَنَّهُمْ اخْتَجَبُوا عَلَى هَذَا الْفِكْرِ الْجَدِيدِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الدِّينُ الْجَدِيدُ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ سِوَى الَّذِي كَانَ يُؤْمِنُ بِهِ آبَاؤُهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَفَوْقَ ذَلِكَ يَالَيْتَ آبَاؤُهُمْ كَانُوا مُهْتَدِينَ وَقَدْ فَضَحَهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِقَوْلِهِ قَالَ تَعَالَى : " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ " (المائدة) .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُؤْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يُنْفِضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصُلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴿ سُورَةُ الرَّغْدِ

أَسَالِيبُ الْعَقْلِ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيِّ فِي مُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ

لقد حارب العقل العربي الجاهلي الدعوة الجديدة لشعوره بأنها ستهدم عصبيتهم وجهلهم وستقضي على نفوذهم وتسلطهم وبغيهم وأتبع أصحاب هذا العقل طرقا وأبتكروا الاساليب في محاربة الدعوة منها

أُسْلُوبُ التَّرْهِيْبِ وَالتَّهْدِيْدِ

أُسْتُعْمِلَ الْمُشْرِكُونَ أُسْلُوبَ التَّرْهِيْبِ وَالتَّهْدِيْدِ لِشَيْءِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَنَشَرُ دَعْوَتِهِ ، وَكَانَ يَتَوَلَّى هَذَا الْأُسْلُوبَ كِبْرَاءَ قُرَيْشٍ ، وَطَوَاغِيْتِهِمْ كَأَبِي جَهْلٍ الَّذِي كَانَ إِذَا سَمِعَ بِإِسْلَامِ رَجُلٍ مِنْ أَشْرَافِ مَكَّةَ وَمَنْ لَهُ شَوْكَةٌ وَمَنْعَهُ ابْنَهُ وَأَخْرَاهُ وَقَالَ لَهُ : ” تَرَكْتَ دِيْنََ أَبِيكَ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ! لِنَسْفِهِنَ حِلْمَكَ ، وَلِنَضْعَنَ رَأْيَكَ ، وَلِنَضْعَنَ شَرَفَكَ ” ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَمَتَاعٍ وَتِجَارَةٍ قَالَ لَهُ : ” لِنَكْسِدَنَّ تِجَارَتَكَ ، وَلِنُهْلِكَنَّ مَالَكَ ” ، وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا مُسْتَضْعَفًا ضَرَبَهُ ، وَأَغْرَى بِهِ سَفَهَاءَ مَكَّةَ .

أُسْلُوبُ الْأَذَى الْمَعْنَوِيِّ

أُسْتُعْمِلَ الْمُشْرِكُونَ كَذَلِكَ أُسْلُوبًا مِنْ أَشَدِّ الْأَسَالِيبِ خِسَّةً وَدَنَاءَةً فِي مُوَاجَهَةِ الْمُسْلِمِينَ ، إِلَّا وَهُوَ أُسْلُوبُ الْأَذَى الْمَعْنَوِيِّ مِنْ خِلَالِ : السُّخْرِيَّةِ ، وَالِاسْتِهْزَاءِ ، وَالتَّشْهِيْرِ ، وَالْغَمْزِ وَاللَّمْزِ ، وَالِاتِّهَامِ بِالسَّحْرِ ، وَالْجُنُونِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَأْتِيهِ شَيْطَانٌ ، وَالسَّبِّ وَالتَّشْمِ... وَغَيْرِ ذَلِكَ .

أ - الاتِّهَامُ بِالْجُنُونِ وَأَنَّهُ يَأْتِيهِ شَيْطَانٌ :

حَيْثُ رَمَوْا النَّبِيَّ ﷺ بِالْجُنُونِ وَفِي ذَلِكَ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) ، وَقَالَ تَعَالَى أَيْضًا : (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزَلْقُونَكَ بَأْبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) . وَكَانَ بَعْضُ الْكُفَّارِ يَقُولُ : أَنَّ الَّذِي يَأْتِي مُحَمَّدًا شَيْطَانٌ لَا مَلَكَ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْبُخَارِيِّ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِلرَّسُولِ ﷺ سَاحِرَةٌ مُسْتَهْزِئَةٌ : « إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ ، لَمْ أَرَهُ قُرْبِكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا » . وَقَدْ كَذَبَ اللَّهُ تَعَالَى ظَنَّهُمْ وَسَفَّهُ مَنْطِقَهُمْ فَالْ : (وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِلَيْهِمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُولُونَ) [7] ، وَقَوْلُهُ : (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) .

ب - الاتِّهَامُ بِالسَّحْرِ وَالْكَهَانَةِ :

وَقَدْ نَزَلَ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) [9] ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) .

وَحِينَ سَمِعَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْقُرْآنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ فِيهِ قَوْلًا يُجْمَعُ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ : « إِنْ أَقْرَبَ الْقَوْلُ أَنْ تَقُولُوا : سَاحِرٌ ، يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ أَبِيهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ أَخِيهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَعَشِيرَتِهِ ، فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ ، فَجَعَلُوا يَجْلِسُونَ لِلنَّاسِ حِينَ قَدِمُوا الْمَوْسِمَ لَا يُمَرُّ بِهِمْ أَحَدٌ إِلَّا حَذَرُوهُ إِيَّاهُ ، وَذَكَرُوا لَهُ أَمْرَهُ ؛ فَانزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) .

ت - الاتِّهَامُ بِالْكَذِبِ وَأَنَّهُ يَأْتِيهِ بِالْأَسَاطِيرِ :

وَفِي ذَلِكَ يُخْبِرُنَا الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتِرَاءِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) .

ث - السُّخْرِيَّةُ وَإِلَّا سَتَهْرَاءُ وَالشَّتْمُ :

وَكَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ مِنْهُ ﷺ وَمِنْ أَصْحَابِهِ الْكِرَامِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ ذَلِكَ : (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ، وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ) [I4] ، وَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا بِجَمَاعَةٍ مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ فِتَنَافُوهُ بِالْهَمْزِ ، وَاللَّمْزِ ، وَالِاسْتَهْزَاءِ فَعَاظَهُ ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

وَكَانُوا يَسْتُشْمُونَ النَّبِيَّ ﷺ ، وَيَسُبُّونَهُ ، وَيَذْمُونَهُ ، فَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَتْ : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) ، أَقْبَلَتِ الْعُورَاءُ أُمَّ جَمِيلٍ بِنْتِ حَرْبٍ وَلَهَا وَوَلَةٌ ، وَفِي يَدَيْهَا فَتْرٌ وَهِيَ تَقُولُ : مُذَمَّمَا أَبِينَا ، وَدِينَهُ قَلِينَا ، وَأَمْرَهُ عَصِينَا ، ... وَلَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ ﷺ يَعْرِ لَذْمَهُمْ اهْتِمَامًا ، فَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يُصْرَفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ ؟ ! يَسْتُشْمُونَ مَذْمَمًا ، وَيَلْعَنُونَ مَذْمَمًا ، وَأَنَا مُحَمَّدٌ " .

أُسْلُوبُ الْأَذَى الْجَسَدِيِّ :

لَمَّا لَمْ تَبْجَحْ أَسَالِيبَ الْمُشْرِكِينَ السَّابِقَةَ فِي صَدِّ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ ، لَجَأَتْ إِلَىٰ أُسْلُوبِ الْإِعْتِدَاءِ ، وَالتَّصْفِيَةِ الْجَسَدِيَّةِ لِالرَّهَابِ الْمُسْلِمِينَ ، وَثِيهِمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَقَدْ نَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ النَّصِيبِ الْأَوْفَى ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو عَنْ أَشَدِّ مَا

صَنَّ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : رَأَيْتَ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي ، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَدَفَعَهُ عَنْهُ ، وَقَالَ : (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ .

وَقَامَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي « لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ - قَالَ : - فَمَا فَجَّهَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يُنْكَصُ عَلَى عُنُقَيْهِ ، وَيَبْقَى بِيَدَيْهِ - قَالَ : - فَقِيلَ لَهُ : مَا لَكَ ؟ فَقَالَ : أَنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لِحْنَدًا مِنْ نَارٍ ، وَهُوًّا ، وَأَجْنِحَةً ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْطَفْتَهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا » ، قَالَ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا نَذْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ شَيْءٍ بَلَغَهُ : (كَلَا أَنْ الْإِنْسَانَ لِيَطْغَى أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْنَى أَنْ إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعَى أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى) [21] - يَعْنِي : أبا جَهْلٍ - (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَه لَسَفَعَا بِالتَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَازِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تَطْعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ .

أَسْلُوبُ التَّرْغِيبِ وَالْمَسَاوِمَةِ :

بَعْدَ فَشَلِّ أَسَالِيبِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ وَالتَّنْكِيلِ ، وَتَزَايِدِ الدَّاخِلِينَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ، سَقَطَ فِي أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ وَجَلَّتْ صَنَادِيدُهُمْ إِلَى أَسْلُوبِ التَّرْغِيبِ وَالْمَسَاوِمَةِ ، فَحَاوَلَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تُجْعَلَ الْإِسْلَامُ يَلْتَقِي مَعَ الْجَاهِلِيَّةِ .

فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَتَنَزَلَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ بَعْضِ مَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَيَتْرَكَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ مَا هُوَ عَلَيْهِ ، وَقَدْ عَبَّرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ نَفْسِيَّةِ قُرَيْشٍ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : (وَدُوا لَوْ تَدُهُنْ فَيَدُهْنُونَ) [26] ، وَقَدْ عَرَضُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُعْبَدَ آلِهَتُهُمْ يَوْمًا ، وَيَعْبُدُونَ آلهةَ يَوْمًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذَلِكَ سُورَةَ

الكَافِرُونَ : (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [27] ، فَطَعَّ الْقُرْآنَ رَجَاءَ الْمُشْرِكِينَ ، وَرَفَضَ رَفْضًا قَاطِعًا التَّنَازُلَ عَنِ مَبَادِيهِ .

وَقَدْ أَرَادَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَسَاوَمُوا النَّبِيَّ ﷺ مِنْ خِلَالِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ، فَاقْتَرَحُوا عَلَيْهِ أَنْ يُعْطُوهُ أَجْمَلَ شَبَابِ مَكَّةَ آنَ ذَاكَ وَهُوَ عُمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ بَدَلًا عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَأْخُذُوهُ وَيَقْتُلُوهُ .

وَلَمَّا فَشَلُوا فِي ذَلِكَ ، أَرَادُوا أَنْ يَسَاوَمُوهُ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْمَلِكِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمَّا جَاءَ وَفَدُّهُمْ إِلَى أَبِي طَالِبٍ ، قَالَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ : ” يَا بَنَ أَخِي ، هَؤُلَاءِ أَشْرَافُ قَوْمِكَ ، قَدْ اجْتَمَعُوا إِلَيْكَ لِيُعْطُوكَ ، وَليَأْخُذُوا مِنْكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : نَعَمْ : كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَعْطُونِيهَا يَمْلِكُونَ بِهَا الْعَرَبُ ، وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ “ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : نَعَمْ وَأَبِيكَ عَشْرَ كَلِمَاتٍ ، قَالَ : نَقُولُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَتَحْلَعُونَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ، فَصَفَقُوا بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ تُرِيدُ أَنْ تُجْعَلَ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ أَنْ أَمْرَكَ لِعَجَبٍ ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا هَذَا الرَّجُلُ بِمَعْطِيكُمْ شَيْئًا مِمَّا تُرِيدُونَ ، فَانْطَلَقُوا وَامْضُوا عَلَى دِينِ آبَائِكُمْ ، حَتَّى يُحْكَمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ ، قَالَ : ثُمَّ تَفَرَّقُوا فَانزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ أَوَّلَ سُورَةِ ” ص “ .

أُسْلُوبُ الْحِصَارِ وَالْمَقَاطِعَةِ الْعَامَّةِ :

لَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ عَدَدَ الدَّاحِلِينَ فِي الْإِسْلَامِ فِي إِزْدِيَادٍ ، وَإِنْ وَسَّائِلُهَا وَأَسَالِيْبُهَا السَّابِقَةَ فِي مُحَارَبَتِهِمْ وَقَمْعِهِمْ لَمْ تَجِدْ شَيْئًا ، خَاصَّةً بَعْدَ إِسْلَامِ حَمْزَةَ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَعَادَتِ النَّظَرَ فِي أُسَالِيْبِهَا السَّابِقَةِ ، وَهُوَ أُسْلُوبُ الْمَقَاطِعَةِ الْعَامَّةِ .

حَيْثُ أَجْمَعَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى قَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَتَبُوا كِتَابًا عَلَى بَنِي هَاشِمٍ إِلَّا
بِنَاكِحِهِمْ ، وَلَا يَبَاعِهِمْ ، وَلَا يُخَالِطُوهُمْ ، وَكَانَ الَّذِي كَتَبَ الصَّحِيفَةَ مَنْصُورِ بْنِ عِكْرِمَةَ الْعَبْدَرِيِّ
فَشَلَّتْ يَدُهُ ، وَعَلَقُوا الصَّحِيفَةَ فِي جَوْفِ الْكُعْبَةِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ الْجُلَّاسِ بِنْتِ مُخْرَبَةَ
الْحَنْظَلِيَّةِ خَالَةَ أَبِي جَهْلٍ ، وَحَصَرُوا بَنِي هَاشِمٍ فِي شُعْبِ أَبِي طَالِبٍ لَيْلَةَ هِلَالِ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ سَبْعٍ مِنْ
حِينَ تُنْبِئُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَأَنْحَازِ بَنُو الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةٍ إِلَى أَبِي طَالِبٍ فِي شُعْبَةٍ مَعَ بَنِي
هَاشِمٍ ، وَخَرَجَ أَبُو لَهَبٍ إِلَى قُرَيْشٍ فظَاهَرَهُمْ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ ، وَقَطَعُوا عَنْهُمْ الْمِيرَةَ
وَالْمَادَّةَ ، فَكَانُوا لَا يَخْرُجُونَ إِلَّا مِنْ مَوْسِمٍ إِلَى مَوْسِمٍ ، حَتَّى بَلَغَهُمُ الْجَهْدُ ، وَسَمِعَ أَصْوَاتَ صَبِيَّائِهِمْ مِنْ
وَرَاءِ الشَّعْبِ ، فَمَنْ قُرَيْشٍ مِنْ سَرَّةِ ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَاءَهُ ، وَقَالَ : انظُرُوا مَا أَصَابَ مَنْصُورِ بْنِ
عِكْرِمَةَ ، فَأَقَامُوا فِي الشَّعْبِ ثَلَاثَ سِنِينَ ، ثُمَّ أَطَاعَ اللَّهُ رَسُولَهُ عَلَى أَمْرِ صَحِيفَتِهِمْ ، وَإِنَّ الْأَرْضَةَ قَدْ
أَكَلَتْ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ جُورٍ وَظَلَمٍ ، وَبَقِيَ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

مَوَاقِفُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْعَرَبِ

المَقْصُودُ بِهِمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ هَادُوا وَتَنَصَرُوا فَكَانَ هُنَاكَ إِلَى جَانِبِ الْمُشْرِكِينَ الْعَرَبِ الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى
اللَّهِ بِأَوْثَانِهِمْ وَأَصْنَامِهِمْ زَلْفَى ، فَهُنَاكَ أَيْضًا مِنْ مَعْتَقِي الدِّيَاتِنِ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ اللَّتَانِ كَانَتَا تَعْمَانِ
الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلِكُلِّ مِنْ تِلْكَ الْأَدْيَانِ مَصَادِرُ فِكْرِيَّةٍ تَسْتَقِي مِنْهَا تَعَالِيمَهَا ، وَتَبْنِي عَلَيْهَا
مَعْتَقِدَاتَهَا ، فَصَاغَ مِنْهَا أَصْحَابُهَا طُقُوسَهُمُ الدِّينِيَّةَ عَلَى اخْتِلَافِهَا . وَكُلُّ وَاحِدٍ بَنَى عَلَيْهِ مَعَارِفَهُ
مِنْ مَحِيطِهِ الْغَنِيِّ دِينِيًّا .

وَكَانَ الْكَثِيرَ مِنْ اتِّبَاعِ هَاتَيْنِ الدِّيَاتِينَ كَثْرًا فِي الْحَزِينَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَكَانَ بَيْنَهُمُ الرَّهْبَانُ وَالْفَيْسِيَّةُ وَالْمُتَقَهِّينَ
 وَلَقَدْ لَعِبُوا دَوْرًا مَتَخْفِيًا مُسْتَسْرِرًا فِي بَدَايَةِ نُزُولِ الْوَحْيِ فَكَانُوا يَحْرُكُونَ أُمَّةَ الشَّرْكَ الْقَرِيشِيَّةِ وَيَحْرُضُوهُمْ
 عَلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَكِنْ مَوْقِفَ الْيَهُودِ خَاصَّةً مِنَ الدَّعْوَةِ النَّبَوِيَّةِ
 اِزْدَادًا وَضُوحًا وَعَدَوَانِيَّةً حِينَمَا هَاجَرَ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَجَابَهُوا النَّبِيَّ بِالْكَلامِ وَالْجَدَلِ ثُمَّ
 بِالْفِعْلِ حِينَمَا تَحَالَفُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ ضِدَّ الرَّسُولِ وَاتَّبَاعِهِ وَلَكِنْ مَا الَّذِي دَفَعَ بِالْيَهُودِ لِلْوُقُوفِ إِلَى جَانِبِ
 أَعْدَاءِ الدَّعْوَةِ التَّوْحِيدِيَّةِ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ وَبِالدِّينِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ وَهُمْ دِينِيًّا وَعَقَائِدِيًّا أَقْرَبُ لِلْإِسْلَامِ
 وَلَيْسَ لِلْمُشْرِكِينَ .

موقف اليهود العرب

بَدَأَ الْوَحْيُ وَبِهِ بَدَأَتْ رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ وَدِينَهُ مَعَ بَدَايَاتِ الْقُرْنِ السَّابِعِ الْمِيلَادِيِّ وَالْفَارِقِ الزَّمَنِيِّ بَيْنَ نُزُولِ
 الْقُرْآنِ وَنُزُولِ الْإِنْجِيلِ هُوَ حَوْلِي 600 عَامٍ بَيْنَمَا نَزَلَتِ التَّوْرَةُ فِي عَهْدِ مُوسَى حَوْلِي 1500 سَنَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ
 وَبِهَذَا تَكُونُ التَّوْرَةُ قَبْلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِحَوْلِي 2100 سَنَةٍ تَقْرِبًا وَهُوَ فَارِقُ زَمَنِي كَبِيرٌ .

قُلْنَا إِنَّ الْمُوَاجَهَةَ بَيْنَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَالْيَهُودِ الْعَرَبِ بَدَأَتْ بَعْدَمَا هَاجَرَ النَّبِيُّ إِلَى الْمَدِينَةِ ، حَيْثُ تَعَامَل
 الرَّسُولُ (صَلِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) مَعَ الْيَهُودِ فِي الْبَدَايَةِ عَلَى أَسَاسِ أَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ مُوَحَّدِينَ يُؤْمِنُونَ
 بِنُبُوَّةِ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَيَرْفُضُونَ الْأَوْثَانَ . فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ بِكُلِّ سَمَاحَةٍ ، وَإِلَى الْإِيمَانِ بِنُبُوَّتِهِ
 وَبِدِينِهِ كَدَعْوَةِ عَالَمِيَّةٍ ، وَقَدْ جَاءَهُمُ الدَّلِيلُ وَالْقَاطِعُ وَالْبَيِّنَةُ فَهَمَّ أَنْ كَانَ لَهُمْ عُذْرٌ مِنْ قَبْلِهِ فَالآنَ لَيْسَ لَهُمْ
 أَيُّ مُبَرَّرٍ بَعْدَ وَضُوحِ الدَّلِيلِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ : (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ
 مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ) . ﴿ سُورَةُ الْبَيِّنَةِ : I ﴾ .

وَفَوْقَ ذَلِكَ اعْتَبَرَهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ أَصْحَابِ كُتُبِ سَمَاوِيَّةٍ وَاتِّبَاعِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَقَدْ أَبْرَمَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْعُهُودَ مَعَهُمْ فِي الْمَدِينَةِ ، وَاعْتَبَرَهُمْ جِزْءًا مِنَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَحَارَبَ الْكَثِيرَ مِنَ الْيَهُودِ
جَنَبًا إِلَى جَنَبٍ ضِدَّ الْبِيزَنْطِيِّينَ وَالْفَرَنْجَةَ .

ثُمَّ دَعَاهُمْ صِرَاحَةً إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا وَأُذْيَانُهُمْ تَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ الْوَاحِدِ ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 64]

وَلَقَدْ دَعَاهُمْ إِلَى التَّقْوَى فِي الْعَمَلِ وَهِيَ مِيزَانُ التَّقَاضُلِ ، وَإِلَى تَحْلِيلِ الطَّيِّبِ وَتَحْرِيمِ الْحَبِيثِ فِي
التَّشْرِيعِ ، وَإِلَى التَّعَاوُنِ وَالْمَعْرُوفِ فِي بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ ، قَالَ تَعَالَى ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ
الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ
الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : 157] هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي مَكَّةَ
وَكَانَتْ دَعْوَةً اسْتِزْجَارِيَّةً لِأَهْلِ الْكِتَابِ تَنْبَأُوهُمْ بِمَوْقِفِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْهُمْ وَدَعْوَةً لِحُجَّةِ الصَّفِّ ضِدَّ
الْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ .

وَمَا زَادَ فِي مَوَاقِفِ الْيَهُودِ الْعَرَبِ فِي الْمَدِينَةِ وَشُكُوكِهِمْ بِالرَّسُولِ وَرِسَالَتِهِ هُوَ أَنَّهُمْ فِي مُعْتَقَدِهِمْ أَنَّ أَنْبِيَاءَ
بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَكْمَلُوا وَالتَّوْرَةَ هِيَ آخِرُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الْمُنزَلَةِ ثُمَّ وَقُفُّهُمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ
وَتَأْمُرُهُمْ وَتَحْرِيفُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى قِتَالِهِمْ كُلِّ ذَلِكَ وَتَمَشِيًا مَعَ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ بَدَأَ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ بِالرَّدِّ عَلَيْهِمْ
وَكَشَفَ نَوَايَاهُمْ وَمَوَاقِفَهُمْ ثُمَّ رَاحَ يَفْنَدُ تَارِيحَهُمْ الْحَافِلَ بِتَزْوِيرِ كَلَامِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ لَقَدْ كَانَتْ لَهُمْ

اغتراضات قويّة ومواقف باطلة ضدّ الرّسول الكريم ورسالته لاغتقادهم أنّ هذا القرآن كشف تزويرهم
وتحريفهم وكشف تاريخهم وعنهم وتعندهم فماذا كانوا يريدون :

يُريدون غير الإسلام ديناً لهم ودين الله واحد

قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

(٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا

أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالتَّيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ

الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين (٨٥) ﴿ سورة آل عمران

وفي ظل هذه الحقيقة يبدو الذين يتخلفون من أهل الكتاب عن الإيمان بالرّسول الأخير - صلى الله عليه

وسلم - ومناصرته وتأييده ، تمسكاً بدياناتهم - لا بحقيقتها فحقيقتها تدعوهم إلى الإيمان به ونصرته ،

ولكن باسمها تعصبا لأنفسهم في صورة التعصب لها ! - مع أنّ رسلهم الذين حملوا إليهم هذه الديانات

قد قطعوا على أنفسهم عهداً ثقيلاً غليظاً مع ربهم في مشهد مرهوب جليل . . في ظل هذه الحقيقة

يبدو أولئك الذي يتخلفون فسقته عن تعليم أنبيائهم . فسقته عن عهد الله معهم لذلك جاء التصّ القرآني

حاسماً في تكفيرهم واعتبارهم أخوة المشركين وصحبهم في النار .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ

الْبَرِيَّةِ ﴿ [البينة/٦] فسأوى بينهم وبين المشركين في العقوبة .

لَا يُحِبُّونَ لِلْمُسْلِمِينَ أَيْ خَيْرٍ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة/ ١٠٥]

يُجْمَعُ الْقُرْآنُ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي الْكُفْرِ . . . وَكِلَاهُمَا كَافِرٌ بِالرَّسَالَةِ الْأَخِيرَةِ فَهَمَّا عَلَى قَدَمٍ سَوَاءٍ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ؛ وَكِلَاهُمَا يُضْمَرُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْحَقْدِ وَالضَّغْنِ ، وَلَا يُؤَدُّ لَهُمُ الْخَيْرُ . وَأَعْظَمُ مَا يَكْرَهُونَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ هُوَ هَذَا الدِّينَ . هُوَ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِهَذَا الْخَيْرِ وَيُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْقُرْآنَ وَيُعْهَدَ إِلَيْهِمْ بِأَمَانَةِ الْعَقِيدَةِ فِي الْأَرْضِ ، وَهِيَ الْأَمَانَةُ الْكُبْرَى فِي الْوُجُودِ .

عَدَمَ رِضَاهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا دَامُوا مُسْلِمِينَ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَادِيَ وَلَنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١٢٠) سُورَةُ الْبَقَرَةِ

كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَرْجُو أَنْ يُبَادِرَ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ قَبْلَ غَيْرِهِمْ ، لِذَلِكَ كَبَّرَ عَلَيْهِ إِعْرَاضُهُمْ عَنْ إِجَابَةِ دَعْوَتِهِ ، وَالْحَافِئُهُمْ فِي مُجَاحَدَتِهِ ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يُبَيِّنَ مِنَ الطَّمَعِ فِي إِسْلَامِهِمْ ، إِذْ عُلِقَ رِضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا هُوَ مُسْتَحِيلٌ أَنْ يَكُونَ .

الْحَسَدُ وَالْحِقْدُ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١٠٥) سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إِنَّ الَّذِينَ عَرَفْتُمْ حَالَهُمْ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، هُمْ حَسَدَةٌ لَكُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَصِيبَكُمْ خَيْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَا أَنْ يَرْسُخَ دِينَكُمْ ، وَلَا أَنْ تَتَّبَعَ أَرْكَانُهُ ، وَالْمُشْرِكُونَ مِثْلُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي كُرْهِهِمْ لَكُمْ ، وَحَسَدِهِمْ إِيَّاكُمْ ، وَتَمَنِّيهِمْ أَنْ تَدُورَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الدَّوَائِرُ ، وَأَنْ يَنْتَهِيَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ .

الْبُغْيُ وَالْعُدْوَانُ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١٩) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ دِينًا مِنْ أَحَدٍ غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ . وَالْإِسْلَامُ هُوَ الْإِسْتِسْلَامُ الْكَامِلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَاتَّبَاعِ الرُّسُلِ فِيمَا بَعَثَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ بَعْدَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ عَلَى غَيْرِ شَرِيعَتِهِ فَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ ، وَجَاءَتِ الرُّسُلُ أَقْوَامَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ اتِّبَاعَ سَبِيلِ اللَّهِ هَذَا ، وَيَحْثُونَهُمْ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَلِكَلِمَتِهِمْ اخْتَلَفُوا فِسْمًا بَيْنَهُمْ ، وَخَرَجُوا عَنِ الْإِسْلَامِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ ، وَتَفَرَّقُوا شَيْعًا وَطَوَائِفَ مُتَنَاهِرَةً مِتَّقَاتَةً . وَلَمْ يَكُنْ سَبَبُ ذَلِكَ الْاِخْتِلَافِ جَهْلًا بِحَقِيقَةِ الدِّينِ ، فَالدِّينُ وَاحِدٌ لَا مَجَالَ لِلْاِخْتِلَافِ فِيهِ ، وَلِكَلِمَتِهِمْ اخْتَلَفُوا اغْتِدَاءً وَظُلْمًا وَبُغْيًا وَتَبَاغُضًا بَيْنَهُمْ (بُغْيًا بَيْنَهُمْ) ، وَاتِّبَاعًا لِلرُّؤْسَاءِ الَّذِينَ تَجَاوَزُوا الْحُدُودَ ، وَوَلَا بُعْيَهُمْ وَنَصْرَهُمْ مَذْهَبًا عَلَى ذَهَبٍ ، وَتَضْلِيلَهُمْ مِنْ خَالْفَتِهِمْ بِتَفْسِيرِ نُصُوصِ الدِّينِ بِالرَّأْيِ وَالْهَوَى ، وَتَأْوِيلِ بَعْضِهِ أَوْ تَحْرِيفِهِ ، لَمَّا حَدَّثَ هَذَا الْاِخْتِلَافُ .

يَتَمَنُّونَ إِضْلَالَنَا وَيَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٦٩) يَا
 أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
 وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ
 النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ
 أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)
 يُخَصِّصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴿ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

كُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّهُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

قَالَ تَعَالَى : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ
 الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُوهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)
 آلِ عِمْرَانَ

يُعْتَفِ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَهْلَ الْكِتَابِ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَصَدَّهُمِ النَّاسَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَا
 جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ صَنِيعِهِمْ بِمَا خَالَفُوا مَا بَأَيْدِهِمْ مِّنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ ،
 وَهُوَ مُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يُوجِبُ عَلَيْهِمُ الْإِيجْتِرَاءَ عَلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ .

يُرِيدُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُضِلُّوا السَّبِيلَ مِثْلَهُمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا
 السَّبِيلَ ﴾ ، فَهُمْ يَخْتَارُونَ الضَّلَالََةَ لِأَنفُسِهِمْ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا بِهَا طَرِيقَ الْحَقِّ الْقَوِيمِ ، كَمَا ضَلُّوا هُمْ ،
 وَهُمْ دَائِبُو الْكَيْدِ لِيُرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا .

قَوْلِهِمْ لِلْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ أَهْدَىٰ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبِيلًا

قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ (٥١) سُورَةُ النَّسَاءِ

النَّقْمَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ فَقَط

قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٥٩) سُورَةُ الْمَائِدَةِ .

يُرِيدُونَ مِنْهُمْ اتِّبَاعَ الشَّهَوَاتِ مِنْهُمْ

قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ (٢٧) سُورَةُ النَّسَاءِ .

يُرِيدُونَ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ

قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣٢) سُورَةُ التَّوْبَةِ .

نَقَضَهُمُ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ

قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا بَيْنَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة/٩٩-١٠١] .

عَدَمَ رِضَاهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَتَّبِعُوا مَلَّتَهُمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة/ ١٢٠]

يَعْلَمُونَ أَنَّ الْإِسْلَامَ حَقٌّ وَيَجِدُونَ ذَلِكَ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بُسْمًا اشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [البقرة/ ٨٩-٩٣] .

ادعائهم أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة/ ١١١ ، ١١٢] .

زَعَمِهِمْ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُهْتَدُونَ وَغَيْرِهِمْ ضَالٌّ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ

أَمِنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)
 (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ اتَّحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا
 وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
 وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلِ أَنْتُمْ أَغْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ
 وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ حَلَّتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [البقرة/١٣٥-١٤١]

مَاجِجَتُهُمْ فِي النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِغَيْرِ عِلْمٍ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)
 (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ [آل عمران/
 ٦٥-٦٨ .

يُرِيدُونَ مِنَ الرُّسُولِ كِتَابًا مَنزِلًا مِنَ السَّمَاءِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ
 فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ
 ذَلِكَ وَأَيَّدْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا
 وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْتُمْ بآيَاتِ اللَّهِ

وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥)

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا

قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا

قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ

قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿ [النساء/١٥٣ ، ١٥٩] .

قَتْلِهِمْ بَعْضُهُمُ الْبَعْضَ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ

تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ

وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى فَتَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ

بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا

اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ

يُنصَرُونَ ﴿ [البقرة/٨٤-٨٦] .

تَكْذِيبُ الْأَنْبِيَاءِ وَقَتْلُهُمْ بِغَيْرِ الْحَقِّ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ

بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿ [البقرة/

[٨٧]

قُلُوبِهِمْ غُلْفٌ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة/٨٨]

ادعائهم أَن الدَّارِ الآخِرَةِ لَهُم

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة/٩٤-٩٥]

حِرْصِهِم الشَّدِيدُ عَلَى الْحَيَاةِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أُحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة/٩٦] .

عَدَاوَتِهِمْ لِلَّهِ وَلِمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ ظَاهِرُهُ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ()
[٩٨] ﴿ [البقرة/٩٧-٩٨] .

تَرْكِهِمِ لِلْوَحْيِ وَاتِّبَاعُهُمِ لِلسَّحَرَةِ وَالشَّيَاطِينِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعَلِّمُونَ مَا يُضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ

أَنْفُسُهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

(١٠٣) ﴿ [البقرة/١٠٢-١٠٣] .

كَثْرَةُ الْأَسْئَلَةِ لِلنَّبِيِّائِهِمْ بِمَا لَا مَنَفَعَةَ فِيهِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَبَدِّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ

ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿ [البقرة/١٠٨] .

اتِّهَامُ لِلْيَهُودِ لِلنَّصَارَى بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَكَذَا النَّصَارَى

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ

وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

يُخْتَلَفُونَ ﴿ [البقرة/١١٣] .

قَلَّةُ الْأَمَانَةِ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَهُ غَيْرُهُمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِِنْ تَأْمَنُهُ بِقَنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ

إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَاتِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

(٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا

قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(٧٧) ﴿ [آل عمران/٧٥ ، ٧٧] .

الْمُؤْمِنُونَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ قَلَّةٌ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) ﴾ [آل عمران/١١٣-١١٥] .

دُخُولِ الْجَنَّةِ لَيْسَ بِالْأَمَانِيِّ وَإِنَّمَا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا شَيْئًا (١٢٤) ﴾ [النساء/١٢٣ ، ١٢٤] .

إِيمَانُهُمْ بِبَعْضِ الرُّسُلِ وَكُفْرِهِمْ بِالْآخَرِينَ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢) ﴾ [النساء/١٥٠-١٥٢] .

تَحْرِيمِ كَثِيرٍ مِنَ الطَّيِّبَاتِ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فِظَلَمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوهَا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) ﴾ [النساء/١٦٠-١٦١] .

الغلو في الدين

قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَى خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)

لعنهم بسبب نقض العهد والمواثيق مع الله

قال تعالى: وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَفَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) [المائدة/١٢-١٤] .

إخفاؤهم كثير من آيات الكتاب عن الناس

قال تعالى : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ
 قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ
 الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) [المائدة/١٥-١٦] .

قَالُوا عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : 30]

ادعائهم أَنَّهُم أَحِبَّابُ اللَّهِ

قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ
 مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)
 (١٨) ﴿ [المائدة/١٨] .

الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَقَامَ الْحِجَّةَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ

قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ
 بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة/١٩] .

ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
 سَيِّئَاتِهِمْ وَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتٍ التَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا
 مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) ﴾ [المائدة/٦٥-٦٦]

لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ حَتَّى يُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ عَلَى حَقِّهِمَا

قَالَ تَعَالَى : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُتِمُّوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [المائدة/٦٨]

مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَالْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا دَخَلَ الْجَنَّةَ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالتَّصَارِيُّ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ

صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة/٦٩] .

لَعَنَهُمْ بِسَبَبِ تَرْكِهِمُ الْمَرْبِّ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) ﴾ [المائدة/٧٨-
٨١] .

الْيَهُودُ أَشَدُّ النَّاسِ عَدَاوَةً لَنَا وَالتَّصَارِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا أَقْرَبُهُمْ لَنَا

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ
آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا
أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)
(٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَاثَابَهُمْ

اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿ [المائدة/٨٢-٨٦] .

اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي قَدَّرَ إِخْرَاجَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ

قَالَ تَعَالَى : هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا
وَوَدَّوْنَا أَنَّهُمْ مَاعِزْتُمْ حُصُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَآتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ
بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
العِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْتَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ (٥)
[الحشر/٢-٥] .

سَيَبْقَى أَهْلُ الْكِتَابِ مُخْتَلِفِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ
مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ
الْقِيمَةِ (٥) ﴾ [البينة/١-٥] .

مَاذَا طَلَبَ اللَّهُ مِنَّا اتِّجَاهَهُمْ

١ . التَّحْذِيرِ مِنْ طَاعَتِهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)
 (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ ﴿ (١٠١) ﴾ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ .

٢ . التَّحذِيرُ مِنْ تَوَلِّيهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ
 مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ
 نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
 نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
 فَاصْبِحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) ﴾ [المائدة/٥١-٥٣] .

٣ . تَحْرِيمُ حُبِّهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لُكِّمْتُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا
 عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (١١٩) سُورَةِ آلِ
 عِمْرَانَ .

٤ . عَدَمُ مُجَالَسَةِ مَنْ يَسْخَرُ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَتَعَدَّوْا
 مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ
 جَمِيعًا ﴾ (١٤٠) سُورَةِ النَّسَاءِ

5. تَحْرِيمُ اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥١) سُورَةُ الْمَائِدَةِ

6. دَعْوَتُهُمْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ

قَالَ تَعَالَى : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [آل عمران/٦٤]

7. تَحْرِيمُ التَّحَاكُمِ إِلَيْهِمْ وَإِلَى قَوَانِينِهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٦٠) سُورَةُ النَّسَاءِ

8. تَحْرِيمُ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ آتِيَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَنْ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة/١٤٥]

جِدَالُهُمْ بِالْحُسْنَى قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤٦) ﴿

[العنكبوت/٤٦] .

لن يضرنا إلا أذى

قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ
 آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذى وَإِنْ
 يَقَاتُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ (١١١) ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ
 النَّاسِ وَيَأْءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بَأْتُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ
 بغيرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿ [آل عمران/١١٠-١١٢] .

وقد أقصى النبي اليهود من شبه الجزيرة العربية لأنهم واثقوه وعاهدوه ثم خانوا العهود وتحالفوا مع أعدائه
 القرشيين .

النَّصَارَى الْعَرَبِ

دَخَلَتِ النَّصْرَانِيَّةُ بِلَادَ الْعَرَبِ وَانْتَشَرَتْ فِيهَا بِالتَّبَشِيرِ وَيَسَّ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ الَّذِي اتَّبَعَتْهُ الدِّيَانَةُ الْيَهُودِيَّةُ
 هُنَاكَ . فَلَمْ تَحْدُثْ هِجْرَاتٍ نَصْرَانِيَّةً إِلَى الْحِجَازِ وَبِلَادِ الْيَمَنِ ، وَكَانَ التَّبَشِيرُ يَتِمُّ بِدُخُولِ بَعْضِ النَّسَاكِ
 وَالرُّهْبَانِ إِلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَمِنْهُمْ مَنْ رَافَقُوا الْبَدُوَ الْأَعْرَابَ وَعَاشَوْا مَعَهُمْ وَجَارَوْهُمْ فِي عَيْشَتِهِمْ وَطَرَزَ
 حَيَاتِهِمْ ، الَّتِي تَمَيَّزُ بِالْحِلِّ وَالتَّرْحَالِ وَالْإِقَامَةِ فِي الْخِيَامِ فَعَرَفُوا ((بِأَسَاقِفَةِ الْخِيَامِ)) وَأَسَاقِفَةُ أَهْلِ الْوَبَرِ
 وَأَسَاقِفَةُ الْعَرَبِ الْبَادِيَةِ . وَذَكَرَ أَنَّ مُطْرَانَ بَصْرِي . مِنْ أَعْمَالِ دِمَشْقَ كَانَ يُشْرِفُ عَلَى نَحْوِ عِشْرِينَ
 اسْقِفًا اتشوا بَيْنَ عَرَبِ حُورَانَ وَعَرَبِ غَسَّانِ . وَكَانَ لِاتِّقَانِ الْمُبَشِّرِينَ كَيْفِيَّةَ التَّأثيرِ وَوَسَائِلِ الْإِقْتِنَاعِ
 وَالْمُنْطِقِ ، فَضلاً عَنْ بَرَاعَتِهِمْ فِي مُدَاوَاةِ بَعْضِ الْأَمْرَاضِ ، أَنْ تَمَكَّنُوا مِنْ صَمِّ بَعْضِ سَادَاتِ الْقَبَائِلِ
 وَالْأَعْرَابِ إِلَى الدِّينِ الْجَدِيدِ .

أُنشأَ النَّصْرَانِيُّ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ كَثِيرًا مِنْ الْأَدِيرَةِ كَوْسِيلَةَ مِنْ وَسَائِلِ التَّبَشِيرِ وَنَشْرُ دِيَانَتِهِمْ ، فَقَدَ أَعَدُّوا
الدَّيْرَةَ لِلْقَوَافِلِ التَّجَارِيَّةِ لِيَجِدَ فِيهَا التَّجَارُ كُلُّ وَسَائِلِ الرَّاحَةِ وَالِاسْتِمَاعِ خِلَالَ رِحْلَاتِهِمْ وَاسْفَارِهِمْ الشَّقَاةَ
وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَدِيرَةُ تَشْتَهَرُ بِالْحُمُورِ وَالتَّبِيدِ ، الَّذِي كَانَ يَتِمُّ صَنْعَةً عَلَى أَيْدِي الرُّهْبَانِ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَثْنَاءَ
اللَّهُوِ وَشُرْبِ الخُمُورِ كَانَ الرُّهْبَانُ يَلْعَبُونَ دُورِهِمْ فِي التَّعْرِيفِ بِدِينِهِمْ وَيُؤَدُّونَ شَعَائِرَهُمْ فِي حُضُورِ
زَوَارِهِمْ وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى الْإِنضِمَامِ لِلنَّصْرَانِيَّةِ . فَكَانَتْ الْأَدِيرَةُ بَيْوتًا لِلخُلُوةِ وَالِانْقِطَاعِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَمَوَاطِنَ
لِلرَّاحَةِ وَاللَّهُوِ وَالتَّبَشِيرِ بِالدِّيَانَةِ الْمَسِيحِيَّةِ . وَقَدَ انْتَشَرَتْ هَذِهِ الْأَدِيرَةُ فِي أَمَاكِنَ عَدِيدَةٍ مِنْ بِلَادِ الْعِرَاقِ
وَبِلَادِ الشَّامِ وَفِي بَعْضِ تَوَاحِي الْحِجَازِ وَنَجْدِ وَجَنُوبِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَشَرْقِهَا .

كَانَ لِقُدُومِ البُعْثَاتِ الدِّيْنِيَّةِ الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنَ الرُّهْبَانِ وَالتَّنْسَاكِ وَإِقَامَةِ الْأَدِيرَةِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ ، أَنْ انْتَشَرَتْ
الْمَسِيحِيَّةُ هُنَاكَ ، خَاصَّةً إِنْ قِيَاصِرَةَ الرُّومِ قَامُوا بِتَشْجِيْعِهَا وَالاغْدَاقِ عَلَى الْمُبَشِّرِينَ بِكُلِّ مَا يُمَكِّنُهُمْ مِنْ
تَأْدِيَةِ رِسَالَتِهِمْ ، وَحَرَصُوا عَلَى تَحْوِيلِ اتِّبَاعِهِمْ إِلَى هَذِهِ الدِّيَانَةِ حَتَّى يَضْمَنُوا وِلَاءَهُمْ ، وَتَأْمِينَ مَصَالِحِهِمْ
الْاِقْتِصَادِيَّةِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ .

كَانَتْ بِلَادُ الشَّامِ تَمَثِّلُ الْمُعْقِلَ الْأَوَّلَ الَّذِي وَطَدَتْ فِيهِ الْمَسِيحِيَّةُ اِقْدَامَهَا لِلْعَلَاقَاتِ الْمُبَاشِرَةِ وَالْوَطِيدَةِ مَعَ
قِيَاصِرَةَ الرُّومِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ دِينًا رَسْمِيًّا لِامْبِرَاطُورِيَّتِهِمْ فَانْتَشَرَتْ بَيْنَ عَرَبِ بِلَادِ الشَّامِ مِنْ
الغَسَّاسِنَةِ اتِّبَاعِ القَيْصَرِ ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ قِبَائِلِ كَلْبٍ وَقُضَاعَةَ وَعَامِلَةَ وَجُدَامَ وَقَدَ حَارَبَ الغَسَّاسِنَةَ إِلَى
جَانِبِ الرُّومِ لِدَوَاعِ دِينِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ فِي يَوْمِ الْيَوْمِ كَانُوا فِي صُفُوفِ الرُّومِ وَكَانَ رَيْسُهُمْ جَبَلَةَ بْنِ الْأَنْبِيَّهِ
الغَسَّاسِنِيِّ فِي مُقَدَّمَةِ الْجَيْشِ الَّذِي أَرْسَلَهُ هِرَقْلُ لِمُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ .

وَكَانَتْ قَبَائِلُ إِيَادٍ مِنْ جُمْلَةِ الْعَرَبِ الْمُنْتَصِرَةِ سَكَنُوا السَّوَادَ وَالْجَزِيرَةَ ، وَسَكَنَ قَوْمٌ مِنْهُمْ بِلَادَ الشَّامِ
فَخَضَعُوا لِلْغَسَّاسِنَةِ وَالرُّومِ وَتَنَصَّرُوا . كَذَلِكَ وَجِدَتْ النَّصْرَانِيَّةُ طَرِيقًا لَهَا بَيْنَ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ رِجَالَاتِ
قَبَائِلِ طَيِّ فَوْفَدِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمِ الطَّائِيِّ وَكَانَ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ [صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ] وَأَعْلَنَ
إِغْتِنَاقَهُ الْإِسْلَامَ . وَفِي بِلَادِ الْعِرَاقِ وَجِدَتْ النَّصْرَانِيَّةُ لَهَا أَرْضًا خَصَبَةً عِنْدَ إِهَالَةِ الْحِيرَةِ .

فَقَدْ كَانَ نَصَارَى الشَّامِ عَلَى الْمَذْهَبِ الْيَعْقُوبِيِّ أَوْ النَّسْطُورِيِّ ، الْقَائِلِ بِالطَّبِيعَةِ الْوَاحِدَةِ لِلْمَسِيحِ ، فَهُمْ
أَصْحَابُ الطَّبِيعَةِ الْوَاحِدَةِ وَصَاحِبُ هَذَا الْمَذْهَبِ هُوَ يَعْقُوبُ الْبَرَادِئِيُّ (ت 578 م) ، بَيْنَمَا كَانَ نَصَارَى
الْعِرَاقِ وَمِنْ وَالْأَهَمِّ مِنْ قَبَائِلِ تَغْلِبَ وَإِيَادَ وَبَكْرَ ، مِنْ أَتْبَاعِ الْمَذْهَبِ النَّسْطُورِيِّ ، الَّذِي يُنْسَبُ إِلَى
نَسْطُورِيوسَ (ت 450 م) وَيَرَى أَنَّ لِلْمَسِيحِ طَبِيعَتَيْنِ أَوْ اقْنُومَيْنِ ، اقْنُومَ النَّاسُوتِ وَاقْنُومَ اللَّاهُوتِ .

كَانَ لِاتِّصَالِ بِلَادِ الْحِجَازِ بِالْحِيرَةِ وَبِلَادِ الشَّامِ أَنْ دَخَلَتْ النَّصْرَانِيَّةُ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ . وَمِنْهَا دُومَةُ الْجَنْدَلِ
وَأَيْلَةُ وَتَيْمَاءَ ، كَمَا كَانَ فِي يَثْرِبَ وَمَكَّةَ وَالطَّائِفَ قَلِيلٌ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ عِنْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ . ذَلِكَ أَنَّ
جَمَاعَاتٍ مِمَّنْ تُجَارِ مَكَّةَ وَالطَّائِفَ كَانُوا يَذْهَبُونَ فِي رِحَالَتِهِمُ التَّجَارِيَّةِ إِلَى إِمَارَةِ الْحِيرَةِ لِلْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ .
فَكَانُوا يَعْرِفُونَ عَلَى التَّغْيِيرَاتِ وَالتَّطَوُّرَاتِ الثَّقَافِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ ، وَيَنْقُلُونَهَا إِلَى أَبْنَاءِ بَطُونِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ وَذَلِكَ
فَضْلًا عَنْ قُدُومِ الْمُبَشِّرِينَ مِنَ الْحِيرَةِ إِلَى بِلَادِ الْحِجَازِ فِي رِكَابِ الْقَوَافِلِ التَّجَارِيَّةِ .

فَدُومَةُ الْجَنْدَلِ كَانَتْ عَلَى اتِّصَالِ تِجَارِيٍّ مُنْذُ الْقَدَمِ مَعَ الْحِيرَةِ . وَبِذَلِكَ انْتَقَلَتْ إِلَيْهَا النَّصْرَانِيَّةُ وَصَارَ
فَرِيقٌ مِنْ أَهْلِهَا نَصْرَانِيَّينَ ، وَكَانَ صَاحِبَ أَيْلَةَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، يُوْحِنَا بْنُ رُوْبَةَ ، وَهُوَ نَصْرَانِيٌّ قَدِمَ إِلَى ثَبُوكَ
بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَكَانَ الرَّسُولُ صَ بِهَا فَصَالِحُهُ عَلَى الْجَزِيرَةِ وَبَقِيَ عَلَى دِينِهِ (I2) ، وَقَدْ أَطْلَقَ عَلَيْهِ
الْمَسْعُودِيُّ (I3) لَقَبَ أُسْتَقْفِ أَيْلَةَ . وَأَمَّا الْيَمَامَةُ فَكَانَ حَاكِمُهَا عِنْدَ بَعَثَةِ النَّبِيِّ صَ هُوَ هُوْدَةُ بْنُ عَلِيٍّ ،

وَكَانَ نَضْرَائِيًّا مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ عَلَى عِلَاقَةِ قَوِيَّةٍ بِالْفَرَسِ وَذَكَرَ ابْنُ الْأَثِيرِ (I4) ، أَنَّ هُوَذَةَ تَوَسَّطَ لِفَكَ أَسْرَ مِائَةِ رَجُلٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فِي أَعْقَابِ يَوْمِ الصَّفْقَةِ .

كَمَا ذَكَرَ أَنَّ مُعْظَمَ الرِّقِيقِ فِي مَكَّةَ كَانَ نَضْرَائِيًّا وَأَنَّهُ كَانَ بِهَا جَالِيَّةً مِنَ الرُّومِ وَالنَّصَارَى ، فَضَلًّا عَنْ الْجَوَارِي الرُّومِيَّاتِ وَلَيْسَ أَدْلُّ عَلَى وُجُودِ نَفَرٍ قَلِيلٍ مِنَ النَّضْرَائِيِّينَ فِي مَكَّةَ مِنْ أَنَّ قُرَيْشًا أَدْعَتْ أَنَّ رَجُلًا نَضْرَائِيًّا كَانَ يَعِيشُ بِمَكَّةَ وَقَدْ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ يُسَمَّى جَبْرَ النَّضْرَائِيَّ هُوَ الَّذِي يَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ [صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ] مَا يَقُولُهُ لِلنَّاسِ وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَانَ يَعْلَمُهُ ذَلِكَ وَكَانُوا يَقُولُونَ : وَاللَّهِ مَا يَعْلَمُ مُحَمَّدٌ كَثِيرًا مِمَّا يَأْتِي بِهِ إِلَّا جَبْرُ النَّضْرَائِيِّ غُلَامِ الْحَضْرَمِيِّ .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بِشَرِّ لِسَانٍ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل : 103] .

كَمَا كَانَ فِي يَثْرِبِ بَعْضِ النَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُونُونَ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ سُوقِ التَّبَطِّ ، وَفِي الْبَحْرَيْنِ كَانَ بُنُو عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى النَّضْرَائِيَّةِ ، فَقَدِمَ بَشْرُ بْنُ عَمْرِو عَلَى رَأْسِ وَقَدْ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى النَّبِيِّ [صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ] ، وَاعْلَنُوا اعْتِنَاقَهُمُ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ .

كَانَ أَبَاطِرُ الرُّومِ يَمْدُونُ الْكَنَائِسَ بِالْأَسَاقِفَةِ وَالْمُبَشِّرِينَ . كَمَا اعْتَدُوا الْأَمْوَالَ عَلَيْهَا حَتَّى تَتَمَكَّنَ مِنَ الْقِيَامِ بِمَهَامِهَا فِي نَشْرِ النَّضْرَائِيَّةِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الَّتِي تُشَكِّلُ لَهُمْ أَهَمَّ مَنَاطِقِ التَّنْفُذِ وَالْمَصَالِحِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ . فَاتَّشَرَّتِ الْبَيْعُ فِي الْمَدِينِ وَفِي الْقُرَى وَفِي الْبُؤَادِي ، وَكَانَ يَقْصِدُهَا الْأَعْرَابُ لِلنَّزْهِ بِهَا وَاحْتِسَاءِ الشَّرَابِ وَالتَّرْوَدِ بِالْمَاءِ أَوْ الزَّادِ ، وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى الْبَيْعِ وَالصَّوَامِعِ ، أَمَا كَيْنَ سَكْبِي

الرُّهْبَانِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ
وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيُنْصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : 40]

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اِنْتِشَارِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ إِلَّا أَنَّ سَوَادَ نَصَارَى الْعَرَبِ لَمْ يَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ وَقَفَتْ
بِأُمُورِ دِينِهِمْ ، بَلْ سَارُوا وَرَاءَ الْمُبَشِّرِينَ لِاعْتِقَادَاتِ خُرَافِيَّةٍ بِمَقْدَرَتِهِمْ عَلَى شِفَاءِ الْمَرْضَى وَالتَّوَسُّطِ إِلَى
اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهِمْ وَآمَانِيهِمْ ، وَمَنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى تَنَصَّرَ كَثِيرٌ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ أَجْلِ الْمَصَالِحِ
السِّيَاسِيَّةِ وَالاِقْتِصَادِيَّةِ وَالْإِرْضَاءِ سَادَتِهِمْ مِنَ الرُّومِ وَالْحَبَشِ وَقَدَّمَ أَنْصَحَ ذَلِكَ مِنْ وُجُودِ مَرَكَزِ التَّقَلُّ
النَّصْرَانِيِّ فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي دَانَ فِيهَا الْعَرَبُ بِالتَّبَعِيَّةِ لِلْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْبِيْزَنْطِيَّةِ وَفِي بِلَادِ الْيَمَنِ خِلَالَ الْاِحْتِلَالِ
الْحَبَشِيِّ . وَعَلَى ذَلِكَ كَانَ النَّصْرَانِيُّ يُعْرَفُ وَقَدْ ذَكَرْنَا بَآئِهِ مِنْ كَانَ يَأْكُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ . فَعَلَى
الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْأَصْلَ فِي النَّصْرَانِيَّةِ أَنَّهَا دِيَانَةٌ سَمَاوِيَّةٌ تَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ تَمَيِّزًا لَهَا عَنِ الْوَثْنِيَّةِ الَّتِي كَانَ
جُلُّ اِهْتِمَامِهَا اتِّخَاذَ أَصْنَامٍ وَعِبَادَتُهَا ، فَقَدْ اتَّخَذَ النَّصْرَانِيُّونَ التَّمَاثِيلَ وَوَضَعُوهَا فِي بَيْعِهِمْ وَكَنَائِسِهِمْ ،
بَلْ قَامَ النَّصَارَى بِصُنْعِ الْأَوْثَانِ لِلتَّجَارِ فِيهَا وَبَيْعِهَا لِلوَثْنِيِّينَ فِي بِلَادِ الشَّامِ .

وَمِمَّا يَجِبُ مَلَاخِظَتُهُ أَنْ وَجْهَهُ نَظَرِ الْقُرْآنِيَّةِ إِلَى النَّصَارَى هِيَ غَيْرِهَا لِلْيَهُودِ ، فَالنَّصَارَى هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ
مُودَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، وَعَزَى الْقُرْآنُ ذَلِكَ إِلَى تَعَبْدِهِمْ وَعَدَمِ اسْتِكْبَارِهِمْ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْآيَةِ الْمَثُورَةِ أَنفَاءً ،
بَيْنَمَا يُعْتَبَرُ الْيَهُودَ أَشَدَّ عَدُوَانًا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَمَنْ السِّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ وَالتَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ تَتَضَحَّى تِلْكَ الْمَوَاقِفُ الَّتِي
حَصَلَتْ مَعَ النَّبِيِّ مِنْ يَهُودٍ يَثْرَبُ وَكَذَلِكَ مَوَاقِفُ الْخِيَانَةِ وَنَكَثِ الْعُهُودِ الَّتِي تَكَرَّرَتْ مِنَ الْيَهُودِ فِي الْعَهْدِ
الْإِسْلَامِيِّ لِانْتِزَالِ نُشَاهِدِهَا عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ ، فَمَعَامِلَتُنَا مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ تَجِبُ إِنْ تَكُونُ نَابِعَةً مِنْ هَذَا
الْفِكْرِ الْقُرْآنِيِّ النَّصُوصِ تُوكِّدُ هَذَا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْوَانُهُمْ إِذَا تَلَوُا الْقُرْآنَ لِئَلَّا يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ

يَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ سُجْدًا) (الإسراء : 107) وَقَالَ تَعَالَى : (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) (المائدة : 82) .

قَدْ ذَكَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ حُكْمَيْنِ يَخْتَصُّ بِهِمَا أَهْلُ الْكِتَابِ دُونَ سَائِرِ الْأُمَّمِ وَالْمَلَلِ ، يَتَّضِحُّ بِهِ مَدَى عِنَايَةِ الْإِسْلَامِ الْخَاصَّةِ بِهِمَا وَهُمَا كَمَا يَلِي :

الأوَّلُ : قَدْ رَسَمَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ تَوْجِيهَاتٍ عَدِيدَةً فِي شَأْنِ الذَّبَائِحِ فَقَالَ : « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ » . (الأنعام : 121) فَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَأْكُلَ مَا ذَبَحَهُ الْمُشْرِكُ ، فَإِنَّهُ مَيْتَةٌ ؛ وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ جَعَلَ أَهْلَ الْكِتَابِ بِمَثَابَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي الذَّبْحِ وَقَالَ : « وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ » (المائدة : 5) .

الثَّانِي : الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالزَّوْجِ بِالْكِتَابِيَّاتِ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ حَرَّمَ نِكَاحَ الْمُسْلِمِينَ بِالْمُشْرِكَاتِ ، وَقَالَ : « وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَنَّ » (البقرة : 221) وَلَكِنَّهُ أَمَّا الزَّوْجِ بِالْكِتَابِيَّاتِ ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » (المائدة : 5) .

أَسْبَابُ الْفُرْقَةِ وَالْخِلَافِ

يُقُولُ رَبَّنَا الْكَرِيمُ ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 19]

فَالَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلَامَ وَلَمْ يُنزلُ لِلنَّاسِ دِينًا آخَرَ وَلَمْ يُخَصِّصْ لِلْيَهُودِ وَالتَّصَارِي دِينًا خَاصًّا سَمَاهُ لِكُلِّ
مِنْهُمَا بَلْ أَطْلَقَ عَلَيْهِمْ أَهْلَ الْكِتَابِ أَيَّ أَصْحَابَهُ وَهُمَا التَّوْرَةُ وَالتَّانِجِيلُ وَالتَّكْتَابُ تَعَالِيمَهُ وَاحِدَةً وَالتَّاسْلَامُ
وَاحِدٌ وَإِنْ تَعَدَّدَتْ الرُّسُلُ لَكِنْ جَعَلَ لَهُمْ شَرِيعَةً خَاصَّةً بِهِمْ .

وَذَكَرَ الْيَهُودُ بِأَنَّهُمُ الَّذِينَ هَادُوا وَسَمَّوْا بِذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ قَالُوا (إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ) وَ سَمَّتِ التَّصَارِي
بِالنَّصْرَانِيَّةِ وَجَاءَ ذَلِكَ مِنْ كَلِمَةِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنْصَارِهِ : كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ .

وَلَقَدْ ادَّعَى التَّصَارِي كَمَا ادَّعَى الْيَهُودُ مَعَهُمْ مِنْ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ وَإِنْ نَبِيَّ اللَّهِ اِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ
نَبِيُّهُمْ وَمَرْجِعُهُمْ وَيُخَصُّهُمْ وَحَدَّهُمْ وَلَقَدْ فَندَدَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَقُولَتَهُمْ وَكَذَّبَهُمْ بِنُصُوصٍ عَدِيدَةٍ كَاشِفًا حَقِيقَةَ
وَدِينِ النَّبِيِّ اِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَقْرَأُ مِنْهَا :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ اِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة :
I35] فَهُمْ لَيْسُوا عَلَى مِلَّةِ اِبْرَاهِيمَ وَلَيْسُوا عَلَى دِينِهِ حَنِيفًا مُسْلِمًا بَلْ فَوْقَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي اِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالتَّانِجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل
عَمْرَانَ : 65]

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة :

[I39]

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ :

[67

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ

لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [المائدة : I8]

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَاتِيهِمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : III]

﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : I33]

وَلَمْ يَقِفِ النَّصَارَى عَنْ هَذَا الْحَدِّ وَغُلُّوا فِي اعْتِقَادِهِمْ وَوَصَلَ بِهِمُ الْأَمْرُ لِلشَّرْكِ وَالْكَفْرِ حِينَمَا قَالُوا

صِرَاحَةً إِنَّ اللَّهَ هُوَ تَمَّ قَالُوا هُوَ ابْنُ اللَّهِ تَمَّ جَعَلُوهُ ثَلَاثَةً وَحَرَّفُوا دِينَهُمْ وَاتَّخَذُوا رَهْبَانَهُمْ آلِهَةً لَهُمْ فِي الْوَقْتِ

الَّذِي بَيْنَ فِيهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ حَقِيقَةَ الْمَسِيحِ عِيسَى بِنِ مَرْيَمَ وَلَرَفَعَ مِنْ شَأْنِهِ وَقَدَّرَ أُمَّةً بَيْنَ دَعْوَتِهِ الْحَقِّ .

كان من البديهي أن يحدث هذا الصدام بين القرآن الكريم وهذا الشرك الذي يدعي به النصارى زورا

فالقرآن هو خاتم الكتب السماوية وهو مصدق لها ومصححها ويدعو الى وحدانية الله والنصارى قد

انحرفوا عن هذه العقيدة السماوية لذلك فلن يتهاون معهم ولن يتبع أهواءهم .

وَسَنُورِدُ بَعْضًا مِنَ التُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِذَلِكَ :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 45]

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ

اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ

وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء :

[171]

﴿ لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

فَسَيَحْشُرُهُمُ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : 172]

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ

ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة : 17]

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : 73]

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ

إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة : 72]

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِاَلْكَانِ الطَّعَامِ أَنْظُرْ كَيْفَ
تُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفِكُونَ ﴾ [المائدة : 75]

لَقَدْ كَذَبَ الْفُرَّانِ الْكَرِيمِ وَأَقْعَةُ صُلْبِ النَّبِيِّ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَوْضَحَ فِي نَصِ قَاطِعِ حَقِيقَةِ مَا جَرَى
﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء : 157]

ثُمَّ عَبَّابَ عَلَيْهِمْ تَزَكُّهُمْ لِلدِّينِ الْحَقِّ وَلِحَاقِهِمْ بِالْكَهَنَةِ الَّذِينَ صَارُوا يَعْبُدُوهُمْ مَعَ الْمَسِيحِ
﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَأِ
إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : 31]

فِي هَذَا النَّصِّ الْأَخِيرِ يَضَعُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَاءُ النَّصَارَى فِي حَانَةِ الْمُشْرِكِينَ مِثْلَهُمْ مِثْلَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ
قُرَيْشٍ وَالتَّقْوَا مَعَ الْيَهُودِ لِيَشْكَلُوا حِلْفًا مُعَادِيًا لِلنَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مُحَاوَلَةً مِنْهُمْ يَأْسَةً لِإِطْفَاءِ
النُّورِ الْإِلَهِيِّ .

صَحْوَةُ الْعَقْلِ الدِّينِيِّ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِ

اسْتَيْقَظَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ الْجَاهِلُ مَعَ أَوَّلِ نَصِّ قُرْآنِيٍّ سَمِعَ بِهِ هَذَا الْعَقْلُ فِي مَكَّةِ الْمُكْرَمَةِ مَرْكَزِ الرِّسَالَةِ
فَالرُّسُولُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ مِنْ وَسَائِلِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرُدَّ بِهَا عَلَى ظُلْمِهِمْ وَعِنَادِهِمْ
وَاسْتِكْبَارِهِمْ وَكُسْرَ بُوتِقَةِ عَصَبِيَّتِهِمْ وَأَنَانِيَّتِهِمْ الْوَسِيلَةَ الْوَحِيدَةَ وَالْفَعَالَةَ وَالْمَدْهَشَةَ كَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي

أَنْزَلَ مُنْجِمًا لِيُعَالَجَ أَمْرَاضَهُمْ وَعِلَاتَهُمْ بِنَانِي وَصَبَرَ وَحَلَمَ لِذَلِكَ كَانَتْ مُهِمَّةُ الرَّسُولِ الْأُولَى هِيَ إِيصَالُ تِلْكَ
الآيَاتِ إِلَى أَسْمَاعِهِمْ لِذَلِكَ اسْتَفَاقَتْ عُقُولُهُمْ لِهَوْلِ مَا سَمِعُوهُ مِنْ نَذِيرٍ وَالَّذِي جَاءَ بِأَسْلُوبٍ مَبْتَكَّرٍ مَعْجَزٍ
هُوَ الْآخَرُ فَرَاخُوا يَتَسَاءَلُونَ مَنْ أَيْنَ جَاءَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي لَمْ يَسْمَعُوا
بِهَا مِنْ قَبْلِ وَفِيهَا كُلُّ هَذَا التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ .

وَلَقَدْ ذَكَرْنَا سَابِقًا كَيْفَ كَانَتْ رِدْوَدُهُمْ وَرَدَّهِ فَعَلَّهُمْ عَلَى مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ لَكِنْ تَحَدَّثَ هُنَا عَنِ الْأَثَرِ النَّفْسِيِّ
وَالْعُقْلِيِّ الَّذِي تَرَكْنَاهُ عِنْدَهُمْ هَذِهِ التُّصَوُّصُ الْقُرْآنِيَّةُ .

أَنَّ أَوَّلَ مَا جَعَلَ عُقُولَهُمْ تَسْتَيْقِظُ وَتَتَبَّهُ هُوَ تَسْأَلُهُمْ أَنْ كَيْفَ الرَّسُولُ يَقُولُ إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وَيَقْضِي بِذَلِكَ عَلَى كُلِّ مَا صَنَعُوهُ وَأَعْتَقَدُوا بِهِ مِنْ أَهْمَةِ وَقَالُوا :

﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5]

أَنَّ عِبَادَ الْأَصْنَامِ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ بِاخْتِصَاصِ الْأَصْنَامِ بِقَدْرِهِ دُونَ قَدْرِهِ وَلَمَّا أَتَى النَّبِيَّ لِيُنَسِبَ هَذِهِ الْأَفْعَالَ
لِإِلَهِ وَاحِدٍ فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مَثَارَ تَعْجَبٍ لَانَّهُمْ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَبْعَارِضُ مَعَ اعْتِقَادِهِمْ
بُجُودَ اللَّهِ وَلَكِنْ بُوْجُودَ شُرَكَاءَ مَعَهُ فِي الْقُدْرَةِ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلوًّا كَبِيرًا وَمَا تَقْرِيْبُهُمْ لِعِبَادِهِمْ مِنْ
اللَّهِ زُلْفَى إِلَّا إِحْدَى الْأَسْسِ الْفِكْرِيَّةِ لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَلَيْسَتْ كُلُّهَا .

اخْتَرْنَا مِنْ سِيرَةِ الدَّعْوَةِ النَّبَوِيَّةِ مَشْهَدٌ مِنَ الْمَشَاهِدِ الَّتِي تُبَيِّنُ لَنَا كَيْفَ اسْتَفَاقَ الْعُقْلُ الْعَرَبِيُّ الْجَاهِلِيَّ
الْمُشْرِكِ عَلَى هَوْلِ مَا سَمِعَهُ مِنْ آيَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ

وَفِي مَشْهَدٍ مَهِيبٍ وَإِمَامٍ حَشْدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُصَلِّي رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْمُسْلِمِينَ وَيُقْرَأُ
سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ فِيهَا تَحْدِي لِكُلِّ مُشْرِكٍ ، وَمَا إِنْ أَنْتَهَى مِنْهَا حَتَّى سَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْجِنَّ وَالْمَلَائِكَةَ .

ماهي هذه السورة التي قرأها النبي ، وما الذي حصل بالتفصيل ؟

بَعْدَ حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ بَلَّغَتْ حَسَاسِيَّةُ الْوَضْعِ الْإِسْلَامِيِّ الذَّرْوَةَ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ الْحَرَجَةِ مِنْ تَارِيخِ
الدَّعْوَةِ ؛ فَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقِعًا تَحْتَ ضَعُوطٍ كَثِيرَةٍ مِزْمَانَةً ، وَفَوْقَ ذَلِكَ فَهُوَ
تَحْتَ ضَعُوطِ سُحْرِيَّةِ النَّاسِ وَعَدَمِ تَصَدِيقِهِمْ لِأَمْرِ الْإِسْرَاءِ الَّذِي كَانَ يَرَوْنَ أَنَّهَا حُجَّةٌ قَوِيَّةٌ لِتَكْذِيبِ النَّبِيِّ
لَكِنْ اسْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَشَاطِهِ الدَّعْوِي ، بَلْ طَوَّرَ ذَلِكَ تَطْوِيرًا عَظِيمًا فَأَمَرَهُ اللَّهُ
أَنْ يَفْعَلَ أَمْرًا غَيْرَ مَسْبُوقٍ وَلَمْ يَفْعَلْهُ مِنْ قَبْلِ لِيَتَحَدَّى بِذَلِكَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ الَّذِينَ يَكْذِبُونَهُ فِي الْغَدْوِ وَالرَّوَاخِ
وَحِينَ يُضْبِحُونَ وَحِينَ يُنْسُونَ وَيَتَّهَمُونَ الْحَبِيبَ الْمُصْطَفَى بِكُلِّ أَمْرٍ شَنِيعٍ . .

فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ أَنْ يَأْخُذَ بِأَصْحَابِهِ وَيَتَوَجَّهَ بِهِمْ إِلَى جَوْفِ مَكَّةِ الْمُكْرَمَةِ وَإِمَامِ الْكَعْبَةِ الْمُشْرِفَةِ وَتَحْتَ
إِنظَارِ مُشْرِكِينَ قُرَيْشٍ وَأَنْ يُصَلِّيَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى يَسْمَعَ الْقَاصِي وَالذَّانِي كَلَامَ اللَّهِ الَّذِي لَا يُنْطِقُ عَنْ
الْهَوَى وَيَسْ بِقَوْلِ سَاحِرٍ أَوْ مَجْنُونٍ . .

يُضْطَفُّ الصَّحَابَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُ اللَّهِ إِمَامُهُمْ فَيُكَبِّرُ حَبِيبَنَا الْمُصْطَفَى وَيُكَبِّرُ وَرَاءَهُ الصَّحَابَةَ
وَيَبْدَأُ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ وَالْمُشْرِكِينَ يَسْتَمْعُونَ لِهَذَا الْكَلَامِ بِأَنْصَاتٍ شَدِيدَةٍ وَدُونَ مَقَاطِعِهِ مِنْ أَحَدٍ
وَعَلَمَاتِ الْاسْتِغْرَابِ وَالدهْشَةِ تَمَلُّ قُلُوبَهُمْ وَعُقُولُهُمْ بِسَبَبِ فَصَاحَةِ مَا يَسْمَعُونَ وَرُوعِهِ وَعُذُوبَةِ هَذَا
الْكَلَامِ . .

وَبَعْدَ أَنْ أَنْتَهَى مِنْ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ سُورَةَ النَّجْمِ الَّتِي اخْتَارَهَا بِعَيْنَيْهِ دُونَ عَنِ بَقِيَّةِ السُّورِ ،
وَسَتَعَلَّمَ بَعْدَ قَلِيلٍ لِمَاذَا اخْتَارَ رَسُولُ اللَّهِ سُورَةَ النَّجْمِ تَحْدِيدًا لِتِلَاوَتِهَا فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْمُهَيْبِ وَتَحْتَ
إِنظَارِ مُشْرِكِينَ قُرَيْشٍ . .

قَرَأَ الرَّسُولُ السُّورَةَ ، وَكَانَ يَقْرَأُ بَيَانًا تَحْذِيرِيًّا إِلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ؛ فَالسُّورَةُ فِيهَا مِنْ الْقَوَارِعِ مَا فِيهَا ، وَلَمْ
يُقَدِّرْ عَلَى مِقَاتِعِهِ أَحَدٌ ، وَيَالَيْتَنَا تَصَوَّرَ هَذَا الْمَوْقِفَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ
بِصَوْتِهِ الْعَذْبِ ، وَخُشُوعِهِ الْكَامِلِ ، وَفَهْمِهِ الْعَمِيقِ لِكُلِّ حَرْفٍ ، وَالْجَمِيعِ يُنصِتُ ، وَكَانَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ
الطَّيْرُ !

قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ (I) مَا ضَلَّ صَاحِبِكُمْ وَمَا غَوَى ((يَوْمًا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنَّ
هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عِلْمُهُ شَدِيدَ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا
فَقَدَلَى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)
(II) أَقْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴿

وَقَدْ أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ بِرُوعَةِ الْآيَاتِ وَالْكَلِمَاتِ ، وَبُهِرُوا بِهَذَا الْكَلَامِ الْغَرِيبِ الْعَجِيبِ ، الَّذِي لَا يُقَدِّرُ عَلَيْهِ
بَشَرٌ ، فَلَمْ يَحْرَكُوا سَاكِنًا ، وَنَزَلَتِ الْآيَاتُ نُورًا يَفْتَحُ قُلُوبَهُمْ ، وَخَرَسَتِ الْأَلْسِنَةُ ، وَتَسَمَّرَتِ الْأَقْدَامُ ،
وَتَعَلَّقَتِ الْعُيُونُ بِرَسُولِ اللَّهِ ،

ان هذه المشاهد الوجيزة تصور لنا موقف المشركين من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

أَنَّهُ صَاحِبُهُمُ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ ، وَيُعْرِفُونَ نَسَبَهُ وَشَرَفَهُ وَصَدَقَهُ ، وَهُوَ لَا يَتَكَلَّمُ مَعَهُمْ بِهَوَاهِ إِنَّمَا يَأْتِيهِ مَلَكٌ
 الْوَحْيِيُّ مِنَ السَّمَاءِ ؛ هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الْمَجْرَدَةُ الَّتِي أُخْبِرَتْ بِهَا السُّورَةُ أَهْلَ مَكَّةَ عَنِ طَبِيعَةِ الرَّسُولِ
 وَمَهْمَتِهِ ؛ وَمَنْ تَمَّ وَضَعَتِ الْقَوْمَ فِي حَرَجٍ شَدِيدٍ ؛ إِذْ لِمَاذَا يُكَذِّبُونَهُ وَهُوَ لَيْسَ إِلَّا رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟
 تَمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْمِلُ قِرَاءَتَهُ بِصَوْتٍ قَوِيٍّ يُحَذِّرُ مَنْ اتَّبَعَ آلِهَةَ مَزْعُومَةَ لَا قِيَمَةَ
 لَهَا ، وَيُحَذِّرُ كَذَلِكَ مِنْ أَنْ يُنْسَبَ أَحَدٌ شَيْئًا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ .

وَمَعَ أَنَّ الْآيَاتِ تُهَيِّنُ آلِهَةَ قُرَيْشٍ ، وَتُحْتَرَمُ مِنْ شَأْنِهَا ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَنْبُشُوا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ بَلْ ظَلُّوا
 يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ مَبْهُورِينَ انْبَهَارًا كَامِلًا ، مَعَ مُمْلِحَةِ الْخَطَابِ الْمُبَاشِرِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي أَكْثَرِ مِنْ آيَةٍ ؛ وَذَلِكَ
 مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ ، و ﴿ الْكُفْرَ الذِّكْرَ ﴾ ، و ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهَا أَنْتُمْ
 وَأَبَاؤُكُمْ ﴾

فَهَذِهِ كُلُّهَا كَلِمَاتٌ خَطَابِيَّةٌ لَهُمْ ، وَأَسْئَلُهُ مَوْجِهَةً لِعُقُوبِهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَبْحَثُوا عَنْ إِجَابَةِ عَنَّا .

وَتَمَضِي الْآيَاتِ تَكْشِفُ عَنْ خَبَايَا الْمُشْرِكِينَ ، وَتَفْضَحُهُمْ إِمَامَ أَنْفُسِهِمْ ، وَتَوْضِحُ جَرِيْمَتَهُمُ الشَّنِيعَةَ يَوْمَ
 أَشْرَكُوا بِاللَّهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ قَالَ تَعَالَى :

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ
 مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ
 سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى *

ثُمَّ أَكْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِرَاءَتَهُ لِلسُّورَةِ وَهِيَ تُشْرِحُ صِفَةَ الآلَةِ الْقَدِيرِ الَّذِي نَعْبُدُهُ ، كَمَا تُوَضِّحُ عَاقِبَةَ الأَقْوَامِ الَّذِينَ كَذَبُوا قَبْلَ أَهْلِ مَكَّةَ ؛ قَالَ تَعَالَى : (وَأَنِّ إِلَى رَبِّكَ المُنْتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى *

مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُنْمَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشَاءَ الأُخْرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى * وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيْنِهِمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى *

ثُمَّ تَسَارَعَتْ وَتَبَرَّهَ الآيَاتُ ، وَعَلَّتِ النَّبْرَةَ بِشِدَّةٍ !

قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى * أَرْفَتِ الأَرْفَةَ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾

الآيَاتُ أَظْهَرَتْ عَجْزُهُمُ الفَاضِحِ إِمَامِ إِلِهِ عَظِيمٍ بِيَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ ، وَقَادِرٌ عَلَى إِهْلَاكِ أُمَّةٍ عَظِيمَةٍ كَانَتْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَأَعْظَمَ بَأْسًا كَمَا أَنَّ الآيَاتِ تَحْتُمُّهُمْ عَلَى الإسْرَاعِ بِكُلِّ طَاقَةٍ مُمَكِّنَةٍ ؛ فَلَيْسَ هُنَاكَ وَقْتُ أَيُّهَا المُشْرِكُونَ ! لَقَدْ أَرْفَتِ الأَرْفَةَ ، وَقَدْ لَا يَتَوَفَّرُ لَكُمْ وَقْتُ لِلتَّوْبَةِ أَوْ الرَّجْعَةِ ، فَادْرِكُوا أَنْفُسَكُمْ !

أَنَّ جَرِيمَتَكُمْ هَائِلَةٌ ؛ فَانْتُمْ أَهْلُ اللُّغَةِ وَالبَلَاغَةِ وَالأَدَبِ ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ جَدُّ لَا هَزْلٌ فِيهِ ، صَدَقَ لَا كَذَبٌ فِيهِ ، حَقٌّ لَا بَاطِلٌ فِيهِ ، فَمَا لَكُمْ تَضْحَكُونَ مِنْهُ ، وَتَسْخَرُونَ مِنْ حَامِلِهِ لَكُمْ ؛ بَيْنَمَا الأَجْدَرُ بِكُمْ أَنْ تَبْكُوا عَلَى حَالِكُمْ ، وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ لَاهُونَ مَعْرُضُونَ !

مَاذَا نَفْعَلُ ؟ !

كَانَ هَذَا هُوَ السُّؤَالُ الحَائِرُ الَّذِي تَرَدَّدَ فِي أَذْهَانِ كُلِّ المُشْرِكِينَ الحَاضِرِينَ !

حِينَهَا وَجَدُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْجُدُ ، وَيَسْجُدُ مَعَهُ الْمُؤْمِنُونَ . .

فَعَلِمُوا أَنَّ الْمَخْرَجَ الْوَحِيدَ مِنْ نُزُولِ عِقَابِ اللَّهِ الْبَاطِشِ بِهِمْ أَنْ يَسْجُدُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَعَلَّ هَذَا يَعْصِمُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ ، فَسَجَدُوا جَمِيعًا فِي سَابِقِهِ لَيْسَ لَهَا مِثِيلٌ فِي التَّارِيخِ ! وَهِيَ أَنْ يَسْجُدَ الْكُفَّارُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ رَسُولٍ وَاحِدٍ !

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّجْمِ ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ)

فَسَجَدَ الْجَمِيعُ دُونَ اسْتِثْنَاءٍ مَاعِدَا شَخْصٍ وَاحِدٍ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ وَهُوَ الطَّاعِنَةُ الْمُشْرِكَةُ أُمِّيَّةُ بِنِ خَلْفٍ ، يَقُولُ بِنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (قَرَأَ النَّبِيُّ النَّجْمَ فَسَجَدَ فِيهَا وَسَجَدَ مَنْ مَعَهُ غَيْرُ شَيْخٍ أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصَى أَوْ تُرَابٍ وَوَضَعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ وَقَالَ يَكْفِينِي هَذَا)

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْجَمِيعَ سَجَدَ بِسُجُودِ النَّبِيِّ إِلَّا أُمِّيَّةُ بِنِ خَلْفٍ لِأَنَّ كِبَرَهُ مَنَعَهُ لَكِنَّهُ أَخَذَ تُرَابًا وَوَضَعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ وَهُوَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي سَمِعَهُ هُوَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ الضَّلَالَةَ الَّتِي بَدَاخِلَهُ كَانَتْ أَقْوَى مِنْهُ . .

لَكِنَّ لِلْأَسَفِ لِحُظَّةِ سُجُودِ الْمُشْرِكِينَ كَانَتْ لِحُظَّةِ اسْتِيقَاطِ وَهْرَةَ عَابِرَةٍ ، لَا أَثَرَ لَهَا فِي الْقَلْبِ وَلَا فِي الْجَوَارِحِ ، قَامَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ سُجُودِهِمْ أَشَدَّ كَهْرًا ؛ بَلْ قَامُوا كَذَابِينَ أَفَّاكِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَقَدْ صَدَقَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : 14] .

وَلَقَدْ حَرَكْنَا نَفُسَهُمْ وَعَقَّلُوهُمْ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ وَهَذَا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ وَيُؤْمِنُونَ وَفِي بَعْضِ الْآيَاتِ الْكُرْمِيَّةِ

يُذَكِّرُهُمْ بِأَنَّ هَذَا التَّبَيُّ مِنْهُمْ وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ بِلِسَانِهِمْ وَهُوَ سَيُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلْمَاتِهِمْ وَسَيَجْعَلُهُمْ
أُمَّةً دَاعِيَةً إِلَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَنَشْرِ الدِّينِ الْحَنِيفِ دِينِ آبَائِهِمْ إِبْرَاهِيمَ .

﴿ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت

: 51]

هَذَا تَحْرِيزٌ نَفْسِيٌّ قَوِيٌّ يُسَاعِدُهُمْ إِنْ أَمِنُوا بِهِ فِي تَنْوِيرِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ قَوَاعِ الْجَهْلِ وَالْجَاهِلِيَّةِ .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه : 113]

﴿ كِتَابٌ فَصَّلْتَ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : 3]

يُخَاطِبُهُمُ الْمُؤَلَّى الْقَدِيرُ وَيَقُولُ إِذَا اتَّخَذْتُمْ طَرِيقَةَ وَسَلَكْتُمُوهُ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ فَسَوْفَ يُحَدِّثُ لَكُمْ ذِكْرًا
وَقُوَّةً بَيْنَ النَّاسِ وَيُجْعَلُ لَكُمْ مَوْطِئًا قَدِيمًا وَهَذَا مَا حَدَّثَ .

العقل الديني العربي المؤمن

لَمْ تَمُضِ سَنَوَاتٌ طَوَالَ وَكَانَ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ قَدْ حَقَّقَ هَدَفَهُ الْأَوَّلُ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْعَقْلِ الْجَاهِلِيِّ وَتَغْيِيرِهِ
صَحِيحٌ إِنْ ذَلِكَ تَطَلَّبَ مِنْ حَامِلِ الرِّسَالَةِ النَّبَوِيَّةِ جُهْدًا عَظِيمًا وَصَبْرًا لَا يُوَصَفُ وَمُعَانَاةً كَبِيرَةً لِكِنَّهُ فِي

الْتِهَانَةِ جَعَلَ أَقْدَةَ الْكَثِيرِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ نَهْوَى إِلَيْهِ وَلْتَبْدَأْ مَرَحَلَةَ جَدِيدَةٍ مِنْ مَرَاكِحِ تَطَوُّرِ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ

بِاعْتِنَاقِهِمُ الْإِسْلَامَ وَكَانَ حَدَثًا عَظِيمًا فِي حَيَاتِهِمْ الَّذِي سَمَّاهُ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ بِالْإِنْتِقَالِ ﴿ فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ

مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران : 174] .

لَقَدْ كَانَ مِنْ أَهْدَافِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُوَ تَهْيِئَةُ الْمُؤْمِنِينَ لِحَمْلِ آخِرِ رِسَالَةِ سَمَاوِيَةٍ وَلِذَلِكَ كَانَ يَسِيرٌ بِهِمْ خَطْوُهُ بِخُطْوَةِ نَحْوِ تَطْوِيرِ عُقُولِهِمْ وَتَنْوِيرِهَا وَتَوْعِيَّتِهَا لِإِزَالَةِ مَا تَبَقِيَ فِي أَذَانِهِمْ مِنْ تَفْكِيرِ جَاهِلِيٍّ أَوْ عَادَاتِ جَاهِلِيَّةٍ وَإِبْدَالِهَا بِقَوَاعِدِ جَدِيدَةٍ تَسِيرُ الْوَضْعَ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ الْآنَ .

لَقَدْ وَضَعَ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُسُسَ وَقَوَاعِدَ يَقُومُ عَلَيْهَا الْمُجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مُنْذُ وُضُوئِهِ إِلَيْهَا مُهَاجِرًا وَمِنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَقَدْ بَنَى مَسْجِدًا لِيَكُونَ مُنْطَلِقَ الْبِنَاءِ الْجَدِيدِ لِلْعُقُلِ الْمُؤْمِنِ وَعُدَّةِ الْوَثِيقَةِ الَّتِي أَصْدَرَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ هِجْرَتِهِ ذَا قِيَمَةٍ عَالِيَةٍ وَكَانَتْ بِمِثَابَةِ الدُّسُورِ الَّذِي سَيُقِيمُ عَلَيْهِ الْمُجْتَمَعُ الْمَدَنِيُّ الْجَدِيدَ أُسُسَهُ وَأَرْكَانَهُ .

وساهم نظام المؤاخاة في ربط الأمة بعضها ببعض ، فقد أقام الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم ، هذا الإخاء تدرب فيه عصبيات الجاهلية ، فلا حمة إلا للإسلام ، وتشتط به فوارق النسب واللون والوطن ، فلا يتأخر أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه ، وكانت عواطف الأيثار والمواساة والمؤانسة تبرز في هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال . لذلك فإن الأخوة في الله تعمل على تماسك صفوف المسلمين وقوتهم وصدورهم في وجه المحن ومصاعب الدنيا ، وهي من أسباب الشموخ في التمكين لهذه الأمة ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : 103] .

الأنصار سمّاهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ نَصَرَ الْإِسْلَامَ بِأَمْوَالِهِ وَأَنْفُسِهِمْ وَتَرْحِيْبِهِمْ
بِالْمُهَاجِرِينَ بِدَارِهِمْ مُهَجَّرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَحْبِهِ الْكِرَامِ فَأَكْرَمَهُ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ جَعَلَ
دِيَارَهُمْ يَثْرِبَ مَسْكناً وَمَقْبَراً لِسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

شُغِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلُ مُسْتَقَرَّةٍ بِالْمَدِينَةِ بِوَضْعِ الدَّعَائِمِ الَّتِي لَا بَدَّ مِنْهَا هُ وَتَبَيَّنَ مَعَالِمَهَا
فِي الشُّؤْنِ الْآتِيَةِ :

1 - صِلَةَ الْأُمَّةِ بِاللَّهِ : بِنَاءِ الْمَسْجِدِ "الْأَذَانَ" لِذَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ .

2 - صِلَةَ الْأُمَّةِ بَعْضُهَا بِبَعْضِ الْآخَرِ :

الْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ .

الْوَثِيقَةَ أَوْ الصَّحِيفَةَ النَّبَوِيَّةَ (دستور المدينة المنورة) .

3 - صِلَةَ الْأُمَّةِ بِالْأَجَانِبِ عَنْهَا ، تَمَنُّنٌ لَا يَدِينُونَ دِينَهَا :

الْوَثِيقَةَ أَوْ الصَّحِيفَةَ النَّبَوِيَّةَ (دستور المدينة المنورة) .

4 - إِنْشَاءُ الْبُنْيَةِ التَّحِيَّةِ :

اخْتِيَارَ الْمَوْقِعِ الْجُغْرَافِيِّ .

تَخْطِيطَ الْأَحْيَاءِ السَّكْنِيَّةِ .

إِنْشَاءَ الْمَرَافِقِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ (السوق وَالشُّوَارِعَ . إلخ) .

بِنَاءِ الْجَيْشِ .

هَذِهِ القَوَاعِدِ المَدِينِيَّةِ الجَدِيدَةِ خُلِقَتْ لَدَى المُؤْمِنُونَ المُسْلِمُونَ عَقْلِيَّةً وَذَهْنِيَّةً جَدِيدَةً وَبُدُو وَكَانَهُمْ وُلْدُوا مِنْ جَدِيدٍ وَالحَقِيقَةُ أَنَّ عُقُولَهُمْ تَنَوَّرَتْ وَأَزِيحَ عَنْهَا ذَلِكَ العِلَافِ الجَاهِلِيَّ وَقَدْ أَصْبَحُوا بِفَضْلِ اللَّهِ إِخْوَانًا ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 103]

فَهَذَا النَّصُّ القُرْآنِيُّ يَشْرَحُ بِدِقَّةٍ كَيْفَ كَانُوا وَكَيْفَ أُمِسُوا فَكَانُوا مُنْذُ سِنِينَ مَعْدُودَاتٍ أَعْدَاءً فَاجْتَمَعُوا جَمِيعُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَكَانُوا عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَخَلَصَهُمْ وَأَنْقَذَهُمْ مِنْهَا . .

إِلَّا أَنَّ هَذَا المُجْتَمِعَ الجَدِيدَ لَمْ يَكُنْ صَافِيًا وَاحِدًا فَلَقَدْ ظَهَرَتْ فِيهِ فِتْنَةٌ لِإِزَالِ يَمِينِ عَلَيْهَا طَابِعِ التَّفَكِيرِ الجَاهِلِيِّ أُطْلِقَ عَلَيْهَا النَّصُّ القُرْآنِيُّ اسْمَ المُنَافِقُونَ وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ هُوَاءَ المُنَافِقِينَ وَكَشَفَ مَا فِي نَفْسِهِمْ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يُضْمَرُونَ فِي أَنفُسِهِمْ خِلَافَ مَا يُظْهِرُونَ عَلَى السِّنْتِهِمْ ﴿ إِذَا جَاءَكَ المُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المُنَافِقُونَ : 1]

وَظَاهِرُهُ التَّفَاقُ هِيَ ظَاهِرُهُ عَقْلِيَّةً ارْتِدَادِيَّةً فِي بَاطِنِهَا حَيْثُ اشْتَقَّ بَعْضًا مِنَ الَّذِينَ أُسْلِمُوا ظَاهِرًا لِلْعُودَةِ إِلَى عَهْدِهِمُ الجَاهِلِيِّ القَدِيمِ بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ سَنَوَاتِ القَطِيعَةِ وَمَا رَافَقَهَا مِنْ تَغْيِيرَاتِ .

انْسِلَاخُ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ وَارْتِدَادِهِ

لَقَدْ كَانَتْ فِتْرَةُ الرِّسَالَةِ وَالتُّبُوءَةِ ثَلَاثَ وَعِشْرِينَ عَامًا عَاشَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَشْرَ سَنَوَاتٍ مِنْهَا فِي مَكَّةَ الْمُكْرَمَةِ يُؤَسِّسُ فِيهَا الْعَقِيدَةَ وَثَلَاثَ عَشْرَ سَنَةً فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ أُسِّسَ فِيهَا أَرْكَانُ الْعَقِيدَةِ وَالشَّرْعِ وَالْحُكْمِ بِمَعْنَى الدَّوْلَةِ وَكَانَ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ مُرَافِقًا مَعَهُ يَنْزِلُ مِنْجَمًا لِيَوَاقِبُ الْأَحْدَاثَ الْجَارِيَةَ وَكَانَتْ آخِرَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحِمُّ الْخَنِزِيرُ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمُوقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى التُّصْبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَسِرُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ [المائدة : 3] فَالرِّسَالَةُ السَّمَاوِيَّةُ قَدْ اكْتَمَلَتْ وَالرَّسُولُ الْكَرِيمُ قَدْ آذَى وَاجِبُهُ فِي حَمَلِهَا وَتَبْلِيغِهَا لِلنَّاسِ فَالْمَهْمَةُ انْتَهَتْ وَاخْتَارَ الرَّسُولَ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى وَالتَّحَقُّ بِرَبِّهِ رَاضِيًا مَرْضِيًّا .

بَعْدَ فِتْرَةٍ وَجِيذَةٍ تَبَيَّنَ الْعَرَبُ الْمُسْلِمُونَ بِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أَنْ مِنْ كَانَ يَعْْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ) لَقَدْ تَرَكْتَهُمْ وَفَانَتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي خَيْرَةٍ وَفَرَاغٍ وَوَجَدُوا أَنَّهُمْ بِحَاجَةٍ قَوِيَّةٍ لِشَخْصٍ يُحَافِظُ عَلَى إِسْلَامِهِمْ وَوَحْدَتِهِمْ لِبَدْءِ مَرِحَلَةٍ جَدِيدَةٍ فَعَهْدُ التُّبُوءَةِ قَدْ انْتَهَى وَهُمْ بِحَاجَةٍ الْآنَ لِسُلْطَنَةٍ زَمْنِيَّةٍ حَاكِمَةٍ تَدِيرُ الدَّوْلَةَ وَتُرَعَى مَصَالِحَ الْمُسْلِمِينَ .

هُنَا فِي هَذِهِ الْمَرِحَلَةِ اسْتَفَاقَتْ عِنْدَ الْبَعْضِ النَّرْعَةُ الْعَصَبِيَّةُ وَبَدَأَتْ تَظْهَرُ عَلَيْهِمُ الْفُرُوقَاتُ الَّتِي طَمَسَهَا الْإِسْلَامُ وَتَجَاوَزَهَا فَحَدَّثَ الْأَحْتِلَافُ وَكَادَتْ أَنْ تَقَعَ الْفِتْنَةُ مِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ فَأَصْرَارُ الْأَنْصَارِ عَلَى تَوَلَّى

الْخِلَافَةَ جَعَلَهُمْ عَلَى تَقْيِضِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِي كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لَهُمْ أَحْقَابَةً بِهَذَا الْأَمْرِ وَحِينَمَا آلَ الْأَمْرِ لَهُمْ
اِخْتَلَفُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ وَفِي التَّهْنِئَةِ اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

لَقَدْ حَرَّكَ فِيهِمُ الْمُنْصَبَ السِّيَاسِيَّ تَوَارِعَ عِدَّةٍ كَانَتْ دَفِينَةً وَقَدْ لَعِبَتْ هَذِهِ الدَّوَابِعُ دَوْرَهَا فِي تَأْجِيجِ
الصَّرَاعَاتِ الَّتِي أَرْجَعْتُ لِلجَاهِلِيَّةِ حُكْمَهَا فِيهِمْ أَوْ لِنَقْلِ كَمَا قَالَ مُحَمَّدٌ عَابِدُ الْجَابِرِيِّ هُمْ الَّذِينَ حُنُّوا لَهَا
وَاسْتَرْجَعُوهَا لِذَلِكَ فَلَا غَرَابَةَ أَنْ يَمُوتَ ثَلَاثَةُ خُلَفَاءَ رَاشِدِينَ مِنْ أَرْبَعَةٍ بِالْمَوْتِ غَيْلَةً أَوْ غَدْرًا .

لَقَدْ وَقَفَ الْعُقْلُ الْعَرَبِيُّ عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ فَلَقَدْ كَانَ الْمِحْوَرُ الَّذِي يَدُورُ تَفْكِيرُهُ حَوْلَهُ هُوَ السُّلْطَنَةُ وَالْخِلَافَةُ
وَالعِصْبِيَّةُ الْقَبِيلِيَّةُ وَالغَنِيمَةُ وَلَقَدْ تَطَوَّرَتِ الْخِلَافَاتُ الْجَانِبِيَّةُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ مِنْ جِهَةٍ وَبَيْنَ عَلِيِّ ابْنِ عَمِّ
الرَّسُولِ وَصِهْرِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا إِلَى مَوَاجِهَاتٍ دَمَوِيَّةٍ سَفَكَ فِيهَا دَمَ عَشْرَاتِ الْأَلُوفِ .

دَفَعَ الْمُسْلِمُونَ ثَمَنَهَا غَالِيًا انْتَهَتْ بِمَقْتَلِ عَلِيِّ وَتَنَازُلِ ابْنِهِ الْحَسَنِ عَنِ الْخِلَافَةِ لِمَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَمَنْ
قَبْلَهُ اغْتَالَ الْجَهْلَةَ الْجَدِيدَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ وَغَطَّتْ دَمَاءَهُ الْمُضْحَفُ الشَّرِيفُ .

بَدَأَ الْعُقْلُ الْعَرَبِيُّ مِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ بِالتَّضْيِيقِ عَلَى الْعَقِيدَةِ عَلَى حِسَابِ وَايَةِ الْأَمْرِ وَامَارَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَوِيدَا
رُؤْيَدَا سَخَرَهَا وَجَعَلَهَا تَخْضَعُ لِلدَّوْلَةِ أَوْ لِلْقَائِمِ عَلَى أَمْرِهَا لَقَدْ تَبَاطَأَتِ الْفُتُوحَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَأَصْبَحَ الْهَمُّ
الدَّاخِلِيَّ هُوَ شَاغِلُ الْحُكَّامِ وَالرَّعَايَا .

يُشْرَحُ الدُّكُورُ مُحَمَّدٌ عَابِدُ الْجَابِرِيِّ : (الْأَسْبَابُ الْكَامِنَةُ وَرَاءَ هَذَا التَّغْيِيرِ الَّذِي أَصَابَ الْعُقْلَ الْعَرَبِيَّ
وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ نَقْدَ الْعُقْلِ السِّيَاسِيِّ : أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الدَّوْلَةِ ، دَوْلَةُ التَّبَوُّةِ وَالْخِلَافَةِ ، وَمِنْ هَذِهِ إِلَى "الملك
العضوض" وَالدَّوْلَةُ السُّلْطَانِيَّةُ : مَسَارٌ وَاحِدٌ ، هُوَ مَسَارُ تَارِيخِ ظُهُورِ وَتَشَكُّلِ بَعْضِ الْعُقْلِ السِّيَاسِيِّ الْعَرَبِيِّ

. وَإِذَا جازَ لَنَا أَنْ نَسْتَعِيرَ هُنَا مُصْطَلِحَ هَيْغَلِ الَّذِي جَعَلَ مَرَا حِلَ فِينومينولوجيا الرُّوح (= تَارِيخُ ظُهُورِ العَقْلِ) ثَلَاثًا : مَرَحَلَةَ الوُعْيِ الذَّاتِيِّ وَمَرَحَلَةَ الوُعْيِ المَوْضوعيِّ وَمَرَحَلَةَ الوُعْيِ المَطْلُوقِ ، أَمْكَنَ القَوْلُ أَنَّ العَقْلَ السِّيَاسِيَّ العَرَبِيَّ قَدْ بَدَأَ ، بِدَوْرِهِ ، بِمَرَحَلَةِ الوُعْيِ الذَّاتِيِّ خِلالِ الدَّعْوَةِ المُحَمَّدِيَّةِ (التي بَدَأَ فِيهَا الوُعْيِ بِالْأَنَا الإِسْلامِيِّ) ثُمَّ انْتَقَلَ إِلى مَرَحَلَةِ الوُعْيِ المَوْضوعيِّ (قيامِ المُجْتَمَعِ السِّيَاسِيِّ الإِسْلامِيِّ وَدُخُولُهُ فِي صِراعاتِ خِلالِ الرِّدَّةِ وَالْفِتْنَةِ) لِيَدْخُلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَرَحَلَةِ الوُعْيِ المَطْلُوقِ (التي أَصْبَحَتْ فِيهِ السِّيَاسَةُ تُحاوِلُ تَأْسيِسَ نَفْسِهَا عَلَى الدِّينِ وَالْفَلْسَفَةِ . .) . أَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَقَدْ بَقِيَ المِساارُ يُكرِّرُ نَفْسِهِ فِي الوَطَنِ العَرَبِيِّ ، مَعَ اِخْتِلافاتٍ جُزْئِيَّةٍ لا تُغَيِّرُ مِنْ اتِّجاهاهِ وَلا مِنْ طَبِيعَةِ حَرَكَتِهِ ، لِأَنَّ الحُدُوداتِ الَّتِي صَنَعَتْها وَالَّتِي كَانَتْ تُعِيدُ صَنْعَهُ بَقِيَتْ هِيَ هِيَ : القَبِيلَةُ ، العُنَيْمَةُ ، العَقِيدَةُ (ص . ٣٦٤-٣٦٥) .

“وَإِذْنِ فَالْمَطْلُوبِ لِتَجْدِيدِ العَقْلِ السِّيَاسِيِّ العَرَبِيِّ هُوَ : أ- تَحْوِيلُ “القَبِيلَةِ” فِي مَجْتَمَعاتِنَا إِلى لا قَبِيلَةَ ؛ ب- تَحْوِيلِ “العُنَيْمَةِ” إِلى اقْتِصادِ “ضَرْبِيَّةٍ” ؛ ج- تَحْوِيلِ “العَقِيدَةِ” إِلى مُجَرَّدِ رَأْيٍ (التَّحَرُّرِ مِنْ سَلْطَةِ عَقْلِ الطَّائِفَةِ وَالْعَقْلِ الدَّوْعَمائِيِّ) . . . الفِكرِ العَرَبِيِّ المَعاصِرِ مُطالِبُ إِذْنِ بِنَقْدِ المُجْتَمَعِ وَنَقْدِ الاِقْتِصادِ وَنَقْدِ العَقْلِ . . .”

نقد العقل السياسي لمحمد عابد الجابري (ص . ٣٧٤) .

مكونات العقل الديني العربي وفق رؤية الجابري ؟

سَيُساعِدُنَا كَثِيرًا فِي الإِجابَةِ عَلَى هَذَا السُّؤالِ الصَّعْبِ ما تَوَصَّلَ إِليه الذُّكُورُ مُحَمَّدُ عابِدُ الجابري فِي سِلْسِلَةِ نَقْدِهِ للعَقْلِ العَرَبِيِّ فَسَنَسِيرُ مَعَ ما تَوَصَّلَ إِليه فِي أَبْحاثِهِ مَعَ شَرْحِ وَتَوْضِيحِ القَواعِدِ البُنْيُويَّةِ الَّتِي

وَضَعَهَا لِلْوُصُولِ إِلَى التَّيَجِّحَةِ الَّتِي نُرِيدُهَا وَهِيَ الْجَوَابُ عَلَى تَسْأُولِنَا مَاذَا صَنَعَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ ؟ يَقُولُ
الْجَابِرِيُّ فِي كِتَابِهِ بِنْيَةَ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ : (أَنَّ عَقْلَنَا الْعَرَبِيَّ تَأَسَّسَ عَلَى ثَلَاثَةِ نُظُمٍ مَعْرِفِيَّةٍ مُسْتَقَلَّةٍ بِكِبَارِهَا
وَهِيَ :

الْبَيَانُ : هُوَ الْبَيَانُ الْعَرَبِيُّ مِنْ نَحْوِ ، وَفُهُهُ وَعَلِمَ الْكَلَامُ الْمُتَمَيِّدُ بِالْمَجَالِ التَّدَاوُلِيِّ الدِّينِيِّ - الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ
- الْعِرْفَانُ : هُوَ الْمَوْرُوثُ الثَّقَافِيُّ الْعَرَبِيُّ بِصِيغَتِهِ الْعَالِمَةِ ، وَالَّذِي تُمَثِّلُ فِي تَأَثُّرِ الْعَرَبِ بِفَلْسَفَةِ الدِّيَانَةِ
الْهُرْمُسِيَّةِ ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ (فِكْرٌ شِيعِيٌّ ؛ وَعِرْفَانُ الْفَلْسَفَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ ، وَالتَّصَوُّفُ ، وَالتَّفْسِيرُ
الْبَاطِنِيُّ لِلْقُرْآنِ ؛ إِلَى جَانِبِ عُلُومِ التَّنْجِيمِ وَالطَّلَسْمَاتِ) . الْبُرْهَانُ : الَّذِي تَجَسَّدَ فِي الْمَنْطِقِ الْيُونَانِيِّ
الْأَرِسْطِيِّ بِمَنْهَجِهِ الْقَائِمِ عَلَى مُقَدِّمَاتٍ عَقْلِيَّةٍ . فَالْبَيَانُ هُوَ مَا أَنتَجَهُ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ فِي مَجَالَاتِ اللُّغَةِ
الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّحْوِ وَالصَّرْفِ وَعِلْمِ الْكَلَامِ وَالْعُلُومِ الْقُرْآنِيَّةِ وَكَتَبِ التَّفْسِيرِ وَعِلْمِ الْحَدِيثِ وَجَمَعُهُ وَمِنْ هَذَا
الْإِتْبَاحِ ظَهَرَتْ الْفِرْقُ الْكَلَامِيَّةُ وَالْمَذَاهِبُ الْفَهْمِيَّةُ وَالطَّوَائِفُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَهَنَّاكَ كَمْ هَائِلٌ مِنْ هَذِهِ الْإِتْبَاحِ .
الْعِرْفَانُ : الْمَوْرُوثُ الثَّقَافِيُّ الْعَرَبِيُّ أَوْ الْمَعْرِفِيُّ الَّذِي أَنتَجَهُ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ حِينَ تَأَثَّرَ بِالْفَلْسَفَةِ الْهُرْمُسِيَّةِ وَمِنْهَا
أَتَّجَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ نَسْمِيَهُ الْفِكْرَ الْبَاطِنِيَّ أَوْ الْعَقِيدَةَ الْبَاطِنِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ وَهِيَ عَقِيدَةٌ خَطِيرَةٌ جَدًّا
اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَوْصَلَ مَبَادِيئَهَا بِالْإِعْتِمَادِ عَلَى قِرَاءَةِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ بِطَرِيقَةِ التَّوَاتُؤِ اعْتَمَدَتْ عَلَى التَّأْوِيلِ
لِتَفْسِيرِ التَّصَوُّصِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أُوجِدَتْ لِنَفْسِهَا كَمَا هَائِلًا مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمُلَفَّقَةِ لِتَقْوِيَةِ مَذْهَبِهَا وَقَدْ أَوْضَحَ
الدُّكُورُ الْجَابِرِيُّ أَنَّ صِنَاعَةَ الْمَذْهَبِ الْبَاطِنِيِّ قَدْ وُلِدَ عَنْهَا عُلُومٌ وَمَذَاهِبٌ دَخِيلَةٌ عَلَى الْعَقِيدَةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ وَلَا أَسَاسَ لَهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ فِي التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ بِرُمَّتِهِ مَثَلُ الْفِكْرِ شِيعِيِّ ؛ وَعِرْفَانُ
الْفَلْسَفَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ ، وَالتَّصَوُّفِ ، وَالتَّفْسِيرِ الْبَاطِنِيِّ لِلْقُرْآنِ ؛ إِلَى جَانِبِ عُلُومِ التَّنْجِيمِ وَالطَّلَسْمَاتِ)) .

عَلَيْنَا أَنْ نُتَقِيَ نَظْرَةً سَرِيعَةً عَنِ الْفَلَسَفَةِ الْهَرْمُسِيَّةِ لِنَعْرِفَ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تَقُومُ وَلِنَرَى كَيْفَ تَسَلَّتْ مَقُولَاتِهَا إِلَى الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ . الْهَرْمُسِيَّةُ هِيَ مُصْطَلَحٌ مُسْتَقَى مِنْ كَلِمَةِ « هِيرْمُس » الْيُونَانِيَّةِ وَالَّتِي تَرْمُزُ لِإِلَهِ الْإِغْرِيكِ . الْفَلَسَفَةُ الْهَرْمُسِيَّةُ تُرَكِّزُ بِسَاطَةَ عَلَى فِكْرَةِ « عَقْلِ الْإِلَهِ » ، فَأَنَا وَأَنْتَ وَالْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ وَالْعَوَالِمُ وَالْأَفْكَارُ الَّتِي تُنَاقِشُهَا ، مُجَرَّدُ فِكْرَةٍ فِي عَقْلِ الْإِلَهِ ، حَسَبَ هَذَا التَّصَوُّرِ ، وَهَذَا « الْعَقْلُ الْحُرُّ » الَّذِي بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَعِي كُلَّ شَيْءٍ ، وَكُلَّ الْأَزْمَنَةِ ، وَكُلَّ مَا كَانَ ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا سَيَكُونُ ، مُخْتَلِفٌ عَنِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ الْمُتَقَيِّدِ بِالْوُجُودِ الْمَادِيِّ لِلْإِنْسَانِ ، وَالَّذِي يَجْعَلُ عَقْلَهُ مَحْدُودًا . وَجَدَتْ الْفَلَسَفَةُ الْهَرْمُسِيَّةُ طَرِيقَهَا إِلَى التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ (تَمَامًا مِثْلَ التَّصَوُّفِ الْيَهُودِيِّ وَالْمَسِيحِيِّ) فَقَدْ كَانَتْ مُكُونًا ثَقَافِيًّا وَرِثَةً الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَنِ الْعَصْرِ الْإِغْرِيكِيِّ وَالْيُونَانِيِّ ، إِذْ تَدَاخَلَتْ الْهَرْمُسِيَّةُ مَعَ شَتَّى الْحَضَارَاتِ الَّتِي ارْتَدَهَرَتْ فِي الْعَالَمِ ، وَيَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى كَوْنِهَا تُمَثِّلُ الْحِكْمَةَ الْقَدِيمَةَ الَّتِي تَدَاخَلَتْ مَعَهَا فُلْسَفَاتٌ عِدَّةٌ ، مِنْهَا الْفَلَسَفَةُ الْيُونَانِيَّةُ الَّتِي تَرَجَمَهَا الْعُلَمَاءُ الْمُسْلِمُونَ وَفُلْسَفَاتُ بِلَادِ فَارِسِ الَّتِي ائْتَشَرَ فِيهَا الْإِسْلَامُ . تَأَثَّرَ الْجَانِبُ الْعَرَفَانِيُّ فِي التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ بِالْأَفْلَاطُونِيَّةِ الْحَدِيثَةِ ، الَّتِي تَمَّتْ فِي السَّابِقِ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ خِلَالَ الْقَرْنِ الثَّانِي الْمِيلَادِيِّ تَبِيحَةً تَدَاخَلُ الْفِكْرَ الْمِصْرِيَّ الْقَدِيمَ (تَعَالِيمُ تَحُوتِ الْحَكِيمِ الْهَرْمُسِيَّةِ) مَعَ الْفِكْرِ الْيُونَانِيِّ ، وَمِنْهَا خَرَجَتْ الْأَفْلَاطُونِيَّةُ الْحَدِيثَةُ لِشُعُوبِ الْبَحْرِ الْمَوْسَطِ وَبِلَادِ فَارِسِ ، وَمِنْ هُنَا تُؤَثِّرُ الْجَانِبَ الْعَرَفَانِيُّ فِي التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ بِالْهَرْمُسِيَّةِ ، تُظْهِرُتُ مُصْطَلَحَاتٍ مِثْلَ الْكَشْفِ وَالْعَرَفَانِ ، وَالْفَنَاءِ فِي اللَّهِ ، وَالْإِشْرَاقِ ، وَالْخِلَاصِ ، وَوَحْدَةِ الْكُونِ وَالرَّابِطِ بَيْنَ أَجْزَائِهِ

الْعَقِيدَةُ الْبَاطِنِيَّةُ

تَدَاخُلُ الْبَاطِنِيَّةُ - تَقْلِيدِيًّا - مَعَ مَفْهُومِ الْحِكْمَةِ فِي السِّيَاقِ الْإِسْلَامِيِّ ، تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ كِلَاهُمَا فِي آنٍ وَاحِدٍ وَلِنَا أَنْ تَتَّبَعَ الْبَاطِنِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَأُصُولُهَا عَنْ طَرِيقِ الْقُرْآنِ وَالْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ نَفْسَهَا . عُولِجَتْ بَعْضُ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ مِنْ قِبَلِ بَاطِنِيِّ الْإِسْلَامِ وَفَلَّسَفْتُهُمْ عَلَى أَنَّهَا مُتَشَابِهَةٌ وَتَتَضَمَّنُ إِشَارَاتٍ بَاطِنِيَّةً لِمَنْ يَقْدِرُ عَلَى إِدْرَاكِهَا ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الْحَدِيدِ : 3] " يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمِنْ يَأْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا " (الْبَقَرَةُ 2) وَآيَةُ التُّورِ الْمَشْهُورَةُ : " اللَّهُ نُورَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٍ عَلَى ؟ نُورٌ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (التُّورُ 24 : 35) . كُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ إِعْتَبَرُوهَا تَتَضَمَّنُ إِشَارَاتٍ بَاطِنِيَّةً . وَقَدْ أَهْمَتْ هَذِهِ الْآيَاتِ - عَبْرَ الْعُصُورِ - عَدَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَقَامَ بَعْضُهُمْ بِكِتَابَةِ تَعْلِيقاتٍ عَلَيْهَا ، مِثْلُ شِهَابِ الدِّينِ السَّهْرُورِيِّ (الْقَرْنُ الثَّانِي عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ) وَمَلَّا صَدْرًا (الْقَرْنُ السَّادِسُ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ) (انظُرْ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ : أَسْرَارُ الْآيَاتِ ، مَلَّا صَدْرًا) . وَمِنْ مَنْظُورٍ بَاطِنِيٍّ ، يَجِبُ أَنْ تَفْهَمُ كُلَّ التَّطَوُّرَاتِ وَالتَّفَاعُلَاتِ التَّالِيَةِ - بَيْنَ الْفَلَسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالتَّقَالِيدِ الْعَقْلِيَّةِ الْأُخْرَى - عَلَى أَنَّهَا تَعْبِيرَاتٌ عَنْ الْأُصُولِ الْبَاطِنِيَّةِ دَاخِلِ التَّنَسُّقِ الْإِسْلَامِيِّ . وَتَسْلُكُ تِلْكَ الْأُصُولِ الْبَاطِنِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ طَرِيقَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ وَمُسْتَقْلَيْنِ . عَمَلِيًّا ، يُمَثِّلُ التَّصَوُّفُ الْبُعْدَ الْبَاطِنِيَّ لِلْإِسْلَامِ فِي شَكْلِهِ الْأَنْقَى ، بَدِ أَنْ مَعَالِمَ الْبَاطِنِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْوَاضِحَةِ قَدْ أَدْمِجَتْ تَدْرِيجِيًّا فِي التَّقْلِيدِ الْفَلَسَفِيِّ الْإِسْلَامِيِّ . لِذَلِكَ ، نَتَّبِعِي الْبَاطِنِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ عَلَى رُكْنَيْنِ اثْنَيْنِ ؛ رُكْنٍ عَمَلِيٍّ وَآخَرَ فُلْسَفِيِّ . يُمَكِّنُ التَّحَقُّقُ - إِذَنْ - بِالْحِكْمَةِ الْبَاطِنِيَّةِ أَمَّا

مِنْ خِلَالِ الْحِكْمَةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَحْوِي تَرْكِيَةَ النَّفْسِ وَالزَّهْدِ ، أَوْ مِنْ خِلَالِ تَوْعِجِ مِنَ الْفُلْسَفَةِ يَتَّضَعْنَ -
عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ لَا الْحُضْرُ - الْأَسْتِدْلَالُ الْمُنْطِقِيُّ .

مَفْهُومُ الْبَاطِنِ عِنْدَ الشَّيْعَةِ

بِالنَّسْبَةِ لِلشَّيْعَةِ ، لَقَدْ تَأَسَّسَتْ أَيْدِيُولُوجِيَّتُهَا عَلَى مَفْهُومَيْنِ جَوْهَرِيَّيْنِ هُمَا مَفْهُومُ الْبَاطِنِ وَمَفْهُومُ الْإِمَامَةِ .
إِنَّ مَفْهُومَ الْبَاطِنِ يَطْرُحُ نَفْسَهُ كَقَبْضٍ لِكُلِّ ظَاهِرٍ وَاقِعِيٍّ مَلْمُوسٍ . إِنَّهُ يَسْتَبْدِلُ الظَّوَاهِرَ الْمُبَاشِرَةَ بِالْأَشْيَاءِ
الْمَاوَرَأِيَّةِ . وَمَا يَهْمُهُ فِي الْقُرْآنِ ، لَيْسَ هُوَ الْقُرْآنُ فِي حَدِّ ذَاتِهِ كَمَا تَشْرِيحِي لَهُ وَجُودُ مَادِّيٍّ مُجَسَّدٍ
زَمَنِيًّا وَمَكَائِيًّا ، وَيُخْدَمُ قَضَايَا اجْتِمَاعِيَّةً وَاقِعِيَّةً مُحْسُوسَةً ، بَلْ تَهْمَةُ حَقِيقَةِ الْقُرْآنِ الْجَوْهَرِيَّةِ بِمَا هِيَ
حَقِيقَةٌ رُوحِيَّةٌ مُعَالِيَّةٌ عَنِ عَالَمِ الْمُحْسُوسَاتِ . لِذَلِكَ كَانَ لِمَفْهُومِ الْبَاطِنِ امْتِدَادَاتٍ أُخْرَى مِنْ نَفْسِ
الطَّبِيعَةِ ، هِيَ مَفْهُومُ التَّأْوِيلِ كَقَبْضٍ لِلتَّنْزِيلِ ، وَمَفْهُومُ الْحَقِيقَةِ كَقَبْضٍ لِلشَّرِيعَةِ . إِنَّ مَفْهُومَ التَّأْوِيلِ لِلْقُرْآنِ
يُنْطَلِقُ مِنَ التَّصَوُّرِ الشَّيْعِيِّ لِكَلِمَةِ تَنْزِيلٍ ، فَبِالنَّسْبَةِ لِلشَّيْعَةِ ، إِنَّ كَلِمَةَ تَنْزِيلٍ الَّتِي تَعْنِي أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنْ
الْعَالَمِ الْعُلُويِّ إِلَى الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ ، قَدْ خَضَعَ فَقَطْ لِحَرَكَةِ ذَاتِ اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ ، مِنْ الْأَعْلَى إِلَى الْأَسْفَلِ ،
وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ لَيْسَتْ هِيَ الْجَوْهَرِيَّةُ الْمُعْبَرَةُ عَنِ حَقِيقَةِ الْقُرْآنِ الْمُعَالِيَّةِ . لِذَلِكَ وَجَبَ الْقِيَامُ بِحَرَكَةٍ
أُخْرَى فِي اتِّجَاهٍ مُعَاكِسٍ مِنْ أَجْلِ اكْتِشَافِ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ ، أَيُّ الرُّجُوعِ إِلَى الْأَصْلِ الْأَبَدِيِّ لِلْقُرْآنِ .
وَالْوَسِيلَةُ لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ هِيَ التَّأْوِيلُ ، الَّذِي يَعْنِي قَلْبَ عِبَارَاتِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ الظَّاهِرَةَ لِلرُّجُوعِ بِهَا إِلَى
مَعَانِيهَا الْأَصْلِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ .

الْحَرَكَةُ الْقَرْمَطِيَّةُ مَثَالًا عَنِ الْبَاطِنِيَّةِ

أَنَّ كَلِمَةَ قَرَمَطٍ بَدَأَتْ بِحَمْدَانِ بْنِ الْأَشْعَثِ ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ عِنْدَهُ الدَّاعِي الْمَوْسَسُ لِهَذِهِ الْفِرْقَةِ :

الْحُسَيْنُ الْأَهْوَازِيُّ ، الَّذِي جَاءَ مِنْ نَاحِيَةِ خُوزِسْتَانَ ، وَهَذِهِ التَّسْمِيَةُ أَيُّ الْقَرَامِطَةِ لَمْ تَتَّخِذْهَا هَذِهِ الْفِرْقَةُ الْبَاطِنِيَّةُ لِنَفْسِهَا ، وَإِنَّمَا أَطْلَقَهَا أَعْدَاؤُهَا عَلَيْهَا فِي الْعُهُودِ الْمُبَكَّرَةِ لِقِيَامِهَا . وَالْحَدِيثُ عَنِ الْعَوَامِلِ الَّتِي آدَتْ إِلَى نُشُوءِ الْحَرَكَةِ الْقَرَمِطِيَّةِ ، وَقِيَامِ دَوْلَةِ الْقَرَامِطَةِ ، ذُو شُجُونٍ ، وَالخَوْضُ فِيهِ يَحْتَاجُ إِلَى نَفْصِيَّاتٍ ، لَا يَتَّسِعُ لَهَا مَجَالٌ هَذِهِ الدَّرَاسَةِ ، الَّتِي قَصَدْنَا بِهَا التَّعْرِيفَ بِالْقَرَامِطَةِ ، وَحَرَكَتَهُمْ بِأَكْثَرِ مَا أَمَكْنَا مِنَ الْإِبْجَازِ ، دُونَ الدُّخُولِ فِي التَّنَاقُضَاتِ الَّتِي تَمَيَّزَتْ بِهَا أَقْوَالُ الْمُحَقِّقِينَ . أَنَّ كُلَّ الْحَرَكَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ وَمِنْهَا الشَّيْعَةُ وَالْقَرَمِطِيَّةُ تَوَسَّلَتْ بِشِعَارِ الْوَلَاءِ لِآلِ الْبَيْتِ التَّبَوِيِّ ، مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَى هَدَفٍ وَاحِدٍ وَهُوَ النَّارُ مِنْ حُكَامِ الْوَقْتِ الَّذِينَ أَشَاعُوا الْبِدْعَ الْجَاهِلِيَّةَ ، تَحْتَ غِطَاءِ الْإِسْلَامِ ، وَمِنْهَا التَّرْكِيزُ عَلَى الْعُنْصُرِ الْعَرَبِيِّ ، وَالْحَطُّ مِنَ الْمَوَالِي الْمُسْلِمِينَ عَقَائِدِ الْقَرَامِطَةِ إِنَّ عَقَائِدَ الْقَرَامِطَةِ ، هِيَ مَزِجٌ مِنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ شَأْنِ كُلِّ فِرْقَةٍ زَائِفَةٍ ، فَأَخَذَتْ بِبِنْيِ الْإِمَامَةِ لِأَهْلِ الْبَيْتِ وَإِظْهَارِ الْإِخْلَاصِ لَهُمْ ، وَرَفَضَ الْحُكُومَاتِ الْأُمَوِيَّةَ وَالْعَبَّاسِيَّةَ الْمُخَالَفَةَ لِلْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالسَّيْرَةِ التَّبَوِيَّةِ وَإِلَيْكَ بَعْضُ عَقَائِدِهِمْ بِشَكْلِ مُوجَزٍ :

نَظَرِيَّةُ الْحُلُولِ عِنْدَ الْقَرَامِطَةِ

وَالْقَرَامِطَةُ ، قَالُوا بِنَظَرِيَّةِ الْحُلُولِ أَوْ مَا يُسَمَّى عِنْدَ بَعْضِ الطَّوَائِفِ الْمَعَاصِرَةِ بِاسْمِ حُلُولِ اللَّاهُوتِ بِالتَّاسُوتِ ، فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ أُمَّتَهُمْ حَلَّتْ فِيهِمْ شَخْصِيَّاتُ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ اللَّهُ فِي الْأُمَّمِ الْعَابِرَةِ ابْتِدَاءً مِنْ آدَمَ وَإِنْتِهَاءً بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَلْ أَنَّهُمْ تَجَاوَزُوا الْأَنْبِيَاءَ . لَمَّا دَخَلَ عُبَيْدُ اللَّهِ الْمُهَدِّي إِلَى رُقَادِهِ بِالْمَغْرِبِ مَدَّحَهُ مُحَمَّدُ الْبَدِيلِ ، أَحَدُ مَوْطَفِي الدِّيَوَانِ عِنْدَ أَبِي قُضَاعَةَ بِقَوْلِهِ

حَلُّ بَرَقَادَةِ الْمَسِيحِ حَلٌّ بِهَا آدَمُ وَنُوحٌ

حَلٌّ بِهَا أَحْمَدُ الْمُصَنَّفِي حَلٌّ بِهَا الْكَبْشُ وَالذَّبِيحُ

حَلٌّ بِهَا ذُو الْمَعَالِي وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحٌ

هُوَ الْغُلُوعُ عِنْدَ الْقَرَامِطَةِ تَعْتَقِدُ الْقَرَامِطَةُ أَنَّ الْإِمَامَ الْقَائِمَ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الَّذِي يُبْعَثُ بِالرُّسُلِ ، وَيَسُنُّ شَرِيعَةً جَدِيدَةً يَنْسُخُ بِهَا شَرِيعَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَمَا يَتَعْتَقِدُ الْقَرَامِطَةُ أَنَّ رُوحَ اللَّهِ تَعَالَى تَحُلُّ فِي أَجْسَادِ أُمَّتِهِمْ فَتَعَصِمُهُمْ مِنَ الزَّلَلِ وَتُرْشِدُهُمْ إِلَى صَالِحِ الْعَمَلِ وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَيْضًا أَنَّ أُمَّتَهُمُ السَّبْعَةَ هُمْ السَّبْعُ الْمَثَانِي الَّذِينَ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَيْهِمْ ، وَرَفَعُوهُمْ إِلَى حَدِّ الْمَغَالَاةِ .

التَّأْوِيلُ الْبَاطِنِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تَفَرَّدَتْ الْبَاطِنِيَّةُ بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّأْوِيلِ الْبَاطِنِيِّ ، وَهُوَ أَنْ يَتَجَاوَزُ الْإِنْسَانُ الْمَعْنِيَّ الظَّاهِرِيَّ لِلآيَةِ وَيَتَّجِهَ إِلَى فَهْمِهَا عَنْ طَرِيقِ تَفْسِيرِ كَلِمَاتِهَا بِمَا يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ الْحَقِيقِيُّ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ ، وَمِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَعْتَمِدَ الْبَاطِنِيُّونَ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ لِتَحْمِيلِ آيَاتِ الْمَعْنَى الَّذِي يُؤَيِّدُ وَجْهَةَ نَظَرِهِمْ وَأَفْكَارِهِمُ الْمَذْهَبِيَّةَ . إِنَّ التَّأْوِيلَ بِمَعْنَاهُ الْوَاقِعِيِّ لَدَى الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ يَخْتَلِفُ عَنِ التَّفْسِيرِ الْمَعْمُولِ بِهِ لَدَى عَامَّةِ الْفِرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأُخْرَى ، وَالتَّفْسِيرُ بِمَعْنَاهُ جَلَاءُ الْمَعْنَى لِكُلِّ كَلِمَةٍ غَامِضَةٍ لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهَا الْقَارِئُ وَالتَّأْوِيلُ بَاطِنُ الْمَعْنَى أَوْ رَمْزِهِ أَوْ جَوْهَرِهِ وَهُوَ حَقِيقَةٌ مُسْتَرَّةٌ وَرَاءَ لَفْظَةٍ لَا تُدَلُّ عَلَيْهَا ، وَمِنْ هُنَا أُعْطِيَ النِّظَامُ الْإِسْمَاعِيلِيُّ وَمِثْلُهُ الْقَرْمَطِيُّ الْفِكْرِيَّ صِلَاحِيَّةَ التَّفْسِيرِ لِلنَّاطِقِ وَوَهَبَ صِلَاحِيَّةَ التَّأْوِيلِ لِلْإِمَامِ ، فَالنَّاطِقُ اعْتَبَرَ مُمَثِّلًا لِلشَّرِيعَةِ وَالْأَحْكَامِ وَالْفَقْهِ وَالْقَانُونِ الظَّاهِرِ ، وَالْإِمَامُ اعْتَبَرَ مُمَثِّلًا لِلْحَقِيقَةِ وَالتَّأْوِيلِ ، وَالْفَلَسَفَةُ وَالبَاطِنُ ، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ أَوَّلَ مَنْهَاجٍ دَعَا إِلَيْهِ هُوَ نِظَامُ التَّأْوِيلِ ، فَإِنَّهُمْ هَدَّبُوهُ وَصَقَلُوهُ

بأفكارهم وأدخلوا فيه النظرية العقلية التي تشدّب الفعل والتسليم ليثبتوا للعالم الإسلامي أنهم من العريقين في فهم الأصول الإسلامية ، فقالوا بالباطن وضرورته كما قالوا بالظاهر إلى جانبه ، فلا يقبل الظاهر دون الباطن ، ولا ينفع الباطن دون الظاهر ، لأن الباطن والظاهر كالجسد والروح تولد في اجتماعهما الفوائد ومعرفة المقاصد . إن القرآن مدلولاً ، ظاهرياً وباطنياً ، فالمعنى الظاهري واللغوي ليس هو المقصود بالذات والتمسك بهذا المعنى يوجب العذاب والمشقة ، أما الأخذ بالمعنى الباطني فهو يوجب الانشراح والسعادة ، لأنه يقضي بترك التكليف والأعمال الظاهرة وكان ابن ميمون يدس هذه الفكرة بصورة خفية وباطنة وما كان يتظاهر بها تجاه غير الإسماعيليين القرامطة ولذلك كانت هذه الطريقة مبالغ فيها .

ومقابل ثنائية التنزيل والتأويل ، توجد ثنائية الشريعة والحقيقة . أن الشريعة بمعنى التصوص القانونية المنظمة للحياة الاجتماعية ، ليست هي الأساسية في التصور الشيعي . وقيمها تكمن فقط في كونها تشكل نقطة انطلاق للتأمل في خلفيتها الفعلية ، من أجل إدراك حقيقتها الباطنية المتعالية عن عالم المحسوسات .

أما البرهان وهو الركن الثالث من بنية العقل العربي كما يراه الجابري

فهو الذي تجسّد في المنطق اليوناني الأرسطي بمنهجه القائم على مقدمات عقلية . وهذا سيقودنا إلى بحث منفصل لشرح هذا المحور أو الركن .

أثر الفلسفة اليونانية في الفكر العربي في العصر الوسيط

كان للعرب قبيل الإسلام لغة ناصجة ، لكن كانت معارفهم وفنوتهم وضميرهم في الأغلب ، وتخلو من التأمل والتفلسف . فلم تفتح البيئة الطبيعية لغالبية مجتمعات الجزيرة العربية مجالاً لنبات الاستقرار

المدني « المتواصل عبر أجيال » ولا ثبات الوحدة السياسية ، ومن ثم لم تتراكم المعارف الفكرية بما يسمح لتكون شكل من أشكال التفكير الفلسفي . وحتى في الحواضر القليلة الثابتة عبر أجيال ، فإنها لم تعرف الفلسفة ؛ لأنها كانت جزراً صغيرة مستقرّة في بحر مجتمعات الرحال ، وكانت ثقافتها السائدة من ثقافة تلك المجتمعات المحيطة . وعدا الحكمة الموجودة في الأمثال والعبارات والخطب والشعر والقصص ، فإن العقل السائد آنذ كان يتحكم به التصور الخرافي للكون والحياة ، إضافة لوجود السحر والكهانة والعرافة والتنجيم . وعلى الرغم من ذلك فالجزيرة العربية شهدت تلاقياً بين أديان وحضارات مختلفة ؛ فقد كانت مواسم الحج وأسواق العرب كسوق عكاظ تجمعاً بين العرب وغيرهم من الشعوب التي تقطن المنطقة المحيطة بشبه الجزيرة العربية أو قريبة منها كالسريان والفرس والهنود واليونان . وإذا أخذنا البعد الفلسفي في الدين ، سنجد أن قليلاً من العرب كانوا إما يهوداً أو نصارى ، والغالبية العظمى كانوا وثنيين دهرين . هذه الديانة الوثنية تزامن مع ازدهار مذهب الدهرية الفارسي في عهد يزدجر الثاني « ت 457م » ، وهذا قد يشير إلى مدى تأثير العرب بفلسفة المذهب الفارسي ؛ فالدهرية الفارسية تجعل الزمان هو المبدأ الأسمى ، وترى أنه لا نهاية له ، وتعدّه عين القدر أو الفلك الأعظم . وهذا المبدأ نال إعجاب أهل النظر الفلسفي ، وتبوأ مكاناً بارزاً في الأدب الفارسي وفي الآراء الشعبية « دي بور » .

العصر الإسلامي الأول

البوادر الأولى مع الإسلام تشكلت الوحدة السياسية للعرب ، حتى تمددت خارج حدودها مشكلة الدولة الإسلامية ، التي كانت لغتها الدينية والسياسية هي اللغة العربية ، لكن مع زيادة تمدد الدولة

الإسلامية واختلاط المسلمين بحضارات وأديان مختلفة ظهرت الحاجة لتعريب الدواوين التي بدأت منذ مطلع الخلافة الأموية ، وكانت تكتب أصلاً بالفارسية واليونانية . في تلك الأثناء ، كانت الدراسات الفلسفية والمنطقية مستمرة في مراكز الدراسات اليونانية من دون انقطاع حتى بعد الفتح الإسلامي لسوريا والعراق . وظهر عدد من الشراخ الذين ينتمون إلى فرقتي اليعقوبية والتسطورية المنشقة ، أمثال سويرس سيويوخت « ت 47 » وأثناسيوس البدي « ت 77 » ويعقوب الرهاوي « ت 90 » .

أغلب ذلك وتزامن معه بوادر تعريب المصنفات الطبية والكيميائية والفلكية . في عهد مروان بن الحكم « ت 66 هـ » ترجم أهرن اليعقوبي ملخصاً طبيًا مشهوراً في الأوساط السريانية للطبيب اليهودي ماسرجويه . كما يُنسب إلى الأمير الأموي خالد بن يزيد « ت 85 هـ » الاشتغال بالكيمياء والتشجيع على ترجمتها من اليونانية إلى العربية . كانت الترجمة آنذاك مشوشة من ناحية التعريب أو من ناحية نخل الأعمال لغير أصحابها . فمن ذلك أن العرب وقبيل يحسبون أن تاريخ اليونان لم يبدأ إلا مع الإسكندر الأكبر ، وقد عرفوا شيئاً من أطوار الفلسفة وكتب أرسطو لكنها معرفة مشوبة بأساطير كثيرة

ومهدات الفلسفة مع زيادة اختلاط المسلمين بحضارات وأديان وأعراق مختلفة ، وبأشكال مدنية جديدة وعادات وأفكار وفلسفات وأماط معيشية متنوعة وجديدة عليهم ، لا يكفي معها مجرد الرجوع لنص القرآن الكريم والسنة الشريفة ، كان لا بد من الرأي المستند على القياس والتأويل والاجتهاد . وكان لا بد من وضع مناهج ومقاييس لهذه الاستادات وقواعد الرجوع للقرآن والسنة . ومن هنا ظهر الفقه والفقهاء وفرقهم مثل أهل الرأي وإمامهم أبو حنيفة النعمان ، وأهل الحديث كالشافعي . ولأن القرآن الكريم دعا الناس للتأمل والتبصر والتعقل ، فإن ذلك أثر في نشوء الفرق الإسلامية والجدل العقلي

وَعِلْمِ الْكَلَامِ . كَانَ هَدَفُ عِلْمِ الْكَلَامِ الدَّفَاعَ عَنِ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ بِالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ مُقَابِلِ الْأَدْلَةِ التَّقْلِيَّةِ . عَلَى رَغْمِ أَنَّ الْقِيَاسَ وَهُوَ مِنْ أَشْكَالِ الْمُنْطِقِ ظَهَرَ قَبْلَ التَّأَثُّرِ بِالْمُنْطِقِ الْفَلَسْفِيِّ الْيُونَانِيِّ ، لَكِنْ مَعَ التَّوَسُّعِ فِيهِ وَاتِّخَاذِهِ أَصْلًا مِنْ أُصُولِ الْأَحْكَامِ وَمُضَدَّرًا لِلتَّشْرِيحِ ، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ دِرَاسَةِ الْمُنْطِقِ الْيُونَانِيِّ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ أَوْ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ . وَالْفَقْهُ بِحَدِّ ذَاتِهِ - وَبِئْسَ الْقِيَاسُ فَقَطْ - هُوَ عِلْمٌ نَظْرِيٌّ فِكْرِيٌّ بَشْرِيٌّ وَإِنْ كَانَ يَسْتَدُّ عَلَى نَصِّ سَمَاوِيٍّ ؛ لِذَا لَا بُدَّ لَهُ مِنَ التَّقْلُفِ ، وَبِخَاصَّةٍ فِي الْمُنْطِقِ الْإِسْتِبْطَاطِيِّ وَبِئْسَ فَقَطْ الْإِسْتِقْرَائِيُّ . كَانَتْ تِلْكَ مُمَهِّدَاتٌ لِدُخُولِ الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ لِلْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ . فَالْأَرَاءُ الْفِيهِئَةَ اضْطُرَّتْ لِلدُّخُولِ فِي فُلْسَفَةِ اللُّغَةِ لِتَفْسِيرِ وَتَأْوِيلِ وَشَرْحِ النَّصِّ الْمُقَدَّسِ ، ثُمَّ دَخَلَتْ فِي تَفْرَعَاتِ فُلْسَفِيَّةٍ أُخْرَى . ظَهَرَتْ بَوَادِرِ التَّرْجَمَاتِ الْفَلَسَفِيَّةِ فِي مَطْعِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ مِثْلَ مَا يُنْسَبُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُتَّقِعِ بَعْرَبِيهِ لِكُتُبِ الْمَقُولَاتِ وَالْعِبَارَةِ وَالتَّبْرَهَانَ لِأَرْسُطُو . كَانَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ « ت 159 هـ » الَّذِي تَصَفَّهُ الْمَصَادِرُ الْقَدِيمَةُ بِبِرَاعَتِهِ فِي الْفَقْهِ وَكَلْفِهِ بِالْفَلْسَفَةِ ، وَرِعَايَتِهِ لِتَرْجَمَةِ كُتُبِ الطَّبِّ وَالْهَنْدَسَةِ وَالْفَلَكِ « تَارِيخُ مُخْتَصَرِ الدَّوَلِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ » . وَمِنْ الْكُتُبِ الَّتِي تَرَجَمَتْ فِي عَهْدِهِ رِسَائِلُ لِأَرْسُطُو ، وَكُتَابُ « الْمَجِسْطِي » فِي الْفَلَكِ ، « وَأُصُولُ الْهَنْدَسَةِ » لِأَيْلِيدِسُ « مُرُوجُ الذَّهَبِ لِلْمَسْعُودِيِّ » . وَقَدْ أَضَافَ هَارُونُ الرَّشِيدُ مَزِيدًا مِنْ الدَّعْمِ لِلتَّغْرِيْبِ ، وَاعْتَنَى بِالثَّقَافَةِ وَالْعِلْمِ وَتَرْجَمَةَ الْأَعْمَالِ الْيُونَانِيَّةِ ، وَعَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ فِي الطَّبِّ وَالْفَلَكِ وَالتَّجْوِيْمِ .

مِنَ التَّرْجَمَةِ إِلَى الشَّرْحِ وَالتَّأْسِيْسِ

ظَلَّتْ التَّرْجَمَاتُ مُسْتَمْتَةً حَتَّى عَهْدِ الْمَأْمُونِ حِينَ بَلَغَ الْأَهْتِمَامُ بِالْفَلْسَفَةِ ذُرْوَتَهُ بِإِنْشَاءِ « بَيْتِ الْحِكْمَةِ » فِي بَغْدَادَ سَنَةَ 217 هـ . تَرَجَمَتْ الْأَعْمَالُ الْفَلَسَفِيَّةُ الْيُونَانِيَّةُ إِلَى السُّرِّيَانِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ ، فَتَرَجَمَتْ أَهَمُّ أَعْمَالِ

أَفَلَاطُونُ وَأَرِسْطُو ، إِضَافَةٌ إِلَى تَرْجَمَةِ الْأَعْمَالِ الْأُخْرَى ؛ مِثْلُ : كِتَابِ الْبُرْهَانِ ، وَكِتَابِ الْأَخْلَاقِ
لِغَالِينُوسٍ . فِي تِلْكَ الْحِقْبَةِ نُقِلَ الْجُزْءُ الْأَكْبَرُ مِنَ التَّرَاثِ الْيُونَانِيِّ فِي الْفَلْسَفَةِ وَالطَّبِّ وَالْعُلُومِ أَمَّا عَنِ
الْيُونَانِيَّةِ مُبَاشِرَةً أَوْ عَنِ السَّرْيَانِيَّةِ . لَمْ تَنْحَصِرْ التَّرْجَمَةُ فِي التَّرَاثِ الْيُونَانِيِّ ، بَلْ اِمْتَدَّتْ إِلَى غَيْرِهِ كالتَّرَاثِ
الْفَارِسِيِّ وَالْهِنْدِيِّ ، وَتَرَكَّزَتْ فِي مَجَالِي الطَّبِّ وَالْمُعْتَقَدَاتِ الدِّينِيَّةِ ، لَكِنَّ التَّعْرِيبَ كَانَ فِي تَوْجِهِهِ الْأَكْبَرِ
نَحْوَ الْإِرْثِ الْيُونَانِيِّ . تَطَوَّرَتْ الْحَالَةُ الْفَلْسَفِيَّةُ آنَذَاكَ مِنْ تَرَاجِمِ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ ، إِلَى الشَّرْحِ ، مَعَ بَعْضِ
الْإِبْتِكَارَاتِ الْفَلْسَفِيَّةِ ، حَيْثُ مَهَّدَ لَهَا الْكَنْدِيُّ « ت 260 هـ » الَّذِي يَتَّفِقُ أَغْلَبَ الدَّارِسِينَ أَنَّ بَدَايَةَ
التَّأْلِيفِ الْفَلْسَفِيِّ الْعَرَبِيِّ بِالْمَعْنَى الْأَصِيلِ لِلْفَلْسَفَةِ ظَهَرَ مَعَهُ . وَتَعَدَّ الْفَلْسَفَةُ الرِّيَاضِيَّةُ لِلْكَنْدِيِّ أَهَمَّ مَا فِي
تَاجِهِ الْفَلْسَفِيِّ ، وَفِيهَا تَمْتَرِجُ الْأَفَلَاطُونِيَّةُ الْجَدِيدَةُ بِالْفَيْثَاغُورِيَّةِ الْجَدِيدَةِ « دِي بُور » . مِثْلُهُ الْأَعْلَى
سُقْرَاطُ ، مَعَ مُحَاوَلَةِ التَّوْفِيقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرِسْطُو الَّذِي يُجِلُّهُ كَثِيرًا عَلَى طَرِيقَةِ الْأَفَلَاطُونِيَّةِ الْجَدِيدَةِ . أَمَّا
الرَّازِي « 298 هـ » فَيَعَدُّ حَامِلَ لَوَاءِ الْأَفَلَاطُونِيَّةِ فِي تَارِيخِ الْفَلْسَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَكْبَرَ أَعْلَامِ الْفَلْسَفَةِ فِي
الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأَعْلَاهُمْ هُوَ الْفَارَابِيُّ « ت 339 هـ » أَوَّلُ وَاضِعٍ لِأَسْسِ الْأَفَلَاطُونِيَّةِ الْمُحَدَّثَةِ فِي
صِيغَتِهَا الْعَرَبِيَّةِ ، وَأَوَّلُ مُفَكِّرٍ عَرَبِيٍّ عَمِلَ عَلَى وَضْعِ نِظَامِ فِلْسَفِيٍّ مُكْمَلٍ . إِضَافَةٌ إِلَى شَرْحِهِ فِلْسَفَةَ
أَفَلَاطُونِ ، فَقَدْ دَرَسَ الْفَارَابِيُّ مُؤَلَّفَاتِ أَرِسْطُو وَرَبَّهَا وَفَسَّرَهَا وَشَرَحَهَا ، فَلَقِبَ الْمُعَلِّمِ الثَّانِي . وَعَلَى
رَعْمِ ذَلِكَ فَإِنَّ الْأَفَلَاطُونِيَّةَ الْمُحَدَّثَةَ اقْتَرَنَتْ أَكْثَرَ بِابْنِ سِينَا « ت 428 هـ » فِي كُلِّ مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
الْعَرَبِيِّ ، أَمَّا كِتَابُهُ فِي الطَّبِّ « الْقَانُونِ » فَلَهُ تَأْثِيرٌ هَائِلٌ عَالَمِيًّا جَعَلَ مِنْهُ الْأَشْهُرُ عَلَى النِّطاقِ الْعَالَمِيِّ .

إِنْتِقَالُ الشُّعْلَةِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ

فِي الْجَانِبِ الْعَرَبِيِّ مِنْ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ظَهَرَتْ فِي الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ وَالْأَنْدَلُسِ أَعْمَالٌ فُلْسَفِيَّةٌ كَانَتْ مِنْ أَوَائِلِ
 أَعْلَامِهَا ابْنُ بَاجَةَ « 533 هـ » وَلَهُ مُصَنَّفَاتٌ فِي الْفُلْسَفَةِ وَالطَّبِّ ، وَاعْتَمَى بِشَرْحِ عَدَدٍ مِنْ مُؤَلَّفَاتِ أَرِسْطُو
 . وَكَانَ الْعَلَمُ الثَّانِي ابْنُ طُفَيْلٍ « ت 580 هـ » الَّذِي لَمْ يَصِلْنَا مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ غَيْرُ « حَيِّ بْنِ يَثْرَانَ » . أَمَّا
 الْعَلَمُ الْأَكْبَرُ ، وَرُبَّمَا فِي الْفُلْسَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ كُلِّهَا ، فَهُوَ ابْنُ رُشْدٍ « 595 هـ » الَّذِي شَرَحَ أَغْلَبَ كُتُبِ أَرِسْطُو
 بِطَرِيقَةٍ نَضَاهِي جَمِيعٍ مِنْ سَبَقِهِ ، إِضَافَةً إِلَى شَرْحِهِ جُمْهُورِيَّةً أَفْلَاطُونُ ؛ لِذَا لُقِبَ بِالْمُشَارِحِ . وَكَانَ لِابْنِ
 رُشْدٍ كَثِيرٌ مِنَ الْمُوَلَّفَاتِ الْفُلْسَفِيَّةِ ، وَبِخَاصَّةٍ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ الْفُلْسَفَةِ وَالشَّرِيعَةِ .

تَأْثِيرُ الْفُلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ فِي الْفُلْسَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ

أَهَمُّ عَامِلٍ مُؤَثِّرٍ فِي الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ الْمُؤْمِنِ كَانَتْ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ، وَالْحَدِيثَ الشَّرِيفَ ، وَالْفِقْهَ ، وَعِلْمَ الْكَلَامِ
 ، وَالتَّوْبِيلَ ، وَأَهْلَ الْحَدِيثِ « أَهْلَ الظَّاهِرِ » وَأَهْلَ الرَّأْيِ وَالْإِجْتِهَادِ « الْمَدْلُولِ الْبَاطِنِ » . بَعْدَ هَذِهِ
 الْعَوَامِلِ تَأْتِي الْفُلْسَفَةُ الْيُونَانِيَّةُ . الْمَصْدَرُ الرَّئِيسُ لِلْفُلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ كَانَتْ عِبْرَ تَرْجُمَةِ التَّرَاثِ الْيُونَانِيِّ :
 الْمَنْطِقُ ، وَالطَّبِيعِيَّاتُ ، وَالْإِلَهِيَّاتُ ، وَالْأَخْلَاقُ ، وَالرِّيَاضِيَّاتُ ، وَالْفَلَكُ ، وَالطَّبُّ . كَانَتْ لِلْفُلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ
 تَأْثِيرٌ هَائِلٌ فِي الْفُلْسَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَا سِيَّمَا فِي الطَّبِيعِيَّاتِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ . . وَإِذَا كَانَ فِينَاغُورُسُ أَسْتَاذًا
 لِلْعَرَبِ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ كَمَا يَقُولُ دِي بُورُ ، فَإِنَّ أَرِسْطُو أَسْتَاذُهُمْ فِي الْمَنْطِقِ . وَكَانَتْ لِلْفُلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ
 أَيْضًا تَأْثِيرٌ فِي غَيْرِ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ « الْفِقْهَ ، وَالْكَلَامَ ، وَالتَّنْحُو ، وَالتَّارِيخَ ، وَالْأَدَبَ » .
 فَمَثَلًا الْخَطَابَةُ لِأَرِسْطُو وَالْمَنْطِقُ الْيُونَانِيُّ عُمُومًا أَثَرًا فِي التَّنْحُو الْعَرَبِيِّ وَالبَلَاغَةِ بِشَكْلِ وَاضِحٍ ، فَالْبَاحِظُ
 ، مَثَلًا ، أَدْخَلَ أَشْكَالَ الْفِيَّاسِ الْمَنْطِقِيَّةِ فِي أُسَالِبِ الْبَلَاغَةِ . وَقَدْ كَانَ التَّأَثُّرُ الْعَرَبِيُّ إِجْبَابِيًّا مُتَقَاعِلًا ؛
 إِذْ أَضَافَ الْعَرَبُ إِلَيْهَا إِضَافَاتٌ ضَخْمَةً أَصِيلَةً وَمُبْتَكِرَةً ، وَمِنْ ثَمَّ أَسَّسُوا مِنْهَا عُلُومَهُمُ الْخَاصَّةَ ، مِثْلُ

فَلْسَفَةُ أَسَاسِ اللُّغَةِ بَيْنَ الْفُطْرِيِّ وَالْوَضْعِيِّ ، وَالْقِيَاسِ وَالِاسْتِثْبَاطِ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ ، وَفَلْسَفَةُ الْبَلَاغَةِ بَيْنَ الْمُبْنَى وَالْمَعْنَى ، وَتَقْسِيمِ أَنْوَاعِ الْجُمَلِ « خَمْسَةٌ أَوْ ثَمَانِيَةٌ أَوْ تِسْعَةٌ » أَوْ أَقْسَامِ الْكَلَامِ « إِسْمٌ ، وَفِعْلٌ ، وَحَرْفٌ » . وَمِنْ ذَلِكَ مَا أُطْلِقَ عَلَى نَحْوَةِ الْبَصْرَةِ « أَهْلَ الْمَنْطِقِ » ؛ لِأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لِلْقِيَاسِ شَأْنًا كَبِيرًا فِي الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِأُمُورِ اللُّغَةِ تَمَيِّزًا لَهُمْ مِنْ نَحْوَةِ الْكُوفَةِ الَّذِينَ تَرَخَّصُوا فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ تَشَدُّ عَنْ الْقِيَاسِ . وَقَدْ يَكُونُ مَرْدُ ذَلِكَ أَنَّ تَأْثِيرَ الْمَذَاهِبِ الْفَلْسَفِيَّةِ ظَهَرَ فِي الْبَصْرَةِ قَبْلَ غَيْرِهَا . وَمِنْ فُرُوعِ اللُّغَةِ ظَهَرَ عِلْمُ الْعُرُوضِ لِلْفَرَاهِيدِيِّ ، وَعُدَّهُ بَعْضُهُمْ عِلْمًا طَبِيعِيًّا وَمِنْ أَقْسَامِ الْفَلْسَفَةِ ؛ لِأَنَّ الْوِزْنَ الْإِيقَاعِيَّ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فُطْرِيٌّ مُشْرَكٌ بَيْنَ الْبَشَرِ ؛ فَهُوَ حَالَةٌ جَوْهَرِيَّةٌ ، وَلَيْسَ حَالَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ خَاصَّةٌ بِشَعْبٍ مُعَيَّنٍ « دِي بُور » . أَثَرَتِ التَّرْجَمَاتُ فِي حَقْلِ التَّصْنِيفِ الْعِلْمِيِّ وَبُرُوعِ رُوحِ عِلْمِيَّةٍ جَدِيدَةٍ فِي الْأَوْسَاطِ الْفِكْرِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَقَدْ أَدْخَلَتِ التَّرْجَمَاتُ الْأَرِسْطِيَّةُ مِنْهَجَ « الْمَقَالَةِ » أَوْ أُسْلُوبِهَا الَّذِي يُسَبِّحُ خَطًا مَوْضُوعِيًّا لَا يَحِيدُ عَنْهُ ، وَيَقْتَصِرُ عَلَى مَوْضُوعٍ مُعَيَّنٍ لِلْمَقَالِ ، وَالِإِحَاطَةَ بِهِ ، وَالِاسْتِرْشَادَ بِالْأَعْمَالِ السَّابِقَةِ وَتَمَحِّيصَهَا وَالتَّعْلِيقَ عَلَيْهَا . وَكَانَتْ الْحَالُ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَدُورُ عَلَيْهَا الْعُلُومُ الْجُرَيْئَةُ . وَكَانَ يُغْلَبُ عَلَيْهَا الْاسْتِطْرَادُ أَوْ الْاسْتِرْسَالُ الْأَدَبِيُّ . حَيْثُ يَنْتَقِلُ الْمُؤَلِّفُ مِنْ خَبَرٍ إِلَى آخَرَ كَمَا لَدَى الْجَاحِظِ فِي أَوْضَاحِ صُورَةٍ . وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُعْطِيَ طَابَعًا عَامًّا لِلْفَلْسَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ فَفِي الْأَعْلَابِ سَنَجِدُ أَنَّهَا تَأَثَّرَتْ كَثِيرًا بِالْأَفْلَاطُونِيَّةِ الْمُحَدَّثَةِ . الْإِحْتِكَامُ بِالشُّعُوبِ الْآخَرِيَّةِ ؛ كَالسَّرِّيَّانِ ، وَالْفَرَسِ ، وَالْيُونَانِ ، وَالْهُنُودِ ، مِنْجُ الْفِكْرِ الشَّرْقِيِّ الرَّوْحَانِيِّ « دِينِي وَصُوفِي » مَعَ الْفِكْرِ الْيُونَانِيِّ الْفَلْسَفِيِّ . وَمِنْ هُنَا نَالَتْ الْأَفْلَاطُونِيَّةُ الْمُحَدَّثَةُ الَّتِي مَرَّجَتْ بَيْنَ الرُّوحِ الشَّرْقِيَّةِ وَالرُّوحِ الْيُونَانِيَّةِ ، نَالَتْ حُظُوَّةً كَبِيرًا وَقَبُولًا وَاسِعًا لَدَى الْفَلَّاسِفَةِ الْعَرَبِ فِي فِكْرِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى ؛ إِذْ حَاوَلَ أَغْلِبُهُمُ التَّوْفِيقَ بَيْنَ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ وَالْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَوْ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

مَوْقِفُ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ

يُمْكِنُ أَنْ نُجْمَلَ مَوْقِفَ الْمُفَكِّرِينَ الْعَرَبِ مِنْ فَلَاسِفَةِ وَفُقَهَاءِ وَمُؤَرِّخِينَ وَأَدْبَاءِ تَجَاهِ الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ إِلَى ثَلَاثَةِ مَوَاقِفَ . الْأَوَّلُ مَوْقِفَ جُمْهُورِ الْفَلَاسِفَةِ الْعَرَبِ الْمُؤَيَّدِ وَالْمَرْحِبِ بِالْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ ، وَبَعْضُهُمْ يُعَدُّهَا ضَرُورَةً عَقْلَانِيَّةً لِلتَّعَامُلِ مَعَ النَّصِّ الدِّينِيِّ ، إِضَافَةً إِلَى التَّعَامُلِ مَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ . الثَّانِي قَبِيضُهُ تَمَامًا ، وَيَرَى أَنَّ لَا حَاجَةَ لِهَذِهِ الْفَلَسَفَةِ بِالْجُمْلَةِ ، بَلْ هِيَ مُفْسِدَةٌ لِلدِّينِ وَالْعَقْلِ ، وَمِنْ أَشْهُرِ الْقَائِلِينَ بِذَلِكَ إِنَّهُ تَبَيَّنَتْ وَأَبْنُ قَيْمِ الْجَوْزِيَّةِ . الْمَوْقِفُ الثَّلَاثُ ، يَرَى التَّمْيِيزَ بَيْنَ أَجْزَاءِ هَذِهِ الْفَلَسَفَةِ ؛ فَالْمَنْطِقِيَّاتِ وَالطَّبِيعِيَّاتِ « فِرْيَاءِ ، وَطَبِّ ، وَكِيمِيَاءِ ، وَزِرَاعَةٍ » نَافِعَةٌ ، بَلْ يَجِبُ تَعَلُّمُهَا عِنْدَ بَعْضِهِمْ ؛ مِثْلُ : الْغَزَالِيِّ وَابْنِ حَزْمِ الْأَنْدَلُسِيِّ ، أَوْ لَا مَنَعَ مِنْهَا مِثْلُ ابْنِ خَلْدُونَ ؛ أَمَّا الْإِلَهِيَّاتِ « الْمَاوَرَائِيَّاتِ » وَالْأَخْلَاقِيَّاتِ فَهِيَ لَا شَكَّ فِي فَسَادِهَا وَبُطْلَانِهَا وَوُجُوبِ مَنَعِهَا . وَلَعَلَّ هَذَا الْمَوْقِفَ يُمَثِّلُ أَغْلَبِيَّةَ السِّيَاقِ فِي الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ مِنْ مُفَكِّرِينَ وَفُقَهَاءِ وَأَدْبَاءِ وَغَيْرِهِمْ .

خَصَائِصُ الْفَلَسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

الْعَدِيدَ مِنَ الْخَصَائِصِ الَّتِي تُمَيِّزُهَا عَنِ الْعُلُومِ الْأُخْرَى ، وَمِنْ أْبْرَزِ هَذِهِ الْخَصَائِصِ مَا يَأْتِي : الشَّكُّ الْمُنْهَجِيُّ مِنْ أَهَمِّ خَصَائِصِ الْفَلَسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هُوَ الشَّكُّ الْمُنْهَجِيُّ الَّذِي يُعَدُّ جُزْءًا مِنْهَا مِنْ عَمَلِيَّةِ التَّفَكِيرِ ، لِأَنَّهُ مَا يَدْفَعُ الْإِنْسَانَ إِلَى الْفِيضِ بِعَمَلِيَّةِ الْبَحْثِ . النَّظَرَةُ الشُّمُولِيَّةُ تَسْمُ الْفَلَسَفَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِنَظَرَتِهَا الْكُلِّيَّةِ وَالشُّمُولِيَّةِ لِكُلِّ الظُّوَاهِرِ ، وَتَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يُبْحَثُ عَنِ أَسَاسِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا مُعْتَدَاتُهُ وَمَا يُؤْمِنُ بِهِ وَأُصُولُهَا .

التَّطَوُّرَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الفُلْسَفَةَ الإِسْلَامِيَّةَ جَاءَتْ مِنْ أُصُولٍ يُونَانِيَّةٍ ، تَطَوَّرَتْ عَلَى أَيْدِي الفُلَّاسِفَةِ المُسْلِمِينَ فِيمَا بَعْدُ ، لِذَا فَهِيَ تَطَوُّرِيَّةٌ . سُمِّيَ الهَدَفُ وَالغَايَةُ تَهْمُ الفُلْسَفَةِ الإِسْلَامِيَّةِ بِالتَّكْيِيدِ عَلَى مَبَادِي العَقِيدَةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَالبُحْثِ عَنِ أُسَاسِ فُلْسَفِيَّيْهَا ، لِذَا فَهِيَ ذَاتُ هَدَفٍ سَامِيٍّ وَلَا تَهْتَمُّ بِالأُمُورِ الجَدَلِيَّةِ المُنْهَجِ البُرْهَانِيِّ مُنْهَجِ الفُلْسَفَةِ الإِسْلَامِيَّةِ هُوَ المُنْهَجُ البُرْهَانِيُّ الَّذِي يَقُومُ عَلَى الأَدَلَةِ العَقْلِيَّةِ لَا عَلَى العَوَاطِفِ وَالجَدَلِ .

نَعُودُ لِتَابِعِ مَعَ الذِّكْرِ مُحَمَّدَ عَابِدِ الجَابِرِيِّ الَّذِي يَقُولُ : مِنْ البَدِيهِيِّ مِلْحَظَةً أَنَّ كُلَّ نِظَامٍ مُسْتَقِلٍّ بَلٍ وَمُخْتَلَفٍ عَنِ الأَخْرِ ، فَكَيْفَ إِذَا تَبَلُّرَتْ هَذِهِ القِيَمُ المَعْرِفِيَّةُ فِي عَقْلِنَا ؟ لَمْ تَتَلَاخَمْ هَذِهِ النُّظُمُ المَعْرِفِيَّةُ سِيَاسِيًّا وَإِيدِيُولُوجِيًّا لِتَكْوِينِ العَقْلِ العَرَبِيِّ ، بَلْ عَانَتْ مِنْ صِرَاعَاتٍ وَفُرُوقَاتٍ وَ - تَصَادُمٍ تُنَائِيٍّ (مُتْنِي - مُتْنِي) بَدَأَ مَعَ " البَيَانِ " وَ " البُرْهَانِ " وَبِصِيغَةٍ مُقَرَّبَةٍ " الأَصْطِلَاحِ العَرَبِيِّ " وَ " الأَصْطِلَاحِ اليُونَانِيِّ " وَاسْتَشْهَدَ بِالمُنَاطَرَةِ الشَّهِيرَةِ بَيْنَ التَّحْوِيِّ وَالعُيُوبِيِّ السِّيْرَافِيِّ ، وَالمُنْطِقِيِّ أَبِي بَشْرٍ مَتْنِي ، الَّتِي أَمْتَعْنَا بِهَا التَّوْحِيدِي فِي كِتَابِهِ الإِمْتَاعِ وَالمُؤَانَسَةِ . ثُمَّ رَصَدَ التَّضَارُبَ القَائِمَ بَيْنَ " البُرْهَانِ " وَ " العُرْفَانِ " وَالَّذِي بَدَأَ مِنْ عَصْرِ التَّدْوِينِ ، وَتَضَخَّمَ فِي القَرْنِ 4 هـ مَعَ ابْنِ سِينَا وَكُتِبَتْ الَّتِي رَدَّ فِيهَا عَلَى الفُلَّاسِفَةِ المَغْرِبِيِّينَ المُتَأَثِّرِينَ بِأَرِسْطُو اِعْتِبَارًا مِنْ أَنَّهُ مُشْرِقِيٌّ يَهْجُ العُرْفَانَ - حَاصَةً الهَرْمُسِيَّةَ - فِي فُلْسَفَتِهِ .

العقل العربي السياسي

نَتَقَلُّ هَذِهِ المَرَّةَ إِلَى كِتَابِ أُخَرَ مِنْ سِلْسِلَةِ نَقْدِ العَقْلِ العَرَبِيِّ عِنْدَ الجَابِرِيِّ وَهُوَ نَقْدُ العَقْلِ السِّيَاسِيِّ وَلِتَابِعِ وَنَقْرَأْ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الجَابِرِيُّ فِي هَذَا المَجَالِ يَقُولُ : إِنَّ الرُّسُولَ الكَرِيمَ كَانَ يُؤْمِنُ بِإِيمَانًا عَمِيقًا لَا يَتَرَعَّرُ بِأَنَّ اللهَ يُوحِي إِلَيْهِ ، وَمُكَلِّفٌ بِبَلِيغِ رِسَالَةٍ ، كَمَا أَنَّ الجَمَاعَةَ الإِسْلَامِيَّةَ الأُولَى كَانَتْ تُصَدِّقُهُ

وَتُؤْمِنُ بِهِ بِوُضُوحِهِ كَذَلِكَ . ثُمَّ إِنَّ الْإِسْلَامَ ، وَأَعْنِي الْأَسْتِجَابَةَ لِلدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، كَانَ شَرْطُهُ الضَّرُورِيُّ
وَالْكَافِي وَلَا يَزَالُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرَةِ . وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ ، وَهُوَ الْمَرْجِعُ
الْمُعْتَمَدُ أَوْلًا وَأَخِيرًا ، مَا يُفِيدُ أَنَّ الدَّعْوَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ دَعْوَةٌ تَحْمِلُ مَشْرُوعًا سِيَاسِيًّا مُعِينًا . نَعَمْ هُنَاكَ آيَةٌ
الْإِذْنُ بِالْقِتَالِ ، وَقَدْ نَزَلَتْ عِنْدَمَا كَانَ النَّبِيُّ يَسْتَعِدُّ لِلْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَهْلِهَا عَلَى أَنْ يُنْصَرُوهُ
وَيُحَارِبُوا مَعَهُ أَذْنُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرَةِ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقِّ الْإِلَّا
أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا نَفْعُ اللَّهِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ صَوَامِعَ وَبَيْعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
كَثِيرًا ، وَيُنْصَرْنَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ
وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِيَهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (الْحَجَّحْ 22 / 39 - 41) . وَلَكِنَّ التَّمَكِينَ وَالنَّصْرَ
هُنَا هَمَّا لِلدِّينِ وَلَيْسَ لِمَشْرُوعٍ سِيَاسِيٍّ يُمَكِّنُ الْحَدِيثَ عَنْهُ بِمَعْرِزٍ عَنِ الدِّينِ قُرَيْشٍ قَدْ قَرَعُوهَا مُنْذُ
الْبِدَايَةِ قِرَاءَةً سِيَاسِيَّةً مُنْذُ بَدَايَةِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَهُمْ مَارَسُوا السِّيَاسَةَ ضِدَّهَا . أَنَّهُمْ رَأَوْا فِيهَا دَعْوَةً
تَسْتَهْدِفُ الْأِطَاحَةَ بِمَا كَانَ يُشَكِّلُ أَسَاسَ كِيَانِهِمُ الْاِقْتِصَادِيَّ ، وَبِالتَّالِي سُلْطَتَهُمُ السِّيَاحِيَّةَ بَلْ وَجُودَهُمْ
ذَاتِهِ إِنَّ الْهُجُومَ عَلَى الْأَصْنَامِ وَالدَّعْوَةَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَاحِدٍ ، حَتَّى وَلَوْ كَانَا صَادِرَيْنِ مِنْ مَوْقِعِ الْعَقِيدَةِ
فَقَطَّ كَمَا فَعَلَتْ الدَّعْوَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ ، مَعْنَاهُمَا الدَّعْوَةُ لِلْاِطَاحَةِ بِمَا كَانَ يُشَدُّ الْقَبَائِلَ الْعَرَبِيَّةَ إِلَى مَكَّةَ لِلْحَجِّ
وَمَا يَرْتَبِطُ بِهِ مِنْ تِجَارَةٍ ، وَبِالتَّالِي الْقَضَاءِ عَلَى مَصْدَرِ سُلْطَةِ قُرَيْشٍ ، سُلْطَتِهَا الْاِقْتِصَادِيَّةَ وَالسِّيَاسِيَّةَ .
هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَبْقَى الدَّعْوَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ سَلْبِيَّةً « أَمَامَ مُمَارَسَةِ
قُرَيْشِ السِّيَاسَةِ ضِدَّهَا ، بَلْ لَقَدْ كَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ ، وَهَذِهِ هِيَ سُنَّةُ الْحَيَاةِ ، أَنْ تُحَارِبَهَا بِنَفْسِ
سِلَاحِهَا ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَ كَانَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَنْ تَجْعَلَ السِّلَاحَ السِّيَاسِيَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْلِحَتِهَا . وَذَلِكَ مَا
حَصَلَ فِعْلًا . مَرَّتِ الدَّعْوَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ بِمَرَحَلَتَيْنِ رَيْسِيَّتَيْنِ فِي مَسَارِ تَطَوُّرِهَا مِنْ

مُجَرِّدِ الدَّعْوَةِ إِلَى تَأْسِيسِ دَوْلَةٍ : مَرَحَلَةُ مَكَّةَ وَمَرَحَلَةُ الْمَدِينَةِ . وَبِمَا أَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَزَلَ مُجَمَّعًا ، أُنِيَ مُتَقَسِّمًا إِلَى أَجْزَاءِ آيَاتٍ وَسُورٍ (نَزَلَتْ فِي مُعْظَمِهَا بِمُنَاسَبَةِ حَوَادِثٍ وَوَقَائِعٍ ، فَقَدْ انْتَقَسَمَ الْقُرْآنُ أَيْضًا إِلَى قِسْمَيْنِ قِسْمِ نَزْلِ بِمَكَّةَ وَقِسْمِ نَزْلِ بِالْمَدِينَةِ . كَانَتْ مَرَحَلَةُ الْمَدِينَةِ كَمَا سَتَرَى هِيَ مَرَحَلَةُ تَأْسِيسِ دَوْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ الْخِطَابُ فِيهَا إِلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِهَا خَاصَّةً ، أُنِيَ إِلَى الْجَمَاعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَشَكَّلَتْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مُكَوَّنَةً نَوَاةً « الْأُمَّةِ الَّتِي قَامَتْ فِيهَا وَعَلَيْهَا » الدَّوْلَةُ » . أَمَّا فِي مَكَّةَ فَقَدْ كَانَ الْخِطَابُ فِيهَا بِصِيغَةٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ " خَاصَّةً ، وَالْمَقْصُودُ عَمَلِيًّا سُكَّانَ مَكَّةَ لَا بِوَصْفِهِمْ قَبَائِلَ بَلْ بِوَصْفِهِمْ أَفْرَادًا يُطَلَبُ مِنْهُمْ الْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ (ص) وَبِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَالْإِنْصِمَامَ إِلَى مَنْ سَبَقَهُمْ فِي الْإِيمَانِ ، إِلَى أَصْحَابِهِ أَوْ صَحَابَتِهِ ، الَّذِينَ كَانُوا قَدْ أَخَذُوا يُشْكُونَ الْجَمَاعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْأُولَى .

دَوْرُ الْعَقِيدَةِ فِي تَكْوِينِ الْعَقْلِ السِّيَاسِيِّ الْعَرَبِيِّ

فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ يَجِبُ أَنْ يُلْتَمَسَ أَسَاسًا عِنْدَ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ جَمَاعَةً رُوحِيَّةً ، بِمَعْنَى أَنَّ الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الَّذِي كَانَ يَرْبُطُ أَفْرَادَهَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ أَنَّ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الْعَقِيدَةَ ، لَمْ يَعْذُ لَهَا دَوْرٌ فِي مَرَحَلَةِ الْأُمَّةِ الدَّوْلَةِ فِي الْمَدِينَةِ . كَلَّا . كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ هُوَ أَنَّهُ فِي الْمَرَحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَا يَجْمَعُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْجَمَاعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ آخِذَةً فِي التَّكْوِينِ غَيْرِ (الْعَقِيدَةُ » . أَمَّا وَالْقَبِيلَةَ وَالْغَنِيمَةَ ، خِلَالَ هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ - الْمَكِّيَّةِ - فَإِنَّ دَوْرَهُمَا كَانَ أَكْثَرَ تَأْثِيرًا وَيُزَوِّجًا فِي صُفُوفٍ وَالْآخَرَ الْخُضْمَ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ . وَإِذَنْ « فَالْعَقْلُ السِّيَاسِيُّ الْعَرَبِيُّ كَانَ يَتَحَدَّدُ فِي الْمَرَحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ مِنَ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ كَمَا يَلِي : الْعَقِيدَةُ فِي طَرَفٍ ، وَ « الْقَبِيلَةُ وَالْغَنِيمَةُ فِي طَرَفٍ آخَرَ . وَالصَّرَاعُ السِّيَاسِيُّ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ كَانَ فِي جُمْلَتِهِ ذَلِكَ غِيَابًا مُطْلَقًا عِبَارَةً عَنْ صِرَاعِ « الْقَبِيلَةِ » وَ

« الغنيمية ، ولكن دون أن العقيدة مع لها تين في صف العقيدة) . لقد كان لهما شكل من الحضور
 إيجابى بالنسبة ل « العقيدة إلى جانب دورهما الأساسى المضاد كما سستين ذلك في حينه . أما الآن
 فهما في هذه المفرة أن تعرف على الكيفية التي مارست بها « العقيدة » دورها في تكوين الجماعة
 الإسلامية الأولى وعقلها السياسى . ولتناول التجربة العربية الإسلامية "تناولا علميا يرتقي في عمقه
 وشموله إلى المستوى الذي يجعله يعبر فعلا عن خصوصية هذه التجربة " وقراءة تاريخها السياسى قراءة
 هادية وموضوعية يترج الجابري لهذه القراءة ثلاثة مفاتيح أساسية هي : - القبيلة : بكل ما تعنيه من
 قرابات " ذات الشحنة العصبية مثل الانتماء إلى مدينة أو جهة أو طائفة أو حزب ، حين يكون هذا
 الانتماء هو وحده الذي يعين به "الأنا" و "الأخر" في ميدان الحكم والسياسة "شعاره" أنا وأخي على
 ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب " .

الغنيمية : بكل ما تعنيه من أدوار يقوم بها "العامل الاقتصادى في المجتمعات التي يكون فيها الاقتصاد
 قائما أساسا - وليس بصورة مطلقة - على الخراج والرعي" ويتلخص في معنى "الملك بالجند والجند
 بالمال" I . - العقيدة : جملة الرموز المخيالية التي تؤسس الاعتقاد والإيمان وتكون قادرة على تأطير
 وتحريك الأفراد والجماعات سواء كانت "على شكل دين موحى به أو على صورة أيديولوجيا يشيد
 العقل صرحها " من الوثنية إلى التوحيد ، من التنزيل إلى التأويل " .

شرح الجابري في القسم الأول من الكتاب الكيفية التي حضرت فيها القبيلة والغنيمية والعقيدة
 كمحددات أساسية للعقل السياسى العربى ابتداء من مرحلة الدعوة المحمدية في مكة ونشأة الدولة
 في المدينة مروراً بمرحلة الردة وصولاً إلى الفتنة الكبرى منبها إلى ما شاع بعدها من وضع للأحاديث

النَّبِيَّةِ الَّتِي تَحَدَّثُ عَنْ هَذِهِ الْمَحَدَّدَاتِ الثَّلَاثِ وَتَعْرُضُ لِفَضَائِلِ السِّيَاسَةِ يَرْوِيهَا الْأُمَوِيُّونَ وَخُصُومُهُمْ وَهِيَ
"أَحَادِيثُ سِيَاسِيَّةٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ صَحِيحَةً لِتَنَاقُضِهَا بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ مِنْ جِهَةٍ وَلِعَارِضِهَا مَعَ الْحَقْلِيَّةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى " .

فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ الْكِتَابِ بَيْنَ الْجَابِرِيِّ كَيْفَ أَنَّ الْعَقْلَ السِّيَاسِيَّ الْعَرَبِيَّ بَعْدَ الْفِتْنَةِ الْكُبْرَى قَدْ تَجَلَّى
فِي دَوْلَةِ "الْمَلِكِ" الَّتِي أَسَّسَهَا مُعَاوِيَةُ بِاعْتِبَارِهَا حَالَةَ انْتِقَالٍ مِنْ دَوْلَةِ الشُّورَى الَّتِي هِيَ دَوْلَةٌ يُؤَسَّسُ فِيهَا
الَّذِينَ السِّيَاسَةَ وَيَحْكُمُهَا ، تَكُونُ فِيهَا هَذِهِ الْأَخِيرَةَ (السِّيَاسَةُ) تَطْبِيقًا لِلذِّينِ وَخَادِمِهِ لَهُ ، إِلَى دَوْلَةِ
الْمَلِكِ الْقَائِمَةِ عَلَى مَنَطِقِ الْقُوَّةِ وَالْغَلْبَةِ "دَوْلَةٌ جَدِيدَةٌ فِي الْإِسْلَامِ تَقُومُ عَلَى مَنَطِقِ "الْقَبِيلَةِ" الْخِلَافَةِ فِيهَا
"لَيْسَتْ لِلْعَرَبِ كُلِّهِمْ بَلْ لِقُرَيْشٍ فَقَطْ ، وَلَيْسَتْ لِقُرَيْشٍ كُلِّهِمْ بَلْ لِبَنِي عَبْدِ مَنَاةٍ وَحَدَثُهُمْ ، وَلَيْسَتْ لِبَنِي
عَبْدِ مَنَاةٍ كُلِّهِمْ بَلْ لِبَنِي أُمَيَّةٍ خَاصَّةً وَلِتَشْبِيهِتِ مَنَطِقِ الْقَبِيلَةِ اتَّخَذَ بَنُو أُمَيَّةٍ "الْغَنِيمَةَ" كَعُنْصُرٍ تَخْفِيزٍ
لِلْمَوَالِينِ وَأَدَاهُ إِعْرَافًا لِلْمُعَارِضِينَ وَالنَّائِرِينَ وَكُلَّ ذَلِكَ مَسْنُودٌ بـ "عَقِيدَةُ" جَبْرِيَّةٌ لَا تَرَحُّمَ ، مُفَادَهَا مَا قَالَهُ
مُعَاوِيَةُ وَهُوَ بِصَدَدِ أَخْذِ الْبَيْعَةِ لِأَنَّهُ يَزِيدُ كَوَلِيِّ عَهْدِهِ بَعْدَهُ "أَنَّ أَمْرَ يَزِيدٍ قَضَاءٌ وَقَدْرٌ وَلَيْسَ لِلْعِبَادِ الْخَيْرَةَ
مِنْ أَمْرِهِمْ " . وَلَمَزِيدٍ تَشْبِيهِتِ أَرْكَانِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْمُتَغَلَّبَةِ قَالَ الْمُتَكَلِّمُونَ وَالْفُقَهَاءُ أَنَّ الْعَمَلَ لَيْسَ شَرْطًا
ضَرُورِيًّا فِي الْإِيمَانِ ، وَهُوَ قَوْلُ يَتِيمِي "الْحُلَفَاءُ الْأُمَوِيُّونَ الْمُتَهَمِينَ بِالظُّلْمِ وَالْفُسْقِ فِي دَائِرَةِ الْإِيمَانِ ، وَبِالنَّالِيِّ
عَدَمِ جَوَازِ الثَّوْرَةِ ضَدَّهُمْ " أَنَّهُ تَأْسِيسُ جَدِيدٍ لِدَوْلَةِ اسْتِبْدَادِيَّةٍ تَرْتَدِي جُبَّةً وَضَعَّ حَدَّ لِفِتْنَةٍ مِنْ أَجْلِ
الْحِفَاطِ عَلَى وُجُودِ الْأُمَّةِ كَكَيَانٍ وَعَلَى الْإِسْلَامِ كَدِينٍ . وَهُوَ مِنْ مَنَظُورِ الْجَابِرِيِّ تَمُودِجٍ لِلدَّوْلَةِ بَقِي
سَائِدًا مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ إِلَى الْيَوْمِ ، الْقَبِيلَةُ إِطَارُهُ ، وَالْغَنِيمَةُ مُحَرِّكُهُ ، وَالْعَقِيدَةُ غِطَاؤُهُ الْإِيدِيُولُوجِي .

كما اعتبر الجابري أن ظهور نظرية الإمامة في الفكر الشيعي بعد حسم الصراع بين علي ومعاوية لصالح هذا الأخير كانت له دوافع سياسية واضحة بدأت تتشكل ملامحها مع المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي حاول إنشاء قوة عسكرية من عامة الناس والأعاجم من أجل الثأر لأهل بيت النبي (ص) من بني أمية وتحقيق طموحاته السياسية، فأطلق على محمد بن علي بن أبي طالب (محمد بن الحنفية) القاباً كثيرة مثل "المهدي" و"وارث علوم السر من أبيه" و"الوصي" مما فتح باباً واسعاً لانتقال الوصية عبر أشخاص لا تربطهم علاقة النسب الطبيعي، فادعى كل من خدام إماماً من الأئمة أنه أوصى إليه وأورثه "العلم السري" الأمر الذي فتح باباً واسعاً أمام الميثولوجيا لكي تعيش وتزدهر في أوساط الشيعة.

حافظت المعارضة الشيعية حسب الجابري على أهم العناصر والمفاهيم المكونة لميثولوجيا الإمامة مثل الوصية، العلم السري، البداء، الغيبة، الرجعة، المهديّة، التقيّة، العصمة، وهي مفاهيم تؤسس لمعارضة سياسية تحرك مخيال الجماهير وتعبئه، مقصدها رفض "الهزيمة والانحياز" والتمسك بالأمل.

في أواخر العهد الأموي ومن داخل رحم الفكر الشيعي أصبح العباسيون في حاجة إلى نظرية جديدة تؤسس شرعية حكمهم، حكمهم هم وحدهم فقالوا إن الإمامة بعد رسول الله (ص) كانت للعباس بن عبد المطلب فهو عمه ووارثه وأولى الناس به، لأن العم أحق بالوراثة من ابن العم ومن أبناء البنات (أبناء فاطمة) حافظ العباسيون إذن على صورة الإمام كما رسمتها ميثولوجيا الإمامة ولكنهم نزعوا عنها الطابع الشيعي وأحلوا محله الطابع السني "لتصبح منزلة الخليفة منزلة تقع خارج منزله الخاصة وتعلو

عَلَيْهَا " . فَهِيَ بِذَلِكَ امْتِدَادٌ لثِقَافَةِ الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ وَالْوَسْطَى حَيْثُ كَانَتْ مَسْأَلَةُ إِنْزَالِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ
هِيَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْعَدْلِ ، فَأَصْبَحَ الْمَجْتَمَعُ الْعَبَّاسِيُّ مُجْتَمَعًا هَرَمِي الشَّكْلِ يَتَأَلَّفُ مِنْ مَنَازِلٍ ثَلَاثٍ :
الْخَلِيفَةُ فِي الْقِمَّةِ ، وَهِيَ مَكَانَةٌ حَدَدَهَا أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ لِنَفْسِهِ فِي خُطْبَةٍ لَهُ يَوْمَ عَرَافَاتٍ قَالَ فِيهَا :
"أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا سُلْطَانُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، أَسُوسِكُمْ بِتَوْفِيقِهِ وَتَسْديدِهِ ، وَأَنَا خَازِنُهُ عَلَى فَيْئِهِ اعْمَلْ .
بِمَشِيئَتِهِ وَأَقْسَمُهُ بِإِرَادَتِهِ وَأُعْطِيهِ بِإِذْنِهِ . قَدْ جَعَلَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ قَوْلًا إِذَا شَاءَ أَنْ يَفْتَحَنِي لِأُعْطِيَاكُمْ
وَقَسَمَ فَيْئَكُمْ وَأَرْزَاقَكُمْ فَتَحْنِي ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يَقْلَبَنِي أَقْلَبْنِي " .

فِي هَذَا التَّقْسِيمِ الْهَرَمِيِّ لِلْمَجْتَمَعِ الْعَبَّاسِيِّ أَصْبَحَ الْخَلِيفَةُ فِي مَنْزِلِهِ عَلِيًّا لَا تُضَاهِيهَا مَنْزِلَةٌ ، فَهُوَ شَخْصٌ
اخْتَارَهُ اللَّهُ لِيَتَصَرَّفَ بِإِرَادَةِ حُرَّةٍ هِيَ إِرَادَتُهُ وَهُوَ فِي مَنْزِلِهِ تَعَلُّو عَلَى التَّشْبِيهِ وَالْمَحَاسَبَةِ فِي إِطَارِ
أَيْدِيُولُوجِيَا سُلْطَانِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ "تَضَعُ الْخَلِيفَةُ فِي مَنْزِلِهِ الشَّخْصَ الْمَثَالَةَ . - الْخَاصَّةُ : وَهُمْ جُمْلَةُ الْوُزَرَاءِ
وَالْوَلَاةِ وَقَادَةِ الْجُنْدِ وَالْكَتَّابِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفُقَهَاءِ الَّذِينَ يَخْدُمُونَ الْخَلِيفَةَ وَيُؤَسِّسُونَ لِمَنْطِقِ الدَّوْلَةِ
وَالْإِبْقَاءِ عَلَى الْأَمْرِ الْوَاقِعِ كَبَدِيلٍ عَنِ مَنْطِقِ الثَّوْرَةِ . لَخَّصَ إِنَّ الْمَقْصَدَ مِنْ هَذِهِ التَّخْبَةِ فِي عِلَاقَتِهَا
بِالْخُلَفَاءِ قَائِلًا "طَاعَتُهُمْ فِي الْمَكْرُوهِ عِنْدَكَ ، وَمُؤَافَقَتُهُمْ فِيمَا خَالَفَكَ ، وَتَقْدِيرُ الْأُمُورِ عَلَى أَهْوَائِهِمْ دُونَ
هَوَاكَ ، . . وَالتَّزْيِينُ لِرَأْيِهِمْ وَعَلَى قَلَّةِ الْاسْتِقْبَاحِ لِمَا فَعَلُوا إِذَا أَسَؤُوا ، . . وَحُسْنُ السَّرِّ لِمَسَاوِيهِمْ
"تَشْكُرُهُمْ وَلَا تَكْلِفُهُمْ الشُّكْرَ ، بِصِيرًا بِأَهْوَائِهِمْ ، مُؤَثِّرًا لِمَنَافِعِهِمْ ، ذَلِيلًا أَنْ ظَلَمُوكَ ، رَاضِيًا أَنْ أَسْخَطُوكَ
نُطِيعُ الْأُمَّةَ فِي كُلِّ أُمُورِنَا وَلَا نَقْتَسِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَلَا مَعْصِيَتِهِ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنَّا عَلَيْهِمْ حَسِيْبًا ، هُمْ
وَلَاةُ الْأَمْرِ وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَنَحْنُ الْإِتْبَاعُ وَعَلَيْنَا الطَّاعَةُ وَالتَّسْلِيمُ فَالْمَهْمَةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِهَذِهِ الشَّرِيحَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ
الْوَسْطَى (الْخَاصَّةُ) هِيَ "حَمْلُ الْعَامَّةِ عَلَى طَاعَةِ الْأَمِيرِ . - الْعَامَّةُ : وَهُمْ الْجُنْدُ وَبَقِيَّةُ النَّاسِ .

يرى الجابري أن الأدبيات السلطانية التي سادت في العصر العباسي هي أدبيات وقع ثقلها عن
"الأدبيات السلطانية الفارسية ساد في إطارها" اتجاه الممثلة بين الله والخليفة هذه الممثلة التي
تحوّل في الخطاب الأدبي إلى مطابقتة تخلع فيها على الأمير صفات الألوهية مباشرة فالعقل السياسي
العربي انطلاقاً من الدولة الأموية مروراً بالعصر العباسي وصولاً إلى واقعنا السياسي الزاهن هو عقل
بقي حسب الجابري حقل التفكير فيه محاصراً بأيدولوجيات لا عقلية هي: أيدولوجيا الجبر الأموي،
وأيدولوجيا التكفير الخارجي، وميثولوجيا الإمامة الشيعية". كما بقيت الممارسة السياسية التي
عرفتها الحضارة العربية الإسلامية تكرر نفسها في إطار محدّدات أساسية "هي: القبيلة، الغنيمّة،
العقيدة" مع اختلافات بسيطة بقيت كالتّهرات القليلة في حقول الشوك الشاسعة، لم تُغيّر من طبيعة
المسار العام لهذه الممارسة شيئاً، حيث بقي الصدام العنيف والاقْتتال هو الحلّ الغالب بين الفرقاء
السياسيين سببه عدم إقرار طريقة واحدة مُتّقة لتعيين الخليفة وعدم تحديد مدة ولايته وعدم تحديد
اختصاصاته. ويُضيف: فالعقل السياسي العربي لا يتحكّم فيه شكل نظام الحكم وبنوده الدستورية
فقط، بل هو محكوم أساساً بمحدّدات اجتماعية واقتصادية وثقافية، وبالإنسبة للعقل السياسي العربي
فإنّ تجديد محدّداته الثلاثة (القبيلة، والغنيمّة، والعقيدة) شرط ضروريّ للارتفاع إلى المستوى الذي
يستجيب لمطلّبات النهضة والتّقدم في العصر الحاضر.

أنّ تجديد المحدّدات يراها الجابري بتحقيق النفي التاريخي لها وذلك بإحلال البدائل التاريخية
المعاصرة، مؤكداً على أهمية المزاوجة بين نقد الماضي ونقد الحاضر بما يحمله من بقايا الماضي،
وهذه هي الخطوة الضرورية الأولى من كل مشروع مستقبلي، هكذا يقول الجابري. ويعود ليؤكد أنّ

الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ عِنْدَنَا لَا يَنْفَصِلَانِ ، لِذَلِكَ وَجِبَ أَنْ يَتَّجِهَ التَّقْدِيرُ إِلَيْهِمَا مَعًا ، فَالْقَبِيلَةُ وَالْغَنِيمَةُ
وَالْعَقِيدَةُ الَّتِي حَكَمَتْ هَذَا الْعَقْلَ فِي الْمَاضِي ، مَا زَالَتْ تَحْكُمُهُ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ . فَالطُّمُوحُ
الْتَهْضُوبِيُّ كَانَ يَهْدِفُ إِلَى تَجَاوُزِ تِلْكَ الْمَحَدَّدَاتِ الْمُورُوثَةِ ، وَإِقْرَارِ مُحَدَّدَاتِ حَدِيثِهِ عَصْرِيَّةً ، إِلَّا أَنَّ
الْمُجْتَمَعَ الْعَرَبِيَّ لَمْ يَمَكِّنْ مِنْ تَحْقِيقِ عَمَلِيَّةِ التَّجَاوُزِ هَذِهِ ، لِأَسْبَابٍ وَعَوَامِلٍ كَثِيرَةٍ مِنْهَا الْأَسْتِعْمَارُ ،
وَكَذَلِكَ لِانْحِرَاطِهِ فِي الْحَدَاثَةِ مِنْ فَوْقِ . وَالتَّيَجُّهُ ، وَكَمَا يَرَى الْجَابِرِيُّ ، مَا تَعَرَّضْنَا لَهُ مِنْ انْكِسَارَاتٍ
وَإِخْبَاطَاتٍ فَتَحَتْ الْبَابَ عَلَى مِضْرَاعَيْهِ لِعُودِهِ الْمُتَوَارِي الْمَكْبُوتِ ، أَيْ ظَهَرَتْ الْمَحَدَّدَاتُ الثَّلَاثَةُ
الْمُورُوثَةُ ، فَعَادَتْ الْقَبِيلِيَّةُ وَالطَّائِفِيَّةُ وَالتَّطْرُفُ الدِّينِيُّ وَالْعَقَائِدِيُّ ، لِيَسْوَدُوا السَّاحَةَ الْعَرَبِيَّةَ بِصُورَةٍ لَمْ
يَتَوَقَّعَهَا أَحَدٌ .

عُودٌ عَلَى بَدءِ

أَوَّلًا : لَقَدْ اسْتَدْعَى الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ فِي أَوَّلِ فُرْصَةٍ لَهُ حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ هَذَا الْحُكْمَ الَّذِي يُقُومُ بِالْأَسَاسِ
عَلَى الْعَصَبِيَّةِ الْقَبِيلِيَّةِ وَهَذِهِ الْفُرْصَةُ كَانَتْ يَوْمَ وَفَاةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِوَفَاتِهِ انْتَهَتْ سُلْطَتُهُ
الرُّوحِيَّةُ وَالزَّمَنِيَّةُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بَرَزَ دَوْرُ الْعَشِيرَةِ مُجَدَّدًا وَبِشْكَالٍ وَاصِحٍ عَلَى حِسَابِ الْعَقِيدَةِ فَوَسَّطَ
الْجِدَالَ وَالتَّفَاقُشَ الَّذِي حَدَثَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ لِاخْتِيَارِ الْخَلِيفَةِ وَضَعَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ عَلَى طَاوِلَةِ
الْمُفَاوَضَاتِ آنَذَاكَ سَلَّمَ لِأَوْلِيَائِهِ لِاخْتِيَارِ هَذَا الْخَلْفِ أَوْ الْخَلِيفَةِ فَمِنْ جَانِبِ الْأَنْصَارِ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ
الْأَحْقِيَّةُ فِي هَذَا الْأَمْرِ بِاعْتِبَارِهِمْ حَامِلِي شَرَفِ بِنَاءِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي قَامَتْ فِي مَدِينَتِهِمْ وَهُمْ الَّذِينَ
أَرْزَوْا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ وَأَيَّدُوهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَعْبَارَاتِ الَّتِي تُرْجِحُ كَهْفَةَ الْمَبْدَأِ وَالْعَقِيدَةَ وَنُصْرَتَهَا بَيْنَمَا
كَانَ لِلطَّرْفِ الْأَخْرَجِيِّ رَأْيًا آخَرَ حِينَ أَكَّدَ الْمُهَاجِرِينَ حَقَّهُمْ فِي الْخِلَافَةِ وَتَحْدِيدًا لِقُرَيْشٍ فَهَمَّ أَهْلُهُ وَصَحْبُهُ

وَبَنِي قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ وَمَنْ دَاخَلَ هَذَا الصَّفَّ كَانَ عَلِيٌّ بِنُ أَبِي طَالِبٍ طَرَفًا ثَالِثًا مُسْتَقْلًا يُتَضَرَّ أَنْ يَحْطَى
بِهَذَا الْمَنْصِبِ بِاجْتِمَاعِ الْآخِرِينَ عَلَى أَسَاسِ أَنَّهُ الطَّرْفُ الْأَحَقُّ بِسَبَبِ وَحْدَةِ الدَّمِ وَالْمَصَاهِرَةِ الَّتِي تَرْبُطُهُ
بِالرُّسُولِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَحَرِّ قُرَيْشٍ .

فِي النَّهْيَةِ اتَّصَرَّتِ الْعَشِيرَةُ وَحَلَّ الْأَمْرُ مُوقَّتًا فَالْصَّرَاحُ عَلَى الْخِلَافَةِ لَمْ يَنْتَهِي لِكُنْهَ بَقِي خَفِيًّا وَدَمَوِيًّا
تَسَبَّبَ فِي مَقْتَلِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ الْأَوَّلِ قَتْلَ غَيْلَةَ وَالثَّانِي
اغْتَالَهُ الْعَشِيرَةُ وَالرَّابِعُ قَتْلَ بَعْدِ مَعَارِكِ عِدَّةٍ مَعَ أَبْنَاءِ الْعُمُومَةِ وَاتَّصَرَّتِ الْعَشِيرَةُ اتِّصَارًا سَاحِقًا عَلَى يَدِ
الْأُمُومِيِّينَ الَّذِينَ خَلَعُوا أَسْسُ النِّظَامِ الرَّاشِدِيِّ مِنْ أَسَاسِهِ وَحَوَّلُوهُ إِلَى نِظَامِ مَلِكِيٍّ وَرِاثِيٍّ .

ثَانِيًا : اسْتَطَاعَ الْعَقْلُ الدِّينِيُّ الْعَرَبِيُّ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ تَسْخِيرَ الْعَقِيدَةِ لِلدَّفَاعِ عَنِ الْمَلِكِ وَظَهَرَ مِنْ يَوْمِهَا مَا
يَعْرِفُ بِفِقْهِ السُّلْطَانِ وَهَدَفِهِ إِعْطَاءَ الشَّرْعِيَّةِ لِلْحَاكِمِ بِالْإِسْتِنَادِ إِلَى جُمْلَةٍ مِنَ الْفَتَاوَى الَّتِي اسْتَنْدَتْ
بِاطِلًا إِلَى النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ مِمَّا كَانَ حَافِزًا وَدَافِعًا لِصِنَاعَةِ الْأَحَادِيثِ الْمُخْتَلَقَةِ الْمُؤَيَّدَةِ
لِهَذَا الطَّرْفِ أَوْ ذَاكَ وَالتِّي سَمَاهَا الْجَابِرِيُّ (الْأَحَادِيثُ السِّيَاسِيَّةُ) وَالتِّي صِيغَتْ بِعِنَايَةٍ وَأَحْكَامٍ وَبِذَلِكَ
ظَهَرَ مَا يَعْرِفُ بِالْحَدِيثِ الضَّعِيفِ وَالْمَرْدُودِ وَالْإِسْرَائِيلِيَّاتِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ .

سَنَعْرِفُ عَلَى بَعْضِ هَذِهِ الْفَتَاوَى وَالْأَحْكَامِ الَّتِي صِيغَتْ لِمَسْأَلَةِ الْخِلَافَةِ وَالْحُكْمِ :

I (التَّعْرِيفُ بِالْخِلَافَةِ الْخِلَافَةِ ، وَالْإِمَامَةُ الْعُظْمَى ، وَإِمَارَةُ الْمُؤْمِنِينَ ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ مَعْنَاهَا وَاحِدٌ ، وَهُوَ
رِئَاسَةُ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْجَامِعَةِ لِمَصَالِحِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا . قَالَ الْعَلَمَاءُ الْأَصُولِيُّ الْمُحَقِّقُ السَّعْدُ
الْتَقَزَانِيُّ فِي مَنْ مَقَاصِدِ الطَّالِبِينَ ، فِي عِلْمِ أُصُولِ عَقَائِدِ الدِّينِ : « الْفَضْلُ الرَّابِعُ أَيُّ مِنْ الْعَقَائِدِ
السَّمْعِيَّةِ فِي الْإِمَامَةِ ، وَهِيَ رِئَاسَةُ عَامَّةٍ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا خِلَافَةً عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَهَذَا تَعْرِيفٌ يَنَاقِضُ حَقِيقَةَ مِهْمَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ كَوْنِهِ نَبِيًّا يَحْمِلُ رِسَالَةَ سَمَاوِيَّةٍ
وَلَيْسَ حَاكِمًا وَجَبَ أَنْ يَخْلُفَهُ أَحَدًا فِي حُكْمِهِ لَكِنَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ بِحُكْمِ الْوَاقِعِ كَانَ وَلِيَّ أَمْرِهِمْ
وَقَائِدِهِمْ وَلَا يَسْتَوْجِبُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَلِيفَةٌ بَلْ كَانَ عَلَيْهِمْ اخْتِيَارُ وَلِيٍّ أَمْرٍ يُسَيِّسُ دَوْلَتَهُمْ لِذَلِكَ سَمَّى
نَفْسُهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَالَ الْعَلَمَاءُ الْفَقِيهُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَأُورِدِيُّ فِي كِتَابِهِ
الْأَحْكَامَ السُّلْطَانِيَّةَ : الْإِمَامَةُ مَوْضُوعَةٌ لِخِلَافَةِ النَّبُوَّةِ فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا . وَكَلَامٌ سَائِرُ
عُلَمَاءِ الْعَقَائِدِ وَالْفُقَهَاءِ مِنْ جَمِيعِ مَذَاهِبِ أَهْلِ السُّنَّةِ لَا يَخْرُجُ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى ، إِلَّا أَنَّ الْإِمَامَ الرَّازِي زَادَ
قَيْدًا فِي التَّعْرِيفِ ، فَقَالَ : هِيَ رِئَاسَةٌ عَامَّةٌ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا لِشَخْصٍ وَاحِدٍ مِنْ الْأَشْخَاصِ ، وَلَا أَذْرِي
هُنَا كَيْفَ سَيَكُونُ الْخَلِيفَةُ رِئِيسًا عَامًّا لِلدِّينِ وَنَحْنُ هُنَا أَمَامَ دَوْلَةٍ اتَّخَذَتْ مِنَ الْقُرْآنِ دُسْتُورًا وَمَرْجِعًا لَهَا
وَتَضَمَّنَ كُلَّ الشَّرِيعَةِ وَالتَّشْرِيعَاتِ الْخَاصَّةِ بِالنَّاسِ أَيْ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ فَهَلْ يَقُودُ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ وَالدِّينَ أَمْ
يَسْتَهْرُ عَلَى تَنْفِيدِ أَحْكَامِهِمْ .

(2) حُكْمُ الْإِمَامَةِ أَوْ نُسْبِ الْخَلِيفَةِ أَجْمَعَ سَلَفُ الْأُمَّةِ ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ ، وَجُمْهُورُ الطَّوَائِفِ الْأُخْرَى عَلَى
أَنْ نُصَّبَ الْإِمَامَ أَيْ تَوَلَّيْتَهُ عَلَى الْأُمَّةِ وَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ شَرْعًا لَا عَقْلًا فَقَطْ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ
وَاسْتَدَلُّوا بِأَمْرِ لَخْصَهَا السَّعْدُ فِي مَنْ الْمَقَاصِدِ بِقَوْلِهِ : لَنَا وَجُوهٌ ؛ (الْأَوَّلُ) الْإِجْمَاعُ ، وَبَيَّنَ فِي الشَّرْحِ
أَنَّ الْمُرَادَ إِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ ؛ قَالَ : وَهُوَ الْعُمْدَةُ ، حَتَّى قَدَّمُوهُ عَلَى دَفْنِ النَّبِيِّ ؟ . (الثَّانِي) أَنَّهُ لَا يَتِمُّ
إِلَّا بِهِ مَا وَجَبَ مِنْ إِقَامَةِ الْحُدُودِ وَسَدِّ الثُّغُورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِحِفْظِ النَّظَامِ . (الثَّلَاثُ) أَنْ فِيهِ
جَلْبُ مَنَافِعٍ وَدَفْعُ مَضَارٍّ لَا تُحْصَى ، وَذَلِكَ وَاجِبٌ إِجْمَاعًا . (الرَّابِعُ) وَجُوبُ طَاعَتِهِ ، وَمَعْرِفَتُهُ
بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَهُوَ يَقْتَضِي وَجُوبَ حُضُورِهِ وَذَلِكَ بِنُصْبِهِ ا . ه . وَمَعْنَى الْأَخِيرِ أَنَّ مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ

مِنْ وَجُوبِ طَاعَتِهِ فِي الْمَعْرُوفِ شَرْعًا ، وَوَجُوبِ مَعْرِفَتِهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَكَوْنِهَا مِنْ أَمَمِ شُرُوطِهِ
يُقْتَضِي أَنْ نَضَبَهُ وَاجِبٌ شَرْعًا ، وَقَدْ أَطَالَ السَّعْدُ فِي شَرْحِ الْمَقَاصِدِ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْوُجُوهِ ، وَمَا
اغْتَرَضَ بِهِ بَعْضُ الْمُتَبَدِّعَةِ الْمُخَالَفُونَ عَلَيْهَا ، وَالْجَوَابُ عَنْهَا . وَقَدْ غَمَلَ هُوَ وَأَمْثَالُهُ عَنِ الْاسْتِدْلَالِ عَلَى
نُضَبِ الْإِمَامِ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْوَارِدَةِ فِي الزِّمَامِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَتِهِمْ ، وَفِي بَعْضِهَا التَّصْرِيحُ بِأَنَّ
« مِنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً . » رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ لَابِنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا ،
وَسَيَأْتِي حَدِيثُ حُذَيْفَةَ الْمُتَّقِ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ قَوْلُهُ ؟ لَهُ : « تَلْزَمُ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَتُهُمْ . »

مَنْ يَنْصَبُ الْخَلِيفَةَ وَيَعْرِزُهُ ؟

اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ نَضَبَ الْخَلِيفَةِ فَرَضٌ كَهَيَاتِهِ ، وَأَنَّ الْمَطَالِبَ بِهِ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ فِي الْأُمَّةِ ،
وَوَافَقَتَهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْخَوَارِجُ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَةَ تَتَعَدَّدُ بَبَيْعَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، وَلَكِنْ اضْطَرَبَ كَلَامُ بَعْضِ
الْعُلَمَاءِ فِي أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ : مَنْ هُمْ ؟ وَهَلْ تَشْتَرِطُ مِيبَاعَتُهُمْ كُلُّهُمْ أَمْ يَكْفِي بَعْدُ مَعِينٍ مِنْهُمْ ؟ أَمْ لَا
يَشْتَرِطُ الْعَدَدُ ؟ وَكَانَ يُبْغِي أَنْ تَكُونَ تَسْمِيَتُهُمْ بِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مَاعَةً مِنَ الْخِلَافِ فِيهِمْ ؛ إِذَا التَّبَادُرَ
مِنْهُ أَهْلُ زُعَمَاءِ الْأُمَّةِ وَأُولُو الْمَكَانَةِ وَمَوْضِعِ النِّقَةِ مِنْ سَوَادِهَا الْأَعْظَمِ ، بِحَيْثُ تَتَّبِعُهُمْ فِي طَاعَةٍ مِنْ يُؤَلِّقُهُ
عَلَيْهَا فَيَنْتَظِمُ بِهَا أَمْرُهَا ، وَيَكُونُ بِمَا مِنْ مِنْ عَضِيَّاتِهَا وَخُرُوجِهَا عَلَيْهِ ، قَالَ السَّعْدُ فِي شَرْحِ الْمَقَاصِدِ
كَغَيْرِهِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفُقَهَاءِ : هُمْ الْعُلَمَاءُ وَالرُّؤَسَاءُ وَوُجُوهُ النَّاسِ ، زَادَ فِي الْمِنْهَاجِ لِلتَّوَوِيِّ الَّذِينَ يَبْسُرُ
اجْتِمَاعُهُمْ ، وَعَلَّلَهُ شَارِحَةُ الرَّمَلِيِّ بِقَوْلِهِ : لِأَنَّ الْأَمْرَ يَنْتَظِمُ بِهِمْ وَيَتَّبِعُهُمْ سَائِرُ النَّاسِ ، وَهَذَا التَّغْلِيلُ هُوَ
غَايَةُ التَّحْقِيقِ مَنْطُوقًا وَمَفْهُومًا ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ الْمُبَايَعُونَ بِحَيْثُ تَتَّبِعُهُمُ الْأُمَّةُ ، فَلَا تَتَعَدَّدُ الْإِمَامَةُ بِمُبَايَعَتِهِمْ ،
وَعَلَّطَ بَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْفُقَهَاءِ ، فَقَالُوا : إِنَّ الْبَيْعَةَ تَتَعَدَّدُ دَائِمًا بِخَمْسَةِ مَنْ يَصْلُحُ لِلْإِمَامَةِ بِدَلِيلِ مَا أَشَارَ

بِهِ عُمَرُ ، إِذْ حَصَرَ الشُّورَى فِي السَّنَةِ الْمُرْشَحِينَ ، وَقَبْلَ جَمِيعِ الصَّحَابَةِ مِنْهُ ذَلِكَ فَكَانَ إِجْمَاعًا . نَعَمْ
 كَانَ إِجْمَاعًا عَلَى الشُّورَى وَعَلَى أَوْلَئِكَ السَّنَةِ فِي تِلْكَ الْوَاقِعَةِ ، لَا إِجْمَاعًا عَلَى ذَلِكَ الْعَدَدِ فِي كُلِّ
 مَبَايِعَةٍ ، وَقَالُوا : إِنَّ مَذْهَبَ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّهَا تَتَعَقَّدُ بَعْدَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ بِمَشْهَدٍ مِنَ الشُّهُودِ ، وَهُوَ
 غَلَطٌ أَوْضَحَ . وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا الْقَوْلَ الْفَقَهَاءُ مُتَقَدِّمًا بِمَا إِذَا انْحَصَرَ الْحَلُّ وَالْعَقْدُ فِيهِ بِأَنَّ وَثَقَ زُعَمَاءُ
 الْأُمَّةِ بِهِ ، وَقَوَّضُوا أَمْرَهُمْ إِلَيْهِ ، وَهَذَا لَمْ يَتَّعِدْ وَيَنْدُرُ أَنْ يَتَّعِدْ ، وَإِمَامَةُ عُثْمَانَ لَمْ تَكُنْ بِمَبَايِعَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 بْنِ عَوْفٍ وَخُدَّهِ ، بَلْ كَانَتْ عَامَّةً لَا خَاصَّةً بِهِ ، وَكَذَلِكَ مَبَايِعَةُ عُمَرَ لِأَبِي بَكْرٍ ، فَإِنَّ الْإِمَامَةَ لَمْ تَتَعَقَّدْ
 بِمَبَايِعَتِهِ وَخُدَّهِ بَلْ بِمَبَايِعَةِ الْجَمَاعَةِ لَهُ ، وَقَدْ صَحَّ أَنَّ عُمَرَ أَنْكَرَ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْبَيْعَةَ تَتَعَقَّدُ بِوَاحِدٍ مِنْ
 غَيْرِ مُشَاوَرَةِ الْجَمَاعَةِ ، وَكَانَ بَلَّغُهُ هَذَا الْقَوْلِ فِي اثْتَاءِ حَجِّهِ ، فَعَزَمَ عَلَى بَيَانِ حَقِيقَةِ أَمْرِ الْمَبَايِعَةِ وَمَا
 يَشْتَرِطُ فِيهَا مِنَ الشُّورَى عَلَى جَمَاهِيرِ الْحَجَّاجِ ، فَذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ الْمَوْسِمَ يَجْمَعُ أَخْلَاطَ النَّاسِ ، وَمَنْ
 لَا يَتَهَمُونَ الْمَقَالَ ، فَيَطِيرُونَ بِهِ كُلُّ مَطَارٍ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُرْجَى هَذَا الْبَيَانُ إِلَى أَنْ يُوَدَّ إِلَى الْمَدِينَةِ ،
 فَيَلْقِيَهُ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ وَالرَّأْيِ فَفَعَلَ . قَالَ عَلَى مِنْبَرِ الرَّسُولِ ؟ : بَلَّغْنِي أَنْ قَائِلًا مِنْكُمْ يَقُولُ : وَاللَّهِ لَوْ
 مَاتَ عُمَرُ لَبَايَعْتَ فُلَانًا . فَلَا يَغْتَرَنَ امْرُؤٌ أَنْ يَقُولَ : إِنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فُلْتَةً فَتَمَّتْ ، أَلَا وَأَنَّهَا قَدْ
 كَانَتْ كَذَلِكَ وَلَكِنَّ وَفَى اللَّهُ شَرَّهَا ، وَلَيْسَ فِيكُمْ مَنْ تَقَطَّعَ إِلَيْهِ الْأَعْنَاقُ مِثْلَ أَبِي بَكْرٍ ، مِنْ بَايِعِ رَجُلًا مِنْ
 غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَا يَبَايِعُ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ تَعْرَهُ أَنْ يُقْتَلَ . ثُمَّ سَأَلَ خَيْرُ بَيْعَةٍ أَبِي بَكْرٍ وَمَا
 كَانَ يَخْشَى مِنْ وَقُوعِ الْفِتْنَةِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، لَوْلَا تِلْكَ الْمُبَادَرَةُ بِمَبَايِعَتِهِ لِلنَّقَةِ بِقَبُولِ سَائِرِ
 الْمُسْلِمِينَ ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ . وَقَدْ أَقْرَبَتْ جَمَاعَةُ الصَّحَابَةِ عُمَرَ عَلَى ذَلِكَ فَكَانَ إِجْمَاعًا . فَتَحَرَّرَ بِهَذَا
 أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْمَبَايِعَةِ أَنْ تَكُونَ بَعْدَ اسْتِشَارَةِ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ ، وَاخْتِيَارِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، وَلَا تُعْتَبَرُ
 مَبَايِعَةُ غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَبَعًا لَهُمْ ، وَإِنْ عَمَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَالَفَ هَذَا الْأَصْلَ الْقَطْعِيَّ ، فَكَانَ

فَلْتَهُ لِمُقْتَضِيَاتٍ خَاصَّةٍ لَا أَصْلًا شَرْعِيًّا يَعْمَلُ بِهِ ، وَمَنْ تَصَدَّى لِمَثَلِهِ فَبَاعَ أَحَدًا فَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ هُوَ
وَلَا مِنْ بَايَعَهُ أَهْلًا لِلْمُبَايَعَةِ ، بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ تَغْرِيبًا بِنَفْسِهِمَا قَدْ يُفْضَى إِلَيْ قَتْلِهِمَا إِذَا أَحْدَثَ فِي الْأُمَّةِ
شِقَاقًا يُوجِبُهُ .

سُلْطَةُ الْأُمَّةِ وَمَعْنَى الْجَمَاعَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ : وَأَمْرُهُمْ شُورَى ؟ بَيْنَهُمْ . وَالْقُرْآنُ يَخَاطِبُ جَمَاعَةَ الْمُؤْمِنِينَ
بِالْأَحْكَامِ الَّتِي يَشْرَعُهَا حَتَّى أَحْكَامِ الْقِتَالِ وَنَحْوَهَا مِنْ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ ، الَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بِالْأَفْرَادِ ، وَقَدْ أَمَرَ
بِطَاعَةِ أَوْلِي الْأَمْرِ وَهُمْ الْجَمَاعَةُ لِأَوْلِي الْأَمْرِ ، وَذَلِكَ إِنْ وُلِّيَ الْأَمْرَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا يُطَاعُ بِتَأْيِيدِ
جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بَايَعُوهُ لَهُ وَتَقَاتَمُوا بِهِ ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى مَا وَرَدَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فِي
الْإِزَامِ الْجَمَاعَةِ ، وَكَوْنِ طَاعَةِ الْأَمِيرِ تَابِعَةً لِطَاعَتِهِمْ وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ بِسُلْطَتِهِمْ كَحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي
الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ : « مِنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ مِنْ
فَارِقِ الْجَمَاعَةِ شَيْئًا فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةٍ . » وَلَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ؟ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ بِمَا يَكُونُ فِي
الْأُمَّةِ مِنَ الْفِتَنِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمَشْهُورِ ، قَالَ : فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ ؟ قَالَ ؟ : « تُلْزَمُ
جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ . » قَالَ : قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ ؟ قَالَ : « فَاعْتَزَلْ تِلْكَ
الْفِرْقِ كُلَّهَا » ... إلخ . وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ بَيَانُ أَنَّ الْجَمَاعَةَ هُمْ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ ، أَيُّ : بِالنِّسْبَةِ إِلَى
صَدْرِ الْإِسْلَامِ . وَمِنْ الْأَدِلَّةِ عَلَى سُلْطَةِ الْأُمَّةِ وَاسْتِدْلَاؤِهَا بِهِ عَلَى الْإِجْمَاعِ حَدِيثٌ : « لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى
ضَلَالَةٍ وَفِي لَفْظٍ لَنْ تَجْتَمِعَ وَفِي رِوَايَةٍ زِيَادَةٌ : وَيَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ فَمَنْ شَدَّ شَدَّ فِي النَّارِ . » وَفِي
أُخْرَى : « سَأَلْتُ رَبِّي أَلَّا تَجْتَمِعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَعْطَانِيهَا . » وَهُوَ فِي مَسْنَدِ أَحْمَدَ وَجَامِعِ

التِّرْمِذِي وَالْكَبِيرِ لِلطَّبْرَانِيِّ وَمُسْتَدْرِكِ الْحَاكِمِ . قَالَ الطَّبْرِيُّ بَعْدَ ذِكْرِ الْخِلَافِ فِي الْجَمَاعَةِ ، وَمِنْهُ حَضْرُ
بَعْضِهِمْ إِيَّاهُ فِي الصَّحَابَةِ : وَالصَّوَابُ لِرُومِ الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ فِي طَاعَةٍ مِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى تَأْمِيرِهِ ، فَمِنْ نَكَتِ
بِعَيْتِهِ خَرَجَ عَنِ الْجَمَاعَةِ ، (قَالَ) : وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ مَتَى لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ إِمَامٌ فَافْتَرَقَ النَّاسُ أَحْزَابًا ،
فَلَا يُسَبِّحُ أَحَدًا فِي الْفِرْقَةِ ، وَيَعْتَزِلُ الْجَمِيعُ إِنْ اسْتَطَاعَ ذَلِكَ خَشْيَةً مِنَ الْوُقُوعِ فِي الشَّرِّ . هـ . نقله عنه
الْحَافِظُ فِي شَرْحِ الْبَحَارِيِّ وَأَقْرَهُ . هُوَ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هُمْ أَوْلُو الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ
وَالْإِجْمَاعِ الْمَطَاعِ ، وَمِنْهُمْ كِبَارُ الْحُكَمَاءِ ، وَأَهْلُ الشُّرُورِ لَدَى الْإِمَامِ ، وَمَتَى خُوِطِبَ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْكِتَابِ
وَالسُّنَّةِ وَأَثَارِ الصَّحَابَةِ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ ، فَهَمَّ الْمَعْنِيُّونَ الْمُطَالِبُونَ بِتَنْفِيزِ الْأَمْرِ ، وَمُرَاقِبَةُ الْمُنْفَذِ ،
وَمِنْ الْأَثَارِ الدَّالَّةِ عَلَى الْإِجْمَاعِ فِي ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خُطْبَتِهِ الْأُولَى بَعْدَ الْمَبَايَعَةِ :
أَمَّا بَعْدَ فَقَدْ وَدَّيْتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ ، فَإِذَا اسْتَقَمْتُ فَأَعِينُونِي ، وَإِذَا زَعُتْ فَقَوْمُونِي . وَرَوَى
نَحْوَهُ عَنْ عُمَرَ وَعُثْمَانَ ، وَهُمْ الَّذِينَ فَرَضُوا لَهُ رَاتِبَ الْخِلَافَةِ كَرَجُلٍ مِنْ أَوْسَاطِ الْمُهَاجِرِينَ لَا أَعْلَاهُمْ وَلَا
أَدْنَاهُمْ .

وَفِي مَنْ الْمَوَاقِفِ لِلْعُضْدِ : وَلِلْأَمَّةِ خُلْعُ الْإِمَامِ وَعَزْلُهُ بِسَبَبٍ يُوجِبُهُ ، وَإِنْ أَدَّى إِلَى الْفِتْنَةِ احْتَمَلَ أَدْنَى
الْمُضَرَّتَيْنِ . هـ . وَقَالَ شَارِحَةُ السَّيِّدِ الْجُرْجَانِيِّ فِي بَيَانِ السَّبَبِ : مَثَلُ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُ مَا يُوجِبُ
اِحْتِمَالَ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَانْتِكَاسِ أُمُورِ الدِّينِ ، كَمَا كَانَ لَهُمْ نَصَبُهُ وَإِقَامَتُهُ لِانْتِظَامِهَا وَإِعْلَانِهَا . هـ ،
وَسَيَّأَتِي مَثَلُهُ لِإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي التَّعْرِيفِ بِالْخِلَافَةِ قَوْلُ الرَّازِيِّ : إِنَّ الرِّئَاسَةَ الْعَامَّةَ هِيَ حَقُّ
الْأُمَّةِ الَّتِي لَهَا أَنْ تَعْزَلَ الْإِمَامَ (الْخَلِيفَةَ) إِذَا رَأَتْ مُوجِبًا لِعَزْلِهِ ، وَقَدْ فَسَّرَ السَّعْدُ مَعْنَى هَذِهِ الرِّئَاسَةِ ؛
لَمَّا تَسْتَشْكِكُ فَيَقَالُ : إِذَا كَانَتْ الرِّئَاسَةُ لِلْأُمَّةِ فَمِنْ الْمَرْوُوسِ ؟ فَقَالَ : إِنَّهُ يُرِيدُ بِالْأُمَّةِ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ،

أَيُّ : الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ الْأُمَّةَ بِمَا لَهُمْ فِيهَا مِنَ الرَّعَامَةِ وَالْمَكَانَةِ ، وَرِئَاسَتِهِمْ تَكُونُ عَلَيَّ مِنْ عَدَاهُمْ أَوْ عَلَيَّ
 جَمِيعِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ ، وَالثَّانِي هُوَ الصَّحِيحُ ، وَيُؤَيِّدُهَا تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ لِأَوْلِي الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (التَّسَاءُ : 59) ، فَقَدْ حَقَّقَ أَنَّ الْمُرَادَ بِأَوْلِي الْأَمْرِ
 أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ سُلْطَةَ الْأُمَّةِ ، وَقَدْ تَابَعَهُ عَلَى هَذَا التَّنْيِيسِ بُورِي وَاحْتَارَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ،
 وَوَضَّحْنَاهُ فِي التَّفْسِيرِ مُسْتَدَلِّينَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ
 رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ (التَّسَاءُ : 83) ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ
 بِالضَّرُورَةِ أَنَّ أَوْلِي الْأَمْرِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ الرَّسُولِ يَرُدُّ إِلَيْهِمْ مَعَهُ أَمْرَ الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِنَ الْمَصَالِحِ
 الْعَامَّةِ ، لَيْسُوا عُلَمَاءَ الْفِقْهِ وَلَا الْأَمْرَاءَ وَالْحُكَّامَ ، بَلْ أَهْلُ الشُّرُورِ مِنْ زُعَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ .

(5) شُرُوطُ أَهْلِ الْأَخْيَارِ لِلْخَلِيفَةِ

اشْتَرَطَ الْعُلَمَاءُ فِي جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ شُرُوطًا بَيْنَهَا الْمَاوَرَدِيُّ فِي الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ
 بِقَوْلِهِ : (فَضْلٌ) فَإِذَا ثَبَتَ وَجُوبُ الْإِمَامَةِ ، فَفَرَضَهَا عَلَى الْكِفَايَةِ لِجِهَادِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ ، حِفَايَا قَامَ بِهَا
 مِنْ هُوَ أَهْلُهَا سَقَطَ فَرَضُهَا عَنِ الْكَافَّةِ ، وَإِنْ لَمْ يُقَمَّ بِهَا أَحَدٌ حَرَّجَ مِنَ النَّاسِ فَرِيقَانِ ، أَحَدُهُمَا : أَهْلُ
 الْأَخْيَارِ حَتَّى يَخْتَارُوا إِمَامًا لِلْأُمَّةِ ، وَالثَّانِي : أَهْلُ الْإِمَامَةِ حَتَّى يَنْتَصِبَ أَحَدُهُمْ لِلْإِمَامَةِ . فَأَمَّا أَهْلُ
 الْأَخْيَارِ فَالشُّرُوطُ الْمُعْتَبَرَةُ فِيهِمْ ثَلَاثَةٌ ؛ أَحَدُهَا : الْعَدَالَةُ الْجَامِعَةُ لِشُرُوطِهَا ، وَالثَّانِي : الْعِلْمُ الَّذِي
 يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِمَامَةَ عَلَى الشُّرُوطِ الْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا ، وَالثَّلَاثُ : الرَّأْيُ وَالْحِكْمَةُ الْمُؤَدِّيَانِ
 إِلَى اخْتِيَارِ مَنْ هُوَ لِلْإِمَامَةِ أَصْلِحُ ، وَبِتَدْبِيرِ الْمَصَالِحِ أَقْوَمُ وَأَعْرِفُ ، وَلَيْسَ لِمَنْ كَانَ فِي بَلَدِ الْإِمَامِ عَلَى
 غَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ فَضْلٌ مَرْتَبَةً يُقَدِّمُ بِهَا عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا صَارَ مَنْ يَحْضُرُ بِلَدِ الْإِمَامِ مُتَوَكِّلًا لِعَقْدِ الْإِمَامَةِ عُرْفًا

وَشَرَعًا ، لَسُبُوقِ عِلْمِهِمْ بِمَوْتِهِ ؛ وَلَأَنَّ مَنْ يَصْلُحُ لِلْإِمَامَةِ فِي الْأَغْلَبِ مُوجُودُونَ فِي بَلَدِهِ ا . هـ (فَتْحُ
الْبَارِي) . أَقُولُ : لِهَذِهِ الشُّرُوطِ مَاخِذَ مَنْ هَدَى السَّلَفِ ، فَقَدْ قَالَ الطَّبْرِيُّ : لَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ
أَحَدٌ لَهُ مِنَ الْمُنْزَلَةِ فِي الدِّينِ وَالْهَجْرَةِ وَالسَّابِقَةِ وَالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ ، وَالْمَعْرِفَةِ بِالسِّيَاسَةِ ، مَا لِلسَّيِّئَةِ الَّذِينَ جَعَلَ
عُمَرُ الْأَمْرَ شُورَى بَيْنَهُمْ ا . هـ . أَمَّا الْعَدَالَةُ الَّتِي هِيَ الشَّرْطُ الْأَوَّلُ ؛ فَهِيَ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ عِبَارَةٌ عَنِ التَّحْلِيِّ
بِالْفَرَائِضِ وَالْفَضَائِلِ ، وَالتَّحْلِيِّ عَنِ الْمَعَاصِي وَالرَّذَائِلِ ، وَعَمَّا يُحَلُّ بِالْمُرُوءَةِ أَيْضًا ، وَاشْتَرَطَ بَعْضُهُمْ فِيهَا
أَنْ تَكُونَ مَلَكَهً لَا تَكْلَفًا ، وَلَكِنْ التَّكْلُفَ إِذَا التَّرَمَّ صَارَ خُلُقًا .

وَأَمَّا الْعِلْمُ فَيَعْنُونَ بِهِ عِلْمَ الدِّينِ وَمَصَالِحِ الْأُمَّةِ وَسِيَاسَتِهَا ، وَإِذَا أَطْلَقُوهُ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ الْاِسْتِقْلَالِيَّ
الْمُعْتَبَرُ عَنْهُ بِالْاِجْتِهَادِ ، وَيُقِيمُ مِنْ كَلَامِ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْاِجْتِهَادَ فِي الشَّرْعِ شَرْطٌ فِي مَجْمُوعِهِمْ لَا فِي كُلِّ فَرْدٍ
مِنْهُمْ ، فَقَدْ قَالَ فِي الرُّوضَةِ وَأَصْلُهَا : إِنَّهُ يَشْتَرِطُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ مُجْتَهِدٌ . فَعَلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ لِقَبِ أَهْلِ
الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مُرَادٍ بِهِ مَعْنَى الْمَصْدَرِينَ فِيهِ بِالْقُوَّةِ وَبِالْفِعْلِ ، وَهُمُ الرُّؤَسَاءُ الَّذِينَ تُتَّبِعُهُمُ الْأُمَّةُ فِي أُمُورِهَا
الْعَامَّةِ ، وَأَهْمُهَا نَصَبُ الْاِمَامِ الْأَعْظَمِ وَكَذَا عَزْلُهُ إِذَا ثَبَتَ عِنْدَهُمْ وَجُوبُ ذَلِكَ ، وَمَنْ يَمْلِكُ التَّوَلِيَةَ يَمْلِكُ
الْعَزْلَ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي مَسْأَلَةِ سُلْطَةِ الْأُمَّةِ ، قَالَ اِمَامُ الْاِحْرَامِينَ فِي الْاِمَامِ الَّذِي « جَارٍ وَظَهَرَ ظُلْمُهُ
وَعُشْمَتُهُ ، وَلَمْ يَرْعَوْا لَزَاجِرَ عَنِ سُوءِ صَنِيعِهِ : فَأَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ التَّوَاتُؤُ عَلَى رُدْعِهِ ، وَلَوْ بَشْهَرِ السَّلَاحِ
وَنَصَبِ الْاِحْرَابِ » . ٨٥ وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ يُوصَفُ بِالْعِلْمِ وَالْوَجَاهَةِ تَشَعُّدُ بِنَيْعِهِ الْاِمَامَةِ ، وَيَجِبُ عَلَى
الْاُمَّةِ اِتِّبَاعُهُمْ فِيهَا ، فَقَدْ جَعَلَ مَعْنَى الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَمَعْنَى الْجَمَاعَةِ وَالْاِجْمَاعِ ، وَمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْاِخْبَارِ
وَالْاِثَارِ ، وَمِنْ كَلَامِ الْمُحَقِّقِينَ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَلَا سِيَّمَا شُرُوطِ أَهْلِ الْاِخْتِيَارِ . يَتَّضِحُ مِنْ هَذِهِ التَّنْصُوصِ
الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا كَيْفَ شَغَلَتِ السِّيَاسَةَ الْعَقْلَ الْعَرَبِيَّ الدِّينِيَّ وَأَدْخَلَتْهُ فِي مَتَاهَاتِهَا

نشاط العقل العربي في عصر التدوين

لَعِبَ الْعَقْلُ الدِّينِيُّ الْعَرَبِيُّ دَوْرًا رَئِيسِيًّا فِي الْإِشْرَافِ عَلَى كِتَابَةِ النَّسَبِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ فِي مَا يَسْمَى عَصْرَ التَّدْوِينِ وَلَا بُدَّ أَنْ تَوَقَّفَ هُنَا لِنَفْهَمَ كَيْفَ بَدَأَ ذَلِكَ الْعَصْرَ وَمَا هِيَ دَوَائِعُهُ وَتَأْتِجُهُ مَرُّ التَّارِيخِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ بِفِتْرَةِ رِوَايَةِ شَفْهِيَّةٍ دَارَتْ فِي مَجَالِسِ الْعِلْمِ وَنَدَوَاتِهِ فِي الْقُصُورِ وَالْمَسَاجِدِ ، وَفِيهَا ائْتَسَّرَتْ (الرِّوَايَاتُ) وَأَسْمَاهَا يَشِي وَيُنْبِيءُ بِأَصْلِهَا الشَّفْهِيَّةِ حَيْثُ كَانَ الرَّاوي أَوْ الْحَاكِي يُحْكِي الْقِصَّةَ وَيُلْقِيهَا شَفْهِيًّا عَلَى أَسْمَاعِ الْحَاضِرِينَ ، فَلَمَّا جَاءَ عَصْرُ التَّدْوِينِ الْمُنْتَظَمِ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ تَمَّ تَسْجِيلُ الْمَوَارِثِ مِنْ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ الشَّفْهِيَّةِ . وَقَدْ تَنَاتَرَتْ أَحْبَارٌ عَنْ كِتَابَاتِ تَارِيخِيَّةٍ مُدَوَّنَةٍ فِي الْقُرْنِ الْأَوَّلِ الْهَجْرِيِّ بَيْنَ شَذَرَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَكُتِبَ كَامِلَةٌ ، كَمَا نُسِبَ بَعْضُهُمْ كُتْبًا لِبَعْضِ الرِّوَاةِ فِي الْقُرْنِ الْأَوَّلِ الْهَجْرِيِّ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ . وَلِلتَّدْوِينِ التَّارِيخِيِّ الْحَقِيقِيِّ بَدَأَ مَعَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَاسْتَمَرَ إِلَى نِهَايَةِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الْأَوَّلِ فِي خِلَافَةِ الْمُتَوَكِّلِ الْعَبَّاسِيِّ .

وَقَدْ تَمَيَّزَتْ بِدَايَةِ التَّدْوِينِ التَّارِيخِيِّ بَعْدَةَ مَلَامِحَ أَهْمُهَا :

I - إِنَّ مَرْجِعِيَّةَ التَّدْوِينِ اِرْتَبَطَتْ بِالْكَاتِبِ نَفْسِهِ ، فَهُوَ الَّذِي يُنْقَلُ مُبَاشَرَةً مِنْ ذَاكِرَتِهِ وَلَيْسَ مِنْ كِتَابٍ سَابِقٍ ، وَهُوَ الَّذِي يُرْعَمُ أَنَّهُ سَمِعَ هَذِهِ الرِّوَايَةَ مِنْ فُلَانٍ عَنْ فُلَانٍ ، وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا أَنْ نُصَدِّقَهُ أَوْ أَنْ تَتَشَكَّكَ فِي كَلَامِهِ ، وَلِذَلِكَ تَنَاقَضَتْ بَعْضُ الرِّوَايَاتِ الَّتِي تُعْبَرُ عَنْ حَدِّثٍ مُعَيَّنٍ ، وَبَعْضُهَا تَدَاخَلَ مَعَ بَعْضِهَا الْآخِرِ كَمَا فِي تَارِيخِ الطَّبْرِيِّ ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَضَعُ مَهْمَةً صَعْبَةً أَمَامَ الْبَاحِثِ التَّارِيخِيِّ .

2 - لِأَنَّ الْحَرَكَةَ الْعِلْمِيَّةَ فِي بَدَايَتِهَا لَمْ تَعْرِفْ التَّخَصُّصَ حَيْثُ كَانَتْ مَجَالِسُ الْعِلْمِ تَجْمَعُ بَيْنَ التَّارِيخِ وَالْقِصَصِ وَالشَّعْرِ وَالْكَلَامِ حَوْلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَزِيدُ أَحَادِيثَ مَنْسُوبَةً لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَإِنَّ

الْإِسْنَادُ كَانَ هُوَ السَّمَةُ الْمَشْرُوكَةُ فِي رِوَايَةِ أَحْدَاثِ التَّارِيخِ وَالسِّيَرَةِ وَالْأَحَادِيثِ الْمُنْسُوبَةِ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَأَشْهَرُ مِنْ كُتُبِ التَّارِيخِ بِالْإِسْنَادِ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى ، وَالطَّبْرِي فِي تَارِيخِهِ ، وَسَارَ عَلَى هَذَا التَّنْجِحِ مُؤَرِّخُو الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الثَّانِي خُصُوصًا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ يَجْمَعُ بَيْنَ كَوْنِهِ مُؤَرِّخًا وَمُحَدِّثًا وَفِيهَا مِثْلُ ابْنِ الْجَوْزِيِّ فِي كُتُبِهِ التَّارِيخِيَّةِ الْحَوْلِيَّةِ مِثْلُ (الْمُنْتَظَمِ) وَالْكَتُبِ الْقَصِيرَةِ مِثْلُ (أَخْبَارِ الْأَذْكِيَاءِ)

3 - إِنَّ أَوَائِلَ مَنْ كُتِبَ وَدُونَ صَارَ هُوَ الْعُمْدَةُ الَّذِي يُنْقَلُ عَنْهُ اللَّاحِقُونَ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ ، دُونَ أَنْ يَنَاقِشُوا الرِّوَايَاتِ الَّتِي يُنْقَلُونَهَا ، كَمَا فَعَلَ ابْنُ هِشَامِ الْكَلْبِيِّ فِيمَا نَقَلَهُ مِنَ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ وَكَمَا فَعَلَ الطَّبْرِي فِيمَا كَانَ يُنْقَلُهُ عَنْ ابْنِ مِخْنَفٍ وَسَيْفِ بْنِ عُمَرَ الضَّبِّيِّ .

4 - غَزَارَةُ الْمَادَةِ التَّارِيخِيَّةِ فِي فِتْرَةِ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى بِحَيْثُ شَمِلَتْ أَكْثَرَ مِنْ سِتْمَائَةِ بَحْثِ وَرِسَالَةِ كُتُبِ مُعْظَمِهَا أَرْبَعَةٌ أَوْ خَمْسَةٌ رِجَالٍ هُمْ الْمَدَائِنِيُّ وَأَبُو مِخْنَفٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَأَبْنُ الْكَلْبِيِّ

5 - اِخْتَلَفَتْ مُسَوِّيَاتُ هَذِهِ الْمَادَةِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الْحَادِثَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْ حَيْثُ الصَّدْقُ أَوْ الْكُذْبُ وَالسَّعَةِ أَوْ الْإِيجَازِ ، مَعَ وُجُودِ الْأَهْوَاءِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ وَالْعُنْصُرِيَّةِ وَالْعَرَقِيَّةِ وَالْعُقْدِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ .

6 - غَلَبَ عَلَيْهَا الْأَسَاسُ الْإِسْلَامِيُّ فِي اعْتِمَادِ التَّقْوِيمِ الْهَجْرِيِّ وَفِي إِطَارِ الْإِسْلَامِ ، لَمْ يَكُنْ هَذَا مَقْصُورًا عَلَى السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ بَلْ تَعَدَّاهَا أَيْضًا إِلَى الْفُتُوحَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَمَّ نَسْبُهَا لِلْإِسْلَامِ فَأَصْبَحَتْ الْفُتُوحَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ . وَبِذَلِكَ نَشَأَ التَّدْوِينُ التَّارِيخِيُّ فِي حَضَارَةِ الْمُسْلِمِينَ مُنْفَصِلًا عَنِ التَّدْوِينِ الْمَسِيحِيِّ وَبَطَانِعِ مُسْتَقْلٍ مُتَمَيِّزٍ ، حَتَّى أَنْ الْمَوَالِي فِي تَارِيخِهِمُ الْخَاصِّ لِأَسْلَافِهِمْ ارْتَبَطُوا بِالْمَنْهَجِ الَّذِي سَارَتْ عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ التَّارِيخِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ (الْإِسْلَامِيَّةُ)

7 - لم يكن التدوين التاريخي نقلاً كُله عن الرواية الشفهية وحدها وإنما اعتمداً حياناً علي بعض الوثائق والسجلات والمدونات والأسفار والكتابات ، وبعضها كتب قبل الإسلام .

8 - لم يكن التدوين التاريخي عملاً رسمياً ، كما هو الشأن في بعض العصور غير الإسلامية . صحيح أن بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين شجعوا التدوين التاريخي إلا إن ذلك لم يكن بغرض إقامة تاريخ رسمي للدولة وإنما بهدف تسجيل المعارف الهامة أو ما يشوق الخليفة إلى معرفته . نشأ التدوين التاريخي مستقلاً عن الشكل الرسمي وإن لم ينبج بالطبع من أهواء الحاكم ، خصوصاً في العصر العباسي - عصر ازدهار التدوين - حيث اهتم العباسيون برعاية الحركة العلمية الفردية ، وقرنوا الرعاية بنوع من التوجيه الذي يخدم أهواء الخلفاء .

9 - وفي هذا العصر المبكر ظهر مع التدوين التاريخي بواكير الرأي التاريخي والتعليل للأحداث وفلسفة التاريخ خصوصاً وقد ظهرت في العصر العباسي فلسفات وقرنوا مختلفة حول الإمامة والخلافة والجماعة والجبر والاختيار والسقي والسعيد والجرح والتعديل ، وكان لابد للتاريخ أن يتأثر بتلك الأفكار خصوصاً وأن التاريخ يبحث الأعلام الذين كانوا محوراً لهذه الاختلافات والآراء . وظهرت قمة الفلسفة التاريخية فيما بعد في مقدمة ابن خلدون الموفى في أوائل القرن التاسع الهجري .

مراحل التدوين التاريخي

وقد بدأ التدوين التاريخي فردياً وبسيطاً ثم انتشر وتظم عبر ثلاث مراحل :

I - مرحلة التدوين الأولى : اتسم بالطابع الشخصي العفوي وبالثقل عن الرواية الشفهية فقد كانت الرواية الشفهية هي السائدة ومن حرص من السامعين علي تسجيل حدث بذاته عمل على تدوينه لنفسه ،

وَرَبَّمَا بَدَأَ ذَلِكَ التَّوَعُّعَ مِنَ التَّدْوِينِ مَعَ بَدَايَةِ الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ ثُمَّ تَحَدَّدَتْ اتِّجَاهَاتِهِ وَتَوَعَّتْ بَيْنَ تَدْوِينِ السِّيَرَةِ
أَوْ لِلنَّسَابِ أَوْ لِلْفُتُوحِ وَغَيْرِهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ بَقِيَ فَرْدِيًّا شَخْصِيًّا . وَفِي هَذَا الْمَرْحَلَةِ وَجَدَ الْكَثِيرُونَ مِنَ
الرُّوَاةِ الشَّفَهِيِّينَ الَّذِينَ يَنْقُلُ عَنْهُمْ أَوْ يَحْفَظُ اقْوَالَهُمْ جُمُوهَرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْحِفَاطِ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْحَلَقَاتِ ،
وَبَعْضُ أُولَئِكَ الرُّوَاةِ كَانُوا مِنْ أَعْلَامِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ مِثْلَ (عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ) وَ (عَمْرُو بْنُ خَوْلَةَ)
وَ (الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ) وَ (مَحْرَمَةُ بْنُ نُوفَلٍ) وَ (جُبَيْرُ بْنُ الْمُطْعَمِ) ، وَوَاضِحٌ أَنَّ أُولَئِكَ كَانُوا مِمَّنْ
عَاصَرَ الْجَاهِلِيَّةَ وَالْإِسْلَامَ وَقَدْ بَلَّغُوا الشَّيْخُوخَةَ وَهُمْ يَرُوُونَ أَحْدَاثًا شَارَكُوا فِيهَا مِنْ هُنَا كَانَ الْإِهْتِمَامُ
بِالتَّقْلِيدِ عِنْدَهُمْ وَتَدْوِينِ مَا يَسْرُدُونَهُ مِنْ أَحْدَاثٍ يُتْقَصُّهَا التَّسْلُسُ الرِّمِّيُّ . وَأَشْهُرَ الْمُرَاحِينَ مِمَّنْ يُنْسَبُونَ
لَهُمُ التَّدْوِينُ (الشَّخْصِيَّ) فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ : (أَبَانُ بْنُ عُثْمَانَ) وَ (عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ) ثُمَّ (شَرْحِبِيلُ بْنُ
حَسَنَةَ) وَ (الزُّهْرِيُّ) .

2 - الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَّةُ : وَقَدْ اِمْتَدَّتْ خِلَالَ الْقَرْنِ الثَّانِي كُلَّهُ تَقْرِيْبًا ، مَعَ نِهَايَةِ الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ وَمَطْلَعِ الْعَصْرِ
الْعَبَّاسِيِّ . وَاهْتَمَّ الْإِخْبَارِيُّونَ خِلَالَهَا بِجَمْعِ الْأَخْبَارِ الْمُخْتَلَفَةِ مِنْ جَمِيعِ الْأَقْوَامِ وَالرُّوَاةِ ثُمَّ تَنْظِيمِ كُلِّ نَوْعٍ
عَلَى حِدَّةٍ وَوَضْعِهِ فِي كِتَابٍ خَاصٍّ ، وَأَنَّ لَمْ يَبْلُغِ التَّنْظِيمُ الشَّكْلَ النَّهَائِيَّ . وَفِي هَذِهِ الْفِتْرَةِ كَانَ الْإِهْتِمَامُ
إِلَى جَانِبِ السِّيَرَةِ بِالْجَوَانِبِ التَّارِيخِيَّةِ الْأُخْرَى عَنِ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ وَالنَّسَابِ وَالْأُمَّمِ السَّابِقَةِ .

وَكَبْتُ فِيهَا رِسَائِلَ قَصِيرَةً تَعْطِي نَاحِيَةً مُعَيَّنَةً فِي التَّارِيخِ . . . وَمِنْ هَؤُلَاءِ : (أَبُو مُخَنِفٍ) وَلَهُ 32 كِتَابًا
وَ (الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِي) (50 كِتَابًا) (الْوَاقِدِيُّ) (28 كِتَابًا) (نَصْرُ بْنُ مُرَاحِمٍ) (50 كِتَابًا) وَقَدْ
أَرْحَوْا فِيهَا لِعَهْدِ الرَّاشِدِينَ مِنْ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ وَالشُّوْرَى وَحَرْبِ الرَّدَّةِ وَالْفُتُوحَاتِ وَالْفِتْنَةِ الْكُبْرَى
وَمَعَارِكِ الْجَمَلِ وَصَفَيْنِ وَالْخَوَارِجِ وَخُطَطِ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَوَلَاةِ الْأُمَّصَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . . .

المَرْحَلَةُ الثَّلَاثَةُ : هِيَ مَرْحَلَةُ التَّدْوِينِ التَّارِيخِيِّ عَلَى الْأَسَاسِ الزَّمَنِيِّ المُتَسلسِلِ وَجَمْعِ الْمَوَاضِعِ الْمُتَعاقِبَةِ
 عَلَى التَّوَالِي فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ عَلَى أَسَاسِ وَحْدَةِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَوَحْدَةِ التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ . وَبَدَتْ
 بِشَاطِرِ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ فِي كِتَابِ (ابْنِ إِسْحَاقَ) عَنِ السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، ثُمَّ امْتَدَّتْ حَتَّى نَهَايَةِ الْقُرْنِ الثَّلَاثِ
 حَتَّى اسْتَقَرَّتْ وَتَوَطَّدَ بِهَا عِلْمُ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَمُنْهَجِهِ فِي التَّدْوِينِ كَمَا يَظْهَرُ فِي كُتُبِ الْحَوَالِيَاتِ وَأَهْمَهَا
 (تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ) . وَقَدْ سَاعَدَ عَلَى إِزْدِهَارِ التَّدْوِينِ وَنَظْمِهِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْإِهْتِدَاءُ لِصُنْعِ الْوَرَقِ
 وَاسْتِخْدَامِهِ وَاتِّسَارِهِ مِمَّا سَاعَدَ عَلَى التَّوَسُّعِ فِي التَّدْوِينِ كَمَا شَجَّعَ عَلَى جَمْعِ الْمَوْفَلَاتِ الصَّغِيرَةِ
 السَّابِقَةِ فِي تَارِيخِ عَامٍ مُتَّصِلٍ مُتَسلسِلٍ ، هَذَا مَعَ اتِّسَارِ حَرَكَةِ التَّرْجَمَةِ وَالتَّقْلِيلِ عَنِ الثَّقَافَتَيْنِ الْفَارِسِيَّةِ
 وَالْيُونَانِيَّةِ . . وَاهِمُ الْمُؤَرِّخِينَ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مَعَ (الطَّبْرِيِّ) : أَبُو حَنِيفَةَ الدِّيْنَوْرِيُّ وَالْيَعْقُوبِيُّ وَابْنُ
 طَيْفُورٍ وَفِيهَا كَانَ تَأْسِيسُ الْمَدَارِسِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَالْحِجَازِ . . .

رَابِعًا : لَقَدْ كَانَ الْعَقْلُ الدِّينِيُّ الْعَرَبِيُّ وَرَاءَ انْقِسَامِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى طَوَائِفٍ وَفِرَقٍ وَمَلَ وَحَتَّى ظَهَرَتْ كُتُبًا
 مُتَخَصِّصَةً فِي عَدِّهَا وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَهَا وَسُنَّتْشُرُ بَادِيٍّ ذِي بَدْءٍ قَائِمَةٌ بِالطَّوَائِفِ الصَّامِدَةِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا
 قَائِمَةٌ بِأَسْمَاءِ بَعْضِ الطَّوَائِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُتَنَشِّرَةِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ السَّنَةِ الْحَنَفِيَّةِ الْمَالِكِيَّةِ الشَّافِعِيَّةِ
 الْحَنَبَلِيَّةِ السَّلَفِيَّةِ / أَهْلِ الْحَدِيثِ الْأَشَاعِرَةِ الْمَاتَرِيدِيَّةِ الشَّيْعَةَ الْإِمَامِيَّةَ الْإِثْنَا عَشْرِيَّةَ الْأُصُولِيَّةِ الشَّيْخِيَّةِ
 الرَّكْبِيَّةِ الْكُشْفِيَّةِ السَّبْعِيَّةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ التَّرَاثِيَّةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ فَارِسِ (الْحَشَّاشِينَ) الْأَعَاخِيَّةِ الْبُهْرَةِ
 الْقَرَامِطَةِ الدَّرْزِيَّةِ (الْمُوَحِّدُونَ) الْعُلُوِيَّةِ الزَّيْدِيَّةِ الْإِبَاضِيَّةِ الْخَوَارِجِ الْأَزَارِقَةِ التَّجْدَاثِ الْبُهَيْسِيَّةِ الْعَجَارِدَةِ
 الثَّعَالِبَةِ الصَّفْرَةَ الْمُعْتَزَلَةَ الْمِيرَازِيَّةَ (طَائِفَةُ إِسْلَامِيَّةٌ) الصُّوفِيَّةِ التَّجَانِيَّةِ الْقَادِرِيَّةِ الشَّاذِلِيَّةِ السَّمَاءِيَّةِ يَه
 الْأُدْرِيْسِيَّةِ الْبُرْهَانِيَّةِ .

عَوَامِلُ تَكُونُ الْفَرْقُ

الآتِجَاهَاتُ الْحَزْبِيَّةُ وَالنَّعْصَبَاتُ الْقَبَلِيَّةُ وَالسَّعْيُ وَرَاءَ الْغَنِيْمَةِ وَالْقَبِيْلَةُ لَذَلِكَ فَإِنَّ أَعْظَمَ خِلَافٍ بَيْنَ الْأُمَّةِ هُوَ الْخِلَافُ فِي قَضِيَّتِي الْخِلَافَةِ وَالْإِمَامَةِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى عَدَمُ قُدْرَةِ الْعَقْلِ الدِّينِيِّ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى صِيغَةٍ لِلتَّعَاوُنِ بَيْنَ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ .

وَلَا تَقُولُ حَتَّى لَا يَتَهَمَنَا أَحَدٌ بِالزُّنْدَقَةِ لِانْقِطَاعِ الْفَصْلِ بَيْنَهُمَا الدِّينُ وَالدَّوْلَةُ وَاتِّهَاجِ التَّهْجِ الْعُلَمَائِيِّ الْخَالِصِ وَقَلْعِ جُذُورِ الدِّينِ مِنْ أَسَاسِهَا فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ . قَبْلَ أَنْ نُوَضِّحَ فِكْرُنَا عَنْ ضَرُورَةِ إِيجَادِ صِيغَةٍ لِلتَّوَافُقِ بَيْنَ الدِّينِ وَالِدَّوْلَةِ عَلَيْنَا نَعْرِفُ مَعْنَى السِّيَاسَةِ فَتَعْرِيفُهَا يَجْعَلُنَا أَنْ نَدْخُلَ بِسُهُولَةٍ لِشَرْحِ الْفِكْرِ وَإِيصَالِهَا لِذَهْنِ الْمُتَلَقِّي نَعْرِفُ السِّيَاسَةَ بِأَنَّهَا : « كَيْفِيَّةُ تَوْزِيْعِ الْقُوَّةِ وَالنُّفُوذِ ضِمْنَ مَجْتَمَعٍ مَا أَوْ نِظَامٍ مُعَيَّنٍ كَذَلِكَ نَعْرِفُ السِّيَاسَةَ بِأَنَّهَا : « الْعِلَاقَةُ بَيْنَ الْحُكْمِ وَالْمُحْكَمِينَ أَوْ الدَّوْلَةِ وَكُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِشُؤْنِهَا أَوْ السَّلْطَةِ الْكُبْرَى فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ . نَعْرِفُ السِّيَاسَةَ لُغَةً بِأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ مُعَالَجَةِ الْأُمُورِ ، وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْفِعْلِ سَاسَ وَيَسُوسُ ، وَهِيَ عَلَى مُصَدَّرٍ فَعَالَةٍ ، أَمَّا اضْطِلَاحًا فَتَعْرِفُ بِأَنَّهَا رِعَايَةُ كَافَّةِ شُؤْنِ الدَّوْلَةِ الدَّاخِلِيَّةِ ، وَكَافَّةِ شُؤْنِهَا الْخَارِجِيَّةِ ، وَتَعْرِفُ أَيْضًا بِأَنَّهَا سِيَاسَةٌ تَقُومُ عَلَى تَوْزِيْعِ النُّفُوذِ وَالْقُوَّةِ ضِمْنَ حُدُودِ مَجْتَمَعٍ مَا . وَتَعْرِفُ كَذَلِكَ بِأَنَّهَا الْعِلَاقَةُ بَيْنَ الْحُكْمِ وَالْمُحْكَمِينَ فِي الدَّوْلَةِ ، وَتَعْرِفُ أَيْضًا بِأَنَّهَا طُرُقُ وَإِجْرَاءَاتٌ مُؤَدِّيَةٌ إِلَى اتِّخَاذِ قَرَارَاتٍ مِنْ أَجْلِ الْمَجْتَمَعَاتِ وَالْمَجْمُوعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ ، أَمَّا الْوَاقِعِيُّونَ فَتَعْرِفُوهَا بِأَنَّهَا قُنٌّ يَقُومُ عَلَى دِرَاسَةِ الْوَاقِعِ السِّيَاسِيِّ وَتَغْيِيرِهِ مَوْضُوعِيًّا .

فَالسِّيَاسَةُ أذن هِيَ إِدَارَةُ كَافَّةِ شُؤْنِ الدَّوْلَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالشُّؤْنِ الْخَارِجِيَّةِ وَهَذَا التَّعْرِيفُ لِلسِّيَاسَةِ مُوجُودٌ فِي وَاجِبَاتِ الْخَلِيفَةِ فِي التَّنْظِيمِ السِّيَاسِيِّ الْإِسْلَامِيِّ وَمِنْ الشُّؤْنِ الدَّاخِلِيَّةِ الْوَاجِبِ عَلَى الدَّوْلَةِ

مُرَاعَاتُهَا هُوَ الدِّينُ بِمَعْنَى الْعَقِيدَةِ وَالشَّرِيعَةِ أَوْ التَّشْرِيعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْحِفَافِ عَلَى الرَّعَايَا أَرْوَاحُهُمْ
وَأَمْوَالُهُمْ وَأَعْرَاضُهُمْ وَالْحِفَافُ عَلَى السَّلْمِ وَالْأَمْنِ الدَّاخِلِيِّ وَحِمَايَةِ الْحُدُودِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . فَمَاذَا كَانَ
شَكْلُ الدَّوْلَةِ فِي الْإِسْلَامِ كَانَ دِينِيًّا وَهُنَاكَ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ كَانَ إِسْلَامِيًّا فَالتَّشْرِيعَاتُ وَالسُّلْطَةُ التَّشْرِيعِيَّةُ
وَالفَضَائِلُ قَائِمَةٌ عَلَى أَسَاسِ دِينِيٍّ حَيْثُ لَا وَجُودَ إِطْلَاقًا لِلتَّشْرِيعَاتِ الوُضْعِيَّةِ . فَهَلْ سَارَ أَوْلِيُّ الأَمْرِ
وَفَقْ سِيَّاسَةٌ وَاحِدَةٌ لِإِدَارَةِ شُؤُونِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ وَفَقْ المَبَادِيءُ الشَّرْعِيَّةُ الأَسَاسِيَّةُ لِهَذِهِ الدَّوْلَةِ الدِّينِيَّةِ أَوْ
الْإِسْلَامِيَّةِ ؟ قَطْعًا لَا فَمَنْذُ الوَهْلَةِ الأُولَى كَانَ لِلسِّيَّاسَةِ كَلِمَتُهَا فِي فَرَضِ الحَاكِمِ كَمَا ذَكَرْنَا فِي الَّذِي
حَصَلَ بِسَقِيْفَةِ بُنَي سَاعِدَةَ وَأَنَّ بُرُوزَ حَاكِمَيْنِ فَقَطْ دُونَ غَيْرِهِمَا فِي تَارِيخِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَلَّمَا اتَّصَفَ
حَاكِمُهُمَا بِالشَّرْعِ وَبِالْعَدْلِ وَهُمَا العُمَرَيْنِ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ لِأَكْبَرِ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الحَاكِمَ
الديكتاتوري المعروف اليوم له جذور تاريخية عميقة في تاريخ هذه الأمة .

فَمَا مَعْنَى ذَلِكَ كُلُّهُ ؟

إِنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى تَبِيحَةِ مُفَادِهَا بِأَنَّ السِّيَّاسَةَ الفَرْدِيَّةَ هِيَ الَّتِي حَكَمَتْ المُسْلِمِينَ عُهُودٌ طَوِيلَةٌ وَإِلَى يَوْمِنَا هَذَا
وَفَرْدِيَّةٌ بِمَعْنَى مَرَاجِيئَةٍ وَمُطَلَّقَةٍ وَلَكِنِّي تُحَافِظُ عَلَى شَكْلِهَا وَأَسْمِهَا الدِّينِيَّ أَوْ الْإِسْلَامِيَّ صَنَعَتْ هَيْئَاتٍ
وَمَجَالِسَ فِقْهِيَّةً لِنُفُتِي بِشُرْعِيَّتِهَا وَعَدَالَتِهَا وَتَقْنَعُ الرَّعَايَا أَنَّ تَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَهَذَا يَعْنِي سَخِرَتْ الدِّينَ
كَشِكْلِ وَأَسْمِ وَرُمُوزٍ لِتَوْطِيدِ حُكْمِهَا فَصَارَ شَكْلُ الدَّوْلَةِ فِي العَلَنِ وَالظَّاهِرِ دِينِيَّ إِسْلَامِيٍّ وَفِي الوَاقِعِ
فَرْدِيٍّ مَرَاجِيئِيٍّ وَرَائِيٍّ فِي أَغْلَبِ الفَّرَاتِ وَعَلَيْهِ وَسَبَبِ ذَلِكَ كَانَتْ تَقُومُ التُّورَاتُ مُتَّخِذَةً مِنْ شِعَارِ الحُكْمِ
بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَفَسَادُ الحُكْمِ وَعَدَمُ عَدَالَتِهِمْ شِعَارَاتُهَا . لَقَدْ اسْتَطَاعَ العَقْلُ الدِّينِيُّ فِي عَصْرِ
التَّوْبِينِ فَعَلَّ كُلَّ شَيْءٍ مَا عَدَا صِيَاغَةَ مَبَادِيءِ أَسَاسِيَّةٍ لِلحُكْمِ تَقُومُ عَلَى أَسَاسِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ

وَقَدْ أَشَارَ هَذَا التَّصَافُوتِيُّ لِبَعْضِ الْمَبَادِيِّ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَسْتَخْلَصُوا مِنْهَا دُسُورَ حُكْمِهِمْ مِثْلَ الشُّورَى
وَالْعَدْلِ وَالْمَسَاوَاةِ كُلِّ مَا فَعَلَ هَذَا الْعَقْلُ هُوَ التَّأَكُّدُ عَلَى مَفْهُومِ الْخِلَافَةِ بِاعْتِبَارِهَا الشَّكْلَ الْوَحِيدَ فِي
الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْحَقِيقَةَ لَمْ يَكُنْ هُوَ الْوَحِيدُ فَلَقَدْ ائْتَدَعَ الْعَقْلُ الدِّينِيَّ الشَّيْعِيُّ تَمُودَجًا خَاصًّا بِهِ وَهُوَ
نِظَامُ الْإِمَامَةِ الَّذِي جَعَلَهُ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَلِ الْإِيمَانِ . بِذَلِكَ فَقَدَتْ الدَّوْلَةُ فِي الْإِسْلَامِ شَخْصِيَّتَهَا
الْإِعْتِبَارِيَّةَ الْخَاصَّةَ بِهَا وَأَصْبَحَتْ مِلْكًا عَضُوضًا خَاصًّا بِالْحَاكِمِ بِكُلِّ مَا فِيهَا وَحَتَّى رِعَايَاهَا لِذَلِكَ قُلْنَا
إِنَّ الْعَقْلَ الدِّينِيَّ الْعَرَبِيَّ عَجَزَ عَنِ إِظْهَارِ الدَّوْلَةِ كَكِيَانٍ مُسْتَقِلٍّ عَنِ الْحُكْمِ وَالْحَاكِمِ أَوْ بَعَابَرَةٍ أُخْرَى
الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ أَوْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَهُوَ يُمَثِّلُ الدِّينَ بَلِ الدِّينَ كُلَّهُ وَلَيْسَ هُنَاكَ مَانِعٌ شَرْعِيٌّ أَوْ نَصِيٌّ أَوْ فَتْحِيٌّ
أَوْ عَقْلِيٌّ يَمْنَعُ مِنْ تَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ عَلَى مَبَادِيِّ تَشْرِيعِيَّةٍ دِينِيَّةٍ تُمَثِّلُ الدِّينَ فَتَكُونُ بِذَلِكَ دِينَ وَدَوْلَةً وَهَذَا
التَّأْسِيسُ يُفَرِّضُ بِالذَّرَجَةِ الْأُولَى وَضْعَ دُسُورٍ يَبِينُ طَرِيقَةَ اخْتِيَارِ الْحُكْمِ وَشُرُوطَ اخْتِيَارِهِمْ وَطَرِيقَةَ
لِاخْتِيارِ الْإِجْمَاعِ عَلَيْهِمْ وَتَحْدِيدِ سِيَاسَتِهِمْ بِضُرُورَةِ الْحِفَاظِ عَلَى مَبَادِيِّ الدَّوْلَةِ الدِّينِيَّةِ وَكَمَا يَحَدِّدُهُمْ مُدَّةَ
حُكْمِهِمْ وَعَزْلَهُمْ وَمَحَاكَمَتِهِمْ .

الْإِنْحِرَافُ عَنِ الْمَنْهَجِ وَالْقَطِيعَةِ وَالْإِنْسِلَاحِ

أَنَّ أَكْبَرَ كَارِثَةٍ وَقَعَتْ فِيهَا الْعَقْلُ الدِّينِيَّ الْعَرَبِيَّ هُوَ انْحِرَافُهُ عَنِ الْمَنْهَجِ الْقُرْآنِيِّ وَقَطِيعَتِهِ وَفِي مَرَحَلَةٍ تَالِيَةٍ
الْإِنْسِلَاحِ عَنْهُ يَقُولُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ : (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ
وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) سُورَةُ الْجَاثِيَةِ الْآيَةُ (6) لَقَدْ حَدَرْنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَحْذِيرًا وَاضْحَابَعَدَمَ اتِّبَاعِ آيَةِ رِوَايَاتٍ أَوْ
أَحَادِيثٍ أَوْ مَفَاهِيمٍ بَشَرِيَّةٍ تُخَالِفُ كَلَامَ اللَّهِ وَالْمَصِيبَةَ أَنَّهُ تَمَّ إِضْفَاءُ الْقُدْسِيَّةِ عَلَى تِلْكَ الرِّوَايَاتِ وَمَا فِيهَا
مِنْ تَنَاقُضٍ صَادِمٍ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ لِآيَاتِ اللَّهِ فَاللَّهُ يُرِيدُ لِعِبَادِهِ التَّمَسُّكُ بِمَا جَاءَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ لِيُحْمِيَهُمْ

مِنَ الْوُقُوعِ فِي الصَّرَاحِ وَالْتِقَاتِ وَيُرِيدُ لَهُمُ الْخَيْرَ وَالسَّعَادَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَنْ تَكُونَ لَهُمْ مَرْجِعِيَّةً وَاحِدَةً
وَهِيَ الْقُرْآنُ فَقَطْ .

« وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (سُورَةُ (الْفُرْقَانُ الْآيَةُ 30)

وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ بُأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿ الْأَعْرَافُ : 175 ﴾
أَنْسَلَخَ أَي تَرَكَ آيَاتِ اللَّهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، وَتَرَكَ الْقِيمَ وَالْأَخْلَاقَ الَّتِي يَأْمُرُ بِهَا الْكِتَابُ ، وَخَلَعَهَا كَمَا يَخْلَعُ
الْبَاسُ فَلَمَّا أَنْسَلَخَ مِنْهَا أَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ، أَي : تَسَلَّطَ عَلَيْهِ حِينَ خَرَجَ مِنَ الْحِصْنِ الْحَصِينِ ، وَصَارَ إِلَى
أَسْفَلَ سَافِلِينَ ، ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنَ الرَّاشِدِينَ الْمُرْشِدِينَ . وَهَذَا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
خَذَلَهُ وَوَكَّلَهُ إِلَى نَفْسِهِ ، فَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ بِأَنَّ تَوْفِيقَهُ لِلْعَمَلِ بِهَا ، فَيَرْتَفِعُ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَيَتَحَصَّنُ مِنْ أَعْدَائِهِ . ﴿ وَلَكِنَّهُ ﴾ فَعَلُ مَا يَتَّقِضِي الْخِذْلَانَ ، فَأَخَذَ إِلَى الْأَرْضِ ،
أَي : إِلَى الشَّهَوَاتِ السُّفْلِيَّةِ ، وَالْمَقَاصِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ . ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
وَقَالَ تَعَالَى : ؟ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ؟

إِنَّ الَّذِينَ فَزَعُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَيْسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِتْمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ؟
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْبِدُ اللَّهَ عَلَى ؟ حَرْفٌ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى ؟ وَجْهَهُ
خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذ ؟ لَكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ؟ II الْحَجَّ

فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ هَلْ عَمْرَأُ

لَقَدْ كَانَ مِنْهُجُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْمُسْلِمِينَ وَاضِحًا فِي تَحْذِيرِهِمْ وَإِخْبَارِهِمْ بِأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ الَّذِي
اِتَّشَلَهُمْ مِنَ الظُّلْمَاتِ وَأَخْرَجَهُمْ إِلَى نُورِ الْمَعْرِفَةِ لِذَلِكَ فَلَا سَبِيلَ لَهُمْ لِلْحِفَاظِ عَلَى وَحْدَتِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ إِلَّا
بِاتِّبَاعِ مَنْهَجِهِ وَطَرِيقِهِ لَكِنَّ أُنَّ الَّذِي حَصَلَ هُوَ مُصِيبَةٌ وَكَارِثَةٌ وَقَعَتْ بِهِمْ بِسَبَبِ انْحِرَافِ عَقْلِهِمُ الدِّينِيِّ
عَنِ الطَّرِيقِ وَأَنْسَلَاخِهِ فَخَلَقَ لِنَفْسِهِ طُرُقًا وَوَسَائِلَ بِدَوَافِعِ عَصَبِيَّةِ جَاهِلِيَّةٍ أَوْ بِسَبَبِ حُمَى التَّقْلِيدِ

الْأَعْمَى، وَلَمْ يَمُضِ وَقْتًا طَوِيلًا حَتَّى أَشَادَ هَذَا الْعَقْلُ أَدْيَانًا وَطُؤَانًا وَفِرْقًا وَمَذَاهِبًا كُلَّ فِرْقٍ بِمَا لَدَيْهِ
فِرْحُونَ . كَانَ لَدَيْهِمْ قِرَآنًا وَاحِدًا اِغْتَصَمُوا حَوْلَهُ وَنَبِيًّا كَرِيمًا وَاحِدًا وَشِرْعَةً وَمَنْهَجًا وَاحِدًا حَذَرَهُمُ اللَّهُ
الْاِتِّبَاعُ عَنْهَا أَوْ الْاِنْحِرَافِ لِكِنَّهُمْ صَارُوا مِثْلَ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَنَسُوا مَا ذَكَرُوا بِهِ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا

يَفْعَلُونَ ﴿ [الأعام : 159]

وَهَجَرُوا كُتُبَهُمْ وَحَرْفُوهَا وَأَشْرَوْا بِهَا ثَمَنًا قَلِيلًا وَنَحِمْتُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ
وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [الأعام : 153] .

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

إشكالية المعاصرة والتراث في مرجعية التدوين العربي

أَنَّ الْمَسَائِلَ الْفُلْسَفِيَّةَ التَّارِيخِيَّةَ الْمَعْرِفِيَّةَ التَّرَائِيَّةَ الَّتِي أَوْلَاهَا الْمُفَكِّرُ الْجَابِرِيُّ اهْتِمَامًا، هُوَ عَصْرُ التَّدْوِينِ
لِلْعُلُومِ وَالْثَّقَافَةِ وَالْفِقْهِ وَالتَّشْرِيْعِ وَالْأَدَبِ، فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْهَجْرِيِّ، بِنَهَايَةِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الْأَوَّلِ، وَأَشَارَ
الْجَابِرِيُّ لَهَا فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ فِي كِتَابَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ الْفُلْسَفِيَّةِ الْقِيَمَةِ، إِلَى وُجُودِ تَنَاقُضٍ وَازْدِوَاجِيَّةٍ فِي
قِرَاءَاتِنَا الْمُبَايِنَةِ لِعَصْرِ التَّدْوِينِ الْعَرَبِيِّ الْأَوَّلِ، أَيْ إِنْ التَّدْوِينِ بِمَا مِثْلُهُ مِنْ مُفْصَلِيهِ حَضَارِيَّةً هَامَّةً فِي
تَارِيخِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ سِلَاحًا ذَا حَدَّيْنِ، فِي جَنْبَيْهِ الْإِيْجَابِيَّةُ الْأُولَى أَنَّهُ حَفِظَ وَدُونَ وَتَرْجَمَ
أَيْضًا كُلَّ مُعْطِيَاتِ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ تَحْدِيدًا مِنْ أَخْبَارِ وَتُرَاثِ وَهَوِيَّةِ وَذَاتِ لِلْوُجُودِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ .

عصر التَّدْوِينِ الْعَبَّاسِيِّ

وَلَمْ يَغْفُلِ التَّدْوِينُ مَا لِلآخِرِينَ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ مِنْ إِسْهَامٍ فَاعِلٍ وَدَوْرٍ مُهِمٍّ فِي نُشُوءِ وَبِنَاءِ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ، فَبِئْسَ هَذَا الْعَصْرُ، عَصْرُ التَّدْوِينِ أَزْدَهَرَتْ الْحَضَارَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي مَجَالَاتِ الْعُلُومِ عَلَيَّ
اِخْتِلافًا، وَأُصُولِ الدِّينِ وَالْإِجْتِهَادِ، وَالْفِقْهِ وَالتَّشْرِيْعِ، وَأَخْبَارِ الْأَدَبِ وَأَيَّامِ الْعَرَبِ، وَالْفُلْسَفَةِ أَيْضًا،
وَحَصَلَتْ الدَّرُورَةُ فِي مُجْمَلِ مَا ذَكَرْنَاهُ، وَبَرَزَ عُلَمَاءُ أَفْذَاذِ شَكَلُوا بِمُجْهَدَاتِهِمْ وَعَطَّاهُمْ لَبْنَهُ وَأَسَّسَ تِلْكَ
النُّهْضَةَ، عَلَ سَبِيلِ الْإِسْتِشْهَادِ وَلَيْسَ الْحَضْرُ يُحْضِرُنَا، الْفَارَابِيُّ، وَابْنُ سِينَا، وَالْبَيْرُونِيُّ، وَالْخُوَارِزْمِيُّ،
وَالْمُنْتَبِي، وَفَرَّقَ الْمُعْتَزِلَةَ، وَأَخْوَانَ الصِّفَا، وَالْأَشْعَرِيَّةَ، وَبَيْتَ الْحِكْمَةِ . وَشَهِدَ أَوَاخِرَ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ
الْأَوَّلِ هَذَا بُدُورَ الْفَنِّ وَالْإِضْطِرَابَاتِ الَّتِي تَعَمَّقَتْ بِمُرُورِ الْوَقْتِ، وَزَادَ التَّنَافُسُ وَالصَّرَاحُ اِخْتِدَامًا عَلَيَّ
تَقَاسَمِ التُّفُوزِ وَالسُّلْطَةِ، وَالِاسْتِمْتَاعِ بِالْمَغَانِمِ وَالْمَكَاسِبِ وَالْمَلَذَّاتِ أَيْضًا .

كَانَتْ تِلْكَ الْإِرْهَاصَاتُ الَّتِي أُغْثِمْتَ دَاخِلِيًّا بِمُسَانَدَةِ الْخَارِجِ مِنَ التَّمْهِيدِ لِسُقُوطِ بَعْدَادَ عَلَى يَدِ هُوَلَاكُو
بَعْدَ مُرُورِ الْقَرْنِ وَنِصْفِ الْقَرْنِ عَلَى اَزْدِهَارِ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي التَّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ
السَّادِسِ الْهَجْرِيِّ 656 ق .

فِي عَصْرِ التَّدْوِينِ الْعَبَّاسِيِّ الْأَوَّلِ، الْأَخِيرِ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ بِفَضْلِهِ أَيُّ التَّدْوِينِ أَصْبَحُوا يَمْتَلِكُونَ
أَرْضِيَّةً وَقُوفَ صُلْبِهِ، تَمَثَّلَ لَهُمْ مَرْجِعِيَّةُ حَضَارِيَّةٍ لَهَا قَابِلِيَّةُ الْإِنْفِتَاحِ عَلَى الْغَيْرِ دُونَ خَوْفٍ وَلَا وَجَلٍّ، عَلَى
مُعْظَمِ تَقَافَاتِ وَحَضَارَاتِ الْعَالَمِ السَّائِدَةِ حِينَئِذِكَ، كَالْفَارِسِيَّةِ، وَالْيُونَانِيَّةِ وَالرُّومَانِيَّةِ، وَالْهِنْدِيَّةِ وَالصِّينِيَّةِ،
وَكَانَ هَذَا التَّمَارُجُ التَّقَافِيَّ الْحَضَارِيَّ عَامِلَ إِغْنَاءٍ لِلنُّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَعَامِلَ تَأْثِيرٍ فِي تَقَافَةِ
الْأَخْرَيْنِ أَيْضًا .

وَتَعَامَلُ الْعَرَبُ الْمُسْلِمُونَ مَعَ تِلْكَ التَّقَافَاتِ بِثِقَّةٍ بَعْدَ تَمَكُّنِهِمْ مِنْ أُنْبَعَادِ اسْتِهْدَافِ الْخَارِجِ لَهُمْ مُمَثَلًا بِدَوْلِهِ
فَارِسَ وَالِدَوْلَةَ الْبِيرُزْنِيَّةِ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ تَأْمِينِ حُدُودِ دَوْلَتِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ، قَبْلَ
شُرُوعِهِمْ بِالْإِمْتِدَادِ الْمَعْرِفِيِّ التَّقَافِيِّ بِالْوَاوِزِيِّ إِلَى جَانِبِهِ مَعَ الْإِمْتِدَادِ فِي الْفُتُوحَاتِ وَنَقْلِ الْإِسْلَامِ إِلَى
أَطْرَافِ الْجُغْرَافِيَا الْمَحَادِدَةِ لِلْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ .

فَكَانَ لِأَبَدٍ مِنَ الْأَنْصِرَافِ وَالْإِهْتِمَامِ بِالْفَلَسَفَةِ وَتَدْوِينِ الْمَعَارِفِ وَتَرْجَمَةِ الْأَجْنَبِيِّ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، وَقَتْلَ مَا عِنْدَ
الْعَرَبِ لِغَيْرِهِمْ .

كُلُّ هَذَا الْإِنْجَازِ الْعَظِيمِ الَّذِي حَقَّقَهُ عَصْرُ التَّدْوِينِ الْعَبَّاسِيِّ لِلْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ، وَالَّذِي شَكَلَ طَافِرَةَ
حَضَارِيَّةٍ مُفْصَلِيَّةٍ فِي تَارِيخِهِمْ بِكُلِّ الْمَقَائِيسِ، إِلَّا أَنَّا نَجِدُهُ وَنَلَأَسَفُ عَصْرَ التَّدْوِينِ أَصْبَحَ بَعْدَ مُرُورِ

مَرَّاحِلَ تَارِيحِيَّةٍ لَاحِقَةً فَحَا لِلتَّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَصَنَمًا يُعْبَدُ وَيُقَدَّسُ كَمَرْجِعِيَّةٍ ثَابِتَةٍ لَا تُقْبَلُ التَّطَوُّرُ
وَالتَّغْيِيرُ، وَتَأْبَى مُسَايِرَةَ التَّحَوُّلَاتِ فِي الْحَيَاةِ.

أَنْ مَا بَنَاهُ وَشَيَّدَهُ عَصْرُ التَّدْوِينِ مِنْ اَزْدِهَارٍ، أَصْبَحَ فِي وَقْتٍ لَاحِقٍ مَرْجِعِيَّةً صَنَمِيَّةً يَتَدَاوَلُهَا مِنْ كُلِّ
حَدَبٍ وَصَوَّبَ وَفِي مُخْتَلَفِ الْجَوَانِبِ الْجُمُودَ الْعَقَائِدِيَّةَ وَالْمَذْهَبِيَّةَ وَالتَّعَصُّبَ وَالْإِنْكَهَاءَ عَلَى الذَّاتِ،
وَكُنَّا تَجَ عَرَضِيًّا لِذَلِكَ تُبْعَثُ أَنْسِجَامٌ وَتَنَاقُصٌ دُورَ الْأَقْلِيَّاتِ مِنْ أَصُولٍ غَيْرِ عَرَبِيَّةٍ وَإِسْلَامِيَّةٍ.

نَعَمْ كَانَ لِلشُّعُوبِيَّةِ دَوْرًا هَامِشِيًّا ضَخْمَةً الْمُؤَرِّخُونَ وَأَعْطَوْهُ أَكْبَرَ مِنْ حَجْمِهِ، الْإِسْتِهْدَافَ الشُّعُوبِيَّةِ
الِدَّاخِلِيَّةِ تَوَقَّفَ وَانْتَهَى تَأْثِيرُهُ مِنْ إِنْكَائِيَّةِ اسْتِمْرَارِهِ تَقْعِيدَ التَّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي ثَوَابِتِهَا الْعَرُوبِيَّةِ
الِإِسْلَامِيَّةِ، وَعَجَزَ عَنْ مُحَاصِرَتِهَا لِوَحْدَةٍ فِي دَوَامِهِ اجْتِرَارِ الذَّاتِ وَالْعَيْشِ عَلَى أَمْجَادٍ أَخَذَ يَتَجَاوَزُهَا
الزَّمْنَ وَالتَّارِيخَ.

عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ أَخَذَ مَا شَيَّدَهُ عَصْرُ التَّدْوِينِ مِنْ مُؤَرِّثِ ثِقَافِي حَضَارِيَّةٍ يَتَنَاوَشُهُ الْخَارِجُ بِالِاسْتِهْدَافِ
الْعَلَنِيِّ السَّافِرِ وَالتَّامِرِ الْبَاطِنِيِّ الْمُضْمَرِ الطَّامِعِ فِي تَحْرِيْبِ تَهْضَةِ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا بَدَأَ يَنْخَرُ وَجُودَ
هَذِهِ التَّهْضَةِ مِنَ الدَّاخِلِ التَّوَجُّسِ وَالْحَذَرِ وَالْخَوْفِ الْمُبَالِغِ فِيهِ، الَّذِي قَادَ إِلَى حَتْمِيَّةِ التَّزَمَّتِ وَالْجُمُودِ
وَالْإِنْغِلَاقِ وَالْإِنْكَهَاءِ عَلَى الذَّاتِ، مَخَافَةَ أَذَابِهِ وَتَضْيِيعِ الْهُويَّةِ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ لَهُمْ. وَكَانَتْ تَسَوَّقُ هَذِهِ
الْإِشْكَالِيَّةَ وَتَزِيدُهَا رُسُوحًا مَا أَشْرْنَا لَهُ فِي عَامِلِي الدَّاخِلِ وَالْخَارِجِ.

فِي إِشَارَاتٍ خَاطِفَةٍ لِلْجَابِرِيِّ الْمُحُ أَنْ الشَّيْءَ الْمُهْمُّ الَّذِي جَعَلَ مِنْ عَصْرِ التَّدْوِينِ بِمُعْطِيَّاتِهِ الثَّرَّةَ، يُمَثِّلُ
ثِقَافَةَ حَضَارِيَّةٍ مَحْنَطَةٍ لِتَكُونَ مُتَحَفِيَّةً تَعِيشُ عَلَى الْمَاضِي عَلَى حِسَابِ الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ. وَفِي
جَانِبٍ مِنْ هَذَا الْجُمُودِ وَالرُّكُودِ تَجَلَّى قُصُورٌ وَعَدَمٌ قُدْرَةِ التَّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِدْمَاجِ الْأَقْلِيَّاتِ الْقَوْمِيَّةِ

وَالْأَثْنِيَّةَ الَّتِي عَاشَتْ فِي كَفِّ نِكَاحِ النَّهْضَةِ، كَالْفَرَسِ وَالْأَتْرَاقِ وَالْبَرْبَرِ وَالْبَيْرُنْطِينِ وَكَذَلِكَ الْمَسِيحِيِّينَ
وَالْيَهُودِ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ، بِاسْتِثْنَاءِ فَرَاتٍ وَحَبِيزِهِ مِنْ تَارِيخِ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ رَبِّمَا كَانَتْ تَجْرِبَةٌ
الْأَنْدَلُسِ نُمُودَجِ مِثَالِي، مَعَ تَجْرِبَةٍ بَيَّتِ الْحِكْمَةَ فِي عَضْرِ الْمَأْمُونِ.

لَتُظْهِرَ وَتُصَبِّحَ قَضِيَّةَ الْأَقْلِيَّاتِ فِي الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ إِشْكَالِيَّةَ الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ، وَإِشْكَالِيَّةَ الْعَضْرِ
الْحَدِيثِ الْيَوْمِ أَيْضًا، عَلَى حِسَابِ مَصَالِحِ وَسَلَامَتِهِ وَحَدَهُ الْجَسَدِ الْعَرَبِيِّ الْقَوْمِيِّ وَدَرَهُ خَطَرَ التَّمْرِقِ
وَالنَّفْتِ عَنْهُ.

بَعْدَ مُضِيِّ عَشْرَاتِ الْقُرُونِ وَقَعَ الْمَشْرُوعُ التَّهْضُوي الْعَرَبِيِّ الْمُعَاصِرُ فِي الْمَحْذُورِ، فِي الْإِشْكَالِيَّةِ الْقَدِيمَةِ
الْجَدِيدَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ الْمُعَقَّدَةِ بِمُرُورِ الْوَقْتِ، تِلْكَ هِيَ إِشْكَالِيَّةُ الْمُعَاصِرَةِ وَالْثَرَاثِ، لَتَضَعُ هَذِهِ الْإِشْكَالِيَّةِ
الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ فِي مَازِقِ الْمُرَاوِحَةِ الزَّمَكَايَةِ التَّارِيخِيَّةِ.

لِذَا نَجِدُ الْجَابِرِيَّ يَنْبِرِي لِلدَّعْوَةِ إِلَى عَضْرِ تَدْوِينِ عَرَبِيٍّ إِسْلَامِيٍّ جَدِيدٍ، يُشْكَلُ مَرْجِعِيَّةً مُتَدَاخِلَةً فِي
تَغْذِيَّةِ الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ، لَا يُبْدَأُ عَضْرَ التَّدْوِينِ الْجَدِيدِ كَمَا فَعَلَ الْعَبَّاسِيُّونَ مِنْ قَبْلِ فِي الْعَضْرِ الْجَاهِلِيِّ
فَقَطُّ، وَكَأَنَّهَا لَمْ يَكُنْ لِلْعَرَبِ تَارِيخٌ قَبْلَ الْجَاهِلِيَّةِ وَإِنَّمَا يَجِبُ الرَّجُوعُ إِلَى تَدْوِينِ حَضَارَاتِ الْعَرَبِ الْقَدِيمَةِ،
حَضَارَاتِ مَا قَبْلَ التَّارِيخِ بَعْقَلَايَةِ وَقَدَّ جَرِيءٍ لَتَدْوِينِ تِلْكَ الْحَضَارَاتِ مِنْهُجِيًا بِمَا يُجْعَلُ مِنْهَا عَامِلٌ
إِعْنَاءَ لِتَثْبِيَتِ مَرْجِعِيَّةٍ تَحْقِيقِيَّةٍ تُعْطَى لِكُلِّ حَضَارَةٍ أَهَمَّ مُمَيِّزَاتِهَا الْحَيَّةِ الَّتِي لَا تَزَالُ فَاعِلَةٌ بَدَأًا مِنْ
السُّومَرِيِّينَ وَالْفَرَاعِنَةَ وَالْفِينِيْقِيِّينَ، وَالْكَعْنَابِيِّينَ وَحَضَارَةَ سَبَأٍ فِي الْيَمَنِ وَدَلْمُونَ فِي الْبَحْرَيْنِ... إلخ.

كما لا يغفل هذا المنهج التدويني المعاصر الحديث معالجة نقد ومراجعة كل هذا الموروث علمياً وعقلياً، وكذلك النظر بجديّة في إعادة دمج الأقليات بخصائصها المميّزة على وفق معطيات حضاريّة معاصرة، في جسد الأمة الواحدة.

وفي تأكيد هذا المنحى يقول الجابري يمكن القول بصفة عامّة أنّ التطوّرات السياسيّة والأيدلوجيّة التي عرفها الوطن العربيّ والعالم الإسلاميّ منذ أربعينيات القرن العشرين وإلى يومنا هذا قد أكّدت حقيقتين، الأولى أنّ العروبة بدون الإسلام نفى للعروبة، والثانية أنّ الرابطة الإسلاميّة لا تكفي وحدها في تحديد هويته قوم من الأقاليم المسلمة، بل في قيام دولة جامعته للمسلمين.

أنّ عصر النهضة الأوربيّة وحركة الإصلاح الدينيّ في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديّ، كانت بالنسبة للغرب بداية وضع الأمور في نصابها الصحيح والوقوف على سكة المسار النهضوي الحضاريّ في سيرورته التطوريّة التاريخيّة، توجت في أعلى مراتبها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديّ، ناهيك بما تلاها من طفرة معجزة تحققت في القرن العشرين.

مختمة القرن بزبوع عصر العولمة، عصر التكنولوجيا والاتصالات، وانتقال العلوم والمعارف، والتنافس الاقتصاديّ، والتحسّب من اندماج الهويات المحليّة والقوميّة.

في مقابل هذا الاندفاع التصاعدي المذهل الأميركيّ تحديداً والأوربيّ عموماً، كانت محصلته النهائيّة عندنا دُخولنا نفق ما أطلق عليه الجابريّ تسمية أيدلوجيا القزو وسطيّة العربيّة وإمام معضلة ووقوفنا اليوم وجهاً لوجهٍ أمّا إشكاليّة المعاصرة والتراث، المعضلة المزدوجة، والموقف الأزدواجي المركّب منها الذي نعدم فيه امتلاكنا إرادة ومقومات وإمكانيّات الاختيار بين قطبيها المتصارعين لدينا، المنسجمين

لدى غيرنا من المجتمعات، فنحن على صعيد الغزو التّحديثي العلمي والتّكنولوجي والثقافي والاتصالي الأمريكي والأوروبي، لا يوجد لدينا خيار الرّفص أو القبول بطواعية ورغبة، وإنما الأذعان للقبول من دون شرط أو قيد، فهذه جميعها تدخل في مطلّبات حيّاتية لأغنى لنا عنها. ابتداءً من الهاتف والسيارة والطّار والطنّارة انتهاءً إلى تكنولوجيا عصر العولمة.

من جانب ازدواجي آخر فعندنا العقل السياسي المتنفذ يعاني هو الآخر من ازدواجية منقسمة على نفسها إزاء مسألة التّحديث والتّبعيّة للغرب، فالعقل السياسي لا يمانع كما لا يستطيع إن يجاهر بالمعاداة للتّحديث والعصرنة الغربيّة وهي تغزونا في عقر دارنا، في حين يبرز التّطرف الأيديولوجي ضمن العقل السياسي المتنفذ أو بمعزل عنه مناوئته وعداوتة الاخرابيه لحدّاته الحياة وللتّحديث العام في مجتمعاتنا، سواء جاءنا من الغرب أو من غيره.

إذن المعاصرة والتّراث تُشكل لدينا على كافّة المستويات والصّعد في السياسة والاقتصاد والثّقافة ازدواجية مُركّبة، والنّظرة التّنظيريّة وليس العماليه التّطبيقيه على امتداد قريتين من الزمن مضيا من الآن، تقوم على تحليلات وتفسيرات مزدوجة كما أشرنا، لا تقوم على منطوق أعمال العقل في المراجعة الأمينة لموروثنا الثقافي والحضاري بمجملة، كي نجعل منه مرجعية انطلاق تتواصل بالحاضر والمستقبل، وليس الغاء تعريبيّا متكررا وناكرا للتّراث وكذلك قُصورنا في تحديد آليات معرفيّة تُقبل التطبيق الواقعي الاجتماعيّ نقود المجتمعات العربيّة وتضعها على سكة المعاصرة واللحاق بالركب العالميّ المتواتر في سرعة تقدّمه.

إِمَامُ هَذِهِ الْمُعْضَلَةِ يَرَى الْمَفْكَرَ الْجَابِرِيَّ مِنْ خِلَالِ تَفْحُصِهِ لِلتَّرَاثِ الثَّقَافِيِّ الْعَرَبِيِّ وَالْمَعْرِفِيِّ، إِنْ نَظُمَ
 الْمَعْرِفَةَ الثَّقَافِيَّةَ مِنَ النَّاحِيَةِ النَّظَرِيَّةِ ثَلَاثَةً، النَّظَامَ الْبَيِّنَاتِيَّ، النَّظَامَ الْعِرْفَانِيَّ، النَّظَامَ الْبُرْهَانِيَّ، وَقَادَهُ ذَلِكَ إِلَى
 مَا دَعَا بِهِ النَّظْمُ أَوْ الْمُحَدَّدَاتِ الَّتِي تُحَدِّدُ الْعَقْلَ الْعَرَبِيَّ وَالسِّيَاسِيَّ مِنْهُ عَلَى الْوَجْهِ التَّحْدِيدِ، فَكَانَ أَنْ
 وَجَدَهَا هِيَ الْأُخْرَى ثَلَاثًا أَيْضًا يُقَوْمُ عَلَيْهَا الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ السِّيَاسِيَّ الْعَمَلَانِيَّ التَّطْبِيقِيَّ الْقَبِيلَةَ، الْغَنِيمَةَ،
 الْعَقِيدَةَ، فَدَعَا الْجَابِرِيَّ إِلَى تَحْوِيلِ الْقَبِيلَةِ إِلَى لِقَابِهَا، أَيَّ إِلَى نَظْمِ سِيَاسِيٍّ وَاجْتِمَاعِيٍّ، كَمَا دُعِيَ إِلَى
 تَحْوِيلِ الْغَنِيمَةِ إِلَى اقْتِصَادِ ضَرِيْبَةٍ، وَتَحْوِيلِ الْعَقِيدَةِ الْمَذْهَبِيَّةِ إِلَى مُجَرَّدِ رَأْيٍ، ذَلِكَ كُلُّهُ رَغْبَةٌ مِنْهُ فِي
 تَحْقِيقِ الْحَدَاثَةِ السِّيَاسِيَّةِ حَيْثُ تَقُومُ عَلَى مَبْدَآئِ الْعَقْلَانِيَّةِ وَالْدِيمُقْرَاطِيَّةِ، وَهُمَا مَا نَفَقِدُهُمَا الْيَوْمَ فِي
 جَمِيعِ أَقْطَارِ الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ.

يُشْرِحُ الْجَابِرِيَّ إِجَابَتَهُ عَلَى التَّسْأُولِ لِمَاذَا لَا يَعِيشُ الْعَرَبُ الْيَوْمَ إِشْكَالِيَّةً مُعَاَصِرَةً وَتُرَاثًا؟ وَكَيْفَ اسْتِقَادَ
 الْعَرَبُ مِنْ مَاضِيهِمُ التَّارِيخِيَّ وَالْحَضَارِيَّ وَالتَّرَاثِيَّ؟ إِجَابَتُهُ كَانَتْ

تَحْدِيَاثُ الْعَصْرِ

I- الْأَوْرُوبِيُّونَ رَثَبُوا مَاضِيَهُمُ التَّارِيخِيَّ وَالتَّرَاثِيَّ حَسَبَ الْقُرُونِ، بِمَعْنَى التَّحْقِيقِ الزَّمْنِيِّ وَالتَّارِيخِيَّ
 وَالْمَكَانِيَّ، وَجَعَلُوا مِنْ كُلِّ قَرْنٍ حِقْبَةً تَمَيَّزَتْ بِخَاصِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، أَوْ بِجُمْلَةٍ خَاصِيَّاتٍ تُجْعَلُ مِنْهَا وَحْدَهُ
 ثَقَافِيَّةً، حَلْقَةً فِي سِلْسِلَةٍ مُتَّصِلَةٍ، السَّابِقِ فِيهَا يُفَسِّرُ الْآخِرَ وَيُؤَسِّسُهُ، وَالْآخِرُ فِيهَا يُعْنِي السَّابِقَ
 وَيُوضِّحُهُ، وَعَمِلُوا عَلَى سَدِّ الثَّغْرَاتِ وَإِبْرَازِ عَنَاصِرِ الْوَحْدَةِ فِي تَارِيخِهِمُ الثَّقَافِيِّ مُبْرَرِينَ مِنْهُ مَا يَسْتَجِيبُ
 لِأَهْتِمَامَاتِهِمْ، مَهْمَشِينَ مَا لَا يَسْتَجِيبُ. الْجَابِرِيَّ بَتَّصَّرَفَ .

2- اسْتَعْمَلُوا الْمَقْصَدَ لِإِضْفَاءِ الْمَعْقُولِيَّةِ عَلَى سَيْرِهِ تَارِيخِيَّهِمْ الثَّقَافِيِّ، وَتَمَوُّجَاتِهِ لِجَعْلِ الْعَقْلِ يَسْوَدَ
التَّارِيخِ، وَجَعَلَ التَّارِيخَ يَحْرُكُ الْعَقْلَ، الْهَدَفِ مِنْ ذَلِكَ هُوَ إِقَامَةُ اسْتِمْرَارِيَّةِ تَشْكِيلِ إِطَارًا مُرْجِعِيًّا ثَابِتًا
وَوَاضِحًا، تَرْتَبُ فِيهِ الْأَفْكَارُ وَالْمَذَاهِبُ تَرْتِيبًا مَنْطِقِيًّا وَتَارِيخِيًّا فِي أَنْ وَاحِدٍ. بِحَيْثُ يَسْهُلُ الْفَضْلُ فِيهِ
بَيْنَ مَا قَبْلَ أَيِّ الْمَاضِي، وَبَيْنَ مَا بَعْدَ الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ. الْجَابِرِيُّ بِتَصَرُّفٍ .

3- بِهَذَا التَّنْظِيمِ، تَنْظِيمِ التَّارِيخِ وَالثَّقَافَةِ وَالْمُوروثِ بِصُورَةٍ تُجْعَلُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ عَلَيْهِمُ التَّلَطُّعِ حَتَّى عَلَى
صَعِيدِ الْحُلْمِ إِلَى عَوْدِهِ مَا قَبْلَ لِيَحِلَّ مَحَلُّ مَا بَعْدَ، لِذَلِكَ نَجِدُ الْأُورِبِيِّينَ يَتَّجِهُونَ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ، يُوَجِّهُونَهُ،
يُسَائِلُونَهُ، بَلْ يُسَابِقُونَهُ دُونَ أَنْ يَنْكُرُوا لِمَاضِيهِمْ، أَوْ يَجْعَلُوا مِنْهُ صُورَةً لِمُسْتَقْبَلِهِمْ. الْجَابِرِيُّ بِتَصَرُّفٍ .

4- مَا نَسَمِيهِ نَحْنُ الْيَوْمَ تَحْدِيثَاتِ الْعَصْرِ فِيهِ بِالنَّسْبَةِ لَهُمْ، لِلأُورِبِيِّينَ لَيْسَتْ تَحْدِيثَاتٌ أُتِيَتْ مِنْ خَارِجٍ، بَلْ
هِيَ بِنْتٌ حَاضِرُهُمْ، وَنَتِيجَةٌ رَبَطَ مَاضِيَهُمْ وَحَاضِرُهُمْ فِي وَعِيهِمْ، فَالْعَصْرُ لَا يَتَحَدَّثُ لَهُمْ لِأَنَّهُ عَصْرُهُمْ، بَلْ
الْعَكْسُ فَهُمْ يُسَابِقُونَهُ وَيَسْتَشْرِفُونَ أَفَاقَ الْمُسْتَقْبَلِ وَيَتَنَبَّأُونَ بِمَشَاكِلِهِ، وَمُسْتَجِدَّاتِهِ فَيَأْخُذُونَ فِي تَكْيِيفِ
حَاضِرُهُمْ، مَعَ مَا تَبَقِيَ فِيهِ مِنْ مَاضِيِهِمْ. الْجَابِرِيُّ بِتَصَرُّفٍ

5- التَّارِيخِيَّاتِيَّةِ الَّتِي تُشْكَلُ مَعَ الْعَقْلِيَّةِ الدَّعَامَةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلْفِكْرِ الْأُورِبِيِّ الْحَدِيثِ الْمَعَاصِرِ، وَالتَّارِيخِيَّاتِيَّةِ
وَالْعَقْلِيَّةِ سُلُوكَانِ فِكْرِيَّانِ لَا يَنْفَصِلَانِ، التَّارِيخِيَّاتِيَّةِ هِيَ جَعْلُ الْعَقْلِ حَاضِرًا فِي التَّارِيخِ يَنْظُمُهُ عَلَى صَعِيدِ
الْوَعْيِ وَيُحْرِكُهُ عَلَى صَعِيدِ الْمَمَارَسَةِ، وَالْعَقْلِيَّةِ هِيَ جَعْلُ التَّارِيخِ حَاضِرًا فِي الْعَقْلِ يُلْهِمُهُ الدُّرُوسُ
وَالْعِبَرُ وَيَحْمِلُهُ، مِنْ حِينِ إِلَى الْآخِرِ عَلَى مُرَاجَعَةِ تَصَوُّرَاتِهِ وَفَحْصِ مَبَادِيئِهِ وَطَرِيقَةِ إِتِّجَاهِهِ .

المصدر د . مُحَمَّد عَابِدِ الْجَابِرِي (الْمَسْأَلَةُ الثَّقَافِيَّة فِي الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ) سِلْسِلَةُ الثَّقَافَةِ الْقَوْمِيَّة 25
«مَرْكَزُ دِرَاسَاتِ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ بَبْرُوت» جَمِيعِ الْأَقْبَاسَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ مِنْ الْكِتَابِ بِتَصَرُّفٍ مِنْ
الْكَاتِبِ .

العقل الديني العربي في العصرين الحديث والمعاصر

مَدخل

يُنظَرُ لِلتَّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَسَيَاقَاتِ نَشْأَتِهَا بِوَضْعِهَا تَبَاحِ ذَوَاتِ تَوَاضَعَتِ السَّرْدِيَّاتِ التَّارِيخِيَّةِ، وَبِوَجْهِ خَاصِّ
الْمَقَرَّرَاتِ الْمُدْرَسِيَّةِ عَلَى وَصْفِهِمْ بِمُتَّفِي، أَوْ رَوَادِ «عَصْرِ التَّهْضَةِ»، نَظْرًا لِذَوْرِهِمْ فِي التَّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الَّتِي يُورِخُ لَهَا بِحَمْلِهِ نَابِلْيُونُ بُونَابَرْتٌ عَلَى مِصْرَ، وَبِلَادِ الشَّامِ.

وَلَعَلَّ السَّرْدِيَّاتِ الْمُدْرَسِيَّةِ، أَوْ الْمَقَرَّرَاتِ الْمُدْرَسِيَّةِ تَمَثَّلُ التَّمُودِجَ الْأَمَثَلُ لِالْخَبَارِ هَذِهِ الْمَقُولَةِ، لِكُونِهَا نَافِذَةٌ
عَلَى الثَّقَافَةِ تَكَادُ تَتَفَوَّقُ عَلَى الْكُتُبِ، فَهِيَ صِيَاغَةٌ شَبِهُ رَسْمِيَّةٍ لِمَا تُرِيدُ التُّخْبَةَ (السُّلْطَةَ) أَنْ تُكْرِسَهُ
فِي أَذْهَانِ الْأَجْيَالِ، وَالتَّانِشَةَ عَلَى حَدِّ تَعْيِيرِ بِلَاوَتِ (الْمُرْكَزِيَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ، ص 22). وَبِمَا أَنَّ التَّهْضَةَ
عِبَارَةٌ عَنِ حَرَكَةِ ثَقَافِيَّةٍ تَشْمَلُ كَافَّةَ التَّوَاحِي الْعِلْمِيَّةِ وَالْفَنِّيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ، وَمَسَالِكِ أُخْرَى، يُفْرَضُ بِهَا
مُجْتَمَعَةٌ أَنْ تَضَطَّلِعَ بِتَحْوِيلِ طَالِ الْبِنَى الْعَمِيقَةَ لِلتَّكْوِينِ الثَّقَافِيِّ وَالْحَضَارِيِّ لِمَجْمُوعِهِ سُكَّانِيهِ، تَمَثَّلُ فِي
تَكْوِينِهَا أُمَّةٌ تَبَعًا لِمَفَاهِيمِ عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ السِّيَاسِيِّ.

تُحَدِّدُ التَّهْضَةُ أَجْرَائِيَا بِأَنَّهَا فِعْلٌ تَعْيِيرٌ يَهْدِفُ إِلَى تَبْدِيدِ قِيَمِ، وَأِنْسَاقِ الْإِنْكَفَاءِ، وَالْغِيَابِ لِمَعْنَى الْوَعْيِ
بِالْإِنَا بِسَبَبِ حَالَةِ الْإِنْعِلَاقِ، وَالضُّمُورِ لِبِنَى حَضَارِيَّةٍ كَانَتْ قَائِمَةً، أَوْ تَوَقَّفَتْ، أَوْ تَجَمَّدَتْ بِفِعْلِ عَوَامِلِ
مُعَدَّةٍ، فَالتَّهْضَةُ فِي مَعْنَاهَا الْبَسِيطِ نَسَقٌ لِاسْتِرْجَاعِ تَمُودِجِ حَضَارِيٍّ، وَحَرَكَةٌ إِخْيَاءٍ يَهْضُ بِهَا أَفْرَادٌ
فِي سِيَاقِ أَشْمَلِ، وَهِيَ مَرْحَلَةٌ يَنْبَغِي أَنْ تُفْضِيَ إِلَى خُلُقِ كِيَانِ سِيَاسِيِّ، أَوْ ثَقَافِيٍّ حَضَارِيٍّ مُتَمَاسِكِ،
يَمَثِّلُ بِنُودِجِ الدَّوْلَةِ الْقَوِيَّةِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ وُجُودِ عِدَّةِ عَوَامِلٍ لِلتَّهْضَةِ، كَالْمَنَاحِ السِّيَاسِيِّ، وَظُهُورِ
الطَّبَاعَةِ وَالصَّحَافَةِ وَالثَّقَافِ مَعَ الْآخَرِ، غَيْرُ أَنَّ الْمُتَّفَقَ يَمَثِّلُ مَرْكَزَ الْفِعْلِ التَّهْضِيِّ، وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ
الْمَسْأَلَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِقِرَاءَةِ التَّارِيخِ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ، يَنْبَغِي أَنْ يَتِمَّ عَبْرَ الْإِتِّكَاءِ عَلَى مَنْظُورِ
الرِّتْجَاعِيِّ مُتَّصِلِ بِالْحَاضِرِ، بِحَيْثُ يُنظَرُ لِتَنَائِجِ، وَمُحَصَّلَاتِ مَا أَنْجَزَ، بِإِعْتِبَارِهِ سِيرُورِهِ، وَفِعْلِ إِنْجَازِ

مُسْتَمِرٌّ، بَعِيدًا عَنِ مُنْظُورِ الْمُؤَسَّسَةِ الَّتِي أُوجِدَتْ السَّرْدِيَّةُ التَّارِيخِيَّةُ، وَالَّتِي أَثْبَتَتْ بِفِعْلِ الرَّابِطِ الْعُضْوِيِّ
بَيْنَ الْمُؤَسَّسَةِ وَالْمُتَّفِقِ، وَلِهَذَا يَنْبَغِي الْإِنْفِكَافُ الْكَامِلُ عَنِ سَرْدِيَّةِ الْمُؤَسَّسَةِ الرَّسْمِيَّةِ بِمُتَّفِقِيهَا الْمُفْتَرِضِينَ،
وَهَذَا يَتَطَلَّبُ مُرَاجَعَةَ لِشَهَادَاتِ وَوَقَائِعِ التَّارِيخِ، وَسَرْدِيَّاتِهِ، وَلَا سِيَّمَا فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِتَحْقِيقِ التَّنْهَضَةِ الَّتِي
تَجَتْ بِفِعْلِ هَؤُلَاءِ التَّنْهَضِيِّينَ الَّذِينَ يَنْبَغِي أَنْ يُعَادَ تَقْيِيمُ أَدْوَارِهِمْ، بِإِعْبَارِهِمْ مُتَّفِقِي عَصْرِ التَّنْهَضَةِ، إِذْ هُمْ
أَقْرَبُ إِلَى الْمُتَعَلِّمِينَ، أَوْ السِّيَاسِيِّينَ، وَذَلِكَ لِإِتْفَاءِ مَفَاهِيمِيَّةِ وَأَجْرَائِيَّةِ دَوْرِ الْمُتَّفِقِ الْحَقِيقِيِّ، تَبَعًا لِعِدَّةِ
عَوَامِلٍ، وَهَذَا يَعْنِي بِالْمُحْصَلِ عَدَمُ اكْتِمَالِ الْمَشْرُوعِ التَّنْهَضِيِّ، أَوْ انْجِرَافُهُ عَنِ مَسَارِهِ.

تَذَهَبُ مُعْظَمُ الدَّرَاسَاتِ، وَكَتَبَ التَّارِيخِ إِلَى الْإِتْيَانِ عَلَى أَدْوَارِ كُلِّ مِنْ رِفَاعَةِ الطَّهَطَاوِيِّ، وَخَيْرِ الدِّينِ
التُّونِسِيِّ، وَبَطْرَسِ الْبُسْتَانِيِّ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ الْكُوكَابِيِّ، وَمُحَمَّدُ عَبْدِهِ، وَجَمَالِ الدِّينِ الْإِفْغَانِيِّ، وَمُحَمَّدُ
عَبْدُ الْوَهَّابِ، وَغَيْرِهِمْ فِي التَّاسِيْسِ لِلتَّنْهَضَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَبِذَلِكَ بَاتُوا مِنْ وَجْهِ نَظَرِ السَّرْدِيَّةِ الْمُدْرَسِيَّةِ-
رُؤَادًا وَمُتَّفِقِينَ اضْطَلَعُوا بِالتَّاسِيْسِ لِلْعَرَبِيِّ، وَلَكِنْ إِلَى مَدَى تَنْطَبِقِ مُوَاصَفَاتِ الْمُتَّفِقِ عَلَى هَذِهِ
الْأَسْمَاءِ، وَلَا سِيَّمَا مِنْ حَيْثُ الْأُسُسُ الْمَعْرِفِيَّةِ، بِالتَّجَاوُرِ مَعَ الْعَلَاقَاتِ الَّتِي تَحْكُمُ ثَابِتَةَ الْمُتَّفِقِ،
وَالسَّلْطَةَ، أَوْ الْمُؤَسَّسَةَ، بِمَظْهَرَاتِهَا كَالدَّوْلَةِ وَالطَّائِفَةِ وَالْمَرْجِعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالْقَوِيَّ الْإِسْتِعْمَارِيَّةِ، وَطَبَعًا سَلْطَهُ
الذَّاتِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْمُصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ ؟

مَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ الْإِطْلَاعَ عَلَى أَدْوَارِ الْمُتَّقِينَ الْيَهُودِ، وَدَوْرِهِمُ الْحَيَوِيِّ فِي الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالَّذِي أَسْهَمَ
بِطَرِيقِهِ أَوْ بِأُخْرَى فِي نَجَاحِ الْمَشْرُوعِ الصَّهْيُونِيِّ بِإِقَامَةِ وَطَنٍ قَوْمِيٍّ لِلْيَهُودِ فِي فِلَسْطِينَ، يَذْهَبُ بِنَا إِلَى
قِرَاءَةِ مُقَارَنَةٍ وَمُتَّفِحَصَّةٍ وَنَاقِدَةٍ لِمَالَاتِ التَّنْهَضَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي فَشَلَتْ فِي خَلْقِ تَمَازِجٍ لِدَوْلٍ حَقِيقِيَّةٍ، وَلَعَلَّ
هَذَا يَعُودُ إِلَى خَلَلٍ تَمَثَّلَ بِنَسَقِ مُتَّقِنِي الْمُؤَسَّسَةِ، مِمَّا أُوجِدَ حَالَةَ سُلْطَوِيَّةٍ تُعِيدُ إِتْجَاعَ نَفْسِهَا، أَفْضَتْ إِلَى

الواقع المُردِّي الذي تُعانيه في العِدِيدِ مِنَ الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ تَبِجَّةَ غِيَابِ مُتَقِنِينَ حَقِيقَتَيْنِ، مِمَّا يُعْنِي فَسَادَ العُقْلِ، وَعَدَمَ القُدْرَةِ عَلَى تَجَاوُزِ الأَزْمَةِ الحَضَارِيَّةِ.

لأبَدَ لَنَا مِنْ تَبَعِ مُفْهَمِ المُتَقَفِ مَعْرِفِيًّا يَهْدَفُ الوُصُولَ إِلَى الفُرْصِيَّةِ الَّتِي تُغَيِّبُ اِخْتِبَارَ تَحَقُّقِ مُفْهَمِ المُتَقَفِ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِرِجَالَاتِ عَصْرِ النُّهْضَةِ، مِنْ حَيْثُ خَاصِيَّةُ الحُرِّيَّةِ، وَعَدَمُ الأَرْتِهَانِ لِمرْجِعِيَّاتِ دِينِيَّةٍ أَوْ عَرَقِيَّةٍ أَوْ سِيَاسِيَّةٍ، أَوْ أَيِّ أَدْوَارٍ تَتَّصِلُ بِمَهَامِهِمْ فِي سِيَاقِ مُؤَسَّسَاتِي أَوْ سِيَاسِي، فَالْمُتَقَفُ هُوَ كِيَانٌ قَرْدِي، كَمَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ عَابِدُ الجَابِرِي، وَلِهَذَا لَأَبَدَ مِنَ اللُّجُوءِ إِلَى إِقَامَةِ فُرُوقٍ بَيْنَ مُفْهَمِ المُتَقَفِ، وَمَا عَدَاهُ مِنْ أَدْوَارٍ كَالْمُتَعَلِّمِ، وَالمُنْتَوِرِ وَالسِّيَاسِي. . . وَالَّذِينَ نَهَيَّاتُ لَهُمُ الظُّرُوفَ لِقيَادَةِ حَرَكَةِ تَعْلِيمِيَّةٍ، أَوْ تَحْدِيثِيَّةٍ فِي إِطَارِ السِّيَاقِ السَّلْطَوِيِّ القَائِمِ عَلَى تَوْظِيفِ قِيَمِ التَّعْلِيمِ وَالتَّحْدِيثِ لِتُكْرِيسِ الهَيْمَنَةِ وَالسَّلْطَةِ، أَوْ لِلإِبْقَاءِ عَلَى تَفُوقِهَا.

هَذَا الإِفْرَاضُ يَذْهَبُ إِلَى مُنَاقَشَةِ النُّهْضَةِ العَرَبِيَّةِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا كَانَتْ فِعْلًا مَبْتُورًا، وَمَشُوهَا نَظْرًا لِإِهْدَامِ دُورِ المُتَقَفِ الرِّسُولِيِّ، الَّذِي يَتَحَدَّدُ دُورَهُ بِالدَّفَاعِ عَنِ القِيَمِ الثَّابِتَةِ، مِنْ دُونَ أَنْ يَنْتَظِرَ الأَجْرَ أَوْ يَحْصُلَ عَلَى هِبَةٍ، نَاهِيكَ عَنِ قُدْرَتِهِ عَلَى خَرْقِ المُنَجَّزِ، وَالسَّعْيِ لِإِحْدَاثِ انْقِلَابٍ عَبَّرَ هَدَمَ عَوَامِلِ التَّخَلُّفِ وَالجُهْلِ الَّذِي تَبَّجُ بِفِعْلِ هَيْمَنَةِ السَّلْطَةِ الَّتِي اسْتَشْعَرَتْ دُتُوَ أَجْلِهَا بَعْدَ اسْتِنْفَادِ وَاسْتِهْلَاكِ أَدْوَانِهَا الَّتِي كَهَلَتْ لَهَا البَقَاءُ فِي زَمَنِ كَانِ يَحُلُو مِنْ القِيَمِ المَعْرِفِيَّةِ وَالحَضَارِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ عَلَى حِسَابِ تُكْرِيسِ قِيَمِ عَسْكَرِيَّةٍ، أَوْ إِقْطَاعِيَّةٍ، أَوْ أَمَاطٍ مِنَ التَّفْكِيرِ الدِّينِيِّ، أَوْ الإِقْتِصَادِيِّ الَّذِي يَضْمَنُ بَقَاءَهَا، فَتَحَوَّلَاتِ العَصْرِ، وَبُرُوزِ قَوِيٍّ جَدِيدَةٍ تَحْطِي بِأَدْوَانِ حَدِيثِهِ، يَسْتَدْعِي تَحَوُّلًا فِي التَّمَطِّ وَالسُّلُوكِ وَالمُمارَسَةِ، وَهَذَا يَهْدِدُ بَقَاءَ المُؤَسَّسَةِ (السَّلْطَةِ) الَّتِي لَجَأَتْ بِدَوْرِهَا إِلَى بُنْيَانِ قِيَمِ تَحْدِيثِيَّةٍ عَبَّرَ أَدَاهُ (المُتَقَفِ) الَّذِي

سَاهِمٌ بِخَلْقِ الْمَشْرُوعِ النَّهْضِيِّ (الزَّائِفِ) الَّذِي يُدْعَمُ بَقَاءِ الْمَوْسَسَةِ الَّتِي كَانَتْ بِحَاجَةٍ لِلتَّحْدِيثِ بِوَضْفِهِ
شَرْطًا لِلْبَقَاءِ، وَالْإِرْتِقَاءِ، وَفِي الْآنِ ذَاتِهِ، الْحِرْصُ عَلَى عَدَمِ خَلْقِ عَوَامِلٍ، يُمَكِّنُ أَنْ تُهْدَدَ أَوْ تُقْوَضَ
الْمَوْسَسَةُ السَّلْطَوِيَّةُ، وَ(مَفْهُومُ الْمَوْسَسَةِ هُنَا لَا يَعْنِي كَيْفَانًا سِيَاسِيًّا فَحَسْبُ) إِنَّمَا يَشْمَلُ الْمَوْسَسَةَ الدِّينِيَّةَ
وَالْإِسْتِعْمَارِيَّةَ وَالْقَبَلِيَّةَ وَالْعَائِلِيَّةَ وَالطَّائِفِيَّةَ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ مَرْجِعِيَّاتٍ يَرْتَهِنُ الْمُثَقَّفُ لَهَا، وَهَذَا يَسْتَوْجِبُ
بِالضَّرُورَةِ نَشْوءَ عِلَاقَةٍ بَيْنَ الْمُثَقَّفِ وَالسَّلْطَةِ، بِحَيْثُ تُهَيِّئُ النَّائِبَةُ عَلَى الْأَوَّلِ.

وَهَكَذَا، فَالْمَشْرُوعُ التَّحْدِيثِيُّ عِنْدَ ارْتِهَانِهِ لِلْمُسْتَقْبَلِ بِحُكْمِ التَّطَوُّرِ التَّارِيخِيِّ، سَوْفَ يُفْضِي إِلَى أَرْزَمَةٍ
تَمَثَّلُ بِإِمْتِلَاقِ الْمَعْرِفَةِ الْمُجْتَرَاهِ، بِنَاءً عَلَى حَاجَاتٍ، وَمُتَطَلِّبَاتِ الْمَوْسَسَةِ، وَهَذَا يُمَثِّلُ نَسَقًا مُكَرَّرًا،
وَتَمُودَجًا تَبَنَاهُ السَّلْطَةُ، رَغْمَ تَبَدُّلِ الْقَائِمِينَ عَلَيْهَا، غَيْرُ أَنَّ النِّسْقَ يَبْقَى قَائِمًا، بَلْ يُعِيدُ إِتْبَاحَ نَفْسِهِ، كَمَا
فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ.

أَنَّ النُّظْرَةَ الْمَثَالِيَّةَ تَقْتَضِي مِنَ الْمُثَقَّفِ أَنْ يَنْخَلَعَ مِنَ الْجُذُورِ الَّتِي تَلْتَصِقُ بِالْمَشْرُوعِ الْمَوْسَسَاتِي، وَيُتِمِّمُ
حُدُودًا فَاصِلَةً بَيْنَ الْقِيمِ الَّتِي يَنْحَازُ لَهَا، وَبَيْنَ الرُّوِيِّ الْمَوْسَسِيَّةِ الَّتِي تُحَاوِلُ الْإِفَادَةَ مِنَ الْمُتَعَلِّمِ، أَوْ
الْمُثَقَّفِ فِي تَمْكِينِ قَوَاعِدِهَا، وَتَحْقِيقِ مَشَارِعِهَا بِهَدَفِ صَوْنِ سَلْطَةِ فَرْدِيَّةِ، أَوْ نَسْقِ سُلْطَوِيِّ جَمْعِيٍّ،
وَبِذَلِكَ يُنْبَغِي أَنْ تَسْأَلَ عَنْ دُورِ رَوَادِ عَصْرِ النَّهْضَةِ مِنْ حَيْثُ اسْتِجَابَتِهِمْ لِمُعْيَارِيَّةِ الْمُثَقَّفِ الرَّسُولِيِّ،
الَّذِي يَتَوَجَّبُ أَنْ يَكُونَ مُخْلِصًا لِقِيمِ عَلِيًّا، وَلِدُورِهِ الْحَضَارِيِّ وَبُوجْهِ خَاصٍّ فِي الْفَتْرَاتِ الْقَلِقَةِ مِنْ
التَّارِيخِ، وَهَذَا يَتَأْتِي بِاتِّحَادِ مَوْجِعِ الرِّفْضِ لِلْمَوْسَسَةِ وَالسَّلْطَةِ بِاخْتِلَافِ مَظَاهِرِهَا، مِمَّا أَفْضَى أَحْيَانًا إِلَى
بُذْهِ وَتَضْفِيَّتِهِ وَأَقْصَايَةِ. وَهَكَذَا يَبْقَى التَّارِيخُ هُوَ الْمَلَاذُ الْقَادِرِ عَلَى أَمْدَادِنَا بِالتَّصَوُّرِ الْحَقِيقِيِّ لِأَنْسَاقِ
مُثَقَّفِي عَصْرِ النَّهْضَةِ.

فِي ظَنِّي أَنَّهُ يَتَّوَجَّبُ عَلَيْنَا مُسَاءَلَةٌ وَتَقْصِي سُرْدِيهِ التَّارِيخُ مِنْ نَاحِيَةِ جُهُودِ رَوَادِ عَصْرِ النَّهْضَةِ، وَصُورًا إِلَى التَّحَقُّقِ مِنَ الْفَرْضِيَّةِ الَّتِي تُرَى أَنَّ النَّهْضَةَ الْعَرَبِيَّةَ كَانَتْ مُبْتَوْرَةً، وَغَيْرِ مُنْجَزَةٍ لِكُونَ الْوَعْيِ بِالْعُرُوبَةِ لَمْ يُنْجِزْ، وَلِأَنَّ الْهُويَّةَ الْعَرَبِيَّةَ لَمْ تَكُنْ قَدْ تَبَلُّوْرَتْ بَعْدُ فِي سِيَاقِ مَشْرُوعِ وَاضِحِ الْمَلَامِحِ، فَأُغْلِبَ نَزَعَاتِ الشُّبُهَاتِ الْعَرَبِيَّةِ (مَجَازًا) لَمْ تَكُنْ عَرَبِيَّةً خَالِصَةً، كَوْنِ الْوَعْيِ الْقَوْمِيِّ لَمْ يَنْضَجْ بِالشَّكْلِ الْكَافِي، أَضَافَهُ إِلَى أَنَّ الْمَشْرُوعَ النَّهْضِي كَانَ فِي مُجْمَلِهِ يُخْضَعُ لِمُؤَثِّرَاتٍ وَظِلَالٍ قَوِيٍّ أُخْرَى مُهَيِّمَةً، وَتَعْنِي الْمَوْسَسَاتِ السَّلْطَوِيَّةِ كَالدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَالْقُوِيَّ الْاِسْتِعْمَارِيَّةِ، أَوْ سَلْطَةَ الدَّوْلَةِ، وَالْحَاكِمِ، أَوْ الْمَصَالِحِ الْعَشَائِرِيَّةِ وَالْعَائِلِيَّةِ وَالْقَبِيلِيَّةِ وَالطَّائِفَةِ الدِّيْنِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَلْقِي بِظِلَالِهَا عَلَى هَذِهِ الْحَرَكَاتِ، وَمَنْ يُقَوِّدُهَا، وَهَذَا مَا يَكَادُ يَنْطَبِقُ عَلَى عَصْرِنَا الْحَالِي وَقَعَ الْحَافِرِ عَلَى الْحَافِرِ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ الْوَضْعَ الْعَرَبِيَّ لَمْ يُفَارِقْ هَذَا النَّسَقَ، وَتَبِيحَةً لِهَذَا فَإِنَّ الْمُثَقَّفَ الْعَرَبِيَّ مَا زَالَ يَمَارِسُ دَوْرَهُ فِي سِيَاقِ الْمَوْسَسَةِ السَّلْطَوِيَّةِ، الدَّوْلَةِ وَالنِّظَامِ وَالْقُوِيَّ الْكَبْرِيَّ، وَكَذَلِكَ الْقَبِيلَةَ وَالطَّائِفَةَ الدِّيْنِيَّةَ وَالْعَرَقِيَّةَ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، وَهَذَا يُفْضِي بِنَا إِلَى تَبِيحَةٍ قَوَامِهَا أَنَّ الْمُثَقَّفَ الْعَرَبِيَّ (مَفْهُومًا، وَأَجْرَاءً) لَمْ يَبْلُورْ، وَهَذَا مَا يَعْنِي اسْتِمْرَارَ نَسَقِ الْمُثَقَّفِ، أَوْ الْمُعَلِّمِ، أَوْ التَّقْنِيِّ الْمُرْتَبِطِ بِالْغُضُوبِ بِالسُّلْطَةِ أَوْ الْمَوْسَسَةِ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّا قَدْ أَخَذْنَا بِمُظَاهِرِ النَّهْضَةِ، وَلَكِنْ لَمْ تَتَحَقَّقِ النَّهْضَةُ .

تَعْرِيفُ النَّهْضَةِ الْاِسْلَامِيَّةِ

أَوَّلُ اسْتِعْمَالِ لِمُصْطَلَحِ النَّهْضَةِ كَانَ فِي أُوْرُبَا بَعْدَ أَنْ وَقَعَتْ أُوْرُوبَا فِي الْعُصُورِ الْوَسْطَى تَحْتَ هَيْمَنَةِ رِجَالِ الْكَيْسِيَّةِ عَلَى مُخْتَلَفِ شُؤُونِ الْحَيَاةِ، بِاِعْتِبَارِهِمْ عُلَمَاءَ فِي الدِّيْنِ وَفَلَاسِفَةَ فِي الْقَانُونِ الرَّوْمَانِيِّ،

فَحَارَبُوا الْمُفَكِّرِينَ، وَحَاكَمُوهُمْ بِقَسْوَةٍ، وَاخْتَرَكُوا زَعَامَةَ الْمُجْتَمَعِ، فَتَفَشَّتْ فِيهِ الْخُرَافَاتُ وَعَمَّ الْجَهْلُ، فَلَمْ يَنْتَفِعِ الْجُمْهُورُ بِاللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ مُحْتَكِرَةً لَدَى طَائِفَةٍ مِنْ رِجَالِ الْكَيْسِيَّةِ وَلَمْ تَكُنْ صِنَاعَةً الْوَرَقِ، أَوْ قِنَ الطَّبَاعَةِ مَعْرُوفِينَ فِي أُرُوبَا، وَلِهَذَا كَانَ الْمُجْتَمَعُ الْأُورُوبِيُّ مُتَخَلِّفًا وَيَبْنِ تَحْتَ وَطْأَةِ الْأَقْطَاعِ، وَيُعَانِي مِنْ وِيْلَاتِ الْحُرُوبِ الْأَقْطَاعِيَّةِ وَالتَّجْزِئَةِ السِّيَاسِيَّةِ

عَصْرُ النَّهْضَةِ

مُصْطَلَحٌ يُطْلَقُ عَلَى فِتْرَةِ الْإِتِّقَالِ مِنَ الْعُصُورِ الْوَسْطَى إِلَى الْعُصُورِ الْحَدِيثَةِ وَهِيَ الْقُرُونُ 14 - 16 وَيُورَخُ لَهَا بِسُقُوطِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ عَامَ 1453م حَيْثُ نَزَحَ الْعُلَمَاءُ إِلَى إِيطَالِيَا حَامِلِينَ مَعَهُمُ تَرَاثَ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ . كَمَا يَدُلُّ مُصْطَلَحُ عَصْرِ النَّهْضَةِ عَلَى التِّيَّارَاتِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ الَّتِي بَدَأَتْ فِي الْبِلَادِ الْإِيطَالِيَّةِ فِي الْقُرْنِ 14م، حَيْثُ بَلَغَتْ أَوْجَ اَزْدِهَارِهَا فِي الْقُرْنَيْنِ 15 و 16م، وَمَنْ إِيطَالِيَا انْتَشَرَتْ النَّهْضَةُ إِلَى فَرَنْسَا وَإِسْبَانِيَا وَآلْمَانِيَا وَهُولَنْدَا وَإِنْكَلْتْرَا وَإِلَى سَائِرِ أُرُوبَا . اَزْدَهَرَ شَأْنُ النَّهْضَةِ الْإِيطَالِيَّةِ إِذْ وَجَدَتْ لَهَا أَنْصَارًا يَصْرِفُونَ عَلَيْهَا الْمَالُ الْوَفِيرَ، مِثْلَ أَسْرِهِ مِيدِيْشِي فِي فُلُورَنْسَا وَسُوفْرَا فِي مِيلَانُو وَالْبَابُوَاتِ فِي رُومَا . بَلَغَتْ الْبُنْدُقِيَّةُ ذُرُوءَ عَظَمَتِهَا الثَّقَافِيَّةِ فِي أَوَاخِرِ الْقُرْنِ 16م . مِنْ أَعْظَمِ شَخْصِيَّاتِ النَّهْضَةِ فِي الْمَجَالِ الْفَنِّيِّ لِيُونَارْدُو دَا فيْنِشِي وَمَايْكَلْ أَنْجَلُو وَمَكِيَا فيْلِي، وَغَيْرِهِمْ كَانَ لِهَذِهِ الْحِقْبَةِ تَأْثِيرٌ وَاسِعٌ فِي الْفَنِّ وَالْعِمَارَةِ وَتَكْوِينِ الْعَقْلِ الْحَدِيثِ وَعَوْدِهِ وَاعِيَةً لِلْمَثَلِ الْعُلْيَا وَالْأَنْمَاطِ الْكَلَّاسِيكِيَّةِ . فِي هَذِهِ الْفِتْرَةِ تَمَّ اكْتِشَافُ أَرَاضِي وَسُعُوبِ جَدِيدَةٍ حَيْثُ اسْتَمَّتْ هَذِهِ الْفِتْرَةُ بِظُهُورِ طَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الرَّحَالَةِ وَالْمُسْتَكْشِفِينَ وَالْمَلَّاحِينَ مِنْهُمْ الْأَمِيرُ هَنْرِي الْمَلَّاحُ وَكِرِسْتُوفِرُ كُولُومْبُوسُ وَفَاسْكَو دي كَامَا .

تَعْرِيفُ النَّهْضَةِ

التَّهْضَةُ بِمَفْهُومِهَا الْخَاصِّ وَالْبِاعْتِمَادِ عَلَى مَفَاهِيمِ عَصْرِ التَّهْضَةِ الْأُورُوبِيَّةِ هِيَ حَرَكَةُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ الْقَدِيمِ حَيْثُ هُنَاكَ كِبُورَةٌ بَعْدَ تَطَوُّرِ حَضَارِيٍّ تَحْتَاجُ إِلَى نُهْوضٍ، أَمَّا بِمَعْنَاهَا الْوَاسِعِ فَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ ذَلِكَ التَّطَوُّرِ الْقَدِيمِ فِي كُلِّ مِنَ الْفُنُونِ وَالْأَدَابِ وَالْعُلُومِ، وَطُرُقِ التَّغْيِيرِ، وَالذَّرَاسَاتِ، وَمَا صَاحِبُ ذَلِكَ مِنْ تَغْيِيرٍ فِي أَسْسِ الْحَيَاةِ الْجَمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالِدِينِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ. وَهِيَ عَمَلِيَّةٌ فِكْرِيَّةٌ تَتَجَاوَزُ انْغِلَاقَ فِتْرَةِ زَمَانِيَّةٍ سَابِقَةٍ .

مَفْهُومُ التَّهْضَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

لَا يُوجَدُ حَتَّى الْآنَ تَعْرِيفٌ وَاضِحٌ لِلتَّهْضَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَكَلِمَةُ التَّهْضَةِ - دُونَ رَبَطِهَا بِالْإِسْلَامِ مَبْدِيًّا - شَغِلَتْ الْأَذْهَانَ مِنْذُ مَطْلَعِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ وَلَا زَالَتْ بِحَسَبِ الدُّكُورِ جَاسِمِ سُلْطَانٍ. فَهَلْ نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى تَهْضَةٍ عِلْمِيَّةٍ وَهَنَا يَتِمُّ الْخَلْطُ مَعَ الْعِلْمَانِيَّةِ، أَمْ تَهْضَةٌ حَضَارِيَّةٌ لِإِحْيَاءِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَرَغْمَ الْمَعْنَى الْمُبَادِرِ لُغَةً وَهُوَ الْفِيَامُ مِنَ التَّعْوُدِ، إِلَّا أَنَّ السُّؤَالَ حَوْلَ الْمَعْنَى لَا يَزَالُ قَائِمًا، وَخَاصَّةً حِينَمَا يَحْتَدِمُ الْجِدَالُ وَالْأَخْذُ وَالرَّدُّ عَنْ مَصَادِقِ التَّهْضَةِ أَوْ تَحَقُّقِهَا فِي أَرْضِ الْوَاقِعِ فِي هَذَا الْقَطْرِ أَوْ ذَاكَ، وَهَلْ هِيَ تَهْضَةٌ عَرَبِيَّةٌ لِاسْتِعَادَةِ أَمْجَادِ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَمْ إِسْلَامِيَّةٌ لِاسْتِعَادَةِ أَمْجَادِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

وَيَزْدَادُ الْأَمْرَ تَعْقِيدًا عِنْدَ اسْتِخْدَامِ مُقَارَبَاتٍ أُخْرَى مِثْلَ النَّمِيَّةِ وَمُحَارَبَةِ التَّخَلُّفِ أَوْ التَّقَدُّمِ وَالتَّقَدُّمِيَّةِ وَمُحَارَبَةِ الرَّجْعِيَّةِ أَوْ التَّرْقِيِّ أَوْ التَّجْدِيدِ الدِّينِيِّ لَوْ تَحْقِيقُ مَبْدَأِ الْاسْتِخْلَافِ. وَازْدَادَ الْجِدَالُ مُؤَخَّرًا مَعَ بُلُورَةِ مُصْطَلَحٍ مَا يُعْرَفُ بِالْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْمُفَكِّرِينَ الْإِسْلَامِيِّينَ الَّذِينَ أَهَمَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِمَا يُشَارُ لَهُ الْيَوْمَ بِالتَّهْضَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ حَيْثُ بَدَّوْا بِطَرَحِ مَفَاهِيمِ التَّهْضَةِ مُتَأَثِّرِينَ وَلَوْ قَلِيلًا بِالتَّصَوُّرِ الْأُورُوبِيِّ، لِأَنَّ مَفْهُومَ

التَّهْضَةُ أَصْلًا انْطَلَقَ فِي الْغَرْبِ كَمَا فِي فِكْرِ مَالِكِ بْنِ نَبِيِّ أَوْ مَشْرُوعِ التَّهْضَةِ لِلدُّكْتُورِ جَاسِمِ سُلْطَانَ .
وَيَأْخُذُ الْأَمْرَ مِنْحَى تَنْمُويًا وَسِيَاسِيًّا عِنْدَ تَنَاوُلِهِ مِمَّ بَاتَ يُعْرَفُ بِالتَّيَّارَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَوْ تَيَّارَاتِ الْإِسْلَامِ
السِّيَاسِيِّ كَمَشْرُوعِ التَّهْضَةِ الَّذِي تَقَدَّمَ بِهِ حِزْبُ الْعَدَالَةِ وَالتَّنْمِيَةِ الْجَنَاحِ السِّيَاسِيِّ لِلْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ فِي
مِصْرَ أَوْ اسْتِعْمَالَ الْاسْمِ كَحِزْبِ التَّهْضَةِ فِي تُونِسَ أَوْغَيْرِهِ . لَكِنْ مَا تَزَالُ الْوَضْعُ غَيْرَ مَبْلُورٍ تَمَامًا وَفِي حَالَةٍ
الْبَحْثِ عَنِ الْفِكْرِ التَّهْضِيِّ وَمَدَى عِلَاقَةِ التَّهْضَةِ بِالذِّينِ الْإِسْلَامِيِّ .

وَكَوْنِ تَهْضَةٍ أَوْ رَبًّا قَائِمَةً عَلَى ثَوْرَةٍ عَلَى مُورُوثِ دِينِي . فَذَلِكَ مَا زَالَ يَلْقَى بِظِلَالِهِ عَلَى مَفْهُومِ التَّهْضَةِ عِنْدَنَا
وَبِالتَّالِي تَمَثُّلَهَا أَصْحَابُ الْفِكْرِ الْقَوْمِيِّ أَوْ الْعِلْمَانِيِّ بِالثَّوْرَةِ عَلَى الْمَرْجِعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالتَّحْوُلِ إِلَى الْعِلْمَنَةِ
وَفَضْلِ الدِّينِ عَنِ الدَّوْلَةِ بِاتِّجَاهِ تَنْمِيَةِ اقْتِصَادِيَّةٍ وَبَشَرِيَّةٍ تَشْمَلُ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ حَسَبَ مَبْدَأِ الدِّينِ لِلَّهِ
وَالْوَطَنِ لِلْجَمِيعِ . وَتَمَثُّلَهَا التَّيَّارِ ذُو التَّوَجُّهِ الْإِسْلَامِيِّ بِالثَّوْرَةِ عَلَى التَّقْلِيدِيَّةِ وَالْحُرَافَاتِ الَّتِي أُفْحِمَتْ فِي
الدِّينِ مَعَ تَوْسِيعِ وَتَضْيِيقِ مَفْهُومِ التَّقْلِيدِيَّةِ وَبِالتَّالِي يَجِبُ الْقَضَاءُ أَوْ تَنْقِيَةُ الْمُورُوثِ الدِّينِيِّ مِمَّا لَحِقَ بِهِ مِنْ
عَادَاتٍ وَتَقَالِيدٍ وَمَفَاهِيمٍ لَاسْلَامِيَّةٍ وَيُنْقَسِمُ هَؤُلَاءِ إِلَى :

I . تَيَّارِ يَرَى أَنَّ التَّهْضَةَ تَكُونُ بِنَشْرِ عُلُومِ الْإِسْلَامِ وَإِحْيَاءِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالتِّي هِيَ الْعُلُومُ الَّتِي
تَفَرَّغَتْ عَنِ الْكُتَابِ وَالسُّنَنِ وَإِجْمَاعِ عُلَمَاءِ الشَّرْعِ ، كَالْعَقِيدَةِ وَالْفِقْهِ وَالْقُرْآنِ وَعُلُومِهِ وَالْحَدِيثِ وَعُلُومِهِ
وَاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّرْكِيزِ وَعِلْمِ الْقُلُوبِ وَالتَّرْقَاتِ بِالإِضَافَةِ لِلْفِقْهِ السِّيَاسِيِّ وَالْفِقْهِ الْقِصَادِيِّ وَفُرُوعِهَا
وَغَيْرِهَا مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ دُونَ التَّقْلِيلِ مِنْ أَهْمِيَّةِ الْعُلُومِ الدُّنْيَوِيَّةِ أَيْضًا . وَمَنْ تَمَّ التَّعَامُلُ مَعَ الْوَاقِعِ وَمَجَابَهَةُ
حَالَةِ الْخُمُولِ بِالْعُودَةِ بِالإِسْلَامِ إِلَى أَصُولِهِ وَهَضْمِهَا بِأَخْذِ الْعِلْمِ عَنِ أَهْلِ الْعِلْمِ الرَّاسِخِينَ وَالْمَجَارِينَ مِمَّنْ
تَلَمَّذُوا عَلَيْهِمْ بِاعْتِبَارٍ أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَلْيَنْظُرْ كُلُّ امْرِئٍ عَمَّنْ يَأْخُذُ دِينَهُ ، ثُمَّ مَعَ الْفَهْمِ الْعَمِيقِ وَالْإِحْيَاءِ

يَأْتِي دَوْرُ التَّجْدِيدِ لِأَنَّ الدِّينَ يَنْقَسِمُ لِمَتَعَبِرَاتٍ وَثَوَابِتٍ فَلَا يَحِقُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُغَيِّرَ وَيُجَدِّدَ عَنْ جَهْلٍ وَإِلَّا كَانَ
عُرْضَةً لِلضَّلَالِ وَلَا بَدَّ لِلْمُجَدِّدِ مِنْ أَنْ يَكُونَ ذَا عِلْمٍ وَاسِعٍ لِيَسْتَحِقَّ أَنْ يَكُونَ الْمُجَدِّدَ الْمُقْصُودَ بِحَدِيثِ
رَسُولِ اللَّهِ : إِنَّ اللَّهَ يُعْثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ عَامٍ مِنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا .

2 . تِيَارٌ يَنْفِقُ مَعَ التِّيَارِ السَّابِقِ بِضُرُورَةٍ التَّهْضَةُ الْعِلْمِيَّةُ الدِّينِيَّةُ وَالذُّبُوبِيَّةُ لَكِنْ يَشَدُّدُ فِي ضُرُورَةٍ
نَسْفِ الْبِدْعِ مَعَ تَوْسِيعِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ أحيانًا مِنْ بَابِ سَدِّ الذَّرَائِعِ ، وَيَرَى الْفَضَاءَ عَلَى التَّصَوُّفِ مِنْ جُذُورِهِ
وَالْتَقْلِيلِ مِنْ دُورِ الرِّقَاقِ الرُّوحِيَّةِ وَتَقْدِيمِ التُّصُوصِ وَأَعْمَالِ السَّلَفِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا ، وَيَمِيلُ إِلَى التَّخَلُّصِ
مِنَ الْمَذْهَبِيَّةِ الْفُتَيْيَّةِ وَالْأَخْذِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُبَاشَرَةً فَيَكْفِي مَعْرِفَةَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ وَالْآيَةِ
وَنَفَاسِيرِهَا حَسَبَ رَأْيِ الْأَجْيَالِ الْأُولَى أَوَّلًا لِأَخْذِ الْحُكْمِ مَعَ الْوُقُوفِ عَلَى أَحْكَامِ السَّلَفِ دُونَ زِيَادَةِ لَكِنْ
الْبَعْضُ يُبْهَمُ أَصْحَابُ هَذَا التِّيَارِ بِالْجُمُودِ .

3 . تِيَارٌ يَتَقَدُّ أَصْحَابُهُ أَنْ التَّهْضَةَ وَإِنْ سُمِّيَتْ تَهْضَةُ إِسْلَامِيَّةً إِلَّا أَنَّ التَّهْضَةَ هِيَ عَمَلٌ فِكْرِيٌّ وَلَيْسَ
مِنَ الضَّرُورِيِّ لِلْمُفَكِّرِ الَّذِي يَشْتَغِلُ بِالتَّهْضَةِ أَنْ يُدْرَسَ الْإِسْلَامُ بِشَكْلِ مِمَّنْهَجٍ فَهُوَ لَا يُقْتَى وَالْقُدْرَاتِ الْعَقْلِيَّةِ
وَالثَّقَافَةِ الْوَاسِعَةِ لِلْمُفَكِّرِينَ كَافِيَةً لِيُقِيمُوا بِدَوْرِهِمُ التَّهْضَوِيَّ فَلِلْعَالَمِ دَوْرٌ وَلِلْمُفَكِّرِ دَوْرٌ مُخْتَلِفٌ وَمِنْ ثَمَّ
يَكْمَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَالتَّهْضَةُ إِنَّمَا هِيَ عَمَلٌ فِكْرِيٌّ يُنْتِجُ فِكْرًا يَبْنَاهُ سِيَاسِيُّونَ وَاقْتِصَادِيُّونَ . وَقَدْ رَبَطَ
الْبَعْضُ مِنْ هَذَا الْفَرِيقِ بَيْنَ التَّهْضَةِ وَمَفَاهِيمِ التَّنْمِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ وَبِنَاءِ الْقُدْرَاتِ كَأَحَدِ عَوَامِلِ التَّهْضَةِ وَمَيَّزَ
آخَرُونَ بَيْنَ التَّهْضَةِ وَالتَّنْمِيَّةِ وَإِنَّ التَّنْمِيَّةَ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ التَّهْضَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَلَيْسَتْ هِيَ التَّهْضَةُ لَكِنْ مَعَ
ذَلِكَ لَمْ يَمَكَّنُوا مِنْ بَلُورَةِ مَعْنَى وَاصِحٍ لِلتَّهْضَةِ

4 . تيار يُخَذُ مِنَ التَّجْدِيدِ شِعَارًا وَيُنْقَسِمُ لِتَيَارَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مَا تَزَالُ تَشْتَرِكُ بِدَعْوَتِهَا لِلتَّجْدِيدِ مَعَ تَوْسِيعِ مَجَالَاتِ التَّحَرُّرِ مِنْ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ عِلْمَهُمْ هُوَ اجْتِهَادَاتٌ غَيْرُ مُلْزِمَةٍ مِمَّا يَجْعَلُهُمْ عَرَضُهُ لِلانْحِرَافِ وَالْأَهْوَاءِ أحيانًا وَغَالِبِيَّتُهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ آرَاءَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ بِحَاجَةِ لِمُرَاجَعَاتٍ وَعَصْرِنَهُ وَبَعْضُهُمْ يَدْعُو لِلتَّجْدِيدِ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَتَجْدِيدِ عِلْمِ الْمَقَاصِدِ أَوْ دَعَوَاتٍ لِتَجَاوُزِ حُجِّيَّةِ الْإِجْمَاعِ وَالْعَمَلِ عَلَى الْاسْتِنْبَاطِ الْعَقْلِيِّ الْحَرِّ لِنَسْحِ الْمَجَالِ لِلتَّجْدِيدِ حَسَبِ مُتَطَلِّبَاتِ الْعَصْرِ مَعَ التَّهَاقُوتِ فِي شُرُوطِ الْاجْتِهَادِ وَيُنَادِي الْبَعْضُ بِبَنِي مَفَاهِيمِ الْأُخُوَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَحُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَيَسْتَدِلُّونَ بِبُحُوصِ مُعِينَةٍ عَلَيْهَا، وَآخَرُونَ يَرَوْنَ ضَرُورَةَ الْمُقَارَبَةِ بَيْنِ الْأَدْيَانِ وَالتَّيَارَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُطَالِبُونَ مَثَلًا بِإِزَالَةِ حُدُودِ غَيْرِ مَذْكُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ صِرَاحَةً كَحَدِّ الزَّنَا وَالرِّدَّةِ وَيَصِلُ الْبَعْضُ إِلَى حَدِّ نَسْفِ السُّنَّةِ وَتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ بِاسْتِخْدَامِ الْعَقْلِ فَقَطْ وَهُوَ مَعْنَى التَّدْبِيرِ فِي رَأْيِهِمْ .

رَوَادُ النَّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

شَجَرَةُ الْمُفَكِّرِينَ الْعَرَبِ

- "رِفَاعَةُ رَافِعِ الطَّهَطَاوِيِّ" : أَحَدُ قَادَةِ النَّهْضَةِ الْعِلْمِيَّةِ فِي مِصْرٍ فِي عَهْدِ "مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بَاشَا" . وُلِدَ عَامَ ١٨٠١ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٨٧٣ . أَهَمُّ كُتُبِهِ "تَخْلِيصُ الْأَبْرِيذِ فِي تَلْخِيصِ بَارِيزِ" .
- "عِيَادُ الطَّنَطَاوِيِّ" : مُؤَلَّفٌ وَمُؤَرِّخٌ مِصْرِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٨١٠ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٨٦١ . أَهَمُّ كُتُبِهِ "أَحْسَنُ التَّنَحِبِ فِي مَعْرِفَةِ لِسَانِ الْعَرَبِ" .

- "خَيْرَ الدِّينِ التُّونِسِيِّ": أَحَدُ رُمُوزِ الإِصْلَاحِ فِي تُونَسٍ. وُلِدَ عَامَ ١٨٢٠، وَتُوفِيَ عَامَ ١٨٩٠. قَامَ بَعْدَهُ إِصْلَاحَاتٌ، وَقَاوَمَ الحُكْمَ الأَسْتِبْدَادِيَّ، وَعَمِلَ عَلَى إِقَامَةِ العَدْلِ، وَسَاهَمَ فِي وَضْعِ قَوَائِنِ مَجْلِسِ الشُّورَى الَّذِي أَصْبَحَ رَئِيسًا لَهُ سَنَةَ ١٨٦١.

- "عَلَى مُبَارَكٍ": مُفَكِّرٌ مِصْرِيٌّ، اقْتَرَنَ اسْمُهُ بِالجَانِبِ العَمَلِيِّ لِلتَّهْضَةِ والعُمُرَانِ. وُلِدَ عَامَ ١٨٢٣، وَتُوفِيَ عَامَ ١٨٩٣.

- "جَمَالُ الدِّينِ الأَفْغَانِي": أَحَدُ أَعْلَامِ التَّجْدِيدِ فِي عَصْرِ التَّهْضَةِ العَرَبِيَّةِ وَالأِسْلَامِيَّةِ الحَدِيثَةِ، وُلِدَ عَامَ ١٨٣٨، وَتُوفِيَ عَامَ ١٨٩٧. مِنْ تَلَامِذَتِهِ "الشَّيْخُ مُحَمَّدُ عَبْدَةَ".

- "مُحَمَّدُ عَبْدِهِ": مُفَكِّرٌ وَعَالِمٌ دِينٌ وَمُجَدِّدٌ إِسْلَامِيٌّ مِصْرِيٌّ، أَحَدُ دُعَاةِ التَّهْضَةِ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ الأِسْلَامِيِّ، وُلِدَ عَامَ ١٨٤٩، وَتُوفِيَ عَامَ ١٩٠٥. عَمِلَ مَعَ أَسَاتِذِهِ الأَفْغَانِيِّ عَلَى إِعَادَةِ إِحْيَاءِ الأُمَّةِ الأِسْلَامِيَّةِ لِتَوَاقِبِ مُتَطَلِّبَاتِ العَصْرِ.

- "عَبْدُ الرَّحْمَنِ الكَوَاكِبِي": أَحَدُ رَوَادِ التَّهْضَةِ العَرَبِيَّةِ، وُلِدَ فِي حَلَبِ السُّورِيَّةِ عَامَ ١٨٥٥، وَتُوفِيَ عَامَ ١٩٠٢ فِي القَاهِرَةِ مُتَأَثِّرًا بِسَمِ دَسَّ لَهُ. يُعْتَبَرُ كِتَابُهُ "طَبَائِعُ الأَسْتِبْدَادِ" سَبَبَ شُهْرَتِهِ، وَهُوَ مِنْ أَهَمِّ الكُتُبِ الَّتِي تُنَاقِشُ ظَاهِرَهُ الأَسْتِبْدَادَ السِّيَاسِيَّ وَالدِّينِيَّ.

- "قَاسِمُ أَمِينٍ": كَاتِبٌ وَأَدِيبٌ وَمُصَلِّحٌ اجْتِمَاعِيٌّ مِصْرِيٌّ، يُعْتَبَرُ رَائِدَ حَرَكَةِ تَحْرِيرِ المَرْأَةِ. وُلِدَ عَامَ ١٨٦٣، وَتُوفِيَ عَامَ ١٩٠٨. أَهَمُّ كُتُبِهِ "تَحْرِيرُ المَرْأَةِ"، "المَرْأَةُ الجَدِيدَةُ".

- "مُحَمَّدُ رَشِيدُ رِضَا": مُفَكِّرٌ مِنْ رُوَادِ الْإِصْلَاحِ الْإِسْلَامِيِّ مَطَّلَعِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ الْهِجْرِيِّ. أَحَدُ تَلَامِذَةِ الشَّيْخِ "مُحَمَّدِ عَبْدِ" ، وُلِدَ عَامَ ١٨٦٥ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٩٣٥ .

- "أَحْمَدُ أَمِينٌ": أَدِيبٌ وَمُفَكِّرٌ وَمُؤَرِّخٌ مِصْرِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٨٨٦ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٩٥٤ . أَنْشَأَ "لَجْنَةَ التَّأْلِيفِ وَالتَّرْجَمَةِ وَالتَّنْشِيرِ" سَنَةَ ١٩١٤ وَبَقِيَ رَئِيسًا لَهَا حَتَّى وَفَاتِهِ .

- "سَلَامَةُ مُوسَى": مُفَكِّرٌ مِصْرِيٌّ ، يُعْتَبَرُ رَائِدَ الْفِكْرِ الْإِسْتِرَاكِيِّ فِي مِصْرٍ ، وُلِدَ عَامَ ١٨٨٧ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٩٥٨ . دَعَا إِلَى الْإِسْتِرَاكِيَّةِ كَسَبِيلٍ لِتَحْقِيقِ الْعَدَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "دِرَاسَاتُ سَيْكُولُوجِيَّةٍ" - "هُؤُلَاءِ عَلَمُونِي" .

- "عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ بَادِيسٍ": مِنْ رِجَالِ الْإِصْلَاحِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ، وَرَايِدِ التَّهْضَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْجَزَائِرِ ، وَمُؤَسِّسِ جَمْعِيَّةِ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْجَزَائِرِيِّينَ . وُلِدَ عَامَ ١٨٨٩ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٩٤٠ .

- "عَبَّاسُ مُحَمَّدِ الْعَقَّادِ": أَدِيبٌ وَمُفَكِّرٌ وَصَحْفِيٌّ مِصْرِيٌّ ،

وُلِدَ عَامَ ١٨٨٩ ، وَتُوفِيَ سَنَةَ ١٩٦٤ . سَاهَمَ بِشَكْلِ كَبِيرٍ فِي الْحَيَاةِ الْأَدَبِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ ، وَأَضَافَ لِلْمَكْتَبَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَا تَزِيدُ عَلَى الْمِئَةِ كِتَابٍ فِي مُخْتَلَفِ الْمَجَالَاتِ .

طَهُ حُسَيْنٌ": أَدِيبٌ وَنَاقِدٌ مِصْرِيٌّ ، لَقَّبَ بِعُمَيْدِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ . وُلِدَ عَامَ ١٨٨٩ ، وَتُوفِيَ عَامَ ١٩٧٣ . يُعَدُّ مِنْ أَبْرَزِ الشَّخْصِيَّاتِ فِي الْحَرَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَدَبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ . أَهَمُّ كُتُبِهِ "الْأَيَّامُ" سِيْرُهُ ذَاتِيَّةٌ .

- "جَمِيلٌ صَلِيلِيًّا": كَاتِبٌ وَفِيلَسُوفٌ عَرَبِيٌّ لُبْنَانِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ

١٩٠٢ ، وَتُوفِّيَ عَامَ ١٩٧٦ . عُرِفَ بِتَفَوُّقِهِ الْعِلْمِيِّ ، وَبِجُهْدِهِ الْكَبِيرَةِ فِي خِدْمَةِ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "تَارِيخُ الْفَلَسَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ" - "الْمُعْجَمُ الْفَلَسَفِيُّ" .

- "انطون سعادة" : مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي ، وُلِدَ فِي لُبْنَانَ عَامَ ١٩٠٤ ، وَتُوفِّيَ ١٩٤٩ . ظَهَرَتْ كِتَابَاتُهُ الْأُولَى عِنْدَمَا كَانَ فِي الثَّامِنَةِ عَشْرَةَ . وَنَشَرَ عِدَّةَ مَقَالَاتٍ طَالِبٍ فِيهَا بِإِهْتَاءِ الْاِحْتِلَالِ الْفَرَنْسِيِّ وَاسْتِقْلَالِ سُورِيَا . أُعْذِمَ يَوْمَ ٨ يُولْيُو ١٩٤٩ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "نُشُوءُ الْأُمَّمِ" .

- "مالك بن نبي" : مُفَكِّرٌ جَزَائِرِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٠٥ ، وَتُوفِّيَ عَامَ ١٩٧٣ . يُعْتَبَرُ أَحَدَ رَوَّادِ التَّنْهِيضَةِ الْفِكْرِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ . وَهُوَ أَحَدُ أَكْثَرِ الْمُفَكِّرِينَ الَّذِينَ دَعَوْا إِلَى الْعِنَايَةِ وَالْبَحْثِ فِي مُشْكَكَاتِ الْحَضَارَةِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "شُرُوطُ التَّنْهِيضَةِ" - "تَأَمَّلَاتٌ" .

- "عثمان أمين" : كَاتِبٌ وَمُفَكِّرٌ مِصْرِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٠٥ ، وَتُوفِّيَ عَامَ ١٩٧٨ . حَصَلَ عَلَى الْإِسْنَانِسِ مِنْ جَامِعِهِ الْقَاهِرَةِ ، وَالذَّكُورَةَ مِنْ جَامِعِهِ "السُّورْبُونِ" . صَاحِبُ تَيَّارِ الْجَوَائِيَّةِ ، وَهِيَ فُلْسَفَةٌ تُحَاوِلُ أَنْ تَرَى الْأَشْخَاصَ وَالْأَشْيَاءَ رُؤْيَا رُوحِيَّةً ، بِمَعْنَى أَنْ تَنْظُرَ إِلَى "الْمُخْبِرِ" وَلَا تَقِفُ عِنْدَ "الْمُظْهِرِ" ، وَإِنْ تُلْتَمَسُ "الْبَاطِنِ" دُونَ أَنْ تَنْفَعُ "بِالظَّاهِرِ" وَإِنْ تَبْحَثُ عَنِ "الدَّاحِلِ" بَعْدَ مَلَاخِظَةِ "الخَارِجِ" ، وَإِنْ تَلْتَمِسُ دَائِمًا إِلَى "الْمَعْنَى" وَإِلَى "الْكَيْفِ" وَإِلَى "الْقِيَمَةِ" وَإِلَى "الْمَاهِيَّةِ" وَإِلَى "الرُّوحِ" مِنْ وَرَاءِ "الْفَلْظِ" وَالْكُلْمِ وَ"الْمُشَاهَدَةِ" وَ"العَرْضِ" وَ"العِيَانِ" .

- "زكي نجيب محمود" : كاتب وأكاديمي وأستاذ فلسفة مصري ، وُلِدَ عام ١٩٠٥ ، وتُوفِيَ عام ١٩٩٣ . يُعَبَّرُ أَوَّلُ مَنْ أَسَّسَ لِيَارِ الوُضْعِيَّةِ المُنطِقِيَّةِ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ وَالإِسْلَامِيِّ . كَمَا كَانَ صَاحِبُ أُسْلُوبِ أَدَبِيٍّ مُتَمَاسِكٍ يُجْمَعُ بَيْنَ الوَعْيِ الفُلْسَفيِّ وَالذَّوْقِ الأَدَبِيِّ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "خُرَافَةُ المِيتَافِيزِيقَا" .

- "عبد الله القصيمي" : مُفَكِّرٌ سَعُودِيٌّ ، يُعَبَّرُ مِنْ أَكْثَرِ المُفَكِّرِينَ العَرَبِ إِثَارَهُ لِلجَدَلِ ، بِكُونِهِ غَيْرَ مَسَارِهِ الفِكْرِيِّ كُليًّا مِنْ السَّلَفِيَّةِ إِلَى الإِلْحَادِ . وُلِدَ عام ١٩٠٧ ، وتُوفِيَ عام ١٩٩٦ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "العَرَبُ ظَاهِرُهُ صَوْتِيَّةٌ" - "أَيُّهَا العَقْلُ مِنْ رَاكٍ؟" .

- "حُسينُ مُرُوه" : مُفَكِّرٌ وَبَاحِثٌ لُبْنَانِيٌّ ، غُضُو اللَّجْنَةُ المُرَكَّبَةُ لِالحِزْبِ الشُّيُوعِيِّ اللُّبْنَانِيِّ . وُلِدَ عام ١٩١٠ ، وتُوفِيَ عام ١٩٨٧ إِثْرَ اغْتِيَالِهِ فِي مَنزِلِهِ فِي بِيْرُوتَ . مِنْ أَهَمِّ مُؤَلَّفَاتِهِ : "النَزَعَاتُ المَادِّيَّةُ فِي الفُلْسَفةِ العَرَبِيَّةِ وَالإِسْلَامِيَّةِ" .

- "عَلِيُّ الوُرْدِي" : عَالِمُ اجْتِمَاعٍ عِرَاقِيٌّ ، أَسْتَاذٌ وَمُؤَرِّخٌ ، عُرِفَ بِسَبِينِهِ التَّنظِيرَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الحَدِيثَةِ فِي عَصْرِهِ . وُلِدَ عام ١٩١٣ ، وتُوفِيَ ١٩٩٥ . حَاصِلٌ عَلَى الذِّكْوَرَاةِ مِنْ جَامِعِهِ "تِكْسَاس" الأَمْرِيكِيَّةِ عام ١٩٥٠ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "مُهزَلَةُ العَقْلِ البَشَرِيِّ" - "وَعَاظُ السَّلَاطِينِ" - "مَنْطِقُ ابْنِ خَلْدُونٍ" - "خَوَارِقُ اللَّاشُعُورِ" .

- "رَبِينَةُ حَبِيبِي" : مُفَكِّرَةٌ وَأَسْتَاذَةٌ جَامِعِيَّةٌ يُحْمَلُ الجُنْسِيَّةُ المِصْرِيَّةُ وَاللُّبْنَانِيَّةُ . وُلِدَتْ عام ١٩١٥ فِي القَاهِرَةِ ، وتُوفِيَ فِي بَارِيْسَ عام ٢٠٠٣ . يَتَمَخَّرُ فِكْرَهُ حَوْلَ ثَلَاثِ قَضَايَا : الشَّخْصِ البَشَرِيِّ ، الحُرِّيَّةِ ، الحَقِيقَةِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "فُلْسَفةُ لِزْمَانِنَا الحَاضِرِ" - "تَجَلَّى الخَوْفِ" .

- "عبد الرحمن بدوي": أبرز أساتذة الفلسفة العرب في القرن العشرين ، عزيز الأيتاح . وُلِدَ عام ١٩١٧ ، وتُوفِّي عام ٢٠٠٢ . يُمكنُ اعتبارُهُ رائدَ الوجودية العربية . تنوعت أعماله بين التأليف والترجمة . من أهم كتبه : "الزمان الوجودي" - "موسوعة الفلسفة" - "من تاريخ الإلحاد في الإسلام" - "مصطفى محمود" : كاتب وطبيب مصري ، وُلِدَ عام ١٩٢١ ، وتُوفِّي عام ٢٠٠٩ . كتب في مجالات كثيرة : الطب والفلسفة والرواية والمسرح . من أهم كتبه : "حوار مع صديقي الملحد" - "بحث في الوجود والعدم" .

- "محمد عزيز الحبابي" : مفكر مغربي ، وُلِدَ عام ١٩٢٢ ، وتُوفِّي عام ١٩٩٣ . يُعتبر مؤسس مذهب الشخصانية في الفكر العربي الإسلامي ، درس في "السوربون" . كان مرشحاً لنيل جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٨٧ .

- "مراد وهبه" : مفكر مصري ، وُلِدَ عام ١٩٢٦ ، درس الفلسفة في جامعته القاهرة . وعمل أستاذاً في جامعته الإسكندرية . عُرف عنه اهتمامه بفلسفة ابن رشد وأكد على ضرورة العودة إليها . من أهم كتبه : "قصة الفلسفة" - "المذهب في فلسفة برغسون" .

- "اللياس مرقص" : مفكر سوري ، وُلِدَ في اللاذقية عام ١٩٢٧ ، وتُوفِّي عام ١٩٩١ . يُعتبر من أهم المفكرين الماركسيين الذين حاولوا إيجاد وحدة بين التيار الماركسي والقومي العربي . من أهم كتبه : "نقد العقلاية العربية" - "الماركسية في عصرنا" .

- "فؤاد زكريا": مفكر وأكاديمي مصري، وُلد عام ١٩٢٧ بالقاهرة، وتوفي عام ٢٠١٠. نال الدكتوراة في الفلسفة من جامعته "عين شمس" عام ١٩٥٦. تنوعت أعماله بين التأليف والترجمة. من أهم كتبه: "التفكير العلمي" - "أفاق فلسفية".

- "هشام شرابي": مؤرخ فلسطيني، وُلد عام ١٩٢٧، وتوفي عام ٢٠٠٥. ساهم في إنشاء عدد من المؤسسات التي تعني بشؤون الوطن العربي والفصية الفلسطينية. من أهم كتبه: "مقدمات لدراسة المجتمع العربي".

- "محمد أركون": مفكر وباحث أكاديمي ومؤرخ جزائري، وُلد عام ١٩٢٨، وتوفي عام ٢٠١٠. يندرج مشروع الفكري تحت مسمى "نقد العقل الإسلامي". عين أستاذًا لتاريخ الفكر الإسلامي والفلسفة في جامعته "السوربون" عام ١٩٨٠ بعد حصوله على الدكتوراة في الفلسفة من نفس الجامعة. من أهم كتبه: "تاريخية الفكر العربي الإسلامي" - "نزعه إلى إنسانه في الفكر العربي".

- "أدونيس": مفكر وشاعر سوري، وُلد عام ١٩٣٠، يُعتبر رائد الشعر العربي الحديث، وهو مرشح بشكل دائم لنيل جائزة نوبل للآداب. درس التراث العربي الإسلامي دراسة نقدية عبر كتابه "الثابت والمتحول". وله كتب عديدة في الفكر والشعر منها: "موسيقى الحوت الأزرق" - "الشعرية العربية".

- "سمير أمين": مفكر واقتصادي مصري، وُلد عام ١٩٣١، وتوفي عام ٢٠١٨. انتسب إلى الحزب الشيوعي الفرنسي عام ١٩٥١. من أهم كتبه: "الاقتصاد العربي المعاصر".

- "نَوَالِ السَّعْدَاوِيِّ": كَاتِبُهُ وَأَدِيبُهُ وَطَبِيبُهُ مِصْرِيَّةٌ ، وُلِدَتْ عَامَ ١٩٣١ . اِهْتَمَّتْ بِالِدِّفَاعِ عَنِ حُقُوقِ
الْإِنْسَانِ بِشَكْلِ عَامٍّ ، لِأَسِيْمَا حُقُوقِ الْمَرْأَةِ . أُسِّسَتْ جَمْعِيَّةٌ "نَضَائِنُ الْمَرْأَةِ الْعَرَبِيَّةِ" . كَمَا سَاهَمَتْ
بِتَأْسِيسِ "الْمَوْسَسَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِحُقُوقِ الْإِنْسَانِ" . مِنْ أَهَمِّ كِتَابَيْهَا : "مُذَكَّرَاتٌ فِي سِجْنِ النِّسَاءِ" - "امْرَأَةٌ
عِنْدَ نَقْطَةِ الصُّفْرِ" .

- "هَادِي الْعَلَوِي": مُفَكِّرٌ عِرَاقِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٣٣ ، وَتُوفِيَ فِي دِمَشْقَ عَامَ ١٩٩٨ . اِهْتَمَّ بِالتُّرَاثِ
الْعَرَبِيِّ وَقَرَأَهُ قِرَاءَةً نَقْدِيَّةً . كَمَا أَبْدَى اِهْتِمَامًا جَيِّدًا بِالْحَضَارَةِ الصِّينِيَّةِ . وَكَانَ نَصِيرًا لِلْمَرْأَةِ ، وَقَدْ اِهْتَمَّ
بِدِرَاسَةِ وَضَعِهَا قَبْلُ وَبَعْدُ الْإِسْلَامِ بِجُرْأَةٍ وَصَرَاحَةٍ . مِنْ أَهَمِّ كِتَابَيْهَا : "فُضُولٌ عَنِ الْمَرْأَةِ" - "فُضُولٌ مِنْ
تَارِيخِ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ" .

- "المُهْدِي الْمُنْجَرَّة": عَالِمٌ اجْتِمَاعِيٌّ وَاقْتِصَادِيٌّ مَغْرِبِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٣٣ ، وَتُوفِيَ عَامَ ٢٠١٤ . يُعْتَبَرُ
أَحَدَ أَهَمِّ الْمُرْجِعِيَّاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَالذُّوْلِيَّةِ فِي الْقَضَايَا السِّيَاسِيَّةِ وَالْعِلَاقَاتِ الدُّوْلِيَّةِ وَالِدِّرَاسَاتِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ .
عَمِلَ أَسْتَاذًا مُحَاضِرًا فِي مَرْكَزِ الدِّرَاسَاتِ التَّالِيَةِ لِجَامِعِهِ لِنَدْن . كَمَا أُخْتِيرَ لِلتَّدْرِيسِ فِي جَامِعَاتٍ عَدَّةً ،
فِي أَنْجَلْتَرَا وَهَوْلَنْدَا وَإِيْطَالِيَا وَيَابَانَ . مِنْ أَهَمِّ كِتَابَيْهَا : "قِيَمَةُ الْقِيَمِ" .

- "عَبْدُ اللَّهِ الْعُرُوِي": مُفَكِّرٌ وَمُؤَرِّخٌ وَرَوَايِيٌّ مَغْرِبِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٣٣ . دَعَا إِلَى الْقَطِيعَةِ مَعَ التُّرَاثِ ،
وَالْتَّحَوْلِ نَحْوَ الْحَدَاثَةِ مِنْ خِلَالِ الْأَخْذِ عَنِ الْعُرْبِ ضَمِنَ مَا هُوَ مُتَاحٌ لِلبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءً . مِنْ أَهَمِّ كِتَابَيْهَا :
"الْعُرْبُ وَالْفِكْرُ التَّارِيخِيُّ" - "مَفْهُومُ الْاَيْدِيُولُوجِيَا" - "مَفْهُومُ الْحُرِّيَّةِ" .

- "طِيبُ تَيْزِينِي": مُفَكِّرٌ سُورِيٌّ مِنْ مَوَالِيدِ "حِمَص" عَامَ ١٩٣٤ ، يُعْتَبَرُ مِنْ أَنْصَارِ الْفِكْرِ الْقَوْمِيِّ
الْمَارْكَسِيِّ . اعْتَمَدَ فِي قِرَاءَتِهِ لِلتُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ عَلَى الْجَدَلِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ . حَصَلَ عَلَى

الدُّكُورَةُ مِنْ أَلَمَانِيَا عَامَ ١٩٦٧ عَنِ أُطْرُوحَةِ "تَهْيِيدِ فِي الْفَلْسَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْوَسِيْطَةِ". دَرَسَ فِي قِسْمِ
الْفَلْسَفَةِ بِجَامِعَةِ دِمَشْقَ ، وَتُوفِيَ عَامَ ٢٠١٩ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "مِنْ التَّرَاثِ إِلَى الثَّوْرَةِ".

- "صَادِقُ جَلَالِ الْعُظْمِ" : مُفَكِّرٌ سُورِيٌّ ، مِنْ مَوَالِيدِ دِمَشْقَ عَامَ ١٩٣٤ ، تُوفِيَ عَامَ ٢٠١٦ . شَغَلَ
مَنْصِبَ أَسْتَاذِ الْفَلْسَفَةِ الْأُوْرُوْبِيَّةِ فِي جَامِعِهِ دِمَشْقَ . وَكَانَ أَسْتَاذًا زَائِرًا فِي قِسْمِ الشَّرْقِ الْأَدْنَى بِجَامِعَةِ
"بِرِنْسْتُون". كَتَبَ فِي الْفَلْسَفَةِ وَالْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الْمُعَاَصِرِ . أَحْدَثَ كِتَابَهُ "نَقْدُ الْفِكْرِ الدِّيْنِيِّ" جَدَلًا كَبِيرًا
فِي الْأَوْسَاطِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، نَظَرًا لِمَا فِيهِ مِنْ نَقْدٍ وَاسِعٍ لِبَعْضِ الثَّوَابِتِ الدِّيْنِيَّةِ .

- "إِمَامٌ عَبْدُ الْفَتَّاحِ إِمَامٌ" : أَكَادِمِيٌّ وَمُتَرْجِمٌ مِصْرِيٌّ ، تُخَصَّصُ فِي الْفَلْسَفَةِ وَالْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ . وُلِدَ عَامَ
١٩٣٤ ، وَتُوفِيَ عَامَ ٢٠١٩ . اُسْتُهْرَ بِتَرْجَمَتِهِ لِأَعْمَالِ هِيْغَل . عَمِلَ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْجَامِعَاتِ الْمِصْرِيَّةِ .
غَزِيرَ الْإِنْتِاجِ عَلَى مُسْتَوَى التَّالِيفِ وَالتَّرْجَمَةِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "الطَّاعِيَّةُ".

- "أَدْوَارُ سَعِيدٌ" : مَنْظَرُ أَدْبِيٌّ فِلَسْطِينِيٌّ أَمْرِيْكِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٣٥ ، وَتُوفِيَ عَامَ ٢٠٠٣ . شَغَلَ
مَنْصِبَ أَسْتَاذِ اللَّتْقَدِ الْأَدْبِيِّ وَالْأَدَبِ الْمُقَارَنِ فِي جَامِعِهِ "كُولُومْبِيَا" . اُسْتُهْرَ بِدِّرَاسَاتِهِ عَنِ الْإِسْتِرَاقِ وَ
مُأْبَعِدِ الْكُولُومْبِيَالِيَّةِ . دَافَعَ عَنِ الْقُضِيَّةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ فِي الْمَحَافِلِ الدَّوْلِيَّةِ ، وَيَعْتَبَرُهُ النَّقَادُ مِنْ أَهَمِّ
الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي تَبَنَّتِ الْقُضِيَّةَ الْفِلَسْطِينِيَّةَ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "الْإِسْتِرَاقُ".

- "مُحَمَّدُ عَابِدُ الْجَابِرِي" : وَمُؤَرِّخٌ مِغْرِبِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٣٥ ، وَتُوفِيَ عَامَ ٢٠١٠ . يَنْدَرِجُ مَشْرُوعَةَ
الْفِكْرِيَّةِ تَحْتَ مُسَمًى "نَقْدُ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ" . عَالِجٌ قُضَايَا الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ عَبْرَ دِرَاسَةِ الْمَكُونَاتِ وَالْبِنْيِ
الثَّقَافِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ الَّتِي بَدَأَتْ مِنْ عَضْرِ التَّدْوِينِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : رُبَاعِيَّةُ نَقْدِ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ "تَكْوِينُ الْعَقْلِ
الْعَرَبِيِّ - بِنْيَةُ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ - الْعَقْلُ الْأَخْلَاقِيُّ الْعَرَبِيُّ - الْعَقْلُ السِّيَاسِيُّ الْعَرَبِيُّ".

- "هشام جعيط": مفكر ومؤرخ تونسي، وُلد عام ١٩٣٥، أستاذ فخري لدى جامعته تونس، درس كاستاذ زائر في عدة جامعات أوروبية وأمريكية. من أهم كتبه: "أوروبا والإسلام" - "الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي".

- "حسن حنفي": مفكر مصري، وُلد عام ١٩٣٥، يعيش في القاهرة ويعمل أستاذًا جامعيًا. يُعبر من منظري تيار اليسار الإسلامي، وتيار "علم الاستغراب". حاز على الدكتوراة من جامعه "السوربون" عن أطروحة "ظاهريات التأويل". حاز على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ٢٠٠٩. تراوحت أعماله بين الترجمة والتأليف. من أهم كتبه: "مقدمة في علم الاستغراب" - "اليمين واليسار في الفكر الديني".

- "مهدي عامل": هو حسن عبد الله حمدان، المعروف بمهدي عامل. مفكر لبناني، وُلد عام ١٩٣٦، واغتيل عام ١٩٨٧ في أحد شوارع بيروت. نال الليسانس والدكتوراة في الفلسفة من جامعه "ليون" الفرنسية. درس في الجامعة اللبنانية كاستاذ للفلسفة والسياسة. انتسب إلى الحزب الشيوعي اللبناني عام ١٩٦٠، وانتخب عضوًا في اللجنة المركزية للحزب قبل اغتياله في العام المذكور. من أهم كتبه: "مدخل إلى نقض الفكر الطائفي".

- "الصادق التيهوم": مفكر وكاتب ليبي، وُلد عام ١٩٣٧، وتوفي عام ١٩٩٤ في جنيف. كتب أطروحته حول "الأديان المقارنة" في جامعته القاهرة، وانتقل بعدها إلى ألمانيا ليتم هذه الأطروحة في جامعه "ميونخ". تابع دراسته في جامعه "أريزونا" بالولايات المتحدة. يجيد لغات متعددة إلى جانب

العربية ، كالأبجديات والألمانية والفنلندية (بحكم زواجه من فنلندية) إضافة للفرنسية والعبرية . من أهم كتبه : "الإسلام في الأسر" .

- "فهمي هويدي" : كاتب وصحفي ومفكر مصري ، وُلِدَ عام ١٩٣٧ ، كتاباته مثيرة للجدل بسبب جزأها . تخصص منذ سنوات في معالجة الشؤون الإسلامية ، حيث شارك في كثير من ندوات ومؤتمرات الحوار الإسلامي ، وقام بزيارات عمل ميدانية إلى مختلف بلدان العالم الإسلامي في آسيا وأفريقيا . من أهم كتبه "أزمة الوعي الديني" - "القرآن والسلطان" .

- "محمد شحرور" : مهندس وباحث ومفكر سوري ، وُلِدَ عام ١٩٣٨ ، وتوفي عام ٢٠١٩ . بدأ كتاباته عن القرآن فيما أطلق عليه "قراءة التنزيل الحكيم" بعد عودته من موسكو . حيث رأى أن القراءة التقليدية للقرآن بعيدة كل البعد عن معزاتها الحقيقية ، وإن القراءة الحقيقية هي القراءة التي تتفق مع مقتضيات العصر . من أهم كتبه : "الكتاب والقرآن" - "الإسلام والإيمان" .

- "عبد الوهاب المسيري" : مفكر وعالم اجتماع مصري ، وُلِدَ عام ١٩٣٨ ، وتوفي عام ٢٠٠٨ . حصل على الدكتوراة في الأدب الإنجليزي المقارن من جامعه "ريجنز" بالولايات المتحدة . وهو مؤلف "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية" استطاع من خلالها إعطاء نظره موضوعية علمية للظاهرة اليهودية بشكل عام .

- "جورج طرابيشي" : مفكر وكاتب وناقد ومترجم سوري ، وُلِدَ عام ١٩٣٩ ، وتوفي عام ٢٠١٦ في باريس . تركز أبرز نقاط مشروعه الفكري حول نقد مشروع المفكر "محمد عابد الجابري" في "نقد العقل العربي" فيما أسماه "نقد النقد" . له مؤلفات هامة في الماركسية والنظرية القومية وفي النقد

الأدبي للرواية العربية. أبرز مميزات المسار الفكري لطرابيشي انتقاله عبر محطات أبرزها الفكر القومي والثوري والوجودية والماركسية. من أهم كتبه: "هرطقات" - سلسلة نقد النقد، وتضم: "إشكاليات العقل العربي" - "نظرية العقل" - "العقل المستقبل في الإسلام" - "وحدته العقل العربي الإسلامي".

- "محمد جابر الأنصاري": كاتب ومفكر بحريني، أستاذ دراسات الحضارة الإسلامية والفكر المعاصر، ولد عام ١٩٣٩. عميد كلية الدراسات العليا في جامعه الخليج بالبحرين. نال الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية عام ١٩٧٩. من أهم كتبه: "التزام السياسي عند العرب وسيئولوجيا الإسلام".

- "عادل ضاهر": مفكر لبناني، ولد عام ١٩٣٩. حصل على

الدكتوراه من جامعه نيويورك سنة ١٩٦٧. درس في جامعات نيويورك "بوس" "الجامعة الأردنية". من أهم كتبه "الأسس الفلسفية للعلمانية".

- "فهمي جدعان": مفكر أردني من أصول فلسطينية، ولد عام ١٩٤٠. درس الفلسفة في جامعه السوربون وحصل منها على شهادة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية وعلم.

الكلام سنة ١٩٦٨. من أهم كتبه: "المحنة - بحث في جدلية الدين والسياسي في الإسلام".

- "على أواميل": مفكر ومؤرخ مغربي، ولد عام ١٩٤٠. وهو أستاذ الفلسفة في الجامعة المغربية.

كانت دراسته حول ابن خلدون مميّزة، بكونه قد بحث في المنظومة الخلدونية كمنسق مستقل عن مشاغل الفكر العربي الراهنة. من أهم كتبه: "الخطاب التاريخي".

- " عَلَى حَرْبٍ " : كَاتِبٌ وَمُفَكِّرٌ لُبْنَانِيٌّ ، وَلَدٌ عَامَ ١٩٤١ . تَأَثَّرَ بِجَاكِ دَرِيدَا كَثِيرًا ، لِأَسِيْمَا فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِمَذْهَبِ التَّفْكِيكِ .

وَهُوَ يَقِفُ مَوْقِفًا مُعَادِيًّا مِنْ التَّخْبِيَةِ وَالْأُصُولِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ ، وَمِنْ الْمُنْطِقِ الصُّورِيِّ الْقَائِمِ عَلَى الْكَلِمَاتِ الْعُقْلِيَّةِ الَّتِي يُعَدُّهَا عَلَى حَرْبِ مَوْجُودَاتٍ فِي الْخَارِجِ ، وَلَيْسَتْ أَدْوَاتٍ وَالْيَاتِ فِكْرِيَّةٍ مُبْجَرَدَةٍ لِلتَّنْظَرِ وَالْفِكْرِ . فَهُوَ يَبْعُ مِنْهَجِ كَانِطٍ فِي تَقْدِ الْعُقْلِ وَالْيَاتِ وَبِنَيْتِهِ الْفِكْرِيَّةِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : " تَقْدِ النَّصِّ " - " هَكَذَا اقْرَأْ مَا بَعْدَ التَّفْكِيكِ " .

- " وَجِيهِ كَوْتَرَانِي " : كَاتِبٌ وَبَاخِثٌ لُبْنَانِيٌّ ، وَلَدٌ عَامَ ١٩٤١ . يَعْمَلُ أَسْتَاذًا بَاخِثًا فِي الْمَرْكَزِ الْعَرَبِيِّ لِلْبَاخِثَاتِ وَدِرَاسَةِ السِّيَاسَاتِ . حَصَلَ عَلَى الدُّكُورَةِ مِنْ جَامِعِهِ "السُّورِيُونِ" .

كَمَا حَصَلَ عَلَى الدُّكُورَةِ الثَّانِيَّةِ مِنْ جَامِعِهِ "الْقَدِيسِ يُوْسُفَ" فِي لُبْنَانَ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ "مَشْرُوعُ التُّهُؤُصِ الْعَرَبِيِّ" - "تَارِيخُ التَّارِيخِ" .

- " فِرَاسُ السُّوَّاحِ " : كَاتِبٌ وَمُفَكِّرٌ وَبَاخِثٌ سُورِيٌّ ، وَلَدٌ عَامَ ١٩٤١ فِي "حِمَصَ" . تُشَبِّهُهُ إِهْتِمَامَاتُهُ الْفِكْرِيَّةُ عَلَى الْبَحْثِ فِي الْمِيْثُولُؤُجِيَا وَتَارِيخِ الْأَدْيَانِ . يَعْمَلُ أَسْتَاذًا فِي جَامِعِهِ "بَكِّيْنِ" . دَخَلَتْ الْبَعْضُ مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ فِي الْمَنَاهِجِ التَّعْلِيمِيَّةِ فِي جَامِعِهِ الزِّيُونِيَّةِ بُونُوسَ ، وَالْجَامِعَةِ الْأُرْدُنِيَّةِ فِي عُمَانَ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "مُعَامَرَةُ الْعُقْلِ الْأُولَى" - "لُغْزُ عَشْتَارِ" .

- "نُصْرُ حَامِدِ أَبُو زَيْدٍ" : مُفَكِّرٌ وَكَادِمِيٌّ مِصْرِيٌّ ، مُتَخَصِّصٌ فِي فِقْهِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ . وَلَدٌ عَامَ ١٩٤٣ ، وَتُوُفِّيَ عَامَ ٢٠١٠ . حَصَلَ عَلَى اللَّيْسَانَسِ مِنْ قِسْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَادَابِهَا فِي جَامِعِهِ الْقَاهِرَةِ . تَعَرَّضَ

لَمَحْنَهُ بِسَبَبِ تَقَدُّمِهِ بِبَحْثِ لَيْلِ دَرَجَةِ الْأُسْتَاذِيَّةِ ، حَيْثُ لَمْ يَجِدْ هَذَا الْبَحْثَ قَبُولًا لَدَى لَجْنَةِ الْمُنَاقَشَةِ
الْمُشْرِفَةِ عَلَى الْبَحْثِ ، لِاحْتِوَائِهِ عَلَى أَفْكَارٍ نَاقِدَةٍ لِلْخَطَابِ الدِّينِيِّ السَّائِدِ . نُوفِيَ بَعْدَ وَقُوعِهِ فِي غَيْبِيَّةٍ
دَامَتْ عِدَّةَ أَيَّامٍ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "تَقْدِ الْخَطَابِ الدِّينِيِّ" .

- "يُوسُفُ الصَّدِيقُ" : مُفَكِّرٌ تُونِسِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٤٣ . لَهُ عِدَّةُ أبحاثٍ مَنُشُورَةٍ بِاللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ تَعَلَّقُ
بِالْبَحْثِ الْقُرْآنِيِّ وَتَوَابِعِهِ الثَّقَافِيَّةِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "هَلْ قُرْآنًا الْقُرْآنُ ؟" .

- "طَهَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ" : مُفَكِّرٌ مَغْرِبِيٌّ ، تَخَصَّصَ فِي الْفُلْسُفَةِ

وَالْمُنْطِقِ وَالْأَخْلَاقِ . وُلِدَ عَامَ ١٩٤٤ . قَامَ مَشْرُوعَةً عَلَى تَأْسِيسِ رُؤْيَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ تَنْظُرُ إِلَى الْحَدَاثَةِ مِنْ
دَاخِلِ الْمَجَالِ التَّدَاوِيِ الْإِسْلَامِيِّ ، لُغَةً وَعَقِيدَةً وَفِكْرًا . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "بُؤْسُ الدَّهْرَانِيَّةِ" - "رُوحُ
الْحَدَاثَةِ" .

- "فَرْجُ فَوْدِهِ" : كَاتِبٌ وَمُفَكِّرٌ مِصْرِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٣٥ ، وَنُوفِيَ عَامَ ١٩٩٢ . أَثَارَتْ كِتَابَاتُهُ جَدًّا
وَاسِعًا ، حَيْثُ كَانَ يَدْعُو إِلَى فَضْلِ الدِّينِ عَنِ السِّيَاسَةِ وَالذُّوْلَةِ ، مِمَّا أَثَارَ غَضَبَ الْأَزْهَرِ عَلَيْهِ ،
فَأَصْدَرَ بَيَانًا تَمَّ فِيهِ تَكْمِيلُهُ . وَفِي يَوْمِ ٨ يُونِيُو عَامَ ١٩٩٢ جَرَى اغْتِيَالُهُ أَثْنَاءَ خُرُوجِهِ مِنْ جَمْعِيَّةِ التَّنْوِيرِ
الَّتِي أَسَّسَهَا بِمَدِينَةِ "نَضْر" . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "الْحَقِيقَةُ الْغَائِبَةُ" .

- "مُحَمَّدُ وَقِيدِي" : كَاتِبٌ وَمُفَكِّرٌ وَأُسْتَاذٌ جَامِعِيٌّ مَغْرِبِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٤٦ ، وَنُوفِيَ مُنْذُ فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ
مِنْ هَذَا الْعَامِ . حَصَلَ عَلَى دَبْلُومِ الدَّرَاسَاتِ الْعُلْيَا مِنْ كَلِيَّةِ الْأَدَابِ بِجَامِعَةِ الرِّبَاطِ سَنَةَ ١٩٧٩ . تَمَيَّزَ
بِكِتَابَاتِهِ الْإِبِسْتَمُولُوجِيَّةِ ، وَتُرْجُمَاتِهِ لِأَعْمَالِ غَاسْتُونِ بَاشَلَارِ . مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ "مَا هِيَ الْإِبِسْتَمُولُوجِيَا ؟" .

- "عبدُ اللهِ الغدَامِيّ": أكاديميٌّ وناقدٌ أدبيٌّ سُعوديٌّ ، وُلد

عامَ ١٩٤٦. تميّزت أعماله بالتنوع ، فهو صاحبُ مشروعٍ في التقدير الثقافيِّ وآخرٍ حولَ المرأةِ واللُّغةِ .
من أهمِّ كتبه : "المرأةُ واللُّغة" .

- "أبو يعرب المرزوقي" : مفكرٌ تونسيٌّ ، وُلد عامَ ١٩٤٧ ، حائزٌ على شهادةِ الليسانسِ في الفلسفةِ
من جامعهِ "السوربون" . مُتخصِّصٌ بالفلسفةِ العربيَّةِ واليونانيَّةِ . حاولَ التمهيدَ لتأسيسِ فلسفةِ إسلاميَّةِ
متصالحةٍ معَ الدِّينِ ، تنقيًا بطلاله وتسترشُد بتوجيهاته . من أهمِّ كتبه : "وحدَه الفِكْرينِ الدِّينِيَّ
والفلسفيَّ" - "أفاق فلسفةِ عربيَّةِ معاصرة" .

- "سالم يَفوت" : كاتبٌ وباحثٌ مغربيٌّ ، وُلد عامَ ١٩٤٧ ، حصلَ على دكتوراهِ الدولةِ من جامعهِ
الرباط سنة ١٩٨٥ . انضمَّ إلى اتحادِ كتابِ المغربِ ١٩٧٧ . تميّزَ بكتاباتهِ حولَ فلسفةِ العلومِ . من أهمِّ
كتبه : "فلسفةُ العلمِ المعاصرِ ومفهومها للواقع" .

- "أمين معلوف" : كاتبٌ وروائيٌّ وصحافيٌّ لبنانيٌّ ، يُحملُ

الجنسيَّةَ الفرنسيَّةَ . وُلد عامَ ١٩٤٩ . تتنوعُ كتاباته بينَ الروايةِ والفكرِ السياسيِّ . تُعبّرُ كتبه - الروائيَّةُ
خاصَّةً - ذاتٌ منحنى تاريخيٍّ يرصدُ أهمَّ التحوُّلاتِ الحضاريَّةِ التي رُسمتْ صورةَ الغربِ والشَّرقيِّ على
شاكلتها الحاليَّةِ . من أهمِّ كتبه : "الهوياتُ الفاتلة" - ومؤخرًا : "غرقُ الحضارات" .

- "هاشم صالح" : كاتبٌ وباحثٌ ومترجمٌ سُوريٌّ ، من أبرزِ المُفكرينِ الثَّوريينِ العربِ . وُلد عامَ
١٩٥٠ . اهتمَّ بقضايا التَّجديدِ الدِّينيِّ ، ونقدِ الأصوليَّةِ ، وقضايا الحداثةِ ومابعدها . ناقشَ رسالةَ

الدُّكُورَةُ حَوْلَ التَّقْدِ الأَدَبِيِّ العَرَبِيِّ تَحْتَ إِشْرَافِ المُفَكِّرِ "مُحَمَّدَ أَرْكُون" سَنَةَ ١٩٨٢. تُحَدِّثُ عَن
أَسْبَابِ فَشْلِ التَّنْوِيرِ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ فِي العَدِيدِ مِنْ كُتُبِهِ الَّتِي مِنْ أَهْمَهَا : "مَعَارِكُ التَّنْوِيرِيِّينَ وَالْأَصُولِيِّينَ"
- "الإنسداد التاريخي".

- "خزعل الماجدي": مُفَكِّرٌ وَبَاحِثٌ عِرَاقِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٥١. حَصَلَ عَلَيَّ دُكُورَاهُ فِي التَّارِيخِ
القَدِيمِ سَنَةَ ١٩٩٦. وَدُكُورَاهُ فِي فِلسَفَةِ الأَدْيَانِ سَنَةَ ٢٠٠٩. أَهْتَمَّ بِالدَّرَاسَاتِ المِثُولُوجِيَّةِ وَالتَّارِيخِ
القَدِيمِ وَتَارِيخِ الأَدْيَانِ وَالحَضَارَاتِ. مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "المِثُولُوجِيَا المُنْدَاقِيَّة" - "أَنْبِيَاءُ سَوْمِرِيُون".

- "أحمدُ عبْدُ الحَلِيمِ عَطِيَّة": أَسَازُ الفِلسَفَةِ بِجَامِعَةِ القَاهِرَةِ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٥١. أَشْرَفَ وَنَاقَشَ عَدَدَ
مِنْ رَسَائِلِ المَاجِسْتِيرِ وَالدُّكُورَاهُ فِي الفِلسَفَةِ. رَئِيسُ تَحْرِيرِ مَجَلَّةِ "أُورَاقِ فِلسَفِيَّة". مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ :
"الأَخْلَاقُ فِي الفِكرِ العَرَبِيِّ المُعَاصِر".

- "عَبْدُ الجَبَّارِ الرَّفَاعِي": مُفَكِّرٌ عِرَاقِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٥٤. حَصَلَ عَلَيَّ دُكُورَاهُ فِي الفِلسَفَةِ
الإِسْلَامِيَّةِ سَنَةَ ٢٠٠٥. تَرَكَّزَ أبحاثَهُ حَوْلَ فِلسَفَةِ الدِّينِ وَمَنَاهِجِ التَّفَكِيرِ الدِّينِيِّ.
مِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ : "تَمْهِيدٌ لِدرَاسَةِ فِلسَفَةِ الدِّينِ" - "الدِّينُ وَالظُّلْمُ الأِنطُولُوجِي".

- "عَزْمِي بَشَارَة": مُفَكِّرٌ وَأَكَادِمِيٌّ وَسِياسِيٌّ فِلَسْطِينِيٌّ ، وُلِدَ عَامَ ١٩٥٦. حَاصِلٌ عَلَيَّ الدُّكُورَاهُ فِي
الفِلسَفَةِ. يَشْغَلُ حَالِيًا مُنْصَبَ مُدِيرِ عَامِ المَرْكَزِ العَرَبِيِّ لِلأَبْحَاثِ وَدرَاسَةِ السِياسَاتِ. عُرِفَ بِإِتِّجَاحِهِ
الفِكرِيِّ العَزِيمِ وَأبحاثِهِ المَرْجِعِيَّةِ فِي مَجَالَاتِ المُجْتَمَعِ المُدَنِيِّ ، وَنظَرِيَّاتِ القَوْمِيَّةِ وَمَا أَسْمَاهُ "المُسْأَلَةُ

العربية"، والدِّين والعِلْمانيَّة، وعَمَلُهُ فِي تَجْدِيدِ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ ، وَفِي تَحْلِيلِهِ لِلْمُجْتَمَعِ وَالذَّوْلَةِ فِي إِسْرَائِيلَ .
مَنْ أَهَمَّ كَتَبَهُ : "الدِّينُ وَالْعِلْمَانِيَّةُ فِي سِيَاقِ تَارِيحِي" .

حَرَكَاتُ الْإِصْلَاحِ الْإِسْلَامِيِّ

وَالَّذِي يُعْرَفُ أَيْضًا بِالْإِسْلَامِ التَّقْدِيمِيِّ أَوْ بِالْإِسْلَامِ التَّقْدِيمِيِّ الْإِصْلَاحِيِّ أَوْ التَّجْدِيدِ الْإِسْلَامِيِّ - تَدْعُو
لِإِصْلَاحِ الْخُطَابِ الدِّينِيِّ وَبِنَدِ الْخِلَافِ الْمَذْهَبِيِّ وَالنَّعْصَبِ الطَّائِفِيِّ، وَالْإِبْتِعَادِ عَنِ التَّقَالِيدِ الْمُتَمَرِّجَةِ
بِالْخُرَافَاتِ وَالْأَفْكَارِ الدَّخِيلَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ كَانَتْ تِلْكَ الْحَرَكَةُ تَدْعُو لِفَهْمِ الْإِسْلَامِ فَهْمًا
جَدِيدًا، عَنْ طَرِيقِ إِعَادَةِ فَهْمِ وَتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَاسْتِخْدَامِ الْأَدَوَاتِ الْفِقْهِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ مِثْلَ الْإِجْتِهَادِ
وَالْقِيَاسِ وَالْإِجْمَاعِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَجْلِ صِيَاغَةِ مَشْرُوعِ إِصْلَاحِيٍّ عَلَى ضَوْءِ الْمَعَايِرِ الْعِلْمِيَّةِ الْعُقْلَانِيَّةِ،
وَالنَّظَرِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْحَدِيثَةِ . وَذَلِكَ لِتَجْدِيدِ الْخُطَابِ الدِّينِيِّ بِحَيْثُ يُلَبِّي مُتَطَلِّبَاتِ الْعَصْرِ الْجَدِيدِ
وَيُؤْمِنُ حَرَكِيَّةَ جَدِيدَةً لِلْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ . فِيمَا يَرَاهُ بَعْضُ الْإِصْلَاحِيِّينَ اقْتِدَاءً بِالْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ
الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ الَّذِينَ اجْتَهَدُوا فِي مُسْتَحْدَثَاتِ عَصْرِهِمْ وَكَانُوا أَكْثَرَ مُرُونَةً وَانْفِتَاحًا .

لَقَدْ قَامَتْ مُحَاوَلَتَانِ لِلْإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ، الْأُولَى فِي الْقُرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ عَلَى يَدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ
وَالثَّانِيَّةُ فِي الْقُرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ عَلَى يَدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ثُمَّ تَلَقَّحَتْ الْمُدْرَسَتَانِ فِي بَدَايَةِ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ
عَلَى يَدِ مُحَمَّدِ بْنِ رَشِيدِ رِضَا لَكِنْ مُحَاوَلَاتُ الْإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ تَعَثَّرَتْ بِسَبَبِ الصَّرَاحِ عَلَى الْهُويَّةِ الَّتِي تَمَثَّلَتْ
فِي الطَّرْحِ الْقَوْمِيِّ الْفِرْعَوْنِيِّ بَعْدَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى وَالَّذِي أُعْتَبِرَ مِصْرَ أُمَّةٍ فِرْعَوْنِيَّةٍ لَا دَخَلَ لِلدِّينِ
الْإِسْلَامِيِّ فِي تَكْوِينِهَا، ثُمَّ تَعَثَّرَ الْإِصْلَاحُ مَرَّةً ثَانِيَةً بَعْدَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ عِنْدَمَا طَرَحَ جَمَالُ عَبْدِ
النَّاصِرِ الْفِكْرَ الْقَوْمِيِّ الْعَرَبِيِّ وَالْفِكْرَ الْإِسْتِرَاكِيَّ فَرَفُضَ الْفِكْرَ الْقَوْمِيِّ الْعَرَبِيِّ لِلدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ عِنْدَمَا أُعْتَبِرَ

أَنَّ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ تَقُومُ عَلَى اللُّغَةِ وَالتَّارِيخِ فَقَطُ وَلَا دَخَلَ لِلدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ فِي تَكْوِينِهَا، كَمَا أُعْتَبِرَتْ
الْإِسْتِرَاكِيَّةُ الْأُذْيَانِ دُونَ اسْتِثْنَاءِ خُرَافَةِ وَأَوْهَامِهَا لِأَنَّهَا نَظْمٌ تَسْتَعْلِمُهَا الْبُرْجُوزِيَّةُ فِي تَحْدِيرِ الْبُرْجُوزِيَّةِ، ثُمَّ
ظَهَرَتْ مَشَاكِلَ أُخْرَى فِي وَجْهِ الْإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ تَجَلَّى فِي التَّقْيِيقِ الطَّائِفِيِّ الَّذِي أَطْلَقَهُ مَشْرُوعِ إِيرَانَ،
وَفِي التَّقْيِيقِ الْعُرْقِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ الَّذِي أَطْلَقَهُ الْفَوْضَى الْخَلَّاقَةَ وَمَشْرُوعِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْجَدِيدِ، مِمَّا
أَضَافَ صُعُوبَاتٍ فِي وَجْهِ الْإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُوَجِّهَهَا وَيَضَعُ لَهَا حُلُولًا، وَهُوَ مَا جُعِلَ الْإِصْلَاحِ
الدِّينِيِّ يَتَعَرَّضُ لِمَرَّةٍ ثَالِثَةً فِي الْقَرْنِ الْوَاحِدِ وَالْعِشْرِينَ.

النَّشْأَةُ

الْحَرَكَةُ الْإِصْلَاحِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ نَشَأَتْ فِي حَوَاضِرِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ الْكَبْرِيِّ خِلَالَ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ عَلَى
خَلْفِيَّةِ تَقَدُّمِ الْعَرَبِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي مَجَالَاتِ الْاِقْتِصَادِ وَالْعُلُومِ وَالْحَرْبِ. وَمِنْ بَيْنِ أَهَمِّ رَوَادِهَا رِفَاعَةُ
الطُّهَطَاوِيِّ وَجَمَالِ الدِّينِ الْإِفْغَانِيِّ وَمُحَمَّدُ عَبْدِهِ. وَكَانَ السُّؤَالُ الْأَسَاسِيُّ الَّذِي شَغَلَ هَؤُلَاءِ الرُّوَادِ هُوَ
كَيْفِيَّةُ تَحْقِيقِ الْمُسْلِمِينَ لِلتَّقَدُّمِ الْحَضَارِيِّ الْمَادِيِّ مَعَ الْمَحَافِظَةِ عَلَى خُصُوصِيَّتِهِمْ. وَيَتِمُّ ذَلِكَ بِعِبَرِ إِصْلَاحِ
النُّظْرَةِ لِلْإِسْلَامِ كَيْ يَتَقَدَّمَ الْمُسْلِمُ وَيُؤَاكِبَ عَصْرَهُ. لِذَلِكَ طَالَبُوا بِمُرَاجَعَةِ التَّرَاثِ تَمَشِيًا مَعَ مُتَطَلِبَاتِ الْعَصْرِ
وَالتَّقَدُّمِ الْمَدَنِيِّ.

فِي نِهَآيَةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ ظَهَرَتْ الْبُؤَادِرُ الْأُولَى لِأَفْكَارِ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ لَدَى الشَّبَابِ الْعُثْمَانِيِّ حَوْلَ
السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الثَّانِي فِي إِطَارِ رَفْضِ الْإِصْلَاحَاتِ الْمَدَنِيَّةِ الَّتِي فَرَضَهَا ظُهُورُ الدَّوْلَةِ الْحَدِيثَةِ
وَقَوَانِينِهَا. وَقَدْ قَامَ هَؤُلَاءِ بِإِعَادَةِ صِيَاغَةِ الْإِسْلَامِ كَبَدِيلٍ عَنِ الدَّوْلَةِ الْوَطَنِيَّةِ الَّتِي أُعْتَبِرَتْ إِفْرَازًا لِلْعَرَبِ.
فَكَانَتْ الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بَدِيلًا لِلدَّوْلَةِ الْوَطَنِيَّةِ وَالشَّرِيعَةُ بَدِيلًا لِقَوَانِينِ الدَّوْلَةِ وَالْعَدْلُ بَدِيلًا لِلْحُرِّيَّةِ. لِذَلِكَ

تُواصل هذا الفكر مع الإخوان المسلمين في مصر وكذلك مع الجماعة الإسلامية لأبو العلاء المودودي في الهند وخرجت من بينهما لاحقاً تنظيمات أكثر تشدداً هي الجماعات الجهادية . مثل الإيمان محوى الوهابية فانتجت الداعية الإسلامي، في حين كانت مادة الإصلاح الإسلامي هي التقدم الحضاري فاتح المفكر الإسلامي، أما الإسلام السياسي فاتج مفهوم المناضل الإسلامي باعتبار سياسة الدولة مادته الأساسية .

ظهرت العديد من الحركات التي تُعتبر أصلاً على مدار التاريخ الإسلامي . الحركة الإصلاحية في العصر الحديث في الهند ومصر كانت واحدة من العديد من الحركات التي ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر مثل العلمانية والإسلاموية والسلفية في رده فعل للتغيرات السريعة في ذلك الوقت كقيام الحضارة الغربية والاستعمار في العالم الإسلامي . كانت هذه المرحلة تحمل بوادر وعى بأزمة المسلمين وتخلّفهم عن الحضارة والتقنية الغربية وكانت هناك حركة متزايدة من قبل بعض علماء الدين المسلمين إلى أن واقع المسلمين المتخلف يعود إلى حالة الجمود والركود في الحياة الاجتماعية والدينية . وفي حين اختار البعض التوجه نحو تبني نظريات الغرب العلمانية ونظر وفصل الدين عن الدولة، كان رأى بعض علماء الدين أن الإسلام غير معارض مع التقدم، إنما أفكار دخيلة ووضعيات اجتماعية معينة هي من ساعد على ظهور هذا التخلف في العالم الإسلامي .

كان هذا التيار الإصلاحية يلتقي مع التيار الوهابي في تقيّة العقيدة من البدع والخرافات، ويتجاوزة على صعيد الانفتاح على العصر، والنزوع نحو التجديد في الدين والفكر واللغة، أي أنه يجمع بين التمسك

بِالتَّوَابِ وَالْأُصُولِ، مَعَ تَرْكِ مَسَاحَةِ لِلْمُتَغَيِّرَاتِ بِحَيْثُ تَسْتَوْعِبُ وَاقِعَنَا الْمُعَاصِرِ . وَكَانَ أَهْمُ إِغْلَامِ هَذَا
النَّيَّارِ جَمَالَ الدِّينِ الْإِفْغَانِي الَّذِي كَانَ يَمِيلُ إِلَى الْأَسْلُوبِ الثَّوْرِيِّ لِمُقَاوَمَةِ الْإِسْتِعْمَارِ الْعَرَبِيِّ لِلدُّوَلِ
الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمُحَمَّدُ عَبْدِهِ الَّذِي اتَّخَذَ أَسَالِيبَ سَلْمِيَّةٍ تَكْوِينِ أَجْيَالٍ تَحْمِلُ الدَّعْوَةَ وَتَنْشُرُ التَّرْبِيَّةَ
الْإِسْلَامِيَّةَ، حَتَّى لَوْ اضْطَرَّهَا ذَلِكَ لِمَهَادَنَةِ وَمُدَاهَنَةِ الْإِحْتِلَالِ مَا دَامَ ذَلِكَ يُذْرَأُ الْمَفَاسِدِ .

هَبْ مُحَمَّدُ عَبْدِهِ وَرَشِيدُ رِضَا لِلدَّفَاعِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَتَحْدِيثِهِ لِمُؤَاكَبَةِ الْمُسْتَسَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمُسْتَسَاتِ
الْإِجْتِمَاعِيَّةِ فِي أَوَاخِرِ الْقُرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ . كَانَ هَذَا الْمَشْرُوعُ يَسْعَى إِلَى نَشْرِ مَجْمُوعِهِ وَاسِعَةٍ مِنْ
الْمَعْرِفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ تَرَكَتْ فِي سِيَاقِ مُخْتَلَفٍ فِي الْقُرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ . عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ
هَذِهِ الْجُهُودَ كَانَ لَهَا تَأْثِيرَاتٌ قَلِيلَةٌ فِي الْبِدَايَةِ لِكِنِّهَا أَكْسَبَتْ زَخْمًا مَعَ زَوَالِ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ فِي عَامِ
1924 وَاتِّسَارِ اللَّيْبَرَالِيَّةِ الْعِلْمَانِيَّةِ لَا سِيَّمَا مَعَ جِيلٍ جَدِيدٍ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ وَالْمُتَقَيِّينَ وَالْكَتَّابِ الَّذِينَ تَبَنُّوا
اللَّيْبَرَالِيَّةَ الْعِلْمَانِيَّةَ أَوْ الْقَوْمِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ . فَنِي مِصْرَ ظَهَرَ الدُّكُورُ عَلَى عَبْدِ الرَّزَّاقِ الَّذِي كَتَبَ "الْإِسْلَامَ
وَأُصُولَ الْحُكْمِ" ، الَّتِي دُعِيَ فِيهِ إِلَى الْفُضْلِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالِدَوْلَةِ . وَبَعْدَ ذَلِكَ الْكِتَابِ ، ظَهَرَ كِتَابُ
عِلْمَانِيَّيْنِ آخَرُونَ كَهَلْ حُسَيْنُ وَمُحَمَّدُ سَعِيدِ الْعُشْمَاوِيِّ وَمُحَمَّدُ خَلْفَ اللَّهِ أَحْمَدُ وَقَرَجَ فَوْدَهُ وَحُسَيْنُ
أَمِينٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ وَالْمُتَقَيِّينَ وَالْكَتَّابِ الَّذِينَ دَعَوْا فَكْرَهُ الدَّوْلَةِ الْمَدِينِيَّةِ الْعِلْمَانِيَّةِ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ
الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ .

اِقْتَصَرَ كُلُّ الْحَرَكَاتِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمَةِ عَبْرَ التَّارِيخِ عَلَى تَوْعِينِ مِنَ الْحَرَكَاتِ ، حَرَكَةُ أَصْلَاحِيَّةٍ
عَمِلَتْ دَائِمًا عَلَى تَصْحِيحِ مَسَارِ الْأُمَّةِ وَتَجْدِيدِ مَا ضَعُفَ فِي نَفُوسِ النَّاسِ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَإِحْيَاءِ الْعِلْمِ
الشَّرْعِيِّ وَالسُّنَنِ وَالْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ . وَحَرَكَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ لِلْمُنَافَسَةِ عَلَى سَطْرَةِ الْحُكْمِ . لَكِنَّ الْإِسْلَامَ

الْحَرَكِي تَأَثَّرَ بِدَعَوَاتِ الْمُصْلِحِينَ الَّذِينَ سَبَقُوا نَشَأَتَهُ مُبَاشَرَةً أَوْ سَبَقُوهُ بِدَعَوَاتِهِمُ الْإِصْلَاحِيَّةِ ثُمَّ عَاصَرُوا
نَشَأَتَهُ مِثْلَ جَمَالِ الدِّينِ الْإِفْغَانِيِّ وَالْإِمَامِ مُحَمَّدِ عَبْدِ وَرَشِيدِ رِضَا وَمُحِبِّ الدِّينِ الْخَطِيبِ وَغَيْرِهِمْ .
لَقَدْ أَثَرِي هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةُ الْحَرَكَةُ الثَّقَافِيَّةُ وَالْعِلْمِيَّةُ وَالْإِصْلَاحِيَّةُ فِي السِّيَاسَةِ وَالْإِجْتِمَاعِ، وَكَانَتْ لَهُمْ جُهُودٌ
عَبَّرَ الْخُطَابَةَ وَالصَّحَافَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ اِهْتَمَّ بِالْإِصْلَاحِ السِّيَاسِيِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ اِهْتَمَّ بِالتَّرْبِيَةِ وَالتَّجْدِيدِ الدِّينِيِّ،
وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ هَدْفَهُ نَشْرَ الْعِلْمِ الدِّينِيِّ وَالتُّرَاثِ . وَانْفَقُوا جَمِيعًا عَلَى ضَرُورَةِ التَّغْيِيرِ وَالتَّجْدِيدِ
وَالْإِصْلَاحِ عَلَى أَسَاسِ مَبَادِيٍّ وَقِيَمِ الْإِسْلَامِ . رَبَّمَا جَنَحَ رَشِيدِ رِضَا وَمُحِبِّ الدِّينِ الْخَطِيبِ إِلَى تَكْوِينِ
الْجَمْعِيَّاتِ السَّرِيَّةِ كَمَوْجِ مُتَقَدِّمٍ لِمَا سَتَقُومُ عَلَيْهِ نَنْظِيمَاتُ الْإِسْلَامِ الْحَرَكِيِّ لَاحِقًا . لَكِنَّ رِجَالَ الْإِصْلَاحِ
الْأَرْبَعَةَ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَنْصَارِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، لَقَدْ نَفَى الْإِمَامُ مُحَمَّدُ عَبْدِهِ فِي عَهْدِهَا، كَمَا حُدِّثَتْ
إِقَامَةَ جَمَالِ الدِّينِ الْإِفْغَانِيِّ فِي الْأَسَانَةِ حَتَّى تُوفِّيَ بِهَا، أَمَّا رَشِيدِ رِضَا فَكَانَ عَضْوًا فِي مَجْلِسِ شُورَى
الثَّوْرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ضِدَّ السَّلْطَنَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَأَمَّا مُحِبُّ الدِّينِ الْخَطِيبُ فَكَانَ رَئِيسًا لِتَحْرِيرِ مَجَلَّةِ الْقِبْلَةِ
النَّاطِقَةِ بِلسَانِ الثَّوْرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ضِدَّ الْعُثْمَانِيِّينَ وَكَانَ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا كَانُوا مَعَ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ
كَانَا يَمِيلَانِ إِلَى نَشْأَةِ خِلَافِهِ عَرَبِيَّةٍ تُقَوِّدُ الْعَالِمَ الْمُسْلِمَ، لَكِنَّ هَذَا يَنَاقِضُ تَمَامًا مَعَ قِيَامِ تَلَامِيذِهِمْ بِتَأْسِيسِ
الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَنَنْظِيمَاتِهَا كَأَوَّلِ رَدِّ فِعْلٍ عَمَلِيٍّ عَلَى سُقُوطِ السَّلْطَنَةِ الَّتِي عَمِلَ أَسَاتِدَتِهِمْ عَلَى
تَقْوِيْنِهَا .

مُنْظَرُونَ

جَمَالُ الدِّينِ الْإِفْغَانِيِّ

إنَّ أَوَّلَ مُصْلِحٍ دَعَا الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ إِلَى الرَّفْعِ بِمَسْتَوَاهَا الْحَضَارِيَّ وَالرُّوحِيَّ فِي مُوَاجَهَةِ السِّيَاسَةِ
 التَّوَسُّعِيَّةِ لِلْغَرْبِ الْمُسْتَعْمِرِ هُوَ جَمَالُ الدِّينِ الْإِفْغَانِي (1839-1897) رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَهْدِفْ بِنَاتًا إِلَى تَحْدِيثِ
 نَظَرِيَّيْهِ لِلْإِسْلَامِ بِمَعْنَى تَحْطِي الْأَصْلِ. لَقَدْ رَأَى أَنَّ مِنْ وَاجِبِهِ الْأَسَاسِيِّ الْإِعْتِنَاءَ بِنِظَامِ التَّدْرِيسِ، وَطَالَبَ
 بِإِدْخَالِ الْعُلُومِ الْحَدِيثَةِ فِي الْبُرَامِجِ الْمَدْرَسِيَّةِ، كَمَا أَشَارَ إِلَى مَا لِلْفَلَسَفَةِ مِنْ أَهْمِيَّةٍ كَمَا دَلَّ لِلتَّدْرِيسِ.
 وَدَفَعَ بِقُوَّةٍ وَهُوَ يُجَادِلُ عُلَمَاءَ الشَّرِيعَةِ الْمُقَلِّدِينَ عَنِ الْعُلُومِ الْحَدِيثَةِ وَالْعَقْلِ قَائِلًا «لِنَّ الْعَقْلَ وَكُلَّ مَا يَصْدُرُ
 عَنْهُ يَلَائِمُ مَبَادِيَّ الْإِسْلَامِ الْأَسَاسِيَّةِ.» أَوْ تَرَاهُ يَقُولُ إِنَّ عَلَى الْمَرْءِ يَعْنِي بِتَرْبِيَةِ خِصَالِهِ الْحَسَنَةِ وَيُحِبُّ
 النَّاسَ وَيَخْدُمُهُمْ بِتَقَانٍ.

تَبْنِي الْمُصْلِحِ الْمِصْرِيِّ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ هَذَا الْمَرْجِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْقُرْآنِيَّةِ عَنِ الْأَخْلَاقِ وَالنُّزْعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ
 الْحَدِيثَةِ وَأَعْطَاهُ طَابَعًا مُعَاَصِرًا. وَقَامَ الْعَالِمُ الْهِنْدِيُّ سَيِّدُ عَلِي خَانَ أَيْضًا بِتَمَثِيلِ الْأَفْكَارِ نَفْسَهَا: «إِنَّ لَمْ
 تَخِلْ عَنِ هَذَا التَّقْلِيدِ الْبُعِيضِ وَلَمْ نَسْعَ إِلَى اسْتِضَاءَةِ أَنْفُسِنَا وَغَيْرِنَا مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فَقَطْ فَلَيْسَ
 لِلْإِسْلَامِ فِي الْهِنْدِ مُسْتَقْبَلٌ.» كَانَ سَيِّدُ عَلِي خَانَ مُتَأَثِّرًا بِالتَّفْسِيرِ الْحَدِيثِ إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ حَيْثُ حَاوَلَ
 أَنْ يَجِدَ لِكُلِّ اخْتِرَاعٍ فِي عَالَمِ الْعِلْمِ آيَةً فِي الْقُرْآنِ تُخَيِّرُنَا بِذَلِكَ مِمَّا جُلِبَ انْتِقَادُ الْمُسْلِمِينَ الشَّدِيدِ. هَذِهِ
 النُّزْعَةُ الَّتِي تَبَحُّثُ عَنْ وَصْفِهِ مُفْضَلَةً فِي الْقُرْآنِ لِكُلِّ مَا اسْتَجَدَّ فِي مَيْدَانِ الْعُلُومِ. إِمَّا عَمِيدُ كَلِيَّةِ
 الْأَزْهَرِ السَّابِقِ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ عَبْدَهُ فَتَجَرَّأَ وَقَالَ إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَتَنَاقَضُ الْعَقْلَ مَا لَمْ يَتَجَاوَزَا حُدُودَهُمَا فَهُوَ
 كَانَ أَكْثَرَ وَاقِعِيًّا مِنْ عَلِي خَانَ. لَقَدْ قُوِّبَتْ آرَاءُ عَبْدِهِ الْمُنْفَحَةِ فِي مَجَالِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالَّتِي
 أَوْرَدَهَا فِي دُرُوسِهِ وَمُجَالَسَةِ بَأْسُلُوبٍ لِنِّ وَتِرْحَابٍ وَوَجَدَتْ اتِّبَاعًا لَهَا بَيْنَ الْمُتَقَفِينَ.

مُحَمَّدُ عَبْدَهُ

على الأرجح فإن أول محاولة إصلاح ديني في العصر الحديث قادها محمد بن عبد الوهاب (1703 -

1791) وقامت على أمرين أساسيين هما تقيّة العقيدة ومُحاربة الشرك من جهة، واتباع السنّة

الصحيحة من جهة ثانية، ثم نجح في إقامة دولة بالتحالف مع العائلة السُعوديّة، وكانت عاصمتها الدرعيّة. لكن الخلافة العُثمانيّة الخلافة العُثمانيّة بعثت محمد علي باشا (والي مصر) فهاجم هذه

الدولة وقضى عليها ابنه إبراهيم باشا في عام 1814 بعد أن احتلّ كلا من نجد والحجاز، ودمر الدرعيّة وانتهى هذه الدولة بشكل مؤقت، لتقوم مرّتين أخريّين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

ثم جاءت المحاولة الثانية للإصلاح الديني على يد محمد عبده (1849 - 1905) في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فواجه تحدي الحضارة الغربيّة للأمة في مختلف المجالات الاجتماعيّة والسياسيّة والعقائديّة والفكريّة. وألف عدداً من الكُتب في مجال العقيدة والحضارة، وكتب تفسيراً للقران الكريم سمى تفسير المنار ولم يكمله (تابع كتابته تلميذه رشيد رضا لكنه أيضاً توفي قبل إكماله) وقام بمحاولات لإصلاح الأزهر والتعليم الرسميّ والمحاكم والقضاء، وقدم مذكرات مفصّلة إلى اللورد كرومر (الحاكم الإنجليزي العام على مصر) لتحقيق ذلك، وأنشأ جمعيّة تهتمّ باللغة العربيّة.

يعدّ الإمام محمد عبده واحداً من أبرز المُجددين في الفقه الإسلاميّ في العصر الحديث، واحد دعاة الإصلاح وإعلام النهضة العربيّة الإسلاميّة الحديثة فقد ساهم بعلمه ووعيه واجتهاده في تحرير العقل العربيّ من الجمود الذي أصابه لعدّة قرون، كما شارك في إيقاظ وعي الأمة نحو التحرر، وبعث الوطنيّة وإحياء الاجتهاد الفقهيّ لمواكبة التطورات السريعة في العلم، ومُسائره حركة المجتمع وتطوره في مختلف النواحي السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة. كان محمد عبده يدعو إلى الوحدة الاجتماعيّة

الْوَطَنِيَّةَ وَالِدِينِيَّةَ عَلَى السَّوَاءِ) وَإِلَى تَوْفِيقِ جَمِيعِ الْمَصَالِحِ، وَإِنْ فِكْرَتُهُ عَنِ الْأُمَّةِ الْمِصْرِيَّةِ لَا تُعَيِّرُ الْعَرَقَ
أَيُّ وَزْنٌ، وَهِيَ نَظْرَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ أَصِيلَةٌ.

وَرُبَّمَا قَامَ بَعْضُ تَلَامِيذِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ بِمُحَاوَلَاتِ إِصْلَاحِ جَرِيئَةٍ تَمَّتْ بِتَوْجِيهِ مِنْهُ وَرِعَايَتِهِ وَلَكِنْ مِنْ خَلْفِ
سِتَارٍ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا دَعَا إِلَيْهِ قَاسِمٌ أَمِينٌ فِي كِتَابَيْهِ اللَّذَيْنِ أَصَدَرَهُمَا فِي حَيَاتِهِ وَهُمَا: تَخْرِيرُ الْمَرْأَةِ
وَالْمَرْأَةُ الْجَدِيدَةُ. وَيُمْكِنُ أَنْ نَذْرُجَ مَا قَامَ بِهِ عَلَى عَبْدِ الرَّازِقِ وَطَهَ حُسَيْنٍ - اللَّذَانِ يُعْبَرَانِ مِنْ تَلَامِيذِهِ
أَيْضًا - فِي كِتَابَيْهِ الْفَاهِمَا بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَيُعْبَرَانِ مِنْ أخطرِ الْكُتُبِ الَّتِي أَلْفَتْ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ وَهَزَّتْ
ثَوَابِتَ فِي وُجُودِ الْأُمَّةِ وَهُمَا الْإِسْلَامُ وَأُصُولُ الْحُكْمِ لِعَلِيِّ عَبْدِ الرَّازِقِ وَفِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ لَطَهَ حُسَيْنٌ.
وَمِنْ الْجَدِيرِ بِالتَّنْوِيهِ أَنْ مُحَاوَلَةَ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ الْإِصْلَاحِيَّةَ كَانَتْ مُتَجَاوِبَةً مَعَ بَعْضِ مُعْطِيَاتِ الْحَضَارَةِ
الْغَرْبِيَّةِ، فِي بَعْضِ الْأُمُورِ السَّابِقَةِ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَرْأَةِ وَالسِّيَاسَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالْقَضَاءِ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ
مُتَعَاوِنًا فِي هَذَا التَّوَجُّهِ مَعَ اللُّوردِ كَرُوْمَرِ.

مُحَمَّدُ رَشِيدُ رِضَا

لَقَدْ حَدَّثَ تَغْيِيرُ تَوْعِي فِي الْمُحَاوَلَةِ الْإِصْلَاحِيَّةِ لِمُحَمَّدٍ عَبْدِهِ، وَحَصَلَ تَعْدِيلٌ لِمَسِيرَتِهَا عَلَى يَدِ تَلْمِيذِهِ
مُحَمَّدِ رَشِيدِ رِضَا، حَيْثُ تَأَثَّرَ بِمَدْرَسَةِ مُحَمَّدِ عَبْدِ الْوَهَّابِ وَنَقَلَ عَنْهَا الْإِعْتِمَادَ عَلَى الْحَدِيثِ
الصَّحِيحِ، وَالْإِهْتِمَامَ بِأُمُورِ السُّنَّةِ وَمُحَارَبَةَ الْبِدْعِ، وَالتَّرْكِيزَ عَلَى نَقِيَّةِ الْعَقِيدَةِ مِنَ الشَّوَابِ، وَالْإِجْتِهَادَ فِي
إِعَادَةِ الْخِلَافَةِ بَعْدَ سُقُوطِهَا عَامَ 1924 فِي إِسْطَنْبُولِ، وَلِذَلِكَ أَلْفَ كِتَابًا تَحْتَ عُنْوَانِ: الْخِلَافَةُ أَوْ الْإِمَامَةُ
الْعُظْمَى وَيُمْكِنُ أَنْ نَعْتَبِرَهُ رَدًّا غَيْرَ مُبَاشِرٍ عَلَى كِتَابِ الْإِسْلَامِ وَأُصُولِ الْحُكْمِ لِعَلِيِّ عَبْدِ الرَّازِقِ. وَيُمْكِنُ
أَنْ اِغْتَبَارَ إِنْشَاءَ حَسَنِ الْبِنَا لِلْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ عَامَ 1928 أَحَدِ التَّجَلِّيَّاتِ الشَّعْبِيَّةِ لِلْمُحَاوَلَةِ الْإِصْلَاحِيَّةِ

فِي أُخْرَى صَوَّرَهَا عَلَى يَدِ مُحَمَّدٍ رَشِيدٍ رِضًا، لِأَنَّ حُسْنَ الْبَنَاءِ كَانَ عَلَى عِلَاقَةٍ وَثِيقَةٍ بِمُحَمَّدٍ رَشِيدٍ
وَتَأَثَّرَ بِأَفْكَارِهِ وَبِإِضَافَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ عَلَى مَدْرَسَةِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ.

أَدْبِيَات

يُمْكِنُ اخْتِصَارُ مَلَامِحِ حَرَكَاتِ الْإِصْلَاحِ الْمُشْرَكَةِ فِي الْقُرْتَيْنِ التَّاسِعِ وَعَشْرَ وَالْعِشْرِينَ فِي الْإِفْتِنَاحِ
بِالْإِنْحِطَاطِ الدَّاخِلِيِّ وَمُكَافَحَةِ الْخُرَافَاتِ وَتَصْفِيَةِ الْإِسْلَامِ مِنْهَا وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْقِيَمِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ.
أَنَّ قَادَةَ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ الْإِصْلَاحِيَّةِ كَانُوا عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ عَوْدَهُ الْأُمَّةِ إِلَى الْقُرْآنِ وَتَعَالِيهِمِهِ الْبَسِيطَةِ الْوَاضِحَةِ
هِيَ الْحُلُّ الْوَحِيدُ. نَصَادِفُ فِي الْقُرْنِ التَّاسِعِ عَشْرَ نَزَعَاتٍ مُخْتَلِفَةً بَيْنَ قَادَةِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ كُلِّ فِرْقَةٍ لَهَا
وَصِفَتَهَا لِحُلِّ الْمَسَائِلِ. فَيَرَى التَّقْلِيدِيُّونَ وَعَلَى رَأْسِهِمْ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَوْ قَاضِي الْقَضَاةِ لِلْحُكْمِ الْعُثْمَانِيِّ أَنَّ
الْخَلَاصَ يَتِمُّ فَقَطُ بِالْتَّمَسُّكِ بِمَا بِهِ اهْتَمَّ السَّلَفُ الصَّالِحُ إِذْ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْ عَهْدِ التُّبُوَّةِ وَلَيْسَ بَوَسَعِنَا
إِنَّ نَفْهَمَ الْقُرْآنِ كَمَا فَهَمُوهُ. وَالصُّوْقِيَّةُ تَذْهَبُ إِلَى أَنَّ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَنْجُوَ بِنَفْسِهِ بَعِيدًا عَنِ السِّيَاسَةِ
وَشُؤُونِهَا وَعَلَى رَأْسِهَا الشَّاذِلِيَّةُ وَالتَّقْسِيبِنَدِيَّةُ.

التَّرْبِيَّةُ وَالتَّعْلِيمُ

تَأَثَّرَ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ وَرَشِيدُ رِضًا بِتَجَارِبِ الْإِصْلَاحِ الْأُورُوبِيَّةِ، وَنَادَوْا بِالْإِصْلَاحِ الدِّيْنِيِّ وَبِالْإِصْلَاحِ التَّعْلِيمِيِّ
وَالتَّرْبِيِيِّ، مُعْتَبِرِينَ أَنَّ مُشْكَلَةَ الْمُسْلِمِينَ فِي زَمَانِهِمْ جَسَدَهَا التَّخَلُّفُ وَالْإِنْحِطَاطُ الْحَضَارِيِّ، وَإِنَّ أَسَاسَ
عَمَلِيَّةِ التَّمْدُنِ يَكْمُنُ فِي التَّقَدُّمِ عَلَى مُسْتَوَى الْفِكْرِ وَالْمَعْرِفَةِ إِلَى جَانِبِ الْجَدِّ فِي الْعَمَلِ الْفِكْرِيِّ وَالدِّيْنِيِّ،
لِذَلِكَ أَعْطُوا الْأَوْلَوِيَّةَ لِلتَّرْبِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِ عَلَى حِسَابِ الْإِصْلَاحِ السِّيَاسِيِّ، ذَلِكَ أَنَّ تَعْلَمَ وَكَتَسَابَ الْمَعَارِفِ
الْحَدِيثَةَ كَهَيْلَانَ بِنَهْوِضِ أُنْبَاءِ الطَّبَقَاتِ وَالْفَنَاتِ الْوَسْطَى وَالدُّنْيَا، وَيُنْقَلُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مَرَحَلَةِ تَقَاقِيَّةِ

وَحَضَارِيَّةٍ قَدِيمَةٍ إِلَى مَرَحَلَةٍ جَدِيدَةٍ، الْأَمْرُ الَّذِي سَيَفْضِي فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ إِلَى تَحْسُنِ الْأَوْضَاعِ السِّيَاسِيَّةِ، وَالسَّعْيِ إِلَى إِشَادَةِ الْحُكْمِ الصَّالِحِ، الَّذِي يُمَثِّلُ مَصَالِحَهُمْ وَيُنْشُدُ مَطَامِحَهُمْ. وَقَدْ تَحَدَّثَ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ، وَمَعَهُ آخَرُونَ مِنْ دُعَاةِ الْإِصْلَاحِ الدِّيْنِيِّ، عَنِ الصَّفْوَةِ الْمُسْتَنِيرَةِ بِوَضْعِهَا تِلْكَ التُّخْبَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ إِدْرَاكًا عَصْرِيًّا لِلْإِسْلَامِ، وَمُوَهْلَةً تَقَافِيًّا وَعِلْمِيًّا لِلْقِيَامِ بِنَشْرِ الْإِصْلَاحِ وَمُوَاجَهَةِ الْجُمُودِ الدِّيْنِيِّ. وَكَانَ عَبْدُهُ يَرَى أَنَّ الْجُمُودَ الدِّيْنِيَّةَ هِيَ سَبَبُ التَّخَلُّفِ، كَوْنَهُ يُعْطِلُ عَقْلَ الْمُسْلِمِ، ثُمَّ أُعْطِيَ تَلْمِيذَهُ رَشِيدَ رِضَا الْأَوْلِيَّةِ لِلْإِصْلَاحِ الدِّيْنِيِّ، بِوَضْعِهِ الْمُحَرِّكَ لِلْمِيَاهِ الرَّكَادَةِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ. وَكَانَتْ الْغَايَةُ مِنْ ذَلِكَ الْإِصْلَاحِ الدِّيْنِيِّ هِيَ الْعَوْدَةُ إِلَى قِيَمِ الْإِسْلَامِ الْأُولَى.

النُّهُوضُ الْحَضَارِيُّ

وَبِالْإِتْقَالِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَشِيدِ رِضَا إِلَى مَالِكِ بْنِ نَبِيِّ فَإِنَّ الْإِصْلَاحَ الدِّيْنِيَّ يَكُونُ قَدْ أُخْلِيَ مَكَانَهُ لِلْمُشْكِالِ الْحَضَارِيِّ، حَيْثُ أُعْتَبِرَ بِنُ بِنِي أَنَّ مُشْكِالَةَ الْمُسْلِمِينَ لَا تَقُومُ فِي النِّظَامِ السِّيَاسِيِّ، إِنَّمَا الْمُسْكِالَةُ الْحَقِيقِيَّةُ تَكْمُنُ فِي التَّخَلُّفِ الْحَضَارِيِّ، وَعَلَيْهِ حُمِلَتْ كُلُّ كُتْبِهِ الْعُنُوانِ ذَاتِهِ وَهُوَ مُشْكِالَةُ الْحَضَارَةِ وَاعْتَبَرَ فِيهَا إِنَّ السِّيَاقَ الْحَضَارِيَّ يُفَسِّرُ بِشَكْلِ كَبِيرٍ تَخَلُّفَ الْمُسْلِمِينَ وَسَبَبَ عَدَمِ تَقَدُّمِهِمْ، وَتَحَدَّثَ عَنِ الْجَمْعِ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالتُّرَابِ وَالْوَقْتِ فِي تَرْكِيبِهِ حَضَارِيَّةٍ قَادِرَةٍ عَلَى الْإِنْطِلَاقِ فِي دَوْرَةِ حَضَارِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، تُعِيدُ تَأْهِيلَ الْمُسْلِمِينَ بِمَفَاعِيلِ الْفِكْرَةِ الدِّيْنِيَّةِ. وَكَانَ يَرَى أَنَّ مُشْكِالَةَ الْإِنْسَانِ تَبْدَأُ مِنْ مُشْكِالَةِ الْحَضَارَةِ، الَّتِي لَا تَحِلُّ إِلَّا بِتَغْيِيرِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، مِنْ خِلَالِ تَشْغِيلِ فِكْرِهِ وَدَوْرِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَتَخْلُصِهِ مِنَ الْجُمُودِ وَالسَّلْبِيَّةِ وَمَنْ الْارْتِهَانِ لِلْأَوْهَامِ وَالْخُرَافَاتِ، إِلَى جَانِبِ أَيْمَانِ الْإِنْسَانِ الْحَضَارَةِ بِقِيَمِ الْعَمَلِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالثَّقَافِيِّ، بِصِفَتِهِ الْمُعْوَلِّ عَلَيْهِ كَيْ يَكُونَ حَامِلَ مَشْرُوعِ الْإِصْلَاحِ السِّيَاسِيِّ.

تَغْيِيرِ النَّفْسِ وَالْمُجْتَمَعِ

وَتَابَعُ جَوَدَتْ سَعِيدِ التَّهْجِ نَفْسِهِ الَّذِي خَطَهُ مَالِكُ بْنُ نَبِيٍّ، وَاعْتَمَدَ فِيهِ عَلَى الْمَقَارِبَةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ، لَكِنَّهُ رَبَطَهَا بِسَنِّ التَّغْيِيرِ وَالنَّفْسِ وَالْمُجْتَمَعِ، مُعْتَبِرًا أَنَّ الْأُمَّةَ الرَّاشِدَةَ أَهَمُّ مِنَ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، إِذْ يُمَكِّنُ أَنْ تَقْتُلَ الْأُمَّةَ غَيْرَ الرَّاشِدَةِ الْخَلِيفَةَ الرَّاشِدِ. وَيُسَجِّلُ لِحُجُودِ سَعِيدِ إِصْرَارِهِ عَلَى التَّهْجِ السَّلْمِيِّ أَوْ اللَّاعِنِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ اعْتِمَادِ تَهْجِ وَأَسَالِيبِ الْعُنْفِ لِلتَّغْيِيرِ.

وَالْأَجْدَى بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِ هُوَ تَوْلِيدُ الْعَمَلِ وَالْفَاعِلِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَاعْتِبَارِ الْعَمَلِ قُدْرَةً وَإِرَادَةً.

إِصْلَاحُ الْمَوْسَّسَاتِ الرَّسْمِيَّةِ

أَمَّا خَيْرُ الدِّينِ التُّونِسِيِّ فَقَدْ كَانَ مِنْ دُعَاةِ الْمَقَارِبَةِ السِّيَاسِيَّةِ لِلِإِصْلَاحِ السِّيَاسِيِّ، وَمِنْ خِلَالِ الْمَوْسَّسَاتِ الدُّسْتُورِيَّةِ الْقَائِمَةِ، وَلَدَيْهِ مِنْهُجَةٌ فِي الْإِصْلَاحِ وَالتَّجْدِيدِ الْحَضَارِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ، لَكِنَّهُ لَا يَتَعَدُّ كَثِيرًا عَنْ مُحَمَّدِ عَبْدِهِ مِنْ جِهَةِ اعْتِبَارِهِ التَّقَدُّمِ الْحَضَارِيِّ رَافِعَةً لِلتَّقَدُّمِ السِّيَاسِيِّ، ذَلِكَ أَنَّ مَجَالَ الْإِصْلَاحِ لَدَيْهِ هُوَ الْعَمَلُ مِنْ خِلَالِ الْمَوْسَّسَاتِ، كَوْنَهُ الْأَجْدَى لِصَوْنِ الْمَصَالِحِ وَتَطْوِيرِهَا. وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى التَّنْظِيمَاتِ الَّتِي بُنِيَتْهَا الْعَرَبُ بِوَصْفِهَا مِفْتَاحَ إِدْرَاكِ الْفَارِقِ أَوْ الْهُوَّةِ فِي الْقُوَّةِ، وَعُنْوَانُ تَمَيُّزٍ وَتَقَدُّمِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ عَلَى حِسَابِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ، فِي حِينِ أَنْ أَصْحَابَ الْمَقَارِبَةِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي تُرَكِّزُ عَلَى الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، تَلْقَى مَسْئُولِيَّةَ تَرَدِّي الْأَوْضَاعِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ عَلَى الْإِسْتِعْمَارِ وَالْعَزْبِ وَالْمَشْرُوعِ الصَّهْيُونِيِّ، وَتُرَكِّزُ عَلَى فِكْرَةِ امْتِنَاكِ الْإِرَادَةِ السِّيَاسِيَّةِ لِمُوَاجَهَةِ الْخَارِجِ.

وَتُعْتَبَرُ الْمَقَارِبَةُ الْحَرَكِيَّةُ الْأَكْثَرُ جَذْرِيَّةً، وَجَاءَتْ رَدًّا عَلَى مُحَاوَلَاتِ الْعِلْمَنَةِ وَالتَّعْرِيبِ فِي الْوَاقِعِ الْعَرَبِيِّ الْمُعَاصِرِ، مَعَ أَنَّهَا بَدَأَتْ بِالظُّهُورِ بَعْدَ انْهِيَارِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، ثُمَّ تَنَامَتْ مَعَ الصَّرَاعِ وَالْإِخْتِلَافِ مَعَ الدَّوْلَةِ

الوطنيّة. ومعها باتت القويّ المرشحة للإصلاح أو التّغيير هي الحركة أو الجماعة الإسلاميّة، وتختلف لدّيها طبيعة التّشيشة والتّربية بحسب طبيعة المقاربة الفرعيّة، حيث سلك بعض هذه الحركات طريقاً سياسياً، فيما سلك بعضها الآخر طريق العنف المسلح في مواجهة الأنظمة السياسيّة.

نَبذ التَّقْلِيد

أما قادة الإصلاح أمثال جمال الدين الأفغاني فلا يُقيمون يَمَسْكُوتِ بأعمال السلف وها هو الأفغاني يُغضبُ عندما يُقتبس في مجلسه ما يقول القاضي عياض حجةً وكان ما كُتِبَ وحي منزل فيقول: «يا سُبْحَانَ اللَّهِ! إِنَّ الْقَاضِيَّ عِيَاضَ قَالَ مَا قَالَهُ عَلَى قَدْرِ مَا وَسَعَهُ عَقْلُهُ وَتَنَاوَلَهُ فَهَمُهُ وَنَاسَبَ زَمَانَهُ فَهَلْ لَا يَحِقُّ لغيره أَنْ يَقُولَ مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الْحَقِّ وَأَوْجَهُ وَأَصَحُّ مِنْ قَوْلِ الْقَاضِي عِيَاضَ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأُمَّةِ وَهَلْ يَجِبُ الْجُمُودُ وَالْوُقُوفُ عِنْدَ أَقْوَالِ أَنَاسٍ أَطْلَقُوا لِعُقُولِهِمْ سَرَاحَهَا فَاسْتَبَطُّوا وَقَالُوا وَأَذَلُّوا دُلُومَهُمْ فِي الدَّلَاءِ وَفِي ذَلِكَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنَ الْعِلْمِ وَأَثَوَا بِمَا نَاسَبَ زَمَانَهُمْ وَتَقَارَبَ مَعَ عُقُولِ جِيلِهِمْ - وَتَبَدَّلَ الْأَحْكَامُ بِتَبَدُّلِ الزَّمَانِ.» ولما قيل له أن ذلك يحتاج إلى الاجتهاد وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود لتعذر شروطه تنفس الصعداء وقال: «ما معنى باب الاجتهاد مسدود وبأي نص سد باب الاجتهاد أو أي إمام قال: لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتقنه في القرآن أو إن يهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث.

إِصْلَاحُ التَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ

تختلف زوي الإصلاحيين حول طرق إصلاح الخطاب الديني وتثقيح الفقه والشريعة الإسلاميّة. من هذه الأفكار:

الْمَنْهَجِ الْأَوَّلِ: تَقْيِيدُ الشَّرِيعَةِ عَنْ طَرِيقِ اسْتِحْدَامِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُوثُوقِ بِهَا فَقَطْ وَالْحَدُّ مِنْ
الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ وَالْمُعْصَبَةِ الَّتِي تَعَرَّضَتْ إِلَى اتِّقَادَاتٍ كَثِيرَةٍ. وَهُنَاكَ عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنَ التَّقْدِيمِيِّينَ مِثْلُ
السَّيِّخِ غُلَامِ أَحْمَدَ بَرَوِيذِ الْبَاكْسَانِيِّ، الَّذِي ذَهَبَ أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ إِنَّ الْقُرْآنَ وَالْأَحَادِيثَ الَّتِي تُطَابِقُهُ
هُمَا الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الْمُلَزَمُ.

الْمَنْهَجِ الثَّانِي: إِعَادَةُ تَفْسِيرِ أَكْثَرِ أَوْ أَقَلِّ تَعْصِيبِهِ لِلْمَصَادِرِ الْمُوثُوقَةِ. هَذَا هُوَ الْحَالُ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ مَعَ
النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ مَعَامَلَةِ الْكُفَّارِ وَالْجِهَادِ وَتَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ وَالْحُدُودِ بِأَنْوَاعِهَا الَّتِي
تَتَعَارَضُ مَعَ مَفَاهِيمِ الْحَدَاثَةِ. [15] تَمَكَّنَ الْأَصْلَاحِيُّونَ مِنْ إِعَادَةِ التَّفْسِيرِ النَّصُوصِ الدِّيْنِيَّةِ بِدَعْمٍ مِنْ
النُّصُوصِ، مِثْلًا اشْتِرَاطُ أَرْبَعَةِ شُهُودِ رِجَالٍ عُدُولٍ ثِقَاتٍ يَشْهَدُونَ وَقُوعِ الزَّانَا وَيُظْهِرُ مِنْ هَذَا صُعُوبَةُ إِقَامَةِ
الْحَدِّ. أَيْضًا تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ مَشْرُوطٌ عَلَى قَدْرِهِ الزَّوْجِ عَلَى الْعَدْلِ بَيْنَهُمْ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَأْكِيدِ الْقُرْآنِ
فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى.

قِرَاءَةُ التَّأْرِيخِ

يُقُولُ بَعْضُ الْأَصْلَاحِيِّينَ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ حِقْبَةٌ مِثَالِيهِ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّأْرِيخِ الْإِسْلَامِيِّ، مُسْتَدَلِّينَ عَلَى ذَلِكَ
بِأَغْيَالِ ثَلَاثَةٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ الرَّاشِدِينَ. وَعِلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ، كَانَتْ إِسْبَانِيَا وَأَفْرِيْقِيَا وَبِلَادِ فَارِسَ كَانُوا
تَحْتَ حُكْمِ ذَاتِي فِي نِقَاطٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي التَّأْرِيخِ مِمَّا أَدَّى إِلَى عَدَمِ وُجُودِ دَوْلَةٍ خِلَافِهِ وَاحِدَةٍ. هَذَا طَبْعًا
يَتَنَاقَضُ مَعَ التَّأْرِيخِ التَّقْلِيدِيِّ الَّذِي يَدَّعِي أَنَّ الْخِلَافَةَ الْأُمُوِيَّةَ وَالْخِلَافَةَ الْعَبَّاسِيَّةَ وَالْخِلَافَةَ الْعُثْمَانِيَّةَ حَافِظَتْ
عَلَى السِّيَاسِيَّةِ الْعَامَّةِ وَحِفَازَتِ عَلَى سَلَامَتِهَا الْإِقْلِيمِيَّةِ وَإِنَّ التَّشْرُدُومَ وَالْإِنْفِصَامَاتِ كُنَّا حَالَاتٍ
اسْتِثْنَائِيَّةً.

السِّيَاسَة

بَعْضُ الْأَصْلَاحِيْنَ يُعْتَقِدُونَ أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ لَيْسَ أَيْدِوُلُوجِيَّةً وَلَكِنَّهُ دِينٌ لَا يُقَدَّمُ تَمُودِجٌ مُحَدَّدٌ لِحُكْمِ الدَّوْلَةِ، وَعَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمُنْهَاجِ الَّتِي اسْتُخْدِمَتْ طَوَالَ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ حُكُومَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ. التَّقَدُّمِيُّونَ وَالْإِصْلَاحِيِّونَ يُجَادِلُونَ أَنَّهُ لَمْ تَوْجَدْ آيَةٌ مَعَارِكٍ فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ أَجْلِ فَضْلِ بَيْنَ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ، لِأَنَّ رِجَالَ الدِّينِ كَانُوا دَائِمًا كَيَانًا مُسْتَقِلًّا عَنِ الْحُكَامِ عَلَى عَكْسِ الْمَسِيحِيَّةِ. كَثِيرٌ مِنَ التَّقَدُّمِيِّونَ وَالْإِصْلَاحِيِّونَ يَدْعُونَ إِلَى الْاسْتِفَادَةِ مِنَ التَّمُودِجِ الْغَرْبِيِّ فِي الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ، خَاصَّةً فِي تَوَاحِي الْيَبْرَانِيَّةِ وَالذِّيْمُوقْرَاطِيَّةِ.

التَّأْصِيلُ الدِّينِيُّ لِلْإِصْلَاحِ

يَقُولُ عَلَى جُمُعَةٍ:

«إِنْ اتَّبَعَ السَّلْفُ لَا يَكُونُ بِالْإِنْجِبَاسِ فِي حَرْقِيَّةِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي نَطَقُوا بِهَا أَوْ الْمَوَاقِفِ الْجُرْئِيَّةِ الَّتِي اتَّخَذُوهَا لِأَنَّ السَّلْفَ أَنْفُسَهُمْ لَمْ يَطْلُبُوا ذَلِكَ. وَإِنَّمَا الْإِتْبَاعُ الصَّحِيحُ لَهُمْ يَكُونُ بِالرُّجُوعِ إِلَى مَا اخْتَكَمُوا إِلَيْهِ مِنْ قَوَاعِدِ تَفْسِيرِ النُّصُوصِ وَتَأْوِيلِهَا وَأُصُولِ الْجِهَادِ، وَالتَّنْظَرِ فِي الْمَبَادِي وَالْأَحْكَامِ؛ وَالرُّجُوعِ إِلَى هَذِهِ الْمَبَادِي وَالْأَحْكَامِ وَاجِبُ الْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ فِي سَائِرِ الْعُصُورِ، فَلَا يَخْتَصُّ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهَا وَالْإِنْضِبَاطِ بِهَا سَلْفٌ دُونَ خَلْفٍ.

وَلَا يَمْتَّازُ السَّلْفُ عَنِ الْخُلْفِ فِي ذَلِكَ إِلَّا بِأَنَّ لَهُمْ فَضْلَ الْإِنْفَاتِ إِلَى هَذِهِ الْقَوَاعِدِ وَالشُّعُورِ بِمَدْيِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا ثُمَّ الْعُكُوفِ عَلَى اسْتِخْرَاجِهَا وَتَذْوِينِهَا. فَالسَّلْفِيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ تَعْنِي التَّزَامَ أَهْلِهَا بِمَنْهَجِ السَّلْفِ فِي تَعَامُلِهِمْ مَعَ نُّصُوصِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ؛ هَذَا الْمَنْهَجِ الَّذِي كَانَ مُتَجَسِّدًا وَمَتَجَلِّيًا فِي سُلُوكِ السَّلْفِ الصَّالِحِ

رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. فَكُلُّ مَنْ التَزَمَ بِهَذَا الْمُنْهَجِ فَقَدْ دَخَلَ فِي دَائِرَةِ الْوَحْدَةِ الَّتِي عُنُونُهَا بِأَهْلِ السُّنَّةِ
وَالْجَمَاعَةِ وَأَنَّ عَاشَ فِي الْقُرُونِ الْأَخِيرَةِ مِنْ عُمَرِ الدُّنْيَاءِ وَكُلُّ مَنْ لَمْ يَلْتَزِمْ بِهِ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ دَائِرَةِ تِلْكَ
الْوَحْدَةِ الْجَامِعَةِ، وَإِنْ عَاشَ فِي أَوَّلِ قَرْنٍ مِنْ عُمَرِ الْإِسْلَامِ.

وَمَا اتَّبَعَ السَّلَفُ إِلَّا الصَّبْغَةَ الْعَامَّةَ لِسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا مَعَنَا إِلَّا الْإِسْتِضَاءَةُ بِسُلُوكِهِمْ وَعُلُومُهُمْ فِي فَهْمِ
هَذَا الْمُنْهَجِ وَالتَّمَرُّسِ عَلَى تَطْبِيقِهِ بِشَكْلِ سَلِيمٍ» وَكَمَا صَحَّ لِلْسَّلَفِ الصَّالِحِ أَنْ يَخْتَلِفُوا تَحْتَ مِظَلَّةِ ذَلِكَ
الْمُنْهَجِ الْمَسْبُوعِ؛ فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَصِحُّ لِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مُتَّبِعًا لَهُمْ وَمُقْتَدِي بِهِمْ أَنْ يَخْتَلِفُوا تَحْتَ تِلْكَ الْمِظَلَّةِ
ذَاتِهَا كَمَا اخْتَلَفُوا. وَكَمَا أَنَّ الْإِخْتِلَافَ لَمْ يَمْرُقْ وَحْدَتِهِمُ الْإِسْلَامِيَّةَ إِلَى شَطْرَيْنِ: مُتْلِزِمِ زَوَائِعٍ؛ فَإِنَّ
اِخْتِلَافَ مَنْ بَعْدَهُمْ أَيْضًا لَمْ يُوَثِّرْ عَلَى وَحْدَتِهِمُ الْإِسْلَامِيَّةَ؛ وَلَمْ يَجْعَلْ مِنْهُمْ شَطْرَيْنِ: سَلْفِيًّا وَبِدْعِيًّا.

مَفَاهِيمٌ وَمُصْطَلَحَاتٌ

يُسْتَعْمَلُ الْإِصْلَاحُ الْإِسْلَامِيُّ الْحَدِيثَ مَفَاهِيمَ عَنِ الْحُرِّيَّةِ وَالِدِّسْتُورِ وَالْمُصْلِحَةِ، وَهِيَ مَفَاهِيمٌ مُقْتَبَسَةٌ مِنْ
فِكْرِ سِيَاسِيِّ حَدِيثِ ذِي مُجْتَمَعٍ مَدَنِيٍّ تَمَكَّنَ مِنَ الْقَطْعِ مَعَ تَرَاثِهِ الدِّينِيِّ. حَاوَلَ الْإِصْلَاحِيُّونَ تَأْوِيلَ هَذِهِ
الْمَفَاهِيمِ وَصِيَاغَةَ مُرَادِفَاتٍ تَحْيِلَ إِلَى مَعَانِيهَا، لَكِنُّهُمْ وَجَدُوا أَنفُسَهُمْ إِمَامَ مُرَادِفَاتٍ لَمْ تَتَخَلَّصْ مِنْ دَلَالَتِهَا
الدِّينِيَّةِ، مَا أَدَّى إِلَى نُشُوءِ سُوءِ تَفَاهِيمٍ بَيْنَ مَفَاهِيمِ إِسْلَامِيَّةٍ وَمَفَاهِيمِ نَتَمَّى إِلَى مُجْتَمَعٍ مَدَنِيٍّ حَدِيثٍ مِثْلِ
مُرَادِفِهِ الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ بِالشُّورِيِّ، وَتَوَابِ الْأُمَّةِ بِأَهْلِ الْحُلِّ وَالْعُقْدِ، وَجُرِيَّةِ الْفِكْرِ بِالْإِجْتِهَادِ. «إِنَّ الْمَفَاهِيمَ
الْأَجْنَبِيَّةَ الَّتِي لَجَأَ إِلَيْهَا مُفَكِّرُو الْإِصْلَاحِ الْإِسْلَامِيِّ الْحَدِيثِ وَالْمُعَلِّقَةُ بِالتَّنْظِيمِ الْمَدَنِيِّ لِلْمُجْتَمَعِ وَالسِّيَاسَةِ
أَتَتْهُ إِلَى الْإِنْفِصَالِ عَنْ دَلَالَتِهَا الدِّينِيَّةِ. وَقَدْ لَبِثَ الْفُلْسَفَةُ الْحَدِيثَةُ بِالْخُصُوصِ دُورًا فِي تَوْفِيرِ جِهَازِ
مَفَاهِيمِ يَخْتَصُّ بِالْمُجْتَمَعِ الْمَدَنِيِّ الْحَدِيثِ. هَذِهِ الْمَفَاهِيمُ الَّتِي صَاغَتْ فُلْسَفَةٌ مُسْتَقَلَّةٌ، تَتَعَلَّقُ بِمُجْتَمَعِ

مَدَنِي هِيَ الَّتِي تَلَقَّاهَا مُفَكِّرُو الإِصْلَاحِ الإِسْلَامِيِّ وَسَعَوْا إِلَى إِدْرَاقِهَا، بِوَسِطَةِ مَفَاهِيمٍ مَا زَالَتْ لَصِيقَةً
بِدَلَالِيهِ دِينِيَّةً. لَيْسَ فَقَطُ لَأَنَّ الفُلْسَفَةَ العَرَبِيَّةَ الإِسْلَامِيَّةَ قَدْ أَصَابَهَا الجُمُودُ مُنْذُ قُرُونٍ، بَلْ حَتَّى فِي قُتْرَةٍ
أَزْدَهَارِهَا ظَلَّ نَصِيبُ الفُلْسَفَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ هَزِيلًا، وَلَا أَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ ضِحَالَةِ حَدِيثِ
الفَلَّاسِفَةِ الإِسْلَامِيِّينَ وَغَرَابَتِهِ عَنِ السِّيَاسَةِ وَعَنِ المَدِينَةِ الفَاضِلَةِ.

كَمَا أَوْلَى المُصْلِحُونَ مَسْأَلَةَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ اهْتِمَامًا عَظِيمًا فِي أبحاثِهِمْ، وَذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى وَعْيِهِمُ التَّمَاخُرَ
بِأَنَّ مُشْكَلَ الأَنْحِطَاطِ لَا يَرْتَبِطُ فَقَطُ بِالنِّظَامِ الأَسْتَبْدَادِيِّ، وَإِنَّمَا يَرْتَبِطُ أَيْضًا بِالرَّعَايَا الذِّينَ لَمْ يُسْتَوْعَبُوا
بَعْدَ مَفْهُومِ المُواطَنَةِ، فَالنِّظَامُ السِّيَاسِيُّ لَيْسَ سِوَى مِرْآةٍ تَعَكِّسُ صُورَةَ المُجْتَمَعِ وَخُبَيْتِهِ، وَمِنْ ثَمَّةَ عَلَيْنَا
مُحَاسَبَةَ المُجْتَمَعِ وَالتَّخَبُّعَ بِالقُدْرِ نَفْسِهِ الذِّي نَحَاسِبُ بِهِ النِّظَامَ السِّيَاسِيَّ، ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الأَخِيرَ لَمْ
يَسْتَقِطْ عَلَى رُؤُوسِنَا مِنْ فَرَاغٍ وَلَا يَعْملُ فِي اسْتِقْطَالِ عِنِّ مِحْيَطَةِ الدَّاخِلِيِّ، فَمَشْرُوعُ التَّعْلِيمِ هَذَا لِيَبِيرَالِي
كَمَا يَبْدُو، وَيُمْكِنُ اِغْتِبَارُهُ صَدِيًّا لِلْمَدْرَسَةِ التَّرْبَوِيَّةِ اللَّيْبَرَالِيَّةِ الفَرَنْسِيَّةِ، كَمَا أَرَسَى دَعَائِمَهَا جُولَ فَيْرِي ()
1832 - 1893) الذِّي كَانَ أَبرزُ المَدَافِعِينَ عَنِ المَدْرَسَةِ اللَّايِكِيَّةِ. وَلَكِنَّهُ مَشْرُوعٌ سِيَاسِيٌّ فِي عُمُقِهِ،
صَادِرٌ عَنِ هَذَا التَّصَوُّرِ الذِّي يَشْتَرِكُ فِيهِ طَهَ حُسَيْنٌ مَعَ أَسْلَافِهِ مِنَ المُفَكِّرِينَ العَرَبِ المُحَدِّثِينَ، حِينَ
ارْجَعُوا مُشْكَلَ تَأَخُّرِ بُلْدَانِهِمْ إِلَى طَبِيعَةِ نِظَامِ الحُكْمِ المُطْلَقِ السَّائِدِ، وَحَلَّهُ بِإِقْرَارِ مُؤَسَّسَاتِ دُسْتُورِيَّةِ،
وَهِيَ نَفْسُهَا الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الَّتِي دَافِعٌ عَنْهَا أَيْضًا صَاحِبُ مُسْتَقْبَلِ الثَّقَافَةِ فِي مِصْرٍ، وَجَعَلَ تَحْقِيقَهَا مُعَلِّقًا
بِإِعَادَةِ تَرْبِيَةِ المِصْرِيِّينَ، وَبِذَلِكَ يَتَحَقَّقُ المُجْتَمَعُ المِصْرِيُّ الحَدِيثُ عَلَى الأُسُسِ نَفْسَهَا الَّتِي قَامَتْ عَلَيْهَا
الحَضَارَةُ العُرْبِيَّةُ .

عَقَبَات

لَكِنَّ هَذِهِ الْمَحَاوَلَاتِ الْإِصْلَاحِيَّةِ - الَّتِي قَادَهَا مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ، وَعَدَلَ مَسِيرَتُهَا مُحَمَّدٌ رَشِيدٌ رِضًا - لَقِيَتْ تَعَثُّرًا بَعْدَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى، لِأَنَّ النِّظَامَ السِّيَاسِيَّ قَامَ بَعْدَ ثَوْرَةِ 1919 عَلَى التَّنَكُّرِ لِدَوْرِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ فِي بِنَاءِ الْأُمَّةِ، فَاعْتَبِرَ أَنَّ الشُّعْبَ فِي مِصْرٍ أُمَّةٌ فِرْعَوْنِيَّةٌ، وَلَا عِلَاقَةَ لِدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ بِتَكْوِينِهَا. وَقَدْ دَعَا إِلَى هَذَا الْأَمْرِ عِدَّةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ مُتَقَنِّي مِصْرٍ وَمُفَكِّرِيهَا، وَمِنْهُمْ: سَعْدُ زُغَلُولُ وَأَحْمَدُ لُطْفِي السَّيِّدُ وَطَهَ حُسَيْنٌ وَعَبَّاسُ مَحْمُودِ الْعُقَادِ وَسَلَامَةُ مُوسَى وَغَيْرُهُمْ، وَقَامَتْ أَحْزَابٌ عَلَى تِلْكَ الدَّعْوَى، وَمِنْهَا: حِزْبُ الْوَفْدِ وَحِزْبُ الْأَحْرَارِ الدَّسْتُورِيِّينَ. لِذَلِكَ اتَّجَهَ الْإِصْلَاحُ الدِّينِيُّ إِلَى الصَّرَاحِ مَعَ الْأَطْرَافِ الْأُخْرَى حَوْلَ هَوِيَّةِ الشُّعْبِ الْمِصْرِيِّ، وَإِلَى إِبْرَازِ دَوْرِ الْإِسْلَامِ فِي تَكْوِينِ بِنَائِهِ التَّنْفِيسِيِّ وَالْعَقْلِيِّ وَالْإِجْتِمَاعِيِّ وَالثَّقَافِيِّ، وَمِمَّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ أَنَّ عَادَاتِهِ وَتَقَالِيدَهُ وَأَعْرَافَهُ مُرْتَبِطَةٌ بِعَالِمِ الْإِسْلَامِ وَسُنَنِهِ وَآدَابِهِ وَتَوْجِيهَاتِهِ وَأَخْلَاقِهِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ أَيُّ أَثَرٍ لِلتَّارِيخِ الْفِرْعَوْنِيِّ فِي وَاقِعِ الشُّعْبِ الْمِصْرِيِّ.

ثُمَّ تَعَثَّرَ الْإِصْلَاحُ الدِّينِيُّ مَرَّةً ثَانِيَةً بَعْدَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ عِنْدَمَا قَامَتْ ثَوْرَةُ يُوئِيُو / تَمُوزِ عَامِ 1952 بِقِيَادَةِ جَمَالِ عَبْدِ النَّاصِرِ وَارْتَكَرَتْ عَلَى أَمْرَيْنِ الْأَوَّلِ: الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَنَكَّرَتْ لِدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ عِنْدَمَا أُعْتَبِرَتْ أَنَّ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ قَامَتْ عَلَى اللُّغَةِ وَالتَّارِيخِ، وَلَا دَخَلَ لِدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ فِي تَكْوِينِهَا. وَالثَّانِي: الْإِشْرَاقِيَّةُ وَقَدْ أُعْتَبِرَتْ هَذِهِ الْإِشْرَاقِيَّةُ الْمَأْخُودَةُ مِنَ الْمَارْكَسِيَّةِ أَنَّ الدِّينَ خُرَافَةٌ، وَيَجِبُ اسْتِصْلَاحُهُ مِنْ وَاقِعِ الْحَيَاةِ لِأَنَّهُ يُغَذِّي الْأَوْهَامَ وَيُوَلِّدُ الْاسْتِسْلَامَ لِلْأَغْنِيَاءِ وَالرَّأْسِمَالِيِّينَ. لِذَلِكَ تَعَثَّرَتْ الْمَحَاوَلَةُ الْإِصْلَاحِيَّةُ بَعْدَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى وَبَعْدَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ لِأَنَّهَا خَاصَتْ مَعْرَكَيْنِ: الْأُولَى مِنْ أَجْلِ الْهُوِيَّةِ،

وَالثَّانِيَةُ مِنْ أَجْلِ الْوُجُودِ وَالْبَقَاءِ فِي مُوَاجَهَةِ الْاسْتِصْصَالِ وَالْعُنْفِ الَّذِينَ أَصَلَتْ لَهُمَا الْإِسْتِرَاكِيَّةُ فِي الصَّرَاحِ الطَّبَقِيِّ بَيْنَ الْبُرُولِيَتَارِيَا وَالْبُرْجُوَازِيَّةِ .

الثَّوْرَةُ فِي إِيرَانَ

ثُمَّ ظَهَرَتْ تَعْقِيدَاتٌ أُخْرَى فِي مَسِيرِهِ الْإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ عِنْدَمَا قَادَ الْخَمِينِي ثَوْرَةَ حَكْمِهَا بِإِيرَانَ عَامَ 1979، وَأَصَرَ عَلَى أَنَّ تَكُونَ الثَّوْرَةُ الْإِيرَانِيَّةَ ذَاتَ بَعْدِ طَائِفِيٍّ فَأَضَافَ مَادَّةً فِي دُسْتُورِ الْجُمْهُورِيَّةِ تُوضِحُ النِّزَامَ الدَّوْلَةَ بِالْمَذْهَبِ الْجَعْفَرِيِّ الْإِسْنِيِّ عَشْرِيٍّ . وَقَدْ جَعَلَ ذَلِكَ السَّاحَةَ تَضَطَّبِعَ بِبُعْدٍ جَدِيدٍ لَمْ يَكُنْ مُوجُودًا هُوَ الْبُعْدُ الطَّائِفِيُّ، فَعَقَدَ ذَلِكَ عَمَلِيَّةَ الْإِصْلَاحِ وَجَعَلَهَا تَوَاجِهَ مُشْكَلَةَ جَدِيدَةٍ هِيَ: "التَّقْيِيتِ الطَّائِفِيِّ" النَّاتِجِ مِنَ الصَّرَاحِ السُّنِّيِّ الشَّيْعِيِّ، الَّذِي غَدَّتْهُ قِيَادَةُ إِيرَانَ وَمَا زَالَتْ مِصْرُهُ عَلَيْهِ .

الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْجَدِيدِ

كَمَا ظَهَرَتْ مَسَآكِلُ أُخْرَى فِي مُوَاجَهَةِ الْإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ جَعَلَتْهُ يَنْشَغِلُ عَنِ الْإِصْلَاحِ فِي مُوَاجَهَةِ التَّقْيِيتِ الْإِسْنِيِّ وَالطَّائِفِيِّ وَالْعَرَقِيِّ، عِنْدَمَا طَرَحَ الرَّئِيسَ الْأَمِيرِكِيِّ الْأَسْبَقَ جُورْجَ بُوْشَ الْإِبْنُ مَشْرُوعَ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْجَدِيدِ بَعْدَ غَزْوِ الْعِرَاقِ عَامَ 2003 وَطَرِحَتْ وَزِيرُهُ خَارِجِيَّةَ الْأَمِيرِكِيَّةِ كُونْدُولِيْزَا رَأَيْسَ عَامَ 2006 مَبْدَأُ الْفَوْضَى الْخَلَّاقَةِ كَالْيَتَةِ لِتَحْقِيقِ "الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْجَدِيدِ" الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ بُوْشَ . اسْتَهْدَفَ هَذَا الْمَشْرُوعَ الْأَمِيرِكِيِّ تَقْيِيتَ الْعِرَاقِ وَسُورِيَا وَمِصْرَ وَالسُّعُودِيَّةَ إِلَى دُوَيْلَاتٍ صَغِيرَةٍ، مِمَّا جَعَلَ الْإِصْلَاحَ الدِّينِيِّ يَتَوَجَّهُ إِلَى الْعَمَلِ الدَّوْبِ لِلْمَحَافِظَةِ عَلَى وَحْدَةِ الْأُمَّةِ وَوُجُودِهَا وَكِيَانِهَا، فِي مُوَاجَهَةِ مُخْتَلَفِ التَّهْدِيدَاتِ الْهَادِفَةِ إِلَى التَّقْيِيتِ وَالنَّاجِمَةِ مِنْ مَشْرُوعِ "الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْجَدِيدِ" .

الْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ

كَانَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ أَوَّلُ مَنْ رَاوَدْتُهُ نَبِيَّةَ إِصْلَاحِ عَصْرِهِ، وَالَّذِي يَكْشِفُ عَنْهَا فِي كِتَابِهِ إِحْيَاءَ عُلُومِ
الدِّينِ الَّذِي وَضَعَهُ أَثْنَاءَ الْحَمَلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْأُولَى الَّتِي اخْتَلَّتْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَرَاضِي الْإِسْلَامِيَّةِ بِمَا فِيهَا
الْقُدْسُ، ظَلَّ حَبِيسُ نَظَرِهِ ضَيْقَهُ تُحْمَلُ عَلَى الْقَوِي الدَّاخِلِيَّةِ مِثْلَ الشَّيْعَةِ وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَتَجَاهِلِ الْقَوِي
الْأَجْنَبِيَّةِ الْغَالِبَةِ، الْإِصْلَاحِ عِنْدَ الْغَزَالِيِّ مُتَّصِرٌ حَسَبِ الْمَنْطِقِ الْمَعْهُودِ لِلْإِصْلَاحِ أَيِ إِرْجَاعِ الْحَافِزِ إِلَيْهِ إِلَى
حَلَلِ دَاخِلِيٍّ يَحِلُّ بِالْأَمَّةِ وَنَفْسِيرُ هَذَا الْخَلَلِ بِالْخِلَافِ، أَيِ انْفِرَاقِ الْمُسْلِمِينَ فَرَقًا مُتَّصِرًا، وَالتَّمَاسُ الْحِلُّ
فِي تَوْحِيدِ الذَّهْنِ وَالسِّيَاسَةِ.

وَطَرِيقُ هَذَا كُلُّهُ يَمْتَلِئُ فِي بَدَنِ التَّقْلِيدِ وَالْعُودَةِ إِلَى إِسْلَامِ الْأَصْلِ. فَبِإِصْلَاحِ الْغَزَالِيِّ: الْإِسْلَامُ مُكْفَى
بِدَاتِهِ.

مَوْفِقٌ كَهَذَا كَانَ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَأْفَلَ، خُصُوصًا بَعْدَ التَّدْخُلِ الْمَاجْنِبِيِّ فِي الْبُلْدَانِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَبَانَ التَّنْصِفِ
الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ، إِذْ سُرِعَانَ مَا سَيَّخَلِي الْمُفَكِّرُونَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ مَوْفِقِ أَسْلَافِهِمُ الَّذِي
يَدْعُو إِلَى إِسْلَامٍ يَرْتَدُّ إِلَى ذَاتِهِ وَخَدَهَا وَيَتَلَمَّسُ مِنْ خِلَالِهَا مَصْدَرَ الْأَعْضَالِ وَيُطَلِّبُ سُبُلَ الْإِصْلَاحِ،
وَسَيَلْجَاوِنَ عَوْضًا عَنْ ذَلِكَ إِلَى الْآخِرِ، وَسَيَتَّخِذُونَ مِنْهُ تَمُودَجًا فِي وَضْعِ تَصَوُّرِهِمْ حَوْلَ مَسْأَلَةِ التَّأَخَّرِ
وَالْإِنْحِطَاطِ، وَهُنَا بِالضَّبْطِ يَمْتَمِزُ الْإِصْلَاحُ الْحَدِيثُ عَنِ الْإِصْلَاحِ الْقَدِيمِ. أَنَّهُ إِصْلَاحٌ يُؤْمَنُ بِتَأَخَّرِ الْعَرَبِ
مُقَارَنَةً بِالْعَرَبِ، رَغْمَ أَنَّهُ يَحْضُرُ تَقَدُّمَ الْعَرَبِ فِي مَوْشَرَاتِ مَادِيَّةٍ. تَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى مَا هُوَ أَبْعَدُ، فَهُمْ
فِي الْوَاقِعِ اعْتَبَرُوا تَفُوقَ الْعَرَبِ أَوْ الْبِلَادِ الْأُورُوبِيَّةِ الَّتِي تَعْرِفُوا عَلَيْهَا، رَاجِعًا أَسَاسًا إِلَى نِظَامِهِ السِّيَاسِيِّ
الضَّامِنِ فِي رَأْيِهِمْ لِلْحُرِّيَّةِ وَالْمُقَيَّدِ لِلسُّلْطَةِ بِالْقَانُونِ، وَإِنْ تَأَخَّرَ الشَّرْقُ بِمَا فِيهِ الْبِلَادُ الْإِسْلَامِيَّةُ رَاجِعًا أَيْضًا

إلى طبيعة نظامه السياسي القائم على الاستبداد. إن هذا الموقف يصدق على الفكر الإصلاحية العربي والإسلامي عموماً، سواء ذلك الذي قام باسم السلفية أو ذلك الذي أراد أن يكون ليبرالياً.

هنا يلتقي لطفي السيد مع علال الفاسي، كما يلتقي محمد عبده مع خير الدين التونسي. في هذا الموقف الأساسي يشترك من سُموا بالسلفيين مع من نعتوا بالليبراليين، مما يدل على أن التمييز بين هاتين الفئتين في الفكر العربي الإسلامي لا يخلو من التباس، فالجميع ينطلق من إشكاليته واحدة تقبل بالتأخر وترجعه إلى طبيعة المؤسسة السياسية وتقييمه بناءً على ثنائية الشرق والغرب.

وفي هذا كله يعكس هؤلاء جميعاً الصورة التي كوتها المفكرون الأوروبيون أنفسهم، خاصة مفكري القرن الثامن عشر عن الشرق، وعن تأخره الذي أرجعوه إلى نظامه الاستبدادي. فحتى المصلحون السلفيون قبلوا بهذه الإشكاليته، فتحدثوا هم أيضاً عن تقابل الشرق والغرب، وحصروا المشكل في نظام السلطة، وصبوا جام غضبهم على الاستبداد الذي اعتبروه السبب الأول في الانحطاط، ودعوا إلى تقييد السلطة بأصول العدل الإسلامي، وهنا نستثني حركات الإصلاح الحديثة التي نشأت خارج المناطق الحضرية مثل الوهابية والمهدوية والسنوسية. ولما كان الفكر الإصلاحي الإسلامي في القرن الماضي وحتى أواسط هذا القرن وهو يجيب على الفكر الغربي، ويقتبس منه إنما يوجه أساساً إلى الأفكار الليبرالية، فإنه سعى إلى إيراد المرادف الإسلامي لها وذلك قبل أن تزوج الأفكار الاشتراكية داخل الفكر الإسلامي نفسه فيقوم بالعملية التأويلية نفسها. وهكذا، وجواباً على الأفكار الليبرالية، عمل على إحياء مفاهيم بعينها من التراث الفكري السياسي الإسلامي، وبالأخص مفهوم الشورى الذي لعب دوراً مركزياً في دعوته الإصلاحية السياسية.

أَنْمَاطُ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ الْمَعَاوِرِ

مَدْخَلٌ

يُطْلَقُ عَلَى عَصْرِنَا الْيَوْمِ عَصْرُ الْمَعْرِفَةِ وَتَكْنُولُوجِيَا الْمَعْلُومَاتِ وَالَّذِي بَدَأَ مَعَ أَوَاخِرِ الْقُرْنِ الْمَاضِي عَقِيدَتَهُ هِيَ الْفُلْسَفَةُ الْمَادِيَّةُ بِأَمْتِيَازِ هَذِهِ الْفُلْسَفَةِ الَّتِي شَمَلَتْ كُلَّ مَعَالِمِ الْحَيَاةِ الْحَدِيثَةِ فَالْعَالَمِ الْيَوْمِ تُحَكِّمُهُ مَبَادِي الْمُنْفَعَةِ وَالْفُرْدِيَّةِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالْدِيمُقْرَاطِيَّةِ وَالْعِلْمَانِيَّةِ وَحُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَهِيَ أَهْمُ مُمَظَاهِرِ الْمَادِيَّةِ كُلِّ ذَلِكَ جَاءَ عَلَى حِسَابِ الْمَبَادِي وَالْقِيَمِ الْمَثَالِيَّةِ الَّتِي كَرَسَتْهَا الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ وَصَارَ الْإِعْتِقَادُ الدِّينِي مَادَّةَ قَانُونِيَّةٍ فِي الدَّسَاتِيرِ الْحَدِيثَةِ تُصَنَّفُ تَحْتِ بِنْدِ حُرِّيَّةِ الْإِعْتِقَادِ مِثْلًا مِثْلَ الْإِلْحَادِ وَاللَّا أَدَارِيهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الصَّرَاحَ بَيْنَ الْمَثَالِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ مُزْمِنٌ يَرْجِعُ إِلَى بَدَايَا تَكُونُ الْفُلْسَفَةُ الْيُونَانِيَّةُ حَيْثُ ظَهَرَ بُوْضُوحٌ وَقْتَهَا تَقْسِيمِ الْفُلْسَفَةِ إِلَى مَادِيَّةٍ وَمَثَالِيَّةٍ .

لَقَدْ سَيَطَرَ الْمَذْهَبُ الْمَادِي عَلَى كُلِّ أَدْوَاتِ الْمَعْرِفَةِ وَتَكْنُولُوجِيَا الْمَعْلُومَاتِ وَسَخَّرَهَا لِصَالِحِهِ وَلَمَّا بَيَّقَ إِمَامٌ أَنْصَارِ الْمَثَالِيَّةِ وَالْأَدْيَانِ سِوَى الصُّمُودِ وَالِدَّفَاعِ وَصَدَّ هَذَا الْهَجُومَ الْكَاسِحَ وَبَرَى شَكْلًا مِنْ إِشْكَالِهِ وَاضِحًا عَلَى الْفَضَائِيَّاتِ وَ الْإِنْتَرْنِيَّتِ الَّذِي أَضْبَحَ دَمَ الْعَصْرِ الَّذِي يَمُدُّهُ بِالْمَعْلُومَاتِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْعُلُومِ وَعَلَى وَسَائِطِ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالْمَدَوَّنَاتِ وَالصُّحُفِ وَالْمَوَاقِعِ الْإِلِكْتْرُونِيَّةِ وَصُولاَ إِلَى وَقْتِنَا الْحَالِيِّ لَمَّا مَاتَعَرَفَ بِالذِّكَاةِ الْإِصْطِنَاعِيِّ .

لَمْ يَبْقَ إِمَامٌ الْأَدْيَانِ وَالْعَقَائِدِ وَالْفُلْسَفَاتِ الْمَثَالِيَّةِ سِوَى إِعَادَةِ تَرْتِيبِ عَقْلِهَا وَفِكْرِهَا الدِّينِيِّ وَتَجْدِيدِهِ وَإِتْقَانِ وَفَهْمِ طَبِيعَةِ الْعَصْرِ وَإِدَاوَتِهِ لِكَيْ تَعَزُّزَ مَوْقِفُهَا وَنَنْظُمَهُ لِمُوَاجَهَةِ الْإِلْحَادِ وَالْفِكْرِ الْإِلْحَادِيِّ .

لَكِنُّ الْعَقْلَ الدِّينِيَّ يُعَانِي وَيُكَابِدُ بِسَبَبِ انْشِغَالِهِ بِالْمُوَجِّهَاتِ البِّنِيَّةِ وَتُسْمَرُ بَعْضُ تَيَارَاتِهِ وَتُسَيِّسُ الدِّينُ
فَالْيَهُودِيَّةَ تَعْمَلُ خَارِجَ سَرِّبِ الأَذْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ نَتِيجَةَ تَحْوُلِهَا إِلَى مَادِّيَّةِ فُرْطَةِ وَمِنْ ثَمَّ إِلَى عَقِيدَةِ صُهَيْبِيَّةِ
مَاسَوْنِيَّةِ عَالَمِيَّةِ لَيْسَ اللهُ هَدَفَهَا بَلْ المَالُ وَالاِقْتِصَادُ وَالسِّيَاسَةُ وَمِنْ ثَمَّ السِّيَادَةُ وَالزَّرْعَامَةُ وَهِيَ العَدُوُّ
اللَّدُودُ لِلدِّيَانَتَيْنِ السَّمَاوِيَّتَيْنِ المَسِيحِيَّةِ وَالإِسْلَامِ وَهُوَ عَدَاءُ تَارِيخِي مُزْمِنٍ إِذْ أَنَّ عَقِيدَتَهَا الدِّينِيَّةَ تُقُومُ عَلَى
إِنْكَارِ كُلِّ دِيَانَةٍ أَوْ نَبِيٍّ أَوْ كِتَابٍ سِوَى أَنْبِيََاءِهَا وَكُتُبِهَا .

أَمَّا المَسِيحِيَّةُ فَلَقَدْ كَشَفَتْ العُلُومُ وَوَسَائِلُ المَعْرِفَةِ الحَدِيثَةَ عَوْرَاتِهَا وَصَارَ الاِغْتِقَادُ الكِتَابِ المُقَدَّسِ
بِعَهْدِيهِ القَدِيمِ وَالجَدِيدِ ضَعِيفٌ وَوَاهِنٌ نَتِيجَةُ انْهِيَارِ التُّصُوصِ إِمَامِ المُكْشَفَاتِ العِلْمِيَّةِ مِمَّا أَدَّى إِلَى نُمُوِّ
وَازْدِهَارِ الفِكْرِ الإِلْحَادِيِّ وَالمُلْحِدِينَ أَوْ اللَادِرِيِّينَ فِي أَوْرُبَا وَالعَرَبِ عَلَى حِسَابِ المُؤْمِنِينَ المَسِيحِيِّينَ
كَمَا يَصِفُونَا أَنفُسَهُمْ بِذَلِكَ وَالهَدَفِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ القَضَاءُ عَلَى عَقِيدَةِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ مِنْ جُذُورِهَا بَعْدَ
الأِغْلَانِ عَنْ مَوْتِ الأَلَةِ وَتَكْرِيسِ نَظَرِيَّاتِهِمُ المَتَعَلِّقَةَ بِالحَلْقِ الذَّاتِي وَرَازِيَّةِ المَادَّةِ وَنَظَرِيَّةِ التَّطَوُّرِ وَالاِتِّقَاءِ
الطَّبِيعِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

أَمَّا عَنِ الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ وَهُوَ دِينُنَا وَمُنْهَجُنَا وَشَرْعُنَا وَعَقِيدَتُنَا فَمَا هُوَ مَوْقِعُهُ وَوَاقِعَةُ اليَوْمِ فِي هَذِهِ

المُؤَاجَهَةِ العَصْرِيَّةِ القَوِيَّةِ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالإِلْحَادِ ؟

أَنَّ الخِطَابَ الدِّينِيَّ قَدْ اتَّخَذَ صُورًا مُتَنَوِّعَةً وَمُتَنَاقِضَةً فَنَشَاهِدُهُ خِطَابًا عَصْرِيًّا عِنْدَ القُرَّائِينَ وَالعُقَلَاءِ
مُفْتَوِّحًا مُتَسَامِحًا وَأَعْيَا نَرَاهُ سَلْفِيًّا رَجْعِيًّا مُشَدَّدًا ذُو ذَهْنِيَّةِ عَدَايِهِ مُعَادِيَّةً أحيانًا سَاعَدَتْ فِي

تَشْكِيلِ مَجْمُوعَاتٍ وَجَمَاعَاتٍ تُؤْمِنُ بِالمُؤَاجَهَةِ العُسْكَرِيَّةِ وَاعَدَّتْ العُدَّةَ لِذَلِكَ نَبَتْ فِيهَا بَعْدَ الإِزْهَابِ

وَنَسَطَطِيعُ أَنْ نَصْنِفَ إِشْكَالًا وَصُورًا هَذَا الخِطَابِ فِيمَا يَلِي :

الشكل الأول : يُمثله أصحاب المذهب السنّي الذي يترجمه تيارًا تاريخيًا يُدافع عن السلفيّة والتراث الفكري دفاعًا مستميتًا ويُعادي التيارات المستحدثة العقلانية المحددة والتي تُرفض بشدّة التراث النقلي وتضع الشروط للأخذ به وبالحدّث التنبوي فتكاد تُلغي أكثره من الوجود وأصحاب هذا الخطاب أطلقوا على أنفسهم بالقرّانيين أو الإصلاحيين الذين يرون أنّ القرآن الكريم هو الأصل وفيه الفصل .

الشكل الثاني : يتمثل في خطاب الكراهية ونفي الآخر المُبادل بين السنّة والشيعه لتصفية الحسابات التاريخيّة فيما بينهم ويمثل جبهة عريضة وقوية وعلى مستوى عالٍ من الجدال والتقاش والخصومة واستغل الطرفين كل أدوات المعرفة والمعلوماتية والانترنت والبت الفضائي لهذه المواجهة العقائدية الطائفية فيما بينهم فتفرّعت من هذا الطرف وذاك أحزاب ومجموعات نشطت على المحطات الفضائية ومواقع ومدونات وصفحات ومجموعات وصحف إلكترونية وقنوات بت مباشر على اليوتيوب وغيره من منصات التواصل الاجتماعي في خدمة هذه الحرب المذهبية .

لقد فضحت هذه المواجهة العنيفة الشاملة الطرفين وعرتهم وهم أتباع دين واحد فيفاخر كل طرف بأنه الفرقة التاجية والصائبة وخصومهم هم على الباطل وهم يعلمون أنّ هذه المواجهة قد مسوا الدين ذاته بعقيدته وأركانها وشوهوا صورته وشككوا في مصداقيه الرسالة كلّها ونشروا غسيلهم وفضائحهم وخرافاتهم وهرطقاتهم دفعة واحدة أمام الملا حتى صار الآخر يشك في أصول عقيدتنا وأسلامنا ووصل هذا الشك وهذه الريبة إلى المسلمين أنفسهم وراحوا يتساءلون يعقل أن يكون ديننا بهذا الشكل المرعب وقد وصلت المواجهة بين هذين التيارين إلى حدّ الحروب وسفك الدماء كما هو الحال في العراق ولبنان وسوريا واليمن ؟

الشكل الثالث : فهو أخطر تيارات الخطاب الديني لأنه يقوم على مبدأ العنف والمواجهة ويسترجع الجهاد ويشرعه ويحض عليه وأدت أفعال هذا التيار إلى نتائج مدمرة إذ عمل أصحابه وهم جميعاً يتمون للتيار السلفي المتشدد عملوا على تشكيل مجموعات بل جيوش مسلحة وأعلنوا الحرب والتفجير ضد ماسموه بالكفر الممثل بأمريكا والغرب الكافر والأنظمة الكافرة وفق تعبيرهم وبالتيهم استعملوا أدوات الدعوة والعقل والمنطق بل استعملوا القوة والحرب والمواجهة الدموية فنفذوا عمليات تدميرية هنا وهناك كان أكثرها مأساوية إحداهن أحداث أيلول حين قاد ابن لادن الحرب الحديثة ضد الصليبيين لكن هذه المرة نقلها إلى عقر دار الصليبيين وفق تعبيرهم ولقد دفع الدين الإسلامي والمسلمين أثمناً باهضة جداً لقاء هذه المواجهة المجنونة فحوربت دول وغزيت دول وتشردت شعوباً بأكملها وألصق بالدين الحنيف نهمته الإرهاب التي انتشرت بسرعة غريبة ولازلنا إلى ساعتنا هذه ندفع أثمناً هذه المواجهة المشكوك في نوايا من شنها وحرص عليها وكان من نتائجها قيام جماعات تعلن انتماءها لابن لادن بغزو مناطق من العراق وسوريا وأسسوا فيها ما يُعرف بدولة العراق والشام والكل عاصر وشاهد كيف دمرت داعش هاتين الدولتين وقضت على أهل السنة قبل غيرهم وكيف انتهكت أعراض المسلمين ولتيسر الكفار وكيف سرقت أموالهم واستبيحت أعراضهم .

الشكل الرابع من أشكال الخطاب الديني هو عصري ومتجدد ورواده ومثليه ومنظريه يحاولون اليوم بقدر ما استطاعوا أن ينقدوا سمعه المسلمين ومكانه الدين بعد أن لوته التيارات الإسلامية والجماعات التكفيرية وكادت أن تدمره لولا إرادة الله التي اقتضت بحفظ كتابه ورسالته إلى يوم الدين كما قلت فرواد هذه الجبهة أغلبهم واعيين ومنفتحين ومتقنين ويمتلكون أدوات المعرفة الحديثة والمنطق

يُرفُضون المملية والفرقية والسَلَفِيَّة والمذهبية والطائفية ويعتبرون أنَّ القرآنَ الكَرِيمَ هُوَ أَصْدَقُ الكَلَامِ وَفِيهِ أَصْدَقُ الحَدِيثِ وَالْقَصَصِ وَهُوَ الوَحِيدُ القَادِرُ عَلَى اتِّشَالِ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ مِنْ شَفَا حُفْرِ النَّارِ وَيَعْمَلُونَ وَفَقَ أسَالِيبَ وَطُرُقَ الدَّعْوَةِ الحَقِّ وَوَقَّ مَبْدَأَ الدَّعْوَةِ السَّامِيَّ وَالَّذِي يَدْعُو بِالعَقْلِ وَالسَّلَامِ وَبِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَى الحِوَارِ وَالجَدَلِ المُثْمِرِ المُفِيدِ هُوَلاءِ هُمُ العُقلاءِ وَلَا أَقُولُ العَقْلَانِيَيْنِ فَتَرَاهُمْ يَدافعُونَ عَن قِيَمِهِم وَدِينِهِم بِأَثْبَاتٍ مُعْجَزَاتٍ عِلْمِيَّةٍ جَدِيدَةٍ أَتَا بِهَا الكِتَابُ الكَرِيمُ وَيَتَحَدَّثُونَ عَن أُسُسِ العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ وَأَخْلَاقِ الإِسْلَامِ وَيَدْعَمُونَ قَوْلَهُمْ بِنَصِّ قُرْآنِيٍّ أَوْ بِمَنْطِقِ عَقْلِيٍّ لا يَتَعَارَضُ مَعَ العِلْمِ أَوْ المَعْرِفَةِ يُضَمُّ هَذَا التِّيَّارَ الآفَ المَفكرينَ وَملايينَ مِنَ المُتَعَلِّمِينَ وَالمُتَقَفِينَ تَرَاهُمْ مُنْتَشِرِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَوَاقِعِ التَّوَاصُلِ الإِجْتِمَاعِيِّ وَأَدَوَاتِ الإِنْتَرْنِتِ وَالمَدُونَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَكَانًا لَّهُمْ يَعْمَلُونَ لَيْلَ نَهَارٍ لِيَرْفَعُوا اسْمَ اللَّهِ مِنْ جَدِيدٍ وَيُعِيدُوا الإِسْلَامَ إِلَى مَكَانِهِ الصَّحِيحِ وَدَوْرِهِ الرِّيَادِي وَالقِيَادِي فِي هَذَا العَالَمِ .

وَالسُّؤَالُ الآنَ بَعْدَ هَذَا المُدْخَلَ الوَجِيزَ كَيْفَ لَنَا كَمسَلَمِينَ أَوَّلًا وَكَمفكرينَ ثَابِتًا إِنْ تَجَاوَزَ هَذِهِ المُرْجَلَةَ كَيْفَ يُمَكِّنُنَا صَنَعَ مَنهَجِ فِكْرِي جَدِيدِ حَدِيثِ وَمَعَاصِرِ نَسْتَعِلُّ فِي إِعْدَادِهِ وَتَكْوِينِهِ كُلِّ الوَسَائِلِ العَظِيمَةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا وَسَائِلِ وَأَدَوَاتِ هَذَا العَصْرِ ؟

كَيْفَ يُمَكِّنُنَا أَنْ نُظْهِرَ لِنَفْسِنَا وَلِلآخِرِينَ حَقِيقَةَ دِينِنَا وَمَنهَجِنَا وَشَرَعِنَا كَمَا هُوَ وَلَيْسَ كَمَا وَصَلَ إِلَيْنَا كَيْفَ لَنَا أَنْ تَرَفَعَ تُهْمَةُ الإِرْهَابِ الَّتِي لَصِقَتْ بِنَا كَيْفَ لَنَا نَوَاجِهُ الآخِرِ بِمَنْطِقِ وَوَعْيِ وَمَعْرِفَةٍ وَكَيْفَ لَنَا أَنْ نَكُونَ دَعَاةَ حَقِيقِينَ وَأَصْحَابِ آخِرِ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ المُكَلِّفِينَ بِخِدْمَةِ الرِّسَالَةِ وَإِيصَالِهَا إِلَى النَّاسِ جَمِيعًا وَنَشْرَ الوُعْيِ الدِّينِيِّ وَالثَّقَافَةِ الدِّينِيَّةِ وَالأَخْلَاقِيَّةِ الخَالِصَةِ وَمَا هُوَ شَكْلٌ وَوَصَفٌ هَذَا الخِطَابِ الَّذِي سَنَسِيرُ عَلَيْهِ وَنَسْلُكُهُ ؟

قَبْلَ أَنْ نُجِيبَ عَلَى هَذِهِ التَّسَاوُلاتِ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَا هُوَ الْخُطَابُ الدِّينِيّ بِشَكْلِ عَامٍّ وَمَا الْمُقْصُودُ مِنْهُ
وَهَلْ لَهُ مَعْصُومِيَّةٌ وَخُطُوطُ حَمْرَاءٍ مِنْ يَحْتَازُهَا أَوْ يَتَجَاوَزُهَا يَكْفُرُ وَيُلْعَنُ ؟

الْخُطَابُ الدِّينِيّ بِشَكْلِ عَامٍّ هُوَ مَا يُفْهَمُهُ أَوْ يَسْتَنْبِطُهُ الْفَقِيهَ وَالْعَالِمَ وَالْمُفَكِّرَ مِنَ التَّصِّ الدِّينِيّ ، أَوْ مِنْ
مُصَادِرِ الْجَهْدِ وَالِاسْتِنْبَاطِ الْمُعْتَمَدَةِ ، فَلَا قَدَاسَةَ وَلَا عِصْمَةَ أَذِنَ لَهُ فَالْجَهْدُ قَدْ يُصِيبُ وَقَدْ يُحْطِئُ
وَالْمُجْتَهِدُ يَعْبُرُ عَنْ مِقْدَارِ فَهْمِهِ وَإِدْرَاكِهِ وَقَدْ يَتَأَثَّرُ بِتَأْجِهٍ بِمُخْتَلِفِ الْعَوَامِلِ التَّفْسِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي
تَتَعَكَّسُ عَلَى آرَائِهِ وَتُصَوِّرَاتِهِ . كَمَا أَنَّ قِسْمًا كَبِيرًا مِنَ الْخُطَابِ الدِّينِيّ الْمَعَاصِرِ لَا يُصَدِّرُ عَنْ فُقَهَاءِ
مُجْتَهِدِينَ ، بَلْ عَنْ وَعَاظٍ وَخُطَبَاءٍ مُحْتَرِفِينَ ، وَجِهَاتٍ تَمْتَهِنُ التَّصَدِّي لِلسَّانِ الدِّينِيّ ، بَعْضُ النَّظَرِ عَنْ
الْكَفَاةِ وَالتَّزَاهَةِ .

إِنَّ الْفِكْرَ هُوَ الَّذِي يَصُوغُ مُسَوًى وَمُحْتَوًى وَهَيْئَةَ الْخُطَابِ ، فَإِذَا مَا كَانَ الْفِكْرُ عَرِضَهُ لِلْبَسَاطَةِ وَالْحِرَافَةِ
أَوْ لِلتَّشَدُّدِ وَالتَّحْجَرِ فَإِنَّ الْخُطَابَ سَيَكُونُ بِمُسَوًى مِنَ الْهَبُوطِ الْعِلْمِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ يَكْشِفُ مَحْتَوَاهُ .

أَمَّا الْفَارِقُ بَيْنَ الْخُطَابِ الدِّينِيّ وَالتَّصِّ الدِّينِيّ فَيَمْتَلِئُ فِي أَنَّ التَّصَّ الدِّينِيّ هُوَ كُلُّ مَا ثَبَتَ صُدُورُهُ عَنْ اللَّهِ
وَعَنْ رَسُولِهِ ، أَيِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، بَيْنَمَا الْخُطَابُ الدِّينِيّ فَهُوَ الْأَدَاةُ الْجَهْدِيَّةُ الْمُبْرَزَةُ لِلتَّصِّ الدِّينِيّ ،
وَيَكْمُنُ الْفَرْقُ الْجَوْهَرِيّ بَيْنَهُمَا فِي عِصْمَةِ التَّصِّ دُونَ الْخُطَابِ : فَالتَّصُّ الدِّينِيّ أَيُّ : الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ-
فَوْقَ الْخَطَا وَالِاسْتِبَاهِ ؛ إِذِ إِنَّهُمَا يَحْكِيَانِ عَنْ اللَّهِ ، وَعَنْ وَحْيِهِ الْأَمِينِ ، وَعَنْ الْمَصْدَرِ الْمَعْصُومِ ، وَلَيْسَ
هُنَاكَ أَيُّ شَكٍّ أَوْ رَيْبٍ عَلَى اعْتِبَارِ التَّصِّ الْقُرْآنِيِّ نَصًّا مَعْصُومًا إِلَّا أَنَّهُ وَمُنْذُ عُقُودِ نَشْأَتِنَا بَدَأَ يَتَسَّعُ لَا
يَأْخُذُ بِالْأَحَادِيثِ الْمُنْسُوبَةِ لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَالتِّي وَصَلَتْ إِلَيْنَا بِالتَّوَاتُرِ أَوْ دَعْنَا نَقُولُ أَنَّهُ يَرْفُضُ أَغْلِبَهَا

وبالتالي فهي عرضة للبحث والتمحيص ولا تدخل وفق رأيهم بخانه النص المعصوم بسبب الشك في صحتها ونسبها للرسول الكريم .

لقد بدأت منذ بدايات القرن الماضي محاولات عديدة لتغيير شكل الخطاب الديني ومضمونه وجره قدر الامكان إلى عصره وانتشاله من سياقه التاريخي هذا المحاولات ظهرت تحت مسميات تجديد الفكر الإسلامي أو حركات الإصلاح والذي يعرف أيضا بالإسلام التقدمي أو بالإسلام التقدمي الإصلاحي أو التجديد الإسلامي تدعو لإصلاح الخطاب الديني وتبذ الخلاف المذهبي والتعصب الطائفي ، والابتعاد عن التقاليد الممترجة بالخرافات والأفكار الدخيلة على الإسلام وفي نفس الوقت كانت تلك الحركة تدعو لفهم الإسلام فهما جديدا ، عن طريق إعادة فهم وتفسير القرآن والسنة ، واستخدام الأدوات الفقهية التقليدية مثل الاجتهاد والقياس والاجماع وغيرها من أجل صياغة مشروع إصلاحي على ضوء المعايير العلمية العقلانية ، والنظرية الاجتماعية الحديثة .

إلا أن هذه المحاولات لم تستطع أن تحرق الذهنية العامة وتحديث ثورة أو نوعا من التغيير وذلك بسبب ردود الفعل القوية عليها من قبل المؤسسات الفقهية الإسلامية والمذاهب السلفية الحاكمة للنظم السياسية بالإضافة إلى نقشي الأمية والجهل فالعقل العربي والمسلم الحديث والمعاصر في ذلك الوقت لم يكن قد نضجا بعد كل هذا النضج الذي بدأ يسير متسارعا مؤخرا مع امتلاك أدوات التطور التكنولوجي كالتلفزيون ومن ثم الكمبيوتر والانترنت ووصولاً إلى يومنا هذا الذي نرى فيه تغيرات كبيرة وجدرية حدثت في ألية وعمل هذه الذهنية العربية المسلمة وجعلتها تتحرر فكريا وعقليا وذهنيا من التسلط الماصوي السلفي ومن جهة جعلتها تحاول التحرر سياسيا من براثن السلطات الحاكمة

الديكتاتورية حتى إنَّ بُوادرَ التَّحرُّرِ الاجْتِمَاعِيِّ وَالْقِيَمِيِّ بَدَأْنَا نُشَاهِدُ مفاعيلها فِي وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ
الاجْتِمَاعِيِّ والمدونات والقنوات التلفزيونية الخاصَّة .

نُسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ الْيَوْمَ أَنَّ الْغِطَاءَ قَدْ رَفَعَ عَنِ السُّؤَالِ وَالتَّسَاوُلِ وَالشُّكِّ وَالظَّنِّ فِي مَسَائِلِ تَفْسِيرِ الْعَقِيدَةِ
وتأويلها عند البعض وصارَ تَجَاوَزَ الْخُطُوطَ الْحُمْرَاءَ وَالسُّدُودَ الَّتِي وَضَعَهَا التَّرَاثُ وَالسَّلَفُ فِي وَجْهِ
العقلِ مُمَكِّنًا وَسَهْلًا بَلْ وَمُسْتَحَبًّا وَمَطْلُوبًا بِسَبَبِ تَوْسَعِ الْوَعْيِ وَتُسَارِعِ وَتَبِيرَةِ الْحُصُولِ عَلَى الْمَعْلُومَاتِ
فَهُنَاكَ كَمْ هَائِلٌ مِنْ الْإِتِّجَاعِ الْفِكْرِيِّ وَالْعَقْلِيِّ وَالدِّينِيِّ الْبَشَرِيِّ بِكُلِّ إِشْكَالِهِ الْأَدْبِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ وَالْفَلَسَفِيَّةِ
وَالْعِلْمِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ صَارَ هَذَا الْإِتِّجَاعُ بَيْنَ يَدَيْ الْجَمِيعِ وَيُمْكِنُ لِأَيِّ شَخْصٍ الْحُصُولُ عَلَى الْمَعْلُومَةِ الَّتِي
يُرِيدُهَا فِي دَقَائِقٍ مَعْدُودَةٍ وَصَارَ الْحَدِيثُ وَالتَّقْدِمْ مَتَاحًا وَمَمْلُوكًا فِي مُتَنَاوَلِ الْجَمِيعِ دُونَ اسْتِثْنَاءٍ وَلا رِقَابَةٍ
عَلَيْهِ وَلا سُلْطَةَ .

ان هَذَا الْإِنْفِتَاحَ الْهَائِلَ عَلَى الْمَعْرِفَةِ وَالْمَعْلُومَاتِ لَهُ نَتَائِجٌ سَلْبِيَّةٌ خَطِيرَةٌ أَيْضًا إِذْ سَيُؤَدِّي إِلَى تَأْجِيحِ
الصَّرَاعَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْعَقَائِدِيَّةِ وَالانْقِسَامَاتِ الْمَذْهَبِيَّةِ بِسَبَبِ هَيْمَنَةِ الْكَهْنُوتِ وَالْكُهَّانِ عَلَى الدِّينِ وَ
الخطابِ الدِّينِيِّ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ لَقَدْ اسْتَطَاعَتْ هَذِهِ الطَّبَقَةُ التِّيْقْرَاطِيَّةُ، بِضَمِّ الْيَأْ أَوْ التِّيْوَقْرَاطِيَّةُ وَتَعْنِي
حُكْمَ رِجَالِ الدِّينِ أَوْ الْحُكُومَةَ الدِّينِيَّةَ أَوْ الْحُكْمَ الدِّينِيَّ إِنْ تَحَكَّمَ فِي الظِّلِّ وَشَكَلَتْ تَوَآمًا حَاكِمًا كَمَا
وَلَدَتْ أَحْزَابَ وَحَرَكَاتٍ مَذْهَبِيَّةً طَائِفِيَّةً جَدِيدَةً مِثْلَ حِزْبِ اللَّهِ فِي لُبْنَانَ وَالْعِرَاقِ وَدَخَلَتْ السِّيَاسَةَ
فَمَنْ الطَّبِيعِيُّ أَنْ تَسْتَغْلَ هَذَا الْإِنْفِتَاحَ وَتُوجِّهَهُ نَحْوَ عَقَائِدِهَا الْمَذْهَبِيَّةِ وَسَيَنْتِجُ عَنِ ذَلِكَ أَنْ تَفْعَلَ الطَّائِفَةُ
الْمُقَابِلَةَ نَفْسِ الْأَمْرِ كَمَا إِنْ الْجَهْلُ وَالْتَّخَلُّفُ الْفِكْرِيُّ وَحَالَةُ الْلاوَعِيِّ الَّتِي لَازَلَتْ قَائِمَةً فِي مَجْتَمَعَاتِنَا
الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ وَإِنْ بِنِسْبَةِ أَقَلِّ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مُنْذُ عَقُودٍ سَيَلَعِبُ دَوْرًا مُقَاوِمًا لِأَيِّ مَحَاوَلَةٍ تَجْدِيدِيَّةٍ

وخاصةً بعد أن تهبَّ للجهل والتخلف الفكري منصات ومجالات للتغيير والتقاش وبث السموم وسقي
بذور الفرقة .

وبشكل عام وبصورة عامة نستطيع القول أن تكنولوجيا المعلومات وعصر الانترنت أحدث ثورة فكرية
عامة على كافة المستويات في مجتمعاتنا العربية والإسلامية لكنها للأسف الشديد إذا كانت عند القلة
ثورة لتقد الماضي والذات وبناء فكر ديني عصري فهي عند الغالبية الجاهلة فرصة لتأجيج الصراعات
وفرض الذات ولو بالقوة .

لذلك فلاغربة ولاعجب أن ترى اليوم هذه الصراعات العنيفة بين التيارات الفكرية والعقائدية وقد تعدد
جهاؤها وتنوعت مواضعها فنرى مثلاً الجبهة المشتعلة بين التيار السلفي من جهة وبين التيار المحدث
والمجدد وبين ما سُمي بالقرائنين والعلمانيين من جهة وبين الذين هم على سيرتهم الأولى الممسكين
بالحديث النبوي وكذلك الصراع الذي يدور اليوم بين أهل السنة والجماعة وبين الشيعة وقرقها .

أنماط العقل العربي المعاصر

يمكننا وبدون تردد تقسيم توجهات العقل العربي ورواه الفكرية والعقائدية والفلسفات التي يبناها اليوم
إلى نمطين رئيسيين :

النمط الأول : النمط الرجعي السلفي ويدخل فيه التيارات التالية :

التيار السلفي الإصلاحية والسلفي الجهادي

التيار الإسلامي (السياسي)

النَّيَّارُ الشَّيْعِيُّ الْاِثْنِي عَشْرِي

النَّمَطُ الثَّانِي : النَّمَطُ التَّقَدِّمِيُّ الْحَدَاثِيُّ وَيَدْخُلُ فِيهِ النَّيَّارَاتُ التَّالِيَةُ :

النَّيَّارُ الْقَوْمِيُّ

النَّيَّارُ الْاِسْتِرَاكِيُّ

النَّيَّارُ الْعُقْلَانِيُّ

النَّيَّارُ التَّجْدِيدِيُّ الْقُرْآنِيُّ (الْقُرْآنِيِّينَ وَالْمُفَسِّرِينَ الْجُدُدَ) سَنَخْصُصُ لَهُ مَجْثًا خَاصًا بِهِ .

وَسَنَحَاوَلُ قَدْرَ الْاِمْتِكَانِ الْبَحْثِ بِشَكْلِ مُوسَّعٍ فِي الْمَكُونَاتِ الَّتِي يُؤَسِّسُ كُلُّ تَيَّارٍ مِنْ هَذِهِ النَّيَّارَاتِ فِكْرَهُ
وَفَلْسَفَتَهُ وَضَرَبَ امْتِلَآةً عَنْ رُؤُوزِهِ وَشَخْصِيَّاتِهِ .

وَيُودُ اِنْ نُشِيرَ هُنَا اَنَّ تَصْنِيفَنَا هَذَا هُوَ تَصْنِيفًا وَاقْعِيًّا مَوْضُوعِيًّا جَرَى اعْتِمَادُهُ بِدِقَّةٍ لِكُوْنِهِ الْحَالَةَ الْفِعْلِيَّةَ
الرَّاهِنَةَ لِلْاُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ تَمَثَّلُ وَضْعًا فِكْرِيًّا مُخْتَلِطًا وَمَتَضَارِبًا وَمَعَاكِسًا يَعْكَسُ عُمُقُ الْاَزْمَاتِ وَالتَّكْبَاتِ
الْمُتَّالِيَةِ الَّتِي لَحِقَتْ بِالْاُمَّةِ وَتُعَكِّسُ الظُّرُوفَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ وَالسِّيَاسِيَّةَ وَالْاِقْتِصَادِيَّةَ وَالْحَضَارِيَّةَ الَّتِي يَعْشُهَا
الْعَرَبُ الْيَوْمَ .

النَّمَطُ الْاَوَّلُ

النَّمَطُ الرَّجْعِيُّ السَّلْفِيُّ

أولاً

التَّيَّارُ السَّلَفِيُّ الْإِصْلَاحِيُّ وَالسَّلَفِيُّ الْجِهَادِيُّ

البدايات

السَّلَفِيَّةُ: هِيَ اسْمٌ لِمَنْهَجٍ يُدْعُو إِلَى فَهْمِ الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ بِفَهْمِ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَالْأَخْذِ بِمَنْهَجِهِ، وَعَمَلِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ، وَصَحَابَتِهِ، وَالتَّابِعِينَ، وَالتَّابِعِي التَّابِعِينَ بِاعْتِبَارِهِ يُمَثِّلُ تَهْجِ الْإِسْلَامِ، وَالتَّمَسُّكُ بِأَخْذِ الْأَحْكَامِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَمِمَّا صَحَّ مِنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ، وَيَتَّعَدُّ عَنْ كُلِّ الْمُدْخَلَاتِ الْغَرِيبَةِ عَنْ رُوحِ الْإِسْلَامِ وَعَتَائِمِهِ، وَالتَّمَسُّكُ بِمَا نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ. وَهِيَ تُمَثِّلُ فِي إِحْدَى جَوَانِبِهَا إِحْدَى التِّيَّارَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعُقَائِدِيَّةِ فِي مُقَابَلَةِ الْفِرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأُخْرَى. وَفِي جَانِبِهَا الْأُخْرَى الْمُعَاصِرِ تَمَثَّلَ مَدْرَسَةٌ مِنَ الْمَدَارِسِ السُّنِّيَّةِ الَّتِي تَسْتَهْدَفُ إِصْلَاحَ أَنْظِمَةِ الْحُكْمِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالْحَيَاةِ عُمُومًا إِلَى مَا يَتَوَافَقُ مَعَ النِّزَامِ الشَّرْعِيِّ الْإِسْلَامِيِّ. بَرَزَتْ بِمُصْطَلِحِهَا هَذَا عَلَى يَدِ أَحْمَدَ بْنِ تَيْمِيَّةَ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ الْهَجْرِيِّ وَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ بِإِحْيَاءِ هَذَا الْمُصْطَلَحِ مِنْ جَدِيدٍ فِي مَنَاطِقِهِ نَجْدًا فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ الْهَجْرِيِّ وَالَّتِي كَانَتْ الْحُرُوكَةَ الْإِصْلَاحِيَّةَ الَّتِي أُسِّسَهَا مِنْ أَبْرَزِ مُمَثِّلِي هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ.

تُطْلَقُ السَّلَفِيَّةُ وَيُرَادُ بِهَا بِحَسَبِ أَحَدِ عُلَمَائِهَا الْكِبَارِ الشَّيْخِ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْعَثِيمِينَ: «أَتْبَاعُ مَنْهَجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ لِأَنَّهُمْ سَلَفُنَا تَقَدَّمُوا عَلَيْنَا، فَاتَّبَعْنَاهُمْ هُوَ السَّلَفِيَّةُ.» وَهِيَ مَا يُعْبَرُ عَنْهُ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ: «مَنْهَجِنَا الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِفَهْمِ سَلَفِ الْأُمَّةِ.» فَالسَّلَفِيَّةُ فِي جَوْهَرِهَا تَقُومُ عَلَى التَّرَامِ مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي فَهْمِ التُّصُوصِ الشَّرْعِيِّ، مَا يَعْنِي أَنَّ ثَمَّةَ اتِّفَاقًا عَلَى مَرْجِعِ جَامِعٍ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ السَّلَفِيُّونَ. تَأْتِي السَّلَفِيَّةُ فِي اللَّغَةِ بِمَعْنَى الرَّجُوعِ لِلْمَتَقَدِّمِينَ وَالسَّابِقِينَ زَمَنِيًّا، وَيُعْرَفُ الذُّكُورُ عَبْدُ اللَّهِ الْبُخَارِيُّ التَّرَعَّةَ

السَّلَفِيَّةِ فِي كِتَابِهِ الْمُعْتُونَ مَا هِيَ السَّلَفِيَّةُ؟ أَتَبَاعُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعُونَ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَارَ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ وَاقْتَفَى آثَرَهُمْ. (وَرَغِمَ أَنْ هَذَا التَّعْرِيفُ يُبَيِّنُ أَنَّ أَصْحَابَ هَذَا الْمَنْهَجِ يَتَّبِعُونَ لِعَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الرَّائِيَةِ الدِّينِيَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ يُمَكِّنُ الْقَوْلَ أَنَّ السَّلَفِيِّينَ عُمُومًا يُجَلُّونَ أَرْبَعَ شَخْصِيَّاتٍ دِينِيَّةٍ مُهِمَّةٌ فِي التَّارِيخِ الْفِكْرِيِّ الْإِسْلَامِيِّ . الشَّخْصِيَّةُ الْأُولَى، هُوَ الصَّحَابِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَالْأَهْمِيَّةُ الْخَاصَّةُ لِابْنِ عُمَرَ تَكُنُّ فِي كَوْنِهِ عَاصِرَ إِحْدَاثِ الْفَنِّ وَالتَّقْلِيَاتِ الَّتِي حَدَثَتْ مُنْذُ مَقْتَلِ الْخَلِيفَةِ الثَّلَاثِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَمَا تَبِعَهَا مِنْ حُرُوبِ أَهْلِيَّةِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ . وَكَانَ لِابْنِ عُمَرَ مَوْقِفٌ مُمَيِّزٌ مِنَ الْأَحْدَاثِ الْجَارِيَةِ حَوْلَهُ فَقَدْ اعْتَزَلَ السِّيَاسَةَ وَلَمْ يُنْضَمْ لِأَيِّ حِزْبٍ مِنَ الْأَحْزَابِ الْمُتَنَافِسَةِ عَلَى السُّلْطَةِ . الشَّخْصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ هُوَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ الَّذِي تَعَرَّضَ لِاخْتِبَارٍ فِي عَصْرِ الْأُمَمُونَ وَالْمُعْتَصِمِ الْعَبَّاسِيِّينَ، أَبَانَ آثَارَهُ مَا عُرِفَ بِفِتْنَةِ خَلْقِ الْقُرْآنِ . مَوْقِفُ ابْنِ حَنْبَلٍ الرَّافِضِ لِلْإِعْتِرَافِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَإِصْرَارِهِ عَلَى الْقَوْلِ أَنَّهُ كَلَّمَ اللَّهُ وَحَسْبُ، أَدَّى لِإِعْلَاءِ شَأْنِ ابْنِ حَنْبَلٍ، وَتَرْسِيخِ مَكَانَتِهِ فِي الْعَقْلِيَّةِ السُّنِّيَّةِ عُمُومًا وَالسَّلَفِيَّةِ مِنْهَا خُصُوصًا، حَتَّى نَجِدَ أَنَّ اللَّقَبَ الَّذِي أُشْتُهِرَ بِهِ ابْنُ حَنْبَلٍ هُوَ إِمَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ . الشَّخْصِيَّةُ الثَّلَاثَةُ هُوَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الَّذِي عُرِفَ بِشَيْخِ الْإِسْلَامِ وَأَشْهُرَ بِرِفْضِهِ لِمَظَاهِرِ الْبِدْعِ وَالْمُخَالَفَاتِ الْمَذْهَبِيَّةِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ الْمُنتَشِرَةِ فِي عَصْرِهِ خُصُوصًا آراءَ وَمُعْتَقَدَاتِ الشَّيْعَةِ الْإِمَامِيَّةِ الَّتِي تَصَدَّى لِلرَّدِّ عَلَيْهَا فِي كِتَابِهِ مِنْهَاجِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فِي الرَّدِّ عَلَى الشَّيْعَةِ الْقُدْرِيَّةِ . الشَّخْصِيَّةُ الرَّابِعَةُ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ وَهُوَ أَقْرَبُ الرِّجَالِ الثَّلَاثَةِ إِلَى عَصْرِنَا الْحَاضِرِ وَمِنْهُ أُخِذَ السَّلَفِيُّونَ لِقَبِّهِمُ الْأَكْثَرُ شَهْرَهُ الْوَهَّابِيُّونَ . وَقَدْ أَكْتَسَبَ ابْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ مَكَانَتَهُ فِي الْعَقْلِ السَّلَفِيِّ بِإِعْتِبَارِهِ إِمَامًا مُجَدِّدًا حَارَبَ إِشْكَالَ الرُّنْدَقَةِ وَالبِدْعِ الَّتِي ائْتَشَرَتْ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي عَصْرِهِ . فَكَانَتْ أَهَمَّ مَعَارِكِ الْإِمَامِ النَّجْدِيِّ ضِدَّ الْحَرَكَاتِ وَالطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ الَّتِي قُدِّسَتْ الْمَزَارَاتُ وَالْإِضْرَحَةُ وَأُحْيِيَتْ الْإِحْتِفَالُ بِالْمَوْلَادِ وَالْأَعْيَادِ .

وَيُمْكِنُ أَنْ تُقَسَّمَ السَّلَفِيَّةُ الْمَعَاصِرَةَ إِلَى أَرْبَعَةِ اتِّجَاهَاتٍ مُهِمَّةٍ مُتَمَايِزَةٍ، وَهِيَ السَّلَفِيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ وَالسَّلَفِيَّةُ الْحَرَكِيَّةُ وَالسَّلَفِيَّةُ الْجِهَادِيَّةُ وَالسَّلَفِيَّةُ الْمُدْخَلِيَّةُ الْجَامِعِيَّةُ .

تَعْرِيفُ السَّلَفِيَّةِ

فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: السَّلَفُ - بَفَتْحِ السَّيْنِ وَاللَّامِ - يَكْشِفُ عَنْهَا فِي مَادَّةِ (س ل ف) وَهُوَ مَا مَضَى وَانْقَضَى، وَالْقَوْمُ السَّلَافُ: الْمُتَقَدِّمُونَ، وَسَلَفَ الرَّجُلُ: أَبَاؤُهُ الْمُتَقَدِّمُونَ. جَمْعُ سَالِفٍ وَهُوَ كُلُّ مَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ آبَائِكَ وَذَوِي قَرَابَتِكَ فِي السَّنِّ أَوْ الْفِضْلِ وَقَالُوا: إِنَّهُ كُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ قَدَّمْتَهُ. وَقَالَ السَّمْعَانِيُّ (ت 562): السَّلَفِيُّ - بَفَتْحِ السَّيْنِ وَاللَّامِ وَفِي آخِرِهَا فَاءٌ - هَذِهِ التَّسْبِيبَةُ إِلَى السَّلَفِ وَاتِّحَالُ مَذَاهِبِهِمْ عَلَى مَا سَمِعْتُ مِنْهُمْ.

أَمَّا مُصْطَلَحُ السَّلَفِ الصَّالِحِ فَهُوَ تَعْيِيرٌ يُرَادُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ الْأَوَّلُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالتَّابِعِي التَّابِعِينَ الَّذِينَ عَاشُوا فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى مِنَ الْإِسْلَامِ الَّتِي جَاءَ التَّنَاءُ عَلَيْهَا مِنْ رَسُولِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَنْاسٌ يُشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ وَيُخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ وَيَكُونُ فِيهِمُ الْكُذِبُ .)

وَيُسْتَشْتَى مِنْ ذَلِكَ أَهْلُ الْبِدْعِ كَالْحَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةَ وَالْقَدْرِيَّةَ وَالْجَهْمِيَّةَ وَالْجَبْرِيَّةَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْفِرَقِ .
وَالْمَذْهَبُ أَوْ الْمُعْتَقَدُ السَّلَفِيُّ: هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَائْتِمَانِ الدِّينِ مِمَّنْ شَهِدَ لَهُ بِالْإِمَامَةِ وَعَرَفَ عَظَمَ شَأْنَهُ فِي الدِّينِ وَتَلَقَّى النَّاسَ كَلَامَهُمْ خَلْفًا عَنْ سَلَفٍ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ: الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيِّ وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ وَابْنُ الْمُبَارَكِ وَإِبْرَاهِيمُ التَّخَعِيُّ وَابْنُ خَارِزْمِ وَمُسْلِمٌ

وَسَائِرِ أَصْحَابِ السُّنَنِ وَالسَّلَفِيُونَ أَوْ السَّلَفِيَّةُ: الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ مُعْتَدِ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَيَتَّبِعُونَ مَنَهِجَ السَّلَفِ فِي فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَطْبِيقِهِمَا .

نَشَأَةُ السَّلَفِيَّةِ

يَعْتَقِدُ بَأَنَّ السَّلَفِيَّةَ مَا هِيَ إِلَّا امْتِدَادٌ لِمَنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ الصَّحَابَةِ، فَالتَّابِعُونَ، فَتَابِعُوهُمْ، ثُمَّ مَدْرَسَةُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالتَّابِعِينَ الَّذِينَ بَرَزُوا فِي الْقَرْنِ الثَّلَاثِ الْهَجْرِيِّ فِي مُوَاجَهَةِ الْمُعْتَزَلَةِ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ تَحْتَ قِيَادَةِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَحَدِ أَيْمَةِ السُّنَّةِ الْأَرْبَعَةِ فَكَانَ الْمُعْتَزَلَةُ يَتَّخِذُونَ مَنَاهِجَ عَقْلِيَّةٍ فِي قِرَاءَةِ النُّصُوصِ وَتَأْوِيلِهَا وَاسْتَمَدُّوا أُصُولَهُمُ الْمُنْطِقِيَّةَ مِنَ الْحَضَارَةِ الْأَغْرِبِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ التَّرْجَمَةِ وَالتَّعَامُلِ الْمُبَاشِرِ، وَرَأَى أَهْلَ الْحَدِيثِ فِي هَذِهِ الْمَنَاهِجِ الْعَقْلِيَّةِ خَطَرًا يَهْدِدُ صَفَاءَ الْإِسْلَامِ وَتَقَاءَهُ وَيُنْذِرُ بِتَفْكَكِ الْأُمَّةِ وَانْهِيَارِهَا . وَانْتَهَى هَذَا التَّرَاوُعُ حِينَ تَوَلَّى الْخَلِيفَةُ الْمُتَوَكِّلُ أَمْرَ الْخِلَافَةِ وَأَطْلَقَ سِرَاحَ ابْنِ حَنْبَلٍ وَانْتَصَرَ لِمَنْهَجِهِ وَمُعْتَقَدِهِ . وَيُعْتَبَرُ الْكَاتِبُ حَسَنٌ أَبُو هُنَيْئَةَ مِحْنَةَ ابْنِ حَنْبَلٍ فِي فِتْنَةِ خَلْقِ الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ: «كَانَ حَاسِمًا فِي بَلْوَةِ وَعَى سَلْفِيٍّ عَمِلَ عَلَى بَلْوَةِ مَوْقِفِ سَلْفِيٍّ وَاضِحٌ وَمُسْتَمِرٌّ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ» .

وَقَالَ مُحَمَّدٌ أَبُو زَهْرَةَ أَنَّهُ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ هِجْرِيًّا ظَهَرَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ تُنْسَبُ أَرَايَاهَا لِابْنِ حَنْبَلٍ فِي إِثْبَاتِ بَعْضِ صِفَاتِ اللَّهِ بِدَعْوَى أَنَّ اللَّهَ اثْبَتَهَا لِنَفْسِهِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَذَلِكَ الْأَخْذُ بِظَوَاهِرِ النُّصُوصِ ثُمَّ تَفْوِيزِ الْكَيْفِ وَالْوُضُفِ . [47] ثُمَّ أَقْرَأَ هَذَا الْمَنْهَجَ كَمَنْهَجِ رَسْمِيِّ لِلدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي زَمَنِ الْخَلِيفَةِ الْقَادِرِ بِاللَّهِ بِنَاءً عَلَى مَنَشُورِ الْعَقِيدَةِ الْقَادِرِيَّةِ الَّذِي كَتَبَهُ الْخَلِيفَةُ وَأَمَرَ أَنْ يُتْلَى فِي الْمَسَاجِدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَأَخَذَ عَلَيْهِ خُطُوطُ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ . وَبِحَسَبِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْمُنْتَظَمِ فَقَدْ أَقْرَأَ هَذَا

المُنْهَجَ كَمُنْهَجِ رَسْمِيٍّ لِلدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ عَامَ 433 ق. فِي زَمَنِ الْخَلِيفَةِ الْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ بِنَاءً عَلَى مُشُورِ الْعَقِيدَةِ الْقَادِرِيَّةِ الَّذِي كَتَبَهُ الْخَلِيفَةُ الْقَادِرُ .

بَعْدَ ذَلِكَ شَهِدَتْ السَّلَفِيَّةُ انْحِسَارًا مَلْحُوظًا شَعْبِيًّا وَسِيَّاسِيًّا بَعْدَ انْقِسَامِ الْفُقَهَاءِ الْإِسْلَامِيِّينَ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ إِلَى حَنَابِلَةٍ وَأَشْعَرِيَّةٍ حَتَّى قَوِيَ جَانِبُ الْأَشَاعِرَةِ وَتَبَنَّى بَعْضُ الْأُمَرَاءِ مَذْهَبَهُمْ إِلَى أَنْ ظَهَرَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي الْقُرْنِ السَّابِعِ بِالْتَرَاثِ مَعَ سُقُوطِ عَاصِمَةِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بَعْدَ عِلَى أَيْدِي التَّارِ سَنَةَ 656 ق. فَعَمِلَ عَلَى إِحْيَاءِ الْفِكْرِ السَّلَفِيِّ وَقَامَ بِشَنْ حَمَلِهِ عَلَى مَنْ عَتَبَهُمْ أَهْلَ الْبِدْعِ دَاعِيًا إِلَى إِحْيَاءِ عَقِيدَةِ وَمُنْهَجِ السَّلَفِ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ النَّهْضَةِ . وَلَقَدْ أَثَارَتْ دَعْوَتُهُ جَدَلًا فِي الْأَوْسَاطِ الْإِسْلَامِيَّةِ حِينَهَا فَاسْتَجَابَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ وَطَلَبَ الْعِلْمَ لِافْكَارِهِ مِثْلَ الذَّهَبِيِّ وَابْنِ قَيْمِ الْجَوْزِيَّةِ وَالْمِزِّيِّ . وَمِنْ أَفْرَادِ الطَّبَقَةِ الْحَاكِمَةِ مِثْلُ الْأَمِيرِ الْمُمْلُوكِيِّ سَلَّارِ نَائِبِ السَّلْطَنَةِ .

ثُمَّ شَهِدَتْ السَّلَفِيَّةُ انْحِسَارًا كَبِيرًا مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ ذَلِكَ . لِعَاوَدِ الظُّهُورِ مَرَّةً أُخْرَى فِي الْقُرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ مُمَثَّلَةً فِي دَعْوَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالَّتِي وَأَكْبَتْ عَصْرَ انْحِطَاطِ وَأَقْوَلَ نَجْمَ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَصُعودِ الاسْتِعْمَارِ الْعَرَبِيِّ . وَأَحْدَثَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ تَأْثِيرًا كَبِيرًا فِي مُخْتَلَفِ أُنْحَاءِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَأَحْدَثَتْ لِعَطَا كَبِيرًا بَيْنَ مُؤَيَّدِيهَا وَمُعَارِضِيهَا .

الْأَفْكَارُ وَالْمُعْتَقَدَاتُ

مَصَادِرُ التَّلَقِّي

يَعْتَمِدُ السَّلَفِيَّةُ فِي تَلَقِّي دِينِهِمْ عَلَى الْمَصَادِرِ التَّالِيَةِ :

- القرآن: وَهُوَ الْمَصْدَرُ الرَّئِيسِيُّ لِلتَّلْقِي عِنْدَ السَّلَفِيَّةِ . وَيُسْتَعِينُونَ عَلَى فَهْمِهِ وَنَفْسِيرِهِ بِالْعُلُومِ الْمُسَاعَدَةِ عَلَى ذَلِكَ، كَعُلُومِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْعِلْمِ بِالتَّاسِيحِ وَالْمُنْسُوخِ، وَأَسْبَابِ التَّرْوِيلِ، وَبَيَانِ السُّورِ مِنْ حَيْثُ الْمَكِّيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ.
- السُّنَّةُ التَّبَوِيَّةُ الْمُسْنَدَةُ الصَّحِيحَةُ: وَالسُّنَّةُ عِنْدَهُمْ هِيَ كُلُّ مَا صَحَّحَهُ عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَصِفَاتِ خَلْقِيَّةٍ أَوْ خَلْقِيَّةٍ وَالتَّقْرِيرَاتِ . وَالسُّنَّةُ مِنْهَا الثَّابِتُ الصَّحِيحُ .
وَمِنْهَا الضَّعِيفُ؛ وَالصَّحَّةُ شَرْطٌ لِقَبُولِ الْحَدِيثِ وَالْعَمَلُ بِهِ بِحَسَبِ قَوَاعِدِ التَّصْحِيحِ وَالتَّضْعِيفِ . [57]
وَلَا يَشْتَرِطُونَ أَنْ يَكُونَ الْحَدِيثُ مُتَوَاتِرًا، بَلْ هُمْ يَعْمَلُونَ بِالْمُتَوَاتِرِ وَالْأَحَادِ عَلَى الْحَدِّ هُمَا سَوَاءٌ .
- الْإِجْمَاعُ: وَهُوَ اتِّفَاقُ جَمِيعِ رِجَالِ الدِّينِ الْمُجْتَهِدِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي عَضْرِ مِنَ الْعُصُورِ عَلَى حُكْمٍ شَرْعِيٍّ، فَإِذَا اتَّفَقُوا سِوَاءَ كَانُوا فِي عَضْرِ الصَّحَابَةِ أَوْ بَعْدَهُمْ عَلَى حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ كَانَ اتِّفَاقُهُمْ هَذَا إِجْمَاعًا . وَهَذِهِ الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ هِيَ الْمَصَادِرُ الرَّئِيسِيَّةُ فِي التَّلْقِي، وَالسَّلَفِيَّةُ لَا يُقْرُونَ قَوْلًا وَلَا يُقْبَلُونَ اجْتِهَادًا إِلَّا بَعْدَ عَرْضِهِ عَلَى تِلْكَ الْأُصُولِ . وَلَا يُخَالِفُونَهَا بِرَأْيٍ وَلَا بِعَقْلِ وَلَا بِقِيَاسٍ . بَلْ يُجْتَهِدُونَ بِأَرَائِهِمْ فِي ضَوْءِ تِلْكَ الْمَصَادِرِ مِنْ دُونِ أَنْ يُخَالِفُوهَا .
- الْقِيَاسُ: وَهُوَ حُجَّةٌ عِنْدَ جُمْهُورِهِمْ سِوَاءَ كَانِ قِيَاسًا جَلِيًّا (حُجَّةٌ قَطْعِيَّةٌ) أَوْ خَفِيًّا (حُجَّةٌ ظَنِّيَّةٌ) . وَخَالَفَهُمْ اتِّبَاعُ الْمَذْهَبِ الظَّاهِرِيِّ فَأَخَذُوا بِالْقِيَاسِ الْجَلِيِّ دُونَ الْخَفِيِّ . وَبِأَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ نَقْلِ صَحِيحٍ وَعَقْلِ صَرِيحٍ . وَإِنْ التَّقْلُّ مُقَدَّمٌ عَلَى الْعَقْلِ . فَلَا يُجُوزُ مُعَارَضَةُ الْأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ مِنْ كِتَابٍ وَسُنَّةٍ وَإِجْمَاعٍ بِحُجَجٍ عَقْلِيَّةٍ أَوْ كَلَامِيَّةٍ .

التَّوْحِيدُ

السَّلَفِيَّةُ يُؤْمِنُونَ بِوَحْدَايَةِ اللَّهِ وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّ هَذَا الْكَوْنِ وَخَالِقُهُ . وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ لِلَّهِ أَسْمَاءَ وَصِفَاتٍ أَثْبَتَهَا لِنَفْسِهِ فِي الْقُرْآنِ وَفِي سُنَّةِ نَبِيِّهِ؛ فَيُثْبِتُونَ لِلَّهِ كُلَّ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ . وَيُوجِبُونَ الْإِيمَانَ بِهَا كُلِّهَا، وَإِمْرَارَهَا عَلَى ظَاهِرِهَا مُعْرِضِينَ فِيهَا عَنِ التَّأْوِيلِ، مُجْتَنِبِينَ عَنِ التَّشْبِيهِ، مُعْتَقِدِينَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُشْبَهُ شَيْءٌ مِنْ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ، كَمَا لَا تُشْبَهُ ذَاتُهُ ذَوَاتِ الْخَلْقِ، كَمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿سُورَةُ الشُّورَى . وَعَلَى هَذَا مَضَى سَلَفُ الْأُمَّةِ، وَعُلَمَاءُ السُّنَّةِ، تَلَقَّوْهَا جَمِيعًا بِالْإِيمَانِ وَالْقَبُولِ، وَتَجَنَّبُوا فِيهَا عَنِ التَّمْثِيلِ وَالتَّأْوِيلِ، وَوَكَّلُوا الْعِلْمَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ .

كَمَا يَعْتَدُونَ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ، فَلَا تُصْرَفُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لِلَّهِ . وَيُوجِبُونَ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مَحْبُوبًا مَالِوَهَا وَيُفَرِّدُونَهُ بِالْحَبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالْإِحْبَاتِ وَالتَّوْبَةِ وَالتَّذْرُ وَالطَّاعَةَ وَالطَّلَبَ وَالتَّوَكُّلَ، وَنَحْوَ هَذَا مِنَ الْعِبَادَاتِ . وَإِنَّ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ أَنْ تَرَى الْأُمُورَ كُلِّهَا مِنْ اللَّهِ رُؤْيَةً تُقْطَعُ الْإِلْتِقَاتِ إِلَى الْأَسْبَابِ وَالْوَسَائِطِ، فَلَا تَرَى النِّفْعَ وَالضَّرَرَ إِلَّا مِنْهُ . وَإِنْ مِنْ صَرَفِ شَيْءٍ مِنَ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ، مُتَّخِذًا مِنْ الْخَلْقِ أُنْدَادًا وَوَسَائِطًا وَشُفَعَاءَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، فَهُوَ مُشْرِكٌ .

الْقَدْرُ

يُؤْمِنُ اتِّبَاعَ الْمَدْرَسَةِ السَّلَفِيَّةِ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ عَلَى جَمِيعِ مَرَاتِبِهِ . وَهِيَ:

- الْعِلْمُ: فَيُؤْمِنُونَ أَنَّ لِلَّهِ عِلْمًا أَرْثِيًّا أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ . فَاللَّهُ عَلِمَ مَا كَانَ، وَعَلِمَ مَا سَيَكُونُ، وَعَلِمَ مَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ .

• الكِتَابَةُ: وَيُؤْمِنُونَ إِنَّ اللَّهَ أَوَّلَ مَا خَلَقَ، خَلَقَ الْقَلَمَ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، فَكَتَبَهَا الْقَلَمُ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ.

• الْمَشِيئَةُ: وَيُؤْمِنُونَ إِنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ نَافِذَةٌ، فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. وَلَا يُجْرِدُ شَيْءٌ صَغِيرٌ أَوْ كَبِيرٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ سُبْحَانَهُ. وَهُمْ يَفْرُقُونَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْإِرَادَةِ الْكُؤَيْبَةِ (وَهِيَ الْمَشِيئَةُ) وَالْإِرَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ. فَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ كُنَّا خَلْقَهُ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا، وَمَا أَرَادَهُ شَرْعًا أَمَرَ بِهِ عِبَادَةً وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ، فَعَلُوهُ أَوْ لَمْ يَفْعَلُوهُ.

• الْخَلْقُ: فَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ خَلَقَهُ فِي أَجَلٍ مَعْلُومٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ هُوَ الْخَلْقُ، فَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ امْرَأً فَكَتَبَهُ وَجَرَتْ بِهِ مَشِيئَتُهُ فَذَلِكَ هُوَ الْقَدْرُ، حَتَّى إِذَا خَلَقَهُ اللَّهُ فَذَلِكَ هُوَ الْقَضَاءُ.

الْإِيمَانُ

يُؤْمِنُ اتِّبَاعَ الدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ إِنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَإِخْلَاصٌ بِالْقَلْبِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ. وَيَزِيدُ بزيادةِ الأَعْمَالِ، وَيَنْقُصُ بِنُقْصَانِهَا. وَلَا يَكْمُلُ قَوْلُ الْإِيمَانِ إِلَّا بِالْعَمَلِ، وَلَا قَوْلٌ وَلَا عَمَلٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَلَا قَوْلٌ وَلَا عَمَلٌ وَلَا نِيَّةٌ إِلَّا بِمُوافَقَةِ السُّنَّةِ، وَأَنَّهُ لَا يَكْفُرُ أَحَدٌ بِذَنْبٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ. [62] وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ لِلْإِيمَانِ أَصْلَ وَفُرُوعَ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَزُولُ إِلَّا بِزَوَالِ أَصْلِهِ. لِذَا فَهُمْ لَا يَكْفُرُونَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ وَلَا مَعْصِيَةٍ، إِلَّا أَنْ يَزُولَ أَصْلُ الْإِيمَانِ. وَلَا يُوجِبُونَ الْعَذَابَ وَلَا الثَّوَابَ لِشَخْصٍ مُعَيَّنٍ إِلَّا بِدَلِيلٍ خَاصٍّ.

الصَّحَابَةُ

يُحِبُّ اتِّبَاعَ الدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ صَحَابَةَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَأَزْوَاجَهُ أَجْمَعِينَ وَيُؤْمِنُونَ
بِفَضَائِلِهِمْ وَمَنَاقِبِهِمْ الَّتِي ثَبَتَتْ لَهُمْ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ. وَيُؤْمِنُونَ بِأَفْضَلِيَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عَلَى جَمِيعِ
الْبَشَرِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ تَرْتِيبَهُمْ حَسَبَ الْأَفْضَلِيَّةِ هُوَ: أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ثُمَّ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ثُمَّ
عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ثُمَّ بَاقِي الْعَشْرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ وَهُمْ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَعْدُ بْنُ
أَبِي وَقَّاصٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ. وَيُؤْمِنُونَ إِنَّ أَزْوَاجَهُ هُنَّ
أَمْهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الْآخِرَةِ، خُصُوصًا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَعَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ. وَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ بِعِصْمَةِ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ بَعِيْنِهِ، بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ. وَيَعْتَقِدُونَ بِعِصْمَةِ إِجْمَاعِهِمْ فَقَطْ.
وَيَسْكُنُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَتَمُّ فِيهِ مُجْتَهِدُونَ مَعْدُورُونَ، فَأَمَّا مُخْطِئُونَ وَأَمَّا مُصِيبُونَ. وَهُمْ بِالْجُمْلَةِ
خَيْرُ الْبَشَرِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ.

أَلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يَعْتَقِدُ السَّلَفِيُّونَ أَنَّ أَلِ النَّبِيِّ هُمْ مِنْ أَفْضَلِ الْأُمَّةِ، وَقَدْ يَرَى الْبَعْضُ أَنَّ الْجَدَلَ الَّذِي يَحْدُثُ بَيْنَ السَّلَفِيَّةِ
وَالشَّيْعَةِ حَوْلَ أَلِ النَّبِيِّ أَنَّ ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى عَدَمِ تَقْدِيرِ السَّلَفِيَّةِ لِأَلِ مُحَمَّدٍ، وَهَذَا الْقَوْلُ لَيْسَ دَقِيقًا
وَصَحِيحًا، خَاصَّةً إِذَا رَجَعْنَا إِلَى مَصَادِرِ إِعْلَامِ السَّلَفِيَّةِ، نَجِدُهُمْ يَرَوْنَ الرِّوَايَاتِ فِي فَصَائِلِ أَلِ النَّبِيِّ،
وَيَرَوْنَ ذَلِكَ جُزْءًا مِنَ الدِّينِ. يَقُولُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ مَثَلًا: « وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ لِأَلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقًّا
عَلَى الْأُمَّةِ لَا يُشْرِكُهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ وَيَسْتَحِقُّونَ مِنْ زِيَادَةِ الْمَحَبَّةِ وَالْمَوَالَةِ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ سَائِرُ بَطُونِ قُرَيْشٍ ».
وَيَقُولُ عَنْ قَاتِلِ الْحُسَيْنِ: (وَأَمَّا مَنْ قَتَلَ الْحُسَيْنَ أَوْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِهِ أَوْ رَضِيَ بِذَلِكَ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ؛ لَا يُقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا)

مَفْهُومُ الْبِدْعَةِ وَمَوْقِفُهُمْ مِنْهَا

يُعْتَدُ السَّلَفِيَّةُ بِأَنَّ الْبِدْعَةَ هِيَ طَرِيقَةٌ فِي الدِّينِ مُخَرَّعَةٌ تَضَاهِي الشَّرِيعَةَ يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا مَا يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الشَّرْعِيَّةِ . مُسْتَشْهِدَيْنِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ . وَبِحَسَبِ هَذَا التَّعْرِيفِ فَمَنْ مَعَالَمِ الْعَقِيدَةِ السَّلَفِيَّةِ كَرَاهِيَّتُهُمْ لِمَا يُعْتَبَرُ بِهِ بَدْعًا . كَمَا يُبْغِضُ السَّلَفِيُّونَ مَنْ يُعْتَبَرُ بِهِمْ أَهْلُ الْبِدْعِ الَّذِينَ أَحْدَثُوا فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ وَقَدْ يَصِلُ مَوْقِفُهُمْ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ إِلَى هَجْرِهِمْ وَتَرْكِ مُجَالَسَتِهِمْ إِذَا كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَيْهَا ، وَيَحْذَرُونَ مِنْهُمْ وَمَنْ بَدَعَهُمْ وَلَا يَأْلُونَ جُهْدًا فِي نَصَحَتِهِمْ وَزَجْرِهِمْ عَنْ بَدْعِهِمْ .

الْحُكْمُ بِالشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

يُعْتَدُ السَّلَفِيَّةُ بِوُجُوبِ إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْحُكْمِ وَالتَّشْرِيعِ . وَإِنَّ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْوَارِدَةَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَاجِبَةَ التَّطْبِيقِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ حَسَبِ فَهْمِهِمْ لَهَا . وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ سِوَاءِ كَانَ حَاكِمًا أَوْ زَعِيمًا أَوْ ذَا سُلْطَانٍ أَوْ مَجْلِسًا تَشْرِيعِيًّا أَوْ أَيَّ شَكْلٍ مِنْ إِشْكَالِ السُّلْطَةِ فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ . وَلَكِنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ مَنْ كَانَ الْأَصْلُ عِنْدَهُ تَحْكِيمِ الشَّرِيعَةِ ثُمَّ حَادَ عَنْهَا لَهْوً أَوْ لِعَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ وَبَيْنَ مَنْ أَنْكَرَ أَصْلًا وَوُجُوبَ الْإِحْتِكَامِ إِلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَالَ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأَحْكَامِ الْوَضْعِيَّةِ . وَلِذَلِكَ يُعْتَدُ السَّلَفِيُّونَ أَنَّ الْأَيْدِيُولُوجِيَّاتِ الْعِلْمَائِيَّةِ الَّتِي تَحْكُمُ اللَّعْبَةَ السِّيَاسِيَّةَ فِي الْبُلْدَانِ .

الإسلامية هي أيديولوجيات غربية مستوردة وغريبه عن روح الإسلام وتعاليمه. ويرفضون الديمقراطية كظريه سياسية ويروجون لمصطلح الشورى» كبديل شرعي إسلامي لها. كما يرفضون كافة المذاهب السياسية العلمانية السائدة يمينيه كانت أو يسارية.

ولا يعارض السلفية الانتخابات كآلية للوصول إلى بعض المناصب ولكنهم يعترضون على بعض تفاصيلها مثل تركية المرشحين لأنفسهم وتساوي كافة أفراد المجتمع في أصواتهم أيًا كانت درجة علمهم وأنضباطهم السلوكي والأخلاقي. كما يعترضون على الأطر الأيديولوجية التي تتم فيها عمليات الانتخابات في سائر الدول الإسلامية. فذلك يعرف السلفيون عن المشاركة في أغلب عمليات الانتخابات في الدول العربية والإسلامية.

الفقه بين الاجتهاد والتقليد

يعتقد السلفية إن باب الاجتهاد كان ولا يزال مفتوحًا لأهل الاجتهاد والاستنباط على عكس بعض الفقهاء الذين زعموا أن باب الاجتهاد قد أغلق ولم يبق للمسلمين إلا التقليد. ويشترطون للمجتهد أن يستكمل شروط الاجتهاد العلمية من معرفة القرآن ونفسه وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وأسباب النزول ومعرفة الحديث النبوي ومعرفة الجرح والتعديل وعلم الرجال والتاسخ والمنسوخ فيه وأسباب ورود الحديث والمحكم والمتشابه والصحيح والسقيم ومعرفة علم أصول الفقه ومعرفة اللغة العربية نحوها وصرفها وبلغتها ومعرفة الواقع الذي تطبق عليه أحكام الشريعة وإن يكون ممن آتاه الله فطنة ودكاء. والسلفية يحاربون العصب للمذاهب الفقهية ويدعون لتلقي الأحكام مباشرة من الكتاب والسنة قدر المستطاع حتى لو خالف ذلك جميع الآراء المذهبية.

كَمَا يُحِيزُ السَّلَفِيَّةَ التَّقْلِيدَ فِي مَوَاطِنَ عَدَّةٍ مِنْهَا الْجَاهِلِ الْمُخْضِ الَّذِي لَا يُفْهَمُ الْمُقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ
وَالْحَدِيثِ . كَذَلِكَ الْمَسَائِلُ الْجَاهِدِيَّةُ الَّتِي لَيْسَتْ فِيهَا نَصٌّ مِنَ الْكِتَابِ أَوْ السُّنَّةِ نَصٌّ صَحِيحٌ صَرِيحٌ يَدُلُّ
عَلَى الْمَعْنَى بوضوحٍ فَتَخْتَلِفُ أَنْظَارُ الْعُلَمَاءِ وَأَقْهَامُهُمْ لِلنَّصِّ وَبَعْضُهُمْ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى قَضِيَّةٍ وَالْآخَرُ يُسْتَدَلُّ
بِهِ عَلَى عَكْسِ الْقَضِيَّةِ . فَهَذِهِ الْمَسَائِلُ الْجَاهِدِيَّةُ الْخِلَاقِيَّةُ أَيْضًا يَجُوزُ فِيهَا التَّقْلِيدُ . وَالسَّلَفِيَّةُ تَتَّبَعُونَ
الْمَذَاهِبَ الْفِقْهِيَّةَ الْمَعْرُوفَةَ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَيَكَادُ الْمَذْهَبُ الْحَنْبَلِيُّ أَنْ يَكُونَ مُقْصُورًا عَلَيْهِمْ .
كَمَا يَكْتُرُ بَيْنَهُمْ أَتْبَاعُ الْمَذَاهِبِ الْآخَرَى: الشَّافِعِيُّ وَالْمَالِكِيُّ وَالْحَنَفِيُّ . كَمَا يُبْعُ بَعْضُهُمُ الْمَذْهَبَ
الظَّاهِرِيِّ .

الْجِهَاد

يَعْتَقِدُ السَّلَفِيَّةُ إِنْ الْجِهَادُ بِمُوجِبِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هُوَ فَرِيضَةٌ كَفَايَةٌ قَدْ تَعَيَّنَ عَلَى أَهْلِ مَكَانٍ
مُعَيَّنٍ أَوْ زَمَنٍ مُعَيَّنٍ . وَأَنَّهَا فَرِيضَةٌ طَلَبُ وَدَفْعُ يَقْصَدُ بِهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ وَنَشْرُ كَلِمَتِهِ كَمَا يَقْصَدُ بِهَا الدَّفَاعُ
عَنِ الْمَقْدَسَاتِ الدِّيْنِيَّةِ وَعَنِ النَّفْسِ وَالْعَرَضِ وَالْمَالِ وَالْعَقْلِ . وَلِهَذَا فَقَدْ حَرَصَ أُمَّةُ السَّلَفِيَّةِ عَلَى الدَّعْوَةِ
إِلَى الْجِهَادِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ كَمَا قَامُوا بِأَدَاءِ وَاجِبِهِمُ الْجِهَادِيِّ بِنَفْسِهِمْ فِي مُقَاوَمَةِ أَعْدَاءِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .
وَمِنْ الْأُمْتَلَةِ الْمُعَاصِرَةِ عَلَى ذَلِكَ: الشَّيْخُ أَحْمَدُ عَرَفَانَ بَاعَثَ فِكْرَهُ الْجِهَادِ ضِدَّ الْإِنْجِلِيزِ فِي الْهِنْدِ
وَالشَّيْخُ عَزَّ الدِّينِ الْقَسَّامُ فِي فِلَسْطِينَ وَالشَّيْخُ جَمِيلُ الرَّحْمَنِ الْإِفْغَانِي أَوَّلُ مَنْ دُعِيَ لِلْجِهَادِ ضِدَّ
السُّوْفِيَّةِ فِي أَفْغَانِسْتَانَ . وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الْجِهَادَ شُرُوطًا وَضَوَائِبًا لَا يُمَكِّنُ مُبَاشَرَتَهُ إِلَّا بِتَوْفُرِهَا
فَإِنْ كَانُوا فِي حَالِ ضَعْفٍ وَعَدَمِ قُدْرَةٍ فَيَكْفُونَ أَيْدِيَهُمْ وَيَعْمَلُونَ بِآيَةِ الصَّبْرِ وَالصَّفْحِ وَيَكْتَفُونَ بِالْدَّعْوَةِ إِلَى
اللَّهِ بِاللِّسَانِ وَالْحُجَّةِ وَالْبَيَانَ كَمَا كَانَ حَالُ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ فِي مَكَّةَ .

عِلْمَ الْكَلَامِ

يُؤْمِنُ السَّلَفِيَّةُ بِأَنَّ عِلْمَ الْكَلَامِ هُوَ عِلْمٌ دَخِيلٌ عَلَى الْإِسْلَامِ اسْتَمَدَهُ أَوَائِلُ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنْ فَلَاسَفَةِ الْيُونَانِ وَحُكْمِهِ الْفَرَسِ . وَإِنَّ طَرِيقَهُ عُلَمَاءُ الْكَلَامِ كَالْحَدِيثِ عَنِ الْجَوَاهِرِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْحَادِثِ وَالْقَدِيمِ هِيَ طَرِيقَةٌ مُبْتَدَعَةٌ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا سَلَفٌ الْأُمَّةِ الصَّالِحِ وَلِذَا فَهَمُّ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ عِلْمَ الْكَلَامِ لَا يَصْلُحُ لِاسْتِبْطَاطِ أُصُولِ الدِّينِ وَمَعْرِفَةِ اللَّهِ وَإِنَّ النُّصُوصَ الْإِسْلَامِيَّةَ مِنْ قُرْآنٍ وَسُنَّةٍ نَبَوِيَّةٍ فِيهَا مَا يَكْفِي مِنَ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْبَرَاهِينِ الْمُنْطَقِيَّةِ لِمُجَادَلَةِ الْمُخَالِفِينَ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ .

ذَهَبَ بَعْضُ السَّلَفِيَّةِ إِلَى جَوَازِ اسْتِعْمَالِ عِلْمِ الْكَلَامِ فِي بَابِ الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْكَلَامِ وَلِدَفْعِ مَزَاعِمِهِمْ بِنَفْسِ طَرِيقَتِهِمْ وَإِنَّ التَّزَمُّوا بِطَرِيقَةِ السَّلَفِ فِي عَدَمِ الاسْتِدْلَالِ ابْتِدَاءً بِالْحُجَجِ الْكَلَامِيَّةِ لِإِثْبَاتِ الْحَقَائِقِ الشَّرْعِيَّةِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْحَافِظُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَالْحَافِظُ جَمَالُ الدِّينِ الْمَرْيُ . وَلَكِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ لَمْ تَلَقْ قَبُولًا عِنْدَ بَعْضِ السَّلَفِيَّةِ الَّذِينَ مَنَعُوا الْخَوْضَ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ مُطْلَقًا مِثْلُ الْحَافِظِ الذَّهَبِيِّ وَالْمُحَدِّثِ الْأَبَانِيِّ .

تَوْضِيحُ مُعْتَقَدِ اتِّبَاعِ السَّلَفِيَّةِ

زِيَارَةُ الْقُبُورِ

يُعْتَقِدُ السَّلَفِيَّةُ بِجَوَازِ زِيَارَةِ الْقُبُورِ لِلتَّعَاظِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَالتَّفَكُّرِ فِيمَا إِلَيْهِ الْمَالُ مِنْ مَوْتٍ وَحِسَابِ ، وَيُعْتَقِدُونَ أَنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ نُصُوصٌ صَحِيحَةٌ فِي الْحَثِّ عَلَى زِيَارَةِ الْقُبُورِ لِأَنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ ، وَلِكِنَّهُمْ يُمْنَعُونَ بَعْضَ الْمُمَارَسَاتِ الْمُعَلَّقَةِ بِالْقُبُورِ ، مِثْلَ إِقَامَةِ الْأَنْبِيَةِ وَالْمَسَاجِدِ وَالْإِضْرَاحَةِ عَلَيْهَا ، أَوْ الطَّوَافِ حَوْلَهَا ، أَوْ التَّوَجُّهِ بِالطَّلَبِ وَالدُّعَاءِ مِنَ الْمَوْتَى فِي قُبُورِهِمْ ظَنًّا أَنَّهُمْ يَقْضُونَ هَذِهِ الْحَوَائِجِ ، أَوْ التَّذَرُّ وَالذَّبْحَ عِنْدَهَا ،

أَوْ زيارَتِهَا فِي الْأَعْيَادِ، أَوْ إِقَامَةِ الْمَوَالِدِ عِنْدَهَا . وَيَعْتَقِدُ السَّلَفِيَّةُ إِنَّ كُلَّ هَذِهِ الْمُمَارَسَاتِ تَحْتَوِي عَلَى مُخَالَفَاتٍ شَرْعِيَّةٍ نَهَتْ عَنْهَا النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ الثَّابِتَةُ .

التَّوَسُّلُ

يَعْتَقِدُ السَّلَفِيَّةُ بِجَوَازِ التَّوَسُّلِ بِالْأَنْبِيَاءِ مِنْ عِدَّةِ وُجُوهِ، فَهُمْ يُجِيزُونَ التَّوَسُّلَ إِلَى اللَّهِ بِمَحَبَّتِهِمْ، وَبِاتِّبَاعِ تَعَالِيمِهِمْ، وَبِالْإِتِّبَادِ لَهُمْ وَطَاعَتِهِمْ فِيمَا بَلَّغَهُ عَنْ اللَّهِ . وَيُجِيزُونَ التَّوَسُّلَ إِلَى اللَّهِ بِدُعَائِهِمْ (أَيَّ بَطَلَبِ الدُّعَاءِ مِنْهُمْ فِي حَالِ حَيَاتِهِمْ)، وَالتَّوَسُّلِ بِطَلَبِ شَفَاعَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ مِنْ اللَّهِ . وَيَرُونَ بَعْدَ مَشْرُوعِيَّةِ التَّوَسُّلِ إِلَى اللَّهِ بِذَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ (كَأَنَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِفُلَانٍ، أَوْ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِحَقِّ فُلَانٍ، أَوْ بِجَاهِ فُلَانٍ)، عِبَادَةً غَيْرَ مَشْرُوعَةٍ لَمْ تُرَدِّ بِهَا نُّصُوصٌ صَحِيحَةٌ، وَإِنْ كَانُوا يَقْرُونَ بِأَنَّهَا مَسْأَلَةٌ خِلَاقِيَّةٌ لَا يَجُوزُ الْغُلُوفُ فِي الْإِنْكَارِ عَلَى فَاعِلِهَا، أَوْ تَكْفِيرِهِ . أَمَّا التَّوَسُّلُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ بَعْدَ وَفَاتِهِمْ، بِالتَّوَجُّهِ إِلَى قُبُورِهِمْ وَطَلَبِ قَضَاءِ الْحَاجَاتِ مِنْهُمْ ظَنًّا أَنَّهُمْ يَقْضُونَ هَذِهِ الْحَوَائِجَ، فَهُوَ مَا يُنْكَرُهُ السَّلَفِيَّةُ بِشِدَّةٍ، وَيَرُونَ أَنَّهُ غَيْرُ مَشْرُوعٍ، وَأَنَّهُ مُخَالَفٌ لِمُقْتَضِيَّاتِ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ .

الشَّفَاعَةُ

يُؤْمِنُ السَّلَفِيَّةُ بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَامَّةُ فِي أُمَّتِهِ، وَأَنَّهَا مُنْزَلَةٌ رَفِيعَةٌ خَصَّهَ اللَّهُ بِهَا دُونًَا عَنْ سَائِرِ الْخَلْقِ . وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالشَّفَاعَةِ هُوَ مِنْ الْأُمُورِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهَا، وَعَلِمْتُ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ .

التَّبَرُّكُ بِرَسُولِ الْإِسْلَامِ

يَعْتَقِدُ السَّلَفِيَّةُ بِجَوَازِ التَّبَرُّكِ بِكُلِّ مَا انفَصَلَ مِنْ جَسَدِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (كَشَعْرِهِ وَرِيقِهِ وَعَرَقِهِ) أَوْ مَا اتَّصَلَ بِهِ (كَتَوْبِهِ وَقَمِيصُهُ وَعِمَامَتُهُ)، إِنْ وُجِدَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا وَثَبَتَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ مُتَّصِلٍ، وَإِنْ هَذَا خَاصٌّ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَطْ، وَإِنْ هَذَا التَّنَوُّعُ مِنَ التَّبَرُّكِ لَمْ يُحْدِثْ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ. كَمَا أَنَّهُمْ لَا يُجِيزُونَ التَّبَرُّكَ بِالْأَحْجَارِ وَالْأَشْجَارِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

الِاحْتِفَالُ بِالْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ

يَعْتَقِدُ السَّلَفِيَّةُ إِنْ الِاحْتِفَالُ بِالْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ هُوَ أَمْرٌ مُبْتَدِعٌ غَيْرُ مَشْرُوعٍ، أَوَّلُ مَنْ قَامَ بِهِ هُمُ الْعَبِيدِيُّونَ (المَعْرُوفُونَ بِالْفَاطِمِيِّينَ). وَإِنْ الِاحْتِفَالُ بِالْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ لَمْ يَقُمْ بِعَمَلِهِ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَلِذَا فَهَمُّ يُتَكْرَمُونَ الِاحْتِفَالُ بِهِ وَيُنْهَوْنَ عَنْ إِقَامَتِهِ.

العُبُودِيَّةُ

فِي السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ، وَفَقَا لِبَعْضِ الْبَاحِثِينَ، كَانَ هُنَاكَ «إِعَادَةٌ فَتْحٌ» لِقَضِيَّةِ الْعُبُودِيَّةِ وَتَبْرِيرِهَا مِنْ قَبْلِ بَعْضِ عُلَمَاءِ السَّلَفِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُحَافِظَةِ بَعْدَ «إِعْلَاقِهَا» فِي وَقْتِ مُبَكَّرٍ مِنَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ عِنْدَمَا حَظَرَتِ الدُّوَلُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْعُبُودِيَّةُ، حَيْثُ وُجِدَ الْعَدِيدُ مِنَ الْفُقَهَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْمُمَارَسَةَ «تَعَارَضُ مَعَ الْأَخْلَاقِ الْقُرْآنِيَّةِ»

قَالَ الْفَقِيهُ السُّعُودِيُّ، الشَّيْخُ صَالِحُ الْفُورَانَ، فِي مُحَاضَرَةٍ: «الْعُبُودِيَّةُ جُزْءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ. الْعُبُودِيَّةُ جُزْءٌ مِنَ الْجِهَادِ، وَالْجِهَادُ سَيَنْتَقِي طَالَمَا يُوجَدُ الْإِسْلَامُ». وَوَصَفَ الْكِتَابُ الْمُسْلِمِينَ الْمَعَارِضِينَ لِلْعُبُودِيَّةِ عَلَى «أَنَّهُمْ جَاهِلُونَ، وَيَسُوءُ عُلَمَاءُ . . . وَمَنْ يَقُولُ إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ كَافِرٌ»

دافع مُحَمَّد قُطْب - شقيق رجل الدين الشهير ومؤسس جماعة الإخوان المسلمين سيد قُطْب - بقوة
 عن العبودية الإسلامية موضحاً أن الإسلام قد أعطى العبيد حقوقاً كثيرة وإن العبيد قد حصلوا في
 الإسلام على معاملة وحقوق لم يحصلوا عليها في أي مكان آخر من العالم، وأعطى مثلاً قارن فيه بين
 الزنا من جهة وبين العلاقة الشرعية والروحية التي قد تربط الجارية بسيدها في الإسلام.

الديمقراطية

الديمقراطية كلمة يونانية وهي مجموعة من كلمتين الأولى DEMOS ديموس وتعني عامة الناس أو
 الشعب والثانية KRATIA كراتيا وتعني حكم فمعناها حكم عامة الناس أو حكم الشعب.

يُعتبر السلفية إن نظام الديمقراطية نظام مخالف للإسلام حيث يجعل سلطة التشريع للشعب أو من يُؤوب
 عنهم كأعضاء البرلمان وعليه فيكون الحكم فيه لغير الله بل للشعب وتوابعه والعبارة ليست باجماعهم بل
 بالأكثرية ويصبح اتفاق الأغلبية قوانين ملزمة للأمة ولو كانت مخالفة للفطرة والدين والعقل ففي هذه النظم
 تم تشريع الإجهاض، وزواج المثليين، والفوائد الربوية، وإلغاء الأحكام الشرعية، وإباحة الزنا وشرب
 الخمر.

وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن الحكم له وحده، وأنه أحكم الحاكمين، ونهى أن يشرك به أحد في
 حكمه، وأخبر أن لا أحد أحسن منه حكماً. قال الله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ
 يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ١٢ غافر) وقال تعالى (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ
 سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ إِيَّاكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَنِينُ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠ يونس) وقال تعالى (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ٨) [التين وقال

تَعَالَى (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيِّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۚ) [الْكَهْفُ وَقَالَ تَعَالَى (أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوفُونَ ٥٠) [الْمَائِدَةُ: فَاللَّهُ هُوَ خَالِقُ الْخَلْقِ وَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَصْلِحُ لَهُمْ وَمَا يُضِلُّهُمْ مِنْ أَحْكَامٍ، وَالْبَشَرُ يَتَفَوَّتُونَ فِي الْعُقُولِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ، وَهُمْ يَجْهَلُونَ مَا يَصْلِحُ لَهُمْ فَضْلًا أَنْ يَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ بِمَا يَصْلِحُ لغيرِهِمْ.

مَبْدَأُ الْمَوَاطِنَةِ

يَعْتَمِدُ مَبْدَأُ الْمَوَاطِنَةِ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى حِمَايَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ وَالْحِفَاطِ عَلَى مُمْتَلِكَاتِهِمْ وَدُورِهِمْ، بِالْمُقَابِلِ يَجِبُ عَلَيْهِمْ حِمَايَةُ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي يَسْكُنُونَ مَعَهُمْ فِيهَا ؛ فَقَدْ ثَبَتَ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ أَنَّهُ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ الْيَهُودِ كَانَ يَكْفُلُ لَهُمْ حَقَّ الْعِبَادَةِ وَحَقَّ مُمَارَسَةِ شَعَائِرِهِمْ الدِّينِيَّةِ.

التَّوَاجِدُ

يُنْتَشِرُ السَّلَفِيَّةُ فِي مُخْتَلَفِ أُنْحَاءِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، فَيَتَوَاجَدُونَ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْيَمَنِ وَمِصْرَ وَالْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَشَمَالَ أُفْرِيْقِيَا وَالْمَلَايُو. وَتَبَنَى السُّعُودِيَّةُ الْفِكْرَ السَّلَفِيَّ بِشَكْلِ رَسْمِيٍّ، كَمَا أَنَّ فِي هَذِهِ الدُّوَلِ وَغَيْرِهَا جَمَاعَاتٌ وَجَمْعِيَّاتٌ تَبَنَى الْمُنْهَجَ السَّلَفِيَّ وَتَسْعَى لِتَنْشُرِهِ، مَثَلُ: جَمَاعَةُ أَهْلِ الْحَدِيثِ فِي بَاكِسْتَانَ وَالْهِنْدِ وَبَنْغَلَادِيَشَ وَبِيْبَالَ، وَجَمَاعَةُ الدَّعْوَةِ إِلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فِي أَفْغَانِسْتَانَ، وَالْجَمْعِيَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ فِي إِنْدُونِيْسِيَا وَسَنْغَاپُورِ وَمَالِيْزِيَا، وَجَمْعِيَّةُ أَنْصَارِ السُّنَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فِي مِصْرَ وَالسُّوْدَانَ وَآرِيْزِيَا وَجَمْعِيَّةُ إِحْيَاءِ التُّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْكُوَيْتِ وَجَمْعِيَّةُ دَارِ الْبَرِّ فِي دُبِي وَغَيْرِهِمْ.

وَفِي الْاَوْتَةِ الْاٰخِرَةِ بَدَأَ السَّلَفِيَّةَ بِاِتِّشَارِ بِشَكْلِ كَثِيْفٍ وَسَرِيْعٍ فِي جُمْهُوْرِيَّةِ دَاغِسْتَانَ الْوَاقِعَةُ فِي شَمَالِ الْقَوَاقِزِ الرُّوسِيَّةِ . وَاسَّسُوْا رَابِطَةَ عُلَمَاءِ اَهْلِ السُّنَّةِ فِي دَاغِسْتَانَ الَّتِي تَعْنِي بِشُؤْنِ الْمُسْلِمِيْنَ السَّلَفِيَّةِ بِجَانِبِ الْاِدَارَةِ الدِّيْنِيَّةِ لِمُسْلِمِي دَاغِسْتَانَ الَّتِي تُدِيْرُ الْمُنْشَاةَ الْاِسْلَامِيَّةَ وَائْتِمَةَ الْمَسَاجِدِ وَالِدُّعَاةَ الصُّوْفِيَّةِ .

تَأْثِيْرُ الدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ

اَثْرَتْ حَرَكَةُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ السَّلَفِيَّةِ عَلٰى سَائِرِ الْحَرَكَاتِ الْاِصْلَاحِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي الْعَالَمِ الْاِسْلَامِي فِي مُوَاجَهَةِ الْمُسْتَعْمِرِ الْغَرْبِي وَمِنْ ثَمَّ اَزْدَهَرَتْ الدَّعْوَةُ اِلَى الْعُوْدَةِ لِلْاَصُوْلِ الَّتِي قَامَتْ عَلَيْهَا الْحَضَارَةُ الْاِسْلَامِيَّةُ مِنْ خِلَالِ الدَّعْوَةِ اِلَى مَا يُسَمُّوْهُ بَدْعٍ وَالْخُرَافَاتِ الَّتِي اَدَّتْ اِلَى حَالَةِ الْجُمُوْدِ وَالْتَحَلُّفِ . وَتَاثَّرَ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ طَائِفَةٌ مِنْ الدُّعَاةِ الْاِصْلَاحِيِّيْنَ وَاخَذُوْا بِبَعْضِ مَبَادِيْهَا وَاِنْ ظَلَّتْ الْعَدِيْدُ مِنْ مُعْتَقِدَاتِهِمْ وَاِرَائِهِمْ السِّيَاسِيَّةَ وَالدِّيْنِيَّةَ مُخَالَفَةً لِلْمَنْهَجِ السَّلَفِيِّ التَّقْلِيْدِي الْمَعْرُوْفِ . وَمِنْ اَبْرَزِ هُوْلَاءِ الدُّعَاةِ الشَّيْخُ حَسَنُ الْبَنَّا . وَحَرَكَتِهِ الْاِصْلَاحِيَّةَ الْمَعْرُوْفَةَ بِجَمَاعَةِ الْاِخْوَانَ الْمُسْلِمِيْنَ .

الدَّعْوَةُ السَّلَفِيَّةُ بِالْاِسْكَندَرِيَّةِ

نَشَأَتْ الدَّعْوَةُ السَّلَفِيَّةُ بِالْاِسْكَندَرِيَّةِ فِي سَبْعِيْنِيَّاتِ الْقَرْنِ الْمَاضِي بَيْنَ عَامِي 1972 - 1977 عَلَى اَيْدِي مَجْمُوْعَةٍ مِنْ الطَّلَبَةِ الْمُتَدِيْنِيْنَ ، كَانَ اَبْرَزُهُمْ مُحَمَّدُ اِسْمَاعِيْلُ الْمُقَدَّمُ ، وَاحْمَدُ فَرِيْدُ ، وَسَعِيْدُ عَبْدِ الْعَظِيْمِ ، وَمُحَمَّدُ عَبْدِ الْفَتَّاحِ اَبُو اِدْرِيسَ ، ثُمَّ يَاسِرُ بَرْهَامِي وَاحْمَدُ حَطِيْبِهِ فِيْمَا بَعْدُ ، التَّقَوُّوا جَمِيْعًا فِي كَلِيَّةِ الطَّبِّ بِجَامِعَةِ الْاِسْكَندَرِيَّةِ ، اِذْ كَانُوْا مُنْضَوِيْنَ فِي تِيَارِ الْجَمَاعَةِ الْاِسْلَامِيَّةِ الَّذِي كَانَ مَعْرُوْفًا فِي الْجَامِعَاتِ الْمِصْرِيَّةِ فِي السَّبْعِيْنِيَّاتِ اَوْ مَا عُرِفَ بِالْفَتْرَةِ الذَّهِيْبِيَّةِ لِلْعَمَلِ الطَّلَابِي فِي مِصْرَ . .

رَفُضُوا جَمِيعًا الْأَنْضَمَامِ إِلَى جَمَاعَةِ الْأَخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ تَأْتِرًا بِالْمَنْهَجِ السَّلَفِيِّ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِمْ عَنْ طَرِيقِ
الْمُطَالَعَةِ فِي كُتُبِ التَّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ، وَمُجَالَسَةِ شُيُوخِ السَّلَفِيَّةِ، ثُمَّ تَأْتِرُهُمْ بِدَعْوَةِ مُحَمَّدٍ إِسْمَاعِيلَ
الْمُقَدَّمِ، الَّذِي كَانَ قَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الْمَنْهَجِ السَّلَفِيِّ مِنْ خِلَالِ سَمَاعَةِ لِشُيُوخِ جَمْعِيَّةِ أَنْصَارِ السُّنَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ
مُنْذُ مُنْصَفِ السَّنِيَّاتِ، وَقِرَاءَاتِهِ لِكُتُبِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَابْنِ الْقَيْمِ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ وَغَيْرِهِمْ.
وَبِمُرُورِ الْوَقْتِ تَكَوَّنَتِ التَّوَاةُ الْأُولَى لِلشَّبَابِ السَّلَفِيِّينَ تَحْتَ اسْمِ الْمَدْرَسَةِ السَّلَفِيَّةِ عَامِ 1977 بَعْدَ
انْسِحَابِ هَؤُلَاءِ الطُّلَّابِ الْمُتَأَثِّرِينَ بِالْمَنْهَجِ السَّلَفِيِّ مِنَ الْجَمَاعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، الَّتِي هَيَمَنَ عَلَيْهَا طُلَّابُ
الْأَخْوَانِ وَقَرَضُوا مِنْهُمْ، حَيْثُ شَرَعَ مُحَمَّدٌ إِسْمَاعِيلُ فِي تَأْسِيسِ التَّوَاةِ الْأُولَى مِنْ خِلَالِ دَرْسِ عَامٍ
كَانَ يُقْبِهِ كُلُّ يَوْمٍ خَمِيسٍ فِي مَسْجِدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِالْأَبْرَاهِيمِيَّةِ، وَكَانَ هَذَا الدَّرْسُ بِمَثَابَةِ الْمُلْتَقَى
الْأُسْبُوعِيِّ لِهَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ الصَّغِيرَةِ إِلَى جَانِبِ حَلْقَةِ أُخْرَى بِمَسْجِدِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ فِي بُولَكَلِي صَبَاحَ
الْجُمُعَةِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَ الْمُقَدَّمِ أَحَدٌ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ غَيْرَ زَمِيلِهِ أَحْمَدَ فَرِيدَ، الَّذِي يُحْكِي فِي مُذَكَّرَاتِهِ عَنْ
هَذِهِ الْفَتْرَةِ، قَائِلًا: «كَانَ الْحُضُورُ فِي هَذِهِ الْحَلْقَةِ لَا يَبْجَاوِزُ عَشْرَةَ أَفْرَادٍ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَنَا أَحَدٌ مِنْ قَادَةِ
الدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ الْآنَ، وَكَانَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ يُحْفَظُنَا مِنْ الْعَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ، وَكَذَا تُحْفَظُ الْأَطْفَالُ، وَكَلَّفَنِي
بِتَدْرِيسِ كِتَابِ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ

الْقُطْبِيَّةُ وَالسُّرُورِيَّةُ

وَمَنْ أُنْبِرُزُ الْمُتَأَثِّرِينَ بِالدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ كَذَلِكَ الْأَدِيبُ وَالْمُفَكِّرُ الْمُضْرِي سَيِّدُ قُطْبٍ وَلَكِنْ تَأَخَّرَ التَّرَاثُ
بِالْمَنْهَجِ الْإِسْلَامِيِّ وَطُولِ فَرَاتِ اعْتِقَالِهِ مَعَ اعْتِقَالِ صِحَّتِهِ وَمَرَضِهِ حَالٍ دُونَ تَعْرِفِهِ عَلَى الْمَنْهَجِ السَّلَفِيِّ
بِشَكْلِ كَامِلٍ مَا أَدَّى لِمُخَالَفَتِهِ لِلسَّلَفِيَّةِ فِي بَعْضِ الْقَضَايَا الْفِكْرِيَّةِ وَالْإِعْتِقَادِيَّةِ. وَتَأَثَّرَ بِفِكْرِ سَيِّدِ قُطْبٍ

وَحَمَلَ رَأْيَهُ الْعَدِيدَ مِنْ نُشْطَاءِ الْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ وَمِنْهُمْ أَيْمَنُ الظَّوَاهِرِيِّ الَّذِي أُسِّسَ فِي مِصْرٍ حَرَكَةَ الْجِهَادِ
 الْإِسْلَامِيِّ وَاعْتِمَادًا عَلَى آرَاءِ كُلِّ مَنْ سَيِّدَ قُطْبٍ وَمُحَمَّدَ سُرُورَ زَيْنِ الْعَابِدِينَ الْفِكْرِيَّةَ وَنَظَرَتِهِمْ لِلْمُجْتَمَعِ
 الْمُسْلِمِ وَنَظَرَاتِ حَسَنِ الْبَنَّا الْحَرَكِيَّةِ ذَاتِ التَّوَجُّهِ الدِّيْنِيِّ نَشَأَ تَيَّارٌ عَرِيضٌ يَدْعُو لِلْجِهَادِ ضِدَّ كُلِّ أَعْدَاءِ
 الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَيُجْعَلُ مِنْهُ قَضِيَّتَهُ الرَّئِيسِيَّةَ وَشَغَلَهُ الشَّاغِلُ . كَمَا يَدْعُو لِلثَّوْرَةِ عَلَى جَمِيعِ التَّنْظِمِ الْحَاكِمَةِ
 فِي مُخْتَلَفِ الْأَقْطَارِ الْمُسْلِمَةِ وَيَذْهَبُ لِتَأْيِيمِ جَمِيعِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ لِقُعودِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ وَدُحْرِ الْغَزَاةِ
 وَالْمُعْتَدِينَ . وَيُعْتَبَرُ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ عَزَّامٌ هُوَ مُؤَسِّسُ هَذَا التَّوَجُّهِ مِنْ خِلَالِ جِهَادِهِ ضِدَّ السُّوفِيَّةِ فِي
 أَفْغَانِسْتَانَ . وَتَأَثَّرَ بِهِ الْعَدِيدُ مِنْ شَبَابٍ وَشُبُوحِ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَمِنْ أَبْرَزِهِمُ الْمِلْيَارْدِيرُ السُّعُودِيُّ
 السَّابِقُ أَسَامَةَ بْنِ لَادَنْ ، مُؤَسِّسُ نَظْمِ الْقَاعِدَةِ .

السَّلَفِيَّةُ الْجِهَادِيَّةُ

وَلَمْ يُسَلِّمْ هَذَا التَّيَّارُ مِنْ اِتِّقَادَاتِ دَعَاةٍ وَعُلَمَاءِ السَّلَفِيَّةِ فَاتَّهَمُوهُمْ بِأَنَّهُمْ تَعَاَضُوا عَنِ الدَّعْوَةِ لِلتَّوْحِيدِ
 وَتَرَسَّخَ الْعَقِيدَةُ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُمْ أَخْطَؤُوا فِي دَعْوَتِهِمْ لِلثَّوْرَةِ عَلَى التَّنْظِمِ الْحَاكِمَةِ وَاعْتَمَدُوا فِي
 جِهَادِهِمْ عَلَى بَعْضِ الْفَتَاوَى وَالتَّطْبِيقَاتِ الْخَاطِئَةِ . كَمَا ظَهَرَتْ جَمَاعَاتٌ مَسْلِحَةٌ وَصَفَتْ بِالْأَرْهَابِيَّةِ
 وَتَرَعَّمُ أَنَّهُ تَرْتَبَطُ بِالسَّلَفِيَّةِ عَلَى صَعِيدِ الْاِتِّسَابِ لِلسَّلَفِ لِكُنْهَافِ تَمَيِّزِ بِنُكْفِيرِ كُلِّ مَنْ يُخَالِفُ عَقِيدَتَهَا
 وَتَسْتَبِيحُ قَتْلَهُ كَمُرْتَدٍ لَذَا يُعْتَبَرُهَا الْبَعْضُ أَنَّهُ تَسْعَى لِتَبْيِيزِ صُورَتِهَا إِمَامِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ خِلَالِ نَسَبِ
 نَفْسِهَا لِلسَّلَفِ فِي حِينِ يُدَافِعُ السَّلَفِيَّةَ عَنْ مَنْهَجِهِمْ بِأَنَّهُ وَسَطِيٌّ لَيْسَ بِهِ تَكْفِيرٌ وَلَا تَفْجِيرٌ . يَرَى الْكَثِيرُ مِنْ
 الْمُحَلِّلِينَ أَنَّ هَذِهِ التَّرَعُّعَةَ التَّكْفِيرِيَّةَ الْجِهَادِيَّةَ تَنَجُّثٌ لِأَسْبَابِ سِيَاسِيَّةِ أَهْمَتِهَا الْاِمْرِيكِيَّةِ عَلَى الْعَالَمِ
 وَدَعْمَتِهَا لِإِسْرَائِيلَ فِي الصَّرَاحِ الْعَرَبِيِّ الْاِسْرَائِيلِيَّ بِالْإِضَافَةِ لِاعْتِقَادِهِمْ بِأَنَّ الْحُكُومَاتِ الْعَرَبِيَّةَ عُمَيْلَةٌ لِلْغَرْبِ

المُتمثل في أمريكا مما دفعهم لاغتناق ذلك الفكر الجهادي كنوع من المقاومة والنضال ضد الهيمنة الغربية.

من أبرز الإشكاليات التي أحاطت بعلاقة تلك الجماعات الجهادية بالحكومات تتمثل في تجارب اشتباك تلك الحركات مع بعض الحكومات اشتباكا إيجابيا يقترب كثيرا من التحالف أو الأندماج مثلما حدث في السودان من عام 1992م إلى عام 1996م ثم في أفغانستان من عام 1996م إلى عام 2001م وبينهما تجربة جبهة الإنقاذ في الجزائر غير أن هذه التجارب لم تتعرض للفحص الدقيق أو الدراسة المستفيضة حول معطياتها ونتائجها حتى الآن. وفي المقابل التزم اتباع التيار السلفي التقليدي بالمنهج النصي للسلفية والالتزام بنموذج السلف الصالح كنموذج متكامل يحد ذاته وهو السبيل الوحيد لتقدم أمة المسلمين في كل زمان ومكان.

انقسامات السلفية

منذ بداية القرن الـ 20 انقسمت السلفية إلى عدة أجزاء وأهمها السلفية العلمية (1920) والسلفية الجهادية (1979) والسلفية السُورورية (1984) والسلفية الجامية (1990) كما أنه توجد انقسامات أخرى لكنها جميعها تندرج تحت هذه التيارات الأربعة الرئيسية منها السلفية المدخلية والسلفية الألبانية (نسبة إلى الإمام ناصر الدين الألباني) وتُعرف أيضا بالسلفية الأزدية أحيانا والسلفية البازية (نسبة إلى الإمام عبد العزيز بن باز) والسلفية العثيمينية (نسبة إلى الإمام بن عثيمين) والسلفية الكويتية (بقيادة عبد الرحمن عبد الخالق) والسلفية التجديدية والسلفية الأمريكية (نسبة إلى المنحازين للتوجه الأمريكي العالمي) وأخيرا السلفية الوهابية (نسبة لمحمد بن عبد الوهاب .).

السَّلَفِيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ

السَّلَفِيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ هِيَ ذَلِكَ النَّيَّارُ السَّلَفِيُّ الَّذِي يَهْتَمُّ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ بِالتَّوَّاجِيهِ التَّعْلِيمِيَّةِ الْمُرتَبِطَةِ بِعُلُومِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ؛ لِذَلِكَ فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَالدَّعَاةَ الْمُنتَسِبِينَ لِلاتِّجَاهِ السَّلَفِيِّ الْعِلْمِيِّ يَرْكُزُونَ جُهُودَهُمْ فِي تَنْشِئِهِ جِيلٍ جَدِيدٍ مِنَ الشَّبَابِ الْمُسْلِمِ الْمُلتَزِمِ دِينِيًّا، وَيُطَلِّقُونَ عَلَى ذَلِكَ الْمَنْهَجِ اسْمَ التَّصْفِيَّةِ وَالتَّرْبِيَّةِ وَهُوَ مَا يَعْرِفُهُ الشَّيْخُ الْأَبْنَابِيُّ بِكُونِهِ تَصْفِيَّةَ الْإِسْلَامِ مَا دَخَلَ عَلَيْهِ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ، مِنَ الشَّرْكِ وَالشُّعُودَةِ وَالسَّحْرِ وَالْخُرَافَاتِ وَالدَّبَعِ وَتَفَاسِيرِ الْقُرْآنِ الْبَاطِلَةِ وَالْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ الْمَكْذُوبَةِ، وَالإلتِزَامِ بِالإِسْتِقَامَةِ وَالتَّمَتُّعِ بِالأَخْلَاقِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الصَّدَقِ وَالأَمَانَةِ وَالْوَفَاءِ بِالعَهْدِ وَالتَّبَرُّ وَالصَّلَةِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْأَدَابِ الشَّرْعِيَّةِ .

وَمَنْ أَهَمَّ الْجَمَاعَاتِ السَّلَفِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي حَاوَلَتْ تَطْبِيقَ ذَلِكَ الْمَنْهَجِ جَمَاعَةُ الشَّيْخِ مُقْبِلِ الْوَادِعِيِّ فِي الْيَمَنِ وَجَمَاعَةُ أَنْصَارِ السُّنَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فِي مِصْرٍ . وَبِحَسَبِ بَعْضِ الْخُبْرَاءِ يُوجَدُ رَافِدَانِ أَسَاسِيَّانِ لِلاتِّجَاهِ السَّلَفِيِّ الْعِلْمِيِّ الْمُعَاصِرِ: الإِتِّجَاهُ الْأَوَّلُ هُوَ الشَّيْخُ نَاصِرُ الدِّينِ الْأَبْنَابِيُّ الْمُعْرُوفُ بِشُهْرَتِهِ فِي تَدْرِيسِ عُلُومِ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، وَالاتِّجَاهُ الثَّانِي يَمْتَثِلُ فِي شُيُوخِ السُّعُودِيَّةِ مِنْ أُمَّثَالِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ بَازٍ وَالشَّيْخِ ابْنِ الْعَثِمِينَ وَاللَّذِينَ اشْتَهَرَا بِعِلْمِهِمَا الْعَزِيزِ فِي مَسَائِلِ الإِعْتِقَادِ وَالتَّوْحِيدِ وَالأَصُولِ، وَمَنْ هَدَى الإِتِّجَاهَيْنِ نَهْلَ جَمِيعِ الشُّيُوخِ السَّلَفِيِّينَ الْعِلْمِيِّينَ الْمُعَاصِرِينَ فِي شَتَّى الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ فَالشَّيْخُ أَبِي إِسْحَاقَ الْحُوَيْتِيَّ مَثَلًا، وَهُوَ أَحَدُ أَهَمِّ وَأَشْهَرِ رُؤُوسِ السَّلَفِيَّةِ فِي مِصْرٍ، دَرَسَ عِلْمَ الْحَدِيثِ عَلَى يَدِ الشَّيْخِ الْأَبْنَابِيِّ . وَشُيُوخُ الدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ بِالإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنْ أُمَّثَالِ يَاسِرِ بَرْهَامِي وَمُحَمَّدِ إِسْمَاعِيلِ الْمُقَدَّمِ وَغَيْرِهِمَا تَأَثَّرُوا كَثِيرًا بِشُيُوخِ السُّعُودِيَّةِ .

وَتُعْتَبَرُ السَّلَفِيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ مِنْ أَكْثَرِ أَمْطِ وَأَطْيَافِ السَّلَفِيَّةِ ائْتِشَارًا فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ عُمُومًا وَالذُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ خُصُوصًا فَامْتَّازَ مِنْهَجُهَا التَّقْلِيدِيَّ بِالْبُعْدِ عَنِ أُمُورِ السِّيَاسَةِ مِنْ جِهَةِ وَاللِّزَامِ بِالْمَنَاهِجِ التَّرْبَوِيَّةِ الدَّعْوِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي وَفَّرَ لَهَا إِمْكَانِيَّةَ التَّوَسُّعِ وَالِائْتِشَارِ دُونَ الدُّخُولِ فِي صِدَامٍ مَعَ الدَّوَلَةِ. لَكِنْ حَدَثَ انْحِرَافٌ عَنِ ذَلِكَ الْخَطِّ التَّقْلِيدِيَّ فِي الْفُرْقَةِ الَّتِي أُعْقِبَتْ ثَوْرَاتُ الرَّبِيعِ الْعَرَبِيِّ، إِذْ بَدَأَتْ بَعْضُ الْجَمَاعَاتِ السَّلَفِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ فِي ائْتِهَاجِ مُنْهَجِ حَرَكِي سِيَّاسِيٍّ، فَشَارَكَتْ فِي الْاِئْتِخَابَاتِ النَّيَابِيَّةِ وَالرِّيَاسِيَّةِ وَشَكَلَتْ أَحْزَابًا سِيَّاسِيَّةً. وَمِنْ أَهَمِّ الْأُمُثَلِ عَلَى ذَلِكَ جَمَاعَةُ الدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فِي مِصْرٍ، الَّتِي ائْتَبَقَ عَنْهَا حِزْبُ الثَّوْرِ وَالَّذِي كَانَ لَهُ حُضُورٌ وَاسِعٌ فِي الْمَشْهَدِ السِّيَاسِيِّ الْمِصْرِيِّ فِي مَا بَعْدَ ثَوْرَةِ 25 يُونَيْو 2011

السَّلَفِيَّةُ الْجِهَادِيَّةُ

السَّلَفِيَّةُ الْجِهَادِيَّةُ يُعْتَبَرُ مَفْهُومَ الْحَاكِمِيَّةِ مِنْ أَهَمِّ الْمَفَاهِيمِ الْمُرَكَّبَةِ الْمُؤَسَّسَةِ لِفِكْرِ السَّلَفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ، وَالْمَقْصُودُ بِالْحَاكِمِيَّةِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ لَهُ الْحَقُّ فِي الْحُكْمِ، وَقَدْ اسْتَنَدَ الْجِهَادِيُّونَ لِلْعَدِيدِ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَعَرَّضَتْ لِمَفْهُومِ الْحَاكِمِيَّةِ؛ وَمِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ». وَيُظْهِرُ مَفْهُومَ الْحَاكِمِيَّةِ بِشَكْلٍ وَاضِحٍ فِي كِتَابَاتِ الْعَدِيدِ مِنْ مُنْظَرِي الْجِهَادِيَّةِ الْمُعَاصِرِينَ، وَلَعَلَّ أَوَّلَ هَؤُلَاءِ وَأَهْمُهُمْ هُوَ سَيِّدُ قُطْبِ الَّذِي تَوَسَّعَ فِي شَرْحِهِ لِمَفْهُومِ الْحَاكِمِيَّةِ فِي كِتَابِهِ فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ وَالَّذِي جَاءَ فِيهِ: «أَنَّ التَّصَوُّرَ الْإِسْلَامِيَّ يُؤَكِّدُ عَلَى أَنَّ الْاِتِّجَاهَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ. وَعَنْ هَذَا التَّصَوُّرِ نَشَأَ الْحَاكِمِيَّةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.» وَيُرْتَبِطُ بِالْحَاكِمِيَّةِ مَفْهُومٌ آخَرَ لَا يَقِلُّ عَنْهُ أَهْمِيَّةً فِي الْعَقْلِيَّةِ الْجَمْعِيَّةِ لِلْسَّلَفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ وَهُوَ مَفْهُومُ الْجَاهِلِيَّةِ، فَبِحَسَبِ آرَاءِ مُنْظَرِي الْجِهَادِيَّةِ وَمِنْهُمْ مُحَمَّدُ عَبْدُ

السَّلامِ فَجِ فِي كِتَابِهِ الْجِهَادِ الْفَرِيضَةُ الْغَائِبَةُ أَنَّ الْمُجْتَمَعَ الْمُسْلِمَ يَجِبُ أَنْ يُنْصَاعَ لِحُكْمِ اللَّهِ بِشَكْلِ كَامِلٍ،
وَيُرْتَضَى أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَيُعْمَلُ بِهَا جَمِيعًا بِدُونِ اسْتِثْنَاءٍ، وَأَنَّهُ فِي حَالَةِ رَفْضِ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ
الْحُكَّامِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ قِتَالُهُمْ لِكُونِهِمْ فِي رَدِّهِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَتَرْبِوَا عَلَى مَوَائِدِ الْاسْتِعْمَارِ. فَهُمْ لَا يَحْمِلُونَ مِنْ
الْإِسْلَامِ إِلَّا الْأَسْمَاءَ وَإِنْ صَلَّوْا وَصَامُوا وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ.

وَمِنْ أَهَمِّ الْجَمَاعَاتِ السَّلَفِيَّةِ الَّتِي انْتَسَبَتْ إِلَى الْفِكْرِ السَّلَفِيِّ الْجِهَادِيِّ الْجَمَاعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي مِصْرٍ الَّتِي
قَامَ عَنَّا صِرْهَا بِتَنْفِيذِ الْعَدِيدِ مِنْ عَمَلِيَّاتِ الْأَعْيَالِ فِي ثَمَانِيَّاتٍ وَتَسْعِينِيَّاتِ الْقُرُونِ الْيَاضِي، قَبْلَ أَنْ يُعْلَنَ
قَادَةَ الْجَمَاعَةِ التَّرَاجُعِ عَنِ مَوْقِفِهِمُ الْمَعَادِي لِلدَّوْلَةِ، وَيُطَالَبُونَ اتِّبَاعَهُمْ بِتَرْكِ السَّلَاحِ وَالِاتِّجَاهِ لِلْعَمَلِ
السِّيَاسِيِّ السَّلْمِيِّ عَامَ 1995. كَذَلِكَ، فَإِنَّ تَنْظِيمَ قَاعِدَةِ الْجِهَادِ وَالْمَعْرُوفِ إِعْلَامِيًّا بِاسْمِ تَنْظِيمِ الْقَاعِدَةِ
يُعْتَبَرُ وَاحِدًا مِنْ أَهَمِّ تَجَلِيَّاتِ السَّلَفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ الْمَعَاصِرَةِ، فَقَامَ هَذَا التَّنْظِيمُ بِالْعَدِيدِ مِنَ الْعَمَلِيَّاتِ
الْعُسْكَرِيَّةِ دَاخِلِ الدَّوْلِ الْعَرَبِيَّةِ وَخَارِجِهَا، وَلَعَلَّ حَادِثَةَ تَفْجِيرِ بُرْجِي مَرْكَزِ التَّجَارَةِ الْعَالَمِيِّ فِي أَمِيرِكَا فِي
II سِبْتَمْبَرِ 2001 أَشْهُرَ تِلْكَ الْعَمَلِيَّاتِ وَأَكْثَرَهَا تَأْثِيرًا وَصَحْبًا. كَمَا أَنَّ تَنْظِيمَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي بِلَادِ
الْعِرَاقِ وَالشَّامِ يُعْتَبَرُ الْإِصْدَارَ الْأَكْثَرَ حَدَاثَةً لِلْفِكْرِ السَّلَفِيِّ الْجِهَادِيِّ. وَرَغْمَ اتِّحَادِ جَمِيعِ تِلْكَ التَّنْظِيمَاتِ
فِي الْأَهْدَافِ الْفِكْرِيَّةِ الْعُلْيَا «الْحَاكِمِيَّةِ وَقِتَالِ الدَّوْلَةِ الَّتِي لَا تُطَبِّقُ الشَّرِيعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ» إِلَّا أَنَّهُ يُوجَدُ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ بَعْضِهَا الْعَدِيدِ مِنَ التَّنَاقُضَاتِ وَالِاخْتِلَافَاتِ الْفِكْرِيَّةِ.

السَّلَفِيَّةُ السُّرُورِيَّةُ

تُعْتَبَرُ السَّلَفِيَّةُ السُّرُورِيَّةُ نَمُودَجًا مِثَالِيًّا لِتَطَوُّرِ وَتَشَابُكِ الْعَلَاقَاتِ دَاخِلِ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، كَمَا يُعَدُّ
أَنْعَاسًا حَقِيقِيًّا لِتَأْثَرِ الْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِبَعْضِهَا، وَقَدْ نَشَأَتْ السُّرُورِيَّةُ بَيْنَ تَيَارَيْنِ أَحَدُهُمَا يَبْتَنِي

الجانب الحركي ويمثل في جماعة الإخوان المسلمين كجماعة سياسية ساطويه تجعل الجانب العلمي في مرحلة متأخرة عن الجانب الحركي وتقدم السياسة على الدعوة، وبين تيار السلفية العلمية الذي يستند إلى الجانب العقدي ويؤمن بأهمية تغليب الشرع على المصلحة أيا كانت، وفي الغالب لا يخرج هذا التيار عن طاعة الحاكم، فلا تجد له ذكرا في مغالبة الحكام في أمور السياسة، فهم يسرون وفق منهج إسلامي يدعو إلى تقديم الكتاب والسنة وفق سلف الأمة. بين هذين الاتجاهين ظهر التيار السُروري ليجمع بين الجانب الحركي لدى جماعة الإخوان المسلمين خاصة التيار القطبي الذي يُعبر سيد قطب منظره وموجهه الأول وبين السلفية العلمية المحافظة التي تبنى منهج ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب.

كما لعبت السُرورية دورا بارزا فيما يُسمى ثورات الربيع العربي خاصة في دعم الثورة السورية وتحول عدد كبير من أتباع السُرورية للعمل مع الجماعات المسلحة، ووقع عدد من رموز التيار السُروري منهم سلمان العودة على البيان الختامي الذي عقده المجلس التسيقي الإسلامي العالمي «مساع» تحت عنوان «موقف علماء الأمة تجاه القضية السورية»، وقد استجاب الكثير من شباب التيار الإسلامي لهذا البيان وتشكلت منهم أغلب الجماعات المسلحة المتصارعة في سوريا والعراق، ويسيطر السُرورية اليوم على عدد كبير من المراكز والجمعيات الإسلامية والفنوت الفضائية في الكثير من الدول الإسلامية.

السلفية الجامية

على التقيض التام من السلفية الجهادية تأتي السلفية الجامية، فإذا كانت الأولى ترى تكفير الحاكم المسلم الظالم وضرورة الخروج بالسيف والسلاح عليه، فإن الثانية ترى حتمية طاعته والصبر على أحكامه

الجائزة. ويُنسب هذا الاتجاه إلى الشيخ محمد أمان الجامي كما يُعرف هذا الاتجاه في بعض الأحيان باسم «السلفية المدخلية» نسبةً إلى الشيخ ربيع بن هادي المدخلي الذي كان من أبرز تلاميذ الشيخ الجامي. وقد ظهر هذا التيار أول ما ظهر في السعودية، فمع اجتياح قوات صدام حسين للكويت عام 1990 قامت السلطات الحاكمة باستدعاء قوات أمريكية للوقوف في وجه الجيوش العراقية التي كان من المحتمل تقدمها في الأراضي السعودية. وأثارت تلك الخطوة غضب العديد من الشيوخ والمدنيين داخل السعودية وخارجها، إذ رأوا فيها مخالفة للنصوص الدينية التي تنهى عن إدخال المشركين لجزيرة العرب، وإمام تلك الظروف تعالت أصوات الشيخ الجامي وتلاميذه وأتباعه، للإنكار على المعترضين، واتهمتهم بمعصية أولي الأمر والخروج عن الحاكم الشرعي المفترض الطاعة.

ورغم أن التيار السلفي الجامي أو المدخلي لم يظهر كتيار مستقل ومتميز إلا في فترة زمنية قريبة نسبيًا، إلا أن ذلك التيار اعتمد في أسسه وأصوله على تراث هائل من الأدبيات الإسلامية التي تشمل تأويلًا تعسفيًا للعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تلك التي شرعنت حكم الحاكم الظالم وأخرجت المجتمع والشعب من معادلة الاختيار السياسي للسلطة التي تحكمه. وقد توسعت أفكار الجامية المدخلية في الكثير من البلاد العربية. ففي مصر نجد أن عددًا من الشيوخ الذين تأثروا بأفكارها ومبادئها من أمثال أسامة القوصي ومحمد سعيد رسلان ومحمود لطفي عامر واستطاع هؤلاء تكوين قواعد شعبية واسعة لهم. وقد لعب السلفيون الجاميون دورًا مهمًا، بعد ثورات الربيع العربي فكان لهم دور كبير في أفشال تلك الثورات بعدما أذاعوا مبدأ البعد عن السياسة وترك الدولة للساسه

وَرِجَالُ الْحُكْمِ وَتَحْرِيمُ الْمَشَارَكَةِ فِي الْعَمَلِيَّةِ الْأَنْتِحَابِيَّةِ الدِّيْمُوقْرَاطِيَّةِ وَالتَّأْكِدُ عَلَى عَدَمِ شَرْعِيَّةِ
المُعَارِضَةِ وَالْاِخْتِجَاجَاتِ الْمُنَاهِضَةِ لِلْحَاكِمِ .

حَدَّدَ الدُّكُورُ مُحَمَّدُ السَّعِيدِيُّ أَسَازَ الفِئْهَةِ وَأُصُولَهُ فِي جَامِعِهِ أُمِّ القُرَى بِمَكَّةِ الْمُكْرَمَةِ مَسَارِينَ
لِاِخْتِلَافَاتِ السَّلَفِيَّينِ وَأَنْقَسَامَاتِهِمْ

المَسَارُ الْأَوَّلُ يَبْعُ فِي دَائِرَةِ مَا يُجُوزُ الْخِلَافُ فِيهِ كَمَا هُوَ حَاصِلٌ بَيْنَ السَّلَفِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْحَرَكِيَّةِ، فَكُنَّا
خِلَافَاتِهِمَا إِنَّمَا تَكُونُ فِي أُسْلُوبِ التَّعَامُلِ مَعَ الْوَاقِعِ، إِذْ تَرَى الْعِلْمِيَّةُ الْاِكْتِفَاءَ بِالتَّصْفِيَّةِ وَالدَّعْوَةَ وَتَرْبِيَّةَ
المُجْتَمَعِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَدْعُو فِيهِ الْحَرَكِيَّةُ إِلَى الْمَشَارَكَةِ فِي التَّغْيِيرِ مِنْ دَاخِلِ هَذَا الْوَاقِعِ . وَطَبَقًا
لِلسَّعِيدِيِّ فَإِنَّ كِلَا الرُّؤْيَيْنِ مِمَّا يَصِحُّ الْاِخْتِلَافُ فِيهِ، مَعَ الْاِقْرَارِ بِوُقُوعِ الْخَطَأِ فِي التَّطْبِيقِ، وَهُمَا لَيْسَتَا
قَطْعِيَّتَيْنِ فِي إِصَابَةِ الْحَقِّ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ، مُوجِّهًا نَقْدَهُ لِكِلَا الطَّرْفَيْنِ لِأَنَّ كِلَا مِنْهُمَا يُعْبَرُ نَظْرِيَّةَ قَطْعِيَّةٍ،
وَهُوَ مَا أَحْدَثَ بَيْنَ اتِّبَاعِ التَّظْرِيَّتَيْنِ حَالَةً مِنَ الْقَطْعِيَّةِ وَالتَّدَابُرِ .

المَسَارُ الثَّانِي اِخْتِلَافَاتِ السَّلَفِيَّينِ كَمَا حَدَّدَهَا السَّعِيدِيُّ فَهُوَ الْخِلَافُ بَيْنَ اتِّجَاهِي السَّلَفِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ
وَالْحَرَكِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ وَبَيْنَ السَّلَفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، مَرْجِعًا أَسْبَابَهُ إِلَى اِخْتِلَافَاتِ كَبِيرَةٍ وَعُمِيقَةٍ
بَيْنَهُمَا فِي فَهْمِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَأَوْلِيَائِهَا، وَتَنْزِيلِ التُّصُوصِ عَلَى الْوَاقِعِ وَحَوْلِ حَدِّ الْاِسْلَامِ وَالْكَفْرِ، وَفِي
تَطْبِيقِ التَّبِيعِيَّةِ السَّلَامِ وَالْخُلْفَاءِ مِنْ بَعْدِهِ لِفَرِيضَةِ الْجِهَادِ .

مِنْ جِهَتِهِ ارْجِعُ الدُّكُورُ عَضْرُ مُحَمَّدُ النَّصْرُ - دَاعِيَّةَ سَلْفِيٍّ مُتَخَصِّصٍ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ وَعُلُومِهِ -
أَسْبَابَ اِخْتِلَافِ اتِّجَاهَاتِ السَّلَفِيَّةِ إِلَى طَبِيعَةِ الْاِخْتِيَارَاتِ الْعِلْمِيَّةِ فِي أَوْسَاطِ تِلْكَ الْاِتِّجَاهَاتِ مُمَثَّلًا
لِذَلِكَ بِالسَّلَفِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ فِي الْأُرْدُنِّ اتِّبَاعُ الشَّيْخِ الْأَبَانِيِّ الَّذِينَ لَا يَرُونَ الْاِشْتِغَالَ بِالسِّيَاسَةِ أَحْدًا بِرَأْيِ

الشَّيْخُ الَّذِي كَانَ يَقُولُ إِنَّ «مِنَ السِّيَاسَةِ تَرَكَ السِّيَاسَةَ». فِي الْمَقَابِلِ كَانَ سَلْفِيُو الْكُوَيْتِ يَرُونَ جَوَازَ
دُخُولِ الْمُعْتَرِكِ السِّيَاسِيِّ وَالْمُشَارَكَةِ فِي الْبُرْلَمَانَاتِ وَتَشْكِيلِ الْأَحْزَابِ أَخْذًا بِرَأْيِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
عَبْدِ الْخَالِقِ الَّذِي كَانَ بِمَنَابَةِ الْمَوْجِهَةِ وَالْمُرْشِدِ لِسَلْفِيِ الْكُوَيْتِ وَالْمُحَرِّضِ لَهُمْ عَلَى الْمُشَارَكَةِ السِّيَاسِيَّةِ
وَدُخُولِ الْإِتِّخَابَاتِ.

تَحْفِظَاتِ عَصْرِ مُحَمَّدِ النَّصْرِ وَاتِّقَادَاتِهِ لِسَلْفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ أَنْصَبَتْ عَلَى اتِّبَاعِهَا لِلْمَنْهَجِ الظَّاهِرِيِّ مِنْ
النَّاحِيَةِ الْفِقْهِيَّةِ وَاقْتَرَارِهَا إِلَى الْبُعْدِ الْأُصُولِيِّ الْمَنْهَجِيِّ وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ تَأَثَّرَ بَعْضُ مُوسَسِيهَا بِالثَّوْرَةِ
الْيَسَارِيَّةِ ثُمَّ تَحَوَّلَتْ إِلَى السَّلْفِيَّةِ بِحَمَلِهِمُ الْفِكْرِيَّ الْقَدِيمِ. كَمَا أَنَّ بَعْضَ مَنْظُرِيهَا الْكِبَارِ مِثْلُ أَبِي مُحَمَّدٍ
الْمَقْدِسِيِّ وَأَبِي قَتَادَةَ الْفِلِسْطِينِيِّ لَمْ تَكُنْ خَلْفِيَاتِهِمْ سَلْفِيَّةً أَصْلًا بَلْ تَبَنُّوا أَفْكَارًا ثُمَّ بَحَثُوا لَهَا عَنْ أَسَانِيدِ
مِنْ أَقْوَالِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَتُرَاثِ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ النَّجْدِيَّةِ . .

وَسَطَ احْتِدَامِ الْأَخْتِلَافَاتِ فِي أَوْسَاطِ الْإِتِّجَاهَاتِ السَّلْفِيَّةِ الْقَائِمَةِ وَاسْتَفْحَالَ التَّرَاغَاتِ بَيْنَهَا وَالْحَاحُ كُلُّ
إِتِّجَاهٍ مِنْهَا عَلَى أَنَّ مَنْهَجِيَّتَهُ وَاخْتِيَارَاتِهِ وَطَرِيقَتَهُ فِي الْعَمَلِ هِيَ الْمَوْافِقَةُ لِمَنْهَجِ السَّلْفِ الصَّالِحِ وَغَيْرِهَا
بَعِيدَةٌ عَنْهُ أَنْ لَمْ تَكُنْ خَارِجَةً عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ .

مِنْ أَعْلَامِ السَّلْفِيَّةِ الْمُعَاصِرِينَ

يَعْتَقِدُ السَّلْفِيُّونَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا إِلَّا امْتِدَادًا لِمَنْهَجِ أَهْلِ الْحَدِيثِ. لِذَا فَهُمْ يَرُونَ أَنَّ اتِّبَاعَ هَذَا الْمَنْهَجِ عَلَى مَدَارِ
التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ يُمَثِّلُونَ ذَاتَ مَنْهَجِهِمْ وَمُعْتَقَدِهِمْ. وَمِنْ إِعْلَامِ السَّلْفِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ

السُّعُودِيَّةِ

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ التَّمِيمِيِّ • عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ • يَعْقُوبُ الْبَاحْسِينِ • عَبْدُ
 الْعَزِيزِ ابْنِ الشَّيْخِ • عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ بَازٍ • عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَبْرِ بْنِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو زَيْدٍ
 • عَبْدُ الْمَجِيدِ بْنِ حَسَنِ جَبْرِتِيِّ • مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ الشَّيْخِ • مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْعَثِمِيِّ • صَالِحُ بْنُ
 فَوْزَانَ الْفَوْزَانِ • صَالِحُ بْنُ مُحَمَّدِ اللَّحِيدَانِ • عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْبَرَكَ • عَبْدُ الْعَزِيزِ الرَّاجِحِيِّ • عَبْدُ الْكَرِيمِ
 الْخَضِيرِ • رَبِيعُ بْنُ هَادِي الْمَدْحَلِيِّ • عُبَيْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْجَابِرِيِّ • سَعْدُ بْنُ نَاصِرِ الشَّرِيِّ • خَالِدُ بْنُ
 عَبْدِ اللَّهِ الْمُصْلِحِ • مُحَمَّدُ الْعَرِيفِيِّ • سَعْدُ الْبَرِيكِ • عَائِضُ الْقَرْنِيِّ • صَالِحُ الْمَغَامِسِيِّ • سَفَرُ
 الْحَوَالِيِّ • نَاصِرُ الْعُقَلِ • عَبْدُ الْعَزِيزِ الطَّرِيفِيِّ • عَبْدُ السَّلَامِ الشَّويعِرِ • عَبْدُ الْمُحْسِنِ الْعِبَادِ • سَعْدُ
 الْإِخْتَانِ • عَبْدُ الرَّزَاقِ الْبَدْرُ • صَالِحُ ابْنِ الشَّيْخِ • خَالِدُ الْمُشَيْقِ • صَالِحُ الْعَصِيمِيِّ

فِلَسْطِينُ

بَسَامُ جَرَّارُ

مِصْرُ

حَمْدُ إِسْمَاعِيلِ الْمُقَدَّمِ • أَبُو إِسْحَاقَ الْحَوِينِيِّ • مُحَمَّدُ حَسَّانَ • مُحَمَّدُ سَعِيدِ رَسَلَانَ • مُصْطَفَى
 الْعَدَوِيِّ • أَحْمَدُ حَطِيبِهِ • أَحْمَدُ فَرِيدِ • جَمَالُ الْمَرَكَبِيِّ • سَعِيدُ عَبْدِ الْعَظِيمِ • صَفْوَتُ الشَّوَادِفِيِّ •
 عَبْدُ الرَّزَاقِ عَفِيفِيِّ • مَازِنُ السَّرَسَاوِيِّ • مُحَمَّدُ الزُّغَبِيِّ • مُحَمَّدُ حَامِدِ الْفَقِيِّ • مُحَمَّدُ صَفْوَتِ نَوْرِ
 الدِّينِ • مُحَمَّدُ الْمِصْرِيِّ • مُحَمَّدُ شَاكِرِ • مُحَمَّدُ خَلِيلِ هَرَّاسِ • عَبْدُ اللَّهِ بَدْرُ • مُحَمَّدُ عَبْدُ
 الْمُقْصُودِ • مُحَمَّدُ حُسَيْنِ يَعْقُوبِ .

الْهِنْدُ

أَحْمَدُ بْنُ عِرْفَانَ الشَّهِيدِ • إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الْغَنِيِّ الدَّهْلَوِيِّ • مُحَمَّدُ نَذِيرِ حُسَيْنِ الدَّهْلَوِيِّ • مُحَمَّدُ
صَدِيقِ حَسَنِ خَانَ الْقُنُوجِيِّ • أَبُو تَرَابِ الظَّاهِرِيِّ • صَفِيُّ الرَّحْمَنِ الْمُبَارَكْفُورِيِّ

المغرب

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ السَّنُوسِيِّ • عَلَّالُ الْفَاسِيِّ • تَقِيُّ الدِّينِ الْهَلَالِيِّ • أَبُو أُوَيْسٍ بَوَّخْبِزَه • فَرِيدُ
الْأَنْصَارِيِّ • مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَغْرَاوِيِّ • سَعِيدُ الْكِمَلِيِّ

اليمن

الشُّوْكَانِيُّ • مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الصَّنْعَانِيِّ • عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمُعَلِمِيُّ • مُقْبِلُ بْنُ هَادِي الْوَادِعِيِّ • مُحَمَّدُ
بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْإِمَامِ • مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْوَصَّابِيِّ • يَحْيَى بْنُ عَلِيِّ الْحُجُورِيِّ • عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ
مَرْعَى الْعَدَنِيِّ • عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَيْسَى أَبُو رَوَاحَةَ الْمَوْزِيِّ

السودان

خَالِدُ عَبْدُ اللَّطِيفِ مُحَمَّدِ نُورٍ

الكويت

عَبْدُ اللَّهِ السَّبْتِ • نَازِمُ الْمِسْبَاحِ • عُثْمَانُ الْخَمَيْسِ • حَامِدُ الْعَلِيِّ • سَالِمُ الطَّوِيلِ • مُحَمَّدُ التَّجْدِي
• أَحْمَدُ الْكُوسِ • نَبِيلُ الْعَوْضِيِّ • مُطَلَّقُ الْجَاسِرِ

سوريا

جَمَالُ الدِّينِ القَاسِمِيِّ • عَبْدُ القَادِرِ الأَزْناوِوطِ • مُحَمَّدُ بَهْجَةَ البَيْطَارِ • مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ المُنْجِدِ •
مُحَمَّدُ بْنُ شَمْسِ الدِّينِ • عَلِيُّ خَشَّانِ

لُبْنَانُ

مُحَمَّدُ رَشِيدِ رِضَا • عَبْدُ الرَّحْمَنِ دِمَشْقِيَّةَ • أَحْمَدُ الأَسِيرِ

الأَزْدُنُّ

عُمَرُ سُلَيْمَانَ الأَشْفَرِ • عَلِيُّ بْنُ حَسَنِ الحَلْبِيِّ الأَثَرِيِّ • مَشْهُورُ بْنُ حَسَنِ الِ سَلْمَانَ • أَبُو مُحَمَّدٍ
المُقَدِّسِيُّ إِادِ قُنْيِي

العِرَاقُ

عَلِيُّ عَمَاءِ الدِّينِ الأَلُوسِيِّ • مُحَمَّدُ بَهْجَةَ الأَثَرِيِّ • مُحَمَّدُ شُكْرِي الأَلُوسِيِّ • مَاهِرُ يَاسِينَ الفَحْلِ • بَشَّارُ
عَوَاذِ مَعْرُوفِ

قَطْرُ

أَحْمَدُ بْنُ حُجْرِ الِ بوطامي

الجَزَائِرُ

عَبْدُ الحَمِيدِ بْنُ بَادِيسِ • البَشِيرِ الإِبْرَاهِيمِيِّ • الطَّيِّبِ العُثْبِيِّ • مُبَارَكِ المِيلِيِّ • العَرَبِيِّ التَّبْسِيِّ •
أَبُو القَاسِمِ بْنِ حُلُوشِ • أَبُو عَلِيٍّ الزَّوَاوِيِّ • أَحْمَدُ بُوْشِمَالِ • حَمْرَةُ بُوْكُوشَةَ أَحْمَدُ حَمَانِي • نُعَيْمُ
التَّعِيمِيِّ • أَبُو بَكْرٍ جَابِرِ الجَزَائِرِيِّ • مُحَمَّدُ عَلِيُّ فَرَكَوسِ

مُورِيتَانِيَا

- لُجَيْدِرِي وَوَلَدُ حُبَلَل • بَابُ وَوَلَدِ الشَّيْخِ سَيِّدِيَا • مُحَمَّدُ الْأَمِينِ الشَّنْقِيطِي • بَدَاهُ وَوَلَدُ الْبُوصِيرِي •
- مُحَمَّدُ سَالِمِ وَوَلَدِ عُدُود • أَحْمَدُ وَوَلَدِ الْمُرَابِطِ • إِبْرَاهِيمُ بْنُ يُونُسَ بْنِ الشَّيْخِ سَيِّدِي • أَحْمَدُ مَزِيدِ
- الْبُونِي • مُحَمَّدُ الْأَمِينِ وَوَلَدِ الْحَسَنِ • مُحَمَّدُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَوَلَدِ قَتَّى • مُحَمَّدُ وَوَلَدِ أَحْمَدِ يُونُورَةَ مُحَمَّدُ
- أَحْمَدُ زَارُوقِ • أَحْمَدُ وَوَلَدِ الْكُورِي • مُحَمَّدُ سَيِّدِيَا وَوَلَدِ أَجْدُودِ

الْبَانِيَا

• مُحَمَّدُ نَاصِرِ الدِّينِ الْأَلْبَانِي • شُعَيْبُ الْإِرْنَوُوطِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْإِنَاوُوطِ

• وَغَيْرِهِمْ .

ثانيا

التَّيَّارُ الْإِسْلَامِيُّ الْأَصُولِيُّ (السِّيَاسِيُّ)

تَقَدِّمَهُ

ظَهَرَ مُصْطَلَحُ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ لِتَوْصِيفِ حَرَكَاتٍ تَغْيِيرِ سِيَاسِيَّةٍ تُؤْمِنُ بِالْإِسْلَامِ بِأَعْبَارِهِ "نِظَامًا سِيَاسِيًّا لِلْحُكْمِ"، وَإِنَّ الْإِسْلَامَ "لَيْسَ عِبَارَةً عَنِ دِيَانَةٍ فَقَطْ وَإِنَّمَا عِبَارَةٌ عَنِ نِظَامٍ سِيَاسِيٍّ وَاجْتِمَاعِيٍّ وَقَانُونِيٍّ وَاقْتِصَادِيٍّ يَصْلُحُ لِبِنَاءِ مُؤَسَّسَاتِ دَوْلَةٍ". وَرَغْمَ رِبْطِ هَذَا الْمُصْطَلَحِ بِبَعْضِ الْأَسْمَاءِ بَعِيْنِهَا -مِثْلَ حَسَنِ الْبَنَّا- وَبَعْضِ الْجَمَاعَاتِ - مِثْلَ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ - إِلَّا أَنَّ لِلْمُصْطَلَحِ تَارِيخَ أُنْعَدُ مِنْ ذَلِكَ يَقُومُ عَلَى رِثَاءِ مَجْدِ ضَائِعٍ قَدِيمٍ .

كَانَ الْعَدِيدُ مِنَ الْمَفْكَرِينَ وَالْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، مُنْذُ بَدَايَةِ الْحِقْبَةِ الْاسْتِعْمَارِيَّةِ وَبَدَايَةِ هَيْمَنَةِ الْغَرْبِ عَلَى الدَّوْلِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فِي رِثَاءِ وَنُدْبِ لِضْيَاعِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَقُوَّةِ وَمَجْدِ الْإِسْلَامِ. وَكَانَتْ اللَّحْظَةُ الرَّيْسِيَّةُ الَّتِي تَبْلُورُ فِيهَا الشُّعُورُ بِتَرَاجُعِ السُّلْطَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَمَا اخْتَفَتْ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةُ الْعُثْمَانِيَّةُ تَمَامًا -رَغْمَ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ أَزْمَاتٍ وَتَدَاهُورٍ- وَذَهَبَتْ مَعَهَا الْخِلَافَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ كَمَا وَسَّسَهُ عَالِمِيَّةٌ فِي عَامِ 1924. وَظَهَرَتْ الْعَدِيدُ مِنَ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَحْمِلُ هَدَفًا وَاضِحًا يَتِمَثَّلُ فِي إِحْيَاءِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَإِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمَةِ وَاسْتِعَادَةِ مَجْدِهَا السَّابِقِ .

وَلَا يُوجَدُ إِجْمَاعٌ تَامٌ حَوْلَ السَّبَبِ الرَّيْسِيِّ لِهَذَا التَّحَلُّفِ وَالتَّرَاجُعِ بَعْدَمَا كَانَتْ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَتَسَيَّدُ الْعَالَمَ، غَيْرُ أَنَّ الْجَمِيعَ يَتَّفِقُ أَنَّ هَذَا التَّرَاجُعَ قَدْ بَدَأَ مُنْذُ قُرُونٍ. حَتَّى إِنَّ بَعْضَ الْمَفْكَرِينَ قَالُوا إِنَّ

السَّبَبِ فِي فَقْدَانِ الْمُسْلِمِينَ لِقُوَّتِهِمْ وَسَطَوْتِهِمْ هُوَ أَنَّهُمْ هَجَرُوا شَرِيْعَتَهُمُ الْإِسْلَامِيَّةَ؛ الْقَانُونِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي يُقْتَضِي الدِّينَ بِاتِّبَاعِهِ . وَهُمْ يُفْتَرِضُونَ أَنَّهُ إِذَا اتَّبَعَ الْمُسْلِمُونَ الشَّرِيْعَةَ الْحَقِيقِيَّةَ، فَإِنَّهُمْ سَيَحْضُرُونَ بِالْمَجْدِ مَرَّةً أُخْرَى مِثْلَ أَسْلَافِهِمُ الْمُسْلِمِينَ، لِذَا فَإِنَّ أَفْضَلَ طَرِيقَهُ لِنُظْمِ الْمَجْتَمَعِ هِيَ وَفَقًا لِلشَّرِيْعَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَلِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ هَجَرُوا هَذَا الْمَسَارَ الْإِلَهِيَّ لِلنَّجَاحِ، تَخَلَّفُوا عَنْ بَاقِي الْحَضَارَاتِ . وَهَذِهِ هِيَ الْفَرْضِيَّةُ الْأَسَاسِيَّةُ وَرَاءَ الْحَرَكَاتِ الَّتِي يَمُّ تَعْرِيفُهَا بِشَكْلِ عَامٍّ تَحْتَ عِنْوَانِ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ، مِثْلَ الْجَمَاعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي جَنُوبِ آسِيَا، وَالْأَخْوَانَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ . وَفِي اعْتِقَادِ هَؤُلَاءِ فَإِنَّ التَّنْفِيذَ الْمُنْهَجِيَّ لِلشَّرِيْعَةِ سَيُعِيدُ الْقِيَادَةَ الْعَالَمِيَّةَ وَالسِّيَادَةَ الْأَخْلَاقِيَّةَ لِلْمُسْلِمِينَ . وَسَيَكُونُ قِيَامُ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ وَسَيْلَةَ لِإِعَادَةِ تَنْفِيذِ الشَّرِيْعَةِ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَعَادَهُ تَأْسِيسِ الْإِسْلَامِ بِوَضْفِهِ قُوَّةَ عَالَمِيَّةٍ .

نَتَشَرُّ الْعَدِيدِ مِنْ حَرَكَاتِ إِحْيَاءِ الدِّينِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَرَبِيِّ وَكَذَلِكَ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْعَرْبِ-مِثْلَ الْجَمْعِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي أَمْرِيكَا الشَّمَالِيَّةِ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ لَا تَدْخُلُ تَحْتَ مُسَمَّى الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ حَيْثُ تَرْتَكِرُ عَلَى الْجَانِبِ الدِّينِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ بِشَكْلِ كَبِيرٍ وَحَصْرِيٍّ . وَحَدَهَا تِلْكَ الْجَمَاعَاتِ الَّتِي تَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِسْلَامَ نِظَامَ سِيَاسِيٍّ شَامِلٍ يُذْمَجُ الدِّينَ بِالْحُكْمِ وَإِنَّ كُلَّ الْمُسْلِمِينَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُ وَجُوبًا عَقَائِدِيًّا هِيَ مِنْ تَدْخُلُ تَحْتَ مُسَمَّى الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ .

وَبِاخْتِلَافِ الرُّوْيِ وَالْإِتْجَاهَاتِ تَخْتَلِفُ هَذِهِ الْحَرَكَاتُ؛ فَبَعْضُهَا عَالِمِيٌّ وَيَسْعَى إِلَى إِقَامَةِ خِلَافِهِ إِسْلَامِيَّةٍ عَالَمِيَّةٍ مِثْلَ "حَرْبِ التَّحْرِيرِ"، وَبَعْضُهَا يَنْحَصِرُ عَمَلِهِ فِي إِطَارِ دَوْلَةٍ مُعَيَّنَةٍ وَيَسْعَى إِلَى إِقَامَةِ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ فِيهَا مِثْلَ حِمَاسٍ فِي فِلَسْطِينِ أَوْ حَرَكَةِ طَالِبَانَ فِي بَاكِسْتَانَ . بِالإِضَافَةِ لِلْحَرَكَاتِ الْإِقْلِيمِيَّةِ؛ وَأَبْرَزَهَا الْإِخْوَانَ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ يَمْتَلِئُ هَدْفُهُمُ التَّهَاتِيَّ فِي إِقَامَةِ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ .

غَيْرِ أَنْ جَمَاعَةَ الْأَخْوَانِ مَقْسَمِهِ الْآنَ إِلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْحَرَكَاتِ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْبِلَادِ، وَقَدْ ارْتَضَوْا فِي
الْأَوْنَةِ الْأَخِيرَةِ أَمَّا بِالْحُصُولِ عَلَى السُّلْطَةِ عَبْرَ الْوَسَائِلِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ كَمَا حَدَّثَ فِي مِصْرٍ فِي عَهْدِ الرَّئِيسِ
مُحَمَّدِ مُرْسِي فِي عَامِ 2012 أَوْ تَقَاسَمَ السُّلْطَةَ مَعَ التَّخَبِ الْعِلْمَائِيَّةِ وَاللِّبْرَالِيَّةِ كَمَا كَانَ الْحَالُ فِي تُونِسَ
بَعْدَ الرَّبِيعِ الْعَرَبِيِّ .

تَسْعَى الْعَدِيدُ مِنَ الْمَجْمُوعَاتِ إِلَى إِقَامَةِ تَوْعٍ مِنَ النِّظَامِ السِّيَاسِيِّ الْإِسْلَامِيِّ وَهُوَ أَمْرٌ وَاضِحٌ لِلْعَايَةِ، وَهَذَا
النِّظَامُ فِي وَجْهِهِ نَظَرِهِمْ يُمْكِنُ أَنْ يُصْبِحَ أَدَاهُ لِإِعَادَةِ التَّهْضَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ وَحَتَّى التَّوْحِيدِ السِّيَاسِيِّ .
وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْكِيَانَاتِ السِّيَاسِيَّةِ، أَوْ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَوْ حَتَّى الدُّوَلِ هِيَ نِهَآئَةُ اللَّعْبَةِ وَالْعَايَةُ التَّهَآئِيَّةُ
بَلْ هِيَ مُجَرَّدٌ وَسِيْلَةٌ لِإِعَادَةِ إِخْيَاءِ مَجْدِ الْمَاضِي عِنْدَمَا كَانَتْ الزِّيَادَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ عَلَى
الْمُسْتَوَى الْعَالَمِيِّ

وَيُمْكِنُ تَقْسِيمُ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَقَفًا لِلْوَسَائِلِ الَّتِي يَرْعَبُونَ فِي تَوْظِيْفِهَا لِتَحْقِيقِ هَدَفِهِمُ الْأَوَّلِ
وَهُوَ الْكِيَانِ السِّيَاسِيِّ الْإِسْلَامِيِّ . أَوَّلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ إِلَى الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ بِاسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ وَالْعُنْفِ
وَحَتَّى الْأَرْهَابِ، وَثَانِيًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يُحَقِّقُونَ سَعْيَهُمْ مِنْ خِلَالِ الْوَسَائِلِ السَّلْمِيَّةِ بِمَا فِي ذَلِكَ الْعَمَلِيَّاتِ
الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ مِثْلَ الْإِتِّخَابَاتِ . وَمَنْ يَسْتَحْدِمُونَ الْقُوَّةَ يُشَارُ إِلَيْهِمْ الْآنَ عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ بِاسْمِ الْجِهَادِيِّينَ،
وَلَكِنْ تَعْرِفُهُمُ الْأَوْسَاطُ الْإِكَادِمِيَّةُ وَالْإِعْلَامُ الْعَرَبِيُّ خَصِيصًا بِاسْمِ "الْإِسْلَامِيِّينَ" .

أَدَّى الرَّبِيعِ الْعَرَبِيِّ فِي عَامِ 2011 إِلَى قَلْبِ السِّيَاسَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ وَضْعِ نِهَآيَاتِ لِلْحُكْمِ الدِّيكِتَاتُورِيِّ
الَّذِي دَامَ طَوِيلًا فِي تُونِسَ وَمِصْرَ وَلِيْبِيَا، وَالْأَصْلَاحَاتِ فِي الْأُرْدُنِّ وَالْمَغْرِبِ وَمَا تَحَوَّلَ إِلَى حَرْبِ أَهْلِيَّةٍ
فِي سُورِيَا . وَأَبْرَزَتْ النِّشُوَّةَ الْأُولَى لِلثُّورَةِ وَالتَّحَوُّلَاتِ الْمُبَكِّرَةَ لِلْحُكْمِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ الشَّعْبِيَّةِ الْهَائِلَةِ، وَالْفِطْنَةَ

التَّظْمِيهِ وَالْجُذُورَ الْعَمِيقَةَ الدَّاعِمَةَ لِلْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ وَحَرَكَاتِهِ الَّتِي فَازَتْ فِي الْإِتِّخَابَاتِ فِي تُونِسَ
وَمِصْرَ وَالْمَغْرِبَ .

فِي عَامِ 2012، بَدَأَ وَكَانَ مُسْتَقْبَلِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ يَتَعَمَّقُ تَحْتَ حُكْمِ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ وَتَمَكِينِهِ بِالشَّرْعِيَّةِ
الْدِيمُقْرَاطِيَّةِ عَبْرَ الْإِتِّخَابَاتِ الَّتِي فَازَتْ بِهَا. حَيْثُ كَانَتْ الْأَحْزَابُ الْإِسْلَامِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ تَمَلِكُ فُرْصَةَ لِتَشْكِيلِ
الْمُسْتَقْبَلِ السِّيَاسِيِّ مِنْ خِلَالِ كِتَابَةِ الدَّسَائِرِ وَتَشْكِيلِ الْإِنْظَمَةِ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْمُنْطَقَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

وَكَانَ الْحِزْبُ الْحَاكِمُ فِي تَرْكِيَا - حِزْبُ الْعَدَالَةِ وَالنَّمِيَّةِ - الَّذِي يَتَزَعَّمُهُ رَجَبُ أَرْدُوغَانَ ذِي الشَّخْصِيَّةِ
الْكَارِيزْمِيَّةِ يَنْفِي عَلَى مَدَى سَنَوَاتٍ أَنَّهُ حِزْبُ إِسْلَامِي . إِلَّا أَنَّ الْأَمْرَ اخْتَلَفَ مَعَ بَدْءِ فِتْرَةِ اكْتِسَاحِ الْإِسْلَامِ
السِّيَاسِيِّ لِلْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ، فَبَدَأَتْ قِيَادَةُ حِزْبِ الْعَدَالَةِ وَالنَّمِيَّةِ تَظْهَرُ عَلَايَةً اِرْتِبَاطُهَا بِالْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ، بَلْ
قَدِمَتْ نَفْسَهَا بِاعْتِبَارِهَا نَمُودَجًا لِلْإِسْلَامِ مَا بَعْدَ الرَّبِيعِ الْعَرَبِيِّ فِي الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ .

قُرْبَ نِهَآيَةِ عَامِ 2012، كَانَ الْإِسْلَامُ السِّيَاسِيُّ يُفْرَضُ زِمَامُهُ عَلَى الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ، مِنْ تَرْكِيَا إِلَى إِيرَانَ
بِاسْتِثْنَاءِ دَوْلِ مَجْلِسِ التَّعَاوُنِ الْخَلِيجِيِّ . وَلَكِنْ مَعَ الثَّوْرَةِ الْمُضَادَّةِ فِي 2013 فِي مِصْرٍ الَّتِي أَرَالَتْ
جَمَاعَةَ الْإِخْوَانَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ السُّلْطَةِ وَعَرَفَتْهَا بِاعْتِبَارِهَا جَمَاعَةً مَحْظُورَةً قَانُونِيًّا، وَالْإِحْتِجَاجَاتِ
الْمُسْتَمِرَّةِ الَّتِي أُجْبِرَتْ نَتِيجَةُهَا عَلَى التَّخَلِّيِ عَنِ السُّلْطَةِ فِي تُونِسَ لِصَالِحِ تَكْتُوقْرَاطِيَّةِ مُوقَّتَةٍ، يَعُودُ الْإِسْلَامُ
السِّيَاسِيُّ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْقَبُو، وَيَسْتَعِدُّ لِيُكَافِحَ مِنْ أَجْلِ لَعِبِ دُورِ يَرَى أَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ فِي تَشْكِيلِ
مُسْتَقْبَلِ سِيَاسِيٍّ إِسْلَامِيٍّ فِي الْمُنْطَقَةِ . .

وَيُشْعِرُ الْعَدِيدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ لِدِينِهِمْ وَنِظَامِهِمْ السِّيَاسِيَّ الْقَوْلَ الْفُضْلُ فِي دُورِ الْأَخْلَاقِ وَالْقِيَمِ فِي
الْمَجَالِ الْعَامِّ . وَحَيْثُ لَمْ تَطُورِ التَّقَالِيدُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْفُلْسُفِيَّةُ أَبَدًا اِتِّجَاهَاتِ أَخْلَاقِيَّةِ عِلْمَانِيَّةِ، لِذَلِكَ فَانْ

كُلُّ الْأَفْكَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ حَوْلَ الْحُكْمِ الْأَخْلَاقِيِّ وَالْعَادِلِ تَأْتِي أَمَّا مِنَ الْإِسْلَامِ أَوْ هِيَ مُسْتَوْرَدَةٌ مِنَ الْغَرْبِ .
وَعِنْدَمَا يَبْدَأُ الْمُسْلِمُونَ بِتَأْكِيدِ هَوِيَّتِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَالْثَقَافِيَّةِ وَتَشْكِيلِهَا لِتَصِلَ إِلَى حَدِّ الْكَمَالِ، فَإِنَّهُمْ يَسْعَوْنَ
إِلَى الْأَصَالَةِ فِي الْبِنَى الْجَمَاعِيَّةِ، وَهَذَا الْبَحْثُ عَنِ الْأَصَالَةِ هُوَ بِمَثَابَةِ رَفْضِ اللَّيْمَنَةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْمُعْيَارِيَّةِ
الْغَرْبِيَّةِ .

وَبَعْضُ النَّظَرِ عَنِ نَجَاحِ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ أَوْ فَشَلِهِ، سَيُسْعَى الْمُسْلِمُونَ -عَبْرَ حَرَكَاتِ الْإِسْلَامِ
السِّيَاسِيِّ- إِلَى الْبَحْثِ عَنِ اسْتِقْلَالِ الثَّقَافِيِّ . وَقَدْ تَكُونُ الْحَدَاثَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَبَعْضُ التَّدْخِلاتِ الصُّوفِيَّةِ
الْمَحْدُودَةِ فِي السِّيَاسَةِ بِمَثَابَةِ بَدَائِلِ قَابِلَةٍ لِلتَّطْبِيقِ، وَلَكِنْ فِي الْوَقْتِ الْحَالِيِّ بِالنِّسْبَةِ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ
يَسْعَوْنَ إِلَى اسْتِقْلَالِ الثَّقَافِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ عَنِ الْغَرْبِ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ السِّيَاسِيِّ هُوَ الْبَدِيلُ الْوَحِيدُ .

الْإِسْلَامُ السِّيَاسِيُّ : هُوَ مُصْطَلَحٌ اسْتَشْرَاقِي ظَهَرَ حَدِيثًا بِسَبَبِ انْعِزَالِ الْأَقْطَابِ الدِّينِيَّةِ فِي الْعَالَمِ
الْإِسْلَامِيِّ عَنِ السِّيَاسَةِ بِتَبِيعَةِ انْتِشَارِ الْعِلْمَانِيَّةِ وَالْثَقَافَةِ الْغَرْبِيَّةِ، كَانَ الْمُسْتَشْرِقُ الْإِسْرَائِيلِيُّ مَارْتِنُ كَرَامَر
مِنْ أَوَائِلِ الْخُبْرَاءِ الَّذِينَ بَدَأُوا فِي اسْتِخْدَامِ مُصْطَلَحِ «الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ» بَيْنَ عَامَيْ 1980م وَ2003م،
كَانَ دَكْمِيْجَانُ مِنْ أَوَائِلِ الْخُبْرَاءِ الَّذِينَ أَبَدُوا مَلَاَحَظَاتٍ حَوْلَ تَسْيِيسِ الْإِسْلَامِ فِي سِيَاقِ فَشَلِّ
الْحُكُومَاتِ الْعِلْمَانِيَّةِ فِي الدُّوَلِ ذَاتِ الْعَالِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ بَيْنَمَا يَسْتُخْدِمُ كَلِمًا مِنَ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْأَصُولِيَّةِ فِي نَفْسِ
الْوَقْتِ بَدَلًا مِنَ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ، يُمَكِّنُ أَنْ يُشِيرَ الْمُصْطَلَحُ إِلَى مَجْمُوعِهِ وَاسِعَةٍ مِنَ الْإِفْرَادِ أَوْ
الْجَمَاعَاتِ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّ لِلْإِسْلَامِ نِظَامَ حُكْمٍ سِيَاسِيِّ مُمَثِّلٍ فِي «الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ» أَوْ «الدَّوْلَةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ» وَنِظَامَ تَشْرِيْعِيٍّ وَجِنَائِيٍّ مُمَثِّلٍ فِي «الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ»، وَيُدَافِعُونَ عَنِ تَشْكِيلِ الدَّوْلَةِ
وَالْمُجْتَمَعِ وَفَقًّا لِهَيْمَتِهِمُ لِلْمَبَادِيِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلِلْإِشَارَةِ إِلَى التَّشَاطُاتِ وَاسِعَةِ النِّطَاقِ لِلْأَفْرَادِ وَالْمُنْتَظَمَاتِ

الْمُؤَيَّدَةَ لِتَحْوِيلِ الدَّوْلَةِ وَالْمُجْتَمِعِ كُلِّ لِلْإِسْتِادِ لِمَرْجِعِيَّةِ مِنَ الْقَوَانِينِ الْإِسْلَامِيَّةِ . تُتَّهَمُ الْأَحْزَابُ السِّيَاسِيَّةُ
 الْإِسْلَامِيَّةُ بِاسْتِغْلَالِ الْعَاطِفَةِ الدِّيْنِيَّةِ لِلْمُجْتَمِعِ وَدَعْدَغَةِ مَشَاعِرِ الْبُسْطَاءِ كَوَسِيلَةَ لِلْوُصُولِ لِلسُّلْطَةِ وَالْمَالِ
 وَالْمَكَانَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَتُتَّهَمُ بِعَدَمِ الْمُنَافَسَةِ الشَّرِيفَةِ فِي الْإِتِّخَابَاتِ بِسَبَبِ التَّجَارَةِ بِالذِّنِّ كَشِعَارِ سِيَّاسِي
 إِمَامٍ مَنَافِسِيهَا، وَعَدَمِ مَصْدَاقِيَّةِ تِلْكَ الْأَحْزَابِ فِيمَا تَرْفَعُهُ مِنْ شِعَارَاتٍ دِيْنِيَّةٍ كَتَطْبِيقِ الشَّرِيعَةِ بَلْ
 تَسْتَحْدِمُهَا كَوَسِيلَةَ لِلْوُصُولِ لِلسُّلْطَةِ وَكَدَعَايَةِ اِتِّخَابِيَّةٍ لِحَشْدِ الْمُدَيِّنِينَ ثُمَّ تَحْلَى عَنْهُ مَبَاشَرَةً بَعْدَ فَوْزِهَا
 بِالْحُكْمِ وَتَحْكُمُ بِالْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَرْفُضُهَا قَبْلَ الْوُصُولِ لِلْحُكْمِ، مِمَّا يَتَعَارَضُ مَعَ مَبْدَأِ الْمُنَافَسَةِ
 الشَّرِيفَةِ وَتَكَافُؤِ الْفُرْصِ؛ حَيْثُ تَتَحَوَّلُ الْإِتِّخَابَاتُ مِنْ صِرَاحٍ بَيْنَ مَنْ لَدَيْهِ الْمَشْرُوعُ الْاِقْتِصَادِي الْأَكْثَرُ
 نِجَاحًا إِلَى صِرَاحٍ حَوْلِ الْمَزَايِدَةِ الدِّيْنِيَّةِ . كَمَا أَنَّ وُصُولَ الْأَحْزَابِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِلسُّلْطَةِ يَهْدِدُ الْعَمَلِيَّةَ
 الدِّيْمُقْرَاطِيَّةَ، وَيُرْسِخُ لِلْإِسْتِبْدَادِ بِاسْمِ الدِّينِ، وَيُؤَدِّي لِلْحُرُوبِ الْأَهْلِيَّةِ بِسَبَبِ الْاِقْتِسَامِ الْمُجْتَمَعِيِّ الْفِكْرِيِّ
 وَالذِّيْنِيِّ وَالصَّرَاعَاتِ بَيْنَ الْأَحْزَابِ الدِّيْنِيَّةِ وَتَحْوِيلِ الصَّرَاحِ السِّيَاسِيِّ عَلَى الْحُكْمِ لِصِرَاحٍ ذِيْنِيٍّ مِمَّا يَجْعَلُهُ
 مَشْرُوعًا فَأَشْلَا غَيْرَ صَالِحٍ لِلتَّطْبِيقِ، كَمَا حَدَّثَ فِي الْعُشْرِيَّةِ السُّودَانِ فِي الْجَزَائِرِ بَعْدَ الْإِغَاءِ الْجَيْشِ
 الْجَزَائِرِيِّ لِلْإِتِّخَابَاتِ التَّشْرِيعِيَّةِ الَّتِي فَازَتْ بِهَا الْجَبْهَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ لِلْاِتِّقَادِ، وَعَارَضَتْ الْجَبْهَةُ اِنْقِلَابَ الْجَيْشِ
 الْجَزَائِرِيِّ وَدَعَتْ لِاِعْتِصَامَاتٍ وَمُظَاهِرَاتٍ رَاحَ صَحِيَّتُهَا الْمَاتَ ثُمَّ بَدَأَتْ الْهَجَمَاتُ الْإِرْهَابِيَّةَ ضِدَّ
 الْجَيْشِ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي اسْتَوَطَنَهَا الْإِسْلَامِيَّةِينَ الْمُسَلِّحِينَ وَشَتَوْا الْمَجَازِرَ ضِدَّ الْمُدَيِّنِينَ الْمُؤَيَّدِينَ لِلْجَيْشِ
 بَعْدَ تَكْفِيرِهِمْ، وَقَدْ رَاحَ صَحِيَّتُهَا 150 أَلْفَ شَخْصٍ . كَمَا تُؤَدِّي الْأَحْزَابُ الْإِسْلَامِيَّةُ لِاِتِّشَارِ الْاِلْحَادِ فِي
 الْمُجْتَمِعِ؛ بِسَبَبِ غَضَبِ الْمُجْتَمِعِ تَجَاهَ تِلْكَ الْأَحْزَابِ الَّتِي تُمَارِسُ الْاِسْتِبْدَادَ وَالسَّرِقَةَ وَالْفَسَادَ بِاسْمِ
 الدِّينِ، وَكَوْنِهَا تُرْبِطُ هَزِيمَتَهَا السِّيَاسِيَّةَ بِأَنَّهَا هَزِيمَةٌ لِلذِّنِ نَفْسِهِ، وَلَيْسَ لِحِزْبٍ سِيَّاسِيٍّ يُنْمَطَى الدِّينَ وَيَرْفَعُ
 شِعَارَاتٍ دِيْنِيَّةٍ كَوَسِيلَةَ لِلْوُصُولِ لِمَا هُوَ دُيُوبِي . .

ظُهُورُ الْمُصْطَلَحِ

ظَهَرَ مُصْطَلَحُ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ لَوْصَفِ حَرَكَاتِ تَغْيِيرِ سِيَاسِيَّةِ تُؤْمِنُ بِالْإِسْلَامِ بِإِعْتِبَارِهِ «نِظَامًا سِيَاسِيًّا لِلْحُكْمِ»، وَإِنَّ الْإِسْلَامَ «لَيْسَ عِبَارَةً عَنْ دِيَانَةٍ فَقَطْ وَإِنَّمَا عِبَارَةٌ عَنْ نِظَامِ سِيَاسِيٍّ .

وَاجْتِمَاعِيٍّ وَقَانُونِيٍّ وَاقْتِصَادِيٍّ يَصْلُحُ لِبِنَاءِ مُؤَسَّسَاتِ دَوْلَةٍ». وَرَغْمَ رِبْطِ هَذَا الْمُصْطَلَحِ بِبَعْضِ الْأَسْمَاءِ بَعَيْنِهَا مِثْلَ -حَسَنِ الْبَنَاءِ- وَبَعْضِ الْجَمَاعَاتِ وَالْحَرَكَاتِ مِثْلَ -الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ- أَوْ -الْحَرَكَةِ الْوَهَابِيَّةِ- إِلَّا أَنَّ لِلْمُصْطَلَحِ تَارِيخَ أُنْعَدُ مِنْ ذَلِكَ فَيَعُودُ التَّارِيخُ السِّيَاسِيُّ لِلْإِسْلَامِ لِعَهْدِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ نَفْسِهِ عِنْدَمَا أُسِّسَ دَوْلَةُ إِسْلَامِيَّةً فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ثُمَّ تَوَسَّعَتْ خِلَالَ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ

وَيَسْتَحْدِمُ الْمُصْطَلَحُ غَالِبًا فِي سِيَاقِ الرِّبْطِ مَعَ الْحَرَكَاتِ الَّتِي تُمَثِّلُ الْقُوَى السِّيَاسِيَّةَ الْحَالِيَّةَ بِاسْمِ الْإِسْلَامِ، وَالَّتِي نَشَأَتْ فِي نَهَايَةِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ وَيَسْتَحْدِمُ بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ الْأَكَادِمِيِّينَ مُصْطَلَحَ الْإِسْلَامِيَّةِ لَوْصَفِ نَفْسِ الظَّاهِرَةِ أَوْ يَسْتَحْدِمُونَ كِلَا الْمُصْطَلَحَيْنِ بِشَكْلِ تَبَادُلِيٍّ .

نَشَأَةُ تَارِيخِيَّةِ

يَعُودُ التَّارِيخُ السِّيَاسِيُّ لِلْإِسْلَامِ إِلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَمَا أُسِّسَ الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، فَبَعْدَ مُرُورِ 13 عَامًا مِنْ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ فِي مَكَّةَ، وَاجَهَ الرَّسُولُ وَأَصْحَابُهُ مَقَاوِمَةً شَدِيدَةً وَأَضْطَهَدُوا شَدِيدًا مِنَ الْوَثَنِيِّينَ، وَدَفَعَ ذَلِكَ بِالرَّسُولِ لِلْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ (يَثْرِبَ)، بَعْدَ أَنْ رَحَّبَ أَهْلُهَا مِنْ قَبَائِلِ الْأَنْصَارِ بِالرَّسُولِ وَأَعْلَنُوا الْبَيْعَةَ لَهُ، وَمِنْ هُنَا قَدَّرَ لِلدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنْ تَنْشَأَ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ثُمَّ بَدَأَتْ الْغُرُوزَاتُ لِصَدِّ هَجْمَاتِ الْوَثَنِيِّينَ وَلاحِقًا بَدَأَ جِهَادُ الطَّلَبِ لِشَرْعِ الْإِسْلَامِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْأُخْرَى عَبْرَ قِتَالِ الْوَثَنِيِّينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَفَرَضَ جُزْئَهُ سَنَوِيَّةً عَلَيْهِمْ، ثُمَّ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ بَاعَ

المسلمين أبو بكر الصديق على السمع والطاعة في سقيفة بني ساعدة؛ فقامت الخلافة الراشدة التي امتدت للعراق وبلاد الشام ثم تمددت في عهد عمر بن الخطاب لتشمل شمال إفريقيا وبلاد فارس، ثم قامت الخلافة الأموية بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان فتمددت الدولة الإسلامية لتشمل الأندلس وأجزاء ضخمة من آسيا الوسطى، وبعد ضعف الدولة الأموية نشأ الحزب العباسي الذين بايعوا بنو العباس وقالوا بأنهم أحق بالخلافة باعتبارهم من نسل عم النبي العباس بن عبد المطلب وقادوا ثورات مسلحة ضد الدولة الأموية بقيادة أبو مسلم الخراساني وأعلنوا قيام الخلافة العباسية في خراسان وتوالت هزائهم الأمويين وسقطت أراضيهم في يد العباسيين وقام أبو العباس السفاح بالعديد من الجرائم ضد الأمويين كإخراج جثثهم والتَّمثيلُ بها والصلب وغيرها من التَّكْييلِ بِخُصُومَةٍ حَتَّى لَقِبَ بـ"السفاح"، ثم نشأت الخلافة العثمانية عقب تنازل الخليفة العباسي الممكوك على الله عن الخلافة للعثمانيين وامتدت الخلافة العثمانية لتشمل القسطنطينية والبلقان، وبعد قيام الدول الوطنية الحديثة التي تقوم على مبدأ العلمانية وفصل الدين عن شؤون الدول عقب انتهاء سيطرة الدولة العثمانية نشأت عدّة أحزاب في دول عدّة تعمل لإقامة دولة إسلامية مرة أخرى منها ما هو دعوى سلمى ومنها ما هو جهادي مسلح وتم إطلاق عليهم من قبل العلمانيين مصطلح الإسلام السياسي .

مأساة الإسلام السياسي: قرن من التجارب مع الحداثة

أثار صعود الإسلاميين في أعقاب الربيع العربي حالة من الاستقطاب المجتمعي في العديد من الدول. وقد تصدر الجهاديون ذات يوم مشهد حركات الإسلام السياسي بعد أن استخدّموا العنف الشديد في

السَّيْطَرَةُ عَلَى مَسَاحَاتٍ وَسِعَةٍ مِنَ الْأَرَاضِ، يُبْغِي طَرْحَ سُؤَالٍ: هَلْ يُمَكِّنُ التَّوْفِيقُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ وَالْحَدَاثَةِ الْعِلْمَائِيَّةِ؟

أَنَّ الْإِسْلَامَ السِّيَاسِيَّ فِي مَارِقٍ؛ فَالْأَخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ فِي مِصْرٍ - أَقْدَمَ وَأَكْبَرَ مُنْظَمَةِ إِسْلَامِيَّةٍ تَعْمَلُ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ - قَدْ أَصْبَحَتْ مَحْظُورَةً وَصَنَّفَتْ مُنْظَمَةً أَرْهَابِيَّةً فِي عَدَدٍ مِنَ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَكْثَرِ نَفُودًا. وَخَسِرَتْ حَرَكَةَ النُّهْضَةِ التُّونِسِيَّةِ، الَّتِي يُمَكِّنُ الْقَوْلُ أَنَّهَا الْحَرَكَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْأَكْثَرُ تَطَوُّرًا فِي الْفِكْرِ السِّيَاسِيِّ فِي الْمِنْطَقَةِ، خَسِرَتْ الْإِتِّخَابَاتِ الْبُرْلَمَائِيَّةَ فِي أَكْثَرِ/تَشْرِينِ الْأَوَّلِ 2014؛ وَاضْطُرَّتْ مِرَارًا وَتَكَرَّرًا أَنْ تَنْأَى بِنَفْسِهَا عَنِ الْمُتَشَدِّدِينَ الْإِسْلَامِيِّينَ الَّذِينَ يَهْدِدُونَ تُونِسَ الْآنَ. وَبِالنَّظَرِ إِلَى الْمَغْرِبِ، نَجِدُ أَنَّ حِزْبَ الْعَدَالَةِ وَالنَّمِيَّةِ هُوَ أَوَّلُ حِزْبٍ إِسْلَامِيٍّ يَقُودُ ائْتِلَافًا حَاكِمًا فِي الْبِلَادِ، وَلَكِنْ قَادَةَ الْحِزْبِ يَدْرِكُونَ جَيِّدًا الْمَكَانَةَ الرَّفِيعَةَ الَّتِي تَمْتَعُ بِهَا الْمَلِكِيَّةُ فِي النِّظَامِ السِّيَاسِيِّ فِي الْمَمْلَكَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ.

وَقَدْ أُحْتَلَّتِ الْجَمَاعَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْأَشَدَّ عُنْفًا صَدَارَةَ الْمَشْهَدِ لِفَتْرَةٍ زَمَنِيَّةٍ؛ فَالْتَّنْظِيمَاتُ الْجِهَادِيَّةُ فِي الْعِرَاقِ وَسُورِيَا سَيَّطَرَتْ عَلَى مَسَاحَةِ جُغْرَافِيَّةٍ أَكْبَرَ مِنْ بَعْضِ الدُّوَلِ الْأُورُوبِيَّةِ كَانُوا يُحَاوِلُونَ إِحْيَاءَ دَوْلَةٍ نَشِئَتْ إِلَى الْقَرْنِ السَّابِعِ الْمِيلَادِيِّ بَيْنَمَا نَعِيشُ فِي الْعَقْدِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ، وَلَكِنْ دُونَ الْمَلَامِحِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَالتَّارِيخِيَّةِ، وَالثَّقَافِيَّةِ الَّتِي جَعَلَتْ الدَّوْلَةَ الَّتِي تُحَاوِلُ تِلْكَ التَّنْظِيمَاتُ إِحْيَاءَهَا بِذَرِهِ لِحَضَارَةِ غَنِيَّةٍ. يَرَى الْكَثِيرُونَ أَنَّ مِثْلَ تِلْكَ الْجَمَاعَاتِ ظَاهِرُهُ عَجِيبَةٌ، لَكِنْ آخَرُونَ يَرَوْنَهَا نَتِيجَةَ حَمِيَّةٍ لِعُقُودٍ مِنَ الْخُمُولِ، وَالتَّدْنِي الْفِكْرِيِّ، وَفَشَلِ السِّيَاسَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ فِي أَجْزَاءٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، خُصُوصًا فِي الْمِنْطَقَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَفِي خِصْمٍ تَطَوَّرَ تَسْيِيسَ الدِّينِ، أَصْبَحَ الإِسْلَامُ نَفْسِهِ فِي مَوْضِعِ الشُّبُهَةِ، مِمَّا دَفَعَ قِطَاعَاتٍ وَاسِعَةٍ مِنْ المُرَاقِبِينَ ذَوِي العُلَاقَاتِ النَّافِذَةِ، خُصُوصًا فِي العُزْبِ، إِلَى التَّنَظَرِ إِلَى الإِسْلَامِ بِاعْتِبَارِهِ دِينًا يَتَسَاهَلُ مَعَ العُنْفِ - وَفِي نَظَرِ البَعْضِ يُجَسِّدُهُ. وَبَطَرِحِ جَانِبِ المَشَاكِلِ الإِقْتِصَادِيَّةِ الَّتِي نَمَرُ بِهَا أُورُوبًا، نَجِدُ أَنَّ الخَوْفَ مِنَ المُسْلِمِينَ هُوَ صَمِيمُ المَوْجِهَةِ المُعَادِيَّةِ لِلْمُهَاجِرِينَ الَّتِي تَجَاحِ القَارَةَ. ثَمَّةَ شُعُورٍ قَوِيٍّ فِي أَوْسَاطٍ كَثِيرَةٍ أَنَّ الإِسْلَامَ مَا هُوَ إِلَّا خِصْمٌ فِكْرِيٌّ لِلإِنْسَانِيَّةِ وَاللِّبْرَالِيَّةِ.

وَقَدْ فَشَلَّتِ المَوْسَسَاتُ الإِسْلَامِيَّةُ - الَّتِي تَحْطَى بِتَوْقِيرٍ وَافِرٍ لِتَعْلِيمِهَا الفِئَهِيَّ - فِي مُعَالَجَةِ هَذِهِ التَّحَدِيَّاتِ حَتَّى الآنَ. وَمِمَّا يَزِيدُ الأَمْرَ تَعْقِيدًا هُوَ أَنَّ الفِكرَ السَّائِدَ فِي هَذِهِ المَوْسَسَاتِ قَدْ تُشَكِّلُ مِنْ تَرَاثِ القُرُونِ العَشْرَةِ المَاضِيَّةِ، وَهِيَ الفُتْرَةُ الَّتِي غَابَتْ فِيهَا آيَةُ ضُغُوطِ اجْتِمَاعِيَّةٍ تُدْفَعُ نَحْوَ التَّغْيِيرِ مِثْلِ تِلْكَ الَّتِي وَاجَهَتْهَا المَوْسَسَاتُ الدِّينِيَّةُ العَرَبِيَّةُ. فَمَا التَّيَجُّةُ؟ مَا زَالَتْ أَكْبَرُ المَوْسَسَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَأَعْنَاهَا، وَأَبْرَزَهَا تَدَوَّرُ فِي مَجَالِ فِكْرِيٍّ لَمْ يَتَغَيَّرْ كَثِيرًا فِي الأَعْوَامِ الثَّلَاثِمِائَةِ المَاضِيَّةِ.

الدِّينُ العَقْلَانِيَّ

يُنشَأُ ذَاكَ الفِشَلُ المُعَاصِرُ للإِسْلَامِ السِّيَاسِيَّ مِنْ صِرَاعِ امْتِدَادِ لَمِيَّةٍ وَخَمْسِينَ عَامًا لِلِإِجَادِ أَرْضِيَّةٍ مُشْرَكَةٍ بَيْنَ الإِسْلَامِ وَالْحَدَاثَةِ، لَيْسَ عَلَى مُسْتَوَى مَبَادِي الإِيمَانِ، أَوْ الطُّقُوسِ، أَوْ القِيَمِ المُرْتَبِطَةِ بِالدِّينِ، وَإِنَّمَا عَلَى مُسْتَوَى الأَدْوَارِ السِّيَاسِيَّةِ، وَالاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالتَّشْرِيْعِيَّةِ الَّتِي نَهَضَ بِهَا الإِسْلَامُ فِي المُجْتَمَعِ، تِلْكَ الأَدْوَارِ الَّتِي يَعْتَقِدُ الكَثِيرُونَ أَنَّهَا جُزْءٌ لَا يَتَجَرَّأُ مِنْ جَوْهَرِ الدِّينِ.

فِي القُرُونِ العَشْرَةِ المَاضِيَّةِ، ظَهَرَ الإِسْلَامُ بِاعْتِبَارِهِ المُحَدَّدِ الاجْتِمَاعِيَّ الأَشَدَّ تَأْثِيرًا فِي «الأَرَاضِي الإِسْلَامِيَّةِ» الَّتِي أَضْحَتْ حُدُودَهَا تُضَمُّ شِبْهَ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ، وَبِلَادِ فَارِسَ، وَشَرْقِ البَحْرِ الأَبْيَضِ

المُوسَط، وشمال أفريقيا، وأجزاء من جنوب أوروبا وآسيا الصغرى. وعلى الرغم من أن ههنا مُختلفًا للإسلام قد ظهر في كل من هذه المناطق؛ مما ساهم في تشكيل ثقافات شديدة الاختلاف، فإن الإسلام - أو بالأحرى تأويلاته المختلفة في كل منطقة على حدة - كان العامل الحاسم في إضفاء الشرعية على الحكم السياسي، وتنظيم المجتمع، وسن القوانين، وتعريف أمة دولة باعتبارها دولة «إسلامية».

تغيرت هذه القاعدة في الفترة بين أوائل إلى منتصف القرن التاسع عشر؛ فقد كشف وصول القوى الاستعمارية الأوروبية إلى الشرق الأوسط التفاوت المذهل بين معارف العرب والمسلمين وأدوات السلطة التي يملكونها وبين تلك التي لدى الغربيين. كان هذا الإدراك دافعًا قويًا - على الأقل في بعض دوائر النخبة - إلى الخلاص من ذلك الخمول والحقاق بركب الغرب. خلال القرن التاسع عشر، أخذ العديد من حكام العالم الإسلامي على عاتقهم تحديث جيوشهم، وإصلاح نظم توزيع الأراضي الزراعية، وإدخال التصنيع الحديث، ودعم التغييرات في القواعد الاجتماعية المتعارف عليها، بداية من سلالة محمد علي في مصر، والعديد من السلاطين العثمانيين مثل محمود الثالث، وإناطرة الفرس مثل الشاه نصر الدين، وحكام شمال أفريقيا مثل حسين باي في تونس.

أضعفت هذه الإصلاحات - التي شملت إدخال أسس التربية الحديثة على النمط الأوروبي - دور المؤسسات الدينية السياسي والاجتماعي، وكذلك التأثير الاقتصادي للأوقاف؛ مما أسفر عن استبدال السلطات الدينية بمتخصصين علمانيين في البلاط الملكي، والدوائر السياسية، والسلطة القضائية. كانت الحداثة تقطع بشكل لا لبس فيه من دور الإسلام في المجتمع.

لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُسْتَعْرَبِ أَنْ أَدَانَتْ الْعَدِيدَ مِنَ الْمَوْسَسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْكُبْرَى هَذِهِ الْحَدَاثَةُ؛ فَقَدْ عَارَضُوا
إِدْخَالَ التَّعْلِيمِ الْعِلْمَانِيِّ، وَالْإِخْتِلَاطِ بَيْنَ الْجَنْسَيْنِ، وَطُرُقِ التَّمْوِيلِ الْغُرْبِيَّةِ، وَكَذَلِكَ تَرْجَمَةَ الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ
الْغُرْبِيَّةِ، وَاسْتِيرَادَ الظَّوَاهِرِ الثَّقَافِيَّةِ مِثْلَ الْمَسْرُوحِ، وَالْإِتِّعَادِ عَنِ نَظْمِ الْحُكْمِ وَالْإِدَارَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ. كَانَتْ تِلْكَ
الْإِجْرَاءَاتُ بِمِثَابَةِ بَدْعٍ يَجِبُ رَفْضُهَا، وَمُحَارَبَتُهَا إِنْ لَزِمَ الْأَمْرُ.

لَكِنْ بَعْضُ عُلَمَاءِ الدِّينِ أَدْرَكُوا أَنَّ مُوجَّهَ الْحَدَاثَةِ لَمْ تَكُنْ فَقْطَ ضَرُورِيَّةً لِتَطْوِيرِ مُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَإِنَّمَا أَيْضًا لَا
يُمْكِنُ وَقْفُهَا؛ فَدَفَعُوا بِأَنَّ الْحَدَاثَةَ لَا تَنْفِي الْإِسْلَامَ. كَانَ الْإِسْلَامُ، بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، دِينًا عَقْلَانِيًّا أَتَقَدَّ الْعَرَبُ
مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ - وَمِنَ الْجَهْلِ. وَمِنْ وَجْهِ نَظَرِهِمْ، كَانَتْ الْمُظَاهِرِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي فُرِضَتْ عَلَى الْإِسْلَامِ
فِي الْقُرُونِ السَّابِقَةِ مِنْ صُنْعِ الثَّقَافَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ، وَالتَّأْوِيلَاتِ الضَّيِّقَةِ لِقَوَاعِدِ الدِّينِ وَتَعَالِيمِهِ، وَأَنْحِرَافَاتِ
الْفِكْرِ. وَكَانَ لِحِمَالِ الدِّينِ الْإِفْغَانِيِّ وَمَنْ بَعْدَهُ تَلْمِيذُهُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ أَتَلَّغَ الْأَثَرِ فِي هَذَا الْإِتِّجَاهِ الْفِكْرِيِّ؛
فَقَوْلِيَا الدَّعْوَةَ إِلَى الْإِسْلَامِ بِإِعْتِبَارِهِ «رِسَالَةً» أَلْهَمَتْ حَضَارَةَ غَنِيَّةً، وَأَضَافَتْ إِلَى التَّرَاكُمِ الْمَعْرِفِيِّ لِلْبَشَرِ
وَمُخْزُونِ ثَقَافَتِهِمْ، وَجَمَعَتْ شُعُوبًا مِنْ خَلْقِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمَامًا، وَاسْتَلْهَمَتْ الْكَثِيرَ مِنَ الْحَضَارَاتِ
الْأُخْرَى، مِثْلَ الْيُونَانِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ، وَاحْتَضَنَتْ فَلَاسَفَاتٍ مُتَّسِمَةً كَانَتْ، فِي أَغْلِبِهَا، غَيْرَ قَائِمَةٍ عَلَى
الدِّينِ مِثْلَ فَلَاسَفَاتِ الرَّازِيِّ وَابْنِ سِينَا. لَقَدْ وَضَعَتْ هَذِهِ الْمُدْرَسَةُ الْإِسْلَامَ فِي إِطَارِ «الْمَرْجِعِيَّةِ» الَّتِي
مِنْ شَأْنِهَا تَوْجِيهِ الْمَجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي طَرِيقِهَا الْمَحْتَمِ إِلَى الْحَدَاثَةِ، ذَاكَ الطَّرِيقَ الَّذِي رَأَاهُ أَصْحَابُ
هَذِهِ الْمُدْرَسَةِ ضَرُورِيًّا. كَانَ الْهَدَفُ هُوَ الْإِحْتِفَاءُ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمَةِ بِالْأَدَوَاتِ، بِمَا ذَلِكَ طَرِيقَةُ
التَّفَكُّيرِ، الَّتِي مَكَّنَتْ الْعَرَبَ مِنَ التَّقَدُّمِ، دُونَ أَنْ تُفَقِدَ السَّمَاتِ الدِّيْنِيَّةَ وَالثَّقَافِيَّةَ الَّتِي تُحَدِّدُ الْهُويَّةَ
الْإِسْلَامِيَّةَ.

أَصْبَحَ الْإِفْغَانِي وَعَبْدُهُ مِنْ مَشَاهِيرِ الْمُتَقَفِّينِ فِي أَنْحَاءِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ . وَلَكِنْ أَفْكَارِهِمْ لَمْ تَكْتَسِبْ قَطَّ
إِتِّسَارًا وَاسِعًا ، أَوْ زُخْمًا كَبِيرًا فِي أَكْبَرِ قِطَاعَاتِ الْمُجْتَمَعَاتِ ذَاتِ الْأَعْلَبِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ . وَبِرَغْمِ أَنْ الْإِفْغَانِي
أَصْبَحَ مُسْتَشَارًا مُقَرَّبًا مِنَ السُّلْطَانِ الْعُثْمَانِيِّ عَبْدِ الْحَمِيدِ الثَّانِي لِفَتْرَةٍ وَجِيهَةٍ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ النَّاسِعِ
عَشَرَ ، لَمْ تَحْضُلْ هَذِهِ الْمُدْرَسَةُ الْفِكْرِيَّةُ عَلَى أَيِّ دَعْمٍ جَادٍّ مِنَ الدَّوْلَةِ . وَتَبِيحَةً لِذَلِكَ ، مَكَثَتْ أَفْكَارُ
الْإِفْغَانِي وَعَبْدِهِ وَاتَّبَاعِهِمْ مُحْتَجِبَةً فِي أَنْبَاجِ عَاجِيهِ . وَبِكَوْنِهَا مُنْفَصِلَةٌ عَنِ حَيَاةِ الْغَالِبِيَّةِ الْمُظْمَى مِنْ
الْمُسْلِمِينَ ، كَانَ تَأْثِيرُ تِلْكَ الْأَفْكَارِ مُحْدُودًا لِلْغَايَةِ . فَشَلَّتْ هَذِهِ الْمُدْرَسَةُ فِي الْوُصُولِ إِلَى كُتْلَةِ حَرِجَةٍ مِنْ
الْمُسْلِمِينَ وَتَحْوِيلُهَا إِلَى وَجْهِهِ نَظَرُهَا بِشَأْنِ مَوْقِعِ الْإِسْلَامِ فِي مُجْتَمَعِ الْحَدَاثَةِ (أَوْ الَّذِي فِي طَرِيقِهِ إِلَيْهَا)
نَاهِيكَ عَنِ إِقْتِنَاعِهِمْ بِوَجْهِهِ النَّظَرِ تِلْكَ .

لَكِنْ مَشْرُوعًا آخَرَ لِلتَّحْدِيثِ لَمْ يُخَصَّصْ مَكَانًا لِلْإِسْلَامِ فِي الْمُجْتَمَعِ عَلَى الْإِطْلَاقِ . سَعَى كَمَالُ آتَا تُورْكَ
فِي تَرْكِيَا إِلَى إِخْرَاجِ كُلِّ مَظَاهِرِ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ مِنَ الدَّوْلَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي خَلَقَهَا فِي
عِشْرِينَاتِ وَثَلَاثِينَاتِ الْقَرْنِ الْمَاضِي عَلَى انْقِضَاءِ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ . بِالنِّسْبَةِ لِآتَا تُورْكَ وَاتَّبَاعِهِ ، كَانَ
الْإِسْلَامُ ، فِي أَفْضَلِ الْأَحْوَالِ ، دِينًا يُمَكِّنُ لِلْأَفْرَادِ احْتِرَامَهُ وَمُمَارَسَتَهُ فِي حَيَاتِهِمْ الْخَاصَّةِ ، طَالَمَا أَنْ نُفُودِهِ
لَا يَمْتَدُّ إِلَى الدَّوْلَةِ وَلَا يُظْهِرُ جَلِيًّا فِي أَيِّ مِنْ جَوَانِبِ الْمُجْتَمَعِ ؛ وَفِي أَسْوَأِ الْأَحْوَالِ ، كَانَ تَرَاثِ الْإِسْلَامِ
بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ عَقَبَةٌ أَمَامَ التَّقَدُّمِ . وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ عَشْرٍ فِي تُونِسَ ، طَرَحَ الْحَبِيبُ بُورْقِيَّةَ فِكْرًا مُمَاتِلًا فِي
سِتِينَاتِ الْقَرْنِ الْمَاضِي ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُعَدًّا قَلِيلًا ؛ فَلَمْ يُطْرَحْ بُورْقِيَّةَ بَرْنَامَجَهُ لِلتَّحْدِيثِ مُعَارِضًا لِلْإِسْلَامِ .
وَقَالَ إِنَّهُ لَا يَرَى أَنَّ الْمُجْتَمَعِ يَجِبُ أَنْ يَقْطَعَ صِلَتَهُ بِالتَّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ تَمَامًا . وَبَدَلًا مِنْ ذَلِكَ ، أَكَّدَ أَنَّ
الْإِسْلَامَ - فِي صُلْبِهِ - عَقِيدَةٌ وَمَجْمُوعَةٌ مِنَ الْقِيَمِ ؛ وَإِنَّ الْمُجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ بِحَاجَةٍ إِلَى الْهَامِ مِنْ هَذِهِ

القيم للفكاح من خمول القرون الماضية، ولكن هذا لا يعني أن تتسامح مع مظاهر الدين السياسي والاجتماعية. كان «الجهاد الأكبر»، بالنسبة إليه، يكمن في تبني الوسائل التي من شأنها أن تسمح للمسلمين بالحق بركب العالم. كان بورقيبة يعرف أن النتيجة الحتمية لهذا الاتجاه لها ثمن - ثمن رآه هو مقبولاً إن لزم الأمر - التضحية بالأمور التي تحدد وجود الإسلام في المجتمع كما تعارف عليها معظم المسلمين، من الشريعة إلى الصلاة وصيام رمضان.

استمرت دولة أتاتورك ونظام بورقيبة لثغود، ولكن نقصاً بالغاً قد ظهر في بنتهما السياسية. أثبتت النجاحات الانتخابية التي حققتها الأحزاب الإسلامية في تركيا منذ أوائل تسعينات القرن الماضي وحتى الوقت الزاهن إن دولة أتاتورك ونخبها العلمانية قد فرضت النظام على المجتمع من أعلى دون النظر إلى أن قطاعات واسعة منه كانت تتوق إلى التغيير عن تدينها وربط تراثها الإسلامي الممتد عبر قرون بالحدثة التي كانوا مستعدين لبنيها.

وكشف صعود حركة النهضة الإسلامية في تونس عقب انتفاضة عام 2010 العفن الذي قد ضرب الدولة العلمانية في البلاد؛ وأظهر أن قطاعات واسعة من الطبقة الوسطى والتوسيين الفقراء لطالما رغبت في أن يكون للإسلام دور رئيسي في حياتهم، ومجتمعهم، ودولتهم. إن درس تركيا وتونس واضح لا لبس فيه: من المستحيل اقتلاع مظاهر الإسلام السياسية والاجتماعية في مجتمع ذو أغلبية مسلمة.

سعى بعض القوميين العرب إلى تحقيق مقارنة بين مدرسة الأفغاني وعبدته وتجربة أتاتورك. كان المشروع القومي العربي، وخاصة في أوجه في ظل الرئيس المصري جمال عبد الناصر، متركزاً حول

فكره تحقيق نهضة اشتراكية علمانية من شأنها أن «تحرر العالم العربي»، وتحقق المساواة الاجتماعية للجماهير العربية الفقيرة، و«إحياء الإرادة العربية». لا يكاد الإسلام يجد له مكاناً في هذه الصورة، ولكن العقيدة الإسلامية وتراثها ظلّتا بمثابة «مظلة حضارية» تضم القومية العربية تحتها. وعن عمد قد تركت التفاصيل في الخطاب القومي مبهمّة، تارة يُمجّد القادة القوميون - أو أبواقهم - الإسلام ودوره في المجتمع وتارة يُهمّشونه حسبما تُملى عليهم رغباتهم. ومع ذلك، كان النهج القومي العربي محاولة لدفع عجله التحديث دون بَدْ ارتباط المجتمع بالإسلام. اتخذ المشروع القومي العربي طريقاً وسطاً بين نموذج أتاتورك، ونموذج الإغاني وعبدّه؛ فلم يُعبّر القوميون العرب الإسلام خصماً فكرياً للتحديث أو عقبة في طريق التقدم، ولم يُعبّروه أيضاً الهوية الرئيسية التي يعيّن الحفاظ عليها أو المرجعية التي تُقاس عليها الأفكار الجديدة.

كان الفشل نصيب هذا النهج أيضاً. وبصرف النظر عن الهزائم العسكرية وضعف الأداء الاقتصادي، وقعت نماذج القومية العربية، مثل الناصرية وغيرها، في فخ الوعود الهائلة التي عجزت عن الوفاء بها. لقد أضعف انكسار الحلم فكره العروبة؛ فخلق فراغاً هائلاً في النفسية العربية، فراغاً كان مؤلماً بالنسبة إلى الكثيرين. لم يكن شيءٌ يملأ هذا الفراغ سوى العودة إلى ما اعتبره الكثيرون الهوية الحقيقية: الإسلام.

وقد ساعدت عدة عوامل في ذلك. أدت الزيادة الهائلة في أسعار النفط في سبعينات القرن الماضي إلى موجّه ضخمة من الهجرة من الدول العربية غير المصدرة للنفط إلى دول الخليج. سافر ملايين المصريين، والأردنيين، والمغاربة، والفلسطينيين، والسوريين، والسودانيين إلى المملكة العربية السعودية،

وَالْكُوَيْتِ، وَالْأَمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ فِي وَقْتِ كَانَتْ فِيهِ هَذِهِ الدُّوَلِ أَكْثَرُ مُحَافِظَةً بِكثيرٍ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ. وَتَرَامُنْ ذَلِكَ مَعَ تَغْيِيرِ تَدْرِيجِيٍّ لَا يُمكنُ تَجَاهِلُهُ فِي دُورِ الدَّوَلَةِ فِي الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ الْفَقِيرَةِ. كَانَتْ قَدْرُهُ هَذِهِ الدُّوَلِ عَلَى الْوَفَاءِ بِاللِّزَامَاتِ الَّتِي قَطَعَهَا عَلَى نَفْسِهَا فِي الْخَمْسِينَاتِ وَالسِّتِينَاتِ مِنْ الْقَرْنِ الْمَاضِي تَرَجَعَ بِاسْتِمْرَارٍ. التَّزَامَاتِ مِثْلِ التَّعْلِيمِ الْمَجَّانِيِّ وَالرِّعَايَةِ الصَّحِيَّةِ، وَالْمَوَادِّ الْغِذَائِيَّةِ وَالطَّاقَةَ الْمَدْعُومَةَ بِشِدَّةٍ أَصْبَحَتْ خَارِجَ حُدُودِ قُدْرَاتِهَا.

وَفِي غُضُونِ عَقْدَيْنِ مِنَ الزَّمَنِ، تَسَبَّبَتْ هَذِهِ التَّطَوُّرَاتُ فِي إِحْدَاثِ تَغْيِيرٍ جِذْرِيٍّ فِي تَرْكِيبِهِ الطَّبَقَاتِ الْمَوْسُطَةِ فِي عِدَّةِ دُولٍ عَرَبِيَّةٍ كَبِيرَةٍ مِثْلِ مِصْرَ وَسُورِيَا. كَانَتْ الْفِئَاتُ الْأَجْمَاعِيَّةُ الْمُحَافِظَةُ التَّقْلِيدِيَّةُ تَتَسَلَّقُ السَّلَامَ الْأَجْمَاعِيَّ؛ وَجَرَى تَصْدِيرُ قِيَمٍ وَمَذَاهِبٍ دِينِيَّةٍ مُتَشَدِّدَةٍ - مِثْلُ الْوَهَابِيَّةِ الْمَدْعُومَةِ مِنَ السُّعُودِيَّةِ - مِنْ الْخَلِيجِ إِلَى شَرْقِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمَوْسُطِ وَشَمَالِ أَفْرِيْقِيَا. كَانَتْ الْمُجْتَمَعَاتُ الْعَرَبِيَّةُ تَتَغَيَّرُ قَلْبًا وَقَالِبًا، مِنْ الْارْتِفَاعِ الْكَبِيرِ فِي نَسْبِهِ النِّسَاءِ الْمُحَبَّبَاتِ، إِلَى التَّغْيِيرَاتِ الَّتِي لَا تُحِطُّهَا الْعَيْنُ (يَرَاهَا الْبَعْضُ تَدْهُورًا) فِي الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْفَنِّ، وَالتَّرْفِيهِ. رَاهَنْتُ بَعْضَ الْأَنْظِمَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَبْرَزَهَا نِظَامَ الرَّيْسِ أَمْرٍ السَّادَاتِ فِي مِصْرٍ، عَلَى التِّيَّارِ الدِّيْنِيِّ الْمُحَافِظِ لِإِضْعَافِ الْمُورُوثَاتِ الْقَوْمِيَّةِ مِنْ أَسْلَافِهِمْ وَخُصُومَتِهِمْ وَتَعْرِيزِ شَرْعِيَّتِهَا؛ فَاطْلُقُوا يَدَ الْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْجَامِعَاتِ، وَالتَّقَابَاتِ الْمِهْنِيَّةِ، وَوَسَائِلِ الْإِعْلَامِ عَلَى حِسَابِ الْقَوْمِيَّينِ الْعَرَبِ الْعُلَمَائِيَّينِ.

عُرِسَتْ بُدُورُ حِلْمِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَشَدِّدِينَ فِي إِيرَانَ بِبِنْدِ الْأَنْظِمَةِ السِّيَاسِيَّةِ الْعُلَمَائِيَّةِ وَالْعُودَةِ بِالْمُجْتَمَعِ إِلَى «الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ» بَعْدَ أَنْ جَاءَ عَامَ 1979 بِسُقُوطِ الشَّاهِ الَّذِي تُبْنَى بِشِدَّةِ الْيَمُودِجِ الْغُرْبِيِّ. لَمْ يَكُنْ هَذَا كُلُّ مَا حَدَثَ فِي عَامِ 1979، فَقَدْ كَانَ أَيْضًا الْعَامَ الَّذِي شَهِدَ الْغُرُوَّ السُّوفِيَّيَّ لِأَفْغَانِسْتَانَ، ذَلِكَ الْغُرُوُّ

الذي قدم للحركة الإسلامية عشرات الآلاف من المقاتلين الذين أنصبتهم ساحات المعارك. بذلت
العديد من الدول، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، جهودها لتحويل مغامره الاتحاد السوفيتي
إلى صراع يخوضه المقاتلون الإسلاميون لطرد «الاتحاد السوفيتي المُلحد من أفغانستان الإسلامية».
وبعد مرور عقدٍ على انسحاب السوفييت، عاد هؤلاء المقاتلين مُتصّرّين إلى بلادهم ليستخدّموا
طريقتهم في الجهاد - حرب العصابات - ضد «الأنظمة الكافرة التي تلوث الأراضي الإسلامية».
هذا كله أعطى زخمًا قويًا للجماعات السياسية الإسلامية القائمة منذ فترة طويلة، مثل جماعة الإخوان
المسلمين، فضلًا عن المنظمات المسلحة والمليشيات التي ظهرت في العالم العربي في الثمانينات
والتسعينات من القرن الماضي. لم يهتم أي من هذه الجماعات بطرح منهج يعالج تحدي التوفيق بين
مظاهر الإسلام الاجتماعيّة والسياسيّة وبين الحداثة العلمانيّة. وعلى العكس من ذلك، يبدو أنّ تلك
الجماعات كانت تمثل اتجاهات مختلفة من الإسلام السياسيّ قد لا يُربط بينها رابط إلا شطب قرن من
الزمان قضاه العرب والمسلمون في محاولة التكيف مع الحداثة.

تمكّن الإسلاميون الذين اختاروا العمل من خلال النظم السياسيّة القائمة من بناء دوائر تأييد قويّة،
وإنشاء شبكات موسّعة للدعم والخدمات الموجهة إلى الفقراء والطبقة الوسطى، ووصلوا في بعض
الأحيان إلى تأسيس إمبراطوريات اقتصاديّة وماليّة ضخمة ومعقدة، بالإضافة إلى منصات إعلاميّة
واسعة الانتشار. ولكن الطابع الذي كان يميّز هذه الفئة هو عنايتهم بالمظاهر الاجتماعيّة في المقام
الأول، مثل إنشاء المساجد والحد من الاحتكاك بين الجنسين، والتشريع، بتعزيز نفوذ الفقه الإسلامي

على القوانين المدنية والجنائية، ومهاجمة النظم المائية الحديثة، ومقاومة الإصلاحات الاجتماعية في مجال حقوق المرأة على سبيل المثال.

أما الجهاديون المتشددون فقد وجهوا جهودهم إلى الإطاحة بالإنظمة العربية. وقد سعوا أيضا إلى تأجيج الثورات الاجتماعية لأسلمه مجتمعاتهم بالطريقة التي يعرفون بها الإسلام ومظاهرة السياسة والاجتماعية). كانت الحدائثة بالنسبة إليهم إهانة لتراثهم الإسلامي، بل للإسلام نفسه. تألفت تشكيلات المسلحين في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي من جماعات الجهاديين التي تخوض حروب عصابات متفرقة في أنحاء مختلفة من العالم العربي. برروا أفعالهم، التي اتسمت بالعنف الشديد في كثير من الأحيان، بالفكرة التي تقول إن قطاعات المجتمع التي ترفض تبنى قواعد الإسلام، وتنفذها، والامتنال لها (كما يحدثها المسلحون) هي في الحقيقة ترفض الإسلام نفسه وتكون في حكم المرتدين. كان المصري سيد قطب - عراب التشدد الإسلامي المعاصر كما يخلو للبعض وصفه - يرى هؤلاء المسلمين وكأنهم يعيشون في جاهلية كلك التي عاش فيها العالم كله حتى حمل النبي محمد رسالة إلهية إلى البشرية. أصبحت أفكار قطب إطارا فكريا للجماعات التي عرمت على محاربة الأنظمة الحاكمة والشعوب التي رأتها. «رافضة لحكم الله».

كان الفشل نصيب الإسلاميين، سواء تصالحوا مع الأنظمة القائمة أو استخدموا العنف للإطاحة بها؛ فلم ينبج أي من النهجين في السيطرة على بلد عربي واحد. بدت كافة الدول العربية في مطلع القرن الواحد والعشرين مستقرة تحت حكم الأنظمة الملكية الوراثية أو الأنظمة الجمهورية العلمانية. اتقنت معظم الجماعات الإسلامية العربية أن تمن أي وجود حقيقي لها في السياسة - ولو على الهامش - هو

طُمأنه الأنظمة الحاكمة أنها لا تمثل أي تهديد، وأنها مُستعدة للعمل وفقاً للقواعد مثل غيرها من جماعات المعارضة ذات الصفة القانونية أو التي تقبلها الأنظمة. بدأ الإسلاميون خوض الانتخابات بحذر من تعيية أنصارهم بطريقه مبالغ بها أو التباهي بمواردهم المالية خشية أن تتبع ذلك حملته مضادة للإسلاميين. كان الوضع مختلفاً بالنسبة إلى الجهاديين؛ فقد أنهكهم مواجهاتهم المتكررة مع الأنظمة العلمانية - وعلى الأخص في مصر والجزائر في تسعينات القرن الماضي - وجعلتهم غير قادرين على ممارسة نشاطهم. هاجر بعضهم إلى أوروبا حيث احتّموا بالحرية السياسية هناك لإطلاق حملات إعلامية ضد حكام أوطانهم، بينما انتقل آخرون إلى معقل صديقه للمتشددين مثل أفغانستان وبأكستان حيث تجمعوا داخل هياكل جديدة مثل تنظيم القاعدة.

الانتفاضة العربية

ضربت الفوضى، والفساد، والركود الاقتصادي الأنظمة العلمانية في العالم العربي؛ فاجتاحها الانتفاضات التي بدأت في تونس في أواخر عام 2010 وانتشرت في جميع أنحاء منطقة الشرق الأوسط. أحدث ما يسمى «الربيع العربي» تحولاً سياسياً واستراتيجياً حاسماً في المنطقة؛ فجاءت الجماعات الإسلامية إلى المسويات العليا من السطلة بنجاح الإسلاميين في الانتخابات البرلمانية في مصر، والكويت، والمغرب، وتونس، وليبيا بدرجة أقل. أما الإسلاميون في مصر فقد تجاوزوا البرلمان إلى الرئاسة.

لقد تغيرت مواقف هذه الجماعات وخطابها إلى حد كبير؛ فمُنذ مُنصف العقد الأول من الألفية الثالثة، كانت الجماعات الإسلامية قد بدأت في طرح الإسلام كإطار مرجعي لمجتمعاتهم؛ وهذا يعني اتباع نهج

أَكْثَرَ اعْتِدَالًا فِي تَكْيِيفِ التَّفْسِيرَاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ لِلشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَعَ السِّيَاسَةِ، وَالتَّشْرِيعِ، وَالاِقْتِصَادِ .
وَأَكَّدَ الْعَدِيدَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْإِسْلَامِيِّينَ الْبَارِزِينَ، أَشْهُرُهُمْ رَاشِدُ الْغُنُوشِيِّ زَعِيمُ حَرَكَةِ التَّهْضَةِ فِي تُونِسَ،
تُوَافِقُ الْفِقْهَ الْإِسْلَامِيَّ مَعَ مَبَادِيِّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ حَسْبَمَا يُفْهَمُهَا الْغَرْبُ . وَلَمْ يَبْدُ أَنَّ أَحَدًا اسْتَطَاعَ حَسْمَ
مُعْضَلَةِ ارْتِدَاجِيَّةِ الْوَلَاءِ بَيْنَ الْأُمَّةِ - مُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِينَ الْعَالَمِيِّ - وَبَيْنَ الدَّوَلَةِ الْقَوْمِيَّةِ إِلَّا بِقَبُولِ بَعْضِ
الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِكْرَةَ الدَّوَلِ الْعِلْمَانِيَّةِ الَّتِي تَحْكُمُهَا الْقَوَانِينُ الْوَضْعِيَّةُ . طُرِحَتْ جَمَاعَةٌ الْإِخْوَانَ الْمُسْلِمِينَ
مُبَادِرَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ مُسْتَلْهِمَةٍ مِنْ تَجَارِبِ الْبِرَازِيلِ، وَإِنْدُونِيسِيَا، وَجَنُوبِ أَفْرِيْقِيَا، وَتُرْكِيَا . كَانَ
الْإِسْلَامِيُّونَ يَتَقَدَّمُونَ أَنْفُسَهُمْ إِلَى شُعُوبِهِمْ بِاعْتِبَارِهِمْ أَصْحَابَ شَبَكَاتِ الدَّعْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ الَّتِي تَخْدُمُ
الْفُقَرَاءَ وَالْمُحْتَاجِينَ؛ مِمَّا مَكَّنَهُمْ مِنْ تَمْرِيرِ فِكْرِهِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى إِدَارَةِ الدَّوَلِ بِمَهَارِهِ . أَصْبَحَ قَادَةَ هَذِهِ
الْجَمَاعَاتِ أَكْثَرُ تَطَلُّعًا عَلَى نَحْوِ مُتْرَايْدٍ؛ فَقَدْ حَلَّتِ الْفِيَادَاتُ الشَّابَّةُ الصَّاعِدَةَ مِنْ شَبَكَاتِ التَّجَارَةِ
وَالْخِدْمَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي يُدِيرُهَا الْإِسْلَامِيُّونَ مَحَلَّ عُلَمَاءِ الدِّينِ التَّقْلِيدِيِّينَ؛ وَاخْتَارَتْ عِدَّةَ جَمَاعَاتٍ
إِسْلَامِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ شَابَّاتٍ لِيَتَحَدَّثْنَ بِاسْمِهَا - مِثَالًا عَلَى التَّطَوُّرِ الْفِكْرِيِّ وَالشَّكْلِيِّ . كَمَا اسْتَطَاعَتْ الْعَدِيدُ
مِنَ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ اسْتِخْدَامَ شَبَكَةِ الْإِنْتَرْنِتِ وَثَوْرَةَ تَكْوُلُوجِيَا الْإِتِّصَالَاتِ لِتَقَدَّمَ نَفْسِهَا كَقُوِي قَادِرَةٌ
عَلَى التَّكْيِيفِ مَعَ التَّغْيِيرَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْهَائِلَةِ الَّتِي شَهِدَهَا الْعَقْدُ الْمَاضِي .

سَاهَمَتْ كُلُّ هَذِهِ الْخُطُوبَاتِ فِي تَحْسِينِ صُورَةِ وَمَكَانِهِ الْإِسْلَامِيِّينَ فِي الدَّخْلِ وَالْخَارِجِ . بَدَأَ الْإِسْلَامِيُّونَ
عَازِمِينَ عَلَى تَجَاوُزِ الْفُجُورَةِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْحَدَاثَةِ الْعِلْمَانِيَّةِ الَّتِي عَانَتْ مِنْهَا مُجْتَمَعَاتِهِمْ فِي الْأَعْوَامِ الْمَائَةِ
وَالْخَمْسِينَ السَّابِقَةِ . كَانَ صُعُودِهِمْ إِلَى الْحُكْمِ عَبْرَ انْتِخَابَاتٍ حُرَّةٍ بَعْدَ الْإِتِّفَاقَاتِ الْعَرَبِيَّةِ إِيدَانًا بِبَدْءِ
مُحَاوَلَةِ جَدِيدَةٍ وَأَعَدَّهُ فِي حَلِّ مُعْضَلَةِ الْحَدَاثَةِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْعِلْمَانِيَّةِ .

لَكِنَّ الْوَعْدَ لَمْ يَدُمْ طَوِيلًا؛ فَتَوَلَّى زِمَامَ الْحُكْمِ كَمَا كَانَ يَتَطَلَّبُ خَبْرَهُ وَكَهْمَاءَهُ أَثْبَتَ مُعْظَمَ الْإِسْلَامِيِّينَ أَنَّهُمْ يَفْتَرُونَ إِلَيْهِمَا. وَجَدَ الْإِسْلَامِيُّونَ أَنْفُسَهُمْ مُضْطَرِّينَ لِلتَّعَامُلِ مَعَ الْمَشْكِلاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْحَادَّةِ وَالْتَّحْدِيَّاتِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ بَعْدَ عُقُودٍ مِنْ سُوءِ الْإِدَارَةِ، وَالْعُجْزِ، وَالْفَسَادِ ائْتَجَّهَا الْاِنْظَمَةُ الْمَخْلُوعَةُ. لَمْ يَكُنْ تَغْيِيرُ الْاِنْظَمَةِ السِّيَاسِيَّةِ جُزْءًا مِنْ تَصَوُّرِ بَعْضِ الْإِسْلَامِيِّينَ، مِثْلَ حِزْبِ الْعَدَالَةِ وَالتَّنْمِيَّةِ فِي الْمَغْرِبِ وَالْحَرَكَةِ الدُّسْتُورِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْكُوَيْتِ. أَمَّا فِي تُونِسَ فَكَانَ حِزْبُ حَرَكَةِ التَّنْهَضَةِ أَكْثَرَ طَمُوحًا؛ فَقَدْ وَصَلَ إِلَى السُّلْطَةِ عَبْرَ ائْتِحَابَاتٍ يُمَكِّنُ وَصْفَهَا بِأَنَّهَا الْأَكْثَرُ حُرِّيَّةً فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ فِي الْخَمْسِينَ عَامًا الْمَاضِيَّةِ؛ مِمَّا أَثَارَ طَمُوحَاتِ التَّنْهَضَةِ فِي مُحَاوَلَةِ دَمْجِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ مَعَ التَّرَاثِ الْعِلْمَانِيِّ فِي الْبِلَادِ بَعْدَ تَطَوُّرِ الْأَوَّلِ عَبَّرَ 20 عَامًا مِنْ الْعَمَلِ الْفِكْرِيِّ فَضْلًا عَنْ عُقُودٍ مِنْ التَّنْفِي فِي بَرِيطَانِيَا، وَفَرَنْسَا، وَإِيْطَالِيَا. وَذَهَبَتْ جَمَاعَةُ الْإِخْوَانَ الْمُسْلِمِينَ فِي مِصْرٍ إِلَى أُنْعَدَ مِنْ هَذَا بِسَعْيِهَا لِلسِّيْطَرَةِ عَلَى مُؤَسَّسَاتِ الدَّوَلَةِ الرَّئِيسَةِ، وَتَوَسَّعَ نَفُوذُهَا الْاِقْتِصَادِي فِي الْقَطَاعَاتِ الْأَعْلَى رِبْحًا فِي الْبِلَادِ، وَإِضْفَاءً تَبْرَةً وَدِلَالَاتٍ إِسْلَامِيَّةً صَارِمَةً عَلَى التَّشْرِيْعَاتِ وَالْحَيَاةِ الْعَامَّةِ فِي مِصْرٍ. كَمَا صُعُودِ الْجَمَاعَةِ مُقْتَرِنًا بِظُرُوفٍ جَعَلَتْ الْأَمْرَ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ الْوُصُولُ إِلَى السُّلْطَةِ بَعْدَ عُقُودٍ فِي صَحْرَاءِ الْقِنْعِ السِّيَاسِيِّ وَالْمَنْفِيِّ.

لَكِنَّ صُعُودَ الْإِسْلَامِيِّينَ إِلَى السُّلْطَةِ أَدَّى إِلَى اسْتِقْطَابِ ائْتِمَاعِيٍّ عَمِيقٍ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ؛ فَصَارَ لَدَى قِطَاعَاتٍ وَاسِعَةٍ مِنَ الْمُجْتَمَعِ تَخَوُّفٌ مِنْ مَشْرُوعٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِاعْتِبَارِهِ مَشْرُوعَ اسْلَمِهِ. خَشِيَ الْكَثِيرُونَ - خُصُوصًا فِي الدَّوَلِ ذَاتِ التَّرَاثِ الْعِلْمَانِيِّ الْكَبِيرِ مِثْلِ مِصْرَ، وَالْمَغْرِبِ، وَتُونِسَ - أَنْ مَا سَيُحْدِثُهُ صُعُودُ الْإِسْلَامِيِّينَ لَيْسَ تَغْيِيرَاتٌ تَدْرِيجِيَّةٌ فِي الْهَيَاكِلِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ فَحَسْبُ، بَلْ تَحَوُّلًا تَامًا فِي الْهَيَاةِ، وَالذِّيْنَامِيَّاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ؛ أَيْ، بِاخْتِصَارٍ، ائْتِقْلَابًا فِي شَكْلِ الْمُجْتَمَعَاتِ وَجَوْهَرِهَا. وَتَصَاعَدَتْ

الْمَخَافِ بِظُهُورِ جَمَاعَاتٍ مُتَشَدِّدَةٍ وَمَهْمَشَةٍ لَمْ تُمَارَسِ السِّيَاسَةَ مِنْ قَبْلِ، مِثْلَ السَّلَفِيِّينَ، بِاعْتِبَارِهَا قُوَّةَ
اجْتِمَاعِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ لَا يُسْتَهَانُ بِهَا .

وَمَنْ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنَ الْعُلَمَائِيِّينَ الْعَرَبِ قَدْ عَزَّزُوا حَالَةَ الْاسْتِقْطَابِ؛ فَصَعُودِ الْإِسْلَامِيِّينَ كَانَ تَجْرِبَةً
مُؤَلِّمَةً رَأَتْهَا الْأَجْيَالُ الْأَكْبَرُ سَنًا مِنَ الْعُلَمَائِيِّينَ ضَرْبُهُ قَاضِيَةٌ فِي سِلْسَلَةٍ مِنَ الْإِحْفَاقَاتِ فِي نِصْفِ الْقُرْنِ
الْمَاضِي الَّذِي شَهِدَ اسْتِعْلَالَهُمْ وَسُوءَ مُعَامَلَتِهِمْ مِنْ قَبْلِ الْإِنْظِمَةِ الْمَلِكِيَّةِ، وَالْقَوْمِيَّةِ، وَالْعُسْكَرِيَّةِ . أَمَّا
النُّشْطَاءُ الْعُلَمَائِيُّونَ الشَّبَابُ فَقَدْ شَعَرُوا بِأَنَّهُمْ قَامُوا بِدَوْرٍ كَبِيرٍ فِي إِشْعَالِ الثُّورَاتِ الْعَرَبِيَّةِ لِيَجِدُوا أَنفُسَهُمْ
فِي مُوَاجَهَةِ مَعَ الْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ أَكْثَرَ مَالًا، وَأَفْضَلَ نَنْظِيمًا، وَأَكْثَرَ تَوْعَلًا فِي دَوَائِرِ
اجْتِمَاعِيَّةِ أَكْبَرِ . تَلَقَّى الْعُلَمَائِيُّونَ هَزِيمَةً اتِّخَابِيَّةً تَلَوُ الْأُخْرَى؛ مِمَّا آذَى لِلشُّعُورِ - لِلْعَدِيدِ مِنْهُمْ - أَنَّهُمْ فِي
لِجِبِهِ غَيْرِ عَادِلَةٍ .

وَقَدْ تَفَاقَمَ الْاسْتِقْطَابُ الْجَمَاعِي، بِطَبِيعَةِ الْحَالِ، تَبِيجَةً لِمَخَافِ الْأَقْلِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ . كَانَ الْعَرَبُ
الْمَسِيحِيُّونَ وَالْأَقْلِيَّاتِ الْأُخْرَى تُرَاقِبُ الْإِتْجَاهَاتِ النَّاشِئَةَ بِفَرْعٍ حَتَّى قَبْلَ صُعُودِ الْإِسْلَامِيِّينَ بَعْدَهُ سَنَوَاتٍ؛
تَعْرِيزِ دُورِ الشَّرِيعَةِ فِي الْقَوَائِنِ الْمَدِينِيَّةِ وَالْجَزَائِيَّةِ، وَجَعَلَ الدَّسَاتِيرَ أَكْثَرَ تَمَاشِيًا مَعَ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ،
وُظْهُورِ مُسَلِّحِينَ إِسْلَامِيِّينَ مَعْرُوفِينَ فِي الْمَشْهَدِ السِّيَاسِيِّ، وَخِطَابِ إِسْلَامِيٍّ قَوِيٍّ فِي الْجِوَارِ الدَّاخِلِيِّ
وَالسِّيَاسَةِ الْخَارِجِيَّةِ، وَشُعُورٍ وَاضِحٍ بِأَنَّ التَّنَوُّعَ وَأَتَمَاطِ الْحَيَاةِ «غَيْرِ الْإِسْلَامِيَّةِ» أَصْبَحَتْ أُمُورًا غَيْرَ
مَرْغُوبٍ فِيهَا .

وَلَمْ تَزِدِ الْمَخَافِ إِلَّا تَاجُّجًا بَعْدَ الْإِتِّشَارِ الصَّادِمِ لِلْجَمَاعَاتِ الْجِهَادِيَّةِ الْعَنِيفَةِ فِي الْمُنْطَقَةِ، جَمَاعَاتِ
تَذَكَّرْنَا بِتَنْظِيمِ الْقَاعِدَةِ، مِثْلَ جَبْهَةِ النُّصْرَةِ وَالِدَوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ . تَبَنَّتْ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ

أَيْدِيُولُوجِيَّةِ الْجِهَادِيَّينِ الْمُتَشَدِّدِيْنَ فِي الْعُقُودِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَّةِ، وَلَكِنْ مَوَارِدِهَا أَصْبَحَتْ أَكْبَرَ بَكْثِيرٍ فِي
وَقْتِ يَنْهَارٍ فِيهِ التَّنْظَامُ الْعَرَبِيُّ الَّذِي نَشَأَ فِي أَعْقَابِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى وَسُقُوطِ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ.
سَمَحَ زَوَالُ الْحُكْمِ الْمُرْكَزِيِّ فِي الْعِرَاقِ وَسُورِيَا بِتَقْوِيضِ الدَّوْلَةِ الْقَوْمِيَّةِ فِي شَرْقِ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ، وَأَعْطَى
مِسَاحَةً لِلطَّائِفَةِ أَنْ تَزْدَهْرَ (أَوْ إِنْ تَعَوَّدَ بِقُوَّةٍ)، وَسَمَحَ لِلجِهَاتِ الْفَاعِلَةِ غَيْرِ الْحُكُومِيَّةِ - وَخُصُوصًا
الْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُتَشَدِّدَةِ - بِتَرْسِيخِ أَقْدَامِهَا فِي أَجْزَاءِ مِنَ الْمِنْطَقَةِ.

أَفْنَعَتْ تِلْكَ الْفَوْضَى أَجْهَرَةً الْأَمْنِ الْقَوْمِيَّ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ أَنَّ الْإِسْلَامِيَّينِ كَانُوا جُزْءًا مِنْ جَهْدٍ أَكْبَرَ (أَوْ
«مُؤَامَرَةً» كَمَا يَرَاهَا الْبَعْضُ) لِإِعَادَةِ تَصْمِيمِ الْمِنْطَقَةِ: تَقْسِيمِ بَعْضِ الدُّوَلِ، وَأِعَادَةِ رَسْمِ حُدُودِ أُخْرَى،
وَالْأَهْمُ مِنْ ذَلِكَ تَقْوِيضِ الدَّوْلَةِ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْعِلْمَانِيَّةِ. كَانَتْ مُحَارَبَةٌ مَشْرُوعَ الْأَسْلَمَةِ فِي جَمِيعِ
إِشْكَالِهِ، سَوَاءً فِي السِّيَاسَةِ أَوْ فِي سَاحَاتِ الْمَعَارِكِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى تِلْكَ الْأَجْهَرَةِ مُهِمَّةٍ وَطَنِيَّةٍ «لِلْإِقَادِ»
بُلْدَانِهِمْ.

بَعْدَ خَمْسَةِ أَعْوَامٍ مِنَ الرَّبِيعِ الْعَرَبِيِّ، عَادَ الْإِسْلَامُ السِّيَاسِيَّ فِي الْمِنْطَقَةِ كَمَا بَدَأَ: مُهِمَّشًا، وَمَضْطَهَدًا،
وَمَلْأَحَقًا، وَلَا يَحْطَى بِالثِقَةِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ نَشُوءِ امْتِنَاكِ السُّلْطَةِ الَّتِي لَمْ تَسْتَمِرَّ طَوِيلًا. وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ
ضَاعَتْ فُرْصَةٌ أُخْرَى - ثَمِينَةٌ - لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِهِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْحَدَاثَةِ الْعِلْمَانِيَّةِ.

فِي تُونِسَ، أُجْبِرَتْ عِدَّةُ أُمُورٍ - الْإِسْتِقْطَابُ الْإِجْتِمَاعِيِّ، وَاتِّشَارُ السَّلْفِيَّةِ، وَتَحَالُفُ الْقَوِيِّ الْعِلْمَانِيَّةِ مِنْ
نِظَامِ بُورُجِيَّةِ الْقَدِيمِ ضِدَّ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ - حِزْبِ التَّهْضَةِ عَلَى تَسْلِيمِ السُّلْطَةِ لِحُكُومَةِ تَكْنُوقْرَاطِيَّةٍ.
شَكْلٌ مُعَارِضُ التَّهْضَةِ كُنَلَةٌ سِيَاسِيَّةٌ قَوِيَّةٌ تَلَقَّتْ دَعْمًا مَالِيًّا كَبِيرًا مِنْ دَاخِلِ وَخَارِجِ تُونِسَ ضَمِنَ لَهَا الْفُوزَ
فِي الْإِتِّخَابَاتِ الرَّئَاسِيَّةِ وَالْبُرْلَمَانِيَّةِ فِي الْبِلَادِ فِي عَامِ 2014؛ فَتَرَجَعَتْ التَّهْضَةُ عَنْ طُمُوحِهَا فِي طَرِحِ

وَجِهَاتٍ نَظَرَ تَقَدِّمِيَّةً تَتَنَاوَلُ الْإِسْلَامَ بِاعْتِبَارِهِ إِطَارًا مَرْجِعِيًّا لِمُجْتَمَعٍ يَتَّجِهُ نَحْوَ الْحَدَاثَةِ لِتُصْبِحَ فِي مَوْقِفِ الدَّفَاعِ عَنِ أَيْدِيُولُوجِيَّتِهَا وَإِضَاحِ الْفُرْقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّيَّارِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُتَشَدِّدِ الَّذِي اتُّشِرَ فِي تُونِسَ . أَمَّا فِي مِصْرَ ، فَتَقَدَّرَتْ تَطَوُّرَاتُ الْفِجْوَةِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْعِلْمَانِيَّةِ إِلَى مُوَاجَهَةِ بَيْنِ الْفَهْمِ التَّقْلِيدِيِّ لِلِهَيْوَةِ الْمِصْرِيَّةِ عَلَي التَّحْوِ الَّذِي تَحْمِلُهُ الطَّبَقَاتُ الْوَسْطَى وَالْعُلَمَاءُ الْمُتَوَسِّطَةَ ، وَبَيْنَ مَا رَأَتْهُ شَرَائِحُ اجْتِمَاعِيَّةً كَبِيرَةً مَشْرُوعَ اسْلَمَهُ عُدْوَانِي تَقُوْدَهُ جَمَاعَةُ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِيْنَ ؛ حَتَّى حَمَلَتْ نَظَاهِرَاتٍ كَبِيرَةً فِي صَيْفِ عَامِ 2013 الْعَسْكَرِيْنَ عَلَي الْأَعْنَاقِ لِيَقْوَدُوا التَّدْخُلَ الَّذِي طَرَدَ جَمَاعَةَ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِيْنَ مِنْ السُّلْطَةِ .

مقولة الإسلام هو الحلُّ

جَعَلَتْ تَجْرِبَةُ الْأَعْوَامِ الْحَمْسَةَ الْمَاضِيَةَ الْمَصَالِحَةَ بَيْنَ مَظَاهِرِ الْإِسْلَامِ الْجَمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَبَيْنَ الْحَدَاثَةِ الْعِلْمَانِيَّةِ أَصْعَبَ بِكثِيرٍ مِمَّا مَضَى . أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَظَاهِرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ الْآنَ مُرْتَبِطَةً بِالْإِسْلَامِيَّيْنَ وَفِكْرَهُ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيَّ الَّتِي وَصَلَتْ مُسْتَوِيَاتِ الثِّقَةِ بِهِمْ - لَدَى الْكَثِيرِيْنَ - إِلَى حَدِّ مُتَدَنِّ . أَمَّا مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرَ الْكَثِيرِ مِنَ الْإِسْلَامِيَّيْنَ ، فَتَقَدَّرَ أَيْقُنُوا أَنَّ قِطَاعَاتٍ وَاسِعَةٍ مِنَ الْمُجْتَمَعِ (بِمَا فِي ذَلِكَ الَّذِينَ يَصْفُونُ أَنْفُسَهُمْ بِاللِّيْبَرَالِيْنَ) كَانُوا عَلَي اسْتِعْدَادٍ لِلتَّضَحُّيَةِ بِالدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ لِئِخْرَامُوهُمْ مِنْ السُّلْطَةِ . أَنَّ الرِّعْبَةَ فِي الْاِتِّقَامِ تَتَّصَاعِدُ دَاخِلَ بَعْضِ الْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَخُصُوصًا بَيْنَ كَوَادِرِهَا الشَّابَّةِ . أَنَّ الْكَثِيرِيْنَ مِنْ شَبَابِ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ بَدَاوا يُصَلُّونَ إِلَى اسْتِنْتِاجِ خَطِيرٍ بِأَنَّ قِطَاعَاتٍ وَاسِعَةً مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ لَا تَعَارُضُ الْإِسْلَامِيَّيْنَ فَقَطْ ، بَلِ الْإِسْلَامَ نَفْسَهُ .

يَدْفَعُ هَذَا الرَّأْيِ الْعَدِيدِ مِنَ الْإِسْلَامِيَّيْنَ إِلَى اسْتِخْلَاصِ الدَّرُوسِ الْخَاطِئَةِ مِنَ الرَّبِيعِ الْعَرَبِيِّ ؛ فَبَعْضُ الْإِسْلَامِيَّيْنَ الْمُؤَثِّرِيْنَ الْآنَ يُخْتَزِلُونَ تَارِيخَ الْمِائَةِ وَالْخَمْسِيْنَ عَامًا الْمَاضِيَةَ فِي مُوَاجَهَةِ الْإِسْلَامِيَّيْنَ مَعَ

الْعُلَمَائِينَ. كَانَتْ الْاِتِّقَاضَاتُ الْعَرَبِيَّةُ، بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، إِشَارَةً بِفُشْلِ اللَّيْبَرَالِيِّينَ وَالْاِشْتِرَاكِيِّينَ الْعَرَبُ وَبِدَايَةِ
 عَهْدِ الْاِسْلَامِيِّينَ. أَتَاهُمْ يَقُولُونَ: لَقَدْ حَكَّمَ الْعُلَمَائِيُّونَ الْعَالَمُ الْعَرَبِيُّ، بِالْاِضَافَةِ إِلَى تُرْكِيَا وَإِيرَانَ، مُنْذُ أَنْ
 عَرَفَتْ الْمِنْطَقَةُ الْحَدَاثَةَ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ؛ وَقَدْ فَشَلُوا. أَنَّ هَؤُلَاءِ مِنَ الْاِسْلَامِيِّينَ
 يَقُولُونَ: إِنَّهَا لِاِهَانَةٍ لِحُكْمِ اللَّهِ إِنْ نَحْيَ الْاِسْلَامَ جَابِئًا بِاعْتِبَارِهِ اِسَاسًا لِلشَّرْعِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ؛ لَنَحْزِلَهُ فِي
 مُجَرَّدِ مَكُونٍ مِنْ مَكُونَاتِ النَّسِيخِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْغَنِيِّ. مِنْ وَجْهِهِ نَظَرُهُمْ كَانَ الْوَقْتُ الْمُنَاسِبَ قَدْ حَانَ
 لِلْاِسْلَامِيِّينَ لِتَوَلِّيِ السُّلْطَةَ وَوَضْعِ الْأُمُورِ فِي نَصَابِهَا. وَفِي هَذَا التَّفْكِيرِ كَانَ صُعودِهِمْ إِلَى السُّلْطَةِ بِمَثَابَةِ
 بُرُوعِ فِجَرِ عَصْرِ جَدِيدٍ لِلْاِسْلَامِ. وَحِينَ وُجِدَ الْاِسْلَامِيُّونَ اِنْفِيسَهُمْ مَطْرُودِينَ مِنَ السُّلْطَةِ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ،
 نَظَرُوا إِلَى الْأَمْرِ بِاعْتِبَارِهِ ضَرْبَهُ لِلْحُكْمِ الْاِسْلَامِيِّ وَرَفُضًا لِلْاِسْلَامِ. لَمْ يَهْتَمَّ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ قَادَةِ الْاِسْلَامِيِّينَ
 بِالتَّفْكِيرِ فِي السَّبَبِ الَّذِي دَفَعَ قِطَاعَاتٍ وَاِسْعَةً مِنَ الْجُمْهُورِ الْعَرَبِيِّ لِلانْتِقَابِ عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الشَّرْعَةِ. رَكَزَ
 خِطَابُهُمْ عَلَى مُوَاجَهَةِ الْاِسْلَامِيِّينَ مَعَ الْمَوْسَسَاتِ الْقَوْمِيَّةِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي تَحَارَبُهُمْ. فِي حِينِ غَفَلُوا عَنْ دَوَاعِي
 الْقَلْقِ الْمَشْرُوعَةِ الَّتِي رَافَقَتْ صُعودَ الْاِسْلَامِيِّينَ، مِثْلَ الْاِسْتِطْبَاطِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْعَمِيقِ، وَأَضْعَافِ الْأَمْنِ
 الْقَوْمِيِّ، وَعَدَمِ الْاِسْتِعْدَادِ لِمُوَاجَهَةِ التَّحْدِيَّاتِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ الْحَرَجَةِ.

وَمِمَّا زَادَ الشُّكَّ وَالْقَلْقَ، لَا سِيَّمَا بَعْدَ مَا بَدَأَ وَكَانَهُ تَطَوَّرَ جَادًّا فِي التَّفْكِيرِ الْاِسْلَامِيِّ قَبْلَ وُصُولِ
 الْاِسْلَامِيِّينَ إِلَى السُّلْطَةِ، هُوَ أَنَّ الْاِسْلَامِيِّينَ لَمْ يَقْدُمُوا فِي طَرِيقِ صُعودِهِمْ إِلَى السُّلْطَةِ آيَةً اِجَابَاتٍ عَلَى
 بَعْضِ مَنْ أَضْعَبِ الْأَسْئَلَةَ الَّتِي تُسَبِّبُ الْاِسْلَامَ السِّيَاسِيَّ دَائِمًا فِي إِثَارَتِهَا. لَدَى الْاِسْلَامِيِّينَ دَائِمًا حَلَقَاتُ
 مُقَدَّسَةٌ فِي التَّارِيخِ الْاِسْلَامِيِّ يَرَوْنَهَا أَرْوَاقًا مِثَالِيَّةً. تَعَدُّ الْعُقُودَ الثَّلَاثَةَ الْأُولَى فِي نَظَرِ مُعْظَمِ الْمُسْلِمِينَ اِنْتَى
 عُهُودِ الْحُكْمِ فِي التَّارِيخِ الْاِسْلَامِيِّ. بَيْنَمَا تَذْهَبُ اِنْتَظَارُ اِسْلَامِيِّينَ آخَرِينَ إِلَى الْقَرْنِ التَّاسِعِ («العصر

الذَّهَبِيَّ لِلْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ») حِينَ كَانَتْ الْخِلَافَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ هِيَ الدَّوْلَةُ الْأَقْوَى، وَالْأَكْثَرُ ثَرَاءً فِي الْعَالَمِ،
وَمَرْكَزًا بَارِزًا لِلْعُلُومِ وَالْفُنُونِ. أَمَّا الْإِسْلَامِيُّونَ الَّذِينَ يُبَشِّرُونَ بِقَبُولِ الْإِسْلَامِيِّينَ «لِلْآخِرِينَ» - الْمَسِيحِيِّينَ
وَالْيَهُودِ بِخَاصَّةٍ - فَإِنَّهُمْ يُسْتَشْهِدُونَ بِالْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْأَنْدَلُسِ مِثَالًا عَلَى قَدَرِهِ الْأَنْظُمَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ
عَلَى الْحِفَاطِ عَلَى مُجْتَمَعٍ شَامِلٍ وَمَتَنَاغِمٍ وَوُجُوبٍ ذَلِكَ عَلَيْهَا. وَيُسْتَأْنَسُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ
الْإِسْلَامِيِّينَ بِالنِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ الثَّاسِعِ عَشَرَ حِينَ طُرِحَ الْأَصْلَاحِيُّونَ الْإِسْلَامِيُّونَ، مِثْلُ الْإِفْغَانِي
وَعَبْدِهِ، الْأَفْكَارَ الَّتِي أَدْخَلَتْ الْحَدَاثَةَ إِلَى أَذْهَانِ الْمُسْلِمِينَ دُونَ التَّضْحِيَةِ «بِطَبِيعَةِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ»
و«هُوِيَةِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيَّةِ».

تَكُنُ الْمَشْكَالَةُ فِي الْمَنْظُورِ الرَّجْعِيِّ الَّذِي يَبْنَاهُ الْإِسْلَامِيُّونَ. وَبِصَرْفِ النَّظَرِ عَنِ الرُّومَانِيَّةِ فِي النَّظَرِ
لِهَذِهِ الْعُصُورِ - الَّتِي لَمْ تَكُنْ فَالْوَاقِعِ أَمْثَلَةً عَلَى التَّنَاغُمِ الْاجْتِمَاعِيِّ - فَإِنَّهَا جَمِيعًا تَبَاحُ الظُّرُوفِ
الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ، وَالثَّقَافِيَّةِ الَّتِي تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا كَبِيرًا عَنِ تِلْكَ الَّتِي شَكَلَتْ مَنطِقَةَ
الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْيَوْمَ. يُمَكِّنُ لِاسْتِدْعَاءِ تِلْكَ الْحُقُبِ التَّارِيخِيَّةِ «الْمِثَالِيَّةِ» أَنْ يَكُونَ مَصْدَرُ الْهَامِ، فِي
أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَتَحَوَّلُ، فِي أَسْوَأِهَا، إِلَى تَضَلُّلٍ. أَنَّ تِلْكَ الْحُقُبَ لَا تَتَنَاسَبُ عَلَى الْإِطْلَاقِ
مَعَ الْحَاضِرِ. سَتَظَلُّ، مَعَ حَلَقَاتٍ أُخْرَى مِنَ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ، جُزْءًا لَا يَتَجَرَّأُ مِنَ التَّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ؛
سَتَكُونُ دَائِمًا مَرَّاسِيٍّ مِهْمَةً لِلتَّقَاتِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ ذَاتِ الْأَغْلَبِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ؛ سَتَسْتَمِرُّ فِي إِثْرَاءِ هُوِيَةِ أَيِّ
شَخْصٍ يَرْتَبِطُ نَفْسُهُ بِالْإِسْلَامِ - بِاعْتِبَارِهِ دِينًا أَوْ حَلْقِيَّةً ثَقَافِيَّةً - لَكِنَّ تِلْكَ «الْحُقُبَ الْمِثَالِيَّةِ» لَنْ تَوَجَّهَ
الْأَنْظُمَةُ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ فِي عَالَمِ الْيَوْمِ.

بِالِإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ فَإِنَّ الْإِسْلَامِيِّينَ يُظْهِرُونَ أَنَّ ضَعْفًا فِكْرِيًّا لَا يَتَّفِقُ مَعَ خِبْرَتِهِمُ الطَّوِيلَةَ الثَّرِيَّةَ. يُحَاوِلُ كَثِيرٌ مِنَ الْإِسْلَامِيِّينَ اسْتِدْعَاءَ فِكْرِهِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَالْمَدِينَةَ الْفَاضِلَةَ، وَإِنَّ «الْإِسْلَامَ هُوَ الْحِلُّ»؛ فَتَسْتُخْدِمُ عِدَّةٌ جَمَاعَاتٍ إِسْلَامِيَّةٍ هَذِهِ الشَّعَارَاتِ لِتَعْبِيهِ الْجُمْهُورَ، وَخَاصَّةً وَقْتُ الْاِتِّخَابَاتِ. فِي أَوَائِلِ الْقُرُونِ الْعِشْرِينَ، اسْتَلْهَمَ بَعْضُ الْآبَاءِ الْمَوْسِسِينَ لِلْإِسْلَامِ.

السِّيَاسِيَّةُ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ مِنْ مَدَارِسِ الْفَلَسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى وَحَاوَلُوا أَنْ يَغْرِسُوا فِيهَا مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي تَتَّصِلُ بِالْمُجْتَمَعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْقُرُونِ الْعِشْرِينَ. رُبَّمَا أَتَتْ هَذِهِ الْمَحَاوَلَاتُ ثَمَارَهَا فِي الْعِشْرِينَاتِ وَالثَّلَاثِينَاتِ مِنَ الْقُرُونِ الْمَاضِي؛ وَرُبَّمَا كَانَتْ مُقْبُولَةً فِي السَّبْعِينَاتِ حِينَ كَانَ الْإِسْلَامُ السِّيَاسِيَّ يَتَعَاثَى مِنَ التَّهْمِيشِ وَالْإِضْطِهَادِ فِي ظِلِّ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، أَوْ فِي التَّسْعِينَاتِ حِينَ كَانَ الْإِسْلَامُ السِّيَاسِيَّ فِي طُورِ إِعَادَةِ تَشْكِيلِ أَفْكَارِهِ. وَلَكِنْ بَعْدَ تَجْرِبَةٍ طَوِيلَةٍ خَاصَّهَا الْإِسْلَامِيُّونَ فِي الْعُقُودِ الثَّمَانِيَّةِ الْمَاضِيَّةِ، وَخُصُوصًا فِي الْإِضْطِرَابَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي تُورْطُوا فِيهَا مُوَحَّرًا، أَصْبَحَتْ هَذِهِ الشَّعَارَاتُ الْعَاطِفِيَّةَ بِلَا مَعْنَى، وَأَخْيَانًا مَحْضٌ وَهَمٌّ. أَنَّهَا شِعَارَاتٌ لِلِاسْتِهْلَاكِ الْإِعْلَامِيِّ، لَكِنْ لَا هِيَ وَلَا الْفِكْرُ الَّذِي يَدْعُمُهَا يُمْكِنُ أَنْ يُمْكِنَ تَقْدِيمُهُ لِلْمُجْتَمَعَاتِ الَّتِي تُوَجِّهُ تَحَدِّيَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةً وَاقْتِصَادِيَّةً خَطِيرَةً تَحْتَاجُ إِلَى حُلُولٍ مَلْمُوسَةٍ وَقَابِلَةٍ لِلتَّنْفِيذِ. الْيَوْمَ، يُنْقَرِ الْإِسْلَامِيُّونَ، نَاهِيكَ عَنِ الْجِهَادِيِّينَ، إِلَى الْأَدَوَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْمَلَزِمَةِ لِلْبَدْءِ فِي مُحَاوَلَةِ أُخْرَى لِحَلِّ الْمَعْضَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعِلْمَانِيَّةِ، أَوْ رُبَّمَا لَيْسَ لَدَيْهِمْ رَغْبَةٌ فِي ذَلِكَ.

وَبِالنَّاتِلِي، يَبْدُو أَنَّ الْإِسْلَامَ السِّيَاسِيَّ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ قَدْ أَنْهَى دَوْرَهُ كَامِلَةً؛ فَعَادَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي الْقُرُونِ التَّاسِعِ عَشَرَ. بَعْضُ الْإِسْلَامِيِّينَ يَنْظُرُونَ إِلَى الْوَرَاءِ بَاحْتِثِينَ عَنِ «تَعَالِيمِ الدِّينِ الرَّشِيدِ» لِیَحَاوِلُوا دَجْمَهَا مَعَ الْحَدَاثَةِ وَالْإِنْفِتَاحِ عَلَى التَّغْيِيرِ، وَتَفْسِيرَاتِ عَلَى دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْمُرُونَةِ لِتَحْدِيدِ مَعْنَى الْإِطَارِ

المرجعي الإسلامي. البعض الآخر يُنظر إلى الماضي في غضب؛ فيرفض الحداثة، ويُنظر إلى العلمانية باعتبارها تهديدًا بتدمير التراث الإسلامي، ويصر على عقيدة الإسلام القتالي التي ترفض المضي قدمًا، ويرفض «الأخر».

يخوض العالم العربي اليوم، وهو قلب العالم الإسلامي، تحولًا سياسيًا واجتماعيًا هائلًا، كما كان قبل مائة وخمسين عامًا. الفرق هو أن تحولات اليوم أكثر دموية؛ وبالتالي أكثر كثافة وإيلامًا. يكن العلماء العرب اليوم أحرارًا أقل بكثير لليبرالية الحقيقية من أسلافهم الفكريين قبل قرن من الزمان. وفي هذا السياق، فمن المفهوم - والمخزن - أن الجهاد المسلح هو تجلّي الإسلام السياسي الأكثر فعالية في عالمنا اليوم

. ونتيجة لذلك، لا تلوح في الأفق أية محاولة جادة لحل معضلة الإسلام مع الحداثة. أن المشاعر ملتهبة؛ والمجتمعات مستقطبة بشدة؛ والشباب العربي والإسلامي الواعد يصابون بخيبة أمل؛ وتتسع الهوة بين قطاعات واسعة من العلمانيين والإسلاميين في المجتمعات العربية والإسلامية بينما يُنظرون إلى بعضهم البعض بالكثير من الشك وبعض من الازدراء.

سينتفضي بعض الوقت حتى تندمل الجراح التي فتحت في الأعوام الخمسة الماضية. يجب أن نأمل في أن العلمانيين سيُغرّفون - أخيرًا - باستحالة إخماد الإسلام كإطار مجتمعي في المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة مهما استخدموا من قوة أو قمع. يجب أن نأمل، أيضًا، في أن قادة جدد سيظهرون داخل المعسكر الإسلامي ليحملوا أفكارًا مبتكرة من شأنها أن تسوّغ أخطاء الإسلاميين المتعددة.

حَرَكَاتُ إِسْلَامِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ دَعْوِيَّةٍ

- الحَرَكَةُ الوَهَابِيَّةُ بَدَأَتْ كَحَرَكَةٍ سَلْفِيَّةٍ دَعْوِيَّةٍ تَهْدِفُ لِلْعُودَةِ لِلأُصُولِ الصَّافِيَّةِ لِلإِسْلَامِ حَتَّى تَحَالِفَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَابِ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ سَعُودٍ وَأَعْلَنُوا الْقِتَالَ ضِدَّ الصُّوفِيَّةِ وَالشَّيْعَةِ وَالَّذِينَ اغْتَبَرُوهُمْ مَذَاهِبَ شِرْكِيَّةٍ وَسَعَوْا لِإِقَامَةِ دَوْلَةٍ سَلْفِيَّةٍ تُقَوِّمُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَتَحْكُمُ بِالشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ فَتَأَسَّسَتِ الدَّوْلَةُ السُّعُودِيَّةُ الأُولَى (أَمَارَةُ الدَّرْعِيَّةِ فِي 1744م. وَبَدَأَتْ فِي التَّمَدُّدِ فَحَارَبَتْ القَبَائِلَ الصُّوفِيَّةَ فِي بَاقِي الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ وَهَجَمُوا عَلَى مَدِينَةِ كَرْبَلَاءِ أَقْدَسِ مَوَاقِعِ الشَّيْعَةِ الأَثْنَاءِ عَشْرِيَّةٍ وَسَيَّطَرُوا عَلَيْهَا، ثُمَّ سَعَوْا لِمُهَاجَمَةِ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ لِكُونِهَا صُوفِيَّةً وَتَحْتَوِي عَلَى القُبُورِ وَالمَقَامَاتِ فَارْسَلَتْ الدَّوْلَةُ العُثْمَانِيَّةُ وَالِي مِصْرٍ مُحَمَّدٍ عَلَى بَاشَا لِقَضَاءِ عَلَيْهَا الَّذِي نَجَحَ فِي تَحْقِيقِ هَذَا الأَمْرِ فِي عَامِ 1818م بَعْدَ 74 عَامًا مِنْ قِيَامِهَا.

• الحَرَكَةُ الدِّيُونَدِيَّةُ

- حَرَكَةُ الخِلَافَةِ - الهِنْدُ حَرَكَةُ إِسْلَامِيَّةٍ هِنْدِيَّةٍ تَأَسَّسَتْ عَامَ 1919م سَعَتْ لِإِعَادَةِ الخِلَافَةِ العُثْمَانِيَّةِ عَبْرَ اِحْتِجَاجَاتٍ شَعْبِيَّةٍ، وَأَنهَارَتْ عَامَ 1924م
- الأَخْوَانُ المُسْلِمُونَ جَمَاعَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ شُمُولِيَّةٌ قَامَتْ عَلَى مَنهَجِ حَسَنِ البَنَّا تَأَسَّسَتْ فِي مِصْرٍ فِي 1928م.

- حِزْبُ التَّخْرِيرِ حِزْبٌ سِيَاسِيٌّ إِسْلَامِيٌّ تَأَسَّسَتْ فِي 1953م وَيَهْدَفُ لِإِعَادَةِ الخِلَافَةِ.

• الجَمَاعَةُ الإِسْلَامِيَّةُ فِي بَاكِسْتَانِ

- جَمْعِيَّةُ الشَّبَابِ الْمُسْلِمِ (البوسنة والهرسك) . جَمْعِيَّةٌ دِينِيَّةٌ سِيَاسِيَّةٌ تأسَّسَتْ عامَ 1939 قَامَتْ عَلَى مَنْهَجِ جَمَالِ الدِّينِ الْإِفْغَانِي، سَاهَمَتْ فِي تَأْسِيسِ دَوْلَةِ الْبُوسْنَةِ وَالْهَرَسَكِ بَعْدَ انْهِيَارِ يُوغُوسْلَاوِيَا .
- حَزْبُ التَّجْدِيدِ الْإِسْلَامِيِّ
- مَجْلِسُ عُمُومِ الْهِنْدِ لِاتِّحَادِ الْمُسْلِمِينَ
- الْجَمَاعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي مِصْرٍ
- الْحَزْبُ الْإِسْلَامِيُّ التَّرِكْسْتَانِي
- جَمَاعَةُ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
- حَرَكَاتُ إِسْلَامِيَّةٌ سِيَاسِيَّةٌ جِهَادِيَّةٌ .
- حَرَكَةُ طَالِبَانِ (أَمَارَةُ أَفْغَانِسْتَانِ الْإِسْلَامِيَّةِ) نَتَّظِيمِ إِقْلِيمِي
- نَتَّظِيمِ الْقَاعِدَةِ (نَتَّظِيمِ عَالَمِي)
- نَتَّظِيمِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ نَتَّظِيمِ عَالَمِي
- بَوَكُو حَرَامُ (نَتَّظِيمِ إِقْلِيمِي)
- جَبْهَةُ النَّصْرَةِ (نَتَّظِيمِ إِقْلِيمِي)
- جَمَاعَةُ مَاوُوتِي (دَوْلَةُ لَانَاوِ الْإِسْلَامِيَّةِ) نَتَّظِيمِ إِقْلِيمِي

• حَرَكَةُ أُوزْبِكِسْتَانِ الْإِسْلَامِيَّةِ (تَنْظِيمِ إِقْلِيمِي

• أَنْصَارُ الشَّرِيعَةِ تَنْظِيمِ إِقْلِيمِي

• جُنْدُ اللَّهِ

• حَرَكَةُ تَطْبِيقِ الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

• أَنْصَارُ الْإِسْلَامِ فِي كُرْدِسْتَانِ

• أَنْصَارُ الْإِسْلَامِ (بُورْكِئَا فَايسُو)

• شَبَكَةُ حَقَّانِي

• أَمَارَةُ الْفَوْقَاذِ الْإِسْلَامِيَّةِ

• الْجَمَاعَةُ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي جَنُوبِ شَرْقِ اسِيَا

• حَزْبُ اللَّهِ

• حَرَكَةُ التُّجَبَاءِ

• الْحَرَكَةُ الْمُهَدِّيَّةِ

• حَرَكَةُ حِمَاسٍ تَأَسَّسَتْ كَحَرَكَةٍ دَعْوِيَّةٍ ثُمَّ جِهَادِيَّةٍ لَاحِقًا

• حَرَكَةُ الْجِهَادِ الْإِسْلَامِيِّ فِي فِلَسْطِينَ .

ثَالِثًا

التَّيَّارُ الشَّيْعِيُّ الْإِثْنِي عَشْرِيٌّ

الشَّيْعَةُ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةٌ أَوْ الْأَمَامِيَّةُ أَوْ الْجَعْفَرِيَّةُ هُمْ طَائِفَةٌ دِينِيَّةٌ إِسْلَامِيَّةٌ، وَعَادَةً فَإِنَّ لَفْظَهُ الشَّيْعَةُ إِذَا قِيلَتْ مُطْلَقَةً دُونَ تَخْصِيصِ فَإِنَّ الذَّهْنَ يَنْصَرِفُ نَحْوَ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةٍ لِكَوْنِهَا الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى مِنْ حَيْثُ عَدَدُ الْآتِبَاعِ مِنْ بَيْنِ الطَّوَائِفِ الشَّيْعِيَّةِ الْأُخْرَى، وَتُسَمَّى الَّذِينَ أُطْلِقَتْ عَلَيْهِمْ هَذِهِ التَّسْمِيَّةُ تَمَيِّزًا لَهُمْ عَنْ الطَّوَائِفِ الْأُخْرَى الَّتِي تَحْمِلُ اسْمَ الشَّيْعَةِ كَالزَّيْدِيَّةِ وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ، وَلَا عِتْقَادَهُمْ بِأَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ نَصَّ عَلَى اثْنِي عَشَرَ إِمَامًا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِهِ، فَكَانَتْ عَقِيدَةُ الْإِمَامَةِ هِيَ الْفَارِقُ الرَّئِيسُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَقِيَّةِ الطَّوَائِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

تَأْسِيسُ التَّشْيَعِ وَأَصْلُ التَّسْمِيَّةِ

يُعْتَقَدُ الشَّيْعَةُ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةٌ بِأَنَّ التَّشْيَعُ الْإِثْنِي عَشْرِيٌّ هُوَ الْإِسْلَامُ الْحَقِيقِيُّ، وَإِنَّ الْفُرْقَ وَالطَّوَائِفَ الْأُخْرَى قَدْ اسْتَحْدَثَتْ لَاحِقًا . فِي الْوَاقِعِ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَنْقَسِمِ إِلَى فِرْقٍ وَمَذَاهِبٍ إِلَّا بَعْدَ وَفَاةِ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ، فَالشَّيْعَةُ قَالُوا بِوُجُوبِ اتِّبَاعِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لَوْجُودِ النَّصِّ عَلَيْهِ مِنَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ، فِيمَا قَالَ غَيْرُهُمْ بِالشُّورَى الَّتِي حَدَّثَتْ أَبَا بَكْرٍ خَلِيفَةً، وَصَرَفَتْ الْخِلَافَةَ عَنْ عَلِيٍّ . مَعَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ مُصْطَلَحَ الشَّيْعَةِ قَدْ أُطْلِقَ عَلَى اتِّبَاعِ عَلِيٍّ مُنْذُ أَيَّامِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِذْ قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ: ﴿لَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۗ﴾ [البينة: 7] «هُم أَنْتَ وَشَيْعَتُكَ يَا عَلِيُّ» كَمَا رُوِيَ ذَلِكَ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ، وَالْحَاكِمِ الْحُسْكَانِيِّ فِي شَوَاهِدِ التَّنْزِيلِ . وَهَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ الشَّيْعَةُ عَلَى إِثْبَاتِ فَضْلِهِمْ وَإِنَّ مُؤَسَّسَ التَّشْيَعِ هُوَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ نَفْسِهِ، غَيْرُ أَنَّ مُخَالَفِيهِمْ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ يَصْرَفُونَ مَعْنَى

مُصْطَلَحِ الشَّيْعَةِ عَنِ الْمَعْنَى الَّذِي يَعْتَقِدُ بِهِ الشَّيْعَةُ إِذْ يَقُولُونَ بِأَنَّ الشَّيْعَةَ مُتَّحِلُونَ لِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ، وَأَنَّهَا لَا تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ، وَيَذْهَبُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى أَنْ أَصْلَ تَأْسِيسِ الشَّيْعَةِ يَعُودُ لِرَجُلٍ يَهُودِيٍّ يُسَمَّى عَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ جَاءَ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . .

وَمِنَ الْأَسْمَاءِ الْأُخْرَى وَالَّتِي تَطْلُقُ عَلَى هَذِهِ الطَّائِفَةِ هُوَ لَقَبُ الرَّافِضَةِ، وَهُوَ لَقَبٌ يُقَالُ اسْتِخْدَامُهُ بَيْنَ الشَّيْعَةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ يَرَوُونَ رِوَايَاتٍ فِي فَضْلِ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ عَنْ أُمَّتِهِمْ، وَمِنْ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ مَا وَرَدَ عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، وَالَّتِي يَرَوْنَ فِيهَا أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ مِنْ سَمَائِهِمْ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ تَشْرِيفًا لَهُمْ، وَالرِّوَايَةُ كَمَا يَرَوِيهَا أَبُو بَصِيرٍ أَنَّهُ قَالَ لِلصَّادِقِ: «أَنَا قَدْ تَبَرَّأْنَا تَبْرًا انْكَسَرَتْ لَهُ ظُهُورُنَا، وَمَاتَتْ لَهُ أَفْئِدَتُنَا، وَاسْتُحِلَّتْ لَهُ الْوَلَاةُ دِمَاءَنَا فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ لَهُمْ فَفَهَّمُواهُمْ. قَالَ: فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): الرَّافِضَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا هُمْ سُمُوكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَمَّاكُمْ بِهِ». غَيْرُ أَنَّ ابْنَ تَيْمِيَّةَ يَخْتَلِفُ رَأْيُهُ فِي ذَلِكَ فَيَرَى أَنَّ أَصْلَ تَسْمِيَةِ الرَّافِضَةِ إِنَّمَا جَاءَتْ مِنْ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ ذِمًّا لَهُمْ، وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ مِنْهَاجِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ إِذْ قَالَ: «مَنْ زَمَنَ خُرُوجَ زَيْدٍ؛ افْتَرَقَتْ الشَّيْعَةُ إِلَى رَافِضَةٍ وَزَيْدِيَّةٍ، فَإِنَّهُ لَمَّا سُئِلَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَرَّحَمَ عَلَيْهِمَا، رَفَضَهُ قَوْمٌ فَقَالَ لَهُمْ: رَفَضْتُمُونِي. فَسَمَوْا رَافِضَةَ لِرَفْضِهِمْ إِيَّاهُ، وَسَمِيَتْ مِنْ لَمَ يَرْفُضُهُ مِنَ الشَّيْعَةِ زَيْدِيًّا لِانْتِسَابِهِمْ إِلَيْهِ

وَمِنْ الْأَلْقَابِ الَّتِي تَطْلُقُ عَلَيْهِمْ كَذَلِكَ هُوَ لَقَبُ الْإِمَامِيَّةِ وَالَّذِي ذَكَرَهُ مَثَلًا الشَّرِيفُ الْمُرْتَضَى فِي الْعُيُونِ وَالْمَجَالِسِ مُعَرِّفًا الْإِمَامِيَّةَ بِأَنَّهُمْ «الْقَائِلُونَ بِوُجُوبِ الْإِمَامَةِ وَالْعِصْمَةِ وَوُجُوبِ النَّصِّ وَإِنَّمَا حَصَلَ لَهَا هَذَا الْأِسْمُ فِي الْأَصْلِ لِجَمْعِهَا فِي الْمَقَالَةِ هَذِهِ الْأُصُولِ». فِيمَا عَرَفَ أَبُو سَعْدٍ السَّمْعَانِيُّ فِي الْأَنْسَابِ الْإِمَامِيَّةِ

بأنهم: «جماعة من غلاة الشيعة، وإنما لقبوا بهذا اللقب لأنهم يرون الإمامة لعلي وأولاده، ويعتقدون أنه لا بد للناس من الإمام ينتظرون إماماً سيخرج في آخر الزمان يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً

وكذلك لقب الجعفرية والذي يشتهرون به ويميزون به عن الزيدية، وقد اشتهروا به «باعبار أن مذهبهم في الفروع هو مذهب الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ونسب مذهبهم في الفروع إليه باعتبار أن أكثره مأخوذ عنه وإن كان أخذهم عن أئمة أهل البيت الاثني عشر بالسواء لكن لما كانت الروايات عنه في فروع الفقه أكثر منها عن غيره بكثير .

وهناك القاب يُفصّد بها الشيعة الاثني عشرية من منطقة معينة، فمصطلح المتأولة الذي «يطلق في الأغصان الأخيرة على شيعة جبل عامل وبلاد بعلبك وجبل لبنان، وهو جمع متوالي . اسم فاعل من توالي، مأخوذ من الولاء والمؤالاة، وهي الحب لمؤالاتهم أهل البيت وأتباعهم طريقتهم». وكذلك البحارنه والذي يعني به شيعة البحرين، فالبحراني هو الشيعي البحريني .

الأئمة الاثنا عشر في الحديث

وردت العديد من الأحاديث عند الشيعة المنسوبة إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وإلى أهل بيته في ذكر الأئمة الاثنا عشر وذكر أسمائهم وتسلسلهم متضمنًا الوصاية والتشديد على الأمة الإسلامية بوجوب اتباعهم .

ويعتقد الشيعة أن الخلفاء القرشيين الاثنا عشر الواردين في الأحاديث المنسوبة إلى الرسول عن طريق الكتب السننية ما هم إلا الأئمة الاثنا عشر الذين يؤمن بهم الشيعة ومن هذه الأحاديث حديث جابر بن سمره عن النبي صل الله عليه واله وسلم أنه قال: «يكون بعدي اثنا عشر خليفة كلهم من قریش

اجتمع الصحابة بعد وفاة الرسول محمد الكريم عليه الصلاة والسلام في سقيفة بني ساعدة لاختيار الخليفة في غياب وجوه بني هاشم أمثال علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب اللذان كانا يجهزان النبي للدفن أثناء انعقاد السقيفة، وحسب المؤرخين فإن السقيفة انتهت باختيار أبو بكر بن أبي قحافة خليفة حسب إجماع من المجتمعين في السقيفة من المهاجرين والأنصار. بعد السقيفة بدأت مجموعته صغيرة من الصحابة منهم أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر والمقداد بن عمرو والزبير بن العوام تجتمع في بيت علي بن أبي طالب معترضة على اختيار أبو بكر، ويُعبر الشيعة الصحابة الذين يرون أحقية علي بن أبي طالب هم أفضل الصحابة وأعظمهم قدرًا .

ويرى البعض أنه بعد أن تطور الأمر في عهد عثمان بن عفان الخليفة الثالث حيث أدت بعض السياسات التي يقوم بها بعض عماله في الشام ومصر إلى سخط العامة وأعلن بعض الثائرين خروجهم على عثمان وبدوا ينادون بالثورة على عثمان، وبالرغم من أن علي بن أبي طالب نفسه حاول دفعهم عن الثورة وحاول أيضًا من جهة أخرى تقديم النصيحة لعثمان بن عفان لاتخاذ هيئة الدولة الإسلامية إلا أن عثمان قتل في النهاية على يد الثائرين. وبعد ذلك أجمع المسلمون على الالتفاف حول علي بن أبي طالب يطلبون منه تولي الخلافة. وهنا يأخذ الفكر منعطفًا جديدًا حيث إن علي بن أبي طالب أصبح حاكمًا رسميًا وشرعيًا للامة من قبل أغلب الناس .

ومع بداية الصراع بينه وبين الصحابة أمثال طلحة والزبير بن العوام ومعاوية، بدأ يظهر مصطلح شيعة علي يبرز وهم أصحاب علي بن أبي طالب المؤيدين له، والذين ينظر إليهم الشيعة كمؤمنين بمبدأ إمامه علي، ومُتبعين له من مُنطلق اعتقادي. ولكن بدأت في ظهور مجموعته في المقابل أطلقت على نفسها

شِيعَةَ عُثْمَانَ أَغْلَنُوا أَنَّهُمْ يُطَالِبُونَ بِدَمِ عُثْمَانَ وَقُتِلَ قَتَلْتَهُ وَتَطَوَّرَ الْأَمْرُ بِهِمْ أَنْ أَغْلَنُوا رَفُضُهُمْ لِخِلَافِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي تَبَايَعُوا فِي رَأْيِهِمْ فِي النَّارِ لِعُثْمَانَ . وَعَلَى رَأْسِ شِيعَةِ عُثْمَانَ كَانَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ مِنْ جِهَةِ وَعَائِشَةَ زَوْجَةَ النَّبِيِّ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى وَبَعْدَ مَعَارِكٍ مِثْلَ مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ وَمَعْرَكَةِ صَفِّينَ وَظُهُورِ حَرْبِ جَدِيدٍ هُمُ الْخَوَارِجُ وَمَعْرَكَةِ النَّهْرَوَانَ . قُتِلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى يَدِ أَحَدِ الْخَوَارِجِ هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُلْجَمٍ بِسَيْفٍ مَسْمُومٍ أَثْنَاءَ صَلَاةِ الْفَجْرِ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ وَقَالَ جُمَلَتِهِ الشَّهِيْرَةُ: «فَزْتُ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ .

حَدَّثَتْ مَوْقِعَةَ الْجَمَلِ فِي عَامِ 36 قَدْ بَيَّنَّ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَكُلُّ مَنْ عَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، يَرَى الشِّيعَةَ بِأَنَّ سَبَبَ خُرُوجِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ بَاتِّهَمَا بِإِتِّعَا الْإِمَامَ طَمَعًا فِي مَنْصِبِهِ وَهُوَ مَا لَمْ يَنَالَاهُ لِذَلِكَ حَرْبًا عَلَيْهِ وَاتَّخَذَا مِنَ الْقِصَاصِ لِمَقْتَلِ عُثْمَانَ حُجَّةً لِعَزْلِهِ عَنِ الْخِلَافَةِ أَوْ قَتَلِهِ، كَمَا يَرَى الشِّيعَةُ أَنَّ عَائِشَةَ هِيَ مِنْ حَرَضِ النَّاسِ عَلَى قَتْلِ عُثْمَانَ لِأَنَّهَا قَالَتْ: «اقْتُلُوا تَعَثُّوا (عُثْمَانَ) فَقَدْ كَفَرَ»، وَهِيَ الَّتِي أَثَارَتْ الْحَرْبَ وَحَرَضَتْ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَأَخْبَرْتُهُمْ بِأَنَّ الْإِمَامَ عَلَى هُوَ مِنْ قَتَلِهِ أَوْ سَهَّلَ مَقْتَلَهُ . بَيْنَمَا يَرَى السُّنَّةُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى تَنْفِيذِ الْقِصَاصِ فِي قَتْلِ عُثْمَانَ مَعَ عِلْمِهِ بِأَعْيَانِهِمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ سَيَّطَرُوا عَلَى مَقَالِيدِ الْأُمُورِ فِي الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَشَكَّلُوا فِيهِ قُوَّةً وَمُسْلِحَةً كَانَتْ مِنَ الصَّعْبِ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا . لِذَلِكَ فَضَّلَ الْإِنْتِظَارَ لِيَتَحِينَ الْفُرْصَةُ الْمُنَاسِبَةَ لِلْقِصَاصِ، وَلَكِنْ بَعْضُ الصَّحَابَةِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَامِ رَفَضُوا هَذَا السَّبَاطُ فِي تَنْفِيذِ الْقِصَاصِ وَلَمَّا مَضَتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ عَلَى بَيْعِهِ عَلَى دُونَ أَنْ يَنْفَذَ الْقِصَاصُ خَرَجَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ إِلَى مَكَّةَ، وَالتَّقَوُّا عَائِشَةَ الَّتِي كَانَتْ عَائِدَةً مِنْ أَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ، وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى الْبَصْرَةِ لِيَلْتَمِتُوا بِمَنْ فِيهَا مِنَ الْخَيْلِ وَالرِّجَالِ، لَيْسَ لَهُمْ غَرَضٌ فِي الْقِتَالِ،

وَذَلِكَ تَمْهِيدًا لِلْقَبْضِ عَلَى قَتْلِهِ عُثْمَانَ، وَإِنْفَازِ الْفِصَاصِ فِيهِمْ. وَتَبَّحَ عَنِ الْمَعْرَكَةِ هَزِيمَةَ أَصْحَابِ الْجَمَلِ
وَمَقْتَلَ الْأَلْفَ وَقَتَلَ فِيهَا طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ.

مَعْرَكَةُ صَفَيْنَ هِيَ الْمَعْرَكَةُ الَّتِي دَارَتْ بَيْنَ عَلِيِّ وَمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ - وَإِلَى الشَّامِ فِي عَهْدِ عُثْمَانَ -
بَعْدَ أَنْ عَزَلَهُ وَبَعْدَ إِعْلَانِ مُعَاوِيَةَ رَفْضِهِ تَنْفِيذَ قَرَارِ الْخَلِيفَةِ بَعْرَلِهِ، كَمَا امْتَنَعَ عَنْ تَقْدِيمِ الْبَيْعَةِ لِعَلِيِّ،
وَطَالِبَ بِالنَّارِ لِابْنِ عَمِهِ عُثْمَانَ، وَيُشَكِّكُ أَيْضًا الْكَثِيرِينَ فِي أَهْدَافِ مُعَاوِيَةَ الْمُعْلَنَةِ حَيْثُ يَرَوْنَ
مُعَارَضَتَهُ كَانَتْ لِأَطْمَاعِ سِيَاسِيَّةٍ.

وَحَدَّثَتْ مَعْرَكَةُ التَّهْرَوَانَ فِي سَنَةِ 38 ق. بَيْنَ جَيْشِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَالْخَوَارِجِ، انْتَهَتْ الْمَعْرَكَةُ بِانْتِصَارِ
عَلِيِّ وَمَقْتَلِ جَمِيعِ الْخَوَارِجِ الْبَالِغِ عَدَدُهُمْ 4000 مَا عَدَا أَقْلًا مِنْ 10، حَيْثُ وَرَدَ عَنْهُ فِي الْمَصَادِرِ
الشَّيْعِيَّةِ قَوْلُهُ لَهُمْ عِنْدَمَا وَصَلُوا حُرُورًا «يَا قَوْمَ. لَيْسَ الْيَوْمَ أَوْانَ قِتَالِكُمْ. وَسَتَقْرُقُونَ. حَتَّى تَصِيرُوا
أَرْبَعَةَ الْأَفِّ. فَتَخْرُجُونَ عَلَيَّ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ وَفِي مِثْلِ هَذَا الشَّهْرِ فَأُخْرِجَ إِلَيْكُمْ بِأَصْحَابِي فَأَقَاتِكُمْ
حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا دُونَ عَشْرَةٍ» وَقَدْ كَانَ عَدَدُهُمْ 12 ألفًا ثُمَّ تَفَرَّقُوا.

بَايَعَ أَهْلَ الْعِرَاقِ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (ثَانِي أُمَّةِ الشَّيْعَةِ الْإِنْتِي عَشْرِيَّةً) عَلَى الْخِلَافَةِ بَعْدَ مَقْتَلِ
أَبِيهِ عَلَى يَدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُلْجَمٍ، فِيمَا بَايَعَ أَهْلَ الشَّامِ بِدَوْرِهِمْ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ. حَشَدَ مُعَاوِيَةَ
جُيُوشَهُ وَسَارَ إِلَى الْحَسَنِ، غَيْرَ أَنَّ الْحَسْنَ رَفَضَ الْقِتَالَ، وَرَاسَلَ مُعَاوِيَةَ لِلصُّلْحِ، فَسَرَ هَذَا سُرُورًا كَبِيرًا
بِالْعُرْضِ وَوَأَفَقَ عَلَيْهِ، وَعَقِدْتُ الصُّلْحَ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الثَّانِي سَنَةِ 41 ق. (أَغْسُطُسَ سَنَةِ 661 م)، وَهَكَذَا
تَنَازَلَ الْحَسَنُ عَنِ الْخِلَافَةِ لِمُعَاوِيَةَ، وَبَايَعَ مُعَاوِيَةَ وَفَقَ شُرُوطَ لَمْ تَنْفُذْ فِيمَا بَعْدُ. وَسُمِّيَ ذَلِكَ الْعَامَ بَعَامَ

الْجَمَاعَةُ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ اتَّفَقُوا فِيهِ عَلَى خَلِيفَةٍ لَهُمْ بَعْدَ خِلَافِ طَوِيلِ دَامَ سَنَوَاتٍ، وَتَأَسَّسَتْ الدَّوْلَةُ الْأُمَوِيَّةُ
حِينَئِذٍ . . .

الدَّوْلَةُ الصَّفَوِيَّةُ

كَانَتْ الْأَكْثَرِيَّةُ مِنْ سُكَّانِ إِيرَانَ يَتَّبِعُونَ الْمَذْهَبَ السُّنِّيَّ الشَّافِعِيَّ وَالْحَنَفِيَّ حَتَّى ائْتَصَرَ الصَّفَوِيُّونَ الَّذِينَ
كَانُوا فِي الْبِدَايَةِ مِنَ الشَّوْفَعِ . وَفِي الْمَقَابِلِ كَانَ الشَّيْعَةَ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةَ يُشَكِّلُونَ أَقَلِّيَّةَ كَبِيرَةً تَتَرَكَّزُ فِي بَعْضِ
الْمُدُنِ كَهَم، وَسَبَزُوَار، وَكَاشَانَ، مَعَ وُجُودِ عَدَدٍ قَلِيلٍ نَسَبِيًّا مِنْ عُلَمَاءِ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةَ فِيهَا
مِنْ سَنَةِ 1500 م إِلَى سَنَةِ 1502 م غَزَا إِسْمَاعِيلُ الْأَوَّلُ (مُؤَسَّسُ الدَّوْلَةِ الصَّفَوِيَّةِ) تَبْرِيزَ، أَذْرَبِيجَانَ،
وَأَرْمِينِيَا . وَكُرْسَ عَقْدَ كَامِلٍ مِنَ الزَّمَنِ مِنْ أَجْلِ تَعْزِيزِ سَيْطَرَتِهِ عَلَى إِيرَانَ حَيْثُ كَانَ أَكْثَرِيَّةَ الْفَرَسِ مَا
زَالُوا يَدِينُونَ بِالْمَذْهَبِ السُّنِّيِّ . انْتَشَرَ جَيْشُ إِسْمَاعِيلِ الْأَوَّلِ فِي الْمَنَاطِقِ الْوُسْطَى سَنَةَ 1504 م ثُمَّ سَيْطَرَ
عَلَى جَنُوبِ غَرْبِ إِيرَانَ بَيْنَ سَنَةِ 1505 و 1508 م ثُمَّ سَيْطَرَ عَلَى حُرَّاسَانَ الْكُبْرَى وَمَدِينَةِ هَرَاتِ فِي
1510 م . تَأَسَّسَتْ سُلَالَةُ الصَّفَوِيِّينَ فِي الْبِدَايَةِ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ الْأُولَى كَانَتْ الْمَذْهَبَ الشَّيْعِيَّ وَالثَّانِيَةَ الْعَرَقَ
الْفَارِسِيَّ، وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ أَكْثَرَ تَأْثِيرًا عَلَى الْأَوَّلِ مِنَ الثَّانِي . وَلِذَلِكَ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْبَاحِثِينَ يَذْكُرُونَ أَنَّ
إِسْمَاعِيلَ الصَّفَوِيَّ قَدْ خَيَّرَ غَالِبِيَّةَ الْفَرَسِ بِاعْتِنَاقِ الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ الْإِثْنِي عَشْرِيَّيْ أَوْ الْمَوْتِ وَاسْتِطَاعَ
فِي الْأَرَاضِي الَّتِي سَيْطَرَ عَلَيْهَا أَنْ يَحُولَ أَهْلِهَا مِنَ الْمَذْهَبِ السُّنِّيِّ إِلَى الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ .

وَقَدْ اتَّخَذَ الصَّفَوِيُّونَ عِدَّةَ خُطُوطٍ فِي بَدَايَةِ حُكْمِهِمْ ضِدَّ الْعُلَمَاءِ السُّنَّةِ مِنْهَا مَنْحِهِمْ حَقَّ الْخِيَارِ بَيْنَ
 اتِّبَاعِ الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ الْاِثْنِي عَشْرِيِّ أَوْ الْمَوْتِ أَوْ التَّنْفِي . وَذَبَحَ رِجَالُ الدِّينِ السُّنَّةَ الَّذِينَ قَاوَمُوا التَّشْيِعَ
 فِي إِيرَانَ خُصُوصًا فِي مَدِينَةِ هَرَاتٍ، بَيْنَمَا رَحَلَ الْعَدِيدُ مِنْهُمْ إِلَى خَارِجِ إِيرَانَ فِي الدَّوَلِ السُّنِّيَّةِ الْقَرِيبَةِ ،
 وَمَعَ بَعْدِ الْفَتْحِ بَدَأَ إِسْمَاعِيلُ الْأَوَّلُ فِي تَحْوِيلِ الْمَشْهَدِ الدِّينِيِّ فِي إِيرَانَ عَنْ طَرِيقِ فَرَضِ التَّشْيِعِ الْاِثْنِي
 عَشْرِيِّ عَلَى السُّكَّانِ . لِأَنَّ مُعْظَمَ السُّكَّانِ كَانَ مُعْتَبِقًا لِلْمَذْهَبِ السُّنِّيِّ، وَعَدَمِ وُجُودِ الْكَثِيرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ
 الشَّيْعَةِ اضْطُرَّ إِسْمَاعِيلُ الْأَوَّلُ إِلَى اسْتِيرَادِ عُلَمَاءِ شَيْعَةٍ مِنَ الْبُلْدَانِ الْعَرَبِيَّةِ مِثْلَ جَبَلِ عَامِلٍ فِي جَنُوبِ
 لُبْنَانَ، وَالْبَحْرَيْنِ، وَجَنُوبِ الْعِرَاقِ مِنْ أَجْلِ إِنْشَاءِ دَوْلَةٍ رِجَالِ الدِّينِ، وَكَانَ مِنْ أَوَائِلِ مَنْ هَاجَرُوا مِنْ لُبْنَانَ
 إِلَى إِيرَانَ عَلَى الْكُرْكِيِّ، وَالَّذِي صَارَ مُقْتِي الدَّوَلَةِ الصَّفَوِيَّةِ . وَقَدْ قَدَّمَ إِسْمَاعِيلُ الْأَوَّلُ لَهُمُ الْمَالُ وَالْأَرْضُ
 مُقَابِلَ الْوَلَاءِ وَإِنْ يَعْلَمُوا النَّاسَ الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ الْاِثْنِي عَشْرِيِّ مِمَّا شَجَّعَ بِقُوَّةِ التَّحْوِيلِ إِلَى الْمَذْهَبِ
 الشَّيْعِيِّ . لِلتَّأَكِيدِ عَلَى مَدَى ضَعْفِ اتِّشَارِ الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ فِي إِيرَانَ قَبْلَ الصَّفَوِيِّينَ فَإِنَّ أَحَدَ الْمُؤَرِّخِينَ
 ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يُوجَدُ كِتَابٌ وَاحِدٌ دِينِي شَيْعِي فَقَطْ فِي عَاصِمَةِ إِسْمَاعِيلِ الْأَوَّلِ تَبْرِيزَ .
 لِذَلِكَ فَإِنَّ بَعْضَ الْبَاحِثِينَ يُشَكِّكُونَ فِي كَوْنِ إِسْمَاعِيلِ الْأَوَّلِ وَاتِّبَاعِهِ قَدْ نَجَّحُوا فِي إِجْبَارِ الشَّعْبِ بِأَكْمَلِهِ
 فِي التَّشْيِعِ مِنْ دُونِ دَعْمِ الْعُلَمَاءِ الشَّيْعَةِ الْعَرَبِ . وَقَدْ دَعَا حُكَّامُ الدَّوَلَةِ الصَّفَوِيَّةِ عُلَمَاءَ الدِّينِ الشَّيْعَةِ
 الْفَرَسِ إِلَى دَعْمِهِمْ مِنْ أَجْلِ تَوْفِيرِ الشَّرْعِيَّةِ لِحُكْمِهِمْ بِبَادِ فَارِسَ .
 وَخِلَالَ حُكْمِ عَبَّاسِ الْأَوَّلِ لِلدَّوَلَةِ الصَّفَوِيَّةِ قَامَ بِاسْتِيرَادِ عُلَمَاءِ شَيْعَةٍ عَرَبٍ أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلَ إِسْمَاعِيلُ الْأَوَّلُ
 مِنْ أَجْلِ بِنَاءِ الْمَوْسَسَّاتِ الدِّينِيَّةِ وَالْمَدَارِسِ الدِّينِيَّةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي عَمَلِ الْحُكُومَةِ .

الْعَقَائِدُ وَالْأُصُولُ

الْإِلَهِيَّاتِ

التَّوْحِيدُ هُوَ أَوَّلُ أَصْلٍ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ عِنْدَ الشَّيْخَةِ الْإِسْنَائِيَّةِ عَشْرِيَّةً، وَمَعْنَى التَّوْحِيدِ عِنْدَهُمْ هُوَ أَنَّهُ
«يَجِبُ تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، فَكَمَا يَجِبُ تَوْحِيدُهُ فِي الذَّاتِ وَتَعْتَقِدُ بِأَنَّهُ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ
وَوُجُوبِ وُجُودِهِ، كَذَلِكَ يَجِبُ - ثَابِتًا - تَوْحِيدُهُ فِي الصِّفَاتِ، وَذَلِكَ بِالِاعْتِقَادِ بِأَنَّ صِفَاتِهِ عَيْنُ ذَاتِهِ،
وَبِالِاعْتِقَادِ بِأَنَّهُ لَا شِبَهَ لَهُ فِي صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ، فَهُوَ فِي الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ لَا نَظِيرَ لَهُ وَفِي الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ لَا
شَرِيكَ لَهُ وَفِي كُلِّ كَمَالٍ لَا نَدَّ لَهُ .

فَهُمْ يُوجِبُونَ تَوْحِيدَ اللَّهِ فِي جَمِيعِ الْجِهَاتِ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْجِهَاتِ؛ تَوْحِيدُهُ فِي الذَّاتِ، وَتَوْحِيدُهُ فِي
الصِّفَاتِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى تَوْحِيدِهِ فِي الْعِبَادَةِ «فَلَا تَجُوزُ عِبَادَةٌ غَيْرُهُ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، وَكَذَا أَشْرَاكِهِ فِي
الْعِبَادَةِ فِي أَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، وَاجِبَةٌ أَوْ غَيْرُ وَاجِبَةٍ، فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ . وَمَنْ أَشْرَكَ
فِي الْعِبَادَةِ غَيْرَهُ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَمَنْ يُرَائِي فِي عِبَادَتِهِ وَيَتَقَرَّبُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَحُكْمُهُ حُكْمُ مَنْ يَعْبُدُ
الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ، لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا .

وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ صِفَاتِ اللَّهِ «الْبُيُوتِيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ الْكَمَالِيَّةَ الَّتِي تُسَمَّى بِصِفَاتِ (الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ)، كَالْعِلْمِ
وَالْقُدْرَةِ وَالْعِنَى وَالْإِرَادَةَ وَالْحَيَاةَ» هِيَ كُلُّهَا عَيْنُ ذَاتِهِ، وَإِنْ وُجِدَتْ هِيَ وَجُودُهَا هُوَ وَجُودُ الذَّاتِ، فَقَدَرَهُ اللَّهُ مِنْ
حَيْثُ الْوُجُودِ حَيَاتِهِ . وَحَيَاتِهِ قُدْرَتِهِ، بَلْ «هُوَ قَادِرٌ مِنْ حَيْثُ هُوَ حَيٌّ، وَحَيٌّ مِنْ حَيْثُ هُوَ قَادِرٌ، لَا
اِثْنَيْنِيَّةَ فِي صِفَاتِهِ وَوُجُودِهَا وَهَكَذَا الْحَالُ فِي سَائِرِ صِفَاتِهِ الْكَمَالِيَّةِ» .

الْعَدْلِ

وَأَمَّا ثَانِي أَسْوَالِ الدِّينِ فَهُوَ الْعَدْلُ وَالَّذِي يَتَلَخَّصُ بِالِاعْتِقَادِ بِأَنَّ اللَّهَ عَادِلٌ وَ«أَنَّهُ عَادِلٌ غَيْرُ ظَالِمٍ، فَلَا يُجْزِرُ فِي قَضَائِهِ وَلَا يَحِيفُ فِي حُكْمِهِ، يُثِيبُ الْمُطِيعِينَ، وَلَهُ أَنْ يُجَازِيَ الْعَاصِينَ، وَلَا يُكَلِّفُ عِبَادَهُ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَعَاقِبُهُمْ زِيَادَةً عَلَى مَا يَسْتَحِقُّونَ .

وَأَمَّا عَقِيدَةُ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةَ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِالْجَبْرِ الَّذِي يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْفَاعِلُ لِأَفْعَالِ الْخَلْقِ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ قَدْ أُجْبِرَ النَّاسُ عَلَى فِعْلِ الْمَعَاصِي، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُعَذِّبُهُمْ عَلَيْهَا، وَأُجْبِرُهُمْ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَمَعَ ذَلِكَ يُثِيبُهُمْ عَلَيْهَا . وَلَا يَقُولُونَ بِالتَّفْوِيزِ الَّذِي مَعْنَاهُ يُعَاكِسُ مَعْنَى الْجَبْرِ، فَمَعْنَى التَّفْوِيزِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ قَوَّضَ الْأَفْعَالَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ، وَقَدْ رَفَعَ قُدْرَتَهُ وَقَضَاءَهُ وَتَقْدِيرَهُ عَنْهَا، بِاعْتِبَارِ أَنَّ نِسْبَةَ الْأَفْعَالِ إِلَيْهِ تَعَالَى تَسْتَلْزِمُ نِسْبَةَ التَّنْصِصِ إِلَيْهِ، وَإِنْ لِلْمَوْجُودَاتِ أَسْبَابُهَا الْخَاصَّةُ وَإِنْ انْتَهَتْ كُلُّهَا إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ وَالسَّبَبِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ اللَّهُ . وَقَوْلُ الشَّيْعَةِ هُوَ أَنَّ «الْأَمْرَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، وَالطَّرِيقَ الْوَسْطَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ» . وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ مَشْهُورٍ يُرْوَاهُ الشَّيْعَةُ عَنْ إِمَامِهِمْ جَعْفَرَ الصَّادِقِ، وَهُوَ قَوْلُهُ «لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيزَ بَلْ أَمْرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ» . فَخَلَّصَهُ عَقِيدَةُ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةَ فِي مَسْأَلَةِ الْجَبْرِ وَالتَّفْوِيزِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ «أَفْعَالَنَا مِنْ جِهَةٍ هِيَ أَفْعَالُنَا حَقِيقَةٌ وَنَحْنُ أَسْبَابُهَا الطَّبِيعِيَّةُ، وَهِيَ تَحْتَ قُدْرَتِنَا وَاخْتِيَارِنَا وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى هِيَ مُقْدَرَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَدَاخِلَةٌ فِي سُلْطَانِهِ لِأَنَّهُ هُوَ مَفْبُوضُ الْوُجُودِ وَمُعْطِيَةٌ، فَلَمْ يَجِبْنَا عَلَى أَفْعَالِنَا حَتَّى يَكُونَ قَدْ ظَلَمْنَا فِي عِقَابِنَا عَلَى الْمَعَاصِي لِأَنَّ لَنَا الْقُدْرَةَ وَالِاخْتِيَارَ فِيمَا نَفْعَلُ، وَلَمْ يُفَوِّضْ إِلَيْنَا خَلْقَ أَفْعَالِنَا حَتَّى يَكُونَ قَدْ أَخْرَجَهَا عَنْ سُلْطَانِهِ، بَلْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْحُكْمُ وَالْأَمْرُ .

وَكذلك يُشْهَرُونَ بِاعْتِقَادِهِمْ بِالْبَدَاءِ، وَالْبَدَاءُ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِنْسَانِ هُوَ أَنَّ «يَبْدُو لَهُ رَأْيِي فِي الشَّيْءِ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ الرَّأْيُ سَابِقًا؛ بَلْ يَبْدُلُ عَزْمَهُ فِي الْعَمَلِ الَّذِي كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَصْنَعَهُ، إِذْ يَحْدُثُ عِنْدَهُ مَا يُغَيِّرُ رَأْيَهُ

وَعِلْمُهُ بِهِ، فَيَبْدُو لَهُ تَرْكُهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ يُرِيدُ فِعْلَهُ، وَذَلِكَ عَنْ جَهْلِ بِالْمَصَالِحِ وَنَدَامَةِ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْهُ»،
 وَيُؤَكِّدُونَ أَنَّ هَذَا الْبَدَاءَ بِهَذَا الْمَعْنَى يَسْتَحِيلُ انْتِبَاقَهُ عَلَى اللَّهِ «لِأَنَّهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالتَّقْصُ وَذَلِكَ مُحَالٌ
 عَلَيْهِ تَعَالَى وَلَا تَقُولُ بِهِ الْإِمَامِيَّةُ». وَقَدْ رَوَوْا رَوَايَاتٍ عَدِيدَةً عَنْ أُمَّتِهِمْ تَرْفُضُ الْبَدَاءَ بِالْمَعْنَى الَّذِي
 يُنْطَبِقُ عَلَى الْإِنْسَانِ، فَمِنْهَا عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَدَأَ لَهُ فِي شَيْءٍ بَدَاءً
 نَدَامَةً فَهُوَ عِنْدَنَا كَافِرٌ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ»، وَقَالَ كَذَلِكَ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ بَدَأَ لَهُ فِي شَيْءٍ وَلَمْ يَعْلَمْهُ أُمْسُ فَأَبْرَأَ
 مِنْهُ .

النُّبُوَّةُ وَالْأَنْبِيَاءُ

المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ - الْمَكَانِ الَّذِي دُفِنَ فِيهِ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُعَدُّ مِنَ الْمَقَدَّسَاتِ عِنْدَ
 الشَّيْعَةِ الْأَثْنِي عَشْرِيَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ . .
 النُّبُوَّةُ هِيَ ثَالِثُ أَصْلٍ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ الْخَمْسَةِ عِنْدَ الشَّيْعَةِ الْأَثْنِي عَشْرِيَّةِ، وَتَعْرِيفُهُمُ لِلنُّبُوَّةِ أَنَّهَا «وَضِيفَةُ
 إِلَهِيَّةٍ وَسُفَارِهِ رَبَّانِيَّةٍ، يَجْعَلُهَا اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ يَنْتَجِبُهُ وَيَخْتَارُهُ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ وَأَوْلِيَائِهِ الْكَامِلِينَ فِي
 إِنْسَانِيَّتِهِمْ فَيُرْسِلُهُمْ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ لِغَايَةِ إِرْشَادِهِمْ إِلَى مَا فِيهِ مَنَافِعُهُمْ وَمَصَالِحُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .
 وَيَعْتَقِدُونَ بِقَاعِدَةٍ يُسَمُّونَهَا قَاعِدَةُ اللَّطْفِ الَّتِي نَتَّصُّ عَلَى أَنَّ «اللُّطْفَ بِالْعِبَادِ مِنْ كَمَالِهِ الْمَطْلُوقِ وَهُوَ
 اللَّطِيفُ بِعِبَادَةِ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ»، وَتُوجِبُ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ «أَنْ يَبْعَثَ الْخَالِقُ اللَّطِيفُ بِعِبَادَةِ رُسُلِهِ لِهِدَايَةِ
 الْبَشَرِ وَأَدَاءِ الرِّسَالَةِ الْإِصْلَاحِيَّةِ وَيَكُونُوا سُفْرَاءَ اللَّهِ وَخُلَفَاءَهُ. كَمَا تَعْتَقِدُ أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ لِلنَّاسِ حَقَّ
 تَعْيِينِ النَّبِيِّ أَوْ تَرْشِيحِهِ أَوْ اتِّخَابِهِ وَلَيْسَ لَهُمْ الْخَيْرَةُ فِي ذَلِكَ، بَلْ أَمْرٌ كُلُّ ذَلِكَ بِيَدِهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ (أَعْلَمُ
 حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) .

وَمِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا يَكُونُ الشَّخْصُ نَبِيًّا دُونَهَا كَمَا يَعْتَقِدُونَ هِيَ الْمُعْجَزَةُ فَلَا بُدَّ «لِلنَّبِيِّ مِنْ مُعْجَزَةٍ يُظْهِرُ بِهَا لِلنَّاسِ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْمُعْجَزَةُ ظَاهِرُهُ الْإِعْجَازُ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى وَجْهِ يَعْجَزُ عَنْهَا الْعُلَمَاءُ وَأَهْلُ الْفَنِّ فِي وَقْتِهِ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ مَعَ اقْتِرَانِ تِلْكَ الْمُعْجَزَةِ بِدَعْوَى النُّبُوَّةِ مِنْهُ لَتَكُونَ دَلِيلًا عَلَى مُدْعَاهُ وَحُجَّةَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَإِذَا عَجَزَ عَنْهَا أَمْثَالُ أَوْلِيكَ عَلِمَ أَنَّهَا فَوْقَ مَقْدُورِ الْبَشَرِ وَخَارِقَةٌ لِلْعَادَةِ، فَيَعْلَمُ أَنَّ صَاحِبَهَا فَوْقَ مُسْتَوَى الْبَشَرِ بِمَا لَهُ مِنْ ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ الرُّوحِيِّ بِمُدَبِّرِ الْكَائِنَاتِ، وَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ لِشَخْصٍ مِنْ ظُهُورِ الْمُعْجَزِ الْخَارِقِ لِلْعَادَةِ، وَادَّعَى مَعَ ذَلِكَ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ، يَكُونُ حِينَئِذٍ مُوضِعًا لِتَصْدِيقِ النَّاسِ بِدَعْوَاهُ وَالْإِيمَانِ بِرِسَالَتِهِ وَالْخُضُوعِ لِقَوْلِهِ وَأَمْرِهِ» .

وَيَعْتَقِدُ الشَّيْعَةُ الْإِنْتِي عَشْرِيَّةً كَذَلِكَ «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ قَاطِبَةً»، وَيَعْرِفُونَ الْعِصْمَةَ بِأَنَّهَا «التَّنْزَهُ عَنْ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي صَغَائِرِهَا وَكِبَائِرِهَا، وَعَنْ الْخَطَا وَالنَّسِيَانِ، وَإِنْ لَمْ يَمْتَنِعْ عَقْلًا عَلَى النَّبِيِّ أَنْ يَصْدُرَ مِنْهُ ذَلِكَ بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُنْزَهًا حَتَّى عَمَّا يُنَافِي الْمُرُوءَةَ، كَالْتَبَدُّلِ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ أَكْلِ فِي الطَّرِيقِ أَوْ ضَحِكَ عَالٍ، وَكُلِّ عَمَلٍ يُسْتَهْجَنُ فِعْلُهُ عِنْدَ الْعُرْفِ الْعَامِّ .

وَيُؤْمِنُونَ «عَلَى الْإِحْمَالِ بِأَنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَى حَقٍّ، كَمَا تُؤْمِنُ بَعْضُهُمْ وَطَهَّارَتُهُمْ وَأَمَّا إِنْكَارُ بُبُوَّتِهِمْ أَوْ سَبُّهُمْ أَوْ الْإِسْتِهْزَاءُ بِهِمْ فَهُوَ مِنَ الْكُفْرِ وَالزُّنُوقَةِ» لِأَنَّ ذَلِكَ يَسْتَوْجِبُ تَكْذِيبَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُمْ . «وَكَذَلِكَ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِكُتُبِهِمْ وَمَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ . وَأَمَّا التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ الْمَوْجُودَانِ الْآنَ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ» فَيَعْتَقِدُونَ «أَنَّهَا مُحَرَّفَانِ عَمَّا أَنْزَلْنَا بِسَبَبِ مَا حَدَّثَ فِيهِمَا مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ، وَالزِّيَادَاتِ وَالْإِضَافَاتِ بَعْدَ زَمَانِي مُوسَى وَعِيسَى .

وَأَمَّا أَفْضَلِيَةُ الْأَنْبِيَاءِ فَإِنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ بِأَنَّ «مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ وَأَفْضَلُهُمْ عَلَى الْأَطْلَاقِ، كَمَا أَنَّهُ سَيِّدُ الْبَشَرِ جَمِيعًا لَا يُوَارِيهِ فَاضِلٌ فِي فَضْلِ وَلَا يُدَانِيهِ أَحَدٌ فِي مَكْرَمَةٍ، وَلَا يُقَارِبُهُ عَاقِلٌ فِي عَقْلِ، وَلَا يُشَبِّهُهُ شَخْصٌ فِي خَلْقٍ، وَإِنَّهُ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ. ذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ نَشْأَةِ الْبَشَرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

الْإِمَامَةُ وَالْعِصْمَةُ

الْإِمَامَةُ هِيَ رَابِعُ أَصُولِ الدِّينِ عِنْدَ الشَّيْعَةِ الْأَثْنِي عَشْرِيَّةَ، وَهِيَ فِي الْعُمُومِ الْمَآزِرُ الرَّئِيسِيَّةُ بَيْنَ الشَّيْعَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الطَّوَائِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَقَاصِيلُهَا هِيَ الْمَآئِزَةُ بَيْنَ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةِ وَالطَّوَائِفِ الشَّيْعِيَّةِ الْأُخْرَى كَالزَّيْدِيَّةِ وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ. وَعِنْدَهُمْ «لَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِالْإِعْتِقَادِ بِهَا، وَلَا يَجُوزُ فِيهَا تَقْلِيدُ الْأَبَاءِ وَالْأَهْلِ وَالْمُرْتَبِينَ مَهْمَا عَظُمُوا وَكَبُرُوا، بَلْ يَجِبُ النَّظَرُ فِيهَا كَمَا يَجِبُ النَّظَرُ فِي التَّوْحِيدِ وَالنَّبُوَّةِ»، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْإِمَامَةَ «كَالنَّبُوَّةِ لُطْفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ عَصْرِ إِمَامٌ هَادٍ يَخْلُفُ النَّبِيَّ فِي وَطَائِفِهِ مِنْ هِدَايَةِ الْبَشَرِ وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى مَا فِيهِ الصَّلَاحُ وَالسَّعَادَةُ فِي النَّشْأَتَيْنِ، وَلَهُ مَا لِلنَّبِيِّ مِنَ الْوَلَايَةِ الْعَامَّةِ عَلَى النَّاسِ لِتَدْبِيرِ شُؤْنِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ بَيْنَهُمْ .

وَمَنْ أَهَمَّ مَا يُمَيِّزُ عَقِيدَةَ الْإِمَامَةِ الشَّيْعِيَّةِ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةَ هِيَ الْقَوْلُ بِجُوبِ النَّصِّ عَلَى الْإِمَامِ، فَلَا تَكُونُ الْإِمَامَةُ «إِلَّا بِالنَّصِّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ أَوْ لِسَانِ الْإِمَامِ الَّذِي قَبْلَهُ. وَلَيْسَتْ هِيَ بِالْإِخْتِيَارِ وَالِاتِّخَابِ مِنَ النَّاسِ، فَلَيْسَ لَهُمْ إِذَا شَاءُوا أَنْ يُنْصَبُوا أَحَدًا نَصْبُهُ، وَإِذَا شَاءُوا أَنْ يُعَيَّنُوا إِمَامًا لَهُمْ عَيْنُهُ، وَمَتَى شَاءُوا أَنْ يُرْكَبُوا تَعْيِينَهُ تَرْكُوبُهُ، لِيَصِحَّ لَهُمُ الْبَقَاءُ بِهَا إِمَامًا». وَتَتَفَرَّعُ عَقِيدَةُ الْعِصْمَةِ مِنَ عَقِيدَةِ

الإمامة، فهم يقولون بعصمة الأئمة كما يقولون بعصمة الأنبياء، فيجب أن يكون الإمام «معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت، عمداً وسهواً. كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان، لأن الأئمة حفظه الشرع والقوامون عليه حالهم في ذلك حال النبي». ويعتقدون بأن الإمام يوحى إليه كما يوحى إلى النبي، إذ أنهم يقولون بأن الإمام «يتلقى المعارف والأحكام الإلهية وجميع المعلومات من طريق النبي أو الإمام من قبله. وإذا استجد شيء لا بد أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة القدسية التي أودعها الله تعالى فيه، فإن توجهه إلى شيء وشاء أن يعلمه على وجهه الحقيقي، لا يخطأ فيه ولا يشبهه».

الْبَعْثُ وَالْمَعَاد

المعاد هو خامس أصول الدين عند الشيعة، فيقولون بأن الله «يبعث الناس بعد الموت في خلق جديد في اليوم الموعود به عبادة، فيثيب المطيعين ويعذب العاصين»، ومما يجب اعتقاده في المعاد هو وجوب الاعتقاد بالمعاد الجسماني، «ومنكره منكر لضرورة الدين، وخارج عن رتبة المسلمين»، وينكرون على من لا يعتقد بالمعاد الجسماني، فاحمد الأحسائي - مثلاً - نسب إليه القول بإنكار المعاد الجسماني؛ مما دعي كثيراً من الشيعة الاثني عشرية للحكم عليه بالخروج والانحراف عن العقيدة الشيعية الاثني عشرية لأن «إنكار ما علم ضرورة من مذهب الإمامية فهو يلحق فاعله بالمخالفين، ويخرجه عن الدين بدين الأئمة الطاهرين»، فصاروا يسمون أتباعه بالفرقة الشيعية حتى يميزوها عن الشيعة الاثني عشرية، فيما دافع آخرون عنه مؤكدين وجوب الإيمان بالمعاد الجسماني، ومؤكدين اعتقاد الأحسائي بالمعاد الجسماني، وعدم انحرافه عما عليه الشيعة الاثني عشرية، ومبدين

رَفَضَهُمْ إِلَى عَزْلِ الشَّيْخِيَّةِ عَنِ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةِ وَمُوكَدِّنِ عَدَمِ اخْتِلَافِهِمْ مَعَ بَقِيَّةِ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةِ،
وَأُورِدَ بَعْضُهُمْ عِبَارَاتِ إِعْلَامِ الشَّيْعَةِ وَكِبَارِ فَهْمَائِهِمْ لِإِبْطَاتِ مُوَافَقَةِ بَقِيَّةِ عُلَمَاءِ الشَّيْعِ لِلْإِحْسَابِيِّ .

وَيَعْرِفُونَ الْمَعَادَ الْجُسْمَانِيَّ بِأَنَّهُ «إِعَادَةُ الْإِنْسَانِ فِي يَوْمِ الْبُعْثِ وَالتُّشُورِ بِبَدَنِهِ بَعْدَ الْخَرَابِ، وَإِرْجَاعُهُ إِلَى
هَيْئَتِهِ الْأُولَى بَعْدَ أَنْ يُصْبِحَ رَمِيمًا»، وَلَا يُوجِبُونَ الْإِعْتِقَادَ فِي تَفْصِيْلَاتِ الْمَعَادِ الْجُسْمَانِيِّ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ .

وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى الْمَعَادِ الْجُسْمَانِيِّ بِآيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ مِنْهَا (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ ۚ بَلَى
قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۚ) [الْقِيَامَةِ: 3-4]، (وَلَا يَنْبَغِي تَعَجُّبٌ فَعَجِبْتُ قَوْلَهُمْ أَتَدَا كُنَّا تَرَابًا أَثْنَا لَفِي خَلْقٍ
جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۚ) [الرَّعْدِ: 5]، (وَأَصْحَابِ الْآيِكَةِ وَقَوْمِ تُبَعِّعَ كُلِّ كَذَّابٍ الرَّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۚ) [ق: 14] .

فَيَعْتَقِدُونَ بِأَنْ عَقِيدَةَ الْمَعَادِ بِهَذِهِ الْبَسَاطَةِ، وَلَا يَنْبَغِي الْخَوْضُ فِي تَفَاصِيلِهَا، وَمَنْ يَتَجَاوَزُ هَذِهِ الْبَسَاطَةَ
إِلَى الْبَحْثِ فِي تَفَاصِيلِهَا فَإِنَّ «فَائِدَتَهُ إِنَّمَا يَجْنِي عَلَى نَفْسِهِ وَيَقَعُ فِي مُشْكَلَاتٍ وَمُنَازَعَاتٍ لَا نَهَايَةَ لَهَا .
وَلَيْسَ فِي الدِّينِ مَا يَدْعُو إِلَى مِثْلِ هَذِهِ التَّفْصِيْلَاتِ»، وَيَبْرُرُونَ ذَلِكَ «بِقُصُورِ الْإِنْسَانِ عَنِ إِدْرَاكِ هَذِهِ
الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ .

الْقُرْآن

يَعْتَقِدُ الشَّيْعَةُ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ «الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ الْمُنَزَّلُ» عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ، وَأَنَّهُ «مُعْجَزَتُهُ
الْخَالِدَةُ الَّتِي أَعْجَزَتْ الْبَشَرَ عَنْ مُجَارَاتِهَا فِي الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ وَفِيمَا اخْتَوَى مِنْ حَقَائِقِ وَمَعَارِفِ
عَالِيَةٍ»، وَيُؤَكِّدُونَ الْقَوْلَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَتَرَبَّهَ التَّبْدِيلُ وَالتَّغْيِيرُ وَالتَّحْرِيفُ، وَيَصِفُونَ الْقَائِلَ بِالتَّحْرِيفِ بِأَنَّهُ
«مُخْتَرَقٌ أَوْ مُغَالَطٌ أَوْ مُشْتَبِهٌ، وَكُلُّهُمْ عَلَى غَيْرِ هَدْيٍ». وَيَعْتَقِدُونَ «بِوُجُوبِ احْتِرَامِ الْقُرْآنِ» وَ«وَتَعْظِيمِهِ

بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، فَلَا يَجُوزُ تَجْحِيسُ كَلِمَاتِهِ حَتَّى الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ الْمُعْتَبَرَةِ جِزْأً مِنْهُ عَلَى وَجْهِ يَقْصِدُ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنْهُ، كَمَا لَا يَجُوزُ لِمَنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ طَهَارَةٍ أَنْ يَمَسَّ كَلِمَاتِهِ أَوْ حُرُوفَهُ» .

وَيُوجِّهُ الْإِتِّهَامَ لِلشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةَ كَثِيرًا بِالْقَوْلِ بِتَحْرِيفِ الْقُرْآنِ، بِالرُّغْمِ مِنْ تَضْرِيحِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى عَدَمِ تَحْرِيفِ الْقُرْآنِ وَقَوْلِهِمْ بِوُجُوبِ «الْإِيمَانِ بِكَوْنِهِ مَنزِلًا مِنَ اللَّهِ، وَكَوْنِهِ مُعْجِزًا، وَإِنْكَارِهِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِهِ كُفْرًا»، وَاسْتِنْدَ خُصُومَ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةَ إِلَى رِوَايَاتٍ مُوجُودَةٍ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ الْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةَ لَا يُنْكِرُونَ اِعْتِبَارَهَا، وَلَكِنَّهُمْ يُوجِّهُونَ مَعْنَى التَّحْرِيفِ إِلَى تَغْيِيرِ التَّأْوِيلِ وَتَغْيِيرِ التَّفْسِيرِ، وَيَسِّرُ إِلَى تَغْيِيرِ الْأَلْفَاظِ وَالتَّغْيِيرِ وَالتَّحْرِيفِ أَوْ الزِّيَادَةَ فِيهَا، وَقَدْ أَلَّفَ الْعَدِيدُ مِنْهُمْ كُتُبًا فِي تَفْهِيمِ التَّحْرِيفِ . وَيُوجِّهُ الْإِتِّهَامَ لِلْمُحَدِّثِ الشَّيْعِيِّ حُسَيْنِ التُّورِيِّ الطَّبْرَسِيِّ صَاحِبِ كِتَابِ فَضْلِ الْخُطَابِ فِي تَحْرِيفِ كِتَابِ رَبِّ الْأَرْبَابِ الَّذِي أُورِدَ فِيهِ الْعَدِيدُ مِنْ رِوَايَاتِ التَّحْرِيفِ، غَيْرِ أَنْ تَلْمِيزُهُ أَعَا بَزْرُكَ الطَّهْرَانِي «يُصِرُّ عَلَى أَنَّ الْمَيْرَزَا التُّورِيَّ لَمْ يَكُنْ مُعْتَدًّا بِمَضَامِينِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ مُعْتَدًّا بِكَوْنِ الْقُرْآنِ نَاقِصًا وَمُحْرِفًا»، وَقَدْ جَاءَ إِصْرَارُهُ فِي ذِكْرِهِ لِكِتَابِ أَسَاتِذِهِ فِي مَوْسُوعَةِ الذَّرِيعَةِ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ أَنَّ أَحَدَ عُلَمَاءِ الشَّيْعَةِ قَدْ كَتَبُوا رَدًّا عَلَى كِتَابِ التُّورِيِّ، وَلَمَّا بَلَغَ التُّورِيُّ الرَّدَّ كَتَبَ رِسَالَةً فِي الْجَوَابِ عَنِ الْأَشْبَاهَاتِ الْحَاصِلَةِ فِي كِتَابِهِ فَضْلُ الْخُطَابِ، وَقَالَ: «لَا أَرْضَى عَمَّنْ يُطَالِعُ (فَضْلُ الْخُطَابِ) وَيُتْرَكَ النَّظَرُ إِلَى تِلْكَ الرِّسَالَةِ». وَذَكَرَ فِي أَوَّلِ الرِّسَالَةِ الْجَوَابِيَّةِ أَنَّ الْإِعْتِرَاضَ مُبْنِيًّا عَلَى الْمُعَاظَةِ فِي لَفْظِ التَّحْرِيفِ، فَإِنَّهُ مُرَادُهُ لَيْسَ التَّحْرِيفُ التَّغْيِيرُ وَالتَّبْدِيلُ، بَلْ خُصُوصُ الْإِسْقَاطِ لِبَعْضِ الْمَنْزِلِ الْمُحْفُوظِ عِنْدَ أَهْلِهِ، وَلَيْسَ مُرَادُهُ مِنَ الْكِتَابِ الْقُرْآنِ الْمَوْجُودِ بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ، وَيَقُولُ بَعْضُ الْمُعَاصِرِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةِ أَنَّهُ «لَوْ سَلَّمْنَا أَنَّ الشَّيْخَ التُّورِيَّ يَعْتَدُّ بِنُقْصَانِ الْقُرْآنِ، فَهُوَ قَوْلُهُ، لَا قَوْلَ الطَّائِفَةِ،

قَوْلِ الْوَاحِدِ لَا يُنْسَبُ إِلَى الطَّائِفَةِ». وَالطَّهْرَانِي نَفْسَهُ يُؤَكِّدُ فِي الذَّرِيعَةِ عَلَى أَنَّ «لَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ الشَّرِيفَ الْمُنَزَّلَ إِلَى قَلْبِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ بِلَفْظٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ هُوَ هَذَا الْمَجْمُوعُ بَعَيْنِ الْفَاظِلِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ غَيْرِ تَصْرُفٍ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ فِيهَا بِالضَّرُورَةِ مِنَ الدِّينِ الْمَوْضُوعِ بَيْنَ الدَّقَّتَيْنِ، وَهُوَ كِتَابُ الْإِسْلَامِ وَالْحَبْلِ الْمَمْدُودُ مِنْ مُقَدَّسِ شَارِعَةٍ إِلَى سَائِرِ الْإِنَامِ». وَعَلَى أَيِّ حَالٍ، فَإِنَّهُ لَا تَكَادُ تَخْلُو أَيَّ دِرَاسَةٍ تَقْدِيهِ لِلشَّيْعَةِ الْإِثْنَا عَشْرِيَّةَ وَمُعْتَقَدَاتِهِمْ إِلَّا وَالْإِتِهَامَ لَهُمْ بِتَحْرِيفِ الْقُرْآنِ مَسْطُورٍ هُنَاكَ، وَإِزَاءَ ذَلِكَ هُنَاكَ مِنْ بَعْضِ الْمُخَالَفِينَ لِلْإِثْنِي عَشْرِيَّةَ مِنَ السُّنَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ نَزْهَمٍ عَنِ الْقَوْلِ بِتَحْرِيفِ الْقُرْآنِ كَرَحِمِهِ اللَّهُ الْهِنْدِيُّ، وَمُحَمَّدَ عَبْدَ اللَّهِ دِرَازٍ، وَمُحَمَّدَ مُحَمَّدِ الْمَدِينِيِّ وَغَيْرِهِمْ.

الْحَدِيثُ

الْحَدِيثُ عِنْدَ الشَّيْعَةِ: فَهُوَ كَلَامٌ يَحْكِي قَوْلَ الْمُعْصُومِ أَوْ فَعَلَهُ أَوْ تَقْرِيْرَهُ، وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ يُنْقَسَمُ إِلَى الصَّحِيحِ وَمُقَابِلِهِ، وَبِهَذَا عُلِمَ أَنَّ مَا لَا يَنْتَهِي إِلَى الْمُعْصُومِ لَيْسَ حَدِيثًا، وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَاشْتَرَطُوا أَنْتِهَاءَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا جُلَّ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْقِسْمَيْنِ رَبَّمَا يُسَمَّوْنَ مَا يَنْتَهِي إِلَى الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بِالْآثَرِ.

عِلْمُ الدَّرَايَةِ عِنْدَ الْإِثْنَا عَشْرِيَّةِ: هُوَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنِ الْعَوَارِضِ الطَّارِئَةِ عَلَى الْحَدِيثِ مِنْ نَاحِيَةِ السَّنَدِ وَالْمَنْ وَكَيْفِيَّةِ تَحْمِلِهِ وَآدَابِ نَقْلِهِ وَآدَائِهِ.

الْحَدِيثُ عَنِ طَرِيقِ الْأَحَادِ: وَلَئِنَّ الْحَدِيثَ اعْتَمَدَ فِي تَحْمِلِهِ وَنَقْلِهِ الرِّوَايَةُ الشَّفَوِيَّةُ ثُمَّ الرِّوَايَةُ التَّخْرِيْبِيَّةُ، وَقَدْ جَاءَ أَكْثَرُ الْحَدِيثِ عَنِ طَرِيقِ الْأَحَادِ، وَخَبَرُ الْوَاحِدِ. كَمَا هُوَ مُتَقَرَّرٌ وَمُحَرَّرٌ فِي عِلْمِ أُصُولِ الْفِقْهِ.

لَا يُفِيدُ الْيَقِينَ بَصُدُورِهِ عَنِ الْمُعْصُومِ، فَوَضَعَ الْعُلَمَاءُ مَا يُعْرَفُ بِـ «عِلْمِ الرِّجَالِ» وَ«عِلْمِ الْحَدِيثِ» لِهَذِهِ
الْغَايَةِ .

الصَّحَابَةُ وَرَوَّجَاتُ النَّبِيِّ

يَرَى بَعْضُ عُلَمَاءِ الطَّائِفَةِ الْإِثْنَا عَشْرِيَّةِ أَنْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَأَى وَسَمِعَ عَنِ الرَّسُولِ -ص- هُوَ صَحَابِيٌّ عَدْلٍ
يَجِبُ سَمَاعُ قَوْلِهِ . فَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مَعْنَى الصَّحَابِيِّ (كُلُّ مَنْ أَسْلَمَ وَرَأَى رَسُولَ الْإِسْلَامِ وَسَمِعَ
حَدِيثَهُ وَآمَنَ بِهِ حَتَّى وَفَاتِهِ) فَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ الصَّحَابَةِ عُدُولٌ يُؤْخَذُ عَنْهُمْ الْحَدِيثُ، وَيُشِيرُونَ أَنَّ
الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَنَسٍ يَعِيشُونَ مَعَ النَّبِيِّ وَيُصَلُّونَ مَعَهُ وَقَرِيبُونَ مِنْهُ وَلَكِنَّهُ يَصَفِّهُمُ بِالْمُنَافِقِينَ، وَلَمْ
يَذْكُرِ التَّارِيخُ أَسْمَاءَهُمْ بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ نَفْسَهُ لَمْ يُخْبِرِ الْأُمَّةَ بِالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانَ يَعْلَمُ بِنِفَاقِهِمْ .

وَبِالتَّالِي فَإِنَّ الشَّيْعَةَ الْإِمَامِيَّةَ يَخْضَعُونَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ لِلْجُرْحِ وَالتَّنْقِيسِ وَالتَّكْفِيرِ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ بَشَرٌ مِنْهُمْ
الصَّالِحِ وَمِنْهُمْ الطَّالِحِ وَالْمُنَافِقِ كَمَا أَنَّ سُورَةَ كَامِلَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ

وَيُؤْمِنُ الشَّيْعَةُ الْإِثْنَا عَشْرِيَّةُ بِأَنَّ هُنَاكَ الْعَدِيدَ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ يُؤْخَذُ عَنْهُمْ الْعِلْمُ وَالرَّوَايَةُ وَيُجْلِسُونَهُمْ طَبَقًا
لِلرَّوَايَاتِ الَّتِي جَاءَتْ فِيهِمْ بِأَسَانِيدٍ مُعْتَبَرَةٍ عِنْدَهُمْ وَمِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ لَا الْحَضْرَةَ: أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ،
عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، الْمُقَدَّادُ بْنُ عَمْرٍو، سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ .

الْأَنْصَارِيُّ (مَرْوِيُّ) عَنْهُ نِسْبَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ أَحَادِيثِ الْكَافِي وَمَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيهَ)، حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ، أَسْمَاءُ
بِنْتُ عُمَيْسٍ، الْأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الْأَرْقَمِ، مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، عَبْدِ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، حَبَابُ بْنُ
الْأَرْتِ، عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ، الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ، مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، مَالِكُ بْنُ
نُوَيْرَةَ وَغَيْرِهِمُ الْكَثِيرُ .

الْفُتْيَا وَالرَّجْعِيَّة

فِي الْإِعْتِقَادِ الشَّيْعِيِّ أَنَّ الْأَحْكَامَ يُنْبَغِي أَنْ تُؤْخَذَ مِنَ الْمُعْصُومِينَ الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ، وَحَيْثُ إِنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ بِأَنَّ
الْإِمَامَ الثَّانِي عَشَرَ الْمُهْدِي غَائِبَ الْآنَ، وَمُنْذُ ابْتِدَاءِ عَصْرِ الْعِيبَةِ الْكُبْرَى؛ بَدَأَ الشَّيْعَةُ الْإِثْنَى عَشْرِيَّةَ
بِالرُّجُوعِ فِي أَحْكَامِ الدِّينِ وَالْفَقَاوِي الشَّرْعِيَّةِ إِلَى عُلَمَاءِ الدِّينِ الَّذِينَ تَصَدَّوْا لِلْمَرْجِعِيَّةِ وَالَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ
بِأَنَّ تَوَابِطَ الْإِمَامِ الْغَائِبِ فِي وَقْتِ غَيْبَتِهِ، وَقَدْ اسْتَمَرَّ عَصْرُ الْعِيبَةِ الْكُبْرَى إِلَى زَمَانِنَا الْحَالِي فَاسْتَمَرَّ
رُجُوعُ الشَّيْعَةِ إِلَى مُرَاجَعَتِهِمْ إِلَى الْآنَ .

عَلَى السَّيِّسْتَانِي هُوَ الْمَرْجِعُ الدِّينِي الْأَكْبَرُ لِلشَّيْعَةِ الْإِثْنَى عَشْرِيَّةِ فِي الْعَالَمِ، خَلَفَ أَبُو الْقَاسِمِ الْخُوْيِي فِي
رِعَايَةِ الْحُوزَةِ الْعِلْمِيَّةِ فِي النَّجَفِ، الَّتِي هِيَ مَدْرَسَةُ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ الرَّئِيسِيَّةِ لَدَيْهِمْ .

حِينَ يَصِلُ الشَّيْعِيُّ إِلَى سِنِّ التَّكْلِيفِ يَتَّوَجَّبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَيَتَوَصَّلَ لِلْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ
بِأَحَدِي ثَلَاثِ طُرُقٍ؛ الْاجْتِهَادِ وَالَّتِي تُعْرَفُ بِأَنَّهَا رُبَّةٌ عِلْمِيَّةٌ يَصِلُ إِلَيْهَا الْمُتَخَصِّصُ بِالْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ الْحُوزَوِيَّةِ
تَوْهَلَهُ لِتَحْدِيدِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَبَيَانِهَا اسْتِنَادًا إِلَى الْأَدِلَّةِ الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ . وَالطَّرِيقُ
الثَّانِي هُوَ التَّقْلِيدُ وَمَعْنَاهُ أَنْ يُقَلَّدَ أَحَدَ الْمُجْتَهِدِينَ وَيَعْمَلُ بِفَقَاوَاهُ وَمَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ اجْتِهَادَاتِهِ، وَعَوَامُّ الشَّيْعَةِ
هُمْ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ لِلْمُجْتَهِدِينَ، هَذَا وَالتَّقْلِيدُ يَكُونُ فِي الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ الْفُقَهِيِّ فَقَطَّ، أَمَّا أُصُولُ الدِّينِ
وَالْعَقَائِدُ فَلَا يُقَلَّدُ فِيهَا وَيَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ أَنْ يَبْحَثَ فِيهَا عَنِ الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ بِاتِّفَاقِ جَمِيعِ الْمُرَاجِعِ .
وَالطَّرِيقُ الثَّلَاثُ هُوَ الْإِحْيَاطُ وَمَعْنَاهُ هُوَ اقْتِضَاءُ أَنْ يَنْحُوَ الْمُكَلَّفُ طَرِيقَ الْحَيْطَةِ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَذَلِكَ
بِأَنْ يَأْخُذَ بِمَا يَكُونُ مُوَافِقًا لِلرَّأْيِ الْفُقَهِيِّ لِجَمِيعِ مَرَاجِعِ التَّقْلِيدِ، وَهَذَا يَعْنِي أَنْ لَا يُرْكُ وَاجِبًا أَوْ يُفْعَلُ

مُحَرَّمًا عَلَى رَأْيِ أَيِّ وَاحِدٍ الْمُرَاجِعِ . فَيَكُونُ بِهَذَا قَدْ عَمِلَ بِشَرَايِطِ الْاِحْتِيَاظِ وَيَكُونُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ بَرَاءَةِ ذِمَّتِهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَكْلِيفِهِ الْوَاقِعِيِّ .

النَّظَرَةُ لِبَقِيَّةِ الطَّوَائِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ

اتَّفَقَتْ كُلُّ الطَّوَائِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى ثُبُوتِ حَدِيثِ افْتِرَاقِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَرَوَوْهُ مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَافِ وَوَحْدَهُ فِي الْمَضْمُونِ، وَقَدْ رَوَاهُ مِنَ الْاِثْنِي عَشْرِيَّةِ مَثَلًا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الطُّوسِيِّ فِي كِتَابِهِ الْاِقْتِصَادُ أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا قَالَ: «سَتَقْرُقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ فِرْقَةٌ نَاجِيَةٌ، وَالْبَاقُونَ فِي النَّارِ» . فَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يُعْتَقَدَ الشَّيْعَةَ الْاِثْنِي عَشْرِيَّةَ بَأَنَّ مَصِيرَ غَيْرِهِمْ مِنَ الطَّوَائِفِ إِمَّا هُوَ إِلَى النَّارِ، كَمَا نَعْتَقُدُ الطَّوَائِفَ الْاُخْرَى بِذَاتِ الْاِعْتِقَادِ .

وَكَانَ الْقَوْلُ الْمَشْهُورُ بَيْنَ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الشَّيْعَةِ أَنَّ غَيْرَ الشَّيْعِيِّ الْاِثْنِي عَشْرِيِّ يُعَدُّ نَاصِبًا كَافِرًا تَرْتَّبُ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْكُفْرِ، إِلَّا أَنَّهُمْ اسْتَشْنَوْا مِنْهُ الْمُسْتَضْعَفَ، وَالَّذِينَ عَرَفُوهُ بِأَنَّهُ مِنْ يَكُونُ مِنَ الْجَهْلَةِ الْعَوَامِّ الَّذِينَ لَا تَكُونُ لَهُمْ قَابِلِيَّةُ التَّقَهُ فِي الْعَقِيدَةِ وَالْدِينِ . فَكَانَ هَذَا قَوْلٌ كَثِيرٌ مِنْ قَدَمَائِهِمْ كَالطُّوسِيِّ، وَابْنِ إِدْرِيسَ الْحَلِيِّ، وَنُورَ اللَّهِ التُّسْرِي، وَأَبُو الْحَسَنِ الْفُتُوْبِي، وَيُوسُفُ الْبَحْرَانِي، وَزَيْنُ الدِّينِ بُنُ عَلِيٍّ الْجُبَعِيِّ الْعَامِلِي، وَبِعَمَّةِ اللَّهِ الْجَزَائِرِيِّ، وَغَيْرِهِمْ .

ثُمَّ أَصْبَحَ الْمَشْهُورُ بَيْنَ عُلَمَائِهِمُ الْمَتَّأَخِرِينَ نَحْوَ الْحُكْمِ بِإِسْلَامِ غَيْرِ الشَّيْعِيِّ الْاِثْنِي عَشْرِيِّ إِسْلَامًا ظَاهِرِيًّا فَرْتَّبُوا عَلَيْهِ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ، وَجَعَلُوا فِرْقًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ "الْمُؤْمِنِ" وَهُوَ حَسَبَ اِعْتِقَادِهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِإِمَامَةِ الْأُمَّةِ الْاِثْنِي عَشْرِ . وَقَدْ نَفَّرَ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَنَّ مُخَالَفِي الْاِثْنِي عَشْرِيَّةِ لَيْسَ بِنَوَاصِبٍ وَلَا كُفَّارٍ - عَلَى عَكْسِ الْقَدَمَاءِ مِنْهُمْ -، وَإِنَّمَا النَّاصِبُ الْكَافِرُ هُوَ مَنْ يُجَاهِرُ بِعِدَاوَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ الْبَيْتِ قَوْلًا أَوْ

فَعَلًا . وَكَانَ هَذَا قَوْلُ ابْنِ بَابُوَيْهٍ الْقَمِّيِّ الْمَعْرُوفِ بِالصُّدُوقِ، وَمُرْتَضَى الْأَنْصَارِيِّ، وَقَدْ تَبَعَ الْأَنْصَارِيُّ
غَالِبِيَّةَ مَرَاجِعِ الشَّيْعَةِ مِنْ عَصْرِهِ حَتَّى الْآنَ .

الرَّجْعَةُ

هُوَ رُجُوعُ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَّةِ وَثَلَّةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ إِلَى الدُّنْيَا بَعْدَ قِيَامِ دَوْلَةِ الْمُهْدِيِّ ، وَتُعَدُّ إِحْدَى
مُعْتَقَدَاتِ الشَّيْعَةِ الْإِمَامِيَّةِ

التَّقِيَّةُ

وَهِيَ كِتْمَانُ الْحَقِّ وَسِرُّ الْإِعْتِقَادِ فِيهِ وَمَكَاتَمَةُ الْمُخَالَفِينَ وَتَرْكُ مَظَاهِرَتِهِمْ بِمَا يَعْتَبُ ضَرَرًا فِي الدِّينِ أَوْ
الدُّنْيَا

الغَيْبَةُ

الغَيْبَةُ الصُّغْرَى وَالغَيْبَةُ الْكُبْرَى

الغَيْبَةُ الصُّغْرَى : هُوَ مُصْطَلَحٌ يُشِيرُ إِلَى الْوَقْتِ الْمُتَمَدِّ مِنْ سَنَةِ 260 ق، أَيْ عِنْدَ شَهَادَةِ الْحَسَنِ
الْعَسْكَرِيِّ إِلَى وَفَاةِ السَّفِيرِ الرَّابِعِ سَنَةَ 329 ق، وَبِحَسَبِ الْمُتَعَدِّ الشَّيْعِيِّ غَابَ الْمُهْدِيُّ عَنِ الْأَنْظَارِ، لَكِنَّهُ
كَانَ يَتَّصِلُ بِشَيْعَتِهِ عَنْ طَرِيقِ وَكَلَاءِ خَاصِّينَ يُسَمُّونَ بِالسَّفَرَاءِ .

الغَيْبَةُ الْكُبْرَى : هِيَ الْمُدَّةُ الزَّمَانِيَّةُ الَّتِي بَدَأَتْ سَنَةَ 329 لِلْهِجْرَةِ وَاسْتَمَرَّتْ لِيَوْمِنَا هَذَا حَيْثُ يَعِيشُ فِيهَا
الْإِمَامُ الثَّانِي عَشَرَ لِلشَّيْعَةِ بَعِيدًا عَنِ الْأَنْظَارِ . بَدَأَ هَذَا الْعَصْرَ مُبَاشَرَةً بَعْدَ الْغَيْبَةِ الصُّغْرَى حَيْثُ نُوفِيَ
النَّائِبُ الرَّابِعَ لِلْمُهْدِيِّ، وَفِي عَصْرِ الْغَيْبَةِ الْكُبْرَى عَلَى الشَّيْعَةِ أَنْ يُرَاجِعُوا الْفُقَهَاءَ لِجَلِّ مَسَائِلِهِمُ الدِّينِيَّةَ ،

الْمُتَعَّةُ

هُوَ زَوْجٌ يَتَقَوَّمُ بِالْعَقْدِ وَالْمُدَّةِ وَالْمَهْرِ الْمَعْيَنِينَ . لَا يَتَوَارَثُ الزَّوْجَانِ فِيهِ وَلَا تَجِبُ التَّفَقُّهُ لِلْمَرْأَةِ عَلَى الزَّوْجِ

الشَّعَائِرُ الْحُسَيْنِيَّةُ

الشَّعَائِرُ الْحُسَيْنِيَّةُ هِيَ شَعَائِرُ دِينِيَّةٍ يُمَارِسُهَا الْمُسْلِمُونَ الشَّيْعَةُ لِاسْتِذْكَارِ مَعْرَكَةِ كَرْبَلَاءَ وَمَقْتَلِ إِمَامِهِمُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَعَالِبًا مَا نَشَطَتْ مُمَارَسَةُ هَذِهِ الشَّعَائِرِ فِي شَهْرِي مُحْرَمٍ وَصَفَرٍ حَسَبِ التَّقْوِيمِ الْهَجْرِيِّ وَبِالْأَخْصِ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ (10 مُحْرَمٍ)، وَيَوْمِ الْأَرْبَعِينَ (20 صَفَرٍ) . حَيْثُ إِنَّ الْيَوْمَ الْأَوَّلَ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي قَتَلَ فِيهِ الْحُسَيْنُ وَحَدَّثَتِ الْمَعْرَكَةُ، وَالْيَوْمُ الثَّانِي هُوَ مُرُورُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى مَقْتَلِ الْحُسَيْنِ

الانتشار الجغرافي

انتشار المذهب الشيعي في العالم

يُشَكِّلُ الشَّيْعَةُ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةَ أَغْلَبِيَّةِ سُكَّانِ بَعْضِ الْبُلْدَانِ كَأَتْرَانَ، وَالْبَحْرَيْنِ، وَأَذْرَبِيجَانَ، وَالْعِرَاقِ (وَفَقًّا لِبَعْضِ الْإِحْصَائِيَّاتِ)، وَفِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ هُمْ مِنْ كُبْرَى الطَّوَائِفِ كَلَبْنَانَ، وَالْعِرَاقِ (وَفَقًّا لِإِحْصَائِيَّاتِ أُخْرَى)، كَمَا يُشَكِّلُونَ أَقْلِيَّاتٍ كَبِيرَةً فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ كَالسُّعُودِيَّةِ، وَالْكُوَيْتِ، وَبَاكِسْتَانَ، وَأَفْغَانِسْتَانَ، وَالْهِنْدِ، وَغَيْرِهَا . وَيَتَوَاجَدُونَ فِي بُلْدَانٍ أُخْرَى يُشَكِّلُونَ فِيهَا أَقْلِيَّاتٍ صُغْرَى، كَقَطْرَ، وَالْأَمَارَاتِ، وَتُرْكِيَا وَفِي السَّنَوَاتِ الْآخِرَةِ انْتَشَرَ التَّشْيَعُ الْإِثْنِي عَشْرِيَّ فِي الْبُلْدَانِ الَّتِي يَنْعَدِمُ فِيهَا الْوُجُودُ الشَّيْعِيَّ أَوْ يُوْجَدُ بِنِسْبَةٍ صَغِيرَةٍ جَدًّا، كَالْأَرْدَنِ، وَمِصْرَ، وَتُونِسَ، وَالْمَغْرِبَ، وَالسُّودَانَ، وَمَالِيْزِيَا، وَغَيْرِهَا، وَكَانَ لِلْإِعْلَامِ الشَّيْعِيِّ وَالْفَنَوَاتِ الشَّيْعِيَّةِ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةِ أَثْرٌ فِي هَذَا التَّمَدُّدِ الشَّيْعِيِّ فِي الْبُلْدَانِ السُّنِّيَّةِ، فَتَأْتِي الْمَطَالِبُ لِإِعْلَاقِ هَذِهِ الْفَنَوَاتِ الَّتِي تُبَثُّ عَادَةً عَلَى قَمَرِ نَائِلِ سَاتِ الْمَمْلُوكِ لِلشَّرِكَةِ الْمِصْرِيَّةِ لِلْإِقْمَارِ الصَّنَاعِيَّةِ،

وَيُصَاحِبُ التَّمَدُّدَ الشَّيْعِيَّ فِي الْبُلْدَانِ السُّنِّيَّةِ عَادَةً مَشَاكِلَ وَنَزَاعَ بَيْنَ الشَّيْعَةِ وَبَيْنَ الْمُجْمَعِ السُّنِّيِّ مِنْ جِهَةٍ، وَبَيْنَ الشَّيْعَةِ وَالْحُكُومَةِ السُّنِّيَّةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى .

عَرَفَ الشَّيْعَةُ الْإِمَامَةَ الْإِثْنَا عَشْرِيَّةَ قِيَامَ عِدَّةِ دَوْلِ شَيْعِيَّةٍ فِي التَّارِيخِ ، وَلَكِنْ (الْجُمْهُورِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ) الَّتِي قَامَتْ فِي إِيرَانَ ، فِي نَهَايَةِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ الْهَجْرِيِّ ، كَانَتْ أَوَّلَ دَوْلَةٍ عَقَائِدِيَّةٍ لَهُمْ مُنْذُ أَكْثَرِ مِنْ أَلْفِ عَامٍ . وَلَمْ تَكُنْ لَتَقُومَ إِلَّا بَعْدَ حُدُوثِ عِدَّةِ تَطَوُّرَاتٍ جَذْرِيَّةٍ فِي الْفِكْرِ السِّيَاسِيِّ الشَّيْعِيِّ ، الَّذِي سَادَتْهُ مُنْذُ وَفَاةِ الْإِمَامِ الْعَسْكَرِيِّ فِي مُتَنَصِّفِ الْقَرْنِ الثَّلَاثِ ، بَعْضُ النَّظَرِيَّاتِ السَّلْبِيَّةِ الْمُحَدَّرَةِ وَوَأَبْعَدَتْهُ عَنْ مَسْرَحِ الْحَيَاةِ قُرُونًا مِنْ الزَّمَنِ .

نظريّة ولاية الفقيه

وَتَبِيحَةُ الرُّوَاسِبِ التَّارِيخِيَّةِ وَالنَّاقِضَاتِ الْفَقْهِيَّةِ لَمْ تَكُنْ الصُّورَةَ الدُّسْتُورِيَّةَ لِنَظَرِيَّةِ وَايَةِ الْفَقِيهِ وَاصِحَّةً تَمَامًا أَوْ مَبْلُورَةً بِصُورَةٍ كَامِلَةٍ ، حَيْثُ كَانَتْ تَعَرَّضُ لِلشَّدِّ وَالْجَذْبِ بَيْنَ نَظَرِيَّتَيْنِ هُمَا : (النَّبَايَةِ الْعَامَّةِ لِلْفُقَهَاءِ) وَ (الشُّورَى) أَوْ الدِّيْمُوقْرَاطِيَّةِ . وَتَبِيحَةُ لِدَلِكِ فَقَدْ تَفَجَّرَتْ عِدَّةُ صِرَاعَاتٍ دَاخِلِ النِّظَامِ الْإِسْلَامِيِّ الْوَلِيدِ ، كَانَتْ أَهْمَهَا الصِّرَاعُ بَيْنَ رَيْسِ الْجُمْهُورِيَّةِ الْأَوَّلِ أَبُو الْحَسَنِ بَنِي صَدَرَ وَالْإِمَامِ الْخَمِينِيِّ ، وَالصِّرَاعُ بَيْنَ مَجْلِسِ الشُّورَى وَرَيْسِ الْوُزَرَاءِ حُسَيْنِ مُوسَوِيِّ ، وَالْأَزْمَةُ الطَّوِيلَةُ بَيْنَ مَجْلِسِ الشُّورَى وَمَجْلِسِ صِيَانَةِ الدُّسْتُورِ حَوْلَ قَانُونِ الْعَمَلِ . . . تِلْكَ الْأَزْمَةُ الَّتِي فَجَّرَتْ عَامَ 1988 خِلَافًا بَيْنَ الْإِمَامِ الْخَمِينِيِّ وَرَيْسِ الْجُمْهُورِيَّةِ يَوْمَاكَ السَّيِّدُ عَلَى الْإِحْمَانِي ، وَأَدَّتْ إِلَى طَرَحِ الْإِمَامِ لِنَظَرِيَّةِ الْوَايَةِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي أَعْلَنَ فِيهَا قُدْرَةَ الْفَقِيهِ الْحَاكِمِ عَلَى تَجَاوُزِ الدُّسْتُورِ وَالْأُمَّةِ وَاعْتِبَارِ الْوَايَةِ شُعْبَةً مِنْ وَايَةِ الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ وَالتَّبِيِّ وَاللَّهِ ، وَأَنَّهَا تَضَاهِي فِي صَلَاحِيَّاتِهَا صَلَاحِيَّاتِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ . .

أَنَّ الْفِكْرَ السِّيَاسِيَّ الشَّيْعِيَّ فِي (عَصْرِ الْغَيْبَةِ) كَانَ وَلَا يَزَالُ يَتَكَرَّرُ عَلَى نَظَرِيَّةِ وُجُودِ الْإِمَامِ الثَّانِي عَشَرَ (الْمُهَدِّيِ الْمُنْتَظَرِ) وَوِلَادَتِهِ مِنْ قَبْلِ ، وَقَدْ التَّرَمَّ مَرَّةً - وَلَفْتَرَهُ طَوِيلَةً - بِنَظَرِيَّةِ الْإِنْتِظَارِ ، الَّتِي لَمْ يَتَخَلَّ عَنْهَا تَمَامًا ، وَلَا تَزَالُ تَفْعَلُ فِعْلَهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ ، وَعِنْدَمَا تَخَلَّى عَنْ نَظَرِيَّةِ الْإِنْتِظَارِ وَقَعَ فِي مَطَبِ نَظَرِيَّةِ (النَّبَايَةِ الْعَامَّةِ) وَ (وَلَايَةِ الْفَقِيهِ) الَّتِي تُعْطَى لِلْمُرْجِعِ الدِّينِيِّ أَوْ الْحَاكِمِ صِلَاحِيَّاتٍ مُطْلَقَةً تَشَابَهَ صِلَاحِيَّاتِ الْإِمَامِ الْمُعْصُومِ أَوْ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ (ص) وَتُقْضَى عَلَى إِمْكَانِيَّاتِ مُشَارَكَةِ الْأُمَّةِ فِي السُّلْطَةِ وَإِقَامَةِ نِظَامٍ سِيَاسِيٍّ مُعْتَدِلٍ .

الْقَائِلُونَ بِانْقِطَاعِ الْإِمَامَةِ

يَقُولُ التَّوْبِيخِيُّ وَالْأَشْعَرِيُّ الْقَمِّيُّ وَالْكَلْبِيُّ وَالْمُفِيدُ وَالطُّوسِيُّ وَالصُّدُوقُ وَالْحَزْرُ الْعَامِلِيُّ : إِنْ قَسَمْنَا مِنْ الشَّيْعَةِ الْإِمَامَةَ ذَهَبُوا إِلَى الْقَوْلِ بِالتَّوْقُفِ وَانْقِطَاعِ الْإِمَامَةِ وَالْقَوْلُ بِالْفِتْرَةِ كَالْفِتْرَةِ بَيْنَ الرَّسُلِ ، وَانَّهُمْ اغْتَلَوْا فِي ذَلِكَ بَعْضَ الْأَخْبَارِ عَنِ الْإِمَامِينَ الْبَاقِرِ وَالصَّادِقِ : حَوْلَ إِمْكَانِيَّةِ ارْتِفَاعِ الْأئِمَّةِ وَانْقِطَاعِ الْإِمَامَةِ ، خَاصَّةً إِذَا غَضِبَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ ،

الْمُتَرَاجِعُونَ

وَيَقُولُ الْمُؤَرِّخَانِ الشَّيْعِيَّانِ الْأَوْلَانِ الْمَعَاصِرَانِ لِتِلْكَ الْفِتْرَةِ التَّوْبِيخِيُّ وَالْأَشْعَرِيُّ الْقَمِّيُّ - أَنَّ وِفَاةَ الْإِمَامِ الْحَسَنِ الْعُسْكِرِيِّ عَنْ دُونِ وَلدٍ ظَاهِرٍ تَسْتَمِرُّ الْإِمَامَةُ فِيهِ ، أَدَّتْ إِلَى تَرَاجُعِ بَعْضِ الشَّيْعَةِ عَنِ الْقَوْلِ بِإِمَامَةِ الْعُسْكِرِيِّ نَفْسِهِ ، كَمَا تَرَاجَعُ بَعْضُ الشَّيْعَةِ (الْمُوسَوِّيَّةِ) قَبْلَ مِائَةِ عَامٍ ، عَنْ الْقَوْلِ بِإِمَامَةِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَّا فَطَحَ بِنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ ، الَّذِي أَصْبَحَ إِمَامًا بَعْدَ أَبِيهِ ، وَلِكُنْهَ لَمْ يُنْجِبْ وَلَدًا تَسْتَمِرُّ الْإِمَامَةُ فِيهِ . وَقَالَ هُوَ : • أَنَّ الْقَوْلَ بِإِمَامَةِ الْحَسَنِ كَانَ غَلْطًا وَخَطَأً ، وَجَبَّ عَلَيْنَا الرَّجُوعُ

عَنْهُ إِلَى إِمَامِهِ جَعْفَرٍ ، وَإِنَّ الْحَسَنَ قَدْ تُوْفِي وَلاَ عَقِبَ لَهُ ، فَقَدْ صَحَّ عِنْدَنَا أَنَّهُ ادَّعَى بَاطِلًا ، لِأَنَّ الْإِمَامَ
بِاجْتِمَاعِنَا جَمِيعًا لاَ يَمُوتُ إِلاَّ عَنِّ خَلْفِ ظَاهِرٍ مَعْرُوفٍ يُوصِي إِلَيْهِ وَيُقِيمُهُ مَقَامَهُ بِالْإِمَامَةِ ، وَالْإِمَامَةُ لاَ
تَرْجِعُ فِي أَحْوَيْنَ بَعْدَ حُسْنٍ وَحُسَيْنٍ ، فَالْإِمَامُ لاَ مَحَالَةَ جَعْفَرٍ بِوَصِيَّةِ أَبِيهِ إِلَيْهِ
وَكَانَ السَّبَبُ فِي تَرْجُعِ هَؤُلَاءِ عَنِ الْقَوْلِ بِإِمَامَةِ الْعَسْكَرِيِّ هُوَ أَيَّمَانُهُمْ بِقَانُونِ الْوَرَاثَةِ الْعُمُودِيَّةِ ، وَعَدَمُ
جَوَازِ انْتِقَالِ الْإِمَامَةِ إِلَى أَخٍ أَوْ ابْنِ أَخٍ أَوْ عَمِّ ابْنِ عَمِّ .

الْقَائِلُونَ بِمَهْدُويَّةِ الْعَسْكَرِيِّ

وَقَدْ ذَهَبَ قِسْمٌ آخَرَ مِنَ الشَّيْعَةِ إِلَى انْكَارِ وِفَاةِ الْإِمَامِ الْعَسْكَرِيِّ ، وَالْقَوْلُ بِمَهْدُويَّةِ وَعَيْبَتِهِ ، وَذَلِكَ بِنَاءً
عَلَى عَدَمِ جَوَازِ وِفَاةِ الْإِمَامِ دُونَ وَدِّ مَعْرُوفِ ظَاهِرِهِ لَهُ ، لِأَنَّ الْأَرْضَ لاَ تَخْلُو مِنْ إِمَامٍ ، وَاعْتَبَرُوا اخْتِقَاءَ
الْإِمَامِ نَوْعًا مِنَ الْغَيْبَةِ عَنْهُمْ

وَمِنْهُمْ مَنْ اعْتَرَفَ بِمَوْتِهِ وَلَكِنَّهُ قَالَ بِعَوْدَتِهِ إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى . . . وَذَلِكَ اسْتِنَادًا إِلَى حَدِيثِ حَوْلِ
مَعْنَى (الْقَائِمِ): (أَنَّهُ يُتُّومُ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ) وَيُقُومُ وَلاَ وَدَدَ لَهُ ، وَإِنْ كَانَ لَهُ وَدَدٌ لَصَحَّ مَوْتُهُ وَلاَ رُجُوعٌ ، لِأَنَّ
الْإِمَامَةَ كَانَتْ تُثْبِتُ لِخَلْفِهِ ، وَلاَ أُوصِي إِلَى أَحَدٍ . . . فَلَا شَكَّ أَنَّهُ الْقَائِمُ ، وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ قَدْ مَاتَ لاَ
شَكَّ فِي مَوْتِهِ وَلاَ وَدَدَ لَهُ وَلاَ خَلْفَ وَلاَ اتَّوَصِي إِذْ لاَ وَصِيَّةَ لَهُ وَلاَ وَصِيٍّ . . . فَلَا شَكَّ أَنَّهُ الْقَائِمُ وَأَنَّهُ حَيٌّ
بَعْدَ الْمَوْتِ . وَقَالُوا : إِنَّهُ قَدْ عَاشَ بَعْدَ الْمَوْتِ ! . . . وَقَدْ رَوَوْا: (أَنَّ الْقَائِمَ إِذَا بَلَغَ النَّاسُ خَبَرَ قِيَامِهِ قَالُوا:
كَيْفَ يَكُونُ فَلَانَّ إِمَامًا وَقَدْ بَلِيَتْ عِظَامُهُ ؟) فَهُوَ الْيَوْمَ حَيٌّ مُسْتَبْرٍ لاَ يَظْهَرُ وَسَيَظْهَرُ وَيُقُومُ بِأَمْرِ النَّاسِ
وَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا كَمَا مَلَأَتْ جَوْرًا

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ سَيَعُودُ إِلَى الْحَيَاةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . . . وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْقَائِمَ لِأَنَّهُ يُتُّومُ بَعْدَ مَا يَمُوتُ

وَقَدْ اخْتَلَقَ هَؤُلَاءِ أَوْ اسْتَوَرَّدُوا أَحَادِيثَ بِهَذَا الْمَضْمُونِ مِنْ بَعْضِ الْحَرَكَاتِ الشَّيْعِيَّةِ الْوَاقِفِيَّةِ السَّابِقَةِ
 وَيَقُولُ الصَّدُوقُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ سُمُّوا بِالْوَاقِفِيَّةِ عَلَى الْحَسَنِ ، وَقَدْ ادَّعَوْا : أَنَّ الْغَيْبَةَ وَقَعَتْ بِهِ لِصِحَّةِ أَمْرِ
 الْغَيْبَةِ عِنْدَهُمْ وَجَهْلُهُمْ بِمَوْضِعِهَا .

(الْإِثْنَا عَشْرِيون)

وَبِالرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ تَوَصُّلِ كَثِيرٍ مِنَ الشَّيْعَةِ الَّذِينَ بَحَثُوا عَنْ وَدِّهِ لِلْعَسْكَرِيِّ إِلَى آيَةِ تَبِيحَةٍ . . . وَفِيمَا كَانَتْ
 الْحِيرَةَ تَعْصِفُ بِعَامَّةِ الشَّيْعَةِ الْإِمَامَةَ ، وَالْغُمُوضُ يُلَفُّ مَوْضِعَ الْخَلْفِ ، وَالْإِخْتِلَافُ يُمَزِّقُ النَّاسَ يَمِينًا
 وَشِمَالًا . . . كَانَ بَعْضُ أَصْحَابِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ يُهْمِسُونَ بِتَكْتُمٍ شَدِيدٍ بِوُجُودِ وَدِّهِ لَهُ فِي السَّرِّ
 وَوَلَدِ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِسَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ ، أَوْ خَمْسٍ أَوْ سِتٍّ أَوْ ثَمَانِي سِنِينَ ، وَيَقُولُونَ أَنَّهُمْ قَدْ رَأَوْهُ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ
 وَأَنَّهُمْ عَلَى اتِّصَالٍ بِهِ ، وَيَطْلُبُونَ مِنْ عَامِهِ الشَّيْعَةَ التَّوَقُّفَ عَنِ الْبَحْثِ وَالنَّفْتِيشِ عَنْهُ أَوْ التَّصْرِيحِ بِاسْمِهِ
 وَيَحْرَمُونَ ذَلِكَ .

عَصْرُ الْحِيرَةِ

وَقَدْ كَانَ الْقَوْلُ بِوُجُودِ وَدِّهِ لَهُ قَوْلًا سَرِيًّا بَاطِنِيًّا قَالَ بِهِ بَعْضُ أَصْحَابِ الْإِمَامِ الْعَسْكَرِيِّ بَعْدَ وَفَاتِهِ وَلَمْ يَكُنْ
 الْأَمْرُ وَاضِحًا وَبَدِيهِيًّا وَمُجْمَعًا عَلَيْهِ بَيْنَ الشَّيْعَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، حَيْثُ كَانَ جَوْ مِنْ الْحِيرَةِ وَالْغُمُوضِ
 حَوْلَ مَسْأَلَةِ الْخَلْفِ يُلَفُّ الشَّيْعَةَ ، وَيَعْصِفُ بِهِمْ بِشِدَّةٍ .

وَقَدْ كَتَبَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُعَاصِرِينَ لِتِلْكَ الْفُتْرَةِ كُتُبًا تَنَاقَشُ مَوْضِعَ الْحِيرَةِ وَسَبَلَ الْخُرُوجِ مِنْهَا ، مِنْهُمْ
 الشَّيْخُ عَلِيُّ بْنُ بَابُوئِيهِ الصَّدُوقُ الَّذِي كَتَبَ كِتَابًا أَسْمَاهُ : (الْإِمَامَةُ وَالْبَصْرَةُ مِنَ الْحِيرَةِ .

وَقَدْ اَمَدَّتْ هَذِهِ الْحِيْرَةُ اِلَى مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ حَيْثُ اَشَارَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الصَّدُوْقُ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ (اِكْمَالُ الدِّيْنِ) اِلَى حَالَةِ الْحِيْرَةِ الَّتِي عَصَفَتْ بِالشَّيْعَةِ وَقَالَ: • وَجَدْتُ اَكْثَرَ الْمُخْتَلِفِيْنَ اِلَى مِنَ الشَّيْعَةِ قَدْ حَيَّرْتَهُمُ الْغَيْبَةُ ، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِمْ فِي اَمْرِ الْقَائِمِ الشُّبُهَةُ وَذَكَرَ الْكَلْبِيْنَ وَالتَّعْمَانِيَّ وَالصَّدُوْقُ مَجْمُوْعَةً كَبِيْرَةً مِنَ الرِّوَايَاتِ الَّتِي تُوكِّدُ وَقُوْعَ الْحِيْرَةِ بَعْدَ غَيْبَةِ صَاحِبِ الْاَمْرِ وَاخْتِلَافِ الشَّيْعَةِ وَتَشْتَبُهَمُ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ وَانْتِهَامِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْكَذِبِ وَالْكُفْرِ وَالتَّقْلِ فِي وُجُوْهِهِمْ وَلَعْنَتِهِمْ ، وَانْكَهَاءِ الشَّيْعَةِ كَمَا تَكْفَأُ السَّفِيْنَةُ فِي اَمْوَاجِ الْبَحْرِ وَتَكْسِرُهُمْ كَمَا تَكْسِرُ الرُّجَاحُ اَوْ الْفَخَّارَ

• وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ اَبِي زَيْنَبِ التَّعْمَانِيَّ فِي (الْغَيْبَةِ) يَصِفُ حَالَةَ الْحِيْرَةِ الَّتِي عَمَّتْ الشَّيْعَةَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ: • اِنَّ الْجُمْهُورَ مِنْهُمْ يَقُوْلُ فِي (الْخَلْفِ) : اَيْنَ هُوَ؟ وَاِنِّي يَكُوْنُ هَذَا؟ وَاِلَى مَتَى يَغِيْبُ؟ وَكَمْ يَعْيشُ؟ هَذَا وَلَهُ الْاَنَ نَيْفٌ وَثَمَانُوْنَ سَنَةً؟ فَمِنْهُمْ مَنْ يَذْهَبُ اِلَى اَنَّهُ مَيِّتٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ وِلَادَتَهُ وَيَجْحَدُ وُجُوْدَهُ بِوَاحِدَةٍ وَيُسْتَهْزِئُ بِالْمُصَدِّقِ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَبِّعُ الْمُدَّةَ وَيَسْتَطِيْلُ الْاَمْدَ وَيَقُوْلُ: • اَيُّ حِيْرَةٍ اَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْحِيْرَةِ الَّتِي اُخْرِجَتْ مِنْ هَذَا الْاَمْرِ الْخُلُقِ الْكَثِيْرِ وَالْجَمِّ الْغَفِيْرِ؟ وَلَمْ يَبْقَ مِمَّنْ كَانَ فِيهِ اِلَّا النَّزْرُ الْبَسِيْرُ ، وَذَلِكَ لِشَكِّ النَّاسِ .

وَهَذَا مَا يَدُلُّ عَلَيَّ اَنَّ قَضِيَّةَ (وُجُوْدِ ابْنِ الْاِمَامِ الْعُسْكُرِيِّ) لَمْ تَكُنْ قَضِيَّةً مُجْمَعَةً عَلَيْهَا بَيْنَ صُفُوْفِ الشَّيْعَةِ الْاِمَامَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ ، وَاِنَّ دَعَاوِي الْاِجْمَاعِ وَالتَّوَاتُرِ وَالتَّاسِقَاتِ الَّتِي يَدْعِيهَا الْبَعْضُ عَلَيَّ اَحَادِيْثَ وُجُوْدِ وَوْلَادَةِ وَمَهْدُوِيَةِ الْاِمَامِ التَّانِي عَشَرَ (مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعُسْكُرِيِّ) لَمْ يَكُنْ لَهَا وُجُوْدٌ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ .

وَلَا بُدَّ أَنْ نَضَعَ عَلَامَةَ اسْتِفْهَامٍ عَلَى دَعَاوَى الْإِجْمَاعِ وَالتَّوَاتُرِ الْمَأْخُورَةِ وَالْمُنَاقِضَةِ تَمَامًا لِلتَّارِيخِ . . . خَاصَّةً
وَأَنَّ دَعْوَى الْإِجْمَاعِ وَالتَّوَاتُرِ لَا تَمْنَعُ مِنَ الْمُرَاجَعَةِ وَالتَّقْدِيرِ وَالتَّمْهِيصِ . . . بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ الْإِجْمَاعَ لَا يُشْكَلُ
لَدَى الشَّيْعَةِ الْإِمَامَةِ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةِ حُجَّةً بَدِيلَهُ عَنِ الْأَدِلَّةِ الْعِلْمِيَّةِ . . . وَحَسْبَمَا يَقُولُ عُلَمَاءُ الْأَصُولِ: أَنَّ
الْإِجْمَاعَ يُمَكِّنُ أَنْ يُؤْخَذَ بِهِ فِي غِيَابِ الدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ ، فَإِذَا عَلِمْنَا اسْتِنَادَ دَعْوَى مُعَيَّنَةٍ عَلَى أَدِلَّةٍ ثَقَلِيَّةٍ
أَوْ عَقْلِيَّةٍ فَعَلَيْنَا مُرَاجَعَةَ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ وَعَدَمَ التَّسَبُّثِ بِالْإِجْمَاعِ . وَمِنْ الْمَعْرُوفِ أَنَّ دَعْوَى وِلَادَةِ الْإِمَامِ
الثَّانِي عَشَرَ (مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ) تَأْتِي بِأَدِلَّةٍ عَقْلِيَّةٍ وَتَقْلِيَّةٍ وَتَارِيخِيَّةٍ . . . فَلَا بُدَّ إِذَنْ مِنْ
مُرَاجَعَتِهَا وَالتَّحَقُّقِ بِنَفْسِنَا مِنْهَا ، وَعَدَمِ الْإِنْسِياقِ وَرَاءَ التَّمَكِّينِ أَوْ التَّسْلِيمِ لِدَعَاوَاهُمْ وَفَرَضِيَّاتِهِمْ
وَاجْتِهَادَاتِهِمْ .

أَدِلَّةُ وُجُودِ الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ

تَقَدَّمَ الْفُرْقَةُ (الْإِثْنَا عَشْرِيَّةِ) الَّتِي قَالَتْ بِوُجُودِ وَلَدِ مَسْتُورٍ لِلْإِمَامِ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ ، وَاسْتِمْرَارِ حَيَاتِهِ إِلَى
الْيَوْمِ وَإِلَى أَنْ يَظْهَرَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . . . تَقَدَّمَ عِدَّةُ أَدِلَّةٍ عَلَى ذَلِكَ ، وَهِيَ تَنْقَسِمُ إِلَى أَنْوَاعٍ عَدِيدَةٍ، وَيَأْتِي
عَلَى رَأْسِهَا الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: الْفَلْسَفِيُّ ، أَوْ الْعَقْلِيُّ ، فَمَاذَا يَقُولُ هَذَا الدَّلِيلُ؟
أَنَّهُ يَقُولُ :

أَوَّلًا : بِضَرُورَةِ وُجُودِ الْإِمَامِ (أَيِ الرَّئِيسِ) فِي الْأَرْضِ ، وَعَدَمِ جَوَازِ بَقَاءِ الْبِلَادِ فَوْضَى بِلَا حُكُومَةٍ
ثَانِيًا: ضَرُورَةَ عِصْمَةِ الْإِمَامِ مِنَ اللَّهِ ، وَعَدَمِ جَوَازِ حُكُومَةِ الْفُقَهَاءِ الْعُدُولِ ، أَوْ الْحُكَّامِ الْعَادِيينَ
ثَالِثًا: وَجُوبُ كَوْنِ الْإِمَامَةِ وَحَصْرِهَا فِي أَهْلِ الْبَيْتِ وَفِي أَوْلَادِ عَلِيِّ وَالْحُسَيْنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

رَابِعًا : الْإِيْمَانُ بِوَفَاةِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ ، وَعَدَمِ الْقَوْلِ بِغَيْبَتِهِ وَ مَهْدُوِيَتِهِ

خَامِسًا : الْإِتْرَامُ بِقَانُونِ الْوَرَاثَةِ الْعُمُوْدِيَّةِ ، وَعَدَمِ جَوَازِ اِتْتِقَالِ الْإِمَامَةِ إِلَى اُخُوَيْنِ بَعْدَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ

وَقَالَ الْمُرْتَضَى عِلْمُ الْهُدَى (355 - 436): • أَنْ الْعَقْلَ يَقْتَضِي بُجُوبَ الرِّيَاسَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَإِنْ

الرَّئِيسِ لَا بُدَّ مِنْ كَوْنِهِ مَعْصُومًا . . وَإِذَا ثَبَتَ هَٰذَا الْأَصْلَانِ فَلَا بُدَّ مِنَ الْقَوْلِ : أَنَّهُ (صَاحِبُ الزَّمَانِ)

بَعِيْنِهِ ، لِأَنَّ الصِّفَةَ الَّتِي اِقْتَضَاهَا وَدَلَّ عَلَى وُجُوْبِهَا لَا تُوجَدُ إِلَّا فِيهِ ، وَتَسَاقُ الْغَيْبَةُ بِهَذَا سُوقًا ضَرُورِيًّا لَا

يُقْرَبُ مِنْهُ شُبُهَةٌ . . وَلِأَنَّهُ إِذَا بَطَلَتْ إِمَامِيَّةٌ مِنْ أَثْبَتَتْ لَهُ الْإِمَامَةَ بِالْإِخْتِيَارِ لِقَدْرِ الصِّفَةِ الَّتِي دَلَّ الْعَقْلُ عَلَيْهَا

، وَيَبْطُلُ قَوْلُ مَنْ خَالَفَ مِنْ شِذَازِ الشِّيْعَةِ ، فَلَا مَنْدُوْحَةَ عَنْ مَذْهَبِنَا ، فَلَا بُدَّ مِنْ صِحَّتِهِ ، وَإِلَّا خَرَجَ

الْحَقُّ عَنِ الْأُمَّةِ .

وَتَصَدَّى الشَّيْخُ الطُّوسِيُّ لِإِبْطَالِ صِحَّةِ ادِّعَاءَاتِ الْفُرُقِ الشِّيْعِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْكَيْسَانِيَّةِ وَالنَّوَوِسِيَّةِ

وَالْفَطْحِيَّةِ وَالْوَاقِفِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْفُرُقِ الَّتِي ادَّعَتْ الْعِصْمَةَ لِأُمَّتِهَا ، وَاسْتَنْجَحَ مِنْ ذَلِكَ • ضَرُورَةً صِحَّةً

إِمَامَةِ ابْنِ الْحَسَنِ ، وَصِحَّةِ غَيْبَتِهِ ، وَنَفَى - مَعَ ثُبُوْتِ ذَلِكَ - الْحَاجَةَ إِلَى تَكْلِيفِ الْكَلَامِ فِي إِثْبَاتِ

وِلَايَتِهِ وَسَبَبِ غَيْبَتِهِ ، لِأَنَّ الْحَقَّ لَا يَجُوزُ خُرُوجُهُ عَنِ الْأُمَّةِ

نَفْيُ وَفَاةِ الْمُهْدِيِّ

وَكَانَتْ الْخُطُوَّةُ الْآخِرَةَ فِي عَمَلِيَّةِ إِثْبَاتِ وُجُوْدِ (الْإِمَامِ الْمُهْدِيِّ) هِيَ نَفْيُ وَفَاتِهِ ، وَتَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ

الْكَثِيرَةِ الَّتِي كَانَتْ مُتَدَاوِلَةً فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ ، وَالَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ وَفَاةِ الْقَائِمِ وَقِيَامِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَهِيَ

الْأَحَادِيثُ الَّتِي طَبَّقَهَا أَصْحَابُ نَظَرِيَّةِ مَهْدُوِيَةِ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ عَلَيْهِ ، وَطَبَّقَهَا آخَرُونَ عَلَى ابْنِهِ فَقَالُوا

إِنَّهُ وُلِدَ وَمَاتَ وَسِيَّحِي وَيُظْهَرُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهَا الطُّوسِيُّ فِي : (الْغَيْبَةِ) وَلَمْ يُضَعِّفْهَا ،
وَلَكِنَّهُ أَوْلَاهَا بِمَوْتِ ذَكَرِهِ ، وَأَشَارَ إِلَى ضَرُورَةِ التَّوَقُّفِ فِيهَا وَالتَّمَسُّكِ بِمَا هُوَ مَعْلُومٌ .

نَظَرِيَّةُ الْإِمَامَةِ الْإِلَهِيَّةِ

تَقُولُ النَّظَرِيَّةُ : أَنَّ الْأَرْضَ لَا يَجُوزُ أَنْ تَخْلُوَ مِنْ إِمَامٍ (أَيْ مِنْ حُكُومَةٍ وَدَوْلَةٍ) وَأَنَّ الْإِمَامَ ، أَيْ الرَّئِيسَ أَوْ
الْخَلِيفَةَ أَوْ الْقَائِدَ الْأَعْلَى ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا وَمُعِينًا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ، وَإِنَّ الشُّورَى بَاطِلَةٌ وَلَا يَجُوزُ
اِتِّخَابُ الْإِمَامِ مِنْ قِبَلِ الْأُمَّةِ ، وَتَقُولُ النَّظَرِيَّةُ الْمُوسَوِيَّةُ (الْمْتَفَرِّعَةُ عَنِ الْإِمَامِيَّةِ وَ الْمَوَازِيَّةُ لِلْفُطُوحِيَّةِ) إِنَّ
الْإِمَامَةَ تَسْتَلْسِلُ بِشَكْلِ وِرَاثِي عَمُودِي فِي ذُرِّيَّةِ عَلِيٍّ وَالْحُسَيْنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

وَمَنْ هُنَا فَقَدْ افْتَرَضَ الْمُتَكَلِّمُونَ الْإِمَامِيُونَ وُجُودَ وِلَادَةِ (ابْنِ) لِلْإِمَامِ الْحَسَنِ الْعُسْكَرِيِّ ، بِالرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ
وُجُودِ أَدَلَّةٍ تَارِيحِيَّةٍ كَافِيَةٍ ، وَرَفَضَ بَعْضُهُمُ الْإِيمَانَ بِإِمَامَةِ جَعْفَرِ بْنِ عَلِيٍّ الْهَادِي ، • لِعَدَمِ جَوَازِ الْجُمُعِ بَيْنِ
أَخَوَيْنِ بَعْدَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ وَقَالُوا : • لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ وُلِدَ الْإِمَامُ الْحِجَّةُ بْنُ الْحَسَنِ الْعُسْكَرِيِّ ، وَأَنَّ
أَبَاهُ قَدْ أَخْفَاهُ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ .

وَلَكِنَّ السُّؤَالَ الْكَبِيرَ الَّذِي فَرَضَ نَفْسَهُ هُوَ : إِذَا كَانَتْ الْإِمَامَةُ مَحْضُورَةً فِي هَذَا الشَّخْصِ ، وَلَا تَجُوزُ
لِغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ الْعَادِيَيْنِ غَيْرِ الْمَعْصُومِينَ وَغَيْرِ الْمُعَيَّنِينَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلِمَاذَا يَغِيبُ وَيَخْتْفِي وَلَا يَظْهَرُ
لِتَقَوْدِ الشَّيْعَةِ وَالْمُسْلِمِينَ وَيُؤَسَّسُ الْحُكُومَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا ؟ مَا دَامَ أَنَّ الْأَرْضَ لَا يَجُوزُ أَنْ تَخْلُوَ
مِنْ إِمَامٍ ، وَالْإِمَامُ الْغَائِبُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُمَارَسَ إِمَامَتُهُ وَقِيَادَتُهُ لِلنَّاسِ ؟ . وَمَا هُوَ السَّرُّ فِي الْغَيْبَةِ ؟ وَإِلَى
مَتَى يَغِيبُ ؟ وَمَا هُوَ وَاجِبُ الشَّيْعَةِ فِي حَالَةِ الْغَيْبَةِ ؟

لَقَدْ كَانَتْ التَّيَجُّهُ الطَّبِيعِيَّةُ وَاللَّازِمَةُ لِذَلِكَ الْفِكْرِ هِيَ نَظَرِيَّةُ (الانتظار) وَتَحْرِيمُ النِّشَاطِ السِّيَاسِيِّ فِي (عَصْرِ الْعَيْبَةِ) وَهِيَ النَّظَرِيَّةُ الَّتِي سَادَتْ قُرُونًا طَوِيلَةً مِنَ الزَّمَنِ ، وَلَا تَزَالُ بَعْضُ آثَارِهَا مُسْتَمِرَّةً بِالرَّغْمِ مِنَ الْقَوْلِ بِنَظَرِيَّةِ (النَّبَايَةِ الْعَامَّةِ وَوَلَايَةِ الْفَقِيهِ) حَيْثُ انْتَهَتْ نَظَرِيَّةُ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمَثَالِيَّةِ إِلَى غَيْبُوبَةِ الشَّيْعَةِ عَنِ الْحَيَاةِ وَاقْتِدَادُهُمْ لِلْإِمَامَةِ ، لِعَدَمِ ظُهُورِ (الْإِمَامِ الْمُعْصُومِ) . وَهَذَا مَا شَكَلَ تَنَاقُضًا صَارِحًا مَعَ فِلْسَفَةِ الْإِمَامَةِ الَّتِي تَقُولُ بِوُجُوبِ الْإِمَامِ فِي الْأَرْضِ وَوُجُوبِ كَوْنِهِ مُعْصُومًا وَوُجُوبِ تَعْيِينِ اللَّهِ لَهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، مِنْ أَجْلِ تَطْبِيقِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَقِيَادَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْإِفْتَاءِ لَهُمْ وَحَلِّ مَشَاكِلِهِمُ التَّشْرِيعِيَّةِ .

نَظَرِيَّةُ التَّقِيَّةِ وَالْإِنْتِظَارِ

نَاطَرَ الْفِكْرُ السِّيَاسِيُّ الشَّيْعِيَّ بِنَظَرِيَّةِ (وُجُودِ الْإِمَامِ الْمُهْدِيِّ مُحَمَّدَ بْنِ الْحَسَنِ الْعُسْكَرِيِّ) نَاطِرًا كَبِيرًا ، وَاسْمَ لِقُرُونٍ طَوِيلَةٍ بِالسَّلْبِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ قَدْ أُبْثِقَتْ مِنْ رَحِمِ النَّظَرِيَّةِ (الْإِمَامِيَّةِ) الَّتِي تَحْتَمُّ وُجُودَ إِمَامٍ مُعْصُومٍ مُعَيَّنٍ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ، وَلَا تُجِيزُ لِلْأُمَّةِ أَنْ تُعَيِّنَ أَوْ تُنْتَخِبَ الْإِمَامَ ، لِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُعْصُومًا ، وَهِيَ لَا تُعْرِفُ الْمُعْصُومَ ، الَّذِي يُنَحِّصِرُ تَعْيِينَهُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ . وَلِذَلِكَ اضْطُرَّ الْإِمَامِيُّونَ إِلَى افْتِرَاضِ وُجُودِ (الْإِمَامِ الثَّانِي عَشَرَ) بِالرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ أُدَلَّةٍ عِلْمِيَّةٍ كَافِيَةٍ عَلَى وُجُودِهِ .

وَقَدْ كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَتَرْتَبَ عَلَى ذَلِكَ ، الْقَوْلُ بِالْإِنْتِظَارِ لِلْإِمَامِ الْغَائِبِ ، وَتَحْرِيمِ الْعَمَلِ السِّيَاسِيِّ أَوْ السَّعْيِ لِإِقَامَةِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي (عَصْرِ الْعَيْبَةِ) . . . وَهَذَا مَا حَدَثَ بِالْفِعْلِ ، حَيْثُ أُحْجِمَ (التُّوَابِ الْخَاصُّونَ) عَنِ الْفِيَامِ بِأَيِّ نَشَاطٍ سِيَاسِيٍّ فِي قَفْرَةِ (الْعَيْبَةِ الصُّغْرَى) وَلَمْ يُفَكِّرُوا بِأَيَّةِ حَرَكَةٍ ثَوْرِيَّةٍ ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الشَّيْعَةُ الزَيْدِيَّةُ وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةُ يُوسِّسُونَ دَوْلًا فِي الْيَمَنِ وَشِمَالِي أْفْرِيقِيَا وَطَبْرِسْتَانَ .

لَقَدْ كَانَتْ نَظَرِيَّةَ (الانتظار) للإمام الغائب ، بمعناها السلبي المطلق ، تُشكل الوجه الآخر للإيمان بوجود (الإمام المعصوم) ولازمه من لوازمها ، ولذلك فقد اتخذ المتكلمون الذين آمنوا بهذه النظرية موقفاً سلبيًا من مسألة إقامة الدولة في (عصر الغيبة) ، وأصرُّوا على التمسك بموقف الانتظار حتى خروج المهدي الغائب .

الموقف من الخمس والأَنْفَال

لَقَدْ كَانَ الشَّيْخُ المَفِيدُ يَعْتَقِدُ - كَمَا يَقُولُ فِي (المفتحة) : أَنَّ الْأَنْفَالَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ خَاصَّةً ، وَهِيَ لِلإِمَامِ الْقَائِمِ مَقَامُهُ مِنْ بَعْدِهِ خَالِصَةٌ لَهُ كَمَا كَانَتْ لَهُ (ص) فِي حَيَاتِهِ ، وَلَا يَحِقُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْمَلَ فِي شَيْءٍ مِنْ الْأَنْفَالِ إِلَّا بِإِذْنِ الإِمَامِ الْعَادِلِ ، فَمَنْ عَمِلَ فِيهَا بِإِذْنِهِ فَلَهُ أَرْبَعَةُ أَحْمَاسٍ الْمُسْتَقَادِ مِنْهَا وَلِلإِمَامِ الْخَمْسَ .

وَلَمَّا كَانَ (الإمام العادل) فِي الْمُصْطَلِحِ الإِمَامِيِّ - كَمَا يَقُولُ الطُّوسِيُّ فِي : (الْخِلَافِ فِي الْفِقْهِ) يَعْنِي (الإمام المعصوم المعين من قبل الله تعالى) وَأَنَّهُ مُنْذُ وَفَاةِ الإِمَامِ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ سَنَةَ 260 هـ هُوَ (الإمام الثاني عشر المهدي محمد بن الحسن العسكري) الَّذِي وُلِدَ سَنَةَ 255 هـ وَغَابَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ ، فَإِنَّهُ يُصْبِحُ : الْمَالِكُ الْحَقِيقِيُّ لِلْأَنْفَالِ ، وَكَذَلِكَ الْمَالِكُ الْحَقِيقِيُّ لِلْخَمْسِ ، وَهُوَ قَانُونٌ خَاصٌّ غَيْرُ الزَّكَاةِ يُفْرِضُهُ الشَّيْعَةُ عَلَى الْمَغَانِمِ وَالْأَرْزَاقِ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ عَلَيْهِمْ تَقْدِيمَهُ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلإِمَامِ وَلِلْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ، وَإِنَّ سَهْمَ اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَذِي الْقُرْبَى يَجِبُ تَقْدِيمُهُ لِلإِمَامِ (الَّذِي يُمَثِّلُ ذَوِي الْقُرْبَى) وَالَّذِي وَالْيَوْمِ (الإمام المهدي المنتظر) كَمَا يَجِبُ إِعْطَاؤُهُ الْأَسْهَمِ الثَّلَاثَةَ الْأُخْرَى : أَسْهَمِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ ، لِكُنِّي يُوَزَعُهَا عَلَى الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ .

وَقَدْ أَدَّى التَّزَامَ بِنَظَرِيَّةِ (الانتظار) إِلَى التُّوَقُّعِ فِي أَرْزَمَةِ حَادَّةٍ فِي مَوْضِعِ الخُمْسِ وَالْأَنْفَالِ فِي (عَصْرِ الغَيْبَةِ) ، فَمِنْ جِهَةٍ : أَنَّ الْإِمَامَ الْمُهَدِّيَّ هُوَ الشَّخْصُ الْوَحِيدُ صَاحِبِ الخُمْسِ وَالْأَنْفَالِ ، وَالَّذِي يَحِقُّ لَهُ اسْتِئَامَاهَا وَتَوَازُعُهَا ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى : لَا سَبِيلَ إِلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ لِأَدَاءِ حُقُوقِهِ ، كَمَا لَا تُوجَدُ آيَةٌ نُصُوصٌ مِنْهُ فِي مَسْأَلَةِ تَوَازُعِهَا وَالتَّصَرُّفِ فِيهَا فِي ظِلِّ الغَيْبَةِ .

وَمَنْ هُنَا فَقَدْ اخْتَارَ الْفُقَهَاءَ فِي حُكْمِ الخُمْسِ وَالْأَنْفَالِ ، وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ الْمَفِيدُ فِي (الْمُنْتَعَةِ): • قَدْ اخْتَلَفَ قَوْمٌ مِنْ أَصْحَابِنَا فِي ذَلِكَ عِنْدَ الغَيْبَةِ ، وَذَهَبَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ إِلَى مَقَالٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْقُطُ فَرَضُ إِخْرَاجِهِ ، لِغَيْبَةِ الْإِمَامِ ، وَمَا تَقَدَّمَ مِنَ الرَّخْصِ فِيهِ مِنَ الْأَخْبَارِ وَبَعْضُهُمْ يُوجِبُ كَنْزَهُ ، وَيَتَأَوَّلُ خَبْرًا . وَرَدَ : (أَنَّ الْأَرْضَ تَظْهَرُ كُنُوزُهَا عِنْدَ ظُهُورِ الْإِمَامِ ، وَأَنَّهُ إِذَا قَامَ دَلَّهُ اللَّهُ عَلَى الْكُنُوزِ فَيَأْخُذُهَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ

شَاهِدَنَا فِي الْفُضْلِ الْمَاضِي مُحَاوَلَاتِ الْخُرُوجِ مِنْ أَرْزَمَةِ : (الانتظار لِلْإِمَامِ الْمُهَدِّي) الَّتِي وَقَعَ بِهَا الْعُلَمَاءُ الْإِمَامِيَّةَ ، بِتَبِيحَةِ قَوْلِهِمْ بِاشْتِرَاطِ الْعِصْمَةِ وَالتَّصُّ فِي الْإِمَامِ ، وَالِاعْتِقَادِ بِوُجُودِ الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ الْغَائِبِ ، وَفَتْحِهِمْ تَدْرِيجِيًّا لِبَابِ الْجُهَادِ وَالسَّمَاخِ بِتَنْفِيذِ الْحُدُودِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالتَّنْهِي عَنِ الْمُنْكَرِ وَاسْتِئَامِ الخُمْسِ وَالتَّزَاةِ وَأَجَاةِهُ أَوْ إِجَابُ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ فِي (عَصْرِ الغَيْبَةِ) ، تِلْكَ الْأُمُورِ الَّتِي جَمَدَوْهَا فِي الْبِدَايَةِ أَنْتَظَارًا لِخُرُوجِ (الْإِمَامِ الْمُهَدِّي) الْحَاكِمِ الشَّرْعِيِّ الْوَحِيدِ الَّذِي يَحِقُّ لَهُ إِقَامَةُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

وَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الْمُحَاوَلَاتُ مُتَفَرِّقَةً وَمَتَدَرِّجَةً بَابًا . . . بَابًا ، وَجُزْءًا . . . فِجْزْءًا . . . وَلِكَيْهَا لَمْ تُرَقِّ لِعَالِجِ الْمُسْكَلَةِ مِنْ جِذْرِهَا ، حَيْثُ لَمْ تَبْحَثْ مَوْضِعَ (الْإِمَامَةِ) وَ (الغَيْبَةِ) مِنْ الْأَسَاسِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ حَاوَلَ الْعُلَمَاءُ تَطْوِيرَ نَظَرِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ بَدِيلَهُ عَنِ الْإِمَامَةِ وَالْإِمَامِ الْمُهَدِّي ، وَذَلِكَ بِإِفْرَاضِ التَّيَابَةِ الْوَاقِعِيَّةِ أَوْ

الْحَقِيقَةِ عَنِ الْإِمَامِ الْغَائِبِ عِنْدَمَا يَأْمُرُ حَاكِمٌ جَائِزٌ أَحَدًا بِتَنْفِيزِ الْحُدُودِ . وَقَدْ تَطَوَّرَتْ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ
الْبَسِيطَةُ الْاِفْتِرَاضِيَّةُ فِي بَدَايَةِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْهَجْرِيِّ لِتُصَبِّحَ نَظَرِيَّةً سِيَاسِيَّةً مُتَكَمِّلَةً فِي نَهَايَةِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ
عَشَرَ تَحْتَ اسْمِ وِلَايَةِ الْفَقِيهِ .

وَبِالرَّغْمِ مِنْ التَّطَوُّرِ الْكَبِيرِ الَّذِي كَانَ قَدْ حَصَلَ فِي نَظَرِيَّةِ (التِّيَابَةِ الْعَامَّةِ لِلْفُقَهَاءِ عَنِ الْإِمَامِ الْمُهَدِّيِّ) فِي
مَجَالِ الْخُمْسِ وَالزَّكَاةِ وَالْحُدُودِ وَصَلَاةِ الْجُمُعَةِ ، إِلَّا أَنَّهَا - حَتَّى ذَلِكَ التَّارِيخِ - لَمْ تَكُنْ قَدْ تَبَلُّوْرَتْ بَعْدَ
كَطَرِيهِ سِيَاسِيَّةً مُتَكَمِّلَةً بَدِيلَهُ عَنِ نَظَرِيَّةِ (الْإِمَامَةِ الْإِلَهِيَّةِ) وَلَا زَمَّتْهَا (الْإِنْتِظَارُ) بِحَيْثُ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُبَادِرَ
لِتَفْجِيرِ الثَّوْرَةِ وَإِقَامَةِ الدَّوْلَةِ فِي (عَيْضِ الْعَيْبَةِ) وَذَلِكَ لِاشْتِرَاطِ الْعِصْمَةِ وَالتَّصِّ وَالسَّلَالَةِ الْعُلُويَّةِ الْحُسَيْنِيَّةِ
فِي الْإِمَامِ (الرَّئِيسِ) وَعَدَمِ جَوَازِ تَوَلِّيِ غَيْرِ (الْإِمَامِ الْمُعْصُومِ) لِمُقَالِيدِ السُّلْطَنَةِ فِي الْبِلَادِ حَسَبِ النَّظَرِيَّةِ
(الْإِمَامِيَّةِ) الْقَدِيمَةِ . . وَمِنْ هُنَا كَانَتْ نَظَرِيَّةُ (الْإِنْتِظَارِ) تَفْرِضُ نَفْسَهَا عَلَى الْفُقَهَاءِ الشَّيْعَةِ الْإِمَامِيَّةِ الْاِثْنِي
عَشْرِيَّةِ ، وَتَشَلُّ حَرَكَتَهُمْ وَتَمْنَعُهُمْ مِنَ الْعَمَلِ وَالتَّحَرُّكِ السِّيَاسِيِّ

وَعِنْدَمَا أَرَادَ الصَّفَوِيُّونَ التَّحَرُّكَ الْعَسْكَرِيَّ لِإِقَامَةِ دَوْلَةٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ . . وَجَدُوا نَظَرِيَّةَ الْإِنْتِظَارِ غَيْرَ مَعْقُولَةٍ
وَلَا وَاقِعِيَّةٍ ، وَتَشَكَّلَ حَجَرُ عَثْرَةٍ إِمَامِ طُموحهم وَتَحَرُّكِهِمْ . . وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُنْذُ فِتْرَةٍ قَدْ أَعْلَنُوا
التَّمَسُّكَ بِالْمَذْهَبِ الْإِمَامِيِّ الْاِثْنِي عَشْرِيِّ ، إِلَّا أَنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يُسْتَوْعِبُوا نَظَرِيَّةَ (الْإِمَامَةِ الْإِلَهِيَّةِ) الَّتِي
تُسْتَرُطُ الْعِصْمَةَ وَالتَّصِّ فِي الْإِمَامِ ، وَحَوَّلُوهَا إِلَى نَظَرِيَّةٍ تَارِيحِيَّةٍ ، وَرَفُضُوهَا عَمَلِيًّا . . حَيْثُ أَجَازُوا
لِرُعْمَائِهِمْ وَهُمْ غَيْرُ مَعْصُومِينَ وَلَا مُنْصُوصٍ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ ، إِنَّ يَسْتَوْلُوا عَلَى الْمَلِكِ وَيُقِيمُوا بِمَهَامِ الْإِمَامَةِ
تَمَامًا كَمَا فَعَلَ الْأُمَوِيُّونَ وَالْعَبَّاسِيُّونَ وَالْعُثْمَانِيُّونَ . وَلَمْ يَصُغُبْ عَلَيْهِمُ الْإِنْتِظَارُ عَلَى نَظَرِيَّةِ الْإِنْتِظَارِ
وَتَجَاوَزَهَا .

وَإِخْتَلَفَتْ تَجْرِبَةُ الدَّوْلَةِ الصَّفَوِيَّةِ فِي مَرَحَلَتِهَا الْأُولَى (أَيَّامَ الشَّاةِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ صَفِيِّ الدِّينِ) عَنِ التَّجَارِبِ
السِّيَاسِيَّةِ الشَّيعِيَّةِ السَّابِقَةِ كالدَّوْلَةِ البُويهيَّةِ والسَّرْبَدَارِيَّةِ وَالْمُرْعَشِيَّةِ وَالْمُشْعَشَعِيَّةِ ، فِي أَنَّ هَذِهِ التَّجَارِبِ
كَانَتْ دَوْلًا سِيَاسِيَّةً بَحْتَةً ، أَيَّ غَيْرِ أَيْدِيُولُوجِيَّةٍ ، بَيْنَمَا حَاوَلَتْ الدَّوْلَةُ الصَّفَوِيَّةُ تَقْدِيمَ نَفْسِهَا كدَوْلَةٍ
عَقَائِدِيَّةٍ وَمُرْتَبِطَةٍ بِالنَّمَّةِ الْإِسْنِي عَشْرَ بِصُورَةٍ رُوحِيَّةٍ غَيْبِيَّةٍ . وَكَانَتْ تُشْكَلُ تَطَوُّرًا انْقِلَابِيًّا فِي الْفِكْرِ
السِّيَاسِيِّ الشَّيعِيِّ ، نَقْلَ الشَّيْعَةِ مِنْ نَظَرِيَّةِ الْإِنْتِظَارِ السَّلْبِيَّةِ الْإِنْعِرَائِيَّةِ إِلَى سَدِّهِ الْحُكْمِ وَالسَّلْطَنَةِ .

وَقَدْ طَوَّرَ الشَّاةُ إِسْمَاعِيلُ ، أَوْ تَطَوَّرَ عَلَى يَدَيْهِ ، فِكْرَ سِيَاسِيٍّ جَدِيدٍ حَاوَلَ الْإِتْفَافِ عَلَى فِكْرِ (النَّقِيَّةِ
وَالْإِنْتِظَارِ) فَادَّعَى ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّهُ أَخَذَ إِجَازَةً مِنْ (صَاحِبِ الزَّمَانِ : الْمَهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ) بِالثَّوْرَةِ وَالْخُرُوجِ ضِدَّ
أَمْرَاءِ التُّرْكَمَانِ الَّذِينَ كَانُوا يَحْكُمُونَ إِيرَانَ ، وَبَيْنَمَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنْ رُفَقَائِهِ الصُّوفِيَّةِ خَارِجِينَ
لِلصَّيْدِ فِي مَنَاطِقِهِ تَبْرِيزَ ، مَرُّوا بِنَهْرٍ ، فَطَالَبَهُمْ بِالتَّوَقُّفِ عِنْدَهُ وَعَبَّرَ هُوَ النَّهْرَ بِمُفْرَدِهِ وَدَخَلَ كَهْفًا . . ثُمَّ
خَرَجَ مُتَقَلِّدًا بِسَيْفٍ ، وَأَخْبَرَ رُفَقَاءَهُ أَنَّهُ شَاهِدٌ فِي الْكَهْفِ (صَاحِبِ الزَّمَانِ) وَأَنَّهُ قَالَ لَهُ : • لَقَدْ
حَانَ وَقْتُ الْخُرُوجِ وَأَنَّهُ أَمْسَكَ ظَهْرَهُ وَرَفَعَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَوَضَعَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَشَدَّ حِزَامَهُ بِيَدِهِ وَوَضَعَ
خِنْجَرًا فِي حِزَامِهِ وَقَالَ لَهُ: • أَذْهَبُ فَقَدْ رُحِّصْتُكَ .

وَإِدَّعَى بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ شَاهِدٌ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (ع) فِي الْمَنَامِ وَأَنَّهُ حَثَّهُ عَلَى الْفِيَامِ وَإِعْلَانِ الدَّوْلَةِ
الشَّيعِيَّةِ وَقَالَ لَهُ بِالْحَرْفِ الْوَاحِدِ : • ابْنِي . . لَا تَدْعُ الْفَلَقَ يُشَوِّشُ أَفْكَارَكَ . . أَخْضَرَ (الْقَزْلِبَاشِيَّةَ) -
وَهُمْ مَلِيْشِيَا الصُّوفِيَّةِ - مَعَ أَسْلِحَتِهِمُ الْكَامِلَةَ إِلَى الْمَسْجِدِ (فِي تَبْرِيزِ) وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُحَاصِرُوا النَّاسَ . .
وَإِذَا أَبْدَى هَوْلًا أَيْةَ مُعَارِضَةٍ أَتْنَاءَ الْخُطْبَةِ بِاسْمِ أَهْلِ الْبَيْتِ فَإِنَّ الْجُنُودَ يَنْهَوْنَ الْأَمْرَ .

وَهَكَذَا فَعَلَ الشَّابُّ إِسْمَاعِيلُ بْنُ صَفِيِّ الدِّينِ (قُطْبِ الصُّوفِيَّةِ) حَيْثُ أَحْضَرَ (الْقَزْلِبَاشِيَّةَ) وَحَاصِرَ
 جَامِعَ تَبْرِيزِ ذَاتِ جُمُعَةٍ وَأَعْلَنَ سِيَادَةَ الْمَذْهَبِ الْإِمَامِيِّ الْاِثْنِي عَشْرِيِّ ، وَقِيَامَ الدَّوْلَةِ الصُّوفِيَّةِ ، وَذَلِكَ
 بِنَاءً عَلَى دَعْوَتَيْنِ: دَعْوَى الْوَكَاةِ الْخَاصَّةِ عَنِ الْإِمَامِ الْمُهْدِيِّ ، وَدَعْوَى رُؤْيَةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ فِي الْمَنَامِ
 وَقَدْ أَتَا حَتَّى هَاتَانِ الدَّعْوَى أَنْ لِلْحَرَكَةِ الصُّوفِيَّةِ الصُّوفِيَّةِ إِنْ تَحَرَّرَ مِنْ نَظَرِيَّةِ (التَّقِيَّةِ وَالْإِنْتِظَارِ) وَتَأْسِيسِ
 الدَّوْلَةِ الصُّوفِيَّةِ (الشَّيْعِيَّةِ الْاِثْنِي عَشْرِيَّةِ) .

يُقُولُ رَاجِرُ سَيُورِي فِي: (إِيرَانِ فِي الْعَصْرِ الصُّوفِيِّ) : • اعْتَمَدَ الصُّوفِيُّونَ عَلَى فِكْرَةِ الْحَقِّ الْإِلَهِيِّ لِلْمُلُوكِ
 الْإِيرَانِيِّينَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ مِنْذُ سَبْعَةِ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَذَلِكَ بَوْرَاةِ هَذَا الْحَقِّ بِاعْتِبَارِهِمْ • سَادَةَ وَإِنْ جَدَّهُمْ
 الْإِمَامُ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ قَدْ تَزَوَّجَ بِنْتَ يَزْدَجَرْدَ فَأَوْلَدَهَا الْإِمَامُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ ، فَاجْتَمَعَ الْحَقَّانِ : حَقُّ أَهْلِ
 الْبَيْتِ فِي الْخِلَافَةِ (حَسَبِ النَّظَرِيَّةِ الْإِمَامِيَّةِ) وَحَقُّ الْمُلُوكِ الْإِيرَانِيِّينَ فِيهِمْ ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى بَيَّانَةِ الْإِمَامِ
 الْمُهْدِيِّ .

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ الشَّاةُ إِسْمَاعِيلُ يُعْتَبِرُ نَفْسَهُ • نَائِبُ اللَّهِ وَخَلِيفَةُ الرَّسُولِ وَالْأَيُّمَةُ الْاِثْنِي عَشْرَ
 وَمُمَثِّلُ الْإِمَامِ الْمُهْدِيِّ فِي غَيْبَتِهِ وَكَانَ جُنُودَ (الْقَزْلِبَاشِ) الصُّوفِيَّةِ يُعْتَقِدُونَ : أَنَّهُ تَجَسَّدَ لِلَّهِ .

وَتَقُولُ بَعْضُ الزُّوَايَاتِ الصُّوفِيَّةِ : أَنَّ أَحَدَ شُيُوخِ الصُّوفِيَّةِ وَهُوَ الشَّيْخُ زَاهِدُ الْكِيْلَانِيِّ ، قَدْ تَنَبَّأَ مِنْ قَبْلِ
 بَظُهُورِ الشَّاةِ إِسْمَاعِيلَ ، وَقَالَ لِجَدِّهِ (صَفِيِّ الدِّينِ) الَّذِي زَوَّجَهُ ابْنَتَهُ : • السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا وَلَدِي سَيِّدِ
 صَدْرِ الدِّينِ مُشِيرًا بِذَلِكَ إِلَى حَفِيدِهِ الَّذِي ادَّعَى أَنَّ قَدْ رَأَاهُ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ ، وَأَعْطَى عَلَامَةً وَنَبَأًا قَائِلًا :
 • إِنَّ أَوْلَادَ هَذَا الزَّرْعِيمِ سَيَمْلِكُونَ الْعَالَمَ ، وَيَرْتَقُونَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ إِلَى زَمَانِ الْقَائِمِ الْمُهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ) .

وَقَدْ اُتَّشِرَتْ هَذِهِ الْعَقِيدَةُ الْعَيْنِيَّةُ بَيْنَ مُتَصَوِّفَةِ الصَّفَوِيِّينَ الَّذِينَ أَقَامُوا الدَّوْلَةَ الصَّفَوِيَّةَ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهَا سَتَدُومُ حَتَّى ظُهُورِ (المَهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ) وَلَكِنَّهَا اهْتَزَّتْ بَعْدَ هَزِيمَةِ الشَّاهِ إِسْمَاعِيلَ فِي مَوْقِعِهِ (جَالِدِرَانَ) مَعَ السُّلْطَانِ الْعُثْمَانِيِّ سُلَيْمَانَ الْقَانُونِي عَامَ 920هـ / 1512م ، حَيْثُ بَدَأَ (الْفَزْلَبَاش) يَتَخَلَّلُونَ عَنِ الْإِعْتِقَادِ الْغَالِي بِه أَنَّهُ مُوجُودٌ إِلَهِي أَوْ نِصْفَ إِلَهِي أَوْ أَنَّهُ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ، وَيُخْرِجُونَ عَلَى سُلْطَنِهِ وَيَتَقَاتِلُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ .

وَقَدْ سَاعَدَتْ الْأَرْضِيَّةُ الصُّوفِيَّةُ لِلْحَرَكَةِ الصَّفَوِيَّةِ : الشَّاهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَى ادِّعَاءِ الْكُشْفِ وَالْإِرْتِبَاطِ الشَّخْصِيِّ بِالْأَيُّمَةِ الْمُعْصُومِينَ وَأَخَذَ التَّعْلِيمَاتِ الْمُبَاشِرَةَ مِنْهُمْ ، وَهُوَ مَا أَعْطَاهُ سُلْطَنَهُ دِينِيَّةً وَدُيُونِيَّةً مُطْلَقَةً وَبِالرَّغْمِ مِنْ حُدُوثِ تَطَوُّرَاتٍ فِكْرِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ عَدِيدَةٍ ، فَقَدْ ظَلَّتْ نَظَرِيَّةُ الدَّوْلَةِ الصَّفَوِيَّةِ الْأُولَى (بَيَابَةِ السَّلَاطِينِ عَنِ الْمُهْدِيِّ) حَاكِمُهُ ، بِشَكْلِ أَوْ بِآخَرِ ، إِلَى وَقْتِ طَوِيلٍ . وَامْتَدَّتْ حَتَّى مَا بَعْدَ انْهِيَارِ الدَّوْلَةِ الصُّوفِيَّةِ .

وَمَنْ الْجَدِيرَ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْمُلُوكَ الصَّفَوِيِّينَ لَمْ يَكُونُوا يَلْتَزِمُونَ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ - مَا عَدَا بَعْضُهُمْ - بِالشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأَحْكَامِ الدِّينِ الْحَنِيفِ ، فَكَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَمَارِسُونَ التَّعْذِيبَ وَالْقَتْلَ الْعَشْوَائِيَّ وَيَرْتَكِبُونَ الْمُحَرَّمَاتِ كَمَا يَحُلُّوهُمْ . وَكَانَ حُكْمُهُمْ لَا يَخْتَلِفُ عَنِ أَيِّ حُكْمٍ دِيكَاتُورِيِّ طُغْيَانِي فَاسِدٍ

وَقَدْ غَطَّتِ الدَّوْلَةُ الصَّفَوِيَّةُ عَلَى تَنَاقُضِهَا الْكَبِيرِ هَذَا ، وَانْقِلَابِهَا عَلَى التَّشْيِيعِ ، بِجُمْلَةِ طُقُوسٍ وَشِعَارَاتٍ مُتَطَرِّفَةٍ أَسَاءَتْ إِلَى الشِّيْعَةِ وَالتَّشْيِيعِ عَبْرَ التَّارِيخِ . . كَسَبِ الْخُلَفَاءِ الثَّلَاثَةِ عَلَى الْمَنَابِرِ وَفِي الشُّوَارِعِ ، وَهُوَ مِنْهَجٌ مُنَاقِضٌ لِسِيرَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ (ع) وَأَخْلَاقِ الشِّيْعَةِ الْجَعْفَرِيَّةِ ، وَإِقْحَامِ الشَّهَادَةِ الثَّلَاثَةِ (أَشْهَدُ أَنْ عَلِيًّا وَلِيُّ اللَّهِ) فِي الْأَذَانِ ، وَهُوَ عَمَلٌ كَانَ بَعْضُ الْمُتَطَرِّفِينَ الْعُلَاةِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ قَدْ حَاوَلَ

تَفْهِدُهُ ، وَلَكِنَّ الْعُلَمَاءَ الشَّيْعَةَ الْإِمَامِيَّةَ رَفَضُوهُ بِشِدَّةٍ وَاعْتَبَرُوهُ بِدْعَةً مُحَرَّمَةً . كَمَا يَقُولُ الشَّيْخُ الصَّدُوقُ فِي (مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه) . وَكَذَلِكَ التَّطَرُّفُ فِي إِحْيَاءِ الشَّعَائِرِ الْحُسَيْنِيَّةِ مِنَ الْعَزَاءِ وَاللَّطْمِ وَالْإِعْلَامِ وَالْأَبْوَابِ وَصَنَعَ (التَّرَبُّعَ) لِلسُّجُودِ فِي الصَّلَاةِ .

وَكَانَ أَسْوَأَ عَمَلٍ قَامَ بِهِ الصَّفَوِيُّونَ هُوَ إِجْبَاؤُ النَّاسِ عَلَى التَّحَوُّلِ بِالْقُوَّةِ إِلَى الْمَذْهَبِ (الِاثْنَيْ عَشْرِي) وَقَتْلُ الْأُلوْفِ مِنَ النَّاسِ وَالْعُلَمَاءِ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْأُخْرَى . . الْأَمْرُ الَّذِي أَدَّى إِلَى رَدِّهِ فَعَلَ عَنِيْفَةً مِنْ قَبْلِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَأَبَادَهُ الْكَثِيرُ مِنَ الشَّيْعَةِ هُنَا وَهُنَاكَ ، وَالتَّسَبُّبُ فِي تَمْزِيقِ الْوَحْدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَزَرْعِ الْأَحْقَادِ الطَّائِفِيَّةِ بَيْنَ الشَّيْعَةِ وَالسُّنَّةِ مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ إِلَى الْيَوْمِ .

لَقَدْ كَانَ التَّشْيِيعُ قَبْلِيْدً . . مِنْهَجًا ثَوْرِيًّا وَنَظْرِيَّةً سِيَّاسِيَّةً تَخْتَلِفُ مَعَ الْآخِرِينَ حَوْلَ النِّظَامِ الدُّسْتُورِيِّ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّ الْخِلَافَةَ بِالشُّورَى أَوْ بِالْوَرَاثَةِ لِهَذَا الْبَيْتِ الْهَاشِمِيِّ أَوْ ذَاكَ . . وَلَمْ يَكُنْ التَّشْيِيعُ أَبَدًا فِكْرًا طَائِفِيًّا يُعَادِي أَوْلَادَ الْأُمَّةِ ، أَوْ يُشَكِّلُ دَائِرَةً مُنْعَزَلَةً ضَيْقَهُ فِي مُقَابِلِ دَائِرَةِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْوَّاسِعَةِ . . بَلْ كَانَ تِيَارًا سِيَّاسِيًّا فِقْهِيًّا فِي قَلْبِ الْأُمَّةِ ، فَجَاءَ الصَّفَوِيُّونَ وَجَرَدُوا التَّشْيِيعَ مِنْ رُوحِهِ الْعُلُوِّيَّةِ الْحُسَيْنِيَّةِ الْجَعْفَرِيَّةِ وَمُسَخَوْهُ إِلَى عَقْدِهِ طَائِفِيَّةٍ مُسْتَعْصِيَّةٍ وَمُعَادِيَّةٍ لِلْمُسْلِمِينَ .

وَكَانَ الصَّفَوِيُّونَ بَعْدَ ذَلِكَ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنِ أَخْلَاقِ أَهْلِ الْبَيْتِ (ع) فِي الزُّهْدِ وَالْحِلْمِ وَالتَّوَّاضِعِ ، إِذْ كَانُوا يَتَصَارَعُونَ فِيْمَا بَيْنَهُمْ وَيَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ أَجْلِ السُّلْطَةِ . . وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْ مُلُوكِهِمْ يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ وَإِخْوَانَهُمْ وَأَرْحَامَهُمْ وَيَقْتَلُونَ عِيُونَهُمْ وَيُمْتَلُونَ بِهِمْ فِي صَرَاعِهِمْ مِنْ أَجْلِ السُّلْطَةِ ، وَفِي الْحَقِيقَةِ رَبَّمَا كَانُوا أَسْوَأَ مِنَ الْحُكَّامِ الظَّالِمَةِ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ أَوْ لِحَقُوهُمْ .

وَلَا زَالَ الشَّيْعَةَ إِلَى الْيَوْمِ يَدْفَعُونَ ثَمَنَ سِيَاسَاتِهِمْ الْخَاطِئَةَ وَيُعَانُونَ مِنْ الْبِدْعِ الَّتِي أُدْخِلُوهَا فِي الثَّقَافَةِ
الشَّيْعِيَّةِ الشَّعْبِيَّةِ .

نَظَرِيَّةُ الْمَرْجِعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ وَإِلَى الْيَوْمِ ظَلَّ الْعُلَمَاءُ يَتَّارِجِحُونَ بَيْنَ نَظَرِيَّةِ الْاِتِّظَارِ وَالتَّيَابَةِ الْعَامَّةِ ، وَيُمَارِسُونَ أَدْوَارًا
اجْتِمَاعِيَّةً وَشَبَّهَ سِيَاسِيَّةً فِيمَا عُرِفَ بِاسْمِ (الْمَرْجِعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ) الَّتِي لَا تَصِلُ إِلَى مُسْتَوِي (الْوَلَايَةِ
الْعَامَّةِ) . وَرُبَّمَا كَانَ كَأَظْمِ الْيَزْدِي (I337/مI9I9) أَفْضَلَ تَمُودِجَ لِمَرْجِعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي تَكْتَفِي بِإِصْدَارِ
الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْقِيَامِ بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، حَيْثُ أَكَّدَ الْيَزْدِيُّ فِي (الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) عَلَى نَظَرِيَّةِ
(التَّيَابَةِ الْعَامَّةِ) وَلَكِنْ فِي مَجَالِ الْخُمْسِ فَقَطُ ، فَقَالَ: • النِّصْفُ مِنَ الْخُمْسِ الَّذِي لِلْإِمَامِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)
أَمْرُهُ فِي زَمَانِ الْغَيْبَةِ رَاجِعٌ إِلَى نَائِبِهِ ، وَهُوَ الْمُجْتَهِدُ الْجَامِعُ لِلشَّرَائِطِ ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِصَالِ إِلَيْهِ أَوْ الدَّفْعِ
إِلَى الْمُسْتَحِقِّينَ بِإِذْنِهِ . وَأَمَّا النِّصْفُ الْآخَرُ الَّذِي لِلْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ فَيَجُوزُ لِلْمَالِكِ دَفْعُهُ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ ،
لَكِنْ الْأَخْوَاطُ فِيهِ أَيْضًا الدَّفْعُ إِلَى الْمُجْتَهِدِ أَوْ بِإِذْنِهِ ، لِأَنَّهُ أَعْرَفُ بِمَوَاقِعِهِ وَالْمَرْجِحَاتِ الَّتِي يَنْبَغِي
مُلَاحَظَتَهَا .

وَلَكِنْ الْيَزْدِيُّ لَمْ يَتَحَدَّثْ عَنِ الْحُدُودِ أَوْ الْجِهَادِ أَوْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ
أَوْ إِقَامَةِ الدَّوْلَةِ وَمَا شَابَهُ مِنْ الْأُمُورِ السِّيَاسِيَّةِ الْحَيَوِيَّةِ ، وَيَبْدُو أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْتَقِدُ بِجَوَازِ قِيَامِ الْفَقِيهِ بِهَا
يَبَابَةً عَنِ (الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ) فِي عَصْرِ الْغَيْبَةِ .

: كَانَ الْفِكْرُ الْإِمَامِي يُعْطِي لِلْإِمَامِ مَهْمَتَيْنِ رِئِيسِيَّتَيْنِ هُمَا

التَّشْرِيعِ فِي الْمَسَائِلِ الْحَادِثَةِ الَّتِي لَا تُوجَدُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُطَهَّرَةِ ، وَيَرْفُضُ
اللُّجُوءَ إِلَى الْإِجْتِهَادِ الَّذِي يُعْتَبَرُهُ نَوْعًا مِنَ الظَّنِّ غَيْرِ الْجَائِزِ فِي الدِّينِ . . وَيُشْتَرَطُ الْحُصُولَ عَلَى الْعِلْمِ
، وَيَقُولُ: إِنَّ الْإِمَامَ الْمُعْصُومَ يَحْضُلُ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ مُبَاشَرَةً بِطَرِيقِهِ أَوْ بِأُخْرَى

• تَنْفِيذَ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَطْبِيقَ أَحْكَامِ الدِّينِ ، وَقِيَادَةَ الْمُسْلِمِينَ

وَكَانَ الْفِكْرُ الْإِمَامِيَّ يَحْضُرُ مُهِمَّةَ الْإِمَامَةِ فِي (الْأُمَّةِ الْمُعْصُومِينَ الْمَعْيَنِينَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ) وَلَا يُجِيزُ لَأَيِّ
شَخْصٍ غَيْرِهِمْ أَنْ يَقُومَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ . . وَلِذَا فَقَدْ كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ وَالضَّرُورِيِّ أَنْ يُؤَدِّيَ الْفِكْرُ
الْإِمَامِيَّ إِلَى حَتْمِيَّةِ اقْتِرَاضِ وُجُودِ الْإِمَامِ الثَّانِي عَشَرَ (مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ) وَالْقَوْلِ بِاتِّظَارِهِ
• ، وَتَحْرِيمِ الْعَمَلِ السِّيَاسِيِّ فِي عَصْرِ الْعَيْبَةِ

الْحَرَكَةُ الْبَابِيَّةُ

وَقَدْ تَطَوَّرَتِ الْحَرَكَةُ الشَّيْخِيَّةُ الْإِخْبَارِيَّةُ وَتَشَعَّبَتْ إِلَى فِرْقَةٍ جَدِيدَةٍ أُخْرَى هِيَ: (الْبَابِيَّةُ) الَّتِي قَادَهَا
زَمِيلٌ لِمُحَمَّدِ كَرِيمِ خَانَ ، وَتَلْمِيزٌ لِلسَّيِّدِ كَاطِمِ الرَّشْتِيِّ ، هُوَ الْمَيْرُ عَلَى مُحَمَّدِ الشَّيرَازِيِّ ، حَيْثُ
أَخَذَ هَذَا يَدَّعِي أَنَّهُ نَائِبُ الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ (مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ) الْخَاصَّ وَأَنَّهُ بَابُ إِمَامِ
الزَّمَانِ

وَقَدْ كَتَبَ (البَاب) عَلَى مُحَمَّدِ الشَّيرَازِيِّ رِسَالَةً إِلَى الشَّيَا إِلَى الشَّيَا مُحَمَّدُ بْنُ فَتْحٍ عَلَى لِيَجْلِبَ
تَأْيِيدَهُ خُصُوصًا وَأَنَّهُ كَانَ يَعِيشُ أَرْمَةً مَعَ الْعُلَمَاءِ الْأُصُولِيِّينَ ، وَقَدْ تَبِعَهُ مُعْظَمُ أَتْبَاعِ الْحَرَكَةِ الشَّيْخِيَّةِ
فِي شِيرَازٍ وَمَازَنْدِرَانَ وَمَشْهَدِ وَزَنْجَانَ وَتَبْرِيزَ وَعُمُومَ إِيرَانَ ، لِأَنَّ انْتِظَارَ الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ كَانَ أَحَدَ
(• مَفَاهِيمِ الشَّيْخِيَّةِ وَالشَّيْعَةِ الْاِثْنِي عَشْرِيَّةِ عُمُومًا ، فَتَطَوَّرَتْ فِكْرَتُهُمْ إِلَى الْبَابِيَّةِ

وَكَانَ الشَّيْخِيَّةَ يَعْتَقِدُونَ : • أَنَّ الْإِمَامَ الْمُهَدِّيَّ الْغَائِبَ مُنْذُ أَكْثَرِ مِنْ أَلْفِ عَامٍ يَعِيشُ فِي جِسْمِ هُورْقَلِيَايِ ، وَهُوَ جِسْمٌ لَطِيفٌ بَيْنَ الْمَادَّةِ وَالرُّوحِ ، كَأَبْرُزِخٍ أَوْ الْحَدِّ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ . وَعَالَمِ الْغَيْبِ الْوَاقِعِ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَفَوْقَ فَلَكَ أَطْلَسَ كَمَا يَقُولُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ الْإِحْسَائِي

وَقَدْ تَطَوَّرَتِ الْحَرَكَةُ (الْبَابِيَّة) بَعْدَ ذَلِكَ فَادَّعَى عَلَى مُحَمَّدٍ الشَّيْرَازِي : أَنَّهُ الْمُهَدِّيُّ الْمُنْتَظَرُ مُنْذُ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَذَلِكَ بِنَاءً عَلَى نَظَرِيَّةِ الشَّيْخِ الْإِحْسَائِي بِحَيَاةِ الْمُهَدِّيِّ فِي الْجِسْمِ الْهُورْقَلِيَايِ اللَّطِيفِ ، وَحُلُولِهِ

وَبِالرَّغْمِ مِمَّا يُقَالُ مِنْ وُجُودِ أَصَابِعِ أُجْنِبِيَّةٍ فِي تَأْلِيفِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْخَطِيرَةِ ، فَإِنَّ مِمَّا يَلَاحِظُ : تَعَامُلَهَا مَعَ الْهَمِّ الشَّيْعِيِّ الْكَبِيرِ فِي (عَصْرِ الْغَيْبَةِ) إِلَّا وَهُوَ مَوْضُوعُ الْقِيَادَةِ السِّيَاسِيَّةِ فِي ظِلِّ ائْتِظَارِ (الْإِمَامِ الْمُهَدِّيِّ) وَمُحَاوَلَةِ تَكْوِينِ بُدِيلٍ عَنْ حَالِهِ : (التَّقِيَّةُ وَالِائْتِظَارُ) بِاِحْتِاقِ اسْطُورَةِ (التِّيَابَةِ الْخَاصَّةِ) أَوْ ادِّعَاءِ الْمُهَدَوِيَّةِ ، مِنْ أَجْلِ ضَرْبِ الْخَطِّ الْمُنَافِسِ الَّذِي كَانَ يَتِمُّ فِي الْعُلَمَاءِ الْأُصُولِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِنَظَرِيَّةِ : (التِّيَابَةِ الْعَامَّةِ) عَنِ الْإِمَامِ الْمُهَدِّيِّ فِي (عَصْرِ الْغَيْبَةِ) وَالِائْتِظَافِ عَلَيْهِمْ

نَظَرِيَّةُ وِلَايَةِ الْفَقِيهِ

بَعْدَ تَطْوِيرِ الْمُحَقِّقِ الْكُرْكِيِّ لِنَظَرِيَّةِ (التِّيَابَةِ الْعَامَّةِ) إِلَى مَرِحَلَةٍ سِيَاسِيَّةٍ مُتَقَدِّمَةٍ ، وَإِعْطَائِهِ الشَّأْ طَهْمَاسِبِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ وَكَالَةَ لِلْحُكْمِ بِاسْمِ (نَائِبِ الْإِمَامِ : الْفَقِيهِ الْعَادِلِ) . اسْتَمَرَّتْ نَظَرِيَّةُ (تِيَابَةِ الْفَقَهَاءِ الْعَامَّةِ) فِي آدَاءِ دَوْرِهَا السِّيَاسِيِّ إِلَى جَانِبِ الْمُلُوكِ الصَّغَوِيِّينَ ، وَنَظَرِيَّتَهُمُ الْخَاصَّةِ (التِّيَابَةِ الْمَلِكِيَّةِ) بِصُورَةٍ عَامَّةٍ . . وَأَنَّ كَانَتْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ تَشْهَدُ تَرَاجَعًا لَدَى الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يُنْكَهِنُونَ إِلَى نَظَرِيَّةِ (التَّقِيَّةِ وَالِائْتِظَارِ) أَوْ الْمُلُوكِ الَّذِينَ يَتَمَرَّدُونَ عَلَى هَيْمَنَةِ الْعُلَمَاءِ . . وَانْتَقَلَتْ إِلَى الْعَهْدِ الْقَاجَارِيِّ

وَمَعَ أَنَّ انْهِيَارَ الدَّوْلَةِ الصَّفَوِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ الهِجْرِيَّ أَدَّى إِلَى اسْتِفْحَالِ الْمَدِّ الْإِخْبَارِيِّ ،
وَأَنْتِشَارِ الْقَوْلِ بِنَظَرِيَّةِ الْإِنْتِظَارِ وَحُرْمَةِ الْجِهَادِ وَالتَّقْلِيدِ وَإِقَامَةِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ، فَإِنَّ الْقَرْنَ الثَّلَاثَ

عَشَرَ الهِجْرِيَّ شَهِدَ انْتِعَاشَ الْمَدِّ الْأُصُولِيِّ وَقِيَامَ الْعُلَمَاءِ هُنَا وَهُنَاكَ بِتَطْبِيقِ الْحُدُودِ وَمُمَارَسَةِ الْقَضَاءِ
وَالْإِفْتَاءِ وَتَوَلَّى أُمُورَ الرِّعَايَةِ وَالتَّصَرُّفِ فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَجَانِينِ وَالسَّفَهَاءِ وَتَقْسِيمِ الْخُمْسِ وَالزُّكُوتِ
وَمُمَارَسَةِ مُهَمَّاتِ الْحُكُومَةِ الْأُخْرَى .

وَهَذَا مَا دَلَّ عَلَى تَطَوُّرِ نَظَرِيَّةِ (التِّيَابَةِ الْعَامَّةِ) مِنْ إِجَازَةِ الْمُلُوكِ إِلَى تَصَدَّى الْفُقَهَاءِ بِنَفْسِهِمْ لِلْحُكْمِ
وَتِيَاوُزِ نَظَرِيَّةِ (الْإِنْتِظَارِ) وَالتَّخَلِّيِ عَنْهَا تَمَامًا . . الْأَمْرُ الَّذِي دَفَعَ الشَّيْخَ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدٍ مَهْدِيَّ التَّرَاقِيَّ
(تُوفِّيَ 1245 هـ) إِلَى تَأْلِيفِ كِتَابِ: (عَوَائِدِ الْأَيَّامِ فِي بَيَانِ قَوَاعِدِ الْأَحْكَامِ) وَطَرَحِ النَّظَرِيَّةِ فِي إِطَارِ جَدِيدِ
وَشَامِلِ أَكْثَرَ تَطَوُّرًا ، تَحْتَ عِنْوَانِ: (وَلَايَةِ الْفَقِيهَةِ) وَلَيْسَ تَحْتَ الْعِنْوَانِ السَّابِقِ: (التِّيَابَةِ الْعَامَّةِ) الْقَائِمَةِ
عَلَى قَاعِدَةِ نَظَرِيَّةِ (الْعُنْبَةِ وَالْإِنْتِظَارِ) ، حَيْثُ نَظَرَ التَّرَاقِيَّ إِلَى وَاقِعِ قِيَامِ الْفُقَهَاءِ بِتَشْكِيلِ حُكُومَاتٍ لَا
مَرْكَزِيَّةَ فِي بِلَادِ شَيْعِيَّةٍ وَاسِعَةٍ مِمَّا يَنْفِي أَدْنَى مُبَرَّرٍ لِاسْتِمْرَارِ نَظَرِيَّةِ (التَّقِيَّةِ وَالْإِنْتِظَارِ) أَوْ الْقَوْلِ الْمَحْدُودِ
الْإِسْتِنَائِيِّ بِقِيَامِ الْفُقَهَاءِ بِتَعْطِيقِ بَعْضِ الْجَوَابِ الْجُزْئِيَّةِ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَبَحْثِ مُشْكَلَةِ الْإِمَامَةِ أَوْ السُّلْطَةِ وَ
الْوَلَايَةِ الْعَامَّةِ وَضُرُورَتِهَا فِي (عَضْرِ الْعُنْبَةِ) وَذَلِكَ عَلَى نَفْسِ الْأُسُسِ الْفُلْسُفِيَّةِ وَالْمَبَادِيِّ الَّتِي تُوجِبُ
(الْإِمَامَةَ) لِلتَّائِمَةِ الْمَعْصُومِينَ .

وَلَمْ يَتَوَقَّفِ التَّرَاقِيَّ وَهُوَ يُؤَسِّسُ لِشَرْعِيَّةِ (وَلَايَةِ الْفَقِيهِ الْكُبْرِيِّ) الَّتِي تُضَاهِي الْإِمَامَةَ الْعَامَّةَ الْكُبْرَى ، عِنْدَ
شُرُوطِ: (الْعِصْمَةِ وَالنَّصِّ وَالسَّلَالَةِ الْعُلُويَّةِ الْحُسَيْنِيَّةِ) الَّتِي أَدَّتْ بِالْأَجْيَالِ الشَّيْعِيَّةِ الْإِمَامِيَّةِ الْأُولَى ،
وَخَاصَّةً بَعْدَ الْحِيْرَةِ الَّتِي أَغْشَبَتْ وَفَاةَ الْإِمَامِ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ دُونَ وَلَدِ ظَاهِرٍ ، إِلَى الْقَوْلِ بِفَرْضِيَّةِ

وَجُودِ (الإمام مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ) ثُمَّ آدَتْ بِهِمْ إِلَى الْقَوْلِ بِنَظَرِيَّةِ (التَّقِيَّةِ وَالْإِنْتِظَارِ) الَّتِي كَانَتْ تَحْرُمُ الثَّوْرَةَ وَالْإِمَامَةَ وَالْجِهَادَ وَالْحُدُودَ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَصَلَاةَ الْجُمُعَةِ وَتَبِيحَ الْخَمْسِ وَالزَّكَاةِ وَالْأَنْفَالِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ فِي عَصْرِ الْغَيْبَةِ .

وَقَامَ التَّرَاقِي بِإِعْطَاءِ الْفُقَهَاءِ مَنْصِبِ (الإمامة الكبرى) وَمَسْئُولِيَّاتِهَا الْعَامَّةِ ، وَقَالَ بِصَرَاحَةٍ : • كَلَّمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالْإِمَامِ فِيهِ الْوِلَايَةُ ، وَكَانَ لَهُمْ ، فَلِلْفَقِيهِ أَيْضًا ذَلِكَ ، إِلَّا مَا أَخْرَجَهُ الدَّلِيلُ مِنْ إِجْمَاعٍ أَوْ نَصٍّ أَوْ غَيْرِهِمَا وَقَالَ : • إِنَّ كُلَّ فِعْلٍ مُتَعَلِّقٍ بِأُمُورِ الْعِبَادِ فِي دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ وَلَا بُدَّ مِنَ الْإِثْبَانِ بِهِ وَلَا مَفْرَ مِنْهُ ، أَمَا عَقْلًا أَوْ عَادَةً مِنْ جِهَةِ تَوْقُفِ أُمُورِ الْعِبَادِ وَالْمَعَاشِ لِوَاحِدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ عَلَيْهِ ، وَإِنَاطَةِ انْتِظَامِ أُمُورِ الدِّينِ أَوْ الدُّنْيَا بِهِ ، أَوْ شَرْعًا مِنْ جِهَةِ وُرُودِ أَمْرٍ بِهِ أَوْ إِجْمَاعٍ أَوْ نَفْيِ ضَرَرٍ أَوْ إِضْرَارٍ أَوْ عَسْرٍ أَوْ حَرْجٍ أَوْ فَسَادٍ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ دَلِيلٍ آخَرَ . أَوْ وُرُودِ الْإِذْنِ فِيهِ مِنَ الشَّارِعِ وَلَمْ يَجْعَلْ وَظِيْفَةً لِمُعَيَّنٍ وَاحِدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ وَلَا لِعَظِيمٍ مُعَيَّنٍ ، أَيْ وَاحِدًا لَا بَعِيْنَهُ ، بَلْ عَلِمَ لَا بَدِيَّةَ الْإِثْبَانِ بِهِ أَوْ الْإِذْنِ فِيهِ ، وَلَمْ يَعْلَمْ الْمَأْمُورُ وَلَا الْمَأْدُونُ فِيهِ . . فَهُوَ وَظِيْفَةُ الْفَقِيهِ وَلَهُ التَّصَرُّفُ فِيهِ وَالْإِثْبَانُ بِهِ .

اسْتَدَلَّ التَّرَاقِي عَلَى جَوَازِ الْوِلَايَةِ لِلْفُقَهَاءِ وَحَصَرَهَا فِيهِمْ بِالْإِخْبَارِ وَالْإِجْمَاعِ وَالضَّرُورَةِ وَالْعَقْلِ ، وَقَدَّمَ أَوَّلًا شَطْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ فِي حَقِّ الْعُلَمَاءِ مِنْ قَبِيلِ : (الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ) وَ (اللَّهُمَّ ارْحَمْ خُلَفَائِي . . .) الَّذِينَ يَأْتُونَ بَعْدِي وَيَرُوْنَ حَدِيثِي وَسُنَّتِي) وَحَدِيثُ الْفَضْلِ بْنِ شَاذَانَ عَنِ الْإِمَامِ الرِّضَا الَّذِي ذَكَرَهُ الصَّدُوقُ فِي (عِلَلِ الشَّرَائِعِ) حَوْلَ أَهْمِيَّةِ الْإِمَامَةِ (الرِّيَاسَةِ) وَضَّرُورَتِهَا ، وَإِنَّ الْإِمَامَ هُوَ الْقِيَمُ وَالْأَمِينُ وَالرَّئِيسُ وَوَلِيُّ الْأَمْرِ .

كَمَا ذَكَرَ الْأَحَادِيثُ الَّتِي تُؤَكِّدُ عَلَى عَدَمِ تَرْكِ اللَّهِ لِلْأَرْضِ خَالِيَةً إِلَّا وَفِيهَا عَالِمٌ يَعْرِفُ النَّاسَ حَلَالِهِمْ وَحَرَامِهِمْ وَلَمَّا يَلْتَبَسَ عَلَيْهِمْ أُمُورِهِمْ . وَنَفَى أَنْ يَكُونَ الْمُتَصَوِّدُ مِنْهَا (الْإِمَامُ الْمُهْدِيُّ) وَقَالَ: • إِنَّ الْحُجَّةَ وَالْعَالِمَ الْوَارِدَةَ فِي الرُّوَايَاتِ لَا يَحْمِلَانِ عَلَى الْإِمَامِ الْمُعْصُومِ الْغَائِبِ ، لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ النَّاسَ مَسَائِلَهُمْ وَلَا يَدْعُوهُمْ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يُبَيِّنُ لَهُمْ أُمُورَهُمْ .

تطوير نظرية الإمامة

لَقَدْ كَانَتْ نَظَرِيَّةُ الشَّيْخِ التَّرَاقِيِّ تَتَأَلَّفُ مِنْ قِسْمَيْنِ هُمَا: أَوَّلًا : ضَرُورَةُ الْإِمَامَةِ فِي عَصْرِ الْغَيْبَةِ ، وَثَانِيًا: حَضْرُ الْإِمَامَةِ فِي الْفُقَهَاءِ . . وَبَعْضُ النَّظَرِ عَنْ مُنَاقَشَةِ الْقِسْمِ الثَّانِي ، فَإِنَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ مِنْ نَظَرِيَّتِهِ يَرْفُضُ الْقَبُولَ بِنَظَرِيَّةِ (الْغَيْبَةِ) وَفَائِدَةَ الْإِمَامِ الْغَائِبِ كَأَمَامِ ، وَيُحْتَمِ اسْتِمْرَارُ الْإِمَامَةِ . . وَيُؤَكِّدُ الْحَاجَةَ الْمَلِحَةَ لَوْجُودِ الْإِمَامِ الْحُجَّةِ الْعَالِمِ الْمُعَلِّمِ الْهَادِي وَالذَّاعِي إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ بِصُورَةٍ ظَاهِرَةٍ حَيُّوِيَّةٍ مُتَقَاعِلَةٍ مَعَ الْأُمَّةِ .

وَلَمَّا كَانَتْ نَظَرِيَّةُ (الْإِمَامَةِ) أَوْ (وُجُودِ الْإِمَامِ الثَّانِي عَشَرَ الْغَائِبِ) تَعْجِزُ عَنْ تَلْبِيَةِ حَاجَةِ الْأُمَّةِ الْمُسْتَمِرَّةِ لِلْإِمَامِ فَإِنَّ التَّرَاقِيَّ يَخْلَى مُضْطَرًا عَنْ اشْتِرَاطِ الْعِصْمَةِ وَالتَّصِّ وَالسَّلَالَةِ الْعُلُويَّةِ فِي الْإِمَامِ ، وَيَأْتِي بِكُلِّ أَدَلَّةٍ ضَرُورَةَ الْإِمَامَةِ الَّتِي كَانَ يَسْتَحْدِمُهَا الْمُتَكَلِّمُونَ الْإِمَامِيُونَ الْأَوَائِلَ وَمِنْ ضَمْنِهَا حَدِيثُ الْفَضْلِ بْنِ شَادَانَ عَنْ الْإِمَامِ الرِّضَا ، الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنْ ضَرُورَةِ الْإِمَامَةِ وَالْعِصْمَةِ ، فَيَأْخُذُ التَّرَاقِيَّ الشُّطْرَ الْأَوَّلَ وَيُلْغِي (الْعِصْمَةَ) وَيُكْفِي بِشُرْطِ الْفَقَاهَةِ وَالْعَدَالَةِ .

وَيَعْتَمِدُ التَّرَاقِيَّ كَثِيرًا عَلَى الْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الْأُطْلَاقَاتِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَحْتَمُّ إِقَامَةَ الدَّوْلَةِ بِصُورَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ ، وَلَيْسَ بِالضَّرُورَةِ : بِالنَّبِيَّةِ الْعَامَّةِ عَنِ الْإِمَامِ الْمُهْدِيِّ . . إِذْ أَنْ قِيَامَ الْفُقَهَاءِ بِمَهَامِ الْإِمَامَةِ الْكُبْرَى - وَلَوْ بِالنَّبِيَّةِ -

يَتَنَاقَضُ مَعَ اشْتِرَاطِ الْعِزْمَةِ وَالنَّصِّ فِي الْإِمَامِ ، خَاصَّةً مَعَ انْتِفَاءِ ظُرُوفِ التَّقِيَّةِ وَالْخَوْفِ الَّتِي تُجَبِّرُ الْإِمَامَ عَلَى الْإِحْتِبَاءِ .

وَمِنْ هُنَا تُعْبَرُ نَظَرِيَّةُ التَّرَاقِي حَوْلَ (وَلَايَةِ الْفَقِيهِ) تَطَوُّرًا جِذْرِيًّا فِي الْفِكْرِ الشَّيْعِيِّ السِّيَاسِيِّ نَحْوَ التَّحَرُّرِ مِنْ نَظَرِيَّةِ (الْإِمَامَةِ الْإِلَهِيَّةِ) أَكْثَرَ مِنَ التَّحَرُّرِ مِنْ نَظَرِيَّةِ: (التَّقِيَّةُ وَالْإِنْتِظَارُ) . . وَإِذَا كَانَتْ نَظَرِيَّةُ: (وَلَايَةِ الْفَقِيهِ) قَدْ تَعَرَّضَتْ مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ إِلَى مُنَاقَشَاتٍ حَامِيَّةٍ مِنْ قِبَلِ عَدَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُحَقِّقِينَ ، فَإِنَّهَا نَبَّحَتْ فِي طَرِحِ مَوْضُوعِ (الْإِمَامَةِ) عَلَى بَسَاطِ الْبَحْثِ ، وَجَاءَ الْعُلَمَاءُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لِيُبْحَثُوا الْمَسْأَلَةَ فِي ضَوْءِ الْحَاجَةِ الْمَاسَّةِ وَالْمُسْتَمِرَّةِ إِلَى الْإِمَامَةِ وَالْفِيَادَةِ الْعَامَّةِ فِي (عَصْرِ غَيْبَةِ الْإِمَامِ الَّذِي لَا يَقُومُ بِمَهَامِ الْإِمَامَةِ) . وَمَعَ أَنَّ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ حَسَنَ التَّجْفِي (تُوفِيَ سَنَةَ 1266هـ) ، صَاحِبِ (جَوَاهِرِ الْكَلَامِ) لَمْ يَقُلْ بِنَظَرِيَّةِ (وَلَايَةِ الْفَقِيهِ) إِلَى حَدِّ تَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ وَتَجْهِيشِ الْيُحُوشِ ، إِلَّا أَنَّهُ اعْتَرَفَ بِحَاجَةِ الشَّيْعَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَى (وَلِيِّ الْأَمْرِ) وَقَالَ: • إِنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِمْ: (أَنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ عَلَيْكُمْ حَاكِمًا) وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَظْهَرُ مِنْهُ إِرَادَةُ نَظْمِ زَمَانِ الْغَيْبَةِ لِشَيْعَتِهِمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الرَّاجِعَةِ إِلَيْهِمْ ، وَلِذَا جَزَمَ فِيهَا سَمْعُهُ مِنْ (الْمُرَاسِمِ) بِتَقْوِيضِهِمْ (ع) لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَقَالَ بِصَرَاحَةٍ: • أَنَّ إِطْلَاقَ أُدْلَةٍ حُكُومَتُهُ خُصُوصًا رَوَايَةَ النَّصْبِ الَّتِي وَرَدَتْ عَنْ صَاحِبِ الْأَمْرِ يُصَيِّرُهُ (الْفَقِيَهُ) مِنْ أَوْلِي الْأَمْرِ الَّذِينَ أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْنَا طَاعَتَهُمْ

أَمَّا الْخُمَيْنِي فَقَدْ مَهَّدَ لِلْقَوْلِ بِنَظَرِيَّةِ: (وَلَايَةِ الْفَقِيهِ) بِضَرُورَةِ الْإِمَامَةِ فِي عَصْرِ الْغَيْبَةِ ، وَقَالَ: • إِنَّ مَا هُوَ دَلِيلُ الْإِمَامَةِ بَعِيْنَهُ دَلِيلٌ عَلَى لُزُومِ الْحُكُومَةِ بَعْدَ غَيْبَةِ وُلِيِّ الْأَمْرِ (ع) سَيِّمًا مَعَ هَذِهِ السَّنِينَ الْمُتَمَادِيَةِ ، وَعَلَمَّا تَطَوَّلَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - إِلَى الْآفِ السَّنِينَ ، وَالْعِلْمُ عِنْدَهُ تَعَالَى وَقَالَ: • آيَةُ حَاجَةٍ كَالْحَاجَةِ إِلَى

تَعِينِ مَنْ يُدَبِّرُ أَمْرَ الْأُمَّةِ وَيَحْفَظُ نِظَامَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ طِيلَةَ الزَّمَانِ وَمَدَى الدَّهْرِ فِي (عَصْرِ الْغَيْبَةِ) مَعَ بَقَاءِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ بَسْطُهَا إِلَّا بِيَدِ وَإِلَى الْمُسْلِمِينَ وَسَائِسِ الْأُمَّةِ وَالْعِبَادِ؟ وَاسْتَشْهَدِ بِقَوْلِ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ (ع) فِي خُطْبَتِهَا الْمَعْرُوفَةِ: (وَالطَّاعَةَ نِظَامًا لِلْمَلَّةِ وَالْإِمَامَةِ لِمَا مِنْ الْفُرْقَةِ) كَدَلِيلٍ عَلَى لُزُومِ بَقَاءِ الْوَلَايَةِ وَالرِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ، وَقَالَ: . . . أَمَا فِي زَمَانِ الْغَيْبَةِ فَالْوَلَايَةُ وَالْحُكُومَةُ ، وَإِنْ لَمْ تُجْعَلْ لِشَخْصٍ خَاصٍّ ، لَكِنْ يَجِبُ بِحَسَبِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ أَنْ تَبْقِيََا بِنَحْوِ آخَرَ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ عَدَمِ امْتِكَانِ إِهْمَالِ ذَلِكَ ، لِأَنَّهَا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ . . . وَالْعَلَّةُ مُتَحَقِّقَةٌ فِي زَمَنِ الْغَيْبَةِ ، وَمَطْلُوبِيَّةُ النِّظَامِ وَحِفْظِ الْإِسْلَامِ مَعْلُومَةٌ لَا يَنْبَغِي لِذِي مَسْكَةٍ (عَقْلٍ) أَنْكَارُهَا .

الْحَرَكَةُ الدِّيْمُوقْرَاطِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

بَيْنَمَا كَانَ الْفُقَهَاءُ الشَّيْعَةُ الْإِمَامِيَّةُ فِي النِّصْفِ الْأَخِيرِ مِنَ الْقُرْنِ الثَّانِي عَشَرَ الْهَجْرِيِّ يَتَنَاقَشُونَ حَوْلَ (وَلَايَةِ الْفَقِيهِ) وَحُدُودِهَا السِّيَاسِيَّةِ ، فَيُشَبِّهُهَا بَعْضُهُمْ كَالنِّزَاقِيِّ وَيُرْفُضُهَا بَعْضٌ آخَرَ كَالشَّيْخِ مُرْتَضَى الْأَنْصَارِيِّ ، كَانَ الْمُلُوكُ الْفَاجَرِيُّونَ يُعَزِّزُونَ مِنْ سُلْطَتِهِمْ فِي إِيرَانَ وَيُوسِعُونَ صِلَاحِيَّاتِهِمْ بِالْحُدُودِ ، إِلَى حَدِّ أَنْ الشَّاةِ نَاصِرِ الدِّينِ الَّذِي حَكَّمَ بِلَادِ فَارِسَ بِصُورَةٍ مُطْلَقَةٍ حَوْلَ الْخَمْسِينَ عَامًا ، مُنْذُ سَنَةِ 1264م / 1848م ، وَالَّذِي وَقَعَ اتِّفَاقِيَّةَ حَضْرٍ بِنَيْعٍ وَشَرَاءٍ التُّبُكِ مَعَ شَرِكَةِ بَرِيْطَانِيَّةِ ، لَمْ يَسْتَشِرْ أَحَدًا فِيهَا وَلَمْ يَأْخُذْ رَأْيَ الشَّعْبِ الْإِيرَانِيِّ وَلَا الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ كَانَ يَدَّعِي الْوَلَاءَ لَهُمْ حَسَبَ التَّقْلِيدِ (الصَّفَوِيِّ - الْكُرْكِيِّ) الْمُتَّبَعِ الَّذِي يُوجِبُ حُصُولَ الشَّاةِ عَلَى إِجَازَةٍ مِنْ (نَائِبِ الْإِمَامِ) حَتَّى يُصْبِحَ نِظَامُهُ شَرْعِيًّا . . . وَقَدْ صَرَبَ الشَّاةُ بَعْرُضِ الْحَائِطِ كُلِّ الْاِعْتِرَاضَاتِ وَالْمَطْلَبَاتِ الشَّعْبِيَّةِ بِالْغَاءِ الْاِتِّفَاقِيَّةِ الْاِسْتِعْمَارِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُؤَدِّي إِلَى هَيْمَنَةِ بَرِيْطَانِيَا عَلَى 20% مِنَ الْاِقْتِصَادِ الْإِيرَانِيِّ

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ الْعُلَمَاءُ قَدْ حَسَمُوا رَأْيَهُمْ فِي نَظَرِيَّةِ (وَلَايَةِ الْفَقِيهِ) فَأَيْهِمْ كَانُوا يَحْتَلُونَ مَوْقِعًا قِيَادِيًا رُوحِيًّا عَظِيمًا فِي أَوْسَاطِ الشَّعْبِ الْإِيرَانِيِّ وَالشَّيْعَةِ عُمُومًا حَسَبَ نَظَرِيَّةِ: (الْمَرْجِعِيَّةِ وَالتَّقْلِيدِ) حَيْثُ كَانَ الشَّيْعَةُ يُنْظَرُونَ إِلَى (الْمَرْجِعِ) : • نَائِبًا لِلْإِمَامِ الْمُهَدِيِّ وَيَحْتَرِمُونَ قِتَاوَاهِ وَأُؤْمِرُهُ وَتَعَالِيْمُهُ بِدَرَجَةِ فَائِقَةٍ .

وَلِذَا فَقَدْ لَجَأَ النَّاسُ إِلَى مَرْجِعِ ذَلِكَ الْعَصْرِ: (الْمَيْرَزَا مُحَمَّدُ حَسَنُ الشَّيرَازِيِّ) الَّذِي كَانَ يَقُضِنُ مَدِينَةَ سَامَرَاءَ فِي الْعِرَاقِ ، فَاقْتَى بِحُزْمَةِ التَّدخينِ وَاسْتِعْمَالَ التُّبَاكِ بَأْتِيَّةِ صُورَةٍ زِرَاعَةٍ وَشِرَاءِ وَبَيْعًا وَتَدخينًا وَقَالَ: • إِنَّ مَنْ يُخَافُ هَذَا الْحُكْمِ فَكَأَنَّمَا يُحَارِبُ الْإِمَامَ الْمُهَدِيَّ الْمُنْتَظَرُ وَذَلِكَ فِي سَنَةِ 1309 / 1891م .

وَكَانَ لِقُؤَاهِ هَذِهِ أَثْرٌ كَبِيرٌ جَدًّا فِي الشَّعْبِ الْإِيرَانِيِّ الَّذِي أَطَاعَهُ بِدَقَّةٍ تَامَّةٍ حَتَّى زَوْجَةِ الشَّاةِ وَالْعَامِلِينَ فِي الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ ، مِمَّا اضْطُرَّ الشَّاةُ نَاصِرُ الدِّينِ إِلَى الْخُضُوعِ وَالْغَاءِ امْتِيَاذِ الشَّرِكَةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ ، وَدَعْوَةِ الْعُلَمَاءِ إِلَى طَهْرَانَ وَالتَّعَهُدِ لَهُمْ بِالْإِسْتِشَارَةِ مَعَهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ .

وَعَلَى أَيِّ حَالٍ ، فَقَدْ فُتِحَتْ الْمُؤَاجَهَةُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَالشَّعْبِ الْإِيرَانِيِّ مِنْ جِهَةِ وَالْمَلِكِ الْقَائِمِ نَاصِرُ الدِّينِ شَاةَ (1848م - 1896م) مِنْ جِهَةِ أُخْرَى ، مَلَفَ شَرْعِيَّةِ الْمَلِكِيَّةِ الْمُسْتَبَدَّةِ فِي إِيرَانَ

وَقَدْ انْحَرَطَ عُلَمَاءٌ آخَرُونَ مِنْ الْمُشَارِكِينَ فِي حَرَكَةِ إِسْقَاطِ التُّبَاكِ ، فِي حَرَكَةٍ جَدِيدَةٍ مُوَاصِلَةٍ مِنْ أَجْلِ تَطْوِيرِ النِّظَامِ السِّيَاسِيِّ الْإِيرَانِيِّ وَإِصْلَاحِهِ وَبِنَاءِ الدِّيْمُوقْرَاطِيَّةِ وَتَحْدِيدِ صِلَاحِيَّاتِ الْمَلِكِ الْمُطْلَقَةِ بِمَجْلِسِ سُورِي (بُرُلْمَان) مُنْتَخَبِ مِنَ الشَّعْبِ ، وَطَالَبُوا أَنْ يَحْكُمَ الْمَلِكُ حُكْمًا دُسُورِيًّا (مَشْرُوطًا) بِالْبُرُلْمَانِ .

لَقَدْ كَانَتْ الصَّيغَةُ الْقَدِيمَةُ لِلنِّظَامِ السِّيَاسِيِّ الشَّيْعِيِّ تَقُومُ عَلَى الْإِعْتِرَافِ بِشَرْعِيَّةِ الْمُلُوكِ (الشَّيْعَةِ) الَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ أَسْبَابَ الْقُوَّةِ ، وَمَنْحَهُمْ (إِجَازَةً عَامَّةً) مِنْ قِبَلِ الْفُقَهَاءِ (تَوَابُ الْإِمَامِ الْمُهَدِيِّ) فِي مُقَابَلِ الْإِعْتِرَافِ

بِسَاطِهِ الْعُلَمَاءُ الدِّينِيَّةَ الْعُلِيَا . وَعِنْدَمَا خَرَقَ (نَاصِرُ الدِّينِ شَاةَ) أُصُولَ اللَّعْبَةِ ، وَجَدَ الْعُلَمَاءُ وَالْمُتَّقُونَ
الْفُرْصَةَ مَنَاسِبَةً لِوَضْعِ دُسْتُورٍ جَدِيدٍ يُعَزِّزُونَ فِيهِ مِنْ قَبْضِهِ الشَّعْبَ (عُلَمَاءُ وَمُتَّقُونَ) عَلَى حَرَكَةِ الْمُلُوكِ
، مِنْ دُونِ الْإِغَاءِ تَامٍ لِدُورِهِمْ فِي الْحَيَاةِ . . وَقَدْ شَكَلَ ذَلِكَ تَصَوُّرًا فِي الْفِكْرِ السِّيَاسِيِّ الشَّيْعِيِّ الَّذِي لَمْ
يَكُنْ قَدْ وَصَلَ - شَعْبِيًّا - بَعْدُ إِلَى مَرَحَلَةِ (وَلَايَةِ الْفَقِيهِ)

كَانَ الْفِكْرُ السِّيَاسِيُّ الشَّيْعِيُّ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ وَاقْتِعِيًّا وَمُتَطَلِّعًا نَحْوَ الْأَفْضَلِ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ مَسْأَلَةِ
السُّلْطَةِ ، فَبَعْدَ تَخْلِيهِ عَنِ نَظَرِيَّةِ (الْإِمَامَةِ الْإِلَهِيَّةِ) الْمِثَالِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ لَهَا وُجُودٌ فِي الْخَارِجِ ، وَرَفُضِهِ
لِوَلِيدَتِهَا وَلَازِمَتِهَا: نَظَرِيَّةُ (الْإِنْتِظَارِ لِلْإِمَامِ الْغَائِبِ) انْطَلَقَ الْفِكْرُ الشَّيْعِيُّ الَّذِي كَانَ قَدْ قَبِلَ بِمَبْدَأِ قِيَامِ الدَّوْلَةِ
فِي (عَصْرِ الْغَيْبَةِ) مُنْذُ الْعَهْدِ الصَّفَوِيِّ . . انْطَلَقَ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ لِيَطُورَ نَظَرِيَّةَ السُّلْطَةِ وَالدَّوْلَةِ وَيُشْرِكَ
الْعُلَمَاءَ وَتُوبَابَ الشَّعْبِ فِي إِدَارَةِ الْبِلَادِ .

وَفِيمَا كَانَتْ الْحَرَكَةُ الدِّيْمُوقْرَاطِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مُنْتَشِيَةً بِإِتْصَارِهَا بِإِعْلَانِ الدُّسْتُورِ وَإِجْرَاءِ الْإِنْتِخَابَاتِ ،
وَنَتَظَرِ افْتِتَاحَ الْمَجْلِسِ نُوفِيِّ الشَّاةِ مُظْفَرِ الدِّينِ ، فَخَلَفَهُ وَوَلَدَهُ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ ، الَّذِي اسْتَعْلَلَ الْحَرَكَةَ
الْمُضَادَّةَ .

لِلْإِصْلَاحِ الدُّسْتُورِيِّ ، الَّتِي كَانَتْ تَزْعُمُ : أَنَّ الْحُرِّيَّةَ صِدِّ الدِّينِ ، وَالَّتِي كَانَتْ يَقُودُهَا بَعْضُ عُلَمَاءِ الدِّينِ
الْآخَرِينَ ، كَالسَّيِّدِ كَاطِمِ الْبَزْدِيِّ ، فَالْغِي الدُّسْتُورِ وَعَطَّلَ الْمَجْلِسِ ، وَقَالَ: (إِنَّ افْتِتَاحَ الْمَجْلِسِ وَتَحْقِيرَ
الْإِسْلَامِ شَيْءٌ وَاحِدٌ) مِمَّا أَثَارَ غَضَبَ زَعِيمِ الْحَرَكَةِ الدِّيْمُوقْرَاطِيَّةِ آنَذَاكَ الشَّيْخِ كَاطِمِ الْآخُونَدِ
الْحِرَاسَانِيِّ (نُوفِيِّ سَنَةِ 1330 هـ / 1911م) الَّذِي كَانَ يَقْطُنُ فِي النَّجَفِ حَيْثُ مَقَرَّ الْحُوزَةُ الْعِلْمِيَّةُ
الشَّيْعِيَّةُ ، وَدَفَعَهُ إِلَى إِصْدَارِ بَيَانٍ شَدِيدٍ صِدِّ الشَّاةِ ، بِالنِّيَابَةِ عَنْ مُجْتَهِدِي النَّجَفِ وَعُلَمَائِهَا الْإِعْلَامِ ،

جاء فيه: • إناك أنت ومَعك المُجتهِدون المُرتزقة عندمَا تدعون مُخالفة (المشروطة) للشَّرع ، إمَّا تتجاهلون الحقيقتة الدينيَّة التي تقتضي بأن تكون العدالة واجبة حتَّى في الأمور الجُزئية ، ونحن بحسب اطلاعنا على البلاد التي تُطبَّق فيها الدساتير ، تعلم أنَّها تُدار وفق قوانين عادلة ، ونحن نقول بكلِّ صراحةٍ: ليس في المشروطة آية تَنطِقُ تحالف الدين الإسلامي ، بل إنَّها تتفق مع أحكام الدين وأوامر الأنبياء بخصوص العدالة ورفع الظلم عن الناس ، فاترك سَدَّ الشيطان ونشر بيانا آخر فيه الحرية للناس ، وإذا حصل تأخر منك عمَّا نطلب فإننا سوف نحضر جميعًا إلى إيران ونعلن الجهاد ضدك .

كما أصدر الشيخ كاخلم الخراساني الذي كان يُعبَّر (المرجع الأعلى) للشيعة في ذلك الوقت ، بيانًا إلى الشعب الإيراني حول تعطيل الحكومة للمجلس جاء فيه: • أن قوانين المجلس المذكور هي قوانين مقدَّسة ومُحرَّمة وإطاعتها فرض على جميع من في إيران ، وعليهم أن يقبلوا بها ويتفدوها ، وعليه نكرر قولنا: إنَّ الإقدام على مُقاومة المجلس التشريعي المذكور يكون بمثابة الإقدام على مُقاومة أحكام الدين الحنيف ، وإنَّ واجب المسلمين أن يتفوا حائلًا دون آية حركة ضد المجلس .

وقد فجر الأخوند الخراساني ثوره جديدة ضد الشاة محمد علي الذي رفض الانصياع للحركة الديموقراطية الإسلامية ، أدت في النهاية إلى خلعهِ عن العرش في جمادى الثانية من سنة 1327ع / 1909م . وإقامة مجلس الشورى في إيران .

الجمهورية الإسلامية وولاية الفقيه المطلقة

لَمْ تَضْمَدْ نَظْرِيَّةَ (الْحُكْمِ الْمَلِكِيِّ الدُّسُورِيِّ) الَّتِي أَقَامَهَا الْفُقَهَاءُ الشَّيْعَةُ فِي إِيرَانَ طَوِيلًا ، فَسُرْعَانَ مَا قَامَتْ الْحَرْبُ الْعَالَمِيَّةُ الْأُولَى وَاحْتَلَّتِ الْقُوَاتُ الرُّوسِيَّةُ أَجْزَاءً وَاسِعَةً مِنْ إِيرَانَ ، مُمَهِّدَةً الطَّرِيقَ أَمَامَ الشَّاهِ رِضَا بَهْلَوِي الَّذِي أَطَاحَ بِحُكْمِ الشَّاهِ الْقَاجَارِيِّ أَحْمَدَ ، وَنَصَبَ نَفْسَهُ مَلِكًا عَلَى إِيرَانَ دُونَ أَنْ يَأْخُذَ أَيَّ أُذُنٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ الْمُرَاجِعِ ، بَلْ قَادَ حَمْلَهُ شَعْوَاءَ ضِدَّ رِجَالِ الدِّينِ ، وَأَصْبَحَ هُوَ وَابْنُهُ مُحَمَّدٌ رِضَا بَهْلَوِي وَكِلَيْنِ عَنِ الْقُوَى الْغَرْبِيَّةِ ، وَهَذَا مَا دَفَعَ الْفُقَهَاءَ الْمُرَاجِعَ إِلَى مُقَاوَمَتِهِمَا بِشِدَّةٍ

وَفِي سَنَةِ 1963 قَادَ الْخَمِينِي انْتِقَاضَ ضِدَّ الشَّاهِ مُحَمَّدِ رِضَا بَهْلَوِي ، انْتَهَتْ بِتَسْفِيرِ الْإِمَامِ إِلَى الْعِرَاقِ . . وَهُنَاكَ رَاحَ الْخَمِينِي يُلْقِي دُرُوسَهُ عَلَى طَلَبَتِهِ وَيَطَوِّرُ نَظْرِيَّةَ سِيَاسِيَّةً جَدِيدَةً تَجْمَعُ بَيْنَ نَظْرِيَّةِ (النِّيَابَةِ الْعَامَّةِ لِلْفُقَهَاءِ عَنِ الْإِمَامِ الْمُهْدِيِّ الْغَائِبِ) وَنَظْرِيَّةِ (وَلَايَةِ الْفَقِيهِ) . وَقَدْ نَقَلَ الْفِكْرَ السِّيَاسِيَّ الشَّيْعِيَّ مِنْ مَرَحَلَةٍ أَجَازَهُ الْفُقَهَاءُ لِلْمُوكِّ لِلْحُكْمِ بِاسْمِهِمْ وَوَكَّالَةَ عَنْهُمْ إِلَى مَرَحَلَةٍ جَدِيدَةٍ هِيَ حُكْمُ الْفُقَهَاءِ الْمُبَاشِرِ وَمُمَارَسَةَ مُهَمَّاتِ الْإِمَامَةِ بِصُورَةٍ كَامِلَةٍ . وَمِنْ الْمَعْرُوفِ أَنَّ تِلْكَ الدُّرُوسَ الَّتِي أَلْقَاهَا الْخَمِينِي عَامَ 1969 شَكَّلَتْ الْقَاعِدَةَ الْفِكْرِيَّةَ الَّتِي قَامَتْ عَلَيْهَا الثَّوْرَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْعَارِمَةُ الَّتِي قَادَهَا الْإِمَامُ بَعْدَ ذَلِكَ بَعْشَرَ سِنِينَ وَانْتَهَتْ بِتَشْكِيلِ (الْجُمْهُورِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْإِيرَانِيَّةِ) . وَلِذَا فَمَنْ التَّمِيدُ جَدًّا أَنْ نَسْتَعْرِضَ بِإِيجَازٍ أَهَمَّ الْأَفْكَارِ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا حَتَّى نَلْمَسَ التَّطَوُّرَ الَّذِي حَدَثَ فِيهَا وَالَّذِي تَجَاوَزَ كُلَّ النِّظَرِيَّاتِ السِّيَاسِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ السَّابِقَةِ .

إِلْخَمِينِي يَنْقُدُ نَظْرِيَّةَ الْإِنْتِظَارِ

قَدْ رَفَضَ الْخَمِينِي فِي الْبُدَايَةِ نَظْرِيَّةَ (الْإِنْتِظَارِ لِلْإِمَامِ الْمُهْدِيِّ) الَّتِي كَانَتْ تُهَيِّئُ عَلَى الْفِكْرِ السِّيَاسِيَّ الشَّيْعِيَّ حَتَّى وَقْتٍ قَرِيبٍ ، رَفُضًا مُطْلَقًا ، وَأَسْقَطَ بِالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ الْأَحَادِيثَ الَّتِي كَانَتْ تُعْبَرُ • مُتَوَاتِرَةً

وَالَّتِي كَانَتْ تُوصِي بِذَلِكَ ، وَلَمْ يُعْبَأُ بِهَا ، وَكَتَبَ يَقُولُ : • بَدِيهِي . . . إِنَّ ضَرُورَةَ تَنْفِيذِ الْأَحْكَامِ لَمْ تَكُنْ خَاصَّةً بِعَصْرِ النَّبِيِّ (ص) بَلِ الضَّرُورَةُ مُسْتَمِرَّةٌ . . . وَاعْتِقَادُ: أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ جَاءَ لِفِتْرَةٍ مَحْدُودَةٍ أَوْ لِمَكَانٍ مَحْدُودٍ يُخَالِفُ ضَرُورِيَّاتِ الْعَقَائِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَبِمَا أَنَّ تَنْفِيذَ الْأَحْكَامِ بَعْدَ الرَّسُولِ (ص) وَإِلَى الْأَبَدِ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الْحَيَاةِ ، لِذَا كَانَ وُجُودُ حُكُومَةٍ فِيهَا مَرَايَا السُّلْطَةِ الْمُنْفَعَةَ الْمُدَبَّرَةَ ضَرُورِيًّا ، إِذْ لَوْلَا ذَلِكَ لِسَادِ الْهَرَجِ وَالْمَرْجِ . . . فَقَدْ ثَبَتَ بِضَرُورَةِ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ: أَنَّ مَا كَانَ ضَرُورِيًّا أَيَّامَ الرَّسُولِ (ص) وَفِي عَهْدِ الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (ع) مِنْ وُجُودِ الْحُكُومَةِ لَا يَزَالُ ضَرُورِيًّا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا .

وَلِتَوْضِيحِ ذَلِكَ مَازِلِ الْحَدِيثِ لِلْحَمِينِيِّ : اتَّوَجَّهَ إِلَيْكُمْ بِالسُّؤَالِ التَّالِي: قَدْ مَرَّ عَلَيَّ الْغَيْبَةِ الْكُبْرَى لِإِمَامِنَا الْمُهْدِيِّ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ عَامٍ ، وَقَدْ تَمَرُّ عَلَيْهِ الْوَفَّ السِّنِينَ قَبْلَ أَنْ تَقْتَضِيَ الْمَصْلَحَةَ قُدُومِ الْإِمَامِ الْمُنْتَظَرِ ، وَفِي طُولِ هَذِهِ الْمُدَّةِ الْمُدِيدَةِ هَلْ تَبَقِيَ أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ مُعْطَلَةً يَعْمَلُ النَّاسُ خِلَالَهَا مَا يَشَاءُونَ؟ . . . إِلَّا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ الْهَرَجُ وَالْمَرْجُ؟ وَهَلْ حَدَّدَ اللَّهُ عُمُرَ الشَّرِيعَةِ بِمَائَتِي عَامٍ؟ هَلْ يُنْبَغِي أَنْ يَخْسَرَ الْإِسْلَامُ مِنْ بَعْدِ الْغَيْبَةِ الصَّغْرَى كُلِّ شَيْءٍ؟

إِنَّ الذَّهَابَ إِلَى هَذَا الرَّأْيِ أَسْوَأُ فِي نَظْرِي مِنْ الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ مَنْسُوخٌ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ لَا يَجِبُ الدَّفَاعُ عَنْ تَغْوِيرِ الْإِسْلَامِ وَالْوَطَنِ ، أَوْ أَنَّهُ يَجُوزُ الْإِمْتِنَاعُ عَنْ دَفْعِ الزَّكَاةِ وَالْحُمْسِ وَغَيْرِهِمَا ، أَوْ يَقُولُ بِتَعْطِيلِ الْقَانُونِ الْجُزْأِيِّ فِي الْإِسْلَامِ وَتَجْمِيدِ الْأَخْذِ بِالْقِصَاصِ وَالذِّيَاتِ ، إِذْنِ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ يَتَّظَاهَرُ بِالرَّأْيِ الْقَائِلِ بِعَدَمِ ضَرُورَةِ تَشْكِيلِ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَهُوَ يُنْكَرُ ضَرُورَةَ تَنْفِيذِ الْإِسْلَامِ ، وَيَدْعُو إِلَى تَعْطِيلِ أَحْكَامِهِ وَتَجْمِيدِهَا ، وَهُوَ بِالتَّالِي يُنْكَرُ شُمُولَ وَحُلُودِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ الْحَنِيفِ . وَخَاطَبَ الْإِمَامَ الْخَمِينِي الْمَلْتَرِمِينَ بِنَظْرِيَّةِ (الْإِنْتِظَارِ) قَائِلًا : • لَا تَقُولُوا نَدَعِ إِقَامَةَ الْحُدُودِ

وَالدَّفَاعِ عَنِ الثُّغُورِ وَجَمَعَ حُقُوقَ الْفُقَرَاءِ حَتَّى ظَهَرَ الْحُجَّةُ (الْإِمَامُ الْمُهْدِيُّ) فَهَلَّا تَرَكَتُمُ الصَّلَاةَ بِأَنْتَظَارِ
الْحُجَّةِ؟! .

ضُرُورَةُ الْإِمَامَةِ فِي عَصْرِ الْغَيْبَةِ

وَقَالَ أَيْضًا: • أَنْ مَا هُوَ دَلِيلُ الْإِمَامَةِ بَعَيْنِهِ دَلِيلٌ عَلَى لُزُومِ الْحُكُومَةِ بَعْدَ غَيْبَةِ وُلِيِّ الْأَمْرِ (ع) سَيِّمًا مَعَ
هَذِهِ السَّنِينَ الْمَمَادِيهِ ، وَلَعَلَّهَا تَطُولُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - إِلَى الْآفِ السَّنِينَ ، وَالْعِلْمُ عِنْدَهُ تَعَالَى .

وَقَالَ : • وَمَا ذَكَرْنَاهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ وَاضِحَاتِ الْعُقُلِ . . . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ دَلَّ الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ أَيْضًا
عَلَيْهِ . . . وَآيَةٌ حَاجَةٌ كَالْحَاجَةِ إِلَى تَغْيِينِ مَنْ يُدَبِّرُ أَمْرَ الْأُمَّةِ وَيَحْفَظُ نِظَامَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ طِيلَةَ الزَّمَانِ
وَمَدَى الدَّهْرِ فِي (عَصْرِ الْغَيْبَةِ) مَعَ بَقَاءِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ بَسْطُهَا إِلَّا بِيَدِ وَإِلَى الْمُسْلِمِينَ
وَسَائِسِ الْأُمَّةِ وَالْعِبَادِ؟ .

وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ (ع) فِي حُطْبَتِهَا الْمَعْرُوفَةِ: (وَالطَّاعَةَ نِظَامًا لِلْمَلَّةِ وَالْإِمَامَةَ لِمَا مِنْ
الْفُرْقَةِ) كَدَلِيلٍ عَلَى لُزُومِ بَقَاءِ الْوَلَايَةِ وَالرِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ ، وَقَالَ : • أَمَّا فِي زَمَانِ الْغَيْبَةِ فَالْوَلَايَةُ وَالْحُكُومَةُ ،
وَإِنْ لَمْ تُجْعَلْ لِشَخْصٍ خَاصٍّ ، لَكِنْ يَجِبُ بِحَسَبِ الْعُقْلِ وَالنَّقْلِ أَنْ تَبْقِيََا بِنَجْوِ آخَرَ ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ عَدَمِ
إِمْكَانِ إِهْمَالِ ذَلِكَ ، لِأَنَّهَا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ . . . وَالْعِلَّةُ مُتَحَقِّقَةٌ فِي زَمَنِ الْغَيْبَةِ ،
وَمَطْلُوبِيَّةُ النِّظَامِ وَحِفْظِ الْإِسْلَامِ مَعْلُومَةٌ لَا يَنْبَغِي لِذِي مَسْكَةٍ (عُقْلٍ) أَنْكَارُهَا .

الْفُقَهَاءُ هُمُ الْوَلَاةُ

وَبَعْدَ إِثْبَاتِ الْخَمِينِيِّ لِلْحَاجَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ إِلَى الْإِمَامَةِ فِي (عَصْرِ الْغَيْبَةِ) وَعَدَمِ جَوَازِ تَجْمِيدِهَا أَنْتَظَارًا
لِلْإِمَامِ الْمُهْدِيِّ ، عَقْلًا وَنَفْلًا ، قَالَ: • إِذَا كُنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّ الْأَحْكَامَ الَّتِي تُحْضِرُ بِنَاءَ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَا

تُرَالُ مُسْتَمَرَّةٌ ، وَإِنَّ الشَّرِيعَةَ تَبْذُ الْفَوْضَى كَانَ لِزَامًا عَلَيْنَا تَشْكِيلَ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَأَنَّ الْعَقْلَ يَحْكُمُ
بِضَرُورَةِ ذَلِكَ . . . وَالْيَوْمَ فِي عَهْدِ (الْغَيْبَةِ) لَا يُوجَدُ نَصٌّ عَلَى شَخْصٍ مُعَيَّنٍ يُدِيرُ شُؤُونَ الدَّوْلَةِ ، فَمَا هُوَ
الرَّأْيُ؟ . . . هَلْ تَتْرَكَ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ مُعْطَلَةً؟ . . . أَمْ تَرْغَبُ بِانْفِسَانَا عَنِ الْإِسْلَامِ؟ أَمْ تَقُولُ: إِنَّ الْإِسْلَامَ جَاءَ
لِيَحْكُمَ النَّاسَ قَرْتَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ فَحَسَبَ لِيُهْمَلَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ؟ أَوْ تَقُولُ: إِنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَهْمَلَ تَنْظِيمَ الدَّوْلَةِ؟
وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ عَدَمَ وُجُودِ الْحُكُومَةِ يَعْنِي ضَيَاعَ ثَعُورِ الْمُسْلِمِينَ وَانْتِهَاكُهَا ، وَيَعْنِي تَخَلُّفَنَا عَنِ حَقِّقْنَا وَعَنْ
أَرْضِنَا . . .

وَبِالرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ نَصٍّ عَلَى شَخْصٍ مِنْ يَنْبُؤُ عَنِ الْإِمَامِ حَالِ غَيْبَتِهِ إِلَّا أَنَّ خَصَائِصَ الْحَاكِمِ
الشَّرْعِيِّ لَا يَزَالُ يُعْتَبَرُ تَوْفُرُهَا فِي أَيِّ شَخْصٍ مُؤَهَّلًا إِيَّاهُ لِيَحْكُمَ فِي النَّاسِ ، وَهَذِهِ الْخَصَائِصُ الَّتِي هِيَ
عِبَارَةٌ عَنِ الْعِلْمِ بِالْقَانُونِ وَالْعَدَالَةِ مُوجُودَةٌ فِي فَهَائِنَا فِي هَذَا الْعَصْرِ .

وَقَالَ: • بَعْدَمَا عِلِمَ بِالضَّرُورَةِ مِنْ أَنَّ فِي الْإِسْلَامِ تَشْكِيلَاتٌ وَحُكُومَةٌ بِجَمِيعِ شُؤُونِهَا لَمْ يَبْقَ شَكٌّ فِي أَنَّ
الْفَقِيهَ لَا يَكُونُ حِصْنًا لِلْإِسْلَامِ كَسُورِ الْبَلَدِ لَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِجَمِيعِ الشُّؤُونَ مِنْ بَسْطِ الْعَدَالَةِ وَإِجْرَاءِ
الْحُدُودِ وَسَدِّ الثُّغُورِ وَأَخْذِ الْخَرَاجَاتِ وَالْمَالِيَّاتِ وَصَرَفَهَا فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ وَنَصَبِ الْوَلَاةِ فِي
الْأَصْقَاعِ ، وَإِلَّا فَصَرَفُ الْأَحْكَامِ لَيْسَتْ بِإِسْلَامٍ . . . بَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الْحُكُومَةُ بِشُؤُونِهَا ،
وَالْأَحْكَامُ قَوَانِينِ الْإِسْلَامِ ، وَهِيَ شَأْنٌ مِنْ شُؤُونِهَا ، بَلْ الْأَحْكَامُ مَطْلُوبَةٌ بِالْعُرْضِ وَأُمُورٌ إِلَيْهِ لِإِجْرَائِهَا
وَبَسْطِ الْعَدَالَةِ ، فَكَوْنَ الْفَقِيهَ حِصْنًا لِلْإِسْلَامِ كَحِصْنِ سُورِ الْمَدِينَةِ (حَسْبَمَا يُشِيرُ حَدِيثُ نَبِيِّ إِلَى ذَلِكَ)
لَا مَعْنَى لَهَا إِلَّا كَوْنُهُ وَإِلِيَّاهُ مَا لِرَسُولِ اللَّهِ وَلِلْأُمَّةِ مِنَ الْوَلَايَةِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ . . . فَكَمَا لَا تَقُومُ
الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِالْجُنُودِ ، فَكَذَلِكَ لَا يَقُومُ الْإِسْلَامُ إِلَّا بِالْفُقَهَاءِ الَّذِينَ هُمْ حُصُونِ الْإِسْلَامِ وَقِيَامِ الْإِسْلَامِ هُوَ إِجْرَاءُ

جَمِيعِ أَحْكَامِهِ ، وَلَا يُمَكِّنُ إِلَّا بِالْوَالِي الَّذِي هُوَ حِضْنٌ . فَالْفُقَهَاءُ هُمْ أَمَنَاءُ الرَّسْلِ وَحُضُونِ الْإِسْلَامِ لِهَذِهِ
الْخُصُوصِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، وَهُوَ عِبَارَةٌ أُخْرَى عَنِ الْوَلَايَةِ الْمُطْلَقَةِ .

وَقَالَ: • فَعَلَيْهِ، يُرْجَعُ أَمْرُ الْوَلَايَةِ إِلَى الْفَقِيهِ الْعَادِلِ ، وَهُوَ الَّذِي يَصْلُحُ لَوَلَايَةِ الْمُسْلِمِينَ إِذْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ
الْوَالِي مُتَّصِفًا بِالْفَقْهِ وَالْعَدْلِ .

الْوَلَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ

وَكَانَ الْخَمِينِيُّ يُؤَمِّنُ تَبِيحَةَ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ أَنَّ وِلَايَةَ الْفَقِيهِ وِلَايَةٌ دِينِيَّةٌ إِلَهِيَّةٌ وَيَقُولُ: • إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الرَّسُولَ
(ص) وُلِيًّا لِلْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا ، وَمَنْ بَعْدَهُ كَانَ الْإِمَامَ وُلِيًّا ، وَنَفْسُ هَذِهِ الْوَلَايَةِ وَالْحَاكِمِيَّةُ مَوْجُودَةٌ لَدَى الْفَقِيهِ
، وَإِنَّ الْفُقَهَاءَ فِي الْوَلَايَةِ مُتَسَاوُونَ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَهْلِيَّةِ . . . وَيَنْبَغِي لِلْفُقَهَاءِ أَنْ يَعْمَلُوا فِرَادَى وَمُجْتَمَعِينَ مِنْ
أَجْلِ إِقَامَةِ حُكُومَةٍ شَرْعِيَّةٍ . . . وَفِي حَالَةٍ عَدَمِ إِمْكَانِ تَشْكِيلِ تِلْكَ الْحُكُومَةِ فَالْوَلَايَةُ لَا تَسْقُطُ لِأَنَّ
الْفُقَهَاءَ قَدْ وَلَّاهُمُ اللَّهُ . . . وَلَيْسَ الْعَجْزُ الْمُؤَقَّتِ عَنِ تَشْكِيلِ الْحُكُومَةِ الْقَوِيَّةِ الْمُتَكَامِلَةِ يُعْنِي بِأَيِّ وَجْهِ أَنْ
تَنْزَوِي ، بَلْ التَّصَدِّي وَاجِبٌ .

وَكَانَ يَحْضُرُ الْحَقَّ فِي إِقَامَةِ الدَّوْلَةِ فِي (عَصْرِ الْغَيْبَةِ) فِي الْفُقَهَاءِ فَقَطْ ، وَيَقُولُ: • الْفُقَهَاءُ الْعُدُولُ
وَخَدَهُمُ الْمُؤَهَّلُونَ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَإِقْرَارِ نَظْمِهِ وَإِقَامَةِ حُدُودِ اللَّهِ وَحِرَاسَةِ ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ
فُوضَ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ جَمِيعَ مَا فُوضَ إِلَيْهِمْ ائْتَمَنُوهُمْ عَلَى مَا أَوْتَمَنُوا عَلَيْهِ .

حُدُودُ وِلَايَةِ الْفَقِيهِ

وَبَعْدَ أَنْ ثَبَتَ الْخَمِينِيُّ الْوَلَايَةَ لِلْفَقِيهِ بِالنَّصْبِ وَالْجُعْلِ مِنَ الرَّسُولِ وَالْأُمَّةِ الْمُعْضُومِينَ ، انْتَقَلَ لِيَتَحَدَّثَ عَنِ
حُدُودِ تِلْكَ الْوَلَايَةِ فَقَالَ: • . . . عَلَيَّ ذَلِكَ يَكُونُ الْفَقِيهِ فِي عَصْرِ الْغَيْبَةِ وُلِيًّا لِلْأَمْرِ وَلِجَمِيعِ مَا كَانَ الْإِمَامُ

(ع) وَلِيًّا لَهُ . . . وَإِنَّ لَلْفَقِيهِ جَمِيعَ مَا لِلإِمَامِ (ع) إِلَّا إِذَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الثَّابِتَ لَهُ (ع) لَيْسَ مِنْ جِهَةٍ
 وَوَلَايَتِهِ وَسُلْطَنَتِهِ ، بَلْ لِحِجَاهَاتِ شَخْصِيَّةٍ تَشْرِيفًا لَهُ أَوْ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الشَّيْءَ الْفُلَانِيَّ وَإِنْ كَانَ مِنْ شُؤُونِ
 الْحُكُومَةِ وَالسُّلْطَنَةِ لَكِنْ يَخْتَصُّ بِالإِمَامِ (ع) وَلَا يَتَعَدَّى مِنْهُ كَمَا أُشْتَهَرَ ذَلِكَ فِي الْجِهَادِ غَيْرِ الدَّفَاعِ ، وَإِنْ
 كَانَ فِيهِ بَحْثٌ وَتَأَمُّلٌ .

وَقَالَ : • وَيُعْلَمُ : أَنَّ كُلَّ مَا وَرَدَ ثُبُوتَهُ لِلإِمَامِ أَوْ السُّلْطَانِ أَوْ وَالِيِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ وَالِيِ الأَمْرِ أَوْ لِلرَّسُولِ أَوْ
 النَّبِيِّ أَوْ مَا يُشَابِهُهَا مِنْ العَنَاوِينِ يُثَبَّتُ بِأدِلَّةِ الْوَلَايَةِ لَلْفَقِيهِ . . ثُمَّ إِنَّ الأُمُورَ الْحُسَيْنِيَّةَ - وَهِيَ الَّتِي عُلِمَ
 بَعْدَمِ رِضَا الشَّرْعِ الأَقْدَسِ بِإِهْمَالِهَا - إِنَّ عِلْمَ أَنَّ لَهَا مُتَصَدِّيًا خَاصًّا أَوْ عَامًّا فَلَا كَلَامَ ، وَإِنْ ثَبَتَ أَنَّهَا
 كَانَتْ مُنَوَّطَةً بِنَظَرِ الإِمَامِ (ع) فَهِيَ ثَابِتَةٌ لَلْفَقِيهِ بِأدِلَّةِ الْوَلَايَةِ . وَلَا يَخْفَى أَنَّ حِفْظَ النِّظَامِ وَسَدَّ ثَعُورِ
 الْمُسْلِمِينَ وَحِفْظَ شَبَانِهِمْ مِنَ الانْحِرَافِ عَنِ الإِسْلَامِ مِنْ أَوْضَحِ الْحُسَيْنِيَّاتِ .

الْجُمْهُورِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الإِخْمِينِيَّ نَجَحَ بَعْدَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ مِنْ تَطْوِيرِهِ لِنَظَرِيهِ : (وَلَايَةُ الْفَقِيهِ) بِمَا يُوهَلُهُ لِتَوَلِّيِ دُفَعِ
 الْحُكْمِ بِنَفْسِهِ ، أَيَّ فِي سَنَةِ 1979م مِنْ إِقَامَةِ الْجُمْهُورِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي إِيرَانَ ، عَلَى أُسَاسِ تِلْكَ
 النِّظَرِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْبِدَايَةِ يَمْتَلِكُ صُورَةَ دُسْتُورِيَّةٍ وَاضِحَةٍ وَمُفَضَّلَةٍ عَنِ الْحُكُومَةِ ، فَأُوكِلَ إِلَى مَجْلِسِ
 مِنَ الخُبَرَاءِ الْمُتَخَبِّينَ مِنَ الشَّعْبِ وَمِنْ بَيْنِ صُفُوفِ الثُّورَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنْ يُعَدَّ دُسْتُورًا لِلْبِلَادِ ، وَقَامَ ذَلِكَ
 الْمَجْلِسُ بَعْدَ دِرَاسَةٍ وَبَحْثٍ وَنِقَاشٍ لِمُدَّةِ أَشْهُرٍ ، بَوَضَعَ دُسْتُورَ جَدِيدٍ يُقَوِّمُ عَلَى نَظَرِيَّةِ : (وَلَايَةُ الْفَقِيهِ)
 وَيُشَابِهُ دُسْتُورَ 1906 ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَبْدِلُ وُجُودَ الْمَلِكِ بِرِئِيسِ الْجُمْهُورِيَّةِ يُنْتَخَبُ مِنَ الشَّعْبِ ، وَيُعْطَى ل :
 (الْمُرْجِعُ الأَعْلَى الْفَقِيهِ) مُنْصَبِ (الإِمَامِ : الْوَلِيِّ الْفَقِيهِ) كَأَعْلَى سَلْطَنَةِ دُسْتُورِيَّةِ فِي الْبِلَادِ ، وَيُحْتَمُ عَلَى

(رئيس الجمهورية) أن يأخذ ترقية وموافقة من الإمام ، وإلا فلن يصبح شرعياً ولن يستطيع ممارسة مهامته ، وكان الدستور يتضمن بالإضافة إلى ذلك وجود (مجلس شورى) منتخب من الشعب ، ورئيس لوزاره معين من قبل رئيس الجمهورية ومؤيد من قبل المجلس ، ومجلس مصغر آخر يتألف من اثني عشر عضواً من الفقهاء والقضاة يشرف على سير أعمال (مجلس الشورى) ويراقب تطابق القوانين مع الإسلام والدستور ، ويعرف بـ : (مجلس المحافظة على الدستور) . ولم يعط الدستور الإيراني الجمهوري الإسلامي الأول للإمام من الصلاحيات التنفيذية والتشريعية سوى الحق في تعيين قاضي القضاة ، وقيادة القوات المسلحة ،

وكانت الحكومة الإيرانية برئاسة رئيس جمهوريتها ورئيس وزرائها خارج إطار صلاحيات الإمام ، وكذلك العملية التشريعية في (مجلس الشورى) كانت بعيدة عنه

وكاد مجلس الخبراء التأسيسي الأول في إحدى مراحل النقاش والتصويت أن يسحب من (الإمام) منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة ويعطيها لرئيس الجمهورية

ولكن بالرغم من نجاح خط (ولاية الفقيه) في مجلس الخبراء ، في تعزيز صلاحيات (الإمام) إلا أنها ظلت محدودة في مجال السيادة والقيادة ، وبعيدة عن مجال التنفيذ والتشريع ، حسب الدستور

الولاية المطلقة

وبعد حوالي عشرة أعوام من تجربة الحكم في (الجمهورية الإسلامية في إيران) تفجرت أزمة تشريعية سياسية نظرية ، وذلك برفض (مجلس المحافظة على الدستور) التصويت على قانون العمل الذي أعده (مجلس الشورى) وعدله ثماني مرات خلال ثماني سنين ، بحجة مخالفته للإسلام ، مما اضطر

وزير العمل للاستتجاد بالإمام الخميني الذي كان يمثل أعلى سلطه في البلاد ، لكي يحسم المشكله ،
وأجاز الإمام للوزير تطبيق القانون الذي شرعه مجلس الشورى دون أن يأخذ الإجراءات الدستورية
النهائية بتصويت (مجلس المحافظة على الدستور) عليه

وقد استفاد وزير العمل من سماح الخميني له بتطبيق ذلك القانون بالمبادرة إلى توسيع صلاحياته
بتطبيق عدد من القوانين التي لم تنته إجراءاتها القانونية ، وهذا ما أثار حفيظة رئيس الجمهورية آنذاك
السيد علي إخواني ، الذي خطب في صلاة الجمعة في طهران بتاريخ 10 جمادى الأولى 1408
وأدان توسع وزير العمل بالاستفادة من إجازة الإمام الخميني له فامتعض الخميني من حديثه ووجه له
رسالة شديدة عبر فيها عن إيمانه بالولاية المطلقة للفقيه ، التي لا تحدها حدود ، وجاء فيها: - • كان
يبدو من حديثكم في صلاة الجمعة ويظهر أنكم لا تؤمنون أن الحكومة التي تعني الولاية المخولة من قبل
الله إلى النبي الأكرم (ص) مقدمة على جميع الأحكام الفرعية الإلهية . وإن استشهداكم بقولي : • إن
صلاحيته الحكومة في إطار الأحكام الإلهية يخالف بصورة كلية ما قلته . ولو كانت صلاحيات الحكومة
محصورة في إطار الأحكام الفرعية الإلهية لوجب أن تلغى أطروحة الحكومة الإلهية والولاية المطلقة
المفوضة إلى نبي الإسلام (ص) وإن أصبح دون معنى . لا بد أن أوضح : أن الحكومة شعبة من ولاية
رسول الله (ص) المطلقة ، وواحدة من الأحكام الأولية للإسلام ، ومقدمة على جميع الأحكام الفرعية
حتى الصلاة والصوم والحج . . . أن باستطاعة الحاكم أن يعطل المساجد عند الضرورة ، وإن يخرب
المسجد الذي يصبح كمسجد ضرار ولا يستطيع أن يعالجه بدون التخريب . وتستطيع الحكومة إن
تلغى من طرف واحد الاتفاقيات الشرعية التي تعقدها مع الشعب ، إذا رأتها مخالفة لمصالح البلد

وَالْإِسْلَامَ . وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَقِفَ إِمَامٌ أَيْ أَمْرَ عِبَادِي أَوْ غَيْرَ عِبَادِي إِذَا كَانَ مُضِرًّا بِمَصَالِحِ الْإِسْلَامِ ، مَا دَامَ كَذَلِكَ . إِنَّ الْحُكُومَةَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْنَعَ مُوقْتًا وَفِي ظُرُوفِ التَّنَاقُصِ مَعَ مَصَالِحِ الْبَلَدِ الْإِسْلَامِيِّ إِذَا رَأَتْ ذَلِكَ أَنَّ تَمْنَعَ مِنَ الْحَجِّ الَّذِي يُعَبِّرُ مِنَ الْفَرَائِضِ الْمُهَمَّةِ الْإِلَهِيَّةِ . وَمَا قِيلَ حَتَّى الْآنَ ، وَمَا قَدْ يُقَالُ نَاشِئًا مِنْ عَدَمِ مَعْرِفَةِ الْوَلَايَةِ الْمَطْلَقَةِ الْإِلَهِيَّةِ .

مَسِيرَةُ الْخَمِينِيِّ الْفِقْهِيَّةِ

قَدْ مَرَّ الْخَمِينِيُّ بِثَلَاثِ مَرَاهِلَ رَيْسِيَّةٍ فِي حَيَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ، وَتَمَثَّلَ هَذِهِ التَّحَوُّلَاتُ مُرْتَكِرَاتٍ نَفْهَمُ مِنْ خِلَالِهَا مَا لَاتَ نَظَرِيَّةُ الْفِقْهِ السِّيَاسِيِّ لَدَى التَّخَبُّبِ الْإِيرَانِيِّ الْمُعَاصِرَةِ .

فَفِي الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى، بَدَأَ كَهْفِيَّةً شَيْعِيَّةً تَقْلِيدِيَّةً مُؤْمِنَةً بِخَطِّ الْإِنْتِظَارِ، الْمُوَرَّثِ عَنِ الْحَوِزَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ، كَسَائِرِ الْفُقَهَاءِ التَّقْلِيدِيِّينَ، وَبَعْضُ الدَّلَالَاتِ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْفَتْرَةَ اسْتَمَرَّتْ حَتَّى السَّنِينَاتِ مِنَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ . فَحَسَبَ آيَةَ اللَّهِ حُسَيْنٍ مُنْتَظِرِي، فَإِنَّهُ طَرَحَ عَلَى الْخَمِينِيِّ فِي بَدَايَةِ السَّنِينَاتِ فِكْرَهُ الْخَطَّ الثَّلَاثِ بَيْنَ نَظَرِيَّةِ الشِّيْعَةِ فِي النَّصِّ وَنَظَرِيَّةِ السُّنَّةِ فِي الشُّورَى، وَذَلِكَ بِالْجَمْعِ بَيْنَ التَّظَرُّفِيَّةِ: الْإِتِّزَامِ بِالنَّصِّ فِي زَمَانِ وُجُودِ الْأُمَّةِ الْمَعْصُومِينَ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ وَالْعَمَلِ بِالشُّورَى فِي حَالِ عَدَمِ وُجُودِهِمْ، وَتِلْكَ نَظَرِيَّةٌ قَرِيبَةٌ مِمَّا طَرَحَهُ التَّائِيئِيُّ فِي «نَثْبِيهِ الْأُمَّةِ»، وَهِيَ مَا عَلَيْهِ الْمَرْجِعِيَّةُ التَّجْفِيَّةُ الْيَوْمَ .

لَكِنَّ الْخَمِينِيَّ رَفَضَ هَذَا الطَّرْحَ، وَأَصْرَعَ عَلَى «ضُرُورَةِ الْإِنْتِظَارِ» وَحُزْمَةِ إِقَامَةِ الدَّوْلَةِ فِي عَصْرِ الْغَيْبَةِ، أَوْ إِقَامَتِهَا عَلَى أَسَاسِ الشُّورَى، وَقَالَ لِمُنْتَظِرِي: «الْمَذْهَبُ الشَّيْعِيُّ يَرَى ضُرُورَةَ كَوْنِ الْإِمَامِ مَعْصُومًا وَمَنْصُوبًا مِنَ اللَّهِ . فَالْمَسْئُورِيَّةُ تَقَعُ عَلَى عَاتِقِ النَّاسِ فِي زَمَانِ الْغَيْبَةِ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا أَعْدَادُ الظُّرُوفِ الْمُنَاسِبَةِ لِظُهُورِ الْإِمَامِ الْغَائِبِ»، فَقَالَ لَهُ حُسَيْنٌ مُنْتَظِرِي: «هَلْ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ يَعْيشَ النَّاسُ فِي عَصْرِ

الغَيْبَةِ فِي هَرَجٍ وَمَرَجٍ؟»، قَالَ الْخَمِينِي: «لَقَدْ أْتَمَّ اللَّهُ التَّعْمَةَ، وَهَذِهِ مَسْئُورِيَّةُ النَّاسِ الَّذِينَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ تَوْفِيرُ الشُّرُوطِ الْمُنَاسِبَةِ لِظُهُورِ الْإِمَامِ صَاحِبِ الزَّمَانِ، إِذْ أَنَّ الْإِمَامَ حَسَبَ رَأْيِ الشَّيْعَةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا وَمَنْصُوبًا فَقَطُّ .

وَتَمَثَّلُ الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ؛ فِي اقْتِرَابِ الْخَمِينِي مِنْ فِكْرِهِ الدَّوَلَةُ الدُّسْتُورِيَّةَ الَّتِي نَظَرَ لَهَا الْمِيرْزَا النَّائِبِي، مُنَظَّرَ الثُّورَةَ الدُّسْتُورِيَّةَ، وَالَّتِي حَاوَلَ مُنْتَظِرِي أَنْ يُقْنِعَهُ بِهَا فِي الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى . يَقُولُ الْخَمِينِي مُنَظَّرًا لِتِلْكَ الْفِتْرَةِ فِي حَيَاتِهِ: «نَحْنُ لَا نَقُولُ بِوُجُوبِ أَنْ تَكُونَ السُّلْطَنَةُ وَالْحُكْمُ بِيَدِ الْفَقِيهِ، بَلْ لِنْ تَدَارِ الْحُكُومَةَ بِشَرِيْعَةِ اللَّهِ، الَّتِي فِيهَا صَلَاحُ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ، وَلَا يَتِمُّ هَذَا إِلَّا بِإِشْرَافِ رِجَالِ الدِّينِ، كَمَا حَصَلَ ذَلِكَ فِي حُكُومَةِ الْمَشْرُوطِ، عِنْدَمَا صُدِّقَتْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ وَهُوَ هُنَا يُصْرَحُ بِمَا حُكُومَةُ الْمَشْرُوطَةِ، الَّتِي ارْتَدَّتْ عَنْهَا وَهَاجَمَهَا فِي مَرَحَلَتِهِ الْأَخِيرَةِ . وَهُنَاكَ تَدَاخُلَ بَيْنَ الْمَرْحَلَتَيْنِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ، بِحَيْثُ لَا يُمَكِّنُ تَحْدِيدُ الزَّمَنِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا عَلَى وَجْهِ الدَّقَّةِ، وَأَسْبَابِ التَّحَوُّلِ .

وَالْمَرْحَلَةُ الثَّلَاثَةُ، هِيَ مَرَحَلَةُ إِمْلَاءِ كِتَابِهِ الْحُكُومَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ، وَتَأْسِيسَةَ لِنَظَرِيهِ وَوَلَايَةِ الْفَقِيهِ، إِلَّا أَنَّ النَّظَرِيَّةَ أَيْضًا فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ كَانَتْ امْتِدَادًا لِمَا طَرَحَهُ النَّزَاقِي، وَقَرِيبَهُ مِمَّا عَمِلَ عَلَيْهِ الْكُرْكِي، مَعَ بَعْضِ التَّعْدِيلَاتِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ نَظَرَ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ لِلْوَلَايَةِ الْعَامَّةِ مَعَ تَوْسِعٍ، لِكِنَّهُ لَمْ يُطْرَحِ الْوَلَايَةَ الْمَطْلُوقَةَ، الَّتِي أُطْلِقَهَا قَبْلَ وَقَاتِهِ بِشُهُورٍ قَلِيلَةٍ . رَغْمَ مَا تَوَاجَهَهُ أُطْرُوحَةُ الْخَمِينِي مِنْ اسْتِثْكَارٍ فِي الْأَوْسَاطِ الشَّيْعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ، إِلَّا أَنَّ الْوَلَايَيْنِ يُصْرُونَ عَلَى تَبْرِيرِهَا وَتَمْرِيرِهَا، فَرَجُلُ الدِّينِ الْإِيرَانِي أَحْمَدُ وَاعْظِي يُعْمَلُ عَلَى تَبْرِيرِهَا فِي كِتَابِهِ «الفكر السياسي الشيعي»، وَيَذْكُرُ دُونَ تَقْرِيرِ الْمَصْدَرِ أَنَّ الْخَمِينِي عَبَّرَ عَنْ وَجْهِهِ نَظَرَهُ هَذِهِ خِلَالَ مُحَاضَرَاتِهِ فِي الْعِرَاقِ (حَوْزَةِ التَّجْفِ)، قَبْلَ سَنَوَاتٍ مِنَ الثُّورَةِ فِي إِيرَانَ

بَيَدَ أَنَّ الشَّوَاهِدَ تُبَيِّنُ أَنَّ الْخَمِينِيَّ، وَبُصُورَةَ فُجَائِيَّةَ بَعْدَ أَعْوَامٍ مِنْ نَجَاحِ الثَّوْرَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَاجَأَ الْجَمِيعَ، بِتَقْرِيرِهِ لِنَظَرِيهِ وَوَلَايَةِ الْفَقِيهِ الْمُطْلَقَةِ، وَهَذِهِ هِيَ الْمَرْحَلَةُ النَّهَائِيَّةُ، الَّتِي تَدْمِجُ عَادَةً فِي الْمَرْحَلَةِ الثَّلَاثَةِ، لَكِنْ الْفَارِقُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَبِيرٌ .

وَيُجَدُّرُ التَّنْوِيهِ إِلَى أَنَّ الْخَمِينِيَّ عِنْدَمَا بَدَأَ حَمَلَتَهُ الْأَيْدِيُولُوجِيَّةَ لِتَأْسِيسِ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، كَانَ الْمُجْتَمَعُ الشَّيْعِيُّ الْفِقَاهِي فِي إِيرَانَ قَدْ تَمَّ تَسْيِيسُهُ بِالْفِعْلِ؛ مَا سَهَّلَ عَلَى الْخَمِينِيَّ زَرْعَ «أَفْكَارِهِ الْمُثَلِّيَّةِ»، الَّتِي أَطْرَتْ لَاحِقًا لِوَلَايَةِ الْفَقِيهِ الْمُطْلَقَةِ .

بِخِلَافِ مَا تَعَاهَدَ الثَّقَافَةُ السِّيَاسِيَّةُ الْغَرْبِيَّةُ، فَإِنَّ وِلَايَةَ الْفَقِيهِ الْمُطْلَقَةَ لَدَى الْخَمِينِيَّ لَا تَكْتَرِثُ بِالرَّأْيِ الْعَامِ وَلَا تَسْتَنْدُ إِلَيْهِ، كَمَا أَنَّهَا لَا تَعْتَدُ بِالْأَجْرَاءَاتِ الدِّيْمُوقْرَاطِيَّةِ وَلَا بِالسِّيَاسَاتِ الْإِتِّخَابِيَّةِ، وَإِنَّمَا تَرْتَكِزُ عَلَى مَبْدَأِ التَّفْوِيزِ الْإِلَهِيِّ لِلْفَقِيهِ، وَالْمُسْتَمَدِّ مُبَاشَرَةً مِنْ اللَّهِ

وَفِي الْمَرْحَلَةِ الْأَخِيرَةِ، لَمْ يَكُنْ الْخَمِينِيَّ يَطْرَحُ مُقَارِبَتَهُ الْجَدِيدَةَ بِخُصُوصِ نَظَرِيَّةِ وِلَايَةِ الْفَقِيهِ، بَلْ هَاجَمَ حُكُومَةَ الْمَشْرُوطَةِ، وَالذَّوْلَةَ الدُّسْتُورِيَّةَ الَّتِي أَتَى عَلَيْهَا فِي الْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَّةِ، فِيمَا نَعْتَبِرُهُ رَدَّهُ سِيَاسِيَّةً نَحْوِ الْمِنْطَقَةِ الْأَكْثَرُ رَادِيكَالِيَّةً وَالْأَكْثَرُ تَشَدُّدًا . فَنِي سَنَوَاتٍ مَا قَبْلَ ثَوْرَةِ 1979م، أُرْسِلَ الشَّاعِرُ كَرِيمُ سَنْجَابِي لِيَتَفَاوَضَ مَعَ الْخَمِينِيَّ فِي بَارِيْسِ، لَكِنْ الْخَمِينِيَّ رَفُضَ الْإِعْتِرَافَ بِدُسْتُورِ 1906م، وَرَفُضَ مِيثَاقَ تَشَارِكِ بَيْنَ مُخْتَلَفِ الْقُوَى الْعِلْمَانِيَّةِ وَالدِّيْنِيَّةِ وَهَاجَمَ الْخَمِينِيَّ دُسْتُورَ 1906م، فَقَالَ: «مَا عِلَاقَةُ بِنُودِ الدُّسْتُورِ جَمِيعًا بِالْإِسْلَامِ؟ ثَمَّةَ فَرْقٌ جَوْهَرِيٌّ بَيْنَ الْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ جِهَةِ وَالْمَلِكِيَّةِ الدُّسْتُورِيَّةِ أَوْ الْجُمْهُورِيَّةِ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى: فَنِي حِينِ يَمْلِكُ مُمَثِّلُو الشَّعْبِ أَوْ الْمَلِكِ فِي الْأَنْظِمَةِ الْأَخِيرَةِ السُّلْطَةَ التَّشْرِيْعِيَّةَ الْكَامِلَةَ،

تَكُونُ السُّلْطَةُ الشَّرْعِيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ وَسَطَهُ الشَّرْعُ لِلَّهِ الْخَالِقِ الْقَادِرِ حَصْرًا . وَلَيْسَ لِأَحَدٍ حَقٌّ فِي الشَّرْعِ ، وَلَا يَجُوزُ تَنْفِيذُ أَيِّ قَانُونٍ يَصْدُرُ عَنْ غَيْرِ الْمَشْرِعِ الْإِلَهِيِّ

عَلَى كُلِّ ، فَإِنَّ كُلَّ طَرِحٍ مِنْ تِلْكَ الْمُقَارَبَاتِ الْخَمِينِيَّةِ ، جَاءَ تَبِيحَةً سِيَّاقَاتٍ مُعَيَّنَةً ، وَلَوْ أَنَّ الْخَمِينِيَّ عَاشَ أَكْثَرَ رَبَّمَا لَأَسْتَمَرَ فِي تَحْوَلَاتِهِ لِيُؤَسِّسَ نَظْرِيَّةً أُخْرَى ، وَمَنْ تَمَّ فَالْمُنْطِقِيَّ إِلَّا يَتَعَامَلُ مَعَ طَرِحِهِ الْأَخِيرِ كَعَقِيدَةٍ أَوْ ثَابِتٍ غَيْرِ قَابِلٍ لِلتَّبَدُّلِ ، عَلَى نَحْوِ مَا يُفَعَلُ الْوَلَايِيُّونَ الْيَوْمَ ، الَّذِينَ يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهِ عَقْلِيًّا وَفُلْسُفِيًّا لِقُصُورِ الْأَدِلَّةِ الرَّوَايِيَّةِ عَنِ التَّدْلِيلِ عَلَيْهَا ، حَسَبَ مُدْعَاهُمْ . .

عُودِ عَلَى بَدْءِ

لَقَدْ تَحَدَّثْنَا طَوِيلًا فِي سَرْدِ تَارِيخِيَّ عَنْ مَرَاكِحِ تَأْسِيسِ الْفِكْرِ الشَّيْعِيِّ السِّيَاسِيِّ مُنْذُ مَقْتَلِ الْإِمَامِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَإِلَى يَوْمِنَا هَذَا وَكَيْفَ تَطَوَّرَ هَذَا الْفِكْرُ لِيُنْتَهِيَ إِلَى نَظْرِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ تُقُومُ عَلَى الْحُكْمِ الْمَطْلُوقِ لِرِجَالِ الدِّينِ بِدَرَاعِ وَقَتَاوَى فَفَهِيَّةٍ دِينِيَّةٍ لَا تُمِثُّ لِلشَّرْعِ السَّلَامِيِّ وَلَا لِلدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ .

وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ نَظْرِيَّةَ الْإِمَامَةِ وَالْوَلَايَةِ الَّتِي أَوْجَدَهَا الْعَقْلُ الشَّيْعِيُّ الْعَرَبِيُّ لِتَكُونَ فِي مُوَاجَهَةِ نَظْرِيَّةِ الشُّورَى وَالْخِلَافَةِ عِنْدَ السُّنَّةِ إِلَّا أَنَّ الْفِكْرَ الْمَجُوسِيَّ الْفَارِسِيِّ الْمَعَادِي لِلْعَرَبِ قَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَحْوِذَ عَلَى كُلِّ الْأَفْكَارِ الْأَوَّلِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُقُومُ عَلَيْهَا النَّظْرِيَّةُ السَّيْعِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَوِّلَهَا إِلَى نَظْرِيَّةٍ فَارِسِيَّةٍ مَطْعَمِهِ بِالْإِسْلَامِ مُمَهَّدًا لِلتَّحْكِيمِ فِي الشُّعُوبِ الْإِيرَانِيَّةِ أَوَّلًا وَمَنْ تَمَّ التَّحْكِيمُ بِالرَّايَةِ الشَّيْعِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ وَيَقُودُ شَيْعَةَ الْعَالَمِ وَمَنْ ضَمَّنَهُمُ الشَّيْعَةُ الْعَرَبُ الْمُنتَشِرِينَ فِي عِدَّةِ بِلَادٍ عَرَبِيَّةٍ وَمِنْ أَهْمَهَا الْعِرَاقَ وَالسُّعُودِيَّةَ وَالْبَحْرَيْنَ وَبُنْيَانَ وَالْيَمَنَ وَسُورِيَا وَسُنْتَرَكَ الْحَدِيثَ لِوَضْعِ الشَّيْعَةِ الْعَرَبِ إِلَى الْفِقْرَةِ التَّالِيَةِ .

أَزْمَةٌ وَازْدِوَاغِيَّةُ الْعَقْلِ الشَّيْعِيِّ الْعَرَبِيِّ الْيَوْمَ

العِرَاقُ مِثَالًا

أَحَدُ الْفُقَهَاءِ الْعِرَاقِيِّينَ كَشَفَ عَنِ التَّلَاعِبِ بِعَالِمِ الدِّينِ فِي لَعِبِهِ الْإِسْتِرَاطِيَّاتِ الْكُبْرَى، فَقَدْ حَقَّقَ هَذَا الْفَقِيهَ كِتَابًا بِعَنْوَانِ "الِاسْتِبْصَارِ فِي مَنَعِ الْإِسْتِعَانَةِ بِالْكَفَّارِ" وَهُوَ كِتَابٌ مِنْ تَأْلِيفِ أَحَدِ فُقَهَاءِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، كَتَبَهُ مَطْلَعُ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ يُحْذِرُ فِيهِ الْعُثْمَانِيِّينَ مِنْ الْإِعْتِمَادِ عَلَى الْقُوَى الْأُورُوبِيَّةِ فِي تَحْدِيثِ دَوْلَتِهِمْ، لِمَا لَتِلْكَ الْقُوَى مِنْ أَطْمَاعٍ فِي أَرْضِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَثُرَوَاتِهَا.

وَحَقَّقَ الْفَقِيهَ الْعِرَاقِيَّ الْكِتَابَ، لَمَّا كَانَ مُدْرَسًا فِي إِحْدَى الْجَامِعَاتِ السُّعُودِيَّةِ بِنَهَايَةِ السَّبْعِينِيَّاتِ، فَاسْتَحْسَنْتِ الْهَيْئَاتُ الدِّيْنِيَّةُ السُّعُودِيَّةُ الْكِتَابَ، وَأَمَرَتْ بِطَبْعِهِ وَتَوَزِيْعِهِ لِذُرَى الْمَوَاطِنِ (وَلَيْسَ السَّلَاطِينُ) عَنْ اسْتِجْلَابِ الْخَدَمِ مِنَ الْفِلْبِينَ وَغَيْرِهَا مِنْ دَوْلِ اسِيَا غَيْرِ الْمُسْلِمَةِ.

لَمَّا نَشَبَتْ الْحَرْبُ الْعِرَاقِيَّةُ الْإِيرَانِيَّةُ وَتُكشِفُ أَنَّ صِدَامَ حُسَيْنٍ مُدَّعِمٌ مِنْ طَرَفِ الْقُوَى الْغُرَبِيَّةِ طُبِعَتْ إِيْرَانُ طَبْعَهُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَوَزَعَتْهَا وَاسْتَحْدَمَتْهَا ضِدَّ صِدَامَ، فَلَمَّا غَزَا الْعِرَاقَ الْكُوَيْتَ وَتَمَّ اسْتِجْلَابُ الْقُوَى الْأَمِيرِكِيَّةِ لِتَدْمِيرِهِ طَبَعَ صِدَامُ طَبْعَهُ جَدِيدَةً مِنَ الْكِتَابِ وَاسْتَحْدَمَهُ ضِدَّ السُّعُودِيَّةِ وَالْكُوَيْتِ. كُلُّ هَذَا دُونَ إِذْنِ مَنْ مُحَقِّقِ الْكِتَابِ، بَلْ كُلُّ هَذَا وَالْكِتَابُ هُوَ الْكِتَابُ، لَكِنْ جِهَاتٌ عِدَّةٌ اسْتَحْدَمَتْهُ فِي أَوْقَاتِ مُبَايَنَةِ لَأَغْرَاضِ مُبَايَنَةٍ.

فَقَصَّه كِتَابُ "الِاسْتِبْصَارِ" تَبَيَّنَ أَنَّ وَظِيْفَةَ الْفِكْرَةِ تَكُونُ أَحْيَانًا أَهْمًا مِنْ قُوَّتِهَا الْمُنْطِقِيَّةِ وَقِيَمَتِهَا الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَإِنَّ الَّذِينَ قَرَّرُوا اسْتِخْدَامَ الدِّينِ بَدَلًا مِنْ خِدْمَتِهِ قَدْ يَذْهَبُونَ فِي ذَلِكَ كُلِّ مَذْهَبٍ مِنَ الْجِرَابِيَّةِ وَالِانْتِهَازِيَّةِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ غَزْوَ صِدَامٍ لِإِيرَانَ كَانَ كَارِثَةً مُحَقَّقَةً، لَكِنَّ عُمُقَ الْكَارِثَةِ بِالنِّسْبَةِ لِلإِيرَانِيِّينَ لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدُ الْقَتْلِ وَالتَّدْمِيرِ، بَلْ كَانَ فِي تَجْرِيدِهِمْ مِنْ صِفَةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي عَادُوا الْعَالِمَ وَعَادَاهُمْ الْعَالَمَ مِنْ أَجْلِهَا .

وَكَانَ غَزْوُ الْكُوَيْتِ مَصْلَحَةً كُبْرَى لِإِيرَانَ، لِأَنَّهُ جَعَلَ صِدَامَ عَدُوًّا لِأَمِيرِكَا، وَبِالتَّالِيِ مِنْحَ الإِيرَانِيِّينَ - وَالشَّيْعَةِ عُمُومًا - شَهَادَةَ رُجُوعٍ إِلَى دَائِرَةِ الْإِسْلَامِ لَدَى صَانِعِي لُغْبَةِ الْأُمَّمِ، وَلَدِي مُنْفَيْذَهَا مِنْ الْخَدَمِ وَالْحَشَمِ .

لِأَنَّ الطَّائِفِيَّةَ فِكْرَ جَدَلٍ لَا عَمَلَ، فَقَدْ ضَيَّعَ أَصْحَابُهَا الْوُحْيِيَّ خِدْمَةَ لِلتَّارِيخِ، وَأَهْدُرُوا قُدْسِيَّةَ الْمَبَادِي حِرْصًا عَلَى مَكَانِهِ الْأَشْخَاصِ . وَتَلَاعَبُوا بِالْأَفْكَارِ الَّتِي يُشْعَلُونَ بِهَا الْحُرُوبَ .

وَلِأَنَّ الْفِكْرَ الطَّائِفِيَّ فِكْرَ جَدَلٍ لَا عَمَلَ، فَقَدْ ضَيَّعَ أَصْحَابُهُ الْوُحْيِيَّ خِدْمَةَ لِلتَّارِيخِ، وَأَهْدُرُوا قُدْسِيَّةَ الْمَبَادِي حِرْصًا عَلَى مَكَانِهِ الْأَشْخَاصِ . وَلِأَنَّ اللَّغْبَةَ الطَّائِفِيَّةَ اسْتِخْدَامَ لِفِكْرَةٍ لَا خِدْمَةَ لَهَا، فَلَيْسَ مِنَ الْإِزْمِ أَنْ يَلْتَزِمَ لِعَبُوبِهَا بِالْأَفْكَارِ الَّتِي يُشْعَلُونَ الْحُرُوبَ مِنْ أَجْلِهَا .

لِذَا فَلَا عَجَبَ أَنْ نَجِدَ مَلِكِيَّيْنَ يَصُدُّرُونَ الْآفَ الْكُتُبِ دِفَاعًا عَنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، رَغْمَ أَنَّ الْخِلَافَةَ الرَّاشِدَةَ هِيَ التَّقْيِضُ الشَّرْعِيُّ وَالْمُنْطِقِيُّ لِلْمَلِكِ . أَوْ إِنْ نَرَى جُمْهُورِيَّيْنَ يَصُدُّرُونَ الْآفَ الْكُتُبِ دِفَاعًا عَنِ حَقِّ الْبَيْتِ فِي تَوَارِثِ السُّلْطَةِ، رَغْمَ أَنَّ تَوَارِثَ السُّلْطَةِ هُوَ التَّقْيِضُ الشَّرْعِيُّ وَالْمُنْطِقِيُّ لِقِيَمِ الْجُمْهُورِيَّةِ وَسُلْطَةِ الْإِتِّخَابِ .

وَمِنْ مَظَاهِرِ تَنَاقُضَاتِ الْفِكْرِ الطَّائِفِيَّ كَذَلِكَ تَضْحِيمِ الْخِلَافِ مَعَ أَبْنَاءِ الْمِلَّةِ الْوَاحِدَةِ، وَتَضْحِيمِهِ مَعَ غَيْرِهِمْ، وَإِلَيْكَ هَذَا الْمِثَالُ: وَرَدَ فِي فَتَاوَى الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ بَازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الزَّوْجِ بَيْنَ

السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ، فَأَجَابَ: "لَا يُنْبَغِي"، وَوَرَدَ فِي قَوَاوِي آيَةِ اللَّهِ عَلَى السُّيُسْتَانِي أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ زَوْاجِ الشَّيْعِيَّةِ مِنْ سِنِّي فَأَجَابَ: "لَا يَجُوزُ أَنْ لَمْ يُؤْمِنِ الضَّلَالُ"!! مَعَ أَنَّ كُلَّ الْفَقِيهَيْنِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَدِّمَ لَكَ عَشْرَاتِ الْمُحَاضِرَاتِ عَنْ سَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي جُعِلَتْ مِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِ الزَّوَّاجِ مِنْ يَهُودِيَّةٍ أَوْ مِنْ مَسِيحِيَّةٍ!! وَلَيْسَ مِنْ رَيْبٍ فِي سَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ وَتَسَامُحِهِ وَعَدْلِهِ الَّذِي يَشْمَلُ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرَ الْمُسْلِمِينَ، لَكِنَّ الْفِكْرَ الطَّائِفِيَّ يَحْرُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ تِلْكَ السَّمَاحَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

لَسْتُ أَنْكُرُ وُجُودَ خِلَافَاتٍ مُضَوِّعِيَّةٍ ضَارِبَةٍ فِي أَعْمَاقِ التَّارِيخِ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ، لَكِنَّ وُجُودَ الْخِلَافِ لَا يَقْتَضِي السَّمَّاحَ لِلْآخِرِينَ بِاسْتِغْلَالِهِ، وَتَضَخِيمَةِ عُنْ حَدِّهِ، وَعَدَمِ السَّعْيِ إِلَى اخْتِوَانِهِ، أَوْ تَأْجِيلِهِ - عَلَى الْأَقَلِّ - فِي ظُرُوفِ الطَّوَارِيءِ. . فَتِلْكَ جَرِيمَةٌ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ، اِزْتِكَبَهَا كَثِيرُونَ بِحُسْنِ نِيَّةٍ وَبِسُوءِ نِيَّةٍ فِي الْعُقُودِ الثَّلَاثَةِ الْمَاضِيَةِ.

ثُمَّ أَلَيْسَتْ أَقْوَى دَوْلِ الْعَالَمِ الْيَوْمِ خَلِيطًا مِنْ شَتَّى الدِّيَانَاتِ وَالثَّقَافَاتِ وَالْمَلَلِ وَالتَّحَلِّ؟ فَلَمْ يَسِيطِرُوا عَلَى خِلَافَاتِهِمْ وَتَسِيطِرْ عَلَيْنَا خِلَافَاتِنَا؟

لَقَدْ بَدَّلَ الْكِبَارَ طَرِيقَهُمْ فِي اسْتِغْلَالِ الْخِلَافَاتِ الطَّائِفِيَّةِ بَيْنَ شُعُوبِنَا، فَهَا هُمْ السَّلْفِيُّونَ يَتَجَرَّعُونَ الْيَوْمَ الْكَأْسَ نَفْسَهَا الَّتِي سَقِيَتْ لِلشَّيْعَةِ مِنْ قَبْلِ، وَهَا هِيَ "الْوَهَابِيَّةُ" الْيَوْمَ هِيَ الْخَطَرُ، وَهِيَ الْإِنْحِرَافُ الْحَقِيقِيُّ عَنِ مَنَهْجِ الْإِسْلَامِ الْأَصِيلِ، كَمَا أَرَادَهُ قَادَةُ النِّظَامِ الْعَالَمِيِّ الْجَدِيدِ.

وَبَعْدَ أَنْ كَانَ الشَّيْعَةُ أَمَّا خَارِجِينَ مِنَ الْمِلَّةِ أَوْ مُتَطَرِّقِينَ طَبَقًا لِقَوَاوِي "السِّيِّ أَيُّ آيَةٍ"، أَصْبَحَ الشَّيْعَةُ الْيَوْمَ مُسْلِمِينَ مُعْتَدِلِينَ وَمَتَسَاحِينَ، يَمْنَحُهُمْ بَوْلٌ وَوَفْوَيْتِزْ شَهَادَةُ التَّشْبِثِ بِالْإِسْلَامِ وَالذَّوْدُ عَنْ حِيَاضِهِ، كَاشِفًا عَنْ مَكْرٍ الْاسْتِعْمَارِ فِي كُلِّ عَصْرِ وَشِعَارِهِ الْقَدِيمِ الْمُتَجَدِّدِ: "فَرْقٌ تَسُدُّ".

أَنَّ الْعِرَاقَ الْيَوْمَ عَلَى مُفْتَرِقِ طُرُقٍ: فَمَا أَنْ يُدْرِكَ أُنْبَاؤُهُ أَنْ مَا يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ مِنْ مَعَانِي الْوَحْيِ وَرَوَابِطِ
الْأَرْحَامِ وَالْجُغْرَافِيَا أَكْثَرَ وَأَعْمَقَ مِمَّا يُفْرَقُ بَيْنَهُمْ مِنْ تَفْسِيرِ التَّارِيخِ وَنَعَضِبِ الْمَذَاهِبِ وَالطَّوَائِفِ، وَأَمَّا إِنْ
يُضَيَعُوا فُرْصَةَ اسْتِحْلَاصِ الْعِبْرَةِ مِنْ تَارِيخِهِمُ الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ فَيَمْدُونَ أَعْنَاقَهُمْ إِلَى كُلِّ نَاعِقٍ، مَمَّنْ يَسْتَشِيرُ
فِيهِمْ تَوَازِعَ التَّفَرُّقِ، وَيُوسِعُ الشَّعْرَاتِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، لِيَدْخُلَ مِنْ خِلَالِهَا، وَيُحَقِّقَ غَايَاتِهِ فِي الْاسْتِبْعَادِ وَالنَّهْبِ
وَالْأَخْضَاعِ.

وَقَدْ كَانَ لِي أَنْ أَتَابِعَ مَا يَصْدُرُ عَنْ قَادَةِ الرَّأْيِ مِنَ الشَّيْعَةِ وَالسُّنَّةِ فِي الْعِرَاقِ، خُصُوصًا عُلَمَاءَ الدِّينِ
وَالْقَادَةَ الْإِسْلَامِيِّينَ، فَلَمْ أَجِدْ عِنْدَ أَيِّ مِنَ الطَّرَفَيْنِ - بِاسْتِثْنَاءِ لُغَةِ الْمُجَامِلَاتِ التَّعْمِيمِيَةِ الْبَارِدَةِ - طَرَحًا
يَتَسَمَّ بِالرَّحَابَةِ وَالْعُمُقِ وَالصَّدْقِ وَالرُّوحِ الْعَمَلِيَّةِ الْقَادِرَةِ عَلَى احْتِوَاءِ الْخِلَافَاتِ التَّارِيخِيَّةِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، أَوْ
تَأْجِيلِهَا إِلَى مَا بَعْدَ التَّحْرِيرِ وَالْإِسْتِقْرَارِ.

بَلْ تُبَارِي كُلَّ مِنَ الطَّرَفَيْنِ فِي التَّأْكِيدِ عَلَى أَنَّ أُنْبَاءَ طَائِفَتِهِ يُمَثِّلُونَ أَغْلَبِيَّةَ الْعِرَاقِيِّينَ، وَكَأَنَّهُ لَا تُوجَدُ وَسِيلَةٌ
إِحْصَائِيَّةٌ لِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ ذَلِكَ فِي عَضْرِ الْكَمْبِيُوتَرِ، وَكَانَ لَا شَيْءَ يَجْمَعُ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ مِنْ دِينٍ أَوْ دَمٍ أَوْ
وَطْنٍ أَوْ تَارِيخٍ أَوْ جُغْرَافِيَا !!

وَبَدَلًا مِنْ أَنْ تَتَعَاوَدَ جُهُودِ الطَّرَفَيْنِ عَلَى إِسْتِرَاتِيجِيَّةٍ وَاحِدَةٍ لِصِيَاغَةِ مُسْتَقْبَلِ الْعِرَاقِ، خَذَلَ الشَّيْعِيُّ
السُّنِّيَّ الْمُقَاوِمَ لِلِاخْتِلَالِ، وَخَذَلَ السُّنِّيُّ الشَّيْعِيَّ الْمُتَظَاهِرَ طَلَبًا لِلِاتِّخَابَاتِ. فَقَدْ تَبَرَّأَ السُّيُوسْتَانِيُّ وَقَادَهُ
الشَّيْعَةَ مِنَ الْمُقَاوِمَةِ، وَعَارَضَ السُّنَّةَ فِي "مَجْلِسِ عُلَمَاءِ الْعِرَاقِ" الدَّعْوَةَ إِلَى الْإِتِّخَابَاتِ الَّتِي تُبْنَاهَا
السُّيُوسْتَانِيُّ. فَوَضَعَ الطَّرْفَانِ الْمُبَادِرَةَ فِي يَدِ الطَّامِعِينَ فِي قِيَادَةِ الْعِرَاقِ مَمَّنْ جَاءُوا عَلَى ظُهُورِ دِبَابَاتِ
الِاخْتِلَالِ.

وَوَلَقَدْ أَسَاءَ لَنَا أَنْ نَرَى هَذَا الْخِذْلَانَ الْمُبَادِلَ، خُصُوصًا إِنْ مَا يَجْمَعُ بَيْنَ آيَةِ اللَّهِ السَّيِّئَاتِي وَالشَّيْخِ مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ الرَّاشِدِ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّاشِدِ وَالْبَاجِعِ جِي، أَوْ بَيْنَ السَّيِّئَاتِي وَالْجَلْبِي.

وَيَدُلُّ هَذَا الْخِذْلَانَ الْمُبَادِلَ عَلَى أَنَّ الْقَوِيَّ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي الْعِرَاقِ بِشِعْيِهَا وَسُنِّيَّهَا لَا يَزَالُ يُنْقَضُهَا التُّنْجُ السِّيَاسِي، وَتَاسِرَهَا أَثْقَالُ التَّارِيخِ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ عَلَى مُسَوًى الْمَسْئُولِيَّةِ وَالثَّقَةِ الَّتِي مَنَحَهَا إِيَّاهَا شُعْبُ الْعِرَاقِ. فَلْيُنْعَمِ الْمُحْتَلُّ بِاِحْتِلَالِهِ، وَلْيُنْصَبْ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ يَخْدُمُهُ، مِمَّنْ لَيْسَ بِالشَّيْعِي وَلَا بِالسُّنِّي، وَلَا حَتَّى بِالْعِرَاقِي، مَا دَامَتْ قِيَادَاتُ السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ تَتَحَكَّمُ فِيهِمُ الرُّوحُ الطَّائِفِيَّةُ.

الْعِرَاقِ لَيْسَ مَهْدُ الْحَضَارَةِ فَقَطْ، لَكِنَّهُ أَيْضًا مَهْدُ التَّصَدُّعِ فِي صَفِّ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، إِذْ فِيهِ نَشَبَتْ أَوْلَى الْقِنَنِ السِّيَاسِيَّةِ فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأُخْرَى بِحُكْمَائَةِ الْيَوْمِ إِنْ يَجْعَلُوا مِنْهُ مَهْدًا لِلْعَايِشِ وَالتَّامِ الْجِرَاحِ أَنَّ الْمِحْنَةَ الَّتِي يَعِيشُهَا الْعِرَاقِ الْيَوْمَ لَنْ يَتِمَّ تَجَاوُزُهَا دُونَ تَعَاضُدٍ وَتَوْحُّدٍ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ عَلَى إِسْرَاطِيَجِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، حَتَّى وَإِنْ اِخْتَلَفَ التَّكْنِيكُ. وَأَوَّلُ أَهْدَافِ هَذِهِ الْإِسْرَاطِيَجِيَّةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ رَحِيلُ الْاِحْتِلَالِ، وَإِجْرَاءُ اِتِّخَابَاتٍ نَزِيهَةٍ يُحْكَمُهَا دُسُورٌ وَاضِحٌ، يَمْنَحُ الْأَغْلَبِيَّةَ - شَيْعِيَّةَ كَانَتْ أَوْ سُنِّيَّةً - حَقَّهَا فِي الْحُكْمِ، وَيَمْنَحُ الْأَقْلِيَّةَ - شَيْعِيَّةَ كَانَتْ أَوْ سُنِّيَّةً - حَقَّهَا فِي الْمَشَارَكَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالتَّمْيِيزِ الثَّقَافِي.

فَالْتَشَبُّثُ بِالِاتِّخَابَاتِ وَبِنَزَاهَتِهَا هُوَ الْيَوْمَ الْمَحْكُ الَّذِي عَلَى أَسَاسِهِ يَصْلُحُ تَقْيِيمُ الْقَوِيَّ السِّيَاسِيَّةِ الْعِرَاقِيَّةِ، وَاسْتِيْعَابُهَا وَاقِعَ بَدِّهَا وَمُقْتَضِيَاتِهِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَمِيرِكِيِّينَ سَيَبْذُلُونَ غَايَةَ الْجُهْدِ فِي الْإِتِّفَافِ عَلَى الْإِتِّخَابَاتِ بِكُلِّ الذَّرَاعِ، سَعْيًا إِلَى تَمْهِيرِ
مَشْرُوعِهِمُ السِّيَاسِيِّ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْإِفْغَانِيَّةِ، بِمَا يَضْمَنُ اخْتِلَالًا سِيَاسِيًّا دَائِمًا، بِخُسِّ الثَّمَنِ، عَظِيمِ
التَّنَاجِجِ، بَعْدَ رَحِيلِ الْإِخْتِلَالِ الْعُسْكَرِيِّ الْمُكَلَّفِ لَهُمْ فِي الدَّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ. لِذَا يَتَعَيَّنُ عَلَى الْعِرَاقِيِّينَ فَهْمُ
اللُّعْبَةِ وَأَبْعَادِهَا

أَنَّ الْعِرَاقَ لَيْسَ مَهْدَ الْحَضَارَةِ فَقَطْ، لَكِنَّهُ أَيْضًا مَهْدَ التَّصَدُّعِ فِي صَفِّ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، إِذْ فِيهِ نَشَبَتْ
أَوْلَى الْفِتَنِ السِّيَاسِيَّةِ فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ مُنْصَفِ الْقُرْنِ الْأَوَّلِ الْهَجْرِيِّ، وَفِيهِ تَحَوَّلَتْ الْخِلَافَاتُ
السِّيَاسِيَّةِ إِلَى مَسَائِلِ اعْتِقَادِيَّةٍ. فَمَا أُخْرَى بِحُكْمَانَةِ الْيَوْمِ إِنْ يَجْعَلُوا مِنْهُ مَهْدًا لِلتَّعَاشِ وَالنِّسَامِ الْجَرَاحِ،
وَهُمْ أَحْوَجُ النَّاسِ إِلَى تِلْكَ السِّيَاسَةِ الْحَكِيمَةِ وَأَوَّلُ مَنْ سَيَجِي تَمْرَاتِهَا .

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ، فَلَنْ يَنْهَزِمَ اخْتِلَالُ ثِقَاتِهِ بُنْدُقِيَّةَ سُنِّيَّةٍ يَتِيمِهِ، أَوْ يُعَارِضُهُ مَتَظَاهِرَ شِيعِيٍّ مَخْدُولٍ.
فَهَلْ يُدْرِكُ أَتْنَاءَ الْعِرَاقِ ذَلِكَ ؟

رَأْيِي مُشَابِه

نَشَغَلُ أَغْلَبَ الدَّارِسِينَ وَالْمَحَلِّينَ السِّيَاسِيِّينَ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ الْيَوْمَ بِالسَّلْفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ السُّنِّيَّةِ، وَأَهْمَلُوا
السَّلْفِيَّةَ الْجِهَادِيَّةَ الشَّيْعِيَّةَ، رَغْمَ أَنَّ السَّلْفِيَّةَ الْجِهَادِيَّةَ الشَّيْعِيَّةَ أَخْطَرُ وَأَعْمَقُ جُذُورًا فِي تَارِيخِ الْمُنْطَقَةِ
وَتَقَاتِهَا مِنْ نَظِيرَتِهَا السُّنِّيَّةِ. وَيَدُلُّ ذَلِكَ الْأَنْشِعَالُ وَهَذَا الْأَهْمَالُ إِلَى انْفِعَالِ تَقَاتِنَا السِّيَاسِيَّةِ بِأَوْلِيَّاتِ
الْآخَرِينَ وَمَقَاصِدِهِمْ، وَعَدَمِ تَأْسِيسِهَا عَلَى أَرْضِيهِ صُلْبُهُ مِنْ تَحْدِيَّاتِ وَأَقْعِنَا الْمَوْضُوعِيَّةِ. وَسُتَسْعَى
إِلَى الْإِسْتِهَامِ فِي سَدِّ هَذَا الْفِرَاقِ الْمَعْرِفِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ، خِلَالَ هَذَا الْمَقَالِ وَمَقَالَاتِ آيْتِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَلَا بُدَّ مِنَ التَّيْبِ فِي صَدْرِ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ إِلَى إِيَّايَ لَسْتُ مَعْنَى يَرُونَ التَّصْيِيقَ عَلَى الشَّيْعَةِ فِي عَقَائِدِهِمْ
أَوْ شَعَائِرِهِمْ، بَلْ أَنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا عَمِيقًا بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)، وَبِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ
الْحَسِيبُ الْمَحَاسِبِ فِي ذَلِكَ فَلِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَتَّقِدَ بِمَا يَشَاءُ مِنْ عَقَائِدِ وَادِيَانِ، وَيُمَارِسَ مَا يَشَاءُ مِنْ
شَعَائِرِ وَعِبَادَاتٍ، مَا لَمْ يُتْرَجَمْ ذَلِكَ إِلَى ظُلْمٍ وَعُدْوَانٍ، وَتَأْيِيدٍ لِاحْتِقَادِ الْفُرُوقِ، وَتَشْيِيتِ لَصَفِّ الْأُمَّةِ.
كَمَا أَنِّي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَا حِلَّ لِلْمُعْضَلَةِ السُّنِّيَّةِ-الشَّيْعِيَّةِ إِلَّا بِبِنَاءِ دَوْلَةِ الْعَدْلِ وَالْحُرِّيَّةِ الَّتِي لَا أَرْدُوأَجِيَّةَ
فِيهَا وَلَا مُتَوَيَّةَ. فَالْبَاعِثُ عَلَى الْكِتَابَةِ هُنَا هُوَ تَشْرِيحُ الظَّاهِرَةِ الشَّيْعِيَّةِ فِي بَعْدِهَا التَّنْفِيسِ وَالْإِجْتِمَاعِي
وَالسِّيَاسِي، وَفِيمَا تَرْتَبُ عَلَى هَذِهِ الْإِبْعَادُ مِنْ ظُلْمٍ وَبَغْيٍ ضِدَّ غَالِبِيَّةِ الْأُمَّةِ، وَتَمْزِيقِ لِقَلْبِهَا.

وَالْمَقْصُودُ بِالسَّلْفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ هُنَا هُوَ الدَّوْلَةُ الْإِيرَانِيَّةُ بِنِظَامِ الْفُقَهَاءِ الشَّيْعَةِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَهَا مُنْذُ مَا
قَارَبَ أَرْبَعَةَ عُقُودٍ، وَالْحَرَكَاتُ السِّيَاسِيَّةُ وَالْعَسْكَرِيَّةُ الشَّيْعِيَّةُ الْعَنِيفَةُ الْمُرْتَبِطَةُ بِإِيرَانَ، وَالَّتِي تُمَارَسُ
خُرُوجًا عَلَى مُجْتَمَعَاتِهَا، وَتَنْتَظِمُ فِي مِيلِيشِيَّاتٍ عَسْكَرِيَّةٍ، وَتُسَلِّطُهُمْ تَعْلِيمَاتُ الْقَادَةِ الْإِيرَانِيِّينَ، حَتَّى
أَصْبَحَتْ امْتِدَادَاتٍ عَسْكَرِيَّةٍ وَادِّيُولُوجِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ لِإِيرَانَ، وَأَذْرَعًا ضَارِبَةً لَهَا، تَنْشُرُ مِنْ خِلَالِهَا الْخَرَابَ
وَالدَّمَارَ فِي أَرْجَاءِ الْمَشْرِقِ الْعَرَبِيِّ (الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْعِرَاقِ بِلَادِ الشَّامِ). وَقَدْ دَعَوْنَا هَذِهِ الظَّاهِرَةَ
الشَّيْعِيَّةَ "سَلْفِيَّةً"-تَجَوُّزًا- بِنَاءً عَلَى اسْتِيسَارِهَا الشَّدِيدِ لِلْمَاضِي، وَدَعَوْنَاهَا "جِهَادِيَّةً"-تَجَوُّزًا أَيْضًا-
تَمَاشِيًا مَعَ اصْطِلَاحِ شَائِعِ الْيَوْمِ فِي تَوْصِيفِ الظُّوَاهِرِ الْعَنِيفَةِ ذَاتِ التَّسْوِيعَاتِ الدِّيْنِيَّةِ الْمُغْلَقَةِ، مَعَ عَلْمِنَا أَنَّ
هَذِهِ الظَّاهِرَةَ أُنْعَدَ مَا تَكُونُ عَنْ مِنْهَاجِ السَّلْفِ الصَّالِحِ، وَعَنْ رُوحِ الْجِهَادِ كَمَا بَيَّنَّهُ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ.

الْعُدُوُّ فِي الْعَقْلِ الشَّيْعِيِّ عَدُوُّ مُسْلِمٍ دَاخِلِيٍّ، وَالِدَّعْوَةُ نَشْرُ الْمَذْهَبِ دَاخِلِيًّا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالْفُتُوحُ تَمْتَدُّ
عَسْكَرِيًّا دَاخِلِيًّا فِي الْجَسَدِ الْإِسْلَامِيِّ

وَعَلَى عَكْسِ السَّلَفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ السُّنِّيَّةِ الَّتِي كَانَتْ -وَلَا تَزَالُ- ظَاهِرُهُ هَامِشِيهِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ السُّنِّيَّةِ،
تُقْتَدِ إِلَى الشَّرْعِيَّةِ فِي نَظَرِ أَغْلَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَتُحَارِبُهَا أَغْلَبُ حُكُومَاتِ الدُّوَلِ ذَاتِ الْغَالِبِيَّةِ السُّنِّيَّةِ،
وَتَخَاصِمَهَا أَغْلَبُ الْحَرَكَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ السُّنِّيَّةِ ذَاتِ الْمُنْزَعِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ... فَإِنَّ السَّلَفِيَّةَ الْجِهَادِيَّةَ
الشَّيْعِيَّةَ اجْتَاخَتْ جَلَّ الْمَجْتَمَعَاتِ الشَّيْعِيَّةِ فِي الْعَالَمِ، فَحَازَتْ الشَّرْعِيَّةَ دَاخِلَ تِلْكَ الْمَجْتَمَعَاتِ،
وَسَانَدَتْهَا إِيرَانَ -أَكْبَرُ دَوْلَةٍ شَيْعِيَّةٍ فِي الْعَالَمِ الْيَوْمَ- وَأَمَدَتْهَا بِالْمَالِ وَالسَّلَاحِ وَالْخِبْرَةَ وَالتَّاطِيرَ الْإِدْيُولُوجِيَّ
وَالسِّيَاسِيَّ. لِذَلِكَ اعْتَبَرْنَا إِيرَانَ جُزْءًا مُحَوَّرًا مِنْ السَّلَفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ، بَلْ هِيَ مَرْكَزُ الثَّقَلِ فِيهَا،
بَيْنَمَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَحْسِبَ أَيَّ دَوْلَةٍ سُنِّيَّةٍ ضَمِنَ تَيَّارِ السَّلَفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ السُّنِّيَّةِ، إِذَا لَا تَبَنَّاها دَوْلَةٌ سُنِّيَّةٌ
وَلَا تَدْعُمُهَا، بَلْ تُعَادِيهَا كُلُّ الدُّوَلِ ذَاتِ الْغَالِبِيَّةِ السُّنِّيَّةِ.

وَسَتَبْدَأُ هَذِهِ السَّلْسَلَةَ بِالْبَحْثِ فِي الْجُذُورِ النَّفْسِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ لظَاهِرِ السَّلَفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ، قَبْلَ أَنْ
نُعْرَجَ عَلَى دِلَالَتِهَا الْإِسْتِرَاطِيَّةِ، وَأَهْمِيَّتِهَا لِلْقُوَى الدَّوَلِيَّةِ السَّاعِيَةِ إِلَى تَقْمِيَّتِ الْمُنْطَقَةِ مِنْ جَدِيدٍ، الْمَصْرَهُ
عَلَى تَعْوِيقِ ظُهُورِ قَاعِدَةَ صُلْبِهِ فِي قَلْبِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ تَلْمِمْ شِتَاتِهِ، وَتُدْرَأُ عَنْهُ الْمَخَاطِرُ. كَمَا
سَيَتَّضَمَّنُ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ الْفُرُوقَ بَيْنَ السَّلَفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ وَالسَّلَفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ السُّنِّيَّةِ الَّتِي مَلَائَتْ الدُّنْيَا
وَشَغَلَتْ النَّاسَ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهَا مِنْ التَّأثيرِ وَالْأَهْمِيَّةِ الْإِسْتِرَاطِيَّةِ مَا لِلسَّلَفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ.

لَا يُمَكِّنُ فَهْمُ ظَاهِرِ السَّلَفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ الَّتِي يَلْتَمِسُ حَرِيْقَهَا الْمَشْرِقَ الْعَرَبِيَّ الْيَوْمَ، وَيَعْرِقُهُ فِي الدَّمَاءِ
وَالدُّمُوعِ مُنْذُ ثَلَاثِ قَرْنٍ، دُونَ فَهْمِ ظَاهِرَتَيْنِ عُمِيقَتَيْنِ فِي التَّارِيخِ الشَّيْعِيِّ، إِحْدَاهُمَا ثَقَافِيَّةٌ وَأَسْمِيَّةٌ
"الذَّاكِرَةُ الْمُؤْتَوْرَةُ"، وَالْأُخْرَى سِيَاسِيَّةٌ وَادْعُوْهَا "الْمَنْطِقُ الْإِحْلَالِي". "أَمَّا" الذَّاكِرَةُ الْمُؤْتَوْرَةُ" فَهِيَ ثَقَافَةُ
الْإِتْقَامِ وَالتَّارِ الضَّارِبَةِ الْجُذُورَ فِي الْعَقْلِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ. وَهِيَ تَكْشِفُ عَنْ مَنْزَعِ نَفْسِي عَلِيلٍ، يَعِيشُ الزَّمْنَ

كُلُّهُ فِي التَّبَارِيحِ وَالْأَحْزَانِ، وَيُعْذِي رُوحَ الْإِتْقَامِ وَالنَّارِ، وَيُورِثُهَا مِنْ جَيْلٍ لِجَيْلٍ، عَبَّرَ عَدَدَ هَائِلٍ مِنْ
الطُّقُوسِ وَالشَّعَائِرِ، نَشَطَبَ كُلُّهَا بِطَابِعِ الْحُزْنِ الظَّاهِرِ وَالْمُضْمَرِ، وَالْمَزَاجِ الْمَسَاوِي السُّودَاوِيِّ الْمُعْتَمِ. وَأَمَّا
"الْمَنْطِقُ الْإِخْلَالِي" فَهُوَ إِحْسَاسُ الشَّيْعَةِ بِأَنَّ رِسَالَتَهُمُ الدِّينِيَّةَ وَالْإِنْسَانِيَّةَ هِيَ إِزَاحَةُ الْوُجُودِ السُّنِّيِّ،
وَالْتَمَدُّ عَلَى حِسَابِهِ، سَوَاءٌ بِالذَّعْوَةِ أَوْ بِالْقِتَالِ. فَالْعُدُو فِي الْعَقْلِ الشَّيْعِيِّ عَدُوٌّ مُسْلِمٌ دَاخِلِيٌّ، وَالذَّعْوَةُ
نَشْرُ الْمَذْهَبِ دَاخِلِيًّا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالْفُتُوحُ تَمَدُّدُ عَسْكَرِيٍّ دَاخِلِيٍّ فِي الْجَسَدِ الْإِسْلَامِيِّ.

وَكَانَ الْبَاحِثُ الْمِصْرِيُّ الْمُتَخَصِّصُ فِي الشَّأْنِ الْإِيرَانِيِّ وَالتُّرْكِيِّ الذُّكُورُ مُصْطَفَى اللَّبَادِ، وَعَالِمُ الْاجْتِمَاعِ
الْعِرَاقِيِّ عَلَى الْوُرْدِيِّ مِنْ بَيْنِ الْبَاحِثِينَ الْعَرَبِ الْمُعَاَصِرِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لِلظَّاهِرَةِ الْأُولَى -ظَاهِرَةُ الذَّاكِرَةِ
الْمُوتُورِهِ- وَعَمَّقَهَا فِي الثَّقَافَةِ الشَّيْعِيَّةِ، وَإِنْ لَمْ يُسَمَّهَا أَيُّ مِنْهُمَا بِهَذَا الْاسْمِ. فَلَمْ يَكُنْ مُصْطَفَى اللَّبَادِ
مُبَالِغًا حِينَ عَنُونُ أَحَدِ كُتُبِهِ عَنِ إِيْرَانِ وَوَلَايَةِ الْفَقِيهِ بِعُنْوَانِ (حَدَائِقُ الْأَحْزَانِ)، وَقَدْ لَاحَظَ فِي صَدْرِ
الْكِتَابِ "حُزْنَ الْإِيرَانِيِّينَ الدَّائِمَ الَّذِي يَبْدُو رُكْنًا أَسَاسِيًّا فِي وَجْدَانِ الْمُسْلِمِينَ الشَّيْعَةِ عُمُومًا، وَالْإِيرَانِيِّينَ
خُصُوصًا" (مُصْطَفَى اللَّبَادِ، حَدَائِقُ الْأَحْزَانِ: إِيْرَانِ وَوَلَايَةِ الْفَقِيهِ، ص 8). وَتَوَقَّفَ اللَّبَادِ فِي أَكْثَرِ مِنْ
مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ عِنْدَ "الْحُزْنِ الشَّيْعِيِّ الدَّفِينِ" (ص 19)، وَهُوَ حُزْنٌ يَشُبُّ عَلَيْهِ الصَّغِيرُ، وَيَشِيبُ عَلَيْهِ
الْكَبِيرُ، وَتَوَارَثَهُ الْأَجْيَالُ، وَكَانَهُ كَنْزٌ ثَمِينٌ لَا يَسْتَقِيمُ أَمْرُ الدِّينِ أَوْ الدُّنْيَا إِلَّا بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ، وَاسْتِلَامِهِ مِنْ
الْأَجْدَادِ، وَتَسْلِيمِهِ إِلَى الْأَحْفَادِ! يَقُولُ اللَّبَادُ: "تَطَالَعْتُ الرِّايَاتِ السُّودِ أَيْنَمَا تَوَجَّهْتُ فِي طَهْرَانَ خِلَالَ
الْأَيَّامِ الْعَشْرَةِ الْأُولَى مِنْ شَهْرِ الْمُحَرَّمِ، وَهِيَ ذِكْرَى أَيَّامِ عَاشُورَاءَ... وَتَلَاخِظُ أَنَّ الْأَطْفَالَ لَا يَلْعَبُونَ
كَعَادَتِهِمْ فِي الشُّوَارِعِ وَالطَّرِيقَاتِ، بَلْ يَبْدُو عَلَيْهِمُ الْوَجُومُ." (اللَّبَادُ، حَدَائِقُ الْأَحْزَانِ، ص 18).

إِمَّا عَالِمٌ عَالِمِ الْجَمْعِ الْعِرَاقِيِّ الرَّاحِلِ الذُّكُورِ عَلَى الْوَرْدِيِّ (1913-1995) - وَهُوَ مُنْحَدِرٌ مِنْ أُسْرَةٍ شَيْعِيَّةٍ - فَقَدْ أَدْرَكَ جَوْهَرَ الشَّيْعِ كَمُخْزُونِ نَفْسِي وَثَقَافِي فَهَمَّا عَمِيقًا لِلْغَايَةِ. وَمِنْ النَّظَرَاتِ الْعَمِيقَةِ الَّتِي خَلَفَهَا لَنَا عَلَى الْوَرْدِيِّ تَشْبِيهِ الشَّيْعِ بِالْبَرْكَانِ الْخَامِدِ الَّذِي يُتَوَقَّعُ ثَوْرَانَهُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، فَكَبَّ مِنْذُ عَقُودٍ يُقُولُ :

الْغَرِيبِ فِي الدُّوَلِ الشَّيْعِيَّةِ الْكُبْرَى فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ أَنَّهُا تَسِيرُ فِي الْإِتِّجَاهِ الْمَعَاكِسِ تَمَامًا، وَيَتَحَكَّمُ فِي مَسَارِهَا مَنْطِقُ إِخْلَالِي، يَجْعَلُهَا تَمَدُّدًا اعْتِقَادِيًّا وَعَسْكَرِيًّا دَاخِلَ الْجَسَدِ الْإِسْلَامِيِّ ذَاتِهِ

"أَيُّ الشَّيْعَةِ [أَيُّ الشَّيْعَةِ] الْيَوْمَ ثَوْرٌ خَامِدُونَ، فَقَدْ خَدِرَهِمُ السَّلَاطِينُ، وَحَوَّلُوا السُّيُوفَ الَّتِي يُقَاتِلُونَ بِهَا الْحُكَّامَ قَدِيمًا إِلَى سَلَاسِلٍ يَضْرِبُونَ بِهَا ظُهُورِهِمْ، وَحَرَابًا يَجْرَحُونَ بِهَا رُؤُوسَهُمْ، وَمَنْ يَذْرِي فَقَدْ يَأْتِي عَلَيْهِمْ يَوْمٌ تَتَحَوَّلُ فِيهِ هَذِهِ السَّلَاسِلُ وَالْحَرَابُ إِلَى سُّيُوفٍ صَارِمَةٍ مِنْ جَدِيدٍ... إِنْ مُوسِمَ الزِّيَارَةِ فِي كَرْبَلَاءَ يُسَكِّنُ تَشْبِيهِهُ بِمُوسِمِ الْحَجِّ لِكَثْرَةِ الْوَافِدِينَ إِلَيْهِ، هَذَا وَلَكِنَّ الزِّيَارَةَ الشَّيْعِيَّةَ تَخْتَلِفُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ عَنِ الْحَجِّ، إِذْ هِيَ تَحْمِلُ فِي بَاطِنِهَا بَذْرَهُ مِنَ الثَّوْرَةِ الْخَامِدَةِ، وَمَنْ يَشْهَدُ هَرَجَ الزُّوَارِ فِي كَرْبَلَاءَ يَذْرِكُ أَنَّ وَرَاءَ ذَلِكَ خَطَرًا دَفِينًا... شَبَّهْنَا الشَّيْعَ فِي وَضْعِهِ الرَّاهِنِ بِالْبَرْكَانِ الْخَامِدِ، فَهُوَ قَدْ كَانَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ بَرَكَنَا ثَابِرًا، ثُمَّ خَمَدَ عَلَى مُرُورِ الْأَيَّامِ، وَأَصْبَحَ لَا يَخْتَلِفُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْجِبَالِ الرَّاسِيَةِ إِلَّا بِفَوْهَتِهِ وَالذُّخَانِ الْمُتَصَاعِدِ مِنْهَا، وَالْبَرْكَانِ الْخَامِدِ لَا يَخْلُو مِنْ خَطَرٍ رَغْمَ هُدُوتِهِ الظَّاهِرِ، أَنَّهُ يَمْتَّازُ عَلَى الْجِبَلِ الْأَصَمِّ بِكَوْنِهِ يَخْتَوِي فِي بَاطِنِهِ عَلَى نَارٍ مَتَّاجِحَةٍ، وَلَا يَذْرِي أَحَدًا مَتَى تَنْفَجِرُ هَذِهِ النَّارُ مَرَّةً أُخْرَى." (عَلَى الْوَرْدِيِّ: وُغَاظُ السَّلَاطِينِ، ص 255).

وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْبُرْكَانَ الشَّيْعِيَّ الْخَامِدَ الَّذِي تُحَدِّثُ عَنْهُ الْوَرْدِيُّ قَبْلَ الثَّوْرَةِ الْإِيرَانِيَّةِ قَدْ انْفَجَرَ انْفِجَارًا مُدَوِّيًا. فَقَدْ فَتَحَ الْبُرْكَانُ الْخَامِدَ فَوْهَتَهُ عَلَى مِصْرَاعَيْهَا، فَغَطَّى إِيرَانَ بِلَهْبِهِ، وَالْقَى بِحُمَمِهِ فَأَحْرَقَ الْعِرَاقَ، وَامْتَدَّ حَرِيقُهُ فِي أَيَّامِنَا إِلَى سُورِيَا وَالْيَمَنِ. وَلَا يَكْفِي تَفْسِيرَ هَذَا الْانْفِجَارِ الْبُرْكَانِيِّ بِظُلْمِ الشَّاةِ أَوْ بِدَوْرِ الْاِحْتِلَالِ الْأَمِيرِكِيِّ لِلْعِرَاقِ أَوْ بِالْمِزَاجِ الثَّوْرِيِّ الَّذِي رَافَقَ الرَّبِيعَ الْعَرَبِيَّ. فَقَدْ عَانَتْ شُعُوبٌ عَدِيدَةٌ مِنْ الْاسْتِبْدَادِ وَمِنْ الْاسْتِعْمَارِ وَجَزَبَتْ الثَّوْرَاتُ، فَلَمْ تَكُنْ ثَمَرَاتُ كُلِّ ذَلِكَ انْفِجَارًا بِهَذِهِ الرُّوحِ وَالْمِزَاجِ. وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ الْأَمْرُ إِلَى أَخْذِ ذَلِكَ الْمُخْرُوجِ التَّنْفِيسِيِّ الَّذِي تُحَدِّثُ عَنْهُ اللَّبَادُ وَالْوَرْدِيُّ فِي الْاِعْتِبَارِ.

أَمَّا الْمَنْطِقُ الْإِحْلَالِي الَّذِي تَرَاهُ الْيَوْمَ فِي التَّمَدُّدِ الشَّيْعِيِّ وَمَا نَتَجَّ عَنْهُ مِنْ تَغْيِيرَاتٍ دِيمُغْرَافِيَّةٍ، فَهُوَ ظَاهِرُهُ ضَارِبَةٌ الْجُدُورَ فِي التَّارِيخِ السِّيَاسِيِّ الشَّيْعِيِّ. وَقَدْ تَكَرَّرَتْ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ مِنْ قَبْلِ خِلَالِ حُفْبَتَيْنِ مِنَ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ، كَانَتْ لِلشَّيْعَةِ فِيهِمَا صَوْلَةٌ وَدَوْلَةٌ. فَقَدْ كَانَ الْعُرْفُ التَّارِيخِي فِي عَصْرِ الْفُتُوحِ الْأَمْبِرَاطُورِيَّةِ أَنَّ أُمَّيَّ دَوْلَةً مُسَلِّمَةً وَلَدَتْ عَلَى الْأَطْرَافِ تَتَوَسَّعُ عَلَى حِسَابِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، نَشْرًا لِلدِّينِ بِالذَّعْوَةِ، وَتَوْسِيْعًا لِحُدُودِهَا بِالقُوَّةِ. لَكِنْ الْعَرِيبُ فِي الدُّوَلِ الشَّيْعِيَّةِ الْكُبْرَى فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ أَنَّهُا تَسِيرُ فِي الْاِتِّجَاهِ الْمُعَاكِسِ تَمَامًا، وَيَتَحَكَّمُ فِي مَسَارِهَا مَنْطِقُ إِحْلَالِي، يَجْعَلُهَا تَتَمَدَّدُ اعْتِقَادِيًّا وَعَسْكَرِيًّا دَاخِلَ الْجَسَدِ الْإِسْلَامِيِّ ذَاتِهِ.

كَانَتْ الدَّوْلَةُ الْفَاعِطِمِيَّةُ (297-567م/909-1171م) أَوْلَى الدُّوَلِ الشَّيْعِيَّةِ الْكُبْرَى فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ، وَقَدْ وَلَدَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ فِي الْقَيْرَوَانَ، فَكَانَ يُفْتَرَضُ -بِمَنْطِقِ عَصْرِ الْفُتُوحِ الْأَمْبِرَاطُورِيَّةِ- أَنْ تَتَوَسَّعَ جَنُوبًا فِي إِفْرِيقِيَا الْوُثْنِيَّةِ، أَوْ شِمَالًا فِي أَوْرُبَا الْمَسِيحِيَّةِ. لَكِنَّهَا تَوَسَّعَتْ شَرْقًا، فَغَزَتْ مِصْرَ، وَاتَّخَذَتْهَا مَرْكَزَهَا، وَمِنْهَا ظَلَّتْ فِي صِرَاعٍ دَائِمٍ مَعَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ عَلَى بِلَادِ الشَّامِ، بَلْ وَعَلَى الْعِرَاقِ ذَاتِهِ الَّذِي كَانَ

يَوْمَ ذَاكَ مَرْكَزُ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ السُّنِّيَّةِ. وَقَدْ اسْتَنْزَفَ صِرَاعُ الْفَاطِمِيِّينَ مَعَ الْعَبَّاسِيِّينَ قَلْبَ الْحَضَارَةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمَهَّدَ لِلْغَزْوِ الْفَرَنْجِيِّ وَالْمَغُولِيِّ الْمُدْمَرِ.

لِكَيْ يُفْهَمَ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ حَالَةَ التَّفَجْرِ الشَّيْعِيِّ دَاخِلَ الْجَسَدِ الْإِسْلَامِيِّ الْيَوْمَ، فَهُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى فَهْمِ
ظَاهِرَتَيْ "الذَّاكِرَةِ الْمُتَوْتِرَةِ" وَ"الْمَنْطِقِ الْإِخْلَالِيِّ"، وَهُمَا ظَاهِرَتَانِ تَكْوِينِيَّتَانِ فِي الثَّقَافَةِ الشَّيْعِيَّةِ

ثُمَّ وَلَدَتْ الدَّوْلَةَ الصَّفَوِيَّةَ (907-1148هـ/1501-1736م) فَكَانَتْ ثَانِي دَوْلَةَ شَيْعِيَّةٍ كَبْرَى فِي التَّارِيخِ
الْإِسْلَامِيِّ، وَكَانَ يُفْتَرَضُ -بِمَنْطِقِ عَصْرِ الْفَتْوحِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ مَرَّةً أُخْرَى- أَنْ تَتَوَسَّعَ الدَّوْلَةُ الصَّفَوِيَّةُ شَرْقًا
تُجَاهَ الصِّينِ، أَوْ شِمَالًا تُجَاهَ رُوسِيَا وَشَرْقِ أُرُوبَا. لَكِنْ مَا حَدَثَ -كَمَا حَدَثَ مَعَ الْفَاطِمِيِّينَ مِنْ قَبْلِ-
هُوَ أَنَّ الدَّوْلَةَ الصَّفَوِيَّةَ بَدَلَتْ كُلَّ طَاقَتِهَا فِي السَّعْيِ إِلَى التَّوَسُّعِ عَلَى حِسَابِ الْعُثْمَانِيِّينَ فِي الْعِرَاقِ وَشِمَالِ
الشَّامِ وَشَرْقِ الْأَنَاضُولِ. وَمَرَّةً أُخْرَى اسْتَنْزَفَ صِرَاعُ الصَّفَوِيِّينَ مَعَ الْعُثْمَانِيِّينَ قَلْبَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي
حُرُوبِ مُدْمَرَةٍ، وَأَضْعَفَ الدَّوْلَةَ الْعُثْمَانِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ دِرْعَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ضِدَّ أُرُوبَا الْمَسِيحِيَّةِ آنَ ذَاكَ.

وَمَا تَرَاهُ الْيَوْمَ مِنْ تَوَسُّعِ السَّلَفِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ بِقِيَادَةِ إِيْرَانِ، وَتَمَدُّدِهَا الْعَنِيفُ فِي جَوَارِهَا الْعَرَبِيَّ
الْإِسْلَامِيِّ، امْتِدَادَ لِدَلِكِ الْمَسَارِ التَّارِيخِيِّ الَّذِي عَرَفَهُ التَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ مِنْ قَبْلِ، مَا بَيْنَ الْقُرْنِ الثَّلَاثِ
وَالسَّادِسِ الْهَجْرِيِّينَ مَعَ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ، وَمَا بَيْنَ الْقُرْنَيْنِ الْعَاشِرِ وَالثَّانِي عَشَرَ الْهَجْرِيِّينَ مَعَ الدَّوْلَةِ
الصَّفَوِيَّةِ. أَنَّهُ دَائِمًا مَسَارُ التَّمَدُّدِ الشَّيْعِيِّ الْعَنِيفِ دَاخِلَ الْجَسَدِ الْإِسْلَامِيِّ بِذَاكَرِهِ انْتِقَامِيَّةِ مُتَوْتِرَةٍ، وَمَنْطِقِ
إِخْلَالِيٍّ لَا يَرْضَى بِأَقَلِّ مِنْ إِزَاحَةِ الْوُجُودِ السُّنِّيِّ، وَالْجُلُودِ مِحْلَهُ. وَهُوَ مَا أَدَّى فِي الْمَاضِي وَفِي الْحَاضِرِ
إِلَى تَفَتُّتِ نَوَاهِ الْأُمَّةِ، وَتَمْرِيْقِ قَلْبِهَا، وَانْكَشَافِهَا أَمَامَ كُلِّ عَدُوٍّ طَارِقٍ. فَلِكَيْ يُفْهَمَ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ حَالَةَ

التفجر الشيعي داخل الجسد الإسلامي اليوم، فهو بحاجة إلى فهم ظاهرته "الذاكرة المؤتوره" والمنطق
الأخلاقي"، وهما ظاهرتان تكوينيتان في الثقافة الشيعية.

النمط الثاني

النمط التقدمي الحداثي ويدخل فيه التيارات التالية :

التيار القومي

التيار اليساري الاشتراكي

التيار العقائدي

تَمْهِيدٌ وَمَدْخَلٌ

مُنْذُ صَدَمَةِ الْحَدَاثَةِ، وَبَدَايَاتِ طَرِحِ بَعْضِ الْأَسْئَلَةِ الْمُرَكَّبَةِ الَّتِي شَاغَلَتِ الْعُقْلَ الْعَرَبِيَّ وَكَبَارَ مُفَكِّرِيهِ، كَانَتْ هُنَاكَ عَدِيدَ الْإِسْتِجَابَاتِ الَّتِي اتَّسَمَ بَعْضُهَا بِالْحَيَوِيَّةِ الَّتِي سَعَتْ إِلَى تَقْدِيمِ بَعْضِ الْإِجَابَاتِ حَوْلَ سُؤَالِ التَّقَدُّمِ وَالتَّخَلُّفِ وَأَسْبَابِهِمْ. قَامَ الْمُفَكِّرُ الْمَغْرِبِيُّ الْكَبِيرُ، عَبْدُ اللَّهِ الْعَرُوي، بِرِصْدِ وَتَحْلِيلِ تَقْدِيمِي هَذِهِ الْمَشْرُوعَاتِ فِي كِتَابِهِ الْهَامِ "الْأَيْدِيُولُوجِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمَعَاصِرَةُ". بَعْضُ هَذِهِ الْمَشْرُوعَاتِ قَدَّمَهَا الشَّيْخُ خَلِيفَةُ الْمَنِيَاوي فِي أَعْدَادِهِ تَقْنَيْنِ مَدَنِيٍّ عَلَى التَّسْقِ الْفَرَنْسِيِّ وَفَقَّ الْمَذْهَبِ الْحَنْفِيِّ وَتَعَالِيمِهِ الْفَقْهِيَّةِ فِي عَهْدِ إِسْمَاعِيلَ بَاشَا، وَرَفُضِهِ لِاسْتِعَارَتِهِ لِلْقَوَائِنِ الْوَضْعِيَّةِ الْإِيطَالِيَّةِ وَالْفَرَنْسِيَّةِ وَالْبَلْجِيكِيَّةِ لِذَمِجِ تِجَارَةِ الْقُطْنِ فِي النِّظَامِ الرَّأْسِمَالِيِّ الدَّوْلِيِّ، وَهُوَ مَشْرُوعٌ شَبِهَ غَائِبٍ فِي التَّارِيخِ لِلْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الْحَدِيثِ. الْمَشْرُوعَاتُ الْمَسِيطِرَةُ جَاءَتْ مِنْ الْأَمَامِ مُحَمَّدِ عَبْدِهِ، وَطَهَ حُسَيْنِ، وَعَلَى عَبْدِ الرَّازِقِ، وَسَلَامُهُ مُوسَى، وَأَحْمَدُ أَمِينِ، وَعَبْدُ الْمُتَعَالِ الصَّعِيدِي، وَالْمُدْرَسَةُ الْقَانُونِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ وَالَّتِي لَمْ تَدْرُسْ حَتَّى الْآنَ! كَانَتْ الْمَشَارِيعُ الرَّئِيسَةُ مُعْبَرَةً عَنْ حَالِهِ الْإِنْفِتَاحِ الْفِكْرِيِّ التَّسْبِيئِيِّ مُنْذُ نَهَايَةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، حَتَّى عَامِ 1919 وَالْمَرْحَلَةُ شَبِهَ اللَّيْبِرَالِيَّةِ (1923-1952)، وَجَاءَتْ تَنَاجًا لِحِرْكَةِ الْبَعْثَاتِ إِلَى الْجَامِعَاتِ الْأَوْرُوبِيَّةِ، وَخَاصَّةً فَرَنْسَا وَجَامِعِهِ السُّورْبُونِ، وَإِجَادَةَ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ، وَالِاطَّلَاعِ عَلَى بَعْضِ الْمُرَاجِعِ وَالْمُنْجَزَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْأَوْرُوبِيَّةِ فِي الْقَانُونِ وَالْفَلْسَفَةِ وَالْآدَابِ وَعُلْمِ الْاجْتِمَاعِ. امْتَدَّتْ هَذِهِ الْمَعَارِفُ وَالْخَبْرَاتُ إِلَى الْفُنُونِ التَّشْكِيلِيَّةِ. صَدَمَةُ الْحَدَاثَةِ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى نِظْمِ الْأَفْكَارِ الْكَبِيرِ، وَإِنَّمَا امْتَدَّتْ إِلَى الْفُنُونِ وَالسِّيْنَمَا وَالْمُسْرَحِ، وَأَيْضًا سُؤَالِ التَّقَدُّمِ التَّقْنِيِّ، وَالْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَضُرُورَةَ إِدْخَالِ التَّصْنِيعِ مِنْ أَجْلِ

تسريع وتغيير علاقات الإنتاج. كانت الحيوية الفكرية سمت هذه المرحلة التاريخية التي انكسرت قواديمها
نسبياً في مرحلة الدولة ما بعد الكولونيالية في العالم العربي.

لقد تعيّرت نظم الأفكار نحو الماركسيّة والتجربة السوفياتية والاشتراكية العربية، والقومية العربية والتحرر
الوطني، وظهرت التوترات والنزاعات والمنافسات بين الخطاب الناصري العربي، والخطاب البعثي
ونزاعاته البنيية بين حزبي البعث السوري والعراقي. وتفاقت المزايدات السياسية والأيدولوجية بين
هذه القوى في المشرق العربي ومصر والسودان حول هذه المشاريع السياسية والتنموية ورأسماليه الدولة
الوطنية على نحو سياسي وأيدولوجي أكثر من التأسيس التاريخي والاجتماعي والثقافي، والعمق
المعرفي. بعد هزيمة 5 يونيو 1967 طرح سؤال الهزيمة، وكانت بعض الإجابات سياسية وعسكرية،
وبعضها فكري كما تمثل في إجابة صادق جلال العظم الذاتي بعد الهزيمة، وقد الفكر الديني بعد
ذلك. بعد حرب 1973 حدث تغيير وتحول في طبيعة النظام الاجتماعي ومشروع التنمية والانتقال من
سياسة العدالة الاجتماعية والاستقلال الوطني إلى سياسات الانفتاح الاقتصادي، ومعها خطاب
اقتصادي ومالي رأسمالي، وحرية السوق دوماً انفتاح سياسي. وفي ظل ثلاثة عقود من الركود
السياسي في عهد مبارك تمددت الاختلالات الهيكلية في النظامين الاجتماعي والاقتصادي، وتراجعت
نسبياً المشروعات الفكرية، وخاصة مع صعود حركة المد الإسلامي السياسي والراديكالي والسلفي
والأخواني، وهجومهم واستخدامهم خطاب التكفير تجاه بعض المفكرين والمثقفين والمبدعين. وعلى
الصعيد السياسي طرح مشروع الجامعة الإسلامية في مواجهة الفكرة العربية الجامعة، والصراع بين

"الدَّوْلَةُ الْمَدِينِيَّةُ"، وَفُقِ التَّعْبِيرُ الشَّائِعُ وَغَيْرُ الدَّقِيقِ عِلْمِيًّا، وَبَيْنَ الدَّوْلَةِ الدِّيْنِيَّةِ، وَبَيْنَ الْقَانُونِ الْوَضْعِيِّ الْحَدِيثِ وَالنِّظَامِ الْقَانُونِيِّ لِلشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

صِرَاعَاتٌ سِيَّاسِيَّةٌ وَأَيْدِيُولُوجِيَّةٌ تَمَّتْ عَلَى صَعِيدِ الشَّعَارَاتِ، وَلَيْسَتْ مَشْرُوعَاتٌ فُلْسُفِيَّةٌ وَفِكْرِيَّةٌ. وَمَعْرِفِيَّةٌ. تَجَدَّدَتْ الثَّنَائِيَّاتُ الصَّدِيَّةُ حَوْلَ الثَّرَاثِ وَالْحَدَاثَةِ وَالْمَعَاصِرَةِ مُجَدَّدًا، وَحَاوَلَ بَعْضُ الْمُفَكِّرِينَ الْعَرَبِ تَأْسِيسَ مَشْرُوعَاتٍ فِكْرِيَّةٍ عَلَى نَحْوِ مَا قَامَ بِهِ عَابِدُ الْجَابِرِيِّ حَوْلَ الْعُقْلِ الْعَرَبِيِّ، وَرَدَّ جَوْرُحُ طَرَابَيْشِي التَّنْقِذِي لَهٗ، ثُمَّ حَوْلَ الْعُقْلِ الْمُسْتَقْبَلِ. فِي عَقْدَيْ الثَّمَانِيَّاتِ وَالسَّعِيْنِيَّاتِ مِنْ الْقُرْنِ الْمَاضِي تَحَوَّلَتْ الصِّرَاعَاتُ إِلَى الْمَطَالَبَةِ بِالْحُرِّيَّاتِ الْعَامَّةِ، وَضَرُورَةِ تَحْرِيرِ الْمَجَالِ الْعَامِّ السِّيَّاسِيِّ. وَبَرَزَتْ الْمُدْرَسَةُ التُّونِسِيَّةُ حَوْلَ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَسَرْدِيَّاتِهِ وَمَنْتَهُ الرَّئِيسُ بِقِيَادَةِ عَبْدِ الْمَجِيدِ الشَّرْفِيِّ وَصَحْبِهِ وَتَلَامِذَتِهِ، وَعَلَى أَهْمِيَّةٍ مَا قَامُوا بِهِ مِنْ دِرَاسَاتٍ إِلَّا أَنَّهُمْ ظَلَّتْ فِي إِطَارِ الدَّرْسِ الْأَكَادِيمِيِّ.

أَدَّتْ تَرَكَمَاتُ الْأَزْمَاتِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالْاِجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَّاسِيَّةِ وَتَفَاقُمَهَا إِلَى انْفِجَارِ الْاِنْتِقَاصَاتِ الشَّعْبِيَّةِ وَاسِعَةِ النِّطَاقِ فِي تُونِسٍ وَمِصْرٍ. فِي ظِلِّ هَذِهِ السِّيَاقَاتِ وَالضُّغُوطِ، تَرَاجَعَتْ أَدْوَارُ الْمُفَكِّرِينَ وَالْمُتَّفَقِينَ لِصَالِحِ أَدْوَارِ الدُّعَاةِ الدِّيْنِيِّينَ وَالِدُّعَاةِ مِنْ أَشْبَاهِ الْعُلَمَائِيِّينَ مِنْ مُقَدَّمِي الْبَرَامِجِ التَّلْفَازِيَّةِ وَنَشْطَاءِ الْحُرُوكَةِ الْحَقُوقِيَّةِ وَالسِّيَّاسِيَّةِ.

تَرَاجَعَتْ الْمَشَارِيعُ الْفِكْرِيَّةُ الْكُبْرَى لِصَالِحِ الرَّوِيِّ الْجَزْيِيَّةِ وَالشَّعَارَاتِيَّةِ، وَبَاتَ بَعْضُ التَّسْطِيحِ سَمْتِ الثَّوْرَةِ الرَّقْمِيَّةِ، وَطُوفَانَ خِطَابَاتِ الْجُمُوعِ الرَّقْمِيَّةِ الْغَفِيرَةِ مِنْ الْمُنشُورَاتِ وَالتَّغْرِيدَاتِ وَالْفِيْدِيُوهَاتِ الطَّلُوقَةِ فِي مُجْتَمَعِ الْوُمُضَاتِ الرَّقْمِيِّ، عَلَى نَحْوِ أَثَرِ عَلِيِّ الْحَيَاةِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْاَكَادِيمِيَّةِ، وَالْفِرَاءَةُ الْوَرَقِيَّةُ لِصَالِحِ الْقِرَاءَةِ الْوُمُضَةِ كَمَا سَبَقَ أَنْ أَطْلَقْنَا عَلَيْهَا، وَغَلَبَةُ الرَّقْمِيِّ عَلَى الْوَرَقِيِّ.

نُحَاوِلُ فِي هَذِهِ الدَّرَاسَةِ الوَجِيزَةِ تَقْدِيمَ بَعْضِ المُلَاحَظَاتِ التَّقْدِيةِ حَوْلَ أزمَاتِ العَقْلِ العَرَبِيِّ فِي عَالَمِ فَائِقِ السَّرْعَةِ وَالتَّحْوُلِ إِلَى الأنَاسَةِ الرَّوبوتِيَةِ كَمَدْخَلٍ لِمَرَحَلَةٍ مَا بَعْدَ الأنَسَانِ .

أولًا: حَالَتِنَا الرَّاهِنَةُ . . . صَدَمَاتٌ وَاضْطِرَابٌ، وَأَوْهَامٌ وَتَوَهَانٌ تَارِيخِيٌّ

الْوَصْفُ "صَدْمَةٌ" مُسْتَعَارٌ مِنَ الفَيْنِ تُوقَلَرُ، فِي كِتَابِهِ "صَدْمَةُ المُسْتَقْبَلِ"، وَيُخِيلُنَا إِلَى صَدْمَةِ الحَمَلَةِ الفَرَنْسِيَّةِ الَّتِي وُصِفَتْ بِصَدْمَةِ الحَدَاثَةِ، فِي مُوَاجَهَةِ الفِكْرِ التَّقْلِيدِيِّ الدِّينِيِّ الطَّاعِ، وَصَدَمَاتِ لِبَعْضِ الهَزَائِمِ التَّارِيخِيَّةِ مِثْلَ هَزِيمَةِ يُويُو 1967 وَغَيْرِهَا مِنْ هَزَائِمِ التَّخَلُّفِ التَّارِيخِيِّ المُرَكَّبِ . وَالسُّؤَالُ هَلْ الوَصْفُ "صَدْمَةٌ" لَا يَزَالُ صَالِحًا فِي وَصْفِ الحَيَاةِ العَقْلِيَّةِ لِبَعْضِ المُفَكِّرِينَ وَبَقَايَا الجَمَاعَاتِ الثَّقَافِيَّةِ العَرَبِيَّةِ؟

الحَالَةُ الرَّاهِنَةُ تَبْدُو أَكْثَرَ خُطُورِهِ وَتَفَاقُمًا لِلْمُسْكَكَاتِ المُعَقَّدَةِ أَكْبَرَ مِنْ الوَصْفِ "صَدْمَةٌ"! إِمْعَانِ النَّظَرِ فِي بَعْضِ الإِتْبَاحِ المُعْرِفِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَالسُّوسِيُولُوجِيِّ وَالفَلَسْفِيِّ الشَّاعِجِ تُشِيرُ إِلَى حَالَةٍ مِنَ الغِيَابِ عَنُ زَمَنِ العَالَمِ المُتَحَوِّلِ فَائِقِ السَّرْعَةِ، وَلَازَالِ الدَّوْرَانِ فِي عَالَمِ الدَّوَائِرِ المُعْلَقَةِ، وَالتَّنَائِيَّاتِ الصَّدِيَّةِ (مِنْ مِثْلِ الأَصَالَةِ وَالمُعَاصِرَةِ، وَالتُّرَاثِ وَالحَدَاثَةِ، وَالتُّرَاثِ وَالتَّجْدِيدِ . . . إلخ) يُعْيِقُ تَطَوُّرَ الفِكْرِ العَرَبِيِّ وَالتَّحَرُّرِ، مِنْ دَوَائِرِهِ المُعْلَقَةِ نَسْبِيًّا فِي ظِلِّ مِيرَاثِ تَقْلِيدِيٍّ تَارِيخِيٍّ مُمْتَدٍّ، وَهَيْمَنَةِ العَقْلِ الدِّينِيِّ الِاسْتِبْدَادِيِّ وَالتَّسْلِطِيِّ، وَيَسُوغُ شَرْعًا سِيَاسَاتِهَا، وَيُبْرِرُ أخطَائِهَا وَكَوَارِثَهَا السِّيَاسِيَّةَ وَالجَمَاعِيَّةَ وَالاِقْتِصَادِيَّةَ . . . إلخ .

كَانَ سُؤَالُ سُكَيْبِ أَرْسَلَانَ: لِمَاذَا تَقَدَّمُوا وَلِمَاذَا تَخَلَّفْنَا؟ كَمَا فِي مَا وَرَاءَ بَعْضِ هَذِهِ المُقَارَبَاتِ، بَعْضُهَا ذَهَبَ إِلَى التَّقْلِيدِ التُّرَاثِيِّ التَّقْدِيبِيِّ فِي مُوَاجَهَةِ مُحَاوَلَاتِ التَّجْدِيدِ الدِّينِيِّ، وَبَعْضُهَا ذَهَبَ بَعِيدًا نَحْوَ الحَدَاثَةِ وَالعِلْمَانِيَّةِ، وَتَمَّ حِصَارُهُ (سَلَامُهُ مُوسَى)، وَبَعْضُهَا لَا يَزَالُ يُطْرَحُ مِثْلَ كِتَابَاتِ طَه حُسَيْنٍ فِي

الشَّعْرُ الْجَاهِلِيَّ وَغَيْرِهِ، رَغْمَ بَعْضِ تَرَاجِعِهِ، وَبَعْضُهَا لَا يَزَالُ بِهِ بَعْضُ الثَّنَائِيَّاتِ، وَالْإِتِّسَارِ (مُحَمَّدُ عَابِدُ الْجَابِرِيِّ)، وَبَعْضُهَا لَا يَزَالُ بِهِ بَعْضُ الْإِلَاقِ، عَبْدُ اللَّهِ الْعَرُوي، وَعَلَى أَحْمَدَ سَعِيدِ (أَدُونِيسِ)، رَغْمَ نَهَايَةِ الْأَيْدِيُولُوجِيَّاتِ، وَبَعْضُهَا ذَهَبَ إِلَى بَعْضِ الْمَتَابَعَاتِ الْفَلْسَفِيَّةِ، وَالتَّرَاجِمِيَّةِ (مُحَمَّدُ سَبِيلًا وَصَحْبِهِ) وَبَعْضُهُمْ ذَهَبَ إِلَى الدَّرْسِ التَّارِيخِيِّ وَالْفَلْسَفِيِّ الْإِسْلَامِيِّ (مُحَمَّدُ الشَّرْفِيِّ، وَمُحَمَّدُ الطَّالِبِيِّ، وَعَبْدُ الْمَجِيدِ الشَّرْفِيِّ وَتَلَامِيذُهُ الْمَجِيدِينَ).

وَتَنَاسَلَتْ مِنْ خِلَالِ هَؤُلَاءِ الْبَارِزِينَ اتِّبَاعِيَيْنَ جَدَّدَ، لَكِنْ لِإِزَالَتِ غَالِبِ الْمَقَارِبَاتِ تَدَوُّرٌ فِي ظِلِّ سِيَاحَاتٍ مِنَ الْخَوْفِ مِنْ مُوَاجَهَةِ الْجُمُوعِ الْغَفِيرَةِ مِنْ اتِّبَاعِ التَّدِينِ الْوَضْعِيِّ الشَّعْبِيِّ الْفِعْلِيِّ، وَالرَّقْمِيِّ الَّذِينَ يُفَرِّضُونَ حَالَةَ مِنْ الْوَصَايَةِ وَبَثَّ الْخَوْفَ وَالزُّعْرَ عَلَى آيَةِ مُحَاوَلَاتِ لِلتَّجْدِيدِ الدِّينِيِّ، أَوْ الْمَقَارِبَاتِ التَّارِيخِيَّةِ لِلدِّينِ، وَمُقَارِبَاتِ الْأَدْيَانِ.

حَالَةَ الْغِيَابِ عَنْ تَحَوُّلَاتِ عَالَمِنَا الْمُتَحَوِّلِ وَالْوَاقِعِ الْمَوْضُوعِيِّ فِي كُلِّ دَوْلَةٍ وَمُجْتَمَعٍ عَرَبِيِّ مَرْجِعُهَا عَدِيدِ الْأَسْبَابِ الَّتِي يُمَكِّنُ إِيْرَادُ بَعْضُهَا فِيْمَا يَلِي:

I- هَيْمَنَةُ الْمَقَارِبَاتِ وَالْمِنْهَجِيَّاتِ الَّتِي سَادَتْ مَرَحَلَةَ التَّحْدِيثِ الْمَعَاقِ، وَالْحَدَاثَةِ الْمَبْتَسِرَةِ وَالْعُلُومِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ الَّتِي تَمَّ إِيْتَاجُهَا فِي الْجَامِعَاتِ وَالْفِكْرِ الْأَوْرُوبِيِّ، وَتَمَّ اسْتِعَارَتُهَا وَغَرْبُهَا مُخْتَصِرٌ لِبَعْضِهَا وَمُحَاوَلَةٌ تَطْبِيقِ بَعْضِهَا عَلَى حَالَتِنَا الْمِصْرِيَّةِ الَّتِي انْطَلَقَتْ مِنْذُ نَهَايَةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، إِلَى مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، حَتَّى هَزِيمَةِ يُونِيُو 1967، فِي دَرْسِ الْوَاقِعِ نَظْرِيًّا، مَعَ تَحَوُّلَاتِ وَتَطَوُّرِ وَاحْتِيَافِ حَالِهِ الْمَعْرِفَةِ وَالْمَتَاهِجِ عَالَمِيًّا، وَالْوَاقِعِ الْمَوْضُوعِيِّ. لِأَنَّ بَعْضَ هَذِهِ التَّرْجَمَاتِ وَالِاسْتِعَارَاتِ النَّظْرِيَّةِ

والمفاهيمية كان يتم استمداد بعضها بعد غروبها التاريخي النسبي في المركز الأوروبي، ثم الأمريكي فيما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى العقدين الماضيين من الألفية الثالثة إلا قليلاً جداً .

2- الضوابط المفروضة على الحريات الأكاديمية، وخاصة البحث الميداني لمعرفة تضاريس الواقع الاجتماعي وتحولاته، والأهم انفصال بعض البحوث الميدانية عن دوائر صنع السياسات والقرارات عند القمة الحاكمة في العالم العربي إلا قليلاً .

3- تراجع البعثات العلمية للجامعات العربية -مع استثناء بعض الدول- في منطقتي الخليج العربي -مع عدم مواكبة حركة الترجمة، في مجال العلوم الاجتماعية، وخاصة في التحول إلى ما بعد الحداثة، وما بعد بعدها، ثم إلى بدايات الثورة الصناعية الرابعة وما ترجم ولا يزال محدود جداً ولا يتجاوز عشرات الكتب عن الذكاء الاصطناعي، والإناسة الروبوتية وما بعد الإنسان .

4- هيمنة نظره الخبراء في تخصصات شتى، وعدم متابعة غالبهم للتحويلات التقنية والعلمية الطبيعية وفي عالم الأفكار والفلسفة والنظريات الاجتماعية التي تحاول مواكبة هذه التحويلات الفارقة لما يجري في العالم فيما وراء الأحداث السياسية والعسكرية، وما يجري في الواقع الموضوعي داخل كل بلد عربي .

5- نشيط مشكلات الواقع الموضوعي، وأعادته إنتاجها في غالب الخطاب المدرسي الجامعي، والإعلامي والرسمي على الرغم من التغيرات التي لحقت بها .

6- الانفصال بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، وهيمنه العقل الديني في تكوين بعض كوادر الكليات العملية وغيرها من الكليات المتخصصة في العلوم الاجتماعية منذ عقد السبعينيات من القرن الماضي.

7- سطوة وسيطرة خطاب الهوية المعلق ذو البعد الأحادي الديني التاريخي واستبعاداته للمكونات المتغيرة للهويات المتخيلة، وأيضا للمكونات العرقية، والدينية، والمذهبية، والقبلية والعشائرية، والقومية، واللغوية الأخرى داخل تركيبه المجتمعات العربية المركبة والانقسامية. تحول خطاب الهوية إلى انفجار هوى تاتي متعدد داخل كل بلد في ظل ضعف وتآكل سياسات الاندماج الوطني الداخلي، وفشل توجهه الانتفاضات الجماهيرية واسعة النطاق بعد يناير 2011، وما بعد.

8- أدت أزمات بناء الدولة ما بعد الكولونيالية إلى تركيز الطبقات السياسية الحاكمة على محاولة بناء وتشكيل الشخصية القومية لكل دولة، إلى أضعاف الفكرة القومية العربية، وأنهيارها سياسيا، وأيضا إلى أضعاف العروبة الثقافية، وبروز النزاعات البيئية بين دولها على الحدود، والمكانة، والدور الإقليمي، وبناء تحالفات ضدية بين بعضها بعضا!

9- بروز بعض المقاربات الفلسفية في المنطقة المغاربية حول اختلاف العقل المغربي/ المغاربي عن العقل المشرقي تاريخيا، وأيضا على نحو معاصر كما بدى في مشروع محمد عابد الجابري، ونقد جورج طرابيشي لهذا المشروع. ومشكلة هذا الاتجاه الفلسفي/ السياسي/ الثقافي في جوهره هو مقاربتة الفلسفية بين ثنائية العرفان/ البرهان، دون نظر في السياسي، والتاريخي، والسوسيولوجي. وهو ما يعكس أحد سمات الانفصال بين التقليدي، والتاريخي الاجتماعي الموضوعي.

IO- تَقَامُ أَرْزَامَاتُ السِّيَاسَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ -التَّعْلِيمِ الْعَامِّ وَالْجَامِعِيِّ- وَمَنَاهِجِهَا، وَاعْتِمَادُهَا عَلَى إِيْمَاءِ
الذَّاكِرَةِ الْحَافِظَةِ، وَالذَّرْسِ الْأَحَادِيِّ التَّوَجُّهِ مِنْ الْمُدْرَسِ وَالْأُسْتَاذِ إِلَى الطَّلَبِ، دُونَ الدَّرْسِ الْعُقْلِيِّ
التَّقْدِيمِيِّ، وَالتَّفَاعُلِيِّ بَيْنَ خُطَابِ الْأُسْتَاذِ/ الطَّلَبِ، عَلَى نَحْوِ أَدَى إِلَى سَيْطَرَةِ عَقْلِ الْإِمْتِتَالِ وَالْخُضُوعِ
وَالتَّلْقِي، وَنَزَعَهُ تَقْدِيسِ الْوَضْعِيِّ حَوْلَ السَّرْدِيَّاتِ التَّارِيخِيَّةِ الدِّينِيَّةِ، وَتَدْبِيرِ الْعَقْلِ السَّائِدِ مِنْ خِلَالِ
الْمُدْرَسِينَ وَالْمُدْرَسَاتِ ذَوِي التَّوَجُّهِاتِ الدِّينِيَّةِ التَّقْلِيَّةِ فِي بَعْضِ الْكَلِمَاتِ بِاسْتِثْنَاءَاتٍ مَحْدُودَةٍ فِي تُونِسَ
وَالْمَغْرِبِ وَلِبْنَانَ وَسُورِيَا .

II- هَيْمَنَةُ رَهَابِ التَّكْفِيرِ الدِّينِيِّ الَّذِي رَفَعَتْهُ الْجَمَاعَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ الرَّادِيكَالِيَّةُ وَالْأَخْوَانِيَّةُ،
وَالسَّلْفِيَّةُ فِي أَغْقَابِ حَرْبِ أُكْتُوبَرِ 1973 ضِدَّ أَيِّ اتِّجَاهَاتٍ تَجْدِيدِيَّةٍ فِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ، أَوْ إِزَاءِ آرَاءِ
بَعْضِ الْمُفَكِّرِينَ الْعُلَمَائِيِّينَ أَوْ أَشْبَاهِهِمْ مَمَّنْ يُطَالَبُونَ بِمُدْنِيَةِ الدَّوَلَةِ وَالْفُضْلُ بَيْنَ الدِّينِ وَالسِّيَاسَةِ، وَشُيُوعِ
خُطَابِ التَّكْفِيرِ عَلَى نَحْوِ شُعْبُوِي بَيْنَ دَعَاةِ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ، وَدَعَاةِ بَعْضِ الطَّرِيقِ، وَفَقِ تَعْبِيرِ الْأُسْتَاذِ
الْعَمِيدِ طَهْ حُسَيْنِ، وَهُوَ مَا أَدَى إِلَى عَدِيدِ مِنْ جَرَائِمِ الْإِعْتِيَالِ عَلَى رَأْسِهِمِ السَّادَاتِ، وَفَرَجِ قَوْدِهِ،
وَمُحَاوَلَاتِ اغْتِيَالِ الْأُسْتَاذِينَ نَجِيبِ مَحْفُوظِ، وَمُكْرَمِ مُحَمَّدِ أَحْمَدُ، وَحُسْنِ أَبُو بَاشَا وَزِيرِ الدَّاخِلِيَّةِ
الْأَسْبِقِ .

إِشَاعَةُ خُطَابِ التَّكْفِيرِ الدِّينِيِّ، أَدَى إِلَى حَالَةٍ مِنْ الْإِنْكَهَاءِ الدَّائِي، خَاصَّةً بَعْدَ تَمُدُّدِهِ إِلَى عَالِمِ
السَّرْدِيَّاتِ الرَّوَايَةِ وَالْقَصَصِيَّةِ، وَالشَّعْرُ/ وَمِثَالُهَا حَلْمِي سَالِمِ فِي دِيَوَانِهِ شَرْفِهِ لَيْلَى مُرَادِ وَالرَّوَايَاتِ
الثَّلَاثِ، وَالتَّظَاهِرَاتِ مُنْجَانِبِ الطَّلَابِ الْإِخْوَانِ ضِدَّ الرَّوَايَاتِ الثَّلَاثِ .

I2- أدت الثورة الرقمية إلى انفجار كاشف عن جيولوجيا التفاهة والسطحية في التعليم، والثقافة، والمعرفة السائدة وسط الجموع الرقمية الغفيرة، وأرنكولوجيا العقل السطحي، وتنوعاته. انفجار كشف عن عزله الثقافة العالمة / العليا، والثقافة السطحية الشائعة، والانتقال من العمق المعرفي إلى سطوح التفاهة، ومن الميذوكراتيه إلى المنيوقراطية - ما دون الحد الأدنى من المعرفة، والتعليم والوعي - وهو ما يتجلى في خطاب المنشورات، والأخبار الكاذبة، والتغريدات، والفيديوهات الطلقة، والصور الومضة ذاتية الكشف عن أزمت الذات المازومه، والرغبة العارمة في إثبات الذات، والقراءات الومضة. إلخ.

I3- التجاور بين الأخبار الكاذبة، والمقولات الذاتية المنسوبة للفلاسفة والمفكرين وكبار الفنانين، وغير الصحيحة، ولا تعدو أن تكون سعى من كتابها لتمرير آراءهم السطحية.

I4- انفصال البحث الأكاديمي عن سوسيوولوجيا الرقمنة والاستثناءات محدودة ونادرة عربياً، وهو ما يعني الانفصال عن الحياة الرقمية، وانعكاساتها على الحياة الفعلية، ناهيك عن عدم متابعات الفكر العالمي حول ثورة الرقمنة، وتحليلها، ومالات تطورها فائق السرعة.

I5- أدت الثورة الرقمية إلى انكشاف للذوات الرقمية الغفيرة، وبهاية الخصوصية، وتنامي "مجتمع الاستعراض الرقمي"، إذا شئنا استعارة جئ ديور وكتابة الشهر في فضاءات 68 في فرنسا. عالم الاستعراضات الرقمية لا يزال بعيداً عن الدرس السوسيوولوجي العربي سوى قلة محدودة جداً من الباحثين.

I6- أدى "مجتمع الاستعراض الرقمي" إلى جذب بعض الأكاديميين، وبعض المثقفين، في عرض صورهم، وبعض آراءهم الوجيهة على مواقع التواصل الاجتماعي، سعياً وراء الشهرة والذئوع.

17- في عَصْرِ الصُّورَةِ الّومِضِ، وَالْفِيدْيُو الّومِضِ لَأ تُوْجَدُ إِلَّا نَادِرًا تَحْلِيلَ لِهَذِهِ التَّوْجُّهَاتِ الرَّقْمِيَّةِ الْجَدِيدَةِ
لِلْجُمُوعِ الْغَنِيْرَةِ، وَالْمُتَّقِنِينَ، وَالْأَدْبَاءِ وَمِثْلِهِمُ الْعَارِمِ إِلَى حُضُورِهِمْ مِنْ خِلَالِ الصُّورِ الّومِضِ بَدِيْلًا عَنِ
الْأَفْكَارِ.

يَبْدُو مِمَّا سَبَقَ وَغَيْرُهُ مِنْ مَلَاَحِظَاتٍ أَنَّ هُنَاكَ حَالَةً عَامَّةً مِنْ الْإِنْفِصَالِ بَيْنِ الْفِكْرِ، وَالْحُضُورِ الرَّقْمِيِّ - إِلَّا
قَلِيْلًا جَدًّا لِبَعْضِ الْمَوَاقِعِ - وَبَيْنِ الْفِكْرِ وَالْوَاقِعِ الْفِعْلِيِّ الْمَوْضُوعِيِّ، وَهَيْمَنَةِ الْإِنْطِبَاعَاتِ الْمُسَبِّقَةِ عَلَيَّ
تَحَوُّلَاتِ الْوَاقِعِ فِي الْحَيَاةِ الْفِعْلِيَّةِ وَالرَّقْمِيَّةِ. الْأَخْطَرُ انْصِبَاعُ بَعْضُهُمْ لِلْغَةِ الْآثَارِيَّةِ جَذْبًا لِلإِنْتِبَاهِ السَّرِيْعِ،
الْإِنْتِبَاهِ الّومِضِ، وَهُوَ مَا يُؤَدِّي إِلَى التَّسْطِاحِ، وَعَدَمِ التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّيرِ وَالْعُمُقِ فِي إِبْدَاءِ الرَّأْيِ أَوْ الْمَلَاَحِظَةِ أَوْ
حَتَّى السُّخْرِيَّةِ.

18- تَفَاقَمَ الْفُجُوتِ الْجَبِيْلِيَّةِ، بَيْنَ عَقْلِ بَعْضِ الْكِبَارِ فِي السَّنِ مِنْ الْكِتَابِ وَالْبَاحِثِينَ، وَمَا بَيْنَ عَقْلِ غَالِبِ
الشَّبَابِ، وَصَغَارِ السَّنِ فِي الْإِهْتِمَامَاتِ، وَتَمَطُّ الْكِتَابَةِ، وَمُقَارَبَةِ الظُّوَاهِرِ، وَعَلَبَةِ السَّرْعَةِ الْفَائِقَةِ فِي
التَّعْبِيرِ، وَعَدَمِ الْإِهْتِمَامِ بِاللُّغَةِ، وَمَدَى سَلَامَتِهَا، وَهُوَ مَا أَدَّى إِلَى غِيَابِ الْجُسُورِ بَيْنَ الْأَجْيَالِ فِي الْحَيَاةِ
الرَّقْمِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ، وَفِي الْإِهْتِمَامَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ وَالْفَنِّيَّةِ وَالْمُوسِيْقِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ
وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ . . . إِنْجَ عَلَيَّ وَجْهِ الْعُمُومِ.

19- ضَعُفَ الْمُنَابَعَةُ التَّحْلِيلِيَّةِ لِلْمِيرَاثِ الثَّقَافِيِّ لِلْقُرْنِ الْعِشْرِينَ وَتَحَوُّلَاتِهِ وَمَالَانُهُ، وَخَاصَّةً الثَّقَافَةَ الْعِلْمِيَّةَ،
وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَقْلَ الْعَرَبِيَّ السَّاعِيَّ إِلَى أَقْلَمِهِ الْحَدَاثَةِ عَلَيَّ نَحْوِ اتِّقَائِي، وَمَبْتُورِ، رَكَرَّ عَلَيَّ بَعْضُ قَضَايَا
وَأَشْكَالِيَّاتِ الثَّقَافَةِ الْعَالِمَةِ، وَالْمَعَارِفِ الْعَمِيْقَةِ دُونَمَا إِهْتِمَامِ كَبِيْرٍ بِالثَّقَافَةِ الْعَامَّةِ، وَالشَّعْبِيَّةِ، وَرَدُودِهَا
عَلَيَّ ثَقَافَةِ التُّخْبَةِ، وَخَاصَّةً فِي أَغْقَابِ هَزِيْمَةِ يُوْنِيُو 1967 إِلَى مَا بَعْدَ حَرْبِ أَكْتُوبَرِ ثُمَّ إِلَى الْعُقْدِ الْأَوَّلِ مِنْ

القرن الحادي والعشرين، ثم ما بعد الانتفاضات العربية، وتراجعها وعوده موت السياسة. كانت الثقافة من أسفل تبدو في الموسيقى، والأغاني، ودعاه الاستعراض الشعبيين، بدءاً من أغاني عائدة الشاعر، وليلى نظمي، وأغاني الفرانكوآراب، وفرق البلاك كوتس من حريجي معهد البالية اللذين كونوا فرقاً للرقص في الملاهي الليلية، وحريجي معهد الكونسرفتوار اللذين عرفوا خلف الرقصات والمندوجيستات! وفي السبعينيات والثمانينيات طغت سينما المقاولات، ودعاه السوق الديني الشعبي. ظلت هذه الظواهر موضوعاً للهجاء، دون التحليل والكشف عن أسباب نجاحها، وانتشارها وسط قواعد اجتماعية واسعة بما فيها الطبقة الوسطى وتحولاتها. وقد أثرت تحولات الإقليم، والهجرة إلى الخليج سعياً وراء الرزق، والسياحة على هذه التحولات الثقافية.

كانت التحولات العالمية في مفهوم الثقافة على المستوى الغربي المتقدم وفاق التطور، في الثلث الأخير من القرن العشرين، هو جزء مما أطلق عليه المؤرخ البريطاني الكبير أريك هوبزبام أزمة متمدنة، والتحولات الكوبية من الثقافة الرفيعة فنون البالية، والسيمفونيات، والمآحف والفن التشكيلي والأغاني... إلخ - إلى ثقافة مختلفة، سريعة الاستهلاك. إلخ. مع أغاني البلوز، والكانتري سائد، وغيرها من أشكال الاستهلاك الفني السريع، وهو ما تماشي مع التغيرات الجيلية وثورة الشباب في 68 في السوربون وباريس وفي كاليفورنيا بركلي، وانعكاساً للتشويء الإنساني والإنسان المستهلك فائق الاستهلاك، ومعه تطور الرأسمالية النيوليبرالية الوحشية وتسليع الحياة الإنسانية.

ظهرت قبل هذه التغيرات وتساوقاً معها بعض التطورات في صناعة السينما وشركات العلاقات العامة الأمريكية من خلال الدخول بين زمن الصورة الفوتوغرافية، وصناعة النجوم، والعلاقات العامة التي غيرت

مِنْ صِنَاعَةِ السِّينَمَا، وَالصَّحَافَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ لِتَغْدُو جُزْءًا مِنْ حَالِهِ السِّينَمَا، وَالشُّهُرَةَ الرَّائِفَةَ، وَفُق كِتَابِ
الصُّورَةِ وَالْأَحْدَاثِ الرَّائِفَةَ لِذَانِيَالِ بُوْرُسْتَيْنِ، وَبَدَتْ الشَّخْصِيَّاتِ الْمَشْهُورَةِ مِنْ الْقَرْنِ الْمَاضِي لَيْسَتْ سِوَى
شَخْصِيَّاتِ عَادِيَةٍ، وَأَخْيَانًا مَدِيُوكِرَاتِ، وَمَنْبُوكِرَاتِ لَكِنْ حُضُورِهِمْ الْمَكْتَفِ فِي الْإِخْبَارِ، وَالصُّورَةِ
الْفُوتُوغْرَافِيَّةِ وَالسِّينَمَا، وَالتَّلْفِيزِ، وَخَبْرَاءِ الْإِعْلَانِ وَالْعَلَاَقَاتِ الْعَامَّةِ يَكْفِي لِأَنَّ يَكُونُوا قَادِرِينَ عَلَى الْوُصُولِ
إِلَى قَلْبِ الْإِخْبَارِ وَفُق بُوْرُسْتَيْنِ لِيَغْدُوا مَشْهُورِينَ .

لَا شَكَّ أَنَّ اتِّقَالَ صِنَاعَةِ الْإِخْبَارِ الْكَاذِبَةِ وَالشُّهُرَةَ الرَّائِفَةَ مِنْ السُّوقِ الْأَمْرِيكِيِّ الثَّقَافِيِّ إِلَى أُوْرُوْبَا، وَالْعَالَمِ
وَتَأَثَّرَتْ مِصْرَ بَعْضٍ مِنْ أُنْعَاَسَاتِهَا الْجُرْئِيَّةِ عَلَى نَحْوِ سَاهَمَ فِي بُرُوزِ ظَوَاهِرِ الْأَغَانِيِ الشَّعْبِيَّةِ، وَسَطُوتِهَا
مِثْلُ ظَاهِرِهِ أَحْمَدَ عَدُوِيَّةِ، وَأَيْضًا دَعَاهُ السُّوقُ مِثْلَ الشَّيْخِ كَشَكْ وَغَيْرِهِ، وَسِينَمَا الْمَقَاوَلَاتِ، وَأَيْضًا بُرُوزِ
مُطْرِبِي بَعْضِ الْمَحَافِظَاتِ، كَالْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَمَحَافِظَاتِ الدَّلْتَا، وَالصَّعِيدِ وَأَغَانِيِ التَّنْبُوَّةِ . . الْيَخ . ثُمَّ ظَاهِرُهُ
شَعْبَانَ عَبْدِ الرَّحِيمِ وَغَيْرِهَا فِيمَا بَعْدُ فِي عَصْرِ مُبَارَكِ !

لَمْ تَخْضَعْ هَذِهِ الظَّوَاهِرُ لِلتَّحْلِيلِ السُّوسِيَّيْ وَلُوجِي، أَوْ الثَّقَافِي وَرَبَطَهَا بِالتَّغْيِرَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَظَوَاهِرِهَا
الْجَدِيدَةِ آنَذَاكَ، وَاقْتَصَرَتْ فَقَطْ عَلَى الْإِدَانَاتِ ذَاتِ الطَّابَعِ الْأَخْلَاقِيِّ وَالْقِيَمِيِّ، الْاسْتِعْلَائِيِّ مِنْ بَعْضِ
الْمُتَقِنِينَ بِالْمَعْنَى الْعَامِ الشَّائِعِ لِلْمُتَقِفِ مِصْرِيًّا، وَعَرَبِيًّا .

20- اسْمَرَّتْ هَذِهِ الظَّوَاهِرُ مَعَ الْاَلْفِيَّةِ الْجَدِيدَةِ، وَتَمَدَّدَتِ التَّنْزَعَةُ الْاسْتِهْلَاكِيَّةُ الْمَفْرَطَةُ، وَالْأَكْلُ السَّرِيْعُ ،
وَمَعَهَا الْأَغَانِيِ السَّرِيْعَةُ، وَالْمُوسِيْقَى السَّرِيْعَةُ، وَكثَافَةُ الْاسْتِهْلَاكِ السَّرِيْعِ عَلَى التَّمَطِّ الْأَمْرِيكِيِّ، وَالْأُوْرُوْبِيِّ،
وَتَرَاجَعَ الثَّقَافَةُ الْعَالِمَةُ لِصَالِحِ الثَّقَافَةِ الرَّقْمِيَّةِ مَعَ تَرَاجُعِ مُسْتَوِيَّاتِ التَّعْلِيمِ، وَشُيُوعِ الرَّقْمَنَةِ، وَالْحَيَاةِ الرَّقْمِيَّةِ،
وَتَحَوَّلِ الْأَغَانِيِ الشَّعْبِيَّةِ فِي الْمَنَاطِقِ الشَّعْبِيَّةِ لِيُفْرَضَ نَفْسَهَا مِنْ أَسْفَلِ إِلَى أَعْلَى، وَتَتَمَدَّدُ بَيْنَ شَرَائِحِ

الطَبَقَةُ الوُسْطَى، إِلَى الوُسْطَى العُلْيَا، وَرِجَالِ الأَعْمَالِ والأَثْرِيَاءِ الجُدُدِ، وَهِيَ مُوسِيقَى وَأَغَانِي تَعْتَمِدُ عَلَى الأَيْقَاعَاتِ المَرْقُصَةِ، وَكَلِمَاتِ الهَجْرِ، وَالخِيَانَةِ بَيْنَ الأَصْدِقَاءِ والعَشَاقِ، وَهُمُومِ وَشَجَوْنِ الفِئَاتِ الشَّعْبِيَّةِ فِي حَيَاتِهَا .

لَمْ تَجِدْ هَذِهِ الظُّوَاهِرِ الجَدِيدَةَ إِلَّا بَعْضَ مَنْ الأَنْطِبَاعَاتِ السَّانِحِ دُونَ دَرَسِ عَمِيقٍ لَهَا مَعَ اسْتِمْرَارِيَّةِ النُّظَرَاتِ الثَّقَافِيَةِ المَوْرُوثَةِ عَنِ الطَّرْبِ، وَالشَّعْرِ العِنَائِيِّ، وَأَقَانِيمِ العِنَاءِ المِصْرِيِّ والعَرَبِيِّ وَشُيُوعِ مُنْطِقِ يُعْلَى مِنْ شَأْنِ هَذِهِ النُّجُومِ، وَيَعْتَبَرُهَا مَرْجِعِيَّةً فِي العِنَاءِ وَالتَّلْحِينِ وَالشَّعْرِ العِنَائِيِّ، وَذَلِكَ كَجُزٍّ مِنْ هَيْمَنَةِ لِمَرْجِعِيَّةِ المَاضِي، أَوْ مَا يُشَاعُ عَنِ "الزَّمَنِ الجَمِيلِ"، وَهُوَ تَعْبِيرٌ ذَالٌّ عَنِ ذَائِقَةِ فَنِيَّةِ تَشْبَعِ بَيْنَ الأَجْيَالِ الأَكْبَرِ سَنًا الَّتِي تُجْعَلُ مِنْ تَجَارِبِهَا المَاضِيَّةِ فِي الحَيَاةِ، وَالسِّينِمَا، وَالتَّعْلِيمِ، وَالمُوسِيقَى وَالحَبِّ، وَالصَّدَاقَةِ، وَالفَيْمِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، هِيَ الزَّمَنِ الجَمِيلِ، الَّذِي هُوَ زَمَنُهَا الَّذِي غَادَرَهَا .

2I- بَرَزَتْ مِنْذُ نَهَايَةِ القَرْنِ المَاضِي فَجَوَاتِ بَيْنَ السُّلْطَةِ الثَّقَافِيَّةِ الرَّسْمِيَّةِ، وَبَيْنَ بَعْضِ المُتَقِفِينَ وَبَعْضِ المُبْدِعِينَ، الَّذِينَ اخْتَارُوا الهَامِشَ الثَّقَافِيَّ الِلاَّ رَسْمِيَّ دَائِرَةَ لِحَرَكَتِهِمْ، وَخِطَابَاتِهِمْ التَّقْدِيَّةِ، وَازْدَادَتْ هَذِهِ الفِجَوَاتِ فِي ظِلِّ سَطْوَةِ بَرُوقِ رَاطِيَةِ هَذِهِ السُّلْطَةِ وَأَجْهَزَتِهَا، وَتَرَاجَعَ دُورُ، وَأَهْمِيَّةُ أَنْشِطَتِهَا، وَتَمَيَّزَتْ بِبَعْضِ المَوَالِينِ دُونَ غَيْرِهِمْ خَاصَّةً فِي التَّدَوَاتِ وَالمُؤْتَمَرَاتِ الخَاوِيَةِ إِلَّا مِنْ فَرَاعِهَا، وَتَرَاجَعَ هَيْبَةُ جَوَائِزِ الدَّوْلَةِ عَلَى تَعَدُّدِهَا، وَرَفُضَ بَعْضُ الثَّقَاةِ التَّرْشُحَ لَهَا مِنْ أَيْ جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِ التَّرْشِيحِ المُقَرَّرَةِ .

22- مَعَ الثُّورَةِ الرِّقْمِيَّةِ، وَالحَيَاةِ الرِّقْمِيَّةِ وَتَمَدُّدِهَا فِي حَيَاةِ الجُمُوعِ الرِّقْمِيَّةِ العُفْرِةِ بَرَزَتْ ثَقَافَةُ السُّخْرِيَّةِ وَالتَّنْمِرِ -الدِّينِيَّةِ وَالمَذْهَبِيَّةِ وَالعَرَقِيَّةِ- وَمَعَهَا الأِسَاءَاتِ إِلَى الرُّمُوزِ السِّيَاسِيَّةِ، وَسِيَّاسَاتِهَا، وَقَرَارَاتِهَا مِنْ خِلَالِ اللُّغَةِ السَّاخِرَةِ، وَذَلِكَ هُرُوبًا مِنْ جَحِيمِ الوَاقِعِ الفِعْلِيِّ وَقُبُودِهِ إِلَى حُرِّيَّةِ التَّعْبِيرِ الرِّقْمِيِّ وَاسِعَةٍ

التطابق، سواءً على الصفحات الشخصية المغلقة، أو غيرها المرموزة والمتخفية، وغير المغلقة وتحت رقابات شتى في ذات الوقت.

23- من ناحية أخرى، تحوّل الواقع الرقمي وفضاءاته ومواقفه إلى ساحة سجال حول الهويات الوطنية، والصراخ باسم الإيمان الهوياتي، ورجوع بعضهم إلى هوى أتهم الأوثية الأفريقية القبلية في إقليم دارفور، والهوى العربية/الإسلامية في قبائل الوسط التليي، والأمازيغيه في المغرب، والبربرية في الجزائر، وتمييز ذوي البشرة البيضاء ضد ذوي البشرة السوداء من الأصول الأفريقية في موريتانيا، والهوى المذهبية الشيعية في مواجهة الهوية السنية، والكردية القومية في مواجهة العروبة بالعراق، وهوى الشيعة في مواجهة السنة.

انفجارات الهويات باتت تشجع الانقسامات الداخلية، وعلامة أزمايت كبرى في الدولة والمجتمع العربي لاسيما مع تراجع الفكرة العربية الجامعة، والعروبة الثقافية، في ظل تنامي استخدامات اللغات المحكية، أو العامية في البلدان العربية على نحو أدى إلى تمزق وتذري المجمعات العربية داخليا. وعلى مستوى العالم العربي أضعف الدول، والأنظمة السياسية، وكرس الاتباعية السياسية لدى الطبقات السياسية الحاكمة، للولايات المتحدة، ودول المجموعة الأوروبية خاصة فرنسا وبريطانيا وإيطاليا.

24- تنامي أدوار دول الجوار الإقليمي في قلب العالم العربي -إيرن، وتركيا، وإسرائيل- وتوظيفها للصراع العربي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية ضد الأنظمة العربية الحاكمة، على نحو ساهم في تراجع الأهمية النسبية لقضية العرب المركزية في الخطاب السياسي العربي، ولدى الطبقات السياسية الحاكمة.

وَتَمَامِي التَّوَجُّهَاتِ فِي السِّيَاسَةِ الْخَارِجِيَّةِ لِبَعْضِ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ نَحْوِ التَّطْبِيعِ مَعَ إِسْرَائِيلَ، وَذَلِكَ كِبَوَابَةِ
لِلتَّعَامُلِ مَعَ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ.

مِنْ الشَّيْقِ هُنَا مُمَاحَظَةٌ أَنَّ الْفِكْرَ الْعَرَبِيَّ الْحَدِيثَ وَالْمَعَاصِرَ سَيَطَّرُ عَلَيْهِ الْخِطَابُ الْأَيْدِيُولُوجِيَّ الْيَسَارِيَّ،
وَالْقَوْمِيَّ الْعَرَبِيَّ - التَّنَاصُرِيَّ وَالْبُعْثِيَّ - فِي إِطَارِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَطْرُوحَاتِ الْأَيْدِيُولُوجِيَّةِ، وَالْإِسْلَامِيَّةِ فِي
إِطَارِ رُؤْيَا دِينِيَّةٍ مُغْلَقَةٍ، وَجَامِدَةٍ حَوْلَ الْيَهُودِ وَالْيَهُودِيَّةِ.

قَلَّةٌ قَلِيلَةٌ هِيَ الَّتِي اِهْتَمَّتْ بِالذَّرْسِ الْبَحْثِيِّ وَالْأَكَادِيمِيِّ حَوْلَ إِسْرَائِيلَ، وَتَحْلِيلِ الدَّوَلَةِ وَالْمَجْتَمَعِ وَالنِّظَامِ
السِّيَاسِيِّ وَنِظَامِ السِّيَاسَةِ الْخَارِجِيَّةِ، وَالثَّقَافَةِ وَالْإِتِّجَاعِ التَّقْنِيِّ وَالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، وَالنِّظَامِ الْاِقْتِصَادِيِّ
وَالْاجْتِمَاعِيِّ، وَالْمُسْتَوْطَنَاتِ، وَالْمَنَافَسَاتِ بَيْنَ إِشْكَاكِ الْيَهُودِ السَّفَارَذِيِّينَ . . . الْإِخ.

مِنْ هُنَا رَغْمُ الثَّوْرَةِ الرَّقْمِيَّةِ وَالْإِتِّصَالِيَّةِ تَبَاعَدَتْ الْمَسْأَلَةُ الصَّهْيُونِيَّةِ، وَدِرَاسَاتُ إِسْرَائِيلَ بَعِيدًا عَنِ
اهْتِمَامَاتِ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الرَّاهِنِ إِلَّا قَلِيلًا جَدًّا، وَبَاتَتْ تُشَكِّلُ مَنطِقَةً مُعْتَمَةً. مِنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى، غَابَتْ
الدِّرَاسَاتُ حَوْلَ أَوْضَاعِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ فِي غَزَّةِ وَالضَّفَّةِ بَعْدَ أُوسْلُو، وَفِي فِلَسْطِينِ 1948.

ثَمَّةُ نَهْمِيْشٍ لِمَسْأَلَةِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ، وَالْفِلَسْطِينِيِّينَ فِي الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ مُنْذَ أُوسْلُو، وَإِلَى الْآنَ، بِاسْتِثْنَاءِ بَعْضِ
الْمَتَابَعَاتِ الْبَسِيْطَةِ لِلانْتِفَاضَاتِ الشَّعْبِيَّةِ ضِدَّ الْاِحْتِلَالِ، وَالْعُدْوَانَ الْمُتَكَرِّرِ عَلَى قُطَاعِ غَزَّةِ وَالضَّفَّةِ
الغُرْبِيَّةِ، وَبِاسْتِثْنَاءِ بَعْضِ الْمَتَابَعَاتِ الصَّحْفِيَّةِ وَالْإِعْلَامِيَّةِ لِلْمَنْظَمَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الرَّادِيكَالِيَّةِ
كَحَمَاسِ وَالْجِهَادِ الْإِسْلَامِيِّ.

25- مُنذُ الْعُقْدَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ مِنَ الْأَلْفِيَةِ الْجَدِيدَةِ، رَكَزَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ عَلَى بَعْضِ الْقَضَايَا السِّيَاسِيَّةِ دَاخِلَ كُلِّ بَلَدٍ وَمُجْتَمَعٍ عَرَبِيٍّ، سَعْيًا نَحْوِ الْأَصْلَاحِ السِّيَاسِيِّ، وَهُوَ مَا كُرِسَ غِيَابَ الدَّرَاسَاتِ الْمُتَخَصِّصَةِ عَنِ الدُّوَلِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَنْظَمَتِهَا السِّيَاسِيَّةُ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةُ فِي الْعُمُقِ. وَبَاتَ بَعْضُ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ غَائِبًا -إِلَّا نَادِرًا- عَنِ مَعْرِفَةِ غَالِبِ الْبُلْدَانِ الْعَرَبِيَّةِ، وَتَغْيِيرَاتِهَا الدَّاخِلِيَّةِ، وَالْإِسْتِنَاءَاتِ مَحْدُودَةٍ.

26- الدَّرَاسَاتُ الْعَرَبِيَّةُ حَوْلَ إِيرَانَ، وَتُرْكِيَا لَا تَزَالُ مَحْدُودَةً تَمَامًا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَأْثِيرِهَا عَلَى بَعْضِ الدُّوَلِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ كُسُورِيَا، وَالْعِرَاقِ، وَالْيَمَنِ، وَالْبُحْرَيْنِ، وَلُبْنَانَ، وَقَطَاعِ غَزَّةِ.

هَذَا التَّغْيِيرُ يُشْكَلُ نَكُوصَ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ الرَّاهِنِ، عَنِ الْإِهْتِمَامِ وَالدَّرَاسَةِ لِهَذِهِ الدُّوَلِ، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الْمَقَالَاتِ الصَّحَفِيَّةِ وَالرَّقْمِيَّةِ السَّرِيعَةِ الَّتِي تُعْلِنُ عَلَى بَعْضِ الْأَحْدَاثِ، وَغَالِبًا مَا تَعَكِّسُ السِّيَاسَةَ التَّخْرِيْبِيَّةَ لِلصَّحِيفَةِ، أَوْ الْمَجَلَّةِ، أَوْ الْمَوْقِعِ الرَّقْمِيِّ، وَمَتَوَلِيهِ.

27- غَالِبُ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ السِّيَاسِيِّ عُمُومًا غَائِبٌ عَنِ الدَّرْسِ الْأَكَادِيمِيِّ وَالْبَحْثِيِّ الْمُتَخَصِّصِ فِي أَقَالِيمِ الْعَالَمِ، سِوَاءً فِي الدَّوَائِرِ الْإِقْلِيمِيَّةِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْجُغْرَافِيَا السِّيَاسِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، أَوْ فِي أُرُوبَا، وَأَسِيَا، وَأَمْرِيكَا اللَّاتِينِيَّةِ، وَأَفْرِيْقِيَا، وَأَسْتْرَالِيَا، حَيْثُ لَا تُوجَدُ مَرَاكِرُ دِرَاسَاتٍ مُتَخَصِّصَةٍ إِلَّا قَلِيلًا، وَغَالِبًا تُرَكِّزُ عَلَى السِّيَاسَاتِ الْخَارِجِيَّةِ، أَوْ بَعْضِ مِنَ الْجَوَانِبِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ، أَوْ الْعُسْكَرِيَّةِ، إِلَّا أَنْ تَمَّ غِيَابُ لثقافات هذه المُجْتَمَعَاتِ، وَتَرَكَيبِهَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْعِرْقِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ، وَنَظْمِهَا السِّيَاسِيَّةِ، وَتَارِيحِهَا الْحَضَارِيِّ - بَعْضُ التَّرْجَمَاتِ تُرَكِّزُ عَلَى الرُّوَايَاتِ، وَبَعْضُ الشُّعْرِ، وَالْمُجْمُوعَاتِ الْقِصَصِيَّةِ - مِنْ تَمَّ يَغْدُو الْعَالَمَ وَثقافته فِي أَعْمَاقِهَا لَا تَزَالُ مِسَاحَاتٍ غَامِضَةً، وَبَعْضُهَا مُعْتَمً فِي غَالِبِ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ الرَّاهِنِ.

صَحِيحٌ إِنَّ الْعَقْلَ الْعَرَبِيَّ، وَالْعَقْلَ الْأُورُوبِيَّ وَالْعَرَبِيَّ - وَالْإِفْرِيْقِيَّ وَالْأَسِيَوِيَّ وَاللَّاتِينِيَّ - فِي عِلَاقَاتِهِ وَتَفَاعُلَاتِهِ مَعَ كَافَّةِ ثَقَافَاتِ الْعَالَمِ، لَا يَعْنِي التَّخَصُّصِ فِي عِدِيدِ الْمَجَالَاتِ، وَهَذَا أَمْرٌ مَهْمُومٌ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْغِيَابَ عَنِ التَّخَصُّصِ فِي هَذِهِ الْمَنَاطِقِ الْجُيُودِ - ثَقَافِيَّةً، وَالْجُيُودِ - سِيَاسِيَّةً، وَالْجُيُودِ - دِينِيَّةً يُؤَثِّرُ عَلَى طَرَائِقِ إِدْرَاكِ الْعَالَمِ، وَفَهْمِهِ، وَمَنْ تَمَّ كَيْفِيَّةُ الْحِوَارِ وَالْتِمَاعِلِ وَالتَّفَاعُلِ الْخَلَاقِ مَعَهُ. الْأَهَمُّ أَنَّ مَعْرِفَةَ وَفَهْمَ الْعَالَمِ - عَلَى نَحْوِ تَخَصُّصِي أَوْ عَامٍّ - يُؤَدِّي إِلَى تَخَصُّبِ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ، بِمَوَارِدِ مَعْرِفَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ، وَإِلَى بَعْضِ الْأَسْعَارَاتِ الثَّقَافِيَّةِ، أَوْ التَّمَنِّيَّةِ الَّتِي تُثْرِي التَّعَدُّدَ فِي الثَّقَافَاتِ الْعَرَبِيَّةِ. الْغِيَابُ، أَوْ الْمَعْرِفَةُ الْعَامَّةُ وَالْمَشْوَشَةُ وَشُيُوعُ خَطَابَاتِ غَيْرِ الْمُتَخَصِّصِينَ، تُؤَدِّي إِلَى حَالَةٍ مِنَ الْأَضْطِرَابِ، وَعَدَمِ إِدْرَاكِ الْعَالَمِ وَثَقَافَاتِهِ وَسِيَاسَاتِهِ عَلَى نَحْوِ مَوْضُوعِي، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى تَشْوِشِ صُورِ الْعَالَمِ وَسِيَاسَاتِهِ فِي بَعْضِ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ، وَإِدْرَاكَاتِهِ لِلوَاقِعِ الْمَوْضُوعِيِّ وَتَحَوُّلَاتِهِ الْكُوفِيَّةِ.

28- يَبْدُو أَنَّ الْإِنْكَسَارَ، وَهَزِيمَةَ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ - وَالْإِسْتِنَاءَاتِ مَحْدُودَةٍ جَدًّا بَلْ نَادِرَةٍ - أَدَّتْ إِلَى الْحَيَاةِ فِي التَّوَسُّلِ الْجَيَا الْمَاضِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ، مُمَثَّلَةً فِي النُّكُوصِ التَّقْلِيِّ إِلَى السَّرْدِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ الْقَدِيمَةِ - الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْأَرْتُوذُكْسِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ، وَالسُّرْبَانِيَّةِ وَالْأَرَامِيَّةِ -، أَوْ إِلَى الشُّرُوحِ عَلَى الشُّرُوحِ الْمَارْكَسِيَّةِ، وَبَعْضُ مَنْ نَثَارَاتِ الْفِكْرِ اللَّيْبِرَالِيِّ لِأَسِيْمَا الْقَانُونِيِّ لَا الْفُلْسُفِيِّ، مَعَ نَزْعِهِ إِيمَانِيَّةً تَبْدُو فِي الْإِيمَانِ الدِّينِيِّ وَالْمَذْهَبِيِّ، وَالْإِيمَانِ الْمَارْكَسِيِّ، وَالْإِيمَانِ اللَّيْبِرَالِيِّ، وَالْإِيمَانِ التَّنَاصِرِيِّ، وَالْإِيمَانِ الْبُعْثِيِّ. هَذَا التَّمَطُّ سَبَقَ أَنْ وَصَفْنَاهُ فِي مُفْتَحِ كِتَابِنَا الْمُصْحَفِ وَالسَّنِيفِ صِرَاعِ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ فِي مِصْرٍ - النَّاشِرِ مَكْتَبَةُ مَدْبُولِي الْقَاهِرَةِ فِي عَامِ 1984 - بِأَنَّهَا سَلَفِيَّاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ تَتَمَدَّدُ فِي الْوَاقِعِ الثَّقَافِيِّ، وَالسِّيَاسِيِّ

المُصْرِي، وَأَبْرَزَ سَمَاتِهَا نُذْرَةَ مَنْ أَطَّلَعُوا وَتَعَلَّمُوا، الْمُتُونِ التَّاسِيسِيَّةَ لِلْمَارِكِسِيَّةِ وَاللِّبِرَالِيَّةِ، وَتَطَوَّرَاتِهَا فِي مُهَادِهَا، وَخَارِجِهَا، وَمَا بَعْدَهَا .

مَرْجِعُ ذَلِكَ هَذَا التَّمَطُّ التَّقْلِي الشَّاعِ لَدَى بَعْضِهِمْ، وَالشُّرُوحُ عَلَى الشُّرُوحِ بَعِيدًا عَنْ مَعْرِفَةٍ، وَتَقَدُّ الْأُصُولِ التَّاسِيسِيَّةِ لِهَذِهِ الْفَلَسَفَاتِ الَّتِي تَحَوَّلَتْ إِلَى أَيْدِيُولُوجِيَّاتٍ، وَسَلَفِيَّاتٍ مُؤَدِّجَةٍ، شَكَلَتْ سَيَاجَاتٍ حَوْلَ كُلِّ سَلَفِيَّةٍ، وَخَاصَّةً الْحَدِيثَةَ، وَالْمُعَاصِرَةَ، عَلَى نَحْوِ أَدَى إِلَى إِذْرَاكَاتٍ وَتَخْيِيلَاتٍ مِثَالِيَّةٍ مَفْصُولَةٍ عَنْ الْوَاقِعِ التَّارِيخِيِّ الْمَوْضُوعِيِّ فِي مِصْرٍ، وَعَدِيدِ الْبُلْدَانِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَا تَزَالُ بَعْضُ مَنْ أَصْدَاءُهَا الْخَافِتَةَ تَبْدُو فِي خِطَابَاتِ بَقَايَا جِيلِ السَّبْعِينِيَّاتِ، وَبَعْضُ الْأَجْيَالِ اللَّاحِقَةِ حَتَّى الْعَقْدِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقُرْنِ الْحَالِيِّ، وَتَرَدَّدَتْ بَعْضُ مَنْ شِعَارَاتِهَا الْحَشْبِيَّةِ فِي مِيدَانِ التَّحْرِيرِ، وَشَارِعِ الْحَيْبِ بُورْقِيَّةِ فِي الْإِتْقَاضَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْجَمَاهِيرِيَّةِ فِيمَا سَمَّى مَجَازًا بِالرَّبِيعِ الْعَرَبِيِّ، وَكَانَتْ تَمَثَّلُ إِحْدَى عِلَامَاتِ الْإِنْفِصَالِ عَنْ الْوَاقِعِ الْمُتَغَيِّرِ وَالْأَجْيَالِ الشَّابَّةِ الْجَدِيدَةِ .

29- عَقْلٌ عَرَبِيٌّ، تُسَيِّطِرُ عَلَى بَعْضِهِ أَحْكَامُ الْقِيَمَةِ وَالطُّوبُوغِيَّاتِ الْوَضْعِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، فِي النَّظَرِ إِلَى الْأَفْكَارِ الْوَافِدَةِ، أَوْ الْمَحَلِّيَّةِ، لِأَسِيْمَا مَعَ تَمَدُّدِ الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالسَّلَفِيَّةِ، وَقَمْعِ الْأَفْكَارِ الْحُرَّةِ وَالتَّقَدِّيَّةِ -وَالْإِسْتِنَاءَاتِ مَحْدُودَةِ- وَفَرَضِ الْقِيُودِ عَلَى حُرِّيَّاتِ الرَّأْيِ وَالتَّعْبِيرِ، وَالضَّمِيرِ، وَابْتِحَاثِ الْأَكَادِيمِيِّ وَالْإِجْتِمَاعِيِّ .

ثَابِتًا: مِنْ التَّوَهَّانِ التَّارِيخِيِّ إِلَى الْإِسْتِقَالَةِ عَنْ مُتَابَعَةِ الْمُسْتَقْبَلِ

I- "التَّوَهَّانِ التَّارِيخِيِّ" -وَقَدْ أَنْوَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ- هُوَ وَصَفُ مَجَازِي لِحَالَةِ التَّفَكِيرِ السَّلْطَوِيِّ الْمُسَيِّطِرِ فِي

الْحَالَةِ الْمِصْرِيَّةِ فِي عَصْرِ السَّادَاتِ وَمُبَارَكٍ، وَهُوَ مَا يُنْطَبِقُ عَلَى غَالِبِ الْعُقُلِ الْعَرَبِيِّ عُمُومًا -وَدَائِمًا

ثمة استثناءات مُقدّرة- وهو ما يُعبّر عن حاله التوهان في التاريخ، ويُنطوي على اجترّات، وتحيّزات، وإقصاءات، واستبعاذات لرموز وشخصيات ووقائع تاريخية وذلك لصالح وضعية التحيّز، والتطرّات الأحادية الأيديولوجية، والدينية، والعرقية، واللغوية، والعشائرية، والقبلية، والعائليه، في كتابه تاريخ البلدان العربية. هذا أدى إلى إنتاج حالة من التحيّز وعدم الموضوعية في كتابه تاريخ البلدان العربية وهوياتها من المنظور السلطاني والجمهوري الحاكم، وخاصة بعد الدّولة الكولونيالية، وبعض تاريخها كُتبه المُستشرقون من منظوراتهم المتحيّزه في الغالب أيضًا. كذلك، أدت حاله التوهان إلى تحيزات، والأخطر الانقسام حول موحّدات كل بلد، وهويته وانفجارها إلى هويات انقسامية. والأخطر ظهور تواريخ وهويات انفجارية متعدّدة حول مكونات كل مجتمع، على نحو أدى إلى نمط من محاولات بناء هوية وتاريخ لكل مكون داخل المجتمعات العربية. لا شك أن ذلك أدى إلى نزوع بعض من العقل العربي إلى الانحياز إلى التحيزات التاريخية والهوياتية للسلطة، وراح يسوع ويبرر ويُمنطق تحيزاته اللا تاريخية واللا موضوعية في اختياراته ومجازاته المفترّقة لتاريخ بلاده وعلى هواه، وبعد وفاته يتم إحداث تغييرات في كتب التاريخ المقرّرة في المدارس!

بعضهم الآخر ذهب وراء عرقه، أو طائفته، أو دينه ومذهبه، أو لغته، وراح يصوغ تاريخًا آخر، من منظور تحيزاته على نحو جعل تاريخ كل بلد وهوياته موضوعًا للصراعات الضارية على التاريخ وبه، داخل المجتمعات الانقسامية.

حالة "التوهان التاريخي"، والصراع الهوياتي، والتشوش ساهمت في توترات في الفكر العربي، منذ هزيمة يونيو 1967، وما بعد حرب أكتوبر، وثورة عوائد النفط، ثم انهيار حائط برلين، وسقوط الإمبراطورية

الْمَارِكِسِيَّةَ بِقِيَادَةِ الْإِتِّحَادِ السُّوفِيَّةِيِّ، وَتَفَكُّكَهَا، وَتَحَوُّلَ الْعَالَمِ إِلَى الرَّأْسِمَالِيَّةِ التِّيُولِيْبِرَالِيَّةِ، بِاسْتِنَاءِ نَسْبِيِّ حَوْلَ الصِّينِ، وَكُورِيَا الشَّمَالِيَّةِ. تَغَيَّرَ الْعَالَمُ، وَشَاعَ الْاضْطِرَابُ، وَالصَّرَاعُ، وَالْقَلَقُ، وَعَدَمُ الْيَقِينِ، وَالْأَخْطَرُ أَنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ أَذَتْ إِلَى حَالَةٍ مِنَ الْعَقْلِ الْمُسْتَقْبِلِ - إِذَا شِينَا اسْتِعَارَةَ جُورْجِ طْرَابِيْنِي - عَنْ مُوَاجِهَةِ مُشْكَكَاتٍ وَأَزْمَاتٍ وَظَوَاهِرِ الْوَاقِعِ إِلَّا قَلِيْلًا، خَاصَّةً فِي ظِلِّ حَالَةٍ مِنَ الرُّكُودِ السِّيَاسِيِّ. وَبَاتَ "الْعَقْلُ الْمُعْتَقَلُ"، وَفَقَّ تَشْيِيسُوفَ مَوْوَشَ، سَمَتِ الْحَالَةَ الْعَقْلِيَّةَ الْغَالِبَةَ مَعَ اسْتِنَاءَاتٍ مَحْدُوْدَةٍ. أَدَّى الرُّكُودُ السِّيَاسِيُّ إِلَى سَطْوَةِ عَقْلِيَّةِ الشَّعَارَاتِ وَالنَّشْطَاءِ السِّيَاسِيِّينَ وَالْحَقُوقِيِّينَ وَالْتِدَاخُلَ فِيْمَا بَيْنَهُمْ، وَتَحَوُّلَ غَالِبِ الْخِطَابَاتِ السِّيَاسِيَّةِ إِلَى خِطَابَاتٍ أَيْدِيُولُوجِيَّةٍ قَدِيْمَةٍ، وَشِعَارَاتِهَا، وَأَيْضًا إِلَى خِطَابِ حُقُوقِي مَهْجُنٍ بِالسِّيَاسِيِّ، وَمُوْظَفٍ سِيَاسِيًّا مِنْ بَعْضِ بَقَايَا الْأَحْزَابِ السِّيَاسِيَّةِ الشُّيُوعِيَّةِ السَّرِيَّةِ، وَالَّتِي كَانَتْ مَحْجُوبَةً عَنِ الشَّرْعِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْقَانُونِيَّةِ كَمَا فِي الْحَالَةِ الْمِصْرِيَّةِ.

2- الْعَقْلُ السِّيَاسِيُّ الْعَرَبِيُّ ذَهَبَ غَالِبِهِ إِلَى الْخِطَابِ الْحُقُوقِيِّ، دُونَمَا دَرَسَ لَأَسْسَهُ التَّارِيْحِيَّةَ وَالْفَلْسَفِيَّةَ وَتَطَوُّرَاتِهَا وَوِظَائِفَهُ الْمُسْتَقْبَلَةَ مِنَ الْخِطَابِ السِّيَاسِيِّ الْأَيْدِيُولُوجِيِّ، وَمَنْ تَمَّ ظِلُّ خِطَابًا دَعْوِيًّا مِثْلَهُ مِثْلَ الْخِطَابَاتِ الدِّيْنِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَالسَّلْفِيَّةِ، مَعَ عُمُومِيَّةِ هَذِهِ الْخِطَابَاتِ الشَّعَارَاتِيَّةِ الَّتِي ذَهَبَتْ إِلَى مُخَاطَبَةِ الْجِهَاتِ الْمُمَوَّلَةِ، وَأَيْضًا إِلَى مُخَاطَبَةِ بَعْضِهَا بَعْضًا. الْأَهَمُّ أَنَّ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ الْحُقُوقِيَّةِ، أَذَتْ بِسَبَبِ التَّمْوِيلِ الْأَجْنَبِيِّ - الْعَرَبِيِّ أَسَاسًا - إِلَى وِلَادَاتٍ مُسْتَمْرَّةٍ مِنْ دَاخِلِهَا لِجَمْعِيَّاتِ حُقُوقِيَّةٍ جَدِيْدَةٍ بَحْثًا عَنِ التَّمْوِيلِ. .إِلْخ.

3- الْخُلُطُ بَيْنَ النَّاشِطِ الْحُقُوقِيِّ وَالْدَّاعِيَةِ الْأَيْدِيُولُوجِيَّةِ كَانَتْ سَمَتَ بَعْضِ الْعَقْلِ الْمِصْرِيِّ وَالْعَرَبِيِّ الْمُسَيْطِرِ، وَهُوَ مَا أَدَّى إِلَى الْمَزِيْدِ مِنَ الْاضْطِرَابِ وَالْتَشْوِشِ حَوْلَ الْأَدْوَارِ وَالْمَجَالَاتِ وَالْإِنْشِطَةِ فِي

المجال العام. تقام هذا الخاط في انتفاضات الربيع العربي، وانخراط التشتاء الحقوقيين، كشتاء سياسيين في العمليات السياسية وبعض المناورات، والتوافقات مع الإخوان المسلمين في مصر، والتهضة في تونس، والسلطة الفعلية في كلا البلدين، وذلك على نحو كاشف لازدواجية وخط في الأدوار لأن بعضهم كشف عن وجهه السياسي المودج، ومصالحه السياسية بعيدا عن دور الناشط الحقوقي.

4- منذ عقدي الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين، بدأ دور الداعية الديني في الصعود إلى المجال العام الفعلي، والمجال العام الرقمي على استحياء، وذلك كنتاج للسياسات الدينية في العالم العربي التي تعتمد على دعاه السلطة الدينية التابعة في تدوين المجال العام، وأيضا تدوين الدعاة والجماعات الإسلامية للمجال الخاص، وخاصة تركيزهم على نظام الزي للمرأة، والرجل، والحجاب ثم التقاب والأسدال مع الحركة السلفية، واللحي للرجال، وتدوين خطاب الحياة اليومية، بهدف التمديد والترميز الديني لحياة الجموع الغفيرة.

بات الداعية الديني هو الموجه والمرشد للحياة العامة. تمددت وظيفة الداعية الديني والأخلاقي السلفي إلى أعداد غفيرة من الجموع الغفيرة سعيا لبناء المكانة الاجتماعية في الوسط العائلي، أو جماعة الرفاق، أو زملاء العمل، أو بين الجيران، أو من خلال "دعاه الطرق" بتعبير العميد د. طه حسين.

انتقلت هذه الوظيفة إلى الدعاة الرقميين على الحياة الرقمية، وبرزت وظيفة تدوين الحياة الرقمية، وهو مسعى نجدة لدى بعض رجال الدين المسيحيين وأتباعهم ونشطاء المذاهب الدينية المسيحية الشرقية على الواقع الرقمي.

5- صُمتَ وَهَيَاةُ الْمُتَّقِفِ وَادَّوَارَةُ التَّقْدِيَّةِ وَفِي مَا سَادَ فِي الْمَرْحَلَةِ شِبْهُ اللَّيْبِرَالِيَّةِ فِي مِصْرٍ، وَأَيْضًا بَعْدَ
يُولْيُو 1952، وَكَانَتْ ذُرْوَةٌ هَذَا الدَّوْرِ مُنْذُ عَقْدِ السَّعِينِيَّاتِ وَالْعَقْدِ الْأَوَّلِ مِنَ الْآلْفِيَّةِ الْجَدِيدَةِ وَفِي الْحَرَكَةِ
الْاجْتِمَاعِيَّةِ إِلَى 25 يَنَايِرٍ فِي مِصْرٍ، وَالْحَرَكَةُ الْجَمَاهِيرِيَّةِ فِي تُونِسَ ضِدَّ نِظَامِ بِنِ عَلِيٍّ. فِي ظِلِّ حُكْمِ
التَّهْضَةِ فِي تُونِسَ ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ الْمُتَّقِفِينَ التَّوَانِسَةِ، إِلَّا أَنَّ تَشْكِكَاتِ الْمَجْمُوعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ أَذَّتْ إِلَى
عَدِيدِ الْمَشْكِكَاتِ لَكِنْ لَا يَزَالُ هَذَا الصَّوْتُ التَّقْدِيمِي قَائِمًا إِزَاءَ التَّهْضَةِ، وَحُكْمِ الرَّئِيسِ قَيْسِ سَعِيدٍ. فِي
الْحَالَةِ الْمِصْرِيَّةِ تَرَاجَعُ هَذَا الدَّوْرِ، وَصَمَّمَتْ غَالِبُ الْمُتَّقِفِينَ، مَعَ الثَّوْرَةِ الرَّقْمِيَّةِ، وَبُرُوزِ أَجْيَالِ جَدِيدَةٍ نَهَتَمَ
بِوَرُوشِ كِتَابَةِ الرِّوَايَةِ وَالْقِصَّةِ وَالْإِهْتِمَامِ بِالصُّورَةِ الْوَمُضَةِ عَلَيَّ وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ. . إِلْحُ! وَبَعْضُ
الْخَطَابِ الْأَيْدِيُولُوجِيِّ وَالدِّينِيِّ لِبَعْضِ الْمَعَارِضِينَ.

6- أَذَّتْ الثَّوْرَةُ الرَّقْمِيَّةِ، وَفَضَاءَاتُهَا الْحُرَّةُ إِلَى التَّأثيرِ عَلَيَّ طَبِيعَةِ الثَّقَافَةِ الْفَعْلِيَّةِ، مِنْ خِلَالِ الْحُرَيَّاتِ
الْوَاسِعَةِ، وَدُخُولِ الْجَمَاهِيرِ الرَّقْمِيَّةِ، وَالْفَعْلِيَّةِ الْغَفِيرَةِ إِلَى مَجَالِ إِبْدَاءِ آرَاءِهَا، وَأَنْطِبَاعَاتُهَا فِي كُلِّ الْأُمُورِ
أَيَّا كَانَتْ مِنَ السِّيَاسَةِ، إِلَى الْأَغَانِي، وَالْمُوسِيقَى، وَإِطْلَاقِ الْحُكْمِ وَالْآرَاءِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَالدِّينِيَّةِ،
وَالْمَذْهَبِيَّةِ، وَالسِّيْنَمَا، وَسُرَادِقَاتِ الْعَزَاءِ الرَّقْمِيَّةِ، وَاحْتِفَالَاتِ أَعْيَادِ الْمِيلَادِ، وَالْجَمِيلِ وَالْقَبِيحِ، وَالْخَيْرِ
وَالشَّرِّ. . إِلْحُ!

لَا شَكَّ أَنَّ هُنَاكَ حَالَةً مِنْ حَالَاتِ التُّكُوصِ مِنْ مُتَابَعَةٍ وَتَحْلِيلِ الْإِتْجَاهَاتِ، وَخِطَابَاتِ الْمُنْشُورَاتِ،
وَالتَّغْرِيدَاتِ، وَالصُّورِ الْوَمُضَاتِ، وَ"الفَيْدِيُوهَاتِ الطَّلَقَةُ" عَلَيَّ الْوَاقِعِ الرَّقْمِيِّ، وَتَمَّةِ اسْتِنَاءَاتِ لِكِتْمَانِهَا لَا تَزَالُ
مُحْدُودَةً نِسْبِيًّا.

7- حالة انكشاف للذوات الرقمية وبعض الفعلية، وتحوّل في الكتابة وأساليب التعبير، واللغة المحكية في كل بلد، أو منطقة داخلها، ولا تزال الدراسات السوسيو- رقمية نادرة، وذلك على الرغم من أن الفضاءات الرقمية، وعالم البيانات الضخمة، تمثل مادة لدى الشركات الرقمية لإعادة تشكيل الذوات الفعلية، والرقمية معاً في كل شيء، وتحوّل الجُمُوع الغفيرة الرقمية إلى أشياء استهلاكية. التسبؤء الأنساني أصبح رقمية، وفعلية، وهذه الجماهير الرقمية الغفيرة تحت رقابات شتى.

8- تمدد ظاهره الرقابات المتبادلة فيما بين بعض المجموعات والأشخاص وبعضهم بعضاً، وخاصة في حالة المجموعات الرقمية المنظمة أو أيضاً ما يطلق عليهم "الكتائب الرقمية" أيًا كان من وراءها في الواقع الفعلي أو الرقمي، أو للاختلافات في الرأي، أو الدين أو المذهب، أو الرأي السياسي، أو الانتماءات الوطنية أو العرقية أو القومية. إلخ.

ثمة أيضاً الرقابات الأمنية والاستخباراتية من بعض الدول على بعضها، ومن بعض النظم والسلطات السياسية على مواطنيها أو غيرهم من نقاد سياساتها، أو شخصيات عامة في دول أخرى، وذلك من خلال برامج رقباه تم شراؤها من بعض الشركات الرقمية المتخصصة، مثلما حدث من بعض الدول العربية، وأدى إلى مشكلة بين المغرب وفرنسا، بسبب متابعة حسابات بعض العاملين في قصر إليزيّة!

رقابة الأخ الأكبر (الشخصية الخيالية في رواية جورج أورويل 1984 الحاكم الغامض لأوشيا الدولة الدكتاتورية، والتي توظف كمعادل للقمع، واستخدام السلطات لصالحياتها في العسف بالحريات والحقوق الشخصية، وخضوع القاطنين للنظمة المراقبة على نطاقات واسعة، والتحكم في السكان ومن ثم انتهاك الحريات العامة والشخصية وخرق الدساتير والقوانين. رقابه الأخ الأكبر لم تعد قصراً على

رِقَابِهِ التَّظْمُ التَّوَالِيغِيَّةُ، وَالتَّسَلُّطِيَّةُ، وَإِنَّمَا أَصْبَحَ هُنَاكَ "الأخ الأكبر الرِّقْمِي" الَّذِي يَمْلِكُ البَيِّنَاتِ
الصَّخْمَةَ وَيَتَمَثَّلُ فِي الشَّرِكَاتِ الرَّقْمِيَّةِ الْعَمَلَاةِ، الَّتِي تَمْلِكُهَا، وَتَبِعَهَا إِلَى الشَّرِكَاتِ وَالدُّوَلِ فِي جَمِيعِ
المَجَالَاتِ.

9- هَذَا الْعَالَمِ الْجَدِيدِ مِنْ أَنْظِمَةِ الِاسْتِنَاءِ بَاتَتْ فِي كُلِّ الدُّوَلِ وَالأَنْظِمَةِ السِّيَاسِيَّةِ بِمَا فِيهَا الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ،
فِي مُتَابَعَتِهَا لِلأَشْخَاصِ وَالمُجْمُوعَاتِ وَالمَنْظَمَاتِ الإِرْهَابِيَّةِ، وَالجَنَائِيَّةِ، وَالمُهْرَبِينَ لِلْمُخَدَّرَاتِ، وَالهَجْرَةِ
غَيْرِ المَشْرُوعَةِ، وَفِي الطُّرُوفِ الِاسْتِنَائِيَّةِ بِمَا فِيهَا الجَوَاحِ مِثْلَ فَيْرُوسِ كَرْوْنَا المَتَحَوِّرِ وَمَا تَمَّ خِلَالِهَا مِنْ
إِجْرَاءَاتِ اسْتِنَائِيَّةِ.

السُّؤَالِ الَّذِي نَطْرَحُهُ هُنَا: أَيْنَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ مِنْ مُتَابَعَةِ التَّحَوَّلَاتِ فِي الوَاقِعِ الرَّقْمِيِّ وَآثَرُهُ عَلَى حُرِّيَّةِ الْعَقْلِ
والتَّفْكِيرِ وَالبَحْثِ وَالصَّمِيرِ، وَالأَهَمُّ ثَنَائِيَّةِ الحُرِّيَّةِ الرَّقْمِيَّةِ، وَالرَّقَابَةِ الرَّقْمِيَّةِ؟

مِنْ الشَّبِيحِ مَلَاخِظَةً أَنَّ بَعْضَ مَنْ يُطَلِّقُ عَلَيْهِمُ "مَجَازًا" مُتَقَفِينَ، وَأكَادِمِيَّيْنِ تَوَجَّهُوا إِلَى الوَاقِعِ الرَّقْمِيِّ لِيَعْدُو
جُزْءًا مِنْ جُمُوعِهِ الغَافِرَةِ، وَآثَرُ ذَلِكَ عَلَى طَرَائِقِ بَعْضِهِمْ فِي التَّفْكِيرِ، وَشَاعَتْ لَدَيْهِمُ التَّعْلِيقاتُ الوَجِيزَةُ
جِدًّا، وَالصُّورَةُ الوُمُضَةُ، وَالإِعْلَانُ عَنْ نَشَاطَتِهِمْ، وَحَيَاتِهِمْ وَبَدَوَاتِهِمْ، وَمُشَارَكَتِهِمْ عِبْرَ الصُّورِ الوُمُضَةِ.

لَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ يُعَبِّرُ عَنْ مُحَاوَلَاتِ بَعْضِهِمُ الحُضُورِ فِي الحَيَاةِ الرَّقْمِيَّةِ، وَإثْبَاتِ لِدَوَاتِهِمْ وَالسَّعْيِ نَحْوِ
الدَّبُوعِ، وَالِاسْتِمْرَارِيَّةِ لِلْجِيلِ الأَكْبَرِ سَنًا عِبْرَ عَرَضِ صُورِ أَغْلَفَةِ الكُتُبِ، وَالبَحْثِ المَدْرَسِيَّةِ/ الجَامِعِيَّةِ،
وَصُورِهِمْ أَثْنَاءَ مُنَاقَشَاتِ الأَطْرُوحَاتِ الجَامِعِيَّةِ، وَيُقَوِّدُهُمْ فِي ذَلِكَ كِتَابُ الرِّوَايَةِ، وَالقِصَّةِ القَصِيرَةِ،
وَالشُّعْرَاءِ، وَتُسَيِّطُ عَلَى بَعْضِهِمُ المُشَارَكَةَ فِي Trends، وَيَقْلُدُونَ المَطْرِبِينَ وَالمُطْرِبَاتِ، وَالمُثَلِّينَ
والمُثَلَّلَاتِ.

لَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ أَدَّى إِلَى تَرَاجُعِ هَيْبَةِ الْمُفَكِّرِ وَالْمُتَّفِقِ فِي الْغَالِبِ إِلَّا قَلَّةً قَلِيلَةً جَدًّا .

IO- أَدَّتِ الثَّوْرَةُ الرَّقْمِيَّةُ إِلَى ازْدِوَاغِيَةِ الْحَيَاةِ بَيْنَ الْفِعْلِيَّةِ وَالرَّقْمِيَّةِ، وَالتَّفَاعُلَاتِ بَيْنَ كِلَيْهِمَا، وَتَأْثِيرِ بَعْضِهَا فِي الْآخَرِ، وَخَاصَّةً فِي مُجْتَمَعَاتِنَا الْعَرَبِيَّةِ، وَفِيودِ الْوَاقِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْأَمْنِ عَلَى الْعَقْلِ الْخُرِّ وَالتَّقْدِيمِ، وَالْحُرِّيَّاتِ الْعَامَّةِ وَالشَّخْصِيَّةِ، عَلَى نَحْوِ أَدَّى إِلَى تَحْوُلِ الْحَيَاةِ الرَّقْمِيَّةِ إِلَى حَيَاةٍ كَامِلَةٍ، إِلَّا أَنَّ الْمَلَاْحِظَ أَنَّ الْعَقْلَ الْجَمْعِيَّ لِلْجُمُوعِ الرَّقْمِيَّةِ الْغَفِيرَةِ، أَدَّى إِلَى انْفِجَارِ الْكُذْبِ، وَالتَّمِيمَةِ، وَالِاسْتِعْرَاضَاتِ، وَسَطْوَةِ اللُّغَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ الْمُوْرُوْثَةِ، وَتَحْوُلِ الْحَيَاةِ الرَّقْمِيَّةِ إِلَى مَجَالٍ لِلِاحْتِسَابِ الدِّينِيِّ، وَالرَّقَابَاتِ الْوَثِيْقَةِ عَلَى الْآخَرِينَ . وَاتَّشَرَتْ ثَقَافَةُ التَّمِيمَةِ، وَالْفَضَائِحِ الشَّخْصِيَّةِ، وَكَشَفَ الْمُسْتَوْرَاتِ الْأُسْرِيَّةِ، وَبَيْنَ الْخَاطِبِينَ وَالْمُتَرْوِجِينَ مِنْهُمْ/هَنْ لَأَسِيْمَا مِنْ الْمُمَثِّلِينَ وَالْمُمَثَّلَاتِ وَالْمُطْرِبِينَ وَالْمُطْرِبَاتِ، وَلَاعِبِي الْكُرَّةِ وَالْمُدْرِبِينَ، وَرُؤَسَاءِ الْأَنْدِيَةِ الرِّيَاضِيَّةِ .

بَاتَ التَّدِينُ أَحَدَ أَدْوَاتِ الْحُضُورِ، وَإِثْبَاتِ الذَّاتِ، وَبِنَاءِ الشُّهُرَةِ، وَمُحَاوَلَةِ الْاسْتِمْرَارِ فِيهَا بَعِيدًا عَنِ الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ وَالْمُوسِيْقِيَّةِ، وَالتَّمثِيلِيَّةِ وَالسِّيْنِمَاتِيَّةِ، مِنْ خِلَالِ الْاسْتِعْرَاضَاتِ الْجَسَدِيَّةِ، وَنِظَامِ الزِّيِّ، وَالْغَرَابَةِ فِي تَصْمِيمَاتِهِ، وَبَعْضُهَا يَمَآثِلُ مَعَ زِيِّ مُجْتَمَعِ الْمِيمِ الْغَرْبِيِّ لِلمَثَلِيِّ الْجِنْسِ، وَمُزْدُوْجِي التَّوْجِهِ الْجِنْسِيِّ وَالْمُتَحَوِّلِينَ جِنْسِيَا .

هَذَا التَّمَطُّ مِنْ أَمَاطِ نِظَامِ الزِّيِّ يُوظَفُ مِنْ بَعْضِهِمْ فِي إِبْتِجَاعِ الْغَرَابَةِ، وَالِاخْتِلَافِ، عَلَى نَحْوِ نَتِيجِ الْأَثَارِيهِ لَدَى الْجَمَاهِيرِ الرَّقْمِيَّةِ الْغَفِيرَةِ، وَيُنْفِخُ الْبَابَ إِلَى الْجَدَلِ، وَالْخِلَافِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى صِنَاعَةِ التَّرْنَدِ (Trend) .

تبدو التميمة وكشف الأسرار الزوجية وعلاقات الرفقة، وما تطوي عليه من ادعاءات مُبادلة وأكاذيب، وإنتاج التردد، مضمحوبًا بالصور المثيرة للنساء .

II- أظهرت الحياة الرقمية، وخطابات المنشورات والتغريدات، والإنستجرام المرئي، وغيرها نشوء لغة رقمية، وسلوكيات رقمية، تدور حول القراءة الوضعية السريعة، والصور الوضعية والفيديوهات الطلقة، وكلها تشير إلى سرعة بناء الانطباعات، واستهلاك المواد الرقمية، في سطحية دوماً تعمق وأعمال العقل، والتظرة التقديّة للأمر في الغالب الأعم، والاستثناءات محدودة - الأهم أن ذلك انتقل إلى بعض الباحثين والمثقفين - وفق المعاني الشائعة وغير الدقيقة، وبعض رجال الدين وأصبحت لغتهم تميل إلى الاختصار، واللغة السجالية والسخرية، وبعضهم يركز على خطاب المنشورات في استعادته بعض مما يعتقد أنه بعض من إنجازاته في نزعته ترجمية مُفرطة، وخاصة بعض الأكاديميين والأدباء والباحثين .

I2- بعض الأكاديميين ذهب إلى كتابة الروايات - بقطع النظر عن قيمة بعضها الفنية والجمالية - وذلك سعياً وراء الجري نحو طوفان الإنتاج الروائي الذي يسود منذ عقد التسعينيات من القرن الماضي، وطله العقدين الماضيين من الألفية الحالية . وبعضهم الآخر ذهب إلى كتابة المقالات الأقرب إلى لغة التواصل الاجتماعي .

أدت اللغة الرقمية إلى التأثير على بعض العقل السياسي، وخاصة منذ منتصف العقد الأول من القرن الحالي، من خلال الميل إلى بعض من الخطاب السجالي العام، في نقد السياسات العامة للدول والطبقات السياسية الحاكمة، من خلال خطاب شعاري عام يصلح لكل نظام، وكل مرحلة تاريخية، ويحمل يقيناً بكفاءة التقديّة، وامتلاكه الملكات والمهارات لحل المشكلات والأزمات السياسية

وَالاِقْتِصَادِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ . . إِنْج، وَهُوَ يَصْلُحُ لِكُلِّ مَرَحَلَةٍ، وَكُلِّ أَرْزَمَةٍ، لَكِنَّهُ لَا يَمْتَلِكُ لَا الْقُدْرَةَ التَّحْلِيلِيَّةَ
وَالتَّقْدِيَّةَ خَارِجَ السَّجَالَاتِ الْحَشِنَةِ عَلَى تَفْسِيرٍ أَوْ تَحْلِيلٍ أَيْ شَيْءٍ !

لَا شَكَّ أَنَّ خِطَابَ الْمُنشُورَاتِ وَالتَّغْرِيدَاتِ وَالفِيدْيُو الطَّلَقَةَ جَاءَ فِي الغَالِبِ حَامِلًا حَالَةً مِنَ التَّسْطِخِ،
وَضَعْفَ الْقُدْرَةَ التَّحْلِيلِيَّةِ - وَثَمَّةَ اسْتِثْنَاءَاتٍ فِي هَذَا الصَّدَدِ - وَالْمَلَكَةَ التَّقْدِيَّةَ، وَالْمُنْهَجِيَّةَ، وَالِاغْتِمَادُ
عَلَى الْمَعْلُومَاتِ، وَهِيَ أُمُورٌ أَذَتْ إِلَى تَرَاجُعِ مُسَوَى الْجَدَلِ الْعَامِّ وَالْحِوَارِ بَيْنَ الْبَاحِثِينَ وَالْأَكَادِمِيِّينَ
وَالْمُتَقِنِينَ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ فِي تَزَايُدِ وَتَفَاقُمِ . الْمَثِيرُ أَنَّ بَعْضَهُمْ بَاتَ يَرَى أَنَّ الْحُضُورَ فِي الْحَيَاةِ الرَّقْمِيَّةِ،
وَخِطَابَاتِهَا السَّرِيعَةَ وَغُتْمَا الْوَحِيذَةِ، وَالسَّجَالِيهِ وَالْآثَارِيهِ وَالسَّاخِرِهِ أَهَمُّ مِنْ كِتَابِهِ مَقَالٍ أَوْ بَحْثٍ أَوْ
كِتَابٍ . بَعْضُهُمْ يُوظَّفُ الْحَيَاةَ الرَّقْمِيَّةَ فِي التَّرْوِيحِ لِلِكِتَابَاتِ مِنْ خِلَالِ نَشْرِ صُورِ الْعِلَافِ، وَحَفَلَاتِ التَّوْقِيعِ،
وَالصُّورِ مَعَ بَعْضِ الْحَاضِرِينَ، أَوْ الشَّخْصِيَّاتِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ الْفِعْلِيَّةِ وَالرَّقْمِيَّةِ .

I3- أَذَتْ الْحَيَاةَ الرَّقْمِيَّةَ إِلَى ظَاهِرِهِ بِنَاءِ الْجَمَاعَاتِ أَوْ الْعَصَبِ الرَّقْمِيَّةِ فِي السِّيَاسَةِ عَلَى أُسُسِ حَزْبِيَّةِ
أَوْ سِيَاسِيَّةِ أَوْ دِينِيَّةِ وَمَذْهَبِيَّةِ، وَهُوَ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي تَعْيِيرِ شَائِعٍ "كِتَابِ إِلِكْتَرُونِيَّةِ - دِينِيَّةِ أَوْ
سُلْطُوِيَّةِ"، وَهُوَ وَضْفٌ مَحْمَلٌ بِتَحْيِزَاتٍ مَسْبُوقَةٍ . أَذَتْ هَذِهِ الْجَمَاعَاتُ وَالْعَصَبِ الرَّقْمِيَّةِ إِلَى تَحَوُّلِ
غَالِبِ الْعَقْلِ الرَّقْمِيِّ إِلَى عَقْلِ مُتَحَيِّزٍ، وَبَسِيطٍ، وَسَطْحِيٍّ، سِوَاءٍ فِي إِبْتِجَاعِ الشَّعَارَاتِ وَالْكَلاَشِيَّاتِ،
وَاللُّغَةِ الْحَشِيَّةِ" وَفُقِ التَّعْيِيرِ الْفَرَنْسِيِّ، أَوْ "الكَلَامِ السَّكَاتِ" وَفُقِ التَّعْيِيرِ السُّودَانِيِّ الذَّائِعِ . يُمَكِّنُ أَنَّ
نُطِقَ عَلَيْهَا "لُغَةُ الْفَرَاغِ"، أَوْ "اللُّغَةُ الْجُوفَاءِ"، لُغَةً رَحَلَتْ عَنْهَا دِلَالَتُهَا، وَالْأَهَمُّ أَنَّ هَذَا التَّمَطُّ مِنْ
الْأَسَالِيبِ اللُّغَوِيَّةِ، يَبْدُو عَارِيًّا مِنَ الْبَلَاغَةِ، وَبَاتَتْ أَقْرَبُ إِلَى لُغَةِ الْيَوْمِيِّ الرَّقْمِيَّةِ الْأَقْرَبُ إِلَى مَا يُمَكِّنُ أَنَّ
نُطِقَ عَلَيْهَا لُغَةُ الْخُلْطِ بَيْنَ الْعَامِّيَّةِ وَبَقَايَا مُشَوَّهَةٍ وَمَشْوَشَةٍ لِلُّغَةِ الْفُصْحَى، بِكُلِّ أَثَرٍ ذَلِكَ عَلَى تَرَاجُعِ

مُسَوِّياتِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَبَلَاغَتِهَا . تَرَاوَعُ الْإِهْتِمَامُ بِالْكِتَابَةِ الْفَصِيحَةِ وَجَمَالِيَّاتِهَا لِصَالِحِ هَذِهِ اللُّغَةِ الرَّقْمِيَّةِ الْمُهَجَّنَةِ، الَّتِي بَاتَتْ تُسَيِّطِرُ عَلَى الْخِطَابَاتِ الرَّقْمِيَّةِ بِمَا فِيهَا خِطَابٌ بَعْضُ "الْمُتَّقِنِينَ"، وَالْمُتَعَلِّمِينَ، وَبَعْضُ الْأَكَادِمِيِّينَ .

I4- ظُهُورُ جَمَاعَاتِ ضَغْطِ رَقْمِيَّةٍ، فِي بَعْضِ الْقَضَايَا السِّيَاسِيَّةِ وَالِدِينِيَّةِ وَالْمَذْهَبِيَّةِ، وَبَعْضُهَا يُؤَثِّرُ عَلَى الْقَرَارَاتِ الْحُكُومِيَّةِ الْيَوْمِيَّةِ، وَيُشِيرُ إِلَى أَنَّ بَعْضَ الْأَخْطَاءِ فِي الْقَرَارَاتِ الرَّسْمِيَّةِ، أَوْ السِّيَاسَاتِ الْعَامَّةِ، أَوْ بَعْضِ الْأُمُورِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْفَنِّيَّةِ الَّتِي تَجَاوَزُهَا هَذِهِ الْقَرَارَاتُ -مِثَالُ هَدْمِ مَقَابِرِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ التَّارِيخِيَّةِ . . . إلخ- وَبَعْضُهَا قَدْ لَا يُؤَثِّرُ عَلَى مُتَّخِذِ الْقَرَارِ .

لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا التَّمَطُّ الْجَدِيدَ سَيُؤَدِّي إِلَى تَغْيِيرٍ فِي النَّظَرِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَالْمُؤَسَّسَاتِ السِّيَاسِيَّةِ، وَالْأَحْزَابِ . بَعْضُ جَمَاعَاتِ الضَّغْطِ الرَّقْمِيَّةِ، تَشَكَّلَتْ مِنْ خِلَالِ الدَّعْوَةِ لِمُوَاجَهَةِ سِيَاسَةِ مَنْ السِّيَاسَاتِ الْعَامَّةِ، أَوْ قَرَارٍ مِنْ الْقَرَارَاتِ، وَمِثَالُهَا تُشَكِّلُ جَمَاعَةَ السُّرَّاتِ الصَّفْرَاءِ -مِنْ الطَّبَقَاتِ الْوَسْطَى الصَّغِيرَةِ وَالْوَسْطَى- الْوَسْطَى الْفَرَنْسِيَّةِ- لِلْإِحْتِجَاجِ عَلَى ارْتِفَاعِ أَسْعَارِ بَنْزِينِ السِّيَّارَاتِ، ثُمَّ الْإِحْتِجَاجِ الْجَمَاهِيرِيِّ عَلَى عَدَمِ تَغْيِيرِ قَانُونِ رَفَعِ سُنِّ الْإِحَالَةِ لِلتَّقَاعِدِ وَعَدَمِ تَخْفِيفِهِ . وَأَيْضًا الْإِحْتِجَاجَاتُ ضِدَّ تَجَاوُزَاتِ السُّرَّةِ الْفَرَنْسِيَّةِ فِي الصَّوَاخِي، وَمَقْتَلِ شَابِّ فَرَنْسِيٍّ مِنْ أَصُولِ جَزَائِرِيَّةٍ .

مِنْ ثَمَّ تَبَدُّو جَمَاعَاتِ الضَّغْطِ أَكْثَرَ تَأْثِيرًا مِنْ بَعْضِ الْأَحْزَابِ السِّيَاسِيَّةِ، الَّتِي وَهَنْتْ مَعَ بُرُوزِ ظَاهِرِهِ الْأَيْدِيُولُوجِيَا النَّاعِمَةِ فِي عَقْدِ السَّبْعِينِيَّاتِ ، وَتَرَاوَعُ أَحْزَابِ الْيَسَّارِ .

لَا شَكَّ أَنَّ جَمَاعَاتِ الضَّغْطِ الرَّقْمِيَّةِ بَاتَتْ مُؤَثَّرَةً، وَتَشَكَّلُ مَصْدَرًا مِنْ مَصَادِرِ إِحْدَاثِ التَّغْيِيرِ فِي بَنِي الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ التَّمْثِيلِيَّةِ وَمُحَاوَلَةِ دَمْجِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ فِي أَطَارِهَا، وَاللُّجُوءِ إِلَى الْإِسْتِقْمَاءِ فِي بَعْضِ

القوانين الحساسة الماسّة بحياة الجماعة الناجبة، وعدم انتظار الانتخابات البرلمانية، أو الرئاسية. بعض جماعات الضغط الرقمية تساهم في بعض الأحيان في الإفراج عن بعض المعتقلين السياسيين، أو المحكوم عليهم في بعض القضايا السياسية.

15- أحدثت ظاهره الجوائز العربية السخية من بعض دول اليسر العربية، لاسيما في مجال الرواية والقصة والشعر وبعض الكتب الفكرية، والترجمة حراكا واسعا في سوق النشر للروايات، وبعض ترجمات كتب الفلسفة العربية، إلا أن إيمان النظر في نتائج هذه المسابقات، تشير إلى حالة من إعادة التوجه داخل الفضاءات الثقافية العربية، إلى السرد الروائية - من كتاب القصة والمسرح والشعر - وإلى فيضان من السرديات الروائية السطحية والتي تفتقر إلى الموهبة الحقيقية، وملكة التخيل، ومهارات البناء الروائي، والأساليب اللغوية المبتكرة، وغير النمطية.

يمكن القول أن الدافع لكتابة الروايات من كثيرين، هو التقدم إلى هذه الجوائز للحصول عليها، وخاصة من مئات كتاب الرواية الشباب، ومن هم في أواسط العمر وبعض كبار السن.

لا شك أن هذا النمط من الكتابات التي تفتقر إلى تقنيات الكتابة الروائية، في بنيتها، وتخييلاتها، وأساليبها تشير إلى سطحية التجارب الوجدانية، ونقص الموهبة والتكوين المعرفي، وضعف المهارات الأسلوبية والتخييلات الاستثنائية.

الأخطر أن بعض لجان التحكيم تلجأ إلى تدوير الجوائز عربيا بقطع النظر عن المعايير النقدية، وغالبا ما يتم نسيان بعض الأعمال الفائزة، ومؤلفيها بعد ذلك.

16- بعض الكتاب/ الكاتبات، يلجأون إلى توظيف الحياة الرقمية، وتشكيل جماعة ضغط من أصدقائهم والمؤالين لكتاباتهم، وبعض جماعات نوادي القراءة، في الترويج لبعض الأعمال المقدمة إلى هذه الجوائز، بهدف الضغط على لجان التحكيم، وهو ما لم ينجح في الغالب، لكن هذه الظاهرة باتت أحد ملامح الحياة الأدبية الرقمية، وعالم الجوائز العربية السخية. لا شك أن هذا التوجه لممارسة الضغوط، ودعم كاتب أو كاتبة للحصول على هذه الجائزة أو تلك من خلال آليات الترويج. بعض النقاد المدرسين دخلوا في ممارسة الضغط لصالح بعض الكتاب والكاتبات، ومدح كتاباتهم، بقطع النظر عن أهمية هذه الأعمال الروائية وجدارتها بالجائزة.

17- ثمة ولع بعض الكتاب والكاتبات من الروائيين نحو الترجمة إلى اللغات الأجنبية، وهناك من ترجمت أعمالهم إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والأسبانية والألمانية، لكن لا يوجد حضور بارز للروائي/ الروائية العربي في الحياة الأدبية الكويتية إلا قليلاً جداً من حيث الحضور في سوق النشر، والأهم السوق القرآني. نجيب محفوظ بعد نوبل ثم تراجع، وجمال الغيطاني بالفرنسية، وعلاء الأسواني بعد رواية عمارة يعقوبيان.

مرجع ذلك أن الترجمات إلى اللغات الأجنبية تعود إلى بعض المنح الأجنبية المخصصة لترجمة بعض الروايات عن العربية، وذلك للباحثين في شؤون المنطقة العربية، ودارسي المنطقة الشرق أوسطية، ولذلك تُطبع أعداد محدودة من هذه الروايات. من ناحية ثانية. فإن المشكلة تكمن في غياب التجارب الأدبية العميقة ذات الطابع الذي يمس الشرط الإنساني الوجودي، وأيضا ذات خصوصيات مشرعة على الإنساني والكوني، وليست محض عالم من التفاصيل المحلية في القرى أو البوادي أو

المُدن الصَّحْرَاوِيَّةُ أَوْ المُدنِ المَرِيْفَةِ- الَّتِي يَسْتَعْرِقُ فِيهَا كَاتِبُوا الرِّوَايَاتُ فِي تَفَاصِيلِ مَحَلِّيَّةِ ضَيْقِهِ بَحْثًا
عَنْ غَرَابَةِ مَا ! هَذِهِ التَّنظُّراتُ الرِّوَايِيَّةُ المَحَلِّيَّةُ وَخُصُوصِيَّاتُهَا رُبَّمَا لَا تَهْمُ القَارِيَّ العَادِيَّ، عَلَي الرِّعْمِ مِنْ
شِرَاءِ رِوَايَاتِ امْرِيْكَا اللاتينيَّةِ وَالواقعيَّةِ السَّحْرِيَّةِ، وَالتَّجَارِبِ الرِّوَايِيَّةِ الأفريقيَّةِ، وَالاسيويَّةِ، وَكِتاباتِ
الرِّوَاييينِ مِنَ الأجيالِ المَهَّاجِرَةِ إِلَى أورُوبًا، وَازْدِواجِيَّةِ عِوالمِهِمُ الرِّوَايِيَّةِ.

18- بعضُ الفِكرِ الفِلسَفيِّ وَالسُّوسِيُولوجِيِّ وَالتَّقَدِيِّ العَرَبِيِّ لَا يَزَالُ جُزْءًا مِنَ الدَّرْسِ الأَكاديميِّ
المُدْرَسِيِّ، وَمُسَوِّياتِهِ فِي تَرَاجُعِ فِي غَالِبِ الجَامِعَاتِ العَرَبِيَّةِ وَهُنَاكَ اسْتِثْناءاتٌ، وَهُوَ فِي الأَغْلَبِ الأَعْمِ
لَا يَعدُّو سِوَى نَقْلِ عَنِ المِصَادِرِ الغَرِبِيَّةِ، وَتَرَاجَعَتْ مُحاوَلاتِ التَّفَلِيسِ العَرَبِيِّ، أَوْ الكِتابَةِ الفِكرِيَّةِ بِاللُّغَةِ
العَرَبِيَّةِ عَلَي نَحْوِ مَا كانَ سائِدًا فِي المَاضِي، مِنْ مُحاوَلاتِ صِيَاغَةِ فِلسَفاتِ تَلْمِيحِ مَعَ الأَوْضاحِ العَرَبِيَّةِ،
مِثْلَ عُثْمَانَ امِينٍ، وَمُحَمَّدِ عَزِيزِ اللُّحبابِيِّ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بَدويِّ، وَلَا تُوجَدُ كُتُبُ فِلسَفيَّةِ وَفِكرِيَّةِ عَرَبِيَّةِ
بِاللُّغَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ، وَأَحْدَثَتْ أَثْرًا فِي الفِكرِ العالَمِيِّ، بَعْضُ الاسْتِثْناءاتِ كُتِبَتْ بِالفَرَنْسِيَّةِ مُباشِرَةً مِثْلَ
بَعْضِ كُتُبِ عَبْدِ اللهِ العَرُويِّ وَكِتابَةِ الأَوَّلِ الأَيْدِيُولوجِيَّةِ العَرَبِيَّةِ المُعاصِرَةِ الَّذِي صَدَرَ بِالفَرَنْسِيَّةِ قَبْلَ هَرِيمَةَ
يُونِيُو 1967 ثُمَّ تَرَجَمَ بَعْدَها بِسَنَتَيْنِ، وَأَثَرَ عَلَي عَدَدٍ مِنَ العُقُولِ الِتابِهَةِ فِي العالَمِ العَرَبِيِّ عَلَي قَلْتِهِمْ، مِنْ
حَيْثُ جَدَهُ المُقارِبَةُ التَّارِيخِيَّةِ وَالفِلسَفيَّةِ. عَلَي وَجْهِ العُمومِ لَمْ يَؤْتِرْ فِي الفِكرِ العالَمِيِّ المُعاصِرِ مِنْ عالِمِنَا
العَرَبِيِّ سِوَى إِيهابِ حَسَنِ فِي التَّقَدِ الأَدَبِيِّ لِمَا بَعَدَ الأَحْداثِ، وَيَعَدُّ المَرَجِعِ العِلْمِ فِي هَذَا الإِطارِ، وَأَثورِ
عَبْدِ المَلِكِ، وَسَميرِ امِينِ، وَمُصطَفَى صَفْوانِ فِي المَدْرَسَةِ النَفْسِيَّةِ الكِتابِيَّةِ وَسَامِي عَلَي وَالجماعَةِ
المِصْرِيَّةِ فِي التَّحْلِيلِ النَفْسِيِّ فِي فَرَنْسا، وَاللُّبْنانِيِّ المِصْرِيِّ جُورْجِ قَرْمٌ وَكُتِبَ بِالفَرَنْسِيَّةِ.

19- بَعْضُ مَنْ الْبَاحِثِينَ الْمِصْرِيِّينَ وَالْعَرَبَ فِي مَجَالِ الْاجْتِمَاعِ السِّيَاسِيِّ، وَالْعُلُومِ السِّيَاسِيَّةِ تَعَدَّ أَعْمَالَهُمْ فِي الظُّوَاهِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَجَمَاعَاتِ الْعُنْفِ، مَصْدَرًا مِنْ مَصَادِرِ الدِّرَاسَاتِ الْعَرَبِيَّةِ فِي هَذَا الصَّدَدِ. بَعْضُ الْبَاحِثِينَ لَدَيْهِمْ كِتَابَاتُهُمْ بِاللُّغَةِ الْإِنجليزية، وَالْفَرَنسِيَّةِ مِثْلَ بَهْجَتِ قَزَنِي وَمُحَمَّدِ سَيِّدِ أَحْمَدَ وَكَاتِبَةَ "بَعْدَ أَنْ تَسَكَّتِ الْمَدَافِعُ". وَهُنَاكَ دِرَاسَاتٌ اقْتِصَادِيَّةٌ حَوْلَ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ، وَمِصْرٍ مِثْلَ جَلَالِ أَمِينٍ. عُمُومًا قَدْ تَكُونُ مَصَادِرُ لِدِرَاسَةِ خُبْرَاءِ الْمُنطِقَةِ فِي أُوْرُوْبَا، وَالْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ إِلَّا أَنْ تَأْثِيرَهَا لَيْسَ كَبِيرًا.

بِاسْتِثْنَاءِ إِيْهَابِ حَسَنِ وَأَثَرِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَسَمِيرِ أَمِينٍ، وَمُصْطَفَى صَفْوَانَ لَا نَسْتَطِيعُ الْقَوْلَ أَنَّنَا مُؤَثِّرِينَ فِي الْفِكْرِ الْعَالَمِيِّ.

ثَالِثًا: الذِّكَاؤُ الْإِصْطِنَاعِي التُّوَيْدِي: صَدَمَاتُ الْقَطِيعَةِ مَعَ عَالَمِ الْمَابَعِدِيَّاتِ

ثَمَّةَ خَفَوَتْ فِي الْأَطْرُوحَاتِ الَّتِي تَقَدَّمَ لِتَفْسِيرِ التَّخَلُّفِ الْعَرَبِيِّ التَّارِيخِيِّ، وَتَرَاجَعِ الْأَطْرُوحَاتِ الَّتِي قُدِّمَتْ فِي هَذَا الصَّدَدِ وَآخِرُهَا مَشْرُوعُ مُحَمَّدِ عَابِدِ الْجَابِرِيِّ، وَرُدُّودُ جَوْرَجِ طَرَابُيشِيِّ حَوْلَهَا. مَعَ ذَلِكَ تَبَدُّو هَيْمَنَةِ النُّظَرَاتِ الْبَسِيْطَةِ الَّتِي تَمْتَرِكُ حَوْلَ ثَنَائِيَّاتِ الْمَاضِي الصَّدِيَّةِ، أَوْ بَعْضِ مُحَاوَلَاتِ الْخُرُوجِ مِنْهَا عَلَى نَحْوِ جُرُئِيِّ مِنْ بَعْضِ الْعُلَمَائِيِّينَ - لَكِنْ عِلْمَائِيَّةٌ دُوْمَا فِلْسَفَةٌ أَوْ رَوَى تَارِيخِيَّةٌ - عِلْمَائِيَّةٌ شِعَارَاتِهِ فِي الْعَالِبِ تَمِيلُ إِلَى الْفَضْلِ بَيْنَ الدِّينِ وَالِدَوْلَةِ بِهَدَفِ تَحْيِيدِ الدِّينِ فِي الصَّرَاحِ السِّيَاسِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ. نَمَطٌ مِنَ الْعِلْمَائِيَّةِ الْبَسِيْطَةِ، الَّتِي تَرْتَكِرُ عَلَى مَجْمُوعِهِ شِعَارَاتٌ سِيَاسِيَّةٌ فِي الْعَالِبِ الْأَعْمِ، سَوَاءً مِنْ بَعْضِ الْأَجْيَالِ الْقَدِيمَةِ، أَوْ بَعْضِ مَنْ الْأَجْيَالِ الشَّابَّةِ فِي الْعُقْدَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ مِنَ الْاَلْفِيَّةِ الْحَآئِيَّةِ.

لَا يَزَالُ الْعَقْلُ الدِّينِيَّ التَّقْلِيَّ وَاتِّبَاعَهُ يَدُورُونَ فِي مُقَارَبَاتِ الْمَاضِي التَّارِيخِيِّ لِلسَّرْدِيَّاتِ الوُضْعِيَّةِ حَوْلَ
الْإِسْلَامِ، وَنَادِرَةً جِدًّا آيَةً مُقَارَبَاتِ نَقْدِيهِ وَتَارِيخِيهِ حَوْلَ السَّرْدِيَّاتِ الْمَسِيحِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ عَلَى اخْتِلَافِهَا .
وَمَنْ الْمَلَاخِظُ تَرَاوَعِ الْمَتَابَعَاتِ وَالْمَرَاوَجَعَاتِ لِتَطَوُّرَاتِ الْفِكْرِ الْعَالَمِيِّ لَا سِيَّمَا الْعَرَبِيِّ، وَأَيْضًا الْفِكْرَ
الْأَسْيُورِيِّ فِي الصِّينِ، وَكُورِيَا الْجَنُوبِيَّةِ، وَسُنغافُورِهِ وَالْيَابَانَ وَالْهِنْدَ .

مِنْ الْمَثِيرِ أَيْضًا الْغِيَابَ التَّنَسُّبِيَّ عَنِ تَحَوُّلَاتِ عَالَمِنَا وَقَضَايَاهُ الْجَدِيدَةَ الْبَيْئِيَّةِ، وَالْإِحْتِبَاسَ الْحَرَارِيِّ،
وَالْفَيْرُوسَاتِ الْمُتَحَوِّرَةَ، وَالتَّحَوُّلَ إِلَى عَصْرِ الْأَنَاسَةِ الرَّبُوتِيَّةِ، وَمَا بَعْدَ الْإِنْسَانَ .

فِي عَصْرِ الْحَيَاةِ الرَّقْمِيَّةِ، يَبْدُو غَالِبَ الْعَقْلِ الْجَمْعِيِّ فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ أُسِيرًا لِتَفَاصِيلِ حَيَاتِهِ،
وَمُشْكَكَاتِهِ، وَإِخْتِيَارِهِ الْكَاذِبَةَ، وَالسَّطْحِيَّةِ أَوْ بَعْضَ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْمَشْهُوَّةِ، وَالْمِيلُ إِلَى انْكِشَافِ
الْخُصُوصِيَّةِ، وَالتَّرْتِيذَاتِ حَوْلَ فِضَائِحِ وَإِسْرَارِ وَخِلَافَاتِ بَعْضِ الْمَشَاهِيرِ مِنَ الْمُطْرِبِينَ وَالْمُطْرِبَاتِ
وَالْمُمَثِّلِينَ وَالْمُمَثَّلَاتِ، وَلَاعِبِي كَرَةِ الْقَدَمِ، وَرُؤَسَاءِ الْأَنْدِيَّةِ وَآخَرِينَ . عَالِمٌ يَبْدُو مَفْتُوحًا عَلَى مِصْرَاعِيهِ،
لَكِنَّ الْعَالَمَ الْعَرَبِيَّ وَحَيَاتِهِ الرَّقْمِيَّةَ تَدُورُ فِي دَوَائِرٍ شَبَهُ مُغْلَقَةٍ .

مَرْجِعُ ذَلِكَ يَعُودُ بَعْضُهُ إِلَى مَا يَلِي:

I- فِي عَصْرِ الرَّقْمَنِ، هُنَاكَ سُرْعَةٌ فِي اسْتِهْلَاكِ مَا كَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ سَابِقًا التُّجُومِ اللَّامِعَةِ وَالْمَشَاهِيرِ
وَبَاتِ اسْتِهْلَاكِهِمْ عَالَمِيًّا بَالِغِ السَّرْعَةِ، وَفِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ، وَخَاصَّةً الْأَجْيَالِ الْجَدِيدَةِ، فِي ظِلِّ أَزْمَةِ تَرَاوَعِ
الْإِتِّبَاحِ السِّينِمَائِيِّ، عَمَّا كَانَ قَائِمًا فِي مَرَاوَجِ تَارِيخِيَّةِ سَابِقَةٍ .

2- تَرَاوَعِ الْإِقْبَالَ عَلَى الثَّقَاةِ الْوَرَقِيَّةِ وَالْمَجَلَّاتِ الْعَنِيَّةِ مِنَ الْأَجْيَالِ الْجَدِيدَةِ، وَفَقَدَتْ تَأْثِيرَهَا كِتَابَ
لِلرَّقْمَنِ، وَالْأَجْيَالِ الرَّقْمِيَّةِ، عَلَى نَحْوِ أَدَى إِلَى تَرَاوَعِ دَوْرَهَا فِي صِنَاعَةِ الشُّهُرَةِ لِلْمُمَثِّلِينَ وَالْمُمَثَّلَاتِ،
وَالْمُطْرِبِينَ وَالْمُطْرِبَاتِ وَالْمُلْحِنِينَ، وَلَاعِبِي كَرَةِ الْقَدَمِ . . الْخُ .

3- تَرَاوَعِ مُتَوَسِّطِ الشُّهُرَةِ إِلَى سَنَوَاتٍ قَلِيلَةً فِي ظِلِّ التَّغْيِيرِ الْجِيلِيِّ لِلشَّبَابِ وَالصَّبِيَّةِ .

4- التَّحَوُّلُ فِي الْإِتِّجَاعِ السَّيْنِمَائِيِّ إِلَى الْمُنْصَآتِ الرَّقْمِيَّةِ مِثْلَ تَقْلِيكِسَ، وَنَظَائِرِهَا، وَمِنْ ثَمَّ التَّحَوُّلُ فِي
عَمَلِيَّاتِ التَّلْقِي لِلْأَعْمَالِ السَّيْنِمَائِيَّةِ، وَالْفَضَائِيَّةِ مِنْ طَقْسِ الذَّهَابِ إِلَى دَوْرِ السَّيْنِمَا، وَمِنْ الْقَتَوَاتِ
التَّلْفَازِيَّةِ إِلَى التَّلْقِي الرَّقْمِيِّ عَبْرَ الْأَلْوَاحِ الرَّقْمِيَّةِ، وَجِهَازِ الْهَاتِفِ التَّنْقَالِ .

5- تَنَامِي أَثْرَ الرَّقْمَنِ عَلَى فِعْلِ التَّلْقِي، وَالتَّمَثُّلِ وَالِاسْتِهْلَاكِ مِنَ الْقِرَاءَةِ الْوَرَقِيَّةِ إِلَى الرَّقْمِيَّةِ، وَمِنْ الْقِرَاءَةِ
الْمُعْمَقَةِ إِلَى مَا سَبَقَ أَنْ أُسْمِيَتْهُ الْقِرَاءَةُ الْوَمُضَةُ السَّرِيعَةَ، وَالسَّطْحِيَّةِ .

6- بُرُوزِ التَّوَجُّهِ فِي الْإِسْتِهْلَاكِ الرَّقْمِيِّ إِلَى التَّنْظَرَاتِ الْوَمُضَةِ السَّرِيعَةِ، وَخَاصَّةً إِلَى الصُّورِ الْفُوتُوغْرَافِيَّةِ،
أَوْ الصُّورِ السَّيْلَفِيِّ وَغَيْرِهَا الرَّقْمِيَّةِ، وَإِلَى الْفِيدْيُو الْطَلْقَةِ . بَاتَتْ سُرْعَةُ التَّنْظَرَاتِ الْوَمُضَاتِ وَالسَّرِيعَةِ
جُزْءًا مِنَ السُّلُوكِ الْبُصْرِيِّ لِلْجُمُوعِ الرَّقْمِيَّةِ الْغَفِيرَةِ، وَمِنْ ثَمَّ تَشْكِيلُ مَا يُمَكِّنُ أَنْ نَسْمِيَهُ الْإِسْتِهْلَاكِ الْبُصْرِيِّ
وَالْقِرَائِيِّ فَائِقِ السَّرْعَةِ . وَيُلَاحِظُ فِي هَذَا النَّمَطِ الْإِسْتِهْلَاكِ الرَّقْمِيِّ غَلْبَةَ السَّطْحِيَّةِ، وَالِإِتَارَةَ وَالْمِيلَ لَهَا،
سَوَاءً فِي الصُّورِ، أَوْ اللَّغَةِ، أَوْ الصُّورِ الْحَوَاسِيَّةِ الْمُثِيرَةِ .

7- لَمْ يَعْذُ الْوَلَعُ بِالصُّورِ الذَّاتِيَّةِ/ السَّيْلَفِيِّ وَالصُّورِ الرَّقْمِيَّةِ قَصْرًا عَلَى بَعْضِ الْمُنَاسَبَاتِ الْهَامَّةِ، أَوْ لِلْجُمُوعِ
الرَّقْمِيَّةِ الْغَفِيرَةِ، وَلَا لِلْقَتَائِينَ، وَلَاعِبِي كَرَةِ الْقَدَمِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَلْعَابِ الرِّيَاضِيَّةِ، وَإِنَّمَا بَاتَ جُزْءًا مِنْ وَلَعِ

الكتاب والمُتَقِنِينَ، وَهُوَ مَا يُشِيرُ إِلَى سَطْوَةِ اللُّغَةِ وَالصُّورِ الوُمضِهِ، وَالْفِيدْيُوهَاتِ الطَّلَقَةُ عَلَى كَافَّةِ
مُسْتَوِيَاتِ مُسْتَهْلِكِي، وَفَاعِلِي الحَيَاةِ الرِّقْمِيَّةِ، وَمَنْ تَمَّ لَمْ يَعدُ التَّميِزُ التَّسْبِي بَيْنَ العَادِيَيْنِ وَالْمُتَقِنِينَ وَارِدًا
إِلَّا اسْتِثْنَاءً، أَي خُضُوعِ الجُمُوعِ الرِّقْمِيَّةِ الغَيرَةِ وَالْمُتَقِنِينَ وَالأكَادِمِيَّينَ وَالصَّحْفِيَّينَ، وَالشُّعْرَاءَ وَالرَّوَائِثِيَّينَ،
وَالفِتْصَاصِيْنَ، وَكِتابِ المَسْرَحِ لِمَنطِقِ الحَيَاةِ الرِّقْمِيَّةِ، وَلِغُيِّهَا وَتَعْبِيرَاتِهَا فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ.

8- الحَيَاةِ الرِّقْمِيَّةِ بَاتَتْ حَالَةً سُوسِيو- نَفْسِيَّةً، وَسُوسِيو- فِكْرِيَّةً، وَسُوسِيو- دِينِيَّةً، وَسُوسِيو- ثَقَافِيَّةً،
وَأَسْوَاقِ رَقْمِيَّةِ فِي كَافَّةِ مَنَاحِي الحَيَاةِ، مِنْ نِظَامِ الرِّزْيِ، إِلَى نِظَامِ الأَكْلِ، إِلَى التَّرْفِيهِ، وَكُلِّ تَقْضِيَّاتِ
الجُمُوعِ الغَيرَةِ، هِيَ جُزْءٌ مِنْ البَيِّنَاتِ الضَّخْمَةِ لَدَى الشَّرَكَاتِ الرِّقْمِيَّةِ الكُوَيْتِيَّةِ، الَّتِي تُوظِفُ هِذِهِ
البَيِّنَاتِ، وَتَبِيعُهَا لِلسَّرَكَاتِ فِي إِعَادَةِ تَشْكِيلِ سُلُوكِ، وَاسْتِهْلَاكِ الجُمُوعِ الرِّقْمِيَّةِ الغَيرَةِ فِي كُلِّ مَنَاحِي
الحَيَاةِ، بِمَا فِيهَا الحُوسَبِيَّةُ وَالْحَمِيمَةُ، وَالثَّقَافَةُ الحُوسَبِيَّةُ لَهَا !

مِنْ هُنَا تَحَوَّلَ الأِنْسَانُ الرِّقْمِيَّ فِي عَالَمِنَا العَرَبِيِّ إِلَى مَوْضُوعٍ لِإِعَادَةِ تَشْكِيلِ سُلُوكِهِ، وَقِيَمَةِ، وَتَوَجَّهَاتِهِ مِنْ
خِلَالِ البَيِّنَاتِ الضَّخْمَةِ، عَلَى نَحْوِ يُسْرِعُ مِنْ تَشْيُوعِهِ، وَتَحَوُّلُهُ إِلَى كَائِنٍ اسْتِهْلَاكِي رَقْمِيَّ، وَاثَرُ ذَلِكَ عَلَى
السُّلُوكِ الفِعْلِيِّ.

9- أَدَّتِ الرِّقْمَنَةُ إِلَى تَفْكِيكِ الجُمُوعِ الفِعْلِيَّةِ الغَيرَةِ نَسْبِيًّا مِنْ وَضْعِيَّةِ الأَمْتِثَالِ وَالخُضُوعِ، وَمَنْهَجِ
الجَمَاعَةِ وَثَقَافَةِ الأِجْمَاعِ-ذَاتِ السَّنَدِ الدِّينِيِّ الوُضْعِيِّ- وَتَوْظِيْفِ ذَلِكَ مِنْ جَانِبِ الأَنْظِمَةِ السِّيَاسِيَّةِ،
وَتَوْظِيْفِهَا لِلدِّينِ سِيَاسِيًّا، وَإِشَاعَةِ الخُوفِ وَرَهَابِهِ لِلسَّيْطَرَةِ عَلَيَّهَا، إِلَى بُرُوزِ نَمَطَيْنِ: الأَوَّلُ، الجُمُوعِ
الرِّقْمِيَّةِ الغَيرَةِ الَّتِي يُحَرِّكُهَا الدِّينُ، وَالقِيمُ، وَالْمُصَالِحُ مِنْ خِلَالِ التَّجَمُّعِ الرِّقْمِيِّ، وَالتَّعَبُّةِ مِنْ خِلَالِ
الرِّبِنَدَاتِ Trendes، أَوْ الإِحْسَاسِ بِالخَطَرِ أَوْ التَّهْدِيدِ سِوَاءَ أَكَانَ فِعْلِيًّا أَمْ تَهْدِيدِ رَقْمِيٍّ أَوْ مُتَخِيلِ.

النمط الثاني، الإنسان/ الفرد الرقمي، المولع بذاته وترجسيته، واستعراضاته، من خلال الصور الومضة السلفي، أو صور قام بها الآخرين له، والفيديوهات الطلقة. هي محاولة من الإنسان الرقمي العربي أساسًا للتحرر من التفي والتهميش في الحياة الفعلية إلى الرقمية، لإثبات الذات والوجود، وهي ظاهرة تتسع أيضًا كونيًا. ويذهب الكاتب الإسباني أيناكي دومينغيث، أستاذ الفلسفة والأنثروبولوجيا الثقافية ودراسات ما بعد الكولونيالية، في مقالة له حول عصر الترجسية في موقع (ethic.es)، ونشر في موقع "عروبة 22"، يوم السبت 13 تموز 2023، إلى أنه "مما لا شك فيه أن الناس أكثر ترجسية مما كنا عليه في العقود الماضية الترجسية ليست شيئًا جديدًا، لكن عصر السيلفي أو الشبكات الاجتماعية أدى لتفاقمها". وأيضًا قوله "الواضح أيضًا إذا تفحصنا مسألة الترجسية، هو أننا نعيش في واحدة من أكثر الأزمان الترجسية في الذكرة، وهو مرتبط بالتقنيات الجديدة والمجتمع الاستهلاكي، مما يشجع على تبجيل الذات مع نية لتشجيع الاستهلاك الجامح أذاه لتملق الأنا".

لأشك أن التزوع الترجسي الرقمي والفعلية وراءه تسليع الجسد الإنساني، واقتصاديات الطب التجميلي -إذا جاز التعبير- وخضوعه للموضات الجسدية للمرأة، وأيضًا الرجال، سعيًا وراء الجمال سابق التحيز طيبًا، أو لمداراه أفعال الزمن في الجسد الإنساني لدى العرب وغيرهم. ثمة أيضًا تحول نظام الرئي، وموضاته إلى جزء من استهلاك بعض الجموع الشابة الغفيرة من خلال إعادة إنتاج ذات الموضات في الصين وفيتنام، وبيعها بأثمان رخيصة لفقراء العالم الثالث. يبدو ذلك في التصميمات والألوان مع تعبيرات طفنه، وبعض استهلاك موضوعات بيوت الأزياء العالمية مخصصًا للأثرياء. الإنسان الرقمي/ الشيء بات بوصفه شيء مرقمن، ومستهلك ويعاد تشكيله، من الشركات الكبرى في عالمنا.

رابعًا: الأناسة الروبوتية والذكاء الاصطناعي التوليدي والحركة إلى عالم ما بعد الإنسان

أحد أبرز علامات عصرنا فائق السرعة، تتمثل في التطورات التقنية غير العادية، والاستثنائية، وخاصة في مجال الذكاء الاصطناعي التوليدي، والاستثمارات الكبرى والأبحاث المتطورة -السريّة للشركات الرقمية الكبرى- لتطوير الروبوتات، حيث بدأت التصورات حولها وكأنها تستعيد بعض تصورات الأدباء والكتاب في نهاية الأربعينيات وأوائل الخمسينيات عن مستقبل الإنسان. وذهب بعضهم إلى أن مال الحياة الإنسانية سيكون نحو عالم ما بعد الإنسان نظرًا للتطورات التقنية المحتملة أثناء الثورة الصناعية الثانية إلى الثالثة. اعتبرت هذه الكتابات آنذاك، وكأنها سرديات أسطورية وأدبية مؤسّسة على أخيله جامعة، وإن مستقبل الإنسان سيظل مسيطرًا على التكنولوجيا وعلى ما كان يطلق عليه الإنسان الآلي، لأنه سيكون خالقه، ومعه تقنيات تشغيله!

تستعاد بعض هذه الآراء بعد التطور المذهل في عالم الروبوتات، ومالاتها، بل دعوة بعض كبار الخبراء في هذا المجال للإشارة إلى مخاطر ترك الحياة الروبوتية بعيدة عن حدود السيطرة، وبيان مخاطر التطور الذاتي للروبوتات، ومن ثم الدعوات المتعددة من داخل الجماعة العلمية المتخصصة في الذكاء الاصطناعي التوليدي، أو رؤساء الشركات الرقمية، أو من الإدارة الأمريكية، ودول المجموعة الأوروبية لحوكمه الذكاء الاصطناعي، ووضع ضوابط للحد من مخاطرة.

هذا التمتع من المخاوف من التطورات التقنية أثير في الثورات الصناعية الأولى، والثانية، والثالثة، وفي بعض التخصصات في العلوم الطبيعية، والتكنولوجيا وغالبًا ما تم وضع قيود قانونية تمنع البحوث وتطويرها مثلما حدث مع الاستنساخ البشري، ومع ذلك يقال إن هناك من لا يلتزمون من العلماء في

اسيا، وَيَجْرُونَ أبحاثهم سرًا في هذا المجال. من هنا يُمكن توقع صدور قوانين أو وثائق أو مواثيق أخلاقية تُضبط الذكاء الاصطناعي التوليدي لكنها لن تمنع تطور الروبوتات، سواءً من الشركات الكبرى، أو من بعض المُشغّلين في بلدان أخرى في اسيا أو مناطق مُختلفة في عالمنا.

عالم الروبوتات يتطور بسرعة فائقة، وبات يشمل غالب مناحي الحياة في عالمنا في الطب وإجراء العمليات الناجحة، وفي الإدارة والمحاسبة، والتعليم، والقانون، والقضاء، وفي الموسيقى والسينما، والغناء والتثيل، وفي كتابة المقالات والبحوث. ومن المتوقع أن يؤدي وظائف الإنسان في كل المجالات، وسيؤدي ذلك إلى خروج 300 مليون موظف، أو 500 مليون موظف في تقدير آخر من سوق العمل، دون إعادة تأهيل بحلول عام 2050.

بعض البرامج الجديدة كالمحادثة الروبوتية، وغيرها في الطريق تُشكل انقلابًا في وظائف وأدوار الإنسان في الحياة، وتُشكل بديلًا أكثر تطورًا، المُرجح حُلولة محل الإنسان ومفهوم العمل الإنساني. من هنا تبدو الأنظمة المعرفية التي أتجهها العقل البشري منذ عصر الحداثة والتثوير الأوروبي، والعقلانية إلى عصر ما بعد الحداثة، وما بعد بعدها، تُطرح جانيًا، وتعدو جزءًا من تاريخ العقل والشرط الإنساني، ومركزية الإنسان في الكون، وسيطرته على الطبيعة واستغلالها، ستطرح أسئلة جديدة، ولغة، ومُصطلحات، والآات اصطلاحية مُختلفة، وأيضًا سنتهي مقاربات لما عهدناه سابقًا.

مرحلة الأناسة الروبوتية ستشهد في عام 2029 وصول الذكاء الاصطناعي التوليدي إلى مستوى الذكاء الإنساني، وفقًا لتُصريح للون ماسك. ما التحديات الجديدة والاستثنائية التي يُطرحها الذكاء الاصطناعي التوليدي، والروبوتات الذكية؟

عديد التحدّيات يُمكن رصد بعضها فيما يلي :

I- تحدى الاضطراب والفوضى النسبية في المراحل الأولى من خلال انعكاسات ثورة الذكاء الاصطناعي التوليدي على وضعيه الإنسان، وانفجار التفسيرات القديمة في تفسير التحول الاستثنائي في الحياة الإنسانية، ومحاولتها التكيف لتفسير ما يحدث لكنها لن تستطيع في الغالب. ويبدو أن هناك إمكانيّة لبعض من العقول الخلاقة إن تقدّم مقاربات ونظريات ولغة واصطلاحات جديدة.

2- تحدى أزمة الديمقراطية التمثيلية، ومدى صلاحية مؤسستها السياسية، ونظرياتها في العالم في الاستمرار، حيث سلّعت الروبوت دوراً مهماً في التخطيط، وربّما الحضور في قلب العمليات السياسية، وإمكانيّات محتملة لأدوار مستقلة للروبوتات في الحياة السياسية.

3- تحدى نهاية أدوار السياسيين ما بعد الحرب الباردة، وحتى العقود الثالث من القرن الحالي، وعدم تجدد العقل السياسي الغربي في التعامل مع المشكلات الكونية مثل الانقلاب البيئي ممثلاً في الإحساس الحراري وتحوله إلى غليان العالم وفق غوثيروس سكرتير عام الأمم المتحدة، ومشكلات البيئة، والفئوسات المتحوّرة غير المكتشفة، ثم تطوّرات الثورة الرقمية والذكاء الاصطناعي التوليدي. هنا يتجلى تحدى تشكيل وتركيب العقل السياسي في عالم الرقمنة والروبوتات وما هي مصادر تكوينه وظهوره وتدريبه خارج الأطر والتدريب والمعارف السياسية السابقة، وصدمة الجديدة، وخارج نطاق الأحزاب السياسية التي يراجع دورها في تمثيل المصالح والتغيير عنها، وتعبية قواعد اجتماعية تعتمد عليها.

4- تَحْدَى بَعْضُ السُّيُولَةِ وَالْفَوْضَى وَرَهَابِ الْخَوْفِ لَدَى الْجُمُوعِ الرَّقْمِيَّةِ وَالْفَعْلِيَّةِ الْغَفِيرَةِ، حَيْثُ الْخَوْفُ مِنَ الرُّبُوتَاتِ، وَالْخَوْفُ مِنَ الْإِسْتِبْعَادِ مِنْ سَوْقِ الْعَمَلِ، وَالْخَوْفُ مِنَ الْبَطَالَةِ، وَالْخَوْفُ مِنْ أَنْهِيَارِ نِظَامِ الضَّمَانَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ .

5- اعْتَرَبَ الْإِنْسَانُ الرَّقْمِيَّ عَنْ وَسَائِلِ الْإِتِّاجِ الرَّقْمِيَّةِ وَعَلَاقَاتِ الْإِتِّاجِ، دَاخِلَهَا، وَالْمُصَالِحِ . " الْإِعْتِرَابِ الرَّقْمِيَّ " يَخْتَلِفُ عَنْ مَفْهُومِ الْإِعْتِرَابِ الْهَيْجَلِيِّ، وَالْمَارْكَسِيِّ، وَلَدِي مَدْرَسَةِ فِرَانْكَفُورْتِ . الْإِعْتِرَابِ الرَّقْمِيَّ، وَالْإِعْتِرَابِ عَنْ عَالَمِ الرُّبُوتَاتِ الذِّكِّيَّةِ التَّوَلِيدِيَّةِ خَاصَّةً فِي ظِلِّ رُدُودِ أَفْعَالِهَا عَلَى الْفِعْلِ الْإِنْسَانِيِّ -وَفَقِ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ أَحَدُ خُبْرَاءِ الذِّكَاءِ الْإِصْطِنَاعِيِّ، وَتَمَّ التَّحْقِيقُ مَعَهُ وَفَصَّلَهُ مِنَ الْعَمَلِ عَنْ تَطَوُّرِ عَمَلِ الرُّبُوتَاتِ- مِنْ هُنَا الْإِعْتِرَابِ سَيَتَمَدَّدُ عَنْ الْعَالَمِ الرَّبُوتِيِّ الْفَاعِلِ فِي آدَاءِ الْعَمَلِ فِي كَافَّةِ الْمَجَالَاتِ، وَالْإِعْتِرَابِ فِي حَالَةِ الْبَطَالَةِ وَاتِّسَاعِ دَائِرَتِهَا لَا سِيَّمَا فِي الدُّوَلِ الْأَكْثَرِ تَطَوُّرًا .

6- تَحْدَى إِبْدَاعِ وَعَمَلِ الرُّبُوتَاتِ الذِّكِّيَّةِ لِلْأَعْمَالِ الذَّهْنِيَّةِ وَالْإِبْدَاعِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ يَقُومُ بِهَا الْمُبْدِعِينَ سَابِقًا، فِي الْكِتَابَاتِ الْأَدَبِيَّةِ، وَالْمُوسِيقَى وَالْغِنَاءِ وَالْفُنُونِ، وَالْكِتَابَةِ وَالْبَحْثِ، وَفِي الصَّحَافَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ مَجَالَاتِ الْإِبْدَاعِ الْإِنْسَانِيِّ .

حَتَّى فِي بَعْضِ الْمَجَالَاتِ الَّتِي كَانَتْ جُزْءًا مِنْ أَدْوَارِ الْبَشَرِ مِنْ مِثْلِ التَّقْدِيرِ الْأَدَبِيِّ، وَتَحْلِيلِ التُّصُوصِ الْأَدَبِيِّ . بَعْضُ التَّحْلِيلِ الرَّبُوتِيِّ التَّقْدِيرِيِّ أَفْضَلُ مِنْ عَدِيدِينَ مِنَ التَّقَادِيرِ الْأَكَادِيمِيِّينَ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يُقَدِّمُونَ انْطِبَاعَاتٍ عَنْ الْأَعْمَالِ الرَّوَائِيَّةِ أَوْ الْمُسْرَحِيَّةِ أَوْ الْقِصَصِيَّةِ أَوْ الشَّعْرِيَّةِ .

7- رُبُوتَاتُ الْمُحَادَثَةِ تَقُومُ بِالرَّدِّ عَلَى الْأَسْئَلَةِ الدِّينِيَّةِ وَالْمَذْهَبِيَّةِ -أَيَا كَانَتْ- وَهُوَ مَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الرُّبُوتَاتِ سُلِّبَتْ دَوْرًا وَظِلْفِيًّا فِي الْمُسْتَقْبَلِ بَدِيلًا عَنِ الدُّعَاةِ، وَالْوَعَاظِ، وَالْفُقَهَاءِ، وَالْقَسَاوِسَةِ،

وَالْأَسَاقِفَةُ، وَرِجَالُ الدِّينِ الْيَهُودِيِّ (الرَّبَائِي) وَغَيْرِهِمْ، وَعَلَى نَحْوِ أَفْضَلٍ فِي الْإِجَابَاتِ الْمُقَدَّمَةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ بَعْضِ الْأَخْطَاءِ الْحَالِيَةِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَى الْبَيِّنَاتِ الضَّخْمَةِ الْمَتَّاحَةِ فِي الْحَيَاةِ الرَّقْمِيَّةِ بِمَا فِيهَا بَعْضُ الْأَكَاذِيبِ وَالْأَرَاءِ الْخَاطِئَةِ وَغَيْرِ السَّلِيمَةِ، إِلَّا أَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ الْمَنْظُورَ يُنْطَوِي عَلَى تَصْحِيحِ الرُّبُوتَاتِ لِبَعْضِ هَذِهِ الْأَخْطَاءِ . وَهُنَاكَ اِحْتِمَالَاتٌ لِتَشْكِيلِ الرُّبُوتَاتِ لِبَعْضِ الْأَدْيَانِ الْوَضْعِيَّةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي تَتَنَاسَبُ مَعَ عَصْرِ الْآنَاسَةِ الرَّبُوتِيَّةِ وَمَا بَعْدَ الْإِنْسَانِ .

السُّؤَالُ أَيْنَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ مِنْ عَالِمِ الْآنَاسَةِ الرَّبُوتِيَّةِ؟

نَسْتَطِيعُ الْقَوْلَ إِنَّ عَالِمَ الْآنَاسَةِ الرَّبُوتِيَّةِ، يَبْدُو بَعِيدًا عَنْ غَالِبِ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي مَازَالَ مَحَلِّيًّا وَقَطْرِيًّا فِي طُرُوحَةِ الْجَزَائِرِ الْمُورُوثَةِ مِنْ أَرْضِ السَّعْيِ نَحْوِ حَدَاثَةِ جَزَائِرِةٍ أَوْ مُبْتَسَرَةٍ، أَوْ ذَهْنِيَّةٍ يُسَارِوِيَاتٍ مَا قَبْلَ، وَأَثَاءَ حَرَكَةِ التَّحَرُّرِ الْوَطَنِيِّ مَا بَعْدَ الْكُولُونِيَالِيَّةِ، مَعَ تَحَوُّلَاتٍ بَعْضُهُمْ نَحْوَ حَرَكَةِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ، فِي إِطَارِ الْخَلْطِ بَيْنَ عَقْلِ التَّانَاشِطِ الْحُقُوقِيِّ، وَالتَّانَاشِطِ السِّيَاسِيِّ، لِأَنَّ الْعَقْلَ الْإِنْدِيُولُوجِيَّ لَا يَزَالُ سَائِدًا وَمُسَيِّطَرًا وَرَاءَ الْعَقْلِ الْحُقُوقِيِّ، وَلَا يَمَازِزُ بَيْنَ الْوَضْعِيَّةِ وَالْإِنْشِطَةِ .

فَلَسْفِيًّا لَا يَزَالُ تَمَّةً تَرَاجَعُ فِي الْفِكْرِ الْفُلْسَفِيِّ فِي مُسْتَوِيَاتِهِ التَّكْوِينِيَّةِ، وَفِي إِتَاجِهِ مَعَ بَعْضِ الْاسْتِثْنَاءَاتِ فِي الْمَغْرِبِ وَتُونِسَ وَالْجَزَائِرِ، لَكِنَّ هَذَا الْإِتَاجَ شُرُوحَ عَلَى الْمُنْوَاعِ الْفُلْسَفِيَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ أَسَاسًا أَوْ بَعْضَ التَّرْجَمَاتِ لَهَا . مِنْ تَمَّ لَا تَوْجَدُ مُحَاوَلَاتٍ فُلْسَفِيَّةً يُمَكِّنُ وَصْفَهَا بِالْمَشْرُوعِ الْفُلْسَفِيِّ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ يُحَاوَلُهُ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ فِي الْمَرْحَلَةِ شَبْهِ اللَّيْبِرَالِيَّةِ، وَمَا بَعْدَ مِنْ عُثْمَانَ أَمِينٍ وَالْجَوَائِيَّةِ، وَغَرِيبِ الْوُجُودِيَّةِ لَدَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَدَوِيِّ، وَالْحَيَادِ الْفُلْسَفِيِّ لَدَى يَحْيَى هَوَيْدِي، وَعَبْدِ الْعَزِيزِ اللَّحْبَابِيِّ حَوْلَ الشَّخْصِيَّةِ،

وَالْغَدِيَّةَ، وَمَشْرُوعَ عَبْدِ اللَّهِ الْعَرُويِّ التَّقْدِي لِلْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ، وَمَشْرُوعَ مُحَمَّدِ عَابِدِ الْجَابَرِيِّ، وَالْعَقْلَ الْمُسْتَقْبِلَ
لِجَوْجِحِ طَرَابَيْشِي .

تَرَاجُعُ الْفِكْرِ الْفَلْسَفِيِّ الْعَرَبِيِّ فِي ضَوْءِ التَّطَوُّرَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الْجَدِيدَةِ، وَالْمَرْجَحِ بُرُوزِ فَلَاسَفَاتِ جَدِيدَةٍ،
وَخَاصَّةً فِي الصِّينِ، وَالْيَابَانِ، وَكُورِيَا الْجُنُوبِيَّةِ، وَسَنْغَاپُورِهِ، وَهِيَ مَنَاطِقٌ لَا تَزَالُ بَعِيدَةً عَنِ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ،
وَمَرْكَزِيهِ الْعَرَبِ الْأُورُو أَمْرِيكِيِّ، فِي التَّرْجَمَةِ وَالْتَّمَثْلِ الَّذِي لَا يَزَالُ تَشْوِبُهُ بَعْضُ التَّشْوِشَاتِ .

9- الْعَقْلُ التَّقْلِي الْأَتْبَاعِي الدِّينِي لَا يَزَالُ يَدُورُ حَوْلَ مَرْكَزِيَّةِ السَّرْدِيَّاتِ التَّأْوِيلِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالْإِرْتُوذَكْسِيَّةِ
التَّارِيخِيَّةِ، وَيَنْزِعُ نَحْوَ بَدْوٍ وَرَفَضٍ، بَلْ وَمُطَارَدَةٍ آيَةً مُحَاوَلَاتٍ تَجْدِيدِيَّةٍ مِنْ دَاخِلَةٍ .

10- ثَمَّةُ تَنَاقُضَاتٍ جِيلِيَّةٍ، وَإِزَاحَاتٍ جِيلِيَّةٍ مِنَ الْأَجْيَالِ الشَّابَّةِ نَحْوِ الْأَجْيَالِ الْقَدِيمَةِ، وَثَمَّةُ ذِرَاعِيَّةٍ/
بَرَايَمَتِيَّةٍ تُسَيِّطِرُ عَلَى تَفْكِيرِ الْأَجْيَالِ الشَّابَّةِ، وَلَا تُوجَدُ دِرَاسَاتٌ سُوسِيُولُوجِيَّةٌ حَوْلَ هَذِهِ الْأَجْيَالِ،
وَخَاصَّةً الصَّبِيَّةِ وَالْأَطْفَالِ، مِنْ ثَمَّ نَحْنُ إِزَاءِ مَسَاحَاتٍ تَبْدُو مُعْتَمَةً أَمَامَ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ حَوْلَ كَيْفِيَّةِ اشْتِعَالِ
عَقْلِ الْأَجْيَالِ الشَّابَّةِ وَالصَّبِيَّةِ وَالْأَطْفَالِ، وَاتِّجَاهَاتِهِمْ تَجَاهِ الْأَسْئَلَةِ الْجَدِيدَةِ، وَصَدْمَةِ الرُّوبُوتَاتِ،
وَاحْتِمَالَاتِ التَّحَوُّلِ إِلَى مَا بَعْدَ الْإِنْسَانِ !

أَوَّلًا

التَّيَّارُ الْقَوْمِيَّ

مَدْخَلٌ

كَانَتْ «الْقَوْمِيَّةُ» مِنْ أَهَمِّ مَا تَعَلَّمَهُ الْمُتَقَفُّونَ الْعَرَبُ مِنْ إِطْلَاعِهِمْ عَلَى الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ؛ فَقَدْ كَانَتْ الْفِكْرَةُ
الْقَوْمِيَّةُ بَارِزَةً عِنْدَ مُفَكِّرِي عَصْرِ التَّوْبِيرِ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ، وَكَانَتْ تِمَارَهَا وَاضِحَةً لِلْعِيَانِ فِي الْقَرْنِ

التاسع عشر الذي شهد بزور ألمانيا وإيطاليا كدولتين قومييتين. وخلصت الفكرة القومية لب من اختلفوا إلى أوروبا من أبناء الشرق، وخاصة من جاءوا من الدولة العثمانية، أتراكا كانوا أم عربا. وانتقلت عدوي الفكرة إلى بلاد البلقان التابعة للدولة العثمانية. وساعد التعليم الحديث، سواء كان حكوميا أم أهليا في مدارس الإرساليات التبشيرية، وتعلم اللغات الأجنبية، وتيسير الكتب المترجمة بفضل الطباعة، وكتابات الطهطاوي وغيره ممن أعادوا اكتشاف أوروبا في القرن التاسع عشر، ساعد ذلك كله - بصورة أو بأخرى - على التعرف على الفكرة القومية، واهتمام المثقفين بإعادة طرح سؤال الهوية.

كان الشعور السائد بين المسلمين من رعايا الدولة العثمانية هو الانتماء للإسلام أم «للأمة الإسلامية»، وهو شعور فضفاض غلب عليه طابع الشعور بالحاجة إلى التضامن بين أبناء الأمة في أوقات المحن والشدائد على نحو قريب الشبه بمفهوم «العصبيّة» عند ابن خلدون. مثال ذلك ما حدث عند غزو نابليون لمصر (الحملة الفرنسية)؛ فتنادى العرب بالجهاد، وجاء «المجاهدون» إلى مصر من الحجاز وشمال أفريقيا للدفاع عن حياض الإسلام، وأنبه الجميع إلى الله إن ينصر «الإسلام والمسلمين». وعندما أدخل محمد علي نظام التجنيد الحديث، لم يثر في الجنود مشاعر «الوطنية» المصرية، ولكنه أثار عندهم «فريضة الجهاد»، وجعل خطباء المساجد يؤكدون عليها، وسمى الديوان الخاص بشؤون الجيش «ديوان الجهادية».

حقا كان رفاة الطهطاوي أول من عرف «الوطن»، الذي كان يعني عنده مصر ذات التاريخ الممتد منذ الفراعنة، وشبهه في كتاباته محمد علي بالإسكندر الأكبر، فلقبه «بالمقدوني الثاني»، وقدم - على نحو ما رأينا - تعريفا لمفهوم «الوطنية» شد الاقتراب مما طرحه العلماء فيما بعد، ولكن

الطَّهطاوي لَمْ يَتَجَاوَزْ تِلْكَ الْحُدُودَ لِلْحَدِيثِ عَنِ الْفِكْرَةِ الْقَوْمِيَّةِ، بَلْ ظَلَّ يُعْبِرُ مِصْرَ «وَطَنًا» مُتَمَيِّزًا،
لِجَمِيعِ سُكَّانِهِ حُقُوقَ مُتَسَاوِيَةٍ بِحُكْمِ اشْتِرَاكِهِمْ فِي «الْمَنَافِعِ الْعُمُومِيَّةِ» (أَيُّ مَوَارِدِ الْبِلَادِ)، وَجَعَلَ الْإِخْوَةَ
فِي الْوَطَنِ كَالْإِخْوَةَ فِي الدِّينِ، فَغَلَبَ الْوَلَاءَ لِلْوَطَنِ عَلَى التَّعَاطُفِ مَعَ أَهْلِ الدِّيَانَاتِ مِمَّنْ يَعِيشُونَ فِي
أَوْطَانٍ أُخْرَى، وَلَكِنَّهُ أَكَّدَ انْتِمَاءَ مِصْرَ إِلَى «الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ».

وَرِعْمَ الدَّورِ الَّذِي لَعِبَتْهُ الْجُنْدِيَّةُ كِبُوتَهُ لِلشُّعُورِ الْوَطَنِيِّ، وَالتَّرْكِيزِ عَلَى مَا لِمِصْرٍ مِنْ «كِيَانٍ» خَاصٍّ فِي
ظِلِّ أَسْرِهِ مُحَمَّدٍ عَلَى، وَرِعْمَ كِتَابَاتِ الطَّهطاوي، ظَلَّ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ النَّاسِ يَغْلِبُ عِنْدَهُمُ الشُّعُورُ
بِالانْتِمَاءِ إِلَى «أُمَّةِ» الْإِسْلَامِ، وَالتَّضَامُنِ مَعَ إِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَلَمَّاتِ، وَخَاصَّةً إِنْ طَرِحَ الْأَفْكَارِ
الْجَدِيدَةَ لَمْ يَتَجَاوَزْ نُجْبَةَ الْمُتَقَبِّينَ الْعَارِفِينَ لِفِكْرِ الْغَرْبِ، لِيَصِلَ إِلَى الْجَمَاهِيرِ الْعَرِيضَةِ الَّتِي كَانَتْ تُلْكَ
الْأَفْكَارِ الْجَدِيدَةَ بِالتَّسْبِئَةِ لَهَا «رَطَانَةٌ» يَصْعُبُ فَهْمُهَا.

وَلَيْسَ صَحِيحًا مَا يَرِدُ فِي بَعْضِ الْمَوْلَفَاتِ مِنْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ بَاشَا بْنَ مُحَمَّدٍ عَلَى، كَانَ لَدَيْهِ إِحْسَاسٌ قَوِيٌّ
بِالْعُرُوبَةِ، وَرَغْبَةٌ فِي إِقَامَةِ «إِمْبِرَاطُورِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ» اسْتِنَادًا إِلَى تَفْسِيرِ أَحَدِ الْفَرَنْسِيِّينَ لِعِبَارَةِ سَمِعَهَا مِنْ
إِبْرَاهِيمَ، ذَكَرَ فِيهَا أَنَّهُ قَدَّمَ إِلَى مِصْرَ صَغِيرًا، وَإِنْ جَوَّ مِصْرَ وَشَمْسَهَا جَعَلَاهُ عَرَبِيًّا، وَرَبَطَ الْبَعْضُ هَذِهِ
الْعِبَارَةَ بِطَلَبِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ أَبِيهِ أَنْ يَأْمُرَ بِقُوفِ الْجَيْشِ الْمِصْرِيِّ فِي تَوْسِعَةٍ شِمَالًا بِالشَّامِ عَلَى حِسَابِ
الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ يَتَقَفُ عِنْدَ جِبَالِ طُورُوسَ، فَقَدْ كَانَ يَخْشَى الْعُبُورَ إِلَى الْأَنَاضُولِ لِسَبَبَيْنِ: أَحَدُهُمَا
سِيَاسِيٌّ، وَالْآخَرُ إِسْتِرَاطِيغِيٌّ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يُؤَدِّي إِلَى اسْتِثَارَةِ الدُّوْلِ الْكُبْرَى لِمَا يُمَثِّلُهُ تَوْسِيعُ الْعَمَلِيَّاتِ
الْعُسْكَرِيَّةِ إِلَى الْأَنَاضُولِ مِنْ إِخْلَالِ «بِالتَّوْازُنِ» الْإِقْلِيمِيِّ، وَهُوَ مَبْدَأُ هَامٍ فِي السِّيَاسَةِ الْأَوْرُوبِيَّةِ عِنْدَئِذٍ،
مِمَّا قَدْ يُدْفَعُ تِلْكَ الدُّوْلُ إِلَى التَّدَخُّلِ ضِدَّ مُحَمَّدٍ عَلَى (وَهُوَ مَا حَدَثَ بِالْفِعْلِ)، وَالسَّبَبُ الثَّانِي يَتَعَلَّقُ

بخطوره التوسع عبر طوروس واختراق هضبة الأناضول، لما يترتب عليه من إطالة خطوط الإمداد
والتأمين؛ فأشاع من أولوا هذا الموقف من إبراهيم، أنه طلب من والده أن يتوقف الجيش حيثما لا يجد
من يتحدث العربية! وذلك لتأكيد فكره تبة إقامة «إمبراطورية عربية»، وهو ما لم يكن واردًا —
عندئذ — بذهن محمد علي وولده إبراهيم. فما قصده إبراهيم — في حديثه إلى الفرنسي — أنه
قد أصبح عربيًا هو أنه قد تمصر؛ لأن المصريين عندما يرد ذكرهم بوثائق محمد علي، يقال لهم «أولاد
العرب» تمييزًا لهم عن الترك والفرنجة، واستخدم وصف «أولاد العرب» للمصريين من المسلمين
والإقباط على حد سواء. . .

على كل، لم يظهر الشعور القومي عند العرب إلا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، ولعل تطبيق
نظام التجنيد في الولايات العربية في ظل حركة الإصلاح في الدولة العثمانية، وما عاناه العرب من التمييز
من جانب ضباطهم الأتراك، وكذلك إحساس طلاب المدارس العثمانية من العرب (وخاصة المدارس
العسكرية) بهذا التمييز في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، لعل ذلك كان وراء شعور العرب
باختلافهم عن الأتراك، ومن ثم كان تفكير نخبة المثقفين العرب في أن يكون لبلادهم كيانًا «ذاتيًا» في
الدولة العثمانية. وقد شارك هؤلاء في حركة المعارضة لاستبداد عبد الحميد الثاني، وتحالفوا مع
جماعة «تركيا الفتاة» للإطاحة بحكمه، وإقامة حكومة دستورية تسمح للعرب بقدر من المشاركة في
صنع القرار؛ فكان ارتباطهم بحزب «الاتحاد والترقي»، الذي نجح في تدبير انقلاب ١٩٠٨م.

وإذا كان العرب قد شاركوا في هذه الحركة؛ فقد كان لمسيحيي الشام الدور الأكبر في المشاركة
العربية؛ فقد كانت هناك صلات تعود إلى ستينيات القرن التاسع عشر بين نخبة المثقفين المسيحيين في

بَيْرُوتَ وَيَبْنِي دُعَاةَ الإِصْلَاحِ فِي الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ فِي العَاصِمَةِ إِسْتَأْبُولَ . وَكَانَتِ الصُّحُفُ العَرَبِيَّةُ فِي
بَيْرُوتَ تُعْبَرُ عَنِّ ارْءَاءِ شَبِيهَةِ بَارَاءِ «تَرْكِيَا الفَتَاةُ» مَعَ مَيْلٍ أَوْضَحَ نَحْوِ العِلْمَانِيَّةِ . فَقَدْ دَعَتْ مَجَلَّةُ
«الجَنَانِ» الَّتِي أَسَّسَهَا بَطْرُسُ البُسْتَانِي عامَ ١٨٦٠م ، وَاسْتَمَرَّتْ فِي الصُّدُورِ حَتَّى ١٨٧٦م ، دَعَتْ إِلَى
ضَرُورَةِ قِيَامِ حُكْمٍ عَادِلٍ صَالِحٍ بَدَلًا مِنَ الحُكْمِ الفَاسِدِ الَّذِي كَانَ سَبَبًا فِي تَحَلُّفِ الشَّرْقِ . وَلَا يُمَكِّنُ
لِذَلِكَ الحُكْمِ إِنْ يُقَوِّمُ إِلَّا بِمُشَارَكَةِ جَمِيعِ أُنْبَاءِ البِلَادِ فِيهِ ، وَالْمَسَاوَاةِ بَيْنَ أُنْبَاءِ الدِّيَارَاتِ ، وَإِنْ يَتِمُّ فِيهِ
الفَصْلُ بَيْنَ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ ، وَالفَصْلُ بَيْنَ السُّلْطَانِ القَضَائِيَّةِ وَالتَّنْفِيذِيَّةِ ، عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ التَّعْلِيمُ أَجْبَارِيًّا ، وَإِنْ
يَتِمُّ التَّرْكِيزُ عَلَى تَقْوِيَةِ الشُّعُورِ الوَطَنِيِّ بَيْنَ أُنْبَاءِ البِلَادِ .

وَاسْتَمَرَ الكِتَابُ الشَّوَامُ يَنْشُرُونَ الأفْكَارَ المَعَارِضَةَ لِاسْتِبْدَادِ عَبْدِ الحَمِيدِ الثَّانِي حَتَّى وَقُوعِ ثَوْرِهِ
١٩٠٨م ، وَشَارَكَتْ «المُقَطَّمُ» وَ«الأَهْرَامُ» مِنْ مَضَرَ فِي مَوْجَةِ التَّقَدِّ وَالمَعَارِضَةَ ، وَمِنْ أَمْثَلَةِ ذَلِكَ مَا كَتَبَهُ
خَلِيلُ غَانِمِ اللُّبْنَانِيِّ المَارُونِيِّ الَّذِي كَانَ نَائِبًا فِي مَجْلِسِ المَبْعُوثَانِ (التَّوَابِ) العُثْمَانِيِّ عامَ ١٨٧٧م ، وَأَنْصَمَ
لِتَرْكِيا الفَتَاةِ ، وَكَانَ مِنْ قَادَتِهَا ، وَنَشَرَ كِتَابًا عَنِّ سَلَاطِينِ الِ عُثْمَانَ ، ذَهَبَ فِيهِ إِلَى أَنَّ مَا أَفْسَدَ «الأُمَّةَ
العُثْمَانِيَّةَ» أَمْرَانِ : الِاسْتِبْدَادُ الَّذِي يُفْسِدُ الرُّوحَ وَيَقْضِي عَلَى العَدْلِ وَالأِنصَافِ ، وَالإِسْلَامُ الَّذِي مَا لَبِثَ أَنْ
تُحَوَّلَ إِلَى التَّعْصَبِ وَالإِسْتِبْدَادِ . وَرَأَى أَنَّ الحُكْمَ الدُّسُورِيَّ هُوَ حَجَرُ الزَّائِيَةِ فِي الإِصْلَاحِ المُنشُودِ .

كَانَتْ حَرَكَتُ «تَرْكِيَا الفَتَاةِ» بِمَنَابَةِ جَبْهَةٍ وَطَنِيَّةِ تُضَمُّ مِنْ لَيْسَتْ لَهُمْ مُيُولُ قَوْمِيَّةُ مُحَدَّدَةٌ مِنْ دُعَاةِ الإِصْلَاحِ
(مِثْلُ خَلِيلِ غَانِمِ) ، وَمِنْ كَانُوا قَوْمِيَّينَ أَتْرَاكَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ يَرُونَ اسْتِمْرَارَ سَيْطَرَةِ العُنْصُرِ التَّرْكِيزِيِّ عَلَى
السُّلْطَةِ حَتَّى فِي ظِلِّ الحُكْمِ الدُّسُورِيِّ (مِثْلُ أَحْمَدِ رِضَا وَرِفَاقِهِ) ، وَهُنَاكَ مَنْ يَطْلُبُونَ المَسَاوَاةَ بَيْنَ
الأَجْنَاسِ وَالأَدْيَانِ فِي الدَّوْلَةِ ، وَيَدْعُونَ إِلَى لَّا مَرَكِزِيَّةِ السُّلْطَةِ (الحُكْمِ الذَّاتِيِّ لِلوَلَايَاتِ) مِثْلُ الأَمِيرِ صَبَاحِ

الَّذِينَ، وَمَا رَبَطَ بَيْنَ هُوَاءِ وَأَوْلِيكَ الْعَمَلِ مِنْ أَجْلِ إِسْقَاطِ حُكْمِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الثَّانِي. وَعِنْدَمَا
قَامَ انْقِلَابُ ١٩٠٨ م، وَتَمَّ عَزْلُ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَسَيْطَرَةُ «حِزْبِ الْإِتِّحَادِ وَالْتَرَقِّي» عَلَى الْحُكْمِ، كَشَفَ
الْقَوْمِيُّونَ الْأَتْرَاكُ عَنْ تَوَابِيهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ فِي سِيَادَةِ الْعُنْصُرِ التُّرْكِيِّ وَتَرِيكِ شُعُوبِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ
كَانَتْ الْفُرْقَةُ بَيْنَ حُلَفَاءِ الْأُمْسِ عَلَى نَحْوِ مَا حَدَّثَ بِالنَّسْبَةِ لِذَعَاةِ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَإِذَا كَانَ الْمَسِيحِيُّونَ الشَّوَامَ قَدْ لَعِبُوا دُورًا مَلْحُوظًا بَيْنَ صُفُوفِ دَعَاةِ الْقَوْمِيَّةِ فِي جَبْهَةِ «تُرْكِيَا الْقَنَاةِ»
الَّتِي أَطَاحَتْ بِالْحُكْمِ الْإِسْتِبْدَازِيِّ لِلْسُلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، فَقَدْ كَانَ دَعَاةُ التَّجْدِيدِ الْإِسْلَامِيِّ يَنْظُرُونَ
لِلْقَضِيَّةِ مِنْ زَاوِيَةٍ أُخْرَى هِيَ عَوْدُهُ الْخِلَافَةِ إِلَى الْعَرَبِ، وَاسْتِرْدَادِهَا مِنْ مُغْتَصِبِيهَا الْعُثْمَانِيِّينَ. وَكَانَ
أَشْرَافُ مَكَّةَ هُمُ الْمُرَشَّحُونَ لِتَوَلِّي الْخِلَافَةِ عِنْدَ مَنْ فَكَّرُوا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ مِنْ أَهْلِ السِّيَاسَةِ أَمَّا نِكَايَةُ
فِي السُّلْطَانِ عَلَى نَحْوِ مَا فَعَلَ الْخَدِيوُ الْمَخْلُوعُ إِسْمَاعِيلُ عِنْدَمَا كَانَ يُمُولُ سِرًّا مَجَلَّةَ «التَّخْلَةُ» الَّتِي
أَصْدَرَهَا فِي لَنْدُنَ لُويسَ صَابُونْجِي، وَهُوَ رَجُلٌ دِينٌ كَاثُولِيكِي، رَوَّجَ عَلَى صَفْحَاتِ الْمَجَلَّةِ لِفِكْرَةِ عَوْدِهِ
الْخِلَافَةِ إِلَى الْعَرَبِ. وَأَمَّا خِدْمَةُ لِمَصَالِحِ الدُّوَلِ الطَّامِعَةِ فِي الْمَشْرِقِ الْعَرَبِيِّ، فَرَاحَ رِجَالُهَا يُفَكِّرُونَ فِي
شُرَيْفِ مَكَّةَ كَخَلِيفَةَ بُدَيْلٍ لِلْسُلْطَانِ الْعُثْمَانِيِّ، أَوْ تَعْبِيرًا عَنْ مَطَامِعِ بَعْضِ الْحُكَّامِ مِثْلَمَا قِيلَ عَنْ سَعْيِ
الْخَدِيوِ عَبَّاسِ حِلْمِي الثَّانِي لِتَنْصِيبِ شُرَيْفِ مَكَّةَ خَلِيفَةً وَإِعْلَانِ نَفْسِهِ «سُلْطَانًا»، وَهُوَ قَوْلٌ لَمْ يَقُمْ عَلَيْهِ
دَلِيلٌ. وَلَكِنْ لِكُلِّ ذَلِكَ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى إِذْرَاكِ التَّنَاقُضِ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالتُّرْكِ، وَالتَّفَكُّيرِ فِي خِلَافِهِ عَرَبِيَّةٍ
كَبْدِيلٍ لِلْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ.

وَإِذَا كَانَ اللَّعْبُ بِوَرَقَةِ الْخِلَافَةِ وَارِدًا عَلَى مَايِدَةِ السِّيَاسَةِ، فَقَدْ سَاهَمَ مُفَكِّرُ عَرَبِيٍّ فِي طَرْحِ فِكْرِهِ
الْخِلَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي إِطَارِ مَفْهُومِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِمَا يُشْبِهُ الْمُرْجَ بَيْنَ الْفِكْرَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْفِكْرَةِ الْقَوْمِيَّةِ.

أَوْ بَعْبَارَةً أُخْرَى، إِقَامَةً خِلافَهُ إِسْلَامِيَّةً اتِّحَادِيَّةً مُتَعَدِّدَةً الْقَوْمِيَّاتِ، يُقَوِّدُهَا خَلِيفَةُ عَرَبِيٍّ ... هَذَا الْمَفْكَرُ
هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْكُوكَبِيُّ (١٨٤٩-١٩٠٣م).

جاء الكوكبي من عائلة حلبية، وتلقى تعليماً عربياً وتركياً، وعمل بخدمة الحكومة، ثم عمل بالصحافة
فاتخذ الحكم العثماني مما جلب عليه سخط الحكومة، فهرب إلى مصر عام ١٨٩٨م وجعل القاهرة
مستقراً له حتى وفاته عام ١٩٠٣م، وكتب العديد من المقالات في صحيفة «المؤيد» ومجلة «المنار»،
ونشر كتابين هما: «طبائع الاستبداد» و«أم القرى». ويهمننا هنا الكتاب الأخير الذي يعبر عن الربط
بين الجامعة الإسلامية والفكرة العربية.

ويعرض الكوكبي في «أم القرى» لمؤتمر إسلامي تخيل انعقاده في مكة للنظر في أحوال العالم الإسلامي؛
أسباب ضعفه، وكيفية علاج هذا الضعف. ومن الجدير بالملاحظة أن الكوكبي وزع الوفود المشاركة
في المؤتمر على الأقطار الإسلامية جاعلاً أغلبية المقاعد للعرب: فهناك وفد هندي، ووفد أفغاني،
وثالث تركي، ورابع فارسي، أما المقاعد الأخرى فجعلها لوفود من مختلف البلاد العربية: العراقي،
والشامي، والمصري، واليمن، والمغربي، والحجازي... إلخ. وهذا التوزيع يكشف عن تصوّره للوزن
العربي في الدولة الإسلامية المقترحة.

وفي عرّضه لأسباب انحطاط (تخلف) الأمة الإسلامية، نجدّة يُردّد الأفكار التي طرحها قبله دعاه
التجديد الإسلامي، وهي: انتشار البدع، وخاصة الممارسات الصوفية الغربية عن روح الإسلام،
والإغراق في التقليد، والعزوف عن الاجتهاد، وعدم التمييز بين ما هو جوهر في الإسلام وما هو

عَرَضِي هَامِشِي . وَأَتَمُّ الْحُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ بِتَشْجِيعِ ذَلِكَ كُلِّهِ لِيَسْتَبَدُّوا بِالْأَمْرِ مِمَّا أَفْسَدَ
الْمُجْتَمَعُ كُلُّهُ .

وَعِلَاجُ هَذَا الْأَنْحِطَاطِ، وَاسْتِرْدَادُ شَوْكَةِ الْإِسْلَامِ إِنَّمَا يَقُومُ بِقِيَامِ دَوْلَةٍ عَادِلَةٍ، يَعْيشُ النَّاسُ فِيهَا أَحْرَارًا،
فِي فِكْرِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ، تَخَضَعُ فِيهَا الْحُكُومَةُ لِرِقَابِهِ الشَّعْبِ . وَلِتَحْقِيقِ ذَلِكَ يَجِبُ إِصْلَاحُ الشَّرِيعَةِ بِإِقَامَةِ
نِظَامٍ شَرْعِيٍّ مُوَحَّدٍ عَنْ طَرِيقِ الْإِجْتِهَادِ، وَيَجِبُ أَنْ يُرَبِّيَ النَّشءَ تَرْبِيَةً دِينِيَّةً صَحِيحَةً . وَفَقِ ذَلِكَ كُلُّهُ لَا
بَدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ الْخِلَافَةُ عَرَبِيَّةً قُرَشِيَّةً؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ هُمْ مَادَّةُ الْإِسْلَامِ وَحَفِظْتَهُ، وَلِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلِسَانِ
عَرَبِيٍّ مُبِينٍ . عَلَى أَنْ يَقُومَ مُمَثِّلُو «الْأُمَّةِ» بِاخْتِيَارِ الْخَلِيفَةِ الَّذِي يَتَّخِذُ مِنْ مَكَّةَ مَرْكَزًا لَهُ، وَيَتَمَتَّعُ بِسُلْطَةِ
رُوحِيَّةٍ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُعَاوَنُهُ مَجْلِسُ شُورَى يُعَيِّنُهُ حُكَّامُ الْمُسْلِمِينَ، وَيَتَوَلَّى إِدَارَةَ أُمُورِ الْحِجَازِ
بِمُسَاعَدَةِ مَجْلِسٍ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ .

لَقَدْ عَبَّرَ الْكُوكَبِيُّ فِي هَذَا الْكِتَابِ عَنْ تَصَوُّرِ مَدْرَسَةِ التَّجْدِيدِ الْإِسْلَامِيِّ لِلْمَسْأَلَةِ الْقَوْمِيَّةِ مِنْ مَنْظُورِ
إِسْلَامِيٍّ مَحْضٍ، عَلَى حِينِ كَانِ الْبُسْتَانِيُّ وَتَلَامِيذُهُ يُعْبِرُونَ عَنْ نَفْسِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ مَنْظُورِ عِلْمَانِيٍّ فَهْمٍ
يَدْعُونَ إِلَى الْحُكْمِ الذَّاتِيِّ لِلْوِلَايَاتِ الْعَرَبِيَّةِ، وَإِلَى التَّمَسُّكِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَلْفَةً رَسْمِيَّةً فِي الْوِلَايَاتِ الْعَرَبِيَّةِ .

وَقَدَّمَ نُجَيْبُ عَازِرِي تَصَوُّرًا لِدَوْلَةٍ عَرَبِيَّةٍ عِلْمَانِيَّةٍ تُظَلِّمُ سُلْطَةَ رُوحِيَّةِ لِيَخْلِفَهُ عَرَبِيٌّ يَتَّخِذُ مِنْ مَكَّةَ
مَرْكَزًا لَهُ، مُتَأَثِّرًا فِي ذَلِكَ بِفِكْرِهِ الْخِلَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ عِنْدَ الْكُوكَبِيِّ، وَلَكِنْ مِنْ مَنْظُورٍ مُخْتَلَفٍ تَمَامًا .

وَنُجَيْبُ عَازِرِي مَسِيحِيٌّ كَاثُولِيكِيٌّ مِنَ الشَّامِ، تُرَبِّي تَرْبِيَةً فَرَنْسِيَّةً، وَعَمِلَ بِخِدْمَةِ الْإِدَارَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ
بِالْقُدْسِ فَتَرَةً مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ تَرَكَ مَنَصِبَهُ لِأَسْبَابٍ مَجْهُولَةٍ، وَهَاجَرَ إِلَى بَارِيسِ حَيْثُ أَسَّسَ هُنَاكَ «عَصْبَةَ

الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ» عام ١٩٠٤م، ونَشَرَ كِتَابًا بِالْفَرَنْسِيَّةِ بِعَنْوَانِ «يَقْطَعُ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ» عام ١٩٠٥م، ضَمِنَهُ رُؤْيِيَتَهُ لِلدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ، كَمَا أُصْدِرَ - أَيْضًا - مَجَلَّةٌ بِالْفَرَنْسِيَّةِ بِعَنْوَانِ «الِاسْتِقْلَالِ الْعَرَبِيِّ» عام ١٩٠٧م، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُعَمَّرْ طَوِيلًا . وَاتَّقَلَ مِنْ بَارِيسَ إِلَى الْقَاهِرَةِ الَّتِي قَضَى فِيهَا بَقِيَّةَ سَنَوَاتِ عُمُرِهِ حَتَّى وَفَاتِهِ عام ١٩١٦م، فَكَانَ يَكْتُبُ مِنْ حِينٍ لِآخِرٍ فِي «الْأَهْرَامِ» وَغَيْرِهَا مِنْ الصُّحُفِ الْمِصْرِيَّةِ .

وَفِي كِتَابَةِ «يَقْطَعُ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ»، يَذْهَبُ نَجِيبٌ عَارِزِي إِلَى أَنَّ هُنَاكَ أُمَّةٌ عَرَبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ - بِالْمَفْهُومِ الْعِلْمِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ لِلْكَلِمَةِ - وَأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تَجْمَعُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَسِيحِيِّينَ، وَإِنَّ الْمَشَاكِلَ الطَّائِفِيَّةَ الَّتِي نَشَأَتْ بَيْنَهُمْ هِيَ - فِي حَقِيقَتِهَا - مَشَاكِلُ سِيَاسِيَّةٌ، تَقِفُ وَرَاءَهَا قُوَى خَارِجِيَّةٌ تَعْزِيهَا لِخِدْمَةِ مَصَالِحِهَا الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ الْمَسِيحِيِّينَ لَا يَقُولُونَ عَرُوبَةً عَنِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلِذَلِكَ لَا بُدَّ مِنْ أَنَّ تَكُونَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ هِيَ اللُّغَةُ الْمُسْتَحْدَمَةُ فِي الْكِنَائِسِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهَا . وَلَكِنَّهُ اسْتَبْعَدَ مِصْرٌ مِنْ إِطَارِ الْعُرُوبَةِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ لَيْسُوا عَرَبًا، وَمَنْ تَمَّ لَا تَدْخُلُ مِصْرٌ ضِمْنَ «الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ» الَّتِي يَدْعُو لِاسْتِقْلَالِهَا عَنِ الْحَكْمِ التُّرْكِيِّ . وَاعْتَبَرَ التُّرُكُ مَسْئُولِينَ عَنِ تَخَلُّفِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ؛ فَلَوْلَا وَقُوعُ بِلَادِ الْعَرَبِ تَحْتَ حُكْمِهِمْ لَكَانَ الْعَرَبُ فِي طَلِيعَةِ الْأُمَّمِ الْمُتَمَدِّنَةِ، وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ - فِي رَأْيِهِ - نَقُوقُ الْعَرَبِ عَلَى التُّرُكِ فِي جَمِيعِ الْمَجَالَاتِ . وَلَا أَمَلُ فِي أَنَّ يَقُومَ إِصْلَاحٌ فِي الدَّوْلَةِ يُرَاعِي مَصَالِحَ الْعَرَبِ وَالْأَكْرَادِ وَالْأَرْمَنَ؛ لِذَلِكَ لَا سَبِيلَ لِلِخَلَاصِ أَمَامَ هَذِهِ «الْأُمَّمِ» الثَّلَاثِ سِوَى الْإِسْتِقْلَالِ، وَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ يُمَكِّنُ تَحْقِيقَهُ عَنْ طَرِيقِ الْعَمَلِ فِي اتِّجَاهَيْنِ؛ الدَّاخِلِ بِالْعَمَلِ عَلَى تَقْوِيضِ أَرْكَانِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَخَاصَّةً إِنْ جِهَازَهَا الْإِدَارِيَّ يَتَسَمَّ بِالضَّعْفِ وَالْفَسَادِ، وَالْآتِجَاهِ الْآخِرِ يَتِمَثَّلُ فِي الْإِسْتِعَانَةِ بِالدُّوَلِ الْأُورُوبِيَّةِ لِمُسَاعَدَةِ الْعَرَبِ عَلَى تَحْقِيقِ الْإِسْتِقْلَالِ .

ولكن ما هي الدول التي يركن العرب إليها طلباً للعون؟ خصص غازوري قسطاً كبيراً من كتابه لاستعراض مصالح الدول الأوروبية في المشرق العربي، وانتهى إلى أن إنجلترا وفرنسا هما اللتان تستطيعان مساعدة العرب على تحقيق حكم الاستقلال؛ لأن تقاليد «الحرية» راسخة فيهما، وخاصة في فرنسا تحديداً. وكان نجيب غازوري في ذلك لا يشذ عن غيره من نخبة المثقفين العرب عندئذ الذين تطلّعا إلى مساعدة إنجلترا أو فرنسا لهم. فإذا كان غازوري قد راهن على فرنسا فقد سبقه في ذلك مصطفى كامل الزعيم الوطني المصري، كما أن «حزب اللامركية» الذي كان من أقطابه محمد رشيد رضا وغيره من الشوام المسلمين دعا الجماعة الإسلامية، علّقوا آمالهم على إنجلترا. ولعل ذلك يرجع إلى إدراكهم أن أيّ تغيير إقليمي يقوم على حساب الدولة العثمانية لا بد أن تبتأه الدول الكبرى. غير أن نجيب غازوري انفرد بين دعاة القومية العربية من أبناء جيله باستشراف الخطر الذي تمثله الصهيونية، وإدراكه لخطورة ما ترمى إليه من إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، فقال: «تبرز في البلاد الآسيوية التابعة للدولة العثمانية ظاهرتان متناقضتان رغم طبيعتهما الواحدة، هما: يقظة الأمة العربية، وسعى اليهود الخفي لإعادة ملك إسرائيل القديم على نطاق واسع، ومقدّر لهاتين الحركتين أن تضطدما بعضهما ببعض حتى تغلب إحداهما على الأخرى، ويوقف مصير العالم أجمع على النتيجة الأخيرة لهذه الصراع.»

أما الدولة العربية المستقلة - في رأيه - فيجب أن تكون سلطنة دستورية ليبرالية، يرأسها سلطاناً عربياً مسلماً، على أن يلتزم باحترام الاستقلال الذاتي للبنان ونجد واليمن. وإن تكون السلطة الروحية لخليفة عربي في مكة على أن تكون له سلطه إدارية في الحجاز على نحو ما للبابا من صلاحيات في

الفاتيكان، ولكن غازوري لم يحدد من يراه مرشحاً للسلطنة، ومن يشغل منصب الخليفة، طالما كان القرار بيد الدولة الكبرى التي تبنى مشروع «الدولة» العربية المستقلة.

وفكره «الاستقلال العربي» التي روج لها نجيب غازوري تعبر عن إدراك مبكر من جانبه لعدم استعداد جماعة «تركيا الفتاة» للاعتراف فعلياً بحقوق القوميات التي تخضع للدولة العثمانية، وقد صدق حدسه عند وصول أولئك القوم إلى الحكم بعد أطاحه عبد الحميد الثاني، فأتجهوا إلى اتباع سياسة «عثمنه» جميع شعوب الدولة، أي جعلهم «وطنيين» عثمانيين، وفرض اللغة التركية لغة رسمية للدولة، ورغم ما حققه نظام الحكم الجديد من إصلاحات في الإدارة المحلية، والأمن العام، وبعض المشروعات العامة، والتعليم، والتشجيع على تحرير المرأة، شعر القوميون العرب والأرمن والألبان والأكراد بما تمثله سياسة «التريك» من خطر داهم على هوىهم القومية، وتطلعهم إلى تبيل حقوقهم القومية، فتفرقت بهم وبإداره «الاتحاد والترقي» السبل، وراح دعاه كل قومية يعملون من أجل تحقيق تطلعاتهم السياسية.

ولكن دعاه القومية العربية لم يكونوا على قلب رجل واحد؛ فتعددت التنظيمات السياسية التي عملوا من خلالها، وتباينت مواقفها تبائن تصور أصحابها لسبيل تحقيق مراميها وأهدافها السياسية.

فالجُمُعيات السريّة التي كوّنّها المثقفون العرب (بعد ثوره ١٩٠٨م) من المدينيين والعسكريين مثل: الجُمُعِيّة القحطانية التي أسسها بعض الضباط عام ١٩٠٩م كان من بينهم عزيز على المصري، الذي أسس في عام ١٩١٤م جُمُعِيّة «العهد»، وجُمُعِيّة «العربية الفتاة» التي أسسها بعض المثقفين المدينيين وطلاب المدارس العليا عام ١٩٠٩م أيضاً. هذه الجُمُعِيّات كانت تعمل من أجل استقلال الولايات العربية في المشرق عن الدولة العثمانية، ولكنها لم توحد صفوفها في تنظيم واحد، رغم وحدة الغاية والتوجه عند

كُلُّ مَنْ أَنْصَوَا تَحْتَ لَوَاءِ تِلْكَ الْجَمْعِيَّاتِ . وَقَدْ ذَهَبَتْ إِحْدَاهَا (عَامَ ١٩١١م) إِلَى إِضْدَارِ بَيَانِ أَتَهَمْتُ فِيهِ الْأَتْرَاكُ بِالتَّسَبُّبِ فِيمَا يُعَانِيهِ الْعَرَبُ مِنْ بُؤْسٍ، وَبِمَسْئُولِيَّتِهِمْ عَنِ التَّخَلُّفِ الْاِقْتِصَادِيِّ لِلْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ، وَاتِّسَارِ الْفَقْرِ، وَالْعَمَلِ عَلَى مَخَوِ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالتَّضْحِيَةِ بِالْبِلَادِ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَةِ الْأَجَانِبِ، فَهِيَ بَعِيدَةٌ تَمَامًا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَعَلَى الْعَرَبِ الْاِتِّحَادَ مَعًا (مُسْلِمِينَ وَمَسِيحِيِّينَ وَيَهُودًا) لِلتَّخَلُّصِ مِنْ نِيرِ الْحُكْمِ الْعُثْمَانِيِّ، وَفِي نَفْسِ الْعَامِ (١٩١١م)، وَجِهَ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى تِلْكَ الْجَمْعِيَّاتِ رِسَالَةً إِلَى الشَّرِيفِ حُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَنِ طَرِيقِ السَّيِّدِ طَالِبِ التَّقِيْبِ زَعِيمِ الْبُصْرَةِ، يَقُولُونَ فِيهَا إِنَّ الْعَرَبَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلْوُقُوفِ وَرَأَاهُ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الْحُكْمِ الْعُثْمَانِيِّ، وَأَنَّهُمْ سَوْفَ يُبَايَعُونَهُ بِالْخِلَافَةِ إِذَا اسْتَجَابَ لَهُمْ . فَالْجَمْعِيَّاتِ السَّرِيَّةُ — إِذَنْ — لَمْ تَرِ بَدِيلًا لِلْاِسْتِقْلَالِ عَنِ الدَّوْلَةِ، وَفَقَدَتْ الْأَمَلَ فِي حُصُولِ الْعَرَبِ عَلَى حُقُوقِهِمْ الْمَشْرُوعَةِ فِي إِطَارِ تِلْكَ الدَّوْلَةِ .

غَيْرِ أَنْ فَرِيقًا آخَرَ مِنَ الشُّوَامِ الْمُقِيمِينَ بِمِصْرَ، وَمُعْظَمُهُمْ مِنَ الْمَشَايِعِينَ لِفِكْرَةِ «الْجَامِعَةِ الْاِسْلَامِيَّةِ» ظَلُّوا يَمْتَسِكُونَ بِالدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَيَرُونَ ضَرُورَةَ الْمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا بِاِعْتِبَارِهَا دَوْلَةً «الْخِلَافَةِ» الْاِسْلَامِيَّةِ . وَلَكِنَّهُمْ عَمِلُوا مِنْ أَجْلِ الْحُصُولِ عَلَى الْحُكْمِ الذَّاتِيِّ فِي إِطَارِ «الْوَطَنِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ»، وَعَلَّقُوا أَمَالَهُمْ عَلَى دَعْمِ بَرِيطَانِيَا لَهُمْ لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهِمْ . فِي عَامِ ١٩١٢م. أُسِّسُوا بِالْقَاهِرَةِ «حِزْبَ الْاَمْرَكِيَّةِ الْاِدَارِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ» الَّذِي كَانَتْ تَرْبُطُهُ قَنَوَاتِ اِتِّصَالٍ مَعَ بَعْضِ اللَّيْبَرَالِيِّينَ دَعَاهُ الْاَمْرَكِيَّةِ مِنْ رِجَالِ «تُرْكِيَا الْفَتَاةِ»، كَمَا كَانَتْ لَهُ شَبَكَةٌ مِنْ «لِجَانِ الْاِصْلَاحِ» فِي الْمُدُنِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَشْرِقِيَّةِ، وَخَاصَّةً بِيْرُوتِ . وَكَانَتْ مُطَالِبِ الْحِزْبِ مُتَوَاضِعَةً مِثْلَ: اسْتِخْدَامِ الْعَرَبِيَّةِ لُغَةً رَسْمِيَّةً فِي الْوَلَايَاتِ الْعَرَبِيَّةِ، وَإِنْ يَنْفَرِدِ الْعَرَبُ بِتَوَكُّلِ الْوُضَائِفِ الْاِدَارِيَّةِ فِي تِلْكَ الْوَلَايَاتِ، وَالْاِيعِينَ أَحَدًا فِي وَضَائِفِ الْوَلَايَاتِ دُونَ اسْتِشَارَةِ اِعْيَانِ تِلْكَ الْوَلَايَاتِ، وَإِنْ

تَقْتَصِرُ خِدْمَةُ الْمُجْتَدِدِينَ الْعَرَبُ عَلَى الْوَلَايَاتِ الَّتِي يَنْتُمُونَ إِلَيْهَا فِي زَمَنِ السَّلْمِ، وَإِنْ تَخَصَّصَ بَعْضُ الْمَوَارِدِ الْمَالِيَةِ الْمَحَلِّيَّةِ لِسَدِّ حَاجَاتِ الْوَلَايَةِ صَاحِبِهِ تِلْكَ الْمَوَارِدِ، وَأَنْ يُتِمَّ تَوْسِيعَ اخْتِصَاصِ مَجَالِسِ الْوَلَايَاتِ، وَنَتْنِظِيمِ أَدَارَاتِ الشَّرْطَةِ وَالْقَضَاءِ وَالضَّرَائِبِ عَلَى أُسُسٍ حَدِيثِهِ بِالِاسْتِعَانَةِ بِالْخَبْرَاءِ الْأَجَانِبِ. وَرَأَى رِجَالَ الْحِزْبِ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ الْعَلَنِيِّ، الْقَانُونِيِّ، السَّلْمِيِّ، أَدَاتِهِمْ لِتَحْقِيقِ تِلْكَ الْمَطْلَبِ.

وَلَكِنْ مَعَ تَفَاقُمِ سِيَاسَةِ التَّرْيِكِ عَامَ ١٩١٣م، وَتَصَاعُدِ التَّمْيِيزِ ضِدَّ الْعَرَبِ مِنْ جَانِبِ الْحُكُومَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ الَّتِي جُعِلَتْ السِّيَادَةُ لِلْعُنْصُرِ التَّرْكِيِّ، قَامَ فَرِيقٌ مِنْ دَعَاةِ «الْعُرُوبِيَّةِ» بِعَقْدِ مُؤْتَمَرٍ «عَرَبِيٍّ» فِي بَارِيسَ، اشْتَرَكَ فِيهِ نَحْوُ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ شَخْصًا كَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ عِرَاقِيَّانَ، وَالْآخَرُونَ مِنَ الشَّوَامِ، مُعْظَمُهُمْ مِنْ الطُّلَابِ أَوْ الْمُقِيمِينَ بِبَارِيسَ، وَلَمْ تَكُنْ الْحُكُومَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ بَعِيدَةً عَنِ التَّرْتِيبَاتِ الْخَاصَّةِ بِعَقْدِ هَذَا الْمُؤْتَمَرِ، وَمِنْ هُنَا جَاءَ حَرَصُ حِزْبِ اللَّامْرَكِيَّةِ عَلَى التَّوَاجُدِ حَتَّى لَا يَتَفَرَّدُ أَنْصَارُ «الْعَرَبِيَّةِ الْفَتَاةِ» بِأَمْرِ الْمُؤْتَمَرِ. وَتَكْشِفُ الْمُنَاقَشَاتُ الَّتِي دَارَتْ بِالْمُؤْتَمَرِ عَنِ الْمَيْلِ نَحْوِ الْإِعْتِدَالِ، فَقَدْ رَبَطَ الْخُطَبَاءُ بَيْنَ الرَّغْبَةِ فِي الرُّقْيِ الْحَضَارِيِّ كَدَافِعِ لِلْمَطْلَبَةِ بِالْإِصْلَاحِ، وَآهَمِهِمْ يَعْلُقُونَ أَمَانَهُمْ عَلَى وَقُوفِ أَوْرُوبَا إِلَى جَانِبِ مَطْلَبِهِمُ الْعَادِلَةَ بِالضَّغْطِ عَلَى الْحُكُومَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ لِتَحْقِيقِ الْإِصْلَاحِ، وَعَوَّلُوا عَلَى فَرَنْسَا لِإِقْتِنَاعِ الدُّوَلِ الْأُورُوبِيَّةِ الْأُخْرَى بِعَدَالَةِ قَضِيَّتِهِمْ. وَأَكَّدُوا حِرْصَهُمْ عَلَى الدَّوَلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَرَغْبَتِهِمْ فِي تَقْوِيَّتِهَا بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ نِظَامُ الْحُكْمِ دِيمُقْرَاطِيًّا قَائِمًا عَلَى مَبْدَأِ الْمَسَاوَاةِ، وَمِنْ ثَمَّ لَا بُدَّ مِنْ اشْتِرَاكِ الْعَرَبِ فِي الْحُكُومَةِ الْمَرْكَزِيَّةِ، وَإِنْ نُنَالِ الْوَلَايَاتِ الْعَرَبِيَّةَ اسْتِقْلَالًا ذَاتِيًّا، وَإِنْ تَصَبَّحَ الْعَرَبِيَّةُ لُغَةً رَسْمِيَّةً فِي الْبِرْلَمَانِ الْعُثْمَانِيِّ وَدُوَائِرِ الْحُكُومَةِ الْمَحَلِّيَّةِ، وَالْأَيْ كَوْنِ هُنَاكَ تَمْيِيزٍ بَيْنَ الْعَرَبِ عَلَى أَسَاسِ الدِّينِ.

سَارَعَتِ الْحُكُومَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ بِإِرْسَالِ مَبْعُوثٍ عَنْهَا لِلتَّوَاضُحِ حَوْلِ الْمَطَالِبِ الَّتِي طَرَحَتْ إِمَامُ الْمُؤْتَمَرِ،
وَلَكِنَّ الْأَعْضَاءَ تَبَيَّنُوا أَنَّ بَيَّةَ الْأَصْلَاحِ لَا تَتَوَقَّرُ عِنْدَ الدَّوْلَةِ، فَمَالَتْ الْكَهْفَةَ إِلَى جَانِبِ دَعَاهِ اسْتِقْلَالِ الْبِلَادِ
الْعَرَبِيَّةِ.

وَلَكِنَّ «رُؤْيَةَ» الْقَوْمِيِّينَ الْعَرَبِ لِلْاسْتِقْلَالِ لَمْ تَكُنْ تَتَّضَمَّنُ إِجْمَاعًا عَلَى الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ، عَلَى
نَحْوِ مَا رَأَيْنَا عِنْدَ عَارِزِوْرِي؛ فَكَانَ هُنَاكَ مِنْ يَدْعُونَ إِلَى اسْتِقْلَالِ سُورِيَا، وَيَبْرُرُونَ ذَلِكَ بِتَوَفُّرِ عَنَاصِرِ
الْوَحْدَةِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْجُغْرَافِيَّةِ، وَالتَّوَعُّعِ الْبَشَرِيِّ الثَّقَافِيِّ؛ لِذَلِكَ يَحِبُّ أَنْ تُقَامَ فِي سُورِيَا (الْكَبْرَى) دَوْلَةٌ
عِلْمَانِيَّةٌ دِيمُقْرَاطِيَّةٌ اتِّحَادِيَّةٌ، مُؤَلَّفَةٌ مِنْ وَحَدَاتٍ أَدَارِيَّةٍ يَتِمَّعُ كُلُّ مِنْهَا بِالْحُكْمِ الذَّاتِيِّ، وَيُرَاعَى فِي تَحْدِيدِ
تِلْكَ الْوَحَدَاتِ الطَّبِيعَةُ السُّكَّانِيَّةُ الْغَالِبَةُ فِيهَا مِنْ حَيْثُ الْعَرَقُ وَالذَّنُّ، وَهِيَ الْأَفْكَارُ الَّتِي رُوحَ لَهَا حَلِيلُ
غَانِمٍ وَجُورِجِ سَمْنِهِ.

وَهُنَاكَ مَنْ فَضَّلُوا اسْتِقْلَالًا إِدَارِيًّا لِلْوِلَايَاتِ الْعَرَبِيَّةِ فِي إِطَارِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَفُقِ مُطَالِبُ «حِزْبِ الْأَمْرَكِيَّةِ
الْإِدَارِيَّةِ» حِرْصًا عَلَى بَقَاءِ «الْخِلَافَةِ»، وَخَشْيَةً وَقُوعِ تِلْكَ الْوِلَايَاتِ بَيْنَ بَرَاثِنِ الْإِسْتِعْمَارِ الْأَوْرُوبِيِّ، كَمَا
حَدَّثَ لِمِصْرَ وَتُونِسَ وَالْجَزَائِرِ مِنْ قَبْلِهَا، وَهَؤُلَاءِ كَانُوا يُفَكِّرُونَ فِي صِيغَةِ «الْمِلْكِيَّةِ الثَّنَائِيَّةِ» كَحَلٍّ
مُنَاسِبٍ، اسْتَلْهَمُوا فِيهِ حَالَةَ إِمْبِرَاطُورِيَّةِ التَّمَسَا وَالْمَجْر، فَتَكُونُ الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ دَوْلَةَ التُّرْكِ وَالْعَرَبِ،
يُحْكِمُهَا السُّلْطَانُ بِأَعْبَارِهِ - أَيْضًا - مَلِكًا لِلْعَرَبِ، وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ مِنْ اتِّحَادِ بَيْنِ دَوْلَةٍ عَرَبِيَّةٍ وَأُخْرَى
تُرْكِيَّةٍ. وَنَفَرُ هَؤُلَاءِ مِنْ فِكْرِهِ الثُّورَةِ عَلَى الدَّوْلَةِ، لِمَا قَدْ يَبْرُتَبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ إِضْرَارِ بَوْحَدَةِ «الْأُمَّةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ»، وَتَشْكِينِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْهَا لِخِدْمَةِ مَصَالِحِهِمْ.

وَحَتَّى دَعَاهُ «الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمُسْتَقْلَّةُ» كَانَتْ الْاِنْتِسَامَاتُ سَائِدَةً بَيْنَهُمْ حَوْلَ حُدُودِ الدَّوْلَةِ وَنِظَامِ الْحُكْمِ فِيهَا؛ رَأْيُ الْبَعْضِ أَنَّ تَكُونَ الدَّوْلَةُ عِلْمَانِيَّةً دِيمُقْرَاطِيَّةً يُحْكِمُهَا مَلِكٌ عَرَبِيٌّ، بَيْنَمَا رَأْيُ الْبَعْضِ الْآخَرِ فِي تِلْكَ الدَّوْلَةِ كِيَانًا أَوْسَعَ يُضَمُّ الْوِلَايَاتِ الْعَرَبِيَّةَ فِي دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ يُحْكِمُهَا «خَلِيفَةُ» عَرَبِيٌّ، تَمْتَدُّ سُلْطَتُهُ الرُّوحِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ كُلِّهِ، كَانَتْ الْعَالَمِيَّةُ تُسَلِّمُ بِضُرُورَةٍ قِيَامَ «كِيَانِ عَرَبِيٍّ»، وَذَهَبَ الْمَشَارِكُونَ فِي الْمُؤْتَمَرِ الْعَرَبِيِّ بِبَارِيسَ إِلَى أَنَّ الْعَرَبَ يُشَكِّلُونَ «أُمَّةً» وَفَقَ تَوْصِيفِ مُفَكِّرِي الْعَرَبِ لِمُفْهَمِ الْأُمَّةِ؛ فَهَمُ أَصْحَابُ لُغَةٍ وَثَقَافَةٍ وَاحِدَةٍ، يَجْمَعُهُمْ تَارِيخٌ مُوَاصِلٌ مُشْتَرِكٌ، وَتَرْتَبُطُهُمْ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ مَصَالِحٌ مُشْتَرِكَةٌ، وَلَهُمْ تَطَلُّعَاتٌ مُمَاتِلَةٌ. وَمِنْ ثَمَّ رَأَوْا أَنَّ هُنَاكَ «قَوْمِيَّةَ عَرَبِيَّةً» وَاضِحَةً الْمَعَالِمِ.

وَلَكِنَّ الْقَوْمِيَّةَ - بِهَذَا الْوَصْفِ - ذَاتُ طَبِيعَةٍ عِلْمَانِيَّةٍ خَالِصَةٍ، غَيْرَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَقْبَلُوا فِكْرَهُ الْفَضْلُ بَيْنَ الْقَوْمِيَّةِ وَالذِّينِ (وَهُوَ هُنَا الْإِسْلَامُ) عَلَى نَحْوِ مَا فَعَلَ التُّرُكُ بَعْدَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى. فَهَمُ يَرَوْنَ فِي الْإِسْلَامِ حَجْرَ الزَّائِيَةِ فِي ثَقَافَتِهِمْ، وَلَا يَرَوْنَ الْعُرُوبَةَ مِنْ مُنْظُورٍ غَيْرِ مُنْظُورِهِ، وَهَمُ الَّذِينَ يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ «مَادَّةً» لِلْإِسْلَامِ. وَهِيَ إِشْكَالِيَّةٌ مُمْتَدَّةٌ كَانَتْ لَهَا تَأْثِيرُهَا عَلَى رُؤْيَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَسِيحِيِّينَ الْعَرَبَ لِلْقَوْمِيَّةِ. فَاصْرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى اِعْتِبَارِ الْإِسْلَامِ أَسَاسًا لِشُعُورِ الْعَرَبِ بِوَحْدَتِهِمْ كَأُمَّةٍ، مَعَ الْاِعْتِرَافِ بِاِتِّمَاءِ الْمَسِيحِيِّينَ الْعَرَبَ إِلَيْهَا وَإِذَا كَانَ مِيشِيلُ عَفْلَقُ - دَاعِيَةُ الْبُعْثِ الْعَرَبِيِّ - قَدْ حَاوَلَ الْوُصُولَ إِلَى حِلِّ لِهَذِهِ الْأَشْكَالِيَّةِ بِتَأْكِيدِ الدَّورِ الْمَرْكَزِيِّ لِلْإِسْلَامِ فِي تَكْوِينِ «الْأُمَّةِ» الْعَرَبِيَّةِ؛ فَإِنَّ سَاطِعَ الْحَضَرِيِّ رَكَزَ عَلَى الصِّفَةِ الْعِلْمَانِيَّةِ لِلْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ مُؤَكَّدًا أَنَّ «الثَّقَافَةَ» الْعَرَبِيَّةَ هِيَ الْمَحَدَّدُ لِلْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلَيْسَ الذِّينُ.

وَلَكِنَّ أَفْكَارَ عَفْلَقِ وَالْحَضَرِيِّ تُعْبَرُ عَنْ جِيلٍ آخَرَ غَيْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَغَلُوا بِالْحَرَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ الْحَرْبِ الْأُولَى، ثُمَّ تَحَطَّتْ أَمَانَتُهُمْ بِمَا حَدَثَ لِلْمَشْرِقِ الْعَرَبِيِّ فِي نَهَايَةِ الْحَرْبِ مِنْ تَجَزُّؤِهَا عَلَى يَدِ الدُّوَلِ الْأُورُوبِيَّةِ

ذَاتَهَا الَّتِي عَلَّقُوا عَلَيْهَا آمَالَهُمْ لِتَكُونَ عَوْنًا لَهُمْ عَلَى الْاِسْتِقْدَالِ . وَاسْتَعَاذَ الْجِيلُ الْاٰخِرُ مِنْ «الْقَوْمِيّينَ»
الْعَرَبُ عَنِ التَّنْظَرِ اِلَى الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ كَخُطْوَةٍ لَا بَدَّ مِنْهَا لِاِحْيَاءِ الْاِسْلَامِ، بِالتَّنْظَرِ اِلَى الْاِسْلَامِ كَمَا كَانَتْ
اَسَاسِيًّا لِلْاُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَمُضَدَّرًا لِتَقَاتِهَا .

وَيَأْتِي قُسْطَنْطِينُ زُرَيْقُ الْمَوْرَخِ الدَّمَشَقِيِّ الْمَوْلِدُ الْمَعْرُوفُ، فِي مُقَدِّمَةٍ مِنْ رَبَطُوا الْقَوْمِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ بِالْاِسْلَامِ
فِي كِتَابِهِ «الْوَعْيُ الْقَوْمِيّ» (نَشْر ١٩٣٩م) مُؤَكِّدًا حَاجَةَ الْعَرَبِ اِلَى الْقَوْمِيَّةِ بِاَعْتِبَارِهَا «الْعَقِيدَةُ» الَّتِي
تَوْلَدُ الشُّعُورَ بِالمَسِيوِيَّةِ الْمُشْرَكَةِ، وَالْاِرَادَةَ فِي خَلْقِ مُجْتَمَعٍ، وَالْحِفَاظَ عَلَيْهِ، وَلَمَّا كَانَ الْمَجْتَمَعُ الْعَرَبِيُّ
يَسْتَمِدُّ وَحْيَةً وَمَبَادِئَهُ مِنَ الدِّينِ، وَهَذَا الدِّينُ هُوَ الْاِسْلَامُ؛ لِذَلِكَ يَجِبُ التَّسْلِيمُ بِهَذِهِ الْعَلَاقَةِ الْجَوْهَرِيَّةِ بَيْنَ
الْاِسْلَامِ وَالْعُرُوبَةِ، يَسْتَمِدُّ الْعَرَبُ مِنْهُ الْمَبَادِئَ الْخُلُقِيَّةَ الَّتِي تُوْجَدُ فِي كُلِّ الْاَدْيَانِ، وَتُعْبَرُ عَنْ نَفْسِهَا
بِاسْلُوبٍ مُخْتَلَفٍ فِي كُلِّ دِيْنٍ، وَلَكِنْ جَوْهَرُهَا وَاحِدٌ، وَلَا يَتَعَارَضُ ذَلِكَ مَعَ قِيَامِ كِيَانِ عَرَبِيٍّ عَصْرِيٍّ
يَسْتَمِدُّ رُوْحَةً مِنَ الدِّينِ، وَتَهْضُمُهُ مِنْ مُنْجَرَّاتِ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

عَلَى اَنَّ ذَلِكَ لَا يَعْنِي اَنَّ سَفِيْنَةَ «الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ» قَدْ اسْتَقَرَّتْ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ عَلَى شَاطِئِ تَحْقِيْقِ
الْاَمَلِ الْمُنْشُوْدِ فِي اِقَامَةِ الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْوَاحِدَةِ؛ فَقَدْ ظَلَّ ذَلِكَ حُلْمًا يَدَاعِبُ دَعَاةَ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ، دُونَ
اَنَّ يَتَحَوَّلَ اِلَى حَقِيْقَةٍ مَلْمُوسَةٍ . وَلَكِنْ هُنَاكَ تِيَارَاتٌ «قَوْمِيَّةٌ» ذَاتُ تَوَجُّهَاتٍ اِقْلِيْمِيَّةٍ، عَرَفَتْهَا بَعْضُ الْبِلَادِ
الْعَرَبِيَّةِ فَيَمَّا بَيْنَ الْحَرْبَيْنِ الْعَالَمِيَّتَيْنِ هُمَا «الْقَوْمِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ» و«الْقَوْمِيَّةُ السُّورِيَّةُ» . وَقَدْ سَبَقَ اَنَّ الْمَخْنَا
لِجَذُوْرِ فِكْرَةِ الْقَوْمِيَّةِ السُّورِيَّةِ قَبْلَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْاُولَى، وَقَدْ تَطَوَّرَتْ عَلَى يَدِ اِنْطُونِ سَعَادَةَ،
و«الْحِزْبِ الْقَوْمِيِّ السُّورِيِّ»، فَالْتَمَسَ سَعَادَةُ لِلْفِكْرَةِ السُّورِيَّةِ اُصُوْلًا فَيَنْبِقِيَّةً، جَعَلَتْ سُورِيَا تَنْمِي اِلَى
الْبَحْرِ الْمَوْسَطِ اَكْثَرَ مِنْ اتِّصَالِهَا بِظُهُرِهَا الْعَرَبِيِّ .

أما القومية المصرية فقد روج لها قبل الحرب الأولى أحمد لطفي السيد، بمفهوم علماني خالص، يرفض تمامًا فكره الجامعة الإسلامية ويعتبرها ذات طابع «استعماري». ولكنه عبّر عن اتجاه نخبة ضيقة من المثقفين. أما غالبية المصريين الذين التفوا حول «الحزب الوطني» بزعامه مصطفى كامل ثم محمد فريد؛ فقد أبدوا فكره الجامعة الإسلامية لأنها تعني المحافظة على بقاء الدولة العثمانية. ولما كان «الحزب الوطني» متمسكًا بالسيادة العثمانية باعتبارها طوق النجاة من الاحتلال البريطاني؛ فقد كان عليه التمسك بالفكرة الإسلامية، وهو نفس الشعور الذي ساد تونس والجزائر؛ لذلك اعتبر المصريون الدعوة إلى القومية العربية، وإقامة دولة عربية نوعًا من «المؤامرة» الاستعمارية التي تهدف إلى تفتيت الدولة العثمانية، لأن تفتيت الدولة العثمانية يعني تكريس الوجود البريطاني في مصر. ومن ثم كانت التطرقة إلى دعاة القومية العربية (قبل الحرب الأولى) باعتبارهم «أدوات» في يد القوي الاستعمارية.

ولكن هزيمة الدولة العثمانية في الحرب، وتفكيك أوصالها جاء لمصلحة دعاة «القومية المصرية» التي لقيت دفعه قويًا في زخم ثوره ١٩١٩م، وما ترتب على اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون من انبهار عالمي بالحضارة المصرية القديمة؛ فاتخذ بعض دعاة «القومية المصرية» من ذلك كله سبيلًا لتأصيل جذورها ووصولًا إلى العصور الفرعونية، وتأكيد (أصالة) مصر وهضمها لجميع الغزاة بما فيهم العرب، بل ذهب البعض إلى اعتبار الحقب الإسلامية من تاريخ مصر نوعًا من «الردة» الحضارية التي عانت منها البلاد. وتماذى البعض في المطالبة بأن تسرد مصر وجهها الثقافي الأصيل فتكون لها لغتها وأدبها. وذهب البعض الآخر إلى القول بانتفاء مصر إلى حضارة البحر المتوسط بحكم تأثير الحضارة المصرية القديمة على حضارة اليونان التي أثرت بدورها في الحضارة الرومانية التي تعد ركيزة الحضارة الأوروبية

الحديث. فمضر شارك في صنع الحضارة الأوروبية؛ ولذلك يجب أن تأخذ بجميع مكونات تلك الحضارة دون حرج، وإن شئى تماماً كل روابطها بالدائرة العربية-الإسلامية. وهنا نجد فكره «القومية المصرية» تلتقي مع فكره «القومية السورية» في الانتساب إلى حضارة البحر المتوسط. وبلغ الغلو في هذا الاتجاه حد ادعاء وجود «إنسان البحر المتوسط» الذي يختلف في بنيته ومزاجه عن إنسان «الصحراء» (ويُقصد بذلك العرب).

ولكن... هل كانت «القومية» بتشعباتها المختلفة، عربية كانت أم إقليمية (مصرية أو سورية) تعبر عن إدراك الجماهير في مختلف أرجاء الوطن العربي لهويتهم؟ أم كانت مجرد أفكار تدور في أذهان نخبة المثقفين، يعبرون عنها في كتاباتهم؟

قبل الإجابة على هذا السؤال الجوهرى، يجب أن نضع في اعتبارنا أن فكرة القومية التي وفدت إلينا مع الفكر الغربى في القرن التاسع عشر كانت تعبيراً عن مرحلة معينة من مراحل التطور عرفها المجتمع الأوروبى، ارتبطت بالنمو الاقتصادى الرأسمالى، وما ترتب عليه من إفران قوى اجتماعية جديدة (البرجوازية)، زحزحت القوى القديمة الإقطاعية عن مواقعها، وطرحت أفكاراً جديدة لتصفية مجموعته القيم التي ارتكز عليها المجتمع الإقطاعى القائم على نظام تراتبى صارم، يجمد الناس في مواقعهم الاجتماعية فلا يملكون منها فكاً. ومن ثم كانت أفكار عصر التنوير التي دعت إلى الحريات بمختلف إبعادها، وإلى المساواة، وحقوق الإنسان، والحكم الدستورى. وجاءت الثورة الفرنسية لتقدم الإطار السياسى لنظام يقوم على تلك الأفكار.

أما البلاد العربية فلم تشهد مثل هذا التطور في ظل الحكم العثماني، فكان المجمع إقطاعيًا زراعيًا، رعويًا، وتراوحت فرص النمو الرأسمالي بتوافر الظروف الموضوعية لتطور رأس المال التجاري أو غياب تلك الظروف نتيجة سطوة العسكر على السلطة وابتزازهم التجار بالقدر الذي استنزف كل ما استطاعوا تحقيقه من تراكم. وظلت القيم الاجتماعية السائدة في الوطن العربي قيمًا أبوية، قيدت - إلى حد كبير - قدره الفرد على الحركة والإبداع.

وهكذا كانت الفكرة «القومية» عند طرحها في أواخر القرن التاسع عشر تبه غريبة، اقتلعت من تربة فيها كل المقومات التي ساعدت على نموها، ووقلت إلى البلاد العربية حيث كانت التربة تفقر فيها إلى إمكانات النمو فضلًا عن الأثمار؛ ولذلك كانت تلك الفكرة مجرد «رطانة» مثقفين، لم تتجاوز حلقاتهم الضيقة لتنتقل إلى الجماهير التي كانت تعيش حالة ذهنية ومزاجية تختلف تمامًا عن تلك التي عاشها المثقفون. كما كان دعاه «القومية» يمثلون - في واقع الأمر - أقلية بين المثقفين الذين كانت غالبيتهم تربت تربة تقليدية سواء في المدارس الدينية الإسلامية، أو في المدارس الحديثة التي أقامتها الدولة العثمانية في عصر الإصلاح أو أقامها محمد علي وخلفاؤه في مصر، وهي مدارس جمعت في برامجها الدراسية بين الإسلامي والحديث معًا. ومن ثم كان القطاع العريض بين المثقفين يناصر فكره المواءمة بين الموروث الثقافي الإسلامي، وما يتم اكتسابه من علوم الغرب ومعارفه على نحو ما أشرنا من قبل. أما من تربوا في مدارس الأرساليات التبشيرية فقد حسموا اختيارهم للتمودج الغربي بما فيه فكرة «القومية»، وليس غريبًا أن يكون دعاه «القومية الإقليمية» من بين هؤلاء.

أَمَّا الْجُمَاهِيرُ الْعَرِيضَةُ فَكَانَتْ بَعِيدَةً تَمَامًا عَمَّا يَدُورُ فِي حَلَقَاتِ الْمُتَقِنِينَ ثِقَافَةَ غَرَبِيَّةٍ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى تَعَالَى هُوَاءِ عَلَى الْجُمَاهِيرِ الَّتِي كَانَتْ تَغَطُّ فِي الْجَهْلِ وَالْأُمِّيَّةِ، وَلَا تَسْتَجِيبُ إِلَّا لِمَنْ يُدْعِدُ مَشَاعِرَهَا الدِّينِيَّةَ، وَتَتَحَرَّكُ تَضَامِنًا مَعَ إِخْوَةِ الدِّينِ؛ لِذَلِكَ كَانَ دَعَاؤُ الْفِكْرِ «السَّلَفِيِّ»، أَكْثَرَ تَأْثِيرًا بَيْنَ الْجُمَاهِيرِ مِنْ غَيْرِهِمْ، يَلِيهِمْ مِنْ حَيْثُ التَّأْثِيرِ دَعَاؤُ فِكْرِهِ «الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّة».

وَلَعَلَّ ذَلِكَ يُفسِّرُ قَلَّةَ حِمَاسِ الْجُمَاهِيرِ لِلْفِكْرِ الْقَوْمِيِّ؛ لِأَنَّ مِنْ طَرَحِهِ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ بَدَلُوا جَهْدًا لِجَعْلِ «الْوَحْدَةِ» الْعَرَبِيَّةَ حَقِيقَةً مُلْمُوسَةً، لَمْ يُوقِفُوا فِي تَقْدِيمِ مَا يُنْبَعُ الْجُمَاهِيرَ بِأَهْمِيَّةِ تِلْكَ الْفِكْرَةِ؛ لِذَلِكَ تَرَكَتِ السَّاحَةُ خَالِيَةً إِمَامَ التِّيَّارِ الْإِسْلَامِيِّ «السَّلَفِيِّ» الَّذِي يَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّأْثِيرِ مِنْ خِلَالِ خُطَابِهِ الدِّينِيِّ فَوْقَ مَنَابِرِ الْمَسَاجِدِ . وَسَيَظَلُّ هَذَا التِّيَّارُ الرَّجَعِيُّ مَسِيطِرًا عَلَى السَّاحَةِ طَالَمَا كَانَ الْمَشْرُوعُ التَّهْضُوي الْعَرَبِيِّ الَّذِي يُحَقِّقُ التَّنْمِيَّةَ بِمُخْتَلَفِ إِبْعَادِهَا الْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالْاِجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، غَاطِبًا عَنِ الْوُجُودِ .

أَنَّ الْقَوْمِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ مَا هِيَ إِلَى أُيدُلُوجِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ سَادَتْ الْوَطْنَ الْعَرَبِيَّ بِشَكْلِ كَبِيرٍ خِلَالَ قُفْرَةِ السِّيَنِيَّاتِ وَالسَّبْعِيْنِيَّاتِ مِنَ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ، وَيَبْدُو أَنَّ أَفْضَلَ مِنْ عَبْرَ عَنَّا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ هُوَ التِّيَّارُ النَّاصِرِيُّ الَّذِي ظَهَرَ فِي مِصْرٍ عَقِبَ ثَوْرِهِ يُؤَلِّقُ بِقِيَادَةِ الرَّئِيسِ جَمَالِ عَبْدِ النَّاصِرِ، وَتُوجُّ مَفْهُومُ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْإِعْلَانِ عَنِ قِيَامِ الْجُمْهُورِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ . فَيَدُيُو قَدْ يُعْجِبُكَ: تِلْكَ الْجُمْهُورِيَّةُ الَّتِي قَامَتْ مِنْ خِلَالِ الْاِتِّحَادِ بَيْنَ مِصْرٍ وَسُورِيَا، وَقَدْ كَانَ الْقَوْمِيَّوْنَ الْعَرَبُ يُؤْمِنُونَ أَشَدَّ الْاِيْمَانَ بِالْهُويَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ هُوِيَّةِ تَجَثُّ بِسَبَبِ اللُّغَةِ وَالثَّقَافَةِ وَالتَّارِيخِ وَالتَّرَاثِ الْمَشْرُوكِ لِشُعُوبِ الْمُنْطَقَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَبِالتَّالِي فِيهَا لَا تَتَّقِدُ بِقِيُودِ الدِّينِ أَوْ الْعِرْقِ، وَتَهْدِفُ إِلَى اِيجَادِ حَالَةٍ مِنَ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ . وَمِنْ هُنَا فَقَدْ كَانَتْ الْقَوْمِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ عِبَارَةً عَنِ حَرَكَةٍ سِيَاسِيَّةٍ وَاسِعَةِ النِّطَاقِ شَمِلَتْ الْعَدِيدَ مِنَ دُولِ الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ كَمَا تَكُونَتْ عَلَى اِسَاسِهَا

أحزاب كبرى في تلك البلدان قادت مجتمعاتها لفترات زمنية طويلة، ولكن يبدو أن حقبة القومية العربية قد انتهت بسبب إخفاقها في الكثير من الجوانب وهو الأمر الذي أدى إلى انحسار كبير للتيار القومي .

ظهور فكره القومية العربية يبدو أن بداية ظهور الفكر القومي كانت في أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، إذ تكونت في تلك الفترة حركة في الخفاء كانت عبارة عن تجمع لشخصيات وأحزاب في عاصمة الخلافة العثمانية، ثم أصبحت حركة علنية واتخذت من العاصمة بيروت مقراً لها، بعد ذلك أصبحت حركة سياسية بعد عقد المؤتمر العربي الأول في باريس عام 1912م. كما تجدر الإشارة إلى أن الدعوة إلى فكرة القومية العربية ظلت في بداية الأمر مقتصرة في نطاق الأشخاص والأقليات من غير المسلمين، ومن ثم تأثر بعض من المسلمين بها وبما حملته من أفكار ومعتقدات عامة، ولم تصبح تياراً شعبياً عاماً إلا بعد أن ثبناها وسخر لها الإمكانيات الحكومية في مصر الرئيس جمال عبد الناصر. أما أهم من دعا لأفكارها وروج لها في بداية الأمر فهم كل من ساطع الحصري الذي يعد من كبار مفكري ومنظري التيار القومي، إذا تولى وضع الكثير من أسس هذا التيار الكبير، ومن ثم بنيت عليها فكره القومية العربية، ومن ثم ميشيل عفلق الذي يعد الشخصية الثانية التي قادت هذا التيار الكبير، ووضع له الكثير من الأسس والأهداف. أهم الجمعيات ذات التوجه القومي ظهرت في الوطن العربي العديد من جمعيات الأحزاب التي عبرت عن توجهاتها القومية ولعل من أبرزها:

الجمعية السورية في دمشق. وهي الجمعية التي أسسها كل من بطرس البستاني وناصيف إليازجي في عام 1847م.

الْجَمْعِيَّةُ السُّورِيَّةُ فِي بَيْرُوتَ: وَهِيَ الْجَمْعِيَّةُ الَّتِي أَسَّسَهَا سُلَيْمُ الْبُسْتَانِي وَمُنِيفُ خَوَزِي فِي عَامِ ١٨٦٨م. الْجَمْعِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ السَّرِيَّةُ: وَكَانَتْ لَهَا فُرُوعٌ فِي دِمَشْقَ وَطَرَابُلُسَ وَصَيْدَا، وَظَهَرَتْ عَامَ ١٨٧٥م.

جَمْعِيَّةُ حُقُوقِ الْمِلَّةِ الْعَرَبِيَّةُ: وَهِيَ جَمْعِيَّةٌ كَانَتْ تَهْدَفُ إِلَى تَحْقِيقِ الْوَحْدَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَسِيحِينَ وَتَأَسَّسَتْ عَامَ ١٨٨١م.

جَمْعِيَّةُ رَابِطَةِ الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ: وَهِيَ جَمْعِيَّةٌ أُسَّسَهَا نُجَيْبُ عَازُورِي فِي بَارِيسَ عَامَ ١٩٠٤م.

جَمْعِيَّةُ الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ: وَهِيَ جَمْعِيَّةٌ أُسَّسَهَا خَيْرُ اللَّهِ خَيْرُ اللَّهِ فِي بَارِيسَ عَامَ ١٩٠٥م.

الْجَمْعِيَّةُ الْقَطَانِيَّةُ: وَهِيَ جَمْعِيَّةٌ سَرِيَّةٌ أُسَّسَهَا خَلِيلُ حَمَادَةَ الْمِصْرِيِّ عَامَ ١٩٠٩م.

جَمْعِيَّةُ الْعَرَبِيَّةِ الْفَتَاةُ: أُسَّسَهَا مَجْمُوعَةٌ مِنَ الطَّلَابِ فِي بَارِيسَ مِنْهُمْ مُحَمَّدُ الْبُعْلَبُكِيُّ عَامَ ١٩١١م.

الْكَلَّةُ النَّيَابِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ: تَأَسَّسَتْ عَامَ ١٩١١م.

حَزْبُ اللَّامِرْكِيَّةِ: تَأَسَّسَ عَامَ ١٩١٢م.

الْجَمْعِيَّاتُ الْإِصْلَاحِيَّةُ: وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ جَمْعِيَّاتٍ قَامَتْ فِي مَدُنٍ عَرَبِيَّةٍ عِدَّةٍ مِثْلَ بَغْدَادَ وَالْبَصْرَةَ

وَالْمَوْصَلَ وَحَلَبَ وَدِمَشْقَ وَبَيْرُوتَ عَامَ ١٩١٢م.

الْمُؤْتَمَرُ الْعَرَبِيُّ: وَهُوَ مُؤْتَمَرٌ أُسَّسَهُ طُلَّابُ عَرَبٍ فِي مَدِينَةِ بَارِيسَ عَامَ ١٩١٢م.

حَزْبُ الْعَهْدِ: هُوَ حَزْبٌ سَرِيٌّ تَمَّ تَأْسِيسُهُ مِنْ قِبَلِ الضَّبَاطِ الْعَرَبِ فِي الْجَيْشِ الْعُثْمَانِيِّ عَامَ ١٩١٢م.

جَمْعِيَّةُ الْعِلْمِ الْأَخْضَرِ: وَهِيَ جَمْعِيَّةٌ أُسَّسَهَا فَاتِقُ شَاكِرٍ عَامَ ١٩١٣م.

جَمْعِيَّةُ الْعِلْمِ : وَهِيَ جَمْعِيَّةٌ تَأَسَّسَتْ فِي مَدِينَةِ الْمُؤَصِّلِ عَامَ ١٩١٤م .

وَيَنْضَوِي تَحْتَ جَنَاحِ التِّيَّارِ الْقَوْمِيِّ عِدَّةٌ تَوَجُّهَاتٍ قَوْمِيَّةٍ وَهِيَ :

القَوْمِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ

القَوْمِيَّةُ السُّورِيَّةُ

القَوْمِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ

القَوْمِيَّةُ الْأَمَارِيَّةُ

1

القَوْمِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ

وَتَضُمُّ جَنَاحَيْنِ رَأْسِيِّينَ :

الْبَعْثِيَّةُ

النَّاصِرِيَّةُ

أَوَّلًا

الْبَعْثِيَّةُ

حِزْبُ الْبَعْثِ .. نَشَأَتِهِ وَتَطَوُّرُهُ .. دَلِيلٌ شَامِلٌ وَمَفْصَلٌ

كَانَتْ الْإِرْهَاصَاتِ الْحِزْبِيَّةِ الْأُولَى وَظُهُورِ حِزْبِ الْبَعْثِ فِي سُورِيَّةٍ خِلَالَ عَهْدِ الْحُكْمِ الْعُثْمَانِيِّ . فَبِئْسَ
عَامَ 1883 م قَامَتْ حَرَكَةٌ أَنْفِصَالِيَّةٌ بَيْنَ نَصَارَى مَدِينَةِ بَيْرُوتَ، فِي كَلِيَّةِ إِيَسُوعِيِّينَ التَّابِعَةِ لِطَائِفَةِ
الْبُرُوتْسَانِيَّةِ . وَأَعْلَنْتْ مُعَارَضَتَهَا لِلْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَوُزِعَتْ مَنُشُورَاتٌ سَرِيَّةٌ فِي بَيْرُوتَ وَدِمَشَقَ،
تُحَرِّضُ الشَّعْبَ عَلَى الثَّوْرَةِ ضِدَّ الْعُثْمَانِيِّينَ . وَمُولَتِ الْحُكُومَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ هَذِهِ الْحَرَكَةَ، لِئَنْشُرَ نَفُوذَهَا فِي
الْمُنَطَقَةِ .

نَشْأَةُ حِزْبِ الْبَعْثِ

بَعْدَ الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَتَحَوُّلِ فَرَنْسَا مِنْ الْمَلِكِيَّةِ إِلَى الْجُمْهُورِيَّةِ، بَدَأَتْ فَرَنْسَا تَصُدِّرُ إِلَى الدَّوْلِ الْأُورُوبِيِّ
الْأُخْرَى بَعْضَ الْمَفَاهِيمِ الْجَدِيدَةِ فِي اللُّغَةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَأَصْبَحَتْ الْأَحْزَابُ السِّيَاسِيَّةُ فِي أُوْرُوبَا تَنْقَسِمُ
إِلَى ثَلَاثَةِ اتِّجَاهَاتٍ:

. أَحْزَابُ الْيَمِينِ .

. أَحْزَابُ الْيَسَارِ الْإِشْرَاقِيِّ .

. أَحْزَابُ الْوَسْطِ .

وَتَأَثَّرَ مُفَكَّرُو سُورِيَّةٍ وَمُتَّفَقُوهَا، بِتِلْكَ الْأَفْكَارِ السِّيَاسِيَّةِ الْجَدِيدَةِ . مِنْ دُونِ مَا تَمَيَّزَ حَقِيقِيًّا، بَيْنَ
الْمَعْنَى الْأَيْدِيُولُوجِيِّ لِلْيَمِينِ، أَوْ الْيَسَارِ، أَوْ الْوَسْطِ . فَقَدْ كَانَتْ الْأَحْزَابُ وَالْجَمَاعَاتُ السِّيَاسِيَّةُ، السَّالِفِ
ذِكْرَهَا، سِوَاءَ دَاخِلِ سُورِيَّةٍ، أَوْ خَارِجَهَا، مُحَاكَاةً شَكْلِيَّةً فَقَطْ لِأَفْكَارِ وَمَبَادِي، تِلْكَ الْأَحْزَابِ الْغَرْبِيَّةِ .

وَيَرَى بَعْضُ الدَّارِسِينَ، أَنَّ التَّضَالَ الوَطَنِيَّ السُّورِيَّ، قُبِيلَ فِتْرَةِ الاسْتِقْلَالِ، كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ ثَلَاثَةِ مُسْتَوِيَّاتٍ،
فِي أَنَّ وَاحِدًا، هِيَ:

I. المُسْتَوَى الوَطَنِيَّ

ضِدَّ الاسْتِعْمَارِ الفَرَنْسِيِّ، الَّذِي كَانَ يَمَثَلُ فِي قَضِيَّةِ جَلَاءِ القُوَّاتِ الفَرَنْسِيَّةِ عَنِ الأَرَاضِي السُّورِيَّةِ،
وَالْحُصُولِ عَلَى الحُكْمِ الذَّاتِيَّ الوَطَنِيَّ، وَالْغَاءِ نِظَامِ الأَنْتِدَابِ الفَرَنْسِيِّ.

2. المُسْتَوَى القَوْمِيَّ

كَانَ التَّضَالَ الوَطَنِيَّ السُّورِيَّ، يُعَدُّ مُقَدِّمَةً طَبِيعِيَّةً لِلتَّضَالَ القَوْمِيَّ العَرَبِيِّ. فَغَالِبِيَّةُ البَرَامِجِ الحِزْبِيَّةِ
السُّورِيَّةِ، كَانَتْ تَهْدَفُ إِلَى وَحْدَةِ التَّضَالَ العَرَبِيِّ. وَكَانَ هُنَاكَ ارْتِبَاطٌ وَثِيقٌ فِي تَارِيخِ سُورِيَّةِ المُعَاصِرِ،
بَيْنَ المُشْكَلَةِ الفِلَسْطِينِيَّةِ، مِنْ نَاحِيَّةِ، وَمُجَرَّنَاتِ الأَحْدَاثِ السِّيَاسِيَّةِ دَاخِلِ سُورِيَّةِ، مِنْ نَاحِيَّةِ أُخْرَى.

3. المُسْتَوَى الاجْتِمَاعِيَّ

وَهُوَ التَّضَالَ فِي خَطِّ السَّيْرِ نَحْوَ الأَعْمَقِ، أَيَّ فِي اتِّجَاهِ القُوَاعِدِ الشَّعْبِيَّةِ. فَالْتَّضَالَ الاجْتِمَاعِيَّ سِمَةٌ
جَوْهَرِيَّةٌ، فِي صَمِيمِ التَّجَانُسِ الوَطَنِيِّ، وَالْوَحْدَةِ القَوْمِيَّةِ. وَهُوَ، أَيْضًا، يَسْتَهْدَفُ وَحْدَةَ الشُّعْبِ، فِي
قِيَّاتِهِ المُخْتَلَفَةِ، وَفِي تَكْوِينَاتِهِ الاجْتِمَاعِيَّةِ (العشيرة، الحَيِّ، الطَّائِفَةُ، القَرْيَةُ، المُدِينَةُ).

وَلَمْ تَتَمَكَّنْ كُلُّ الأَحْزَابِ السُّورِيَّةِ. خَاصَّةً حِزْبُ البُعْثِ. مِنْ اسْتِيعَابِ العُنَاصِرِ الثَّلَاثَةِ لِلتَّضَالَ: (الوَطَنِيَّ
- القَوْمِيَّ - الاجْتِمَاعِيَّ).

فَالْحَزَبِ، الَّتِي اسْتَجَابَتْ لِلنِّضَالِ الْقَوْمِيِّ وَخِذَهُ، كَانَ مَصْدَرُهَا الْعُنْصَرِيَّةُ وَالْيَمِينِيَّةُ الْمَطْرُفَةُ، كَالْحَزْبِ

السُّورِيِّ الْقَوْمِيِّ، وَالْحَزْبِ الْوَطَنِيِّ وَحِزْبِ الْبُعْثِ السُّورِيِّ

أَمَّا أَحْزَابُ الْيَسَارِ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُوَجِّهَ مَسْئُولِيَّةَ الثَّوْرَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ. عَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذِهِ الْيَسَارِيَّةِ، فَقَدْ بَقِيَتْ الْأَحْزَابُ الْقَوْمِيَّةُ وَالْإِسْرَائِيلِيَّةُ، وَالشُّيُوعِيَّةُ، تُسَمِّدُ قُوَاهَا مِنْ الْمَصَادِرِ نَفْسِهَا، الَّتِي يَعْتمَدُ عَلَيْهَا النِّضَالُ الْوَطَنِيُّ تَارَةً، وَالنِّضَالُ الْقَوْمِيُّ تَارَةً أُخْرَى، وَلَكِنَّهَا - فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ - كَانَتْ ذَاتَ خَطِّ يَمِينِي.

فَالْحِزْبُ الشُّيُوعِيُّ لَمْ يَنْشَأْ إِلَّا عَلَى حِسَابِ قَوِيِّ الْيَمِينِ فِي سُورِيَّةِ! بَلْ إِنَّهُ لَمْ يُطْرَحْ أَفْكَارُ الصَّرَاعِ الطَّبَقِيِّ، أَوْ الثَّوْرَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، كَمَا هِيَ مُنْطَلَقَاتُ الْفُلْسَفَةِ الْمَارْكِسِيَّةِ، الَّتِي كَانَ يَبْنَاهَا هَذَا الْحِزْبُ!. أَمَّا حِزْبُ الْبُعْثِ، فَقَدْ كَانَتْ نَشَأَتُهُ خِلَالَ السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ، وَمَا بَعْدَهَا، وَهِيَ نَشْأَةٌ تَجْمَعُ وَطَنِي، قَوْمِي، لَا يَخْتَلِفُ عَنْ بَقِيَّةِ الْأَحْزَابِ السُّورِيَّةِ الْأُخْرَى.

النَّشْأَةُ الْأُولَى لِحِزْبِ الْبُعْثِ السُّورِيِّ

يَعْدُ زَكِّي الْإِرْسُوزِي هُوَ الْمَوْسَسُ الْأَوَّلُ لِحِزْبِ الْبُعْثِ السُّورِيِّ. وَهُوَ مِنْ مَوَالِيدِ عَامِ 1900م فِي لُؤَاءِ الْإِسْكَندَرُونَةِ بِجِبَالِ الْعُلُوبِينَ، وَاسْتَقَرَّ مَعَ عَائِلَتِهِ فِي مَدِينَةِ أَنْطَاكِيَّةِ، الَّتِي كَانَتْ جُزْءًا مِنْ سُورِيَّةِ، حَيْثُ أَنْهَى الْإِرْسُوزِي دِرَاسَتَهُ الْإِبْتِدَائِيَّةَ، وَالثَّانَوِيَّةَ. كَمَا تَعَلَّمَ - أَيْضًا - اللُّغَةَ التُّرْكِيَّةَ، وَاللُّغَةَ الْفَرَنْسِيَّةَ. وَبَعْدَ ضَمِّ لُؤَاءِ الْإِسْكَندَرُونَةِ إِلَى تَرْكِيَا، غَادَرَ الْإِرْسُوزِي مَدِينَةَ أَنْطَاكِيَّةِ فِي نَهَايَةِ عَامِ 1938م، حَيْثُ أَقَامَ فِي دِمَشْقَ. وَبَدَأَ يُمَارِسُ نَشَاطَهُ السِّيَاسِيَّ، التَّاجِمَ عَنْ ثَقَافَتِهِ الْأُورُوبِيَّةِ الْمُتَأَثِّرَةَ بِأَفْكَارِ الْفَيْلَسُوفِ الْأَلْمَانِيِّ "بَيْسَشْ"، وَالْفُلْسَافَةَ الْفَرَنْسِيَّةِ: "دِيكَارْت" وَ"كَانْت"، وَ"بَرْجُسون".

وَنَشَطَ "الإِرْسُوزِي" فِي نَشْرِ أَفْكَارِهِ البُعْثِيَّةِ، بَيْنَ زُمَلَائِهِ "أَسَاتِذَةَ الثَّانَوِيِّ"، وَطَلَّابِهِ بِمَدْرَسَةِ (التَّجْهِيزِ الأَوَّلِيِّ)، الَّتِي سُمِّيَتْ (جَوْدَةَ الهَاشِمِيِّ) فِيمَا بَعْدُ . وَكَانَ يَدْعُو إِلَى تَأْلِيفِ حِزْبٍ قَوْمِيٍّ، لِيُحَقِّقَ مِنْ خِلَالِهِ أَفْكَارَهُ البُعْثِيَّةَ . وَكَانَتْ مَدْرَسَةُ (التَّجْهِيزِ الأَوَّلِيِّ)، هِيَ المَدْرَسَةُ الثَّانَوِيَّةُ الوَحِيدَةُ الرَّسْمِيَّةُ آنَ ذَاكَ، وَطَلَّابُهَا فِي مُقَدِّمَةِ الطُّلَّابِ، الَّذِينَ كَانُوا يُشَارِكُونَ فِي النِّضَالِ، ضِدَّ المَحَلِّ الفَرَنْسِيِّ، وَحُكُومَاتِهِ المُعَاوَنَةِ مَعَ الزُّعَمَاءِ السُّورِيِّينَ التَّقْلِيدِيِّينَ، الَّذِينَ كَانُوا يُمَثِّلُونَ الكِتْلَةَ الوَطَنِيَّةَ .

وَقَدْ اتَّبَعُوا بِالتَّدْرِيجِ عَن قَوَاعِدِهِمُ الشَّعْبِيَّةِ، نَظِيرَ الاقْتِرَابِ السِّيَاسِيِّ مِنَ الحَاكِمِ الأَجْنَبِيِّ، اسْتِعْدَادًا لِوَرَاثَتِهِ فِي حُكْمِ سُورِيَّةٍ بَعْدَ الجَلَاءِ . وَبِنَاءٍ عَلَى ذَلِكَ، كَانَ طُلَّابُ المَرْحَلَةِ الثَّانَوِيَّةِ هُمُ جُنُودُ البُعْثِ الأَوَائِلِ، الَّذِينَ حَمَلُوا لِوَاءِ النِّضَالِ ضِدَّ الاِحتِلَالِ الفَرَنْسِيِّ . وَكَانُوا يُمَثِّلُونَ . فِي ذَلِكَ الوَقْتِ . الطَّبَقَةَ المُتَّقِفَةَ ذَاتَ الأَصُولِ الشَّعْبِيَّةِ، أَوْ الأَقْرَبُ إِلَى الطَّبَقَةِ الوُسْطَى . وَبَدَأَتْ هَذِهِ الطَّبَقَةُ تَنُمُو بِزِيَادَةِ عَدَدِ المَدَارِسِ الاِبْتِدَائِيَّةِ وَالثَّانَوِيَّةِ فِي المَدُنِ السُّورِيَّةِ، خَاصَّةً دِمَشْقَ .

المُؤَسَّسُونَ الأَوَائِلُ لِحَرَكَةِ "البُعْثِ" السُّورِيِّ

كَانَ البُعْثُ السُّورِيُّ "حَرَكَةً فِكْرِيَّةً" فِي بَادِي الأَمْرِ، تُضَمُّ بِجَانِبِ "زَكِّي الإِرْسُوزِي"، كَمَا مِنْ: جَلَالِ السَّيِّدِ "مِنْ دَيْرِ الزُّورِ"، وَوَهَيْبِ العَانِمِ "عُلُوِّي مِنْ إِسْكَنْدَرِيُونِ"، وَجَمَالِ الإِنَاسِيِّ "مِنْ حِمَصَ"، وَعَلَى حَيْدَرِ "مِنْ اللَّاذِقِيَّةِ"، وَصَدَقِي إِسْمَاعِيلِ "مِنْ اللَّاذِقِيَّةِ"، وَعَبْدِ الحَلِيمِ قُدُورِ "مِنْ مَنطِقَةِ قَارَةَ"، وَسَامِي الجُنْدِيِّ "مِنْ السُّلَمِيَّةِ".

وَكَانَتْ أَفْكَارُ "الإِرْسُوزِي" تَدُورُ، حَوْلَ بَعْثِ التَّارِيخِ العَرَبِيِّ بِحَضَارَتِهِ، وَتَوْحِيدِ الأَقْطَارِ العَرَبِيَّةِ، وَإِنْشَاءِ دَوْلَةٍ عَصْرِيَّةٍ جَدِيدَةٍ . وَبَدَأَ بِأَفْكَارِهِ البُعْثِيَّةِ يُؤَلِّفُ "تَوَاهِ البُعْثِ العَرَبِيِّ"، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَطْرَحَ فِكْرًا قَوْمِيًّا

مَثَالِيًا، يَتَخَطَّى حُدُودَ الطُّوَائِفِ المَحَلِّيَّةِ، وَيَجْمَعُهَا كُلَّهَا فِي جَبْهَةٍ وَاحِدَةٍ. فَقَدْ كَانَ مُفَكِّرًا وَمُتَقِنًا عَرَبِيًّا مِنْ طِرَازِ فَرِيدٍ، امْتَرَجَتْ دِرَاسَتُهُ لِلْفَلَسَفَةِ فِي فَرَنَسَا، مَعَ جُذُورِهِ العَرَبِيَّةِ، وَعَبَقَرِيَّةِ الفِكْرِيَّةِ، وَشَخْصِيَّةِ الجَدَابَةِ، وَحَمَاسِهِ القَوْمِيِّ المُلْتَهَبِ، وَعِنَادِهِ التَّضَالِي. فَأَصْبَحَ زَعِيمًا شَعْبِيًّا فِي ذَلِكَ الوَقْتِ.

وَكَانَتْ شَخْصِيَّةَ "الإِرْسُوزِي" المْتَفَرِّدَةِ والمِثَالِيَّةِ، سَبَبًا فِي إِصَابَةِ الرُّعَمَاءِ التَّقْلِيدِيَّيْنِ بِالذَّعْرِ وَالْفَلَقِ. وَبَدَأُوا فِي مُحَارَبَتِهِ بِأَسْلُوبِيْن:

الأَوَّلُ: فَرَضَ العُزْلَةَ السِّيَاسِيَّةَ حَوْلَهُ، وَاضْطَهَادَهُ. وَتَعَاوَنَ فِي تَحْقِيقِ هَذَا الِهُدْفِ، القِيَادَاتُ التَّقْلِيدِيَّةُ لِلتَّجَاهَاتِ وَالْأَحْزَابِ السِّيَاسِيَّةِ، مَعَ قِيَادَاتِ الإِتِّدَابِ الفَرَنْسِيِّ.

الثَّانِي: الإِلْتِقَافَ حَوْلَ فِكْرِ البُعْثِ، وَاسْتِهْكَالَ شَخْصِيَّةِ الإِرْسُوزِي وَاحْوَائِهِ. وَقَدْ بَاشَرَ هَذَا الأُسْلُوبَ كُلُّ مَنْ: "مِيْشِيلَ عَفْلَقَ، وَصَلَّاحُ البَيْطَارِ". فِي عَامِ 1938 جَرَتْ مُحَاوَلَةٌ لِإِنْشَاءِ "مَنْظَمَةِ البُعْثِ" وَكَانَتْ تَتَكَوَّنُ مِنْ: الإِرْسُوزِي - وَمِيْشِيلَ عَفْلَقَ - وَصَلَّاحُ البَيْطَارِ - وَمِيْشِيلَ قَوْزِمَا - وَشَاكِرِ العَاصِي.

وَعَرَضَ مِيْشِيلَ قَوْزِمَا تَمْوِيلَ الحِزْبِ مَادِيًّا، وَلَكِنْ اخْتِلَافَاتُ هَؤُلَاءِ المُوَسَّسِيْنَ أَدَّتْ إِلَى إِخْفَاقِ مَنْظَمَةِ البُعْثِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تَبْدَأَ. وَغَادَرَ الإِرْسُوزِي دِمَشْقَ فِي عَامِ 1939 إِلَى بَغْدَادَ، لِيَمَارِسَ وَظِيفَتَهُ "مُعَلِّمَ تَأَنُوبِيٍّ" فِي بَغْدَادَ. ثُمَّ عَادَ إِلَى دِمَشْقَ بَعْدَ أَقَلِّ مِنْ عَامٍ، مُعَلِّمًا سَخْطَةَ عَلَيِّ نِظَامِ الحُكْمِ فِي العِرَاقِ. وَبَعْدَ عَوْدَتِهِ أُسْتُؤِنِفَتْ المُنَاقَشَاتُ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ "مِيْشِيلَ عَفْلَقَ"، فِي شَأْنِ إِنْشَاءِ حِزْبِ البُعْثِ. وَلَمْ يَتَّقَا إِذْ كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا، يَسْعَى إِلَى رِيَاسَةِ الحِزْبِ.

وَأَخَذَ مِيشِيلُ عَفْلُقَ يُحَاصِرُ الْإِرْسُوزِي، سِوَاءَ مَنْ دَاخَلَ حِزْبَ الْبُعْثِ . قَبْلَ إِعْلَانِهِ رَسْمِيًّا . أَوْ مِنْ خَارِجِ الْحِزْبِ، ثُمَّ بَدَأَ يَكُونُ حَلَقَاتٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ، أَخَذَتْ تَنْمُو وَتَتَّسِعُ . وَكَانَ لِعَفْلُقِ، بِحُكْمِ انْتِمَائِهِ إِلَى عَائِلَةِ مَسِيحِيَّةٍ تَسْكُنُ حَيَّ "الْمِيدَان" فِي دِمَشْقَ، عِلَاقَاتٍ قَوِيَّةٍ مَعَ عَائِلَاتِ الْجُنُوبِ (حُورَانَ، وَجَبَلِ الْعَرَبِ)، وَبَعْضِ الْأَسْرِ الدَّرْزِيَّةِ .

وَعَنْ هَذَا الطَّرِيقِ جُنِدَتْ أَعْدَادٌ كَثِيرَةٌ مِنْ طُلَّابِ الدَّرُوزِ وَمُتَقَنِيهِمْ، فِي دِمَشْقَ وَالسَّوَيْدَاءِ مَرَكَزَ مَحَافِظَةِ جَبَلِ الْعَرَبِ . وَبِذَلِكَ كَانَتْ الْعُنَاصِرُ الْحِزْبِيَّةُ الْمَكُونَةُ لِنِوَاهِ حِزْبِ الْبُعْثِ، تَتَّكِنُ مِنْ: الْمُتَقَنِينَ مِنَ الْأَسَاتِذَةِ وَالطُّلَّابِ وَالْمُوظَّفِينَ . وَشَرِيحَهُ مِنَ الطَّائِفَةِ السُّورِيَّةِ وَهِيَ: الْجُدُورُ الْعُلَوِيَّةُ ثُمَّ الدَّرْزِيَّةُ، فَالِاسْمَاعِيلِيَّةُ وَالْمَسِيحِيَّةُ "عَلَى التَّوَالِي" . وَكَانَتْ تِلْكَ التَّرَكِيبَةُ . غَيْرَ الْمُتَجَانِسَةِ . سَبَبًا فِي عَدَمِ وُجُودِ شَعْبِيَّةِ لِحِزْبِ الْبُعْثِ فِي سُورِيَّةَ، وَذَلِكَ لِوُجُودِ تَنَاقُضَاتٍ فِكْرِيَّةٍ وَثَقَافِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَطَائِفِيَّةٍ، بَيْنَ الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ لِلْحِزْبِ .

وَفِي عَامِ 1941، بَدَأَتْ فِكْرُهُ قِيَامَ التَّنْظِيمَاتِ وَالْحَرَكَاتِ الْحِزْبِيَّةِ فِي دِمَشْقَ، وَكُلُّهَا تَدْعُو لِمَبَادِي الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، بِاسْتِنَاءِ الْكِلَّةِ الْوَطَنِيَّةِ، الَّتِي كَانَتْ مِنْ أَهْدَافِهَا (سِيَادَةُ الْبِلَادِ مَعَ تَمَسُّكِهَا بِالْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ) . وَتَكُونُ مِحْوَرًا ثَلَاثِيًّا (مِيشِيلُ عَفْلُقُ . صِلَاحُ الْبَيْطَارِ . جَلَالُ السَّيِّدِ) لِتَشْكِيلِ "الْبُعْثِ"، مَعَ إِقْصَاءِ الْإِرْسُوزِي عَنْ قِيَادَةِ التَّنْظِيمِ الْبُعْثِيِّ . وَكَانَ مِنْهُجَ الْبُعْثِ . فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ . مُعَارِضَةُ الْحُكُومَاتِ السُّورِيَّةِ، فِي أَيِّ عَمَلٍ تَقُومُ بِهِ، إِنْ أخطأتْ أَوْ أَصَابَتْ عَلَى السَّوَاءِ . فَقَدْ كَانَ الْحِزْبُ، مِنْذُ أَيَّامِهِ الْأُولَى، يَلْتَزِمُ بِمَوْقِفِ الْمُعَارِضَةِ لِكُلِّ شَيْءٍ تَقُومُ بِهِ الْحُكُومَاتُ الْوَطَنِيَّةُ الْمُعَارِضَةُ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ لِمَصْلَحَةِ الْوَطَنِ وَالْمُؤَاطِنِينَ . وَبَدَأَ الْحِزْبُ فِي إِعْلَانِ شِعَارَاتِهِ وَإِطْلَاقِهَا بَيْنَ أَتْبَاعِهِ . وَكَانَتْ شِعَارَاتِهِ الْأُولَى هِيَ:

«أُمَّةٌ عَرَبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، ذَاتُ رِسَالَةٍ خَالِدَةٍ»

وَالْبُعْثُ حَانَتْ ثَوْرَتُهُ

الدَّهْرُ دَارَتْ دَوْرَتُهُ

لَبَّيْكَ بَعَثَ الْعَرَبَ

قَدْ أَسْمَعْنَا دَعْوَتَهُ

وَمَضَى حِزْبُ الْبُعْثِ يَعْمَلُ فِي الْخَفَاءِ، دُونَ إِذْنِ رَسْمِيٍّ بِالْتَّرْخِيصِ لَهُ حَتَّى عَامِ 1946، حِينَ أَصْبَحَ حَقِيقَةً وَاقِعَةً، يُمَارِسُ نَشَاطَهُ السِّيَاسِيَّ بِصُورَةٍ عَلَنِيَّةٍ.

الإعلان الرسمي لحزب البعث

أُغْلِنَ رَسْمِيًّا عَنْ قِيَامِ حِزْبِ الْبُعْثِ، فِي 4 أَيْرِيلِ عَامِ 1947 م، حَيْثُ عَقَدَ الْحِزْبُ أَوَّلَ مُؤْتَمَرٍ رَسْمِيٍّ لَهُ. بَعْدَ الْإِغْلَانِ عَنِ الْمَوْلِدِ الرَّسْمِيِّ لِلْحِزْبِ. مِنْ 4 إِلَى 6 أَيْرِيلِ فِي «مَهْمَى الرَّشِيدِ بِدِمَشْقَ، بِرِيَاةِ جَلَالِ السَّيِّدِ. وَاتَّخَبَ مِيشِيلَ عَفْلَقَ عُمَيْدًا لِحَرَكَةِ الْبُعْثِ، وَصَلَّاحَ الْبَيْطَارَ، وَجَلَّالَ السَّيِّدِ، وَوَهَيْبَ الْغَانِمِ، أَعْضَاءً فِي اللُّجْنَةِ التَّنْفِيذِيَّةِ. وَفِي نَهَايَةِ الْمُؤْتَمَرِ تَمَّ إِقْرَارُ «دُسُورِ الْبُعْثِ»، الَّذِي نَصَّتْ الْمَادَّةُ السَّادِسَةُ مِنْهُ عَلَى الْآتِي:

(حِزْبُ الْبُعْثِ الْعَرَبِيِّ، انْقِلَابِيٌّ، يُؤْمِنُ بِأَنَّ أَهْدَافَهُ الرَّئِيسِيَّةَ فِي بَعْثِ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَبِنَاءِ الْإِشْرَاقِيَّةِ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتِمَّ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْإِنْقِلَابِ، وَالنِّضَالِ، وَإِنَّ الْإِعْتِمَادَ عَلَى التَّطَوُّرِ الْبَطْنِيِّ، وَالْإِكْتِفَاءِ بِالْإِصْلَاحِ الْجُزْئِيِّ، يَهْدِدَانِ هَذِهِ الْأَهْدَافَ بِالْأَخْفَاقِ وَالضِّيَاعِ، لِذَلِكَ يُقَرَّرُ:

التضال ضد الاستعمار الأجنبي، لتحرير الوطن العربي تحريراً مطلقاً كاملاً .

التضال لجمع شمل العرب كلهم، في دولة مستقلة واحدة .

الانقلاب على الواقع الفاسد، انقلاباً يشمل جميع مناحي الحياة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية) .

ونصت المادة السابعة على أن :

الوطن العربي هو هذه البقعة من الأرض، التي تسكنها الأمة العربية، التي تمتد بين جبال طوروس وجبال بشكوية "جبال إيران"، وخليج البصرة، والبحر العربي، وجبال الحبشة، والصحراء الكبرى، والمحيط الأطلسي، والبحر الأبيض المتوسط) .

ونصت المواد من 26 حتى 28 على :

أن حزب البعث يؤمن بأن الثروة الاقتصادية في الوطن العربي، ملك للأمة العربية ... وإن التوزيع الراهن للثروات في الوطن العربي غير عادل. لذلك، يعاد النظر في أمرها، وتوزع بين المواطنين توزيعاً عادلاً ... المواطنون جميعاً متساوون بالقيمة الإنسانية، ولذا فالحزب يمنع استثمار جهد الآخرين) .

حزب البعث وعصر الانقلابات العسكرية

أُسِّمَت فترة ما بعد الاستقلال، بظاهره "عدم الاستقرار السياسي" منذ 17 أبريل عام 1947م حتى بداية حكم "حافظ الأسد"، في 14 مارس 1971م (ثلاثاً وعشرين سنة، وعشرة شهور، وسبعة وعشرين يوماً) إذ تعاقب على سورية، خلال تلك الفترة، تسعة عشر نظاماً للحكم. وكان متوسط استقرار الحكم في تلك الفترة، يبلغ سنة واحدة وثلاثة أشهر! ..

البعث، والوحدة المصرية السورية

خلال شهر يناير 1958، استقبل جمال عبدالناصر وفدًا سوريًا، مكونًا من (22) ضابطًا يمثلون القوات المسلحة السورية، وتناقشوا معه حول "حتمية الوحدة المصرية - السورية"، خاصة بالنسبة لسوريه، التي كانت تعيش في ظروف مضطربة، نتيجة عدة عوامل داخلية وخارجية، من أهمها "الصراع الحزبي المرير، وضغوط حلف بغداد، والتهديدات العسكرية الإسرائيلية". وقد قال لهم عبدالناصر: (ما هي صفتكم في الحديث عن هذا الأمر؟)، أنا أعرف إنكم تمسكون في أيديكم بزمام القوة الحقيقية في سورية، ولكني من ناحيتي، لا أقبل في مثل هذه الأمور، أن أتحدث إلا مع حكومة مسؤولة).

وفي اليوم التالي حضر - على الفور - صلاح البيطار (وزير خارجية سورية، واحد قيادات حزب البعث)، مُعلنًا موافقة الحكومة السورية، على إنتام الوحدة بين مصر وسورية. وعندما اشترط عبدالناصر لإنتام الوحدة - فيما اشترطه - أن يتوقف النشاط الحزبي في سورية، وافق صلاح البيطار على كل شروطه الأخرى، وبالنسبة لهذا الشرط، أعلن عن ضرورة رجوعه إلى قيادة حزب البعث، في هذا الشأن. وبالفعل، وافقت الأحزاب السورية كلها على شروط عبدالناصر، ومن بينها حزب البعث. وعلى الرغم من حماس قيادات حزب البعث للوحدة المصرية - السورية، وإسناد مناصب مهمة لهم في بداية الوحدة (أكرم الحوراني نائبًا لرئيس الجمهورية - صلاح البيطار وزيرًا للثقافة والإرشاد القومي) إلا أن هذا الوفاق، بين عبدالناصر وحزب البعث، لم يستمر طويلًا، إذ بدأ عبدالناصر يُهاجم حزب البعث وعقيدته ومبادئه هجوميًا عنيفًا، كما اشتد الحزب في التهكم على نظام الحكم، وعلى زعامته عبدالناصر. ووصل الخلاف ذروته عام 1959، عندما كان عبدالناصر في زيارة لدمشق، وقد أعد له

مَهْرَجَانِ خَطَابِي كَبِيرٍ (رَسْمِيٍّ وَشَعْبِيٍّ) فِي سَيِّمَاتِ الزَّهْرَاءِ، حَضَرَهُ كِبَارُ رِجَالِ الدَّوْلَةِ، وَجُمْهُورٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمَوَاطِنِ، وَالْقَى عَبْدُ النَّاصِرِ خَطَابًا مَهْمًا، تَهْجُمُ فِيهِ عَلَى مَوْقِفِ حِزْبِ البُعْثِ، وَعَلَى تَأْمُرِ قِيَادَتِهِ عَلَى الْوَحْدَةِ. وَقَدْ نَالَ هَذَا الْهَجُومَ اسْتِحْسَانِ جَمِيعِ الْحُضُورِ، وَقَوَّطَعَ خِطَابُ عَبْدِ النَّاصِرِ بَعَاصِفَةً مِنَ التَّصْفِيقِ الْحَادِّ، أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ.

وَبَعْدَ انْفِصَالِ 28 سِبْتَمْبَرِ 1961، أُصْدِرَ مِيشِيلُ عَفْلُقُ بَيَانًا مِنْ بَيْرُوتَ، يَوْمَ 4 أَكْثُوبَرِ، يُؤَيِّدُ فِيهِ الْانْفِصَالَ، وَأَطْلَقَ حِزْبُ البُعْثِ عَلَى وَاقِعَةِ الْانْفِصَالِ، مُسَمًّى "الانْتِفَاضَةَ". وَأَقِيمَ مُؤْتَمَرٌ سِيَاسِيٌّ كَبِيرٌ فِي دِمَشْقَ، شَارَكَتْ فِيهِ كُلُّ الْأَحْزَابِ السِّيَاسِيَّةِ، وَمِنْ بَيْنِهَا حِزْبُ البُعْثِ، لِتَأْيِيدِ "الانْتِفَاضَةَ السُّورِيَّةَ". وَمِثْلَ الْحِزْبِ فِي هَذَا الْمُؤْتَمَرِ صَلَاحُ الْبَيْطَارِ. وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ انْفِصَلَ أَكْرَمُ الْحُورَانِي، بِحِزْبِهِ الْقَدِيمِ "العَرَبِيُّ الْأَشْرَاقِيُّ"، عَنِ حِزْبِ البُعْثِ، وَشَارَكَ أَيْضًا فِي هَذَا الْمُؤْتَمَرِ.

البُعْثُ وَاتِّفَاقُ الْوَحْدَةِ الثَّلَاثِيَّةِ

كَانَتْ شِعَارَاتُ البُعْثِ، فِي تِلْكَ الْفُتْرَةِ، تُنَدِّدُ بِالْانْفِصَالِ السُّورِيِّ - الْمِصْرِيِّ، وَتُطَالِبُ بِالْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَكِنْ عَلَى أُسُسٍ كُونْفِدرَالِيَّةٍ، وَلَيْسَتْ وَحْدَةً شَامِلَةً، كَمَا حَدَّثَتْ فِي وَحْدَةِ سُورِيَّةٍ وَمِصْرٍ. وَعُقِدَتْ فِي الْقَاهِرَةِ، خِلَالَ شَهْرِ مَارَسِ 1963، عِدَّةُ اجْتِمَاعَاتٍ تَمْهِيدِيَّةٍ، لِإِعْلَانِ الْوَحْدَةِ الثَّلَاثِيَّةِ بَيْنَ (مِصْرٍ، وَسُورِيَّةٍ، وَالْعِرَاقِ). وَكَانَ الْوَفْدُ الْعِرَاقِيُّ بِرِيَاسَةِ عَلِيٍّ صَالِحِ السَّعْدِيِّ، وَيَشْغَلُ مُنْصَبَ نَائِبِ رَئِيسِ الْوُزَرَاءِ، وَاحِدَ قِيَادَاتِ البُعْثِ الْعِرَاقِيِّ. وَكَانَ الْوَفْدُ السُّورِيُّ بِرِيَاسَةِ مِيشِيلِ عَفْلُقِ. وَكَانَ الْهَدَفُ الرَّئِيسِيُّ مِنْ تِلْكَ الْجَمِيعَاتِ، هُوَ رَغْبَةُ البُعْثِ (العِرَاقِيِّ وَالسُّورِيِّ)، فِي أُخْرَاجِ عَبْدِ النَّاصِرِ، عَنِ طَرِيقِ إِضْرَارِهِمَا عَلَى

التَّمسُّكُ بِالْوَحْدَةِ الْكَوْنِفِرَالِيَّةِ، وَبِالْقِيَادَةِ الْجَمَاعِيَّةِ (لِلْجُمْهُورِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ)، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ سَوْفَ يُرْفَضُ هَذَا الطَّلَبُ، وَأَنَّهُ لَنْ يَتَخَلَّى عَنِ مَوْجِعِ الْقِيَادَةِ، الَّذِي يَنْفَرِدُ بِهِ .

وَلَكِنَّ عَبْدَ النَّاصِرِ فَاجَأَهُمْ بِقَبُولِ مَبْدَأِ الْقِيَادَةِ الْجَمَاعِيَّةِ، وَالْأَنَّ تَكُونَ الْوَحْدَةَ ائْتِمَارِيَّةً !، وَتَمَّ تَوْقِيعُ ائْتِمَارِ الْوَحْدَةِ الثَّلَاثِيَّةِ فِي 17 أَيْرِيلِ عَامِ 1963 م بِالْقَاهِرَةِ . وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ لِإِعْلَانِ الْوَحْدَةِ وَقَعَتْ ائْتِمَارَاتٌ دَمَوِيَّةٌ شَرِسَةٌ فِي دِمَشْقَ بَيْنَ النَّاصِرِيِّينَ مِنْ جَانِبٍ، وَابْعَثِيِّينَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، ذَهَبَ صَاحِبُهَا 170 قَتِيلًا، وَتَمَكَّنَ الضَّبَاطُ الْبُعْثِيُّونَ بِقِيَادَةِ الْوَلَاءِ أَمِينِ الْحَافِظِ، مِنْ السَّيْطَرَةِ عَلَى الْمَوْقِفِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى الْفِئَاتِ النَّاصِرِيَّةِ، وَمُحَاكَمَتِهِمْ عَسْكَرِيًّا وَإِعْدَامِهِمْ . وَهَكَذَا فَشَلَّتْ تِلْكَ الْوَحْدَةَ فَوْرَ إِعْلَانِهَا .

مُظَاهِرِ الْأَزْمَةِ فِي التَّنْظِيمِ

I . ضَعْفُ الْعَلَاقَاتِ الْمُؤْصُوْعِيَّةِ، فِي الْحِزْبِ

بِسَبَبِ عَدَمِ وُضُوحِ التَّنْظِيرِ فِي التَّنْظِيمِ، وَغِيَابِ الْمَهْمَاتِ الْيَوْمِيَّةِ، الَّتِي تَلْفُ الْجِهَازَ الْحِزْبِيَّ، وَتَحْدُدُ عِلَاقَاتِهِ بِقِيَّةِ الْأَجْهَرَةِ، وَالْعَلَاقَاتِ الْمُؤْصُوْعِيَّةِ لِأَفْرَادِهِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَسَبَبِ سُلُوكِيَّةِ الْقِيَادَةِ الْعُلْيَا، الَّتِي تَنْطَلِقُ مِنْ تَوْكِيدِ سُلْطَاتِهَا عَنْ طَرِيقِ الْاِتِّصَالَاتِ الْجَانِبِيَّةِ، لِقَرِيهَا الْفِكْرِيَّ، مُنْطَلِقَةً فِي ذَلِكَ، لِتَعْطِيَةِ هَذَا الْفَقْرَ بِإِحْلَالِ الْوَلَاءِ الشَّخْصِيِّ، مَحَلَّ الْوَلَاءِ لِلْحِزْبِ . بِسَبَبِ كُلِّ ذَلِكَ تُحَوَّلُ التَّنْظِيمُ إِلَى خِلَايَا، تَتَمَكَّنُ وَسَطَ كُلِّ مِنْهَا ظَاهِرُهُ «الْفَرْدِيَّةُ الْمَرْضِيَّةُ»، الَّتِي تَسْتَقْبِلُ عَدَدًا مِنْ الْمَوَالِينِ وَالْمَعْجَبِينَ وَالْكَسَالِيَّ، الَّذِينَ يَبَادُلُونَ الْحِمَايَةَ وَالتَّبَرُّرَ .

إِذْ كَانَتْ الْوَلَاءَاتِ الشَّخْصِيَّةِ، لَا الْعَلَاقَاتِ الْمُؤْصُوْعِيَّةِ، هِيَ مَقْيَاسُ الْوَلَاءِ لِلْحِزْبِ وَالْاِتِّبَاطِ بِهِ . وَنَظْرًا لِتَنْوَعِ الْمُنَاحِ الْاجْتِمَاعِيِّ، الَّذِي تَبْرُزُ فِيهِ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ، تَسَلَّلُ لِلْحِزْبِ الْعَلَاقَاتِ الْاِقْلِيمِيَّةِ وَالطَّائِفِيَّةِ

وَالْعَالِيَةِ الْبُرْجُورِيَّةِ. وَلِذَا فَإِنَّ فِي الْحِزْبِ أَنَا سَا لَا يَرُونَ حَرْجًا فِي تَبْرِيرِ أَعْمَالِ «بَطْلَهُمْ»، وَلَوْ كَانَتْ مَوْجَهَةً ضِدَّ مَبَادِي الْحِزْبِ وَنِظَامِهِ، وَيَجَارُونَهُ فِي مُحَاوَلَةِ انْقِذِ كِبْرِيَانِهِ، وَلَوْ بَتَّيْدِ الْحِزْبِ وَالْقَضَاءِ عَلَى ثَوْرَتِهِ.

2. ضَعْفُ الْمُرَكَّبِيَّةِ وَالذِّيْمُوقْرَاطِيَّةِ

إِنَّ ضَعْفَ الْمُرَكَّبِيَّةِ فِي الْعَمَلِ، وَضَعْفَ الذِّيْمُوقْرَاطِيَّةِ فِي التَّنْظِيمِ، أَذْيَا إِلَى ظُهُورِ وَنُمُو ظَاهِرِهِ الْقَطْرِيَّةِ، عَلَى حِسَابِ وَحْدَةِ التَّنْظِيمِ الْقَوْمِي (ظَاهِرُهُ الْانْقِطَاعُ عَنِ الْإِتِّصَالِ بِالْقِيَادَةِ). وَكَانَ، أَيْضًا، مِنْ مَظَاهِرِ ضَعْفِ الْمُرَكَّبِيَّةِ فِي الْحِزْبِ، اِفْتِعَالُ صِرَاعَاتٍ فِيمَا بَيْنَ الْمُنْظَمَاتِ الْحِزْبِيَّةِ، وَتَجَاوُزِ الْمَوْسَسَاتِ الْحِزْبِيَّةِ، وَتَجَاهُلِ إِرَادَةِ الْقَوَاعِدِ الْحِزْبِيَّةِ (عَدَمُ السَّمَا حِ الْبَانِعَادِ الْمُؤْتَمَرِ الْقَطْرِي السُّورِي، وَالْهَرَبِ مِنْ الْمُؤْتَمَرِ الْقَوْمِي، وَحَلَّ الْقِيَادَةَ الْقَطْرِيَّةَ السُّورِيَّةَ).

3. اسْتِبْدَالُ مُرَكَّبِيَّةِ الْقِيَادَةِ، بِسَلْطَةِ الْفَرْدِ وَنُفُوذِهِ

أَنَّ الشُّعُورَ بِتَضَخِيمِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالْإِضْرَارُ عَلَى فَهْمِ الْحِزْبِ بِأَنَّهُ مُرْتَسِمٌ وَظَلَّ لِشَخْصِيَّةِ الْقَائِدِ الْمُؤْتَمَسِّ (عَفْلُقِ)، الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِصِرَاحَةٍ فِي كَلِمَتِهِ فِي اجْتِمَاعِ الْقِيَادَةِ الْقَوْمِيَّةِ، حَيْثُ يَقُولُ: (إِنَّ مَأْسَاةَ الْحِزْبِ تَمَثَّلُ بِالْمَأْسَاةِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي أُعْيِشَهَا).

ذَلِكَ الشُّعُورِ، وَذَلِكَ الْإِضْرَارِ، قَدْ جَعَلَا مِنْ الطَّبِيعِيِّ لِلْقَادَةِ التَّارِيخِيِّينَ، أَنْ يَفْهَمُوا الْقَرَارَ الْحِزْبِيَّ عَلَى أَنَّهُ رَأْيُهُمُ الشَّخْصِيَّ، حَتَّى يُمَكِّنَ الْقَوْلَ أَنَّ هَذَا الْقَرَارَ يَمْتَعُ بِالشُّرُوطِ الصَّرُورِيَّةِ، لِلْحَيَاةِ وَالنَّفَادِ.

أَنَّ الْقَائِدَ الْمُؤَسَّسَ، الَّذِي انْقَطَعَ عَنْ حُضُورِ الْجَمَاعَاتِ الْحَزْبِيَّةِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْرَّ الْفِيَادَةَ كَمَاؤُسَسَهُ إِلَيْهِ، كَبَدِيلٍ لِلْحَزْبِ، يَمْلِكُ مَشْرُوعِيَّةَ تَجَاوُزِ الْمُؤَسَّسَاتِ الْحَزْبِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْحَزْبَ قَدْ أَضْحَى تَكْوِينًا مُزْتَمًا فِي نَظَرِهِ، لِأَنَّهُ قَدْ تَجَاوَزَ فِي نُمُوهِ الْحُدُودَ الْمَرْسُومَةَ، الَّتِي تَبْغِي الْوَصَايَةَ فِي مَوَاقِعِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْفِيَادَةِ.

وَمَا يُقَالُ عَنِ الْحَزْبِ، يُقَالُ عَنِ حُكْمِ الْحَزْبِ فِي أَعْلَى مُسْتَوِيَاتِهِ.

وَهُنَاكَ عِدَّةُ ظَوَاهِرٍ أَسَاسِيَّةٍ، لَا ضَرُورَةَ لِلتَّفْصِيلِ فِيهَا، لِوُضُوحِهَا وَوُجُودِ الدَّلَائِلِ الْعَدِيدَةِ عَلَيْهَا، وَنَكْفِي بِتَعْدَادِهَا.

4. ضَعْفُ الرِّبَاطِ الْحَزْبِيِّ، وَنُمُو الْإِتِّصَالَاتِ الْجَانِبِيَّةِ.

5. انْعِدَامُ الْمَصَارِحِ الْحَزْبِيَّةِ، وَفَقْدَانُ الثِّقَةِ بَيْنَ الْفِيَادَاتِ وَالْقَوَاعِدِ.

6. التَّجَاوُزَاتُ الْمُتَكَرِّرَةُ لِلنِّظَامِ الدَّاخِلِيِّ، وَعَدَمُ تَطْبِيقِهِ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ.

7. اسْتِبْدَالُ التَّنْظِيمِ الْحَزْبِيِّ، بِتَجْمِيعِ الْمُؤَيَّدِينَ الشَّخْصِيِّينَ.

8. انْعِدَامُ الْمُحَاسَبَةِ الْجَذْرِيَّةِ، وَانْعِدَامُ الْجُرْأَةِ فِي مُحَاسَبَةِ الْمُنْحَرِفِينَ.

مُظَاهِرُ الْأَزْمَةِ فِي الْأُسْلُوبِ

I. نُمُو الْمُنَاوَرَةِ، وَ«التَّكْكُة» بَيْنَ الْحَزْبَيْنِ

هَذَا الْمُظْهِرُ، الَّذِي تَسَلَّلَ إِلَى الْحِزْبَيْنِ فِي الْقَوَاعِدِ، كَأَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الْعَمَلِ فِي الْقِيَادَاتِ الْعُلْيَا فِي الْحِزْبِ،
وَبَيْنَ إِفْرَادِ هَذِهِ الْقِيَادَاتِ. كُلُّ يَنَاورِ الْآخَرِ، وَيَسْتَقْطِبُ عَدَدًا ضِدَّ الْآخَرِ، فَإِذَا أَكْثَرِيَةَ الْقِيَادَةِ مُورَعَةً
الْوَلَاءَاتِ، بَيْنَ عِدَّةِ أَشْخَاصٍ.

وَهَذَا الْمُظْهِرُ يُعْطِلُ آيَةَ فَعَالِيَّةٍ وَيُؤَدِّي إِلَى انْعِدَامِ الرِّبْطِ وَالضَّبْطِ الْحِزْبِيِّينَ.

إِنَّ تُمُوَّ اسْلُوبِ الْمَنَاورَةِ، كَانَ تَبِيجَةً عَدَمِ إِيمَانِ الْقِيَادَةِ بِالْحِزْبِ، كَمُؤَسَسَةٍ مُتَكَمِّلَةٍ مُتَمَاسِكَةٍ. وَأَصْبَحَ
هَذَا اسْلُوبٌ بَدِيلًا لِلْكَفَاءَةِ الْحِزْبِيَّةِ، وَالسُّلُوكِ التَّضَالِي. وَانْتَقَلَ هَذَا اسْلُوبٌ إِلَى عَدَدٍ مِنَ الرِّفَاقِ فِي
الْقَوَاعِدِ، بِحَيْثُ يُوزَعُ وَلَاوُهَا بَيْنَ أَشْخَاصِ الْقِيَادَةِ. مِمَّا عَطَّلَ الْعَمَلَ الْحِزْبِيَّ، وَزَيْفَ إِرَادَةَ الْقَوَاعِدِ، فِي
تَطْلُعِهَا نَحْوِ مُنْظَمَةِ ثَوْرِيهِ، تَسْوُدُهَا عِلَاقَاتُ التَّضَالِ وَالْمَوْضُوعِيَّةِ.

2. مُهَادَنَةُ الْفِئَاتِ الْمُعَادِيَّةِ

أَنَّ دَعَوَاتِ التَّرْوِيِ وَالْعَقْلِ، الَّتِي كَانَتْ تَرْمِي إِلَى تَأْخِيرِ عَمَلِيَّةِ التَّحْوِيلِ الْإِشْتِرَاقِي، وَإِلَى الْإِبْتِقَاءِ عَلَى
الْبُرْجُوزِيَّةِ مُحْتَفِظَةً بِبَعْضِ نِقَاطِ الْقُوَّةِ، مَا هِيَ إِلَّا مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ التَّمْيِيعِ لِطَبِيعَةِ الْمَعْرَكَةِ، وَلِلْأَسْلُوبِ،
الَّذِي يَجِبُ أَنْ نَحْوِضَهَا بِهِ. كَذَلِكَ، مَا كَانَ يَدُورُ فِي مُؤْتَمَرَاتِ الْقِمَّةِ، مِنْ مَخْطَطَاتِ مَعَ الرَّجْعِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
لِتَحْرِيرِ فِلَسْطِينَ.

وَهُنَاكَ مُظْهِرَانِ اخْتِرَانِ أُسَاسِيَّانِ، نَشَاهِدُهُمَا فِي الْعَمَلِ الْحِزْبِيِّ، وَنَلْمَسُ اثْرَهُمَا فِي تَحْوِيلِ الْمَوْسَسَةِ
الْحِزْبِيَّةِ، إِلَى خَلِيَّةٍ عَقِيمَةٍ، وَهُمَا:

1. عَدَمُ الْجُرْأَةِ فِي الْإِفْصَاحِ عَنِ الْمَوَاقِفِ.

ب. طرح الأراء خارج المؤسسة الحزبية، والعمل على تكوين فتاعات مخالفة لرأي الحزب.

قراءة نقديه لحزب البعث

حقيقة حزب البعث وتكوينه

حزب البعث العربي الاشتراكي " حزب ولد عام (1943م)، وقد يكون هذا الحزب هو الحزب الوحيد الذي ولد مجزئاً غير كامل الخلقه، ولدت نصفه الأول فيه متعلمه من مدرسي المدارس الثانوية في العاصمة السورية دمشق، وفي ثانوية محددة كانت تعرف في سنوات الحرب العالمية الثانية بـ "ثانوية التجهيز الأولى" ثم سميت بـ "ثانوية جودت الهاشمي" ولا نذري ما اسمها الآن. وكان هناك اتصال وتجاوب بين طلاب هذه الثانوية وطلاب ثانوية دمشقية أخرى هي "ثانوية عنبر".

كان هناك أستاذ ثانوي هو -زكي الإرسوزي - من أبناء لواء "الإسكندرون" قاد حركة مقاومة طلابيه ضد تترك اللواء المذكور. بعد أن درس الفلسفة في فرنسا. وتخرج فيها، واتصل بما كان الفكر الفرنسي يُموج به في تلك المرحلة من أفكار، وقد انطلق بعد عودته إلى لواء "الإسكندرون" يدعو إلى "البعث العربي" الذي اعتبره الحل الوحيد لتحرر "لواء الإسكندرون" من احتلال فرنسا ومن دعاه التترك في وقت واحد. ولم يلبث الإرسوزي إلا قليلاً حتى صار أقرب ما يكون إلى مرتبة الزعامة الثقافية والسياسية في "اللواء السليب" كما كان يطلق عليه في أدبياته. وقد اضطر لمغادرته بعد أن الحق رسمياً بتركيا الجديدة. وغادره معه مجموعة من طلابه من أبناء اللواء المذكور إلى دمشق. وقد قدم الإرسوزي نموذجاً من العمل السياسي لا عهد لدمشق به، فمن حيث الفكر كان فكرة ثورياً فجرته عمليات الكفاح المتنوع لإبقاء لواءه جزءاً من سوريا لا من تركيا، والمحافظة على

هُوِيَّتُهُ الْعَرَبِيَّةَ، وَكَسَبَتْ قَضِيَّةُ الْإِسْكَدَرُونَ فِكْرَهُ طَابَعًا عَمَلِيًّا مُتَحَرِّكًا لَمْ يَكُنْ مُوَافِرًا لِمَفْكَرِي ثَانَوِيَّاتِ
دِمَشْقُ أَمْثَالِ عَفْلَقِ وَالْبَيْطَارِ . وَكَانَتْ الْفَوَاصِلُ فِي ذَهْنِ الْإِرْسُوزِيِّ بَيْنَ فِكْرِ الرَّعَامَاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ وَفِكْرِهِ
الْبُعْثِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي يَخَيَّلُهُ وَيُرِيدُهُ وَاضِحَةً . فَقَدْ عَاصَرَ الرَّجُلُ الْإِسَارَ الْفَرَنْسِيَّ وَتَلَمَذَ عَلَيَّ بَعْضَ رُؤُوسِهِ
وَحَاوَلَ تَوْظِيفَ جَوَانِبِ مِنَ الْفِكْرِ الْإِسَارِيِّ الْفَرَنْسِيِّ فِي التَّرَكِيْبَةِ الْبُعْثِيَّةِ الْقَوْمِيَّةِ بِبَجَاحِ أَيْغَرِي شَبَابِ ذَلِكَ
الْجِيلِ وَلَقَدْ أَنْظَرَهُمْ إِلَيْهِ، فَقَدْ حَوَّلَ حَصِيلَتَهُ الْفِكْرِيَّةَ إِلَى أَيْدِيُولُوجِيَّةٍ مِثَالِيَّةٍ يُمَكِّنُ لِلْمُتَعَلِّمِينَ الْبَاحِثِينَ عَنْ
عَقِيدَةِ الْعَمَلِ وَالنَّظْمِ تَفْصِيْلَهُمْ عَنْ مَجْمُوعَاتِ الشُّيُوعِيِّينَ وَالْإِسْلَامِيِّينَ وَالرَّعَامَاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ مَعًا إِنْ تَبَنَّاها
فَاتَشَرَّتْ مَدْرَسَتُهُ الْفِكْرِيَّةَ وَاشْتَهَرَتْ عَامًّا (1950) فِي أَوْسَاطِ الطُّلَّابِ الَّذِينَ وَجِدُوا فِيهِ مَصْدَرًا
الْأَيْدِيُولُوجِيًّا وَالرَّعَامَةَ وَأَسَالِيْبَ الْعَمَلِ الْقَوْمِيِّ الْمُنْظَمِ فَكَشَفَتْ الرَّعَامَاتِ التَّقْلِيدِيَّةَ الشَّامِيَّةَ وَالْمَدْرَسُونَ
الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا قَبْلَ الْإِرْسُوزِيِّ يُوَاجِهُونَ مِثَافَسِينَ لَهُمْ وَزْنَ مُهِمَّ بِهَذَا الْمُسْتَوِيِّ فَبَدَأَتْ عَمَلِيَّاتُ تَحْجِيمِهِ
وَمُحَاصَرَتِهِ مِنْ هُوْلَاءِ جَمِيْعًا . فَكُلُّ هُوْلَاءِ قَدْ رَأَوْا فِي هَذَا الْغَرِيبِ الطَّارِيِّ عَلَيَّ الْبِيْسَةَ الدَّمَشْقِيَّةَ
السِّيَاسِيَّةَ تَهْدِيدًا .

أَمَّا مِيشِيلُ عَفْلَقُ وَصَلَّاحُ الْبَيْطَارُ فَقَدْ كَانَ لِهَمَّا أُسْلُوبُهُمَا الْخَاصُّ فِي تَحْجِيمِهِ بَعْدَ اخْتِوَاءِهِ ثُمَّ
اسْتَهْلَاكِهِ فِكْرِيًّا . فَقَدْ دُعِيَ الرَّجُلَانِ الْإِرْسُوزِيُّ لِلتَّعَاوُنِ مَعَ التَّوَاةِ الَّتِي شَكَّلَاهَا أَوْ كَانَا يَهَيِّيانَ لِتَشْكِيلِهَا
"الْبُعْثِ الْعَرَبِيِّ" وَهِيَ التَّوَاةُ الَّتِي حَاوَلَا أَنْ يَفْتِنَاهَا بِأَنَّهَا أَنْعَكَاسٌ لِأَفْكَارِهِ، وَتَعْبِيرٌ عَنْ فِلْسَفَةِ التَّوَافُقِ مَعَهُ،
لَكِنْ الْأَمْرُ لَمْ يَنْطَلِقْ عَلَيَّ الْإِرْسُوزِيِّ فَبَعْدَ لِقَاءَاتِ مَحْدُودَةٍ مَعَهُمَا خَرَجَ لَيْتَهُمْ عَفْلَقُ وَالْبَيْطَارُ بِالتَّوَاطُوعِ
الْمُخَابَرَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ لِلْإِجْهَازِ عَلَيَّ حَرَكَةِ النَّاشِئَةِ، وَرَأَى فِي شَخْصِيَّةِ عَفْلَقِ وَجُهُودِهِ تَحَالُفًا مَعَ
الْمُخَابَرَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ لِإِجْهَازِ حَرَكَةِ "الْبُعْثِ الْعَرَبِيِّ" بِاسْمِ "الْبُعْثِ الْعَرَبِيِّ" كَمَا كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ الرَّأْيِ

فِي الرَّعَامَاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ الَّتِي خَضَعَتْ لِمَسَاوِمَاتِ الْمُحْتَلِّ الْفَرَنْسِيِّ وَقَبِلَتْ التَّعَاوُنَ مَعَهُ لِإِجْهَاضِ ثَوْرَاتِ الشَّعْبِ!

وَمُحَاوَلَاتِهِ لِتَحْقِيقِ التَّحَرُّرِ الْحَقِيقِيِّ، وَرَاحِ الْإِرْسُوزِيِّ يَغْتَدُّ الْحَلِيقَاتِ فِي بَيْتِهِ وَفِي الْمَقَاهِي وَفِي الْفُضُولِ الَّتِي يُدْرَسُ فِيهَا لِلتَّنْجِيدِ بِالرَّعَامَاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ وَبِعُقْلٍ وَالْبَيْطَارِ وَاتِّهَامِهِمْ - جَمِيعًا - بِاللَّوْاطُوِّ الْمَكْشُوفِ مَعَ قُوَى الْإِحْتِلَالِ الْفَرَنْسِيِّ لِإِجْهَاضِ ثَوْرَاتِ الشَّعْبِ، وَقَدْ كَانَ رَدُّ فِعْلٍ عَفْلَقَ ضِدَّ الْإِرْسُوزِيِّ عَجَبِيًّا حَيْثُ تُبْنَى عَفْلَقَ أَفْكَارِ الْإِرْسُوزِيِّ فِي "الْبُعْثِ الْعَرَبِيِّ" وَاتَّحَلَّهَا عَلَيَّ أَنَّهَا أَفْكَارُهُ، وَصَارَ يُعْبَرُ عَنْهَا بَلْغَةً وَطَرِيقَةً، وَيُعْتَبَرُهَا "الْأَيْدِيُولُوجِيَا الْقَوْمِيَّة" الَّتِي ابْتَعَثَ عَفْلَقَ لِلْبَشِيرِ بِهَا وَالِدَّعْوَةَ إِلَيْهَا. وَحِينَ تَبَاعِ الْمَعَارِكِ الْفِكْرِيَّةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَنُحَاوِلُ رَصْدَ أَسْلِحَةِ مَعَارِكِ "الكَلِمَةِ وَالْمُعْتَقَدِ" لَا تَرَى سِلَاحًا أَشَدَّ فَتْكَ بِالْأَفْكَارِ مِنْ تَبْنِيهَا بَعْدَ تَفْرِيغِهَا مِنْ مَحْوَاهَا، وَجَعَلَهَا مُجَرَّدَ شِعَارٍ لَا مَضْمُونَ لَهُ. وَإِذَا بَحِثْتَ عَنْ الْمَضْمُونِ مِنْ خِلَالِ الشِّعَارِ أَوْ شَرَحَهُ قِيلَ لَكَ: أَنَّهُ شِعَارٌ ذُو حُرْمَةٍ وَقَدْسِيهِ لَا نَسْمَحُ لِأَحَدٍ بِتَحْلِيلِهِ أَوْ تَفْكِيكِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ أَوْلِيكَ الْمُتَلَزِمِينَ بِهِ، لِأَنَّ "تَحْلِيلَ" الشِّعَارِ يَفْقِدُهُ قَدْسِيَتَهُ، وَيُرْبِلُ عَنْهُ حُرْمَتَهُ لِأَنَّ عَفْلَقَ يُدْرِكُ أَنَّهُ لَوْ تَمَّ تَحْلِيلُ تِلْكَ الشِّعَارَاتِ لَبَرَزَتِ الْأَفْكَارُ الْكَامِنَةُ فِيهَا، وَالْمَرْمُوزُ إِلَيْهَا بِهَا، فَيَفْقَدُ عَفْلَقَ صِفَةَ "الْإِبْدَاعِ".

وَهَكَذَا كَانَ عَفْلَقَ وَالْبَيْطَارِ قَدْ اسْتَوَيَا عَلَيَّ فِكْرَ الْإِرْسُوزِيِّ الَّذِي أَمَدَ مَجْمُوعَتَهُمَا بِالْأَيْدِيُولُوجِيَا وَإِمْكَانَاتِ الرَّعَامَةِ، وَاجْتِنَدَهُ الْعَمَلُ الْقَوْمِيَّ الْمُنْظَمَ بِحَيْثُ كَانَ يُتَوَقَّعُ أَوْ يُفْرَضُ أَنْ يُنْطَلِقَ الْحَرْبُ بَيْنَ الْجَمَاهِيرِ وَيَبْدَأُ مَرِحَلَةَ التَّفَاعُلِ مَعَ قَضَايَا الشَّعْبِ وَاللِّتِحَامِ بِهِ، وَلَكِنَّهُ بَدَلَ ذَلِكَ قَدْ دَخَلَ - بِشَكْلِ مُلْفِتٍ لِلنَّظَرِ - عَزَلَهُ لَمْ يَكُنْ سَهْلًا عَلَيْهِ مُغَادَرَتُهَا وَالْخُرُوجُ مِنْهَا لَوْلَا أَنَّ الْحِظَّ السَّيِّئَ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ

وَأَفَاهُمَا بِاتِّصَارٍ آخَرَ، حَيْثُ انْضَمَّ إِلَى فَيْتَهُمَا الْمَغْرُوبَةُ تَجَمُّعٌ آخَرٌ إِقْلِيمِيٌّ كَانَ يَحْمِلُ عِنْوَانَ "الْحِزْبِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْتِرَاكِي" وَهُوَ حِزْبٌ حَمَوِيٌّ التَّنَشُّأَةُ وَالِاتِّشَارُ كَانَ يَزَعُمُهُ أَكْرَمُ الْحَوْرَانِيِّ. وَكَانَ أَهَمُّ أَهْدَافِ ذَلِكَ الْحِزْبِ هُوَ مُقَاوَمَةٌ مِنْ سَمَوُهُمْ بِالْأَقْطَاعِ عَيْنَيْنِ فِي حِمَاةٍ. وَالْوُصُولُ إِلَى الْحُكْمِ بَايَةً وَسَبِيلَةً مُتَّاحَةً، وَلِذَلِكَ كَانَ الْحَوْرَانِيُّ يُرَكِّزُ عَلَى وَسِيلَتَيْنِ أَسَاسِيَّتَيْنِ عِنْدَهُ هُمَا: الْعَمَلُ عَلَى تَخْرِيبِ الْفَلَاحِينَ ضِدَّ مَلَائِكِ الْأَرَاضِيِّ، وَمُحَاوَلَةَ الْوُصُولِ إِلَى عَنَاصِرِ عَسْكَرِيَّةٍ يُمَكِّنُ التَّأْيِيرَ عَلَيْهَا، وَتَحْوِيلَهَا إِلَى أَدَوَاتٍ فِي اللُّغْبَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَبِاتِّحَادِ مَجْمُوعَةِ الْحَوْرَانِيِّ مَعَ مَجْمُوعَةِ عَفْلَقِ وَالْبَيْطَارِ وَكَانَ التَّصْفِيفُ الثَّانِي مِنَ الْحِزْبِ لِيُصْبِحَ "حِزْبُ الْبَعْثِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْتِرَاكِي" يُقَوِّدُهُ الثَّلَاثِيُّ عَفْلَقُ وَالْبَيْطَارِ وَالْحَوْرَانِيُّ بِكُلِّ مَا يَحْمِلُ ذَلِكَ الثَّلَاثِيُّ الْعَجِيبُ مِنْ عَقْدٍ وَمَرَكَبَاتٍ نَقَصَ وَمَطَامِعَ وَأَهْدَافَ وَعَلَاقَاتٍ مَشْبُوهَةٍ وَغَيْرِ مَشْبُوهَةٍ.

لَعَلَّ مَعْرِفَةَ هَذِهِ الْوِلَادَةِ الْعَجِيبَةِ لِلْحِزْبِ تُبِيرُ أَكْثَرَ مِنْ عَلَامَةِ اسْتِقْهَامٍ!! وَتَنْبَهُ بِشِدَّةٍ إِلَى ذَلِكَ الْمُنَاحِ الْفِكْرِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ الْمُضْطَرَّبِ. فَقَدْ وُلِدَ فِي سَنَوَاتِ الْحِزْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّلَاثِيَّةِ وَفِي ظِلِّ احْتِمَالِ الْجُيُوشِ الْبَرِيطَانِيَّةِ، وَبَقَايَا الْقُوَّاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ لِقَلْبِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ، وَعَلَى أَيْدِي قَادَةِ تُحِيطُ بِهِمُ الشُّبُهَاتِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَا يَخْفَى عَجَزُهُمُ الْفِكْرِيِّ وَالْجِهَادِيِّ عَلَى مُتَابِعِ لَتَلِكِ الْفُتْرَةِ الدَّقِيقَةِ الْحَرَجَةِ مِنْ تَارِيخِ سُورِيَا وَلُبْنَانَ وَالْمِنْطَقَةِ. أَضَافَهُ إِلَى أَنْ الْمَرْحَلَةَ كَانَتْ مَرْحَلَةَ أَرْهَاصَاتٍ سَبَقَتْ بِقِيَامِ إِسْرَائِيلِ وَوِلَادَتِهَا - الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَخْفَى عَلَى قَادَةِ النِّظَامِ الْعَالَمِيِّ - انْدَاكُ - ضَرُورَةَ تَهْيِئَةِ الْمِنْطَقَةِ لِاسْتِقْبَالِ ذَلِكَ الْوَلِيدِ الطَّارِئِ وَتَثْبِيهِ، وَضَمُّهُ إِلَى "أَسْرِهِ حَاضِنَةٍ" هِيَ "أَسْرَهُ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْجَدِيدِ أَوْ الْكَبِيرِ".

وَإِذَا كَانَتْ تَرْكِيبَةُ الْقِيَادَةِ بِالشَّكْلِ الَّذِي وَصَفْنَا فَإِنَّ تَرْكِيبَةَ الْحِزْبِ - كَلْمَا - لَا تُقَلُّ عَنْهَا عَجَبًا فِي إِثَارَةِ الشُّكُوكِ وَالتَّسَاوُلَاتِ عَنْ تِلْكَ الْقِيَادَةِ الثَّلَاثِيَّةِ، فَقَدْ ضَمَّ "حِزْبُ الْبَعْثِ" فِي صُفُوفِهِ الْأُولَى غَالِبِيَّةً مِنْ

أبناء الأرياف الذين انتقلوا من القرى والأرياف إلى مراكز المحافظات التي تتوفر فيها المدارس الثانوية لمواصلة الدراسة، وكانت الخلايا الأولى للحزب تستقطب أبناء طوائف معينة "اللوائون" أو أبناء "لواء الإسكندرون" الذين استطاع علق إن يستقطبهم حوله - بعد محاصرة الإرسوزي - وهم من اتباع الإرسوزي سابقاً، كانوا ينتمون إلى الطائفة "العلوية" فصار هؤلاء دعاة للحزب بين أبناء طائفتهم من شباب جبال العلويين ليجندوا دعاة آخرين للحزب من أبناء ثانويات اللاذقية والساحل.

وكان لعلق صلات عائلته بحكم انتمائه إلى عائلة نصرانية تسكن حي "الميدان" في "دمشق" وتعامل مع الجنوب - أي حوران وجبل العرب "الدروز" - ولها صداقات مع بعض الأسر الدرزية، سرعان ما وظفها للوصول إلى طلاب الثانويات الدروز في دمشق والسويداء مركز محافظة جبل العرب، وقد تحدت بنيتة الحزب منذ البداية بطبيعة البنى الاجتماعية التي انحدرت منها تلك العناصر الحزبية الأولى: فكانت بنية ريفية من نوعيه أنصاف المتعلمين من طلاب بالدرجة الأولى ثم أساتذة وموظفين. ومن جذور طائفية محددة؛ تأتي بالدرجة الأولى منها الجذور العلوية، ثم الدرزية، فالاسماعيلية، فالمسيحية. وقد ترتب على ذلك أمور كثيرة .

مصادر فكر حزب البعث

مصادر فكر "حزب البعث" محدودة جداً، ولذلك فإن البعثي الذي يريد أن يحمل صفة "مثقف" لابد له من تجاوز ثقافة الحزب ومصادرها والبحث عن الزاد الفكري والثقافي في مجالات أخرى خارج مصادر فكر الحزب وثقافته؛ إذ أن مصادر فكر الحزب وثقافته الرسمية لا تتجاوز:

I مَجْمُوعُهُ أَحَادِيثٌ وَكَلِمَاتٌ مُرْتَجَلَةٌ بِدُونِ أَعْدَادٍ مُسَبِّقٍ يُلْقِيهَا عَفْلَقٌ، أَهْمُهَا مَا كَانَ قَدْ أَقَاهِ خِلَالَ السَّنَوَاتِ الْأُولَى لِتَأْسِيسِ الْحِزْبِ عَلَى شَبَابِ "الطَّلَاعِ الْأُولَى لِلْبُعْثِ" وَهِيَ الَّتِي حَوَّلَهَا الْحِزْبُ إِلَى كُتُبٍ تَحْمِلُ عَنَاوِينَ جُذَابَةٍ إِضَافَةً إِلَى اسْمِ الْمُؤَلِّفِ مُضَدَّرًا بَلَقَبَ "الْقَائِدَ الْمُؤَسَّسَ".

2 مَجْمُوعُهُ مَقَالَاتٌ عَفْلَقٌ وَالْبَيْطَارِ الْاِفْتِتَاحِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ لِجَرِيدِهِ الْحِزْبِ فِي الْفَتْرَةِ الَّتِي سَبَقَتْ انْقِلَابَ حُسْنَى الرَّعِيمِ عَامَ 1949، وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَقَالَاتُ مُكَرَّسَةً لِتَوْجِيهِ التَّنْقِدِ السِّيَاسِيِّ السَّادِجِ لِمَظَاهِرِ الْحُكْمِ الْوَطَنِيِّ الَّذِي أَغْتَبَ جَلَاءَ الْفَرَنْسِيِّينَ عَامَ 1946.

3 مَنَشُورَاتُ الْحِزْبِ ضِدَّ الْحُكُومَاتِ السُّورِيَّةِ الْمُتَعَاقِبَةِ بَعْدَ الْجَلَاءِ، وَكُلُّهَا مِنْ أَعْدَادِ عَفْلَقِ، وَالْبَيْطَارِ وَيُسَاعِدُهُمَا بَعْضُ شَبَابِ الْحِزْبِ.

4 مَجْمُوعُهُ مَقَالَاتٌ مُرْجَمَةٌ فِي الْفَلْسَفَةِ وَالْأَدَبِ وَالسِّيَاسَةِ لِبَعْضِ الْمَفْكَرِينَ الْفَرَنْسِيِّينَ الْيَمِينِيِّينَ وَالْيَسَارِيِّينَ.

5 بَعْضُ كُتُبٍ حَرَّرَهَا بَعْضُ كُتَّابِ الْحِزْبِ الَّذِينَ كَانُوا مُرْضِيًا عَنْهُمْ مِنْ عَفْلَقِ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ، مِنْهَا كِتَابَاتُ مَنِيفُ الرَّزَازُ وَعَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ الدَّائِمِ.

وَلِذَلِكَ كَانَتْ قِيَادَةُ الْحِزْبِ تُكْتَبَرُ مِنْ إِحَالَةِ الْأَعْضَاءِ عَلَى تِرَاثِ لَا تَرَى بِأَسَا بِهِ لِسَدِّ ذَلِكَ الْفِرَاقِ. وَكَانَ بَعْضُ الْأَعْضَاءِ يُحَاوِلُونَ الْبَحْثَ عَنْ زَادٍ ثِقَافِيٍّ بِنَفْسِهِمْ، فَقَدْ يُقْبَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى الدِّرَاسَاتِ الْمَارْكَسِيَّةِ أَوْ الدِّرَاسَاتِ الَّتِي تَنَاولَتْ قَضَايَا الْعَرَبِ قَبْلَ الثَّوْرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَمَا بَعْدَهَا. وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ الصَّعْبِ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْحِزْبَ قَدِمَ لِأَعْضَائِهِ وَمُنَاصِرِيَّةِ دَلِيلِ عَمَلِ فِكْرِيٍّ وَاصْخِ أَوْ غَامِضٍ. وَمَعَ كَثْرَةِ

أَحَادِيثُ الْبُعْثِيِّينَ عَنِ الثَّقَافَةِ لَكِنَّ الْحِزْبَ كَانَ بِدُونِ ثِقَافَةٍ وَالَّذِينَ يُسَمُّونَ بِـ "مُثَقَّفِي الْحِزْبِ" لَيْسُوا أَكْثَرَ مِنْ مَجْمُوعَةٍ مِنْ حَمَلِهِ الشَّهَادَاتِ، (وَالْحِزْبُ طَرِيقَتُهُ الْخَاصَّةُ فِي تَرْوِيدِ بَعْضِ أَعْضَائِهِ بِالشَّهَادَاتِ وَالرَّتْبِ). وَمُنْذُ أَنْ وُلِدَ الْحِزْبُ وَحَتَّى الْيَوْمِ لَمْ يَسْتَطِعِ الْحِزْبُ أَنْ يُقَدِّمَ نَفْسَهُ عَلَى أَنَّهُ صَاحِبُ مَدْرَسَةٍ فَكَّرِيهِ، كَمَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُقَدِّمَ بَرْنَامِجًا عَقَائِدِيًّا وَاضِحًا. فَالْحِزْبُ فِي نَظَرِ عَفْلَقٍ مُهِمَّةٍ أَنْ يَشُقَّ الدَّرْبَ لِأَنْ يُعْبُدَهُ لِسَالِكِيَّةٍ، فَالْمُهْمُ أَنْ تُعْلَنَ أَهْدَافًا تَحْسُنُ اخْتِيَارَهَا وَتُنَادِي بِهَا، وَتَحْوِلَهَا إِلَى شِعَارَاتٍ يَسْهُلُ عَلَى الْجَمَاهِيرِ حِفْظُهَا وَتَرْوِيدُهَا وَالْمُنَادَاةَ بِهَا مِثْلَ "أُمَّةٍ عَرَبِيَّةٍ وَاحِدَةٌ ذَاتَ رِسَالَةٍ خَالِدَةٍ" "الطَّلِيعةُ" "الْبُعْثُ" "الأَصَالَةُ" "قَدْرُ الأُمَّةِ" "المَوْضُوعِيَّةُ" "المَرْحَلَةُ التَّارِيخِيَّةُ" "اللَّحْظَةُ التَّارِيخِيَّةُ" "الوَحْدَةُ" "الْحُرِّيَّةُ" "الاشْتِرَاكِيَّةُ" "المُؤَامَرَاتُ الِاسْتِعْمَارِيَّةُ" "العَوَامِلُ السَّلْبِيَّةُ" "الثَّوْرَةُ" "الإِجْهَازُ الثَّوْرَةُ" "العُنْفُ الثَّوْرِيُّ" "الطُّهْرُ الثَّوْرِيُّ" "العَهْرُ الثَّوْرِيُّ" وَتَأْخُذُ خِطَابَاتٍ وَأَحَادِيثَ عَفْلَقٍ وَتَلَامِذُهُ تَوْكِيدَاتٍ عَلَى كُلِّ مَا يَطْرُقُهُ الْحِزْبُ وَكَاتَبَهَا أَرْكَانَ إِيمَانِيَّةٍ مُتَلَازِمَةً "فَلَا بُدَّ مِنَ الوَحْدَةِ وَلَا بُدَّ مِنَ الْحُرِّيَّةِ وَلَا بُدَّ مِنَ الِاشْتِرَاكِيَّةِ" وَكُلُّ هَذِهِ "اللَّابُدَاتُ" غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلتَّعْلِيلِ وَلَا لِلتَّحْلِيلِ وَلَا لِلْمُنَاقَشَةِ وَلَا لِلتَّقْدِيمِ وَلَا لِلتَّأخِيرِ، فَالْحَدِيثُ عَنْ هَذِهِ الْعِلَاقَاتِ مَحْرَمٌ، وَجِيلُنَا لَا يَزَالُ يَتَذَكَّرُ اخْتِلَافَاتِ الْحِزْبِ مَعَ عَبْدِ النَّاصِرِ عَلَى تَقْدِيمِ الْحُرِّيَّةِ عَلَى الوَحْدَةِ أَوْ العَكْسُ فِي الشِعَارَاتِ الْمُطْرُوحَةِ.

أَمَّا الإِحَالَاتُ فَقَدْ أَبْدَعَ القَائِدُ المَوْسَسُ فِيهَا، وَحِينَ تَقْرَأُ أَدْبِيَاتِ الْحِزْبِ وَخَاصَّةً مَا كَتَبَهُ عَفْلَقٌ نَجِدُ أَنَّ فِي ذَهْنِ الرَّجُلِ نَمُودَجَيْنِ مِثَالَيْنِ. النَّمُودَجُ الأوَّلُ: هُوَ صُورَةُ المَجْمَعِ العَرَبِيِّ "الْفَرَنْسِيِّ خَاصَّةً"، وَالنَّمُودَجُ الثَّانِي هُوَ: نَمُودَجُ العَرَبِيِّ الجَاهِلِيِّ ذِي العَرَقِ التَّقِيِّ وَالخَيَالِ الخُصْبِ وَالشَّعْرِ وَالفُرُوسِيَّةِ. وَلِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ التَّصْرِيحُ بِهَذَا النَّمُودَجِ المُرَكَّبِ العَجِيبِ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ جَاهِلِيَّةِ العَرَبِيِّ الجَاهِلِيِّ، وَالنَّمُودَجِ

الفرنسي المتقدم بقدره خيالية عجيبة فإنه كان يفضل اختزال الأفكار إلى شعارات وعبارات خطابية يرفض البحث في معانيها . ولا يسمح لأحد بتحليلها أو مناقشتها حتى لو كان من قادة الحزب .

إنه يصير على تديد كلمة "البعث العربي" تاركاً لكل أحد أن يفهم منها ما يشاء وما يريد، إذ يكفي عنده أن يردد كلمة كهذه تستدعي جملة كبيرة من الأبحاث لا حصر لها تمتد فيما بين الدنيا والآخرة، ولكن ما الذي يريده القائد المؤسس؟ هل هو بعث الماضي العربي أو التاريخ العربي؟ وما الذي يراؤه أنه يبعث منه أهو الجاهلية - التي يصفها بالتقاء العرقي - أم الإسلام أم شيء آخر يؤلفه من بينهما؟ أم ماذا؟ هذا ما يطوى غلق عليه جوانحه، لأنه في نظره أكبر من أن تحمله العقول التي لا تحمل عبقرية مثل عبقرته .

وهكذا شأنه مع سائر الشعارات والمصطلحات التي تم طرحها: غموض وإبهام، مع طنين ورنين، واحتمالات لا تنتهي، وأما إصراره على عدم تحديدها فذلك لأن القائد المؤسس يدرك أن فهم الأطروحات والشعارات يقود إلى البحث عن أصولها وجذورها، ويحمل على المطالبة بالتدليل عليها، وقد يؤدي إلى رفضها، وطلب البدائل عنها . وفيلسوف الحزب لا وقت لديه لهذا الصداع فليطرح ما يشاء، وليخف وراء ذلك من المعاني ما يريد، ثم يستأثر - وحده - بتحديد المراد إذا شاء ووقت ما يشاء، لأن المعاني - كل المعاني - في بطن القائد المؤسس . ولا زال جيلنا يذكر أن الرئيس الراحل عبد الناصر بعد لقاءه بعفلق في محادثات الوحدة خرج يقول للناس في خطبة معلنه "الأستاذ بتاعهم ما أقدرتش أفهم منه غير يعني يعني يعني، كل كلمة يقولها يردد بعدها يعني يعني يعني وبعدين ما تفهمش يعني آية!!" .

وَقَدْ كَانَ عَفْلُقَ حِينَ تُبْنَى دَعَوَاتِ عَبْدِ النَّاصِرِ وَأَيْدِ سِيَاسَاتِهِ يَسْتَهْدِفُ رُكُوبَ الْمَوْجِهِ لِتَحْقِيقِ وَحْدِهِ
مُسْتَعْجَلَةً، يُمَكِّنُ فَكْهًا فِي أَقَلِّ مِنْ الْوَقْتِ السَّرِيعِ الَّذِي أُبْرِمَتْ فِيهِ، كَمَا أَنَّهُ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ سَيَكُونُ قَادِرًا
عَلَى التَّأْثِيرِ فِي عَبْدِ النَّاصِرِ بِذَاتِ الْمُسْتَوَى الَّذِي أَثَّرَ فِيهِ عَلَى الضَّبَاطِ السُّورِيِّينَ، وَبِذَلِكَ يُجِيرُ عَبْدِ
النَّاصِرِ وَشَعْبِيَّتِهِ وَمَكَاتِهِ، وَمَا كَانَ لَهُ مِنْ أُنْجَادٍ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ لِصَالِحِ ذَاتِهِ وَحِزْبِهِ. وَلَمَّا رَأَى مِنْ
عَبْدِ النَّاصِرِ غَيْرَ مَا كَانَ يُتَوَهَّمُ سُرْعَانَ مَا نَبَّهَ الْخَلَائِيا النَّائِمَةَ لِلْحِزْبِ الَّذِي كَانَ قَدْ وَاْفَقَ عَلَى حِلِّهِ، نَبَّهَ
تِلْكَ الْخَلَائِيا إِلَى خَيْبَةِ أَمَلِهِ فِي عَبْدِ النَّاصِرِ وَضُرُورَةَ التُّهُوسِ بِالْحِزْبِ مِنْ جَدِيدٍ، وَالتَّخَلِّيَ عَنِ عَبْدِ
النَّاصِرِ. وَإِذَا بَعْفَلُقُ يُضْحِي بِالْوَحْدَةِ وَيَنْضَمُّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عَسْكَرِيِّينَ وَمُدَّيِّينَ إِلَى حُصُومِ لَهَا،
يَتَمَرُّونَ لِفَكْهًا حَتَّى حَقَّقُوا الْإِنْفِصَالَ.

ذَلِكَ مَفْهُومُ هَذَا الْحِزْبِ وَبِنَاؤُهُ التَّارِيخِيَّ، وَالْمَصَادِرِ السَّادِجَةِ لِفِكْرِهِ، أَمَّا فِلْسَفَتُهُ وَمَذْهَبِيَّتُهُ إِنْ جَازَ أَنْ
نُطْلَقَ عَلَيْهَا فِلْسَفَةٌ وَمَذْهَبِيَّةٌ فَتَلَخَّضُ فِيْمَا يَلِي:

فِلْسَفَةُ "حِزْبِ الْبَعْثِ" وَمَذْهَبِيَّتُهُ:

يَقُولُ لِيُونَارْدُ بَانْدِر: "يُمَثِّلُ عَرْضُ عَفْلُقِ لِفِكْرَةِ الْقَوْمِيَّةِ مِنْ مَنظُورِهِ الْبَعْثِيَّ خَلِيطًا مِنْ الْفِلْسَفَاتِ الْغَرْبِيَّةِ
السَّائِعَةِ، فَهُوَ يَأْخُذُ مِنْ هِيرْدِرِ مَقُولَتِهِ: "أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ رِسَالَةً حَاصَّةً بِهَا، عَلَيْهَا إِنْ تُؤَدِّيَهَا، وَإِنْ فِي وَسْعِ كُلِّ
أُمَّةٍ أَنْ تُسْهِمَ عَنْ طَرِيقِ هَذِهِ الرِسَالَةِ فِي تَحْقِيقِ الْإِنْسِجَامِ الْعَالَمِيِّ"، وَيَضْمَنُ عَفْلُقُ عَرْضَهُ - أَيْضًا -
تَأْكِيدَ هَيْجَلِ عَلَى التَّارِيخِ وَعَلَى الْوُجُودِ الْقَوْمِيِّ فِيهِ، لِكِنَّهُ يَسْتَعِيضُ عَنْ جَدَلِ هَيْجَلِ الْمُنْطِقِيِّ، بِمَفْهُومِ
"الْحَلْفَةِ التَّارِيخِيَّةِ" فِي الصُّعُودِ وَالْهَبُوطِ. وَتَظْهَرُ فِي كِتَابَاتِ عَفْلُقِ - أَيْضًا - نَظْرِيَّةَ مَارْكَسَ فِي الصِّرَاعِ
الطَّبَقِيِّ، كَمَا يَضْمَنُهَا تَأْكِيدًا كَبِيرًا عَلَى الْأَسَاسِ الْاِقْتِصَادِيِّ لِلْسِيَاسَةِ، وَلِكِنَّهُ يَرْفُضُ "الْحَمِيَّةَ" الَّتِي

تُبْنَاهَا مَارِكْسُ، كَمَا يُرْفُضُ "التَّفسيرُ المَادِّي" رَفْضًا كَامِلًا. وَكَانَتْ الإِشْرَاقِيَّةُ الَّتِي تُبْنَاهَا عَفْلَقُ جُزْءًا مِنْ فِكْرَتِهِ القَوْمِيَّةِ البُعْثِيَّةِ. تَمَامًا كَمَا كَانَتْ صُهْبِيَّةُ بُرْسُوفِ جُزْءًا مِنْ إِشْرَاقِيَّتِهِ، وَأَخِيرًا نَجِدُ فِي كِتَابَاتِهِ شَيْئًا مِنْ "المَذْهَبِ الحَيَوِيِّ" الَّذِي نَادَى بِهِ بِرَجُسُونِ.

وَيُشْرَحُ بِإِنْدَرِ كَيْفَ قَامَ عَفْلَقُ بِإِتْقَاءِ وَتَلْفِيحِ مُرَكَّبِ مَذْهَبِيَّتِهِ مِنْ هَوْلَاءِ الأَرْبَعَةِ: فَيَقُولُ: "وَمِنْ المُفِيدِ إِلقَاءُ بَعْضِ الصُّوَرِ عَلَى نَظَرِيَّةِ عَفْلَقِ القَوْمِيَّةِ البُعْثِيَّةِ مَا دَامَ بِصِيَاعَتِهِ هَذِهِ يَكَادُ يَخْلُو مِنَ المَعْنَى (عَلَى حَدِّ تَغْيِيرِ الكَاتِبِ)، وَقَدْ أَخَذَ مِنْ هَيْجَلِ مَذْهَبِهِ بَعْدَ تَطْوِيرِهِ. فَالمَذْهَبُ الجَدَلِيُّ عِنْدَ هَيْجَلِ فَحَوَاهُ: أَنَّ الحَيَاةَ العَقْلِيَّةَ مُنْفَصِلَةٌ تَمَامَ الإِنْفِصَالِ عَنِ التَّارِيخِ الوَاقِعِيِّ، وَلِذَلِكَ اسْتَعَاضَ عَنْهُ بِمُفْهَمِ "الحَلَقَةِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الصُّعُودِ وَالهُبُوطِ" وَهَذَا المُفْهَمُ يُمَثِّلُ رُؤْيَا عَفْلَقِ لِلتَّارِيخِ العَرَبِيِّ وَتَمَثِيلُهُ بِحَلَقَاتٍ يَبْلُغُ فِيهَا أَوْجَ مَجْدِهِ ثُمَّ مَا يَلْبُثُ أَنْ يَرْتَدِّي إِلَى الحَضِيضِ، وَالمَعْيَارُ لَدَيْهِ فِي هَذَا الِارْتِفَاعِ وَالإِنخِفَاضِ، هُوَ تَقَاءُ العُنْصُرِ بِاعْتِبَارِهِ المُقْيَاسَ الوَحِيدَ، وَيَلْعَبُ نَفْسِيَرِهِ هَذَا لِلتَّارِيخِ دَوْرًا أَسَاسِيًّا فِي نَظَرِيَّتِهِ القَوْمِيَّةِ البُعْثِيَّةِ، وَلِذَلِكَ عَارِضُ التَّفسيرِ المَادِّيِ لِلتَّارِيخِ .

وَبِتِلْكَ التَّعْبِيرَاتِ وَالنَّظَرِيَّاتِ المَلْفَقَةِ المَزِيحِ عَنِ "القَوْمِيَّةِ العَرَبِيَّةِ البُعْثِيَّةِ" اسْتَطَاعَ عَفْلَقُ أَنْ يَصُوغَ مَذْهَبِيَّةَ الحِزْبِ بَعْدَ أَنْ انْتَمَى مِنْ تِلْكَ الأَفْكَارِ اِتِّقَاءًا بِحَيْثُ لِوَاهَا كَيْ تَلْتَمَّ فِي نَسِيحِ وَاحِدٍ لِلتَّعْبِيرِ عَمَّا أَرَادَهُ، فَلَقَدْ لَفَّقَ وَطَرَحَ تَصَوُّرَاتٍ وَحَدَفَ أُخْرَى وَحُورَ وَحَرَفَ فِيمَا حُدَفَ وَفِيمَا أَخَذَ، نَعَمْ إِنَّهُ فَعَلَ، وَلَكِنْ فِي مِثْلِ هَذَا المَجَالِ، وَهُوَ مَجَالُ فِلسَفي هَلْ يَحِقُّ لِلْفِيلَسُوفِ أَنْ يُعْرِفَ الشَّيْءَ أَوْ الحَدِثَ كَمَا يُرِيدُ أَوْ يُتَصَوَّرُ؟ جَوَابُ عَفْلَقِ: نَعَمْ، وَلِذَلِكَ تُبْنَى عَفْلَقُ هَذِهِ الفِكْرَةَ وَهِيَ: "أَنَّ الفِكرَ يَنْصَلِبُ فَيَعْنَدُ، وَمَنْ يَعْنَدُ يَنْتَهِي إِلَى أَنْ يَلْوِي لِأَشْيَاءٍ، وَفَقَا لِفِكْرَتِهِ بَدَلًا مِنْ تَنْظِيمِ فِكرِهِ وَفَقَا لِأَشْيَاءٍ"، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ القَائِدَ

المؤسس قد لوي عُنق الفكر القومي كله ثم الفكر الإسلامي كله ليُقدم لمن يُعتر بفكره من أنصاف المُعلِّمين تلك الخلطة العجيبة المتنافرة من الأفكار.

حَتْمِيَّةُ الْإِنْتِمَاءِ إِلَى الْبَعْتِ

تتلخّص رؤية عَفَلق في النظريّة القوميّة البعثيّة أن مرحلة الانحطاط التي عاشها العرب في عصر تأسيس الحزب ولا يزالون يعيشونها في الوقت الراهن جعلت كثيرا منهم لا يفهمون حقيقة أنفسهم ولا حقيقة قوميّتهم ولا يدركون في الحقيقة هويّتهم، فصاروا غير مُدركين أنه ليس إمامهم مجال لاخيار أن يكونوا غير بعثيين، لأنّ القوميّة العربيّة البعثيّة موجودة فيهم من غير أن يكون للإنسان العربي دخل في تقبله الإيجابيّ والاختياريّ لها، لأنها يعني "القوميّة العربيّة البعثيّة" شبيهة باسمه أو صورته، فهي جزء ثابت وفطريّ في ماهيته نابت فيه حتى قبل مولده، وكما أن من العبت أن يضع الإنسان حياته في التالم، لأنه لم يولد في أسره غير أسرته، أو يحمل صورة غير صورته، فإن من العبت أن يحاول تحرير نفسه ممّا يربطه بأمته أو يشده إليها، ويكرر القائد المؤسس هذا المعنى في أكثر من كتيب من كتاباته .

رَفَضَ عَفَلق التَّحْلِيلَ وَاعْتِمَادَ الرُّؤْيِيَّةِ

ومن هذه الرؤيَّة يُعقّد أن مسألة القوميّة البعثيّة لا تحتاج إلى تحليلٍ مُقوماتها أو عناصرها، فهي بديهية أوّلية لا تحتاج إلى برهان، فكاتبها من البديهيات أو مُسلمات ما قبل المنهج، وهو في هذا يأخذ عن برجسون قوله: "إن التحليل إنما هو تفكيك للأشياء إلى عناصر ثابتة، غير أنه تفكيك لن يُفضي إلا إلى عالمٍ مُجرّد أجوف" . ويصف عَفَلق "التحليل" بأنه يعرّي الأمور من لحمها ودمها، ويقود إلى عدم الدقة، وإظهار المُتناقضات بظهور المُتشابهات، وتحويل الحقائق إلى مُجرّد كلمات ، فكلاهما هنا عَفَلق

وَبَرَجْسُونَ يَرْفُضَانِ الْإِسْتِقْرَاءَ وَالْإِسْتِثْبَاتَ وَيَعْتَمِدَانِ "الرُّؤْيَةَ" لِأَنَّ الرُّؤْيَةَ - فِي نَظَرِهِمَا - تَنْفُذٌ إِلَى الْأَشْيَاءِ دُونَ وَسِيطٍ، وَمَا هُوَ أَوْلَى لَا يَحْتَاجُ إِلَى بُرْهَانٍ، خِلَافًا لِمَا هُوَ نَظَرِيٌّ أَوْ كَسْبِيٌّ - عِنْدَ عَفْلَقٍ - أَمَّا الْأَوْلَى فَهُوَ نَقْطَةُ الْبِدَايَةِ لِأَيِّ بُرْهَانٍ ، وَعِنْدَمَا يَرْفُضُ عَفْلَقُ "التَّحْلِيلُ" فَإِنَّهُ مِنْ الْجِهَةِ الْأُخْرَى يَمَسَّكَ بِ "الْأَيْدِيُولُوجِيَّةِ".

الْحِزْبُ هُوَ الْأُمَّةُ

يَقُولُ عَفْلَقُ: "الْأُمَّةُ لَيْسَتْ مَجْمُوعَةٌ عَدَدِيَّةٌ وَإِنَّمَا هِيَ أَيْدِيُولُوجِيَّةٌ تَجَسَّدُ فِي تِلْكَ الْمَجْمُوعَةِ أَوْ جُزْءٍ مِنْهَا ، وَالْجُزْءُ الْمُتَصَوِّدُ مِنَ الْمَجْمُوعَةِ هُوَ طَلَائِعُ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ أَيْ "الْحِزْبُ" الَّذِي يَقَعُ عَلَى عَاتِقِهِ عَبءٌ نَعْبِيَّةُ الْأُمَّةِ وَرَاءَ الْفِكْرَةِ الْقَوْمِيَّةِ الْبُعْثِيَّةِ وَقِيَادَتِهَا فِي آدَاءِ رِسَالَتِهَا الْخَالِدَةِ. وَهُنَا يُصْبِحُ الْحِزْبُ هُوَ الْأُمَّةُ، وَدُورُ الْأُمَّةِ لَا يَدْعُو أَنْ يَكُونَ فِي جَعْلِهَا تَنَكُّبٌ عَلَى مُتَابَعَةِ فِكْرِ الْحِزْبِ صُمًّا وَعُمِيَانًا فِي حَالَةِ تَقْلِيدٍ وَمُتَابَعَةٍ لَا تَبَالِي إِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْمَتَابَعَةُ تَحْدُثُ لِلْأُمَّةِ قَنَاعَةً بِذَلِكَ الْفِكْرِ أَوْ لَا تَحْدُثُ.

وَيَعْلَقُ لِيُونَارْدٍ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: "لَيْسَ مِنَ الْعَسِيرِ أَنْ يَكُونَ وَرَاءَ هَذَا الرَّأْيِ أَيْمَانٌ بِالْجَمَاعِيَّةِ الصَّارِمَةِ وَنَزَعَهُ سُلْطَوِيَّةٌ تُرْغِمُ النَّاسَ عَلَى الْحُرِّيَّةِ!! أَوْ تُجْبِرُهُمْ عَلَى إِدْرَاكِ مَصَابِرِهِمُ الصَّحِيحَةِ مَهْمَا كَانَتْ مُعْتَقَدَاتِهِمُ الْوَاعِيَّةُ، فَالْمُشْكَلَةُ فِي رَأْيِهِ مِثْلُ كُلِّ شَيْءٍ حُمِلَ الْعَرَبِيُّ عَلَى الْإِحْسَاسِ بِطَبِيعَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ، فَهُوَ يُفْتَرِضُ الْقَبُولَ عَلَى أَسَاسِ الْإِيمَانِ .

إِنَّ عَفْلَقَ وَضَعَ تَصَوُّرًا جَدِيدًا لِلْفِكْرَةِ الْقَوْمِيَّةِ الْبُعْثِيَّةِ يُنْسَجِمُ وَالْمَذْهَبَ الْقَوْمِيَّ الْخَاصَّ بِالْبُعْثِيِّينَ الَّذِي صَاغَهُ بِاقْتِبَاسَاتِهِ الْمَشَارِئِ إِلَيْهَا، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ تَوَخَّى بِذَلِكَ نَقْطَتَيْنِ مَهْمَتَيْنِ فِي الْعَقِيدَةِ الْبُعْثِيَّةِ هُمَا:

- إِعَادَةُ صِيَاغَةِ فِكْرِهِ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْبُعْثِيَّةِ لِتَكُونَ إِطَارًا مُنَاسِبًا لِلْمَذْهَبِيَّةِ وَخُصُوصِيَّاتِهَا، وَلِفَضْلِ
الْبُعْثِيِّينَ عَنِ بَقِيَّةِ الْفَصَائِلِ الْقَوْمِيَّةِ، فَلَا تَنْطَبِقُ عَلَيْهَا انْتِقَادَاتُ الْمَسْأَلَةِ الْقَوْمِيَّةِ بَعَامَةً، فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ عَنِ
الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي شِقِّهَا الْمَارْكَسِيِّ وَالتَّقْلِيدِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَعَقْلُ الْبَابِ أَمَامَ تَحْلِيلِ الْقَوْمِيِّينَ الْعَرَبِ الَّذِينَ
وَصَفَهُمْ عَقْلُ بِالرَّجَعِيِّينَ الَّذِينَ يَقْحَمُونَ الَّذِينَ عُنُصْرًا أَوْ مُقَوْمًا مِنْ مُقَوْمَاتِ هَذِهِ الْقَوْمِيَّةِ.

- وَأَكَّدَ أَنَّ الطَّلِيْعَةَ هِيَ وَحْدَهَا الَّتِي تَعِي قَوْمِيَّيْهَا فِي مَرَحَلَةِ الْإِنْحِطَاطِ، وَتَسْتَوْعِبُ قِيَمَهَا، وَقَدْ أَلْهَمَتْ
الْإِيْمَانَ بِدَوْرٍ قَوْمِيَّيْهَا إِلَهَامًا، فَهِيَ تَتَوَلَّى قِيَادَةَ ثَوْرَةِ الْبُعْثِ، وَثَوْرَةَ الْبُعْثِ هِيَ إِجْرَاءُ الْبَدْلِ الْفِطْرِيِّ
وَالْخَلْقِيِّ.

الْبُعْثِيُّونَ وَتَبْدِيلُ الْقِيَمِ الْعَرَبِيَّةِ:

وَلَقَدْ أَجَابَ عَقْلُ عَلَى سُؤَالٍ عَنِ مَا هِيَ الْبُعْثُ وَأَهْدَافُهُ فَقَالَ: "إِنَّ الْهَدَفَ هُوَ تَبْدِيلُ الْقِيَمِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ
لِلْعَرَبِ، لِذَا فَإِنَّهُ هَدَفٌ بَعِيدَ الْمَدَى، إِذْ أَنَّ الثَّوْرَةَ يَحِبُّ أَنْ تَتَنَاوَلَ طَرِيقَةَ النَّاسِ فِي التَّمْكِيْرِ أَصَافَهُ إِلَى
الْأَفْكَارِ ذَاتِهَا .

الطَّلَائِعُ وَالْقَسْوَةُ وَالْإِسْتِبْدَادُ

لِذَلِكَ فَالطَّلِيْعَةُ مِنْ حَقِّهَا أَنْ تَتَحَدَّثَ بِاسْمِ الْمَجْمُوعِ، وَلِكِنِّي نَقُومُ بِدَوْرِهَا فَإِنَّ عَلَى هَذِهِ الطَّلَائِعِ أَنْ
تَحْتَفِظَ بِحُبِّهَا لِلْجَمِيعِ ، وَإِذَا قَدَرَ لَهَا أَنْ تَقْسُوَ فِي مُعَامَلَتِهَا عَلَى الْآخَرِينَ، فَإِنَّمَا تَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً مِنْهَا فِي
إِعَادَتِهِمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَعِنْدَمَا يَقْسُو الْآخَرُونَ عَلَيْهَا فَإِنَّ هَذَا يَعْنِي أَنَّ هَؤُلَاءِ يُنْكِرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيُنْكِرُونَ
ذَاتَهُمْ، فَأَرَادَتِهِمْ الْحَقِيقِيَّةَ مَعَ هَذِهِ الطَّلَائِعِ وَإِنْ كَانَتْ خَفِيَّةً وَكَامِنَةً، وَإِنْ ظَهَرُوا بِمُظْهِرِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
ضِدَّهَا . إِذِنْ فَإِنَّ هَذِهِ الْقَسْوَةَ عَلَى الْآخَرِينَ إِنَّمَا هِيَ مِنْ أَجْلِهَا فِي تَحْتَفِظَ بِحُبِّهَا لِلْجَمِيعِ، وَبِذَلِكَ شَرَعَ

عَفَلَقَ لِلْقَسْوَةِ وَالْإِضْطِهَادِ وَاعْتَبَرَ الطُّغْيَانَ مَشْرُوعًا لِلطَّلَاعِ، لَهَا الْحَقُّ أَنْ تَمَارِسَهُ عَلَى الْأُمَّةِ وَفِي مَصْلَحَتِهَا، وَذَلِكَ قَدْ يُفَسَّرُ ظَاهِرُهُ اسْتِخْدَامَ الْفَتَانِينَ وَالْأَدْبَاءِ، شُعْرَاءَ وَكُتَّابًا، مَحَامِينَ وَأَطِبَّاءَ وَطَلَبَةً، وَمُعْظَمَ مُتَقَفِي الْحِزْبِ، لِلتَّنْوِيهِ بِالْقَسْوَةِ وَالْإِضْطِهَادِ وَالْإِسَادَةِ بِهَذَا الْحَقِّ، حَقِّ الْقَسْوَةِ، بِهُدُوءٍ وَلَذَّةٍ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْهُمْ الْمُمَارَسَةَ فَلْيَمْتِعْ نَفْسَهُ بِالْفُرْجَةِ عَلَى الضَّحَايَا. أَمَّا الْقَسْوَةُ إِذَا صَدَرَتْ عَنْ غَيْرِ الطَّلَاعِ فَفِي وَخَشِيَّةٍ وَإِرْهَابِ حِزْبِي يَفْعَلُهُ قَوْمٌ هُمْ أَعْدَاءُ أَنْفُسِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَكُونُوا أَعْدَاءَ تِلْكَ الطَّلَاعِ. وَتَلْقَى قَضِيَّةَ الطَّلَاعِ فِي عَقِيدَةِ الْقَائِدِ الْمُؤَسَّسِ عَفَلَقَ اهْتِمَامًا خَاصًّا، وَخَيْرَ ضَمَانٍ لِتَقْوِيَّتِهَا - فِي نَظَرِهِ - هُوَ الْإِحْتِقَاطُ بِنِقَاتِهَا وَصَفَاتِهَا وَذَلِكَ بِرِعَايَتِهَا مُنْذُ عَهْدِ الطُّفُولَةِ وَهِيَ مَا تَزَالُ بُدُورًا لَمْ تَلَوُّهَا الْبَيْئَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ؛ خَاصَّةً وَإِنَّ الْهَدَفَ الْبَعِيدَ الَّذِي يَوَخَّاهُ الْحِزْبُ هُوَ تَبْدِيلُ قِيَمِ الْعَرَبِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَتَغْيِيرُ طَرِيقَتِهِمْ فِي التَّفَكِيرِ، وَإِبْدَالِ أَفْكَارِهِمْ بِغَيْرِهَا، بِحَيْثُ تَنْتَهِي بِإِحْلَالِ أَفْكَارِ الْحِزْبِ مَحَلَّهَا، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ التَّوَجُّهَ الْعَقَائِدِيَّ يَنْبَغِي أَنْ يَتَرَكَّزَ فِي الطُّفُولَةِ الْمُبَكَّرَةِ لِئُودِيَ ثَمَارُهُ.

قِيَمُ حِزْبِ الْبَعْثِ وَالْجَاهِلِيَّةِ

وَلَكِنْ مَا هِيَ الْقِيَمُ الْجَدِيدَةُ الَّتِي عَمِلَ عَفَلَقَ وَطَلَّعْتَهُ عَلَى تَجَسُّدِهَا فِي الْعِرَاقِ الَّذِي أُبْتَلِيَ بِحُكْمِهِمْ؟ وَمَا هِيَ طَرِيقَةُ التَّفَكِيرِ الْقَوْمِيَّةِ الْبُعْثِيَّةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي حَاوَلَ "حِزْبُ الْبَعْثِ الْعَرَبِيِّ الْأَشْرَاقِيِّ" إِرْسَاءَ دَعَائِمِهَا فِي الْعِرَاقِ الْمُنْكَوَبِ؟ يَتَحَدَّثُ مَطَاعٌ صُفْدِيٌّ فِي مُؤَلَّفِهِ "حِزْبُ الْبَعْثِ" عَنْ آرَاءِ عَفَلَقَ: بِأَنَّهَا "نُصِبُ عَلَى الْوَصْفِ وَالْمُبَالَغَةِ، وَصَفَ عَظْمَةَ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَرَفَعَهَا إِلَى مُسْتَوَى الْوُجُودِ الْخَارِقِ، وَإِضْفَاءِ مُخْتَلَفِ الْقُدْرَاتِ الْفُرْدِيَّةِ وَالْخَطَائِيَّةِ عَلَيْهَا، وَتَنْزِيهِهَا عَنْ آيَةِ مَفْسَدَةٍ أَوْ قَيْصَةٍ، وَقَدْ مُهَّدَ عَفَلَقَ أَذْهَانَ اتِّبَاعِهِ لِلْإِعْتِرَازِ بِمَرْحَلَةِ "الْجَاهِلِيَّةِ" مِنْ تَارِيخِ الْعَرَبِ خَاصَّةً، وَاعْتِبَارُ هَذِهِ الْجَاهِلِيَّةِ بِمَثَابَةِ

الأصالة الكاملة للوجود العربي، والقائد المؤسس يبدو تلميذاً فأشلا وهو يحاول إسقاط فكره "العصبية" إلخدونيه ويعبر عنها بأفكاره. وبالمقابل حاول فكر علق إضعاف المرحلة الإسلامية، ولو بطريقه غير مباشرة وأغبارها مرحلة تساهل أدت إلى خلط العرب بغيرهم وأضعاف بعض خصائصهم إلى حد كبير، ولذلك أعاد تفسير الإسلام، وفسره كما فسر القومية العربية تفسيراً بعثياً يتناسب وذلك الوجه. فلم يكن لدى البعثي ما يتعارض مع انتمائه الإسلامي حسب ذلك التفسير حتى لو رفض الإسلام شريعة وعقيدة وتبني الماركسية اللينينية بديلاً عنه، وتامل قول شاعرهم:

أمنت بالبعث رباً لا شريك له وبالعزوبه ديناً ما له ثاني

أو ما قاله شاعر بعثي آخر لصدام حسين:

تبارك وجهك القدسي فينا كوجه الله يضح بالجمال

ويقول القائد المؤسس: "إن تأثر الشباب بالأدب والحماسة الشعرية والأساليب الخطابية المباشرة أقوى من تأثره بالدراسة الجادة"، فانطلق المثقفون الثوريون من الصفر في تاريخ أممهم، وما زال تاريخ العرب مجهولاً حتى اليوم عند هؤلاء المثقفين البعثيين.

الحزب والثقافة العربية

لَقَدْ نَقَلَ عَفْلُقُ تَقْلِيدُ الْأَعْجَابِ بِالثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى الْبُعْثِيِّينَ، وَأَصْبَحَ الْأَقْبَالُ عَلَى قِرَاءَةِ "أَنْدَرِيه جِيدٌ"
و"بَرْجُسون" أَسَاسًا عَقَائِدِيًّا، وَيُلَاحِظُ أَنَّ الْكَاتِبَ "مُطَاعَ صُفْدِي" رَغِمَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ قِيَادَاتِ الْحِزْبِ لَمْ
يَسْتَطِعْ فَهْمَ هَذِهِ النَّزْعَةِ وَتَفْسِيرَ دَوَائِعِهَا، فَهُوَ يَقُولُ: "إِنَّ عَفْلُقَ يَنَادِي بِالْبَسَاطَةِ وَبِذَلِكَ يَمْنَعُ التَّعَمُّقَ،
وَيَنَادِي بِالْإِيمَانِ فَيَمْنَعُ التَّحْلِيلَ وَالْمَقَارَنَةَ، وَلِذَلِكَ صَارَ الثَّوْرِيُّونَ يَأْتُونَ مِنْ طَرِحِ الْأَسْئَلَةِ حَتَّى عَلَى
أَنْفُسِهِمْ، لِأَنَّ ذَلِكَ - فِي نَظَرِ عَفْلُقٍ - يُوحِي بِالتَّشْكِيكِ وَلَكِنْ لَوْ عَدْنَا لِفَلْسَفَةِ عَفْلُقِ فِي "التَّارِيخِ
وَتَفْسِيرِهِ لِلتَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ" وَتَنَاوَلْنَا مَقُولَهُ: فِي أَنَّ التَّارِيخَ يَتَأَلَّفُ مِنْ حَلَقَاتٍ تَتَرَاوَحُ بَيْنَ الصُّعُودِ وَالْهَبُوطِ
لَاذْرُكُنَا عَلَى الْفُورِ إِنْ تَمَجَّيْدُهُ الْحَمَاسَةَ وَالشَّعْرَ وَالْخُطَابَةَ فِي الْأَدَبِ لِأَنَّهَا كَانَتْ فِعْلًا بَعْضَ مُمَيَّزَاتِ
"الْجَاهِلِيَّةِ" عَهْدَ مَا قَبَلَ الْإِسْلَامَ، وَإِنْ إِشَاعَتِ الثَّقَافَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ، وَدِرَاسَتِهِ فُلْسَفَةَ بَرْجُسون، لِأَنَّ عَفْلُقَ
أَخَذَ مِنْهُ صِيَاغَةَ مَذْهَبِهِ فِي عَدَمِ الْاعْتِرَافِ بِالتَّحْلِيلِ. وَبِذَلِكَ يُحَقِّقُ عَفْلُقُ عِدَّةَ أَهْدَافٍ أَوْلَاهَا: إِحْدَاثُ
قَطِيعَةٍ بَيْنَ الشَّبَابِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِ وَالتَّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ، وَتَعْوِيضَهُمْ عَنْهُ بِالتَّرَاثِ الْجَاهِلِيِّ، ثُمَّ الْعُبُورِ بِهِمْ مِنْ
الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى مَا آتَتْهُ مِنْ فُلْسَفَةِ بَرْجُسون وَهَيْغَلٍ وَهَرْدَرٍ وَمَارْكَسٍ. فَالْإِسْلَامُ مُلُومٌ - فِي نَظَرِ عَفْلُقٍ -
لِأَنَّهُ فَتَحَ الْبَابَ لِخُلُطِ الْعَرَبِ بِسَوَاهِمِ "الْمِ يَكْتُبُ طَلْفَاحَ" حَالِ صِدَامِ حُسَيْنٍ وَالْقَيْمِ عَلَى تَرْبِيَّتِهِ "كِتَابًا يُلُومُ
فِيهِ الْخَالِقَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَنَّهُ خُلِقَ الْفَرَسَ وَالْأَكْرَادَ وَالدُّبَابَ". وَآنَهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَمَّا قَالَ خَالَ
صِدَامِ عُلُوقًا كَبِيرًا كَانَ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ.

وَيَرَى عَفْلُقُ إِنْ مَرَّحَلَةَ الْعَهْدِ الْجَاهِلِيِّ قَدْ شَهِدَتْ اتِّحَادَ الْعَرَبِ وَوَحَّدَتُهُمْ الْحَقِيقِيَّةَ فِي مَجْمُوعَاتِ عَرَقِيَّةِ
مُتَجَانِسَةٍ عَبَّرَتْ عَنْ نَفْسِهَا عَلَى الصَّعِيدِ الثَّقَافِيِّ فِي الشَّعْرِ وَاللُّغَةِ وَالْخُطَابَةِ، وَتَحَقَّقَ الْمِثَالُ الْعَرَبِيِّ
الْأَصِيلَ لِمَقَرَّةِ قَصِيرَةٍ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ (وَهِيَ فَرَّةُ بَنِي أُمَيَّةَ فِي نَظَرِهِ) وَلَكِنْ لَمَّا انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ بَيْنَ

الشُّعُوبِ غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ اِثْتَقَتْ الْفُرُوقَ بَيْنَ الْأَجْنَاسِ، وَفَقَدَ الْعَرَبُ إِحْسَاسَهُمْ بِالْوَحْدَةِ الْقَوْمِيَّةِ، وَتَبَعَ ذَلِكَ مَرَحَلَةَ الضَّعْفِ، وَشَرَعَ الْعَرَبُ فِي إِضَاعَةِ وَحِدَتِهِمُ الْقَوْمِيَّةِ. يُعَلِّقُ لِيُونَارْدُ عَلَى هَذِهِ الرُّؤْيَا الْجَدِيدَةِ فِي التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ قَائِلًا:

إِنَّ الْقَوْمِيَّةَ - كَمَا يُفْهَمُهَا عَفْلَقٌ - هِيَ الْأَسَاسُ وَإِنَّ عَفْلَقَ يَرَى أَنَّ الدِّينَ هُوَ الَّذِي كَانَ يُقَرَّرُ طَبِيعَةَ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي وَقْتٍ مِنْ الْأَوْقَاتِ، وَلَكِنْ هَذَا الْإِتِّجَاهُ "الْمَرْجِعِيَّةُ الدِّينِيَّةُ" أَدَّى إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَتَاعِبِ، فَحُنَّ الْوَاجِبُ تَطَوُّرُ الدِّينِ مَعَ الْعُرُوبَةِ، فَكِلَاهُمَا - عَلَى حَدِّ تَعْيِيرِ عَفْلَقٍ - يُنْبَعَانِ مِنَ الْقَلْبِ الْعَرَبِيِّ وَيَسِيرَانِ طَبَقًا لِمَشِيئَةِ اللَّهِ، لَا سِيَّمَا وَأَنَّ الدِّينَ عَبَقَرِيَّةُ الْفِكْرَةِ الْقَوْمِيَّةِ الْبُعْثِيَّةِ، وَفِي هَذَا إِنْكَارٌ لِلْوَحْيِ وَالْغَيْبِ وَتَنْكِيْسٌ لِلرُّؤْيَا الْمَازِكِسِيَّةِ فِي وَضْعِيَّةِ الدِّينِ وَبَشَرِيَّتِهِ، وَتَفْسِيرُ "الْوَحْيِ" بِأَنَّهُ أَنْعَاسٌ لِلْمُؤَثِّرَاتِ الْمَادِيَّةِ عَلَى دِمَاحِ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَدَّعِي بَعْدَ ذَلِكَ النُّبُوَّةَ أَوْ الرِّسَالَةَ بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ. فَالَّذِينَ - كَمَا يُفَسِّرُهُ - لَيْسَ إِلَهِي الْمُصَدِّرُ وَلَا وَحْيِي وَلَا نُبُوَّةٌ وَلَا غَيْبٌ فِي عَقِيدَتِهِ الْبُعْثِيَّةِ، يُمَكِّنُ أَنْ يُنْسَبَ مَعَ طَبِيعَتِهَا.

وَيَقُولُ عَفْلَقٌ فِي كِتَابِهِ "فِي سَبِيلِ الْبُعْثِ": "يَجِبُ أَنْ لَا تُغْلِقَ الْقَوْمِيَّةُ أَوْ الدِّينَ ضَمْنَ أَطَارَاتٍ مِنَ التَّحْدِيدِ الضَّيِّقِ، كَمَا حَاوَلَ عُلَمَاءُ الْكَلَامِ أَنْ يَفْعَلُوا فِي الْعُصُورِ السَّابِقَةِ، لَا سِيَّمَا وَأَنَّ الْقَوْمِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ تَرْفُضُ بَعْثَ الْأُمُورِ الَّتِي لَمْ يَعْدهَا جَدْوَى مِنْ أُمُورِ الْمَاضِي". فَهُوَ كَمَا تُصَرِّفُ فِي مَفْهُومِ "الْقَوْمِيَّةِ" تُصَرِّفُ فِي مَفْهُومِ "الدِّينِ" وَلَعَلَّ الْقَائِدَ الْمَوْسَسَ بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ اخْتَارَ أَنْ يُكْنَى "أَبَا مُحَمَّدٍ" فَهُوَ مُسْلِمٌ بِمُقْتَضَى التَّفْسِيرِ الْبُعْثِيِّ لِلْإِسْلَامِ.

الْبُعْثُ وَالشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

أَنَّ حِزْبَ الْبُعْثِ يُعَارِضُ آرَاءَ التَّقْلِيدِيِّينَ وَالْأَصُولِيِّينَ مَعًا ! وَلَا يُؤَلِّيْ أَهَمِّيَّةً لِلشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي نِظَامِهِ،
 وَيُرَى أَنَّ تَفْسِيرَ الْإِسْلَامِ "أَيُّ مِنْ قِبَلِ الْعَفْلَقِ" هُوَ التَّفْسِيرُ الصَّحِيحُ، وَإِنْ نَظَرْتَهُ إِلَيْهِ تَرَفُّضٌ شَيْئًا اسْمُهُ
 "العَقِيدَةُ أَوْ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ" كَمَا يُتَّجَاهَلُ التَّنْظِمُ الْإِسْلَامِيَّةَ الْأَسَاسِيَّةَ كَافَّةً، وَكُلُّ مَا بُنِيَ عَلَيْهَا، وَالْآرَاءُ
 الْمُعَلَّقَةَ بِهَا، وَيُرَى أَنَّ الْإِسْلَامَ لَيْسَ الْعَامِلُ الْوَحِيدُ فِي تَكْوِينِ أَخْلَاقِ الْعَرَبِ الْفَرْدِيَّةِ، بَلْ هُوَ عَامِلٌ مِنْ
 الْعَوَامِلِ ذَاتِ الْأَثَرِ السَّلْبِيِّ - كَمَا تَقَدَّمَ - وَعُمُومًا فَإِنَّ عَفْلَقَ لَا يَأْخُذُ مِنَ الْإِسْلَامِ آيَةَ فَرَائِضَ أَوْ نِظْمًا أَوْ
 سُنَنًا اجْتِمَاعِيَّةً، وَيَرْجِعُ سَائِرَ الْمَرَايَا التَّارِيخِيَّةِ فِي الْمَحِيطِ الْعَرَبِيِّ إِلَى الْقَوْمِيَّةِ حَسَبَ تَفْسِيرِهِ لَهَا وَفِي
 الْمَحِيطِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى تَأْثِيرِ الْعَرَبِ، بِحَيْثُ لَا تَنْتَفِي صِفَةُ الْعُرُوبَةِ عَنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا يَسْتَطِيعُ
 الْمُسْلِمُونَ الْآخَرُونَ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ أَنْ يَدْعُوا لِنَفْسِهِمْ آيَةَ مَيِّزَةٍ تَجْعَلُهُمْ فِي مُسَوِّى الْعَرَبِ، فَإِنَّ هُمْ فَعَلُوا،
 كَانُوا خَوَنَةً لِقِيمَتِهِمُ الْإِسْلَامِيَّةَ .

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَقَدْ كَتَبَ الْقَائِدُ الْمَوْسَسُ كُتَيْبًا فِي ذِكْرِي
 الْمَوْلِدِ مَرَّةً عَثُونَهُ "ذِكْرِي الرَّسُولِ الْعَرَبِيِّ" وَفِيهِ نَزَعَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صِفَتِي التُّبُوَّةَ وَالرَّسَالََةَ، وَاعْتَبَرَهُ زَعِيمًا
 قَوْمِيًّا، وَكَانَ عَهْدُهُ تَجْسِيدًا لِأَمَالِ الْعَرَبِ، وَعَلَى كُلِّ عَرَبِيٍّ أَنْ يُجَسِّدَ مُحَمَّدًا، وَقَدْ لَخَّصَ عَفْلَقُ رُؤْيِيَهُ
 فِي التُّبُوَّةِ وَالرَّسَالََةِ بِذَلِكَ الشَّعَارِ الَّذِي لَا يَزَالُ الْبُعْثِيُّونَ يَرْفَعُونَهُ بِاعْتِرَازٍ "كَانَ مُحَمَّدٌ كُلُّ الْعَرَبِ، فَلْيَكُنْ
 الْيَوْمَ كُلُّ الْعَرَبِ مُحَمَّدًا .

يَبِينُ لَنَا مِنْ هَذَا الْعُرْضِ الْوَجِيزِ أَنَّ مَفْهُومَ الْأَيْدِيُولُوجِيَّةِ لِلْبُعْثِ الْعَرَبِيِّ الْأَشْرَاقِيِّ إِنَّمَا هُوَ مَسْأَلَةٌ قَوْمِيَّةٌ
 وَإِنَّ هَذِهِ الْقَوْمِيَّةَ - بِمَفْهُومِهَا الْبُعْثِيِّ - هِيَ الْعِرْقُ الْعَرَبِيُّ وَنَقَاؤُهُ ثُمَّ تَخْدُمُ بَقِيَّةَ عَنَاصِرِ الْمَذْهَبِ الْبُعْثِيِّ

هَذَا الْغَرَضِ، وَلَكِنَّ تَقَاءَ الْعَرَقِ مَسْأَلَةٌ نَسَبِيَّةٌ وَظَاهِرِيَّةٌ، وَذَلِكَ يَعْنِي عَدَمَ إِمْكَانِيَّةِ التَّحَقُّقِ الْعِلْمِيِّ مِنْ صِدْقِ تَقَاءِ عَرَقٍ مَا خَاصَّةً فِي بَلَدٍ مِثْلِ سُورِيَا وَالْعِرَاقِ.

أَنَّ الْحِزْبَ بِالرَّغْمِ مِنْ صَجِيحِهِ الْعَالِي حَوْلَ التَّنْظِيرِ وَالْفِكْرِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَالتَّنْظَرِ الْإِسْتِرَاتِيجِيِّ لَمْ يَتَّعِظْ بِمَا أَغْطَبَ عِنَادَ الرَّئِيسِ الْقَائِدِ وَتَهَوَّرَهُ إِلَّا رَعَنَ فِي إِحْتِمَالِ الْكُوَيْتِ، وَنَسِيَ سَائِرَ الدَّرُوسِ الَّتِي كَانَ الْمَفْرُوضُ أَنْ يَأْخُذَهَا مِنْهَا، بَلْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْحِزْبُ تَحْدِيدَ الْحَدِّ الْأَدْنَى الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ التَّنَزُّلَ عَنْهُ فِي مَجَالَاتِ التَّنَازُلَاتِ، فَعَرَضَ التَّنَازُلَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا عَنْ كُرْسِيِّهِ لِكُنُوبِ الْأَمْرِيكَانِ، وَلَمْ يَدْرِكْ أَنَّ ذَلِكَ لَا جَدْوَى مِنْهُ. لَقَدْ قَادَ حِزْبُ الْبَعْثِ سُورِيَا وَالْعِرَاقِ وَالْعَرَبَ إِلَى الْبُورِ وَالْهَلَاكِ وَالذَّمَارِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

فَهَلْ يَسْتَطِيعُ مِنْ أَوْتِي مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ عَقْلِ أَوْ حُكْمِهِ أَوْ دِينِ أَوْ رِشَادِ أَنْ يُؤَيِّدَ حِزْبًا كَهَذَا أَوْ يَرْبِطَ مَصِيرَ آيَةٍ مَجْمُوعَةٍ بَشَرِيَّةٍ بِهِ. وَهَلْ فَقَدُ "أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ" صَوَابِهِمْ لِيُؤَيِّدُوا نِظَامًا كَالَّذِي إِقَامَهُ حِزْبُ الْبَعْثِ فِي الْعِرَاقِ أَوْ قِيَادَةً مِثْلَ قِيَادَتِهِ؟ إِنِّي أَرَى مُجَرَّدَ الظَّنِّ بِأَنَّ "أَهْلَ السُّنَّةِ" يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ يُمَثِّلُ جَهْلًا بِطَبِيعَتِهِمْ وَظُلْمًا كَبِيرًا لَهُمْ.

أَنَّ صَدَامًا وَزَمَرَتَهُ وَالْمُلْتَقِينَ حَوْلَهُ مِنَ الْبُعْثِيِّينَ قَدْ ظَلَمُوا الْعِرَاقِيِّينَ بِشِمُولِيَّةٍ عَجِيبَةٍ، وَلَمْ يَدُلُّوا بِبَيْنَتِهِمْ إِلَّا فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ هُوَ تَوَزُّعِ الظُّلْمِ وَالْإِضْطِهَادِ عَلَى كُلِّ الْعِرَاقِيِّينَ بِكُلِّ طَوَائِفِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَقَوْمِيَّاتِهِمْ وَسَائِرِ انْتِمَاءَاتِهِمْ. وَقَدْ ثَبَتَ مِنْ عَرَضَاتِنَا لِنُشَاتِهِمْ وَمُعْتَقَدَاتِهِمْ، أَنَّهُمْ لَا دِينَ لَهُمْ وَلَا مَذْهَبَ إِلَّا دِينَ حِزْبِ الْبَعْثِ وَمَذْهَبِيَّتِهِ، لِذَلِكَ لَمْ يُبَالِغْ شَاعِرُهُمْ حِينَ قَالَ:

أَمِنْتُ بِالْبَعْثِ رَبًّا لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِالْعُرُوبِ دِينًا مَا لَهُ ثَانِي

بَعْدَ هَذَا الْعُرْضِ الْمَوْجَزِ لِتَارِيخِ حِزْبِ الْبَعْثِ وَمَذْهَبِيَّتِهِ، هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَدَّعِي مَنْ لَهُ مَسْحُهُ عَقْلَ أَنَّ هَذَا الْحِزْبَ سُنِّيٌّ، وَأَنَّ نِظَامَ الْحُكْمِ الَّذِي أَقَامَهُ مُلَطَّخًا بِكُلِّ الطُّرُقِ الْمَشْبُوهَةِ، هُوَ نِظَامٌ سِنِّيٌّ؟

ثَانِيًا

النَّاصِرِيَّة

النَّيَّارِ النَّاصِرِيِّ يُسَمَّى أَيْضًا النَّاصِرِيَّةَ أَوْ الْحَرَكَةَ النَّاصِرِيَّةَ وَهِيَ كُلُّهَا مُصْطَلَحَاتٌ تُعْبَرُ عَنْ أُيْدِيُولُوجِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ اشْتِرَاكِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ قَوْمِيَّةٍ تَسْتَنْدُ إِلَى فِكْرِ جَمَالِ عَبْدِ النَّاصِرِ، أَحَدِ الْقَادَةِ الرَّئِيسِيِّينَ لِحَرَكَةِ يُوَلِيُو 1952 وَالرَّئِيسِ الثَّانِي لِمِصْرَ . يَمْتَدُّ هَذَا النَّيَّارِ السِّيَاسِيِّ عَبْرَ الْمَجَالَيْنِ الْمُحَلِّيِّ وَالذَّوَلِيِّ، وَيَجْمَعُ بَيْنَ عَنَاصِرِ الْإِشْتِرَاكِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْجُمْهُورِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ وَمُعَادَاةِ الْإِمْبِرِيَالِيَّةِ وَتَضَامَنِ الْعَالَمِ التَّامِي وَعَدَمِ الْإِنْحِيَاذِ الذَّوَلِيِّ .

صِنْفِ النَّيَّارِ النَّاصِرِيِّ دَائِمًا عَلَى أَنَّهُ حَرَكَةٌ قَوْمِيَّةٌ عَرَبِيَّةٌ، نَشَأَتْ فِي ظِلِّ حُكْمِ جَمَالِ عَبْدِ النَّاصِرِ (رَّئِيسِ مِصْرٍ مِنْ عَامِ 1956 - 1970) وَاسْتَمَرَّتْ بَعْدَ وَفَاتِهِ وَأَشْتَقَتْ اسْمَهَا مِنْ اسْمِهِ وَتَبَنَّتْ

الأفكار التي كان يتادي بها وهي: الحرية والاشتراكية والوحدة وهي نفس أفكار الأحزاب القومية اليسارية العربية الأخرى وتعتمد على الفكر القومي الذي ظهر بعد سقوط الدولة العثمانية.

التأسيس وأبرز الشخصيات

أول من أطلق لفظ (الناصرية) محمد حسنين هيكل الصحفي الذي رافق عبد الناصر أبان حكمه، وأصبح له شهرة في العالم العربي، وذلك بمقال له في جريدة الأهرام في 14/1/1972. جاء بعده كمال رُفعت وأصدر في عام 1976م كتيباً بعنوان ناصر يون ذكر فيه مبادئ الناصرية وأهدافها.

وقد وافق القضاء المصري على إعلان الناصرية كحزب باسم (الحزب الديمقراطي الناصري) وذلك في يوم الاثنين 18/شوال/1412هـ (20/4/1992م) برئاسة ضياء الدين داود المحامي، وعضو مجلس الشعب المصري.

تاريخ

في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، كانت الناصرية من أقوى الأيديولوجيات السياسية في العالم العربي. كان هذا صحيحاً بشكل خاص في أعقاب أزمة السويس عام 1956 (المعروفة في مصر بالعدوان الثلاثي)، والتي اعتبرت النتيجة السياسية لها بمثابة إثبات للناصرية وهزيمة هائلة للقوي الإمبريالية الغربية. خلال الحرب الباردة، ظهر تأثيرها أيضاً في أجزاء أخرى من أفريقيا والعالم التامبي، لا سيما فيما يتعلق بمناهضة الإمبريالية وعدم الانحياز.

أَصْرَحَ حَجْمُ الْهَزِيمَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي حَرْبِ الْأَيَّامِ السَّتَّةِ عَامَ 1967 بِمَكَانِهِ عَبْدُ النَّاصِرِ وَالْإِيدِيُولُوجِيَّةِ الْمُرْتَبِطَةَ بِهِ. عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا نَجَتْ مِنْ وِفَاةِ عَبْدِ النَّاصِرِ فِي عَامِ 1970، فَقَدْ تَمَّ تَعْدِيلُ بَعْضِ الْمَبَادِيِ الْهَامَةِ لِلنَّاصِرِيَّةِ أَوْ التَّخْلِي عَنْهَا تَمَامًا مِنْ قِبَلِ خَلِيفَتِهِ أَوْر السَّادَاتِ خِلَالَ مَا أَسْمَاهُ بِالنُّشُورِ التَّصْحِيحِيَّةِ ثُمَّ سِيَاسَاتِ الْإِنْفِتَاحِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ. فِي ظِلِّ حُكْمِ ثَلَاثَةِ عُقُودٍ لِخَلِيفَةِ السَّادَاتِ حُسْنَى مُبَارَكٍ، تَمَّ اسْتِبْدَالُ مُعْظَمِ الْبِنِيَّةِ التَّحِيَّةِ الْاِشْرَاكِيَّةِ الْمُتَبَقِيَّةِ فِي مِصْرٍ بِسِيَاسَاتِ نِيُولِيْبْرَالِيَّةٍ تَتَعَارَضُ بِشِدَّةٍ مَعَ الْمَبَادِيِ النَّاصِرِيَّةِ. عَلَى السَّاحَةِ الدَّوْلِيَّةِ، اِبْتَعَدَ مُبَارَكٌ كَثِيْرًا عَنْ السِّيَاسَةِ الْمِصْرِيَّةِ التَّقْلِيْدِيَّةِ، وَأَصْبَحَ حَلِيْفًا ثَابِتًا لِكُلِّ مَنْ حُكِّمَتِ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ وَإِسْرَائِيلَ، وَلَا يَزَالُ يُنْظَرُ إِلَى الْآخِرَةِ مِنْ قِبَلِ مُعْظَمِ الْمِصْرِيِّينَ بِالْعَدَاءِ وَعَدَمِ الثَّقَةِ، الْمُسْتَمَدَّةِ إِلَى حَدِّ كَبِيْرٍ مِنَ الْحُرُوبِ الْخَمْسِ الَّتِي خَاصَّتْهَا مِصْرٌ ضِدَّ إِسْرَائِيلَ.

بَيْنَ 1948 و 1973.

خِلَالَ حَيَاةِ عَبْدِ النَّاصِرِ، تَمَّ تَشْجِيْعُ الْجَمَاعَاتِ النَّاصِرِيَّةِ وَدَعْمَهَا مَالِيًّا فِي كَثِيْرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ مِنْ قِبَلِ مِصْرٍ لِدَرَجَةٍ أَنَّ الْكَثِيْرِيْنَ أَصْبَحُوا يُنْظَرُ إِلَيْهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ عَمَلَاءُ رَاغِبُونَ لِلْحُكُومَةِ الْمِصْرِيَّةِ فِي جُهُودِهَا لِنُشْرِ الْقَوْمِيَّةِ الثَّوْرِيَّةِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ. فِي السَّبْعِيْنِيَّاتِ، عِنْدَمَا ظَهَرَ جَيْلُ الشَّبَابِ مِنَ الثَّوَارِ الْعَرَبِ فِي الْمَقْدَمَةِ، تَحَوَّلَتِ النَّاصِرِيَّةُ خَارِجَ مِصْرٍ إِلَى حَرَكَاتٍ قَوْمِيَّةِ عَرَبِيَّةِ أُخْرَى وَقَوْمِيَّةِ عَرَبِيَّةِ، بِمَا فِي ذَلِكَ الْمَجْمُوعَاتِ الْمَكُونَةِ لِلْحَرَكَةِ الْوَطَنِيَّةِ اللَّبْنَانِيَّةِ خِلَالَ الْحَرْبِ الْاَهْلِيَّةِ اللَّبْنَانِيَّةِ. الْحَرَكَاتُ النَّاصِرِيَّةِ الرَّيْسِيَّةِ الَّتِي ظَلَّتْ نَشِطَةً حَتَّى الْيَوْمِ عَلَى السَّاحَةِ اللَّبْنَانِيَّةِ تَتَمَثَّلُ بِشَكْلِ رَيْسِيِّي فِي تَنْظِيْمِ أَنْصَارِ الشَّعْبِيِّينَ النَّاصِرِيِّينَ فِي صَيْدَا (التَّنْظِيْمِ الشَّعْبِيِّ النَّاصِرِيِّ) بِقِيَادَةِ أَسَامَةِ سَعْدٍ وَفِي بَيْرُوتَ. مُمَثَّلَةً بِشَكْلِ رَيْسِيِّي

فِي حَرَكَةِ الْمُرَابُطُونَ . كَانَتْ الْمَجْمُوعَتَانِ تُشَبِّهَتَانِ بِشَكْلِ أُسَاسِيٍّ مُنْذُ أَوَائِلِ الْخَمْسِينِيَّاتِ مِنَ الْقُرْنِ
الْمَاضِي بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ السُّنَّةَ ، وَهُمَا مُرْتَبَطَانِ حَالِيًا سِيَاسِيًّا بِتَحَالَفَاتِ 8 أَذَارَ فِي السِّيَاسَةِ اللَّبْنَانِيَّةِ .

لَا يَزَالُ لِلنَّاصِرِيَّةِ صَدَى كَبِيرٌ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ، وَتُفِيدُ الْكَثِيرَ مِنَ الْحِوَارِ الْعَامِّ حَوْلَ السِّيَاسَةِ
فِي مِصْرٍ وَالْمَنْطَقَةِ الْأَوْسَعِ . تَنَافَسَ النَّاصِرِيُّ الْبَارِزُ حَمْدِينَ صَبَاحِي فِي الْجَوْلَةِ الْأُولَى مِنَ الْإِتِّخَابَاتِ
الرِّئَاسِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ لِعَامِ 2012 وَلَمْ يَتَجَنَّبِ إِلَّا بِصُعُوبَةٍ الْحُصُولِ عَلَى مَرْكَزٍ فِي جَوْلَةِ الْإِعَادَةِ ضِدَّ الْفَائِزِ
الْتَهَائِيِّ مُحَمَّدٍ مُرْسِي . تَنَافَسَ فِي وَقْتٍ لَاحِقٍ فِي الْإِتِّخَابَاتِ الرِّئَاسِيَّةِ لِعَامِ 2014 كَوَاحِدٍ مِنْ اثْنَيْنِ
فَقَطَّ مِنَ الْمُرَشَّحِينَ فِي جَوْلَةِ الْإِعَادَةِ ، لَكِنَّهُ خَسِرَ إِمَامَ الْمُرَشَّحِ الْآخَرَ ، عَبْدَ الْفَتَّاحِ السِّيَاسِيِّ ، فِي فَوْزِ
سَاحِقٍ كَبِيرٍ لِهَذَا الْآخِرِ .

التَّسِيرَاتِ .

يُمْكِنُ تَفْسِيرُ "النَّاصِرِيَّةِ" ، الْمُصْطَلَحِ الْوَاسِعِ الْمُسْتَحْدَمِ فِي الْأَدَبِ لِوُصْفِ جَوَانِبِ حُكْمِ عَبْدِ النَّاصِرِ
وَارِثِهِ ، بَعْدَهُ طُرُقٌ . مِنَ الْمُسْلِمِ بِهِ إِنْ هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الطَّرِيقِ الَّتِي يَتَمُّ مِنْ خِلَالِهَا قِرَاءَةُ الْمُصْطَلَحِ
وَاسْتِحْدَامُهُ ، يَقُولُ بِي جِيَّةَ . فَاتِكِيوتس فِي كِتَابِهِ نَاصِرٍ وَجِيلِهِ 1978 إِنْ النَّاصِرِيَّةَ كَانَ لَهَا دَلَالَةٌ
سِيَاسِيَّةٌ مَحْدُودَةٌ لِظَاهِرِهِ "الْقِيَادَةُ الشَّخْصِيَّةُ الْكَارِيزْمِيَّةُ ، وَلَيْسَ لِحَرَكَةِ أَوْ أَيْدِيُولُوجِيَّةِ" . يَشْرَحُ
فَاتِكِيوتس اسْتِحْدَامَ عَبْدِ النَّاصِرِ لِلخِطَابِ كَأَدَاةٍ سِيَاسِيَّةٍ لِلتَّأثيرِ عَلَى نَاحِيِهِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حُرْمَاتِهِمْ
مِنْ أَيِّ مُشَارَكَةٍ فِي سِيَاسَاتِ زَعِيمِهِمْ . تَحْقِيقًا لِهَذِهِ الْغَايَةِ ، كَثِيرًا مَا خَاطَبَ نَاصِرُ الْجَمَاهِيرِ فِي كُلِّ مَنْ
الْإِدَاعَةَ وَالتَّلْفِيزُونَ وَكَذَلِكَ فِي التَّجْمَعَاتِ الضَّخْمَةِ ، مَعَ "تَعْوِيذِهِ مَنُومَةً مُتَكَرِّرَةً مِنْ" الْإِمْبِرِيَالِيَّةِ "و" عَمَلَاءِ

الإمبريالية"، "الرجعيين"، "الانتقام"، "الكرامة والنفس. احترام" و"الصهيونية" و"العروبة". اندفعت الحشود إلى الهستيريا، واثار عبد الناصر أملاً وتطلعات لقياده قوية ووحدته عربيه.

علماء الاجتماع العربيين في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، نظروا إلى الناصرية على أنها حركة تحديث وعبد الله ككائد تحديث... كان ينظر إلى مصر كدولة نموذجية من العالم الثالث تمر بعملية إنهاء الاستعمار وتطمح في ظل قيادة ثورية جديدة للأزدهار الوطني من خلال التحديث. وهكذا، كان ينظر إلى الناصرية على أنها محاولة لتغيير المجتمع المصري التقليدي من خلال تحديث اقتصاده ومجتمعه.

هناك فكرة أخرى عن الناصرية تم تقديمها في الاتجاهات السياسية في الهلال الخصيب (1958) من قبل وليد الخالدي، الذي يناقشها على أنها ليست حركة أيديولوجية، بل هي "موقف عقلي" انتقائي وتجريبي ورايديكالي، لكنها محافظة". وبحسب وليدي، استطاعت الناصرية أن تجذب التأييد في العالم العربي لأنها "نقلت، ولو جزئياً، إلى العالم العربي نفسه مركز القرارات المتعلقة بمستقبل ذلك العالم". يؤكد الخالدي إن هذا التغيير الهام الثقة بالنفس في المجتمع العربي، وهو ما بقي ترحيباً خاصاً بعد الصدمة الأخيرة بشأن فقدان فلسطين.

أيديولوجيا

وفقاً لنظريته الدوائر الثلاث لجمال عبد الناصر، كانت مهمة الثورة المصرية ثلاثة مجالات، وهي العالم العربي وأفريقيا والعالم الإسلامي.

النَّاصِرِيَّةُ هِيَ أَيَّدِيُولُوجِيَّةٌ قَوْمِيَّةٌ عَرَبِيَّةٌ وَقَوْمِيَّةٌ عَرَبِيَّةٌ، مُقْتَرَنَةٌ بِاشْتِرَاكِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ بِشَكْلِ غَامِضٍ، وَغَالِبًا مَا يَتَمَّ تَمْيِيزُهَا عَنِ الْكَلِمَةِ الشَّرْقِيَّةِ أَوْ الْفِكْرِ الْاشْتِرَاكِيِّ الْعُرْبِيِّ مِنْ خِلَالِ تَسْمِيَةِ «الْاشْتِرَاكِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ». عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مُعَارَضَةِ الْاشْتِرَاكِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ أَيَّدِيُولُوجِيَا لِلرَّأْسَمَالِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَقَدْ تَطَوَّرَتْ أَيْضًا كَرَفْضٍ لِلشُّيُوعِيَّةِ، وَالَّذِي كَانَ يُنْظَرُ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ يَتَعَارَضُ مَعَ التَّقَالِيدِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَسْوَاسِ الدِّيْنِيَّةِ لِلْمُجْتَمَعِ الْعُرْبِيِّ. نَتِيْجَةً لِذَلِكَ، سَعَى النَّاصِرِيُّونَ مِنَ الْخَمْسِيْنِيَّاتِ إِلَى الثَّمَانِيْنِيَّاتِ إِلَى مَنَعِ صُعودِ الشُّيُوعِيَّةِ فِي الْعَالَمِ الْعُرْبِيِّ وَدَعَا إِلَى فَرَضِ عُقُوبَاتٍ قَاسِيَةٍ عَلَى الْاَفْرَادِ وَالْمُنْظَمَاتِ الَّذِيْنَ تَمَّ تَحْدِيدُهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ نَشْرَ الشُّيُوعِيَّةِ فِي الْمُنْطَقَةِ.

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِذْرَاكِهَا لِلتَّرَاثِ الْاِسْلَامِيِّ وَالْمَسِيْحِيِّ لِلْعَالَمِ الْعُرْبِيِّ، كَمَا هُوَ الْحَالُ مَعَ الْبُعْثِيَّةِ، إِلَّا أَنَّ النَّاصِرِيَّةَ هِيَ إِلَى حَدِّ كَبِيْرٍ أَيَّدِيُولُوجِيَّةٌ عِلْمَائِيَّةٌ. كَمَا هُوَ الْحَالُ مَعَ مَظَاهِرِ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْاُخْرَى، أَذَى ذَلِكَ إِلَى صِرَاعٍ مُبَاشِرٍ مَعَ الْحَرَكَاتِ السِّيَاسِيَّةِ ذَاتِ التَّوْجُّهِ الْاِسْلَامِيِّ فِي الْعَالَمِ الْعُرْبِيِّ مِنْذِ الْخَمْسِيْنِيَّاتِ فَصَاعِدًا، وَلَا سِيْمَا جَمَاعَةِ الْاِخْوَانِ الْمُسْلِمِيْنَ. يُؤَيِّدُ النَّاصِرِيُّونَ إِهْمَاءَ التَّدْخُلِ الْعُرْبِيِّ فِي الشُّؤُنِ الْعَرَبِيَّةِ، وَتَضَامَنَ الْعَالَمِ النَّامِيِّ، وَعَدَمَ الْاِنْحِيَاذِ الدَّوْلِيِّ، وَالتَّحْدِيثِ وَالتَّصْنِيْعِ. نَاصِرٍ نَفْسِهِ عَارِضٌ بِشِدَّةٍ الْاِمْبِرِيَالِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَشَارَكَ الرَّأْيِ الْعُرْبِيِّ السَّائِدَ بِأَنَّ الصَّهْيُوتِيَّةَ كَانَتْ اِمْتِدَادًا لِلِاسْتِعْمَارِ الْاَوْرُوبِيِّ عَلَى الْاَرْضِ الْعَرَبِيَّةِ.

فِي السِّيَاسَةِ الْعَالَمِيَّةِ، كَانَتْ مِصْرُ بَرَعَامَةِ عَبْدِ النَّاصِرِ، إِلَى جَانِبِ يُوْغُوسْلَاوِيَا بِقِيَادَةِ جُوزِيْبِ بُرُوزِ تِيْتُو وَالْهِنْدِ بِقِيَادَةِ جَوَاهِرِ لَال تَهْرُو، مِنْ الْمُؤَيِّدِيْنَ الرَّئِيسِيْنَ لِحَرَكَةِ عَدَمِ الْاِنْحِيَاذِ، الَّتِي دَعَتْ إِلَى بَقَاءِ الْبُلْدَانِ النَّامِيَّةِ خَارِجَ نَفُوذِ تَكَلَّلَاتِ الْقُوَى الْعُظْمَى. وَمَعَ ذَلِكَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذِهِ السِّيَاسَةِ وَقَمْعِ الْحُكُومَةِ

للمُنظَّمات الشُّيُوعِيَّةِ دَاخِلِ مِصْرَ، فَإِنَّ العَلَاقَاتِ المْتَدَهُورَه مَعَ القُوِيِ العَرَبِيَّةِ، لَا سِيَّمَا فِي أعْقَابِ العُدُوَانِ الثَّلَاثِيِ عَامِ 1956، جُعِلَتْ مِصْرَ تَعْتَمِدُ بِشَكْلِ كَبِيرٍ عَلَى المُسَاعَدَةِ العَسْكَرِيَّةِ وَالمَدِينِيَّةِ مِنَ الاتِّحَادِ السُّوفِيَّيِّ. وَيُنْطَبِقُ الشَّيْءُ نَفْسَهُ عَلَى الحُكُومَاتِ العَرَبِيَّةِ الثَّوْرِيَّةِ الأُخْرَى، الَّتِي عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قَمَعِ الشُّيُوعِيَّةِ دَاخِلِ الحُدُودِ العَرَبِيَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ دَخَلَتْ فِي عِلَاقَاتٍ قَوِيَّةٍ طَوِيلَةٍ الأَمَدِ مَعَ الدَّوَلِ الشُّيُوعِيَّةِ خَارِجِ العَالَمِ العَرَبِيِّ. اسْتَمَرَ التَّحَالُفُ المِصْرِيِّ السُّوفِيَّيِّ فِي رِيَاةِ حَلِيفَةِ عَبْدِ النَّاصِرِ كَرِيْس، أَنُورِ السَّادَاتِ، خَاصَّةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالصَّرَاعِ العَرَبِيِّ الإِسْرَائِيلِيِّ .

الأفكار والمعتقدات

- الحُرِّيَّةُ وَالإِشْرَاكِيَّةُ وَالوَحْدَةُ لِلقَضَاءِ عَلَى مُشْكَلاتِ العَالَمِ العَرَبِيِّ الأَرْبَعَةِ: وَهِيَ الإِسْتِعْمَارُ وَالتَّحَلُّفُ وَالتَّطْبِيقُ وَالتَّجْزِئَةُ بَيْنَ أَقْطَارِ العَالَمِ العَرَبِيِّ .
- حُرِّيَّةُ الشَّعْبِ بِكاملِهِ .
- الإِعْتِقَادُ بِأَنَّ الإِشْرَاكِيَّةَ أَسَاسُ التَّقَدُّمِ الإِقْتِصَادِيِّ، وَهِيَ أَسَاسُ بِنَاءِ مُجْتَمَعِ الكِفَايَةِ وَالعَدْلِ، وَالمُجْتَمَعِ الَّذِي تُرْفَرُ عَلَيْهِ الرِّفَاهِيَّةُ .
- وَنَادَتْ النَّاصِرِيَّةُ بِتَوْزِيعِ الثَّرْوَةِ الوَطَنِيَّةِ لِتَحْقِيقِ التَّغْيِيرِ الإِجْتِمَاعِيِّ .
- وَنَادَتْ بِالإِشْرَاكِيَّةِ العِلْمِيَّةِ .
- وَنَادَتْ بِالوَحْدَةِ هِيَ أَسَاسُ القُوَّةِ العَرَبِيَّةِ، وَالعُرُوبَةُ أَوِ القَوْمِيَّةُ العَرَبِيَّةُ هِيَ أَسَاسُ قِيَامِ الوَحْدَةِ .

الْفُؤُودُ وَأَمَاكِنُ الإِتِّشَارِ

نشأت الناصرية في مِصر وانتشرت في باقي البلاد العربية، وقد طالب بعض الذين تعاونوا مع عبد الناصر أبان حكمه بتشكيل حزب ناصري في مِصر وقد سمح لهم بذلك.

الناصرية اليوم

لا تزال الناصرية قوة سياسية في جميع أنحاء العالم العربي، ولكن بطريقة مختلفة بشكل ملحوظ عما كانت عليه في أوجها. في حين أن الناصرية كانت موجودة في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي كحركة ثورية وديناميكية ذات أهداف سياسية واجتماعية محددة، فقد أصبحت بحلول الثمانينيات أيديولوجية أقل وضوحًا وتميزًا. اليوم، يتم اطلاع الكثير من العرب على الناصرية بالمعنى العام أكثر من الذين يبتنون في الواقع مثلها وأهدافها المحددة. فيما يتعلق بالتنظيمات السياسية داخل مِصر نفسها وأثناء رئاسة الرئيس المصري الأسبق حسني مبارك، اقتصر نطاق الناصرية بشكل عام على الكتاب والمثقفين وأحزاب المعارضة الصغيرة. طغت المنظمات السياسية الإسلامية، وخاصة جماعة الإخوان المسلمين، على الحركات الناصرية إلى حد كبير. كان هذا جزءًا من اتجاه عام داخل مِصر والعالم العربي من القومية العربية التي طغى عليها، بل وحتى طغى عليها الإسلام السياسي. في مِصر، يُقدّم الحزب الناصري نفسه على أنه خليفة لعبد الناصر واتحاده الاشتراكي العربي كما هو الحال مع فرعه، حزب الكرامة بزعامة حمدين صباحي. ومع ذلك، كما هو الحال مع جميع أحزاب المعارضة في مِصر، كانت أنشطتها مقيدة بشدة من قبل نظام مبارك قبل الثورة المصرية في عام 2011

بَيْنَمَا كَانَ عَبْدُ النَّاصِرِ يُحْكَمُ مَضْرُوبًا مِنْ خِلَالِ نِظَامِ الْحِزْبِ الْوَاحِدِ الْاسْتِبْدَادِيِّ تَمَامًا، مَعَ وُجُودِ قُبُودِ
شَدِيدَةٍ عَلَى أَيِّ شَكْلِ مِنْ إِشْكَالِ الْمَعَارِضَةِ السِّيَاسِيَّةِ، يُؤَكِّدُ النَّاصِرِيُّونَ الْحَالِيُّونَ عَلَى دَعْوَتِهِمْ
لِلدِّمُقْرَاطِيَّةِ، مُؤَضِّحِينَ تَجَاوُزَاتِ نَاصِرِ الْاسْتِبْدَادِيَّةِ بِاعْتِبَارِهَا ضَرُورِيَّةً لِتَنْفِيذِ سِيَاسَاتِهِ الثَّوْرِيَّةِ .

2

القومية السورية

وَيُمَثِّلُهَا الْحِزْبُ السُّورِيُّ الْقَوْمِيُّ الْاجْتِمَاعِيُّ هُوَ حِزْبٌ سِيَاسِيٌّ قَوْمِيٌّ يَعْمَلُ فِي لُبْنَانَ وَسُورِيَا كَحِزْبٍ
رَسْمِيِّ مُسَجَّلٍ . وَهُوَ يَدْعُو إِلَى إِقَامَةِ دَوْلَةٍ «الْأُمَّةِ السُّورِيَّةِ» وَالَّتِي تَشْمَلُ مَنطَقَةَ الْهَلَالِ الْخَصِيبِ، بِمَا فِي
ذَلِكَ الْكُوَيْتِ وَقَبْرصَ وَشَبَهَ جَزِيرَةِ سَيْنَاءَ وَجَنُوبَ شَرْقِ تَرْكِيَا، وَذَلِكَ اسْتِنَادًا لِمَا يَقُولُهُ الْحِزْبُ بِأَنَّ لَهَا
تَارِيخَ مُشْتَرَكٍ .

الحزب هو ثاني أكبر مجموعته سياسية قانونية في سوريا بعد حزب البعث العربي الاشتراكي، وفي لبنان، كان الحزب منظم للغاية خلال التاريخ السياسي للبلاد لأكثر من 80 عامًا. وحتى الأونة الأخيرة حينما أصبح مجموعته رئيسية في تحالف 8 آذار.

تأسس الحزب في بيروت في عام 1932 كحزب معاد للإمبريالية معادية لوجود الانتداب الفرنسي، لعب الحزب دورًا في السياسة اللبنانية، وشارك في محاولة الانقلابات في عامي 1949 و 1961 وبعد ذلك تم قمعها بشكل كامل. أصبح الحزب في المقاومة ضد الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982 وخلال احتلال جنوب لبنان حتى عام 2000 مع استمرار دعمه للوجود السوري في لبنان انطلاقًا من اعتقاده بالقومية السورية. وفي سوريا، أصبح الحزب قوة سياسية يمينية رئيسية في أوائل الخمسينيات، ولكن تم قمعها بشكل كامل في 1955-1956، وبحلول أواخر الستينيات انضم الحزب إلى اليسار وتحالف مع منظمة التحرير الفلسطينية والحزب الشيوعي اللبناني، على الرغم من التناقض الأيديولوجي الذي لا يزال قائمًا فيما بينهم. وفي عام 2005، تم إضفاء الشرعية عليه في سوريا.

تدور تساؤلات عديدة حول أيديولوجية الحزب ورؤيته.

حيث يقول منتقدوه بأنه حزب يبطن الفاشية والنازية في أيديولوجيته كالحديث عن أن السوريين «أمه تامة» و «سورية للسوريين» وهو ماثباتة أحزاب اليمين المتطرف كذلك بفكره وأسلوبه وحتى علمه الشبيه نوعًا ما بالعلم النازي والحامل لما يشبه الصليب المعقوف النازي وهو ما ترفضه إعلام الحزب جُملة ويرد على ذلك بأنه حزب يعني بالهوية السورية فقط وليس له صلة بالفاشية أو النازية ويُعبّر أن القضية السورية هي قضية قومية ضرورية لنهضة السوريين في المنطقة.

مبادئ الحزب

غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي بعث نهضة سورية قومية اجتماعية تكفل تحقيق مبادئه وتعيد إلى الأمة السورية حيويتها وقوتها، وتنظيم حركة تؤدي إلى استقلال الأمة السورية استقلالاً تاماً وتثبيت سيادتها وإقامة نظام جديد يؤمن مصالحها ويرفع مستوى حياتها والسعي لإنشاء جبهة عربية المبادئ الأساسية

المبدأ الأول: سورية للسوريين والسوريون أمة تامة.

المبدأ الثاني: القضية السورية هي قضية قومية قائمة بنفسها مستقلة كل الاستقلال عن أية قضية أخرى.

المبدأ الثالث: القضية السورية هي قضية الأمة السورية والوطن السوري.

المبدأ الرابع: الأمة السورية هي وحدة الشعب السوري المولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي.

المبدأ الخامس: الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الأمة السورية. وهي ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختيار في الشمال الشرقي إلى قناة السويس والبحر الأحمر في الجنوب شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة، ومن البحر السوري في الغرب شاملة جزيرة قبرص، إلى قوس الصحراء العربية وخليج العجم في الشرق. ويعبر عنها بلفظ عام: الهلال السوري الخصيب وجمته جزيرة قبرص.

المبدأ السادس: الأمة السورية مجتمع واحد.

المبدأ السابع: تُسَمِّدُ التَّهْضَةُ السُّورِيَّةُ القُومِيَّةَ الاجْتِمَاعِيَّةَ رُوحَهَا مِنْ مَوَاهِبِ الأُمَّةِ السُّورِيَّةِ.

المبدأ الثامن: مَصْلَحَةُ سُورِيَّةٍ فَوْقَ كُلِّ مَصْلَحَةٍ.

المبادئ الإصلاحيَّة

المبدأ الأول: فَضْلُ الدِّينِ عَنِ الدَّوْلَةِ.

المبدأ الثاني: مَنعُ رِجَالِ الدِّينِ مِنْ التَّدخُّلِ فِي شُؤُنِ السِّيَاسَةِ وَالقَضَاءِ القُومِيَّينِ.

المبدأ الثالث: إِزَالَةُ الحَوَاجِزِ بَيْنَ مُخْتَلَفِ الطُّوُفِ والمَذَاهِبِ.

المبدأ الرابع: إلْغَاءُ الإِقْطَاعِ وَنَظْمِ الإِقْتِصَادِ القُومِيِّ عَلى أَسَاسِ الإِتِّبَاحِ وَإِنصَافِ العَمَلِ وَصِيَانَةِ مَصْلَحَةِ الأُمَّةِ وَالدَّوْلَةِ.

المبدأ الخامس: أَعْدَادُ جَيْشٍ قَوِيٍّ يَكُونُ ذَا قِيَمَةٍ فَعَلِيَّةٍ فِي تَقْرِيرِ مَصِيرِ الأُمَّةِ وَالوَطَنِ. المَصْدَرُ: (انطون سَعَادَةُ، «الأثار الكاملة»، المَكْتَبَةُ السُّورِيَّةُ، مَوْقِعُ الحَرْبِ السُّورِيِّ القُومِيِّ الاجْتِمَاعِيِّ].

يَعْتَمِدُ الحِزْبُ عَلى مَبْدَأِ التَّنْظِيمِ المَرْكَزِيِّ، وَيُؤْمِنُ بِفَضْلِ الدِّينِ عَنِ الدَّوْلَةِ، وَبِأَهْمِيَّةِ تَحْقِيقِ العَدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ. سَعَادَةُ مُؤَسِّسُ الحِزْبِ أَعْدَمَتَهُ الحُكُومَةُ اللُّبْنَانِيَّةُ بَعْدَ مُحَاكَمَةِ عَاجِلَةٍ أَثَرِ تَسْلِيمِهِ مِنْ قِبَلِ حُسْنَى الزَّعِيمِ. خِلالَ الحَرْبِ الأَهْلِيَّةِ اللُّبْنَانِيَّةِ الأُولَى، لِلحِزْبِ فِرْقَةٌ عَسْكَرِيَّةٌ تَدَّعِي «نُسُورَ الزُّوْبُعِ»، وَفَنَدَتْ عَدَدًا مِنْ العَمَلِيَّاتِ ضِدَّ مَصَالِحِ إِسْرَائِيلِ أَشْهَرُهَا عَمَلِيَّةُ سَنَاءِ مِحْيَدَلِي. انْقَسَمَ الحِزْبُ فِي السَّابِقِ إِلَى مَجْمُوعَةٍ أَجْنَحَةٍ، غَيْرَ أَنَّهُ تَوَحَّدَ مُجَدَّدًا فِي قِيَادَةِ مُشْرَكَةٍ مَقَرَّهَا بَيْرُوتُ.

النَّشأة وَالتَّارِيخُ

أنطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي وُلد في I-3-1904 . قام بتأسيس جمعية الشبيبة السورية الفدائية في البرازيل والرابطة الوطنية السورية .

سريعاً بعد إنشاء الحزب السوري القومي الاجتماعي في 16 نوفمبر 1932 دخل في صراع مع السلطات الفرنسية في لبنان الذي كان ما يزال خاضعاً لسلطات الانتداب الفرنسي حيث اغتبرته السلطات الفرنسية حزباً غير شرعي . بعد اعتقال مؤسسه وأعضائه ثلاث مرات بين عامي 1936 و1938، سافر أنطون سعادة قسراً إلى أميركا الجنوبية منتقلاً بين البرازيل والأرجنتين لتسع سنوات نشر فيها عقيدته بين المغتربين السوريين هناك، وعاد إلى لبنان عام 1947 ليصطدم مع السلطات اللبنانية المستقلة حديثاً .

شاركت فصائل مسلحة للحزب تسمى فرقة الزوبعة الحمراء في فلسطين في الثورات المتتالية حتى حرب 1948 ضد إنشاء الدولة الإسرائيلية .

اضطدم الحزب مع مجموعة من حزب الكنائس في منطقتيه الجَمِيْرَة أسفرت عن حرق مطبعته الجليل الجديد وأصدرت السلطات أمراً باعتقال أنطون سعادة مما اضطره اللجوء إلى سوريا بعد وعد من حاكمها العسكري آنذاك حسنى الزعيم بعدم تسليمه ولكنه ما لبث أن نكث بوعده بعد أن اتخذ قراراً كل من الملك فاروق، رياض الصلح وحسنى الزعيم ودوائر الاستخبارات البريطانية الاستخبارات البريطانية والموساد الإسرائيلي بالتخلص منه فتم تسليمه للسلطات اللبنانية يوم 6 يوليو 1949 التي قامت بإعدامه رمياً بالرصاص فجر الثامن من تموز (يوليو) بعد محاكمة صورية . قام أعضاء من الحزب في

الأردن بالانتقام له من خلال قتل رئيس الحكومة اللبنانية آنذاك «رياض الصلح» حيث اغتبروه مسؤولاً عن قتل زعيمهم.

انتقل ثقل الحزب بعدها إلى سوريا ليشارك بقوة في الحياة السياسية والبرلمانية حتى اغتيال نائب رئيس أركان الجيش السوري العقيد عدنان المالكي عام 1955 واتهام رقيب سوري قومي يدعى يونس عبد الرحيم بتنفيذ الجريمة لكنه وفي نيسان 2010 وصدر قرار المحكمة العسكرية السورية ببراءة الحزب السوري القومي الاجتماعي منها، بعدما حاولوا إلصاقها به. [14] حذر الحزب على أثر هذا الاتهام من ممارسة نشاطه رسمياً في سوريا حتى عام 2005. نتيجة هذا الاغتيال حصل انشقاق داخلي في الحزب، ولد على أثره فصيل ترأسه جورج عبد المسيح. استمر عبد المسيح بقيادة هذا الفصيل الذي حمل نفس اسم الحزب «جناح الانتفاضة» ويعتمد نفس العقيدة والدستور وتختلف فيه القيادة فقط، ولا يزال هذا الجناح ناشطاً بشكل ضعيف حتى الآن.

انتقل نشاط الحزب تدريجياً إلى لبنان بعد حظره في سوريا وقام بمحاولة انقلابية فاشلة ليلة رأس السنة 1961/1962 ضد إدارة فؤاد شهاب لتعتقل قياداته وأعضاؤه حتى أواخر الستينات.

شارك الحزب في الصراع العربي الإسرائيلي بعسكريات وفدائية كثيرة منذ بدايات الثمانينات حتى نهايات التسعينات وتعتبر سناء محيدلي واحدة من أبرز فديات الحزب في الجنوب وخالد علوان منفذ عملية مهوى الومبي ضد جنود الاحتلال الإسرائيلي في وسط بيروت والتي كانت السبب في معاودة العمليات الفدائية ضد الجيش الإسرائيلي وإنسحابه من العاصمة.

عاد الحزب إلى نشاطه السياسي والاجتماعي في سوريا بشكل تدريجي منذ أعوام قليلة في أواخر عهد حافظ الأسد، أصبح عضواً مراقباً في الجبهة الوطنية التقدمية منذ عام 2001، وله أعضاء في البرلمان ووزير في الحكومة.

للحزب نشاطات خارج سوريا الطبيعية، حيث له فروع كثيرة في المهجر حيث الجاليات السورية- اللبنانية، وله فروع في الأردن وفلسطين وباقي أجزاء سوريا الطبيعية في سورية ولبنان والعراق.

في عام 2012 عند صدور قانون التعددية الحزبية في سوريا منع القانون ترخيص أي حزب قيادته خارج حدود الجمهورية العربية السورية ومنع أيضاً أن يكون لأي حزب سياسي فصائل مقاتلة وذلك عني بالنسبة للحزب التخلي عن فصائل (نُور الزوبعة) .

انقسم الحزب عندها إلى جناحين جناح رفض الشروط ولم يتم ب الترخيص (المركز) وبقت قيادته في اللبنا وجناح اخر انقسم عن الحزب الاساسي ورخص في سوريا تحت اسم

الحزب السوري القومي الاجتماعي في الجمهورية العربية السورية

وعرف ب (الأمانة) بقيادة الأمين عصام المحاربي لم يكن ل (الأمانة) أي فصائل مقاتلة

في عام 2017 أعطى الترخيص ل جناح (المركز) ورخص في سوريا تحت اسم الحزب السوري القومي

الاجتماعي - المركز بقت قيادة ((المركز)) في اللبنا واحتفظ بفصائل نُور الزوبعة متجاوزين شروط

قانون التعددية الحزبية

عَلِمَا أَنَّهُ حَتَّى قَبْلَ التَّرْخِصِ كَانَ يَقُومُ (الْمُرْكَز) بِكَافَّةِ نَشَاطَتِهِ وَمُمَارَسَاتِهِ الْحَرْبِيَّةِ بِكُلِّ أَرْحِيَّةٍ فِي
الْأَرَاضِي السُّورِيَّةِ قَامَتْ فَصَائِلُ نُسُورِ الزَّوْبَعِ التَّابِعَةِ ل (الْمُرْكَز) بِمُهَمَّاتٍ قَاتِلِيَّةٍ كَقَوَاتِ رَدِّفِهِ لِلْجَيْشِ
السُّورِيِّ مُنْذُ بَدَأَ الْعَمَلِيَّاتِ الْعَسْكَرِيَّةَ لِلْجَيْشِ السُّورِيِّ

العقيدة

يُعْبَرُ أَنَّ «السُّورِيِّينَ أُمَّةً تَامَّةً» وَإِنَّ «الْقَضِيَّةَ السُّورِيَّةَ قَضِيَّةَ قَوْمِيَّةَ قَائِمَةً بِنَفْسِهَا وَمُسْتَقْلَةً عَنِ آيَةِ قَضِيَّةٍ
أُخْرَى» أَهْدَافَ الْحِزْبِ الْأَسَاسِيَّةِ تَمَثَّلُ فِي التُّهُؤُوسِ بِسُورِيَا الطَّبِيعِيَّةِ بِكُلِّ الْمَجَالَاتِ وَتَوْحِيدِهَا لِأَنَّهَا
تَشْكَلُ وَحْدَهُ جُغْرَاقِيَّةً وَاحِدَةً «ذَاتُ حُدُودٍ جُغْرَاقِيَّةٍ تُمَيِّزُهَا عَنِ سِوَاهَا تَمْتَدُّ مِنْ جِبَالِ طُورُوسَ فِي
الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ وَجِبَالِ الْبُخْتِيَارِيِّ فِي الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ إِلَى قَنَاةِ السُّوَيْسِ وَالْبَحْرِ الْأَحْمَرِ فِي الْجَنُوبِ
شَامِلَةً شِبْهَ جَزِيرَةِ سَيْنَاءَ وَخَلِيجِ الْعَقَبَةِ، وَمِنْ الْبَحْرِ السُّورِيِّ فِي الْغَرْبِ شَامِلَةً جَزِيرَةَ قُبْرُصَ، إِلَى قَوْسِ
الصَّخْرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ وَخَلِيجِ الْعَجْمِ فِي الشَّرْقِ. وَيُعْبَرُ عَنْهَا بِلَفْظِ عَامٍّ: الْهَلَالِ السُّورِيِّ الْخَصِيبِ وَبِنَجْمَتِهِ
جَزِيرَةَ قُبْرُصَ أَيْ أَنَّهَا تُضَمُّ كُلُّ مَنْ الْعِرَاقِ وَالْكُوَيْتِ وَالْأَحْوَازِ وَالشَّامِ سُورِيَا وَلُبْنَانَ وَفِلَسْطِينَ وَالْأُرْدُنَّ
وَأَطْرَافَ جُغْرَاقِيَّةَ طَبِيعِيَّةَ سَيْنَاءَ وَقُبْرُصَ وَقَيْلَبِيَّةِ وَلِوَاءِ إِسْكَندَرُونَ. وَيُعْبَرُ الْحِزْبُ السُّورِيُّ الْقَوْمِيَّ
الْاجْتِمَاعِيِّ أَنَّ الْأُمَّةَ السُّورِيَّةَ مُجْتَمَعٌ وَاحِدٌ، وَضُرُورَةٌ بَعَثَ تَهْضُمَ سُورِيَّةَ قَوْمِيَّةَ اجْتِمَاعِيَّةً مِنْ خِلَالِ فَضْلِ
الدِّينِ عَنِ الدَّوْلَةِ وَمَنْعِ رِجَالِ الدِّينِ مِنَ التَّدْخُلِ فِي شُؤُنِ السِّيَاسَةِ وَالْقَضَاءِ وَالْإِقْطَاعِ وَتَنْظِيمِ
الْاِقْتِصَادِ الْقَوْمِيِّ .

عَلَى أَسَاسِ الْإِتِّتَاجِ وَإِنْصَافِ الْعَمَلِ وَصِيَانَةِ مَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ وَالْدَّوْلَةِ وَكَذَلِكَ أَعْدَادِ جَيْشٍ قَوِيٍّ يَكُونُ ذَا
قِيَمَةٍ فَعَلِيَّةٍ فِي تَقْرِيرِ مَصِيرِ الْأُمَّةِ وَالْوَطَنِ .

الحزب والعروبة

الأمة السورية كما يراها الحزب السوري القومي الاجتماعي

تُعتبر عقيدة الحزب أن سوريا الطبيعية جزء لا يتجزأ من العالم العربي تقوم مقاماً مركزياً وقيادياً فيه، ويدعو الحزب لتفاعل سوريا الطبيعية مع محيطها العربي وإبراز مكانتها التاريخية وتمايزها بين باقي أمم العالم العربي الأخرى الجزيرة العربية ووادي النيل والمغرب العربي). ودُعي مؤسس الحزب إلى التضامن العربي في وجه القوي الإمبريالية والاستعمار والرجعية المحلية المعادية للعروبة ونقض العروبة الوهمية داعياً إلى عروبة واقعية.

3

القومية المصرية

القومية المصرية تشير إلى القومية والحضارة المصرية عموماً، وهي قومية مدنية وتؤكد علي وحدته المصريين بغض النظر عن العرق أو الدين، واعتبرت أن مصر لها نظام إقليمي مستقل في العالم منذ عهد الفراعنة في مصر القديمة، برزت على الساحة المصرية في عام 1920م و1930م، وتتركز على مصر قبل الإسلام في الماضي، وتسترجع الحضارة المصرية القديمة وأنها كانت جزءاً من أكبر حضارات البحر الأبيض المتوسط، وأكد هذا الفكر على دور النيل والبحر الأبيض في تكوين هذه الحضارة العظيمة، ويصرح بعضهم بأن المصريين هم أول من أسسوا دولة قومية منذ 5000 سنة بعد اتحاد مملكتي الشمال والجنوب بهدف إشعار الناس بانتمائهم لهذا الشكل من الحكم، والواقع أن الدولة المصرية القديمة كانت

دَوْلَةٌ دِينِيَّةٌ تُبَوِّقِرَاطِيَّةٌ حَيْثُ كَانَ الْفِرَاعِيَّةُ يُعْتَبِرُونَ أَرْبَابًا يُعِيشُونَ بَيْنَ النَّاسِ وَيُحْكَمُونَ بِاسْمِ الْحَقِّ
الْإِلَهِيِّ .

تَطَوَّرَتْ هَوِيَّةُ الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ مِنْذُ الْعَصْرِ الْحَدِيدِيِّ وَبَقِيَتْ لِفَتْرَةٍ كَبِيرَةٍ مُحْفِظَةً بِالْهَوِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ الْأَصِيلَةِ
وَالْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ وَالذِّينِ الْوَثْنِيِّ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ التَّلَائِيَّةِ (انظُرِ الْمِصْرِيِّينَ الْقَدَمَاءَ)، ثُمَّ وَقَعَ الْمِصْرِيُّونَ بَعْدَ
ذَلِكَ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْإِحْتِلَالِ وَالْخِلَافَةِ مِنْ قَبْلِ الْحُكَّامِ الْأَجَانِبِ كَالْفَرَسِ، التُّوْبِيِّينَ، الْإِغْرِيْقِ، الرُّومَانَ،
العَرَبِ، الأَتْرَاقِ، الفَرَنْسِيِّينَ، الْبَرِيْطَانِيِّينَ، وَفِي ظِلِّ هَذَا الْحُكْمِ الْأَجْنَبِيِّ بَدَأَتْ تَتَغَيَّرُ الدِّيَانَاتُ الْوَثْنِيَّةُ
الْقَدِيمَةُ لَدَى الْمِصْرِيِّينَ وَتَتَغَيَّرُ اللُّغَةُ الْمِصْرِيَّةُ الْقَدِيمَةُ ثُمَّ دَخَلَتْ الْمَسِيْحِيَّةُ ثُمَّ الْإِسْلَامُ فَاعْتَنَقَ الْمِصْرِيُّونَ تِلْكَ
الدِّيَانَتَانِ، وَدَخَلَتْ لُغَةٌ جَدِيدَةٌ وَهِيَ الْعَرَبِيَّةُ .

ظَهَرَتْ الْقَوْمِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ مِنْ جَدِيدٍ وَبَرَزَتْ فِي السَّاحَةِ الْعَامَّةِ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الـ20 عَنْ طَرِيقِ الْمُتَقِنِينَ
الْمِصْرِيِّينَ فِي أُرُوبَا وَالَّذِينَ تَأَثَّرُوا بِالْحَضَارَةِ وَالتَّهَضُّةِ الْأُورُوبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ وَالذُّوْلَ الْقَوْمِيَّةِ الْعِلْمَائِيَّةِ الَّتِي
عَظِزَتْ دَوْلُهُمْ وَرَأَوْا أَنَّهُ يَجِبُ تَبْنِيُّ الْقِيَمِ الْأُورُوبِيَّةِ بِمَا يَصْلُحُ لِلْمُجْتَمَعِ الْمِصْرِيِّ وَهُمْ غَالِبًا مِنْ النِّيَّارِ
الليبراليِّ، وَعِنْدَمَا سَعَى الْمِصْرِيُّونَ لِتَحْرِيرِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْإِحْتِلَالِ الْبَرِيْطَانِيِّ أَدَّى ذَلِكَ لِصُعُودِ الْقَوْمِيَّةِ الْعِرْقِيَّةِ
وَالْإِقْلِيمِيَّةِ لِمِصْرٍ وَالَّتِي اتُّخِذَتْ طَابِعَ عِلْمَانِيٍّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَأَصْبَحَتْ الْقَوْمِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ التَّمَطُّ السَّائِدَ
لِلنَّاشِطِينَ الْمِصْرِيِّينَ الْمَنَاهِضِينَ لِلإِسْتِعْمَارِ الْأَجْنَبِيِّ لِلدَّفَاعِ عَنِ الْبِلَادِ فِي فِتْرَةٍ مَا قَبْلَ الْحَرْبِ .

وَمَنْ أَهَمَّ مَعَالِمِ هَذَا الْفِكْرِ أَنْذَاكَ هُوَ غِيَابُ الْعُنْصُرِ الْعَرَبِيِّ فِي الْقَوْمِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ فِي مَرَاحِلِهَا الْمُبَكِّرَةِ،
كَانَتْ الدَّفْعَةُ الْمِصْرِيَّةُ سِوَاءً كَانَتْ سِيَاسِيَّةً، اِقْتِصَادِيَّةً، ثَقَافِيَّةً طَوَالَ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ تَعْمَلُ ضِدًّا،
وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ التَّوَجُّهِ الْعَرَبِيِّ وَالْقَضَايَا الْعَرَبِيَّةِ .

لَمَحَ عَنْ تَارِيخِ الْقَوْمِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ

أَنَّ حُكْمَ مُحَمَّدٍ عَلَى بَاشَا قَادِ مِصْرَ إِلَى التَّقَدُّمِ وَالتَّطَوُّرِ الاِقْتِصَادِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ وَالْعَسْكَرِيِّ مُقَارَنَةً مَعَ الدَّوْلِ الْمَجَاوِرَةِ لِمِصْرَ، وَأَيْضًا نِظَامَ حُكْمِهِ سَاعَدَ عَلَى تَعْرِيزِ الْقَوْمِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ. وَمِنْ اِنْجَازَاتِهِ ضَمَّ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ لِلْجَيْشِ الْمِصْرِيِّ وَإِزَالَةَ أَيِّ فِيمِ أَوْ أَهْدَافِ لِلْجَيْشِ غَيْرِ رِعَايَةِ مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ.

ثُمَّ قَامَتِ الثَّوْرَةُ الْعِرَابِيَّةُ عَامَيْ 1870 و 1880 وَكَانَتْ أَوَّلَ ثَوْرَةٍ قَوْمِيَّةٍ تَطَالِبُ بَوْضِعَ حَدِّ لاسْتِبْدَادِ أَسْرِهِ مُحَمَّدٍ عَلَى الْحَاكِمَةِ، وَتَطَالِبُ بِكَبْحِ التَّفُؤُذِ الأوروپِيِّ دَاخِلَ مِصْرَ، وَاتُّخِذَتْ شِعَارَ وَطَنِي وَهُوَ (مِصْرٌ لِلْمِصْرِيِّينَ).

بَعْدَ الاِخْتِلَالِ الْبَرِيْطَانِيِّ لِمِصْرَ عَامَ 1882 م، تَرَكَّزَتْ جُهُودُ الْقَوْمِيِّينَ الْمِصْرِيِّينَ عَلَى اِنْهَاءِ اِلِاسْتِعْمَارِ الْبَرِيْطَانِيِّ لِمِصْرَ، وَبَلَغَتْ الْقَوْمِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ ذُرْوَتَهَا عَامَ 1919 عِنْدَمَا اِنْدَلَعَتْ ثَوْرَةٌ شَعْبِيَّةٌ ضِدَّ الْحُكْمِ الْبَرِيْطَانِيِّ وَحَدَّثَتْ تِلْكَ اِلِاحْتِجَاجَاتٍ فِي وَقْتِ الْحَرْبِ رَدًّا عَلَى الْحَرَمَانِ الَّذِي فَرَضْتُهُ بَرِيْطَانِيَا عَلَى مِصْرَ خِلَالَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ اِلْأُولَى، بَعْدَ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ مِنْ اِلِاحْتِجَاجَاتِ وَالِاضْطِرَابَاتِ السِّيَاسِيَّةِ اَعْلَنْتْ بَرِيْطَانِيَا اِسْتِقْلَالَ مِصْرَ مِنْ طَرَفٍ وَاَحَدٍ عَامَ 1922 وَقَدْ كَانَ اِسْتِقْلَالِ صُورِي حَيْثُ اِحْتَفَظَتْ بَرِيْطَانِيَا بِمُوجِبِهِ عَلَى وُجُودِهَا الْعَسْكَرِيِّ فِي مِصْرَ كَمَا اِحْتَفَظَتْ بِاِشْرَافِهَا عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَجَالَاتِ الَّتِي تُخَصُّ الشَّأْنَ الدَّاخِلِيَّ الْمِصْرِيَّ، وَخِلَالَ الْفُتْرَةِ الْمَلِكِيَّةِ فِي مِصْرَ وَالْمِصْرِيُّونَ الْقَوْمِيُّونَ مُصَمِّمُونَ عَلَى اِنْهَاءِ مَا بَقِيَ مِنْ وُجُودِ بَرِيْطَانِيَا فِي مِصْرَ.

صَعِدَتْ الْقَوْمِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ وَوَضَحَتْ عَلَى السَّاحَةِ كَقُوَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ عَامَ 1930 م بَعْدَ سُقُوطِ اِلِخْلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَاِعْلَانِ عِلْمَنِهِ الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّةِ وَاِلِغَاءِ اِلِاسْلَامِ كَدِينِ رَسْمِيِّ لِلدَّوْلَةِ وَمُحَارَبَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَانَتْ هُنَاكَ

ارتباطات قوتية بين مصر والعالم العربي وقضاياها من قبل الذين يدعون للتعاون مع الدول العربية المسلمة المجاورة، بعد ثوره 23 يوليو 1952 والتي قام بها مجموعة من الضباط الأحرار في الجيش المصري بقيادة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر والتي أطاحت بالنظام الملكي وأسست الجمهورية، وجه عبد الناصر جهوده تجاه القضايا العربية وأرثاء فكره القومية العربية، ورأى عبد الناصر مصر كقائه للعالم العربي، ورأى أن دور مصر هو تعزيز التضامن العربي والوحدة العربية ضد الغرب وإسرائيل، وأنشأت وحدة عربية لفترة وجيزة بين مصر وسوريا في فترة من 1958 إلى 1961 عندما تخلت سوريا عن الاتحاد وسميت مصر تحت الاتحاد باسم الجمهورية العربية المتحدة وأزيل اسم مصر منه، خلف عبد الناصر أنور السادات ومبارك والذين أكدوا على القومية العربية وأعادوا إحياء القومية المصرية على أساس الريادة المصرية للعالم العربي.

في عام 1931 وفي أعقاب زيارة إلى مصر للقومي العربي السوري ساطع الحصري لاحظ أن: «المصريون لا يملكون أي عاطفة أو ميول تجاه القومية العربية، ولم يقبل أن تكون مصر جزءاً من الأراضي العربية، ولن يعرف بأن الشعب المصري جزءاً من الأمة العربية».

تكون القومية العربية في مصر

في أواخر عام 1930م بدأت القومية العربية في التكوين داخل مصر وبدأت تحل مكان القومية المصرية تدريجياً عن طريق المعلمين التقليديين في مصر الذين يدعون للتمسك بالهوية الإسلامية-العربية، ونتيجة لجهود من المثقفين في سوريا، فلسطين، لبنان، [6] أيضاً من الأسباب الرئيسية لبروز القومية العربية هو الزعيم الراحل جمال عبد الناصر وإنشاء جامعة الدول العربية في عام 1945م واتخذت من القاهرة

مُتَقَرًّا لَهَا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تِلْكَ الْجُهُودِ لِدَعْمِ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَانَ لَانْتِزَالِ الْمُورِّخِ دَانْتُونِ فِي جَامِعِهِ أُكْسْفُورْدَ
يَكْتُبُ: «الْمِصْرِيُّونَ لَيْسُوا عَرَبَ، وَالْعَرَبُ وَأَعْوَنَ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، هُمْ يَتَحَدَّثُونَ الْعَرَبِيَّةَ، وَهُمْ مُسْلِمُونَ أَيْضًا
وَمُعَلِّقِينَ بِالذِّينِ بِشِدَّةٍ بَحَيْثُ يَلْعَبُ الدِّينُ الْجُزْءَ الْأَكْبَرَ مِنْ حَيَاتِهِمْ وَتَوَجَّهَاتِهِمْ وَلَهُ تَأْثِيرٌ عَلَى دَوَائِعِهِمْ
وَمُيُولِهِمْ كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي سُورِيَا وَالْعِرَاقَ، لَكِنْ الْمِصْرِيُّ وَخِلَالِ الثَّلَاثِينَ سَنَةً الْأُولَى مِنْ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، لَمْ
تَكُنْ تَرْطِبُهُ أَيُّ عِلَاقَةٍ مَعَ الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ، أَنَّ مِصْرَ تَتَعَاطَفُ وَتَتَأَثَّرُ مَعَ الْقَضَايَا الْعَرَبِيَّةِ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ
تَرَى أَنَّهَا فُرْصَةٌ كَبِيرَةٌ وَمُنَاسِبَةٌ لِأَخْذِ الْقِيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ عَلَى الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ وَالْتِمَعِ بِالْهَيْمَنَةِ عَلَى الدُّوَلِ
الْعَرَبِيَّةِ، وَمَعَ ذَلِكَ مَصَالِحُ مِصْرَ الرَّيْسِيَّةِ لِانْتِزَالِ مَحَلِّيَّةِ وَقَوْمِيَّةِ».]

أَبْرَزُ الْمُنَادِيَيْنِ بِالْقَوْمِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ

مِنْ أَبْرَزِ الْمُنَادِيَيْنِ بِالْقَوْمِيَّةِ أَمثالُ أَحْمَدَ لُطْفِيِّ السَّيِّدِ، بِيَوْمِي قَتْدِيلِ، سَلَامِهِ مُوسَى، طَهَ حُسَيْنِ وَمَنْ
الْمَعَاصِرِيِّينَ زَاهِي حَوَاسٍ .

طَهَ حُسَيْنِ وَآرَائِهِ

طَهَ حُسَيْنِ هُوَ كَاتِبُ مِصْرِي وَعَمِيدُ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ وَوَاحِدٌ مِنْ أَكْثَرِ الْقَوْمِيَّيْنِ الْمِصْرِيِّينَ وَالْأَبْرَزُ فِي
مُكَافَحَةِ الْمُسْتَعْمَرِيِّينَ، وَأَعْرَبَ عَنْ عَدَمِ اتِّفَاقِهِ مَعَ فِكْرِهِ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَحَدَّثَ عَنْ مُعْتَقَادَاتِهِ فِي
الْقَوْمِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ فِي مُنَاسَبَاتٍ عِدَّةٍ وَكَتَبَ عَامَ 1933 فِي مَجَلَّةِ «كُوكِبِ الشَّرْقِ» قَائِلًا:
(الْحَضَارَةُ الْمِصْرِيَّةُ وَالْفِرْعَوْنِيَّةُ مُنَاصِلَةٌ فِي نَفْسِ الْمِصْرِيِّينَ وَسَبَقَتْ كَذَلِكَ بَلْ يَجِبُ أَنْ تَبْقَى وَتَقْوَى
وَالْمِصْرِيُّ فِرْعَوْنِي قَبْلَ أَنْ يَكُونَ عَرَبِيًّا، وَلَا يَطْلُبُ مِنْ مِصْرَ أَنْ تَتَخَلَّى عَنْ فِرْعَوْنِيَّتِهَا وَإِلَّا سَيَكُونُ مَعَنَا

ذَلِكَ: أَهْدَمِي يَا مِصْرَ أَبَا الْهُولِ وَالْإِهْرَامَاتِ وَأَنْسَى نَفْسَكَ وَاتَّبَعِينَا لَا تَطْلُبُوا مِنْ مِصْرَ أَكْثَرَ مِمَّا

تَسْتَطِيعُ أَنْ تُعْطِي، مِصْرَ لَنْ تَتَدَخَلَ وَحْدَهُ عَرَبِيَّةٍ سِوَاءٍ كَانَتْ فِي الْفَاهِرَةِ أَوْ دِمَشْقَ أَوْ بَعْدَادَ)

وَاعْتَبِرْ مِصْرَ مُتَمِيمِهِ فِكْرِيًا وَتَقَاتِيًا لِلْعَرَبِ، وَيُعْتَبَرُ طَهَ حُسَيْنِ تِلْكَ الْعَلَاقَةِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي تَرْتَبُ بَيْنَ مِصْرَ
وَالْيُونَانَ مَسْلَمَةً مِنَ الْمُسْلِمَاتِ بِمَعْنَى أَنَّهَا مُثَبَّتَةٌ مَسْبُوقًا وَلَأَشْكَّ فِيهَا، وَآكَّدَ عَلَى وُجُودِ تِلْكَ الصَّلَاتِ بَيْنَ

مِصْرَ وَالثَّقَافَةِ الْيُونَانِيَّةِ بِقَوْلِهِ:

(«مِنْ إِضَاعَةِ الْوَقْتِ وَإِنْفَاقِ الْجُهْدِ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ أَنْ نَفْصِلَ مَا كَانَ مِنْ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ مِصْرَ وَالْحَضَارَةِ

الْيُونَانِيَّةِ فِي عَضْرِ ازْدِهَارِهَا)

وَأَثَاءَ تَحْذِيرِهِ مِنْ خَطَرِ الْإِتِّحَادِ مَعَ الدَّوْلِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي سَيُؤَدِّي لِهَدْمِ أَبُو الْهُولِ، عَبَّرَ عَنْ كَيْفِيَّةِ اسْتِعَاذِهِ

الهُويَّةِ الْمِصْرِيَّةِ بِعِبَارَتِهِ الشَّهِيرَةِ:

«أَنْ نَسِيرَ سِيرَهُ الْأُورُوبِيِّينَ وَنَسْلِكَ طَرِيقَهُمْ، لِنَكُونَ لَهُمْ أُنْدَادًا، وَلِنَكُونَ لَهُمْ شُرَكَاءَ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

الْقَوْمِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ بَيْنَ التَّطَرُّفِ الْكِيمِيَّتِيِّ وَنَظَرِيَّةِ الْبَدِيلِ

لَا شَكَّ أَنَّ الْبَاحِثَ فِي الْحَضَارَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ تَسْتَهْوِيهِ عَظَمَتُهَا وَدِقَّتُهَا؛ فَفَدَى اسْتَهْوَتْ عُلَمَاءَ الْحَمَلَةِ

الْفَرَنْسِيَّةِ وَالْحَضَارَةِ الْأُورُوبِيَّةِ فِي الْقُرْنِ 19م؛ فَتَعَدَّدَتْ الْأَكْشَافَاتُ الْآثَرِيَّةُ وَفَكَ الرُّمُوزُ وَاللِّغَاظُ، وَتَفْسِيرُ

النَّظَرِيَّاتِ الْمُعَقَّدَةِ حَتَّى أَنْجَلَتْ لَدَيْنَا بُوْضُوحَ وَاحِدَةٍ مِنْ أَعْظَمِ حَضَارَاتِ التَّارِيخِ .

أَوْحَتْ هَذِهِ الْحَضَارَةُ الْعَظِيمَةُ لِعُلَمَاءَ وَمُفَكِّرِينَ مِصْرِيِّينَ فِي الْقُرْتَيْنِ 19 و20، بِاعْتِبَارِهَا مَصْدَرًا لِلْفِكْرِ

والتَّهْوُوسِ، وَبَدَيْلًا عَمَلِيًّا تَارِيخِيًّا لِلْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُنْتَشِرَةِ، وَالَّتِي كَانَتْ رَاجِحَةً فِي هَذَا التَّوْقِيَّتِ بِفِعْلِ

مُقاومة الاستعمار وَضعف الدولة العثمانية ثم انهيارها الرسمي سنة 1924، وظهور الدعوات للتجمع على أساس ديني ولغوي كبديل عن الخلافة العثمانية البائدة، ومن ضمن هؤلاء الداعين لقوميه مصرية بديله؛ طه حسين (1889-1973م) وأحمد لطفي السيد (1873-1963م) وغيرهما؛ فالثقافة المصرية خلال هذه الحقبة كانت تتمتع بحنين خاص للجذور المصرية تُرجم عظمة هذه الاكتشافات الأثرية والشغف العلمي الذي أدى لخروج واحدة من أعظم موسوعات العالم التاريخية، وهي موسوعة د. سليم حسن (1886-1961م) التاريخية والمشهورة بعنوان "موسوعة مصر القديمة".

لكن مع هذا الظهور القومي المصرية لم نشهد صراعاً بينها وبين القومية العربية؛ بل رأينا تكاملاً وتفاعلاً بكتابات طه حسين المتعددة في الفكر العربي، مثلما كتب في "مستقبل الثقافة في مصر" الصادر عام 1938م عن ضرورة وإمكانية التفاعل بين القوميتين الإسلامية والوطنية، عبر مشروع نقد وتقييم الأزهر الشريف، باعتبار مُمثلاً للقومية الإسلامية، والذي يمثل في ذهن طه حسين عقبة أمام هذا التفاعل والاندماج، ثم انشغال طه حسين بالكتابات الدينية مثلما كتب "على هامش السيرة ومراة الإسلام والوعد الحق والفننة الكبرى" وغيرها، وما انشغال طه حسين بهذا النوع من الكتابة إلا تأكيداً لتفاعله في مستقبل الثقافة بأنه لا تعارض بين القوميتين الإسلامية والوطنية، والتي اضطلع عليها لاحقاً بعد إنشاء جامعة الدول العربية سنة 1945م بالقومية العربية والمصرية.

وفي سيرة "أحمد لطفي السيد" المشهور بأستاذ الجيل وأبي القومية المصرية، علامات وإشارات على أن دعاه الوطنية المصرية لم يروا بأن هناك صراعاً ضرورياً بين المصريين والعرب، مثلما نقلد لطفي السيد رئاسة مجمع اللغة العربية، ووزارات التعليم والداخلية والخارجية، علماً بأن الوزارة الأخيرة في

الخارجية تقلدها عام 1946 بعد عام واحد من تأسيس جامعة الدول العربية، واستقبل لطفي السيد العديد من مسؤولي العرب، ووقف في بهو الجامعة ممثلاً عن مصر، وفي هذا السلوك منه إضافة لعدم إظهاره سيف العدا للرب، إشارة باعتراده أن القومية المصرية لم تكن تعادي الشعوب العربية، أو ترى نفسها في صراع سياسي وعسكري مع أحد، وغاية ما كان ينطق به أستاذ الجيل هو البحث عن هويته ذاتية فكرية تفسر مسائل الانتماء والتنوع والجنس والوطن والدين والمكان.

مصر كأي دولة هي خليط بين عشائر محلية قطنت هذه الأرض منذ ألف السنين، وبين عشائر أجنبية رحلت إليها بفعل السياسة والدين والكوارث الطبيعية والحروب والأوبئة والمجاعات

ففي كتاب أحمد لطفي السيد بعنوان "تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع"، الصادر عام 1946، والذي كان عبارة عن تجميع لمقالاته القديمة، أشهرها في صحيفة الجريدة حيث كتب الرجل قائلاً: "إن من بيننا من لا يفتك بفخر بانتسابه للعرب الأولين، كما انتسابه إلى الجنس المصري نقص وعيب، كما أن منا من يفضل الرابطة الدينية على رابطة الجنسية الوطنية؛ فإن لم نذهب عنا هذا التحلل تمت أسبابه، وفشت نتائجه، وتعدر علينا أن نوسع دائرة المشابهات وتضيق دائرة الفروق". (الجريدة 5 فبراير 1908)، لكنه وفي نفس السياق قال: "لا يفهم مما أقول أننا ندعو إلى التفريق بين العناصر المؤلفة لكتله السكان المصريين؛ بل على ضد ذلك ندعو للجامعة المصرية كما دعونا لها من قبل، ندعو الذين يبرمون بالجنسية المصرية التي كسبوها بالإقامة في مصر، أن لا يفروا بأحاديثهم وبأعمالهم من الانتساب إلى هذه الجنسية الشريفة". (الجريدة 16 يناير 1913م).

مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ لُطْفِي السَّيِّدِ لَمْ يُوجِّهْ سَهَامَهُ لِلْمِصْرِيِّينَ عَلَى أَسَاسِ التَّنَسُّبِ وَالْعَرَقِ، لَكِنَّهُ يَرْفُضُ انْتِمَاءَ أَيِّ مِصْرِيٍّ لَوْطَنٍ آخَرَ غَيْرِ مِصْرٍ، أَوْ حُدُودٍ جُغْرَافِيَّةٍ أُخْرَى خَارِجَ الْقَطْرِ الْمِصْرِيِّ، وَبِالتَّالِيِ هُوَ يُعْلِنُ نَقْدَهُ الصَّرِيحَ وَالْمُبَاشِرَ لِمَنْ يُقَدِّمُ وِلَايَةَ الْعَرَبِ - كَمِثَالِ - عَنِّ وِلَايَةَ لِمِصْرٍ، وَهَذَا السِّيَاقُ يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ أَسْتَادَ الْجِبِلِّ وَأَبَا الْقَوْمِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ كَانَ يَبْحَثُ عَنِّ ذَاتِ الْمِصْرِيِّينَ، فِي وَقْتِ كَانَتْ تَنَامِي فِيهِ مَشَاعِرُ الْقَوْمِيَّاتِ بَحْثًا عَنِّ الْهُويَّةِ الْوَطَنِيَّةِ بَعْدَ انْهِيَارِ مُعْظَمِ مَمَالِكِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى الدِّينِيَّةِ، وَأَشْهَرُهَا "الرُّوسِيَّةُ الْفَيْصَرِيَّةُ وَالْعُمَانِيَّةُ التُّرْكِيَّةُ وَالتَّمْسَاوِيَّةُ الْمَجْرِيَّةُ"، فِي أَعْقَابِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى (1914-1918 م) .

الْكِيمِيَّةُ وَالْخَلْطُ بَيْنَ الْمَفَاهِيمِ

أَمَّا فِي السَّنَوَاتِ الْآخِرَةِ فَقَدْ ظَهَرَ تَيَّارٌ عُنْصُرِيٌّ مِصْرِيٌّ مُتَطَرِّفٌ يُطْلَقُ عَلَى نَفْسِهِ "كِيمِيَّةٌ"، فِي إِشَارَةٍ لِاتِّمَاءَةِ إِلَى الْاسْمِ الْمِصْرِيِّ الْقَدِيمِ "كِيمِيَّةٌ" ، وَيَرْتَكِزُ فِي دَعْوَاهُ إِلَى ضَرُورَةِ الْعُودَةِ لِلْحَضَارَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ وَاعْتِبَارِهَا الْمَصْدَرَ الْوَحِيدَ لِتَحْدِيدِ الْهُويَّةِ الْمِصْرِيَّةِ، وَقَدْ اخْتَلَفَتْ الْأَرَاءُ حَوْلَ هَذَا التَّيَّارِ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُ بِأَنَّ لَهَا تَوْجِّهًا دِينِيًّا قَدِيمًا يَتِمُّثَلُ فِي ضَرُورَةِ إِحْيَاءِ عِبَادَةِ الْإِلَهَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، وَقَدْ جَرَى الْإِصْطِلَاحُ عَلَى هَذَا التَّوَجُّهِ بِالْكِيمِيَّةِ، وَارَاءَ أُخْرَى تَمَثَّلُ غَالِبِيَّةُ التَّيَّارِ تَدَّعِيَّيَ أَنَّهَا لَا تَدْعُو لِإِيدولوجِيَا دِينِيَّةٍ؛ بَلْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ هِيَ تَحَلَّلُ مِنْ قِيُودِ الدِّينِ لِصَالِحِ الْأَخْلَاقِيَّاتِ وَالْفَلْسَفَاتِ .

الْإِتِّجَاهُ الْغَالِبُ بِاعْتِبَارِ الْكِيمِيَّةِ دَعْوَةً لِإِحْيَاءِ أَخْلَاقِيَّاتِ وَفَلْسَفَاتِ الْحَضَارَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ جَرَى الْحَدِيثُ عَنْهُ عَامَ 2004 فِي أَعْقَابِ دَعْوَاتِ إِنْشَاءِ حِزْبِ "مِصْرِ الْأُمَّمِ"، الدَّاعِي لِلْقَوْمِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ عَلَى أَسَاسِ تَارِيخِيٍّ يُفَسِّرُ تِلْكَ الْقَوْمِيَّةَ انْطِلَاقًا مِنْ عَضْرِ الْأَسْرَاتِ أَلِ 30 بِقِيَادَةِ سَامِي حَرَكَ وَوَسِيمِ السِّيَسِيِّ وَمُحْسِنِ لُطْفِي السَّيِّدِ وَغَيْرِهِمْ، .

لكن هذا الاتجاه تطور أخيراً لتسمية "الكيميائية" كعنوان عام نشط في السوشياتل ميدياً بشكل حماسي شوفيني، يعلب عليه الطابع الشبابي، ثم أضافوا لأفكار وسيم السيسي وطلعت رضوان أفكاراً عنصرية؛ منها اعتبار "العرب والإفارقة والسود" بمصر غزاة مستعمرين، مستفيدين من مشاكل وأوضاع اللاجئين السوريين واليمنيين والسودانيين والفلسطينيين بمصر، الذين اختلفت تقديرات أعدادهم ما بين 9 مليون حسب جهاز الإحصاء المصري وبين 460 ألفاً حسب مفوضية دعم اللاجئين، ونفسير البقية على أنهم مقيمون. والكيميائيون يوجهون جهودهم نحو هذه الملايين من اللاجئين والمقيمين على أنهم غرباء يشكلون خطراً على الهوية المصرية، ولا يكتفون بذلك؛ بل يهيمون كل من يتسبب عرقياً وسلالياً للعرب والإفارقة على أنهم أجانب غزاة ومستعمرون يجب طردهم في نفس السياق.

وفي رأيي أن ما أدى للتطرف من هذه الفئة هو تناولهم للقومية بشكل سطحي، غابت فيه المفاهيم واختلفت على البعض فيها؛ فالقومية بمعناها العام: هي القبيلة والعشيرة؛ فهي التطور الحداثي اللغوي للعشائرية القديمة، بمعنى أن البشر فور ظهور العقد الاجتماعي والدستور تغيرت بعض مفرداتهم اللفظية المعنوية بالتجمع، لأن ذلك التجمع هو أساس العقد الاجتماعي بين المواطنين والدولة. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل توجد "عشيرة مصرية"؟

بالتأكيد لا توجد حالياً هذه العشيرة؛ فمصر كأي دولة هي خليط بين عشائر محلية قطنت هذه الأرض منذ آلاف السنين، وبين عشائر أجنبية رحلت إليها بفعل السياسية والدين والكوارث الطبيعية والحروب والأوبئة والمجاعات، وكتب التاريخ مليئة بإخبار تلك الرحلات والهجرات التي ميزت ثقافة القرون الوسطى منذ العصرين اليوناني والروماني مروراً بالأموي والعباسي والفاطمي والمملوكي والعثماني، نهاية

بِالاسْتِعْمَارِ الْإِنْجِلِيزِيِّ وَمُوجَاتِ اللُّجُوءِ الْأُورُوبِيَّةِ خِلَالَ الْقُرْنَيْنِ 19، 20م، وَاللُّغَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْحَدِيثَةِ إِضَافَةً
لِتَسْمِيَّاتِ الْمُدُنِ وَعَقَائِدِ الْمِصْرِيِّينَ تَثَبَّتْ (تَأْثِيرِ) هَذِهِ الْهَجْرَاتِ فِي التَّغْيِيرِ الدِّيْمُوغْرَافِيِّ الَّذِي طَرَأَ عَلَى مِصْرَ
، وَآثَرِ عَلَيَّ الْعَالَمِ كُلِّهِ خِلَالَ هَذَا الزَّمَنِ .

وَلَمَنْ يَدَّعِي الْفَارِقَ بَيْنَ الْقَوْمِيَّةِ وَالْعَشَائِرِيَّةِ أَقُولُ: "إِنَّ الْقَوْمِيَّةَ هِيَ التَّطَوُّرُ الْمَعَاصِرُ لِلْعَشَائِرِيَّةِ وَالْقَبَلِيَّةِ،
وَنَلَاخِظُ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ أَنَّ الْعَالَمَ الْمُتَطَوِّرَ الْمَشْرِكِ قُبَايِلِيًّا وَلُغَوِيًّا وَتَقَاتِيًّا فِي مُجْمَعٍ وَاحِدٍ، يُسَمُّونَ هُوِيَّتَهُ
(قَوْمِيَّةً)، بَيْنَمَا نَفْسُ الْأَمْرِ لَوْ تَحَقَّقَتْ فِي بَلَدٍ عَرَبِيٍّ أَوْ إفْرِيقِيٍّ يُسَمُّونَهَا (قُبَلِيَّةً وَعَشَائِرِيَّةً)؛ فَعَشَائِرُ السَّلَافِ
وَالْجُرْمَانِ وَالْبَاسِكِ وَالْيُونَانِ يُسَمُّونَهَا (قَوْمِيَّاتٍ)، وَعَشِيرَةُ الْكَلْتِينَ يُسَمُّونَهَا "قَوْمِيَّةً إِنْجِلِيزِيَّةً"، بَيْنَمَا عَشَائِرُ
الْعَرَبِ (قُبَلِيَّةً) وَمُضَدَّرُ هَذِهِ التَّسْمِيَّاتِ مِنْ كُتُبِ الْعَرَبِ الَّتِي ائْتَكُرَتْ لَفْظُ الْقَوْمِيَّةِ حَضْرًا ، بَيْنَمَا ائْتَقُوا
عَلَى لَفْظِ "الْعَشَائِرِيَّةِ وَالْقَبَلِيَّةِ" لَوْصَفِ تَجْمَعَاتِ الْأَفَارِقَةِ وَالْعَرَبِ وَالْأَسْيُوبِيِّينَ عَلَى أَسَاسِ الْعِرْقِ وَالسَّلَالَةِ،
وَمَا حَدَثَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَلْفَاظِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْبَشَرَ يَتَبَكَّرُ الْفَاظَةَ وَمَفَاهِيمَهُ حَسَبَ تَطَوُّرِهِ
التَّارِيخِيِّ وَوَفْقًا لِمَصَالِحِهِ وَتَوَجَّهَاتِهِ السِّيَاسِيَّةِ".

وَبِالْيَسْبَةِ لِعَصُورِ الْأَسْرَاتِ فِي مِصْرِ الْقَدِيمَةِ؛ فَلَمْ تَكُنْ خَالِيَةً مِنَ الْقَبَلِيَّةِ، لِأَنَّ التَّقْسِيمَ الْعَشَائِرِيَّ نَفْسِهِ
مُتَحَقِّقٌ فِي سُلْطَاتِ الْمُلُوكِ الـ 30 وَفِي نِظَامِ التَّوْرِيثِ، حَتَّى إِذَا عَصُورِ الْأَسْرَاتِ شَهِدَتْ غَزْوً وَحُضُورَ
عَشَائِرٍ مِنْ دَوْلٍ مُجَاوِرَةٍ فِي التَّارِيخِ الْمِصْرِيِّ مِنَ الشَّامِ وَلِيبِيَا وَالسُّودَانِ، وَلَا يَعْنِي الْقَوْلُ بَأَنَّ مِصْرَ الْقَدِيمَةَ
كَانَتْ تَتَمَعُّ بِسُلْطَةِ مَرْكَزِيَّةٍ، أَنَّهَُا كَانَتْ تَتَمَعُّ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ بِمَا نُسَمِّيهِ (دَوْلَةً وَطَنِيَّةً)، لِأَنَّ مَفْهُومَ الْوَطَنِ
وَالْمُواطَنَةِ لَمْ يَطْهَرُ آنَذَاكَ، وَالْبَدِيلُ عَنْهُ أَنَّ مِصْرَ كَانَتْ كَسَائِرِ الدُّوَلِ، سَاطَهُ مُرْتَبِطَةٌ بِالْمَلِكِ، وَحُضُومُ
الْمَلِكِ هَمَّ حُضُومِ الدَّوَلَةِ أَيَّا كَانُوا؛ سَوَاءً سَكَنُوا وَأَدَّى النَّيْلُ أَمْ جَاءُوا مِنْ صَحْرَاءِ لِيْبِيَا وَالْعَرَبِ وَالشَّامِ.

نفس الحال بالنسبة للعرب الذين شهدوا هذا النوع من الدول المركزية المرتبطة بسلاطه الملك/ الأمير،
ويمكن الاطلاع على سيرة هذه الدول في التاريخ، كدوله الأتباط وعاصمتها البتراء، غير دول الحيرة
والغساسنة والمناذرة وسبأ وحمير ومعين وحضرموت. وغيرها.

أما القومية بمعناها الخاص؛ فهي "الاغتراز بالوطن والدفاع عنه والالتزام له ولمصالحه، وما يتعلق بهذا
الاغتراز من احترام القانون والدستور والعمل بموجباته"، وهذا النوع من القومية كان شعاراً للمصريين من
دعاه الوطنية والقومية المحلية في بدايات القرن 20م، مثلما قدمنا للبعض منه كله حسين وأحمد
لطفى السيد، وكذلك كان سمة لتيار حزب مصر الأم، والمصري الليبرالي الذي شدد على الالتزام
الأولى لمصر واعتبار أخلاقيات وفلسفات الحضارة المصرية القديمة صالحه لإنجاز نهضة عصره تليق
بالتاريخ المصري العريق، لا إن تصبح هذه الأخلاقيات والفلسفات حجة لممارسة العنصرية والوقوع في
فخ الكراهية على أسس العرق والنسب واللون.

خاط المتعصبون من الكيتمين هنا بين القومية بمعناها العام ومعناها الخاص؛ فيزبطون الولاء بالوطن
والالتزام له بما يسمى (التقاء العرقي والقبلي)، وهذا جهل شديد ميز هذا التيار، وأوجد مساحة
عاطفية كبيرة لجذب الشباب والمراهقين بدعوى الوطنية والتفوق الجيني، وقد ساهمت الأحداث
السياسية والتغيرات التي طرأت على العرب في السنوات الأخيرة، في الترويج لهذا الخط الذي أدى
لإشغال صراع من نوع مختلف عن الصدام بين الجماعات الدينية والعلمانية، أو بين الإرهاب والدولة،
تشكل هذا الصراع على أسس (قروسطية) متهمة بالتقاء العرقي والقبلي، والسؤال عن ما يسموه

“الجيئات المحفوظة”، علماً بأن هذه الأسس كانت مصدر تكوين معظم الأديان والمذاهب قديماً على أساس عرقي وقبلي .

ولا يعني القول بأنها ثقافة “قروسطية”، أنه لم توجد مقاومة لها؛ بل وجدت بين العرب، وفي الأثر الإسلامي حديث مشهور مرفوع: “أن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس لادم وادم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى”. وهذا الأثر يبدو أنه كان لمقاومة هذه العشائرية والقومية العربية التي تفتت بشكل عنصري، وجعلت أبناء الدولة والشعب العربي يحترقون بعضهم على أساس التسبب، وتشيع بين أوساطهم نهم الخيانة والولاء للأعداء والخصوم بناءً على الاسم والعنوان .

وفي تقديري أن الجماعة الكيميائية تفكر مثلما يفكر الإخوان المسلمون بالضبط؛ فالمشهور عن حسن البنا قوله: “إن الدعوة للإسلام يخدم القومية المصرية”، (تصور الإخوان للقضية الفلسطينية لعبد الفتاح العويس ص II)، بمعنى أنه يربط بين الاعتزاز الوطني بمصر والولاء لقوانينها ودستورها وبين الحكم الإسلامي؛ فالإسلام عند البنا هو (القومية المصرية بالمعنى العام)، والدستور والقوانين المصرية هي (القومية بالمعنى الخاص)، نفس الخلط عند الكيميائيين؛ حيث يزعمون أن الجيئات المصرية القديمة هي القومية العامة، والاعتزاز بالوطن (هو القومية الخاصة)؛ فيضعون مصدر تشكيل الهوية (الماضي السحيق)، ولا اعتبار للحاضر والمستقبل في مشروعهم .

فالكيميائية في هذا السياق جماعة ماضوية انحرالية بالآخر، شأنها كشأن الإخوان، تمتلك نفس طريقه التفكير العنصرية والأيدولوجية لبناء مشروع سياسي بناءً على الاسم والعنوان، لا الكفاءة والمهارة

وَالصَّلَاحِيَّةِ، بَيْنَمَا التَّسَقُّ الْعِلْمِيَّ غَائِبٍ فِي تَحْدِيدِ أَطْرِ هَذَا الْمَاضِي وَعَلَاقَتِهِ بِالْحَاضِرِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَرِفُونَ بِالْحَاضِرِ الَّذِي يَشْهَدُ ثَوَعًا كَبِيرًا فِي الْمَجْتَمَعِ الْمِصْرِيِّ عَلَى أَسَاسِ الدِّينِ وَالْعِرْقِ وَاللُّوْنِ، وَيَتَكْرَهُونَ لِهَذَا الْاِخْتِلَافِ كُلَّمَا سَنَحَتْ الْفُرْصَةَ، هَذَا لَوْ سَلَّمْنَا جَدَلًا بِصِحَّةِ مَا يَدَّعِيهِ هَؤُلَاءِ بِوُجُودِ جِنَاتٍ مِصْرِيَّةٍ مَحْفُوظَةٍ وَمَمْتَدَةٍ مُنْذُ الْأَفِّ السِّنِينَ، وَأَنَّ تَأْثِيرَ الْهَجْرَاتِ وَالرَّحَلَاتِ وَالْكَوَارِثِ وَالْحُرُوبِ فِي هَذَا الْاِمْتِدَادِ لَا يَذُكَّرُ، وَهُوَ مَحَلُّ جَدَلٍ عِلْمِيٍّ سَأَشْرَحُ جُزْءًا مِنْ مَلَامِحِهِ بَعْدَ قَلِيلٍ.

فَضْلًا عَنِ مُعَانَاةِ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ مِنَ الزَّيْنُوفِيَا أَوْ (رَهَابِ الْأَجَانِبِ) وَهُوَ مَرَضٌ نَفْسِيٌّ يَكْتُرُ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْمُغْلَقَةِ الشَّاعِرِ فِيهَا الْعُنْصُرِيَّةَ وَالشُّوفِينِيَّةَ كَاتِبِهَا مُتَطَرِّفٌ رَادِيكَالِيٌّ ضِدُّ الْآخِرِ، وَهِيَ عَلَامَةٌ عَلَى شُيُوعِ الْجَهْلِ وَالطَّرْفِ مَعًا، مِمَّا آدَى إِلَى تَصْنِيفِ ذَلِكَ الْمُصْطَلَحِ كَأَسْمٍ لِأَحَدِ أَمْرَاضِ الرَّهَابِ النَّفْسِيَّةِ ضِدِّ الْآخِرِ بِالْمُجْمَلِ. وَيَعْنِي ذَلِكَ رَفْضَ الشَّخْصِ لِجُرْدِ (جَنْسِيَّتِهِ أَوْ دِينِهِ وَعِرْقِهِ وَلَوْنِهِ... إلخ)، وَالشُّكُّ فِي أَيِّ تَصَرُّفٍ مِنْهُ كَمَا أَمَرَهُ وَعَمِلَ شَرِيرٌ يَسْتَوْجِبُ الْمَقَاوِمَةَ، وَظُهُورَهُ وَبِقَاوِهِ مُرْتَبِطٌ بِالْحُرُوبِ الدِّيْنِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ.

الزَّيْنُوفِيَا مَعْنَاهُ (كَرَاهِيَّةُ الْأَجَانِبِ) وَأَيُّ اتِّهَامٍ لِشَخْصٍ بِذِكْرِ جَنْسِيَّتِهِ أَوْ لَوْنِهِ مَعْنَاهُ ضَمْنِيًّا رَهَابِ الْأَجَانِبِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَيَتِمُّ تَصْنِيفُهُ كَاتِبِهَا عُنْصُرِيًّا مِثْلَمَا صَنَّفَ اتِّهَامَ تَرَامِبِ لِلنَّائِبَةِ "إِلْهَانَ عَمْرٍ" ذَاتِ الْأُصُولِ الصُّومَالِيَّةِ بِذِكْرِ أُصُولِهَا الْأَفْرِيقِيَّةِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ، عَلَى أَنَّهُ عُنْصُرِيَّةٌ فَجْهُ لَا يَجِبُ أَنْ تَصُدَّرَ مِنْ رَيْسٍ. وَادُّكَّرَ فِي السَّعِينَاتِ كَانَ فِيلْمٌ لِلنَّجْمِ أَحْمَدِ اِدَمِ بِعَنْوَانِ "وَلَا فِي النَّيَّةِ أَبْقَى فَلِبِينِيَّةِ"، الَّتِي قَامَتْ سِفَارَةٌ الْفِلِبِينِ بِالْاِعْتِرَاضِ عَلَيْهِ كَسُلُوكٍ يُعَزِّزُ رَهَابَ الْأَجَانِبِ فِي مِصْرٍ ضِدِّ الْفِلِبِينِيِّينَ بِاعْتِبَارِهِمْ خَدَمًا، وَبِنَاءِ عَلَيْهِ جَرَى تَغْيِيرُ عَنْوَانِ الْفِيلْمِ وَحَذْفُ كَلِمَةِ "فَلِبِينِيَّةِ" لِيُصْبِحَ "وَلَا فِي النَّيَّةِ"

أَبَقِيَ "فَأَيُّ اتِّهَامٍ لِشَخْصٍ بِذِكْرِ جِنْسِيَّتِهِ هُوَ غُنْصَرِيَّةٌ وَمَرَضٌ نَفْسِيٌّ لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ، لِأَنَّ الشَّخْصَ يُخْطِئُ؛ لَيْسَ لِأَنَّهُ مِصْرِيٌّ أَوْ سَعُودِيٌّ أَوْ بَاكِسْتَانِيٌّ. . . الْخ؛ لَكِنَّهُ يُخْطِئُ لِأَنَّهُ فَلَانٌ بِاسْمِهِ وَشَخْصَهُ فَقَطْ، وَلَا يُحَاسِبُ أَحَدٌ غَيْرَهُ.

أَمَّا التَّحْلِيلُ الْجِينِيُّ الْقَدِيمُ لِإِبْرَاهِيمَ هُوَ أَسْطُورَةٌ كَبِيرَةٌ سَيَطَّرَتْ عَلَى جَمَاعَةِ الْكِيمِيَّيْنِ كَتَيْبَةٌ طَبِيعِيَّةٌ لَتُصَدَّرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَعَصِّبِينَ وَالْمُؤَدَّبِينَ لِهَذَا الْمَلْفِ، وَتِلْكَ النَّسَبُ الْمَذْكُورَةُ لَنْ تَرَاهَا فِي جَامِعِهِ أَوْ مَجَلَّةٍ عِلْمِيَّةٍ مُعْتَرَفٍ بِهَا؛ بَلْ هِيَ نَتِيجَةٌ لِأَبْحَاثٍ خَاصَّةٍ مِنْ بَعْضِ مَرَاكِرِ الْجِينُومِ الْوَرِاثِيِّ الَّتِي تَعْمَلُ بِجُهِودٍ مَدْفُوعَةٍ الْأَجْرِ مِثْلَمَا تَقَدَّمَ، وَهِيَ مُنْتَشِرَةٌ فِي أُرُوبَا نَتِيجَةٌ دَعَاوَى (إِلَى وِروِسْتَرِيَّةِ)، الَّتِي هِيَ مُقَابِلُ (إِلَى وِروِسْتَرِيَّةِ)، الَّذِينَ يَتَعَصَّبُ كِلَاهُمَا وَفَقَا لِلْوَنِّ وَالْبَشَرَةِ، وَيُرِيدَانِ حَصْرَ مُنْجَزَاتِ الْحَضَارَةِ لِشُعُوبِهِمْ دُونَ سَائِرِ الْعَالَمِ. وَيَكْفِي الْعِلْمُ هُنَا أَنَّ الْعَدِيدَ مِنَ الْفَرَنْسِيِّينَ وَالْأَسْبَانِ وَالسُّوَيْسَرِيِّينَ حَلَّلُوا جِنَاتِهِمْ فَوَجَدُوا أَنَّهُمْ أَحْفَادُ لَبُوتِ عَنخِ أُمُونِ وَفَقَا لِمَوْقِعِ BBC نَقَلًا عَنِ مَرْكَزِ iGENEA فِي زِيُورِيخِ الْمُتَخَصِّصِ فِي أَبْحَاثِ الْوَرِاثَةِ وَالْحَمِضِ النَّوَوِيِّ، وَهَذَا بِنَيْعِ لُؤْهِمِ، وَيَأْتِي بَعْضُ الْمُتَعَصِّبِينَ مِنْ شَبَابِ الْكِيمِيَّيْنِ لِنَقْلِ هَذِهِ التَّحَالِيلِ الْجِينِيَّةِ عَلَى أَنَّهَا حَقِيقَةٌ عِلْمِيَّةٌ؛ فَيَبْدُونَ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مَعْنَى (الْحَقِيقَةِ الْعِلْمِيَّةِ)، وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَرَاكِرِ الْجِينِيَّةِ الْمَدْفُوعَةِ، وَيَعَامَلُونَ مَعَ إِخْبَارِ وَمَقَالَاتِ الْإِنْتَرْنِتِ عَلَى أَنَّهَا حَقَائِقٌ مُطْلَقَةٌ.

فَهَؤُلَاءِ يَخْلُطُونَ بَيْنَ الْجِنْسِيَّةِ وَالْجِينُومِ، بِمَعْنَى أَنَّ مِصْرَ جِنْسِيَّةٌ وَقَوْمِيَّةٌ وَتَارِيخِيَّةٌ وَلُغَةٌ وَدِينًا، لَيْسَتْ جِنَاتٌ وَرِاثِيَّةٌ حَمَلَتْهَا مِنْذُ الْآفِ السِّنِينَ مِنْ أَجْدَادِنَا الرَّحُلِ، الَّذِينَ لَمْ يَعْرِفُوا مَعْنَى الدَّوَلَةِ الْحَدِيثَةِ وَالِاسْتِقْرَارَ وَالْحَيَاةَ الْقَانُونِيَّةَ عَلَى التَّمَطِّ الْحَدِيثِ. وَالْخُدْعَةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي نَتَطَلَّبُ عَلَى الْكِيمِيَّيْنِ

هِيَ الْخَلَطُ بَيْنَ الْقَوْمِيَّةِ وَالْأَصْلِ الْجِينِيِّ، هَذَا عَلَى افْتِرَاضِ صُدُقِ تَحَالِيلِ الْجِينُومِ بِالِاتِّصَالِ، مَعَ أَنَّ
أَبْحَاثَ عِلْمِيَّةَ مِنْ مَجَلَّاتٍ مُعْتَرَفٌ بِهَا هُنَا وَ هُنَا وَ هُنَا قَالَتْ بَعْدَ الْيَقِينِ تَجَاهَ أَيِّ تَحْلِيلِ جِنِّي
قَبْلَ 2500 عَامٍ، وَنَسَبَهُ الْخَطَأَ الْجِينِيِّ تَزْتَفِعُ كَمَا تَعَرَّضَتْ الْمَادَّةُ لِلشَّوهِ بِفِعْلِ عَوَامِلِ الْبِيئَةِ؛ فَانْتِ لَا
تَقِيَسُ عُمُرَ الْمَادَّةِ بِالْعِنَاصِرِ الْمَشْعَه؛ بَلْ تَبْحَثُ فِي الْجِينُومِ الْوَرَاثِيِّ، وَهَذَا يَصْعُبُ إِثْبَاتَهُ كَمَا تَقَدَّمَ
الزَّمَنَ.

4

الْقَوْمِيَّةُ الْأَمَازِغِيَّةُ

مِنْ هَمِّ الْأَمَازِغِ وَمَا هِيَ حَقِيقَةُ هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ؟ أُنَّ الْإِجَابَةَ الْمُعْتَادَةَ أَنَّ الْأَمَازِغَ هُمْ بُدُو شَمَالِ
أَفْرِيْقِيَا بَلْ وَالْبَعْضُ يُجِيبُ بِأَنَّهُمُ الشَّعْبُ الْأَصْلِيُّ لِشَمَالِ أَفْرِيْقِيَا، وَأَنَّهُمْ حَمَلُوا أَسْمَاءَ مُتَعَدِّدَةً مِثْلَ "الْبَرْبَرِ
أَوْ الطَّوَارِقِ"، مِنْ غَرْبِ مِصْرٍ مُرُورًا بِلِيْبِيَا وَتُونِسَ وَالْجَزَائِرِ وَالْمَغْرِبِ وَمُورِيْتَانِيَا وَتَشَادَ وَمَالِي وَبُورْكِينَا
فَاسُو وَالتَّنِيجِرَ وَجَزَرَ الْكَنَّارِي (جَزَائِرُ السُّعْدَاءِ قَبْلَ الْغَزْوِ الْإِسْبَانِيِّ)، وَإِنَّ لُغَاتِ تِلْكَ الْجَمَاعَاتِ الْقَبَائِلِيَّةِ
كُلُّهَا تُنْسَبُ إِلَى لُغَةٍ وَاحِدَةٍ أَمَازِغِيَّةٍ وَإِنَّ الْقَبَائِلَ وَالْعَشَائِرَ وَالْبُدُو فِي تِلْكَ الْمِسَاحَةِ مُتَرَامِيَّةِ الْأَطْرَافِ هُمْ
شُعَبٌ وَاحِدٌ وَعَرَقٌ وَجِينَاتٌ وَاحِدَةٌ.

سَرَقَةُ التَّقْوِيمِ الْمِصْرِيِّ الْقِبْطِيِّ

وَلَكِنَّ التَّارِيخَ وَالْأَبْحَاثَ الْأَثَرِيَّةَ تَحْمِلُ إِجَابَاتٍ مُخْتَلِفَةً، فَنِي بَادِي الْأَمْرِ يُوضِحُ الْمُؤَرِّخُ الْفَرَنْسِيَّ جُون
سِيرْفِينَةَ (1918 - 2000) إِنَّ التَّقْوِيمَ الْأَمَازِغِيَّ مَا هُوَ إِلَّا التَّقْوِيمُ الْمِصْرِيُّ الْقِبْطِيُّ، وَإِنَّ بُدُو شَمَالِ

أَفْرِيقِيَا تَأْتِرُوا بِالْمِصْرِيِّينَ وَسَرَقُوا هَذَا التَّقْوِيمَ مِنْ مِصْرَ، أَضَافُهُ إِلَى أَنْ كِلَاهُمَا، التَّقْوِيمُ الْقِبْطِيُّ وَالْإِمَارِيُّ، هُوَ التَّقْوِيمُ الْيُونَانِيُّ وَالرُّومَانِيُّ مَعَ بَعْضِ الْإِضَافَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ.

أَمَّا فَكْرُهُ رَأْسَ السَّنَةِ الْأَمَارِيِّيَّةِ، حَيْثُ يُنَصُّ الْأَمَارِيُّعُ أَنَّهَا تَارِيخُ جُلُوسِ الْأَمَارِيِّيِّ "شَيْشَنْق" عَلَى عَرْشِ مِصْرَ مُؤَسَّسًا الْأَسْرَةَ الـ 22 فِي الْحَضَارَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، فَهُوَ قَوْلُ مَرْدُودٍ عَلَيْهِ تَارِيحِيًّا، بَأَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَيُّ مَرْجِعٍ تَارِيحِيٍّ أَوْ دِرَاسَةٍ جَنْبِيَّةٍ تَبَيَّنَتْ أَنَّ الْأَسْرَةَ الْخَامِسَةَ وَالْعِشْرِينَ كَانَتْ أَمَارِيِّيَّةً.

الْمَلِكُ الْمِصْرِيُّ "شَيْشَنْق" لَمْ يَكُنْ لَيْبِيًّا أَوْ أَمَارِيًّا

وَمَعَ الْبَحْثِ وَإِخْضَاعِ تِلْكَ النُّصُوصِ لِلتَّدْقِيقِ الْعِلْمِيِّ، يَتَّضِحُ أَنَّ الْجَدَّ السَّابِعَ لِلْمَلِكِ "شَيْشَنْق" وَفَقًا لِأَثَارِ الْحَضَارَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ قَدْ أَتَى مِنْ لَيْبِيَا الشَّرْقِيَّةِ، وَإِنْ حَفِيدَ هَذَا الْجَدِّ قَدْ تَزَوَّجَ مِصْرِيَّةً، وَمُنْذُ فَجَّرَ هَذَا التَّارِيخَ فَإِنَّ أَوْلَادَهُ هَذَا الْحَفِيدِ عَاشُوا بِكَامِلِ الْمُواطَنَةِ الْمِصْرِيَّةِ سِوَاءَ الَّذِينَ أَوْ الْجَيْشُ أَوْ السِّيَاسَةُ. "شَيْشَنْق" إِذْنُ كَانَ ابْنُ الْجِيلِ الْخَامِسِ لِهَذَا الْحَفِيدِ الَّذِي تَزَوَّجَ مِصْرِيَّةً، وَابْنُ الْجِيلِ الثَّامِنِ لِهَذَا الْجَدِّ الْأَكْبَرِ الْقَادِمِ مِنْ لَيْبِيَا الشَّرْقِيَّةِ.

وَفِي هَذَا الْعَصْرِ كَانَ قَدَمَاءُ الْمِصْرِيِّينَ يُطْلَقُونَ عَلَى بُدُو الصَّحْرَاءِ الْغَرْبِيَّةِ مُصْطَلَحَ "لَيْبُو" وَهُوَ الْمَسْمُومُ الَّذِي أُطْلِقَ لَاحِقًا عَلَى لَيْبِيَا، وَكَانَتْ الصَّحْرَاءُ الْغَرْبِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ فِي هَذَا الْعَصْرِ تَمْتَدُّ إِلَى مَا يُعْرَفُ الْيَوْمَ بِكَامِلِ شَرْقِ لَيْبِيَا، تَمَامًا كَمَا كَانَ يَمْتَدُّ جَنُوبَ مِصْرَ إِلَى السُّودَانِ الْحَدِيثِ الْيَوْمَ، أَيُّ أَنَّهُ بِمَقَائِيسِ هَذَا الزَّمَنِ فَإِنَّ لَيْبِيَا الشَّرْقِيَّةَ لَمْ تَكُنْ أَرْضَ أَعْجَنَبِيَّةَ بَلْ كَانَتْ مِصْرِيَّةً وَبِالتَّالِيِ فَإِنَّهُ سِوَاءَ الْجَدِّ السَّابِعِ أَوْ الْخَامِسِ أَوْ الْمَلِكِ شَيْشَنْقَ فَإِنَّ الثَّلَاثَةَ مِصْرِيِّينَ بِحَسَابَاتِ عَصْرِهِمْ، وَذَلِكَ دُونَ أَدْنَى إِشَارَةٍ فِي كَافَّةِ أَثَارِ الْحَضَارَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ إِلَى أَنَّ الْمَلِكَ شَيْشَنْقَ كَانَ أَمَارِيًّا فَلَيْسَ كُلُّ مَا هُوَ لَيْبِيٌّ بِاللَّبَعِيَّةِ يُعْتَبَرُ

أمازيغي، وهو مضرّي أبا عن جدّ وإلا لما دخل الجيش المضرّي الذي كان حصرًا في هذا الزمان على المضرّين فحسب.

وإذا كان الأمازيغ قد استغلوا خطأ تاريخيًا حينما حاول بعض المؤرخين نسب الأسرة الـ 22 المضرّية إلى ليبيا، وقد أنفق الزعيم الليبي الراحل معمر القذافي ثروة طائلة على المؤرخين والمثقفين الغربيين قبل العرب من أجل إقرار هذا النص، فإن فكرة أنّ رأس السنة الأمازيغية يواكب عيد جلوس شيشنق على عرش مضر فكره مردودٌ عليها تاريخيًا بأنه من غير المعروف أو المعلوم أو الثابت على وجه الدقة يوم تولى شيشنق السلطة، فالمعروف هو السنة وليس اليوم والشهر كما يدعي الأمازيغ.

ولكن باحث آخر حمل كافة الشكوك التاريخية حول أساطير الأمازيغ أو البربر وبعد سنوات من البحث والأبحاث في الوثائق الفرنسية المهملة رغم أنها لم تعد سرية، أخرج كتاب "أخترع البربر: التاريخ والأيدولوجية في المغرب" أنه رمزي روجيه أستاذ مشارك في دراسات الشرق الأوسط بجامعة جنوب كاليفورنيا.

الاستعمار العربي في المغرب العربي

عرف إقليم المغرب العربي أو شمال أفريقيا عادة حالة من الاستقلال السياسي مقارنة بمناطق الأناضول والشام العربي، وكانت لسلطنة مراکش أو المغرب وضع مستقل وقوي بينما الدول الإسلامية تتعارك في المشرق العربي، وعضد من استقلال المغرب ذلك الاتصال القوي مع دول الإسلام في الأندلس وإيطاليا فشككت تلك الدول إقليمًا مسلمًا قويًا بوجه الوسط والغرب الأوروبي الكاثوليكي.

وَمَعَ مَجِيءِ الْقَرْنِ الثَّاسِعِ عَشَرَ وَضَعْفُ «دَائِي (مَلِك) الْجَزَائِرِ» وَ«بَائِي (مَلِك) تُونِس» وَ«سُلْطَان (مَلِك) الْمَغْرِب) مَرَاكِش»، وَأَنْشَغَالِ مِصْرَ بِمَقَاوِمَةِ التَّمُدُّدِ الْإِنْجِلِيزِيِّ فِي الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ وَضَعْفِ وَتَوَاطُؤِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ مَعَ الْمُجْتَمَعِ الدَّوْلِيِّ ضِدَّ مِصْرَ، تَقَدَّمَتْ فَرَنْسَا وَحَاصَرَتْ الْعَاصِمَةَ الْجَزَائِرِيَّةَ وَأَمْطَرَتْهَا بِالْقَنَابِلِ وَاحْتَلَّتِ الْجَزَائِرَ عَامَ 1830، ثُمَّ تُونِسَ عَامَ 1881، بَيْنَمَا مِصْرُ أَيْضًا تَعَانِي مِنْ مُحَاوَلَاتٍ أَنْجَلَتْهَا لِلتَّدْخُلِ وَالْإِحْتِلَالِ وَهُوَ مَا تَمَّ عَقِبَ أَقَلِّ مِنْ عَامٍ مِنْ دُخُولِ الْفَرَنْسِيِّينَ لِلْعَاصِمَةِ التُّونِسِيَّةِ، وَأَخِيرًا دَخَلَ الْفَرَنْسِيِّينَ فَاسَ عَاصِمَةَ الْمَغْرِبِ وَقَدْ ذَكَرْنَا عَامَ 1912 لِقَعِّ الْمَغْرِبِ تَحْتَ الْإِحْتِلَالِ الْفَرَنْسِيِّ وَالْإِسْبَانِيِّ أَضَافَهُ إِلَى بَعْضِ الْمَنَاطِقِ الْخَاصَّةِ لِلْإِحْتِلَالِ الْأَلْمَانِيِّ وَالْبَرِيْطَانِيِّ، وَلَا حَقًّا تَقَدَّمَتْ إِيطَالِيَا وَاحْتَلَّتْ لِيْبِيَا لِيْتَقَاسِمَ الْعَرْبَ دَوْلَ شَمَالِ أَفْرِيْقِيَا مَعَ وُجُودِ أَنْجَلْتَا فِي مِصْرٍ وَالسُّودَانِ.

وَرَعْمَ أَنَّ الْإِحْتِلَالَ الْإِسْبَانِيَّ لَعَبَ دَوْرًا مُؤَثِّرًا فِي الْمَغْرِبِ كَمَا أَنَّ الْمَغَارِبَةَ الْمُتَعَاوِنِينَ مَعَ مَدْرِيْدِ لَعْبُوا دَوْرًا مُهِمًّا فِي الْحَرْبِ الْإِسْبَانِيَّةِ الْأَهْلِيَّةِ وَلَا حَقًّا فِي الْجُمْهُورِيَّةِ الْإِسْبَانِيَّةِ فِي سَنَوَاتِ حُكْمِ الْجِنْرَالِ فِرَانْكُو، إِلَّا أَنَّ فَرَنْسَا لَعَبَتْ دَوْرًا مُؤَثِّرًا سِيَّاسِيًّا وَثَقَافِيًّا فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّ فَرَنْسَا حَيْثَمَا تَطَلَّعَتْ لِعَزْوِ بُلْدَانِ أَفْرِيْقِيَا، كَانَتْ تَعُوْضُ مَا خَسِرْتَهُ مِنْ مُسْتَعْمَرَاتِ فِي الْقَارَةِ الْأَمْرِيْكِيَّةِ الْجَدِيْدَةِ، فَكَانَتْ مُسْتَعْمَرَاتِ «أَفْرِيْقِيَا الْفَرَنْسِيَّةِ» عَوْضًا عَنِ مُسْتَعْمَرَاتِ «أَمْرِيْكَا الْفَرَنْسِيَّةِ».

وَبِحَسَبِ الْوَثَائِقِ الْفَرَنْسِيَّةِ، فَإِنَّ شُعُوبَ الْمَغْرِبِ أَوْ شَمَالِ أَفْرِيْقِيَا كَانَتْ شُعُوبًا مَجْهُولَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالنِّسْبَةِ لِلْفَرَنْسِيِّينَ، وَلَقَدْ تَفَاجَا الْفَرَنْسِيِّينَ بِتَرَاطٍ وَوَحْدَةٍ الشُّعْبِ الْمَغْرِبِيِّ وَالْجَزَائِرِيِّ وَالتُّونِسِيِّ، أَشْبَهَ بِقَوْمِيَّةِ مُوَحَّدَةٍ تَدِينُ بِدِينِ الْإِسْلَامِ دُونَ مَشَاكِلِ عُنْصُرِيَّةٍ أَوْ طَائِفِيَّةٍ أَوْ طَبَقِيَّةٍ أَوْ حَتَّى عِشَائِرِيَّةٍ أَوْ قَبَائِلِيَّةٍ.

المؤرخ الفرنسي الكسيس دو توكفيل (1805 - 1859)، الذي يعدُّ من أهم رموز الليبرالية الفرنسية واليسار الليبرالي، والذي شغل منصب وزير الخارجية كما تولى منصب رئيس إقليم المانش الفرنسي، عبّر عن جهل إلاتلجنسيا الباريسية (أي التُّحبة الثقافية في باريس) في كتابته "تقرير عن الجزائر" الصادر عام 1847، حيث كتب: "لم تكن لدينا فكرة واضحة عن الأعراق المختلفة التي سكنت البلاد، أو عن عاداتهم، كذلك لم نكن على دراية بأي كلمة من اللغات المنطوقة هناك". لكن هذا لم يمنعه من الاعتراف بأن "جهلنا الكامل تقريباً بكل هذه الأمور، لم يمثل عقبة أمام انتصارنا، لأن النصر في المعركة حليف الأقوى والأكثر جسارة، لا الأكثر اطلاعا".

وبعد دراسات ثقافية قام بها مثقفون عملوا في الجيوش الاستعمارية الفرنسية ولاحقاً تم اعتبارهم من رموز الفكر الليبرالي والحريات والحركة الثقافية العالمية، وجد الفرنسيون إن شعوب الدول الثلاث ينظرون إلى خصوصيتهم الثقافية باعتبارهم مسلمون دون النظر إلى العرق أو القومية.

صناعة الصراع بين العرب والبربر في شمال أفريقيا

قرّر الغزاة الفرنسيون تقسيم تلك المجتمعات إلى قوميات، وخلق قومية الأمازيغ أو البربر، على ضوء إن اللغة العربية هي السائدة في تلك الدول وبالتالي فإن أفكار القومية العربية حاضرة في نفوس تلك الشعوب ولا تنتظر سوى قومية مضادة تصدح بخطاب انفصالي حتى تتصاعد القومية العربية في النفوس، وهكذا نتج عنه فرقة تسد في إشغال تلك الشعوب عن مقاومة الاستعمار وعن التوحد في وجه أوروبا وتصبح شمال أفريقيا في حزب أهلية دائمة وحزب ثقافية واضطرابات شعبية بين قوميتين صنعهم الغرب، القومية العربية وقوميه الأمازيغ.

وَلِلْمَفَارِقَةِ فَإِنَّ الْوَتَائِقَ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ تَتَّفِقُ مَعَ الْفَرَنْسِيَّةِ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ، سَبَقَ لِعَالِمِ الْأَثَارِ الْبَرِيطَانِيَّةِ
إِلِيزابيث فينتريس بِالْإِسْتِرَاكِ مَعَ الْمَوْزَخِ مَائِكَلِ بَرْتِ أَصْدَرَا عَامَ 1997 كِتَابَ بِعَنْوَانِ "الْبَرْبَر" وَاسْتَعَانَ
الْكُتُبَ بِوَتَائِقِ بَرِيطَانِيَّةِ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ فَرَنْسَا عَمَدَتْ فِي شَمَالِ أَفْرِيْقِيَا إِلَى "صِنَاعَةِ قَوْمِيَّةٍ مَعَاكِسِهِ لِلْقَوْمِيَّةِ
السَّائِدَةِ وَإِحْسَاسٍ بِالْأَسْبَقِيَّةِ الْأَثْنِيَّةِ تُؤَدِّي إِلَى اشْتِبَاكِ تَقَافِي وَفِكْرِي يُفَكِّكُ الْوَحْدَةَ الْوَطَنِيَّةَ".

وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مُشْكَلَةٌ لَدَى مُفَكِّرِي الْعَرَبِ فِي إِجْمَادِ صِلَةٍ بَيْنَ الْبَرْبَرِ وَالْفَرَنْجَةِ وَالْقَوَطِ مِنْ أَجْلِ تَعْمِيقِ
الْأُصُولِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْعَرَقِيَّةِ لِلْبَرْبَرِ، وَإِتْبَاحِ فِكْرِهِ أَنَّ الْبَرْبَرِ هُمُ السُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ لِشَمَالِ أَفْرِيْقِيَا وَالْمَغْرِبِ
الْعَرَبِيِّ، وَإِنَّ التَّوَصِيَّاتِ الْأُورُوبِيَّةَ لِلْإِحْتِلَالِ الْفَرَنْسِيِّ سَعَتْ إِلَى صِنَاعَةِ أُسْطُورَةٍ أَنَّ "الْبَرْبَرِ هُمُ السُّكَّانِ
الْأَصْلِيِّينَ لِشَمَالِ أَفْرِيْقِيَا أَصْحَابِ الْهَيْمَنَةِ التَّارِيخِيَّةِ".

وَعَمَدَ الْفَرَنْسِيُّونَ إِلَى "تَهْمِيْشِ شُعُوبِ الْمَوْرِ (سُكَّانِ الْمَغْرِبِ) وَالْقَرْطَاجِيَّةِ (سُكَّانِ تُونِسِ) وَالْمُورِيَّتَانِ
(سُكَّانِ مُورِيَّتَانِيَا) وَاللِّيْبُو (سُكَّانِ لِيْبِيَا) وَاعْتَبَرُوهُمْ عَرَبَ مُقَابِلِ تَضَخِيمِ قَوْمِيَّةِ الْبَرْبَرِ أَوْ الْقَوْمِيَّةِ
الْبَرْبَرِيَّةِ".

وَيُشِيرُ الْكُتَابَيْنِ، الْفَرَنْسِيِّ وَالْبَرِيطَانِي الْمَشَارِ إِلَيْهِمَا فِي السُّطُورِ السَّابِقَةِ، إِلَى أَنَّهُ لَا يُوجَدُ تَجَانُسٌ اُنْتِي
وَالْوَحْدَةَ الْإِنْشُجْرَافِيَّةِ أَوْ اُنْتَرُوبُولُوجِيَّ بَيْنَ كَافَّةِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ الَّتِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا بَرْبَرٌ أَوْ أَمَازِيغٌ أَوْ طَوَارِقٌ،
بِمَعْنَى أَنَّهُ قَبَائِلٌ أَوْ بُدُودٌ شَمَالِ أَفْرِيْقِيَا هُمُ قَبَائِلٌ مُتَفَرِّقَةٌ وَعَشَائِرٌ لَا يَجْمَعُهَا أُصُولٌ عَرَقِيَّةٌ أَوْ قَوْمِيَّةٌ وَاحِدَةٌ،
وَإِنْ أُنِيَ بَحْثٌ جَادٌ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ يَجِدُ صُعُوبَةً فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ الْجَدَاوِلِ الزَّمْنِيَّةِ وَالْأُصُولِ الْعَرَقِيَّةِ
وَالْبَشَرِيَّةِ وَالشَّكْلِ الْعَامِّ وَالْإِحْيَاءِ وَفِيهِ اللُّغَةُ (عِلْمُ أُصُولِ الْكَلَامِ أَوْ اللُّغَوِيَّاتِ) وَالْاُنْتَرُوبُولُوجِيَا الْفِيْزِيَايَايَّةِ
وَعِلْمُ الْأَثَارِ، وَالْاُنْتَرُوبُولُوجِيَا الثَّقَافِيَّةِ.

ويشير رمزي روجي إلى أنه حينما فشلت فرنسا ومعها إنجلترا في صناعة قومية عرقية، لجأت إلى قومية اللغة، بمعنى أنه يتم البحث عن مصدر موحد للغات التي يتحدث بها بدو شمال أفريقيا، ولكن - وبحسب الوثائق الفرنسية في الدارسة - أنه لا يوجد لغة أمازيغية واحدة بل لغات متعددة يتحدث بها بدو شمال أفريقيا، وأنه قبل الاحتلال الفرنسي لشمال أفريقيا لم ينظر أحد إلى تلك اللغات واللهجات باعتبارها "إبنة لغة موحدة أو واحدة كانت موجودة يوماً ما" وحتى فرضية وجود لغة أمازيغية كبرى أو اللغة الأمازيغية الأم التي خرج منها كافة تلك اللغات فإنها فرضية علمية لم تكن موجودة قبل الاحتلال الفرنسي الذي صنع تلك الفرضيات العلمية بتوصيات استعمارية امبريالية.

وتشير الدراسات الفرنسية والبريطانية إلى أن كافة القبائل والعشائر الأفريقية في الشمال كان لها استقلال لغوي وثقافي وأتى بعيداً عن القبيلة والعشيرة المجاورة، ولكن كما الحال مع كافة لغات العالم، مثلما الحال على سبيل المثال بين اللغة العربية واللغة الإنجليزية، فإن هنالك بعض الكلمات والمصطلحات المتشابهة، ووجد الاستعمار الفرنسي ضالته في هذا التشابه للدعاء بالقول إن هنالك لغة أمازيغية قديمة هي الرابط اللغوي المشترك بين عشرات اللغات واللهجات المستخدمة في شمال أفريقيا.

اللغات المصرية القديمة مصدر اللغات الأمازيغية

وحول أصول تلك اللغات واللهجات الأفريقية المتأثرة يشير رمزي روجي إلى أن الدراسات والوثائق الفرنسية ربطت بين تلك اللغات واللغات المصرية القديمة، وإن التأثر الثقافي واللغوي لبدو شمال أفريقيا بالثقافة المصرية واضح للغاية، وإن أغلب لغات ولهجات بدو شمال أفريقيا التي يطلق عليها اليوم لغات أمازيغية هي نتاج تأثر هؤلاء البدو باللغات المصرية القديمة التي تعتبر اللغة الأم لهذه اللهجات.

وَقَبْلَ أَنْ يَغْزُوا الْعَرَبِ أَوْ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلَ لِشَمَالِ غَرْبِ أَفْرِيقِيَا فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ، كَمَا يُؤَكِّدُ رَمَزِي رُوحِي،
لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بَرَبْرَ بِالْمَفْهُومِ أَوْ الذَّبَاجَةِ الَّتِي يَرُوحُ لَهَا الْبَعْضُ الْيَوْمَ عَبْرَ كُتُبِ التَّارِيخِ، كَانَتْ الشُّعُوبُ
الْمَوْجُودَةَ هِيَ الْمُورِ وَالْمُورِيَّانِ وَالْمُورِيَّتَيْنِ وَالْإِفَارِقَةَ وَالْعَدِيدُ مِنَ الْقَبَائِلِ وَالِاتِّحَادَاتِ الْقَبِيلِيَّةِ مِثْلَ لِيُونَايِ
أَوْ مُوسُولَامِي؛ وَقَبْلَ الْعَرَبِ لَمْ يَعْتَقِدْ أَحَدٌ أَنَّ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ تَشْتَرِكُ فِي أَصْلِ أَوْ تَقَافَةٍ أَوْ لُغَةٍ مُشْتَرَكَةٍ.
قَبْلَ الْعَرَبِ، كَانَ الرُّومَانُ يَنْظُرُونَ إِلَى سُكَّانِ أَفْرِيقِيَا بِالْكَامِلِ بِاعْتِبَارِهِمْ «الْبَرَابِرَةَ» وَبِالتَّالِيِ فَإِنَّ مَا فَعَلَهُ
الِاسْتِعْمَارَ الْفَرَنْسِيِّ هُوَ إِحْيَاءُ الْفِكْرِ وَالْمُصْطَلَحِ وَالْوَصِيفِ الرُّومَانِيِّ، تَمَامًا كَمَا فَعَلَ الْاسْتِعْمَارُ الْعَرَبِيُّ
عُمُومًا فِي إِفْرِيقِيَا وَآسِيَا حِينَمَا أَتَى بِأَفْكَارِ يُونَانِيَّةٍ وَرُومَانِيَّةٍ وَقَامَ بِإِحْيَاءِ تِلْكَ الْأَفْكَارِ لِصِنَاعَةِ تَارِيخِ بُدِيلِ
وَمُرْتَبِيفِ تِلْكَ الشُّعُوبِ.

خَطَا تَارِيخِيَّ لَدَى الْمُرْتَبِيفِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ

الْعَرَبُ أَطْلَقُوا الْبَرَبْرَ عَلَى شِمَالِ أَفْرِيقِيَا تَمَامًا كَمَا أَطْلَقَ الْمُسْتَعْمِرُ الْأُورُوبِيُّ عَلَى سُكَّانِ أَمْرِيكَ الْأَصْلِيِّينَ
مُصْطَلَحَ الْهُنُودِ الْحُمْرِ، دُونَ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُمْ قَبَائِلُ وَشُعُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ، يَقُولُ الْكَاتِبُ أَنَّ الْعَرَبَ لَوْ تَوَقَّفُوا عِنْدَ
الغزو في غَرْبِ مِصْرٍ لَكَانَ الْبَرَبْرَ هُمْ غَرْبِ مِصْرٍ فَحَسَبَ، فَإِنَّ الْمُصْطَلَحَ تَمَدَّدَ بِالْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ
وَأَصْبَحَ كُلُّ إِقْلِيمٍ يَغْزُوهُ الْعَرَبُ تَحْتَ مُسَمًّى الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ هُوَ إِقْلِيمٌ جَدِيدٌ لِلْبَرَبْرِ.
أَمَّا مُصْطَلَحُ أَمَازِيغٍ فَهُوَ مُسَمًّى وَاحِدَةً فَحَسَبَ مِنْ تِلْكَ الْعَشَائِرِ الَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى
فِي إِحْدَى فتراتِ التَّارِيخِ أَبَانَ الْعَصْرَ الرُّومَانِيَّ.

الْحَقِيقَةُ الَّتِي تَوَصَّلَتْ لَهَا الدَّرَاسَاتُ التَّارِيخِيَّةُ

هَكَذَا يَتَّضِحُ لَنَا أَنَّ بَرَبْرُ أَوْ أَمَانِيعَ أَوْ حَتَّى طَوَارِقِ الْمَغْرِبِ هُمْ قَبَائِلُ وَعَشَائِرُ مَغْرِبِيَّةٌ لَا يَرْبِطُهَا أَيْ عَرَقٌ
أَوْ لُغَةٌ أَوْ تَقَافَةٌ أَوْ امْتِدَادِ عِشَائِرِيٍّ أَوْ تَقَافِيٍّ أَوْ أَمَانِيعِيٍّ مَعَ بَرَبْرُ أَوْ أَمَانِيعَ أَوْ حَتَّى طَوَارِقِ الْجَزَائِرِ، كَذَا
الْأَمْرُ بِالنِّسْبَةِ لِأَمَانِيعِ الْجَزَائِرِ مَعَ أَمَانِيعِ لِيَبِيَا، كَذَا الْأَمْرُ مَعَ بُدُو الصَّحْرَاءِ الْغَرْبِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ مَعَ طَوَارِقِ مَالِيٍّ،
كَذَا الْأَمْرُ مَعَ أَمَانِيعِ تُونَسَ وَطَوَارِقِ النِّيجَرِ، هُوَلاءِ الْبُدُو لَا يَنْتَسِبُونَ إِلَّا لِشُعُوبِهِمْ وَبُلْدَانِهِمْ فَحَسَبُ، لَا
يُوجَدُ أَيْ رَابِطٌ بَيْنَهُمْ اسْمُهُ أَمَانِيعِيٍّ أَوْ بَرَبْرَةٌ أَوْ طَوَارِقُ، وَلَكِنْ تِلْكَ الْقَوْمِيَّةُ كَانَتْ صِنَاعَةً قَرْنِيَّةً
وَبَرِبْرِيَّةً خَالِصَةً، وَإِنْ أَقْصَى مَا هُوَ ثَابِتٌ فِي التَّارِيخِ هُوَ أَنَّ كَلِمَةَ بَرَبْرُ أَوْ أَمَانِيعَ كَانَتْ مُصْطَلَحَ رُومَانِيٍّ
أُطْلِقَ عَلَى مَجَاهِلِ أَفْرِيْقِيَا دُونَ أَيِّ دِرَاسَاتٍ تَقَافِيَّةٍ أَوْ لُغَوِيَّةٍ أَوْ عَرَقِيَّةٍ، مُجَرَّدَ إِرْثِ اسْتِعْمَارِيٍّ رُومَانِيٍّ
وَضَلَفَةِ الْفَرَنْسِيِّينَ وَالْبَرِبْرَانِيِّينَ فَحَسَبُ اسْتِغْلَالًا لِأَخْطَاءِ الْمُؤَرِّخِينَ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ فِي فَجْرِ حِقْبَةٍ دِينِ
الْإِسْلَامِ.

تَسْلِيحُ الْعَرَبِ ضِدَّ الْبَرَبْرِ

وَمَنْ أَجَلَ تَأْلِيْبِ الشُّعُوبِ الْمَغَارِبِيَّةِ عَلَى بَعْضِهَا الْبَعْضِ، وَصِنَاعَةِ مَظْلُومِيَّاتٍ، وَحَسَاسِيَّاتٍ قَوْمِيَّةٍ بَيْنَ
الْعَرَبِ وَالْبَرَبْرِ/الْأَمَانِيعِ، قَامَ الْاِخْتِلَالُ الْفَرَنْسِيُّ بِتَأْسِيسِ مَكَاتِبِ الْعَرَبِ فِي عَامِ 1844، وَهِيَ هَيْئَةٌ أَدَارِيَّةٌ
تَضَمُّ الْمَتَوَاطِنَ مِنْ سُكَّانِ الْجَزَائِرِ مَعَ الْاِخْتِلَالِ، هُوَلاءِ الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى الْاِخْتِلَالِ الْفَرَنْسِيِّ بِاعْتِبَارِهِ مُهِمَّةً
حَدَاثَةً وَتَنْوِيرًا لِلْمَغَارِبَةِ الْجَهْلَةِ.

ضَمَّتْ مَكَاتِبُ الْعَرَبِ جَيْشٍ مِنْ سُكَّانِ الْجَزَائِرِ شَرِيْطَةً أَنْ يَكُونُوا غَيْرَ أَمَانِيعِ، شَارَكُوا فِي الْفِتْحِ
الْعَسْكَرِيِّ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ مَعَ الْاِخْتِلَالِ الْفَرَنْسِيِّ، كَمَا ضَمَّتْ مَكَاتِبُ الْعَرَبِ مُتَقَفِينَ وَكُتَّابًا وَمُفَكِّرِينَ

جزائريين عملوا مع الاحتلال وضم هذا التنظيم أيضا جهاز استخبارات يقوده الفرنسيون لدراسة وفهم مجتمعات شمال أفريقيا وبث الفتن القومية والعرقية بينهم.

مع سقوط الإمبراطورية الفرنسية عقب الهزيمة العسكرية أمام ألمانيا القيصرية في حرب 1870، وقيام الجمهورية الفرنسية الثالثة، عمد الاستعمار الفرنسي إلى معاملة الجميع بخطرته واعتبار الشعوب المغاربية جنسا أقل من الفرنسيين، فتم حل مكاتب العرب بعد أن ظلت جزءا من وزارة الحرب (الدفاع) الفرنسية.

إسقاط الجنسية عن العرب والبربر المسلمين

مع سقوط النظام الإمبراطوري الفرنسي وإعلان الجمهورية الثالثة، قدم وزير العدل الفرنسي الجديد أدولف كريميه (1880-1879) مشروع منح الجنسية الفرنسية لليهود الجزائري، أما فيما يتعلق بالمسلمين، كان ما يسمى "قانون كريميه" يشترط على كل مسلم عربي أو بربري - بحسب التسميات الفرنسية - أن يتقدم بطلب مواطنته رسمي فزدي أن يتخلى عن الإسلام والعمل بقوانينه بشكل رسمي. ما يعني أن المسلمين شكلوا طبقة أدنى من سكان الجزائر الفرنسية، أفراد بلا حقوق سياسية كاملة.

صناعة التطرف المسيحي لدى الأمازيغ

ومع بدء سياسة الاستيطان الفرنسي في شمال أفريقيا، وتحويل المواطن الفرنسي إلى مواطن من الدرجة الأولى بينما سكان الجزائر والمغرب وتونس سكان من الدرجة الأدنى، لعب الفرنسيون لعبة أخرى إلا وهي المبشرون الكاثوليك الفرنسيون الذين يذكرون البربر/الأمازيغ بأنهم كانوا من أوائل الشعوب التي أمنت بالمسيحية على يد الغزاة الرومان، وإن الفرنسيون كشعب مسيحي روماني يتطلع للتعاون مع

الشَّعْبُ الْبُرْبُرِيُّ الَّذِي أُجْبِرَهُ الْمُسْلِمُونَ الْغَزَاةَ عَلَى تَرْكِ الْمَسِيحِيَّةِ وَإِجْبَارُهُ عَلَى دُخُولِ دِينِ الْإِسْلَامِ،
وَلَقَى هَذَا الْحَدِيثَ صَدِيٌّ ثَقَافِيٌّ فِي نَفْسِ الْكَثِيرِ مِنَ التَّحِبِ الْأَمَارُئِيِّهِ وَقَيْدَاكَ الَّتِي صَنَعَ الْإِحْتِلَالَ
الْفَرَنْسِيَّ فِي خِطَابِهَا "أَجْوَاءَ الْحُنَيْنِ إِلَى الدِّينِ الْمَسِيحِيِّ" رَغْمَ أَنَّهُ لَا حَقِيقَةً لِهَذِهِ الْأَجْوَاءِ أَوْ هَذَا الْحُنَيْنِ
قَبْلَ الْغَزْوِ الْفَرَنْسِيِّ لِسُومَالِ أَفْرِيْقِيَا .

ثَانِيًا

التِّيَارُ الْيَسَارِيُّ الْإِشْتِرَاكِيُّ

وَتَقْصِدُ هُنَا بـ"اليسار" الْإِطَارَاتِ وَالتِّيَارَاتِ الْحِزْبِيَّةَ التَّقْلِيدِيَّةَ، الَّتِي تَبَنَّى الْمَارْكَسِيَّةَ الْلِينِينِيَّةَ كَأَيْدِيُولُوجِيَّةٍ
مُغْلَقَةٍ وَنَهَائِيَّةٍ، وَبَعْضَ الْمُتَقَفِّينَ الْمُسْتَقْلِلِينَ مِنْ "اليساريين"، عَلِمَا أَنَّ تَمَّةَ يَسَارِيَّيْنِ كَثْرًا انْخَرَطُوا فِي هَذِهِ
الثُّورَاتِ، وَدَافَعُوا عَنْ ضُرُورَتِهَا وَمَشْرُوعِيَّتِهَا، وَرَأَوْا فِيهَا حُلْمَهُمْ بِالتَّغْيِيرِ.

وَعَلَى ضَوْءِ كُلِّ ذَلِكَ، فَمَا "اليسار" حَقًّا؟ وَمَاذَا يُعْنِي بِالضُّبْطِ؟ وَمَنْ أَيْنَ يَسْتَمِدُّ مَشْرُوعِيَّتَهُ؟ هَلْ مِنْ
أَيْمَانِهِ الطَّبَقِيِّ الْمُفْتَرَضِ (إِلَى الطَّبَقَةِ الْعَامِلَةِ)؟ أَمْ مِنْ اتِّكَانِهِ عَلَى مَنْظُومَةِ أَيْدِيُولُوجِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ (الْمَارْكَسِيَّةِ-
الْلِينِينِيَّةِ)؟ أَمْ مِنْ حَمَلِهِ النَّضَالَ مِنْ أَجْلِ الْإِشْتِرَاكِيَّةِ وَضِدَّ الْإِمْبِرِيَالِيَّةِ؟ أَمْ مِنْ مُعَايَشَتِهِ قَضَايَا مُجْتَمَعَةٍ؟
فِي الْحَقِيقَةِ، أَنَّ مَفْهُومَ "اليسار" فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ يُحِيلُ إِلَى جُمْلَةٍ مِنَ الْمَفَاهِيمِ وَالْقَضَايَا، ضَمِنَهَا النَّظَرَةُ
إِلَى الْمُجْتَمَعِ وَفُقِ التَّقْسِيمَاتِ الطَّبَقِيَّةِ، وَاعْتِبَارِ الصَّرَاحِ الطَّبَقِيِّ بِمَثَابَةِ الْمَحْرُوكِ لِلتَّارِيخِ، ارْتِبَاطًا بِالصَّرَاحِ
ضِدَّ نَمَطِ الْإِتْبَاحِ الرَّأْسِمَالِيِّ، لِتَقْوِيضِ سَلْطَةِ الْبُرْجُوزَارِيَّةِ الْمَحَلِّيَّةِ، وَالتَّخْلُصِ مِنْ هَيْمَنَةِ الْإِمْبِرِيَالِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ.

وَبِالطَّعِ، فَإِنَّ قَضِيَّةَ الْيَسَارِ فِي غُضُونِ كُلِّ ذَلِكَ - تَمَثَّلُ فِي انْتِزَاعِ السُّلْطَةِ لِإِقَامَةِ الْعَدَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي دَوْلَةِ اشْتِرَاكِيَّةٍ، تُقَوِّدُهَا الطَّبَقَةُ الْعَامِلَةُ مِنْ خِلَالِ حَزْبِهَا، وَفِي إِطَارِ التَّحَالُفِ مَعَ الْفَلَاحِيِّنَ وَالْمُتَقَفِّينَ الثَّوْرِيِّينَ .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ قَضِيَّةَ فَلَسْطِينِ بَاتَتْ - أَيْضًا - عَلَى أَجْنَدِهِ الْأَحْزَابُ وَالْحَرَكَاتُ الْيَسَارِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ، مَعَ صُغُودِ الْمُقَاوَمَةِ الْفَلَسْطِينِيَّةِ، خَاصَّةً مَعَ بُرُوزِ الْجَبْهَتَيْنِ الْيَسَارِيَّتَيْنِ (الْدِيمُقْرَاطِيَّةِ وَالشَّعْبِيَّةِ)، بِاعْتِبَارِ إِسْرَائِيلِ مُجْرَدِ قَاعِدَةٍ مِنْ قَوَاعِدِ الْأَمْبِرْيَالِيَّةِ فِي الْمِنْطَقَةِ .

هَكَذَا، عِشْنَا عُقُودًا عَلَى مُقَرَّرَاتِ اللَّجَانِ الْمُرَكَّبَةِ لِلْأَحْزَابِ الشُّيُوعِيَّةِ وَالْيَسَارِيَّةِ، وَبَيِّنَاتِهَا، وَادْبَاتِهَا، الَّتِي كَانَتْ تَتَحَدَّثُ بِبِقِيَّةِ مُدْهَشَةٍ عَنْ سِمَةِ الْعَصْرِ، الَّتِي تَمَثَّلُ بِأَقْوَالِ الرَّأْسْمَالِيَّةِ وَاتِّصَارِ الْاِشْتِرَاكِيَّةِ، بِفَضْلِ تَصَافِرِ وَصُغُودِ قَوِيِّ الْعَمَلِيَّةِ الثَّوْرِيَّةِ الثَّلَاثِ، أَيِ الْمُنْظُومَةِ الْاِشْتِرَاكِيَّةِ، وَالْأَحْزَابِ الشُّيُوعِيَّةِ فِي الْبُلْدَانِ الرَّأْسْمَالِيَّةِ، وَحَرَكَاتِ التَّحَرُّرِ الْوَطَنِيِّ فِي الْبُلْدَانِ الْمُسْتَعْمَرَةِ، وَالَّتِي أُضِيفَ إِلَيْهَا "التَّنْظِمُ الدِيمُقْرَاطِيَّةِ الثَّوْرِيَّةِ"، أَوْ بُلْدَانِ "التَّطَوُّرِ الْاِشْتِرَاكِيَّةِ"، الَّتِي بَاتَتْ تَشْمَلُ سُورِيَا وَالْعِرَاقَ وَلِيْبِيَا .

كَانَتْ تِلْكَ هِيَ التَّرْسِيمَةُ الْمَعْهُودَةُ، الَّتِي وَسَمَّتْ كُلَّ الْاِنْشَاءَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الصَّادِرَةِ عَنْ مُعْظَمِ تَشْكِيلَاتِ الْيَسَارِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ، وَالَّتِي شَكَّلَتْ هَوِيَّتَهَا السِّيَاسِيَّةَ، وَالْفِكْرِيَّةَ، رَدْحًا طَوِيلًا مِنْ الزَّمَنِ .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَشْكِيلَاتِ الْيَسَارِ السَّائِدَةَ هَذِهِ لَمْ تَتَحَوَّلْ إِلَى تِيَارِ فَاعِلٍ فِي الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَهِيَ لَمْ تَصِلْ إِلَى السُّلْطَةِ فِي أَيِّ بَلَدٍ، بِاسْتِثْنَاءِ "الْيَمَنِ الدِيمُقْرَاطِيَّةِ السَّابِقِ"، وَلَمْ تَسْتَطِعْ حَتَّى الْمُشَارَكَةَ فِي الْحُكْمِ، بَلْ إِنَّهَا فَوْقَ ذَلِكَ انْحَسَرَتْ كَثِيرًا .

طَبْعًا، لَا يُمَكِّنُ تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِإِهْيَابِ الْإِتِّحَادِ السُّوْفِيَّاتِي (السَّابِقِ)، فَهَذَا عَلَى أَهْمِيَّتِهِ لَا يَكْفِي، إِذْ أَنَّ ضِيَاعَ تَشْكِيلَاتِ "الْيَسَارِ" وَفَقْدَانَهَا هَوِيَّتَهَا حَصَلَ قَبْلَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ، وَأَسْبَابُ تَعَلُّقِ بَعْزِهَا عَنِ الْوَاقِعِ، وَعَدَمَ قُدْرَتِهَا عَلَى تَمَثُّلِ أَحْوَالِ مُجْتَمَعَاتِهَا، وَتَحْلِيهَا عَنِ قَضِيَّتِهَا وَعَنْ دَوْرِهَا السِّيَاسِيِّ، وَفَقْدَانِهَا أَهْلِيَّتِهَا هَكَذَا، فَإِنَّ تَنْظِيمَاتِ "الْيَسَارِ" فِي الْبُلْدَانِ الْعَرَبِيَّةِ - فِي أَغْلَبِ الْأَحْوَالِ - لَمْ تَقْدَمْ نَقْدًا سِيَاسِيًّا لِلْوَاقِعِ السِّيَاسِيِّ وَالْإِجْتِمَاعِيِّ وَالْاِقْتِصَادِيِّ وَالثَّقَافِيِّ الْعَرَبِيِّ، إِلَّا فِي حَالَاتٍ نَادِرَةٍ، وَمِنْ شَخْصِيَّاتِ يُسَارِيَّةِ مُسْتَقَلَّةٍ، أَوْ مَنْشَقَةٍ، مِثْلُ إِيَّاسِ مَرْقُصٍ وَيَاسِينَ الْحَافِظِ وَصَادِقِ جَلَالِ الْعُظْمِ وَعَبْدُ اللَّهِ الْعُرُويِّ وَفُوَادِ مَرْسِيِّ وَجُورِجِ طَرَابَيْشِيِّ وَمَهْدِيِّ عَامِلٍ.

وَقَدْ أَخَذَ هَؤُلَاءِ عَلَى الْمَارْكَسِيَّةِ-اللِّبْنِيَّةِ عَدَمَ إِيمَانِهَا بِالْديمُقْرَاطِيَّةِ، وَاسْتَهْأَارِهَا بِقِيَمَةِ الْحُرِّيَّةِ، وَهُوَ الْمَأْخُذُ ذَاتَهُ الَّذِي أَخَذَهُ حَتَّى أَرِنَدتْ عَلَى الْمَارْكَسِيَّةِ، كَمَا أَخَذُوا عَلَى الْأَحْرَابِ وَالْقَوِيِّ السُّيُوعِيَّةِ أَوْ الْيُسَارِيَّةِ اسْتِثْنَائِهَا نُسْخَ النَّظَرِيَّةِ الْمَارْكَسِيَّةِ عَلَى الْوَاقِعِ الْعَرَبِيِّ، وَالتَّعَامُلِ مَعَهَا كَانْدِيُولُوجِيَّةِ جَاهِرَةٍ وَمُغْلَقَةٍ، أَوْ كـ"دِينٍ" آخَرَ، يَتَّسَسُ عَلَى الْإِيمَانِ، لَا عَلَى الدَّرَاسَةِ وَالشَّكِّ وَإِمْعَانِ التَّفْكِيرِ.

لِذَا، ثَمَّةَ مَا يَثِيرُ الْاسْتِعْرَابَ فِي الْإِدْعَاءَاتِ السِّيَاسِيَّةِ لِلْقَوِيِّ "الْيُسَارِيَّةِ" السَّائِدَةِ، فَالْمُجْتَمَعَاتُ الْمُعْنِيَّةُ لَمْ تَصِلْ بَعْدُ إِلَى الْمُسْتَوَى اللَّارِمْ مِنْ التَّطَوُّرِ الطَّبَقِيِّ، وَالطَّبَقَةُ الْعَامِلَةُ (الْبُرُولِيَّاتِيَا) طَبَقَةُ "أَقَلِّيَّةٍ" فِي مُجْتَمَعَاتِهَا، وَالْأَهَمُّ أَنَّ الْمُجْتَمَعَاتِ الْعَرَبِيَّةَ مُنْقَسِمَةٌ عَلَى نَفْسِهَا عَمُودِيًّا عَلَى أُسُسٍ هَوِيَّاتِيَّةٍ دِينِيَّةٍ أَوْ مَذْهَبِيَّةٍ أَوْ عِشَائِرِيَّةٍ أَوْ مَنَاطِقِيَّةٍ، بَدَلِ الْإِنْقِسَامِ الْأُفُقِيِّ عَلَى الْمَصَالِحِ وَالسِّيَاسَاتِ، كَمَا يَتَّضِحُ هَذِهِ الْأَيَّامُ، وَفِي الْمَحْصَلَةِ فَإِنَّ الْفُقَرَاءَ يَتَّصِرُونَ أَوْ يَتَّقَاتُونَ مَعَ الْفُقَرَاءِ، فِي حَرْبِ الضَّحَايَا ضِدَّ الضَّحَايَا.

في هذا الإطار، يُمكن لفت الانتباه -أيضاً- إلى أن الطبقات الكادحة لم تتواجد في الكيانات اليسارية بمقدار تواجدها في الكيانات الإسلامية أو القومية أو الوطنية، وثمة ملاحظة قديمة لي مفادها أن "الطبقة العاملة الفلسطينية -مثلاً- وجدت في "فتح البرجوازية" أكثر منها في الفصائل "اليسارية"، لأسباب منها أن الانتماء إلى اليسار يتطلب مستوى ثقافياً معيناً لا يتوافر لدى أغلب أبناء الطبقات الكادحة.

الأهم أن الحديث عن الانتماء إلى الطبقة العاملة -والمقصود الطبقة الصناعية- ليس له صلة بواقع التركيب الطبقي لمجتمعاتنا (كما عالمياً)، لسبب بسيط هو أن مجتمعاتنا لم تشهد تلك النهضة الصناعية التي تجعل العمال طبقة بذاتها، ولأن معظم عمالنا يعملون في الخدمات.

فمثلاً، بين الأعوام 1995 و2013 تراوحت نسبة العاملين في الصناعة بين 17 و19% من حجمهم الإجمالي، بينما تراوحت نسبة العاملين في الخدمات بين 47 و60%

فالطبقة العاملة الصناعية لم تعد الأكثرية في المجتمع، ولا الطبقة ذات النزعة التقدمية (كما سابقاً)، بحكم ارتباطها بقطاعات الإنتاج الصناعية الوليدة حينها، وذلك بواقع الانتقال إلى وسائل إنتاج ما بعد صناعية (مترتبة بالعلوم والتكنولوجيا). ولعلّ التذكير يفيد بأن إجمالي الناتج المحلي العربي من الصناعة بلغ 187 بليون دولار، من حوالي ألفي بليون إجمالي الناتج المحلي السنوي، أي بحصة مقدارها 9.1% فقط.

وبشأن الحالة إلى الماركسيّة اللينينية يُمكن القول أن موت هذه النظرية يأتي من تحويلها إلى مذهب مُعلق ونهايي -أو "دين" جديد- شأنها شأن الأديان، بدلاً من إعطائها مكانتها المناسبة في إطار تطور

الأفكار السياسية والاقتصادية والفلسفية. وفي الواقع، فإنَّ الوقوف عند هذه النظرية يُفيدُ الإقرارَ بمشروعية "نهاية التاريخ"، وهو أمرٌ غيرٌ معقولٍ، باعتبارِ أنَّ النظريات الاجتماعية والفلسفية والاقتصادية تطوّرت بما لا يُقاسُ طوال القرن الماضي.

ومثلاً، فإذا كانت نظرية "فضل القيمة" التي تأسست على استغلال ربِّ العملِ لعملِ العاملِ صحيحةً في وقتها (مرحلة الثورة الصناعية) فإنها لم تُعدْ كذلك تماماً، أو لم تُعدْ تعملُ في ذات السياق، في مرحلة الثورة العلمية-التكنولوجية، حيثُ العلمُ بات هو المولد الأساسي للثروة.

وعلى الصعيد العام، يُمكننا ملاحظة أنَّ أكبرَ نسبته في الناتج المحلي السنوي لم تُعدْ تتراكم من قطاع الصناعة، وإنما من قطاعات الإنتاج المرتبطة بالعلوم والتكنولوجيا والخدمات والأنشطة الإعلامية والفنية والسياحية والأعمال المأهولة، فهذه بات ناتجها يُبلغُ حوالي ما بين 60 و70% من الناتج المحلي السنوي في الدول المتوسطة والمتقدمة.

هذا لا يعني انتفاء استغلال العمال، وإنما لفت الانتباه إلى الكيفية التي بات يتم فيها تحصيل "فضل القيمة" ومراكز الأرباح، حيثُ بات بإمكان فكره ما إن تجلب ثروة هائلة على فردٍ أو مجموعة، بدون أن تستغل مباشرةً ككلاً كبيرة من العمال، مما يفسر أن معظم أصحاب البلايين -ولا سيما الجدد- هم من عباقرة برامج الكمبيوتر أو من أصحاب شركات الاتصالات والإعلام وشركات الأدوية.

ما في السياسة، فثمة ثلاث مشكلات كبيرة في المعتقدات "اليسارية" السائدة والجامدة، وكلها تمخضت عن كوارث: أولها، "ديكتاتورية البروليتاريا"، التي شرعت اختزال الشعب في طبقة ثم في

حزب، وبعده في مكتب سياسي أو أمين عام، وكانت بمثابة وصفه لمصادرة الحريات الفردية وسيادة الاستبداد .

ولعل ثبوت خطأ هذه النظرية لا يقتصر على ما تمخضت عنه في الممارسة السياسية فقط، وإنما لأنها غير شرعية أخلاقياً وقانونياً، ولأنها تصادر المجتمع وتحكمه بواسطة الحزب الواحد وأجهزة المخابرات ووسائل التعبئة والدعاية. وهذه النظرية من عند لنين أتت بسائلين وبريجينيف ويكتسين وبوتين، وأضفت شرعية على نظم الاستبداد .

وثاني هذه الأفكار يمتثل في الانتقال إلى الاشتراكية، ولو في أكثر الحلقات الرأسمالية تحلقاً (عكس فكره ماركس الأساسية عن قيام الاشتراكية في أكثر البلدان الرأسمالية تقدماً)، وهذه الفكرة التي تحرق المراحل لم تثبت أيضاً بدليل إخفاق الاتحاد السوفياتي في المباراة الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية، وأنهيار النظام الاشتراكي بطريقه سلمية ومن الداخل .

أما الفكرة الثالثة، فتقول بجواز الانتقال إلى مرحلة الثورة الاشتراكية من دون المرور بمرحلة الثورة البرجوازية الديمقراطية (التي صاغها بليخانوف معلّم وأبو الماركسية الروسية بحسب لنين نفسه) .

مما تقدم، نلاحظ أن مغللة اليسار قديمة، وأنها ليست وليدة الثورات العربية، التي ربما كشفته أكثر من أي وقت مضى، في تماهيه مع النظم السلطوية .

وَبُصُورَةٌ أَكْثَرُ تَحْدِيدًا، فَإِنَّ مُشْكَلَةَ الْيَسَارِ تَكْتَفٍ فِي أَنَّهُ عَدَا مُيَحَرَدَ مَفْهُومٍ نَظْرِيٍّ، فِاقِدِ الصَّلَةِ بِوَاقِعَةٍ
رَعْمَ كُلِّ ادَّعَاءَاتٍ مُقَاوَمَةِ إِسْرَائِيلَ وَصَدَّ الْهَيْمَنَةَ الْأَمْبِرِيَالِيَّةِ وَالنِّيُولِيْبِرَالِيَّةِ، وَكَذَا الْمَتَعَلِّقَةَ بِتَكْرِيسِ الْعَدَالَةِ
الْاجْتِمَاعِيَّةِ .

وَتَكْمُنُ الْمُسْكَلَةُ أَيْضًا فِي أَنَّ هَذَا الْيَسَارَ لَا يَرَى أَنَّ نَظْمَ الْاسْتِبْدَادِ وَالْفَسَادِ الَّتِي هَيْمَنَتْ عَلَى الْبِلَادِ
وَالْعِبَادِ مُنْذُ عُقُودِ عُوْقَتِ قِيَامِ الدَّوَلَةِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالْمُوَاطِنِ/الْفُرْدِ الْحَرِّ، وَأَنَّهُ مِنْ دُونِ هَذِهِ الْقِيَامَةِ لَا يُمَكِّنُ
الْحَدِيثِ عَنِ دِيمُقْرَاطِيَّةِ سِيَّاسِيَّةٍ وَلَا عَنِ عَدَالَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ، فَضْلًا عَنِ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ الْحَدِيثِ عَنِ مُقَاوَمَةِ
وَعَنِ مُوَاجَهَةِ الْأَمْبِرِيَالِيَّةِ إِلَّا فِي الْبَيِّنَاتِ وَالْمَهْرَجَانَاتِ وَالشَّعَارَاتِ وَالْمَزَايِدَاتِ .

قَصَارَى الْقَوْلِ، فَإِنَّ "الْيَسَارَ" الَّذِي لَمْ يُدْرِكْ بَعْدَ ضَرُورَةِ الْحُرِّيَّةِ وَالْكَرَامَةِ وَقِيَامِ الْمُوَاطِنِ كَشَرَطٍ لِقِيَامِ
دَوْلَةِ الْمُوَسَّسَاتِ وَالْقَانُونِ وَمُجْتَمَعِ الْمُوَاطِنِينَ، هُوَ يَسَارٌ حَائِرٌ وَضَائِعٌ بِدُونِ هَوِيَّةٍ وَبِدُونِ قَضِيَّةٍ .

الْيَسَارُ الْعَرَبِيُّ يَدْخُلُ الْمُعْتَرِكَ بَعْدَ الْهَزِيمَةِ

حَزْرِيَانِ 1967 حَرْبِ الْأَيَّامِ السَّتَّةِ الَّتِي لَا نَتَهَيُّ لَمْ تُسْفَرْ هَزِيمَةُ الْجُيُوشِ الْعَرَبِيَّةِ فِي بُرُوزِ الْحَرَكَاتِ
الْإِسْلَامِيَّةِ . إِذْ أَنَّ قَوِيَّ الْيَسَارِ هِيَ الَّتِي مَلَأَتْ الْفَرَاغَ آنَذَاكَ . وَفِي نُوْفَمْبَرٍ مِنْ تِلْكَ السَّنَةِ وَلَدَتْ جُمْهُورِيَّةَ

الْيَمَنِ الشَّعْبِيَّةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ (الْيَمَنِ الْجَنُوبِيَّ)، وَعَلَى رَأْسِهَا جَبْهَةٌ تَحْرِيرِ وَطَنِيَّةٍ تُقَاوِمِ الْبَرِيْطَانِيَّيْنَ مُنْذُ
1963 . وَفِي يُوبُو/حَزْرِيَانِ عَامِ 1969 كَانَ التِّيَّارُ الْمَارْكَسِيَّ هُوَ الْمُسَيِّطِرُ عَلَى قِيَادَةِ الْجُمْهُورِيَّةِ الْفَتِيَّةِ .
وَإِنْ كَانَتْ الْهَزِيمَةُ قَدْ أَرْكَعَتْ الْجُيُوشَ الْعَرَبِيَّةَ فَلَقَدْ شَاعَ بِالْمُقَابِلِ اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ فِي الْأَجْوَاءِ السِّيَّاسِيَّةِ .

هَزِيمَةٌ عَرَبِيَّةٌ تِلْكَ الَّتِي حَلَّتْ بِالْعَرَبِ عَامَ 1967 فَلَقَدْ أَعَادَتْ هَذِهِ التُّكْسَةَ إِلَى الذَّاكِرَةِ شَيْخِ التُّكْبَةِ الَّتِي حَلَّتْ عَامَ 1948 بِالْفَلَسْطِينِيِّينَ، وَأَدَّتْ إِلَى نُزُوحِهِمْ مُجَدِّدًا. وَمِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، كَانَ لِلْهَزِيمَةِ تَأْثِيرٌ عَلَى الْمَوْقِفِ الْجِدْرِيِّ الَّتِي انْتَصَفَ بِهِ الْيَسَارُ فِي كُلِّ رُقْعَةٍ مِنَ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ بَعْدَ ذَلِكَ. وَفُتِحَتْ الْهَزِيمَةُ حِفْبَةً جَدِيدَةً مِنَ الزَّمَنِ تَمَيَّزَتْ بِسِلْسِلَةٍ مِنَ الْأَحْتِجَاجَاتِ عَمَّتْ الْعَالَمَ الْعَرَبِيَّ، وَلَمْ تَكُنْ الْمِنْطَقَةَ أَسَاسًا بِمَنْأَى عَنِ تَأْثِيرِ حَرَكَةِ التَّحْرُرِ الْوَطْنِيِّ فِي فِينَام. كَمَا رَاوَدَ مَدِينَةَ عَدَنَ حِلْمَ التَّحْوُلِ إِلَى كُوبَا جَدِيدَةً وَظَهَرَتْ الصِّينَ وَقْتَهَا عَلَى أَنَّهَا أَقْلٌ تَحْجُرًا مِنَ الْإِتِّحَادِ السُّوفِيَاتِيِّ، لِأَنَّ الثَّوْرَةَ الثَّقَافِيَّةَ فِيهَا تَمَّتْ عَامَ 1966 عَلَى أَيْدِي حَرَكَةِ الْخُرَاسِ الْحُمْرِ الشَّابَّةِ. كَمَا تَعَزَّى نَزْعُهُ الْيَسَارِ الْجِدْرِيِّ الْمُنْبَثِقَةَ عَنِ هَزِيمَةِ 1967 إِلَى ظُهُورِ جِيلٍ جَدِيدٍ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ، مُهْتَمٌّ بِكُلِّ مَا هُوَ أَوْ مِنْ أَوْرُوبَا. فَكَانَتْ الشَّبِيحَةُ التُّونِسِيَّةُ وَاللِّبَانِيَّةُ وَالْفَلَسْطِينِيَّةُ فِي الْمُهْجَرِ تَمَعْنَ النَّظَرَ بِأَحْدَاثِ الثَّوْرَةِ الشَّبَابِيَّةِ عَامَ 1968 فِي فَرَنْسَا، كَمَا كَانَ لَهَا اتِّصَالٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِنَاشِطِينَ «مَآوِيَّينَ» (نَسْبَةً إِلَى الزَّعِيمِ الصِّينِيِّ مَآو تْسِي تُونِغ) فِي حَرَكَةِ «الْيَسَارِ الْبُرُولِيَّتَارِيِّ». هَذِهِ التَّرْعَةُ الْيَسَارِيَّةُ الْجِدْرِيَّةُ كَانَتْ كَامِنَةً مُنْذُ مُنْتَصَفِ السَّنِيَّاتِ فِي عَامِ 1965 أُسِّسَ نَشْطَاءٌ مِنْ حِزْبِ الْبُعْثِ الْعَرَبِيِّ السُّورِيِّ مَا سَمِيَ بـ «حِزْبِ الْعَمَالِ الثَّوْرِيِّ الْعَرَبِيِّ»، بِمَعْنَى يَاسِينَ حَافِظَ وَالْيَاسَ مَرْقِصَ، وَهُمَا مُفَكِّرَانِ حَاوَلَا التَّوْفِيقَ بَيْنَ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمَارْكَسِيَّةِ. وَقَامَ بَعْضُ الضَّبَاطِ مِنْ دَاخِلِ حِزْبِ الْبُعْثِ السُّورِيِّ، مِنْ الْمُتَلَفِّينَ حَوْلَ صِلَاحِ جَدِيدٍ، بِانْقِلَابِ عَسْكَرِيِّ فِي 23 مِنْ شُبَّاطِ فَبْرَايِرِ 1966. وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ الْجَنَاحُ الْيَسَارِيُّ هُوَ الْمُسَيِّطِرُ عَلَى الْحُكْمِ فِي دِمَشْقَ، إِلَى حِينِ انْتِزَاعِ السُّلْطَةِ مِنْ صِلَاحِ جَدِيدٍ، عَلَى أَيْدِي حَافِظِ الْأَسَدِ، وَزَيْرِ الدَّفَاعِ فِي حُكُومَتِهِ، عَامَ 1970.

وفي لبنان برز "يسار جديد" منذ عام 1965. حيث قام ثلاثة طلاب هم فواز طرابلسي ووضاح شرارة وأحمد بيضون بتأسيس "لبنان اشتراكي" يسعى إلى حلّ بديلٍ عن كلا الخطّين الصّينيّ والسوفياتيّ وكانت القطيعة قد تمت ما بين البلدين الشيوعيين - في حين انفصل "التيّار اللّينيني" (نسبةً إلى فلاديمير لّنين قائد الثورة البلشفية في روسيا) تدريجيًا عن الحزب الشيوعي اللّبناني، ليتحوّل لاحقًا إلى "اتحاد الشيوعيين اللّبنانيين". وطالب قادته نخلة مطران وادمون عون بإدخال الديمقراطية إلى الحزب الشيوعي اللّبناني. وفي تونس، وجّهت كلّ من مجموعة الدراسات والعمل الاشتراكي، ومجلة "برسبيكتيف" (أفاق) النقد للزعيم بورقيبا منذ العام 1963.

إلا أنّ هزيمة 1967 أطلقت العنان لما كان ضمنيًا، عبّر تحرك يساري جامع في كلّ أرجاء العالم العربيّ. وهكذا حلّ عصر "اليسار الجديد". وإذ تذكرنا العبارة بحركات اليسار الجديد الفرنسيّة كالشيبيّة الشيوعيّة الثوريّة واتحاد الشيبيّة الشيوعيّة الماركسيّة - اللّينينيّة، إلاّ أنّه لا سبيل للمقارنة فعلاً بين التّيارين. فالحركات اليساريّة العربيّة لم تخرج من رحم الأحزاب الشيوعيّة بل من رحم القوميّة العربيّة. إذ كان يطغى عليها الاهتمام بالقضايا الوطنيّة ومناهضة الاستعمار وكانت قضية فلسطين في قلب اهتماماتها.

ولقد عصفت هزيمة 1967 أوّل ما عصفت بحركة القوميّين العرب: فعمل أعضاؤها على إضفاء الطابع الماركسيّ على القوميّة وإضفاء الطابع القوميّ على الماركسيّة في أنّ معًا. وكان للفلسطينيين داخل الحركة الدور المحرّك. فقاد حركة القوميّين العرب منذ مطلع الخمسينات، شاب فلسطينيّ في الثّلاثين من عمره، يدرّس الطبّ في لبنان يدعى جورج حبش، مستوحيا نشاطه من فكر قسطنطين زريق،

الأستاذ في الجامعة الأميركية. وإلى جانب حبش برز وديع حداد، وهو لأجبيء فلسطيني من صفد، وهاني الهندي وهو من السوريين الذين حاربوا الميليشيات الصهيونية عام 1948 داخل كئاب الفداء العربي. وكان لحركة القوميين العرب تعاطف مع الناصرية. وكانت الحركة قد انتشرت خلال الخمسينات والستينات في لبنان وسوريا واليمن وشاركت في مكافحة البريطانيين في اليمن الجنوبي من عام 1963 وحتى عام 1967.

إلا أن هزيمة 1967 أدت بأعضاء الحركة إلى إعادة نظر جذرية في إستراتيجيتهم. فالإمال التي كانت معلقة على مضر عبد الناصر أصيبت بالخيبة، خيبة ثانية بعد زوال الجمهورية العربية المتحدة عام 1961 والتي كانت قد وُحِّدَت سوريا ومصر عام 1958. كما واجه جورج حبش داخل الحركة الوطنية الفلسطينية منافسة من قبل ياسر عرفات، الذي بادر عام 1965 بشن الكفاح المسلح ضد إسرائيل انطلاقاً من جنوب لبنان والحدود الأردنية. بما جعل القوميين العرب يركزون على نحو أكبر على القضية الفلسطينية ويخففون من مراهنتهم على الأنظمة العربية.

من تونس إلى عدن

كان لهزيمة 1967 تأثير متضارب على حركة القوميين العرب. حيث أدى إلى حلها تدريجياً. لكن فروعها الوطنية المختلفة أنجبت تشكيلات سياسية أصبح لها وزنها فيما بعد. حيث أسس جورج حبش ووديع حداد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في ديسمبر 1967: فبات الاتجاه السائد آنذاك هو "الكفاح الشعبي المسلح"، المستوحى من النموذج الصيني الماوي. وأصبحت الماركسيّة-اللينينية مرجعاً فكرياً محورياً. في لبنان، أسس متاضلو حركة القوميين العرب الملتفين حول محسن إبراهيم

مُنظمة الاشتراكيين اللبنانيين عام 1969. وإنشأوا بعدها بسنة منظمة العمل الشيوعي . وكانت المنظمة رمز اليسار الجديد حيثُ جمعت شمل الأعضاء القدامى من حركة القوميين العرب وأنصار لبنان الاشتراكي والمنشقين عن اتحاد الشيوعيين اللبنانيين المنفصلين عن الحزب الشيوعي ونشطاء ماؤين وتروتسكيين . وهو نموذج فريد من اليسار الجديد يصعب تخيله في أوروبا الغربية . وتحالفت آنذاك منظمة العمل الشيوعي، التي اندثرت اليوم، مع كمال جنبلاط، الزعيم الدرزي قائد الحزب التقدمي الاشتراكي ومع الحزب الشيوعي خلال الحرب الأهلية عام 1975 وكانت من ضمن المنظمات المؤسسة لجبهة المقاومة الوطنية اللبنانية التي تم تشكيلها صيف 1982 لمواجهة الاجتياح الإسرائيلي . وكانت منظمة العمل الشيوعي خلال الحرب الأهلية اللبنانية قريبة من منظمة فتح الفلسطينية ومن الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين التي يرأسها ناف حواتمه . ومع ذلك فلقد واجهت المنظمة منافسة من قبل تشكيلات حزبية من اليسار المتطرف . فعلى سبيل المثال أسس مناضلون لبنانيون مقرَّبون من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التابعة لجورج حبش حزب العمل الاشتراكي العربي في منتصف السبعينات . ولئن كانت فلسطين تنبؤاً مركز الصدارة في فكر هذه الحركات التابعة لليسار الجديد، إلا أن تجربة أخرى باتت محط الأنظار أيضاً . وهي تجربة اليمن وعمان . فمُنذ 1969 جعلت جبهة التحرير الوطنية من اليمن مثالا اشتراكيا يَحْتَدِي، مُستوحى من جمهورية ألمانيا الديمقراطية والجمهوريةات السوفياتية . ولقد وفرت جمهورية اليمن الشعبية الديمقراطية في اليمن الجنوبي قاعدة انطلاق للمنظمات الفلسطينية . وفي عمان كانت جبهة تحرير ظفار تُصَدِّي للسلطان تيمور المتحالف مع البريطانيين مُنذ 1963 . وبني

المحاربون العماليون المتحالفون مع اليمن الجنوبي الماركسيّة وأطلقوا على أنفسهم اسم الجبهة الشعبيّة
لتحرير الخليج العربيّ المحتلّ عام 1968 .

كما انتشرت أيضًا تظاهرات اليسار الجديد في بلاد المغرب العربيّ . وإن كانت الجزائر قد شهدت
أحكام سيطرة جبهة التحرير الوطنيّة على السّلطة بعد طردها للتيار الأكثر يساريّة فيها والأكثر إيمانًا
بالإدارة الذاتيّة ”ممن التّف حول أحمد بن بلّلا، فلقد تجلّت موجه الاحتجاجات على وجه الخصوص
في المغرب وتونس ولا سيّما في المدن الطلّابيه . حيث تم تأسيس الحركة المغربيّة ”إلى الإمام” عام
1970 في حين حلّت في تونس مجموعته ”العامل التونسيّ” محلّ مجموعته الدراسات والعمل الاشتراكيّ
منذ 1969 . ولهذه المجموعة علاقة مزدوجة بالماركسيّة والقوميّة العربيّة في أن معًا . فبعض أعضائها
أتى من حزب البعث كالأخوين أحمد وعصام شبي، ولقد تبوأ أحمد منصب وزير التّميّة الجهويّة في
أول حكومة تونسيه انتقاليّة بعد سقوط زين الدين بن عليّ في يناير/كانون الثاني 2011 .

ولقد أثرت نظريّة ماو تسي تونغ أيضًا على الشّباب التّونسيّ المعارض لبورقيبه . كما كان لمجموعه
العامل التّونسيّ سياستها الفلسطينيّة إذ توجه العديد من أعضائها إلى معسكرات التّدريب التابعة
للمنظمات الفلسطينيّة في لبنان . وقامت هذه المجموعة بتعريب فكرها الماركسيّ بالتّخلي تدريجيًّا عن
اللغة الفرنسيّة التي كانت سائدة في مجلّة ”برسيكتيف” (أفاق .)

ولم يكن بالضرورة في ذهن تشكيلات اليسار الجديد التي ظهرت بعد هزيمة 1967 أي نموذج أوروبيّ
تبعه . وذلك بالرغم من تأثير المسألة العماليّة وكذلك المسألة الفلاحية عليها : ففي لبنان تميّزت
السّنوات الأخيرة من السّتينات وبداية السبعينات بإضرابات في مصنع غندور في بيروت وبإضرابات

عَمَّالِ التَّبَعِ، وَفِي مِصْرَ كَانَ سَاقِو سَيَّارَاتِ الْأَجْرَةِ وَعُمَّالِ التَّسْبِيحِ قَدْ اغْتَرَضُوا عَلَى التَّدَابِيرِ الْحُكُومِيَّةِ
التَّقْسُفِيهِ الْمَفْرُوضَةِ بَعْدَ هَزِيمَةِ 1967. إِلَّا أَنَّ الثَّوْرَةَ الْفِلَسْطِينِيَّةَ، طَلِيْعَةَ الثَّوْرَاتِ الْعَرَبِيَّةِ، هِيَ الَّتِي
شَكَّلَتْ الْمِخْوَرَ فِي بُرُوزِ حَرَكَاتِ الْيَسَّارِ الْجَدِيدِ، مِنْ الْمَغْرِبِ إِلَى الْيَمَنِ. وَلَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ
الْيَسَّارِيَّةِ الْمُتَجَدِّدَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ وَوَلِيْدَةَ حَرَكَةِ الْقَوْمِيْنَ الْعَرَبِ، لَا وَوَلِيْدَةَ الْأَحْزَابِ الشُّيُوعِيَّةِ. بَلْ إِنَّ
ازْتِبَاطَ هَذِهِ الْأَحْزَابِ بِالِاتِّحَادِ السُّوْفِيَّاتِي جَعَلَهَا تَأَثَّرَ بِدَوْرِهَا إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ بِهَزِيمَةِ يُونِيُو/حَزِيْرَانِ 1967،
فَرَاخَتْ تَشْهَدُ هِيَ بِنَفْسِهَا عَمَلِيَّةَ تَحْوَلٍ أَكْبَرَ إِلَى الْيَسَّارِ.

الْأَحْزَابِ الشُّيُوعِيَّةِ تُتَخَذُ مُنْعَطَفًا إِسْتِرَاطِيْجِيًّا

وَإِنْ كَانَ الطَّلَابُ - وَكَذَلِكَ الضَّبَّاطُ الشَّبَابُ - يَتَطَّلَعُونَ مُنْذُ مُنْصَفِ السَّنِيْنَ إِلَى حَرَكَةِ الْقَوْمِيْنَ
الْعَرَبِ وَحَرْبِ الْبُعْثِ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَطَّلَعُونَ إِلَى الْأَحْزَابِ الشُّيُوعِيَّةِ فَذَلِكَ إِنَّ هَذِهِ الْأَحْزَابِ دَفَعَتْ مُنْذُ زَمَنِ
بَعِيدٍ ثَمَنَ انْحِيَازِهَا لِخَطِّ الْإِتِّحَادِ السُّوْفِيَّاتِي. وَكَانَ الْإِتِّحَادِ السُّوْفِيَّاتِي قَدْ وَافَقَ عَلَى خَطِّهِ تَقْسِيمِ
فِلَسْطِينَ فِي نُوْفَمْبَرِ/تَشْرِيْنِ الثَّانِي وَاعْتَرَفَ بِإِسْرَائِيلَ، لِأَنَّ أَوْلِيَّةَ سِتَالِيْنَ كَانَتْ تَمَثَّلُ أَسَاسًا بِأَضْعَافِ
الْبَرِيْطَانِيْنَ فِي الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ. إِلَّا أَنَّ الْإِحْتِلَالَ الْإِسْرَائِيلِي لِلضَّفَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَقُطَاعِ عَزَّةِ وَالْجَوْلَانِ السُّورِي
وَصَحْرَاءِ سِيْنَاءِ الْمِصْرِيَّةِ غَيَّرَ نَظْرَهُ الْأَحْزَابِ الشُّيُوعِيَّةِ لِلأَوْضَاعِ ابْتِدَاءً مِنْ صَيْفِ 1967. فَأَعْرَبَتْ عَنْ
تَحْفَظَاتِهَا تَجَاهَ مَسْأَلَةِ الْإِعْتِرَافِ بِإِسْرَائِيلَ وَأَكْثَرُ التَّرَامِيْهِ إِلَى جَانِبِ حَرَكَاتِ التَّخْرِيْرِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ. وَكَانَ
الْحِزْبُ الشُّيُوعِي اللَّبْنَانِي أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ هَذَا الْمُنْعَطَفَ الْإِسْتِرَاطِيْجِي بُوْضُوحٍ. وَأَصْدَرَ أَمِيْنَهُ الْعَامَ قَوْلًا
الشَّوَيْي عِدَّةَ مَقَالَاتٍ فِي صِحَاقَةِ الْحِزْبِ فِي أَيْسُطُسِ/أَوْسَبْتَمْبَرِ/أَيْلُولِ يُطَالِبُ فِيهَا بِنُضَالِ أَكْثَرِ حُزْمًا
ضِدَّ إِسْرَائِيلَ.

وَيُعْبَرُ الْمُؤْتَمَرُ الثَّانِي لِلْحِزْبِ الشُّيُوعِيِّ اللَّبْنَانِيِّ الْمُتَعَدِّ فِي تَمَوْز/يُؤْيُو 1968 مُؤْتَمَرِ إِعَادَةِ تَأْسِيسِ الْحِزْبِ. فَتَمَّ اخْتِيَارُ قِيَادَةٍ جَدِيدَةٍ، أَكْثَرُ شَبَابًا. وَقَامَ الْحِزْبُ بِعَمَلِيَّةِ انْتِقَادِ ذَاتِي أَكْثَرِ جُرْأَةٍ فَأَصْبَحَ أَشَدَّ انْتِبَاهًا لِمَسْأَلَةِ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَمَا اعْتَرَفَ بِالدُّورِ الْمُرَكِّبِيِّ لِلْقَضِيَّةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ فِي حَرَكَةِ التَّحْرِيرِ الْعَرَبِيَّةِ. وَطَالَبَ الْمُؤْتَمَرُ الثَّلَاثَ لِلْحِزْبِ فِي يُنَايِر/كَانُونِ الثَّانِي 1972 بِالْوَحْدَةِ، لَيْسَ بَيْنَ الْأَحْزَابِ الشُّيُوعِيَّةِ فَحَسْبُ بَلْ بَيْنَ كُلِّ الْقُوَى "التَّقْدِيمِيَّةِ": مُنْظَمَةُ التَّحْرِيرِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ وَالْإِتِّحَادَ الْإِسْرَائِيلِيَّ الْعَرَبِيَّ، الَّذِي أَنْصَهَرَتْ فِيهِ الْأَحْزَابُ الشُّيُوعِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ مِنْذُ عَامِ 1965، وَجَبْهَةَ التَّحْرِيرِ الْيَمِينِيَّةِ وَالْبُعْثَ الْعِرَاقِيَّ وَالْبُعْثَ السُّورِيَّ. وَلَمْ يَكْفِ الْحِزْبِ الشُّيُوعِيِّ اللَّبْنَانِيِّ بِالتَّنْذِيرِ بِإِسْرَائِيلِ بَلْ نَدَدَ أَيْضًا بِالْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ وَالْأَنْظَمَةَ "الرَّجَعِيَّةِ". إِيَّا أَنَّهُ أَقْرَ "بُجُودِ عَنَاصِرٍ مَنَاهِضَةٍ لِلِاسْتِعْمَارِ دَاخِلِ الْبُرْجُوزَانِيَّةِ الصَّغِيرَةِ" فِي الْبُلْدَانِ الْعَرَبِيَّةِ 6.

وَكَانَتْ السَّنَوَاتُ الَّتِي تَلَتْ 1967 كَذَلِكَ سَنَوَاتِ التَّحْوِيلِ إِلَى الْكِفَاحِ الْمُسْلِحِ ضِدَّ إِسْرَائِيلِ: وَلَمْ يَكْفِ الْحِزْبِ الشُّيُوعِيِّ اللَّبْنَانِيِّ بِالتَّقَرُّبِ مِنْ مُنْظَمَةٍ فَتَحَّ وَنُظْمَةُ التَّحْرِيرِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ بَلْ أُسِّسَ، انْطِلَاقًا مِنْ عَامِ 1970، قُوَاتُ الْأَنْصَارِ، فِي جَنُوبِ لُبْنَانَ، بِمُسَانَدَةِ الْأَحْزَابِ الشُّيُوعِيَّةِ فِي سُورِيَا وَالْعِرَاقِ وَالْأَزْدَنْ. أَمَّا الْحِزْبِ الشُّيُوعِيِّ السُّورِيَّ بِقِيَادَةِ خَالِدِ بَكَدَاشِ فَتَقَرَّبَ مِنْ حِزْبِ الْبُعْثِ مِنْذُ فَبْرَايِر/شَبَّاطِ 1966 وَانْحَرَطَ فِي حُكُومَةٍ صَلاَحٍ جَدِيدٍ. كَمَا اعْتَرَفَ مُؤْتَمَرُهُ الثَّلَاثُ فِي يُؤْيُو/حَزْرِيَانَ 1969 بِمَبْدَأِ الْكِفَاحِ الْمُسْلِحِ ضِدَّ إِسْرَائِيلِ. وَلَكِنَّ الْحِزْبِ الشُّيُوعِيِّ السُّورِيَّ انْبَعَدَ عَنِ هَذَا الْمَسَارِ انْطِلَاقًا مِنْ 1970 وَوُصُولِ حَافِظِ الْأَسَدِ إِلَى السُّلْطَةِ، فَالْتَزَمَ حَرْفِيًّا بِكُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنِ الْبُعْثِ السُّورِيَّ، حَتَّى عِنْدَمَا تَصَدَّى الْبُعْثُ لِقُوَاتِ مُنْظَمَةِ التَّحْرِيرِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ فِي يُؤْيُو/حَزْرِيَانَ 1976. وَفِي الْعَامِ نَفْسِهِ تَأَسَّسَ

“حزب العمل الشيوعي السوري” وعارض سياسة “الحزب الشيوعي” ونادى بسقوط نظام الأسد. وفي العراق اجتاز الحزب الشيوعي، وكان حزباً قوياً، أزمة ما بعد هزيمة 1967 وطالب المكتب السياسي في غالبيته بـ “حكومة دفاع وطني” إلا أنه لم يكن يمتنى في حقيقة الأمر سقوط رئيس الوزراء عبد السلام عارف، رغم كثرة الانتقادات الموجهة إلى هذا الأخير.

وقد اشتق عن الحزب الشيوعي العراقي فصيل جذري، يدعي تيار الكوادر، فأطلق حزب عصابات ضد نظام عبد السلام عارف في مايو/أيار 1968، وهو النظام الذي أسقطه بعدها بشهرين انقلاب صدام حسين وأحمد حسن البكر. وشرع حزب البعث في عملية قمع طويلة الأمد ضد الشيوعيين العراقيين، فأخفقوا شيئاً فشيئاً من المشهد السياسي.

ولقد شهد الشيوعيون في العالم العربي قبل عام 1967 تضاؤل نفوذهم لسببين. أولاً محاباتهم للموقف السوفياتي حول تقسيم فلسطين تحت الانتداب. من هنا كانت المنافسة القوية التي مثلتها حركة القوميين العرب لهم وكذلك حزب البعث حول هذا الموضوع بالذات. والسبب الآخر هو عدم تقدير الشيوعيين لأهمية الوحدة العربية حق قدرها: فلقد اثاروا بتصديهم للجمهورية العربية المتحدة حفيفة العديد من الضباط الشباب والطلاب الذين كانوا يعاطفون مع الخطاب الوحدوي ويتوقون لتخطي إطار الدول الوطنية التي نشأت من عمليات تقاسم المنطقة بأسرها في فترة الاستعمار والانتداب. ولقد شهد عام 1967 منعطفاً تاريخياً، تم لصالح الحزب الشيوعي اللبناني بشكل أساسي. فبتحالفه مع الفلسطينيين وكذلك مع اليسار الجديد المتمثل بمنظمه العمل الشيوعي في لبنان أصبح هذا الحزب طرفاً أساسياً

فِي الْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ اللَّبَنَائِيَّةِ ابْتِدَاءً مِنْ عَامِ 1975 وَطَرَفًا فِي مُقَاوَمَةِ الْاِحْتِلَالِ الْاِسْرَائِيلِي فِي جَنُوبِ لُبْنَانَ،
ابْتِدَاءً مِنْ عَامِ 1978 .

مَاذَا تَبَقِيَ مِنْ الْحَرَكَاتِ الْجَذْرِيَّةِ بَعْدَ عَامِ 1967

عَامَ 2017 تَبَدُّو حَرَكَاتِ الْاِسْرَارِ الْجَدِيدِ الَّتِي وُلِدَتْ مِنْ هَزِيمَةِ 1967 وَكَانَهَا فُقِدَتْ حَيَوِيَّتَهَا . فَلَقَدْ
اِحْتَقَى مِنْ السَّاحَةِ كُلِّ مِنْ مُنْظَمَةِ الْعَمَلِ الشُّيُوعِيِّ اللَّبَنَائِيَّةِ وَنُظْمِ الْعَامِلِ التُّونِسِيِّ . وَقَدْ انْهَارَتْ مُنْذُ
بَدَايَةِ السَّعِينَاتِ جُمْهُورِيَّةِ الْيَمَنِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الشَّعْبِيَّةِ . أَمَّا حِزْبُ الْعَمَلِ الشُّيُوعِيِّ السُّورِيِّ فَعَمَّ أَنَّهُ كَانَ
يُنَادِي بِمُعَارَضَةِ مُعْتَدِلَةِ لِبْشَارِ الْأَسَدِ إِلَّا أَنَّهُ شَهِدَ "اِحْتِقَاءً" زَعِيمِهِ الرَّئِيسِيِّ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخَيْرِ عَلَى أَيْدِي
القُوَّاتِ الْأُمْنِيَّةِ عَلَى طَرِيقِ الْمَطَارِ فِي دِمَشْقَ فِي سِبْتَمْبَرِ/أَيْلُولِ 2012 .

وَمَعَ ذَلِكَ فَهُنَاكَ عَدَدٌ مِنَ التَّنْظِيمَاتِ بَقِيََتْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ . فَالْجَبْهَةُ الشَّعْبِيَّةُ لِتَحْرِيرِ فِلَسْطِينَ مَا زَالَ لَهَا
تَوَابِعُ فِي الْمَجْلِسِ الْوَطْنِيِّ الْفِلَسْطِينِيِّ وَبِمَاكِنِهَا حَشْدٌ عَشْرَاتِ الْأَلْفِ مِنْ أَنْصَارِهَا فِي الْمُهْرَجَانَاتِ
السِّيَاسِيَّةِ فِي قُطَاعِ غَزَّةِ . وَالْحِزْبُ الشُّيُوعِيُّ اللَّبَنَائِيُّ مَا زَالَ حَيًّا يُرْزَقُ: إِذْ مَا زَالَ يُحَافِظُ عَلَى قَوَاعِدِ
شَعْبِيَّةِ صَغِيرَةٍ فِي جَنُوبِ لُبْنَانَ، وَسَهْلِ الْبِقَاعِ، كَمَا يُسَانِدُهُ بَعْضُ النُّقَابِيِّينَ وَقَدْ حَصَلَ عَلَى تَتَائِجٍ جَيِّدَةٍ
فِي اِتِّخَابَاتِ الْبَلَدِيَّةِ الْآخِرَةِ فِي 2016 . وَفِي تُونِسَ يُعْبَرُ تَوَابِ الْجَبْهَةِ الشَّعْبِيَّةِ التُّونِسِيَّةِ وَحِزْبِ الْعَمَالِ
أَيْضًا مِنْ وَرَثَةِ نُظْمِ الْعَامِلِ التُّونِسِيِّ .

غَالِبًا مَا تُوصَفُ اللُّثُورَةُ الشَّبَابِيَّةُ فِي إِيطَالِيَا عَامَ 1968، عَلَى عَكْسِ مُثِيلِهَا فِي فَرَنْسَا، بِالْتَدْرِيجِيَّةِ أَوْ
"الرَّاحِفَةِ" إِذْ لَمْ تَبْلُغْ أَوْجَهَا إِلَّا فِي النُّصْفِ الثَّانِي مِنْ السَّبْعِينَاتِ . وَعَلَى هَذَا الْمَنُوالِ جَاءَتْ الْحَرَكَاتُ
الْيَسَارِيَّةُ الْجَذْرِيَّةُ فِي فِتْرَةٍ مَا بَعْدَ 1967، فَلَمْ نَشْهَدْ فَوْرَهُ شَعْبِيَّةَ عَارِمِهِ لِاسْقَاطِ الْاِسْتِعْمَارِ، أَوْ إِضْرَابَاتِ

شاملةً أو ثوراتٍ عربيّةٍ جماهيريّةٍ ، بل رأيتنا وقع تلك "الهزيمة العربيّة" في ظهورِ حفبةٍ زمنيّةٍ جديدةٍ
تمثّلت بسلسلةٍ من الانتفاضات الاجتماعيّة، المدنيّة منها والمسلّحة، استمرّت عشرَ سنين . وفيما
يعلّق بالاحتجاج على الأنظمة العربيّة أو بمناهضة إسرائيل فلقد سبق اليسارُ زمنيّاً الإسلام السياسيّ .
ولكن نور تلك الحفبة من الزمن قد خفت شيئاً فشيئاً، مع الثورة الإيرانيّة عام 1979، وصعود التّظيمات
الإسلامويّة - كحزب الله وحماس وحركة الاتجاه الإسلاميّ التونسيّ - ولقد سحبت هذه التّظيمات
البساط من تحت أرجل اليسار الجذري بل قامت في غالب الأحيان ببني بعضاً من برنامجه المعادي
للإمبرياليّة .

ماذا بقي من ذلك الحراك ؟ منظماتٍ سياسيّةٍ في لبنان وفلسطين وتونس تصون بعناية التراث اليساريّ .
حركاتٍ اجتماعيّةٍ تحيي من حين إلى آخر المطالب القديمة . وارث فكري ما زال حاضراً في الأذهان .
وسياسة ممنهجه لإحياء الذاكرة، محفوفة بالحنين : حيث توضع التقارير الوثائقيّة ويجري ترتيب
المحفوظات بكلّ تأنٍ وعناية : صور وملصقات تعود إلى أيام الرّخم الذي شهدته منظمّة التحرير
الفلسطينيّة ، وإصدارات لمذكرات المناضلين القدامى . في انتظار غد أفضل .

ثَالِثًا

التَّيَّارُ الْعِلْمَانِيُّ الْعَقْلَانِيُّ

فَإِنَّ الْعِلْمَانِيَّةَ "دِينٌ" جَدِيدٌ، جَاءَ لِيُحْكَمَ الْعَالِمَ، وَيُسَيَّرَ عَلَيْهِ، عَلَى أَنْقَاضِ الْأُذْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ الْكُبْرَى .
وَهِيَ مَذْهَبٌ فِكْرِيٌّ شُمُولِيٌّ ظَهَرَ فِي أُرُوبَا، ثُمَّ انْتَشَرَ فِي أَغْلَبِ بِلَادِ الْعَالِمِ، فَطَوَّعَ لِنَظَرَتِهِ السِّيَاسَةَ
وَالثَّقَافَةَ وَالْاِقْتِصَادَ، وَجَمِيعَ مَنَاحِي الْحَضَارَةِ .

وَلَمْ تُسَلِّمْ أُمَّتَنَا الْإِسْلَامِيَّةَ مِنْ هَذَا التَّغْلُغِ الْعِلْمَانِيِّ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْمُدَافَعَةِ الطَّوِيلَةِ وَالْمُسْتَمِيَّةِ الَّتِي قَامَ
بِهَا جَمْعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُصْلِحِينَ . فَلِأَجْلِ ذَلِكَ، وَجَدَتِ الْعِلْمَانِيَّةُ فِي الْأُمَّةِ مِنْ خِلَالِ مُظَاهِرٍ كَثِيرَةٍ
وَمُبَيَّنَةٍ .

مَعْنَى الْعِلْمَانِيَّةِ

اِخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْعُلَمَاءِ وَالْفَلَسَفَةِ فِي تَعْرِيفِ الْعِلْمَانِيَّةِ، اِخْتِلَافًا كَبِيرًا . فَمِمَّا ذَكَرَ مِنَ التَّعْرِيفَاتِ :

• هِيَ الْعَقِيدَةُ الَّتِي تُرَى إِبْعَادَ الدِّينِ عَنِ الدَّوْلَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالْأَخْلَاقِ، وَأَنَّ تَكُونَ جَمِيعَهَا مُسْتَقَلَّةً
وَبَعِيدَةً عَنِ تَأْثِيرِ الْكَنِيسَةِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ الدِّيْنِيَّةِ، وَإِنَّ بَرَى الْإِنْسَانَ أَنَّ الْعَقْلَ هُوَ مُصَدِّرُ خُلَاصِهِ لَا الدِّينَ،
وَبِالتَّالِي رَفْضِ كُلِّ الْغَيْبِيَّاتِ وَمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ .

• أَنَّهَا الرَّأْيُ الَّذِي يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يُتَّبَعِي أَنْ يَكُونَ الدِّينُ أَسَاسًا لِلْأَخْلَاقِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالْقِيَمِ، وَإِنَّ الْعِلْمَانِيَّةَ
هِيَ تَحْوِيلُ مُمْتَلَكَاتِ الْكَنِيسَةِ وَمُؤَسَّسَاتِهَا إِلَى الدَّوْلَةِ لِخِدْمَةِ الْأُمُورِ الزَّمْنِيَّةِ .

• حَرَكَةُ اجْتِمَاعِيَّةٍ تَهْدَفُ إِلَى صَرْفِ النَّاسِ مِنَ الْاهْتِمَامِ بِالْآخِرَةِ إِلَى الْاهْتِمَامِ بِهَذِهِ الدُّنْيَا وَخَدَهَا .

• اتِّجَاهٍ فِي الْحَيَاةِ يَقُومُ عَلَى مَبْدَأٍ أَنَّ الدِّينَ وَالْإِعْتِبَارَاتِ الدِّينِيَّةَ يَجِبُ إِلاَّ تَدَخَّلَ فِي الْحُكُومَةِ . .

وهي نظام اجتماعي في الأخلاق، مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والأخلاقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين.

وفي موسوعة العلوم السياسية الكويتية: (العلماني عكس الديني، ويستخدم اصطلاحاً للإشارة إلى مدخل للحياة ينفصل تماماً عن الدين، ويتشكل ككلية باهتومات زمنية دنيوية. وهي على المستوى الشخصي تعني: استبعاد الحس والشعور الديني من نظره الفردي إلى جميع الأمور التي تتعلق بحياته وعلاقاته وسلوكياته، ومعاملاته السياسية وغيرها. والعلمانية على المستوى العام هي: المذهب الذي يؤمن بضرورة إبعاد المؤسسات والمضامين الدينية عن ممارسة أي تأثير في أي من مجالات الحياة، بما في ذلك التعليم والتشريع والإدارة في تعريفات أخرى كثيرة متباينة.

ولا شك أن تعريف العلمانية يطرح إشكالات متعددة، ويقع فيه تجاذب كبير بين الفلاسفة والمفكرين، ليس كله علمياً محضاً، بل فيه قدر كبير من العوامل الذاتية.

ولذلك نجد العلماء العرب - ونظراً ليقظة الضمير الديني الإسلامي في الأمة - يتفادون في تعريف العلمانية، معاني اللادينية ومُحاربة الدين التي توجد في تعريفات غربية كثيرة. كما يميلون في الغالب إلى حصر العلمانية في جانب السياسة، ليسلموا من النقد والاعتراض، بسبب تشبث أغلب الناس بالدين في مناحي الحياة الأخرى، خاصة في مجال القيم والأخلاق والنظام المجتمعي.

وأكثر هؤلاء العلماء العرب، يسترون بذلك حقيقة العلمانية التي تغطي مناحي الحياة كلها، والتي تحل نفسها محل الدين وقيمه، ولا بد.

وَتُوَدِّي بِهِمْ مُحَاوَلَةَ التَّلْفِيقِ بَيْنَ حَقِيقَةِ الْعِلْمَانِيَّةِ وَالِدِينِ الْإِسْلَامِيِّ، إِلَى تَعْرِيفَاتٍ مُتَّسِمَةٍ بِكَثِيرٍ مِنْ
الاضْطِرَابِ وَالتَّذَدُّبِ. مِمَّا جَعَلَ بَعْضُهُمْ يُنَادِي بِالِاسْتِغْنَاءِ عَنِ مُصْطَلَحِ الْعِلْمَانِيَّةِ مُطْلَقًا، وَاسْتِعْمَالِ
مُصْطَلَحَاتٍ أُخْرَى كَالْعُقْلَانِيَّةِ أَوْ الدِّمُقْرَاطِيَّةِ.

وَفَوْقَ هَذَا الْاضْطِرَابِ، فَإِنَّهُمْ حِينَ يَبْتَنُونَ التَّعْرِيفَ الْمَشْهُورَ لِلْعِلْمَانِيَّةِ، وَهُوَ (فَضْلُ الدِّينِ عَنِ الدَّوْلَةِ)
يُنَادُونَ بِالرُّجُوعِ إِلَى أَصْلِ تَارِيخِيٍّ، لَمْ يَعْذُ لَهُ وَجُودٌ حَقِيقِيٌّ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ. فَالْعِلْمَانِيَّةُ فِي أَوْرُوبَا
تَطَوَّرَتْ مِنْ فَضْلِ الدِّينِ عَنِ الدَّوْلَةِ إِلَى فَضْلِ الدِّينِ عَنِ الْحَيَاةِ كُلِّهَا. وَكَانَ ذَلِكَ تَطَوُّرًا طَبِيعِيًّا لَا يُمَكِّنُ
الْإِنْفِكَاعَ عَنْهُ وَهُوَ التَّطَوُّرُ ذَاتَهُ الَّذِي تَسِيرُ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِيهِ الْيَوْمَ.

فَلْنُصْطَلِحْ إِذْنًا عَلَى أَنَّ الْعِلْمَانِيَّةَ هِيَ: (نَزْعُ الْقِيَمِ الدِّينِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَنِ الْمُمَارَسَةِ السِّيَاسِيَّةِ بِمَعْنَاهَا
الشَّامِلِ لِلْاِقْتِصَادِ وَالْاجْتِمَاعِ وَالثَّقَافَةِ) .

الْعِلْمَانِيَّةُ مَذْهَبٌ دَخِيلٌ عَلَى الْأُمَّةِ

وَلْتَقَرَّرْ إِنَّ الْعِلْمَانِيَّةَ شَأْنٌ غَرِبِيٌّ خَالِصٌ! فَهِيَ نَشَأَتْ فِي أَوْرُوبَا وَتَرَعَّرَعَتْ فِيهَا، ثُمَّ حَمَلَتْهَا الْإِمْبَرِيَالِيَّةُ
الْغَرْبِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ كُلِّهِ!

فَلَيْسَتْ فِكْرًا إِنْسَانِيًّا نَابِعًا مِنْ فِطْرَةِ الْبَشَرِ. . . وَلَيْسَتْ فِكْرَهُ عَابِرَةً لِلْقَارَاتِ تَجَاوِزُ الْحُدُودِ. . . وَلَيْسَتْ
بِهَيَاةِ التَّارِيخِ الَّتِي لَا شَيْءَ بَعْدَهَا يُخَالِفُهَا. . .

لَيْسَتْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَإِنَّمَا هِيَ فِكْرُهُ اتَّجَهَتْهُ الْحَضَارَةُ الْغَرْبِيَّةُ الْحَدِيثَةُ، فِي تَطَوُّرِ تَارِيخِيٍّ طَوِيلٍ.

وَالْعِلْمَانِيَّةُ اِرْتِبَاطٌ وَثِيقٌ بِالتَّضَرُّبِيَّةِ، أَوْ قَلَّ بِالْبُولْسِيَّةِ عَلَى وَجْهِ الدَّقَّةِ. فَقَدْ اِنْفَصَلَ الدِّينُ عَنِ الْحَيَاةِ فِي
وَقْتِ مُبَكَّرٍ بِأُورُوبَا، وَأَخَذَتِ الْمَسِيحِيَّةُ عَقِيدَةً خَالِصَةً مُنْفَصِلَةً عَنِ الشَّرِيعَةِ، وَمَا كَانَتْ الشَّرِيعَةُ تَحْكُمُ
حَيَاةَ الْأُورُوبِيِّينَ أَبَدًا، إِلَّا فِي دَائِرَةِ ضَيْقِهِ.

فَحِينَ قَامَتِ الْعِلْمَانِيَّةُ الْحَدِيثَةُ، بَعْدَ عَصْرِ التَّهْضُمِ، بَدَأَتْ بَقَايَا الدِّينِ الْمُتَنَائِرَةِ فِي بَعْضِ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ
بِأُورُوبَا، وَأَقْصَتِ الدِّينَ إِقْصَاءً تَامًا، مِنْ السِّيَاسَةِ وَالْاِقْتِصَادِ وَالثَّقَافَةِ، بَلْ مِنْ أَفْكَارِ النَّاسِ
وَأَحَاسِيْسِهِمْ.

وَهَذَا بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي بِلَادِنَا، فَالْإِسْلَامُ ظَلَّ يُحْكَمُ بِلَدَانِ الْمُسْلِمِينَ، بِعَقَائِدِهِ وَشَرَائِعِهِ قُرُونًا مِنْ
الزَّمَانِ. فَلِذَلِكَ كَانَ دُخُولُ الْعِلْمَانِيَّةِ إِلَى قَلْبِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ أَصْعَبَ وَأَعْرَبَ!

كَمَا أَنَّ هُنَالِكَ أَسْبَابًا أُخْرَى جَعَلَتْ الْبِيئَةَ الْأُورُوبِيَّةَ أَكْثَرَ مَلَأَمَةً لِنَشْأَةِ الْعِلْمَانِيَّةِ، مِنْهَا: تَسَلُّطُ الْكَنِيسَةِ
الرَّهِيْبِ عَلَى عُقُولِ النَّاسِ وَأَبْدَانِهِمْ خِلَالَ الْعُصُورِ الْوَسْطَى، بِحَيْثُ صَارَ عُمُومُ الْأُورُوبِيِّينَ يَوْقُونَ إِلَى
التَّحَرُّرِ مِنْ هَذَا التَّسَلُّطِ، فَكَانَ التَّحَرُّرُ مِنَ الدِّينِ كُلِّهِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكَنِيسَةِ وَحْدَهَا!.

وَمِنْهَا أَيْضًا أَثَرُ الْحَضَارَةِ الْوِثْنِيَّةِ الْيُونَانِيَّةِ الَّتِي تَصَوَّرُ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ النَّاسِ وَالْإِلَهَةِ عِلَاقَةً صِرَاعٍ وَخِصَامٍ لَا يَهْدَأُ
أَبَدًا. فَكَانَتْ الْعِلْمَانِيَّةُ تَحَرُّرًا لِلْإِنْسَانِ مِنْ قَبْضِهِ الْإِلَهِيِّ!.

وَهَكَذَا لَمْ يَبْقَ الدِّينُ مُصَدِّرًا لِلْقِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَتَوَجَّهَ الْأُورُوبِيُّونَ إِلَى عِبَادَةِ الطَّبِيعَةِ أَوْ تَالِيَةِ الْإِنْسَانِ!
وَصَارَ دِينُ الْأُورُوبِيِّينَ - غَيْرِ السَّمَاوِيِّ - هُوَ الْعِلْمَانِيَّةُ!.

مَجَالَاتُ انْتِشَارِ الْعِلْمَانِيَّةِ

لَيْسَتْ الْعِلْمَائِيَّةُ مَذْهَبًا مِنْ الْمَذَاهِبِ الْفِكْرِيَّةِ التَّخْوِيَةِ، الَّتِي يَبْتَنَاهَا بَعْضُ الْمُفَكِّرِينَ وَالْفَلَّاسِفَةِ، وَلَا يَكُونُ لَهَا أَثَرٌ عَمَلِيٌّ فِي وَاقِعِ النَّاسِ! بَلْ الْعِلْمَائِيَّةُ فِكْرُهُ تَنْتَشِرُ فِي جَمِيعِ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ، فَتَنْخِرُهَا كَمَا يَنْخِرُ السُّوسُ الْخَشَبَ، وَتَطْوَعُهَا إِلَى نَظَرَتِهَا الْكُلِّيَّةِ الشُّمُولِيَّةِ.

وَهِيَ فِكْرَةٌ لَا تُقْبَلُ الْمُنَافَسَةَ، فَقَدْ جَاءَتْ لِتُحَارِبِ النَّظْرَةَ الدِّيْنِيَّةَ الشُّمُولِيَّةَ، وَوَضَعَتْ نَفْسَهَا فِي مَوْضِعِ الْبَدِيلِ عَنِ الْأَدْيَانِ، الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ بُرُوعِ الْفِكْرِ الْعِلْمَائِيِّ تُوطِرُ وَاقِعِ النَّاسِ فِي أَدَقِّ تَفَاصِيلِهِ. فَالْعَلَاقَةُ بَيْنَ الْعِلْمَائِيَّةِ وَالذِّينِ عُمُومًا - وَالْإِسْلَامِ خُصُوصًا - هِيَ عِلَاقَةٌ تَنَاقُضُ وَتَعَارِضُ، لِأَنَّهَا مَعًا يَعْمَلَانِ عَلَى التَّاطِيرِ السِّيَاسِيِّ وَالثَّقَافِيِّ وَالْحَضَارِيِّ لِلْإِنْسَانِ، وَلَا مَجَالَ لِلْمُنَافَسَةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ!

وَلَمْ تَخْرُجِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي تَعَرَّضَتْ لِحَالَةٍ هَوَانَ شَدِيدَةٍ خِلَالَ الْقُرُونِ الْأَخِيرَةِ، عَنْ هَذَا الْأَصْلِ. فَانْتَشَرَتْ فِيهَا الْعِلْمَائِيَّةُ انْتِشَارًا نَارًا فِي الْهَشِيمِ، وَتَوَعَّلَتْ فِي مَجَالَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، يُمَكِّنُ تَفْسِيمَهَا إِلَى مَحَاوِرٍ ثَلَاثَةٍ: اثْنَانِ مِنْهَا مُتَعَلِّقَانِ بِوَاقِعِ النَّاسِ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ، وَالثَّلَاثُ مُتَعَلِّقٌ بِالتَّأْصِيلِ الْفِكْرِيِّ وَالْعِلْمِيِّ.

فِي الدَّائِرَةِ الْعَامَّةِ :

لَا شَكَّ أَنَّ الْمَجَالَ الْأَوَّلَ الَّذِي تَطْهَرُ فِيهِ الْفِكْرَةُ الْعِلْمَائِيَّةُ عُمُومًا هُوَ مَجَالُ السِّيَاسَةِ، حَتَّى إِنَّ الْكَثِيرِينَ يَجْعَلُونَ الْعِلْمَائِيَّةَ فَضْلَ الدِّينِ عَنِ الدَّوْلَةِ، كَمَا سَبَقَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ. وَلَمْ تَخْرُجِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى، فَقَدْ تَرَكَتِ الدَّوْلُ الْإِسْتِعْمَارِيَّةَ وَرَاءَهَا أَنْظِمَةَ سِيَاسِيَّةَ عِلْمَائِيَّةَ، اسْتَمَرَّتْ فِي تَنْفِيذِ خُطَّةِ الْعِلْمَانَةِ الشَّامِلَةِ الَّتِي بَدَأَهَا الْإِسْتِعْمَارُ، وَقَطَعَ بِهَا عِلَاقَةَ الْأُمَّةِ بِمَرْجِعِيَّتِهَا الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَقَدْ مَرَّتْ عِلْمُهُ السِّيَاسَةَ فِي الْأُمَّةِ بِمَرَاكِحِ، تَدْرَجَتْ فِيهَا التُّحْبَةُ الْمُتَحَكِّمَةُ فِي مُخْطَطِهَا الْمُتَمَدِّدِ
زَمَنِيًّا، وَالَّذِي يَهْدَفُ إِلَى تَحْقِيقِ خُضُوعِ الْأُمَّةِ الْكَامِلِ لِلتَّقَاةِ الْعِلْمَائِيَّةِ الْمُهَيِّمَةِ فِي عَالَمِ الْيَوْمِ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْإِخْتِلَافَاتِ الظَّاهِرِيَّةِ بَيْنَ مُخْتَلَفِ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي طَرِيقِهِ تَقْبَلُهَا لِلتَّوَعُّلِ الْعِلْمَانِي،
نَظْرًا لِلْخُصُوصِيَّاتِ التَّقَاةِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ لِكُلِّ بَلَدٍ إِسْلَامِيٍّ؛ فَإِنَّ الْإِطَارَ الْعَامَّ لِعَمَلِيَّةِ التَّدْرُجِ فِي عِلْمِهِ
السِّيَاسَةَ، يَبْقَى صَالِحًا لِجَمِيعِ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

فَفِي الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى: يَبْعُ تَقْرِيرَ "الآلية السياسية" العُصْرِيَّةِ، وَهِيَ الْآلِيَّةُ الَّتِي تَتَضَمَّنُ هَيْكَلًا لِلدَّوَلَةِ
الْحَدِيثَةِ، بِنِظَامِ دِيمُقْرَاطِيٍّ اتِّخَابِيٍّ - حَقِيقِيٍّ أَوْ مُدَّعَى. وَإِلَى جَانِبِ هَذِهِ الْآلِيَّةِ الْبَرِيَّةِ - فِي ظَاهِرِهَا
- مِنْ آيَةِ حُمُولَةِ فِلْسَافِيَّةِ، يَسْتَبْقِي الشَّعَارَ الْمُرْجِعِي الْمَطْمَئِنُّ لِعُمُومِ النَّاسِ، وَهُوَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ "دِينَ
الدَّوَلَةِ الْإِسْلَامُ"!

وَلَا يُلْقِي هَذَا الْأَمْرَ مُعَارَضَةً مُعَبَّرَةً مِنْ أَغْلَبِ طَبَقَاتِ أَصْحَابِ الْقَرَارِ فِي الْأُمَّةِ - مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ
وَالْمُفَكِّرِينَ وَالسِّيَاسِيِّينَ وَالْإِعْلَامِيِّينَ - وَذَلِكَ لِأَسْبَابٍ ثَلَاثَةٍ:

أَوَّلُهَا: هَذَا الشَّعَارُ الْمَرْفُوعُ، الَّذِي يُؤَهَّمُ الْكَثِيرُونَ مِنْهُ أَنَّهُ يَكْفِي فِي حِمَايَةِ بَوْصِلِهِ السِّيَاسَةَ مِنَ الْإِنْحِرَافِ
نَحْوِ الْعِلْمَائِيَّةِ الصَّرِيحَةِ.

وَالثَّانِي: تَقْدِيمُ الْآلِيَّةِ الدِيمُقْرَاطِيَّةِ فِي صُورَةٍ مُنَمَّقَةٍ، تَنْطَلِقُ عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ، وَذَلِكَ بِتَعَمُّدِ الْخَلْطِ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ قِيَمِ الْعَدْلِ وَالْحُرِّيَّةِ الَّتِي يَتَشَوَّفُ النَّاسُ إِلَيْهَا فِي الْعَادَةِ.

وَالثَّلَاثُ: الْجُهْلُ بِحَقِيقَةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، وَتَوَهُمَ إِمْكَانِ حُصُولِ انْفِكَافِ الْأَجْرَاءِ عَنِ الْقِيَمَةِ فِي الْعَمَلِيَّةِ
الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ !

ثُمَّ تَأْتِي الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَّةُ: وَفِيهَا تُسْتَعْلَى "الآلِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ" فِي تَقْيِيتِ مَرَاكِزِ الْمُمَاةَةِ الْكُبْرَى فِي
الْأُمَّةِ، وَهِيَ عَلَى الْخُصُوصِ:

• مُؤَسَّسَةُ الْعُلَمَاءِ، بِتَأْمِيمِ الْقُوَى، وَتَهْمِيشِ الْعُلَمَاءِ مَا دَيَّا وَمَعْنَوِيًّا، لِتَسْهِيلِ تَقْرِيرِ الْمَقْرَرَاتِ الْعِلْمَائِيَّةِ
دُونَ اغْتِرَاضِ.

• التِّيَارَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، بَعْضًا الْقَمْعِ الْمُنْهَجِيِّ، وَبِجْزَرِهِ الْمَضْلَحَةُ الْمَوْقَعَةُ مِنَ الْمَشَارَكَةِ فِي هَذِهِ
الْآلِيَّةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ.

• الْمَرْأَةُ وَالْمُجْتَمَعُ، بِتَقْيِيتِ الْعَلَاةَاتِ الْأَسْرِيَّةِ وَتَخْطِيمِ الرِّوَابِطِ الْمُجْتَمَعِيَّةِ الْمُورُوثَةِ عَنِ الشَّرِيعةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَهْيِئَةِ الْمُجْتَمَعِ لِتَقْبَلِ الثَّقَافَةَ الْعِلْمَائِيَّةَ الْمُسْتَوْرَدَةَ.

وَأَخِيرًا تَحِلُّ الْمَرْحَلَةُ الثَّلَاثَةُ: وَفِيهَا يُصْبِحُ الشُّعَارُ الْإِسْلَامِيُّ الْمَثْبُوتِ فِي وَاجِهَاتِ الدَّسَاتِيرِ وَالْقَوَائِنِ، غَيْرُ
مُلَائِمٍ لَوَاقِعِ الْحَالِ، بَعْدَ عَقُودِ مِنْ الْعِلْمَنَةِ الْمُنْهَجِيَّةِ لِجَمِيعِ مَفَاصِلِ الْأُمَّةِ؛ فَيَتَجَرَّأُ بَعْضُ النَّاسِ عَلَى الْمَطَالَبَةِ
بِمُخَوِّ الشُّعَارِ وَإِعْلَانِ الْإِلْتِحَاقِ الْكَامِلِ بِالْعِلْمَائِيَّةِ الْمُهَيْمِنَةِ عَلَى الْعَالَمِ.

وَلِأَنَّ السِّيَاسَةَ فِي الدَّوْلَةِ الْحَدِيثَةَ تُسَيِّطِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِنَّ مَرَاةِلَ الْعِلْمَنَةِ الْمَذْكُورَةَ فِي مَجَالِ
السِّيَاسَةِ، تَجِدُ صَدَاهَا الْمُبَاشِرُ فِي الْمَجَالَاتِ الْأُخْرَى.

فَقَدْ انفَصَلَ مَجَالُ الاِقْتِصَادِ عَنِ المُرْجِعِيَّةِ الاِسْلَامِيَّةِ، وَاِنْتَلَقَ المُنْظَرُونَ الاِقْتِصَادِيَّوْنَ فِي وَضْعِ الخُطَطِ
الاِقْتِصَادِيَّةِ الكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ، الَّتِي تَسِيرُ عَلَيْهَا الدُّوْلُ الاِسْلَامِيَّةُ الحَدِيْثَةُ، دُوْنَ اذْنَى مُرَاعَاةٍ لِلنُّظَرَةِ
الاِقْتِصَادِيَّةِ الاِسْلَامِيَّةِ. وَاَدَّى حَالُ التَّبَعِيَّةِ الاِقْتِصَادِيَّةِ لِدُوْلِ الغَرْبِ، اِلَى الاِسْتِيْرَادِ الاَعْمَى لِجَمِيْعِ التَّنْظِيْرَاتِ
الاِقْتِصَادِيَّةِ الحَدِيْثَةِ بِعَجْرِهَا وَبُجْرِهَا، مَعَ العَجْزِ التَّامِّ عَنِ الغَرْبَلَةِ وَالاِتِّقَاءِ عَلٰى اَسَاسِ شَرْعِيٍّ.
وَتَحَرَّرَ مَجَالُ الثَّقَافَةِ وَالْفَنِّ مِنَ القُوْدِ الشَّرْعِيَّةِ الاِسْلَامِيَّةِ، وَصَارَ خَاصِعًا لِمَعَانِي حُرِّيَّةِ الاِبْدَاعِ كَمَا
تَقَرَّرَتْ فِي الفِكْرِ العِلْمَانِيِّ الحَدِيْثِ.

وَلَعِبَ مَجَالُ الاِغْلَامِ دُوْرَهُ المِحْوَرِيَّ فِي تَسْوِيْعِ جَمِيْعِ مَا سَبَقَ، وَفِي اَعْدَادِ المُسْلِمِ العَصْرِيِّ "المُعَلِّمِ"،
الَّذِي يَرَى اَنَّ الدِّيْنَ طُقُوسٌ خَاصَّةٌ يَتَّبَعِي اَنْ تُحْصَرَ فِي الدَّائِرَةِ الفُرْدِيَّةِ؛ بَلْ يَرَى اَنَّ الدَّائِرَةَ الفُرْدِيَّةَ اَيْضًا
تَخْضَعُ لِلَاخِيَارِ الحُرِّ، وَلَا تُحْكَمُ اِيَّةُ مُرْجِعِيَّةٍ دِيْنِيَّةٍ مُتَجَاوِرَةً - كَمَا سَيَبِيْنُ فِي التَّنْقِطَةِ التَّالِيَةِ.

فِي الدَّائِرَةِ الخَاصَّةِ :

لَمْ يَعْذُ بِاِمْكَانِ الدَّائِرَةِ الخَاصَّةِ اليَوْمِ - اَيُّ: فِي زَمَنِ تَعَوُّلِ الدَّوْلَةِ الحَدِيْثَةِ - اِنْ تَنَفَّكَ عَنِ تَاثِيْرِ الدَّائِرَةِ
العَامَّةِ. فَكُلُّ المُظَاهِرِ العَامَّةِ لِلْعِلْمَانِيَّةِ تُؤَثِّرُ - وَلَا بُدَّ - عَلٰى الدَّوَائِرِ الفُرْدِيَّةِ الخَاصَّةِ، اِلَّا عِنْدَ ثَلَاةِ قَلِيْلَةٍ
هَامِشِيَّةٍ، تَسْتَطِيْعُ الحِفَاطُ عَلٰى اسْتِقْلَالِهَا الفِكْرِيِّ نَسْبِيًّا.

وَلِذَلِكَ، دَخَلَتْ المَفَاهِيْمُ العِلْمَانِيَّةُ اِلَى عُمْرِ دَارِ وَاقِعِ النَّاسِ الخَاصِّ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ مَفْهُومِيْنِ كَبِيْرِيْنِ:

المَفْهُومُ الاَوَّلُ: الحُرِّيَّةُ المَطْلَقَةُ

إِذَا كَانَتْ الْحُرِّيَّةُ بِمَعْنَاهَا الشَّرْعِيَّةُ الْمُنْضَبَطُ، أَمْرًا مَحْمُودًا يَتَشَوَّفُ الشَّارِعُ إِلَى تَحْقِيقِهِ، فَإِنَّ الْمَعْنَى

الْمُنْتَشِرَ الْيَوْمَ فِي أَذْهَانِ النَّاسِ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ إِنَّمَا هُوَ الْحُرِّيَّةُ بِمَعْنَاهَا الْمَطْلُوقُ الْمُتَحَرَّرُ مِنْ كُلِّ قَيْدٍ !

فَمَا أَكْثَرَ مَا نَسْمَعُ فِي كَلَامِ الْعَامَّةِ قَوْلُ قَائِلِهِمْ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ: "كُلُّ فَرْدٍ حُرٌّ فِي أَنْ يَقُولَ مَا يَشَاءُ"، أَوْ:

"هَذَا الَّذِي أَفْعَلُهُ حُرِّيَّةٌ شَخْصِيَّةٌ، لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَدَخَّلَ فِيهَا"، أَوْ: "ارْضُصْ وَصَايَةَ الْعُلَمَاءِ، أَوْ رِجَالِ

الدِّينِ عَلَى أَقْوَالِ النَّاسِ وَأَفْعَالِهِمْ" ! .

وَمَا أَكْثَرَ مَا يُوَجِّهُ الْمُنْكَرُ لِلْمُنْكَرِ الشَّرْعِيِّ الصَّرِيحِ بِقَوْلِ مُرْتَكِبِهِ أَوْ الْمُنَافِحِ عَنْهُ: "لَيْسَ لَكَ أَنْ تُنْكَرَ

عَلَيَّ، فَإِنَّا حُرٌّ فِي مَا أَفْعَلُهُ" !، أَوْ: "ذُنُوبِي بَيْنِي وَبَيْنَ رَبِّي، فَمَا دَخَلَكَ أَنْتَ؟"، أَوْ: "هَلْ بِيَدِكَ مَفَاتِيحُ

الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَأَنْتَ تَدْخُلُ إِلَيْهِمَا مِنْ تَشَاءُ؟" ! .

وَيُمْكِنُ بِالِاسْتِقْرَاءِ إِيجَادَ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْعِبَارَاتِ الْجَامِعَةِ الْمُتَكَرِّرَةِ، الَّتِي يَرْفَعُهَا الْعَصَاةُ الْمُخَالَفُونَ لِبَعْضِ

أَصُولِ الشَّرِيعَةِ أَوْ فُرُوعِهَا، شِعَارًا يَسُوعُونَ بِهِ فِعْلِهِمْ، وَيُنْعِنُونَ بِهِ الْإِنْكَارُ عَلَيْهِمْ. كَمَا يُمْكِنُ بِالْقَلِيلِ مِنْ

التَّدْبِيرِ تَفْكِيكِ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ، وَاسْتِخْرَاجِ حُمُولَتِهَا الْعِلْمَائِيَّةِ الْمُتَسَرِّةِ وَرَاءَ اللَّفْظِ الْجَمِيلِ الْمُتَمَقِّ . .

أَصْلُ الْقَضِيَّةِ مِنَ الْمَذْهَبِ الْعِلْمَانِيِّ الَّذِي يُحْصِرُ الدِّينَ فِي الطُّقُوسِ التَّعْبُدِيَّةِ، وَيَرْفُضُ بِالنَّالِيِّ وَجُودَ "ذَنْبِ

دِينِي" خَارِجَ هَذَا الْإِطَارِ الضَّيِّقِ، يَسْتَلْزِمُ إِنْكَارًا مِنَ السُّلْطَةِ الدِّيْنِيَّةِ أَوْ الْمُجْتَمَعِيَّةِ. وَهَذَا بِالطَّبَعِ مُنَاقِضٌ

لِلْفَهْمِ الشُّمُولِيِّ لِلْإِسْلَامِ، الَّذِي يُجْعَلُ الْإِتْرَامَ الدِّيْنِيَّ شَامِلًا لِجَمِيعِ مَنَاحِي الْحَيَاةِ، وَيُجْعَلُ الْإِحْلَالَ بِهِ أَيْضًا

مُمْكِنًا فِي جَمِيعِ مَنَاحِي الْحَيَاةِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْإِحْلَالَ حِينَ يَكُونُ فِي الْفَضَاءِ الظَّاهِرِ الْعُمُومِيِّ، فَإِنَّهُ

يَقْتَضِي إِنْكَارًا مِنْ مَجْمُوعِ الْأُمَّةِ، وَخَاصَّةً مِنْ أَهْلِ الْإِحْتِصَاصِ كَالْعُلَمَاءِ وَالسُّلْطَاتِ الْأُمِّيَّةِ وَالنِّيَّارَاتِ

الْمُتَخَصِّصَةِ فِي حِفْظِ الْقِيَمِ الْمُجْتَمَعِيَّةِ. وَهَذَا يُشْبِهُ حَالَةَ الْمُخَالَفَةِ الْقَانُونِيَّةِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ،

المَمَحَضَة فِي عِلْمَائِهَا، فَإِنَّهَا تَجِدُ الْإِنْكَارَ مِنْ جَمِيعِ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ، خَاصَّةً مِنَ الْأَعْلَامِ وَالْجَمْعِيَّاتِ
الْمَدِينِيَّةِ وَأَرْبَابِ السِّيَاسَةِ وَالْقَانُونِ . وَلَا أَحَدٌ يُنْكِرُ هَذَا الْإِنْكَارَ أَوْ يَمْنَعُهُ !

أَسَاسُ الْمَشْكَلَةِ أَدْنَى فِي كَوْنِ هَؤُلَاءِ لَا يَتَصَوَّرُونَ صِحَّةَ الْإِنْكَارِ عَلَى أَسَاسِ دِينِي، لِأَنَّ الْإِنْكَارَ لَا يَكُونُ
إِلَّا فِي الدَّائِرَةِ الْعَامَّةِ، الَّتِي لَا مَجَالَ لِلدِّينِ فِيهَا عِنْدَهُمْ، بِسَبَبِ تَغْلُغِ التَّاصِيلَاتِ الْعِلْمَائِيَّةِ إِلَيْهِمْ مِنْ خِلَالِ
التَّعْلِيمِ وَالْإِعْلَامِ وَالْفَنِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَيُقَالُ مِثْلَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ الْعِبَارَاتِ الْعِلْمَائِيَّةِ الَّتِي صَارَ النَّاسُ يَسُوعُونَ بِهَا مُخَالَفَاتِهِمُ الشَّرْعِيَّةَ، بَلْ طَرِيقَهُ
حَيَاتِهِمُ الْمُنَاقِضَةَ لِلْمَنْهَجِ الْإِسْلَامِيِّ .

وَيُنشَأُ مِنْ انْتِشَارِ مَفْهُومِ الْحُرِّيَّةِ الْمُطْلَقَةِ، سَيُولَةُ اعْتِقَادِيَّةٍ خَطِيرَةٍ، يَتُّخِعُ عَنْهَا انْتِشَارَ الْاِعْتِقَادَاتِ الضَّالَّةِ مِنْ
التَّشْكِيكَاتِ "التَّثْوِيرِيَّةِ" فِي بَعْضِ أَصُولِ الْعَقَائِدِ إِلَى الْإِلْحَادِ الصَّرِيحِ، لِأَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ مَسْمُوحٌ بِهِ فِي دِينِ
الْعِلْمَائِيَّةِ، الَّتِي تَكْفُلُ حُرِّيَّةَ الْاِعْتِقَادِ . وَهَذَا أَمْرٌ مُشَاهِدٌ فِي أُمَّتِنَا الْيَوْمَ، وَيَسْتَدْعِي وَقَفَاتِ حَازِمَةٍ مِنْ
أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفِكْرِ .

المَفْهُومُ الثَّانِي: الْفَرْدَانِيَّةُ

وَيُقْصَدُ بِالْفَرْدَانِيَّةِ ذَاكَ التَّصَوُّرِ الْفَلْسَفِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ الَّذِي يُقَدِّمُ الْفَرْدَ عَلَى الْجَمَاعَةِ، فِي
مَجَالِ الْحُقُوقِ وَالْمَصَالِحِ، وَفِي الْقِيَمَةِ عُمُومًا .

وَالْفَرْدَانِيَّةُ مُظْهِرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الزَّمَنِ الْعِلْمَانِيِّ الْحَدِيثِ، فَإِنَّ الْفَضْلَ الصَّارِمَ الَّذِي تَمَارَسَهُ الْعِلْمَائِيَّةُ بَيْنَ
الدَّائِرَةِ الْفَرْدِيَّةِ الْخَاصَّةِ وَالدَّائِرَةِ الْجَمَاعِيَّةِ الْعَامَّةِ، وَدَوْرَهَا فِي انْحِسَارِ الْمَرْجِعِيَّةِ الْقِيَمِيَّةِ الدِّينِيَّةِ عَنِ

المجال العام وحصرها في المجال الفردي، يُؤدیان إلى جعل العلاقات المجتمعية مُنفكة عن الاغبيارات
الدينية المتجاوزة، وخاضعه لقيم اللذة والسوق، وهما القيمتان الحاكمتان عند انعدام المنظومة
الأخلاقية الدينية .

فقيمة اللذة تُتيح الفردانية المعية، التي تجعل غاية الفرد في عيشة تحصيل جميع أنواع المنفعة
الشخصية، تقطع النظر عن الاغبيارات الاجتماعية العامة .

وقيمة السوق تُتيح الفردانية الاستهلاكية، التي تنزع عن المجتمع صفته الجماعية في مواجهة متطلبات
السوق، وتجعله مجموعته غير متماسكة من الأفراد المستقلين الذين يعيشون من أجل الاستهلاك
المرضي، الذي لا يعرف الحدود .

وعلى الرغم من الممانعة العنيفة التي تجدها أمامها من بقايا القيم الإسلامية عند الأفراد، فإن هذه
الفردانية بنوعها - المعية والاستهلاكية - تنتشر اليوم بشكل كبير في الأمة الإسلامية، تبعاً للحضارة
الغربية المعاصرة، وفقاً للقاعدة المعروفة في تبعية المغلوب للغالب .

في التأصيل الفكري والشرعي:

إذا كانت العلمانية تتمحور حول إلغاء المرجعية الدينية المتجاوزة، في العمل السياسي خصوصاً، وفي
عموم مناحي الحياة، فإن سؤال المرجعية يعد السؤال الجوهرية الذي ينبغي طرحه في جميع النقاشات
الإسلامية-العلمانية .

إِنَّ اسْتِقْرَاءَ وَاقِعِ التَّاصِيَلَاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ الْمُنْتَشِرَةِ الْيَوْمَ، يُمَكِّنُهُ أَنْ يَرُصِدَ بِوُضُوحٍ حَجْمَ الْخَلَلِ فِي مَجَالِ الْمَرْجِعِيَّةِ. فَقَدْ تَكَوَّنَتْ مَسَافَةٌ تَفْصِلُ لَدَى قُطَاعٍ وَاسِعٍ مِنَ التُّخْبَةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ - وَحَتَّى الشَّرْعِيَّةِ - بَيْنَ الْخُطَابِ التَّاصِيَلِيِّ، وَالْمَرْجِعِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعُلْيَا.

وَقَدْ بَدَأَتْ هَذِهِ الْمَسَافَةُ صَغِيرَةً مُحَقَّرَةً، ثُمَّ مَا لَبِثَتْ تَوَسَّعَتْ حَتَّى صَارَتْ عِنْدَ الْكَثِيرِينَ حَاجِزًا إِخْدُودِيًّا، يُبْعِدُهُمْ عَنِ الْمَرْجِعِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَيَلْحَقُهُمْ بِالْمَرْجِعِيَّاتِ الْعِلْمَائِيَّةِ السَّائِدَةِ فِي الْوَاقِعِ. وَمَنْ أَهَمَّ مَظَاهِرِ التَّاصِيلِ الْمُنَافِي لِلْمَرْجِعِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ التَّفْرِيقَ بَيْنَ الْمَبَادِي وَالْأُسُسِ الْعَامَّةِ لِلشَّرِيعَةِ، وَالْأَحْكَامِ التَّفْصِيلِيَّةِ الْفُرْعِيَّةِ!

فَقَدْ انْتَشَرَ لَدَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمُنْظَرِينَ الْيَوْمَ الْمُوَافَقَةَ عَلَى الْمَرْجِعِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَكِنْ بِقَيْدِ انْحِصَارِهَا فِي الْمَبَادِي الْكَلِمِيَّةِ لِلشَّرِيعَةِ، دُونَ الْأَحْكَامِ التَّفْصِيلِيَّةِ. وَالسَّرُّ فِي هَذَا التَّفْرِيقِ أَنَّ الْمَبَادِي الْعَامَّةَ كَالْحُرِّيَّةِ وَالْعَدَالَةِ وَالسَّامِحَ وَالْمَسَاوَاةَ، تَكُونُ - فِي الْغَالِبِ - مَقْبُولَةً مِنَ النِّظَامِ الْعِلْمَانِيِّ الْمُهَيْمِنِ، خَاصَّةً فِي صَيْغِهَا الْمَوْغَلَةِ فِي التَّعْمِيمِ وَالْإِطْلَاقِ، بِخِلَافِ التَّفْصِيَلَاتِ الْفُرْعِيَّةِ فَإِنَّهَا مَحَكَّ التَّسْلِيمِ لِمَرْجِعِيَّةِ الشَّرْعِ حَقًّا.

وَالْإِشْكَالُ حِينَ تَبَنَّى التُّخْبَةُ الشَّرْعِيَّةِ مَبَادِي كَلِمِيَّةَ مَائِعَةً فِي صِيَاغَتِهَا، مَاخُودَةً فِي الْأَصْلِ مِنْ مُعْجَمِ الْفِكْرِ الْغَرْبِيِّ الْمَسْلُطِ، مَعَ كَوْنِهَا تَحْتَمِلُ مُوَافَقَةَ الشَّرْعِ، وَلَكِنْ مَعَ كَثِيرٍ مِنَ التَّقْيِيدِ وَالضَّبْطِ، مَا أَقَلَّ مِنْ يُنْبَهُ عَلَيْهِ! فَتُصْبِحُ هَذِهِ الْعُنُودَاتُ الْمَرْفُوعَةُ عَلَى هَيْئَةِ شِعَارَاتٍ، أَرْضًا خِصْبَةً لِإِبْنَاتِ كُلِّ الْمَعَانِي الْعِلْمَائِيَّةِ الْمُنَاقِضَةِ لِلشَّرْعِ.

وَمِنْ مَظَاهِرِ التَّأْصِيلِ الْمُنَاقِضِ لِلْمَرْجِعِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَيْضًا: تَغْلِيْفُ الْمَرْجِعِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِمَقُولَاتِ عِلْمَائِيَّةٍ،
لَيْسَتْ تَسْوِيْقِيَّةً فِي بَيْتَةِ عِلْمَائِيَّةٍ خَالِصَةٍ. فَهَذَا التَّغْلِيْفُ صُوْرَةٌ تَلْفِيْقِيَّةٌ، يَسْعَى أَصْحَابُهَا إِلَى تَحْقِيْقِ
غَايَاتِ الشَّرِيْعَةِ الْمُتَّقِ عَلَيْهِا، تَحْتِ خِطَابِ مُعْلَمٍ يَصْطَلِحُ مَعَ النِّظَامِ الْعِلْمَانِي الْمُهَيْمِنِ. وَهِيَ صُوْرَةٌ لَا
تُخَصُّ بِالمَقُولَاتِ الْمُتَكَامِلَةِ، بَلْ تُوْجَدُ بِالْحَاحِ أَيْضًا فِي الْمُصْطَلِحَاتِ الْمُفْرَدَةِ ذَاتِهَا. فَقَدْ سَرَى إِلَى
الْخِطَابِ الْإِسْلَامِي عِدَدٌ كَبِيْرٌ مِنَ الْمُصْطَلِحَاتِ الْغَرَبِيَّةِ، الْمُحْتَمَلَةِ بِالمَفَاهِيْمِ الْعِلْمَانِيَّةِ.

وَلِإِنْ أَوَّلَ خَطْوُهُ فِي إِحْيَاءِ التَّنْظِيْرَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ . . . هُوَ تَخْلِيْصُ الْأَجْوَاءِ الْفِكْرِيَّةِ مِنَ الْمَفَاهِيْمِ
وَالْمُصْطَلِحَاتِ الْعِلْمَانِيَّةِ، وَنَشْرُ الْمَفَاهِيْمِ وَالْمُصْطَلِحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ . . . وَلَيْسَ مِنَ الْمَقْبُولِ شَرْعًا وَلَا
مَنْهَجًا أَنْ نَعْتَمِدَ فِي بِنَاءِ وَتَوْضِيْحِ حَقِيْقَةِ مِنَ الْحَقَائِقِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى مُصْطَلِحَاتِ أَجْنَبِيَّةٍ عَنِ الْفِكْرِ
الْإِسْلَامِي، بَلْ لَهَا حُمُولَاتُهَا الْعِلْمَانِيَّةِ وَالْمُسْتَقْرَّةِ فِي الْعَقْلِ الْجَمْعِي لَدَى كَثِيْرٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ

وَقَدْ تَفَطَّنَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ وَمَنْظُرِي الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى هَذَا الْخَلَلِ فِي سِرِّ الْمَرْجِعِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَرَأَى
الْإِصْطِلَاحَاتِ الْعِلْمَانِيَّةِ. فَكَتَبَ الدُّكُوْرُ أَحْمَدُ الرَّيْسُوْنِي مَقَالًا عُنْوَانُهُ: (كَيْ لَا نَضْعَفُ مَرْجِعِيْنَا بِأَنْفُسِنَا
ذَكَرَ فِيهِ هَذَا الْإِشْكَالَ، فَكَانَ مِمَّا قَالَ:

(مِمَّا يَلَاخِظُ فِي السَّنِيْنِ الْأَخِيْرَةِ لِنِ الْخِطَابِ الْإِسْلَامِي لَدَى عِدَدٍ مِنَ أَصْحَابِهِ بَدَأَ يَتَقَلَّصُ فِيهِ اعْتِمَادُ
الْمَرْجِعِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَخُضُوْرُهَا بِشَكْلِ وَاضِحٍ وَمُزَيْدٍ، وَبَدَأَتْ تُصْبِحُ فِيهِ هَذِهِ الْمَرْجِعِيَّةُ بِأَهْتَةٍ
وَمُحْتَشَمَةٍ، لِصَالِحِ اعْتِمَادِ الْمَرْجِعِيَّاتِ السَّائِدَةِ: سِيَاسِيَّةٍ كَانَتْ أَوْ إِعْلَامِيَّةٍ أَوْ ثَقَافِيَّةٍ أَوْ قَانُوْنِيَّةٍ).

وَيُوْدِي هَذَا التَّغْلِيْفُ إِلَى مَفَاسِدَ كَثِيْرَةٍ مِنْهَا:

• ضَعْفُ اسْتِنَاسِ عَوَامِ الْمُسْلِمِينَ بِالْخُطَابِ الشَّرْعِيِّ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى انفصالِهِم التَّدْرِيجِيَّ عَنِ الْمَعَانِي الدِّينِيَّةِ .

• سُهولة نفاذ الخطاب العلماني في جسم الأمة، بسبب توفير الأرضية الملائمة له، بعد أن حصل تدجين أذهان المتلقين وتثمينهم على مقتضاه .

• موعه الأحكام المعلمنه بسبب سهولة تغييرها، والالتفاف حولها، بسبب كونها بشرية اجتهادية، قابلة للأخذ والرد .

• ربط الحق في أذهان الناس بالمعايير المادية التي تسوقها المقولات العلمانية، بدلاً من المقاييس الشرعية السامية .

وَمَنْ الْمُظَاهِرِ الْمُؤَسِّفِ لِتَبْنِي الْمَرْجِعِيَّةِ الْعِلْمَانِيَّةِ دُونَ قَصْدٍ، مَا يَقَعُ لِلْكَثِيرِينَ مِنَ التَّرْكِيزِ عَلَى مَعَانِي الْمُصْلَحَةِ الْمَادِيَّةِ وَالتَّنَعُّعِ الدُّبُوبِيِّ فِي مَجَالَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَإِهْمَالِ مَعَانِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالتَّسْلِيمِ لِحُكْمِهِ .
وهذا يؤدي إلى مفاسد شرعية خطيرة . .

ففي السياسة يغيب الفئاع الأخلاقي المستمد من الدين، وتغطي الشرعية للوسائل المادية الخسيسة، فيفتح الباب لأصناف من الظلم والمعاناة الإنسانية .

وفي الاقتصاد، يغيب الدين عن حياة الناس، فيصبح همهم تحقيق المكاسب المادية دون اعتبار الحياة الآخرة، ولا انتظار لثواب ولا عقاب . ونهيم النزعة المكيافيلية التي نقرر أن الأناية والمصلحة الشخصية تكمن وراء كل نشاط للجس البشري .

وَفِي الْجَمَاعِ، يَفْقِدُ الْمَجْتَمَعُ مَقْوَمَاتِ تَمَاسِكِهِ، حِينَ تُصْبِحُ مَعَايِرُ النُّفَعِ وَالضَّرَرِ الْمَادِي لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ
مُنْبَعِ الْقِيَمِ الْجَمَاعِيَّةِ، فَ"تَتَحَرَّرُ" الْمَرْأَةُ، وَتَنْفَسِحُ الْأُسْرَةَ، وَتَتَفَكِّكُ رَوَابِطَ الْمَجْتَمَعِ.

وَفِي الثَّقَافَةِ وَالْفَنِّ، تَسْقُطُ الضُّوَابِطُ الْقِيَمِيَّةُ كُلُّهَا، وَيُلْغَى الْحِسَابُ الْأُخْرَوِيَّ مِنَ الْإِعْتِبَارِ، وَتُرْفَعُ إِعْلَامُ
الْمَادَّةِ، فَيُصْبِحُ الْفَنُّ دَعَاةً، وَالْأَدَبُ عَهْرًا!

أَسَالِيبُ التَّصَدِّيِّ لِلْعِلْمَانِيَّةِ الْكَاسِحَةِ

لِكُلِّ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الْعِلْمَانِيَّةِ السَّابِقِ ذِكْرُهَا عِلَاجٌ خَاصٌّ . .

وَلَمَّا كَانَتْ الْمَحَاوِرُ فِي شِقِّ تَشْخِصِ الْمَرَضِ ثَلَاثَةً، فَمَنْ الْمَعْقُولِ أَنْ تَكُونَ الْمَحَاوِرُ فِي شِقِّ الْعِلَاجِ ثَلَاثَةً
أَيْضًا:

- الْمُدَافَعَةُ الْعُمُودِيَّةُ لِلْعِلْمَانِيَّةِ الْمَفْرُوضَةِ مِنْ أَعْلَى الْهَرَمِ السِّيَاسِيِّ عَلَى عُمُومِ الْأُمَّةِ.
- وَالْمُدَافَعَةُ الْأَفْقِيَّةُ لِلْعِلْمَانِيَّةِ الْمُنْتَشِرَةِ بَيْنَ عُمُومِ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ.
- وَالْمُدَافَعَةُ التَّاصِيلِيَّةُ لِلتَّاصِيلَاتِ الْعِلْمَانِيَّةِ الْمُنْتَشِرَةِ بَيْنَ التَّخَبِ الْمُتَّقِفِ، وَمِنْهَا التَّخَبُ الْإِسْلَامِيَّةُ.

الْمُدَافَعَةُ الْعُمُودِيَّةُ الْوَاعِيَّةُ

أَنَّ الْعِلْمَانِيَّةَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ طَرَفِ الْأَنْظِمَةِ السِّيَاسِيَّةِ الْحَاكِمَةِ، تَقْتَضِي مِنْ جَمِيعِ الْعَامِلِينَ لِلْإِسْلَامِ
وَقَفَاتٍ وَاصِحَةً لِمُوَاجَهَتِهَا. وَيُمرُّ ذَلِكَ عَبْرَ مُحَوْرَيْنِ أَتَيْنِ:

الْمِحْوَرُ الْأَوَّلُ: فَضْحُ الْخُطُوتِ التَّدْرُجِيَّةِ لِلْعِلْمَانَةِ.

وَقَدْ بَيَّنَّتْ فِي مَا سَبَقَ أَنَّ الْعِلْمَانِيَّةَ تَنْتَشِرُ فِي الدَّائِرَةِ الْعَامَّةِ، وَفَقَ مُخَطَّطَ مُدْرَجِ يَسْتَعْلِ الأليَّةَ السِّيَاسِيَّةَ
الديمقراطية.

فَعَلَى هَؤُلَاءِ الْمُتَقَطِّينَ مَسْئُولِيَّةَ كُبْرَى فِي البَيَانِ الشَّرْعِيِّ، وَالتَّوَعِيَةِ الفِكْرِيَّةِ. وَيَشْمَلُ ذَلِكَ:

- التَّرْكِيزُ عَلَى دُورِ مُؤَسَّسَةِ العُلَمَاءِ، فِي بَيَانِ حُكْمِ الشَّرِيعَةِ، وَضُرُورَةِ الرُّجُوعِ إِلَيْهِمْ فِي تَقْرِيرِ
الأحكامِ الشَّرْعِيَّةِ، مَعَ ضَمَانِ حُرِّيَّتِهِمْ وَاسْتِقْلَالِهِمْ عَنِ القَرَارِ السِّيَاسِيِّ. وَكُلُّ تَنَازُلٍ يَبْعُ فِي هَذَا المَجَالِ،
تُؤَدِّي الأُمَّةَ كُلَّهَا ضَرْبِيَّةَ العَالِيَّةِ!

- تَحْلِيصُ التِّيَّارَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ مِنْ دَوَامِهِ المُشَارَكَةِ فِي الأليَّةِ الديمقراطيةِ الطَّاحِنَةِ لِمَفَاهِيمِ
الشَّرْعِيَّةِ.

- الوُقُوفُ بِحَرْمِ إِمَامِ جَمِيعِ الانْحِرَافَاتِ المَفْرُوضَةِ فِي مَجَالِ المَرْأَةِ وَالمُجْتَمَعِ، وَالتَّذْكِيرُ بِالفَرْقِ
السَّاسِعِ بَيْنَ المَنْهَجِ الإِسْلَامِيِّ وَالمَنْهَجِ العِلْمَانِيَّةِ الغَرِيبَةِ فِي هَذَا المَجَالِ.

- عَدَمُ التَّنَازُلِ عَنِ المُكْتَسَبَاتِ القَائِمَةِ، فِي مَجَالِ تَطْبِيقِ الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَمُوَاجَهَةُ كُلِّ
مُحَاوَلَاتِ التَّعْرُضِ لَهَا.

المِحْوَرُ الثَّانِي: التَّنْبِيهُ عَلَى خُطُورِهِ الأليَّةِ السِّيَاسِيَّةِ

المَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى مَا تَحْمِلُهُ الديمقراطيةُ الإِجْرَائِيَّةُ مِنْ قِيَمِ عِلْمَانِيَّةٍ لَا تَشْفُكَ عَنْهَا، فَمنَ اللَّازِمِ
الحَذْرُ مِنَ المَدَافِعَةِ المُؤَدِّيَةِ إِلَى الانْفِتَاحِ المُطْلَقِ عَلَى المَفَاهِيمِ العِلْمَانِيَّةِ؛ وَضُرُورَةُ تَوْفِيرِ حَصَانَةِ عِلْمِيَّةِ

وَفِكْرِيَّةَ رَاسِخَةٍ، قَبْلَ الْأَرْتِمَاءِ فِي الْإِطْلَاعِ عَلَى الْفُلْسَفَاتِ الْغَرْبِيَّةِ، وَالْمُتَمِّحِ مِنْ حَيَاضِهَا؛ وَالتَّرْكِيزِ عَلَى
جَوَابِ التَّنْقِصِ وَالْخَلَلِ فِي الْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْمُسَيَّرَةِ بَدَلًا مِنَ التَّرْكِيزِ عَلَى الْجَوَابِ الْحَسَنَةِ فِيهَا .

إِنَّ الْعِلْمَانِيَّةَ الْمُهَيْمَنَةَ لَا تَرْضَى بِأَنَّ تُسَيَّرَ عَلَى مَيْدَانِ السِّيَاسَةِ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا تَسْلُلُ إِلَى كُلِّ مَجَالٍ
تَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ . وَلِذَلِكَ، فَإِنَّ مِنْ أَوْلِيَّاتِ الْعَامِلِينَ فِي مَجَالِ مُدَافَعَةِ الْعِلْمَانِيَّةِ أَنْ يُحَقِّقُوا لِأَنْفُسِهِمْ تَوَعُّ
عَزْلَهُ تَحْمِيهِمْ مِنْ أَثَرِ الْعِلْمَانِيَّةِ، وَتَحْفَظَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ مِنَ الْأَنْحِرَافِ وَالتَّمَيُّعِ . وَغَنَى عَنِ الذِّكْرِ، إِنَّ
الْمَقْصُودَ: عَزْلَهُ شُعُورِيَّةً، بِالْفِكْرِ وَالْوَجْدَانِ، مَعَ الْإِسْتِمْرَارِ فِي مُحَاظَةِ النَّاسِ وَدَعْوَتِهِمْ، وَالصَّبْرِ عَلَى
أَذَاهُمْ .

الْبَيْتُ الْآفَقِيُّ لِلْمَعَانِي السَّلِيمَةِ

أَنَّ الْإِنْتِشَارَ الْكَبِيرَ لِلْمَفَاهِيمِ الْعِلْمَانِيَّةِ بَيْنَ عَوَامِ الْمُسْلِمِينَ، يَتَضَيُّ جَهْدًا مُضَاعَفًا فِي الْبَيَانِ الدَّعْوَى
الْمُكَنَّفِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ إِعَادَةِ الْإِعْتِبَارِ لِطَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، يُضَيِّحُ مِنَ الْأَوْلِيَّاتِ لَدَى جَمِيعِ
الْمُتَصَدِّقِينَ لِدَعْوَةِ النَّاسِ، أَوْ الرَّدِّ عَلَى الْعِلْمَانِيِّينَ؛ فَالْعِلْمُ يَحْمِي مِنَ التَّمَيُّعِ وَالْإِنْحِرَافِ، وَيَحْفَظُ مِنَ الْحَيْرَةِ
وَالْإِضْطِرَابِ، وَيُقْوِي الرُّسُوحَ فِي الْمَوَاقِفِ الْمُبْدِئِيَّةِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَرَكَمِ الْفِتَنِ وَكَثْرَتِهَا .

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعِلْمُ جَامِعًا بَيْنَ التَّأْصِيلِ النَّظْرِيِّ، وَالتَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ؛ وَلِيُحَذَرَ أَشَدَّ الْحَذَرُ مِنَ الْعِلْمِ
الْعَقِيمِ، الْمُنْتَبِتِ عَنِ الْوَاقِعِ، الْمُوغَلِ فِي الْجِدَالِ النَّظْرِيِّ!

وَمِنْ أَهَمِّ مَا يَغْتَنِي بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ: تَصْحِيحُ الْعَقِيدَةِ، وَدَفْعُ غَائِلَةِ الْفُلْسَفَاتِ الْهَدَّامَةِ، وَالْعَقَائِدِ الْمُتَحَرِّفَةِ. فَإِنَّ الْعَقِيدَةَ أَسَاسَ الْعَمَلِ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ! وَمِنْ الْعَبَثِ الْأَنْطَلَاقِ إِلَى مَعَامِعِ الْعَمَلِ، قَبْلَ وَضْعِ الْأُسُسِ الْعَقِيدِيَّةِ الْوَاضِحَةِ.

وَيُنْبَغِي التَّرْكِيزُ فِي الدَّرْسِ الْعَقِيدِيِّ عَلَى تَرْبِيَةِ النَّاشِئَةِ عَلَى الْأُصُولِ الْعَقِيدِيَّةِ السَّلِيمَةِ، وَالْمَعَانِي الْإِيمَانِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ، بَدَلًا مِنْ اجْتِرَارِ الْخِلَافَاتِ التَّرَائِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ الَّتِي صَارَ الْكَثِيرُ مِنْهَا مُنْقَطِعًا عَنِ الْوَاقِعِ. وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ أَيْضًا: تَبْشِيرُ دِرَاسَةِ الْفُلْسَفَاتِ الْحَدِيثَةِ، وَالْمَذَاهِبِ الْفِكْرِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ، لِيَكُونَ لَدَى عُمُومِ النَّاسِ حَصَانَةٌ مِنْ أَثَرِهَا الْهَدَّامِ.

تَصْحِيحُ النَّاصِلِ لِلتَّخْبَةِ

كَانَ الْعُلَمَاءُ - عَبْرَ تَارِيخِ الْأُمَّةِ - عَلَى ثَغْرِ عَظِيمٍ مِنْ ثُغُورِ الْإِسْلَامِ، يُجَاهِدُونَ بِالْفِكْرِ وَاللِّسَانِ، وَيُنَافِخُونَ عَنِ الْعَقَائِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ الصَّحِيحَةِ.

وَمِنْ وَاجِبِهِمُ الْيَوْمَ أَنْ يَنْهَدُوا إِلَى مِيَادِينِ الْكِتَابَةِ وَالذَّعْوَةِ، لِيُوجِهُوا زَحْفَ الْعِلْمَانِيَّةِ، وَيَقْفُوا فِي وَجْهِ الْأَنْحِرَافَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْعَقِيدِيَّةِ؛ وَلَا يَتْرُكُوا الْمَجَالَ لِأَنْصَافِ الْمُتَقَفِّينَ، وَلِحَمْلِهِ الْفِكْرَ الْمُتَعَرَّبَ يُقَوِّدُونَ الْجُمُوعَ، وَيَتَّصِدِرُونَ لِبَيَانِ الْأَحْكَامِ، فِي هَذِهِ الْمُعْضَلَاتِ الدَّقِيقَةِ.

وَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ خَطَابُ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ، صَرِيحًا فِي التَّنْقِدِ وَبَيَانِ الْأَخْطَاءِ، مَعَ مُرَاعَاةِ فِقْهِ الْمَوَازَنَةِ بَيْنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ.

وَمَنْ بَيْنَ وَاجِبَاتِهِمُ الْمُتَحَمَّةُ فِي هَذَا الْمَجَالِ: التَّصَدِّي بِحُزْمِ الْمَجَاهِدِ، وَبِقُوَّةِ الْبُرْهَانِ، لِلْفِكْرِ التَّوْبِيرِيِّ
الَّذِي يُحَرِّفُ الْمَفَاهِيمَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي مَجَالَاتِ الْحُرِّيَّةِ وَالْمَسَاوَاةِ وَغَيْرِهَا .

وَمَنْ الْمُنَاسِبُ أَنْ يَتَفَقَّ إِلَى جَانِبِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ: الْمُفَكِّرُونَ الْإِسْلَامِيُّونَ الْمُتَمَنِّعُونَ بِخَطَرِهِ التَّسَلُّ
الْعِلْمَانِيِّ؛ فَيَتَصَدَّى أَهْلُ الْاِخْتِصَاصِ فِي الْفِكْرِ وَالْفَلَسَفَةِ لِبَيَانِ التَّاصِيلِ الْفُلْسُفِيِّ لِمَعْنَى الْعِلْمَانِيَّةِ وَتَعَلُّقَاتِهَا
بِالْمَذَاهِبِ الْفُلْسُفِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَفُرُوعِهَا وَأُصُولِهَا وَتَارِيخِهَا وَمَفَاسِدِهَا الْمُتَعَدِّدَةِ عَلَى أُمَّمِ الْغَرْبِ قَبْلَ
غَيْرِهَا، وَيَكُونُ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ مَنظُورِ إِسْلَامِيٍّ؛ وَإِنْ يَتَصَدَّى عُلَمَاءُ الشَّرِيعَةِ لِبَيَانِ التَّاصِيلِ الشَّرْعِيِّ
لِمُنَاقَضَةِ الْإِسْلَامِ لِلْعِلْمَانِيَّةِ، بِمَعْنِيَّتِهَا الْجُرْيِيَّةِ وَالشَّامِلَةِ .

الْبِدَايَات

كَانَ لِجُهُودِ التَّجْدِيدِ فِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ الَّتِي قَامَ بِهَا مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ وَتَلَامِيذُهُ، الَّتِي هَدَفَتْ إِلَى مُحَاوَلَةِ
صِيَاغَةِ الْمُبَادِي الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا الْمُجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ صِيَاغَةً جَدِيدَةً عَلَى ضَوْءِ مَا يُمَكِّنُ اقْتِبَاسَهُ مِنْ
الْأَفْكَارِ الْغَرْبِيَّةِ الَّتِي لَا تَعَارِضُ مَعَ جَوْهَرِ الْإِسْلَامِ، كَانَ لِتِلْكَ الْجُهُودِ أَثَرٌ فِي ظُهُورِ فِكْرِهِ إِمْكَانِيَّةِ إِقَامَةِ
مُجْتَمَعٍ «قَوْمِيٍّ» عِلْمَانِيٍّ، يَحْتَفِظُ فِيهِ بِالْإِسْلَامِ كَعَقِيدَةٍ وَرَابِطَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ، وَلَكِنْ دُونَ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ
مَصْدَرًا لِلتَّشْرِيعِ أَوْ لِلنِّظَامِ السِّيَاسِيِّ، وَفِي اتِّجَاهِ مُوَازٍ لِجُهُودِ تَلَامِيذِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ، كَانَ هُنَاكَ فَرِيقٌ مِنْ
الْكَتَابِ الْمَسِيحِيِّينَ الشَّوَامِ، تَطَوَّرَتْ عَلَى أَيْدِيهِمْ هَذِهِ الْفِكْرَةُ، فَكَانَ لَهُمْ دَوْرٌ بَارِزٌ فِي تَحْدِيدِ مَجْرَى
النِّيَّارِ الْعِلْمَانِيِّ .

وَجَدِيرٌ بِالْمَلَاخِظَةِ اخْتِلَافِ طَرَحِ الْكَتَابِ الْمَسِيحِيِّينَ الْعَرَبِ لِلْفِكْرَةِ الْعِلْمَانِيَّةِ عَنْ فَهْمِ إِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ لَهَا،
وَكَانَ لِهَذَا الطَّرْحِ أَثَرُهُ فِي النَّظَرَةِ السَّلْبِيَّةِ الشَّاعِيَّةِ بَيْنَ النَّاسِ إِلَى الْعِلْمَانِيَّةِ بِاعْتِبَارِهَا تَقْيِضًا لِلدِّينِ وَرَفْضًا

له، ومُرادفًا للإلحاد، وخاصةً أنهم هم الذين صُكِّوا مُصطلح «العلمانية» (بفتح العين) العربيّ ترجمةً للكلمة الفرنسيّة والإنجليزيّة بمعنى غير كِنسيّ أو دُنيويّ. فقد كانت الكنيسة تُفرض سلطانها على الأفكار، وتنفّ سدًّا منيعًا في وجه التفكير العلميّ؛ ولذلك كان لا بُدَّ من التخلّص من سلطة الكنيسة في المرحلة التي شهدت النهضة الأوروبيّة المصاحبة لتطوّر الرأسماليّة التجاريّة والتكوين القوميّ لبلاد أوروبا، فكانت الدّعوة إلى الفصل بين الدّين والدّولة؛ أيّ بين الكنيسة والسلطة السياسيّة، حَجْر الزاوية في الفكر الدُنيويّ الذي يعلب التّزعة العقليّة على غيرها. ومن الطّبيعيّ أن يُعبر الرّواد المسيحيّون العرب عن هذه الفكرة على ضوء معاناتهم من السلطة الكنسيّة؛ فمالوا إلى القول بتناقض الدّين للعلم، وفصل الدّين عن السياسة.

وكان الأمر مختلفًا عند إخوانهم المسلمين من تلاميذ محمّد عبده؛ لأنّ الإسلام لم يُعرف السُّلطة اللاهوتيّة الكنسيّة، فالمؤمن يُؤدّي فروض العبادة دون حاجة إلى «رجل دِين» يُقيم له طقوس العبادة. ولم يكن الفقهاء الذين اُثروا الشريعة الإسلاميّة باجتهاداتهم، يلبسون مُسوح رجال الدين، أو يتولّون مناصب دينيّة؛ لأنّه لم تكن هناك «هيئة دينيّة» ذات نظام تراتبيّ إلا في العهد العثمانيّ. وكان الفقهاء يتكسّبون من الاشتغال بالتعليم أو القضاء، أو الأعمال الحرفيّة والتجاريّة.

وحتىّ عندما أصبحت هناك «هيئة دينيّة» رسميّة، لم يكن لها من السُّلطة والتفوذ ما كان للكنيسة في أوروبا؛ فما يقدّمه عضو الهيئة الدّينيّة المسلم من فتوى ينتهي دائمًا بعبارة «والله أعلم». لتعني إن ما يقدّمه من (رأي) ليس بالضرورة حكمًا إلهيًا واجب الاتباع. هذا فضلًا عما يتضمّنه القرآن من حصّ

عَلَى أَعْمَالِ الْفِكْرِ، وَالتَّدْبِيرِ، وَالْعِلْمِ، وَالتَّحْدِيدِ الصَّرِيحِ لِمَسْئُولِيهِ الْفَرْدِ عَنْ عَمَلِهِ أَمَامَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
وَحَدَهُ.

لِذَلِكَ كَانَ اتِّجَاهُ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَتَلَامِيذِهِ إِلَى إِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ مِنْ خِلَالِ تَجْدِيدِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ بِالِاجْتِهَادِ،
وَاقْتِبَاسِ مَا يَنْفَعُ الْمُجْتَمَعِ مِنْ أَفْكَارِ الْعَرَبِ، وَالْجَمْعِ بَيْنَ «الِدِينِي» وَ«الدُّنْيَوِي»، يَسْتَنِدُ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
وَالسُّنَّةِ الشَّرِيفَةِ، وَلَا يَرَى تَعَارُضًا فِي ذَلِكَ؛ فَالْإِسْلَامُ يَبِيحُ الْاجْتِهَادَ فِي شُؤْنِ الدُّنْيَا «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُؤْنِ
دُنْيَاكُمْ»، وَيُقْبَلُ تَقْنِينُ الْعُرْفِ طَالَمَا حَقَّقَ «الْمُصْلَحَةَ» لِلنَّاسِ، وَلَمْ يَتَعَارَضْ مَعَ نَصِّ دِينِي صَرِيحٍ. فَلَا
عَجَبَ أَنْ نَجِدَ تَيَّارَ الْإِصْلَاحِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ وَتَلَامِيذُهُ قَبْلَ مَا رَوَّجَ لَهُ دَعَاةُ
«الْعُلَمَائِيَّةِ» مِنْ إِخْوَانِهِمُ الْكُتَّابِ الْمَسِيحِيِّينَ الْعَرَبِ؛ وَلَكِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا مَعَهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ إِلَى نَحْيَةِ الدِّينِ
جَائِبًا بِاعْتِبَارِهِ «مَسْأَلَةٌ شَخْصِيَّةٌ»، وَكَذَلِكَ فِي دَعْوَاهُمْ إِلَى رَفْضِ الدِّينِ كَمَعُوقٍ لِلْعِلْمِ، مُنَافٍ لَهُ.
وَمَنْ الْعَرِيبُ أَنْ التَّيَّارِ «السَّلْفِي» الْإِسْلَامِيِّ رَأَى «الْعُلَمَائِيَّةَ» بَعِيُونَ أَوْلِكَ الْكُتَّابِ الْمَسِيحِيِّينَ الْعَرَبِ،
وَمِنْ سَارَ عَلَى دَرَجَتِهِمْ، فَعَدُّوا الْقَوْلَ بِهَا «كُفْرًا بَيْنًا»، وَإِنْ لَا مَعْنَى لَهَا سِوَى الْإِلْحَادِ، وَالزَّمُومِ بِظَاهِرِ
الدِّينِ النَّصِيِّ بِمَا يُشْبَهُ التَّرَامِ «الْكَيْسَةَ» بِالنَّصِّ الدِّينِيِّ الَّذِي جَعَلَ مِنْ تَصْفِيَةِ نَفْسِهَا نَقْطَةَ انْطِقَ عَلَى
طَرِيقِ التَّهْضَةِ.

وَيُرْتَبِطُ رَوَاجُ الدَّعْوَةِ لِلتَّيَّارِ الْعِلْمَانِيِّ بِالْمَجَلَّاتِ الَّتِي صَدَرَتْ فِي الْعُقُودِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْقُرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ،
وَعُرِضَتْ عَلَيْهَا صَفْحَاتُهَا الْأَفْكَارِ الْأُورُوبِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ بِأَسْلُوبِ ضَمْنِي حَيْثُ،
وَأَسْلُوبِ صَرِيحٍ حَيْثُ آخَرَ. مِنْ تِلْكَ الْمَجَلَّاتِ «الْجَنَان» الَّتِي أَصْدَرَهَا بَطْرُسُ الْبُسْتَانِي وَابْنُهُ سُلَيْمٌ فِي
بَيْرُوتَ، وَصَدَرَتْ فِي الْمُدَّةِ (١٨٧٠-١٨٨٦م)، وَ«الْمُقْتَطَفُ» الَّتِي أَصْدَرَهَا يَعْقُوبُ صُرُوفٌ وَفَارِسُ

نَمِرِ بِيْرُوتِ أَيْضًا عَامَ ١٨٧٦م، ثُمَّ انْتَقَلَتْ إِلَى الْقَاهِرَةِ حَيْثُ اسْتَمَرَّتْ فِي الصُّدُورِ حَتَّى الْعُقْدِ الرَّابِعِ مِنْ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، وَأَخِيرًا مَجَلَّةُ «الهِلَالِ» الَّتِي أَصْدَرَهَا جُرْجِي زَيْدَانُ بِالْقَاهِرَةِ عَامَ ١٨٩٢م، وَلَا زَالَتْ تَصْدُرُ حَتَّى الْيَوْمِ.

وَقَدْ نَأَتْ تِلْكَ الْمَجَلَّاتُ بِنَفْسِهَا عَنِ الْخَوْضِ فِي أُمُورِ السِّيَاسَةِ الْمَحَلِّيَّةِ أَوْ الدِّينِ حَتَّى لَا تُثِيرُ ضِدَّهَا الْمَعَارِضَةَ، وَلَكِنَّ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي نَشَرَتْهَا دَارَتْ حَوْلَ «الْمَدِينَةِ» بِاعْتِبَارِهَا الْخَيْرِ ذَاتِهِ، وَإِنْ الْأَخْذُ بِهَا وَتَنْمِيَّتُهَا فِيهِ صِلَاحُ الْأُمُورِ وَتَهْدِيبُ السُّلُوكِ، وَإِنَّ الْعِلْمَ أَسَاسَ الْمَدِينَةِ وَيُمْكِنُ لِلْعَرَبِ أَنْ يُنْقَلُوهُ إِلَى ثِقَافَتِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْأَكْشَافَاتِ الْعِلْمِيَّةَ الْحَدِيثَةَ هِيَ سِرُّ قُوَّةِ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي يُقُومُ عَلَى قَاعِدَةِ الْمَصْلَحَةِ «الْوَطَنِيَّةِ».

وَبَرَزَ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ النَّعْرِ مِنْ الْكِتَابِ شَيْبِي شُمَيْلُ (١٨٥٠-١٩١٧م)، وَكَانَ يُنْتَسِبُ إِلَى عَائِلَةِ لُبْنَانِيَّةِ اسْتَقَرَّتْ بِمِصْرَ عَلَى عَهْدِ الْخَدِيوِ إِسْمَاعِيلِ، دَرَسَ الطَّبَّ بِالْكَلْبَةِ الْبُرُوتْسَانِيَّةِ (الْجَامِعَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ الْآنَ) بِبِيْرُوتِ، ثُمَّ اسْتَكْمَلَ دِرَاسَةَ الطَّبِّ بِفَرَنْسَا، وَمَارَسَ مِهْنَتَهُ فِي مِصْرَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْلِ شُهْرَتَهُ كَطَبِيبٍ، وَإِنَّمَا كَمَبَشَرَ بِنَظَرِيَّةِ دَارُونِ فِي النُّشُوءِ وَالْإِرْتِقَاءِ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ طَرَحَ هَذِهِ التَّنْظِيرِيَّةَ وَمَا أَحْدَثَتْهُ مِنْ ثَوْرَةٍ فِي التَّفْكَيرِ الْبِيُولُوجِيِّ عَلَى الْقُرَاءِ الْعَرَبِ، وَقَدَّمَ تَرْجَمَةً عَرَبِيَّةً لِشَرْحِ بُوخَنرِ لِأَفْكَارِ دَارُونِ. فَكَانَ يُعْبَرُ «الْعِلْمُ» أَسَاسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ جَدِيدٌ بِالتَّقْدِيسِ؛ لِأَنَّهُ «الدِّينُ» الَّذِي يَجِبُ الْإِيْمَانُ بِهِ، وَوَجْهُ بِهِذَا الصَّدَدِ نَقْدًا مَرًّا لِلْكَنِيْسَةِ وَهَيْمَتِهَا عَلَى الْمُجْتَمَعِ، وَطَالَبَ بِحَقِّ الْفَرْدِ فِي اخْتِيَارِ طَرِيقَةِ وَالتَّعْبِيرِ عَنْ ذَاتِهِ، وَعَدَّ الْحُكْمَ الْقَائِمَ عَلَى الدِّينِ حُكْمًا زَائِفًا فَاسِدًا، يَسْتَعْمِدُ السُّلْطَةَ لِمَنْعِ تَمَوُّعِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ تَمَوًّا صَحِيحًا،

وَيُرْسِي قَوَاعِدَ الْإِسْتِبَادِ وَإِنْكَارَ حُقُوقِ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ يَجِبُ أَنْ يَعِيشُوا «وَفَقًّا لِلطَّبِيعَةِ» وَقَوَائِمَهَا؛ لِأَنَّ التَّطَوُّرَ يَتَحَقَّقُ بِالصَّرَاحِ مِنْ أَجْلِ الْبَقَاءِ، وَالْبَقَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلأَصْلِحِ.

وَالْمُجْتَمَعُ الأَصْلِحُ - عِنْدَهُ - هُوَ الْمُجْتَمَعُ الَّذِي تَعْمَلُ جَمِيعُ خَلَائِهَا مِنْ أَجْلِ خَيْرِ الْجَمِيعِ، وَالقَوَائِمِ وَالنَّظْمِ الأَجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ تُقَامُ لِخِدْمَةِ الصَّالِحِ العَامِّ وَتَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِ وَاقِعِهِ، فَلَا تَتَّصِفُ بِالنَّبَاتِ؛ لِأَنَّ النَّبَاتَ يَعْنِي الْجُمُودَ وَالْفَنَاءَ. وَلَا يُمَكِّنُ الاتِّفَاقَ عَلَى مَا يَعْنِيهِ «الصَّالِحِ العَامِّ» إِلَّا إِذَا تَوَفَّرَتِ الحُرِّيَّةُ، وَخَاصَّةً حُرِّيَّةُ الفِكْرِ. وَيُطَلَّبُ ذَلِكَ - فِي رَأْيِهِ - فَضْلَ الدِّينِ (بِاعْتِبَارِهِ عُنْصُرَ تَفْرِقَةٍ) عَنِ الحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ، فَالْأَمَمُ تَقْوَى بِمَقْدَارِ ضَعْفِ سُلْطَانِ الدِّينِ فِيهَا، وَالتَّعَصُّبُ القَوْمِيَّ الأَعْمَى - عِنْدَهُ - لَا يُقَلُّ شَرًّا عَنِ التَّعَصُّبِ الدِّينِيِّ الأَعْمَى؛ لِذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ تَحُلَّ «الْوَطَنِيَّةُ العَالَمِيَّةُ» مَحَلَّ الوَلَاءِ لِوَطْنِ مُحَدَّدٍ؛ فَالتَّقَدُّمُ الأَجْتِمَاعِيَّ يُوَكِّبُ التَّقَدُّمَ العِلْمِيَّ، وَسَوْفَ يَتَطَوَّرُ مَفْهُومُ «الْوَطْنِ» يَوْمًا مَا لِيَشْمَلَ العَالَمَ كُلَّهُ.

وَكَانَ سِبْطِي شَمِيلٌ - أَيْضًا - أَوَّلَ مَنْ قَدَّمَ الفِكْرَةَ الأَشْتِرَاكِيَّةَ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ للقُرَّاءِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ سَمَّاهَا «الأَجْتِمَاعِيَّةُ»، وَفِي طَرَحِهِ لِلفِكْرَةِ لَمْ يَهْتَمَّ بِمَبْدَأِ المِلْكِيَّةِ العَامَّةِ لِوَسَائِلِ الإِتِّتَاجِ، بَلْ كَانَ يُعْبِرُ عَنِ اعْتِقَادِهِ بِالتَّزَامِ الحُكُومَةِ العَمَلِ عَلَى تَحْقِيقِ التَّقَدُّمِ الأَجْتِمَاعِيِّ وَأَرْسَاءِ أَسَسِ التَّعَاوُنِ فِي سَبِيلِ الصَّالِحِ العَامِّ لِلْمُجْتَمَعِ؛ فَعَلَى الحُكُومَةِ أَنْ تُبَيِّحَ العَمَلَ للقَادِرِينَ، وَتُضَمِّنَ لَهُمُ الأَجُورَ العَادِلَةَ، وَتَوْفِّرَ لَهُمُ الخِدْمَاتِ الصَّحِيَّةَ، وَأَنْ تُقِيمَ جَامِعَهُ عَضْرِيَّةً تَدْرُسُ العُلُومَ، وَمَدَارِسَ فَنِيَّةً، وَمَدَارِسَ ابْتِدَائِيَّةً فِي كُلِّ قَرْيَةٍ وَحِيٍّ، وَمُؤَسَّسَاتٍ عَامَّةً لِتَوْزِيعِ المِيَاهِ وَالطَّاقَةِ، وَتُفْتَحَ البَابُ عَلَى مُصْرَاعِيهِ إِمَامِ الصُّحُفِ لِتَنْوِيرِ الرَّاْيِ العَامِّ. وَكُلُّهَا إِصْلَاحَاتٌ يُمَكِّنُ أَنْ تَتَحَقَّقَ فِي ظِلِّ مُجْتَمَعِ رَأْسِمَالِي لِيُبْرَأِيَ.

لَمْ يَكُنِ الْمَجْتَمَعُ فِي مِصْرٍ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ قَدْ عُرِفَ التَّطَوُّرُ الرَّأْسِمَالِي عَلَى نَحْوِ مَا عَرَفْتُهُ
أُورُوبًا، وَلَمْ تَكُنِ الْأَرْضُ بَعْدَ خِصْبَةِ لَتَلْقَى الْمَبَادِي الْأَشْرَاقِيَّةَ، وَلَكِنْ طَرَحَ شُمَيْلٌ لَهَا سَاعِدًا عَلَى تَوْعِيَةِ
الْقُرَاءِ فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ الْحُكُومَةُ الْعُصْرِيَّةُ؛ فَكَانَ لِهَذَا الطَّرْحِ أَثَرُهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى
الْحُكْمِ الدُّسْتُورِيِّ فِي مِصْرٍ وَبِلَادِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ. فَقَدْ كَانَ شُمَيْلٌ مِنْ أَنْصَارِ جَمَاعَةِ «تُرْكِيَا الْفَتَاةَ»،
مُعَارِضًا لِاسْتِبْدَادِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الثَّانِي. وَقَدْ وَصَفَ أَنْصَارُ «تُرْكِيَا الْفَتَاةَ» بِأَنَّهُمْ مِنْ أَنْصَارِ
التَّقَدُّمِ الْأَجْتِمَاعِيِّ، وَالْحُرِّيَّةِ، وَالْوَحْدَةِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَتَجَاوَزُ حُدُودَ الْفَوَارِقِ الدِّيْنِيَّةِ، وَعَدَهُمْ «طَلَّاعِ»
لِحَرَكَةِ الْبَشَرِيَّةِ تُجَاهَ الْمَجْتَمَعِ الْعَالَمِيِّ.

كَتَبَ شُمَيْلٌ هَذَا الْكَلَامَ عَامَ ١٨٩٨م، قَبْلَ أَنْ يَصِلَ رِجَالُ تُرْكِيَا الْفَتَاةَ إِلَى الْحُكْمِ بَعَشْرِ سَنَوَاتٍ، وَعِنْدَمَا
نَجَحَ انْقِلَابُهُمْ كَشَفُوا عَنْ تَعْصِبِهِمْ لِلْقَوْمِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ، وَعَصَفُوا بِالْقَوْمِيَّاتِ الْأُخْرَى الَّتِي انْضَوَتْ تَحْتَ لَوَاءِ
الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ مِمَّا يَكْتَشِفُ عَنِ النَّظَرَةِ «الْمِثَالِيَّةِ» الَّتِي اسْمَتَتْ بِهَا رُؤْيُةُ شُمَيْلٍ لَهُمْ.

وَإِذَا كَانَ شَلْبِي شُمَيْلٌ قَدْ فَضِمَ عَرِي الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ فِي إِطَارِ طَرَحِهِ لِلْأَفْكَارِ الَّتِي اسْتَلْهَمَهَا مِنْ
الْغَرْبِ؛ فَقَدْ ارْتَبَطَ اسْمُ مُعَاصِرَةِ (اللُّبْنَانِيِّ أَيْضًا) فَرِحِ أَنْطُونِ (١٨٧٤-١٩٢٢م) الَّذِي نَزَلَ مِصْرَ عَامَ
١٨٩٧م، وَأُصْدِرَ بِهَا مَجَلَّةُ «الْجَامِعَةُ» وَانْتَقَلَ إِلَى الْمَهْجَرِ، وَإِنْ ظَلَّ يَنْتَقِلُ بَيْنَ الْقَاهِرَةِ وَبِيُورْكَ وَأُصْدَرَ
هُنَاكَ عَدَدًا مِنْ الْمَجَلَّاتِ الْعَرَبِيَّةِ. وَاسْتَفْرَزَتْ كِتَابَاتُهُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ بِسَبَبِ حَمَلَتِهِ عَلَى الدِّينِ، وَاعْتِبَارُهُ
نَقِيضًا لِلْعِلْمِ. فَدَارَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حِوَارٌ حَوْلَ دِرَاسَةِ فَرِحِ أَنْطُونِ الَّتِي نَشَرَهَا عَنْ حَيَاةِ ابْنِ رُشْدٍ وَفَلَسَفَتِهِ
مُتَّبَعًا مِنْهَجِ الْمُسْتَشْرِقِ الْفَرَنْسِيِّ رِيْنَانِ، وَأَهْدَاهَا «إِلَى الْبَيْتِ الْجَدِيدِ فِي الشَّرْقِ... إِلَى أَوْلِيكَ الْعُقَلَاءِ
مِنْ كُلِّ مِلَّةٍ وَدِينٍ فِي الشَّرْقِ، الَّذِينَ عَرَفُوا مُضَارًّا مِنْجَ الدُّنْيَا بِالذِّينِ فِي عَصْرِ كَهَذَا الْعَصْرِ؛ فَصَارُوا

يُطَلَّبُونَ وَضَعُ أَدْيَانِهِمْ فِي مَكَانٍ مُقَدَّسٍ مُحْتَرَمٍ، لِيَتِمَّ كُنُوفُهُ مِنَ الْإِتِّحَادِ اتِّحَادًا حَقِيقِيًّا، وَمُجَارَاةً تَيَّارِ التَّمَدُّنِ
الْأُورُوبِيِّ الْجَدِيدِ، لِمَزَاحِمَةِ أَهْلِهِ، وَإِلَّا جُرِفَتْ جَمِيعًا وَجَعَلَتْهُمْ مُسْخَرِينَ لِعَيْرِهِمْ». وَذَكَرَ فِي مُقَدِّمَةِ
الدراسة أَنَّهُ يَكْتُبُ عَنْ حَيَاةِ ابْنِ رُشْدٍ لِيَقْضِيَ عَلَى الْفُرْقَةِ بَيْنَ عَنَاصِرِ الشَّرْقِ، وَيُغْسِلَ الْقُلُوبَ مِنْ
أَحْقَادِهَا، وَيُجْمَعُ كَلِمَةُ أَهْلِ الشَّرْقِ عَلَى نَهْجِ التَّمَدُّنِ؛ لِأَنَّ الزَّمَانَ زَمَانَ الْفَلْسَفَةِ وَالْعِلْمِ، الَّذِي يُلْزِمُ كُلَّ فَرِيقٍ
بِاحْتِرَامِ رَأْيِ غَيْرِهِ، وَعَقِيدَةِ غَيْرِهِ.

كَانَ كِتَابُ فِرَاحِ أَنْطُونِ شَبِيهًا بِكُتَابَاتِ شَنْلِي شَمْبِلٍ مِنْ حَيْثُ اتَّخَذَهُ طَاعِبُ «الْبَيَانَ السِّيَاسِيَّ»، رَمَى فِيهِ
إِلَى وَضْعِ أَسَسِ دَوْلَةِ عِلْمَائِيَّةٍ تُقَوِّمُ عَلَى كَاهِلِ مُوَاطِنِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَسِيحِيِّينَ عَلَى قَدَمِ سَوَاءٍ.
وَلِتَحْقِيقِ ذَلِكَ، رَأَى ضَرُورَةَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ جَوْهَرِيٌّ، وَمَا كَانَ عَرَضِيًّا فِي جَمِيعِ الْأَدْيَانِ. أَيْ الْفُضْلِ
بَيْنَ مَبَادِي الدِّينِ وَمَجْمُوعَةِ الشَّرَائِعِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِ. وَرَأَى أَنَّ الْمَبَادِيَّ وَاحِدَةً فِي جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، وَإِنَّ
الشَّرَائِعَ غَايَتُهَا حَثُّ النَّاسِ عَلَى الْفُضِيلَةِ وَالْخَلْقِ الْقَوِيمِ، وَهُوَ الْقَاعِدَةُ الَّتِي يَجِبُ التَّرْكِيزُ عَلَيْهَا فِي تَفْسِيرِ
الشَّرَائِعِ، وَلَوْ عَنْ طَرِيقِ التَّأْوِيلِ وَلَيْسَ التَّمَسُّكُ بِحَرْفِيَّةِ التُّصُوصِ. فَالشَّرَائِعُ — عِنْدَهُ — وَسِيلَةٌ لِغَايَةٍ
وَلَيْسَتْ غَايَةً فِي حَدِّ ذَاتِهَا؛ لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ الْبَشَرِيَّةَ وَاحِدَةً فِي جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، وَكَذَلِكَ حُقُوقُ الْإِنْسَانِ
وَوَاجِبَاتُهُ وَاحِدَةٌ، يَتَّفَقُ فِيهَا أَصْحَابُ الدِّيَانَاتِ مَعَ مَنْ لَا دِينَ لَهُمْ.

وَبَنَى فِرَاحِ أَنْطُونِ عَلَى ذَلِكَ قَوَاعِدَ الْعِلْمَائِيَّةِ الْفُضْلِ بَيْنَ السَّلْطَنِيَّةِ الزَّمْنِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ؛ لِتَنَاقُضِهِمَا بَعْضُهُمَا مَعَ
بَعْضٍ، وَلِأَنَّ قِيَامَ النِّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ عَلَى تَرَابُطِهِمَا وَاتِّحَادِهِمَا يُؤَدِّي إِلَى اضْطِهَادِ السُّلْطَةِ الْحَاكِمَةِ لِلدِّينِ
يُخَالِفُهَا الرَّأْيَ، وَخَاصَّةً أَهْلَ الْفِكْرِ، بَيْنَمَا هَدَفَ السُّلْطَةُ ضَمَانَ الْحُرِّيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي حُدُودِ الدُّسْتُورِ،
وَمَنْ تَمَّ لَا يَتَّعَرَّضُ أَصْحَابُ الْآرَاءِ الْمُعَارِضَةِ لِلِاضْطِهَادِ. وَمَنْ مَبْرَرَاتِ الْفُضْلِ بَيْنَ السَّلْطَنِيَّةِ — أَيْضًا —

ضُرُورَةٌ أَنْ يُقَوْمَ الْمُجْتَمَعُ الْمَمْدَنَ عَلَى الْمَسَاوَاةِ الْمَطْلَقَةِ بَيْنَ أُنْبَاءِهِ دُونَ النَّظَرِ إِلَى دِيَانَاتِهِمْ. كَمَا أَنَّ السُّلْطَةَ الدِّيْنِيَّةَ تَتَعَامَلُ مَعَ الْآخِرَةِ، بَيْنَمَا السُّلْطَةُ الرُّمْنِيَّةُ تَتَعَامَلُ مَعَ شُؤْنِ الدُّنْيَا. وَالْجَمْعُ بَيْنَ الدِّينِ وَالسِّيَاسَةِ يَضْعُفُ الدِّينَ ذَاتَهُ عِنْدَمَا يُنْزَلُهُ إِلَى حَلْبَةِ الصِّرَاعِ السِّيَاسِيِّ، وَيَجْعَلُهُ عُضْضَةً لِكُلِّ مَرَالِقِ الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ. وَلَمَّا كَانَ الدِّينُ الْحَقَّ وَاحِدًا، فَالْمَصَالِحُ الدِّيْنِيَّةُ الْمُخْتَلِفَةُ تُؤَدِّي إِلَى الْحُرُوبِ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ نِكَبَاتٍ.

أَثَارَتْ أَفْكَارُ فَرِحِ أَنْطُونِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ عَبْدِهِ وَتَلْمِيذِهِ رَشِيدِ رِضَا، وَكَانَتْ فِي تِلْكَ الْأَفْكَارِ نِقَاطٌ قَدْ يُقْبَلُ بِهَا مُحَمَّدُ عَبْدِهِ، فَقَدْ مَيَّزَ - أَيْضًا - بَيْنَ مَا هُوَ جَوْهَرِيٌّ أَصِيلٌ فِي الدِّينِ، وَمَا كَانَ عَرَضِيًّا، كَمَا قَالَ بِأَنَّ جَمِيعَ الْأَدْيَانِ تُعْبَرُ عَنْ حَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَكِنَّهُ رَأَى فِي الْإِسْلَامِ وَحْدَهُ الدِّينَ الْمُعْبَرِ عَنِ الْحَقِيقَةِ التَّامَّةِ، وَإِذَا كَانَ مُحَمَّدُ عَبْدِهِ قَدْ قَبِلَ بِأَنَّ يَكُونَ لِلْحُكُومَةِ الْحَقَّ فِي حُرِّيَّةِ التَّشْرِيعِ؛ فَقَدْ حَرَصَ عَلَى أَنْ تَكُونَ الْقَوَانِينُ الْحَدِيثِيَّةُ فِي إِطَارِ الشَّرِيعَةِ وَلَا تَخْرُجَ عَنْهُ، وَيَرَى ضَرُورَةَ التِّزَامِ الْحُكَّامِ بِرَأْيِ فَتَهَاءِ الشَّرِيعَةِ، وَإِذَا كَانَ يُؤْمِنُ بِحَقِّ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَسَاوَاةِ مَعَ إِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ؛ فَذَلِكَ فِي إِطَارِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَسَاءَ مُحَمَّدُ عَبْدِهِ مَا ذَكَرَهُ فَرِحُ أَنْطُونِ مِنْ أَنَّ الْإِسْلَامَ أُضْطُهِدَ الْعِلْمُ بِأَكْثَرِ مِمَّا فَعَلْتَهُ الْمَسِيحِيَّةُ، فَكَتَبَ مُحَمَّدُ عَبْدِهِ كِتَابَةً عَنْ «الْإِسْلَامِ وَالْمَسِيحِيَّةِ» لِلرَّدِّ عَلَى أَنْطُونِ، كَمَا كَتَبَ كِتَابَةَ الْآخَرِ «الْإِسْلَامُ دِينُ الْعِلْمِ وَالْمَدْيَنِيَّةُ» لِلرَّدِّ عَلَى رِيْنَانْ، وَدَعَا الْعِلْمَانِيَّةَ عُمُومًا.

وَفِي رَدُّودَةٍ عَلَى مُحَمَّدِ عَبْدِهِ، عَارِضَ أَنْطُونِ مَقُولَةَ مُحَمَّدِ عَبْدِهِ مِنْ أَنَّ الدِّينَ إِذَا عَادَ إِلَى نَقَائِهِ الْأَوَّلِ يُصْبِحُ أَسَاسًا مَبِينًا لِلْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ؛ فَقَالَ أَنْطُونِ بِأَنَّ الْعَالَمَ قَدْ تَغَيَّرَ، وَلَمْ تُعَدِّ الدَّوْلَةُ الْحَدِيثِيَّةُ قَائِمَةً عَلَى الدِّينِ بَلْ عَلَى الْوَحْدَةِ الْوَطَنِيَّةِ وَالْعِلْمِ الْحَدِيثِ. وَضَرَبَ مَثَلًا بِإِتِّصَارِ مُحَمَّدِ عَلَى بَاشَا عَلَى الْوَهَابِيِّينَ

رَغْمَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ دَعْوَةِ ثَقِيَّةِ الْإِسْلَامِ مِمَّا شَابَهُ مِنْ مُعْتَقَدَاتٍ، وَعُزِّي أَنْصَارُ مُحَمَّدٍ عَلَى عَلَيْهِمْ إِلَى كَوْنِهِ أَوَّلَ مَنْ أَدْرَكَ فِي الشَّرْقِ أَنَّ الْعَالَمَ قَدْ تَغَيَّرَ. وَأَبْدَى أَنْطُونُ اعْتِرَاضَهُ عَلَى دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ إِلَى الْوَحْدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَأَكَّدَ صُعُوبَةَ تَحْقِيقِهَا، وَأَنَّهَا حَتَّى إِذَا تَحَقَّقَتْ؛ فَلَنْ تَغَيَّرَ مِنْ وَاقِعِ الْحَالِ شَيْئًا لِأَنَّهَا لَنْ تَسْتَطِيعَ صُدَّ الرَّحْفِ الْأُورُوبِيِّ.

وَفِي دَحْضِهِ لَمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ - مِنْ اسْتِحَالَةِ الْفَضْلِ بَيْنَ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ؛ لِأَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَسْتَطِيعُ التَّحْلُصَ مِنْ تَأْثِيرِ الدِّينِ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْإِنْسَانَ جَسَدٌ وَرُوحٌ، فَلَا حَيَاةَ لَهُ أَنْ زَهَقَتْ رُوحُهُ، وَكَذَلِكَ الْمَجْتَمَعُ لَا حَيَاةَ لَهُ إِذَا نَحِيَ الدِّينَ جَانِبًا — رَدَّ فِرَاحُ أَنْطُونُ بِشَرْحِ النَّظَامِ الدِّيْمُقْرَاطِيِّ مِنْ حَيْثُ التَّرَامِ الْحَاكِمِ بِالْأَدَسْتُورِ وَبِالْقَوَانِينِ الَّتِي يُصَدِّرُهَا مَجْلِسُ مُنْتَخَبِ مِنَ الشَّعْبِ، فَالشَّعْبُ مَصْدَرُ السُّلْطَاتِ، وَحُكْمُهُ مُمَثِّلُهُمْ أَوْسَعُ مَدَى مِنْ حُكْمِهِ الْحَاكِمِ الْفَرْدِ، وَقُدْرَاتُهُمُ الذَّهْنِيَّةُ تَفُوقُ قُدْرَاتِهِ. فَالْمَجْلِسُ الْمُنْتَخَبُ أَعْلَى مَنْزِلَةً مِنَ الْحَاكِمِ وَمِنْ السُّلْطَةِ الدِّيْنِيَّةِ مَعًا. وَعِنْدَمَا تَكُونُ الْحُكُومَةُ عِلْمَانِيَّةً، تَضَعُ لِلْسُّلْطَةِ الدِّيْنِيَّةِ حُدُودًا لَا تَجَاوِزُهَا، وَلَا تَتَدَخَّلُ الْحُكُومَةُ فِي الشُّؤْنِ الدِّيْنِيَّةِ طَالَمَا كَانَتْ السُّلْطَةُ الدِّيْنِيَّةُ بَعِيدَةً عَنِ السِّيَاسَةِ. فَالْحُكُومَةُ تَعْمَلُ لِخِدْمَةِ الشَّعْبِ، وَمَا يَهُمُّ الشَّعْبُ شُؤْنُ الدُّنْيَا.

أَسَاتِذَةُ الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ، فُوَادٌ بَعْدَ ذَلِكَ، يَتَوَسَّطُهُمْ أَحْمَدُ لُطْفِي السَّيِّدِ، وَبِجَانِبِهِ مَنْصُورُ فَهْمِي، وَفِي الصُّورَةِ طَهَ حُسَيْنٌ بِالنَّظَارَةِ، وَالْإِلَى يَسَارِهِ عَلِيُّ الْعَنَانِي، وَأَحْمَدُ ضَيْفٌ وَبَعْضُ الْأَسَاتِذَةِ الْأَجَانِبِ.

لَقَدْ نَاقَشَ بَأَفْكَارِ شَيْبَلِي شَمِيلٍ وَفِرَاحِ أَنْطُونِ جِيلٍ آخَرَ مِنَ الْكُتَابِ فِي التَّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ، كَانَ مِنْهُمْ سَلَامَةُ مُوسَى، وَعَزِيزُ مِيرِهِمْ، وَعَزِيزُ فَهْمِي، وَأَحْمَدُ لُطْفِي السَّيِّدِ، وَطَهَ حُسَيْنٌ، وَمُحَمَّدُ حُسَيْنٌ هَيْكَلٌ وَعَظِيمٌ مِنْ الْكُتَابِ الَّذِينَ عَبَّرُوا عَنِ التِّيَّارَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ اللَّيْبَرَالِيَّةِ وَالْإِسْتِرَاكِيَّةِ،

وَوَاجِهُوا مُشْكَلةَ التَّعَامُلِ مَعَ الدِّينِيِّ وَالزَّمِينِيِّ مِنْ مُخْتَلَفِ الزَّوَايَا، وَتَرَاوَحَتْ مَوَاقِفُهُمْ بَيْنَ التَّمَسُّكِ بِأَنَّ
يَكُونُ لِلدِّينِ عَالِمَةٌ، وَلِلسِّيَاسَةِ عَالِمَةٌ، وَبَيْنَ التَّنْظَرِ الْخَاصَّةِ إِلَى ظُرُوفِ وَوَأَقِعِ الْمُجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الَّتِي تُجْعَلُ
مِنَ الدِّينِ مُكَونًا أَسَاسِيًّا لِلْمُجْتَمَعِ، وَتَنْظُرِ لِلْقَضِيَّةِ مِنْ مَنْظُورِ حَضَارِي-ثَقَافِي، وَتُدْرِكُ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ
رَكَائِزِ إِجْبَابِيَّةٍ لِمَشْرُوعِ نَهْضَوِي، يُلْحِقُ الْأُمَّةَ بِرُكْبِ الْمَدِينِيَّةِ.

أَنَّ الرُّوَادِ الَّذِينَ قَدَّمُوا الْفِكْرَ الْعِلْمَانِي، فَانْهَمَ إِدْرَاكِ وَوَأَقِعِ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي طَرَحُوا عَلَيْهِ هَذَا الْفِكْرَ، وَجَاءَتْ
فِكْرُهُ نَحِيَّةَ الدِّينِ جَابِيًا لِتَثِيرِ نُفُورِ الْقَاعِدَةِ الْعَرِيضَةِ مِنَ الْمُتَقِينِ الَّذِينَ كَانَ تِيَارَ الْإِصْلَاحِ الْإِسْلَامِيِّ
يَسْتَوْعِبُهُمْ، وَلَعِبِ السَّلْفِيِّونَ الدَّوْرَ الْأَكْبَرَ فِي وَصْمِ الْعِلْمَانِيَّةِ بِالْإِلْحَادِ، وَدَعَمَ وَجْهَهُ نَظَرُهُمْ مَا حَدَثَ فِي
تُرْكِيَا بَعْدَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى مِنْ إِعْلَانِ مُصْطَفَى كَمَالِ (أَتَاتُورُك) عِلْمَانِيَّةِ الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّةِ الْحَدِيثَةِ بِمَا
تَضَمَّنَتْهُ مِنْ وَضْعِ قَانُونٍ لِلْأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ ضَرَبَ عُرْضَ الْحَاظِ بِالشَّرِيْعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِيمَا يَعْلُقُ بِالْأَسْرَةِ
وَالزَّوْاجِ وَالْمِيرَاثِ. وَصَحِبَ ذَلِكَ الْإِعَاءَ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَتَكَرَّسَتْ فِي أَذْهَانِ الْجَمَاهِيرِ أَنَّ التَّمُودِجَ

التُّرْكِيَّ خَيْرَ بُرْهَانَ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَانِيَّةَ وَالْإِلْحَادَ صِنُونَانِ، وَأَنَّ مَا ارْتَبَطَ بِهَا مِنْ أَفْكَارِ اجْتِمَاعِيَّةِ وَسِيَّاسِيَّةِ
هَدَفَهَا تَقْوِيضَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ. وَغَالِي الْبَعْضِ فِي هَذَا الْإِتْجَاهِ إِلَى حَدِّ الرِّبْطِ بَيْنَ الْأُصُولِ الْغُرْبِيَّةِ لِلْبِيرَالِيَّةِ
وَالْإِشْرَاقِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ؛ فَجَمَعُوها فِي سَلَّةٍ وَاحِدَةٍ بِاعْتِبَارِهَا مِنْ الْأَدَوَاتِ الَّتِي سَعَى الْغُرْبُ إِلَى تَصْدِيرِهَا
إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ، مُسْتَهْدِفًا بِذَلِكَ التَّبِيلِ مِنَ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَهَكَذَا الْحَقُّ الطَّرْحِ السَّيِّئِ لِلْفِكْرَةِ، دُونَ اعْتِبَارِ اللَّبُونِ الشَّاسِعِ بَيْنَ تَجْرِبَةِ الْغُرْبِ وَوَأَقِعِ مُجْتَمَعَاتِ
الشَّرْقِ. وَالتَّمُودِجَ التُّرْكِيَّ لِتَطْبِيقِ الْعِلْمَانِيَّةِ الَّذِي اشْتَطَ بِدَوْرِهِ فِي مُحَاوَلَةِ تَوْجِيهِ خِطَابِ إِلَى أَوْرُوبًا بِأَنَّ

تُرِكِيَا الْحَدِيثَةَ قِطْعَةً مِنْ أُرُوبَا، وَهُوَ خِطَابٌ لَمْ يَلِقَ الصَّدَى الَّذِي تُوَفِّعُهُ أَنَا تُورِكُ حَتَّى يَوْمَنَا هَذَا . الْحَقُّ
الطَّرْحِ السَّيِّئِ وَالنَّمُودَجِ التُّرْكِيِّ أَبْلَغَ الضَّرَرِ بِالْعِلْمَانِيَّةِ، وَدَعَايَهَا، وَالْحَرَكَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي تُرَكِّزُ عَلَيْهَا .

رُمُوزِ الْعِلْمَانِيَّةِ

الْعِلْمَانِيَّةُ، مَوْقِفٌ مِنَ الْحُرِّيَّةِ، أَوْ حَالَةٌ ارْتَبَطَتْ بِالْحُرِّيَّةِ، بِخَاصَّةِ الْحُرِّيَّةِ الدِّيْنِيَّةِ وَحُرِّيَّةِ الْمُعْتَقِدِ . وَهِيَ
حَالَةٌ ارْتَبَطَتْ بِحَرَكَةِ التَّنْوِيرِ، وَالْمَوْقِفِ الْمُنْحَازِ لِلْعَقْلِ وَالْعَقْلَانِيَّةِ وَالتَّحَرُّرِ مِنَ الْأَوْهَامِ فِي الْعُلُومِ وَالْمَوَاضِعِ
الَّتِي تَطَّلُبُ ذَلِكَ . كَمَا ارْتَبَطَتْ بِالْإِنْفِتَاحِ عَلَى الثَّقَافَاتِ الْأُخْرَى .

هِيَ لَيْسَتْ أَيْدِيُولُوجِيَا وَلَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُكُونَ، تَمَامًا كَمَا هُوَ الدِّينُ . بِالتَّالِي فِيهَا تَجَارِبُ وَثَقَافَاتُ مُخْتَلِفَةٌ
مِنْ دَوْلَةٍ لِأُخْرَى فِي تِلْكَ الدَّوَلِ الَّتِي تُعْبَرُ عِلْمَانِيَّةً، بِخَاصَّةِ فِي عِلَاقَتِهَا مَعَ ظَاهِرِ الدِّينِ . فَعِلْمَانِيَّةُ
فَرَنْسَا الَّتِي تَعَامَلَتْ مَعَ مَظَاهِرِ الدِّينِ بِشَكْلِ حَادٍ، اخْتَلَفَتْ عَنِ التَّجْرِبَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ الَّتِي يُعْتَبَرُ الْمَلِكُ فِيهَا
رَأْسًا لِلْكَنِيسَةِ الْإِنْجِلِيكَانِيَّةِ، كَمَا اخْتَلَفَتْ عَنِ التَّجْرِبَةِ الْيَابَانِيَّةِ الَّتِي يُعْتَبَرُ فِيهَا الْإِمْبِرَاطُورُ إِلَهًا بِشَكْلِ أَوْ
بِأُخْرٍ .

الْعِلْمَانِيُّونَ الْأَوَائِلُ

مُنْذُ نَشَاةِ الْحَرَكَةِ الْعِلْمَانِيَّةِ فِي الْمِنْطَقَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، لَمْ تَأْخُذْ مَوْقِفًا مُحَدَّدًا مِنْ
الْإِيمَانِ الدِّيْنِيِّ، بَلْ كَانَ الْمَوْقِفُ الْأَبْرَزُ هُوَ رَفْضُ نِظَامِ الْحُكْمِ الْمُمَثِّلِ فِي الْإِسْتِبْدَادِ السِّيَاسِيِّ، وَأَدَّى إِلَى
صِدَامٍ مَعَ حُكُومَاتٍ وَمُؤَسَّسَاتٍ (بِمَا فِيهَا مُؤَسَّسَاتٌ دِينِيَّةٌ) لَيْسَ عَلَى قَاعِدَةٍ قَبُولِ الدِّينِ أَوْ رَفْضِهِ إِنَّمَا
عَلَى قَاعِدَةٍ سِيَاسِيَّةٍ بِالْأَسَاسِ .

عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى أَهَمِّ الْعُلَمَائِينَ الْأَوَائِلِ أَوْ حَتَّى مِنْ أَوْلِيكَ الَّذِينَ شَكَّلُوا جِيلًا ثَابِتًا وَثَالِثًا مِنَ الْعُلَمَائِينَ
 الْعَرَبِ مِنْ أَمْثَالِ عَلِيِّ عَبْدِ الرَّازِقِ، فَرِحِ انْطُون، سَلَامَةُ مُوسَى، طَهَ حُسَيْنِ، أَحْمَدُ لُطْفِيِّ السَّيِّدِ، قَاسِمُ
 أَمِينِ، انْطُون سَعَادَةٌ، مُحَمَّدُ أَمِينِ الْعَالِمِ، وَالْجَابِرِيُّ وَعَبْدُ اللَّهِ الْعَرُوي، وَكَثِيرِينَ غَيْرِهِمْ، نَجِدُ اخْتِلَافًا كَبِيرًا
 فِي مَوَاقِعِهِمْ مِنَ الدِّينِ؛ مِنْهُمْ رَجُلٌ الدِّينِ وَمِنْهُمْ غَيْرُ الْمُتَدِينِ، مِنْهُمْ الْمُسْلِمُ وَمِنْهُمْ الْمَسِيحِيُّ، إِلَّا أَنْ مَا
 جَمَعَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا أَسَاسًا دَعَا لِنَهْضَةِ الْأُمَّةِ، وَآمَنُوا بِوَحْدَةِ الْأُمَّةِ وَقَضَايَاهَا، وَتَبَنَوْا حُقُوقَ الْإِنْسَانِ، بِمَا
 فِيهَا حُقُوقَ الْمَرْأَةِ وَحُرِّيَّةَ الْفِكْرِ، وَتَبَنَى الْعَقْلِيَّةَ، وَشَكَّلُوا، كُلُّ بِطَرِيقَتِهِ، حَرَكَةَ ثَنُورِيَّةَ تَرْفُضِ الدَّوْلَةِ
 الْمَغْلَقَةَ، وَنَدَّعَوْ لِلدَّوْلَةِ الْمَدِينِيَّةِ وَلِعَاقِبِهِ «سَلِيمَةَ» بَيْنَ الدِّينِ وَالسِّيَاسَةِ.

رَوَادٍ مِنْ أَمْثَالِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ الْإِفْغَانِي وَالشَّيْخِ مُحَمَّدِ عَبْدِهِ، وَفِي مَرِحَلَةٍ لَاحِقَةٍ مُفَكَّرُونَ مِنْ أَمْثَالِ
 الذُّكُورِ حَسَنِ حَنْفِي، اسْتَدُّوا إِلَى خَلْفِيَّتِهِمُ الدِّينِيَّةَ فِي مُحَاوَلَةٍ لِلِجَادِ حَرَكَةَ إِصْلَاحِ دِينِي تَنَحَّازَ
 لِلْإِنْسَانِ وَتَرْتَقِي بِهِ. وَحَتَّى مُفَكَّرُونَ وَنَاشِطُونَ مِنْ أَمْثَالِ رُفَعْتِ السَّعِيدِ وَقَرَجِ قَوْدَةِ الدِّينِ اشْتَهَرُوا
 بِتَقْدِيمِهِمْ لِلْمُؤَسَّسَةِ الدِّينِيَّةِ وَسُلُوكِهَا السِّيَاسِي وَالْإِجْتِمَاعِي، وَكَذَلِكَ لِبَعْضِ حَرَكَاتِ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِي،
 وَلَمْ يَذْهَبُوا لِلْحَدِيثِ عَنِ أَيَّامِ النَّاسِ وَتَدِينُهُمْ وَمُقَدَّسَاتِهِمْ وَرُمُوزِهِمُ الدِّينِيَّةَ، هُوَلاءِ جَمِيعًا تَعَامَلُوا مَعَ
 مَوَاضِعِ الْإِنْسَانِ وَالنَّهْضَةِ وَالتَّقَدُّمِ وَالْحَدَاثَةِ، وَمَعَ الدَّوْلَةِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالْعِلْمِ، وَحَتَّى الدِّينِ، بِأَخْلَاقٍ وَبِاخْتِرَامِ
 لِلتَّعَدُّدِيَّةِ وَنَفْهِمِ لِلتَّجَارِبِ الْمُخْتَلِفَةِ لِلْبَشَرِ. كَمَا أَنَّ مَوَاقِفَ أَوْلِيكَ الَّذِينَ عَاصَرُوا الْقَضِيَّةَ الْفِلَسْطِينِيَّةَ مِنْهُمْ
 كَانَتْ مَعَ الْحَقِّ الْفِلَسْطِينِي، وَكَانُوا ضِدَّ إِسْرَائِيلِ كَدَوْلِهِ صُهْبِيَّةَ تُشَكِّلُ رَأْسَ حَرَبِةٍ لِلْإِمْبِرِيَالِيَّةِ فِي
 الْمِنْطَقَةِ.

الْعُلَمَائِيُّونَ الْجُدُدُ

تَسْمِيَةَ «الْعُلَمَائِيِّينَ الْجُدُدِ» لَيْسَتْ لَهَا عِلَاقَةٌ بِجِيلٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الْعُلَمَائِيِّينَ فِي الْفِضَاءِ الْعَرَبِيِّ، بِقَدْرِ مَا هِيَ مُحَاكَاةٌ لِتَسْمِيَةِ «الْمُحَافِظِينَ الْجُدُدِ» فِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمِيرِكِيَّةِ أَسَاسًا، لَهَا مَدْلُولٌ فِكْرِيٌّ أَيْدِيُولُوجِيٌّ أَكْثَرَ مِنْ عِلَاقَةٍ بِزَمَنٍ مُعَيَّنٍ، وَهِيَ تَتَحَدَّثُ عَنْ فِيهِ مِنَ الْعُلَمَائِيِّينَ انْفَصَلَتْ عَنْ التَّهْجِ التَّقْلِيدِيِّ لِرُودِ الْعِلْمَانِيَّةِ فِي الْمُنْطَقَةِ، وَمَثَلَتْ «أُصُولِيَّةً» عِلْمَانِيَّةً فِي مُقَابِلِ أُصُولِيَّةِ دِينِيَّةٍ، حَيْثُ سَاهَمَ الطَّرْفَانِ مَعًا فِي ضَرْبِ الْعُقَالِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ بِشَكْلِ أَوْ بَاخَرٍ.

مِنَ الْمُهْمِ التَّوْضِيحُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَائِيِّينَ الْآنَ مَا زَالُوا عَلَى تَهْجِ أَسْلَافِهِمُ الْأَوَائِلِ دِيمُوقْرَاطِيِّينَ وَطَنِيِّينَ «مَسْؤُولُونَ». قَلَّةٌ مِنَ الْعُلَمَائِيِّينَ الْآنَ هِيَ مِنْ ذَهَبَتْ بِاتِّجَاهِ الْعِلْمَانِيَّةِ «الْجَدِيدَةِ» الَّتِي تَخَلَّتْ عَنْ الصِّفَاتِ السَّابِقَةِ لِلْعُلَمَائِيِّينَ الْأَوَائِلِ وَذَهَبَتْ نَحْوِ «لَيْبَرَالِيَّةٍ» وَضَعَتْهَا فِي مَكَانٍ آخَرَ مُخْتَلَفٍ.

قَبْلَ الْحَدِيثِ عَنْ مَا حَذَنَّا عَلَى بَعْضِ أَفْكَارِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَائِيِّينَ الْجُدُدِ لَا بُدَّ مِنَ الْإِقْرَارِ أَنَّ لَدَى كَثِيرِينَ مِنْهُمْ إِبْتِجَاعٌ فِكْرِيٌّ يَسْتَحِقُّ الْإِهْتِمَامَ، وَأَحْيَانًا التَّقْدِيرَ، إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الطَّرُوحَاتِ وَالْأَفْكَارِ وَالْمَوَاقِفِ اللَّاقِيَةِ، جَعَلَتْهُمْ يَخْتَلِفُونَ عَنِ الْعُلَمَائِيِّينَ التَّقْلِيدِيِّينَ الَّذِينَ حَمَلُوا مَشْرُوعَ تَهْضَةِ الْأُمَّةِ، لِيَكُونُوا «أَدَوَاتٍ» فِي مَشَارِعِ مُضَادَّةِ، أَرَادُوا ذَلِكَ أَمْ لَمْ يُرِيدُوا.

عَلَى عَكْسِ الْعُلَمَائِيِّينَ «التَّقْلِيدِيِّينَ» الْأَوَائِلِ الَّذِينَ لَمْ يَتَطَرَّقُوا إِلَى الدِّينِ فِي ذَاتِهِ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا الْعِلْمَانِيَّةَ أَيْدِيُولُوجِيًّا مَطْلُوبًا مِنَ الْمُجْتَمَعِ أَنْ يَبْنَاهَا وَيُؤْمِنُ بِهَا، ذَهَبَ الْعُلَمَائِيُّونَ الْجُدُدُ إِلَى أَدِلْجَةِ الْعِلْمَانِيَّةِ، وَإِلَى دَعْوَةِ الْأَفْرَادِ لِيَبْنِيَهَا بَدَلًا أَنْ تَكُونَ دَعْوَةً لِعَلْمَنِهِ الدَّوْلَةِ. هَذَا قِسْمُ الْعَالَمِ، مِنْ وَجْهِهِ نَظَرِهِمْ، إِلَى مُؤْمِنِينَ وَغَيْرِ مُؤْمِنِينَ، مُتَدِينِينَ وَغَيْرِ مُتَدِينِينَ، وَبِذَلِكَ أُسَسَ لِصِرَاعِ أَيْدِيُولُوجِيَّةِ الْبَشَرِ، تَمَامًا كَمَا فَعَلَتْ التَّطْبِيقَاتُ

الأُصُولِيَّةُ لِلدِّيانِ، بَدَلِ إِنْ يَكُونُ التَّقْسِيمُ الطَّبِيعِيُّ لِلبَشَرِ هُوَ: ظَالِمُونَ وَمَظْلُومُونَ، مُضْطَهَدُونَ
وَمُضْطَهَدُونَ، مُسْتَعَلُونَ وَمُسْتَعَلُونَ

كَمَا فَعَلَتْ بَعْضُ الْمُؤَسَّساتِ الدِّينِيَّةِ، أَوْ اتِّبَاعُهَا، الَّتِي «اِحْتَقَلَتْ» كُلَّمَا أَشْهَرَتْ إِسْلَامُهَا «شِغَالَهُ» فِي
السُّعُودِيَّةِ، يَتَّبِعُ العُلَمَائِيُّونَ «الجُدُدِ» إِذَا تَخَلَّى مُتَدِينٌ عَنِ دِينِهِ. هُمْ يَتَابِعُونَ بِشِغْفٍ اِزْدِيادَ نَسْبِهِ
المُلاحِدِينَ فِي البِلادِ العَرَبِيَّةِ، وَيَقْلِقُونَ إِذَا مَا تَنَاقَصَتْ هَذِهِ النِّسْبَةُ، تَمَامًا كَمَا يَفْعَلُ الجَانِبُ المُقَابِلُ عِنْدَمَا
يُزِدُّ المُتَدِينُونَ أَوْ يَنْفُصُونَ. هُمَا وَجْهَانِ لِعَمَلِهِ وَاحِدَةٍ. هَذِهِ المَسْأَلَةُ، اِزْدِيادُ أَوْ نَقْصَانِ المُؤْمِنِينَ أَوْ غَيْرِ
المُؤْمِنِينَ، لَيْسَتْ هِيَ مَا يَشْغَلُ بَالِ العُلَمَائِيِّ الحَقِيقِيِّ الَّذِي هاجَسَهُ مَنسُوبُ الحُرِّيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ مَنسُوبِ
الدِّينِ أَوْ عَدَمِهِ.

مِنْ أَبرزِ مَظَاهِرِ الذَّهابِ بِالأُصُولِيَّةِ الدِّينِيَّةِ إِلَى مَدَاهِها الأَقْصى فِي الحَالَةِ الإِسْلامِيَّةِ هُوَ مَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ
بَعْضُ الإِتِلِجَنسِيَا الدِّينِيَّةِ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِمَا سَمِيَ «أَسْلَمَهُ العُلُومِ»، وَهُوَ مُحَاوَلَةُ تَطْبِيقِ قَوَاعِدِ الفِكرِ
الدِّينِيِّ وَمُعْطِيَاتِهِ عَلَى مَنَاهِجِ البَحْثِ العِلْمِيِّ، وَهَذَا يَصِلُ بِصاحِبِهِ إِلَى الإِسْتِنَاجِ أَنْ كُلَّ مَا هُوَ مُكْتَشَفٌ
أَوْ سَوْفَ يَكْتَشَفُ عِلْمِيًّا مُوجُودٌ فِي الدِّينِ سَلَفًا. فِي مُقَابِلِ ذَهَابِ تِلْكَ الإِتِلِجَنسِيَا الدِّينِيَّةِ إِلَى أَنْ
قَوَائِنِ العِلْمِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ خاضِعَةً لِلدِّينِ، اُنْشَغَلَ العُلَمَائِيُّونَ الجُدُدِ بِمُحَاوَلَةِ البُرْهَانِ العُقْلِيِّ عَلَى «لَا
عَقْلِيَّةٍ» الإِيْمَانِ. لَقَدْ حَاوَلَ الأُصُولِيُّونَ العُلَمَائِيُّونَ، تَمَامًا كَمَا حَاوَلَ الأُصُولِيُّونَ المُتَدِينُونَ، تَجْيِيرَ كُلِّ
مِسَاحَةِ حَيَاةِ الإِنْسَانِ المَادِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ لِاِغْتِبَارَاتِهِ مِنْ دُونِ أَنْ يُحَاوَلَ أَنْ يَفْصَلَ بَيْنَ آيَاتِ عَمَلِ العُقْلِ
وَالعِلْمِ وَالجَانِبِ الرُّوحِيِّ مِنَ الإِنْسَانِ.

حَاوَلَ الْعُلَمَائِيُّونَ الْجُدْدَ، بَلْ وَضَعُوا مُعْظَمَ جُهِدِهِمْ، لِإثْبَاتِ «لَا عَقْلَانِيَّةَ» الْإِيمَانِ، وَاعْتَبَرُوا ذَلِكَ إِنْجَازًا عَظِيمًا، فَذَهَبُوا إِلَى تَفَاصِيلِ التَّفَاصِيلِ فِي مَسَائِلِ الْأَسْطُورَةِ وَالْمُعْجِزَاتِ وَنَاقَشُوا عَدَمَ مَعْقُولِيَّتِهَا فِي ضَوْءِ «الْمَنْطِقِ» الْعِلْمِيِّ. نَاقَشُوا الْإِسْرَاءَ وَالْمَعْرَاجَ فِي ضَوْءِ قَوَانِينِ الْجَادِزِيَّةِ وَسُرْعَةِ الضُّوءِ، وَنَاقَشُوا عُذْرِيَةَ السَّيِّدِهِ مَرِيَمَ بِقَوَانِينِ طَبِّ التَّسَاءِ. رُبَّمَا مِنْ الضَّرُورَةِ بِمَكَانٍ أَنْ نَعُودَ لِابْنِ رُشْدٍ لِمَعْرِفَةِ مَدَى ضَرُورَةِ وَضْعِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ كُلِّ فِي سِيَاقِهِ.

أَنَّ الدِّرَاسَاتِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالظَّاهِرَةِ الدِّيْنِيَّةِ وَبِالْفِكْرِ الدِّيْنِيِّ وَفَلَسَفَةِ الدِّيْنِ وَسَوْسُولُوجِيَا الدِّيْنِ، الَّتِي يَتَوَمَّ بِهَا مُخْتَصِّصُونَ مُتَدَبِّتُونَ أَوْ غَيْرَ مُتَدَبِّتِينَ، هِيَ دِرَاسَاتٌ فِي غَايَةِ الْأَهْمِيَّةِ نَظْرًا لِمَا لِلدِّيْنِ مِنْ تَأْثِيرٍ هَائِلٍ عَلَى أَعْدَادٍ وَاسِعَةٍ مِنَ الْجَمَاهِيرِ. لَكِنَّ بَعْضَ الْعُلَمَائِيِّينَ «الْجُدْدِ» يَذْهَبُونَ لِدِرَاسَةِ بَعْضِ الْأُمُورِ الَّتِي مِنْ الصَّعْبِ فَهْمُ جَدْوَاهَا إِلَّا مِنْ بَابِ «الْمَمَاحِكَاتِ» الْفِكْرِيَّةِ. فَمَاذَا يَعْنِي أَنْ تَدْرُسَ إِنْ كَانَ الْخُمْرُ قَدْ حَرَّمَ فِي الْإِسْلَامِ أَمْ لَمْ يَحْرَمْ؟ وَمَاذَا تُفِيدُ دِرَاسَةَ عِلَاقَةِ النَّبِيِّ بِزَوْجَاتِهِ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ.

لَكِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَهْتِمَامَاتِ، الَّتِي يَغْلِبُ عَلَيْهَا الطَّابِعُ الطُّفُولِيُّ فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْأَحْيَانِ، لَيْسَتْ هِيَ الْأَخْطَرُ فِي الْفِكْرِ وَالْمَمَارَسَةِ لَدَى الْعُلَمَائِيِّينَ الْجُدْدِ. بَلْ بِالْإِمْكَانِ مُلَاحَظَةَ بَعْضِ «الْحَطَايَا» الَّتِي يَبْتَنَاهَا وَيَنْظُرُ لَهَا بَعْضُ رُؤُوسِ الْعِلْمَانِيَّةِ الْجَدِيدَةِ، وَمِنْهَا:

- غِيَابُ الْمَسْئُورِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ لَدَى كَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ فَعَلِيَّ الْمَثَقِّفِ الْإِهْتِمَامِ لَيْسَ فَقَطْ بِصَدَقٍ أَوْ حَقِيقَةً مَا يُقُولُ، بَلْ أَيْضًا بِمَا يَرْتَبُ عَلَى مَا يَقُولُ وَتَأْثِيرُ ذَلِكَ الْقَوْلِ. ضَمَّنَ ذَلِكَ يَتَنَاوَلُ الْعُلَمَائِيُّونَ الْجُدْدِ -يُوسُفُ زَيْدَانُ مِثْلًا- مَوَاضِيْعَ تُشَكِّلُ رُؤُوسًا لِلْأُمَّةِ وَيَنْفِي صِحَّتِهَا أَوْ يَعْمَلُ عَلَى الْإِسَاءَةِ لَهَا وَالتَّقْلِيلِ مِنْ هَيْبَتِهَا، مِثْلُ قَوْلِهِ إِنْ مَدِينَةَ الْقُدْسِ لَيْسَتْ مُقَدَّسَةً، أَوْ إِنْ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى لَيْسَ هُوَ الَّذِي فِي الْقُدْسِ، أَوْ إِنْ

صَلَّاحُ الدِّينِ الأَيُّوبِيُّ وَأَحْمَدُ عَرَابِيُّ شَخْصَانِ سَيَّانٍ . إِنَّ التَّشْكِيكَ فِي هَذِهِ الرُّمُوزِ وَالْعَبَثُ بِهَا فِي العَقْلِ
وَالوِجْدَانِ الشَّعْبِيِّ سَوْفَ يُرْعَزِعُ عَوَامِلَ تَمَاسِكِ الأُمَّةِ وَيَخْدُمُ أعدَاءَهَا .

مِنْ حَقِّ كُلِّ شَخْصٍ أَنْ يَعْتَدُ مَا يُرِيدُ ، لَكِنْ مِنْ وَاجِبِ ذَلِكَ الشَّخْصِ إِدْرَاكَ أَهْمِيَّةِ ، وَرُبَّمَا مَخَاطِرِ ، قَدْ
تَرْتَّبُ عَلَى التَّرْوِيحِ لِذَلِكَ الاِغْتِقَادِ ، لِذَلِكَ وَجَبَ الاِهْتِمَامُ لَيْسَ فَقَطُ بِمَا يُقَالُ ، بَلْ كَيْفَ يُقَالُ وَمَتَى يُقَالُ
وَلَمَنْ يُقَالُ .

إِنَّ العِلْمَانِيَّ الجَدِيدَ عِنْدَمَا يُشَكِّكُ بِرُمُوزِ وَحَدَةِ الأُمَّةِ ، سَوَاءً كَانَتْ هَذِهِ الرُّمُوزِ واقِعِيَّةً أَمْ أُسْطُورِيَّةً ،
حَقِيقِيَّةً أَمْ مُتَصَوَّرَةً (كثيرٍ مِنْ عَوَامِلِ وَحَدِهِ الأُمَّةِ حَتَّى المُتَقَدِّمَةُ مِنْهَا هِيَ لَيْسَتْ أَكْثَرُ مِنْ أُسَاطِيرِ) ، فَهُوَ
يُقِومُ بِدَوْرِ الكُومْبِرَادُورِ الثَّقَافِيِّ الَّذِي يَعْبَثُ بِوَحْدَةِ أُمَّةٍ وَيَخْدُمُ أعدَاءَهَا سَوَاءً أَدْرَكَ ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَدْرِكْ .

كَمَا يُعَادِي العِلْمَانِيَّ الجَدِيدَ الإِسْلَامَ السِّيَاسِيَّ (وَغَيْرُ السِّيَاسِيَّ) مِنْ حَيْثُ المَبْدَأُ ، وَهَذَا قَدْ يُكُونُ
مُتَقَهَّمًا ، لَكِنْ مِنْ غَيْرِ المُتَقَهَّمِ هُوَ وَضَعُ كُلِّ حَرَكَاتِ الإِسْلَامِ السِّيَاسِيَّ فِي سَلَّةٍ وَاحِدَةٍ فَضِيحٌ «دَاعِش»
وَ«النُّصْرَةَ» وَ«حِمَاس» وَ«حِزْبُ اللّهِ» وَ«حَرَكَةُ التَّهْضُبَةِ» ، وَغَيْرِهَا ، عَلَى نَفْسِ الدَّرَجَةِ مِنْ «السُّوءِ» .
كَذَلِكَ ، فَإِنَّ هَذَا المَوْقِفَ الرَّافِضَ لِكُلِّ مَبَادِي وَسُلُوكٍ وَرِوَايَةِ حَرَكَاتِ الإِسْلَامِ السِّيَاسِيَّ كَافَّةً يَذْهَبُ بِهَذَا
العِلْمَانِيَّ إِلَى التَّرْوِيحِ لِلرِّوَايَةِ الصَّهْبُويَّةِ . لَقَدْ ذَهَبَ أَحَدُهُمْ لِحَدِّ المُطَالَبَةِ بِتَقْسِيمِ الأَقْصَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ
وَالْيَهُودِ وَالْمُلْحِدِينَ عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ الرِّوَايَةَ الإِسْلَامِيَّةَ لَيْسَتْ «عِلْمِيَّةً» .

لَيْسَ غَرِيبًا أَنْ بَعْضَ رُمُوزِ التَّطْبِيعِ مَعَ إِسْرَائِيلَ مِنَ المُتَقَهِّينَ هُمْ مِنَ العِلْمَانِيِّينَ الجُدِّدِ . لَقَدْ نَقَلَ هُوَلاءِ تَطْبِيعِ
«الضَّرُورَةُ» الَّذِي نَظَرَ لَهُ مُتَقَهِّو السُّلْطَةِ أَيَّامَ كَامِبِ دِيفِيدِ وَأُوسَلُو إِلَى تَطْبِيعِ الإِعْجَابِ ، تَطْبِيعِ الأَمَارَاتِ
وَالْبَحْرَيْنِ ، عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ الصَّهْبُويَّةَ هِيَ الحَدَاثَةُ وَهِيَ العُزْبُ الَّذِي يُرِيدُونَ أَنْ يُكُونَهُ . لَقَدْ طَالَبَ أَحَدُ

رُؤُوسٌ هُوَآءٌ (سَيِّدٌ قُمَنِي) بَعُودُهُ الْاِسْتِعْمَارُ «لِيَرْحَمَنَا مِنَ الْاِسْلَامِيِّينَ» كَمَا قَالَ، وَلَمْ يَأْخُذْ فِي الْاِعْبَارِ اَنَّ
الْاِسْتِعْمَارَ الَّذِي يَدْعُو لِلْعُودَةِ اِلَيْهِ هُوَ الَّذِي صَنَعَ «دَاعِش» وَالْوَهَابِيَّةَ وَكَثِيْرًا مِنَ الْاِسْتِبْدَادِ الدِّيْنِيِّ وَغَيْرِ
الدِّيْنِيِّ فِي الْمُنْطَقَةِ.

فِي اُمُوْرِ التَّطْبِيْعِ، الْمُتَقَفُّونَ الْعُلَمَائِيُّونَ الْجُدُدُ اَكْثَرُ «جُرْأَةً» وَ«وَقَاحَةً» مِنَ السِّيَاسِيِّينَ الْمُطْبَعِيْنَ. فَفِي حِيْنِ
يُحَاوِلُ السِّيَاسِيُّ الْاِحْتِبَاءَ وَرَاءَ بَعْضِ الْمَصَالِحِ وَالظُّرُوْفِ نَجِدُ مُتَّفَقًا كِيُوْسُفَ زَيْدَانَ يَقُوْلُ، وَمُنْذُ قَرَّةٍ،
مِنْ «لَا يُؤَيِّدُ التَّطْبِيْعَ فَهُوَ جَاهِلٌ».

يُخْتَلَفُ مَوْقِفُ الْعُلَمَائِيِّينَ الْجُدُدِ عَنِ الْعُلَمَائِيِّينَ التَّقْلِيْدِيِّينَ فِي الْمَوْقِفِ مِنَ السُّلْطَةِ. فَفِي حِيْنِ يُعْبَرُ
الْعُلَمَائِيُّونَ التَّقْلِيْدِيُّونَ مُعَارِضِيْنَ لِنِظَامِ الْحُكْمِ، بِشَكْلِ اَوْ بَاخِرِ، بِسَبَبِ الْاِسْتِبْدَادِ وَالْتَخَلِّيِ عَنِ الْقَضَايَا
الْوَطَنِيَّةِ وَاسْتِخْدَامِ الدِّيْنِ صِدْدَ الْمُعَارِضَةِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُوَاظِيْنِ عَلٰى اُسُسِ عَقَائِدِيَّةٍ، نَجِدُ اَنَّ الْعُلَمَائِيِّينَ
الْجُدُدِ يَتَحَالَفُونَ مَعَ السُّلْطَةِ وَمَعَ «الْاِسْتِبْدَادِ» عَلٰى اِعْبَارِ اَنَّ الْمُعَارِضَةَ مِنَ الْاِسْلَامِيِّينَ. اَكْثَرُ شَيْءٍ لَفَتْ
اَنْبَاءَ سَيِّدِ قُمَنِي فِي السِّيَاسَاتِ الَّتِي اَنْتَهَجَهَا الرَّئِيسُ السِّيْسِي هُوَ دَعْوَتُهُ اِلٰى اِصْلَاحِ الْخَطَابِ الدِّيْنِيِّ وَلَمْ
يَهْتَمَّ بِالسِّيَاسَاتِ الْاُخْرٰى كَافَّةً لِلرَّئِيسِ.

وَبِخِلَافِ الْعُلَمَائِيِّينَ التَّقْلِيْدِيِّينَ، الَّذِينَ يَحْرِصُونَ عَلٰى الْبَحْثِ عَنِ طُرُقِ لِنَقَازِ اَمْتِهِمْ وَشُعُوْبِهِمْ مِنَ التَّبَعِيَّةِ
وَالْاِسْتِبْدَادِ وَالتَّخَلْفِ، يُعْبَرُ الْعُلَمَائِيُّونَ الْجُدُدِ اَنَّ التَّخَلْفَ شَيْءٌ مُرْتَبِطٌ بِالْاُمَّةِ لَا يُمَكِّنُ التَّخَلُّصَ مِنْهُ.
اَحْمَدُ عَصِيْدٌ، مَثَلًا، يُعْبَرُ اَنَّ طَرِيْقَ تَقَدُّمِ الْمَغْرِبِ هُوَ خُلَاصَةٌ مِنْ كُلِّ اِرْتِبَاطَاتِ شَرْقِيَّةٍ وَتَوَجُّهٍ نَحْوِ
الْمَغْرِبِ، حَيْثُ قَالَ: «عَلٰى الْمَغْرِبِ اِنْ يَنْفَصِلُ عَنِ الشَّرْقِ اِذَا اَرَادَ اَنْ يَخْرُجَ مِنَ التَّخَلْفِ». كَمَا دَافِعُ

عَصِيدٌ عَنِ التَّطْبِيعِ مَعَ إِسْرَائِيلَ بِذَرِيعَةِ الْعَلَاقَةِ مَعَ الْيَهُودِ الْمَغَارِبَةِ الَّذِينَ «أُخْرِجُوا مِنْ أَرْضِهِمْ بِتَخْرِيصِ كَبِيرٍ مِنْ حِزْبٍ سِيَاسِيٍّ» .

لَقَدْ تَأَثَّرَ الْعُلَمَائِيُّونَ التَّقْلِيدِيُّونَ بِالْغَرْبِ، بِالْحُرِّيَّةِ وَالْعَدَالَةِ وَالْمَسَاوَاةِ الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَنْهَا الثَّوْرَةُ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَبِالتَّقَدُّمِ الْاِقْتِصَادِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ وَالْعِلْمِيِّ الَّذِي تَبَّحَ مِنْ الثَّوْرَةِ الصَّنَاعِيَّةِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَعَاَضُوا عَنْ وَجْهِهِ الْاٰخِرِ الْاِسْتِعْمَارِيِّ، وَسَعِيهِ الدَّائِمِ لِلسَّيْطَرَةِ عَلَي الْمِنْطَقَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَبَقِيَّةِ الْعَالَمِ التَّامِي . اَمَّا الْعُلَمَائِيُّونَ الْجُدُدُ، فَهُمْ مُغْرَمُونَ بِالْغَرْبِ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهِ وَمِنْ دُونِ تَحْفَظِ . الْاِسْتِعْمَارِ، مِنْ وَجْهِهِ نَظَرِهِمْ، هُوَ شَيْءٌ اِجْبَابِيٌّ وَلَوْلَاهُ لَمَا تَقَدَّمَتِ الشُّعُوبُ الَّتِي اسْتَعْمَرَتْ . قَالَ سَيِّدُ قُمْنِي فِي اِحْدَى مُقَابَلَاتِهِ: ((لَوْ الْاَوْرُوبِيَّيْنَ مَا رَا حَوْشَ اَمْرِيكََا كَانَ الْهُنُودُ الْحُمْرُ بَوْلَعُوا بِالنَّارِ)) .

هَذَا الْاِعْجَابُ الشَّدِيدُ بِالْغَرْبِ تَرَامُنٌ مَعَ اِحْتِقَارٍ شَدِيدٍ لِلشَّرْقِ (لِلذَّاتِ) يَذْكُرُ بَرْدَ فِعْلِ بْنِ غَوْرِيُونِ عِنْدَمَا نَزَلَ مِنَ الْبَاخِرَةِ الَّتِي اَقْلَتْهُ اِلَى مِيْنَاءِ يَافَا حَيْثُ اَعْرَبَ عَنْ اَشْمُرَازِهِ مِنَ الْوَضْعِ هُنَاكَ . يَبْدُو اَنَّ الْعُلَمَائِيَّيْنَ الْجُدُدِ اتَّخَذُوا الْمَوْقِفَ السَّلْبِيَّ مِنَ الْاِسْلَامِ لَيْسَ بِصِفَتِهِ دِينًا (فَهُمْ لَمْ يَتَّخِذُوا مِثْلَ هَذَا الْمَوْقِفِ تَجَاهَ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ) بَلْ لِرَبْطَاطِهِ بِالشَّرْقِ كَدِينٍ وَكثَّقَاةٍ وَقِيَمٍ .

وَفِي السِّيَاقِ نَفْسِهِ، سَخَفَ بَعْضُ الْعُلَمَائِيَّيْنَ الْجُدُدِ التَّضَالَ الْفِلِسْطِينِيَّ، فَالْفِلَسْطِينِيُّونَ «بَاغَوْا اَرْضِيهِمْ وَالْجَمَاعَةَ اَشْرَوْا» كَمَا قَالَ سَيِّدُ قُمْنِي . وَقَالَ اَيْضًا اَنَّ الْفِلِسْطِينِيَّيْنَ مَا تَصَارَعُوا مِنْ اَجْلِ اَرْضٍ وَاِنَّمَا مِنْ اَجْلِ جَامِعٍ . كَمَا وَصَفَ سَيِّدُ قُمْنِي «الرَّبِيعُ الْعَرَبِيَّ» بِالطَّرِيقَةِ نَفْسَهَا عِنْدَمَا قَالَ: «كُلُّ يَدَافِعُ عَنْ جَامِعِهِ» .

الْعُلَمَائِيُّونَ الْجَدُّدُ هُمْ الصُّورَةُ الْمُقَابِلَةُ لِلْأُصُولِيَّةِ الدِّيْنِيَّةِ . هُمْ شُمُؤْلِيُّونَ مُسْتَبِدُّونَ بِحُجَّةِ رَفْضِ التَّخَلْفِ ،
وَهُمْ غَيْرُ وَطَنِيِّينَ بِذَرِيعَةِ «تَخَلْفِ» الْوَطَنِيِّينَ . قَدَمُوا ، بَعِلِمِ أَوْ بَعَيْرِ عِلْمِ ، خِدْمَاتٍ مَجَانِيَّةٍ لِلرَّوَايَةِ
الصَّهْيَوِيَّةِ وَوَقَفُوا بِكُلِّ «فَحَرَ» إِلَى جَانِبِ التَّطْبِيعِ مَعَ إِسْرَائِيلَ .

أَمَّا إِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْعِلْمَانِي الْعَرَبِيِّ مِنْ حَيْثُ الْمَوَاصِفَاتِ فَتَجِدُ بِنَيْتِهِ الْفِكْرِيَّةِ هَشَّةً وَعِلْمَانِيَّتِهِ سَطْحِيَّةً
مَمْرُوجَةً بِالتَّخَلْفِ وَالتَّعَصُّبِ لِلرَّأْيِ وَرَفْضِ الْآخِرِ وَالْإِسَاءَةِ لِلْأَذْيَانِ وَمُقَدَّسَاتِهَا لِذَلِكَ فَمَجْتَمَعَاتِنَا الْعَرَبِيَّةُ
أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ غَيْرِ مُؤَهَّلَةٍ بَعْدَ لِقَبُولِ هَذَا التَّنَوُّعِ وَالْإِخْتِلَافِ ، إِمَّا الدِّيْنُ لِلَّهِ وَالْوَطَنُ لِلْجَمِيعِ فَيَنْقَى مُجَرَّدُ
شِعَارًا لَا أَسَاسَ لَهُ مِنَ الْوَاقِعِ رَغْمَ حَاجَةِ الْعَدِيدِ مِنَ الْمَجْتَمَعَاتِ إِلَى عِلْمَانِيَّةٍ مُعْتَدَلَةٍ فِي إِطَارِ تَعَدُّدِ
الْإِتْمَاعَاتِ الدِّيْنِيَّةِ وَالْمَذْهَبِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ وَالْعَشَائِرِيَّةِ وَالْحَزْبِيَّةِ ، وَلَا ضَمَانَ تَوَازُنِ هَذِهِ الْمَكُونَاتِ إِلَّا عَنِ
طَرِيقِ مُمَارَسَةِ الدَّوْلَةِ الْحِيَادِ بَيْنَ كُلِّ الطَّوَائِفِ وَحَالِ الْعِرَاقِ وَسُورِيَا وَالْيَمَنِ الْيَوْمَ أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى الْفَوْضَى
الَّتِي أَحْدَثَتْهَا الطَّائِفِيَّةُ وَالْإِسْتِغْلَالُ الْغَيْرُ عَقْلَانِيًّا لِلدِّيْنِ .

إِنَّ فَصَلَ الدِّيْنِ عَنِ الدَّوْلَةِ لَا يَعْنِي بِنَاتًا الْعَايَةَ عَنِ الْمَجْتَمَعِ وَعَنِ إِدَارَةِ الدَّوْلِ أَوْ التَّقْلِيلُ مِنْ دَوْرِهِ كَمَا
يَدْعُو الْعِلْمَائِيُّونَ الْعَرَبُ بَلْ يَجِبُ عَدَمُ اسْتِغْلَالِهِ لِلْإِخْتِبَاءِ خَلْفَ الْقُدَارَةِ وَسُوءِ التَّسْيِيرِ وَالْفَسَادِ لِأَنَّهُ جُزْءٌ
لَا يُمْكِنُ فَضْلُهُ مِنْ مَنْظُومَةِ الْفِيْمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّةِ لِأَنَّ الْفِيْمَ الْإِنْسَانِيَّةَ الَّتِي تَحْمِلُهَا الْأَذْيَانُ تُشَكِلُ مِحْوَرًا
أَسَاسِيًّا لِلْعَيْشِ الْمَشْرُوكِ بَيْنَ كُلِّ قِيَّاتِ الْمَجْتَمَعِ أَنْ صَحَّ تَوْطِيفُهَا . فَفَصَلَ الدِّيْنِ عَنِ الْمَجْتَمَعِ غَيْرُ مُمَكِنٍ
وَالْإِنْسَانُ بِوَصْفِهِ الْوَحْدَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ الْأُولَى هُوَ الَّذِي يُحَدِّدُ عِلَاقَتَهُ مَعَ رَبِّهِ وَدِيْنِهِ بِكُلِّ حُرِّيَّةٍ وَلَا يُمْكِنُ
لِأَحَدٍ كَيْفَ مَا كَانَ ائْتِمَانُهُ أَنْ يُطْلَبَ مِنْهُ التَّنَكُّرُ لِدِيْنِهِ وَعَقَائِدِهِ وَالدَّوْلَةَ تَبْقَى مُلْتَزِمَةً بِحِمَايَةِ هَذِهِ الْحُقُوقِ
وَذَلِكَ بِوَصْفِهَا أَدَاهُ لِلضَّبْطِ .

لِتَصِلَ إِلَى مَرَحَلَةٍ يُمَكِّنُ فِيهَا لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ عِلْمَانِيًّا أَوْ عَلَى الْأَقْلَ لَا يَرَى الْعِلْمَانِيَّةَ خُصْمًا كَمَا يُمَكِّنُ
لِلْعِلْمَانِيِّ إِنْ يَكُونُ مُؤْمِنًا إِذَا وَضَحَ الْمَفْهُومَ وَزَالَ الْعُمُوزُ . هَذَا لَيْسَ لُغْزًا لَا نَسْتَطِيعُ حَلَّهُ لَكِنْ اِخْتَلَطَتْ
فَقَطُّ الْمَفَاهِيمَ وَكَثُرَ الْمَفْسُرُونَ وَالْغُرُضُ مِنْ هَذَا كُلُّهُ بِالذَّرَجَةِ الْأُولَى هُوَ الْوُقُوفُ عَلَى تَنَاقُضَاتِ الْخِطَابِ
الْعِلْمَانِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمُرْدُوحِ بَيْنَ وِلِيدِ شَرْعِيٍّ نَاعٍ مِنْ رَحِمِ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَبَيْنَ تَابِعٍ وَمُقَلِّدٍ لِأُصُولِهِ الْعَرَبِيَّةِ مِمَّا
جَعَلَهُ خِطَابًا مُنْحَرِفًا مُنْذُ الْبِدَايَةِ عَلَى أُصُولِهِ وَحَتَّى أَنْ الْبَعْضُ فَسَّرَهُ بِالْخِطَابِ الْمُرَيْفِ لِأَنَّهُ يُعْبَرُ عَنْ
حَاجَاتِ بَمَضَامِينٍ غَيْرِ مُتطَابِقَةٍ مَعَ تِلْكَ الْحَاجَاتِ .

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ تَبَقِيَ هَذِهِ الْأَشْكَالَاتِ مَفْتُوحَةً لِلرَّاعِبِينَ فِي الْإِجَابَةِ عَنْهَا مِنْ دُعَاةِ الْعِلْمَانِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ
أَجْلِ رَفْعِ الْإِلْتِبَاسِ عَنْ خِطَابِهِمْ خَاصَّةً ذَلِكَ الَّذِي يَرْتَدِي زِيَّ الْأَذْيَانِ لِكَيْلًا يَبْقَى الْعِلْمَانِيُّ الْعَرَبِيُّ مُجَرَّدٌ
لِقَيْطِ يَبْحَثُ عَنْ ذَاتِهِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا لِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ أَبَدًا لِلْمِثَالِيَّةِ لِأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ رَحِمِ عَقِيمٍ مُنْذُ
بِدَايَةِ ظُهُورِهِ كَمُصْطَلِحٍ لِأَنَّ الْعِلْمَانِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ تَرْتَفِضُ سَلْطَةَ رِجَالِ الدِّينِ وَلَيْسَ الدِّينُ بِأَكْمَلِهِ .

أَنَّهُ مِنَ الْجَهْلِ الْأَعْمَى أَنْ نَفْتَحِرَ وَنَسْمُوَ بِمَفْهُومٍ لَمْ نَفْهَمْهُ بَعْدَ وَنَجْعَلُ مِنْهُ تَمُودَجًا وَحِلْمًا نُبَاضِلُ مِنْ أَجْلِهِ
دُونَ وَعِيٍّ بِأُصُولِهِ وَتَبْعِيَاتِهِ لِكَيْ لَا يَتَحَوَّلَ إِلَى غِطَاءٍ تَبْرِيرِيٍّ يَسْتَحْدِمُ فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْحَالَاتِ لِلتَّغْطِيَةِ
عَلَى قِيمِ الدِّكَاتُورِيَّةِ وَالتَّمْيِيزِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ فَلَيْسَ الْمَطْلُوبُ أَنْ تَبْحَثُ فِي الْعِلْمَانِيَّةِ مِنْ مَوْطِنِهَا
بَلْ إِنْ تَبْحَثُ تَطْبِيقَهَا الْعَرَبِيِّ وَنَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّهَا جَاءَتْ ثَمَرَةَ الصَّرَاحِ بَيْنَ الثَّوْرَةِ وَالْكَيْسَةِ كَمَا وَسَّسَهُ سِيَاسِيَّةً
دِينِيَّةً تَتَدَخَّلُ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ وَبَيْنَ الْعِلْمَانِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي جُعِلَتْ فِيهِ غَالِبًا مَعْرُولَةٌ عَنِ الْمَجْتَمَعِ مِنْهَا
صِرَاعًا ضِدَّ الدِّينِ وَاحْتَارَتْهَا كَدِينٌ جَدِيدٌ لِفِيهِ اجْتِمَاعِيَّةٌ جَدِيدَةٌ .

تَمَّ بِعَوْنِهِ تَعَالَى

